المسيرة الإسلامية

جيل الخلافة الراشدة

المجلد الثاني

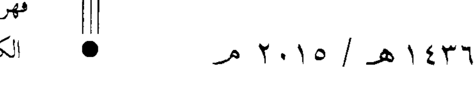
عمر بن الخطاب رضي الله عنه

• اليرموك والقادسية : المعركتان اللتان غيرتا وجه التاريخ

تأليف
د. منير محمد الغضبان

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى



١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م

الغضبان ، منير محمد .
المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة / تأليف منير محمد الغضبان . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٤م .
مج ٢ ؛ ٢٤ سم .
المحتويات ، ج ٢ عمر بن الخطاب . اليرموك والقادسية المعركتان اللتان غيرتا وجه التاريخ .
٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٧ ٢٠٩ ٧
١ - الخلفاء الراشدون . ٢ - الصحابة والتابعون .
٣ - التاريخ الإسلامي.
٤ - عمر بن الخطاب، عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي، ٥٨٤ - ٦٤٤.
ب - العنوان . ٩٥٣,٠٢٣

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

ISBN: 978-977-717-209-7

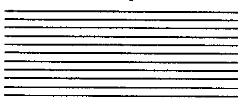


9 789777 172097

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر



جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد للَّه رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد. فهذا هو الجزء الثاني من سلسلة: المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة. نستعرض به أهم صفحات التاريخ، وهي: المعركتان الفاصلتان اللتان غيرتا وجه التاريخ، واستلم مقوده دعاة الهدى في الأرض.

فاليرموك كانت المعركة الحاسمة مع إمبراطورية الروم، فتحت أمام المسلمين بلاد الشام كلها وأرض مصر وبرقة.

والقادسية كانت المعركة الفاصلة مع إمبراطورية الفرس، فتحت أمام المسلمين المدائن عاصمة الإمبراطورية، وانتهت بفتح الإمبراطورية كلها فيما بعد.

وتم هذا كله في عهد عبقري الأمة عمر بن الخطاب ﷺ كما سماه رسول اللَّه ﷺ: « **فلم أرَ عبقريًّا يفري فريه حتى ضرب الناس بعطن** »[1].

ونستطيع أن نشهد من خلال هذا العرض أمة كاملة تتحرك برجالها ونسائها وأطفالها لتشارك في المعركة. وعلى رأس هذه الأمة أشرافها وشعراؤها وأبطالها. فقد برزت العبقرية العربية التي أضيئت بنور الإسلام، وانطلقت من قيمه، وكأننا نلمسها لمس اليد.

فهذا الدين وانتصاراته إنما تم بيد الأمة كلها، وليست بيد فرد واحد، لكن قدَّر اللَّه تعالى لها قيادات استثنائية تاريخية، استوعبت كل الطاقات المختزنة، وأشعلتها إلى أبعد حدود التفجير المبدع، بعد أن كانت مبعثرة في الصحراء العربية تبرز طاقاتها في ذبح العرب بعضهم بعضًا، وكان شخص رسول اللَّه ﷺ ماثلًا في كل عين، حيًّا في كل قلب، وكان اللَّه تعالى معهم في كل خطوة وفي كل نأمة، يعيشون معه، ويشهدون حمايته وعونه؛ قد انبثقوا من القرآن الكريم الذي ملأ عليهم وجودهم وكيانهم،

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٣٤)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل عمر ﷺ (٢٣٩٢).

واستطاع هذا الدين أن يفجر طاقات العرب غير المؤمنين به والذين هم نصارى، فيتقدم أبطالهم وعظماؤهم ليفْدُوا هذه الأمة بكل ما يملكون.

ونشهد مع حركة هذا الجيل كيف تمثلت القيم واقعًا حيًّا في الأرض للأعداء والأصدقاء على السواء. وها أنذا أترك الحديث عن الكتاب لينطق الكتاب نفسه، ويكون الجيل الرائد دينًا وقرآنًا يمشي على الأرض، واللَّهَ أسألُ القبول، والمغفرة من العثرات والزلات، والحمد للَّه رب العالمين.

* * *
* *
*

الفصل الأول

خليفة جديد وسياسات عامة

خطاب الخليفة والبيان الرسمي:

لقد كان البيان بغاية الاختصار:

(قال أبو جعفر: قد تقدم ذكرنا وقت عقد أبي بكر لعمر بن الخطاب الخلافة، ووقت وفاة أبي بكر، وأن عمر صلى عليه، وأنه دفن ليلة وفاته قبل أن يصبح الناس، فأصبح عمر صبيحة تلك الليلة. فكان أول ما عمل... عن جامع بن شداد عن أبيه قال:

لما استخلف عمر صعد المنبر، فقال: إني قائل كلمات فأمنوا عليهن، فكان أول منطق نطق به حين استخلف، عن حصين المري، قال: قال عمر:

إنما مثل العرب مثل جمل آنِف اتبع قائده، فلينظر قائده حين يقود. وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق) [١].

وترد روايات أخرى لغير شيخ المؤرخين الطبري رحمه الله عما قاله لِشَعْبه في أول حديث له بعد خلافته (فعن الحسن البصري قال: إن أول خطبة خطبها عمر رحمه الله حمد اللّه وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد فقد ابتليت بكم وابتليتم بي، وخُلِّفت فيكم بعد صاحبَيَّ، فما كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا، وما غاب عنا وليناه أهل القوة والأمانة، فمن أحسن جزيناه حسنًا، ومن أساء عاقبناه، ويغفر اللّه لنا ولكم) [٢].

وفي رواية (عن جامع بن شداد عن أبيه قال:

كان أول كلام تكلم به عمر حين صعد المنبر: اللهم إني شديد فليِّنِّي. وإني ضعيف فقوِّني، وإني بخيل فسَخِّني) [٣].

---

(١) الطبري (٣٥٥/٢).

(٢) مجمل أنساب الأشراف للبلاذري (٣٠٦/١٠). (٣) المصدر نفسه (٣٠٦/١٠، ٣٠٧).

وفي رواية (عن حميد بن هلال قال: حدثنا من شهد وفاة أبي بكر: فلما فرغ عمر من دفنه، نفض يده من تراب قبره، ثم قام خطيبًا مكانه فقال: إن اللَّه ابتلاكم بي، وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحِبَيَّ، فواللَّه لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يغيب عني فآلو عن اختيار أهل القوة والأمانة له، فلئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساؤوا لأنكلن بهم. قال الرجل: فواللَّه ما زاد ذلك حتى فارق الدنيا) [١].

الخطوط العريضة لسياسة الخليفة الجديد:

أولًا: الخلافة ابتلاء وامتحان، وليست تشريفًا وتعظيمًا.

(فقد ابتليت بكم وابتليتم بي..).

ثانيًا: الخلافة مسؤولية وأمانة، وليست منصبًا وشهرة.

(فما كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا، وما غاب عنا وليناه أهل القوة والأمانة).

ثالثًا: الإحسان للمحسنين والعقوبة للمسيئين:

(فلئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساؤوا لأنكلن بهم).

رابعًا: الخلافة قوة بلين، وعطاء بسخاء.

(اللهم إني شديد فليِّنّي، وإني ضعيف فقوِّني، وإني بخيل فسَخِنِي).

خامسًا: الخلافة للأكثر كفاءة والأكثر إخلاصًا.

(وليعلم من ولي هذا الأمر من بعدي أن سيُريدُه القريب والبعيد عليه، وإني لأقاتلن الناس عن نفسي قتالًا، ولو علمت أن أحدًا من الناس أقوى عليه مني، لكان أن أقدم فتضرب عنقي أحب إليَّ من أن أليه وأتقدمه) [٢].

سادسًا: الخلافة حمل للأمة على منهج اللَّه، وتطبيق لشريعة اللَّه.

(وإنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقود، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق).

سابعًا: حق الخليفة في مال الأمة.

---

(١) مجمل أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٣٠٦، ٣٠٧).

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٤٣٩١).

أ - حُلّة الشتاء.

ب - حُلة القيظ.

جـ - ما أحُج عليه وأعتمر من الظَّهر.

د - وقوتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم وليس بأفقرهم.

هـ - الغرم بالغنم: (ثم أنا بعد ذلك من المسلمين يصيبني ما أصابهم).

(فعن الأحنف بن قيس قال: كنا جلوسًا بباب عمر، فمرت جارية، فقالوا: سُرِّية أمير المؤمنين، فقالت: ما أنا لأمير المؤمنين بسرية، وما أحل له، إني لمن مال اللّه. فقلنا: فماذا يحل له من مال اللَّه؟ فما هو إلا قدر أن بلغت حتى جاء الرسول فدعانا، فأتيناه، فقال: ماذا قلتم؟ قلنا: لم نقل بأسًا، مرت بنا جارية، فقلنا هذه سُرِّية أمير المؤمنين؟ فقالت ما هي لأمير المؤمنين بسرية وما تحل له؛ إنها من مال اللَّه، فقلنا: فماذا يحل له من مال اللَّه؟ فقال: أنا أخبركم، يحل لي حُلَّتان، حُلة الشتاء، وحُلة القيظ، وما أحج عليه وأعتمر من الظهر، وقوتي وقوتُ أهلي كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا أفقرهم، ثم أنا بعد ذلك من المسلمين يصيبني ما أصابهم) [١].

ثامنًا: التعامل على الظاهر مع الشعب دون رقابة المخابرات:

(وحدثنا ابن شهاب الحناط عن الحريري عن رجل قال: خطبنا عمر بن الخطاب ﷺ فقال: إنه قد انقطع الوحي بعد رسول اللَّه ﷺ. وإنما أعرفكم بما تُظهرون. فمن أظهر خيرًا ظننَّا به خيرًا، ومن أظهر شرًّا ظننَّا به شرًّا. فأحبَبْنا ذلك، وأبغضنا هذا...) [٢].

تاسعًا: دعوة الأمة إلى اهتمامها برقابة اللَّه لها:

(... وقد أتى عليَّ زمان، وأنا أرى أنه لا يقرأ القرآن أحد إلا للَّه. وقد خُيِّل إليَّ أن قومًا يقرؤون القرآن ليس يريدون به ما عند اللَّه، إنما يريدون به ما عند الناس، فأَريدوا اللَّه بعملكم...) [٣].

عاشرًا: وظيفة الدولة تعليم الدين لا أخذ الأموال وضرب الأجساد:

(... واعلموا أني لست أبعث عُمّالي عليكم ليضربوا أجسادكم، ولا يأخذوا أموالكم. ولكن ليعلموكم دينكم..) [٤].

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٤٣٩١).

(٢ - ٤) الخطاب الكامل لأمير المؤمنين عمر ﷺ، أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٤٣٩١، ٤٣٩٢).

حادي عشر: القصاص من الولاة والحكام، فالشعب هو المخابرات على السلطة:

(... فمن فعل غير ذلك فارفعوا إليَّ أمره، فواللَّه لأُقُصَّنَّ منه...) [(١)].

ثاني عشر: القصاص من الحاكم إذا تجاوز التأديب للعدوان:

(... فقال له عمرو بن العاص: وإن كان الرجل يؤدب رعيته؟

قال: نعم. إذا تعدى؛ فقد رأيت رسول اللَّه ﷺ يقُصُّ من نفسه...) [(٢)].

ثالث عشر: ضرب الحاكم للمحكوم إذلال له:

(... لا تضربوا المسلمين فتُذلوهم...) [(٣)].

رابع عشر: تأخير الجنود من التسريح أكثر من ستة أشهر فتنة لهم:

(... ولا تجمروهم (تؤخروهم) فتفتنوهم...) [(٤)].

خامس عشر: منع الشعب حقوقه بمثابة إجباره على الكفر:

(... ولا تمنعوهم حقوقهم فتُكَفِّرُوهُمْ...) [(٥)].

سادس عشر: إشغال الشعب بالزراعة عن الجهاد ضياع للأمة:

(... ولا تُنزلوهم الغِيَاض فتضيعوهم...) [(٦)].

هذه هي الخطوط العريضة للسياسة الراشدة للفاروق، ونَدعو قادة الأمم والشعوب لتطبيقها والتعرف عليها، خاصة وأنها نفذت في تاريخ هذه الأمة بحذافيرها.

* * *
* *
*

(١ - ٦) الخطاب الكامل لأمير المؤمنين عمر ﷺ، أنساب الأشراف للبلاذري (٤٣٩١/١٠، ٤٣٩٢).

الفصل الثاني

عودة إلى اليرموك من جديد

ولا بد من هذه العودة، فاليرموك ليست معركة عابرة، إنما هي معركة فاصلة غيَّرت مجرى التاريخ في الشام ابتداءً وفي العالم انتهاءً.

أولاً: نعم، كان لعظمة القيادة الدور الكبير في التخطيط والتنظيم. لكن الدور الأكبر منه هو دور القاعدة الصلبة في التنفيذ، والثبات حين البأس:

لقد شنَّ الرومان الهجوم مرتين، وهزموا مواقع القيادة وأزاحوا المسلمين عن مواقعهم، غير أن التضحيات الفدائية والدعوة إلى الثبات صدّت هذا الهجوم مرتين، ثم أعقبته بالزحف العام على العدو.

لقد قتل في اليرموك ثلاثة آلاف شهيد، مقابل مائة وثمانين ألفًا من العدو.

والأسماء التي ذكرت من هذه الآلاف هي كما يقول الطبري في روايته عن السري عن شعيب عن سيف (وكان ممن أصيب من الثلاثة آلاف الذين أصيبوا يوم اليرموك:

١ - عكرمة.

٢ - وعمرو بن عكرمة.

٣ - وسلمة بن هشام.

٤ - وعمرو بن سعيد.

٥ - وأبان بن سعيد.

٦ - وأُثبِتَ خالد بن سعيد، فلا يُدرى أين مات بعدُ.

٧ - وجندب بن عمرو بن حممة الدوسي.

٨ - والطفيل بن عمرو.

٩ - وضرار بن الأزور أُثبِتَ فبقي.

١٠ - وطليب بن عمير بن وهب من بني عبد بن قصي.

١١ - وهبار بن سفيان.

١٢ - وهشام بن العاص) [١].

وحين نرى توزيع هذه الرموز الكبرى في الأمة. نوزعها على الخارطة التالية:

أن ثمانية من هؤلاء العشرة هم من قريش، واثنان من دوس؛ حيث أغفلنا ضرار ابن الأزور وخالد بن سعيد لأنهما استشهدا في معارك لاحقة بعد إصابتهما الخطيرة في اليرموك.

ولنقف مليًّا مع هؤلاء الشهداء.

١، ٢ - عكرمة وابنه عمرو.

- الصفحة الأولى:

وعكرمة ليس غفلًا في التاريخ. إذ قال لخالد عندما دعاه إلى الإسلام: لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبدًا.

وقد ذاد عن الشرك حتى آخر لحظة من سقوط مكة بيد المسلمين.

إنَّكِ لوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَه ... إذْ فَرّ صَفْوَانُ وفَرَّ عِكْرِمَه

وأبـو يَـزَيْـدَ قَـائِـمٌ كـالمُوتَمَـه ... وقَطَّعَتْنَا بـالسِّيوفِ المسْلِمَه

وَفَرَّ بدينه إلى اليمن ليعيش بائسًا يائسًا هناك، ولا يدخل تحت حكم محمد - عليه الصلاة والسلام - ثم عاد ليقف بين يدي محمد قائلًا: فإلام تدعو يا محمد؟

قال: « **أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأني رسول اللّه، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتفعل وتفعل** »، حتى عدد خصال الإسلام. قال عكرمة:

واللّه ما دعوتَ إلا إلى خير، وأمر حسن جميل، لقد كنت فينا يا رسول اللّه قبل أن تدعونا إلى ما دعوتنا إليه، وأنت أصدقنا حديثًا، وأبرنا برًّا، ثم قال عكرمة:

أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا عبده ورسوله [٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٣٩).

(٢) المغازي للواقدي (٥/٨٥١).

- الصفحة الثانية:

فقد رشحه الصدِّيق ﷺ لأكبر قيادة ضد أعدى العدو، رشحه لحرب مسيلمة الكذاب في اليمامة.

(... عن القاسم بن محمد قال: لما أراح أسامة وجنده ظهرهم وجمُّوا، وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم، قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية. فعقد أحد عشر لواءً؛ عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد. فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له. ولعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة، وللمهاجر ابن أبي أمية وأمره بجنود العنسي...) [١].

فقد كان عكرمة ﷺ القائد الثاني بضخامة المهمة بعد خالد بن الوليد، ولم يكتف الصديق ﷺ بذلك، بل رسم له خطة التنفيذ، حيث أشرك معه شرحبيل بن حسنة.

(... وبعث شرحبيل بن حسنة في إثر عكرمة بن أبي جهل، وقال:

إذا فرغ من اليمامة فالحق بقضاعة وأنت على خيلك تقاتل أهل الردة) [٢].

غير أن عكرمة ﷺ أخل بالأوامر ولم ينتظر شرحبيل.

(... عن القاسم بن محمد قال: كان أبو بكر حين بعث عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة، وأتبعه شرحبيل، عجَّل عكرمة؛ فبادر شرحبيلَ [٣] ليذهب بصوتها.

فواقعهم فنكبوه، وأقام شرحبيل بالطريق حيث أدركه الخبر، وكتب عكرمة إلى أبي بكر بالذي كان من أمره. فكتب إليه أبو بكر:

يا ابن أم عكرمة، لا أرينك، ولا تراني على حالها، لا ترجع فتوهن الناس، وامض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عمان ومهرة، وإن شغلا فامض أنت، ثم تسير ويسير جندك، تستبرئون من مررتم به حتى تلتقوا أنتم والمهاجر ابن أبي أمية باليمن وحضرموت) [٤].

لقد دفع عكرمة ﷺ ثمنًا غاليًا جدًّا لهذه المخالفة، أن هجم على مسيلمة قبل

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٢/٢٥٧).

(٣) بادر شرحبيلَ: هجم على مسيلمة قبل وصول شرحبيل.

(٤) تاريخ الطبري (٢/٢٧٥).

وصول شرحبيل فهُزِم. فنُزِعَ من القيادة وكُلِّفَ أن يجوب الجزيرة العربية بجيشه مسانِدًا للجيوش المقاتلة في أربعة أقطار مترامية الأطراف تمتد من وسط الجزيرة العربية إلى الساحل الشرقي فيها حيث عمان ومهرة، إلى الساحل الجنوبي فيها حيث اليمن وحضرموت، ونفذ عكرمة ﷺ تعليمات أميره الصديق كاملة. ولم يَلْقَهُ إلا بعد فتح عمان ومهرة واليمن وحضرموت بعد أن شارك في فتحها. فرضي الصديق عنه. وأمد به الجيوش الإسلامية بالشام.

- الصفحة الثالثة: في اليرموك:

(... عن أبي عثمان الغساني عن أبيه قال:

قال عكرمة بن أبي جهل يومئذ: قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن، وأفر منكم اليوم، ثم نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه الحارث بن هشام (عمه) وضرار ابن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم. فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعًا جراحًا وقتلوا إلا من بَرَأ، ومنهم ضرار بن الأزور.

قال: وأتِي خالدٌ - بعدما أصبحوا - بعكرمة جريحًا، فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه، وجعل يمسح عن وجوههما، ويقطر في حلوقهما الماء ويقول: كلا. زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد) [١].

فقد كان ثمن إيقاف هجوم جمهرة الروم على مقر القيادة العامة هو مصرع أربعمائة، وهم الفدائيون الذين استشهدوا وفي مقدمتهم قائدهم عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو وسليمان بن خالد بن الوليد، وبالجملة فقد أبيدت كتيبة الفدائيين عن آخرها ما عدا عدد قليل بينهم ضرار بن الأزور الذي أصيب بجراح ثخينة، وهم يصارعون السيل المتدفق من صناديد البيزنطيين على قلب الجيش لتحطيمه وقَتْل القائد العام) [٢]... (ثم فارق عكرمة وابنه عمرو الحياة ﵄ وهما على فخذي خالد بن الوليد) [٣].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٣٨)، وابن الحنتمة هو عمر ﷺ.

(٢) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ٢١٣).

(٣) المصدر نفسه (ص ٢١٤).

٣ - سلمة بن هشام:

وقد اختلفت الروايات في استشهاده بين اليرموك وأَجْنَادِين ومَرْجِ الصُّفَّر. ومن أجل ذلك ندع الحديث عنه إلى مَرْج الصُّفَّرِ حيث كان استشهاده فيها على الأرجح.

٤، ٥، ٦ - عمرو بن سعيد، وأبان بن سعيد، وخالد بن سعيد:

أ - خالد بن سعيد: تقول ابنته:

(كان أبي خامسًا في الإسلام. قلتُ: من تقدمه. قالت: علي بن أبي طالب، وابن أبي قحافة، وزيد بن حارثة، وسعد بن أبي وقاص... وهاجر أبي إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، وأقام بها بضع عشرة سنة، وولدت أنا بها. ثم قدم على النبي ﷺ بخيبر، فكلم رسول اللَّه ﷺ المسلمين فأسهموا لنا، ثم رجعنا مع رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة، وأقمنا بها، وشهد أبي مع رسول اللَّه ﷺ عمرة القضاء وفتح مكة وحنينًا والطائف، وتبوك، وبعثه رسول اللَّه ﷺ على صدقات اليمن. فتُوفِّي رسول اللَّه ﷺ وأبي باليمن) [١].

ب - ولما أسلم خالد بن سعيد، وصنع به أبو أحيحة (أبوه) ما صنع، فلم يرجع خالد عن دينه ولزم رسول اللَّه ﷺ حتى خرج إلى الحبشة في الهجرة الثانية، غاظ ذلك أبا أحيحة وغمه، وقال: لأعتزلن في مالي لا أسمع شتم آبائي ولا عيب آلهتي، هو أحب إليَّ من المقام مع هؤلاء الصباة. فاعتزل في ماله بالظُّرَيبة نحو الطائف، وكان ابنه عمرو بن سعيد على دينه وكان يحبه ويعجبه فقال أبو أحيحة:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي عنكَ يا عمرو سَائلًا ... إذا شَبَّ واشْتَدَّتْ يَدَاهُ وسُلِّحَا

أَتَتْرُكُ أَمْرَ القَوْمِ فِيهِ بَلَابِلُ ... تُكَشِّفُ غَيْظًا كَانَ في الصَّدْرِ مُوجَحَا

فلما خرج أبو أحيحة إلى ماله بالظَرَيْبَةِ، أسلم عمرو بن سعيد، ولحق بأخيه خالد ابن سعيد بأرض الحبشة [٢].

فإذا أمل أبي أحيحة لعمرٍو أن ينصر الآلهة، ويحارب أخاه خالدًا ينهار، وينضم عمرو إلى أخيه خالد.

---

(١) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر، ت (٦٠٦).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/١٠٠).

جـ - قال ابن حجر:

وكان أبوه هلك بمكان يقال له الظُّرَيْبَةِ، وكان أخوه خالد أسلم فقال لهما أخوهما أبان يعاتبهما وذلك قبل أن يسلم:

ألا لَيتَ مَيْتًا بالظُّرَيْبَةِ شاهِدُ — لما يَفْتَرِي في الدينِ عمرٌو وخَالدُ

أطَاعَا معًا أمرَ النِّسَاءِ فأصبحَا — يُعِينَانِ مِنْ أعْدَائِنَا مَنْ يُكَايِدُ

فقال عمرو بن خالد يجيبه:

أخي مَا أخِي لا شَاتمٌ أُنا عِرْضَهُ — ولا هو عَنْ سُوءِ المقالةِ يقصرُ

يَقُولُ إذَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ أمورُه — ألا لَيتَ مَيْتًا بالظُّرَيْبَةِ يُنْشَرُ

فَدَعْ عَنْكَ مَيْتًا قَدْ مَضَى لِسَبيلهِ — وأقْبِلْ عَلَى الحَقِّ الذِي هُو أظْهَرُ (١)

وأقبل أبان بن سعيد على الحق الأبلج بعد الحديبية. وبعد أن كان حاكم مكة حين أجار عثمان بن عفان وقال له:

أقْبِلْ وأدْبِرْ ولا تَخَفْ أحَدًا — بَنُو سَعِيدِ أعِزَّةُ الحَرَمِ

د - وتوفي رسول الله ﷺ، وبنو سعيد ولاة لرسول الله ﷺ قال خالد بن سعيد ابن عمرو بن سعيد:

أخبرني أبي أن أعمامه خالدًا وأبانًا وعَمْرًا بني سعيد بن العاص رجعوا عن عمالتهم حين مات رسول الله ﷺ. فقال أبو بكر:

ما لكم رجعتم عن عمالتكم؛ ما أحدٌ أحق بالعمل من عُمَّال رسول الله ﷺ. ارجعوا إلى أعمالكم، فقالوا: نحن بنو أبي أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله ﷺ أبدًا، ثم مضوا إلى الشام، **فقتلوا جميعًا** (٢).

٧ - وجندب بن عمرو بن حممة الدوسي:

(روى الزبير بن بكار في كتاب النسب... قال:

قدم جندب بن عمرو بن حممة الدوسي مهاجرًا، ثم مضى إلى الشام وخلَّف ابنته أمَّ أبان عند عُمَرَ، وقال: إن وجدتَ لها كفؤًا فزوجها ولو بِشِرَاكِ نعله. وإلا فأمسكها

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٣٠٠/٤/٢).

(٢) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر، ت (٦٠٦).

حتى تلحقها بدار قومها، فكانت عند عُمَرَ تدعوه أباها إلى أن زوجها عثمان فولدت له عمرو بن عثمان في عهد عمر) [١].

٨ - **والطفيل بن عمرو الدوسي:**

(... قيل استشهد باليمامة قاله ابن سعد تبعًا لابن الكلبي، وقيل: باليرموك، قاله ابن حبان، وقيل: بأجنادين، قاله موسى بن عقبة، وسيأتي في ترجمة ولده عمرو ابن الطفيل هو الذي استشهد باليرموك...) (... وذكر عبد اللَّه بن ربيعة القدامي في كتاب الفتوح أن خالد بن الوليد أرسله إلى أبي عبيدة يخبره بتوجهه إليهم، وكان يقال له: عمرو بن ذي النور.

وأخرج ابن سعد عن طريق عبد الواحد بن عون قال:

ثم رجع الطفيل بن عمرو إلى النبي ﷺ، وكان معه حتى قبض، فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين مجاهدًا، فلما فرغوا من طليحة، ثم ساروا إلى اليمامة، استشهد الطفيل بها، وخرج ابنه عمرو وقطعت يده، ثم صحّ، فبينما هو مع عمر إذ أُتِي بطعام فتنحى. فقال: ما لك؟ لعلك تتحفظ لمكان يدك؟ قال: أجل، قال: لا واللَّه لا أذوقه حتى تسوطه بيدك، ففعل ذلك، ثم خرج إلى الشام مجاهدًا، فاستشهد باليرموك) [٢].

٩ - **وطليب بن عمير:**

(أخرج الحاكم في مستدركه عن... أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: أسلم طليب في دار الأرقم ثم خرج فدخل على أمه أروى بنت عبد المطلب. فقال: تبعت محمدًا وأسلمت للَّه رب العالمين، فقالت أمه: إن أحق من وازرت ومن عاضدت ابن خالك، فواللَّه لو كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لاتبعناه ولذببنا عنه... قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري.

وحكى البلاذري أن طليبًا شج أبا لهب لما حصر المشركون المسلمين بالشعب، فأخذوا طليبًا فأوثقوه، فقام دونه أبو لهب حتى يخلصه، وشكاه إلى أمه، وهي أخت أبي لهب وقالت: خير أيامه أن ينصر محمدًا.

---

(١) الإصابة لابن عبد البر، ت (١٣٢٧).

(٢) المصدر نفسه، ت (٦٧٣٧).

قال الزبير: وطليب المذكور أول من دمَّى مشركًا في الإسلام بسبب النبي ﷺ فإنه سمع عوف بن صبرة السهمي يشتم النبي ﷺ، فأخذ له لَحْيَ جمل فضربه فشجَّه، فقيل لأروى: ألا ترين ما فعل ابنك؟ فقالت:

إن طُلَيْبًا نَصرَ ابنَ خالِهِ واسَاهُ في ذِي دمهِ ومالِهِ

وقيل إن المضروب أبو إهاب بن عمير الداري، وكانت قريش حملته على الفتك برسول اللَّه ﷺ، فلقيه طليب فضربه فشجَّه.

ذكره ابن إسحاق وموسى بن عقبة فيمن هاجر إلى الحبشة. وذكر ابن سعد أن الواقدي تفرد بذكره في أهل بدر، نعم حكى ذلك ابن منده عن موسى بن عقبة، وذكر أنه استشهد بأجنادين) [1].

١٠ - وهبار بن سفيان:

(هبار بن سفيان بن عبد الأسد بن هلال بن عبد اللَّه بن عمر بن مخزوم المخزومي ابن أخي أبي سلمة بن عبد الأسد، ذكره موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق فيمن هاجر إلى الحبشة، واستشهد بأجنادين، وقال سيف بن عمر: استشهد باليرموك) [2].

١١ - وهشام بن العاص:

(ابن وائل السهمي، تقدم نسبه في أخيه عمرو... قال ابن السكن: كان قديم الإسلام، هاجر إلى الحبشة، وأخرج ابن السكن بسند صحيح عن ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال: « اتعدت أنا وعَياش بن ربيعة وهشام بن العاص حين أردنا أن نهاجر، وأيُّنا تَخَلَّف عن الصبح، فقد حُبس فلْينطلق غيره، قال: فأصبحت أنا وعياش بن ربيعة وحبس هشام ففتن فافتتن... » الحديث.

وأخرج النسائي والحاكم عن... أبي هريرة مرفوعًا: « ابنا العاص مؤمنان، هشام وعمرو »... وقال ابن المبارك في الزهد... قال عبيد اللَّه بن عمير: مرّ عمرو بن العاص بنفرٍ من قريش، فذكروا هشامًا فقالوا: أيهما أفضل؟ فقال عمرو: شهدت أنا وهشام اليرموك، فكلنا نسأل اللَّه الشهادة فلما أصبحنا حُرِمْتُهَا ورُزِقَهَا... وذكره موسى ابن عقبة... وآخرون فيمن استشهد بأجنادين... وقال الواقدي بسنده... كان هشام رجلًا صالحًا، فرأى من بعض المسلمين بأجنادين بعض النكوص، فألقى المِغفر عن

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (٤٤٥٧).
(٢) المصدر نفسه، ت (٩٢٢٥).

وجهه، وجعل يتقدم في نحر العدو ويصيح: يا معشر المسلمين إليَّ إليَّ، أنا هشام بن العاص، أمن الجنة تفرون؟ حتى قتل.

ومن طريق خالد بن معدان: لما انهزمت الروم بأجنادين. انتهوا إلى موضع لا يعبره إلا إنسان واحد، فجعلت الروم تقاتل عليه، فقاتل هشام حتى قتل، ووقع على تلك الثلمة فسدها، فلما انتهى المسلمون إليها هابوا أن يدوسوها فقال عمرو:

أيها الناس إن اللَّه قد استشهده ورفع روحه، إنما هي جثة، ثم أوطأه وتبعه الناس حتى تقطع، ثم جمعه عمرو بعد ذلك، وحمله في نطع فواراه) [١].

إنهم العشرة المبشرون الشهداء إن شاء اللَّه، فجلهم من الرعيل الأول من المهاجرين، ومن خريجي دار الأرقم، آن أوان أن يقدموا ثمن نصر هذا الدين بدمائهم، فلم يبخلوا بها، بعد أن أمضوا ثلاثة عشر عامًا، يؤمرون بكف اليد عن القتال.

نذكر هؤلاء العشرة، ثم نذكر الأربعمائة الفدائيين الذين ساهموا في تغيير مسار المعركة، ثم نذكر الثلاثة آلاف من الشهداء، وهو أكبر رقم قدمه المسلمون من الشهداء في معركة من المعارك، ففي اليمامة كان الشهداء ألفين ومئتين، وها هو في اليرموك يرتفع إلى ثلاثة آلاف مقابل مائة وثمانين ألفًا من المشركين سقطوا صرعى في المعركة، وثمن إنهاء أكبر جيوش الإمبراطورية البيزنطية في الشرق.

ألف من الصحابة:

(وجاء في أمهات كتب التاريخ أن جيش الإسلام في اليرموك يضم ألفًا من الصحابة، فهم خير الناس وصفوة الأمة بعد نبيهم، وكان القادة سعداء بوجودهم ضمن الجيش وكيف لا يفرحون بوجودهم، وهم عاصروا ورأوا وجالسوا سيد البرية محمدًا ﷺ، وتلقوا آداب الإسلام، وتعاليمه، وفنون الحرب من فمه الشريف الذي لا ينطق عن الهوى، وزاد من عزة جيش الإسلام وارتفاع معنوياته أن فيه مائة ممن حضروا معركة بدر الكبرى... المعركة التي دخل المسلمون عن طريق انتصارهم فيها التاريخ من أوسع أبوابه، وبانتصارهم فيها رسخت جذور الإسلام، وانخلعت جذور الشرك في جزيرة العرب) [٢].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٩٢٩٠).

(٢) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ١٩٦).

فهي التي أنهت أبا جهل من صفحة التاريخ وجاءت بعكرمة بن أبي جهل وأنهت أميةَ بن خلف وجاءت بابنه صفوان بن أمية.

وأنهت سعيد بن العاص وجاءت بأبنائه (خالد) و (عمرو) و (أبان) ليكونوا شهداء في اليرموك.

وأنهت أبا جهل بن هشام وجاءت بأخويه سلمة بن هشام والحارث بن هشام ولا ندري إن كان الفتح بهؤلاء الألف ﷺ كما في الحديث الصحيح:

فعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: « **يأتي على الناس زمان يغزو فئام من الناس، فيقال لهم: فيكم من رأى رسول اللّه ﷺ؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى من صحب رسول اللّه ﷺ؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب من صحب رسول اللّه ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم** »[1].

لقد كانت القيادات كلها من الصحابة، وشهدنا أمراء الكراديس جميعًا أنهم من الصحابة. فهذا هو الجيل الذي يقود المسيرة ليفتح الأرض بهذا الدين، وهم الذين تربوا في روض النبوة، وتغذوا من مائدتها، وهم الذين يوجهون المسيرة، ويحققون موعود اللّه في الأرض، وهم ثمرة المنهج التربوي للسيرة النبوية. انطلقوا في الأرض ليحولوا المبادئ إلى واقع، ويترجموا الأفكار إلى سلوك. ويكونوا هم وراث الحضارة الإنسانية.

ثانيًا: فرية القوميين النصارى:

وهم الذين أكل الحقد قلوبهم فلم يطيقوا أن يسمعوا بالإسلام ودوره في تكوين هذه الأمة وإحيائها، فراحوا يعيدون هذه الانتصارات الكبرى للعرب النصارى الذين آزروا المسلمين العرب. وانطلقوا من قوميتهم العربية ضد الروم المحتلين.

ونَدَعُ للدكتور شكري فيصل رحمه الله أن يُفنِّد هذا الادعاء في كتابه: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول:

(إن كثرة كثيرة من المؤرخين ترى أن انتشار العرب في هذه المنطقة على حدودها

---

(١) مسلم، ح (٥٣٢، ٢٠٨٠).

أو في أطراف مدنها، كبصرى ودمشق، أو في مناطق كبرى كالجزيرة كانت من أكبر العوامل التي مهدت للفتح العربي طريقه. وأعانت عليه، دون أن يشير إلى أثرها في سرعة الاستجابة وتحقيق الغلبة حتى ليرى بعضهم **أن الفتح كان حركة قومية، وأن الفوز للقومية العربية لا للدين الإسلامي**) [١].

والواقع أنا لا نستطيع أن نطلق القول في ذلك منكرين له أو مؤمنين به إلا أن يتاح لنا أن نتبع موقف عرب الشام من الحركة الإسلامية، ومن جيوش التحرير، وسنجهد أن نجعل ذلك في نطاق من التسلسل التاريخي حتى تكون الأمور أكثر استبانة وأشد وضوحًا.

وأول الحوادث التي تطالعنا على هذا النحو أن النبي ﷺ أرسل رسوله إلى قائد قلعة بصرى (العربي) يدعوه إلى الإسلام، ويبصره بهذه الحركة التي قامت في قلب بلاد العرب، ولكن الرسول يُقْتَل... وللرسل منذ عرف تاريخ العلائق الإنسانية حرمتهم وأمنهم في أشد حالات الغضب وأقسى ألوان العداوة، وما من شك في أن مقتل هذا الرسول في بلاد تقيم لمثل هذه التقاليد حرمتها يهب المطالع للمرة الأولى انطباعًا سيئًا عن تلقي عرب الشام للحركة الإسلامية.

وفي مؤتة في العام الثامن للهجرة (أيلول / سبتمبر) (٦٣٩م) تلقى سرية زيد ابن حارثة أشد الأهوال وتلقَفُ الرماح زيدًا من كل نحو، ويُقتل جعفر ابن عمه، ويموت [٢] بعده عبد اللّٰه بن رواحة، ويستشهد من يستشهد ممن لم تُحفظ لنا أسماؤهم ولا أعدادُهم. وأغلب الظن أن الروم لم يكونوا هم الذين يحاربون، بل كان العرب كذلك يحاربون العرب ويقتلونهم [٣].

وفي عام الوفود في العام التاسع للهجرة بعد أن فتح اللّٰه على المسلمين مكة، ومكن لهم من البيت وهو مثابة العرب وأملهم وموطن حرماتهم كانت تنطلق وفود القبائل

---

(١) تاريخ العرب (ص ١٩٧) للدكتور فيليب حتي، وهو كاتب صليبي حاقد من أكبر دعاة القومية العربية في القرن العشرين الذين ينادون بالقومية العلمانية.

(٢) نستغرب استعمال كلمة (يموت) مع عبد اللّٰه بن رواحة مع أنه أحد القادة الثلاثة الذين استشهدوا بالمعركة.

(٣) وبلغ الناس أن هرقل قد نزل مؤاب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من لخم وجذام وقبائل قضاعة من بلقين وبهراء، وبلي عليهم رجل من بلي اسمه مالك بن رافلة فنصف الجيش من العرب. سبل الهدى والرشاد للمصالحي (٩٣/١).

من كل صوب تتجه إلى النبي ﷺ تمد يدها تبايعه على الإسلام، وتنضوي في نظامه الجديد، وفي هذا الحين لم نتبين فيما بين أيدينا من روايات المؤرخين صدًى لذلك كله بين عرب الشام أو عرب العراق، لم نجد لا هجرة أفراد ولا وفد قبائل، ولو كان شيء من التجاوب بين هؤلاء العرب (النصارى). والحركة الإسلامية لدلت عليه حادثات أو أنباء من طرف بعيد أو قريب.

وتكون غزوة تبوك في العام التاسع الهجري كذلك، ويُقبل على النبي ﷺ صاحب (أيلة) وكانت ضمن الأراضي الحجازية، يوحنة بن رؤبة، فيصالح الرسول، ويكتب له عهودهم، ويكون الرسول قد قارب مشارف الشام، ولكن عرب الشام لا يستيقظون لدعائه، ولا يستجيبون لدعاته، ولا يبادرون لنصرته ولا لتأييده.

ثم يقول: فإذا نحن تجاوزنا هذه الفترة الأولى إلى الفترة الثانية التي بدأ فيها الخليفة الأول تجهيز الجيوش وتوجيهها إلى الشام وجدنا أن موقف العرب أي (عرب الشام) لم يكن في كثير من المرات استجابة أو تأييدًا، وأن الروم كانت تضرب البعوث على عرب الضاحية... كانت تستنفرهم فينفروا إليها من قبائل بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان، وكانت تحارب بهؤلاء المستنفرين في المواقع المختلفات، بل كانت تجد منهم من تستخدمه في التجسس والتطلع...

بل جاء بالتاريخ ما يوحي بالعكس وهو أن العرب المتنصرة (وقد يكون بإيعاز من الرومان) خانوا المسلمين في أشد ساعات الحرج، ذلك أنهم تظاهروا بالانضمام إليهم في إحدى المعارك فلما اشتد القتال بين الروم والمسلمين خذل العرب المتنصرة العرب المسلمين فانسحبوا من الميدان. فقد جاء في حديث ابن إسحاق عن اليرموك وهو يصف قسوة المعركة، واشتراك نساء المسلمين فيها أن نحصي بعض القبائل الشامية بهذا النص العجيب: (وكانوا انضموا إلى المسلمين، حيث ساروا إلى الروم ناس من لخم وجذام فلما رأوا جد القتال فروا ونجوا إلى ما كان قربهم من القرى وخذلوا المسلمين) ثم يقول: (موقف عرب الضاحية إذن يبدو موقفًا واضحًا؛ فهُم لم يتلقوا الدعوة الجديدة بالتَّرحاب بها والانضمام إليها، وهم كذلك لم يولوها العطف والحدب، كان ذلك مواقفهم طيلة حياة النبي ﷺ، كان كذلك مواقفهم حياة الخليفة الأول، والقلة القليلة التي التحقت بالمسلمين عادت فخذلتهم فجأة في أحلك

ساعات المعركة الكبرى التي فصلت في مصير الشام، وفي أقسى مواقفها، وعلى حين اضطر النساء المسلمات أن يسهمن بالعون أو يقاتلن بالسيوف.

ثم يقول: (ونحن بعدُ نملك أن نستبين موقف العرب الشاميين من غير طريق الروايات، ونستطيع أن نتمثله في حركات الفتح نفسها إذا تجاوزنا أيام حياة الرسول ﷺ، والتمسنا لهم العذر عنها، فمن الواضح أن البيزنطيين لم يكونوا يقاتلون بالبيزنطيين وحدهم، كانت كثرة من جيوشهم من هؤلاء العرب أنفسهم، فمن هم الذين قاتلوا في وادي عربة؟ ومن هم الذين قاتلوا في أجنادين ودمشق؟ كيف كان يستطيع المحاصرون أن يحفظوا عن أنفسهم هذا الحصار ستة أشهر أو سبعة لو رقت في نفوس العرب صلات القربى، وحمي فيهم دم النسب المشترك) ثم يذكر كيف قاتل جبلة بن الأيهم وقومه غسان جيوش الإسلام في اليرموك فيقول: (أكان ذلك اضطرارًا أو إكراهًا؟ وكيف لحقت بعض القبائل بعد أن استقر بالمسلمين الأمر وانتهى إليهم الزمام بهرقل ومضت معه إلى بلاد الروم) [١].

ثالثًا: كيف تم انتصار اليرموك:

سؤال لا يزال يحير المؤرخين والباحثين، ولا يستطيعون أبدًا أن ينكروا أثر هذه العقيدة العظيمة التي غيرت مسار هذه الأمة التي أصبحت تحمل رسالة تحرير البشرية بعد أن كانت منكفئة على نفسها ترى رسالتها في قتل بعضها بعضًا.

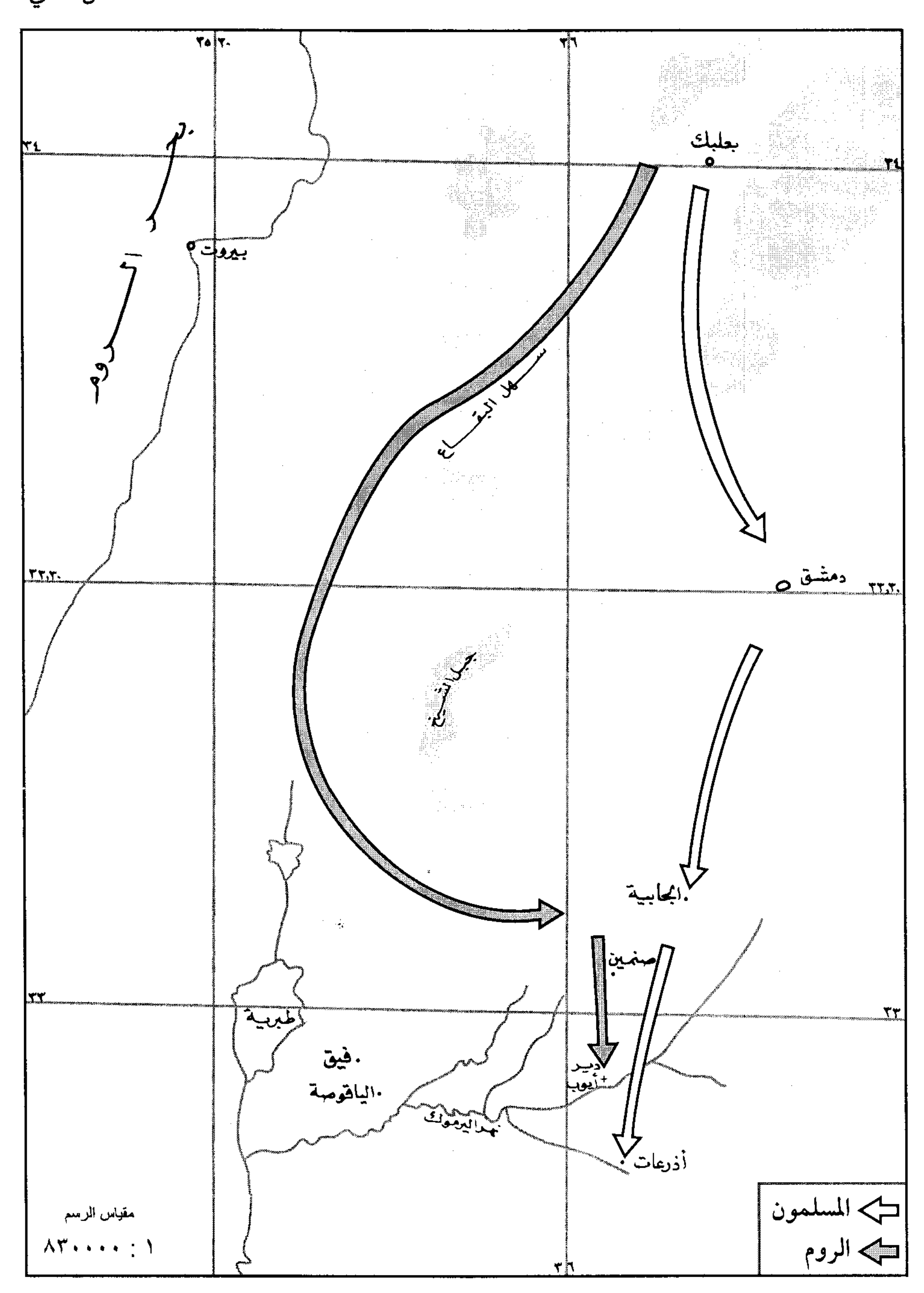
١ – قال المؤرخ هـ. ج. ولز في كتابه معالم تاريخ الإنسانية [٢]:

(... والحملات العسكرية التي بدأت عند ذلك من ألمع ما خلد تاريخ العالم، فقد أصبحت بلاد العرب على الفجأة بستانًا من رجال ممتازين، ويبرز اسم خالد بينهم أزكى نجم وأسطعه في مجموعة من القواد المقتدرين الأتقياء... ولسنا بمستطيعين أن نتتبع قصة هذه الحرب هنا، فإن الجيوش العربية ضربت في نفس الوقت سورية البيزنطية، ومدينة الحيرة على التخوم الفارسية، وكانوا في كل مكان يخيرون الناس ثلاثة أشياء، فإما أن تدفع الجزية، وإما أن تسلم للّه الحق، وتنضم إلينا، وإما أن تقاتل.

---

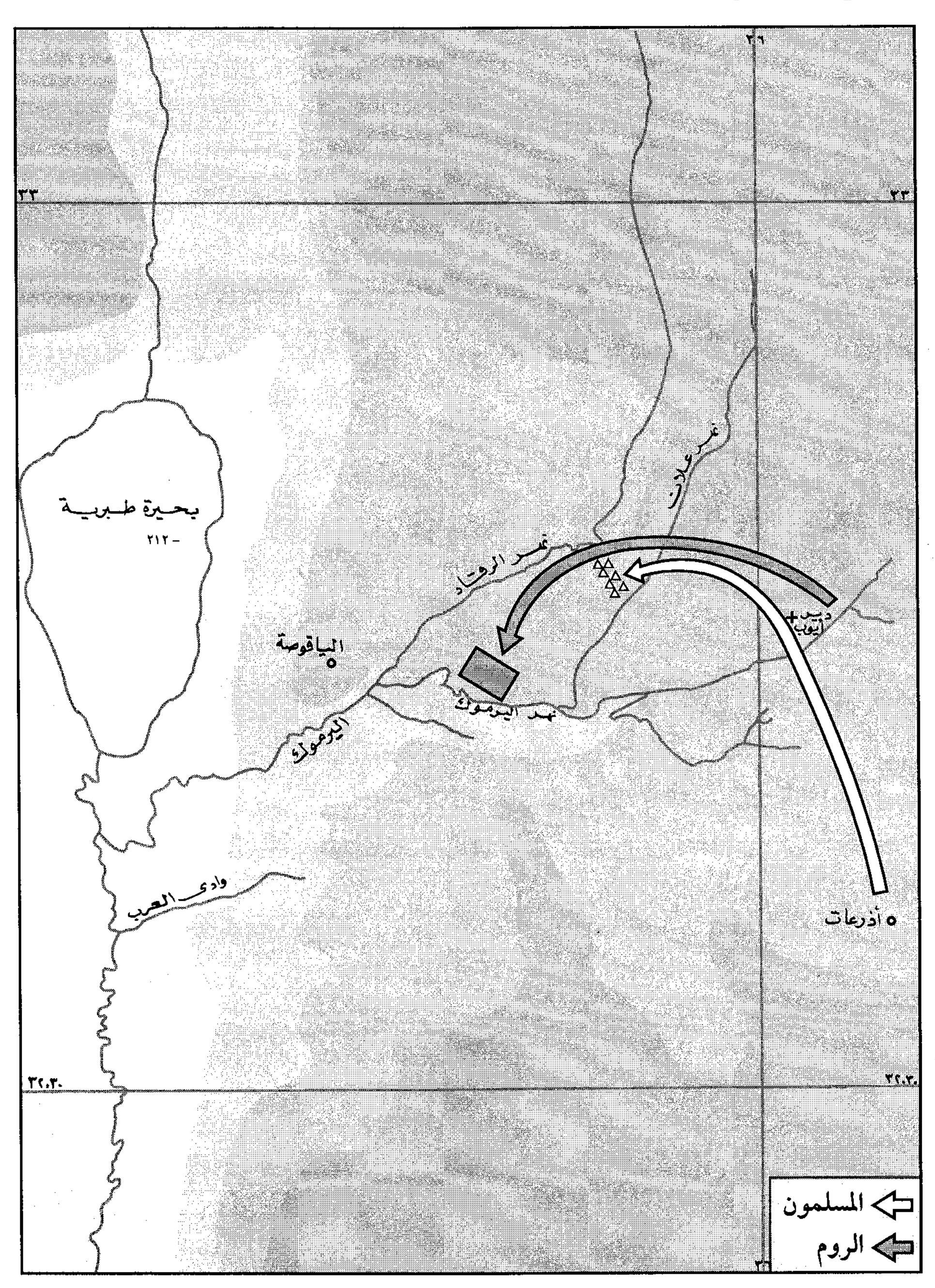
(١) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، مقتطفات (ص ٤٤ – ٤٨).

(٢) (٧٦٤٥/٣).



اليرموك (١) محاولة الروم تطويق المسلمين

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية من إصدارات دار السلام للطباعة والنشر (ص ١٣٧) خريطة (٨٣))



اليرموك (٢) تعديل أوضاع المسلمين والروم على اليرموك

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٣٨) خريطة (٨٤))

فالتقَوْا بجيوش كبيرة منظمة، ولكنها جيوش جوفاء لا روح فيها فهزموها... وكما كان الحال في الغرب كذلك كان الحال في الشرق، إذ تحول الغزو إلى ثورة اجتماعية، ولكنها كانت هاهنا ثورة دينية أيضًا لها حيوية ذهنية جديدة متميزة...

وكان خالد هو الذي قاد معركة اليرموك ضد جيش هرقل على ضفاف اليرموك، وهو أحد روافد الأردن، وكانت الكتائب - كما كان حالها على الدوام - خِلْوًا من الفرسان الصالحين.... وكانت صفوف المسلمين مليئة بالمؤمنين الذين كان لا يسطع أمام نواظرهم إلا أمران، النصر أو الفردوس...).

٢ - قال المستر ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة [١]:

ولما أن وصل خالد وجنوده (أي من العراق) إلى الجيش العربي الرئيسي المعسكِرُ على ضفاف اليرموك على بُعد ستين ميلًا إلى الجنوب الشرقي من دمشق، كانت تلك المؤن (التي اصطحبها عبر صحراء السماوة من العراق) قد نفدت، وهناك هَزَمَ أربعون ألفًا من العرب مائتين وأربعين ألفًا من الروم في المعارك الفاصلة التي لا حصر لها في التاريخ (٦٣٤م) وهكذا قامر الإمبراطور هرقل ببلاد الشام في معركة واحدة، فلما خسرها أصبحت البلاد قاعدة الدولة العربية الآخذة في الاتساع... وكان العرب فرسانًا مهرة لا يضارعهم في مهارتهم خيالة الفرس والروم...).

٣ - الضابط المقدم ياسين سويد في كتابه (معارك خالد بن الوليد) [٢]:

(... وكأن الروم يئسوا من إزالة المسلمين عن مواضعهم أو دحرهم، أو كأنهم أرهقوا من منازلتهم قومًا جَمَعت بين قلوبهم عقيدةُ أن الموت في سبيل اللَّه أفضل من الحياة، وأن الاستشهاد مجد وانتصار، فتوقف مدّهم وهدأت حماستهم، وخمدت حدتهم، وانتهى اندفاعهم إلى القتال، وهذا ما كان خالد يرومه ويبغيه واستجمع خالد قواه وعبأ احتياطييه، وأعطى إشارة البدء بالقتال من جديد، ونهد من القلب على قلب الروم، بينما نهدت ميسرته على ميمنتهم، أما ميمنته فسدت المنافذ في وجوههم فحصرهم بين وادي اليرموك ونهر الرقاد، وهو المنفذ الوحيد لهم، ودارت من جديد رحى معركة ضارية أبلى المسلمون فيها أحسن البلاء وأشرفه... واشتدت

---

(١) (١٣/٧٤ - ٧٦).

(٢) (ص ٢٦٧).

حماسة خالد وهو على رأس فرسانه، وضغط على الروم وركب أكتافهم حتى أرهقهم، فأخذ فرسانهم يتلمّسون مخرجًا لهم، فأمَر خالدٌ عمرًا (قائد الميمنة) بأن يُفسِح لهم طريق الهرب ففعل، وهرب فرسان الروم متفرقين في أنحاء البلاد أشتاتًا...

كانت حركة الإفراج عن خيل الروم حركة رائعة، فقد ترك خالد مشاة الروم دون تغطية من خيالتهم، فلجأوا إلى الخنادق، وأكثرهم مسلسل أو مقيد، وكان الظلام قد غشي ساحة القتال، فاقتحم خالد بفرسانه ومشاته الخنادق عليهم، وأعمل سيفه بهم، فأخذ معظمهم يتراجع ليسقط في هوة من وادي اليرموك وراء الرُّوم تسمى الواقوصة، فكان أحدهم إذا رغب في النجاة من سيوف المهاجمين يرتد إلى الوراء لعله يجد منفذًا، فيقع - والليل دامس - في الواقوصة فيهلك، ويهلك المقيدون به والمسلسلون معه، وهكذا فمن كان ينجو من سيوف المسلمين يلقى حتفه في الهاوية، أما القادة فكانوا يغطون رؤوسهم وعيونهم ببرانسهم، وهذه عادة الطبقة الشريفة عند الروم، ويتقدمون للقاء الموت بصبر وجلد، فيأمر خالد بقطع أعناقهم.

وأما الناجون وعددهم يناهز الأربعين ألف مقاتل. فقد انسحب قسم منهم إلى فِحْل، وهي قرية من قرى أربد في لواء عجلون بشرق الأردن اليوم، وانسحب القسم الآخر إلى دمشق) وقد دامت المعركة من مطلع النهار حتى حلول الظلام.

٤ - وقال الضابط الكبير بسام العسلي في كتابه: فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين (١):

(لم يكن الروم قد استوعبوا عمق جذور الدين الإسلامي في نفوس المقاتلين المسلمين، ولا عرفوا أبعاد طموح القادة المسلمين، فظنوا أن القضية ليست أكثر من قضية مادية دفعت الأعراب للقيام بالغزو على عاداتهم القديمة؛ ولهذا طلب قائد الروم الاجتماع بخالد، وعرض عليه الهبات والأموال بما يكفي ويغني كل ضابط وجندي من جنود الإسلام، ولكن خالدًا انطلاقًا من مفهوم الإسلام والجهاد في سبيل الله رفض هذا العرض، وأبى أن يقبل من الروم إلا واحدة من ثلاث: الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب.

---

(١) (ص ١٢٣).

قال العسلي: لم يدخل اليأس قلوب الروم، فأرادوا اتباع وسيلتهم التقليدية في التفريق والتجزئة وضرب العرب بعضهم ببعض... فسيروا الملك جبلة بن الأيهم الغساني، ومعه عدة قبائل عربية كلها يمانية، وحاول خالد بن الوليد عكس ما يقصد الرومان، وهو اكتساب هذه القبائل وضمها إلى صفوف أبناء عمومتهم من العرب المسلمين، إلا أن جبلة استمر على عناده، وصمم على قتال جيوش المسلمين) [١].

٥ - الجنرال جلوب باشا الإنجليزي في كتابه الفتوحات الكبرى وهو يصف معركة اليرموك:

(ولما كان العرب قد قطعوا خط رجعة الروم باحتلالهم الجسر، فقد وقعت مذبحة هائلة قُتِل فيها (ثيودورس) نفسه، ولم يحل صباح اليوم التالي حتى كان جيش الروم - الذي قضى هرقل أكثر من عام يصرف الجهد ويبذل كل ما في وسعه لإعداده - وقد زال من الوجود. فلم يكن هناك انسحاب أو عمليات تغطية خلفية، أو نواة لناجين من القتال، ولم يكن هناك شيء على الإطلاق، ولم يبق من الروم إنسان، وعندما سمع هرقل الهَرِم - وكان في إنطاكية، بأن جيشه قد أبيد عن آخره أدرك بأن القرار أصبح حاسمًا، وراح يودع البلاد المقدسة التي حارب طويلًا لاسترجاعها من الفرس، ليعود فيخسرها للعرب بقوله: سلام عليك يا سوريا، سلامًا لا لقاء بعده. وراح يمتطي جواده ليعبر جبال طوروس متجهًا إلى الغرب، ولقد انتهت بمعركة اليرموك العمليات النشيطة التي تمثلت في احتلال العرب لسوريا، فلقد عاد أبو عبيدة إلى الزحف شمالًا فاستعاد دمشق وحمص وبعلبك وغيرها من المدن التي كان العرب قد جلوا عنها أثناء هجوم الروم، وقد استقبلت جيوش العرب في أماكن عدة استقبالًا حسنًا مصحوبًا بالرقص والأهازيج) [٢].

---

(١) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ٢٣٤)، عن كتاب فن الحرب للعسلي (ص ١٢٣).

(٢) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ٣٢٣، ٣٢٤)، نقلًا عن كتاب الفتوحات العربية الكبرى لجلوب (ص ٣٠٨). هذا وقد أعاد جلوب النصر العربي لخيانةٍ في جيش الروم، وللريح التي هبت فأعْمتْ عيون الروم، ولا ذكر لهذين السببين لدى المؤرخين القدامى ولا المعاصرين، ولكنه الحقد الصليبي لتبرير هزيمة الروم. وقد فنّد باشميل رحمه الله هذه المزاعم وكشف زيفها كاملة.

٦ - قال غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب[١]:

(لم يمنع أن يكون للعرب تراث مشترك من الناحية الدينية والناحية اللغوية ما دام الإسلام دينهم والعربية لغتهم، وكان البلد الفتي سورية قد أصبح رومانيًا قبل الفتح العربي بنحو سبعة قرون ويوجد ارتباك وغموض في أخبار المعارك التى أدّت إلى فتح العرب السورية.

(... وأما مؤرخو الروم فقد التزموا جانب الصمت عن فتح سورية الذي كان كله عارًا على دولة بيزنطة القوية، ومهما تكن دقائق الفتح العربي لسورية، فإن سورية خضعت لحكم العرب بعد حرب سجال بين العرب والروم، وفتح دمشق من أهم فتوح العرب في سورية، ولم تلبث دمشق الشهيرة أن أصبحت في العهد الأموي عاصمة الدولة العربية بدلًا من المدينة.

حقًّا، لقد خسر الروم سورية، فقد استولى العرب عليها بعد معركة اليرموك الشهيرة التي دامت ثلاثة أيام، وانتهت بانتصار العرب على جميع مدن سورية، وفتحوا عنوةً تَدْمُرَ وبعْلَبك وأنطاكية وطبرية ونابُلِسَ والقدس وطرابُلُسَ وغيرها، وأُكره القيصر على مغادرة سورية إلى الأبد بعد أن ملكها أسلافه منذ سبعة قرون).

٧ - جرجة بن توذرا قائد جيش الروم في حواره مع خالد بن الوليد قبل معركة اليرموك:

يا خالد: اصدقْني ولا تكذبْني، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعْني فإن الكريم لا يخادع المسترسل، باللَّه هل أنزل اللَّه على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هَزمتهم؟ قال: لا. قال: فبِمَ سُمّيت سيفَ اللَّه؟ قال: إن اللَّه ﷻ بعث فينا نبيه ﷺ، فدعانا فنفرنا عنه ونَأَيْنا عنه جميعًا، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله. ثم إن اللَّه أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به، فتابعناه، فقال: أنت سيف من سيوف اللَّه سله اللَّه على المشركين، ودعا لي بالنصر، فسُميت سيفَ اللَّه بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين، قال: صدقتني...)[٢].

---

(١) (ص ١٥٠، ١٥١).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٣٧).

٨ - هرقل امبراطور الروم:

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب وسيف عن محمد وطلحة وعمرو ابن ميمون قالوا:

وقد كان هرقل حج قبل مهزم خالد بن سعيد، فحج بيت المقدس. فبينا هو مقيم به أتاه الخبر بقرب الجنود منه. فجمع الروم وقال: أرى من الرأي ألا تقاتلوا هؤلاء القوم، وأن تصالحوهم، فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام، وتأخذوا نصفًا، وتقر لكم جبال الروم، خير لكم من أن يغلبوكم على الشام، ويشاركوكم في جبال الروم، فنخر أخوه ونخر ختنه، وتصدَّع عنه من كان حوله، فلما رآهم يعصونه ويردون عليه، بَعث أخاه، وأمَّرَ الأمراء، ووجَّه إلى كل جند جندًا، فلما اجتمع المسلمون أمَرهم بمنزِل واحد واسع جامع حصين، فنزلوا بالواقوصة وخرج فنزل حمص، فلما بلغه أن خالدًا قد طلع على سُوى، وانتسف أهله وأموالهم، وعمد إلى بصرى وافتتحها، وأباح عذراء قال لجلسائه: ألم أقل لكم لا تقاتلوهم؟! فإنه لا قوام لكم مع هؤلاء القوم، فإن دينهم دين جديد يجدد لهم ثبارهم، فلا يقوم لهم أحد حتى يبلى، فقالوا: قاتل عن دينك ولا تُجبِّن الناس، واقضِ الذي عليك، قال: وأي شيء أطلب إلا توفير دينكم) [١].

٨ - القبقلار خليفة هرقل على الشام:

قال ابن حرير: (حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير أنه قال: كان على الروم رجل منهم يقال له: القبقلار، وكان هرقل استخلفه على أمراء الشام حين سار إلى القسطنطينية، وإليه انصرف تذارق بمن معه من الروم، فأما علماء الشام فيزعمون أنما كان على الروم تذارق، والله أعلم.

حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر ابن الزبير عن عروة قال:

لما تدانى العسكران، بعث القبقلار رجلًا عربيًا.

قال: فحدثت أن ذلك الرجل رجل من قضاعة من تزيد بن حيدان، يقال له ابن هزارف.

(١) الطبري (٣٣٩/٢).

فقال: ادخل في هؤلاء القوم، فأقم فيهم يومًا وليلة، ثم ائتني بخبرهم، قال: فدخل في الناس رجل عربي لا ينكر، فأقام فيهم يومًا وليلة، ثم أتاه فقال له: ما وراءك؟ قال: بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، ولو سَرَق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنَى رُجم لإقامة الحق فيهم، فقال له القبقلار:

لئن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها، ولَوددْتُ أنّ حظي من اللَّه أن يخلِّيَ بيني وبينهم، فلا ينصرني عليهم، ولا ينصرهم عليّ، قال: ثم تزاحف الناس فاقتتلوا، فلما رأى القبقلار ما رأى من قتال المسلمين، قال للروم: لُفّوا رأسي بثوب، قالوا له: لِمَ؟ قال: هذا يوم بئيس، لا أحب أن أراه، ما رأيت في الدنيا يومًا أشد من هذا؟ قال: فاحتز المسلمون رأسه وإنه لملفّف) [1].

١٠ - خالد بن الوليد قائد معركة اليرموك، وقائد جيوش المسلمين:

لا بد أن نعرض صورتين لتتضح النقلة الهائلة بهذا الدين لهذه الأمة:

فخالد بن الوليد حين يرسم خط النهاية لحياته ليس أمامه إلا أن يكون لاجئًا سياسيًّا هاربًا من محمد عند الروم أو الفرس أو الأحباش، فهذا آخر مدًى يمكن أن يصل إليه تفكيره إذ نسمعه يقول:

(... لما أراد اللَّه بي الخير ما أراد، قذف في قلبي حب الإسلام وحضرني رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى أني مُوضَع في غير شيء، وأن محمدًا سيظهر... فلما صالح قريشًا بالحديبية، ودافعَته قريشٌ بالرّاح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين المذهب؟ إلى النجاشي؟ فقد اتبع محمدًا، وأصحابه آمنون عنده.

فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية.

فأقيم مع عجم تابعًا؟

أو أقيم في داري فيمن بقي؟...).

هذه هي أقصى نهاية تفكير العربي في الجاهلية، أن يكون لاجئًا سياسيًّا في أحد هذه الإمبراطوريات.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٤٧/٢).

فكيف انتقل الإسلام بخالد بن الوليد، من آخر مطافه الجاهلي إلى فتح الأرض بالإسلام.

ها هو يحضر مؤتة جنديًّا عاديًّا في جيش الإسلام، ليرى نفسه، وهو يقاتل الروم والعرب على السواء في أعنف معركة يخوضها، (لقد انقطعت في يدي تسعة أسياف في مؤتة، ولم تثبت إلا صفيحة يمانية)، ويرى نفسه يقود معركة ينتصر فيها على جيش الروم، وإذا به يتجاوز الآفاق والآماد، وتصغر الأرض كلها في عينيه، حيث أعده اللَّه ليكون سيف اللَّه في الأرض كلها.

« **ثم أخذ الراية سيفٌ من سيوف اللَّه ففتح اللَّه عليه** » [١].

فقد أخذ هذا الوسام بعد أربعة أشهر فقط من إسلامه.

ولسنا بحاجة بعد كلام رسول اللَّه ﷺ لكلام أحد قط، فقد كانت الدعوة النبوية الخالصة الضارعة إلى اللَّه تعالى: « **اللهم إنه سيف من سيوفك فانصره** » [٢] واستجاب اللَّه دعوة نبيه (ففتح اللَّه على يديه).

فهذا خالد الذي بني بالإسلام من جديد، ها هو يقف يوم اليرموك أمام جيش لجَبٍ من ربع مليون مقاتل ولا تبلغ جيوش الإسلام أربعين ألف مقاتل، ها هو يقول:

(إن هذا يوم من أيام اللَّه لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا اللَّه بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده... ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فاللَّه اللَّه، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود، ولا يزيده عليه أن دانوا له، إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند اللَّه ولا عند خليفة رسول اللَّه ﷺ، هلموا فإن هؤلاء تهيأوا، وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلموا فلنتعاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم، ودعوني إليكم اليوم.

فأمّرُوه وهم يرون أنها كخرجاتهم، وأن الأمر أطول مما صاروا إليه. فخرجت الروم في تعبئة لم يرَ الراؤون مثلها قط. وخرج خالد في تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك...) [٣].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥٣)، وأخرجه باختلاف في اللفظ: البخاري في المناقب (٣٧٥٧)، والمغازي (٤٢٦٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٤٦).

(٢) سنن النسائي، ح (٨١٩٢) وكان ذلك الدعاء في غزوة مؤتة.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٣٣٥، ٣٣٦).

(... وقال رجل لخالد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد: ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر بَراءٌ من توجيه (فرسه معافًى من مرضه) وأنهم أُضعفوا في العدد) [١].

قال ابن جرير: (وكتب إلي السري عن شعيب عن سيف... عن يزيد بن سنان عن رجال من أهل الشام وأشياخهم قالوا: لما كان اليوم الذي تأمر فيه خالد، هزم الله الروم مع الليل، وصعد المسلمون العقبة وأصابوا ما في العسكر، وقتل الله صناديدهم ورؤوسهم وفرسانهم، وقتل الله أخا هرقل، وأُخذ التذارق، وانتهت الهزيمة إلى هرقل وهو دون مدينة حمص... وأتْبَع المسلمون الروم حين هزموهم خيولًا يثفنونهم (يتبعونهم)) [٢].

(... ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب أفرجوا لها ولم يحرجوها، فذهبت وتفرقت في البلاد، وأقبل خالد والمسلمون على الرَّجْل (الرجالة) ففضوهم، فكأنما هدم بهم حائط، فاقتحموا في خندقهم، فاقتحمه عليهم، فعمدوا إلى الواقوصة، حتى هوى فيها المقترنون وغيرهم، فمن صبر من المقترنين للقتال هوى به من خشعت نفسه، فيهوي الواحد بالعشرة لا يطيقونه، كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف فتهافت في الواقوصة عشرون ومائة ألف، ثمانون ألف مقترن وأربعون ألف مطلق، سوى من قتل في المعركة من الخيل والرِّجل، فكان سهم الفارس يومئذ ألفًا وخمسمائة، وتجلل القبقار وأشراف من أشراف الروم برانسهم، ثم جلسوا وقالوا: لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور، وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانية، فأصيبوا في تزمُّلهم) [٣].

١١ - القائد الثاني عمرو بن العاص، وقائد ميمنة المسلمين:

ولا بد أن نشير كذلك إلى الصفحتين لعمرو بن العاص؛ صفحة عمرو بن العاص الجاهلي، الذي أوشك أن ينهي حياته لاجئًا سياسيًّا في الحبشة، وهذا أقصى ما كانت تطمح إليه نفسه، وننتظر الصفحة الثانية صفحة عمرو بن العاص الإسلامي الذي كان أحد رجال الدنيا الذين غيروا التاريخ.

(١) تاريخ الطبري (٣٣٦/٢، ٣٣٧).
(٢) المصدر نفسه (٣٣٩/٢).
(٣) المصدر نفسه (٣٣٨/٣).

الصفحة الأولى:

(... ثم حضرْتُ الخندق، فقلت في نفسي: كم أنا أوضع، واللَّه ليظهرن محمد على قريش، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أُرى نفسي أني موضع في غير شيء... فخلفت مالي بالوهط (قرب الطائف) وأُفلِتُّ (من الناس) فلم أحضر الحديبية ولا صلحها، وانصرف رسول اللَّه ﷺ بالصلح، ورجعت قريش إلى مكة، فجعلت أقول:

يدخل محمد قابلًا مكة بأصحابه؛ ما مكة بمنزل لي ولا الطائف، وما من شيء خير لي من الخروج، وأنا بعدُ ناءٍ عن الإسلام، أرى لو أسلمَتْ قريش كلها لم أُسلم، فقدمت مكة، فجمعت رجالًا من قومي كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، ويقدمونني فيما نابهم، فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟

قالوا: ذو رأينا ومِدْرَهُنَا (السيد الشريف) مع يمن نفس وبركة أمر، قال، قلت: تعلمون واللَّه إني لأرى أمر محمد يعلو الأمور عُلُوًّا منكرًا، وإني قد رأيت رأيًا، قالوا: ما هو؟ قال: نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن كان يظهر محمد كنا عند النجاشي، فنكون تحت يده أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد، وإن تظهر قريش فنحن من قد عرفوا، قالوا: هذا هو الرأي. قال: فاجمعوا ما تهدونه إليه، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم (الجلود) فجمعنا له أدمًا كثيرًا ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشي...) [1].

فهذا آخر ما انتهى إليه عمرو بن العاص الجاهلي.

أما وقد أسلم فقد غدا إنسانًا آخر:

فقد ابتدأت تجربته بغزوة ذات السلاسل، ثم مبعوثًا إلى ابني الـجُلَنْدَى أميري عمان، حيث قادهما بالحوار والحجة إلى الإسلام، ثم يطمح أن يكون على صدقات قضاعة كما وعده رسول اللَّه ﷺ، ونفذ الصديق له موعوده، لكن الصديق الذي فتح الجبهة مع الروم إنما يريد أبطالًا عظامًا لها، وكان يرى عمرو بن العاص هو البطل المرشح لذلك، وكان عمرو بن العاص يتطلع إلى هذا الموقع، وجاءه وكأنه على موعد مع القدر.

---

(١) المغازي للواقدي (٢/٧٤١، ٧٤٢).

(فكتب أبو بكر عند اهتياجه الشام إلى عمرو:

إني قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله ﷺ قد ولاكه مرة، وسماه لك أخرى، مبعثك إلى عُمان إنجازًا لموعود رسول الله ﷺ فقد وَليته ثم وَليته.

وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك.

فكتب إليه عمرو:

إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحي) [١].

(... قالوا: وأوعب القواد بالناس نحو الشام، وعكرمة ردء للناس، وبلغ الرومَ ذلك، فكتبوا إلى هرقل، وخرج هرقل حتى نزل بحمص، فأعد لهم الجنود، وعبى لهم العساكر، وأراد اشتغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده، وفضول رجاله، وأرسل إلى عمرو (ابن العاص) أخاه تذارق لأبيه وأمه، فخرج نحوهم في تسعين ألفًا، وبعث من يسوقهم حتى نزل صاحب الساقة ثنية جلِّقٍ بأعلى فلسطين، وبعث جرجة بن توذرا، نحو يزيد بن أبي سفيان، فعسكر بإزائه، وبعث الدراقص فاستقبل شرحبيل بن حسنة وبعث الفيقار بن نسطوس في ستين ألفًا نحو أبي عبيدة، فهابهم المسلمون، وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفًا، سوى عكرمة في ستة آلاف، ففزعوا جميعًا بالكتب وبالرسل إلى عمرو أن ما الرأي؟ فكاتبهم وراسلهم:

إن الرأي هو الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة، ونحن إذا تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا، وأُعد لنا لكل طائفة منا.

فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به.

وقد كتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرو، فطلع عليهم كتابه بمثل رأي عمرو) [٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٣٣٢/٢).

(٢) المصدر نفسه (٣٣٣/٢).

فها هو عمرو بن العاص من لاجئ سياسي في الحبشة، إلى قائد من أربعة قواد أوكل إليهم مواجهة الإمبراطورية الرومانية.

وجاء كتاب الصديق ليحدد لهم مفاهيم النصر والهزيمة:

(... وطلع عليهم كتاب أبي بكر بمثل رأي عمرو بأن:

اجتمعوا عسكرًا واحدًا. والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين.

فإنكم أعوان اللَّه، واللَّه ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة.

وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أُتوا من تلقاء الذنوب، فاحترِسوا من الذنوب، واجتمِعوا باليرموك متساندين، وليُصلِّ كل رجل منكم بأصحابه) [1].

(... وانتقل المسلمون عن عسكرهم الذي اجتمعوا به، فنزل عليهم بحذائهم على طريقهم، وليس للروم طريق إلا عليهم، فقال عمرو:

أيها الناس، حصرت واللَّه الروم، وقلما جاء محصور بخير.

وها هو عمرو بن العاص قائد الميمنة يخطب بالمسلمين قائلًا:

أيها المسلَمون، غضوا الأبصار، واجثوا على الرُّكب، وأشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم، حتى إذا ركبوا الأسنة، فَثِبوا في وجوههم وثبة الأسد.

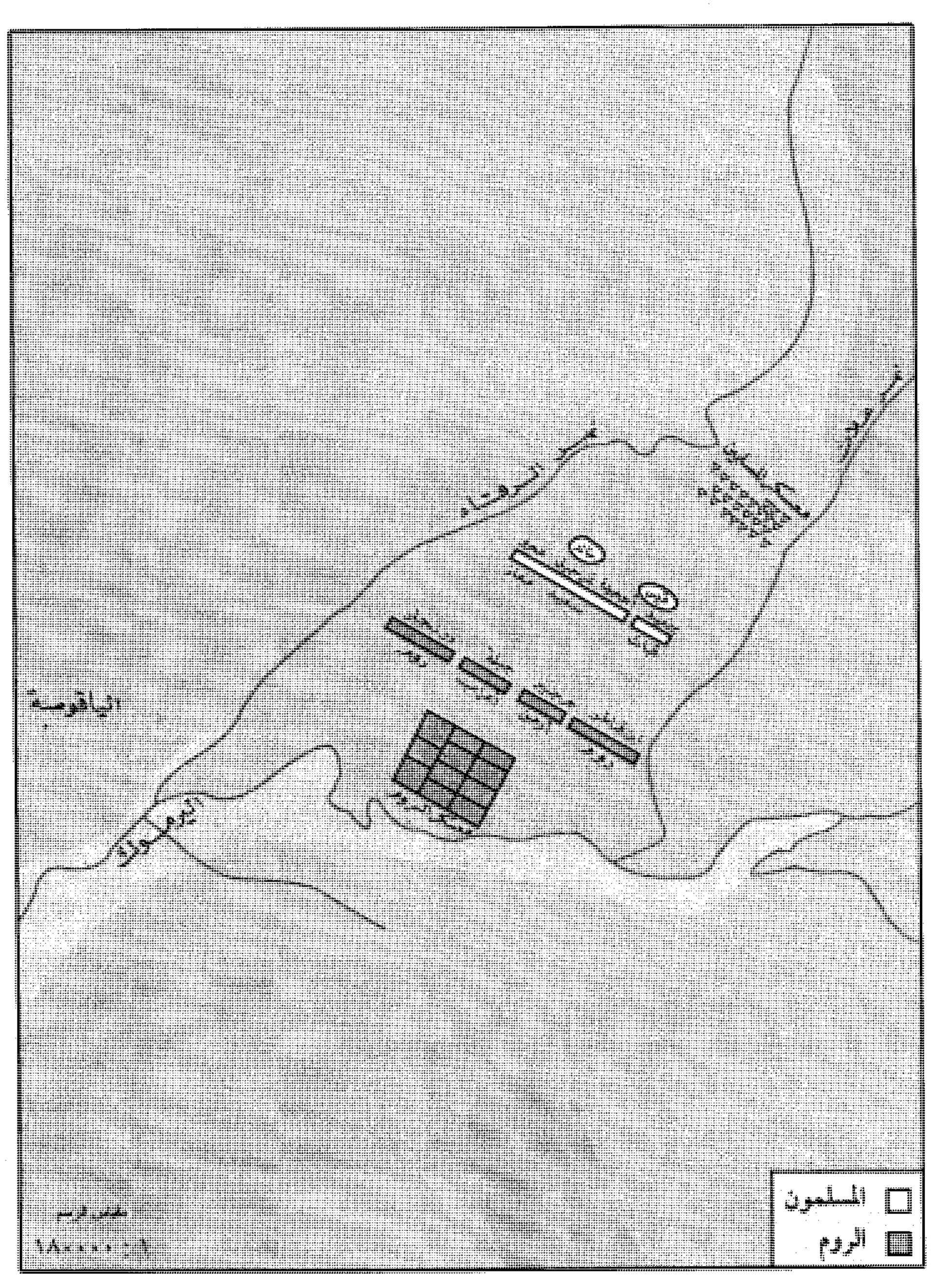
فوالذي يرضَى الصدق ويُثيبُ عليه، ويمقت الكذب، ويجزي بالإحسان إحسانًا، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها (أي الشام) كَفْرًا كَفْرًا (بلدًا بلدًا) وقصرًا قصرًا.

فلا يَهُولَنّكم جموعُهم ولا عَدَدُهم، فإنكم لو صدقتموهم الحملة، تطايروا تطاير أولاد الحجول) [2].

---

(١) تاريخ الطبري (٣٣٣/٢، ٣٣٤).

(٢) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ١٧٧) عن ابن عساكر (١٦٢/٢).



اليرموك (٣) التأهب للقتال

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٣٩) خريطة (٨٥))

فعمرٌو واثق من نصر اللَّه ﷻ للعصبة المؤمنة مهما طال المدى، وهو موعود اللَّه تعالى لرسوله ﷺ أن تفتح لهم كنوز كسرى وقيصر.

والصبر والثبات أساسان في النصر ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وكان النموذجَ الخالد في الصبر والثبات.

(ويؤكد المؤرخون أن الرومان نجحوا نجاحًا كبيرًا في هجومهم في المرحلة الأولى من المعركة، وأزالوا أكثر المسلمين عن مواقعهم، فقد قام القائد ماهان بهجوم كاسح عنيف، فتخلخلت صفوف المسلمين، وكان الهجوم الأول على ميمنة المسلمين التي تضعضعت بعد مقاومة عنيدة شرسة، ولكن التفوق العددي الهائل في ميسرة الروم التي يقودها ماهان أجبرت المسلمين على التراجع، حتى خالط الروم المسلمون ودخلوا معسكرهم، وكانت ميمنة المسلمين التي تلقت الهجوم الأول، فيها قبائل شتى من الأزد وحضرموت ومذحج وحمير وخولان وزبيد، وهؤلاء معروفون في التاريخ القديم والحديث بالشجاعة النادرة... وكان قائد الميمنة عمرو بن العاص، ومعه أصحاب الرايات من أهل النجدة، فصبر عمرو وصبر أصحاب الرايات مكانهم لم يتزحزحوا).

(... وكما ثبت عمرو وأصحاب الرايات في الميمنة، ثبت قائد الميسرة يزيد ابن أبي سفيان وأصحاب النجدة من أصحاب الرايات ولم يتزحزحوا، وجالدوا الرومان بثبات منقطع النظير.

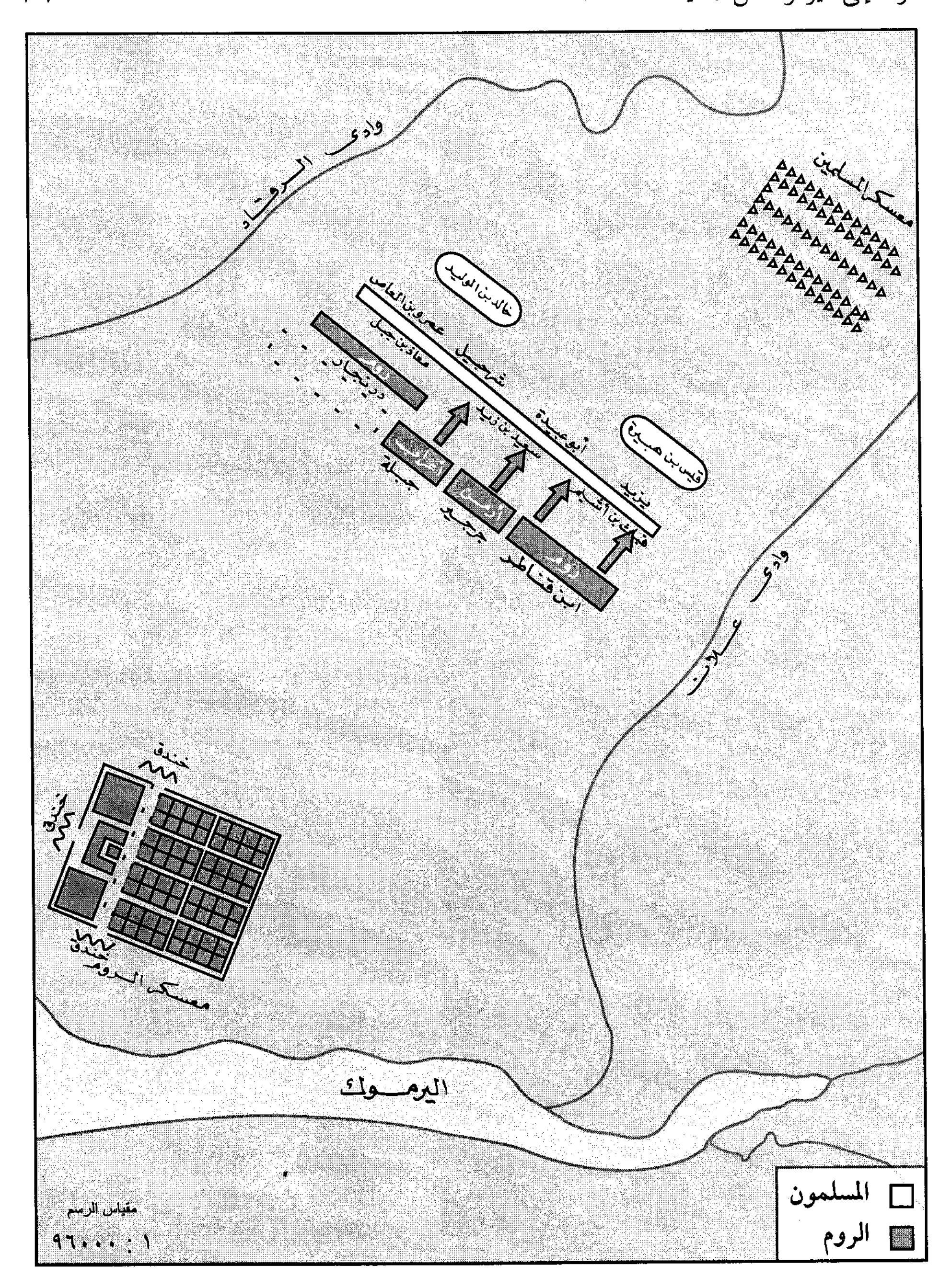
... وأصر الرومان على مهاجمة قلب الجيش الإسلامي، وجلبوا دعمًا كبيرًا من احتياطييهم بغية تحطيم القلب مخافة أن تعيد ميسرة المسلمين وميمنتهم تنظيمهما فيفشل الهجوم على القلب.

فقد كان عمرو بن العاص قائد الميمنة ويزيد بن أبي سفيان قائد الميسرة يبذلان جهودًا مضنية لسد الثغرات الفاحشة التي أحدثتها قوات الرومان في جناحَيْهِما.

وصاروا يتجهون بحنق وسرعة نحو القلب لتحطيمه حيث يتمركز القائد العام، ونائبه أبو عبيدة) [١].

---

(١) حروب الإسلام في الشام، مقتطفات (ص ٢٠٢، ٢٠٥).



اليرموك (٤) هجوم الدرنجار

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٤٠) خريطة (٨٦))

ونجحت الخطة الأولى من المعركة، وهي أن يتلقى المسلمون ابتداءً هجوم الروم، ويصدون زخمه، لتبدأ المرحلة الثانية من الخطة، بصد الهجوم والزحف العام نحو جيش الروم.

وفي الواقع إن عمرو بن العاص كان - باستثناء القلب - أكثر الجبهات تعرضًا لشراسة الهجوم الروماني؛ لأنه يواجه ميسرتهم التي تحمي خطوط إمدادهم من دمشق، ولأنه تمكن من قطع هذه الخطوط، لهذا صار عرضة لثقل الهجوم الروماني، فعانى الأهوال منهم، بدليل أن الروم هدموا صفوف ميمنته مرتين، في المرة الأولى اخترقوها، فصابر وجاهد حتى أعاد تنظيمها وسد ثغراتها، فكَرّوا عليه من جديد، واخترقوا ميمنته، فاشتد عليه الأمر، ولكن موقف عمرو بن معديكرب، وأبي هريرة، وقبيلتيهما، وعملية الفدائيين الأربعمائة بقيادة عكرمة خفّفا عليه الوطأة، فتمكن للمرة الثالثة من تنظيم صفوفه، ثم شارك بفعالية في الهجوم المعاكس على الروم والذي انتهى بهزيمتهم الساحقة (١).

لقد جاء الإسلام ليجعل الفرار من الزحف من أعظم الكبائر وأكبرها، وأنزل اللَّه تعالى في كتابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

بهذه الروح الجديدة؛ دين جديد يجعل جند اللَّه هم ورثة الحضارة البشرية، ووعْد بتحقيق هذا النصر، وصبر وثبات لا نظير له في التاريخ، وتخطيط عبقري محكم يضاهي أعظم خطط القيادات البشرية في الأرض ويتفوق عليها، بهذه العناصر الثلاثة تم نصر اليرموك، كما شهدنا من الشهادات السابقة.

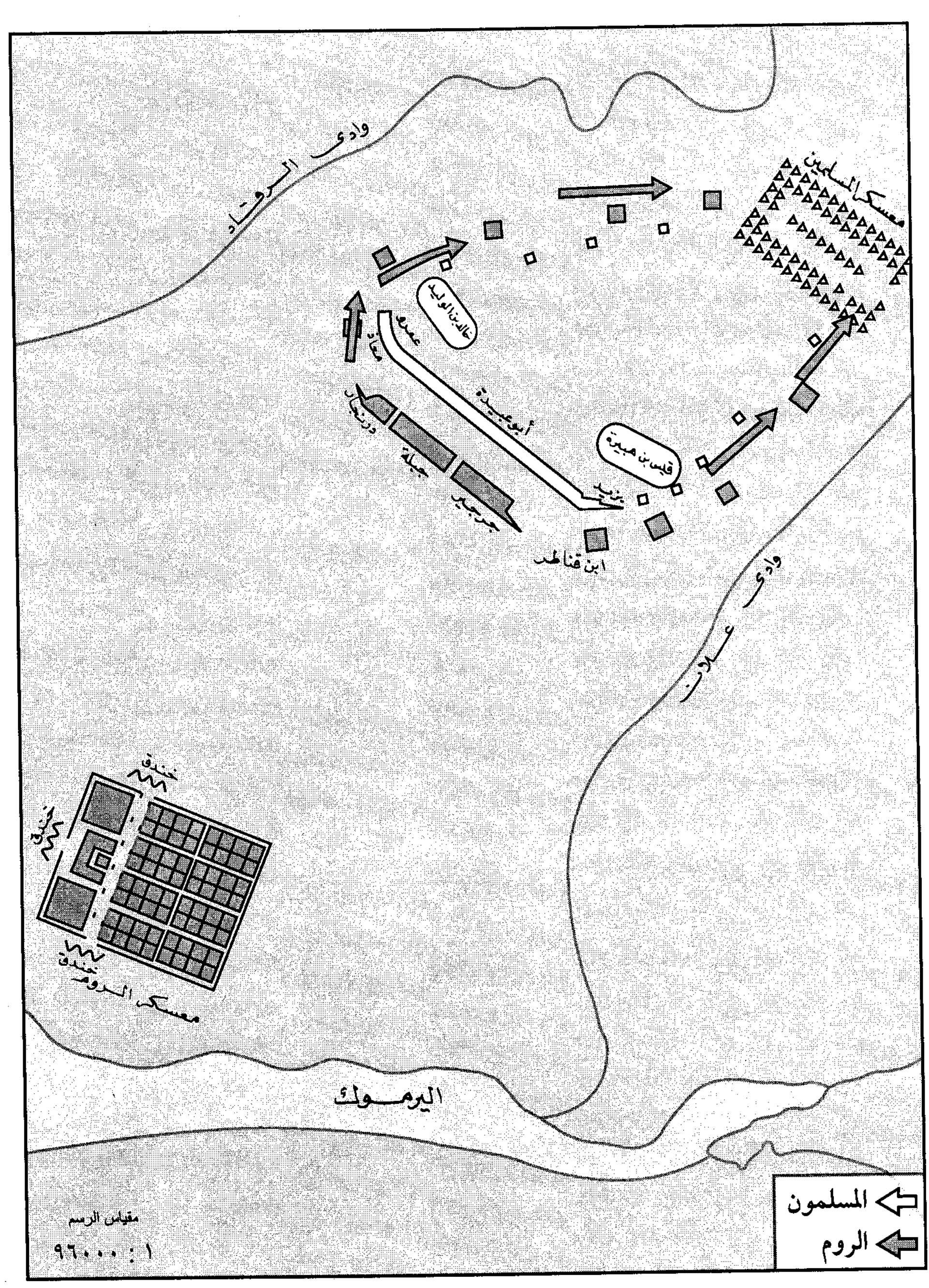
﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ... ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

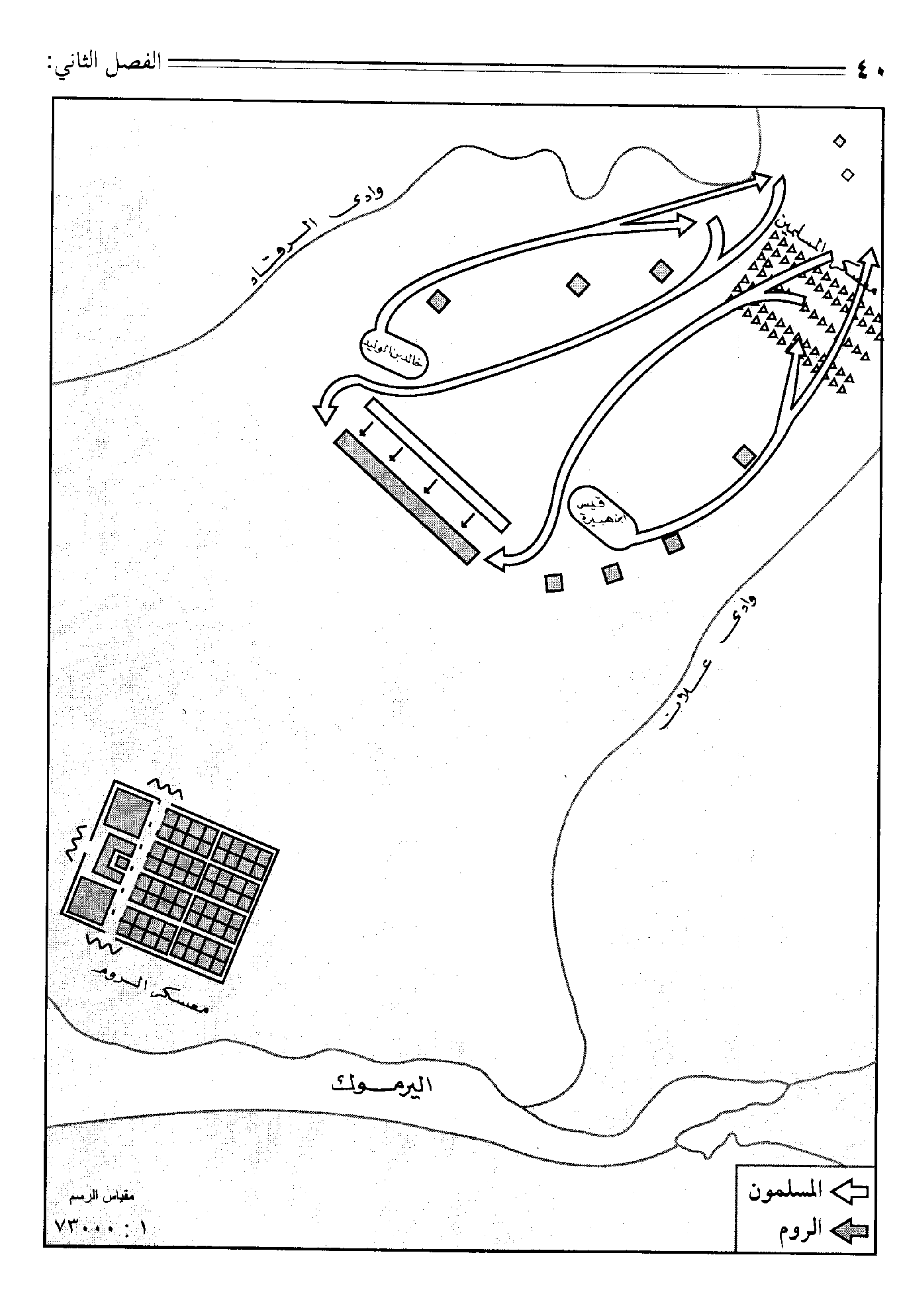
---

(١) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ٢١٥).



اليرموك (٥) اختراق الروم أجناب المسلمين

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٤١) خريطة (٨٧))

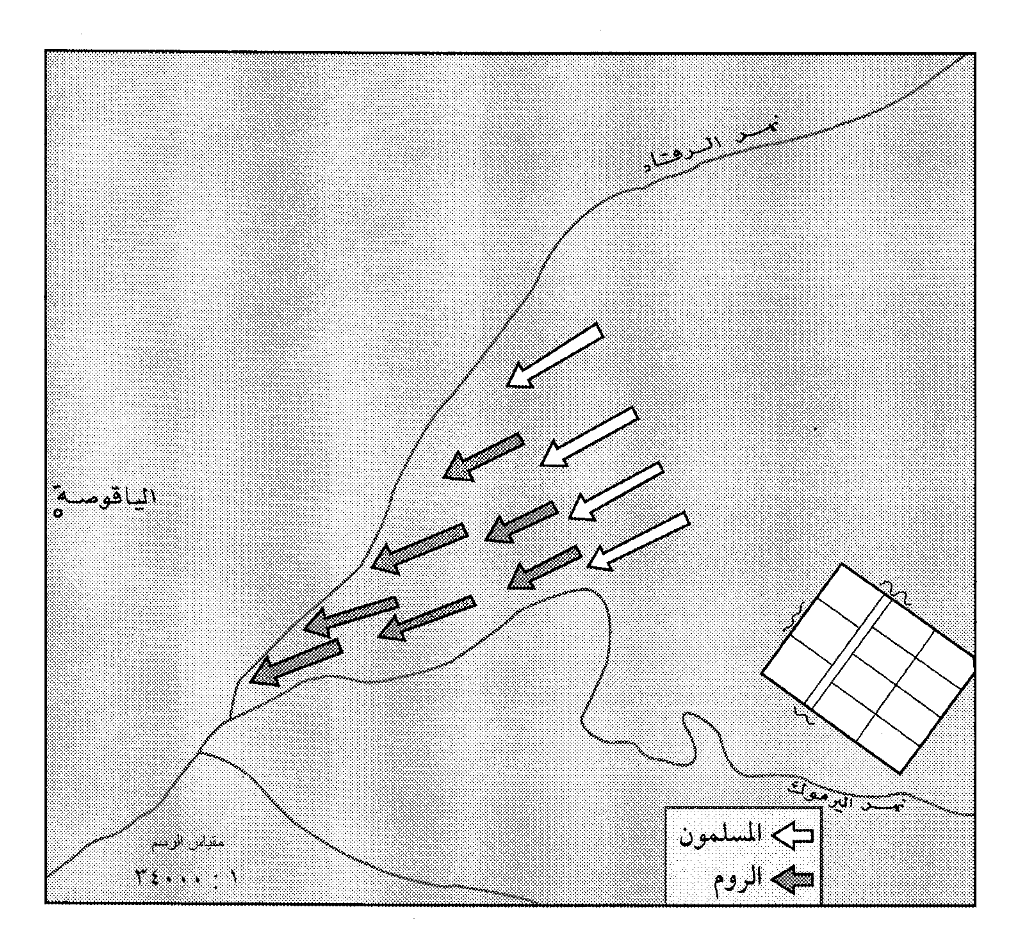


اليرموك (٦) الهجوم المضاد من خالد

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٤٢) خريطة (٨٨))

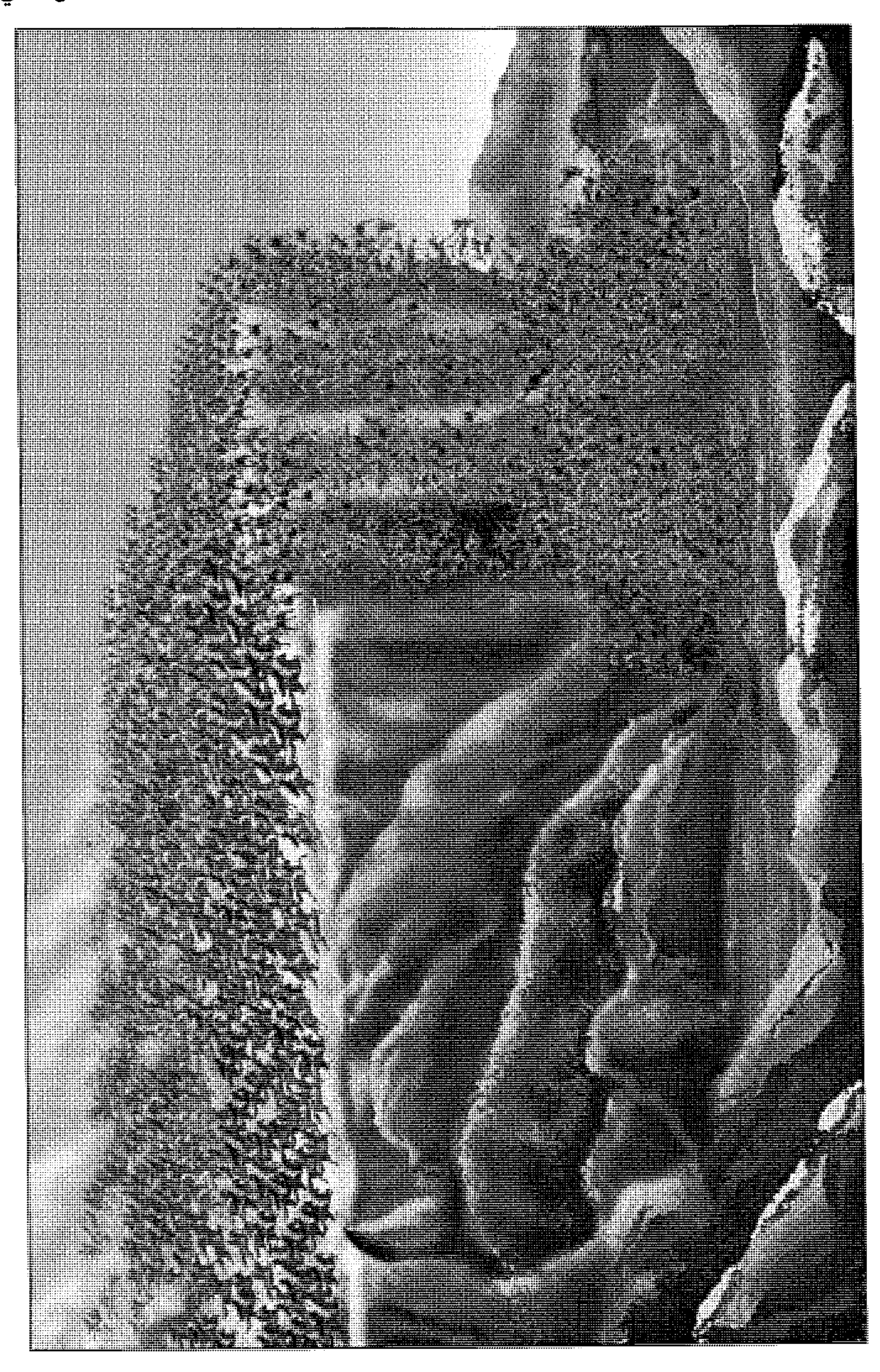
رابعًا: تولية أبي عبيدة ﷺ القيادة العامة:

إن الحديث عن عزل خالد في هذه المرحلة هو حديث غير دقيق، ولا يصح أن نسميه عزلًا، فقيادة خالد ﷺ للجيوش الإسلامية لم تأت بقرار من الخليفة الصديق، إنما جاءت باتفاق بين القادة في ساحة المعركة، وهي فكرة خالد ﷺ يوم اقترح تعاور الإمارة، ويكون في كل يوم أمير إلى أن تنتهي المعركة، وطلب خالد القيادة العامة ليوم واحد، ثم يتم التداول بعد ذلك بين القادة، وطلب خالد ﷺ الابتداء به، فنحن إذن حين نعلم أن عمر ﷺ قد ولى أبا عبيدة بن الجراح القيادة العامة، إنما هو قرار جديد لا ينقض قرارًا سبقه.



اليرموك (٧) انهيار جبهة الروم

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٤٣) خريطة (٨٩))



لوحة تعبر عن الواقوصة (معركة اليرموك)

(نقلاً عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٤٤ - ١٤٥)

وأصح ما ورد في هذا الموضوع نصان نستعرضهما كما ورد في تاريخ الطبري.

النص الأول: قال ابن جرير: (حدثنا عمر، قال حدثنا علي، عن عيسى بن يزيد، عن صالح ابن كيسان قال: كان أول كتاب كتبه عمر حين وُلِّي أبو عبيدة على جند خالد:

أوصيك بتقوى اللَّه الذي يبقى ويفنى ما سواه، الذي هدانا من الضلالة، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحق عليك، لا تقدِّم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلًا قبل أن تستريده لهم، وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة، وقد أبلاك اللَّه بي وأبلاني بك، فغمض بصرك عن الدنيا، وأَلْهِ قلبك عنها، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيتَ مصارعهم) [١].

قال ابن جرير: (وحدثني عمر عن علي بن محمد بإسناده عن النفر الذين ذكرت روايتهم عنهم في أول ذكري أمر أبي بكر أنهم قالوا: قدم بوفاة أبي بكر إلى الشام شداد بن أوس بن ثابت الأنصاري، ومحمية بن جزء ويرفأ، فكتموا الخبر عن الناس حتى ظفر المسلمون، وكانوا بالواقوصة يقاتلون عدوهم من الروم وذلك في رجب، فأخبروا أبا عبيدة بوفاة أبي بكر وولايته حرب الشام، وضم عمر إليه الأمراء وعزل خالد بن الوليد) [٢].

وكلا هذين النصّين متكاملان، فقد أصبح أبو عبيدة القائد العام لحرب الشام، وأصبح الأمراء جميعًا تابعين له، وعزل خالد عن القيادة العامة المؤقتة التي اتفق عليها الأمراء.

وهناك نص ثالث يوضح هذين النصين معًا وهو:

خبر دمشق من رواية سيف:

قال ابن جرير: (وكتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن أبي عثمان عن خالد وعبادة قالا:

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٣٥٥).

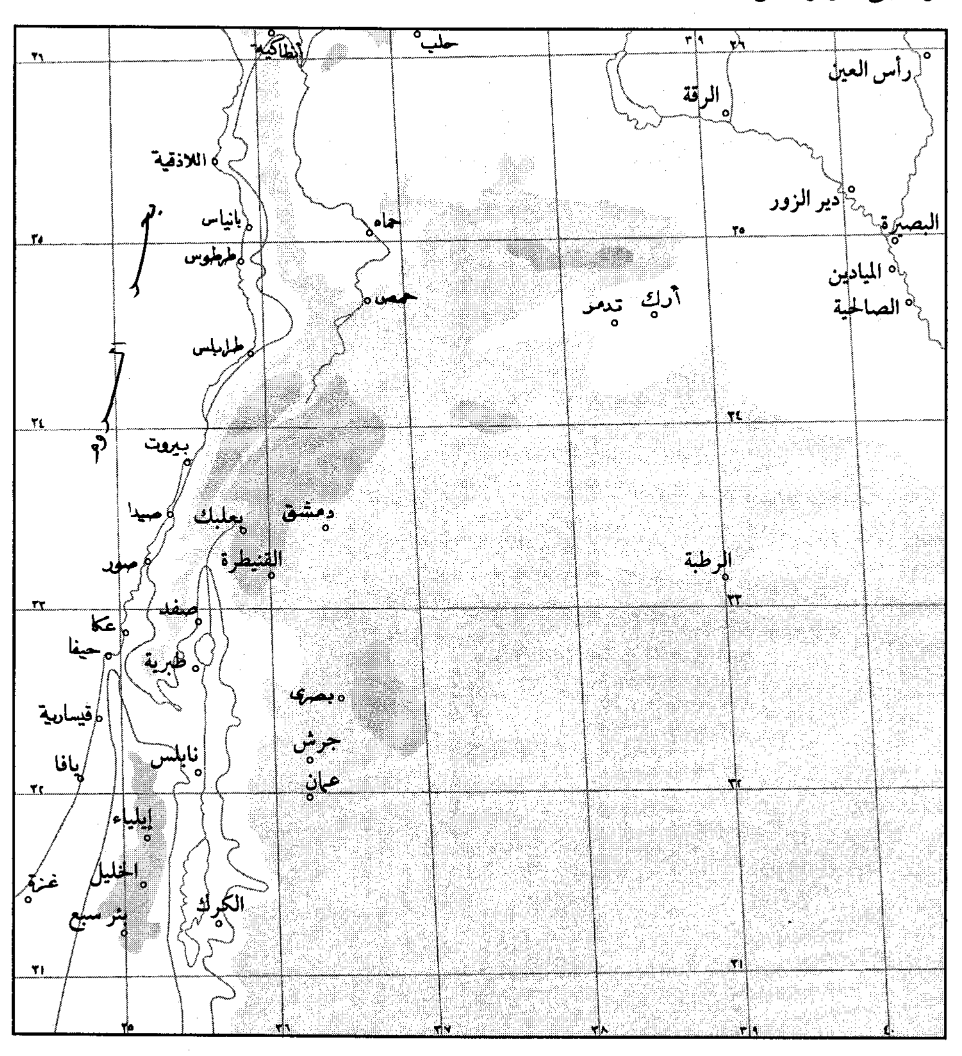
لما هزم الله جند اليرموك، وتهافت أهل الواقوصة، وفرغ من المقاسم والأنفال، وبعث بالأخماس وسرحت الوفود، استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب ابن أُبيّ الحميري، كيلا يغتال بردة، ولا تقطع الروم على مواده، وخرج أبو عبيدة حتى ينزل بالصُّفَّر، وهو يريد اتباع الفالة، ولا يدري أيجتمعون أم يتفرقون، فأتاه الخبر بأنهم أرزوا إلى فِحْل، وأتاه الخبر أن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص، فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أم بفِحْل من بلاد الأردن، فكتب في ذلك إلى عمر، وانتظر الجواب، وأقام بالصُّفَّر، فلما جاء عمر فتح اليرموك أقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، فإنه ضم خالدًا إلى أبي عبيدة، وأمر عمرًا بمعونة الناس حتى يصير الحرب إلى فلسطين، ثم يتولى حربها) [1].

فخالد وعمرو تركا القيادة الخاصة التي كانت قبل اليرموك، إذ صار خالد نائب القائد العام بجوار أبي عبيدة، وصار عمرو بلا قيادة ليتفرغ لفتح فلسطين، أما العزل فقد تم بعد أربع سنوات، وهو ما نتحدث عنه في أوانه.

* * *
* *
*

---

(١) تاريخ الطبري (٣٥٦/٢).



الشام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب



الفصل الثالث

فتح دمشق وفِحْل

قال ابن جرير في تاريخه: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن أبي عثمان، عن خالد وعبادة قالا:

لما هزم اللَّه جند اليرموك، وتهافت أهل الواقوصة، وفرغ من المقاسم والأنفال، وبعث بالأخماس، وسرحت الوفود، استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب ابن أبيٍّ الحميري كيلا يغتال بردة، ولا تقطع الروم على مواده، وخرج أبو عبيدة حتى ينزل بالصفر [١]، وهو يريد اتباع الفالّة [٢] ولا يدري أيجتمعون أو يتفرقون، فأتاه الخبر بأنهم أرزوا إلى فِحْلٍ، وأتاه الخبر بأن المدد قد أتي في أهل دمشق من حمص، فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أم بفحل من بلاد الأردن، فكتب بذلك إلى عمر.

وانتظر الجواب، وأقام بالصُّفَّر، فلما جاء عمر فتح اليرموك، أقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، فإنه ضم خالدًا إلى أبي عبيدة، وأمر عَمْرًا بمعونة الناس حتى يصير الحرب إلى فلسطين ثم يتولى حربها...) [٣].

ولما جاء عمرَ الكتابُ عن أبي عبيدة بالذي ينبغي أن يبدأ به كتب إليه:

« أما بعد فابدأوا بدمشق، فانهدُوا لها، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل فِحْل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص، فإن فتحها اللَّه قبل دمشق فذاك الذي نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح اللَّه دمشق، فلينزل بدمشق من يمسك بها، ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فِحْل، فإن فتح اللَّه عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمرًا وأخلهما بالأردن وفلسطين، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته ») [٤].

نحن الآن مع عمر ﷺ الخليفة الجديد في أول تعليماته التي تتدخل في التفاصيل

---

(١) مَرْجُ الصُّفَّر: هو السهل الذي يقع جنوبي نهر الأعور على بعد خمسة وعشرين كيلو مترًا غربي دمشق.

(٢) أي المنهزمون.

(٣ ، ٤) تاريخ الطبري (٣٥٧/٢).

كاملة، وكأنه في ساحة المعركة، وقبل أن نتحدث عن تعليمات أمير المؤمنين في المدينة، نتساءل عن سبب وصول المسلمين إلى مَرْجِ الصُّفَّر قرب دمشق، وذلك قبل أن ينهوا جيب الأردن، ولا يجيب على هذا السؤال غير البلاذري في كتابه فتوح البلدان، حيث يشير إلى تجمع ضخم جرى في مَرْجِ الصُّفَّر ليكون خط حماية لدمشق، وسقوط دمشق يعني انهيار الإمبراطورية الرومانية في الشام، فكانت سرعة المبادرة في ضرب هذا التجمع الذي يتلقى المدد من هرقل عن طريق حمص.

ويحدثنا البلاذري عن معركة مرجِ الصُّفَّر فيقول:

(ثم اجتمعت الروم جمعًا عظيمًا، وأمدهم هرقل بمدد، فَلِقيَهُم المسلمون بمرْجِ الصُّفَّرِ وهم متوجهون إلى دمشق وذلك لهلال المحرم سنة أربع عشرة، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، حتى جرت الدماء في الماء وطحنت بها الطاحونة، وجرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف، ثم ولَّى الكفرة منهزمين مفلولين لا يلْوُون حتى أتَوا دمشق وبيت المقدس...) [(١)].

ورغم ضراوة المعركة فلم نر المؤرخين يشيرون إلى خطط في المواجهة، إنما يتحدثون عن بطولات عظيمة ظهرت من بعض القادة العظام من المسلمين، ويخصّون بالذكر خالد بن سعيد رضي الله عنه.

ولا عجب في ذلك فخالد بن سعيد له معركة ثأر خاصة في مرج الصفر؛ لقد خاض معركته الأولى فيها قائدًا وهزم شر هزيمة حين كان القائد الوحيد في الشام، فلها غصص كبيرات في صدره، ومن أجل هذا حرص على أن يغسل عار تلك الهزيمة بدم الشهادة، كما فعل عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه في اليرموك، وكما فعل إخوته فيها.

عروس الليلة الواحدة:

وندع خالدًا قليلًا لنعرض لأم حكيم بنت الحارث رضي الله عنها التي اتصل نسبه بها في لحظاته الأخيرة.

(ذكر الواقدي قال: كانت أم حكيم بنت الحارث بن هشام تحت عكرمة بن أبي جهل، فقتل عنها بأجنادين [(٢)]، فاعتدت أربعة أشهر وعشرًا، وكان يزيد بن أبي سفيان

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٢٥).

(٢) ومقتله واستشهاده في اليرموك أشهر.

يخطبها، وكان خالد بن سعيد يرسل إليها يعرض إليها في خطبتها، فخطبت إلى خالد بن سعيد فتزوجها على أربعمائة دينار. فلما نزل المسلمون مَرْجَ الصُّفَّرِ، وكان خالد قد شهد أجنادين، وفِحْلَ [١]، ومَرْجَ الصُّفَّرِ، أراد أن يعرِّس بأم حكيم، فجعلت تقول: لو أخرت الدخول حتى يفض الله هذه الجموع، فقال خالد:

إن نفسي تحدثني أني أصاب في جموعهم، قلت: فدونك.

فأعرس بها عند القنطرة التي بالصُّفَّرِ، وبها سميت قنطرة أم حكيم، وأَوْلَمَ عليها، فدعا أصحابه إلى طعام، فما فرغوا من الطعام حتى صفَّت الروم صفوفها، صفوفًا خلف صفوف، وبرز رجل منهم معلَّم يدعو إلى البراز، فبرز إليه أبو جندل بن سهيل ابن عمرو، فنهاه أبو عبيدة، فبرز حبيب بن مسلمة فقتله حبيب ورجع إلى موضعه، وبرز خالد بن سعيد، فقاتل فقتل، وشدَّت أم حكيم عليها ثيابها، وتبدت وإن عليها أثر الخلوق، فاقتتلوا أشد القتال على النهر، وصبر الفريقان جميعًا، وأخذت السيوف بعضها بعضًا، وقتلت أم حكيم يومئذ سبعة بعمود الفسطاط الذي بات فيه خالد معرِّسًا بها) [٢].

ونتابع خالد بن سعيد وهو يرتجز قبل استشهاده.

(وفي يوم المرج يقول خالد بن سعيد بن العاص:

مَنْ فارسٌ كَرِهَ الطِّعانَ يُعِيرُني ... رُمْحًا إذَا نَزَلُوا بمرجِ الصُّفَّرِ)

وقال هشام بن محمد الكلبي: استشهد خالد بن سعيد يوم المرج وفي عنقه الصَّمْصَامَةُ [٣] سيفه، وكان النبي ﷺ وجهه إلى اليمن عاملًا فمرَّ برهط عمرو ابن معديكرب الزبيدي من مذحج، فأغار عليهم وسبى امرأة عمرو بن معديكرب وعدة من قومه. فعرض عليه عمرو أن يمن عليهم فيسلموا ففعل وفعلوا، فوهب له عمرو سيفه الصمصامة وقال [٤]:

خَليلٌ لم أهَبْهُ من قلاه ... ولكنَّ المواهبَ للكرامِ

خليلٌ لم أخنْهُ ولم يخُنِّي ... كذلكَ ما خِلالِي أو ندامِي

---

(١) وذلك على الرواية التي تقول أن فِحْلَ ومعركتها قبل معركة مَرْجِ الصُّفَّرِ.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ت (٣٥٠٢).

(٣) وهو سيف عمرو بن معديكرب الزبيدي.

(٤) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٢٧).

حَبَوْتُ بهِ كريمًا من قريشٍ فسُرَّ بهِ وصِينَ عَنِ اللِّئامِ

قال: فأخذ معاوية السيف عن عنق خالد يوم المرج حين استشهد فكان عنده)[١].

وتنقل هذا السيف من عنق المجاهد الشهيد القائد خالد بن سعيد حتى وصل إلى الخليفة العباسي موسى الهادي (فأعجب به وأمر الشاعر - وهو أبو الهول - أن ينعته فقال:

حازَ صَمْصَامةَ الزبيديِّ عمرو خيرُ هذا الأنام موسَى الأمينُ

سيفُ عمرٍو كانَ فيمَا علِمْنا خيرَ مَا أطبِقَتْ عليهِ الجفونُ

أخضَرَ اللونِ بينَ حدَّيهِ بردٌ منْ ذعافٍ تميسُ فيه المنونُ

فإذا مَا سلَلْتَهُ بهرَ الشَّمْسَ ضياءٌ فلمْ تكَدْ تَستَبِينُ

ما يبالِي إذا الضريبةُ حانَتِ أشمالٌ سطَتْ بهِ أمْ يمينُ

نعمَ مخراقُ ذي الحفيظةِ في الـ ـهيجَاءِ يعصى بهِ ونعم القرين)[٢]

خالد بن سعيد ﷺ وسيفه الصَّمْصَامة والذي بحث عن رمح يطعن به بجوار سيفه، ليواجه الجموع الزاحفة، وزوجه أم حكيم بنت الحارث، يتجاوزان الزمن، فإذا القنطرة التي تم فيها عُرْسُ أمِّ حكيم لتسَمَّى حتى هذا اليوم قنطرة أم حكيم، وسيفه الصَّمْصَامة الذي توارثه جيلٌ عن جيلٍ لمئات السنين حتى ليصل إلى الخليفة العباسي الواثق بالله عام (٢٢٧هـ)، وكذلك تحرك الجيش الإسلامي المثخن بالجراح، فليس من جيش بلغت جراحاته ما بلغت جراحات مَرْجِ الصُّفَّر، أربعة آلاف جريح هي صور رائعة تمثل صبر الجيل الإسلامي الرائد.

الخطة العمرية:

وعودة إلى الخطة الحربية التي وضعها عمر ﷺ بعد وقعة مَرْجِ الصُّفَّرِ، حيث صار الجيش الإسلامي بجوار دمشق، وفِحْل في الأردن، فيها تجمعٌ ضخم للجيش الروماني، وهرقل في حمص يضع الخطط لحماية دمشق، وإيقاف زحف الجيش الإسلامي، ويبعث المدد تلو المدد لحماية دمشق. وكانت خطة عمر ﷺ أحد عشر بندًا:

(١ - أما بعد فابدأوا بدمشق.

(١، ٢) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٢٦، ١٢٧).

٢ - وانهدوا لها فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم.

٣ - واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم.

٤ - وأهل فلسطين وأهل حمص.

٥ - فإن فتحها اللّٰه قبل دمشق فذاك الذي نحب.

٦ - وإن تأخر فتحها حتى يفتح اللّٰه دمشق، فلينزل بدمشق من يمسك بها.

٧ - ودعوها.

٨ - وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل.

٩ - فإن فتح اللّٰه عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص.

١٠ - ودع شرحبيل وعمرًا وأخلهما بالأردن وفلسطين.

١١ - وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته) [١].

لقد كانت خطة لو دعي لها قيادات رؤساء الأركان العامة لعجزوا عن وضعها، ويضعها عمر أمير المؤمنين في المدينة المنورة، وكأن الخرائط الحربية التي تصورها الطائرات اليوم بلا طيار قد اخترعت في ذلك الوقت.

لقد كان عمر ﷺ سيد الدنيا، واستطاع أن يحطم هرقل سيد الدنيا آنذاك، والذي حطم إمبراطورية الفرس واسترد كل أراضيه السليبة، وحاصر عاصمة الفرس، فماذا فعل هنا أمام خطة عمر ﷺ.

لم يكتف عمر ﷺ كما اكتفى العرب اليوم بالهجوم وانتهى الأمر، إنما وضع كل الحسابات في خطته، والتي نلخصها بما يلي:

أولًا: اعتبر الهدف الرئيسي للهجوم هو دمشق، وطالما أن دمشق لم تسقط، فلا يمكن اعتبار أي نصر عسكري قد تحقق على ساحة سورية وكما قال: (فهي حصنهم وبيت مملكتهم).

ثانيًا: لكنه حسب ألف حساب لانقضاض الجيش الروماني في فِحْل على المسلمين ومعهم سلاحهم المدرع، ثمانون ألف فارس، فيطبقون على الجيش الإسلامي،

---

(١) تاريخ الطبري (٣٥٧/٢).

ويجعلونه حديث أمس الدابر، فلا بد إذن من حماية ظهر الجيش المهاجم، وليس عنده قوات احتياطية يمد بها المسلمين، فعلى الأربعين ألفًا في الشام أن يتدبروا أمرهم، فلن يُغْلَب اثنا عشر ألف من قلة، فنحن أمام جيش كل واحد فيه بألف، وكأنما هو أربعون مليونًا من البشر، يتم توزيعهم على أنحاء سورية كاملة.

ثالثًا: ولأجل هذا الحساب قال: (واشغلوا عنكم أهل فِحْل بخيل تكون في إزائهم بنحورهم).

فليست مهمة هذه الخيل سهلة، بل مهمتها أن تحاصر ثمانين ألف فارس بخمسة آلاف فارس على أكبر تقدير، فلا يعقل أن يرسل إلى فِحْل أكثر من نصف الخيل المكلفة بمحاصرة دمشق، فالتفوق في العدد والعدة لا يقارَن مع قلة عدد وعدة المسلمين.

رابعًا: وفي هذه الخطة مطالبة غير مباشرة بفتح فِحْل وليس حصارها فقط، كما ينم كتاب أمير المؤمنين (فإن فتحها اللّه قبل دمشق فذلك الذي نحب).

خامسًا: ولم يكتف الفاروق ﷺ بمحاصرة جيش فِحْل فخطوط الإمداد مفتوحة من جانبين: من جهة حمص المتصلة بطرابلس والبحر، ومن جهة فلسطين! فلا بد من إيقاف أي مدد يردُ من هاتين الجهتين، وهذا ما أكده ﷺ في خطابه (وأهل فلسطين وأهل حمص).

سادسًا: ولم يكتف الفاروق ﷺ بتحقيق النصر في فتح دمشق، فالمحافظة على النصر أكبر من النصر ذاته، ومن أجل ذلك تَابَعَتِ الخطةُ وضعَ ما بعد الفتح، فلا بد من المحافظة على دمشق لاحتمال محاولة استردادها من الروم في حرب خاطفة. (فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها).

سابعًا: وفي حسابات الحروب ليس هناك نتائج قطعية، إنما هو عالم الاحتمالات دائمًا، والقائد العبقري الحكيم هو الذي يدخل في تخطيطه أسوأ الاحتمالات، وأحسن الاحتمالات.

فأحسن الاحتمالات (فإن فتحها اللّه قبل دمشق فذاك الذي نحب).

وأسوأ الاحتمالات (وإن تأخر فتحها حتى يفتح اللّه دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها، ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فِحْل).

ثامنًا: وماذا يريد القائد العظيم المقيم في المدينة، بعد دحر الجيشين الرومانيين في دمشق وفِحْل بعد فتحهما، إنه يريد فتح سورية كاملة بهذا الدين العظيم، فلا يزال هرقل داهية الأرض يعد العدة لسحق المسلمين ولم ييأس، فهذه حمص وفلسطين لا تزال تحت سيطرته، وإذن ففِحْل ودمشق لا تزالان تحت التهديد الروماني، طالما أن هذين الموقعين خارج السيطرة الإسلامية؛ ولذلك كانت أوامر أمير المؤمنين ﷺ أن يمضي أعظم قواده إلى حمص. (فإن فتح اللَّه عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص).

تاسعًا: والقائدان العظيمان الآخران عليهما حماية الانتصارات السابقة. (ودع شرحبيل وعمرًا وأخلهما بالأردن وفلسطين).

لقد عاد عمرو بن العاص إلى عرينه، وقد أمضى عامًا كاملًا وهو يواجه الروم بالكر والفر، حتى حقق اللَّه النصر المؤزر له في أجنادين، فالقواد الأربعة الذين ابتعثهم الصديق ﷺ عادوا إلى مواقعهم - أو عليهم أن يعودوا إلى مواقعهم -؛ أبو عبيدة لحمص، وعمرو لفلسطين، وشرحبيل للأردن، ويزيد لدمشق، ولكن شتان بين المرحلة الأولى والمرحلة الجديدة.

فالمرحلة الأولى كانت استدراجًا من هرقل للقضاء عليهم لكي ينفرد بكل قائد منهم على حدة، أما المرحلة الجديدة فتحمل نصر اليرموك، ونصر أجنادين، ونصر مَرْجِ الصُّفَّر، وتستعد لحصار دمشق وفِحْل.

وقد مُرِّغت كرامة الروم بالوحل في هذه المعارك الضخمة التي خاضها الجيش الإسلامي!! لقد كانت المرحلة الأولى مرحلة استطلاع، أما هذه المرحلة فهي مرحلة تثبيت للوجود الإسلامي في هذه الأرض، مرحلة الفتح المبين.

من الخطة النظرية إلى التطبيق العملي:

لقد كان الإعداد والجهد البشري، والعبقرية الحربية هو الذي يعوض الخلل في العدد والعدة، وجاء دور الجيل المسلم، جيل النبوة، جيل الخلافة الراشدة، ليكون أداة التنفيذ الأمنية والعملية على الأرض.

فماذا فعل أبو عبيدة ﷺ، القائد العام للجيش الإسلامي، ونائبه خالد بن الوليد، بعد وصول الخطة النظرية للتحرك؟

(... سَرَّحَ أبو عبيدة إلى فِحْل عشرة قواد:

١ - أبا الأعور السلمي. ٢ - وعبد عمرو بن يزيد بن عامر الجرشي.
٣ - وعامر بن خيثمة. ٤ - وعمرو بن كلب بن يحصب.
٥ - وعمارة بن الصعق بن كلب. ٦ - وصيفي بن علبة بن سنامل.
٧ - وعمرو بن الحبيب بن عمرو. ٨ - ولبدة بن عامر بن خثعمة.
٩ - وبشر بن عصمة. ١٠ - وعمارة بن مخشي قائد الناس.

ومع كل رجل خمسة قواد؛ وكانت الرؤساء تكون من الصحابة حتى لا يجدوا من يحتمل ذلك منهم) [١] نعم إنهم من الصحابة، لكنهم من جيل الشباب الذين لا نعرف شيئًا عنهم، وكل ما تذكره كتب التراجم عنهم أنهم من قادة الفتوح، وبإمرة كل قائد من هؤلاء القادة العشرة خمسة قواد كذلك، إنه الجيل الجديد يتحمل مسؤولياته، فلننظر ماذا يفعل!

ابتداء الالتحام في فِحْل:

(فساروا من الصفر حتى نزلوا قريبًا من فِحل، فلما رأت الروم أن الجنود تريدهم بثقوا المياه حول فِحْل، فأردغت الأرض ثم وحِلت، واغتم المسلمون من ذلك، فحبسوا عن المسلمين بها ثمانين ألف فارس وكان أول محصور بالشام أهل فِحْل، ثم أهل دمشق، وبعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص ردءًا، وبعث علقمة بن حكيم ومسروقًا فكانا بين دمشق وفلسطين، والأمير يزيد ففصل، وفصل بأبي عبيدة من المرج، وقدم خالد بن الوليد، وعلى مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة، وعلى الخيل عياض، وعلى الرجل شرحبيل، فقدموا على دمشق، وعليهم نسطاس ابن نسطورس، فحصروا أهل دمشق) [٢].

لقد نفذت الخطة كاملة، ولم يدر أهل فِحْل أنهم إنما ذبحوا أنفسهم ببثق الماء، صحيح أن الماء حال دون الالتحام في فِحْل وأوقف هجوم المسلمين عليها، لكنه في الوقت نفسه تحول إلى سلاح مضاد إذ حال بينهم وبين إمداد أهل دمشق المحاصرين، من الجيش الإسلامي.

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٣٥٧).

فثمانون ألف فارس لو توجهوا إلى دمشق وجعلوا المسلمين بين فكي كماشة، لكان يمكن أن يبيدوا الجيش الإسلامي كلَّه، ولقد كان الهدف الرئيسي من حصار فِحْل هو الحيلولة بينهم وبين إمداد أهل دمشق بالجند والخيل والسلاح، وقد تحقق الهدف، وذلك بحمقهم أنفسهم عندما صارت الأوحال تمنعهم من التحرك، ويرى باشميل، أن المسلمين كادوا أن يقعوا في فخ أهل فحل لولا سرعة انتباه القائد وتراجعه عن غزوها حين رأى الماء.

(فقد خُدع قائد الجيش الإسلامي فأمره بالهجوم على مدينة فِحْل، وكانت فرق الخيالة بالمقدمة فلما شرعت الخيل في التقدم، وكان يمكن أن تنزل بسلاح الفرسان كارثة لو أن الروم خرجوا من مدينة فِحْل، وهاجموا الخيّالة المتورطة خيلهم في الوحل.

ولكن عناية اللَّه تعالى ألهمت القائد العام أبا الأعور السلمي، فأصدر أوامره إلى جميع فرق الجيش، وخاصة سلاح الخيالة بالتراجع والتوقف عن التقدم، وأن يخرجوا بأسرع ما يمكن من الأرض المغمورة بالمياه إلى اليابسة، وفي الحال أخذت الكتائب الإسلامية بالتراجع حتى خرجت من حقول الوحل... وكان أهل فِحْل من الروم ينظرون إلى ما يعانيه المسلمون بالتخلص من حقول الوحل، ولكنهم لم يجرؤوا على اغتنام فرصة تورطهم فيها جموعهم، وذلك لما تطفح به قلوب الروم (بعد اليرموك) من الرعب من الجندي المسلم؛ لأن أكثر الذين يعتصمون بفحل من الفلول التي نجت من سيوف المسلمين في اليرموك.

وقد تمكن - وبصعوبة - جيش الإسلام من التخلص من الوحل الذي وقع فيه، ومن عجب أن المستنقعات هذه التي أحاط الرومان بها فِحْل، قد وقعوا هم فيما بعد فيها، فأبادهم الجيش الإسلامي وهم متورطون فيما صنعت أيديهم كما سيأتي تفصيله إن شاء اللَّه.

ولقد اكتفى المسلمون بفرض الحصار على مدينة فِحل التي يعتصم بها ثمانون ألفًا من الرومان إلى أن فرغ أبو عبيدة من السيطرة على العاصمة دمشق) [1].

---

(١) حروب المسلمين في الشام لباشميل (ص ٢٨٧).

أما الجوانب الأخرى من الخطة فقد طبقت بحذافيرها كذلك، إذ تحرك ذو الكلاع الحميري مع فصيلة من الجيش الإسلامي، فسد منفذ طريق حمص لمنع وصول إمدادات هرقل إلى دمشق، كما مضى علقمة بن حكيم ومسروق فسدًّا منفذ فلسطين، وبذلك أصبحت دمشق تحت رحمة الجيش الإسلامي.

حصار دمشق وفتحها:

لقد كان قائد الجيش الإسلامي خالد بن الوليد وهو المكلف بفتح دمشق وحصارها، وعلى مجنبتيه القائد العام أبو عبيدة بن الجراح ونائب القائد العام عمرو ابن العاص. وكان عياض بن غنم هو قائد سلاح الفرسان، وقائد الرجالة شرحبيل ابن حسنة.

إن القيادات التي خاضت معركة اليرموك هي نفسها التي أطبقت على دمشق، وهي التي أثبتت كفاءتها وعبقريتها في الانتصار على أعظم أباطرة الأرض، وضرب كل مخططاته، وازدادت خبرة ودراية في الأرض والناس الذين تقاتلهم، وأمكن الإطباق على أبواب دمشق السبعة؛ حيث كان كل قائد على أحد أبوابها.

(وقد حدد القائد العام أثناء رسم خطة الهجوم على دمشق خمسة مواقع تحيط بها من كل جانب وهذه المواقع هي:

١ - الموقع: باب توما، ويقع شمال شرق دمشق، وأمر عمرو بن العاص بالمرابطة فيه.

٢ - الموقع المسمى بباب الجابية، ويقع غربًا تجاه حوران، وقد رابط فيه القائد العام نفسه.

٣ - الموقع المسمى بباب الفراديس، ويقع شمال العاصمة، وقد أمر شرحبيل ابن حسنة بالمرابطة فيه.

٤ - الباب الشرقي للمدينة (وهو أهم المواقع) وقد أُمِر بالمرابطة فيه خالد بن الوليد.

ويذكر المؤرخون أن حصار دمشق بدأ في اليوم السادس عشر من شهر محرم سنة أربع عشرة هجرية) [1].

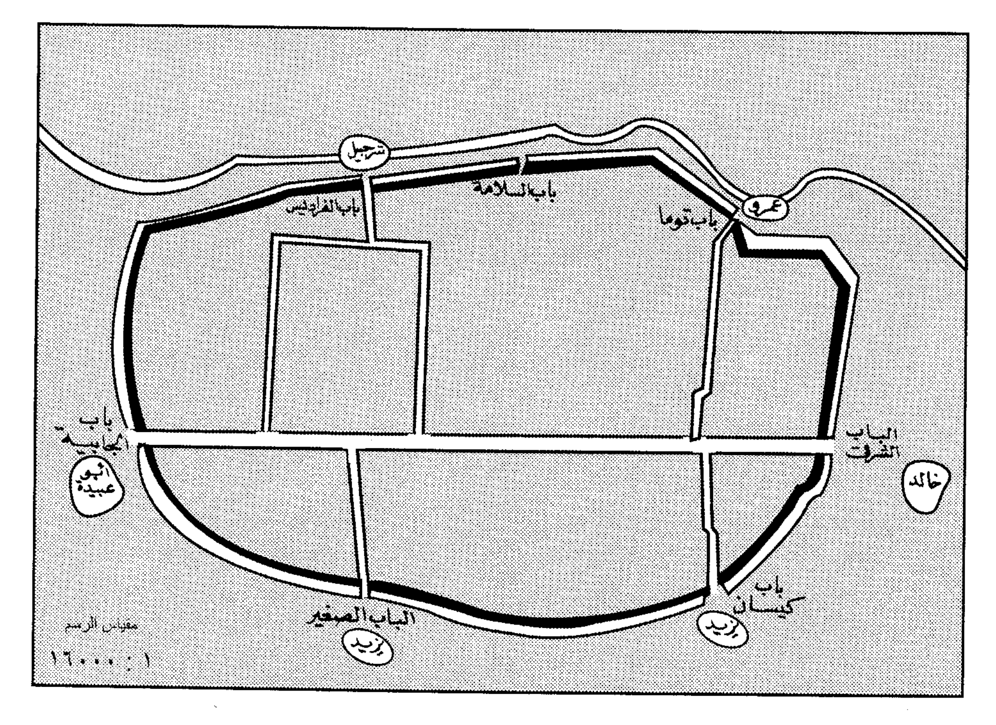
---

(١) حروب المسلمين في الشام (ص ٢٩٤).

ويقدم لنا البلاذري رحمه الله بقية المواقع والأبواب ومن كان عليها.

٥ - (ونزل يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير إلى الباب الذي يعرف بكيسان.

٦ - وجعل أبو الدرداء عويمر بن عامر الخزرجي على مسلمة ببرزة)[1].



الحصار الإسلامي لمدينة دمشق

(فلما أيقن أهل دمشق أن الأمداد لا تصل إليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا، وازداد المسلمون طمعًا فيهم، وقد كانوا يرون أنها كالغارات قبل ذلك، إذا هجم البرد قفل الناس، فسقط النجم، والقوم مقيمون، فعند ذلك انقطع رجاؤهم، وندموا على دخول دمشق)[2].

ولم يكن وضع المحاصِرين سهلًا أبدًا.

(وقد تعب المسلمون في حصار دمشق، إذا استمر حوالَي سبعين يومًا ومما أطال الحصار، وأعاق تحركات المسلمين في زحفهم على دمشق أن الرومان قد أحاطوا المدينة بسور عظيم، جعلوا بين هذا السور وبين جيش المسلمين مانعًا صعبًا للغاية، وهو

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٢٧).

(٢) تاريخ الطبري (٣٥٨/٢).

خندق واسع عميق مملوء بالماء يصعب على الجند اجتيازه ليصلوا إلى سور المدينة، وزاد الأمر صعوبة أن أكثر الجند الإسلامي من أبناء الصحراء لا يجيدون السباحة، حتى إنهم في النهاية استخدموا القِرَب المنفوخة لاجتياز الخندق المشار إليه) (١).

(ولما كانت دمشق حصينة مطوقة بالأسوار العالية، والخنادق العميقة المملوءة بالماء، فقد طال حصارها على المسلمين، فاضطروا إلى استخدام هذه الأسلحة الثقيلة، التي هي من صنع روماني، فصاروا يقذفون دمشق بقذائف المنجنيق والعرادات، وكانت القذائف أحيانًا تحمل النار لإحراق ما يمكن إحراقه من المواقع الحربية، وكان النفط قد عرف في ذلك العصر، فصاروا يستخدمونه لإشعال القذائف، وتسليطها على مواقع العدو في المدينة المحصورة، ومع تعب المسلمين لطول الحصار - حيث صمدت حامية دمشق القوية - فإن أهل دمشق أيضًا قد أرهقهم الحصار، وأخذت المواد الضرورية تنفد عندهم؛ لأن المسلمين تمكنوا من منع أي إمداد يصل من الخارج إلى العاصمة المحصورة) (٢).

خالد بطل فتح دمشق:

يحفظ التاريخ عن خالد - كيف صارت صناعة الحرب هوايته، والجهاد في سبيل اللَّه غايته تلك الكلمة المأثورة الخالدة:

(ما من ليلة يُهدَى إليَّ فيها عروس أنا لها محب أحب إليَّ من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد في سَرِية أُصَبِّحُ بها العدو) (٣).

فهو عندما يحاصر الشام في سَرِية من المهاجرين والبرد والزمهرير والجليد الذي يكاد يوقف الدم في العروق إنما يمارس هوايته ويتلذذ فيها كمن يتلذذ مع عروس ليلة البناء بها، فمن يستطيع ما يستطيعه سيف اللَّه.

هذا هو الجانب الأول من أعماق خالد بن الوليد ﷺ، فهل لنا أن نبحث عن الجانب الآخر ونرى ذلك البطل الذي لم يهزم بمعركة قط، والذي هو أعظم قائد في التاريخ بلا منازع.

(١، ٢) حروب المسلمين في الشام (ص ٢٩٥).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٣٧٥)، وقال المحقق فيه - ذكره الحافظ الهيثمي (٩/ ٣٤٩)، ونسبه إلى الطبري وأبي يعلى وقال: رجالهما رجال الصحيح، وقال البوصيري: رواه أبو يعلى بسند صحيح.

هل لنا أن ندخل إلى أعماقه، ونعرف مدى الغرور والكبرياء الذي يحمله؟

ندلف إلى قلبه من هذه الحادثة:

(حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه أن خالد بن الوليد فقد قلنسوة له يوم اليرموك، فقال: اطلبوها، فلم يجدوها، ثم وجدت فإذا هي قلنسوة خَلِقة [1]، فقال خالد: اعتمر رسول الله ﷺ فحلق رأسه، فابتدر الناس شعره، فسبقتهم إلى ناصيته، فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالًا وهي معي إلا رزقتُ النصر) [2].

فإذا كانت كليات الأركان في الدنيا تدرِّس عبقرية خالد بن الوليد أعظم قواد التاريخ القديم، فخالد بن الوليد تلميذ في مدرسة النبوة يأمل النصر بناصية شعر رسول الله ﷺ.

هل لنا أن ننظر معًا إلى ذلك المشهد، الناس يتسابقون ويركضون لاهثين، من يفوز بشعرة من شعر رسول الله ﷺ، فمن يقدر أن يسبق خالدًا، هل تنظرون معِي، ذلكم خالد كان الفائز الأول، وأكب على ناصية رسول الله ﷺ وضمها إلى صدره، ثم جعلها في قلنسوته، وخاطها على تلك الناصية.

(فلم أشهد قتالًا وهي معي إلا رُزقت النصر).

ترى هل كانت هذه الناصية ترسل إشعاعات كهربائية إلى عقل خالد العبقري، فتفتح كوامن تلك العبقرية وتجعله يضع أعظم الخطط في مواجهة أعدى العدو.

لا تعجبوا، فذلكم الصدِّيق يذهله ذلك الحب من أخي خالد بن الوليد، سهيل ابن عمرو رضي الله عنه، ويقول: (ولقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائمًا عند المنحر يُقرّب لرسول الله ﷺ بُدنُه، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده، ودعا الحلاق فحلق رأسه، فأنظر إلى سهيل يلقط من شعره، وأراه يضعه على عينيه، وأذكر امتناعه يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فحمدت الله تعالى أن هداه للإسلام) [3].

---

(١) خَلِقة: قديمة.

(٢) سير أعلام النبلاء (١/٣٧٥)، وقال المحقق فيه: ذكره الهيثمي في المجمع (٩/٣٥٠)، ونسبه إلى أبي يعلى، قال: رجاله رجال الصحيح.

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٥/١٠٤).

وهذه إشعاعات الناصية النبوية في تفتيق مكامن العبقرية الخالدية:

(ووُلِدَ للبطريق الذي دخل على أهل دمشق مولود، فصنع عليه [١]، فأكل القوم وشربوا، وغفلوا عن مواقعهم، ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالد، فإنه كان لا يُنيم ولا ينام، ولا يخفى عليه من أمورهم شيء، عيونه ذاكية، وهو معني بما يليه، قد اتخذ حبالًا كهيئة السلالم، وأوهاقًا [٢]، فلما أمسى من ذلك اليوم نهد ومن كان معه من جنده الذين قدم عليهم، وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدي وأمثاله من أصحابه في أول يومه وقالوا: إذا سمعتم تكبيرنا على السور، فارْقَوا إلينا، وانهدوا للباب، فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون، رموا بالحبال الشرف، وعلى ظهورهم القِرَب التي قطعوا بها خندقهم، فلما ثبت لهم وَهَقان تسلق فيهما القعقاع ومذعور، ثم لم يدعا أحبولة إلا أثبتاها، والأوهاق بالشرف.

وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق، وأكثره ماءً، وأشده مدخلًا، وتوافوا لذلك، فلم يبق ممن معه إلا وقد رقي أو دنا من الباب، حتى إذا استووا على السور حدر عامة أصحابه، وانحدر معهم، وخلَّف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي، وأمرهم بالتكبير، فكبر الذين على رأس السور، فنهد المسلمون إلى الباب، ومال إلى الحبال بشر كثير، فوثبوا فيها، وانتهى خالد إلى أول من يليه، فأنامهم [٣] وانحدر إلى الباب، فقتل البوابين، وثار أهل المدينة، وفزع سائر الناس، فأخذوا مواقفهم، ولا يدرون ما الشأن، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم، وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف، وفتحوا للمسلمين، فأقبلوا عليهم من الداخل، حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل إلا أنيم.

ولما شد خالد على من يليه، وبلغ منهم الذي أراد عنوة أرز من أفلت إلى أهل الأبواب التي تلي غيره، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا، فلم يفجأهم إلا وهم يبوحون بالصلح، فأجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الأبواب وقالوا لهم: ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب، فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم، ودخل خالد مما يليه عنوة، فالتقى خالد والقواد في وسطها، هذا استعراضًا وانتهابًا، وهذا صلحًا وتسكينًا فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح، فصار صلحًا، وكان صلح

(١) فصنع عليه: أي صنع عليه طعامًا وأحضر شرابًا.

(٢) الأوهاق: الحبال الطويلة التي تشد به أعناق الإبل. (٣) أنامهم: قتلهم.

دمشق على المقاسمة؛ الدينار والعقار، ودينار على كل رأس، واقتسموا الأسلاب فكان أصحاب خالد فيها كأصحاب سائر القواد) [١].

لقد كان خالد ﷺ الذي لا ينام ولا ينيم، وأمامه مشكلتان ضخمتان هما: كيف يدخل دمشق وحولها السور المنيع الشاهق، والخندق العميق الممتلئ بالماء، ليس عنده دبابات ولا صواريخ، فكان السلاح الأول سهلًا لحل مشكلة الخندق وهي ربط القِرَب يسبحون بها فيتجاوزون الخندق، لكن ما الذي يتغلب على هذا السور الرهيب الذي عجزت عنده جيوش الأرض وارتدت خاسرة، فهل يحمل فشل القادة الذين سبقوه؟ أبدًا، لقد كان سلاحه النووي الثقيل هو الحبال والأوهاق التي يحاول أن يرسلها من أسفل السور إلى أعلاه، وفشلت كل المحاولات في تعليق الحبال بالشرف إلا حبلين فقط، وكانا كافيين ليصعد عليهما خالد إلى أعلى السور مع قائد فدائي فذّ مثله، لقد أعد السلاح المناسب في الوقت المناسب.

وجاء الزمن المناسب الذي لم يعرفه إلا قائد الجيش خالد بن الوليد حين رأى أن حركة غريبة وأصواتًا نشازًا لم يعهدهما من قبل، وتناهى إلى سمعه لغط فرح كأن الناس في يوم عيد.

وتأكد أنهم محتفلون بولد البطريق الذي ولد لهم هذه الليلة، فكلهم مشغولون مبتهجون به مخمورون في الطعام الهنيء والشراب المريء والخمر المعتق، فقد آن إذن أوان العملية الفدائية، فقدم مع نائبه البطل العظيم القعقاع بن عمرو، والبطل مذعور ابن عدي، وقطعوا الخندق، ثم صعد القعقاع ومذعور إلى أعلى السور، وربطوا الحبال كلها بالشرف، وصعد خالد بعد أن رسم الخطة كاملة، بأن تتحرك الكتيبة الفدائية كاملة حين يسمعون التكبير في أعلى السور.

كان الصعود أولًا، ثم الانحدار إلى داخل دمشق، وتمت إبادة الحرس والبوابين، وقطعت أقفال الأبواب بالسيوف وتم التكبير في الأعلى، وتحركت الكتيبة الفدائية لحماية أعلى السور، فكبر المسلمون ودخلوا الأبواب المخلعة: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

---

(١) تاريخ الطبري (٣٥٨/٢).

وإذا كان بنو إسرائيل انتهت وراثتهم وحرموا الأرض المقدسة لأنهم لم يدخلوا عليهم الباب: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤].

لكن الأمة الوارثة قالت للرجلين خالد والقعقاع: إنا معكما مقاتلون، إنا معكما داخلون، واستحقوا وراثة الأرض.. وحين خلع الجبن قلوب اليهود فحرموا من أرضهم المقدسة أربعين سنة. أما هذه الأمة، وهؤلاء الجنود فهم خلف قيادتهم وبين يديهم بمجرد أن سمعوا التكبير انقضوا كالصواعق على الباب، ودخلوا دمشق وفيها قومها الجبارون، ولم يأبهوا لأحد، ولم يثبت أحد أمامهم، وفر الآخرون إلى الأبواب الأخرى، وراحوا يتضرعون لقائد الجيش العام أن يقبل الصلح، فاستجاب أبو عبيدة، القوي الأمين، ولجأوا إلى بقية الأبواب ففتحوها صلحًا، والتقى القائد العام أبو عبيدة، ونائبه خالد في قلب دمشق، ولم يقع الصراع بينهما فاستجاب الجندي خالد لأمر قائده أبي عبيدة وأوقفوا القتل والنهب، واعتبروا دمشق فتحت صلحًا لحفظ أرواح وممتلكات أبنائها، والعجيب أن يحفظ التاريخ عنف خالد، وينسى هذا الانضباط الهائل مع قائده أبي عبيدة، وإنقاذ دمشق من الإبادة.

ولم ينسوا في غمرة انتصاراتهم تلك الجيوش المرابطة أمام فِحْل وعلى طريق حمص، وعلى طريق فلسطين، فهم شركاء في هذا النصر؛ ذو الكلاع الحميري وأبو الأعور السلمي، فقسموا لهم من الغنائم مثل ما قسموا للمحاربين المحاصرين لدمشق.

(وكان صلحهم على المقاسمة (أسوة بصلح خيبر)، وقسموا معهم للجنود التي عند فِحْل وعند حمص وغيرهم ممن هو رِدء للمسلمين، وأرسل أبو عبيدة إلى عمر بالفتح، فوصل كتاب عمر إلى أبي عبيدة يأمره بإرسال جند العراق نحو العراق إلى سعد بن أبي وقاص فأرسلهم، وأمَّر عليهم هاشم بن عتبة المرقال، وكانوا قد قُتِل منهم، فأرسل أبو عبيدة عوض مَنْ قتل، وكان ممن أرسل الأشتر وغيره، وسار أبو عبيدة إلى فِحْل) [١].

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري (٢٧٩/٢).

لكن الملاحظ أن خالدًا ﷺ أمير جند العراق لم يرسل إلىالعراق، وهو مخالف لرأي ورغبة الصديق ﷺ التي أعلنها قبيل وفاته، وسر أبو عبيدة في أعماقه أن بقي خالد سيف اللَّه بجواره، فهو نائبه وساعده الأيمن في كل تحركاته.

أهل العراق إلى العراق دون خالد:

(وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر، بأن اصرف جند العراق إلى العراق، وأمرهم بالحث إلى سعد بن مالك، فأمَّر على جند العراق هاشم بن عتبة، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، وعلى مجنبتيه عمرو بن مالك الزهري، ورِبعي بن عامر، وضربوا بعد دمشق نحو سعد، فخرج هاشم نحو العراق في جند العراق، وخرج القُواد نحو فِحْل، وأصحاب هاشم عشرة آلاف إلا مَن أصيب منهم، فأتموهم بأُناس لم يكونوا منهم، ومنهم قيس والأشتر، وخرج علقمة ومسروق إلى إيلياء، فنزلا على طريقها، وبقي بدمشق مع يزيد بن أبي سفيان مِن قواد أهل اليمن عدد منهم عمرو بن شمر ابن غُزَيَّة، وسهم بن المسافر بن هزمة، ومشافع بن عبد اللَّه بن شافع، وبعث يزيد دحية ابن خليفة الكلبي في خيل بعد ما فتح دمشق إلى تدمر، وأبا الزهراء القشيري إلى الثَّنيَّة وحوران، فصالحوهما على صلح دمشق، ووليا القيام على فتح ما بُعثا إليه) [1].

ها هم جند العراق يعودون إلى العراق دون خالد ﷺ، ولا عجب فقد قال الصديق ﷺ: لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد، وأنساهم خالد وساوس الشيطان في اليرموك؛ المعركة التاريخية الفاصلة، وأنساهم وساوس الشيطان بفتح دمشق، أعظم مواقعهم في الشرق، وكما وصفها عمر ﷺ (فابدأوا بدمشق، فانهدوا لها فإنها حصن الشام، وبيت مملكتهم) فهي العاصمة الأولى لإمبراطورية الروم، لكن تتمة المعركة بفِحْل، فلا يزال هذا التجمع يمثل خطرًا علىالجيش الإسلامي، ولا تزال بقية الشام تنتظر خالدًا. أما العراق اليوم فَبإمرة سعد بن أبي وقاص ﷺ، ولنا عودة إلى العراق بعد فِحْل؛ ولهذا كان قائد القوات المتجهة إلى العراق هو ابن أخي سعد؛ هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو ﷺ، نائب القائد العام خالد في فتوحاته في العراق، وعلى مجنبتي هاشم بن عتبة ابن عم سعد بن مالك عمرو

---

(١) تاريخ الطبري (٣٥٩/٢).

ابن مالك الزهري الذي أسلم بعد الفتح وكان من خيار الصحابة، وربعي بن عامر أحد أشراف العرب وقادتها الكبار، ومعه من أشراف اليمن وقادتها العظام، الأشتر النخعي، وقيس بن مكشوح المرادي.

لا بد أن نذكر هاشم بن عتبة قائد القوات الإسلامية المتجهة إلى العراق: إنه ابن عتبة ابن أبي وقاص أخي سعد، ومن هو عتبة أبوه؟

(وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا على قتل رسول الله ﷺ، وعرفهم المشركون بذلك، عبد الله بن شهاب وعتبة بن أبي وقاص، وابن قميئة، وأبي بن خلف، ورمى عتبة بن أبي وقاص يومئذ رسول الله ﷺ بأربعة أحجار، وكسر رباعيته أشظى باطنها اليمنى السفلي - وشُجَّ في وجنتيه حتى غاب حلق المغفر في وجنته، وأصيبت ركبتاه فَجُحِشَتَا) [١].

فقد كان عتبة أبو هاشم أعدى العدو، وهو الذي كان أحد المجرمين الأربعة الذين تعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ، بينما كان أخوه سعد يرمي بالسهام ذودًا عن رسول الله ﷺ وحده، ورسول الله ﷺ يقول له: « **ارم سعد، فداك أبي وأمي** » [٢].

وكان سعد يقول عن أخيه عتبة: (والله ما حرصت على قتل أحد حرصي على قتل عتبة، وإن كان لَسيئ الخلق، مبغَضًا في قومه) [٣].

وجاء ابنه هاشم ليحمل عبء إزاحة إمبراطورية الفرس من الوجود، حيث كان أبوه يود إزاحة محمد ﷺ من الوجود.

وكان عدد القوات الإسلامية التي غادرت الجيش الإسلامي في الشام عشرة آلاف مقاتل، وبذلك يغدو الجيش الإسلامي ثلاثين ألفًا فقط، بقي على حامية دمشق قسم منه كذلك بإمرة يزيد بن أبي سفيان ﷺ، وبعض القادة العظام الوافدين من اليمن الذين باعوا أنفسهم لله، وجاؤوا يبتغون الأجر والمثوبة من الله تعالى في جهاد عدوه وهم: عمرو بن شمر بن غُزَيّة، وسهم بن المسافر بن هزمة، ومشافع بن عبد الله بن شافع.

---

(١) المغازي للواقدي (١/٥٤٣، ٥٤٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل سعد بن أبي وقاص (١٣٠) والترمذي في أبواب المناقب باب مناقب سعد بن أبي وقاص (٣٧٥٥) وصححه.

(٣) الروض الأنف للسهيلي (٦/٩).

إنهم ثلاثة أعلام لا نعرف عنهم إلا أنهم سادة قادة بقوا بجوار القائد العظيم يزيد ابن أبي سفيان لحماية ثغر دمشق، بالإضافة إلى إرسال أربعة قادة إلى بعض الثغور ليفتحوها أو يقيموا بها وهم:

١ - **دحية بن خليفة الكلبي**: وكُلِّف بمهمة فتح تدمر مع فصيل من الجيش معه ففتحها، ودحية ليس نكرة، فهو أجمل وأوسم صحابي على الإطلاق، ومن أجل هذا كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ على صورته، ولم يمنعه هذا الجمال المبهر أن يخشوشن في ذات الله، ويمضي قائدًا إلى صحراء الشام القاحلة ويكلف بفتحها، ولا ننسى أن دحية رضي الله عنه كان رسولَ رسولِ الله ﷺ إلى هرقل إمبراطور الروم، وكان له معه الحوار المشهور.

٢ - **أبو الزهراء القشيري**: وقد كلف بفتح الثنيَّة وحُورَانَ من أعمال دمشق ففتحها صُلحًا، وأبو الزهراء ليس نكرة كذلك، وهذا القائد مع عظمته وسيادته هو بَشَرٌ، وضرار بن الأزور أحد القادة العظام بشر كذلك، ذكر أن ضرارًا وأبا الزهراء، وثلة من المسلمين شربوا الخمر، فأرسل أبو عبيدة رضي الله عنه فيهم إلى عمر فحدَّهم (ثم قال سيف في قصة من شرب الخمر بدمشق وحدَّهم عمر. وقال أبو الزهراء في ذلك:

صبرتُ ولم أجزعْ وقد ماتَ إخوتي ... ولستُ على الصَّهْبَاءِ يومًا بصابرِ

رماهَا أميرُ المؤمنين بحتْفِهَا ... فِخلَّانِها يبكونَ عندَ المعاصرِ)[1]

٣ ، ٤ - **علقمة بن حكيم ومسروق العكي**: وعليهما حماية المسلمين من جهة فلسطين بحيث لا يؤتى المسلمون من قبلهم، أما علقمة فقد قام بجوار هذه المهمة فيما بعد أميرًا على الرملة بأمر عمر أمير المؤمنين، واستعمله عمرو بن العاص على قتال إيلياء، بينما شهد مسروق قتال أهل الردة كما شهد اليرموك، وشهد بعض فتوح العراق، وكانت له أيام مشهورة.

* * *
* *
*

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٨١/٤).



الفصل الرابع

إلى فِحْلٍ وتحرير الأردن

ذكر الطبري أمر فِحل من رواية سيف:

قال ابن جرير: (وأما السري فإنه فيما كتب به إليَّ عن شعيب عن سيف عن أبي عثمان وأبي حارثة قالا:

خلف الناسُ بعد فتح دمشق يزيد بن أبي سفيان في خيله في دمشق، وساروا نحو فِحل، وعلى الناس شرحبيل بن حسنة، فبعث خالدًا على المقدمة وأبا عبيدة وعمرًا على مجنبتيه، وعلى الخيل ضرار بن الأزور وعلى الرَّجل عياض، وكرهوا أن يصمدوا لهرقل، وخلفهم ثمانون ألفًا، وعلموا أن من بإزاء فِحل جند الروم وإليهم ينظرون، وأن الشام بعدهم سلم، فلما انتهوا إلى أبي الأعور تركوه وأرزوا إلى بيسان، فنزل شرحبيل بالناس فحلًا، والروم بيسان، وبينهم وبين المسلمين تلك المياه والأوحال، وكتبوا إلى عمر بالخبر، وهم يحدثون أنفسهم بالمقام، ولا يريدون أن يريموا فحلًا حتى يرجع إليهم جواب كتابهم من عند عمر، ولا يستطيعون الإقدام على عدوهم في مكانهم لما دونهم من الأوحال.

وكانت العرب تسمي تلك الغزاة فحلًا وذات الردغة وبيسان، وأصاب المسلمون من ريف الأردن أفضل مما فيه المشركون، مادتهم متواصلة، وخصبهم رغد، فاغترهم القوم، وعلى القوم سقلار بن مخراق، ورجوا أن يكونوا على غرة، فأتوهم والمسلمون لا يأمنون مجيئهم، فهم على حذر، وكان شرحبيل لا يبيت ولا يصبح إلَّا على تعبئة، فلما هجموا على المسلمين غافصوهم [١]، فلم يناظروهم [٢]، واقتتلوا بفِحْل كأشد قتال اقتتلوه قط ليلتهم ويومهم إلى الليل، فأظلم الليل عليهم وقد حاروا، فانهزموا وهم حيارى، وقد أصيب رئيسهم سقلار بن مخراق، والذي يليه فيهم نسطورس، وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهنأه، وركبوهم وهم يرون أنهم على قصد وجدد [٣]، فوجدوهم حيارى لا يعرفون مأخذهم، فأسلمتهم حيرتهم وهزيمتهم إلى الوحل،

(١) غافصوهم: باغتوهم فجأة.

(٢) فلم يناظروهم: لم يعلموهم وينتظروهم.

(٣) أنهم على قصد وجدد: على تعبئة واستعداء.

فركبوه، ولحق أوائل المسلمين بهم، وقد وحِلوا فركبوهم، وما يمنعون يد لامس، فوخزوهم بالرماح، فكانت الهزيمة في فِحْل، وكان مقتلهم في الرداغ، فأصيب الثمانون ألفًا، لم يفلت منهم إلا الشريد، وكان اللَّه يصنع للمسلمين وهم كارهون، كرهوا البثوق فكانت عونًا على عدوهم، وأناة من اللَّه ليزيدوا بصيرة وجدًّا، واقتسموا ما أفاء اللَّه عليهم وانصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص، وصرفوا بشير بن كعب معهم، ومضوا بذي الكلاع ومن معه وخلفوا شرحبيل ومن معه) [(١)].

* * *

١ - لماذا كان الأمير شرحبيل بن حسنة؟

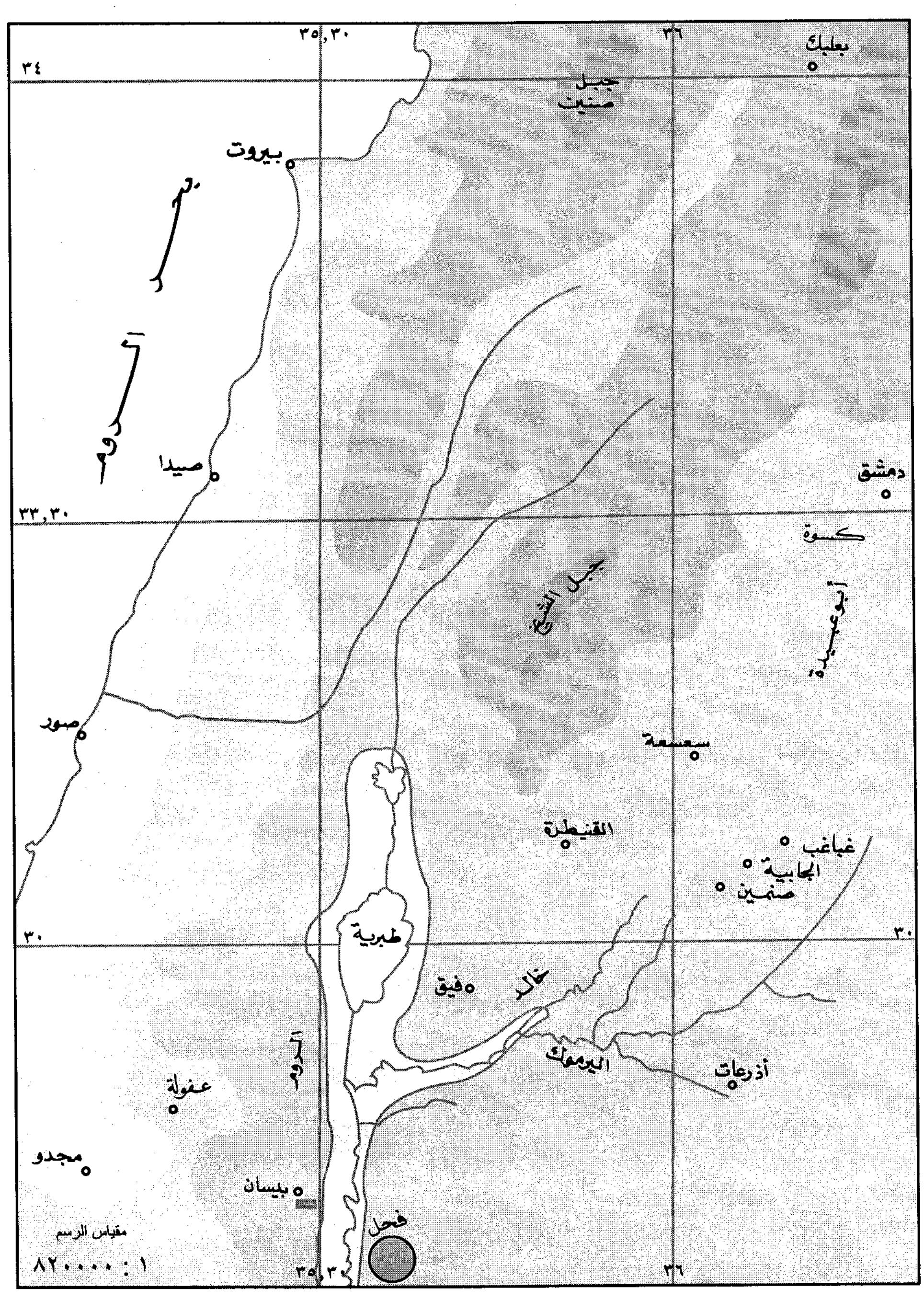
مع أن القائد العام هو أبو عبيدة بن الجراح ﷺ، لكن أمير الجيوش في الأردن هو شرحبيل بن حسنة ﷺ، وذلك تنفيذًا لوصية الصديق الراحل ﷺ، حيث خصص كل قطر من أقطار الشام لأمير من الأمراء، فدمشق ليزيد بن أبي سفيان، ومن أجل هذا عندما تحرك الجيش من دمشق، بقي يزيد الأمير عليها، والأردن لشرحبيل ابن حسنة، فعندما كان في دمشق كان أحد الأمراء الكبار، لكنه عندما انتقل مع الجيش إلى الأردن كانت الإمرة له، وعندما غادر الجيش الأردن إلى حمص بعد انتصار فِحْلٍ بقي شرحبيل بن حسنة ﷺ أميرًا هناك وعلى الأردن كلها، كما كان يزيد أمير دمشق وما حولها، ومضى خالد وأبو عبيدة ﷺ إلى حمص.

فالقائد جندي في غير قطره، وأمير على كل القيادات في قطره.

٢ - أما التعبئة للجيش الإسلامي اليوم، فالمقدمة عليها خالد بن الوليد، بينما كان عمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح على المجنبتين، وأما ضرار بن الأزور الأسدي الذي زاحم هذه القيادات فعلى الخيل، أما المشاة فعليهم عياض بن غنم، هؤلاء القادة الأكْفاء الذين تمرسوا في الحرب في أضخم معركتين؛ اليرموك وأجنادين، وفي فتح دمشق هم الذين يتجهون الآن إلى فِحْل ليفتحوها، والقوة المرابطة في فحل مؤرقة للجيش الإسلامي وتحركاته، فقد كان تجمع جيش الروم فيها بعد الفرار من اليرموك وفيها ثمانون ألفًا، أي ما يعادل ثلاثة أضعاف المسلمين.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٥٩/٢، ٣٦٠).



موقع منطقتي فحل وبيسان

صحيح أن المسلمين حالوا بينهم وبين نجدة الروم في اليرموك بقيادة أبي الأعور السلمي، لكن الوحول تفصل بين الجانبين فكانت حواجز طبيعية حالت دون فتح فِحْل من قبل.

٣ - ولأن الروم أدركوا أنهم لن يستطيعوا أن يخوضوا المعركة مع المسلمين وهذه الأوحال بينهم فمن أجل ذلك غادروا إلى بيسان ليجعلوها نقطة انطلاق نحو المواجهة.

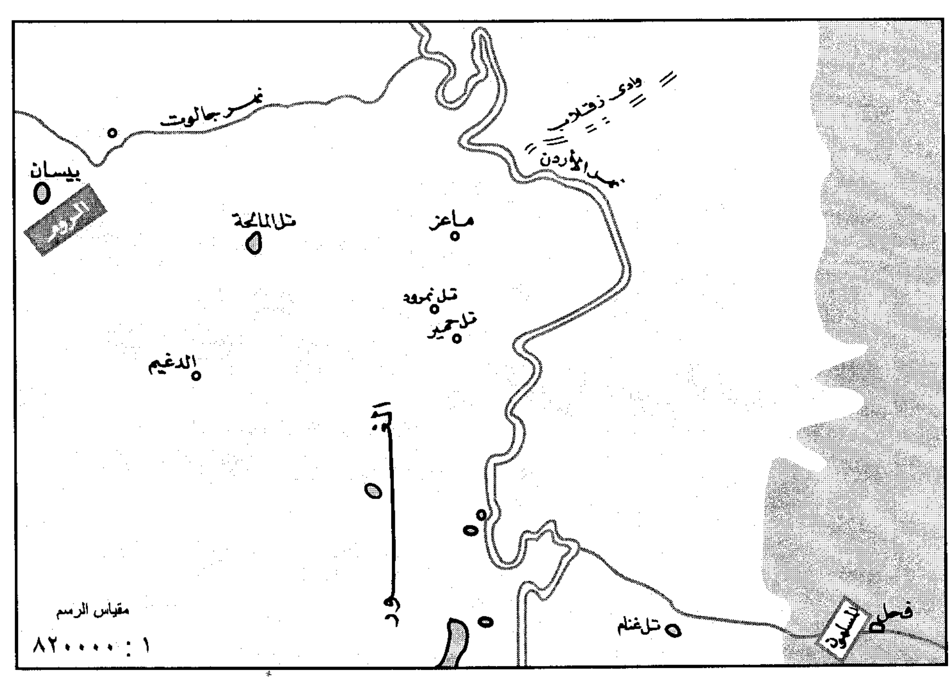
وبقي المسلمون في فِحْل ينتظرون أوامر الخليفة ﷺ لهم في اختيار الحل المناسب، أما هوى المسلمين فهو البقاء في فحْل، فهي منطقة زراعية خصبة، فيها كل ما يحتاجه المسلمون، وكما ذكر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وخصبهم رغد، ومادتهم متواصلة).

٤ - خطط الروم ليباغتوا المسلمين ويأخذوهم على غرة، وقائدهم سقلار ابن مخراق، وبذلك يقلبون المستقبل كله، فلو هزموهم هنا، لتابعوا ملاحقتهم وطردهم من الأردن، ثم منازلتهم في دمشق، لكن القائد العام شرحبيل بن حسنة، لم يستسلم للرغد، ولم يركن للدعة.

(فأتوهم والمسلمون لا يأمنون مجيئهم، فهم على حذر، وكان شرحبيل لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة) فهو جاهز في كل لحظة للمواجهة، وفوجئ الروم أن المسلمين لم يؤخذوا على غِرّة، (واقتتلوا بفِحْلٍ كأشد قتال اقتتلوه قط ليلتهم ويومهم إلى الليل).

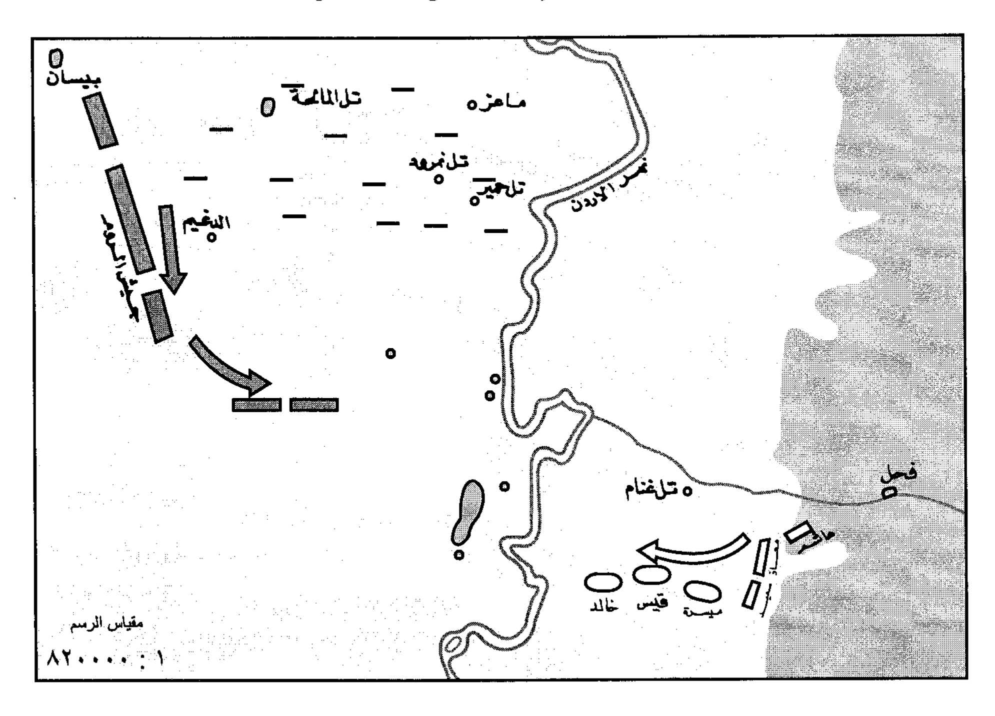
٥ - وفي هذا القتال الذي استمر في النهار والليل، لم يكن القائد العام هو الذي يقاتل فقط، ولم تكن القيادات الأخرى هي التي تقاتل فقط، فقد أدى القائد مهمته، حين كان على حذر وتعبئة، أما الثبات في القتال فمهمة كل جندي في الجيش. ومهمة الجيل كله الذي يحمل راية التغيير أن يحمل مسؤوليته، وعظمة الإيمان في هذه القلوب العامرة فيه، والتي انبثقت من القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٥ - ٤٧].

فلم يعد الفرار مزاجًا مجرد أن يمس الإنسانَ القرحُ كما كان من قبل، وإذا كان القتال أصلًا للشهرة فإذا لم يتحقق ليس صعبًا أن يلوذ بالفرار حين يحس بالموت.



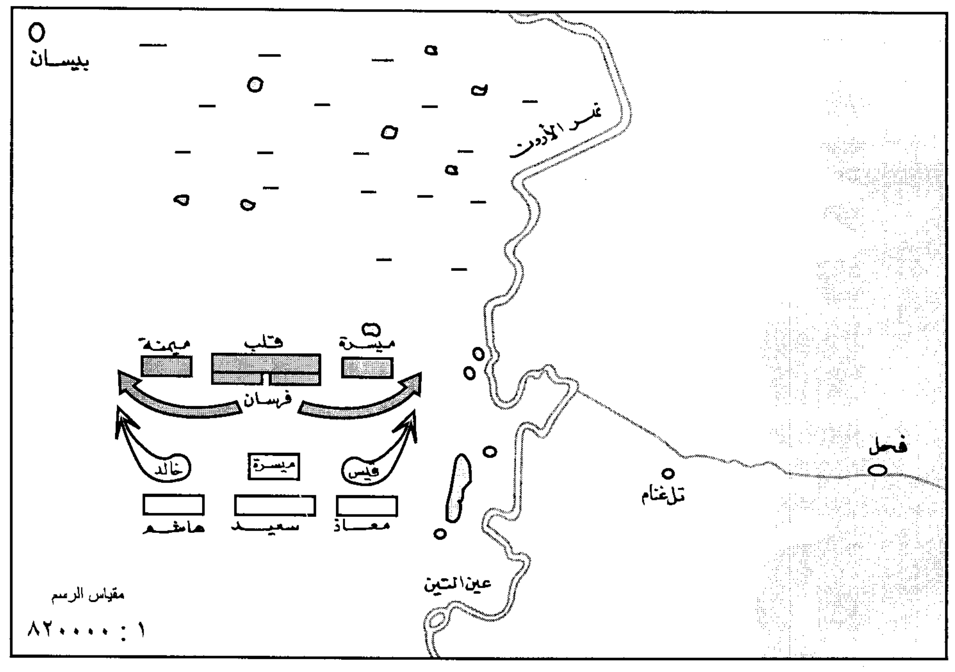
معركة فحل بيسان (١)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٢٦) خريطة (٧٣))



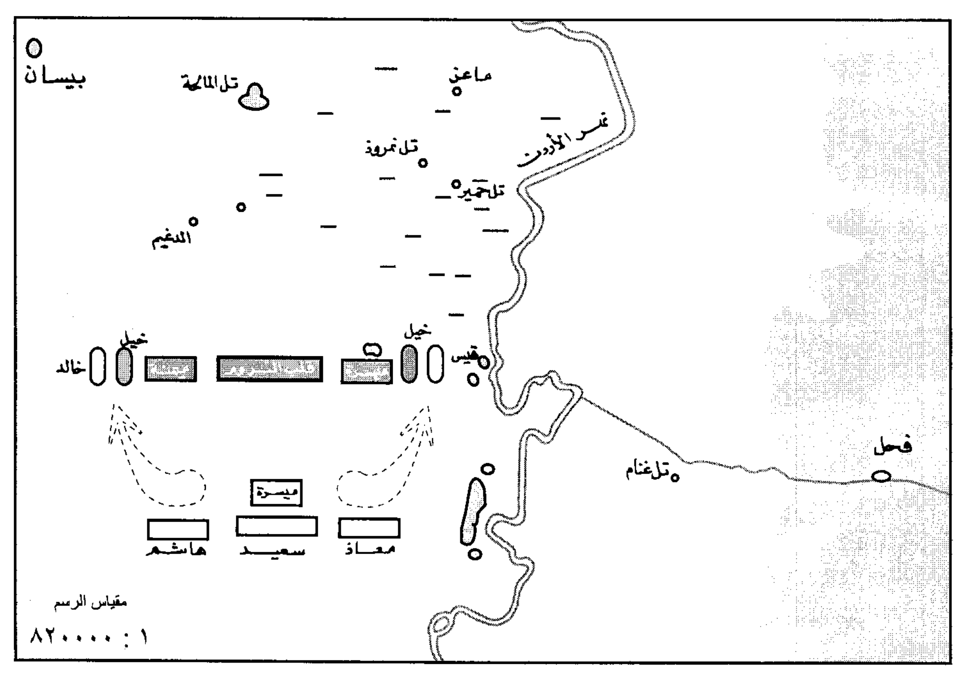
معركة فحل بيسان (٢)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٢٦) خريطة (٧٤))



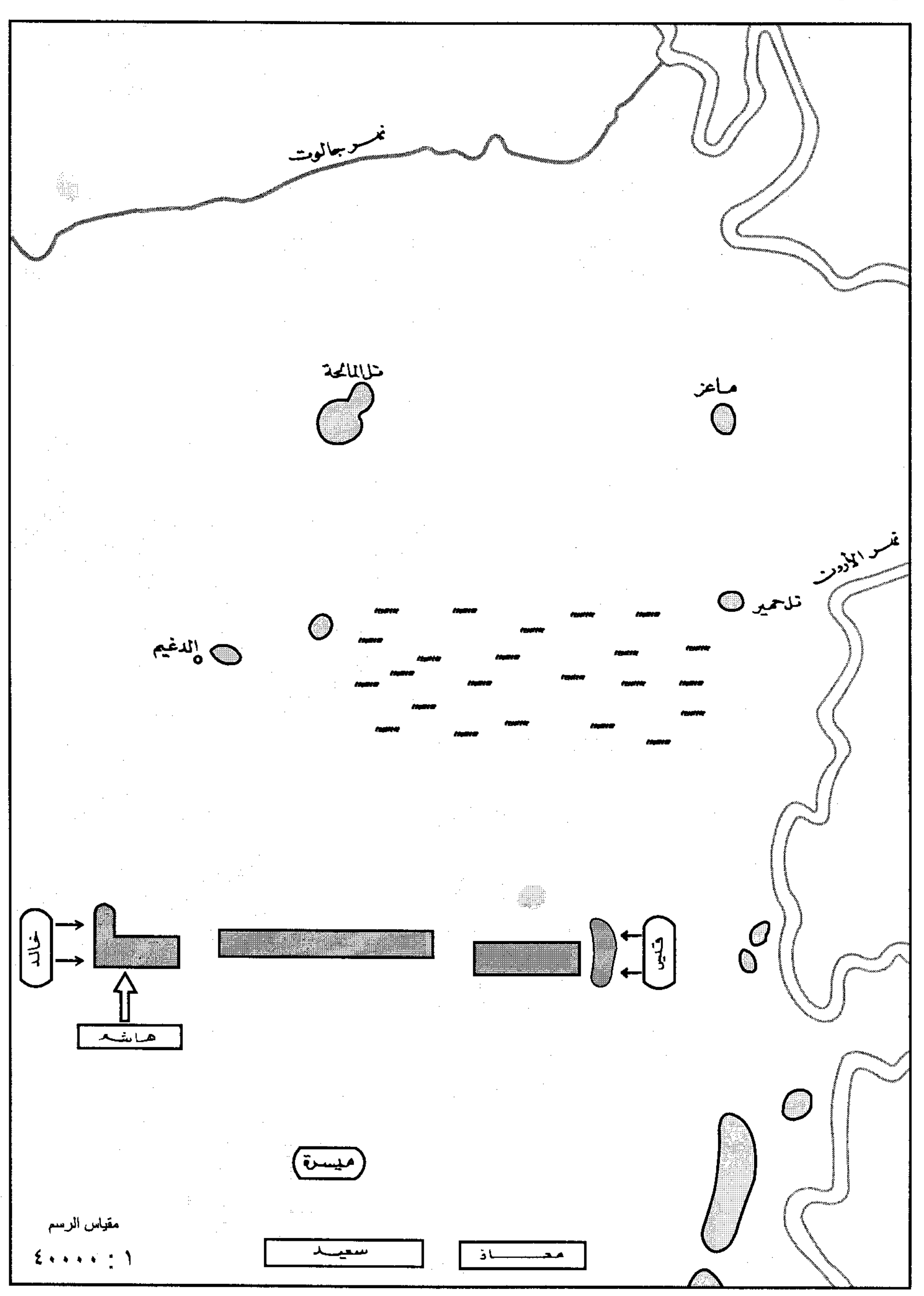
معركة فحل بيسان (٣)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٢٧) خريطة (٧٥))



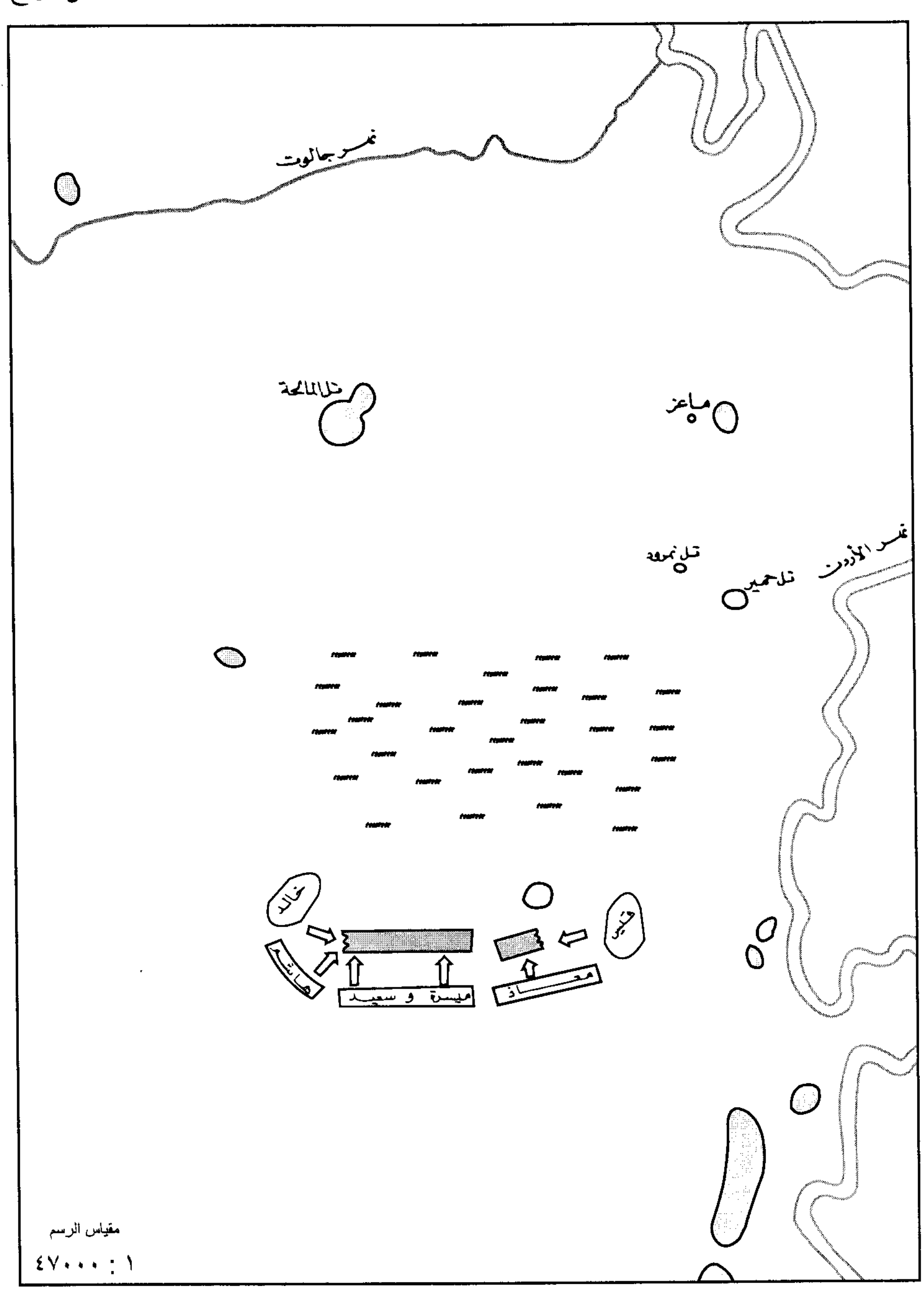
معركة فحل بيسان (٤)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٢٧) خريطة (٧٦))



معركة فحل بيسان (٥)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٢٨) خريطة (٧٧))



معركة فحل بيسان (٦)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٢٩) خريطة (٧٨))

أما البناء الجديد للإنسان المسلم فقد أصبح الفرار من الزحف كبيرة من الكبائر، تقود الإنسان إلى النار، وأصبح الموت في سبيل اللّه شهادة ترفع المسلم إلى أعلى عليين، لم يعد الموت شيئًا يخاف الإنسان منه، بل غدا أملًا يحلم به؛ ولهذا حين يصبر الفريقان، فلا شك أن الكفار في النهاية هم الذين ينهزمون، ويفرون وهذا ما جرى في فِحْلٍ.

٦ - (وأظلم الليل عليهم وقد حاروا، فانهزموا وهم حيارى، وقد أصيب رئيسهم سقلار بن مخراق، والذي يليه فيهم نسطورس، وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهنأه...).

فكان لثبات الجند المسلم أثران عظيمان:

الأول: هزيمة الروم.

الثاني: إصابة رئيسهم سقلار.

ومع هذا لم يكن الظفر الذي سماه الرواة (أحسن ظفر وأهنأه) لهاتين النتيجتين فقط، إنما كان لشيء أكبر لم يعرفه المسلمون في بهيم الليل، ولم يكتف المسلمون فقط بأن يتركوا العدو ينهزم وانتهى الأمر - لكن كانت هناك مهمة أخرى أشق وأصعب هي ملاحقة هذا العدو، ومتابعته بحيث لا يتمكن من إعادة التعبئة مرة ثانية، وهنا يأتي دور القيادات العظمى في استثمار النصر، ومن أجل هذا لاحقهم المسلمون، فكانت الثمرة الثالثة الرائعة التي أعطاها اللّه للمسلمين مقابل ثباتهم وتضحياتهم.

٧ - (... وركبوهم وهم يرون أنهم على قصد وجدٍّ، فوجدوهم حيارى لا يعرفون مأخذهم، فأسلمتهم هزيمتهم وحيرتهم إلى الوحل، فركبوه، ولحق أوائل المسلمين بهم، وقد وَحِلوا فركبوهم...).

فلم يكن الانسحاب منظمًا ضمن خطة محكمة، إنما كان انسحابًا كيفيًا بلا تخطيط، ولا دور للقيادة فيه، إذ مضوا على وجههم في بهيم الليل لا يدرون أين يفرون، وقادهم اللّه تعالى إلى الوحل، إلى الفخ الذي نصبوه للمسلمين بأيديهم فوقعوا فيه، ولحق بهم أوائل المسلمين فركبوهم، وكانت هذه هي المنحة الربانية الرابعة لجنده، فقد مضى العدو إلى الأوحال التي أرادوا أن يوقعوا المسلمين فيها، وعرف المسلمون أن هذا عطاء من عند اللّه.

(... فركبوهم، وما يمنعون يد لامس، فوخزوهم بالرماح، فكانت الهزيمة في فِحْل، وكان مقتلهم في الرداغ).

٨ - هؤلاء الثمانون ألفًا من الفرسان الذين فتح لهم عمرو بن العاص الفجوة في اليرموك، ففروا واعتصموا بفحْلٍ ثم مضوا إلى بيسان، ثم عادوا إلى مصارعهم في أوحال فِحْلٍ، إنما يساقون بقدر اللّه، إلى أن يكونوا طعمة بيد الجيش نفسه الذي واجههم في اليرموك، فكان أحسن ظفر وأهنأه، (فأصيب الثمانون ألفًا، لم يفلت منهم إلا الشريد).

٩ - (... وكان اللّه يصنع للمسلمين وهم كارهون، كرهوا البثوق، فكانت عونًا لهم على عدوهم). ألا ما أروعه من تعبير (يصنع للمسلمين وهم كارهون) فلقد تألم المسلمون كثيرًا لما حيل بينهم وبين فتح فِحْل نتيجة هذه البثوق والأوحال، ولم يكونوا يدرون ما اللّه صانع لهم، ومعدٌّ لهم، إنه عون اللّه تعالى لجنده وحزبه، مثل ما صنع للمسلمين في بدر وهم كارهون: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٥، ٦].

لقد كانوا يريدون التجارة، وكرهوا لقاء العدو، ولم يكونوا يعلمون ما ادخر اللّه لهم من أعظم نصر في تاريخهم ليكونوا خيرة أهل الأرض، وتأتي الملائكة لتقود المعركة.

وبِيَوْمِ بدرٍ إذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُم جِبْرِيْلُ تَحْتَ لِوائِنا ومُحَمَّدُ

وها هم الجند الذين اتبعوهم بإحسان، ورضي اللّه عنهم، هم يصنع اللّه لهم، هرَبَ الثمانون ألفًا من اليرموك، ومنعَهُمُ المسلمون من دخول فِحْلٍ بالبثوق التي فتحوها، وحالوا بين الفتح الأول لهم، ليعودوا ثانية إليها، فيجدوا الروم قد خرجوا إلى بيسان، وهاجموا المسلمين ليقضوا عليهم في فِحْلٍ، فكان القضاء عليهم فيها...

١٠ - (... فكانت عونًا من اللّه لهم على عدوهم، وأناة من اللّه ليزدادوا بصيرة وجدًّا، واقتسموا ما أفاء اللّه عليهم، وانصرف أبو عبيدة بخالد من فِحْلٍ إلى حمص، وصرفوا بشير بن كعب معهم، ومضوا بذي الكلاع ومن معه، وخلفوا شرحبيل ومن معه.

اقتسموا ما أفاء اللّه عليهم، وتوزعت القيادات من جديد.

أ - فشرحبيل القائد العام بقيتَ الأردن تحت إمرته عامة، وفِحْل خاصة، التي هي جزء من الأردن.

ب - وخالد مضى مع أبي عبيدة إلى حمص، وحمص هي معقل أبي عبيدة

بالأصل التي وجهه أبو بكر إليها، وخالد نائبه مضى معه إلى مملكته، وليس لخالد مملكة بعد أن نزعت منه مملكة العراق.

ج - أما ذو الكلاع الحميري، ومن معه والذين كانوا مرابطين في فِحْل قبل وصول الجيش الإسلامي، فقد انضموا إلى الجيش، ومضوا إلى حمص، ساحة المعركة الجديدة، وبقي مع شرحبيل حامية في مملكته مثل الحامية التي بقيت مع يزيد في دمشق، فقد انتهى الخطر الرومي الأكبر على دمشق والأردن بعد سقوط فِحْلٍ وسقوط دمشق، خاصة بعد أن مضى الجيش الإسلامي إلى ثغر حمص الذي كان مقام هرقل فيه، وقد هرب منه بعد توجه المسلمين إليه.

تحرير الأردن

هذا ولم يكتف شرحبيل بالمقام بفِحْلٍ، فهذه بَيْسَان بجواره، ومنها انطلقت قوات الروم حين هاجمت المسلمين، فمضى نحو بَيْسَان.

(ولما فرغ شرحبيل من وقعة فِحْلٍ نهد في الناس، ومعه عمرو إلى أهل بيسان، فنزلوا عليهم، وقد بلغ أفناء أهل الأردن ما لقيت دمشق، وما لقي سقلار والروم بفِحْلٍ وفي الردغة ومسير شرحبيل إليهم، ومعه عمرو بن العاص، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، يريد بيسان وتحصنوا بكل مكان، فسار شرحبيل بالناس إلى أهل بيسان، فحصروهم أيامًا، ثم إنهم خرجوا عليهم فقاتلوهم فأناموا من خرج إليهم،[1] وصالحوا بقية أهلها، فقبل ذلك على صلح دمشق)[2].

وهكذا تنضم بَيْسان إلى الساحة الإسلامية بينما كانت مهمة أبي الأعور السلمي رضي الله عنه أن يقوم بتحرير طبرية التي وجَّهَهُ إليها القائدان العامان أبو عبيدة ابن الجراح وشرحبيل بن حسنة.

(وبلغ أهلَ طبرية الخبر.. فصالحوهم وأهل بيسان على صلح دمشق، على أن يشاطروا المسلمين المنازل في المدائن، وما أحاط بها مما يصلها، فيدَعون لهم نصفًا، ويجتمعون في النصف الآخر، وعن كل رأس دينار كل سنة، وعن كل جريب أرض

---

(١) المراد: قتلوهم.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٦٠).

جريب برٍّ أو شعير؛ أي ذلك حرث، وأشياء في ذلك صالحوهم عليها، ونزلت القواد وخيولهم فيها، وتم صلح الأردن وتفرقت الأمداد في مدائن الأردن وقراها، وكتب إلى عمر بالفتح) [(١)].

لقد دخل الإسلام الأردن صلحًا، وحافظ على هوية أهلها، لم يعد تابعًا لإمبراطورية الروم، ولم تعد خيراته تساق إلى روما أو القسطنطينية، لقد بقيت خيراته له، لأهله، وتقاسموا مع المسلمين بيوتهم مقابل حريتهم في اختيار عقيدتهم، ونظامهم السياسي، وحماية أرواحهم وأرضهم من كل اعتداء يمكن أن يقع عليهم، فالمسؤولون هم القوة العسكرية التي تقدم أرواحها ودماءها لمواجهة الروم أو الفرس أو كل معتدٍ على الأرض والعرض، وهذا التعامل اليومي الحياتي الذي تم بين المسلمين وأهل الأردن، وحيث ساد الأمن، وسادت الحرية، أصبح الحوار بين الفريقين قائمًا، وأصبح الأردنيون يصيخون السمع إلى هذا الدين الذي لا يحمل سيادة لبشر، إنما هو دين اللَّه إلى خلقه كافة لا وصاية لقبيلة أو جنسية عليه؛ بل يقوم حق المواطنة وواجباتها ليمثل المساواة التامة بين البشر « **إن ربكم واحد وأباكم واحد، ولا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوي** » [(٢)]. ولا شك أن أهل بيسان وطبرية وفحل سرَّهم أن يكون رسول اللَّه عربيًّا من جنسهم، وأن يكون القرآن بلغتهم، فبدأت قلوبهم تنفتح لهذا الدين، وتستجيب لنداء اللَّه لهم أن يدخلوا في السلم كافة، وبقي بعضهم على دينه، مقتنعًا بنصرانيته، ولا يزال إلى اليوم هذا النظام هو الذي يحكم الأردنيين في التعايش، والتواد والحب، في مجتمع محرر واحد.

* * *
* *
*

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٦٠).

(٢) المعجم الأوسط للطبراني (٤٧٤٩).

الفصل الخامس

عودة إلى العراق مع أبي عبيد

ها نحن الآن في المدينة، في وداع الخليفة الصديق ﷺ، وهو يوصي خليفته عمر أن يستنفر الناس مع المثنى ﷺ فكان:

(... أول عمل قام به عمر أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيباني إلى أهل فارس قبل صلاة الفجر من الليلة التي مات فيها أبو بكر ﷺ، ثم أصبح فبايع الناس، وعاد فندب الناس إلى فارس. وتتابع الناس على البيعة ففرغوا في ثلاث، كل يوم يندبهم، فلا ينتدب أحد إلى فارس، وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس إلى العراق؛ فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود، وسعد بن عبيد الأنصاري حليف بني فزارة...

وتكلم المثنى بن حارثة فقال:

يا أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه، فإنا قد تَبَحْبحْنَا ريف فارس، وغلبناهم على خير شِقَّيِ السواد، وشاطرناهم ونلنا منهم، واجترأ من قبلنا عليهم، ولها إن شاء اللَّه ما بعدها.

وقام عمر ﷺ في الناس فقال:

إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك.

أين الطُّراء المهاجرون عن موعود اللَّه؟ سيروا في الأرض التي وعدكم اللَّه في الكتاب أن يورثكموها، فإنه قال: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣]، واللَّه مظهِرُ دينِهِ ومُعِزٌّ ناصره، ومولي أهله مواريث الأمم، أين عباد اللَّه الصالحون؟

فكان أول منتدب أَبو عبيد بن مسعود، ثم ثنى سعد بن عبيد، أو سليط بن قيس، فلما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر: أمِّرْ عليهم رجلًا من السابقين من المهاجرين والأنصار، قال: لا واللَّه لا أفعل. إن اللَّه إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو،

فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء، فأولى بالرئاسة منكم من سبق إلى الدفع، وأجاب إلى الدعاء، واللَّه لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتدابًا، ثم دعا أبا عبيد، وسليطًا وسعدًا، فقال: أما إنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها إلى ما لكما من القُدمة، فأمر أبا عبيد على الجيش وقال لأبي عبيد: اسمع من أصحاب النبي ﷺ، وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد مسرعًا حتى تتبين، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف) [1].

* * *

لا بد لنا أن نعيش أجواء العراق بعد مغادرة خالد بن الوليد سيف اللَّه لها، فقد كانت قيادة الإمبراطورية الفارسية في رعب شديد من خالد سيف اللَّه، وتنفست الصعداء بمغادرة خالد لها، وبدأت تتجرأ على استعادة العراق وخيراته التي كانت رئة فارس، غير أن الاضطرابات التي عصفت بسدة الحكم، جعلتهم يتريثون في المواجهة إذ (استقام أهل فارس... بعد خروج خالد بقليل وذلك في سنة ثلاث عشرة على شهر براز بن أرد شير بن شهريار ممن يناسب إلى كسرى ثم إلى سابور، فوجَّه إلى المثنى جندًا عظيمًا عليهم هرمز جاذويه في عشرة آلاف ومعه فيل، وكتبت المسالح إلى المثنى بإقباله، فخرج المثنى من الحيرة نحوه، وضم إليه أصحاب المسالح، وجعل على مجنبتيه المُعنّى ومسعودًا ابني حارثة، وأقام له ببابل، وأقبل هرمز جاذويه، وعلى مجنبتيه (الكوكبد والخركبذ) وكتب إلى المثنى: من شهر براز إلى المثنى، إني قد بعثت إليك جندًا من وخش [2] أهل فارس، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير، ولست أقاتلك إلا بهم.

فأجابه المثنى: من المثنى إلى شهر براز، إنما أنت أحد رجلين؛ إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذب، فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند اللَّه وفي الناس الملوك، وأما الذي يدلنا عليه الرأي، فإنكم إنما اضطررتم إليهم، فالحمد للَّه الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير) [3].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٦٠، ٣٦١).

(٢) الوخش: أرذال الناس.

(٣) المصدر نفسه (٢/٣٤٤).

لقد كانت كل رسالة تنم عن أعماق ما يفكر به الفريقان:

فرسالة إمبراطور الفرس تنم عن الاستهانة بالمسلمين، من حيث المظهر، وتنم عن غطرسة وكبرياء في نفوسهم وازدراء بالمسلمين وهذا هو الذي قتلهم.

بينما كانت رسالة المثنى ﷺ رسالة مبادئ وقيم، هي رسالة الأمة التي تحمل الرسالة في مواجهة الطغاة والظالمين في الأرض.

(... إما باغ فذلك شر لك وخير لنا).

و (... وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند اللَّه في الناس الملوك).

وما تحرُّك المؤمنين في الأرض إلا لإزاحة هؤلاء الطواغيت الذين يُعبَدون من دون اللَّه.

لكن العنصر الثالث في الرسالة هو أنهم قد أصبح جندهم هؤلاء السفلة من رُعاة الدجاج والخنازير، وهذا ما يدل عليه الرأي والفهم لواقعهم المضطرب المتناقض.

(والذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليهم، فالحمد للَّه الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير).

لكن هذا الكتاب لم يمرّ بسلام، لقد زاد الاضطراب والصراعات داخل الأسرة الحاكمة..

(وجزع أهل فارس من كتابه وقالوا: إنما أُتِيَ شهر براز من شؤم مولده ولؤم منشئه، وكان مَيْسَان، وبعض البلدان شين على من يسكنه، وقالوا له: جرأت علينا عدونا بالذي كتبت به إليهم، فإذا كاتبت أحدًا فاستشر)[1].

* * *

وكانت الحرب:

(فالتقوا ببابل، فاقتتلوا بعدوة الصراة الدنيا على الطريق الأول قتالًا شديدًا، ثم إن المثنى وناسًا من المسلمين اعتوروا الفيل، وقد كان يفرق بين الصفوف والكراديس، فأصابوا مقتله، فقتلوه وهزموا أهل فارس)[2].

(ومات شهر براز لما انهزم هرمز جاذويه... ثم إن أهل فارس اتفقوا على (دخت زنان) ابنة كسرى فلم ينفذ لها أمر فخُلعت، ومُلِّك سابور بن شهر براز، وقام بأمره

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٣٤٤/٢).

الفرخزاذ، فقتل هو وسابور، واتفقوا على ابنة كسرى (آزر ميدخت)، وانشغلوا بذلك، فاستغل المثنى الفرصة، وخلف على المسلمين بشير بن الخصاصية، ومضى سريعًا إلى المدينة يستنفر الناس، فوجد الصديق مريضًا مشرفًا على الموت، لكن قلبه قلب أسد، فاستدعى عمر ﷺ ليلة وصول المثنى وقال له: (اسمع يا عمر ما أقول لك، ثم اعمل به، إني لأرجو أن أموت من يومي هذا، وذلك يوم الاثنين، فإن أنا مت فلا تمسينّ حتى تندب الناس مع المثنى، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحنّ حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم، ووصية ربكم، وقد رأيتني مُتوفَّى رسول اللَّه ﷺ وما صنعتُ، ولم يصب الخلق بمثله، وباللَّه لو أنِّي أني عن أمر رسوله لخَذَلَنا، ولَعاقَبنا، فاضطرمتِ المدينة نارًا، وإن فتح اللَّه على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق، فإنهم أهله وولاة أمره وحدِّه وأهل الضراوة منهم والجراءة عليهم) [١].

أي عظيم هذا والذي لم تشهد البشرية مثله بعد رسول اللَّه ﷺ في سرعة المبادرة، فهو الأمير الذي يسهر ويحيا لأمته.

إنه ليرجو أن يموت من يومه، فإن مات في النهار، فليكن الاستنفار مباشرة قبل المساء، وإن كان الموت في المساء، فليكن الاستنفار في الليل قبل الفجر.

وهذه هي الأمة الحية، فلا يجوز الانشغال بموت قائدها لحظة عن مواجهة عدوها، وكما قال سعيد بن زيد ﷺ في تعليل الخلافة قبل دفن رسول اللَّه ﷺ: (كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة) [٢] أي بدون خليفة.

وهو الذي ذكّر الصديق ﷺ به عمر الفاروق، فلم تشغلهم مصيبة رسول اللَّه ﷺ عن أمر الأمة، وأنهوا أمر الاجتماع على خليفة واحد، وشهدنا عزمة الصديق الجبارة على إنفاذ أمر رسول اللَّه ﷺ في إنفاذ جيش أسامة بن زيد « واللَّه لا أحل عقدة عقدها رسول اللَّه ﷺ، ولو أن الطير تخطفنا، والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة » [٣]، وها هو اليوم لا يطلب حداد أربعين صباحًا على وفاته، بل يطلب انتداب الناس للجهاد مع المثنى خلال أربعين دقيقة من وفاته.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٤٥/٢).
(٢) المصدر نفسه (٢٣٦/٢).
(٣) البداية والنهاية (٣٣٥/٦).

وكان عمر الذي تربى في مدرسة النبوة، والذي شهد عزمات الصديق، قام مع المسلمين بدفن الصديق في الليل، وقام بانتداب الناس للجهاد قبل انبلاج الفجر.

الظاهرة النشاز:

وعلى غير عهد المسلمين، فقد انتدب الناس للجهاد ثلاثة أيام بلياليها دون أن يستجيب أحد، واستدعى الأمر خطبة عنيفة من الخليفة عمر ﷺ، وخطبة تعبئة من المثنى أمير الحرب ضد الفرس وابن نجدتها، لقد كان المثنى ﷺ في الجاهلية أمير الحرب لشيبان، وكان نائب القائد خالد طيلة حروب المواجهة مع الفرس، وها هو يُرغِّب المسلمين بجهاد الفرس قائلًا:

(لا يعظمن عليكم هذا الوجه، فإنا قد تبحبحنا ريف فارس، وغلبناهم على خير شِقَّي السَّوادِ، وشاطرناهم ونلنا منهم، واجترأ مَنْ قِبَلَنا عليهم، ولها إن شاء اللَّه ما بعدها).

ولقد آذى عمر ﷺ أن يكون افتتاح عهده، وفي أول يوم من خلافته هذا النكوص عن الجهاد ومشاريعه، وآمالُهُ أكبر بكثير من هذا الواقع، لقد كان المسلمون يتسابقون على الجهاد، فما لهم اليوم يتثاقلون، وبدل أن يجمجم في هذا التساؤل، أعلنه على الملأ:

(... أين الطرَّاء المهاجرون عن موعود اللَّه! سيروا في الأرض التي وعدكم اللَّه في الكتاب أن يُورِثكموها فإنه قال: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣] واللَّه مظهرُ دينهِ، ومعز ناصرِه، ومولي أهلهِ مواريث الأمم، أين عباد اللَّه الصالحون؟

ومع أن المسلمين لم يهزموا حتى الآن في معاركهم مع الفرس، ورأوا الخيرات تنهمر عليهم رغدًا من سواد العراق، فما هو سر هذا الإحجام؟!

لعل ذلك يعود إلى ما كان ينقله المقاتلون عن هول المعارك التي خاضوها، وهم في برّ عراق العرب، ولا شك أنها ستكون أعنف وأوجع حين تُوغِل في برّ عراق العجم، حين تدخل إلى حصونهم وأراضيهم، والمعركة القادمة اليوم هناك.

وبعد خطبة المثنى، وخطبة الفاروق ﷺ لبى النداء أول صوت من ثقيف، هو أبو عبيد الثقفي، وليس من السابقين الأولين، وقد لا يكون من الصحابة، ثم تسابق رجلان من الذين أنعم اللَّه عليهما هما سعد بن عبيد الأنصاري وسليط بن قيس المهاجري. وللألم الممض الذي نزل بالخليفة عمر ﷺ، رفض تولية أحدهما القيادة،

وأعطاها لأول من استجاب للهيعة فطار إليها؛ دفع القيادة والراية لأبي عبيد الثقفي وأبرز بذلك خطًّا جديدًا لم يكن معهودًا من قبل، فالراية لأول من استجاب، لا للأصحاب.

(قيل لعمر: أمّر عليهم رجلًا من السابقين من المهاجرين والأنصار، فقال:

لا واللَّه لا أفعل، إن اللَّه إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء، فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع، وأجاب إلى الدعاء، واللَّه لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتدابًا).

ولم يعلن هذا الرأي تهديدًا ووعيدًا فقط، إنما نفذه فعليًّا إذ (دعا أبا عبيد وسليط وسعدًا فقال: أما إنكما لو سبقتماه لوليتكما، ولأدركتما بها إلى ما لكما من القدمة). فأمر أبا عبيد على الجيش.

ولا بد عند تغيير الخطط من الانتباه إلى ما يترتب عليها من آثار، ومن أجل ذلك توجه إلى أبي عبيد الشاب، قائد جيشه الجديد قائلًا له **الوصايا الثلاث المهمة**:

١ - اسمع من أصحاب النبي ﷺ.

٢ - وأشركهم في الأمر.

٣ - ولا تجتهد مسرعًا حتى تتبين، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف.

إن الاندفاع في الحرب مهم للجندي لا للقائد، ومن أجل ذلك كانت هذه الوصايا ذات أهمية بالغة للقائد الجديد، فبمقدار ما يحتاج للعزيمة الصادقة، بمقدار ما يحتاج للروية الكاملة، وللقرار المتأني، ولو طغى أحد الجانبين على الآخر، لكانت الكارثة؛ ولذلك كان أعظم ما في هذه الوصية هو هذه القاعدة التي مضت مثلًا في التاريخ، يحتاج لها كل القادة الكبار، وخرجت من اللحظة الآنيّة، إلى عالم الخلود.

« لا تجتهد مسرعًا حتى تتبين، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث، الذي يعرف الفرصة والكف ».

فليس الرجل المكيث هو الذي يضيع الفرصة في التفكير وتقليب الرأي، إنما الرجل المكيث، الذي يعرف الفرصة فيهتبلها، ويعرف لحظة الكف، فيتوقف عن المواجهة.

إنه علم الحرب خاصة، وعلم القيادة عامة يضع الفاروق رضي الله عنه مبادئه.

فكم من قائد دمر أمته بقرار أرعن، وخاض معركة باندفاع أهوج لأنه لا يعرف الكف.

وكم من قائد دمر أمته بتفويت الفرصة السانحة التي يمكن أن يربح بها الحرب لو استغلها، فمضت الفرصة السانحة ولم تعد إليه، فراح يجتر أذيال الخيبة والندم.

وعبقرية القائد الذي يعرف الفرصة والكف، لا يجوز أن يعتمد عليها فقط، أي على عبقريته، لكن عليه كذلك أن يستشير أولي الرأي والحجا، وأن يكون القرار جماعيًّا مدروسًا بتقليب وجوه الرأي، أما القائد الدكتاتوري فلا تنفعه عبقريته؛ لأنها لن تصيب في كل مرة، ومن أجل هذا كانت الوصية الثالثة مرتبطة بالوصيتين السابقتين: الاستشارة، والاستماع لأولي الرأي ومشاركتهم في القرار، حيث يتم دراسته من كل وجوهه (ولا تجتهد مسرعًا حتى تتبين) ولو أن قائدنا الشاب أبا عبيد نفذ هذه الوصايا الثلاث فيما بعد لجنب المسلمين أعظم كارثة أنهت حياته الحربية، لكن غفر له بالشهادة، ولما كانت معركة الجسر التي كانت أكبر خسارة مُنِي بها المسلمون في تاريخهم الحربي في هذه المرحلة، فلنا وقوف عندها حين نصل إليها إن شاء اللَّه.

انتدب ألف رجل:

(كان أول شيء أحدثه عمر بعد موت أبي بكر من الليل أن نادى: الصلاة جامعة، ثم ندبهم فتفرقوا على غير إجابة من أحد، ثم ندبهم في اليوم الرابع، فأجاب أبو عبيد في اليوم الرابع أول الناس، وتتابع الناس، وانتخب عمر من أهل المدينة ومن حولها ألف رجل أمَّر عليهم أبا عبيد، فقيل له: استعمل عليهم من أصحاب النبي ﷺ، فقال: لا ها اللَّه ذا يا أصحاب النبي، لا أندبكم فَتَنْكُلون، وينتدب غيركم فأؤمركم عليهم؟! إنكم إنما فضلتم بتسرعكم إلى مثلها، فإن نَكَلْتُم فَضَلُوكم، بل أؤمِّر عليكم أوَّلكم انتدابًا، وعجل المثنى وقال: النجاء حتى يقدم عليك أصحابك...) [1].

وماذا يفعل ألف رجل في مواجهة إمبراطورية فارس، إنها معضلة ولا بد لها من حل.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٦٢).

والمسلمون موزعون في أرض اللَّه بعشرات الألوف في الشام والعراق، غير أن هذه الأعداد لا تكفي لمنازلة إمبراطوريتين عظيمتين تحكمان الأرض، والطاقات العربية حبيسة، والسياسة حتى هذه اللحظة لا تقبل تطوع المسلمين الذين ارتدوا، والجزيرة العربية ماجت كلها بالردة، ثم استسلمت للَّه، بالدماء الزكية العظيمة التي أهرقت في سبيل اللَّه، ففي اليمامة وحدها استشهد أكثر من ألف صحابي، وردة اليمن استنفدت آلاف الشهداء حتى عادت مستسلمة للَّه ﷻ.

نحن أمام عظيم الأمة، ماذا يفعل؟

وإذا كان اللَّه - تعالى - قد قبل توبة المرتدين، فلم لا يفسح لهم المجال في الانسياح في سبيل اللَّه يجاهدون في سبيل اللَّه، ويكفِّرون عن جريمة الارتداد التي ارتكبوها بقتال الكفرة والمشركين، وليس القرار سهلًا، لكنها سياسة الموازنات والأولويات، فإذا كانت القيادات الكبرى كلها لصحابة رسول اللَّه ﷺ، فلا خوف من الصف الثاني أن يكون أدنى درجة في الإيمان، خاصة وأنهم يحسون بالندم على فعلتهم الشنيعة في الردة.

وكان القرار الحاسم الثاني الذي اتخذه أمير المؤمنين عمر ﷺ، وهو السماح للعائدين عن الردة في الانضمام إلى الجيش الإسلامي، واليمن معقل العرب الأول، فيها أكثر هذه الطاقات، وهم مقاتلون أكفاء، ومجربون عظام، وأهل الحرب والحلقة ورثوها كابرًا عن كابر.

(فكان أول حدث أحدثه عمرُ في خلافته مع بيعته بعثُه أبا عبيد.

٢ - ثم بعث أهل نجران.

٣ - ثم ندب أهل الردة.

فأقبلوا سراعًا من كل أوب، فرمى بهم في الشام والعراق.

٤ - وكتب إلى أهل اليرموك بأن عليكم أبا عبيدة بن الجراح.

٥ - وكتب إليه:

إنك على الناس، فإن أظفرك اللَّه، فاصرف أهل العراق، ومن أحب من أمدادكم إذا هم قدموا عليكم، فكان أول فتح أتاه اليرموك، على عشرين ليلة من متوفَّى أبي بكر،

وكان في الأمداد إلى اليرموك في زمن عمر قيس بن هبيرة، ورجع مع أهل العراق ولم يكن منهم، وإنما غزا حين أذن عمر لأهل الردة في الغزو...) [(١)].

بعث أهل نجران:

فلا بد من الوقوف عنده قبل الانطلاق مع الجيوش الإسلامية الجديدة، والتي حملت الجيل الجديد من المقاتلين.

قال ابن جرير: (كتب إلي السري بن يحيى عن شعيب عن إبراهيم عن سيف ابن عمر عن سهل عن القاسم وبشر عن سالم قال: كان أول بعث بعثه عمر بعث أبي عبيد، ثم بعث يعلى بن أمية إلى اليمن، وأمره بإجلاء أهل نجران لوصية رسول اللَّه ﷺ في مرضه بذلك، ولوصية أبي بكر رَحِمَهُ اللَّهُ بذلك في مرضه، وقال: ائتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجْلِهم، من أقام منهم على دينه، وأقرر المسلم، وامسح أرض كل من تُجلي منهم ثم خيِّرهم البلدان، وأعلمهم أنا نجليهم بأمر اللَّه ورسوله، ألا يترك بجزيرة العرب دينان، فليخرجوا من أقام على دينه منهم، ثم نُعْطيهم أرضًا كأرضهم، إقرارًا لهم بالحق على أنفسنا، ووفاء بذمتهم فيما أمر اللَّه من ذلك، بدلًا بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف) [(٢)].

إنه أمر اللَّه - تعالى - أن تكون جزيرة العرب عاصمة للإسلام في الأرض، فلا يجتمع فيها دينان، فهي مهبِطُ الوحي، وهي مادة هذا الدين، بشرًا وحركة، والأرض كلها بعد ذلك تتسع لتجاور الأديان وتعايشها، أما العاصمة، فلا بد أن تبقى للإسلام وحده، ومن أجل هذا كان النص.

ثم خيرهم البلدان:

وظِلُّ الإسلام قد تجاوز جزيرة العرب إلى الشام والعراق، ويستطيعون اختيار أي قطر للإقامة فيه، ولهم بالضبط مثل ما أخذ منهم، **ومن أجل ذلك كانت التعليمات:** (وامسح أرض كل من تجلي منهم) ليأخُذَ مثيلها في الأقطار التي أصبحت تستظل بِظِلِّ هذا الدين وتأوي إلى سلطانه.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٦٣).

(٢) المصدر نفسه (٢/٣٦١، ٣٦٢).

وهم مخيرون بين البقاء على أرضهم إذا اختاروا الإسلام، وبين البقاء على أرض أخرى إذا اختاروا دينهم.

وليس هناك إجبار على دخولهم في الإسلام، فلا إكراه في الدين، والإنسان حرّ فيما يعتقد، **ومن أجل هذا كانت التعليمات:** (ائتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجْلهم).

فلا بد من ترك فرصة كافية للاختيار قبل فرض أحد الخيارين، المقام في عاصمة الإسلام مع الإسلام، أو مغادرة العاصمة إلى الأرض التي يختارون مع البقاء على يهوديتهم.

وإعطاؤهم أرضًا كأرضهم هو إقرار لهم بالحق على المسلمين، ووفاء بذمتهم فيما أمر اللَّه من ذلك، وإذا كانت الأرض كلها لكل دين، فعاصمة الإسلام جزيرة العرب هي للإسلام فقط، ولا جديد بعد ذلك، فقد انقطع الوحي، ولا حق لأي حاكم في الأرض أن يختار عاصمة لهذا الدين، يقوم بإجلاء أبنائها عنها، لأن النص مُنْصَبٌّ على جزيرة العرب، وما عدا جزيرة العرب فالأرض للبشر قاطبة مع كل عقائدهم وأديانهم سواء حكمها الإسلام أم لم يحكمها.

وهو المبدأ نفسه الذي جعل الحكم أن لا يُقبَلَ المرتدون كذلك في جزيرة العرب، ولا تقبل منهم الجزية، فإما الإسلام، وإما الجلاء، وإما المواجهة حين يصر المرتدون على مواجهة هذا الدين وحربه، ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٥، ٦].

ولا يريد الإسلام من الناس أن يدخلوا فيه خوفًا من القتل أو السيف، فالمجال أمامهم بالخيار أربعة أشهر ليفقهوا هذا الدين ويدخلوا فيه، أو يجلوا عن عاصمة الإسلام، فإن أصروا على حرب هذا الدين، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم.

وإن جاء من معسكر الشرك من يريد أن يفقه هذا الدين قبل أن ينضم إليه، فله الحق الكامل في ذلك ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ... ﴾ [التوبة: ٦].

وبعد سماعه كلام اللَّه، فإن اختار الدين فمرحبًا وأهلًا، وإن أصر على رفض هذا

الدين فلا يقتل وهو تحت الإجارة، وعلى الدولة المسلمة أن تعيده إلى معسكره، وإلى مأمنه، ولو كان سيعود مقاتلًا محاربًا لهذا الدين.

لقد حرص الإسلام على أن لا يقبل في صفه فردًا واحدًا بقوة السيف، إنما بقوة القناعة، وقوة الفكرة، وقوة المسلمين.

ومن الناحية العملية فلم يفرض هذا الدين على أحد، ووجد هذا الاستثناء في عاصمة الإسلام وقاعدته الكبرى لفسح المجال للجلاء عنها لمن لا يؤمن بهذا الدين.

لكن الفرق بين المرتد والمعاهد في العاصمة أن المرتد لا يكلف الإسلام بإعطائه مثل أرضه؛ فلا عهد بينه وبين المسلمين، أما المعاهد أو الذمي، فله الحق على الدولة أن تهيئ له أرضًا مثل أرضه.

وكان لهذه الخطوة مدلول آخر، هو أن تصبح جزيرة العرب كلها هي القاعدة الصلبة لانطلاق الإسلام، وأن تنتهي مرحلة رفض العائدين عن الردة، والتائبين للَّه من الوجود في الجيش الإسلامي، فقد رفع الحظر عنهم، وأصبح كل فرد في جزيرة العرب جنديًّا في الجيش الإسلامي بعد جلاء يهود نجران عنها، فالصلة وثيقة بين المنطلَق الجديد الذي أعلنه عمر ﵁ في قبول العائدين عن الردة في الجيش الإسلامي.

(ثم ندب أهل الردة، فأقبلوا سراعًا من كل أوب، فرمى بهم الشام والعراق).

وبذلك عُوضوا عن النقص الذي حصر الإسلام في الحجاز فقط.

القاعدة الصلبة:

لقد كانت القاعدة الصلبة للإسلام ابتداء هي السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وتمثل هذا بأهل الحديبية الذين كانوا ألفًا وخمسمائة، وكانوا هم قاعدة الانطلاق الإسلامي.

وبعد الانفتاح الكبير على هذا الدين من جزيرة العرب بعد صلح الحديبية، أصبح المهاجرون والأنصار الذين أسلموا قبل فتح مكة هم القاعدة الصلبة لهذا الدين، وحملوا عبء الجهاد والمواجهة والدعوة والتربية للأجيال القادمة التي تجمعت في تبوك وبلغت ثلاثين ألفًا.

ثم كان المهاجرون والأنصار والذين اتبعوه في ساعة العسرة ومن حول المدينة هم

القاعدة الصلبة لاستقبال الأعداد الهائلة التي دخلت في دين اللَّه عام الوفود، وكان عليها أن تقوم بتربية الأفواج القادمة، والتي بلغت ذروة تجمّعها في حجة الوداع؛ حيث كان مع رسول اللَّه ﷺ وتحت قيادته مائة وثلاثون ألفًا أو أربعة وعشرون ألفًا.

ثم توفي رسول اللَّه ﷺ فكانت القاعدة الصلبة لهذا الدين هم أصحاب رسول اللَّه ﷺ والذين حضروا معه الدورة التدريبية لمدة شهرين في حجة الوداع التي ودع فيها رسول اللَّه ﷺ أصحابه بقوله: « **لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا** » [1].

وكان ﷺ وهو على فراش الموت يحدد القاعدة الصلبة الأخيرة بقوله: « **لا يترك بجزيرة العرب دينان** »؛ [2] بحيث يكون العرب هم مادة الإسلام، وهم القاعدة الصلبة لهذا الدين في الأرض، وقد بدأ تنفيذ هذا المخطط بعد إنهاء الردة في عهد الصديق، حيث تم تحرير جزيرة العرب من الردة، وتم تحرير عاصمة الإسلام من كل دين غير دين الإسلام، وتهيأت هذه القاعدة الصلبة لفتح الأرض بهذا الدين، كما قال عمر رضي الله عنه وهو يحث المسلمين على الجهاد:

أين الطُّرّاء المهاجرون عن موعود اللَّه، سيروا في الأرض التي وعدكم اللَّه في الكتاب أن يورثكموها فإنه قال: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣]، واللَّه مظهر دينه، ومعز ناصره، ومولي أهله مواريث الأمم أين عباد اللَّه الصالحون؟!

المعركة الأولى: خبر النمارق

ثم لنمض الآن من قاعدة الإسلام مع البعث الأول، الألف تحت قيادة أبي عبيد.

(وقدم المثنى الحيرة من المدينة في عشر، ولحقه أبو عبيد بعد شهر، فأقام المثنى بالحيرة خمس عشرة ليلة) [3].

وهناك في الحيرة كان الجيش الإسلامي في انتظاره...

ولننتقل إلى معسكر العدو، ونشهد تطورات الحكم في فارس:

(... اختلف أهل فارس وتشاغلوا عن المسلمين غيبة المثنى كلها إلى أن رجع من المدينة، فبعثت بوران (ابنة كسرى) إلى رستم بالخبر، واستحثته بالسير، وكان على

(١) أخرجه الدارمي في سنن في المقدمة، باب الاقتداء بالعلماء (٢٢٧) والطبراني في الكبير (٢٠٢٣٣).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٨٢٠). (٣) تاريخ الطبري (٢/٣٦٣).

فرج خراسان، فأقبل في الناس حتى نزل المدائن لا يلقى جيشًا لآزرميدخت (بنت كسرى) إلا هزمه، فاقتتلوا في المدائن فهُزم سياوخش [١] وحصر وحصرت أزرميدخت، ثم افتتحها (أي المدائن) فقتل سياوخش، وفقأ عين آزرميدخت، ونصب بوران، ودعته إلى القيام بأمر أهل فارس، وشكت إليه تضعضعهم وإدبار أمرهم على أن تُملِّكه عشر حجج، ثم يكون الملك في آل كسرى إن وجدوا من غلمانهم أحدًا، وإلا ففي نسائهم، فقال رستم:

أما أنا فسامع مطيع غير طالب عوضًا ولا ثوابًا، وإن شرَّفْتُموني وصنعتم إليَّ شيئًا فأنتم أولياء ما صنعتم، إنما أنا سهمكم وطوع أيديكم، فقالت بوران: اغد عليَّ، فغدا عليها، ودعت مرازبة فارس وكتبت له بأنك على حرب فارس، ليس عليك إلا الله ﷻ، عن رضًا منا، وتسليم لحكمك، وحكمك جائز فيهم، ما كان حكمك في منع أرضهم، وجمعهم من فرقتهم، وتوَّجته، وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا فدانت له فارس) [٢].

لقد بدت عبقرية رستم ابتداءً يوم توجه إلى أمراء الأقاليم الذين كانوا تابعين للفرس ليثوروا ضد المسلمين وحدد لهم الثورة في يوم معين لتفتح الجبهة على المسلمين من أكثر من جهة.

(وكتب رستم إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ، ودس في كل رستاق رجلًا ليثور بأهله، فبعث جابان إلى (البِهْقُبَاذ [٣] الأسفل)، وبعث نرسي إلى كسكر.

ووعدهم يومًا، وبعث جندًا لمصادمة المثنى، وبلغ المثنى ذلك، فضم إليه مسالحه وحذر، فعجل جابان فثار ونزل النمارق) [٤].

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٣٦٢).

(٣) بِهْقُبَاذ بالكسر ثم السكون وضم القاف وباء موحدة وألف وذال معجمة: اسم لثلاث كور ببغداد منسوبة إلى قباذ بن فيروز والد أنو شروان بن قباذ هي:

١ - البِهْقُبَاذ الأعلى: سقيه من الفرات وهو ستة طساسيج: طسوج خطرنية، وطسوج النهرين، وطسوج عين التمر، والفلوجتان العليا والسفلي، وطسوج بابل.

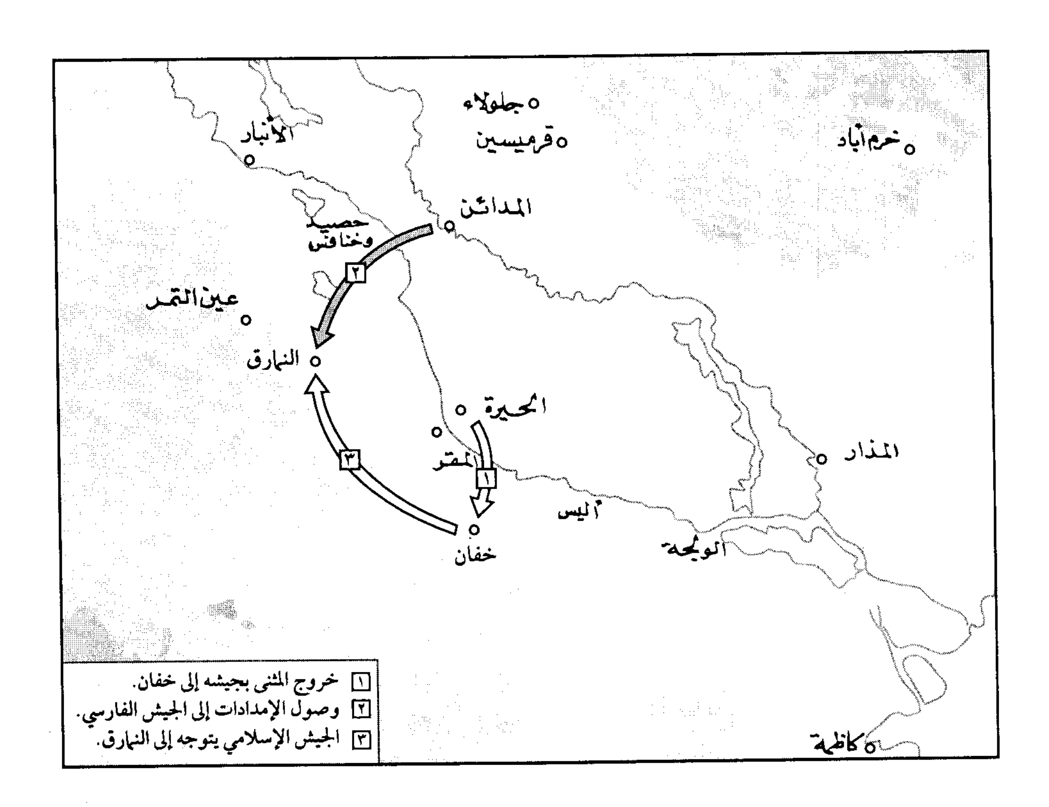
٢ - والبِهْقُبَاذ الأوسط: وهو أربعة طساسيج: طسوج سورا، وطسوج باروسما، والجبة، والبداة وطسوج نهر الملك.

٣ - والبِهْقُبَاذ الأسفل: خمسة طساسيج: الكوفة، وفرات بادقلى، والسيلحين، وطسوج الحيرة، وطسوج نستر، وطسوج هرمزجرد. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت (١/٥١٦).

(٤) تاريخ الطبري (٢/٣٦٢).

بينما تتحدث الرواية الثانية أن رستم فعل كما فعل عمر في المدينة رضوان اللَّه عليه، إذ وعد بالقيادة أول ثائر ضد المسلمين، وكان جابان هو ذاك الرجل.

(فثاروا بالمسلمين، وقد كان عهد إلى القوم أن الأمير عليكم أول من ثار، فثار جابان في (فرات بادقلي) وثار الناس بعده، وأرز المسلمون إلى المثنى بالحيرة فصمد لخَفَّانَ [١]، ونزل خَفَّانَ حتى قدم عليه أبو عبيد وهو الأمير على المثنى وغيره، ونزل جابان النمارق، فسار إليه أبو عبيد من خَفَّانَ، فالتقوا بالنمارق) [٢].



تحركات الجيشين إلى النمارق

(وتوالوا على الخروج، فخرج نرسي، فنزل (زندورد) وثار أهل الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله) واضطر المثنى أن يغادر الحيرة، قبل وصول مدد أبي عبيد، إلى موقع إستراتيجي يأمن أن لا يؤتى من خلفه فيه هو خَفَّان، بينما كانت الفرصة مواتية للعدو

---

(١) خَفَّان: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحيانًا. (٢) تاريخ الطبري (٢/٣٦٣).

كذلك؛ حيث تجمع مع قائد العدو الجديد جابان أعداد هائلة لقتال المسلمين، وفي خَفَّانَ وصل القائد الجديد للجبهة العراقية أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان لا بد أن يقيم قبل المعركة في خَفَّانَ حتى يأخذ جيشه قسطًا كافيًا من الراحة، ويعد التعبئة الجديدة للجيش. فاختار المثنى رضي الله عنه ليكون قائد الخيل، ووضع على الميمنة والميسرة قائدين لم يسبق أن سمعنا بهما من قبل، لا شك أنهما من الجيل الجديد هما (والق ابن جيدارة) وكان على الميمنة، و (عمرو بن الهيثم)، وكان على الميسرة، ومضى الجيش بعدها لمواجهة العدو في النمارق، وكان جابان قد أعد تعبئته كذلك وعلى ميمنته (جُشْنَس ماه) وعلى ميسرته (مردانشاه) وهما جديدان كذلك، وكل واحد من القائدين يحرص على إنهاء جيش عدوه ليثبت وجوده، لأنها أول معركة لهما.

(فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فهزم اللَّه أهل فارس، وأُسر جابان، أسره مطر بن فضة التيمي وأسر مردانشاه، وأما مطر بن فضة فإن جابان خدعه، حتى تفلت منه بشيء فخلى عنه، فأخذه المسلمون فأتوا به أبا عبيد، وأخبروه أنه الملك، وأشاروا عليه بقتله، فقال: إني أخاف اللَّه أن أقتله، وقد أمَّنهُ رجل مسلم، والمسلمون في التواد والتناصر كالجسد، ما لزم بعضهم فقد لزمهم كلهم، فقالوا له: إنه الملك، فقال: وإن كان، لا أغدر. فتركه) [1].

وتعرض الرواية الأخرى صورة مختلفة قليلًا، أو موضحة لفكرة الخدعة المذكورة:

(وبُصر مطر بن فضة - وكان ينسب إلى أمه - وأُبَيٌّ برجل عليه حلي، فشدّا عليه، فأخذاه أسيرًا، فوجداه شيخًا كبيرًا، فزهد فيه أبيّ، ورغب مطر في فدائه، فاصطلحا على أن سلبه لأُبَيٍّ، وأن إساره لمطر، فلما خلص مطر به، قال: إنكم معاشر العرب أهل وفاء، فهل لك أن تؤمنني، وأعطيك غلامين أمردين خفيفين في عملك وكذا وكذا قال: نعم، قال: فأدخلني على ملككم، حتى يكون ذلك بمشهد منه، ففعل فأدخله على أبي عبيد، فأمنه على ذلك فأجاز أبو عبيد، فقام أُبي وأناس من ربيعة، فأما أبي فقال: أسرته أنا وهو على غير أمان، وأما الآخرون فعرفوه وقالوا: هذا الملك جابان، وهو الذي لقينا بهذا الجمع، فقال: ما تروني فاعلًا يا معاشر ربيعة؟

---

(١) تاريخ الطبري (٣٦٣/٢).

أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا، معاذ اللَّه من ذلك وقسم أبو عبيد الغنائم، وكان فيها عطر كثير، ونقل، وبعث بالأخماس مع القاسم) [١].

وها نحن نلتقي في بداية الطريق مع القائد أبي عبيد الذي يجعل المبدأ والعقيدة فوق المصلحة، فيرفض قتل الأسير الذي تبين فيما بعد أنه قائد جيش العدو؛ لأن جنديًّا من الجيش الإسلامي أجاره.

إنهم يمضون إلى أمم الأرض، ويعلمونهم عظمة المبادئ التي يحملونها، ويربونهم عن طريق القدوة عليها (إني أخاف اللَّه أن أقتله، وقد أمّنه رجل مسلم).

والمبدأ الثاني الذي يعلمه القائد المسلم لقائد جيش العدو هو أن المسلمين أمة واحدة لا طبقية فيها، لا فرق بين أمير وخفير، ولا بين قائد وجندي، فكلمة أدنى رجل في الجيش تسري على الجيش كلِّه، وأمان من أقل شخص رتبة في الجيش يساوي أمانَ قائدِ الجيش؛ لأن المسلمين في التناصر والتواد كالجسد الواحد، ما لزم بعضهم لزمهم كلهم.

والمبدأ الثالث الذي علمته هذه الأمة لأمم الأرض، هو أن الغاية لا تبرر الوسيلة، فكشف الأسير أنه قائد جيش العدو لا يغير من الأمان شيئًا؛ بل ووجد مندوحة في التنصّل من العهد الذي قطعه هذا الجندي، إذ هما اثنان قد أسراه، وعفا أحدهما ولم يعفُ الآخر، وظهر أن المذكور هو الذي نقض العهد، واستجاب للفرس في الثورة على المسلمين، وجمع الجموع لحربهم وقتالهم، وهو أول من نقض العهد ونكث وغدر.

فلم يعط هذان المبرران لأبي عبيد ﷺ عذرًا لقتله، إنه غادر في الأصل، واللذان أسراه عفا أحدهما ولم يعف الآخر، كل هذا لم يكف مبررًا لقتله.

فقالوا له: إنه الملك، قال: وإن كان، لا أغدر.

وقالوا: هذا الملك جابان وهو الذي لقينا بهذا الجمع، فقال:

أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا، معاذ اللَّه من ذلك.

وبهذه العظمة تحركت الأمة بهذا الدين.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٦٤/٢).

المعركة الثانية: السقاطية بكسكر

لقد وئدت الثورة الأولى لجابان، وها هي الثورة الثانية لنرسي، فهو الذي أعلن خروجه على الحكم الإسلامي بعد جابان، ومن الجدير الإشارة إلى أن هؤلاء الثائرين هم من الفرس الذين يستعبدون الشعب وينهبون ثروته.

قال الطبري: (السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد قالوا:

كان نرسي ابن خالة كسرى، وكانت كسكر قطيعة له، وكان النرسيان [١] له يحميه لا يأكله بشر ولا يغرسه غيرهم، أو ملك فارس إلا من أكرموه بشيء منه، فقال له رستم وبوران: اشخص إلى قطيعتك فاحمها من عدوك وعدونا، وكن رجلًا، فلما انهزم الناس يوم النمارق ووجهت الفالة نحو نرسي، ونرسي في عسكره، نادى أبو عبيد بالرحيل، وقال للمجردة [٢]: اتبعوهم حتى تدخلوهم عسكر نرسي أو تبيدوهم فيما بين النمارق إلى بارق إلى درتا) [٣].

ولعل البطل عاصم بن عمرو التميمي أخا القعقاع كان على رأس هؤلاء المجردة، وتحدث عن قتلهم للفارين من جيش جابان قبل أن يصلوا إلى معسكر نرسي الثائر الجديد، وخلَّد هذا شعرًا بقوله:

لعَمْري وما عَمري عليّ بهيِنٍ ... لقد صُبِّحَتْ بالخِزيِ أهلُ النمارقِ
بأيدِي رجالٍ هاجَروا نحْوَ ربِّهِمْ ... يجوسُونَهُم ما بَيْنَ دُرْتَا وَبارِقِ
قَتَلْناهُم ما بَيْنَ مَرْجِ مُسْلِحٍ ... وبين الهَوافِي منْ طريقِ البَذَارِقِ

وبعد تحرك المقدمة التي أبادت الفالّة من جيش جابان، تحرك الجيش الإسلامي نحو كسكر) [٤].

وتعبئة الجيش الإسلامي على ما هي عليها؛ المثنى على الخيل، ووالق بن جيدارة على الميمنة، وعلى الميسرة عمرو بن الصلت بن حبيب السلمي، بينما كانت تعبئة الفرس اليوم أنكى وأشد بحيث ظهر مدى اهتمامهم بالمحافظة على كسكر فهي بؤرة أعينهم؛ لأنها حمى كسرى وعائلته، فقائد الجيش نرسي ابن خالة كسرى، وقائد

---

(١) النرسيان: هو ضرب من التمر يكون أجوده.
(٢) المجردة: الخيالة.
(٣، ٤) تاريخ الطبري (٢/ ٣٦٤).

المجنبتين كذلك ابنا خالته (مندويه) و (تيرويه) للميمنة والميسرة، ولم يكتف بذلك بل بعث له مددًا جديدًا على رأسه الجالينوس، كما انضم أهل ثلاثة أقاليم أخرى إلى كسكر؛ هم أهل باروسما وأهل نهر جوبر وأهل الزاب، وبذلك تجمعت قوة عظمى لمواجهة المسلمين من أهالي المنطقة، لكن وصول الجالينوس لا يمكن أن يتم بهذه السرعة، فهل يستفيد المسلمون ويتحركون قبل وصول الجالينوس؟ لقد كان المسلمون على مستوى المسؤولية، ومستوى اليقظة المطلوبة.

(وعاجلهم أبو عبيد، فالتقوا أسفل من كسكر بمكان يدعى السقاطية، فاقتتلوا في صحارى ملس قتالًا شديدًا، ثم إن اللَّه هزم فارس، وهرب نرسي، وغُلب على عسكره وأرضه.

وأخرب أبو عبيد ما كان حول معسكرهم من كسكر، وجمع الغنائم، فرأى من الأطعمة شيئًا عظيمًا، فبعث فيمن يليه من العرب فانتقلوا ما شاؤوا، وأخذت خزائن نرسي، فلم يكونوا بشيء مما خزن أفرح عندهم منهم بالنرسيان؛ لأنه كان يحميه ويمالئه عليه ملوكهم، فاقتسموه فجعلوا يطعمونه الفلاحين، وبعثوا بخُمسه إلى عمر، وكتبوا إليه: إن اللَّه أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحمونها، وأحببنا أن تروها، ولتذكروا إنعام اللَّه وإفضاله) [1].

لقد كان الحكام المحليون يأتمرون بأمر فارس طوعًا أو كرهًا، لكن إذا هزمت فارس فهم مع الفاتح الجديد، ومهمتهم في الحياة أن يحكموا مَنْ تحت أيديهم من الفلاحين لصالح الفاتحين، ويكون لهم نصيب من المغنم. والفلاحون هم عبيد الأرض عليهم أن يعملوا بها ويحصلوا على قوت يومهم بحيث لا يموتون جوعًا، فهل تغيرت الصورة مع الفتح الجديد؟

لقد كانت مهمة أبي عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ أن لا يكتفي بالنصر في المعركة، بل يلاحق المقاتلين إلى أراضيهم حتى لا يعيدوا التجمع من جديد.

(فأقام أبو عبيد، وسرح المثنى إلى باروسما، وبعث والقًا إلى الزوابي وعاصمًا إلى نهر جوبر) [2].

(١، ٢) تاريخ الطبري (٣٦٤/٢).

ومضى القادة الثلاثة الذين كتب اللّه النصر على أيديهم بقيادة القائد الأعلى أبي عبيد.

(فهزموا من كان تجمع وأخربوا وسبَوا، وكان مما أخرب المثنى وسبى أهل زَنْدَوَرْد وبسوسيا... وهرب ذلك الجند إلى الجالينوس.

فكان ممن أسر عاصم أهل بيتيق من نهر جوبر، وممن أسر والق أبو الصلت) [١].

فسار حاكم باروسما فروخ، وحاكم نهر جوبر، وعليهما أن ينقذا أهلهما وقومهما من الأسر، لكنهما على وجل فلم تحسم المعركة بعد، ولم يزل الجالينوس يعبئُ الأهالي والفارين للانضمام إلى الجيش ليواجه أبا عبيد، وعليهما كذلك أن ينقذا أهلهما من الأسر.

(وخرج (فروخ) و (فرونداذ) إلى المثنى يطلبان الجزاء والذمة... فأعطياه عن كل رأس أربعة... وضمنا له الرجال عن التعجيل.

وحيث إن مهمة الجيش الإسلامي ليس كسر العظم للعدو، بل هو رحمة له ممن يستغله، فسارع أبو عبيد، وأقرهما على ما طلباه، وآثر العافية على القسر.

(ففعلوا وصاروا صلحًا) [٢].

وحسب فروخ وفرونداذ أن هؤلاء الفاتحين الجدد مثل أسلافهم، فلا بد أن يغمروهم بالهدايا ويتحفوهم بالأفضال حتى يرضوا عنهم.

(وجاء فروخ وفرونداذ إلى أبي عبيد بآنية فيها أنواع أطعمة فارس من الألوان والأخبصة وغيرها، فقالوا:

هذه كرامة أكرمناك بها، وقريٌ لك.

قال: أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله؟

قالوا: لم يتيسر، ونحن فاعلون.

وإنما يتربصون بهم قدوم الجالينوس وما يصنع.

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٣٦٤/٢).

فقال أبو عبيد: فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند، فردَّه) [(١)].

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن النضر بن السري الضبي قال:

فأتاه الأندرزغر بمثل ما جاء به فروخ وفرونداذ، فقال لهم: أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم.

قالوا: لا، فردَّه، وقال: لا حاجة لنا فيه، بئس المرء أبو عبيد إن صحب قومًا من بلادهم أهراقوا دماءهم دونه أو لم يهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه، لا واللَّه لا يأكل مما أفاء اللَّه عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم) [(٢)]. نحن إذن أمام نموذج جديد يمثل حزب اللَّه في الأرض، ولسنا أمام جاهلية عربية تحل محل جاهلية فارسية، يتخذون إلههم هواهم، نحن أمام صياغة جديدة للتاريخ البشري يصوغه المؤمنون من جند محمد ﷺ، والذين تربوا على يديه ويد أصحابه، وليست القضية قضية فتوح أرض وهزيمة عدو، إنما نحن أمام دعاة ينطلقون بهذا الدين، وينساحون فيه ليوصلوه إلى عباد اللَّه، فهم جيش الرحمة المهداة، يجير عليهم أدناهم، ويَرْفُضُ قائدُهم أن يأخذ قِرًى لا يسع كل جنده، يعيش بينهم واحدًا منهم، فيفدونه بمهجهم وأرواحهم.

هزيمة الجالينوس:

قال ابن جرير: (كتب السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة.

وقد كان جابان ونرسي استمدّا بوران فأمدتهما بالجالينوس في جند جابان، وأُمِر أن يبدأ بنرسي ثم يقاتل أبا عبيد بعد، فبادره أبو عبيد، فنهض في جنده قبل أن يدنو، فلما دنا استقبله أبو عبيد فنزل الجالينوس (بِبَاقُسْيَاثَا من باروسما) فنهد إليه أبو عبيد في المسلمين وهو على تعبئته فالتقوا على باقسياثَا، فهزمهم المسلمون، وهرب الجالينوس، وأقام أبو عبيد قد غلب على تلك البلاد) [(٣)].

لقد دانت الأرض لأبي عبيد والمسلمين، وتنفس الدهاقين الصعداء بهزيمة الجالينوس، فبإمكانهم الآن أن يتصرفوا بالأموال والأراضي دون رقيب أو خوف من الفرس، ومن أجل هذا قاموا بإطعام الجيش الإسلامي كل ما أرادوا أن يهدوا منه لأمير الجيش.

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٢/٣٦٥).

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة ومجالد وزياد والنضر بإسنادهم، قالوا:

(أتاه أولئك الدهاقين المتربصون جميعًا بما وسع الجند، وهابوا وخافوا على أنفسهم، وأما النضر ومجالد فإنهما قالا: قال أبو عبيد:

ألم أعلمكم أني لست آكلًا إلا ما يسع من معي ممن أصبتم بهم!

قالوا: لم يبق أحد إلا وقد أُتِيَ بشبعه من هذا في رحالهم وأفضل.

فلما راح الناس عليه سألهم عن قِرى أهل الأرض فأخبروه، وإنما كانوا قصَّروا أولًا تربصًا ومخافة عقوبة أهل فارس.

وأما محمد وزياد وطلحة فقالوا:

فلمّا عَلِم قبِل منهم، وأكل وأرسل إلى قوم كانوا يأكلون معه أضيافًا عليه يدعوهم إلى الطعام، وقد أصابوا من نُزُل فارس، ولم يروا أنهم أتوا أبا عبيد بشيء، فظنوا أنهم يدعَون إلى مثل ما كان يُدعون إليه من غليظ عيش أبي عبيد، وكرهوا ترك ما أتوا به من ذلك، فقالوا له:

قل للأمير: إنا لا نشتهي شيئًا مع شيء أتتنا به الدهاقين، فأرسل إليهم:

إنه طعام كثير من أطعمة الأعاجم، لتنظروا أين هو مما أتيتم به، إنه قرو ونجم وجوزل وشواء وخردل، فقال في ذلك عاصم بن عمرو وأضيافه عنده:

إنْ تَكُ ذَا قَرْوٍ ونَجْمٍ وجَوْزَلٍ ... فَعِنْدَ ابنِ فَرُّوخٍ شَوَاءٌ وخَرْدَلُ

وَقَرْوٌ رِقَاقٌ كالصَّحَائِفِ طُوِّيَتْ ... عَلَى مُزَعٍ فِيها بِقوْلٌ وجَوْزَلُ) [1]

الوصية الأخيرة لأبي عبيد:

ثم ارتحل أبو عبيد، وقدم المثنى، وسار في تعبيته حتى قدم الحيرة.

قال النضر ومجالد ومحمد وأصحابه:

تقدم عمر إلى أبي عبيد، فقال: إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة

---

(١) تاريخ الطبري (٣٦٦/٢) والقرو إناء يردَّدُ في الحوائج تاج العروس (قرو).
والجوْزَل: فرخ الحمام، القاموس المحيط (جزل)، والخردل: جمع خردلة وهي القطعة من اللحم. المعجم الوسيط (خردل).

والجبرية، تقدم على قوم قد جُرِّئوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون، واخزن لسانك، ولا تفشين سرك، فإن صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه، وإذا ضيعه كان بِمضيَعة) [(١)].

فالحيرة هي عاصمة العراق، ولا بد أن يستقر القائد فيها، فمضى أبو عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ ليكون في مركز القيادة، وكان المثنى رضي الله عنه هو قائد التشريفات، فهو مقدمة الركب ليهيئ المقام لأبي عبيد، وعندما جاء من عند أمير المؤمنين رسولٌ بعد بلوغ انتصارات المسلمين إليه جاءه بتعليمات عسكرية، ومعلومات وثائقية عن الأرض التي يتحرك بها، وطبيعة الناس الذين يقاتلهم.

لقد أصبحت إمبراطورية الفرس تمثل إمبراطورية الشر في الوجود، وليس لها من وحي تفيء إليه أو دين تنطلق منه، كما كانت الإمبراطورية الشيوعية في القرن العشرين؛ تقوم على الإلحاد والفجور والشيوعية في كل شيء.

(تقدم على قومٍ قد جَرؤُوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون؟) فلا قائد بلا سِرّ، ولا قائد بلا لسان ذرب، ولا قائد بلا شهوة مجنونة للكلام. كثير من المخططات تنهار مع الخمر، وكثير من الأسرار تنساح مع السكر ﴿ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣].

(واخزن لسانك ولا تُفشين سرك، فإن صاحب السر متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه، وإذا ضيعه كان بمضيعة).

لقد بعث الخليفة الفاروق بوصيته هذه لقائده أبي عبيد، رغم كل أخبار انتصاراته التي أتته، والأخماس التي تُصَدِّق هذا الانتصار، لكن هذا مدعاة للغرور، مدعاة إلى انهيار الشخصية، وانبهارها بهذا المجد، والعاطفة الصادقة القوية التي نال بها أبو عبيد قيادة الجيش، قد تكون هي موطن ضعفه، وتعاليه على من حوله الذين هم أكفأ قيادة، لكنَّ تلكؤَهم حال دون أخذهم موقعَهم الطبيعي كسليط بن قيس رضي الله عنه، وسعد ابن عبيد رضي الله عنه، والمثنى بن حارثة رضي الله عنه.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٦٦).

المعركة الثالثة والأخيرة:
معركة الجِسْر أو قُسِّ النَّاطِف [١]

تعبئة الفريقين للمعركة:

لقد هُزِمَ الجالينوس، وفرّ عائدًا إلى رستم ومن معه من جنده.

(... قال رستم: أي العجم أشد على العرب فيما ترون؟

قالوا: بهمَنْ جاذَويه (المعروف بذي الحاجب).

وقال لبهمن: إن انهزم الجالينوس ثانية فاضرب عنقه، فأقبل بهمن جاذويه ومعه دِرَفْش كَابْيَان - راية كسرى، كانت من جلود النمور؛ عرض ثماني أذرع وطول اثنتي عشرة ذراعًا - فنزل بقس الناطف.

وأقبل أبو عبيد، فنزل بالمروحة، فرأت دومة امرأته - أن رجلًا نزل من السماء بإناء فيه شراب، فشرب أبو عبيد ومعه نفر، فأخبرت بها أبا عبيد فقال: لَهَذِه إن شاء اللّه الشهادة.

وعهد إلى الناس فقال:

إن قتلت فعلى الناس فلان، فإن قتل فعليهم فلان، حتى أمَّرَ الذين شربوا من الإناء على الولاء من كلامه ثم قال: فإن قُتِل فعلى الناس المثنى) [٢].

مخالفة الأكفاء:

(... وبعث إليه بهمن جاذويه: إما أن تعبروا إلينا، وندعكم والعبور، وإما أن تدعونا والعبور؟ فنهاه الناس عن العبور، ونهاه سليط أيضًا فلجّ أبو عبيد وترك الرأي وقال:

لا يكونوا أجرأ منا على الموت...) [٣].

هذا الموقف مقبول من جندي متحمس تقاس الأمور عنده بالحماس والعاطفة،

---

(١) قُسُّ النَّاطِف: موضع قريب من الكوفة على شاطئ الفرات.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣٠١/٣). (٣) المصدر نفسه (٣٠١/٣).

لكنه غير مقبول من قائد مسؤول عن أرواح كل جندي من جنوده، ورسول الله ﷺ سيد الخلق وأعقل الخلق كان يستشير أولي الخبرة والمعرفة.

ففي بدر وقف الحباب بن المنذر يقول:

(يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: « **بل هو الرأي والحرب والمكيدة** »، قال:

يا رسول الله فإن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى [١] ماء من القوم فننزله، ثم نُغَوِّر [٢] ما وراءه من القُلُب [٣]، ثم نبني عليه حوضًا ونملأه فنشرب ولا يشربون ثم نقاتلهم، ففعل رسول الله ذلك) [٤].

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فقد كانت شروط إمارة أبي عبيد أن يستشير قيادات المهاجرين والأنصار وعلى رأسهم سعد بن عبيد وسليط بن قيس، وخبير الحرب الأعظم المثنى بن حارثة، كما روينا من قبل (فأمَّرَ أبا عبيد على الجيش وقال له: اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ، وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد مسرعًا حتى تتبين، ولم يمنعني أن أؤمر سليطًا إلا سرعته إلى الحرب، وفي التسرع إلى الحرب ضياع الأعراب، فإنه لا يصلحها إلا الرجل المكيث...) [٥].

وهذا سليط رضوان الله عليه والمتسرع في الحرب ينهى قائده أبا عبيد عن العبور إلى العدو، كما نهاه القادة الكبار في الجيش، وهذا نموذج من ذلك الحوار العظيم بين القائدين.

قال ابن جرير: (وكتب إلي السري بن يحيى، عن شعيب عن سيف عن المجالد وسعيد بن المرزبان قالا:

واستعمل رستم على حرب أبي عبيد بهمن جاذويه وهو ذو الحاجب، ورد معه الجالينوس، ومعه الفِيلة، فيها فيل أبيض عليه النخل [٦]، وأقبل في الدهم [٧]، وقد استقبله أبو عبيد حتى انتهى إلى بابل، انحاز حتى جعل الفرات بينه وبينه؛ فعسكر بالمروحة.

---

(١) أدنى: أقرب.
(٢) نُغَوِّر: ندفن الماء.
(٣) القُلُب: جمع قليب وهو البئر.
(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣/٨٥).
(٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣/٢٩٧، ٢٩٨).
(٦) النخل هنا نوع من الحلي.
(٧) الدهم: العدد من الناس.

ثم إن أبا عبيد ندم حين نزلوا به، وقالوا: إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر.

فحلف ليقطعن الفرات إليهم، وليمحصن ما صنع.

فناشده سليط بن قيس ووجوه الناس وقالوا:

- إن العرب لم تلق مثل جنود فارس مذ كانوا.
- وإنهم قد حفلوا لنا واستقبلونا من الزُّهاء والعدة بما لم يلقَنا به أحد منهم.
- وقد نزلت منزلًا لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة إلى كرة.

فقال: لا أفعل، جَبُنتُ واللَّه!

وكان الرسول فيما بين ذي الحاجب وأبي عبيد مردانشاه الخصي.

- فأخبرهم أن أهل فارس قد عيَّرُوهم.

فازداد أبو عبيد محكًا.

وردَّ على أصحابه الرأي، وجبَّن سليطًا، فقال سليط:

أنا واللَّه أجرأ منك نفسًا، وقد أشرنا عليك الرأي فستعلم) [١].

لقد خالف النهج الإسلامي في الاستشارة، كما علَّمه رسول اللَّه ﷺ، وخالف الأوامر الصريحة لعمر أمير المؤمنين في استشارة قيادات المهاجرين والأنصار، ووجوه الناس، وواجه أولي الخبرة في حرب الفرس، وأصر على رأيه ناظرًا للأمر من زاوية واحدة: أن لا يرى العدُّو أنه أجرؤ على الموت منا.

وإذا كان اللَّه تعالى لم يُعْفِ الجيش الذي على رأسه محمد ﷺ من العقوبة، حين خالف الرماة أوامر رسول اللَّه ﷺ، وقال لهم: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فلا عجب أن ينال الجيش عقاب إصرار قيادته على الخطأ.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٦٧/٢).

الجولة الأولى من المعركة:

(... فعبر إليهم على جسر عقده ابن صلوبا للفريقين، وضاقت الأرض بأهلها، واقتتلوا، فلما نظرت الخيول إلى الفيلة، والخيل عليها التجافيف، رأت شيئًا منكرًا لم تكن رأت مثله فجعل المسلمون إذا حملوا عليهم لم تقدم عليهم خيولهم، وإذا حملت الفرس على المسلمين بالفيلة والجلاجل فرقت خيولهم وكراديسهم رموهم بالنشاب، واشتد الأمر بالمسلمين، فترجل أبو عبيد والناس، ثم مشوا إليهم، ثم صافحوهم بالسيوف، فجعلت الفيلة لا تحمل على جماعتهم إلا دفعتهم، فنادى أبو عبيد: احتوشوا الفيلة، واقطعوا بطانها، واقلبوا عنها أهلها، ووثب على الفيل الأبيض فقطع بطانه، ووقع الذين عليه، وفعل القوم مثل ذلك، فما تركوا فيلًا إلا حطوا رحله وقتلوا أصحابه...) (1).

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ... ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فانتصار المسلمين في معركة الجسر دون التربية المناسبة لهم يعني أن الخطأ سوف يتكرر، وتكون القيادة لأكثر الناس حماسة لا لأقدرهم خطة أو أعمقهم فهمًا في فنون الحرب، فأين بقي المبدأ العظيم الذي أعلنه عمر ﷺ:

(... وفي التسرع إلى الحرب ضياع الأعراب فإنه لا يصلحها إلا الرجل المكيث)؟

وأين بقي المبدأ القرآني الخالد: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؟

وأين بقي تنفيذ الاستشارة، حين حدد الحباب مكانًا أفضل، فمضى له رسول الله ﷺ دون نقاش أو تردد؟

لا بد لهذا الجيل وهو يتهيأ لمرحلة جديدة أن يتلقى درسًا قاسيًا في فنون الطاعة والانضباط والخبرة، والاستشارة والتخطيط.

فكيف ينتقل الجيش كله إلى مكان ضيق المطرد، وضيق المهرب، من موقع واسع المطرد، وواسع المهرب بحجة أن لا يكون العدو على الموت أجرأ منا.

الشجاعة أساس كبير من أسس القائد المحارب، لكن التخطيط، ووضع الخطط المناسبة لمواجهة العدو هو الأساس الأول، ولقد حاول أبو عبيد ﷺ أن يصد الهجوم

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٦٧).

لسلاح الفيلة، وطاوعه الجيش، ونفذوا أوامره، لكن شاء اللَّه تعالى أمرًا آخر في:

الجولة الثانية من المعركة:

(... وأهوى الفيل لأبي عبيد، فضربه أبو عبيد بالسيف، وخبطه الفيل بيده، فوقع فوطئه الفيل وقام عليه، فلما بصر به الناس خشعت أنفس بعضهم...) [(١)].

واختار أبو عبيد ﷺ للقيادة الأشجع لا الأكفأ، فقد قتلوا شهداء جميعًا وضعهم خلفاء بعده، والأصل أن يكون خليفته سليطًا أو سعد بن عبيد أو المثنى بن حارثة لمعالجة الأمر بحكمة وسرعة قبل أن يستفحل.

لقد كان قائدنا شجاعًا بطلًا، لكنه لم يكن قائدًا محنكًا مجربًا، ووضع القادة بعده بمثل مواصفاته، فلم يكن هَمُّ أحدهم إلا الشهادة، وصار الموت هو الهدف، وليس إنقاذ الجيش من الهزيمة والموت.

(... ثم أخذ اللواء الذي أمَّرَه بعده فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد، فأخذه المسلمون فأحرزوه، ثم قتل الفيل الأمير الذي بعد أبي عبيد.

وتتابع سبعة أنفس من ثقيف كلهم يأخذ اللواء، ويقاتل حتى يموت، ثم أخذ اللواء المثنى فهرب عنه الناس، فلما رأى عبد اللَّه بن مرثد الثقفي ما لقي أبو عبيد وخلفاؤه وما يصنع الناس بادرهم إلى الجسر، فقطعه، وقال: يا أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا...) [(٢)].

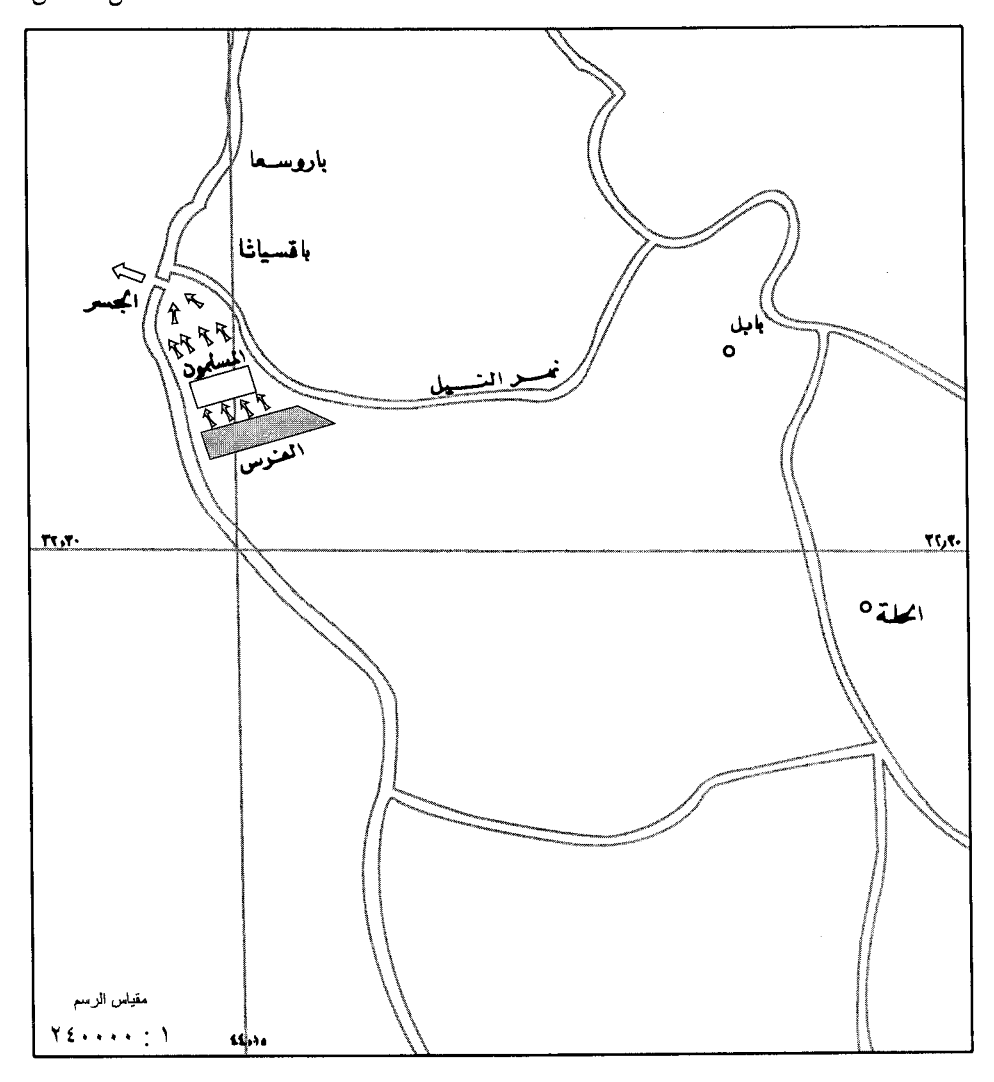
فليس عنده بدائل إلا الموت للجميع، وليس عنده خطة إنقاذ بقية الجيش.

الجولة الثالثة من المعركة:

(... وحاز المشركون المسلمين إلى الجسر، فتواثب بعضهم إلى الفرات فغرق من لم يصبر وأسرعوا فيمن صبر، وحمَّي المثنى وفرسان المسلمين وقال: أنا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا، فإنا لن نزايل حتى نراكم من هذا الجانب ولا تغرقوا أنفسكم.

فعَبَروا الجسر.

(١ ، ٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٨٧).



معركة الجسر

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٣٩) خريطة (١٨))

وقاتل عروة بن زيد الخيل قتالًا شديدًا، وأبو محجن الثقفي، وقاتل أبو زبيد الطائي حميةً للعربية وكان نصرانيًا قدم الحيرة لبعض أمره. ونادى المثنى: من عبر نجا.

فجاء العلوج، فعقدوا الجسر، وعبر الناس، وكان آخر من قُتل عند الجسر سليط ابن قيس وعبر المثنى وحمى جانبه، فلما عبر ارفض عنه أهل المدينة حتى لحقوا بالمدينة، وتركها بعضهم، ونزلوا البوادي، وبقي المثنى في قلة، وكان قد جرح.

وأثبت فيه حِلقٌ من درعه، هتكهن.

وأُخبر عمر عمن سار في البلاد من الهزيمة استحياء فاشتد عليه ذلك ورحمهم، وقال: اللهم كل مسلم في حِل مني، أنا فئة كل مسلم، من لقي العدو فقطع بشيء من أمره فأنا له فئة، يرحم اللَّه أبا عبيد لو كان انحاز إلي لكنت له فئة) (١).

ولأن المثنى بن حارثة خُلِقَ قائدًا، فقد كان في الجاهلية صاحب حرب قومه بني شيبان، وهو أجرأ الناس على حرب الفرس، هو الذي طرح الخطة البديلة، لإنقاذ بقية الجيش وبقي مع الفرسان العظام يحمي الانسحاب المنظم، ويصد هول العدو، وهو غارق بجراحه، وذلك حين آلت له القيادة.

نتيجة المعركة:

وقتل من الفرس ستة آلاف، وهلك من المسلمين يومئذ أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان، وبقي ثلاثة آلاف) (٢).

وإذا كانت المعارك تقاس بعدد القتلى، فقد خسر العدو قرابة ضعف عدد المسلمين، لكن الهدف هو الانطلاقة في أرض اللّه، فقد توقف الهدف وأعيق.

ويمكن أن نعتبر هذه المعركة أشد معركة نزلت بالمسلمين، ومع هذا، فقد بقي للجيش الإسلامي قواعده بفضل عبقرية المثنى ﷺ ويحدثنا المحلل العسكري أحمد عادل كمال عن المعركة قائلًا:

(وجمع المثنى بعض أبطاله، فدافعوا الفرس حتى عقد الجسر من جديد، وانسحب المسلمون، قتل في المعركة ستة آلاف من الفرس، واستشهد من المسلمين أربعة آلاف، وانفض أربعة آلاف بعد المعركة، وبقي أربعة آلاف مع المثنى.

انتهت المعركة مع غروب الشمس، وقطع المسلمون الجسر وراءهم، وانسحبوا إلى الصحراء تجاه أُلَّيس، فعجز الفرس عن تعقبهم.

كانت معركة الجسر أول معركة يفقدها المسلمون في العراق، وآخرها أيضًا،

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٨٧).

(٢) المصدر نفسه (٢/٢٨٨).

وضاعت إلى حين مكاسب المعارك السابقة، وعرفت هذه المعركة أيضًا بالمروحة، والقرقس والقس وقس الناطف) [١].

مقارنة:

عاملان اثنان كان لهما دور كبير في تلافي النتائج الخطيرة التي كان يمكن أن تنتج عن خسارة معركة الجسر، والتي كان يمكن أن توقف المد الإسلامي كلّه في الأرض من جهة الشرق، كما توقف المدَّ الإسلامي من الغرب.

العامل الأول: هو أن المثنى رَحِمَهُ اللَّهُ حين تم انسحاب المسلمين، قام بقطع الجسر الذي بناه حتى يحول دون ملاحقة الفرس للمسلمين، والإجهاز على من تبقى منهم.

العامل الثاني: هو الأحداث المزلزلة الداخلية في فارس.

(وأراد بهمن جاذويه العبور خلف المسلمين فأتاه الخبر باختلاف الفرس، وأنهم قد ثاروا برستم، ونقضوا الذي بينهم وبينه، وصاروا فريقين؛ الفهلوج على رستم، وأهل فارس على الفيرزان، فرجع إلى المدائن، وكانت هذه الوقعة في شعبان.

وكان فيمن قتل بالجسر عقبة وعبد اللَّه ابنا قبطي بن قيس، وكانا شهدا أحدًا، وقتل معهما أخوهما عباد ولم يشهد معهما أحدًا، وقتل أيضًا قيس بن السكن الأنصاري (أبو زيد) وهو بدري لا عقب له، وقتل يزيد بن قيس بن الخطيم الأنصاري شهد أحدًا، وفيها قتل أبو أمية الفزاري له صحبة، والحكم بن مسعود أخو أبي عبيد، وابنه جبر بن الحكم بن مسعود) [٢].

هؤلاء الغرر العظام معظمهم من الأنصار؛ ولهذا قال حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذلك:

لَقَد عَظُمَت فينا الرَزِيَّةُ إِنَّنا ... جِلادٌ عَلى رَيبِ الحَوادِثِ وَالدَّهرِ

عَلى الجِسرِ يَومَ الجِسرِ لَهفي عَلَيهِم ... فَيا لَهفَ نَفسي لِلمُصابِ عَلى الجِسرِ

يَقولُ رِجالٌ ما لِحَسّانَ باكِيًا ... وَما لِيَ لا أَبكي عَلى المَعشَرِ الزُّهرِ

وَما لِيَ لا أَبكي عَلى خَيرِ فِتيَةٍ ... بِباروسَما أَضحَت دِماؤُهُمُ تَجري

فَإِنّي لَباكٍ ما حَيِيتُ وَلَو بَكى ... عَلى المَيتِ مَيتٌ جُدتُ بِالدَّمعِ في قَبري

---

(١) أطلس الفتوحات الإسلامية لأحمد عادل كمال (ص ٣٩).

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٨٨).

فَلَهفي عَلى الأَجلى سَليطٍ وَرَهطِهِ وَلَهفي عَلى لَيثِ الغَريفِ أَبي جَبرِ
وَأَشيَبَ ثَوباهُ الوَقارُ وَناشِق إِذا اِنقَشَعَت عَنهُ الضَبابَةُ كَالبَدرِ
كَأَنَّ سَليطًا يَومَ شَدَّ بِسَيفِهِ وَأَلقى القِناعَ الحَرثُ بنُ أَبي شِمرِ

(وكان بين وقعة اليرموك والجسر أربعون ليلة، وكان الذي جاء بالخبر عن اليرموك جرير بن عبد اللَّه الحميري، والذي جاء بالخبر عن الجسر عبد اللَّه بن زيد الأنصاري، وليس بالذي رأى الرؤيا، فانتهى إلى عُمَرَ وعُمَرُ على المنبر، فنادى عمر: الخبر يا عبد اللَّه ابن زيد؟ قال: أتاك الخبر اليقين ثم صعد إلى المنبر فأسر ذلك إليه.

وكانت اليرموك في أيام من جمادى الآخرة، والجسر في شعبان) [1].

لقد فتحت اليرموك أبواب الإمبراطورية الرومانية أمام المسلمين، فكانت من المعارك التي غيرت اتجاه التاريخ، ولكن معركة الجسر كان من الممكن أن تنتهي باحتلال المدينة، وسقوط الفتح الإسلامي، ولكن اللَّه سلم، إنه عليم بذات الصدور.

لقد كانت معركة (بواتيه) في جنوب فرنسا، والتي انتهت بهزيمة المسلمين هناك إثرَ مقتل قائد الجيش عبد الرحمن الغافقي هي التي أوقفت الزحف الإسلامي على أوربا، وبقيت أوربا تقود الكفر في الأرض إلى اليوم لحرب الإسلام وأهله.

لكن الجيل الذي رباه القرآن، ورباه إمام المربين محمد ﷺ، قد يصيبه القرح ويقع به البلاء، ويقدِّم أرتال الشهداء، لكن هذا الجيل، لا يتراجع، وله الكرَّة بعد الفرَّة ولا ييأس ولا يستسلم للعدو، لقد رباه القرآن بقوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

لقد سقط منهم أربعة آلاف من القتلى، لكن بقي منهم ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من الصامدين الصابرين، أوقفوا الغول الفارسي أن يمضي في أرض الإسلام، حتى

---

(١) تاريخ الطبري (٣٧٦/٢).

عادت التعبئة من جديد، وفر أربعة آلاف، وبقي ثلث الجيش ممسكًا بالراية محافظًا عليها حتى بدأت الجولة الجديدة، فالمثنى ﷺ الذي أنقذ الموقف، وأوقف المد الفارسي، وانحاز إلى أُلَّيس مرة ثانية لم يكتفِ أن يحافظ على وجوده، إنما كان كالسبع يبحث في الأرض عن فريسة، لقد بلغه مضي قائد الجيش بهمن جاذويه إلى المدائن، لكن أين القائدان الآخران قائدا مجنبتيه، وها هو يبحث عنهما حين سمع عن محاولتهما كسب جولة جديدة، وهما يحسبان أن الفرار قَدَرُ المسلمين جميعًا، ولنبحث عن آثار هذين التصورين لدى القادة الثلاثة، المثنى من جهة، وجابان ومردانشاه من جهة ثانية.

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف... قالوا:

وخرج جابان ومردانشاه حتى أخذا بالطريق، وهم يرون أنهم سيرفضون ولا يشعرون بما جاء ذا الحاجب من فرقة أهل فارس، فلما ارفض أهل فارس، وخرج ذو الحاجب في آثارهم، وبلغ المثنى فعلة جابان ومردانشاه، استخلف على الناس عاصم بن عمرو، وخرج في جريدة خيل يريدهما، فظنا أنه هارب، فاعترضاه فأخذهما أسيرين، وخرج أهل أُلَّيس على أصحابهما، فأتوا بهم أسراء، وعقد لهم بها ذمة وقدمهما، وقال: أنتما غررتما أميرنا، وكذبتماه واستفززتماه، فضرب أعناقهما، وضرب أعناق الأسراء، ثم رجع إلى عسكره)[1].

فجابان الذي حماه العهد المسلم من جندي عادي لأنه أجاره، أوقعه اللَّه تعالى ثانية بيد المثنى الذي يعرف مدخله ومخرجه، وقال له بلسان الحال لا بلسان المقال: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، حيث حاكمه ومردانشاه وقال لهما: أنتما غررتما أميرنا وكذبتماه واستفززتماه، فضرب أعناقهما.

* * *

وما أحوجنا إلى معركة جديدة كمعركة اليرموك تغسل عار معركة الجسر التي لم يصب المسلمون بمثلها أبدًا في كل حروبهم مع الفرس، لكن من أين يأتي الجند الجديد؟

لقد ساق اللَّه تعالى بجيلة بقضها وقضيضها لتنضم إلى بقايا الجيش الإسلامي فما هي؟

---

(١) تاريخ الطبري (٣٦٩/٢).

قصة بُجَيلة؟

أما سيد بجيلة فهو جرير بن عبد الله البجلي ﷺ:

(أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بأربعين يومًا، وكان حسن الصورة، قال عمر ابن الخطاب ﷺ: جرير يوسف هذه الأمة وهو سيد قومه، وقال النبي ﷺ لما دخل عليه جرير فأكرمه: « **إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه** » [١].

وكان له في الحروب بالعراق - القادسية وغيرها - أثر عظيم، وكانت بجيلة متفرقة فجمعهم عمر بن الخطاب، وجعل عليهم جريرًا...

وعن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله قال: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ضحك [٢]...

« وأرسله رسول الله ﷺ إلى ذي الخلصة، وهي بيت فيه صنم لخثعم ليهدمها فقال: إني لا أثبت على الخيل، فصك رسول الله ﷺ في صدره، وقال: « **اللهم اجعله هاديًا مهديًا** ».

« فخرج في مائة وخمسين راكبًا من قومه، فدعا رسول الله ﷺ لخيل أحمس ورجالها » [٣]... وتوفي جرير سنة إحدى وخمسين، وقيل سنة أربع وخمسين، وكان يخضب بالصفرة) [٤].

جرير يقود قومه:

كان يؤرق جريرًا ﷺ أن قومه وعشيرته بُجَيلَة متفرقون في القبائل العربية، وهو يريد لهذه القبيلة أن تأخذ دورها الواضح الجلي في الإسلام، وشكا لرسول الله ﷺ همه هذا ووعده رسول الله ﷺ أن يعينه على ذلك، لكن الفترة القصيرة التي عاشها جرير قبل وفاة المصطفى ﷺ لم تتجاوز أربعين ليلة.

وجاء الصديق خليفة رسول الله (فذكر له جرير حاجته، فقال: أعلى حالنا؟!

---

(١) ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٢٠٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢/١).

(٢) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٥٩/٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد والسير)، ح (٣٠٣٥)، ومسلم في: فضائل الصحابة، ح (٦٣١٤).

(٤) أسد الغابة لابن الأثير (٣٢٠/١، ٣٢١)، تحقيق: خليل مأمون شيحا.

وأخَّرَه بها، فلما وُلِّيَ عمر دعاه بالبينة، فأقامها، فكتب له عمر إلى عماله السعاة في العرب كلهم: من كان فيه أحد ينسب إلى بجيلة في الجاهلية، وثبت عليه في الإسلام، يعرف بذلك. فأخرجوه إلى جرير، ووعدهم جرير مكانًا بين العراق والمدينة.

ولما أعطي جرير حاجته في استخراج بجيلة من الناس، فجمعهم فأخرجوا له، وأمرهم بالموعد ما بين مكة والمدينة والعراق فتتامّوا) (١).

وعن الشعبي قال:

(قال عمر حين استجم جمع بجيلة: اتخذونا طريقًا، فخرج سروات بجيلة ووفدهم نحوه، وخلَّفوا الجمهور، فقال: أي الوجوه أحب إليكم؟ قالوا: الشام فإن أسلافنا بها، فقال: بل العراق، فإن الشام في كفاية، فلم يزل بهم، ويأبون عليه حتى عزم على ذلك، وجعل لهم ربع خمس ما أفاء اللَّه على المسلمين إلى نصيبهم من الفيء.

بين جرير وعرفجة:

فاستعمل (أي: أمير المؤمنين عمر) عرفجة على من كان مقيمًا على جديلة من بجيلة، وجريرًا على من كان من بني عامر وغيرهم.

وقد كان أبو بكر ولاه (أي عرفجة بن هرثمة) قتال أهل عمان في نفر، وأقفله حين غزا في البحر فولاه عمر عظم بجيلة، وقال: اسمعوا لهذا، وقال للآخرين: اسمعوا لجرير...).

ولم يتحقق طموح جرير رضي الله عنه، فهو يريد للقبيلة كلها أن تكون تحت قيادة واحدة ليعرف بلاؤها بين القبائل، ولم ينكر الإسلام على جرير هذا الاهتمام بقبيلته، طالما أنه يريد أن يوظفها للجهاد في سبيل اللَّه، وتَوَزُّعُها تحت إمرة قائدين لا يحقق الهدف الذي يريد، خاصة أن الأكثرية الساحقة تحت إمرة عرفجة، وعرفجة ليس من بجيلة، فلماذا يكون عليهم أميرًا من غيرهم، وعرفجة ليس نكرة، فهو من كبار القادة العظام الذين شاركوا في حرب المرتدين في عُمان، وفي اليمن، وكفاءته ماثلة في ذهن أمير المؤمنين رضي الله عنه.

(... فقال جرير لبجيلة: تقرون بهذا – وقد كانت بجيلة غضبت على عرفجة في

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٣٦٩).

امرأة منهم - وقد أدخل علينا ما أدخل؟؟ فاجتمعوا فأتوا عمر فقالوا: اعفنا من عرفجة، قال: لا أعفيكم من أقدمكم هجرة وإسلامًا، وأعظمكم بلاءً وإحسانًا.

قالوا: استعمل علينا رجلًا منا، ولا تستعمل علينا نزيعًا فينا.

فظن عمر أنهم ينفونه من نسبه، فقال: انظروا ماذا تقولون؟ قالوا: نقول ما تسمع.

فأرسل إلى عرفجة فقال: إن هؤلاء استعْفَوني منك، وزعموا أنك لست منهم، فما عندك؟

قال: صدقوا وما يسرني أني منهم، أنا امرؤ من الأزد، ثم من بارق، في كهف لا يحصى عدده، وحسب غير مؤتشب [1]، فقال عمر: نِعم الحيُّ الأزد يأخذون نصيبهم من الخير والشر.

قال عرفجة: إنه كان من شأني أن الشر تفاقم بيننا، ودارنا واحدة، فأصبنا الدماء، ووتر بعضنا بعضًا، فاعتزلتهم لما خفتهم، فكنت في هؤلاء أَسودهم وأقودهم، فحفظوا عليَّ لأمر دار بيني وبين دهاقينهم، فحسدوني وكفروني.

فقال: لا يضرك فاعتزلهم إذ كرهوك.

واستعمل جريرًا مكانه، وجمع له بجيلة...) [2].

عرفجة يعود إلى قواعده:

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن عطية والمجالد بإسنادهما.

(قالا: وقدم على عمر غزاة بني كنانة والأزد في سبعمائة جميعًا، فقال: أي الوجوه أحب إليكم؟ قالوا: الشام، أسلافنا، أسلافنا.

فقال: ذلك قد كفيتموه، العراق! العراق! ذروا بلدة قد قلَّل اللَّه شوكتها وعددها واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش، لعل اللَّه أن يورثكم بقسطكم من ذلك، فتعيشوا مع من عاش من الناس.

فقال غالب بن عبد اللَّه الليثي، وعرفجة البارقي، كل واحد منهما لقومه وقاما فيهم: يا عشيرتاه! أجيبوا أمير المؤمنين إلى ما يرى، وامضوا له ما يسكنكم، قالوا: إنا قد أطعناك، وأجبنا أمير المؤمنين إلى ما رأى وأراد.

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٣٧١).

فدعا لهم عمر بخير، وقاله لهم، وأمَّر على بني كنانة غالب بن عبد اللَّه وسرَّحه، وأمَّرَ على الأزد عرفجة بن هرثمة، وعامتهم من بارق، وفرحوا برجوع عرفجة إليهم، فخرج هذا في قومه، وهذا في قومه، حتى قدموا على المثنى) [١].

أمير القوم منهم يحبهم ويحبونه:

لقد أرسى عمر ﷺ مبادئ الإسلام الديمقراطية، - والتي جاءت الديمقراطية لتتحدث بها - قبل خمسة عشر قرنًا؛ حين قدَّم لنا نموذجًا من تعامله مع بجيلة وسيدها جرير، ومع عرفجة ﷺ، وقالها خارجة عن حدود الزمان والمكان: « لا يضرك، فاعتزلْهم إذ كرهوك ».

وهل الديمقراطية سياسيًّا اليوم تعدو **هذين الركنين:**

الركن الأول: اختيار الشعب لحاكمه، ويعزل أو يعتزل حين يختار غيره، فيقر مبدأ التداولية.

الركن الثاني: مراقبة الحاكم وتسديده فيقر مبدأ فصل السلطات.

لقد كان هذا التقرير منطلقًا من منطلقات الإسلام العظيم، حيث قرر على لسان رسوله صلوات اللَّه عليه: « **خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم** » [٢].

ولقد رأينا مبدأ الرقابة:

(فحفظوا عليَّ لأمرٍ دار بيني وبين دهاقينهم، فحسدوني وكفَّروني).

فلو عاد الأمر لصناديق الاقتراع، لاختاروا غيره، على فضله وجهاده وهجرته وقدم إسلامه، فليكن ما يريدون، وقامت الديمقراطية المعاصرة بتحديد زمن لكل مسؤول ممثل قومه حتى الأمير الأعلى، فتجديد الولاية أو نزعها يكون الشعب صاحب القرار فيها.

رواية ثانية:

وفي رواية ابن إسحاق كما أوردها الطبري وتختلف عن رواية سيف نوردها بسندها: (... والذي قال في أمرهم ما حدثنا محمد بن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: لما انتهت إلى عمر بن الخطاب مصيبة أصحاب الجسر، وقدم عليه فُلُّهم، قدم عليه

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٧١).

(٢) مسلم، ح (١٨٥٥).

جرير بن عبد اللَّه البجلي من اليمن في ركب من بجيلة، وعرفجة بن هرثمة، وكان عرفجة يومئذ سيد بجيلة، وكان حليفًا لهم من الأزد، فكلمهم عمر فقال لهم:

إنكم قد علمتم ما كان من المصيبة في إخوانكم بالعراق، فسيروا إليهم، وأنا أُخرج إليكم من كان منكم في قبائل العرب فأجمعهم إليكم، قالوا: نفعل يا أمير المؤمنين.

فأخرج لهم قيس كبة وسحمة وعرينة، وكانوا في قبائل عامر بن صعصعة، وأمَّر عليهم عرفجة بن هرثمة، فغضب من ذلك جرير بن عبد اللَّه البجلي، فقال لبجيلة: كلموا أمير المؤمنين، فقالوا له: استعملت علينا رجلًا ليس منا، فأرسل إلى عرفجة، فقال: ما يقول هؤلاء؟ قال: صدقوا يا أمير المؤمنين، لست منهم ولكني رجل من الأزد، كنا أصبنا في الجاهلية دمًا في قومنا، فلحقنا بجيلة، فبلغنا فيهم من السؤدد ما بلغك، فقال له عمر: فاثبت على منزلتك وادفعهم كما يدافعونك، قال: لست فاعلًا ولا سائرًا معهم، فسار عرفجة إلى البصرة بعد أن نزلت، وترك بجيلة، وأمَّرَ عمر على بجيلة جرير بن عبد اللَّه...) [٢].

كل هذا متناسق ومتساوق مع الرواية السابقة، لكن هذا القسم من الرواية التالية يختلف جذريًّا مع الرواية الأولى، ويجعل جريرًا خارج وقعة البويب، وكأنه يقود معركة ثانية بإمرته، وأنه لم ينضم إلى جيش المثنى، إنما انضم إلى جيش سعد بن أبي وقاص مع المثنى - رحمهم اللَّه - وهي رواية مرجوحة.

(... وأمر عمر جرير على بجيلة، فأقبل جرير حتى إذا مرّ قريبًا من المثنى بن حارثة كتب إليه المثنى أن أقبل إليَّ، فإنما أنت مدد لي، فكتب إليه جرير: إني لست فاعلًا إلا أن يأمرني بذلك أمير المؤمنين، أنت أمير وأنا أمير... وكتب المثنى إلى عمر يمحَلُ [٣] بجرير، فكتب عمر إلى المثنى: إني لم أكن لأستعملك على رجل من أصحاب محمد ﷺ، يعني جريرًا، وقد وجه عمرُ سعدَ بن أبي وقاص إلى العراق في ستة آلاف، أمَّرَه عليهم، وكتب إلى المثنى وجرير بن عبد اللَّه أن يجتمعا إلى سعد بن أبي وقاص وأمَّر سعدًا عليهما، فسار سعد حتى نزل شراف، وسار المثنى وجرير حتى نزلا عليه، فشتا بها سعد، واجتمع عليه الناس ومات المثنى رَحِمَهُ اللَّهُ) [٤].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٧٥).
(٢) يمحل عليه: يعرِّض به.
(٣) المصدر نفسه (٢/٣٧٦).



الفصل السادس

فِحل جديدة: معركة البويب

بالعودة إلى رواية سيف، **نشهد تحرك بجيلة:**

(... وخرج جرير في قومه ممدًّا المثنى بن حارثة، حتى نزل ذا قار، ثم ارتفع حتى إذا كان بالجل، والمثنى بمرج السباخ، أتى المثنى الخبر عن حديث بشير وهو في الحيرة أن الأعاجم قد بعثوا مهران، ونهض (مهران) من المدائن شاخصًا نحو الحيرة فأرسل المثنى إلى جرير وإلى عصمة بالحث. وقد كان عهد إليهم عمر أن لا يعبروا بحرًا ولا جسرًا إلا بعد ظفر، فاجتمعوا بالبويب، فاجتمع العسكران على شاطئ البويب الشرقي، وكان البويب مغيضًا للفرات أيام المدود أزمان فارس يصب في الجوف، والمشركون بموضع دار الرزق، والمسلمون بموضع السكون...) [١].

تكوين الجيش الإسلامي الجديد:

١ - كان الثلاثة آلاف الذين بقوا على آثار معركة الجسر هم النواة الأساسية للجيش الجديد.

٢ - قبيلة بجيلة:

وقدمت بجيلة كلها وعلى رأسها جرير بن عبيد الله صاحب رسول الله ﷺ.

٣ - بنو كنانة، وبنو بارق:

(وقدما على عمر غزاة بني كنانة والأزد في سبعمائة جميعًا، فقال: أي الوجوه أحب إليكم؟ قالوا: الشام أسلافنا، أسلافنا! فقال: ذلك قد كفيتموه العراق، العراق، ذروا بلدة قد قلَّل الله شوكتها وعددها، واستقبلوا جهاد قوم قد حوَوْا فنون العيش، لعل الله أن يورثكم بقسطكم من ذلك، فتعيشوا مع من عاش من الناس) [٢].

ونحن هنا أمام قيمة ومفهوم من مفاهيم الإسلام لا بد من تثبيتها.

فالفرس قد حووا فنون العيش، وخيرات الأرض وكنوزها بين أيديهم، وقد وعد

(١، ٢) تاريخ الطبري (٣٧١/٢).

اللَّه المؤمنين أن يكونوا ورّاث الحضارة البشرية، وبناة صرحها على أساس الإيمان لا الطغيان، والمؤمنون يستحقون هذا الميراث بقسطهم وعدلهم: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فنعيم الآخرة خالصٌ للمؤمنين يوم القيامة، ونعيم الدنيا هو من حقهم على أن يقوموا بتوزيعه بالمعروف والقسط بين الناس، وهي نظرية خالد ﷺ وهو يرغِّب المؤمنين في الجهاد:

(وقام خالد في الناس خطيبًا يرغبهم في بلاد العجم، ويزهدهم في بلاد العرب وقال: ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب [١]، وباللَّه لو لم يلزمنا الجهاد في اللّه، والدعاء إلى اللَّه ﷻ ولم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولِّي الجوع والإقلال من تولاه ممن اثّاقل عما أنتم عليه.

وسار خالد بالفلاحين بسيرته فلم يقتلهم.. ودعا أهل الأرض إلى الجزاء والذمة فتراجعوا) [٢].

وهي نظرية عمر أمير المؤمنين ﷺ:

(واستقبلوا جهاد قوم قد حوَوا فنون العيش لعل اللَّه أن يورثكم بقسطكم من ذلك، فتعيشوا مع من عاش من الناس).

وهي القيمة المثبتة في القرآن: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا... ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

نعم إن الهدف الأعلى للجهاد هو لإعلاء هذا الدين ليكون الحاكم المهيمن على البشرية، وليس لإعلاء العرب على العجم.

فعن أبي موسي الأشعري ﷺ أن رجلًا أعرابيًا أتي النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذْكَرَ، والرجل يقاتل ليُرى مكانُه، فأيُّنا في سبيل اللَّه؟ قال: « **من قاتل لتكون كلمة اللَّه أعلى فهو في سبيل اللَّه** » [٣].

---

(١) رفغ التراب: مجتمع التراب.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣١٢).

(٣) مسلم، ح (١٩٠٤).

وفي رواية: « **الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حَمِيَّةً، ويقاتل رياءً...** ».

﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ١٨، ١٩].

ونعود إلى السياق مرة ثانية:

(فقال غالب بن عبد اللَّه الليثي، وعرفجة البارقي كل واحد منهما لقومه وقاما فيهم: يا عشيرتاه! أجيبوا أمير المؤمنين إلى ما يرى، وأمضوا له ما يسكنكم، قالوا: إنا قد أطعناك وأجبنا أمير المؤمنين إلى ما رأى وأراد، فدعا لهم عمر بخير وقاله لهم. وأمّر على بني كنانة غالب بن عبد اللَّه وسرَّحه، وأمَّرَ على الأزد عرفجة بن هرثمة وعامتهم من بارق، وفرحوا برجوع عرفجة إليهم، فخرج هذا في قومه، وهذا في قومه حتى قدما على المثنى) [١].

٤ - بنو تميم:

وهم من أشد مقاتلي العرب، وهذا هو توزيعهم على قبائلهم الكبرى.

(... وكان من أمر بني تميم أن رسول اللَّه ﷺ توفي وقد فرّق فيهم عماله.

- فكان الزبرقان بن بدر على: الرِّباب وعَوْف والأبناء.

- وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون.

- وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو على بني عمرو؛ هذا على بَهْدَي وهذا على خضم.

- ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة على بني حنظلة؛ هذا على بني مالك، وهذا على بني يربوع) [٢].

لقد مضت القيادات الأولى وجاء جيل جديد من القادة نشهده كما يلي:

أ - بنو حنظلة وهم الذين كان قائدهم وكيع بن مالك.

(وجاء وربعي في أناس من بني حنظلة، فأمَّره عليهم وسرَّحهم، وخرجوا حتى قدم بهم على المثنى، فرأس بعده ابنه شبث بن ربعي...).

ب - بنو عمرو: وهم الذين كانت قيادتهم صفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٧١/٢).
(٢) المصدر نفسه (٢٦٨/٢).

(وقدم عليه أناس من بني عمرو، فأمَّر عليهم ربعي بن عامر بن خالد بن العنود، وألحقه بالمثنى...).

ولا بد أن نذكر أن قيادات بني تميم الكبرى ومنهم الزبرقان بن بدر والأقرع ابن حابس، والقعقاع بن عمرو كانوا ممن توجه مع خالدٍ من العراق إلى الشام، وها هم يعودون ثانية، لكنهم وصلوا بعد معركة البويب.

٥ - بنو ضبة بن أد:

(وقدم عليه قوم من بني ضبة، فجعلهم فرقتين؛ فجعل على إحدى الفرقتين ابن الهوبر وعلى الأخرى المنذر بن حسان...).

ولا ننسى أن المدد الأكبر كان من قبل مع عصمة بن عبد اللَّه الضبي (وبعث عصمة بن عبد اللَّه الضبي فيمن تبعه إلى المثنى) [١].

٦ - بنو عبد القيس:

وهم خير أهل المشرق كما شهد لهم رسول اللَّه ﷺ [٢].

(وقدم عليه قُرط بن جمَّاح في عبد القيس، فوجهه...) [٣].

٧ - وفود النصارى: بنو نمر:

(وقدم أنس بن هلال النمري ممدًّا للمثنى في أناس من بني النمر نصارى، وجلابٌ جلبوا خيلًا...) [٤].

٨ - بنو تغلب:

(وقدم ابن مِردى الفهري التغلبي في أناس من بني تغلب نصارى، وجلاب جلبوا خيلًا، وهو عبد اللَّه بن كليب بن خالد، وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم: نقاتل مع قومنا...) [٥].

٩ - بنو الرباب:

(وخرج هلال بن علفة التيمي فيمن اجتمع إليه من الرباب حتى أتى عمر، فأمَّره عليهم وسرَّحه) [٦].

---

(١) تاريخ الطبري (٣٧١/٢).

(٢) انظر: فتح الباري (١٣١/١).

(٣ - ٦) تاريخ الطبري (٣٧١/٢).

١٠ - بنو جشم:

(وقدم على المثنى، وخرج ابن المثنى الجشمي (جشم سعد) حتى قدم عليه فأمره على بني سعد، وقدم على المثنى) [١].

١١ - بنو خثعم:

(وجاء عبد اللَّه بن ذي السهمين في أناس من خثعم فأمَّره عليهم ووجهه إلى المثنى، فخرج نحوه...) [٢].

تعبئة جيش فارس:

(... وقالوا جميعًا:

اجتمع الفيرزان ورستم على أن يبعثا مهران لقتال المثنى، واستأذنا بوران - وكانا إذا أرادا شيئًا دنوا من حجابها حتى يكلماها به - فقالا بالذي رأيا وأخبراها بعدد الجيش، وكانت فارس لا تكثر البعوث، حتى كان من أمر العرب ما كان، فلما أخبراها بكثرة عدد الجيش قالت:

ما بال أهل فارس لا يخرجون إلى العرب كما كانوا يخرجون قبل اليوم؟ وما لكما لا تبعثان كما كانت الملوك تبعث قبل اليوم؟!

قالا: إن الهيبة كانت مع عدونا يومئذ وإنها فينا اليوم؛ فمالأتهما وعرفت ما جاءاها به، فمضى مهران في جنده حتى نزل من دون الفرات، والمثنى وجنده على شاطئ الفرات، والفرات بينهما... وقال مهران: إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم، فقال المسلمون: اعبروا إلينا، فارتحلوا من بسوسيا إلى شوميا، وهي موضع دار الرزق) [٣].

لا شك أن الفرس اليوم في الذروة من نشوة النصر الذي حققوه في الجسر، وهم يأملون أن يبيدوا المسلمين في هذه المعركة التي أعدوا لها العدة الكاملة والعتاد الكامل في خطة جديدة تهدف إلى إنهاء الوجود الإسلامي في العراق، وقد رأت بوران أن الخطة خطة حسم وليست خطة مواجهة فقط.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن عبد اللَّه بن محفز عن أبيه:

أن العجم لما أذن لهم في العبور نزلوا (شوميا) موضع (دار الرزق) فَتَعَبَّوْا هنالك،

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٣٧١/٢، ٣٧٢).

فأقبلوا إلى المسلمين في صفوف ثلاثة، مع كل صف فيل، ورَجْلُهم أمام فيلهم.

وجاءوا ولهم زجل، فقال المثنى للمسلمين:

إن الذين تسمعون فشل، فالزموا الصمت، وائتمروا همسًا، فدنوا من المسلمين وجاؤوهم من قبل نهر بني سليم نحو موضع نهر بني سليم، فلما دنوا زحفوا وصُفَّ المسلمون فيما بين نهر بني سليم وما وراءها).

تعبئة الجيش الإسلامي:

إن القائد العظيم هو الذي ينفخ روح الحياة في الموات، فقد سأل المثنى ﷺ رجلًا من أهل السواد:

(ما يقال للرقعة التي فيها مهران وعسكره؟ قالوا: بسوسيا، فقال: أكدى مهران وهلك! نزل منزلًا هو البسوس...).

وهذه صورة التعبئة للجيش الإسلامي:

(... قالوا: وبعث المثنى بعد الجسر فيمن يليه من المُمَدِّين، فتوافوا إليه في جمع عظيم، وبلغ رستم والفيرزان ذلك، وأتتهم العيون به، وبما ينتظرون من الأمداد، واجتمعا على أن يبعثا مهران الهمذاني، حتى يريا من رأيهما، فخرج مهران في الخيول، وأمراه بالحيرة، وبلغ المثنى الخبر وهو معسكر بمرج السباخ بين القادسية وخَفان في الذين أمدوه من العرب عن خبر بشير وكنانة، وبشير يومئذ بالحيرة... وأرسل إلى جرير ومن معه: إنا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا، فعجِّلوا اللحاق بنا وموعدكم البويب.

وكان جرير ممدًّا له، وكتب إلى عصمة ومن معه وكان ممدًّا له بمثل ذلك، وإلى كل قائد أظله بمثل ذلك، وقال: خذوا على الجوف. فسلكوا القادسية والجوف، وسلك المثنى وسط السواد فطلع على النهرين ثم الخورنق، وطلع عصمة على النجف، ومن سلك معه طريقه، وطلع جرير على الجوف ومن سلك معه طريقه، فانتهوا إلى المثنى وهو على البويب، ومهران من وراء الفرات بإزائه واجتمع عسكر المسلمين على البويب مما يلي موضعَ الكوفة اليوم).

ولا بد أن نشير إلى انضمام نصارى العرب إلى الجيش الإسلامي.

- (وقدم أنس بن هلال النمري ممدًّا للمثنى في أناس من النمر نصارى وجلاب جلبوا خيلًا.

- وقدم ابن مردي الفهري التغلبي في أناس من بني تغلب نصارى وجلاب جلبوا خيلًا، وهو عبد اللَّه بن كليب بن خالد، وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم: نقاتل مع قومنا)(١).

فلقد كان موقفًا يحمدون عليه، تحركوا بدافعهم القومي، والذي هيج هذا الدافع هو أنهم رأوا هذه الجيوش الإسلامية تنزل في أرض العجم، وتقاتل العجم، فأي معنًى لوقوفهم على الحياد، المعركة معركة حياة أو موت بين الفريقين، فليس القتال على سلطانهم إنما القتال على سلطان العرب.

المثنى يـهيِّئ جيشه:

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة:

ولما خرج المثنى طاف في صفوفه يعهد إليهم عهده، وهو على فرسه الشموس، وكان يدعى الشموس من لين عريكته وطهارته، فكان إذا ركبه قاتل، وكان لا يركبه إلا لقتال ويدعه ما لم يكن قتال، فوقف على الرايات رايةً رايةً يحضضهم، ويأمرهم بأمره، ويهزهم بأحسن ما فيهم تحضيضًا لهم ولكلهم يقول:

إني لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم، واللَّه ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم، فيجيبونه بمثل ذلك، وأنصفهم المثنى بالقول والفعل، وخلط الناس في المكروه والمحبوب، فلم يستطع أحد أن يعيب له قولًا ولا عملًا، ثم قال:

إني مكبر ثلاثًا، فتهيؤوا ثم احملوا مع الرابعة، فلما كبر أول تكبيرة أعجلهم أهل فارس وعالجوهم فخالطوهم مع أول تكبيرة، وركدت حربهم مليًّا، فرأى المثنى خللًا في بعض صفوفه فأرسل إليهم رجلًا وقال: إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم فقالوا: نعم، واعتدلوا)(٢).

لقد كان القائد الفذَّ وَعْيًا وتخطيطًا وتنفيذًا؛ **فكانت سمته الأولى** أنه كان يعرف رصيده من جيشه، ولا يكتفي بإرسال الرسل للقيادات، وإرسال الأوامر، بل يباشر الأمور بنفسه، فيقف على كل راية ويحضها على الجهاد، ولأول مرة برزت قوة غير

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٦٩، ٣٧٠).

(٢) المصدر نفسه (٢/٣٧٢).

مسلمة داخل الجيش، كان عليه أن يحرك الجانب القومي فيها وفعل. (ويهزهم بأحسن ما فيهم) فالنفوس لها مفاتيح، وقدرة القائد الفذ أن يملك هذه المفاتيح، ويستجيش أقصى ما لديها من طاقات.

والسمة الثانية من عبقريته هي اختلاطه بجيشه، وتمثّل الإسلام به قولًا وفعلًا، فليس من شيء مَعيب يخشى أن يطلع الناس عليه، واستقامته تبقى هي المثل الأعلى والحافز لجيشه (فلم يستطع أحد أن يعيب له قولًا ولا عملًا).

والسمة الثالثة من عبقريته هي قدرته على زرع الثقة في نفوس رجاله وأبطاله، فلا تزال أجواء معركة الجسر والخوف من المواجهة هي المسيطرة على النفوس.

(إني لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم، والله ما يسرني لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم) ففي قلب الحرب لا يذبح الجنود إلا التمييز بينهم وبين القيادات، فهم الآن عند الموت سواء، وكل فرد في الجيش سطوة وسلطان، ومن أجل هذا أكد المثنى ﷺ المساواة والمواساة بين الجميع.

إنه يرقب المعركة عن كثب، وذلك بعد الهجوم الفارسي عليهم مع أول تكبيرة، ولم يكن لهم بد من مخالطتهم، ورأى وهو يرقب المعركة خللًا وتصدعًا في الصف، حيث اشتدت وطأة الهجوم الفارسي عليهم فأرسل لهم رسولًا قائلًا:

(إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم).

وأدرك هذا الفريق أن الأمير متابع لكل تحركات الجيش، وأن عليهم عيونًا ترمق شجاعتهم وتضحياتهم كما ترمق تخاذلهم وعجزهم، فأعادوا تنظيم أنفسهم من جديد، واستجابوا لتوجيهات قائدهم العظيم، (فقالوا: نعم، واعتدلوا).

وهذا هو وصف المعركة بالرواية المأمونة عند الطبري والسري عن شعيب عن سيف...

(فلما طال القتال واشتد، عمد المثنى إلى أنس بن هلال فقال:

يا أنس! إنك امرؤ عربي، وإن لم تكن على ديننا، فإذا رأيتني قد حملت على مهران فاحمل معي، وقال لابن مردى الفهر مثلَ ذلك فأجابه، فحمل المثنى على مهران، فأزاله حتى دخل في ميمنته، ثم خالطوهم، واجتمع القلبان، وارتفع الغبار، والمجنبات تقتتل لا يستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم، لا المشركون ولا المسلمون، وارتث مسعود يومئذ وقواد من قواد المسلمين، وقد كان قال لهم: إن رأيتمونا أصبْنا

فلا تدعوا ما أنتم فيه، فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف؛ الزموا مصافكم، وأغنوا غناء من يليكم، وأوجع قلب المسلمين في قلب المشركين، وقتل غلام من التغلبيين نصراني مهران واستوى على فرسه فجعل المثنى سلبه لصاحب خيله، وكذلك إذا كان المشرك في خيل رجل فقتل وسلب فهو للذي هو أمير على من قتل، وكان له قائدان، أحدهما جرير، والآخر ابن الهوبر فاقتسما سلاحه) [(١)].

هذه المعركة اليوم تحمل معنًى جديدًا لم يكن قائمًا من قبل، فلقد قبل المثنى ابن حارثة ﷺ انضمام عرب نصارى إلى جيشه وقتالهم معه، وحين اشتد أوار المعركة، ودنا الخطر، لم يكن لدى المثنى من حرج أن يتقدم إلى القائدين النصرانيين الكبيرين ليكونا جناحيه في الهجوم المضاد الذي سيقوده.

إن القضية الآن قضية طاقات وإمكانات تواجه ذلك العدو الفارسي بطاقات عربية ولو كانت نصرانية، فالحمية العربية والوطنية والقومية مطلوبة الآن، وهي التي تفجر أعظم ما لديهم من طاقات، لقد شهدناها في أحد يوم تعرضت المدينة للخطر، وها نحن نشهدها اليوم يوم تتعرض العاصمة المدنية للخطر، لو انهار المسلمون أمام الهجوم الفارسي وتكررت الجسر ثانية فحطمت كل معنويات المسلمين، ويريد المثنى ﷺ أن يشعر هذه القيادات العربية غير الإسلامية، والتي انضمت بطواعية كاملة إلى جيشه؛ أن يشعرها بمدى ثقته بها، ومدى اهتمامه وإكباره لها، فاختارها لأعظم المخاطر، فقال لأنس بن هلال، ولابن مردي الفهر كلٍّ لوحده.

(يا أنس! إنك امرؤ عربي، وإن لم تكن على ديننا، فإذا رأيتني قد حملت على مهران، فاحمل معي) وقال لابن مردي الفهر مثل ذلك فأجابه، فحمل المثنى على مهران فأزاله.

هذا الهجوم الصاعق زلزل الكيان الفارسي، ورافقه القضاء على مهران وقتله من غلام تغلبي نصراني وهو القائد الأكبر لجيش الفرس، وقال عندما قتله (... فاستوى على فرسه، ثم انتمى: أنا الغلام التغلبي، أنا قتلت المرزبان، فأتاه جرير وابن الهوبر في قومه، وأنزلاه).

وهذا وصف آخر للمعركة برواية أخرى مأمونة بالسند نفسه.

(قالا: وقف المثنى عند ارتفاع الغبار حتى أسفر الغبار، وقد فني قلب المشركين والمجنبات قد هزَّ بعضُها بعضًا، فلما رأوه وقد أزال القلب، وأفنى أهله، قويت

---

(١) تاريخ الطبري (٣٧٢/٢).

المجنبات - مجنبات المسلمين - على المشركين، وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم، وجعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر، ويرسل عليهم من يذمرهم ويقول: إن المثنى يقول: عاداتكم في أمثالهم، انصروا اللّه ينصركم.

حتى هُزِم القوم، فسابقهم المثنى إلى الجسر فسبقهم وأخذ الأعاجم، فافترقوا بشاطئ الفرات مصعدين ومصوبين، واعتورتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم ثم جعلوهم جثًّا [١]، فما كانت بين العرب والعجم وقعة كانت أبقى رمة [٢] منها، ولما ارْتُثَّ [٣] مسعود بن حارثة يومئذ - وكان صرع قبل الهزيمة - فتضعضع من معه فرأى ذلك وهو دنف [٤]، قال: يا معشر بكر بن وائل، ارفعوا راياتكم، رفعكم اللّه، لا يهولنكم مصرعي. وقاتل أنس بن هلال حتى ارتث، ارتثه المثنى، وضمه وضم مسعودًا إليه. وقاتل قرط بن جماح العبدي حتى دق قنًا، وقطع أسيافًا، وقتل شهربراز من دهاقين [٥] فارس وصاحب مجردة [٦] مهران) [٧].

وفي رواية ثالثة بالسند نفسه:

(... وقُتل المشركون فيما بين السكون [٨] اليوم إلى شاطئ الفرات، ضفة البويب الشرقية، وذلك أن المثنى بادرهم عند الهزيمة الجسر، فأخذه عليهم، فأخذوا يمنة ويسرة، وتبعهم المسلمون إلى الليل، ومن الغد إلى الليل، وندم المثنى على أخذه بالجسر وقال:

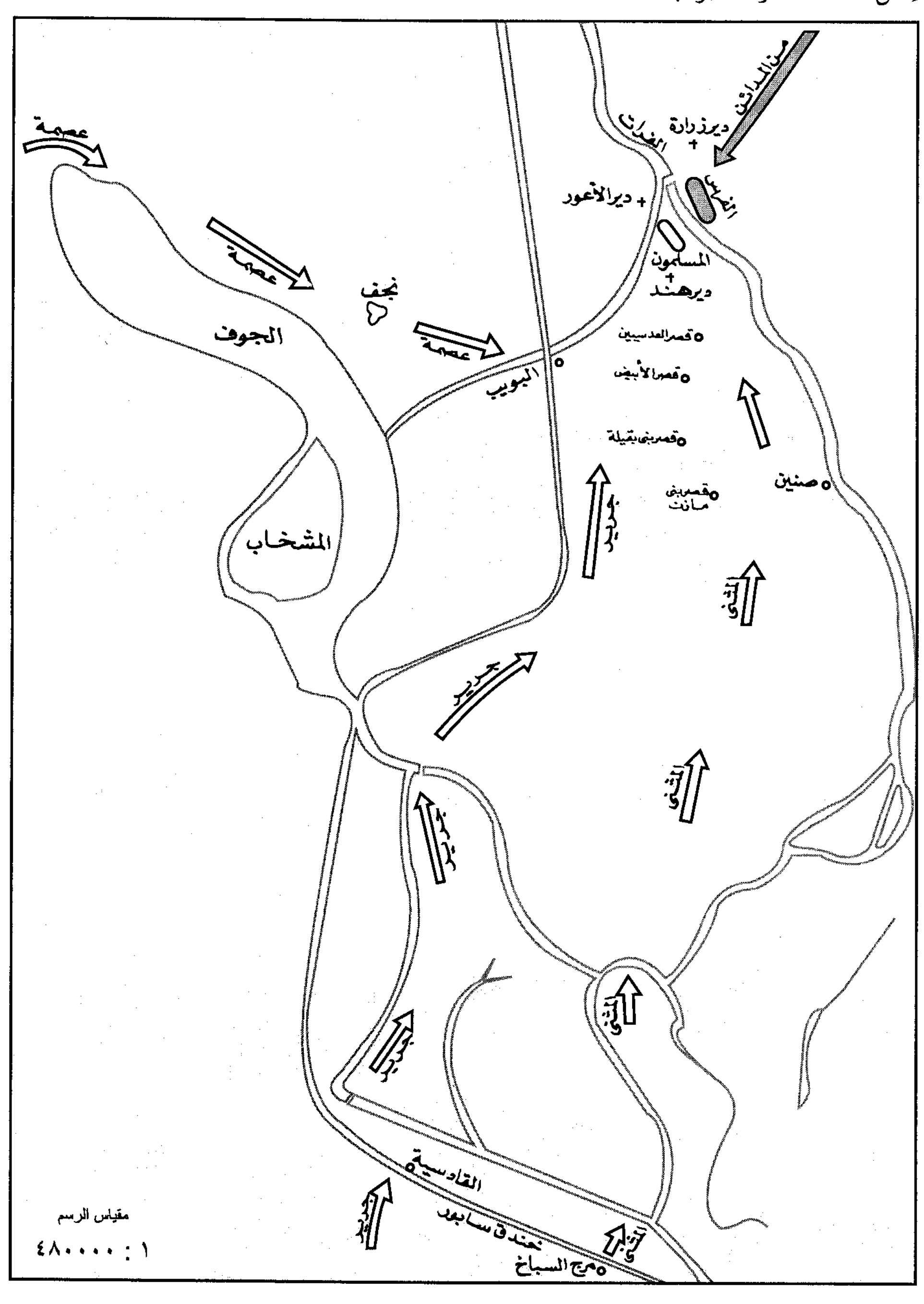
لقد عجزت عجزة وقى اللّه شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه، حتى أحرجتهم فإني غير عائد، فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس، فإنها كانت مني زلة، لا ينبغي إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع.

ومات أناس من الجرحى من أعلام المسلمين، منهم خالد بن هلال، ومسعود ابن حارثة فصلى عليهم المثنى، وقدمهم على الأسنان والقرآن، وقال:

واللّه إنه ليهوِّنُ عليَّ وجدي أن شهدوا البويب، أقدموا وصبروا، ولم يجزعوا ولم ينكلوا، وإن كان في الشهادة كفارة لِتجوُّز الذنوب) [٩].

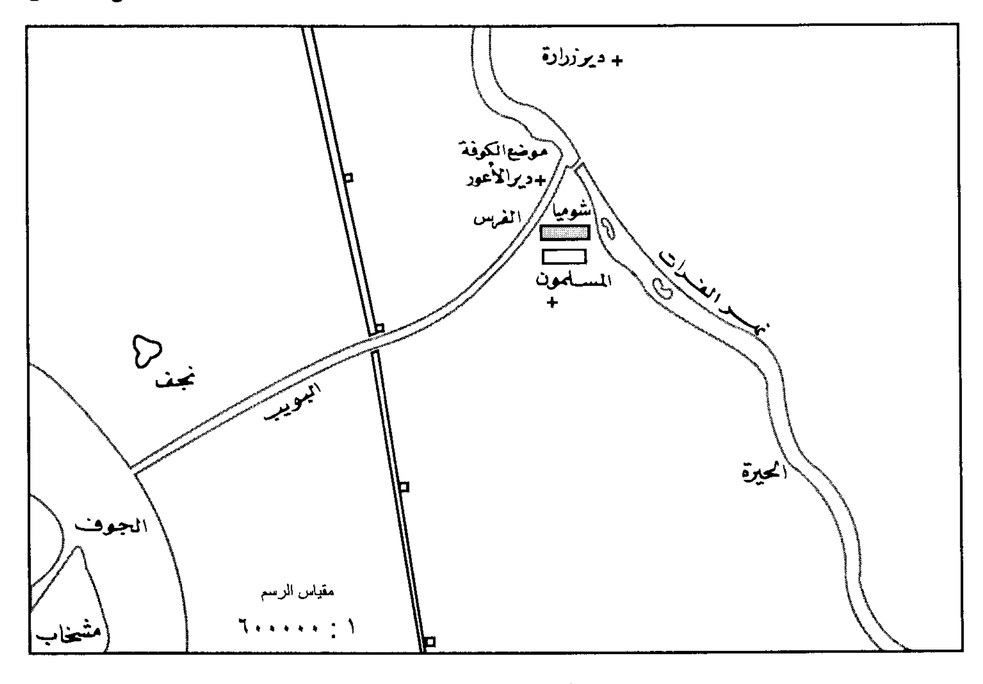
---

(١) جَثًّا: قطعًا.
(٢) رمة: هلاكًا وجُثثًا.
(٣) ارتُثَّ: حمل من المعركة جريحًا.
(٤) دنف: ثقل مرضه.
(٥) الدهاقين: زعماء فلاحي العجم.
(٦) صاحب مجردة مهران: صاحب خيله.
(٧) تاريخ الطبري (٢/٣٧٣).
(٨) السُّكُون: منطقة بين الفرات وبين البويب.
(٩) تاريخ الطبري (٢/٣٧٤).



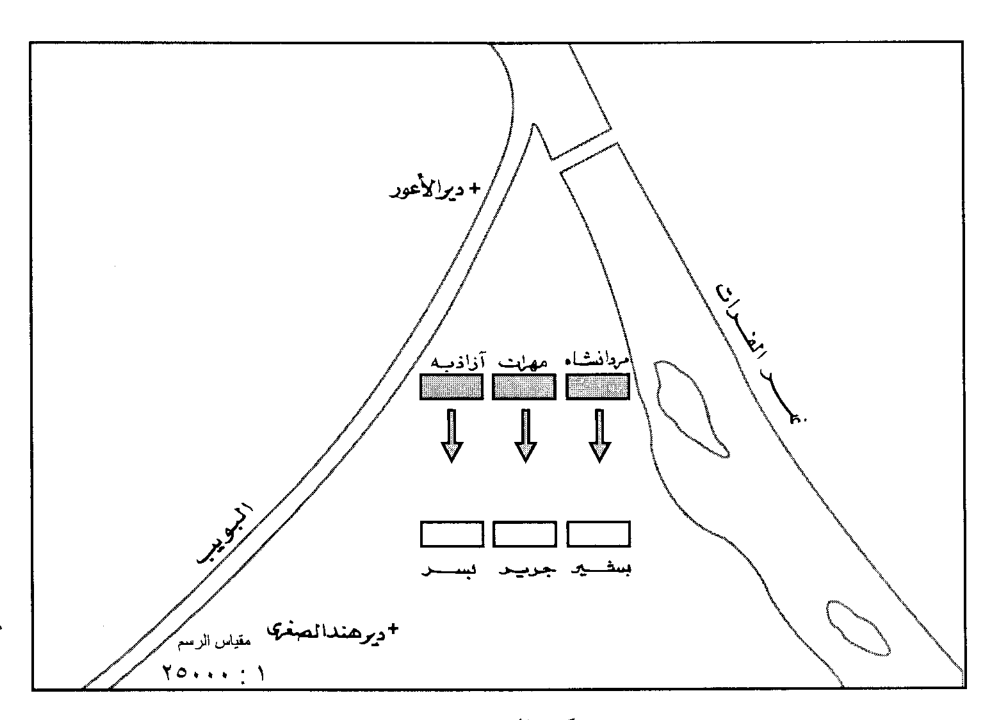
معركة البويب (١)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٤١) خريطة (١٩))



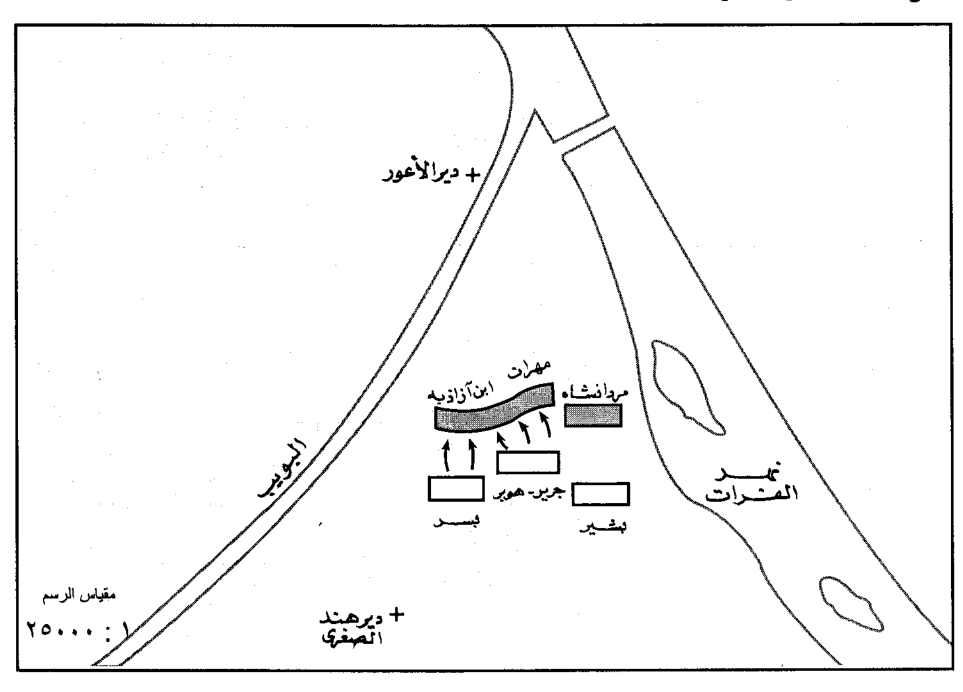
معركة البويب (٢)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٤٢) خريطة (٢٠))



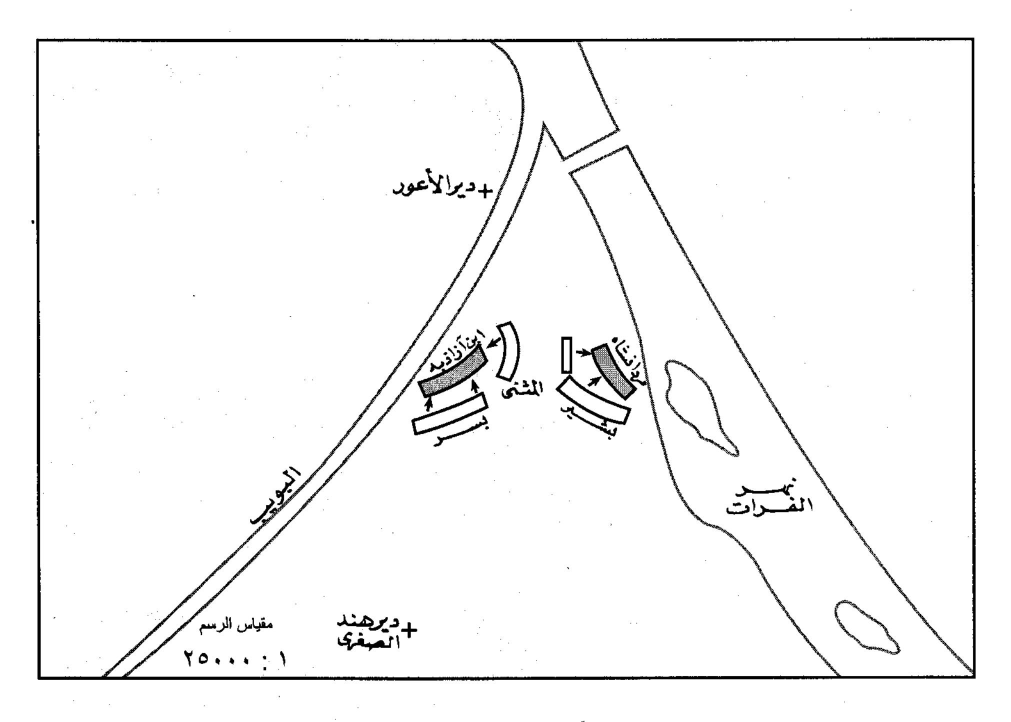
معركة البويب (٣)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٤٢) خريطة (٢١))



معركة البويب (٤)

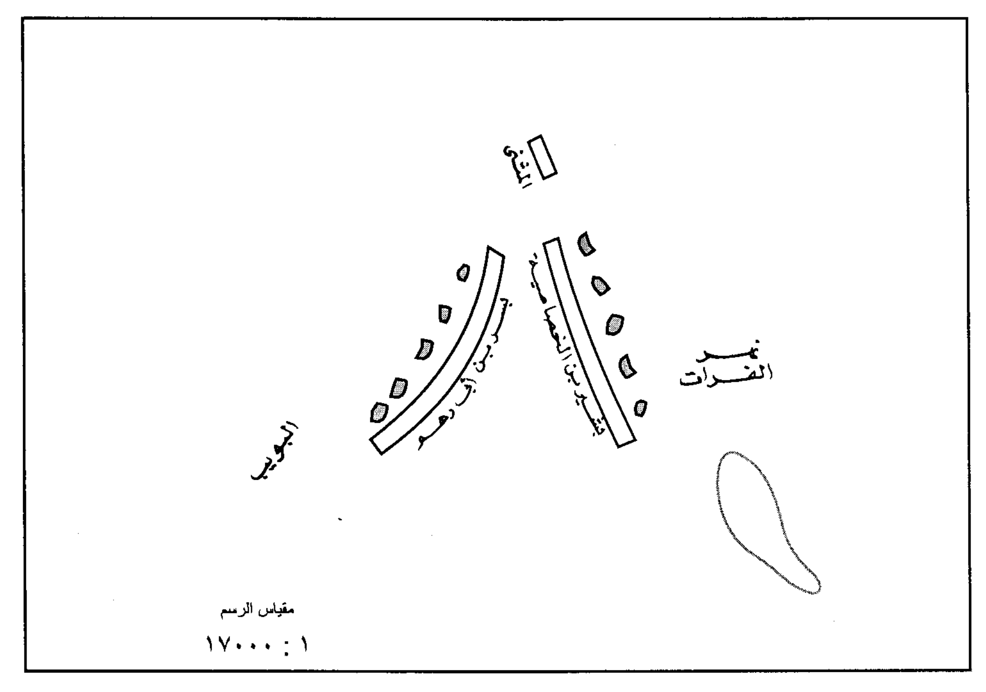
(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٤٣) خريطة (٢٢))



معركة البويب (٥)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٤٣) خريطة (٢٣))

(... قالوا: وقد كان المثنى وعصمة وجرير أصابوا في أيام البويب على الظهر، نُزُل مهران غنمًا ودقيقًا وبقرًا، فبعثوا بها إلى عيالات من قدم من المدينة وقد خلفوهن بالقوادس [١]، وإلى عيالات أهل الأيام قبلهم وهم بالحيرة، وكان دليل الذين ذهبوا بنصيب العيالات الذين بالقوادس عمرو بن عبد المسيح بن بقيلة، فلما رُفِعوا للنسوة فرأين الخيل، تصايحن وحسبنها غارة، فقمن دون الصبيان بالحجارة والعمد، فقال عمرو: هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش، وبشروهن بالفتح، وقالوا: هذا أوله، وعلى الخيل الذين أتتهم بالنزر اليسير، وأقام في خيله حامية لهم، ورجع عمرو ابن عبد المسيح فبات بالحيرة) [٢].



معركة البويب (٦)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٤٦) خريطة (٢٤))

---

(١) القوادس: جمع القادسية التي عند الكوفة.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٧٤).

ونلحظ مجموعة من القيم التي انطلق بها حزب اللّٰه في الأرض من خلال هذا النص القصير:

١ - الإثخان في القتل هو الأحب في شريعة اللّٰه قبل التمكين، ومن أجل ذلك أقدم المثنى ﷺ في حركة خاطفة إلى الجسر فسبق الأعداء الفارين إليه، وقطع الجسر، وحصر العدو بين النهر وبين المسلمين الذي يلاحقونهم (وتبعهم المسلمون إلى الليل، ومن الغد إلى الليل).

فقد قتل في هذه المعركة أعداد هائلة من العدو كما روى الطبري عن أبي روق: (واللّٰه إن كنا لنأتي البويب فنرى فيما بين موضع السكون وبني سليم، عظامًا بيضًا تلولًا تلوح من هامهم وأوصالهم يعتبر بها، قال: وحدثني بعض من شهدها أنهم كانوا يَحْزِرُونها مائة ألف، وما عفي عليها حتى دفنها أدفان البيوت)[1].

٢ - القائد الذي ينطلق من ذاته، فسيحفظ في سجله أنه قتل في معركة واحدة من أعدائه مائة ألف، ولولا عبقريته في قطع الجسر على العدو لما أمكن تحقيق هذا النصر، أما قائدنا العظيم المثنى ﷺ، والذي ينطلق من دينه ومبادئه، يعود ليراجع نفسه، هل خرج على هذه المبادئ في أي جزئية من جزئيات حربه، وبعد هذه المراجعة رأى أن مبادئ الحرب في الإسلام لا تنطلق من القتل للقتل، إنما تنطلق من القتل لإزاحة الطواغيت من الأرض، ورأى أن حصره للعدو حتى يقتل كل أفراده، لا يتسق مع الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين، فمن يستطيع أن يفر من العدو، ولم تدركه، فلا سبيل لك عليه.

هذا هو الموقف الأول، وكان بإمكانه أن يستغفر اللّٰه تعالى بينه وبين نفسه، ويترك بهجة النصر تملأ قلوب المؤمنين، ويترك الثقة بالقائد تتعمق أكثر فأكثر خاصة عند المسلمين الذين ذاقوا مرارة الهزيمة في الجسر.

أما الموقف الثاني الأعظم والأعلى، والذي لا نجد له مثيلًا في تاريخ البشرية إلا عند المؤمنين في الأرض، هو أن يقف ويعتذر عن خطئه الذي لم يعرف به أحد، ولم يخطر على بال أحد، ولماذا؟

---

(١) تاريخ الطبري (٣٧٣/٢).

لأنه قائد رسالة، وممثل دين، وليس قائد طموحات وأمجاد، فقد ولّى ذلك العهد الذي كان المثنى فيه صاحب حرب شيبان، وبطلها فقط، إنه هنا يمثل الإسلام، وهو عبد اللَّه الذي يعتبر ما يقوم به سنة يقتدي الناس بها، ومن أجل هذا وقف خطيبًا في جيشه يقول: لقد عجزت عجزة وقى اللَّه شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه، حتى أحرجتهم، فإني غير عائد، فلا تعودوا، ولا تقتدوا بي أيها الناس، فإنها كانت مني زلة، لا ينبغي إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع.

٣ - ونعود إلى المعنى الأول المنبث في ثنايا الكتاب، فلسنا أمام بطل والناس حوله أرقام، خاصة أنه حين يقوم سوق الموت يستوي الجميع، والفائز هو الأكثر بطولة وتضحية، وليس القائد إلا واحدًا من هذا الجيش. لقد سمي البويب، يوم الأعشار، فلم أُطلِقَ هذا الاسم؟ يجيبنا على ذلك ربعي بن عامر بن خالد إذ يقول:

كنت مع أبي يوم البويب - قال: وسمي البويب يوم الأعشار - أُحصي مائة رجل، قَتل كل رجل منهم عشرة في المعركة يومئذ، وكان عروة بن زيد الخيل من أصحاب التسعة، وغالب في بني كنانة من أصحاب التسعة، وعرفجة في الأزد من أصحاب التسعة [١].

ونبحث عن أسماء أصحاب المائة فلا نجدهم، لقد مضوا مجهولين في التاريخ، يعرفهم رب العزة ﷻ .

وحفظ التاريخ أسماء قادة كبار، ومع ذلك لم يبلغوا شأو أولئك المجهولين، فقد ذكر اسم ثلاثة قادة كبار هم عروة بن زيد الخيل، وغالب بن عبد اللّه الليثي من بني كنانة، وعرفجة بن هرثمة من الأزد، وذكروا أنهم من أصحاب التسعة.

٤ - ومن أجل ذلك، أعطى المثنى هؤلاء المقاتلين العظام حقهم، فمن استشهد منهم قدمه على أولي الأسنان والقرآن، فهذا المقام مقام جهاد ضار للعدو، به يتمايز الناس، ولكل مقام مقال، وكما روى الطبري:

(ومات أناس من الجرحى من أعلام المسلمين، منهم خالد بن هلال، ومسعود ابن حارثة فصلى عليهم المثنى، وقدمهم على الأسنان والقرآن).

ووَجْدُ المثنى وحُزنُه على فراقهم أكبر من أن يُحدّ، فهم رفاقه في الحرب، وعمده

---

(١) تاريخ الطبري (٣٧٤/٢).

في الهجوم ورجالاته في المدلَهِمّات، لكن ما يخفف حزنه هو أنهم معادن الذهب والفضة، فلا يخشى عليها من الزيف.

(واللَّه إنه ليهون عليَّ وجدي أن شهدوا البويب، أقدموا وصبروا، ولم يجزعوا ولم ينكلوا، وإن كان في الشهادة كفارة لتجوُّز الذنوب).

٥ - الفرحة العربية:

لقد صار الشعور العربي واحدًا تجاه الفرس، وتوحدت هذه المشاعر بينهم بغضِّ النظر عن دينهم، سواء كانوا مسلمين أو مشركين أو نصارى، فبعد أن شهدنا أمير الحيرة الأكبر عبد المسيح بن بقيلة، يواجه المسلمين حتى اللحظات الأخيرة قبل سقوط الحيرة نجد الآن ابنه عمرو بن عبد المسيح هو الدليل في هذه الصحراء للوصول إلى عوائل المجاهدين القادمين من المدينة، والذين تركوهم بالقوادس قرب الحيرة.

٦ - هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش:

وهو نفسه الدليل - عمرو - الذي يشهد ببطولة النساء التي رآها قبل الرجال، فقد رأى النساء الخيل من بعيد، فتوقعن أنها خيل العدو تقصدهم فشكلن جيشًا منهن ومن الصبيان واستعدوا لمواجهة هذه الغارة، فلما عرفْنَ أنها خيل المسلمين فرحْنَ بها وبما قدمت به من غنم ودقيق وبقر.

(فلما رفعوا للنسوة فرأين الخيل، تصايحن وحسبنها غارة، فقمن دون الصبيان بالحجارة والعمد، فقال عمرو: هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش؛ وبشروهن بالفتح وقالوا: هذا أوله).

٧ - المواساة والإيثار:

فلقد قام المثنى وعصمة وجرير بالاستيلاء على ظهر مهران [1] بعد مقتله، فهل يقتسمون هذه الغنائم الوفيرة بينهم بصفتهم القيادات العليا في الجيش أو من يتمكن من محاسبتهم أو إيقافهم، خاصة وقد حققوا النصر المبين على العدو؟!

إن القيادة العظيمة هي التي تحس بالحاجة الحقيقية لجنودها وشعبها، وقد أدرك المثنى العظيم وأركان حربه عصمة وجرير، أن الذين تركوا عيالاتهم بالقوادس،

---

(١) ظهر مهران: هو ما أعده لنفسه ولحاشيته من مؤونة وطعام ونَعَم.

وخلّفوهن بحراسة اللّه، ومضوا ليواجهوا العدو، سيكونون قلقين على عيالهم، ولن يصلوا إليهم الآن، ولا تزال الحرب قائمة، فلم يكن القلق عند الجنود الفدائيين الذين تركوا عدوهم إنما كان كذلك محّط إكبار القيادة والاهتمام بها بحيث كانوا أسرع من ذويهم في إغاثة هذه العيالات:

يقول ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد قالوا:

وقد كان المثنى وعصمة وجرير أصابوا في أيام البويب على الظهر نُزُلَ مهران غنمًا ودقيقًا وبقرًا، فبعثوا بها إلى عيالات من قدموا بالمدينة وقد خلّفوهم بالقوادس وإلى عيالات أهل الأيام قبلهم، وهم بالحيرة.... وعلى الخيل التي أتتهم بالنزل اليسير (أحد قيادات الجيش) وأقام في خيله حامية لهم.

مشاهد من المعركة:

ونقدم في هذه المشاهدة ندوة التقى بها نفر من هؤلاء المغاوير وعلى رأسهم القائد العام، فراح كل واحد يتحدث عن تجربته وأهوال المعركة التي رآها، **وهذا عرض لهذه الندوة:**

(ولما فرغوا جلس المثنى للناس بعد الفراغ يحدثهم ويحدثونه، وكلما جاء رجل فتحدث قال له: أخبرني عنك، فقال له قرط بن جماح: قتلت رجلًا فوجدت منه ريح المسك، فقلت: مهران ورجوت أن يكون إياه، فإذا هو صاحب الخيل شهر براز، فواللّه ما رأيته [١]، إذ لم يكن مهران شيئًا، فقال المثنى: قد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام، واللّه لمائة من العجم في الجاهلية، كانوا أشد عليّ من ألف من العرب، ولمائةٌ اليوم من العرب أشد عليَّ من ألف من العجم؛ إن اللّه تعالى أذهب مصدوقتهم، ووهّن كيدهم [٢]، فلا يروعنكم [٣] زُهاء ترونه [٤] ولا سواد ولا قسيٌّ فُج [٥]، ولا نبالٌ طوال، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها

---

(١) فواللّه ما رأيته: فواللّه الذي رأيته من سلبه أعظم وأكبر مما لدى مهران قائد جيش فارس.

(٢) وهّن كيدهم: أضعفه. (٣) لا يروعنكم: لا يخفينكم.

(٤) زهاء ترونه: أعداد تقدرونها.

(٥) قسي فج: هي قوس السهم وقد بان وترها عن كبدها.

اتجهت. وقال ربعي وهو يحدث المثنى: لما رأيت ركود الحرب واحتدامها، قلت: تترسوا بالمجان فإنهم شادون عليكم، فاصبروا لشدتين، وأنا زعيم لكم بالظفر في الثالثة فأجابوني والله، فوفّى الله كفالتي.

وقال ابن ذي السهمين محدثًا: قلت لأصحابي: إني سمعت الأمير يقرأ ويذكر في قراءته الرعب فما ذكره إلا لفضل عنده، اقتدوا برايتكم، وليحم راجلكم خيلكم، ثم احملوا، فما لقول الله من خلف، فأنجز الله لهم وعده، وكان كما رجوت.

وقال عرفجة محدثًا: حُزْنا كتيبةً منهم إلى الفرات، ورجوت أن يكون الله تعالى قد أذن في غرقهم وسلى عنا مصيبة يوم الجسر، فلما دخلوا في حد الإحراج كروا علينا، فقاتلناهم قتالًا شديدًا حتى قال بعض قومي: لو أخّرْت رايتك؟! فقلت: عليَّ إقدامها، وحملت بها على حاميتهم فقتلته، فولوا نحو الفرات، فما بلغه منهم أحد فيه الروح) [(١)].

في نحر العدو:

لم يكن المثنى ﵁ - وهو القائد المجرب - ليدع العدو يأمن بعد فراره، ويستجمع قوته، والقائد البصير يحسب دائمًا الحساب الأسوأ، ولا يعيش في زهو النصر وينتشي مغرورًا به، فكان لا بد أن يلاحق العدو حتى بعد فراره، ليشعر العدو بقوة خصمه، ولا تحدثه نفسه بالرجوع ثانية، وهي سُنة نبوية في الحرب، فعلها الرسول ﷺ في أُحُد بعد أن ولّى العدو، حيث ابتعث ابتداءً من يتحسس أخبار القوم، عليًّا والزبير، ثم تحرك بجيشه كله نحو حمراء الأسد، ليبلغ العدوَّ خروجه خلفه للمواجهة.

ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﵁ فقال: « **اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون! فإن كانوا قد اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم...** » [(٢)].

(... وكان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم أحد،

---

(١) تاريخ الطبري (٣٧٣/٢، ٣٧٤).

(٢) المصدر نفسه (٧١/٢).

وذلك يوم الأحد لست عشرة ليلة من شوال أذن مؤذن رسول اللَّه ﷺ في الناس يطلب العدو، وأذّن مؤذنه: أن لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس... وإنما خرج رسول اللَّه ﷺ مرهبًا للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم) [١].

(... وقال المثنى يومئذ: من يتبعُ الناس حتى ينتهوا إلى السِّيب [٢]؟ فقام جرير بن عبد اللَّه في قومه فقال: يا معشر بجيلة، إنكم وجميع من شهد هذا اليوم، في السابقة والفضيلة والبلاء سواءٌ، وليس لأحد منهم في هذا الخمس غدًا من النفل مثل الذي لكم منه، ولكم ربع خمسه نفلًا من أمير المؤمنين، فلا يكونن أحد أسرع إلى هذا العدو ولا أشد عليه منكم للذي لكم منه ونية إلى ما ترجون، فإنما تنتظرون إحدى الحسنيين؛ الشهادة والجنة أو الغنيمة والجنة ومال المثنى على الذين أرادوا أن يستقتلوا من منهزمة يوم الجسر ثم قال:

أين المستبسل بالأمس وأصحابه؟! انتدبوا في آثار القوم إلى السِّيب، وابلغوا من عدوكم ما تغيظونهم به، فهو خير لكم وأعظم أجرًا، واستغفروا اللَّه إن اللَّه غفور رحيم) [٣].

لقد هيج المثنى وجرير سيد بجيلة نموذجين من الجيش الإسلامي لملاحقة العدو:

النموذج الأول: بنو بجيلة.

النموذج الثاني: منهزمة الجسر.

أما بجيلة قبيلة جرير، والتي أكرهت على اللحاق بالعراق دون الشام، وأرضاها أمير المؤمنين بأن وهبها ربع خمس الغنائم زيادة عن استحقاقاتهم العادية، وهذا هو الثمن الذي طالب به جرير قومه مقابل هذا العطاء.

إن محاولة طمس النوازع البشرية وحبها للنصر والغنيمة محاولة فاشلة؛ ولذلك تعامل الإسلام معها علىأنها نازع إيجابي عندما يرافقه الغاية الأولى أن تكون كلمة اللَّه هي العليا، فما تجاهل الإسلام هذا النازع، ولا كبته ولا ازدراه إلا عندما يكون وحيدًا فقط؛ ولهذا وجدنا جرير ﷺ يستجيش هذا النازع قائلًا:

(١) تاريخ الطبري (٢/٧٥).

(٢) السِّيب: كورة من سواد الكوفة.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٣٧٤).

(فإنما تنتظرون إحدى الحسنيين: الشهادة والجنة أو الغنيمة والجنة).

وذكر قومه أن لهم جزاء الضعف حين يلاحقون العدو، فلهم نصيبهم العادي من أربعة أخماس الغنائم، ولهم زيادة ربع خمس المسلمين لبلائهم في حرب عدوهم، واستجابتهم لأمر أمير المؤمنين في التوجه إلى العراق.

ونعود إلى النازع الثاني في النفس البشرية؛ نازع الثأر:

فلقد رعاه الإسلام وعبأه ليكون في خدمة دين اللّه، ولقد رأينا رسول اللّه ﷺ يضع أسامة بن زيد ابن السبعة عشر عامًا قائدًا على جيش فيه كبار الصحابة، وهو أكبر جيش تحرك خارج المدينة استجابة لنازع الثأر لدى أسامة من قتلة أبيه في مؤتة، لقد كان أولاد القائد الثاني جعفر رضي الله عنه صغارًا كزغب الطير، ولم يكن لعبد اللّه ابن رواحة القائد الثالث، ولدٌ يثأر له، فكان لا بد من تقديم أسامة رضي الله عنه لهذا الموقع، ولكنه وصاه بأن يغزو في سبيل اللّه، كما وصاه الصديق رضي الله عنه، فالثأر نازع مذموم عندما يكون هو الهدف الوحيد، أو هو الهدف الثاني مع الغنيمة، لكن عندما يترافق هذان النازعان مع سبيل اللّه فهو مبارك ومحبذ ومطلوب.

ولهذا وجدنا المثنى رضي الله عنه يختار النموذج الثاني - منهزمة الجسر - الذين حملوا عار الفرار، أن يغسلوا هذا العار اليوم بالإغارة في نحر العدو، بل يركز رضي الله عنه على ذلك الجندي المعبأ الذي أراد أن يستبق الأوامر، ويواجه العدو في اليوم الأول، يسأل عنه ويقول كما ذكر السري عن شعيب عن سيف:

(... كان أول الناس انتدب يومئذ المثنى، واتبع آثارهم المستبسل وأصحابه وقد كان أراد الخروج بالأمس إلى العدو من صف المسلمين، واستوفز واستنتل [1]، فأمر المثنى أن يعقد لهم الجسر، ثم أخرجهم في آثار القوم، وأتبعتهم بجيلة، وخيول من المسلمين تُغِذُّ من كل فارس، فانطلقوا في طلبهم حتى بلغوا السِّيب (وهي على نهر دجلة بينما كانت الحيرة على نهر الفرات، وقطعوا الصحراء كلها ما بين النهرين، وهم يلاحقون فلول العدو). ولم يبق في العسكر جسري إلا خرج في الخيل، فأصابوا من البقر والسبي وسائر الغنائم شيئًا كثيرًا فقسمه المثنى عليهم، وفضل أهل البلاء

---

(١) استوفز واستنتل: أي استعد وتحفز وتقدم أصحابه.

من جميع القبائل، ونفل بجيلة يومئذ ربع الخمس بينهم بالسوية، وبعث بثلاثة أرباعه مع عكرمة) [١].

آثار المعركة:

(وألقى اللَّه الرعب في قلوب أهل فارس، وكتب القواد الذين قادوا الناس في الطلب إلى المثنى، وكتب عاصم وعصمة وجرير:

إن اللَّه ﷻ قد سلَّم وكفى، ووجَّه لنا ما رأيت، وليس دون القوم شيء فتأذن لنا بالإقدام.

فأذن لهم، فأغاروا حتى بلغوا ساباط، وتحصن أهل ساباط منهم واستباحوا القُرَيَّات دونها، وراماهم أهل الحصن بساباط عن حصنهم، وكان أول من دخل حصنهم ثلاثة قواد؛ عصمة وعاصم وجرير، وقد تبعهم أوزاع من الناس كلهم، ثم انكفؤوا راجعين إلى المثنى) [٢].

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن عطية ابن الحارث:

(لما أهلك اللَّه مهران استمكن المسلمون من الغارة على السواد فيما بينهم وبين دجلة فمخروها، لا يخافون كيدًا، ولا يلقون فيها مانعًا، وانتقضت مسالح العجم، فرجعت إليهم، واعتصموا بساباط، وسرهم أن يتركوا ما وراء دجلة.

وكانت وقعة البويب في رمضان سنة ثلاث عشرة، قتل اللَّه عليه مُهران وجيشه وأفعموا جنبتي البويب عظامًا، حتى استوى، وما عفا عليها إلا التراب أزمان الفتنة، وما يثار هنالك شيء إلا وقعوا منها على شيء وهو ما بين السكون ومرهبة وبني سليم) [٣].

الشعر في المعركة:

لم يكن الشعر أبدًا على مستوى عظمة المعركة، فمعارك الجاهلية التي كان النصر يتم فيها من قبيلة على قبيلة والخسائر بالمئات، شكلت ديوان العرب وملحمتهم الكبرى، وتكاد تكون المعلقات صورة لهذه المعارك.

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٣٧٤/٢، ٣٧٥).

وحين ندلف إلى بدر وأحد والخندق وفتح مكة، نجد ملحمة الشعر تأخذ مداها الأعلى وفي الذروة حيث تجد ديوان العرب في أي من هذه المعارك، وما تحمل من نقائض بين كبار شعراء الإسلام والجاهلية، لكننا بعد هذه الذروة نجده يهبط بعنفٍ كبير وأعظم المعارك التاريخية التي كان يمكن أن تشكل كل معركة منها ديوانًا كاملًا، خاصة وهي تترافق مع انهيار أعظم إمبراطوريتين في الأرض.

فهذه المعركة على سبيل المثال والتي خلفت مائة ألف قتيل ومن أشد المعارك هولًا بين المسلمين والفرس، نبحث عن الشعر في وصفها، فلا نرى إلا أربعة أبيات يتامى في وصفها بل ووصف غيرها كذلك:

(قال الأعور العبدي الشني:

هاجَتْ لأعوَرَ دارُ الحيِّ أحزانا ... واستبدَلَت بعدَ عبدِ القيسِ خفَّانا

وقد أرانَا بِها والشمْلُ مجْتَمِعٌ ... إذ بالنخيلة قتلى جندِ مهرانا

أزمان سار المثنَّى بالخيولِ لَهُم ... فقَتَّل الزحفُ من فُرْسٍ وجِيلانا

سَما لمهران والجيشُ الذي معه ... حتى أبادَهُم مَثْنًى ووَحْدَانا (١)

لكننا لا بد أن نذكر السبب الذي جعل الشعر بهذا النضوب وهذا الانهيار، لقد صار القرآن الكريم حياة العرب ونُورَهم ووُجُودَهم.

فذاك القائد العظيم الذي قاد جنده للموت قادهم بهذه الكلمة.

(قال ابن ذي السهمين محدثًا: قلت لأصحابي: إني سمعت الأمير يقرأ ويذكر في قراءته الرعب، فما ذكره إلا لفضل عنده: اقتدوا برايتكم، وليحم راجلكم خيلكم، فما لقول اللَّه من خلف، فأنجز اللَّه لهم وعده، وكان كما رجوت).

لقد غيرت معركة البويب الساحة كلها، وغيرت مسار التاريخ، ولو بقي جو معركة الجسر مسيطرًا، وسيطر الرعب على قلوب المسلمين لانكفأ المسلمون إلى أرضهم يدفعون عنها العدو، وأصبحت المدينة هدفًا استراتيجيًّا للعدو.

(واستمكن المسلمون من الغارة على السواد فيما بينهم وبين دجلة فمخروها

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٧٥).

لا يخافون كيدًا ولا يلقَون فيها مانعًا، وانتقضت مسالح العجم فرجعت إليهم واعتصموا بساباط، وسرهم أن يتركوا ما وراء دجلة).

تحرير سواد العراق:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم قالوا:

ومخر المثنى السواد، وخلَّف بالحيرة بشير ابن الخصاصية، وأرسل جريرًا إلى ميسان، وهلال بن عُلَّفة إلى دست ميسان، وأذكى المسالح بعصمة بن فلان الضبي، وبالكلج الضبي، وبعرفجة البارقي وأمثالهم في قواد المسلمين، فبدأ فنزل أُلَّيس - قرية من قرى الأنبار - وألزَّ [1] رجلان بالمثنى أحدهما أنباري والآخر حيري يدله كل واحد منهما على سوق، فأما الأنباري فدله على سوق الخنافس، وأما الحيرى فدلَّهُ على بغداد.

فقال المثنى: أيتهما قبل صاحبتها؟

فقالوا: بينهما أيام؟

قال: أيهما أعجل؟

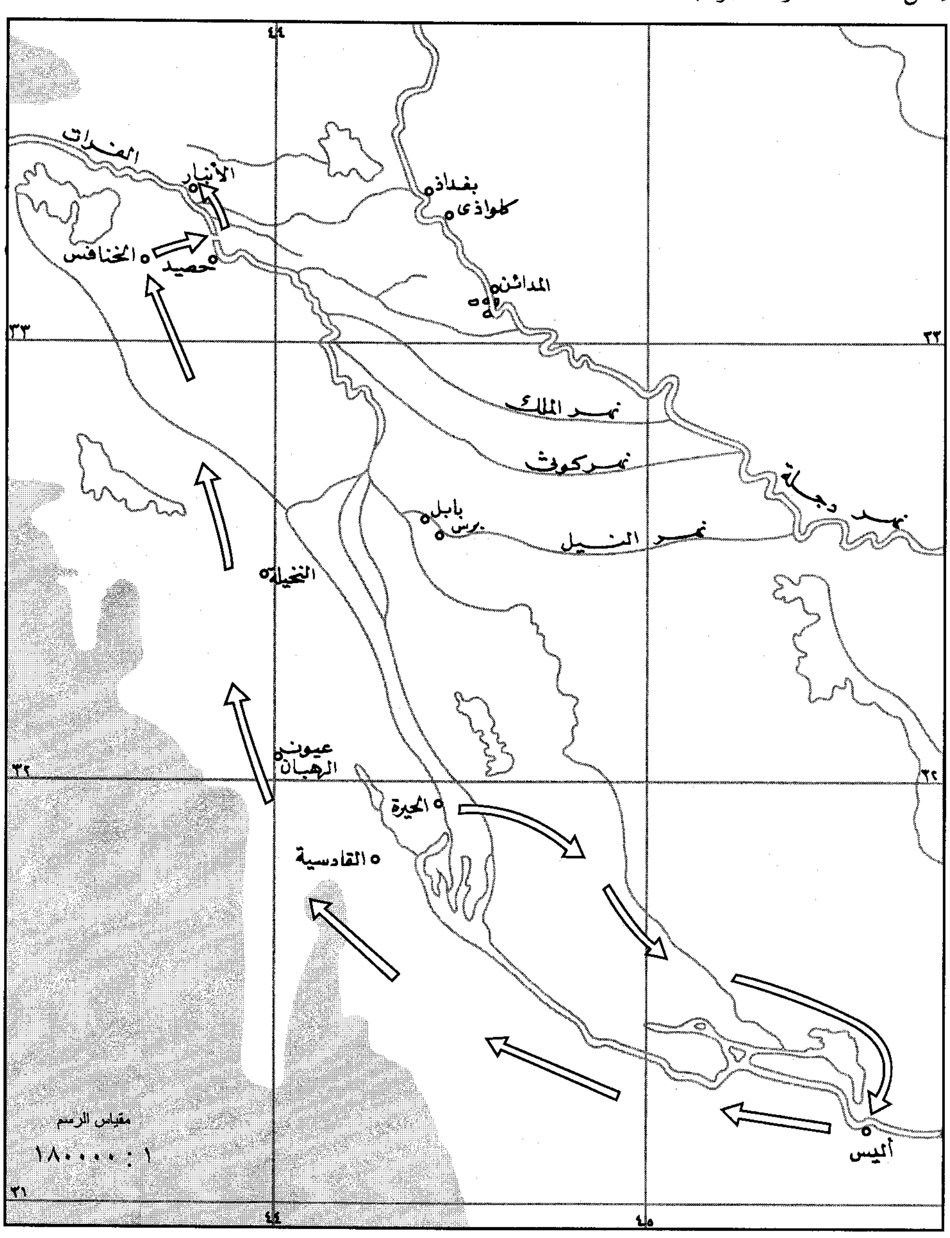
قالوا: سوق الخنافس؟ سوق يتوافى إليها الناس، ويجتمع بها ربيعة وقضاعة يخفرونهم.

فاستعد لها المثنى، حتى إذا ظن أنه موافيها يوم سوقها ركب نحوهم فأغار على الخنافس يوم سوقها، وبها خيلان من ربيعة وقضاعة، وعلى قضاعة رومانس بن وبرة، وعلى ربيعة السليل بن قيس وهم الخفراء، فانتسف السوق وما فيها وسلب الخفراء، ثم رجع عوده على بدئه، حتى يطرق دهاقين الأنبار طروقًا في أول النهار يومه، فتحصنوا منه، فلما عرفوه نزلوا إليه فأتوه بالأعلاف والزاد، وأتوه بالأدلاء على بغداد، فكان وجهه إلى سوق بغداد، فيصبحهم والمسلمون يمخرون السواد والمثنى بالأنبار، ويشنون الغارات فيما بين أسفل كسكر وأسفل الفرات...) [2].

---

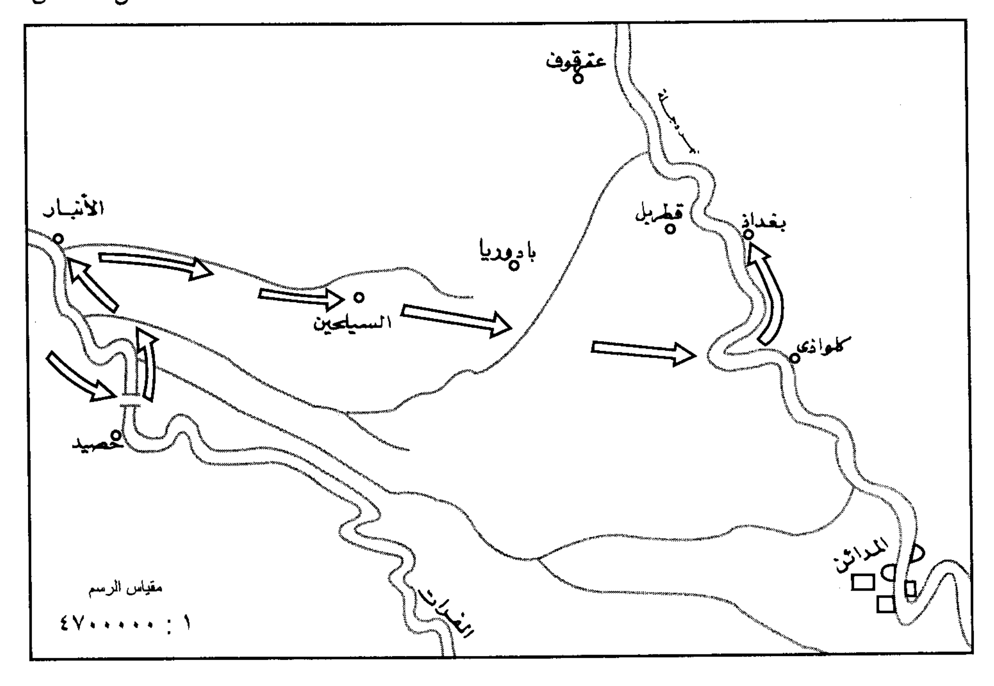
(١) ألزّ: أي لزم.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٧٦).



غارة المثنى على سوق الخنافس

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٤٧) خريطة (٢٥))



غارة المثنى على سوق بغداد

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٤٧) خريطة (٢٦))

وفي رواية أخرى لسيف عن عبيد اللَّه بن محفز عن أبيه: (.. ثم خرج كارًّا حتى نزل بنهر السيلحين بالأنبار، فنزل وخطب الناس، وقال أيها الناس انزلوا وقضُّوا أوطاركم وتأهبوا للسير، واحمدوا اللَّه وسلوه العافية، ثم انكشفوا قبيضا، ففعلوا، فسمع همسا فيما بينهم: ما أسرع القوم في طلبنا!! فقال:

تناجوا بالبر والتقوى، ولا تتناجوا بالإثم والعدوان، انظروا في الأمور فقدروها ثم تكلموا، إنه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد، ولو بلغهم لحال الرعب بينهم وبين طلبكم، إن للغارات روعات تنتشر عليها يومًا إلى الليل، ولو طلبكم المحامون من رأي العين ما أدركوكم، وأنتم على العِراب حتى تنتهوا إلى عسكركم وجماعتكم، ولو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين: التماس الأجر، ورجاء النصر، فثقوا وأحسنوا به الظن، فقد نصركم اللَّه في مواطن وهم أعدُّ منكم. وسأخبركم عني وعن انكماشي والذي أريد بذلك؛ إن خليفة رسول اللَّه ﷺ أبا بكر أوصانا أن نقلل العرجة ونسرع الكرة في الغارات، ونسرع في غير ذلك الأوبة.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٧٧/٢).

وأقبل بهم ومعهم أدلَّاؤهم يقطعون بهم الصحارى والأنهار حتى انتهى بهم إلى الأنبار، فاستقبله دهاقين الأنبار بالكرامة، واستبشروا بسلامتهم، وكان موعده الإحسان إليهم إذا استقام لهم من أمرهم ما يحبون) [1].

أن يوجد قادة عباقرة يحققون انتصارات باهرة، ويضعون الخطط اللازمة لاستثمار هذه الانتصارات هو أمر طبيعي في كل أمة، لكن العجيب في هذه الأمة الفتيَّة التي نبتت في الصحراء وعاشت فيها أن تبرز منها هذه العبقريات الكامنة، وتنتصر على قيادات عالمية خاضت حروبًا عالمية تتزاحم فيها مع الآخرين على السيطرة على مصير الأرض.. والمثنى ﷺ واحد من هذه الأعاجيب!!

لكن الأعجب من هذا كله هو القائد الداعية، وهو الذي لا يوجد إلا في ظئر الإسلام، فبينما يكون همُّ القائد العسكري في غير الإسلام هو تحقيق الانتصارات وسحق العدو، يكون همُّ القائد العسكري في الإسلام أن يفتح القلوب لهذا الدين، ويفتحها بهذا الدين، وهذا ما سنشهده جليًّا فيما بعد، لكننا هنا نتوقف أمام هذه الخطبة العظيمة، والموعظة العظيمة لهذا القائد.

فمن بُعد أُفُقه أن يعرف بِمَ يفكر جنده قبل وأثناء وبعد الحرب، وتناهى لسمعه هذا التهامس بين جنديين من جنوده: (ما أسرع القوم في طلبنا!).

وقبل أن نتابع الحديث عن الموعظة والبناء النفسي للجنود يحضرني ما سمعته من أحد القيادات العسكرية في العراق وهو يتحدث عن سرعة سقوط بغداد بيد العدو، ويقول: لقد كنا أربعين قائدًا وكلنا نعرف أن الخطة الموضوعة لحماية بغداد، خطة مدمرة والمسؤول عنها وعن تطبيقها هو قصي بن صدام حسين والذي لا يعرف من فقه العسكرية شيء، وسأل مدير الندوة: أوَلَمْ يجرؤ واحد منكم وأنتم أربعون قائدًا وبيدكم كل أمور الجيش أن يصارح الرئيس بهذه الحقيقة، قال: لم يجرؤ واحد منا أن يقول الحقيقة، وأقصى ما غامرت به، وكان ترتيبي هو الخامس في هذه القيادات أن قلت للرئيس: جيشنا يتساءل: هل يمكن أن ننتصر، ونظر إليَّ نظرة خاصة أيقنت أنها الموت لولا ظروف المعركة التي حمتني .منه.

هذه صورة من صور الانفصام الكامل بين القائد الذي يقود الأمة - على كل شجاعته - وبين جيشه، كان هذا في القرن الحادي والعشرين، أما سقوط سوق بغداد

قبل خمسة عشر قرنًا من الزمان كما وردت في هذه الخطة، وحيث كان سوق بغداد بيد العدو، ننظر كم كانت الخطة ذكية للانتصار فيه، ننقلها كما هي دون تعليق:

(فخرج من أليس حتى أتى الخنافس، ثم عاج حتى رجع على الأنبار، فلما أحسه صاحبها تحصن وهو لا يدري من هو، وذلك ليلًا، فلما عرفه نزل إليه فأطعمه المثنى، وخوَّفه واستكتمه، وقال: إني أريد أن أُغِير فابعث معي الأدِلّاء إلى بغداد حتى أغير منها على المدائن، قال: أنا أجيء معك قال: لا أريد أن تجيء معي، ولكن ابعث معي من هو أدلُّ منك، فزودهم الأطعمة والأعلاف، وبعث معهم الأدلة، فساروا حتى إذا كانوا بالنصف، قال لهم المثنى: كم بيني وبين هذه القرية؟ قالوا: أربعة أو خمسة فراسخ، فقال لأصحابه: من ينتدب للحرس؟ فانتدب له قوم فقال لهم: أذكوا حرسكم. ونزل وقال: أيها الناس أقيموا واطعموا وتوضؤوا وتهيؤوا، وبعث الطلائع فحبسوا الناس ليسبقوا الأخبار، فلما فرغوا أسرى إليهم آخر الليل فعبر إليهم، فصبَّحهم في أسواقهم، فوضع فيهم السيف فقتل، وأخذوا ما شاؤوا، وقال المثنى: لا تأخذوا إلا الذهب والفضة، ولا تأخذوا من المتاع شيئًا إلا ما يقدر الرجل على حمله على دابته، وملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء والحُرّ مِن كل شيء، ثم خرج كارًّا حتى نزل بنهر السليحين بالأنبار، فنزل وخطب الناس، وقال: أيها الناس انزلوا وقضُّوا أوطاركم، وتأهبوا للسير، واحمدوا اللّه، وسلوا اللّه العافية ثم انكشفوا قبيضًا [1]، ففعلوا، وسمع همسًا فيما بينهم: ما أسرع القوم في طلبنا؟! فقال: تناجوا بالبر والتقوى ولا تتناجوا بالإثم والعدوان) [2].

فقد دعاهم إلى ما دعاهم اللّه إليه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المجادلة: ٩].

والإثم والعدوان هنا توهين الصفوف، وبث الرعب والخوف فيها، وهو كذلك في الآية وما تلاها عن المناجاة ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المجادلة: ١٠] لكنه لم يكتف رضي الله عنه بإشعارهم أن هذه النجوى التي توهن القلوب وتوغر الصدر، عاد يطالبهم بالتبين والتفكير قبل إبداء الرأي وإذاعته.

---

(١) قبيضًا: سريعًا.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٧٧).

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ... ﴾ [النساء: ٨٣].

وهذه مخالفة في منهج التعامل مع أخبار السوء.

وكان هذا البيان من ثلاث فقرات ومقدمة قبلهن:

المقدمة: انظروا في الأمور، وقدروها، ثم تكلموا.

١ - إنه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد.

٢ - ولو بلغهم لحال الرعب بينهم وبين طلبكم.

٣ - إن للغارات روعات [١] تنتشر عليها يومًا إلى الليل.

٤ - ولو طلبكم المحامون من رأي العين ما أدركوكم، وأنتم على العراب [٢] حتى تنتهوا إلى عسكركم وجماعتكم....

إن هذه الاستفاضة بالشرح ضرورية لمواجهة هذه الحرب النفسية التي لو سرت أدت إلى انتقال الرعب إلى الصف الإسلامي.

وبعد هذا الشرح الذي أكد أنهم لا يمكن بمنطق العقل أن يسرعوا في الطلب. تم افتراض أسوأ الاحتمالات، وأن القوم فعلًا عكس كل التقديرات والتوقعات، قد فجأوا المسلمين، فيتابع المثنى ﷺ الحديث عن هذا الوضع الجديد:

(ولو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين؛ التماس الأجر، ورجاء النصر).

وإذا جال في النفس أن النصر صعب لو جاؤوا بأعداد وفيرة، فلا بد من ربط القلوب باللَّه الذي بيده النصر والهزيمة، وهو معنًى جديد من ثمار هذه العقيدة التي نبتت في القلوب.

(فثقوا، وأحسنوا به الظن، وقد نصركم اللَّه في مواطن كثيرة، وهم أعدُّ [٣] منكم). وإذا جال في النفوس بعد هذا العرض المسهب نقد للخطة العسكرية في هذا النزول والراحة، فلهذه الخواطر والهواجس جوابها كذلك.

(وسأخبركم عني، وعن انكماشي، والذي أريد بذلك:

إن خليفة رسول اللَّه ﷺ أبا بكر أوصانا:

---

(١) الروعات: الإخافات التي تنبعث في قلب العدو.

(٢) العراب: الخيل الأصيلة السليمة من الهجنة.

(٣) أعد: أكثر عددًا.

- أن نقلل العرجة [١].
- ونسرع الكرة في الغارات.
- ونسرع في غير ذلك الأوبة [٢]).

فالمخطط الذي يلتزم به المثنى ﷺ هو مخطط الخليفة.

ومن أجل ذلك فلم يطل المكث حسب التوجيهات العليا.

(وأقبل بهم ومعهم أدلاؤهم يقطعون بهم الصحاري والأنهار حتى انتهى بهم إلى الأنبار، فاستقبلهم دهاقين الأنبار بالكرامة، واستبشروا بسلامته، وكان موعده الإحسان إليهم إذا استقام لهم من أمرهم ما يحبون) [٣].

متابعة الجيش:

(وأخبر المثنى أن جمهور من سلك البلاد قد انتجعوا الشط، شاطئ دجلة، فخرج المثنى وعلى المقدمة في غزواته هذه بعد البويب كلها حذيفة بن محصن الغلفاني، وعلى مجنبتيه النعمان بن عوف بن النعمان ومطر الشيبانيان، فسرَّح في أدبارهم حذيفة، واتَّبعه، فأدركوهم بتكريت دُوَيْنَها من حيث طلبوهم يخوضون الماء، فأصابوا ما شاؤوا من النعم، حتى أصاب الرجل خمسًا من النعم، وخمسًا من السبي، وخُمِّس المال، وجاء به حتى ينزل على الناس بالأنبار.

وقد مضى فرات وعتيبة في وجوههما، حتى أغاروا على صفين وبها النمر وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم في الماء، فناشدوهم فلم يقلعوا عنهم وجعلوا ينادونهم: الغرق الغرق، وجعل عتيبة وفرات يذمرون الناس وينادونهم: تغريق بتحريق - يذكرونهم يومًا من أيامهم في الجاهلية أحرقوا فيها قومًا من بكر بن وائل في غيضة من الغياض - ثم انكفؤوا راجعين إلى المثنى، وقد غرّقوهم.

ولما تراجع الناس إلى عسكرهم بالأنبار، وتوافى بها البعوث والسرايا، انحدر بهم المثنى إلى الحيرة فنزل بها.

وكانت تكون لعمر ﷺ العيون في كل جيش، فكتب إلى عمر بما كان في تلك

---

(١) العرجة: الإقامة وحبس المطية على المنزل.

(٢) الأوبة: الرجوع.

(٣) تاريخ الطبري (٣٧٧/٢).

الغزاة وبلغه الذي قاله فرات وعتيبة يوم بني تغلب والماء، فبعث إليهما فسألهما، فأخبراه أنهما قالا ذلك على وجه أنه مثل، وأنهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب ذَحْل [١] الجاهلية فاستحلفهما، فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل وإعزاز الإسلام، فصدقهما، وردهما حتى قدما على المثنى) [٢].

فأمير المؤمنين ﷺ، يعلم أن جيش العقيدة لا يجوز أن يكون نسخة من جيش الجاهلية ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح: ٢٦].

والأمر من الخطورة بحيث تقوم مخابرات الدولة بإبلاغ الخليفة هذا النداء (تغريق بتحريق) من القائدين الكبيرين فرات بن حيان، وعتبة بن النهاس وكلاهما من بكر، فالدعوى المقامة ضدهما أنهما ثأرا لبكر بن تغلب على المحرقة التي قامت بها تغلب في الجاهلية بفريق من بكر، وهذا الأمر خطير جد إذا فتح لم يغلق، ويفرق الأمة من جديد بعد أن اجتمعت على الإسلام، وقد أعلن رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وبعد فتح مكة:

« **ألا كل مأثرة أو دم في الجاهلية فهو تحت قدميَّ هاتين** » [٣].

وانتهت حياة الأمة التي عاشت قرونًا طوالًا على الغزو والثأر.

وعند أمير المؤمنين لا حصانة لأحد، فتم استدعاء القائدين إلى المدينة، ليقوم أمير المؤمنين بالتحقيق بنفسه، دون أن يكلف أحدًا به، ويريد أن يدفن هذه الظاهرة في مهدها، وتقدم القائدان للمحاكمة.

(وفبعث إليهما فسألهما، فأخبراه أنهما قالا ذلك على وجه أنه مثل.

وأنهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب ذحل الجاهلية) ولا يملك الخليفة أن يشق عن قلبهما ليعرف مدى صدقهما من كذبهما في هذا الموضوع، وليس أمامه إلا اليمين على هذه النية، وأقسما على ذلك.

(فاستحلفهما، فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل وإعزاز الإسلام).

---

(١) ذحل الجاهلية: ثأر الجاهلية.

(٢) تاريخ الطبري (٣٧٨/٢).

(٣) السيرة لابن هشام (٤١١/٢).

فصدَّقهما وردَّهما حتى قدما على المثنى، وأخذا مواقعهما القيادية بعد المحاكمة، ويحسن أن لا ننسى أنهما صحابيان كبيران، لكن لا كبير فوق الحق.

اهتزاز الإمبراطورية لانتصارات المسلمين:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف، عن محمد بن عبد اللَّه ابن سواد عن... قالوا جميعًا: قال أهل فارس لرستم والفيرزان، وهما على أهل فارس:

أين يذهب بكما؟! لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهَّنتما أهل فارس، وأطمعتما فيهم عدوهم، وإنه لم يبلغ من خطركما أن يقركما أهل فارس على هذا الرأي، وأن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن، واللَّه لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت).

لقد استطاع المثنى ﷺ مع جيشه المؤمن ورفاقه القادة أن يغير الساحة كلها، ويغسل عار هزيمة الجسر، ويُشعِر أركان الإمبراطورية الفارسية أنهم على وشك السقوط، وكان هذا التهديد الذي توجه به أشراف الفرس لهذين القائدين بالقتل إن لم يتراجعا عن الخلاف والتنازع بينهما، وأدركوا أنه ما لم يوجدوا الرمز الذي يلتفون عليه، فلن تعود الهيبة لفارس إلا بإمبراطور يفيء الجميع إليه، ولم تتمكن بوران ابنة كسرى أن تعيد هذه الهيبة، وصدق رسول اللَّه ﷺ حين بلغه ملكها وقال عنها: « **لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة** » [1].

اجتماع الفرس على يزدجرد:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد قالوا:

فقال الفيرزان ورستم لبوران ابنة كسرى:

اكتبي لنا نساء كسرى وسراريه، ونساء آل كسرى وسراريهم، ففعلت، ثم أخرجت ذلك إليهم في كتاب، فأرسلوا في طلبهن، فلم يبق منهن امرأة إلا أتوا بها، فأخذوهن بالرجال، ووضعوا عليهن العذاب يستدلونهن على ذكر من أبناء كسرى،

---

(١) البخاري (٤١٦٣).

فلم يوجد عندهن منهم أحد، وقلن - أو من قال منهن: لم يبق إلا غلام يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وأمه من أهل بادوريا فأرسلوا إليها فأخذوها به، وكانت قد أنزلته في أيام شيري حين جمعهن في القصر الأبيض، فقتل الذكور فواعدت أخواله ثم دلته إليهم في زنبيل [١]، فسألوها عنه وأخذوها به، فدلتهم عليه فجاؤوا به، فملّكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة، واجتمعوا عليه، واطمأنت فارس واستوثقوا، وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته، فسمى الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى أو موضع ثغر، فسمى جند الحيرة والأنبار والمسالح والأبُلّة...) [٢].

شعور المسلمين بالخطر:

(... وبلغ ذلك من أمرهم واجتماعهم على يزدجرد المثنى والمسلمين، فكتبوا إلى عمر بما ينتظرون ممن بين ظهرانيهم، فلم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد، من كان له منهم عهد ومن لم يكن له منهم عهد، فخرج المثنى على حاميته حتى نزل بذي قار، وتنزل الناس بالطف في عسكر واحد حتى جاءهم كتاب عمر) [٣].

لقد كان نهر الفرات في شطه الأيمن هو حدود العرب، أما الشط الثاني والسواد كله، فكان تحت سيطرة الفرس، رغم أن كثيرًا من سكانه من العرب، وكما قال المثنى بن حارثة يوم التقى برسول الله ﷺ في السنة العاشرة للبعثة:

(وكأنه أحب أن يُشرك في الكلام المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا فقال المثنى: قد سمعت قولك، واستحسنت مقالتك يا أخا قريش، وأعجبني ما تكلمت به، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا، وإنا إنما نزلنا بين صَرْيَيْنِ أحدهما اليمامة والآخر السماوة، فقال له رسول الله ﷺ: « **ما هذان الصَّريان؟** » قال:

أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وأما ما كان مما يلي مياه العرب فذنب صاحبه مغفور

---

(١) الزَّنبيل: القُفَّة.

(٢ ، ٣) تاريخ الطبري (٢/٣٧٩).

وعذره مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثًا، ولا نؤوي محدثًا، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا.

فقال رسول اللَّه ﷺ: « **ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين اللَّه لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه. أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلًا حتى يورثكم اللَّه تعالى أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم، أتُسبّحون اللَّه تعالى وتقدسونه؟ فقال النعمان: اللهم فذلك لك**) [١].

وها هو المثنى رضي الله عنه، وقد شارك في تحرير العراق العربي مع خالد بن الوليد رضي الله عنه وكان هو الذي يمخر السواد، ويدوس أرض العجم، وينتصر عليهم في البويب، ويقتل منهم مائة ألف، ويتحرك حتى يصل إلى ساباط ما بين النهرين.

لكن تطور الأمر في عاصمة الدولة الفارسية، حيث توجه كل اهتمامها لحرب العرب، وقام كسرى الفرس يزدجرد باحتلال الجزيرة، وخاف أهل السواد فأعلنوا انضمامهم جميعًا إلى الفرس، وأعلنوا براءتهم من عهود المسلمين.

إنه عجيب حقًّا بعد كل تلك الانتصارات الباهرة للمسلمين أن تتغير الساحة من جديد لصالح الفرس، وقبل أن يصل جواب أمير المؤمنين، اضطر المثنى إلى الانسحاب من الحيرة وانتقل بجيشه إلى ذي قار في قلب العراق العربي، بينما كانت الحيرة على ضفاف الفرات، وجمع قواته في الطف [٢] في معسكر واحد، فجاء كتاب أمير المؤمنين يطابق ما تصرف به المثنى رضي الله عنه.

(... حتى جاءهم كتاب عمر: أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم - ولن يستطيع بضعة آلاف أن يخوضوا المعركة الفاصلة مع الفرس - وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم...).

إنه مناسب أن تقوم الخطة بتجميع الجيش في مكان آمن في قلب الأرض العربية

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٢/٥٩٦، ٥٩٧).

(٢) الطَّفُّ: أرض من ضاحية الكوفة في طرق البرية، وهي أرض بادية قريبة من الريف فيها عدة عيون ماء جارية منها: الصيد والقُطْقُطَانة والرُّهيمة وعين جمل وذواتها.

وعدم المواجهة قبل التعبئة العامة لكل العرب بلا استثناء.

(... أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم، ولا تدعوا في ربيعة أحدًا ولا مُضَرَ ولا حلفائهم من أهل النجدات ولا فارسًا إلا اجتلبتموه، فإن جاء طائعًا، وإلا حشرتموه، احملوا العرب على الجد إذ جَدَّ العجم، فلتلقوا جدَّهم بجدِّكم) (١).

نهدي هذا النص إلى الفريقين في الأمة دعاة القومية، ودعاة الإسلام.

نهديه إلى دعاة القومية الذين يريدون النصر اليوم بوحدة العرب على حساب الإسلام، فلا يجوز ذكر الإسلام حتى لا تتفرق الأمة، ويريدون وحدة بلا دين ولا عقيدة، وندعوهم إلى أن يبصروا التاريخ، ويبصروا حركة الأمة يوم توحدت تحت راية هذا الدين، ويوم حارب الصديق العرب كافة حين ارتدوا عن الإسلام، وطهر الأرض العربية من الردة وذيولها، وشهدنا الأهوال الكبرى التي لقيها العرب المسلمون في حرب العرب الوثنيين أو المرتدين، حتى فاءت العرب كلها وخاصة في جزيرة العرب إلى الإسلام، وعندما أحس عمر أمير المؤمنين أن الصراع عند الفرس هو صراع ضد العرب أمة وعقيدة، فأعلن التعبئة العامة ابتداء لفرعي عدنان الكبيرين، وأعلن النفير العام والجندية الإجبارية.

(ولا تدعوا في ربيعة أحدًا ولا مضر ولا حلفائهم من أهل النجدات ولا فارسًا إلا اجتلبتموه، فإن جاء طائعًا وإلا حشرتموه) وأعلن أن الحرب بين أمتين فهي حرب عند الفرس بين العرب والعجم وعند عمر ﷺ بين العرب المؤمنين والفرس فلا بد من حشد كل الطاقات مقابل حشد الطاقات الفارسية:

(... احملوا العرب على الجد إذ جد العجم، فلتلقوا جدَّهم بجدِّكم).

ونهدي هذا النص إلى دعاة الإسلام كذلك الذين يفزعون من كلمة العرب؛ لأنها عندهم إثارة للعصبية الجاهلية، ويبرزون لنا مباشرة النص النبوي: « **دعوها فإنها منتنة** » (٢)، أفلا يرى دعاة الإسلام أن هذا النص كله نص قومي بحيث تحشد طاقات العرب كلها ضد طاقات الفرس.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٧٩/٢).

(٢) صحيح البخاري (٤٦٢٢).

فقد وجه النداء ابتداءً إلى ربيعة وهي الفرع الكبير الثاني للعرب العدنانيين، وأغلبهم من أبناء تلك المناطق - العراق العربي وما يدعى اليوم بالمنطقة الشرقية من السعودية والعراق - ثم وجه النداء ثانية إلى مضر كلها، وهي قبائل الحجاز وقبائل نجد، وهو يعلم أن هؤلاء العرب الذين ذبحوا أنفسهم في الجاهلية بقتل بعضهم بعضًا، فعندهم من الطاقات المذخورة، والشجاعة الفائقة، والحكمة البالغة والعبقرية الكامنة ما يحمل القدرة على مواجهة العدو، فقد ركز على نموذجين ممن فرض عليهم الاستجابة طوعًا أو كرهًا، خدمة إلزامية وتطوعية، فعند الخطر لا نستثني أحدًا وعرفهم بنموذجين:

- أهل النجدات.
- الفرسان.

ولا بد أن يقابل الجد الفارسي بالجد العربي، فهل تحتمل أعصاب دعاة الإسلام هذا النداء؟ ولم يتهور الفاروق ﷺ بالاكتفاء ببضعة آلاف يجوبون الساحة تحت راية ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وتحت راية: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وراية ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠].

أقول هذا وأجدني مضطرًا لأطرح الفكرة التي سادت في نفوس بعض الشباب الذين يظنون أنهم يمكنهم أن يقيموا دولة الإسلام في الأرض ببضع مئات من الشباب المنظمين ونضع هذا النص بين أيديهم ونُهديه لهم ونسألهم:

هل كان المثنى جبانًا يوم انسحب من الحيرة إلى ذي قار، وجمّع قواته في قلب الأرض العربية متخليًا عن كل الانتصارات التي حققها، حيث وصل إلى تخوم المدائن، وكما قال الفرس أنفسهم (ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن). وهل كان عمر بن الخطاب ﷺ جبانًا متخاذلًا حين أصدر أوامره: (أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم...)، وأعلن بعدها النفير العام قبل المواجهة العامة الشاملة. وتم تنفيذ أوامر أمير المؤمنين.

(فنزل المثنى بذي قار، ونزل الناس بالجُلِّ [١] وشَراف [٢] إلى غضي - وغُضي حيال البصرة، فكان جرير بن عبد الله بغُضي، وسبرة بن عمرو العنبري ومن أخذ أخذهم فيمن معه إلى سلمان [٣] فكانوا في أمواه الطَّف من أولها إلى آخرها مسالح بعضهم ينظر إلى بعض، ويغيث بعضهم بعضًا إن كان كون، وذلك في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة) [٤].

ولم يكتف عمر ﷺ بتوجيهاته إلى المثنى وقادته في استنفار ربيعة ومضر، فقد وجه رسله إلى العرب قاطبة.

قال ابن جرير: (حدثنا السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم، قالوا: كان أول ما عمل به عمر حين بلغه أن فارس قد ملَّكوا يزدجرد أن كتب إلى عمال العرب على الكور والقبائل - وذلك في ذي الحجة سنة ثلاث عشرة مخرجه إلى الحج، وحج سنواته كلها - لا تدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليَّ والعَجَلَ العَجَلَ، فمضت الرسل إلى من أرسلهم إليه مخرجه إلى الحج، ووافاه أهل هذا الضرب من القبائل التي طُرُقُها على مكة والمدينة؛ فأما من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق، فوافاه بالمدينة مرجعه من الحج، وأما من كان أسفل من ذلك فانضموا إلى المثنى، فأما من وافى عمر فإنهم أخبروه عمن وراءهم من الحث) [٥].

لقد أعلن الاستنفار في الدولة الإسلامية كلها.

(لا تدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليّ).

وحددت مراكز التجمع في المدينة أو في ساحة المعركة عند المثنى ﷺ.

أما عواصم الدولة الإسلامية في هذه السنة، وأمراء هذه الدول، فكانوا:

(وكان عامل عمر في هذه السنة - على ما ذكر - على مكة: عتاب بن أسيد،

---

(١) الجل: قريب من السلمان، بينه وبين واقصة ثمانية أميال، وقيل: موضع بالبادية على طريق القادسية، إلى زبالة.

(٢) شَراف: بفتح أوله بين واقصة والقرعاء على ثمانية أميال من الأحساء.

(٣) سلمان: منزل بين عين صيد وواقصة وهو طريق إلى تهامة من العراق في الجاهلية.

(٤، ٥) تاريخ الطبري (٣٧٩/٢).

وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص. وعلى اليمن يعلى بن أمية، وعلى عُمان واليمامة حذيفة بن محصن، وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي، وعلى الشام أبو عبيدة ابن الجراح، وعلى فرج الكوفة وما فتح من أرضها المثنى بن حارثة، وكان على القضاء - فيما ذكر - علي بن أبي طالب، وقيل: لم يكن لعمر في أيامه قاض) [١].

وإذا أردنا أن نوزع هذه الولايات على دول اليوم لكانت:

(سورية، لبنان، الأردن، فلسطين، العراق، الإمارات، الكويت، البحرين، عمان، اليمن، المملكة السعودية، قطر) فاثنتا عشرة دولة من الدول العربية اليوم أي قرابة نصف الدول العربية كانت تمثل الدولة الإسلامية الواحدة في السنة الأولى من خلافة عمر رضي الله عنه.

* * *
* *
*

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٧٩).

السنة الرابعة عشرة

الطريق إلى القادسية



الفصل السابع

في الطريق إلى القادسية

يقول ابن جرير: (ففي أول يوم من المحرم سنة أربع عشرة، فيما كتب إلي السري عن شعيب عن سيف، عن محمد وطلحة:

خرج عمر حتى نزل على ماء يدعى صرارًا، فعسكر به ولا يدري الناس ما يريده أيسير أم يقيم. وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن ابن عوف، وكان عثمان يُدعى في إمارة عمر رديفًا، قالوا: والرديف بلسان العرب الرجل الذي بعد الرجل، والعرب تقول ذلك للرجل الذي يرجونه بعد رئيسهم - وكانوا إذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس فقال عثمان لعمر: ما بلغك؟ ما الذي تريد؟ فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس إليه، فأخبرهم الخبر، ثم نظر ما يقول الناس، فقال العامة: سر وسر بنا معك؛ فدخل معهم في رأيهم، وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه في رفق، فقال:

استعدوا وأعدوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك.

ثم بعث إلى أهل الرأي، فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبي ﷺ وأعلام العرب، فقال: أحضِرُوني الرأي فإني سائر، فاجتمعوا جميعًا، وأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، ويقيم، ويرميه بالجنود، فإن كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون، وإلا أعاد رجلًا وندب جندًا آخر، وفي ذلك ما يغيظ العدو، ويرعوي المسلمون، ويجيء نصر اللَّه بإنجاز موعود اللَّه) [1].

إعلان مبادئ فصل السلطات:

(فنادى عمر: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس إليه، وأرسل إلى علي ﷺ، وقد استخلفه على المدينة فأتاه، وإلى طلحة وقد بعثه على المقدمة، فرجع إليه، وعلى المجنبتين الزبير وعبد الرحمن بن عوف، فقام في الناس فقال:

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٨١).

إن اللَّه ﷻ قد جمع على الإسلام أهله، فألف بين القلوب، وجعلهم فيه إخوانا، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره، وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم.

فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعًا لهم.

ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعًا لهم.

يا أيها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلًا، وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلَّفت. وكان علي ﵁ خليفته على المدينة، وطلحة على مقدمته بالأعوص [١]، فأحضرهما لذلك) [٢].

* * *

نصف عام فقط من خلافة عمر الفاروق ﵁، تم خلاله فتح الشام، وطرد الروم منها وقامت مع الفرس معارك هائلة، لم ينهزم المسلمون في معركة منها إلا معركة الجسر، واستطاع المثنى ﵁ أن يعيد هيبة المسلمين، ويغزو الفرس في عقر دارهم، وأصبح على مقربة من المدائن مما حدا بالفرس أن يجمعوا أمرهم، ويوحدوا صفوفهم، ويختاروا يزدجرد إمبراطورًا عليهم، وعرف المسلمون خطورة الموقف، وانسحبوا من أرض فارس للتعبئة العامة التي أعلنها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وكان هذا مع بداية المحرم من السنة الرابعة عشرة، ورأى عمر ﵁ أنه لا تُكافأ تعبئة الفرس إلا أن يكون هو على رأس الجيش، الذي يتحرك للعراق، فهو مطمئن لجبهة الشام، أما العراق، فقد أزفت المعركة الفاصلة بين أعظم قوتين على الأرض.

(ولما انتهى قتل أبي عبيد بن مسعود إلى عمر، واجتماع أهل فارس على رجل من آل كسرى نادى في المهاجرين والأنصار، وخرج حتى أتى صِرارًا [٣]، وقدم طلحة

---

(١) الأعوص: على أميال من المدينة يسيرة. (٢) تاريخ الطبري (٣٨١/٢).
(٣) صرار: بئر قديمة على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق.

ابن عبيد اللَّه حتى يأتي الأعوص، وسمى لميمنته عبد الرحمن بن عوف، ولميسرته الزبير بن العوام، واستخلف عليًّا ﷺ إلى المدينة...) [١].

وقد دخلت المعركة أعلى قيادات الأمة فخمسة من العشرة المبشرين بالجنة كانوا في قيادة الجيش: الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد اللَّه، وعبد الرحمن بن عوف، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وسعد سادسهم كان على صدقات هوازن، ولو كان في المدينة لخرج مع الجيش الإسلامي، وما أظن أحدًا تخلف منهم، فقد مضىأبو بكر إلى جوار اللَّه، وعلى الغالب أن سعيد بن زيد كان في الجيش بينما كان أبو عبيدة ﷺ أمير الشام وقائد جيشها وجبهتها.

وعندما استشار كانوا هم قادة الأمة، ومن أجل ذلك لم يُبَتَّ بالأمر حتى حضر علي ﷺ من المدينة، وحضر طلحة من الأعوص وكما قال:

(وقد أحضرت هذا الأمر من قدمتُ (ويقصد طلحة) ومن خلفت (ويقصد عليًّا ﷺ) لقد كان هؤلاء قادة الشورى أما أهل الشورى فهم كما حددهم عمر ﷺ:

- وجوه أصحاب النبي ﷺ.
- وأعلام العرب.

وكما يذكر النص تمامًا: ثم بعث إلى أهل الرأي، فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبي ﷺ وأعلام العرب، فقال: أحضروني الرأي فإني سائر، فاجتمعوا جميعًا، وأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ويقيم...) [٢].

دولة الشورى:

لقد حدد ﷺ هوية دولة الإسلام بأهم صفة من صفاتها بعد الإسلام، ألا وهي الشورى.

(فقام في الناس فقال:

إن اللَّه ﷻ قد جمع على الإسلام أهله، فألف بين القلوب، وجعلهم فيه إخوانًا، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره، وكذلك

---

(١) تاريخ الطبري (٣٨٢/٢).

(٢) المصدر نفسه (٣٨١/٢).

يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم).

فالشورى واجبة في الصف الإسلامي: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

السلطة الشورية فوق السلطة التنفيذية، وقراراتها ملزمة، والطاعة للحاكم المسلم:

(١ - فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس، وكانوا فيه تبعًا لهم.

٢ - ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم، ما رضوا به لهم من مكيدة في حرب، كانوا فيه تبعًا لهم.

٣ - يا أيها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلًا، وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت.

وكان علي ﷺ خليفته على المدينة، وطلحة على مقدمته بالأعوص، فأحضرهما).

رئيس مجلس الشورى يتبنى موقف الإقامة:

مع ملاحظة أن رأي العامة هو خروج أمير المؤمنين على رأس الجيش.

(فقال العامة سِرْ وسر بنا معك، فدخل معهم في رأيهم، وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه في رفق) ومن هذا الموقف نلحظ أن ولي الأمر في غياب أولي الرأي يحق له أن يتبع الرأي العام، كما أن عليه من جهة ثانية أن يواجه هذا الرأي العام برفق حين يود أن يخالفه، لكنه لا يملك ذلك مع مجلس الشورى، فهو تبع له، فالاندفاع الجماهيري يُراعَى ولا يطاع.

وكان في المجلس من يرى رأي خروج أمير المؤمنين على رأس الجيش، لكنهم كانوا أقلية، واقتنعوا أخيرًا برأي أكثرية أعضاء المجلس. (... فكان طلحة ممن تابع الناس، وكان عبد الرحمن بن عوف ممن نهاه، فقال عبد الرحمن: فما فديت أحدًا بأبي وأمي بعد النبي ﷺ قبل يومئذ ولا بعده، قلت: يا بأبي وأمي، اجعل عجزها بي، وأقم، وابعث جندًا، فقد رأيت قضاء اللّه لك في جندك قبل وبعد، فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تُقتل أو تُهزم في أنف الأمر خشيت أن لا يكبر

المسلمون، وأن لا يشهدوا أن لا إله إلا اللّه أبدًا وهم في ارتياد من رجل...) [١].

فليس من السهل اختيار خليفة جديد، قد تزول دولة الإسلام قبل التمكن من اختيار بديل لأمير المؤمنين، لكن لا بد من البديل عن أمير المؤمنين من شخصية قيادية من الصف الأول، أمثال الخمسة المشاركين في مجلس الشورى.

اختيار القائد:

(وأتى كتاب سعد على خفف مشورتهم، وهو على بعض صدقات نجد.

فقال عمر: فأشيروا عليَّ برجل، فقال عبد الرحمن: وجدتُه، قال: من هو؟ قال: الأسد في براثنه، سعد بن مالك، ومالأه أولو الرأي.

فقد تم إذن اقتراع القائد الجديد من قبل رئيس مجلس الشورى، وهو سعد ابن أبي وقاص وأخذ موافقة الأكثرية الساحقة من أعضاء المجلس.

وسعد بن أبي وقاص ليس نكرة أبدًا، فهو خامس من أسلم، أما في الحرب فهو ابن بجدتها، لقد كان ﷺ أول من أراق دمًا في سبيل اللّه، وكان أول من رمى بسهم في سبيل اللّه، وإليه ينسبون هذا الشعر:

ألا هَل جَا [٢] رسول اللّه أنّي ... حَميتُ صحَابتي بصدُور نَبلْي

أذُود بـهَـا عـدوَّهـمُ ذيـادًا ... بـكـلِّ حزُونـة وبـكُـلِّ سـهْـلِ

فـمَـا يـعـتَـدّ رامٍ مـن مـعـدٍّ ... بسهْم معْ رسُولِ اللّه قَبلْي [٣]

ولا نحتاج إلى شعر سعد، وقد رأيناه في أُحُدَ يرمي، كما يقال بألف سهم - ذودًا عن رسول اللّه ﷺ، ورسول اللّه يفديه بأبيه وأمه ويقول: « **ارم سعد فداك أبي وأمي يا سعد** » [٤].

والمروي عن سعد كذلك قوله نثرًا:

(أنا أول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل اللّه في الغزو عند القتال) [٥].

---

(١) تاريخ الطبري (٣٨٢/٢). (٢) جا: جاء.

(٣) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر، ت (٨٩١).

(٤) السيرة النبوية الصحيحة (ص ٢١٨).

(٥) الاستيعاب، ت (٨٩١).

ودعا له رسول الله ﷺ: « **اللهم سدد رميته، وأجب دعوته** »[١].

وحضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان أحد العشرة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ.

لم يكن بذهن سعد رضي الله عنه - وهو الأسد في براثنه - كما سماه عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه أن يكون هو القائد العام لجبهة العراق، ولقد قام بالمهمة التي كلف بها خير قيام وهو على صدقات هوازن حين طلب منه أن يختار أهل النجدة والشجاعة للمشاركة في حرب العراق.

انتخبت لك ألف فارس:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة قالا:

(كان سعد بن أبي وقاص على صدقات هوازن، فكتب إليه عمر فيمن كتب إليه بانتخاب ذوي الرأي والنجدة ممن كان له سلاح أو فرس، فجاءه كتاب سعد:

إني قد انتخبت لك ألف فارس مؤدٍ، كلهم له نجدة ورأي، وصاحب حيطة يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم، إليهم انتهت أحسابهم، ورأيهم فشأنك بهم. ووافق كتابه مشورتهم فقالوا: قد وجدتهُ، قال: فمن؟ قالوا: الأسد عاديًا، قال: من؟ قالوا: سعد. فانتهى إلى قولهم فأرسل إليه، فقدم عليه، فأمَّرَهُ على حرب العراق)[٢].

لقد كان ما فعله سعد رضي الله عنه هو النموذج الذي قام به كل الولاة في كل الأقطار في اختيار نموذجين من أشراف العرب، العريقين في نسبهم في قبائلهم.

أولي الرأي.

أولي النجدة والشجاعة والحرب.

فالحرب ليست حربًا مادية فقط، إنما هي حرب فكرية سياسية تحتاج إلى دهاة العرب، وشعراء العرب، وفصحاء العرب، وأبطال العرب الذين أصبحوا اليوم جنودًا لهذا الدين الجديد.

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٤/٢٠٠).

(٢) تاريخ الطبري (٣/٣٨٢).

وصية الخليفة إلى القائد العام:

لم يكن أمير المؤمنين بحاجة إلى التوجيهات العسكرية لقائده، فكفاءته العسكرية وعبقريته الحربية مشهود له فيها، لكنه الآن يريد أن يُطامِن من اعتزاز سعد بأنصع تاريخ يحمله القادة فقال له: (يا سعد، سعد بني وهيب، لا يغرنك من اللَّه أن قيل خال رسول اللَّه ﷺ وصاحب رسول اللَّه، فإن اللَّه ﷻ لا يمحو السيِّئ بالسيِّئ، ولكنه يمحو السيِّئ بالحسن، فإن اللَّه ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات اللَّه سواء، اللَّه ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت عليه منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر، هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين) (١).

لقد كان رسول اللَّه ﷺ يباهي المسلمين بسعد بن أبي وقاص بأنه خاله، وذلك أن سعدًا من بني زهرة وأم رسول اللَّه ﷺ آمنة بنت وهب من بني زهرة.

(فعن جابر ﷺ قال: أقبل سعد، فقال النبي ﷺ: « **هذا خالي، فليُرني امرؤ خاله** » (٢).

والنسب مع رسول اللَّه ﷺ شرف كبير، لكنه ليس نسبًا بين اللَّه تعالى وبين عباده.

(فإن اللَّه ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات اللَّه سواء؛ اللَّه ربهم وهم عباده...).

وهذا ما تعلمه أمير المؤمنين عمر من رسول اللَّه ﷺ.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قام رسول اللَّه ﷺ حين أنزل عليه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: « **يا معشر قريش** – أو كلمة نحوها – **اشتروا أنفسكم لا أغني عنكُم من اللَّه شيئًا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا، يا عباس ابن عبد المطلب، لا أغني عنكَ من اللَّه شيئًا، ويا صفية عمة رسول اللَّه ﷺ، لا أُغني عنكِ من اللَّه شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أُغنِي عنك من اللَّه شيئًا** » (٣).

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، ح (٣٧٥٢).

(٣) البخاري في التفسير، ح (٤٧٧٠).

فمن باب أولى أن يقال: يا سعد يا خال رسول اللَّه لا أغني عنك من اللَّه شيئًا.

(فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات اللَّه سواء، الله ربهم وهم عباده) [١].

وكيف يكون التمييز بينهم؟

(يتفاضلون بالعافية [٢]، ويدركون ما عنده بالطاعة).

وما هو المستوى المطلوب من سعد ﷺ.

(فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ منذ بعث إلى أن فارق الدنيا، فالزمه فإنه الأمر).

وهذه أهم وصية من الخليفة القائد العام.

(هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك، وكنت من الخاسرين).

إنها وصية اللَّه تعالى لنبيه في كتابه: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

الوصية الثانية:

إما الوصية الثانية فكانت أعمق غورًا من العموميات، وذات صلة وثيقة بالتعامل مع الجنود الذين يقودهم، بحيث يكون الرمز عندهم، ويملأ حبه كيانهم.

(ولما أراد أن يسرحه دعاه فقال: إني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به، واعلم أن لكل عادة عتادا؛ فعتاد الخير الصبر، فالصبر على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية اللَّه، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته، واجتناب معصيته. وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء؛ منها السر ومنها العلانية؛ فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحق سواء، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس، فلا تزهد في التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم، وإن اللَّه إذا أحب عبدا حببه، وإذا أبغض عبدا بغّضه، فاعتبر منزلتك عند اللَّه تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في أمرك) [٣].

---

(١) تاريخ الطبري (٣٨٢/٢).

(٢) العافية: هنا عافية الدين أي البراءة من المعصية.

(٣) تاريخ الطبري (٣٨٢/٢).

ولنعش لحظات في عناصر هذه الوصية الثانية:

١ - (فإنك تقدم على أمر شديد كريه، لا يخلِّص منه إلا الحق).

٢ - (فعوِّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به).

٣ - (واعلم أن لكل عادة عتادًا، فعتاد الخير الصبر).

٤ - (فالصبر على ما أصابك أو نابك يجتمعْ لك خشية اللَّه).

الحق إذن لا بد أن يعوِّد الإنسان نفسه عليه قسرًا أو كرهًا وأن يكون أساس الحياة، ولن يصبح الخير عادة إلا بالصبر، فالصبر هو سلاح الخير وبالصبر يتربى القلب على خشية اللَّه فتجتمع خشيته فيه.

٥ - (واعلم أن خشية اللَّه تجتمع في أمرين؛ في طاعته، واجتناب معصيته).

لكن كيف تكون الطاعة القلبية مع طاعة الجوارح؟ وهي الطاعة التي يدعو لها أمير المؤمنين.

٦ - (وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة).

وهذه الطاعة القلبية، والبعد القلبي عن الدنيا، ينشئ ثمرة شهية فيضًا من رب العالمين.

٧ - (وللقلوب حقائق ينشئها اللَّه إنشاءً، منها السر، ومنها العلانية).

فما هي علامات هذه الحقائق؟ وندعو حمَلة راية التربية الروحية من الصوفيين وغيرهم الذين يفصلون بين الحقيقة والشريعة إلى أن يحضروا هذا الدرس عند خليفة رسول اللَّه الفاروق ﷺ، وهو الذي لا يعتبره بعضهم من جهابذة هذا العلم.

٨ - (فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحق سواء).

وهذا أفق ندعو الصديقين إلى المرتقى إليه، فكما يقولون: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة، فأي قلب في الدنيا هذا الذي يستوي عنده المدح والذم، إلا ذلك القلب الموصول باللَّه المنفصل عن الخلق هذا في الأعماق، وينعكس في العلانية في التعامل مع هؤلاء المادحين والذامين بسوية واحدة، ودليل هذه.

٩ - (وأما السر فيعرف: بظهور الحكمة من قلبه على لسانه).

هذا على المستوى الشخصي، أما على مستوى التعامل، فتصبح الحكمة على لسانه

ناطقة بما في القلب من خشيته، لكن هناك عنصرًا آخر يدل على وجود خشية اللَّه في القلب.

١٠ - (وبمحبة الناس فلا تزهد في التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم).

وهي عطاء رباني يدل على حب اللَّه للإنسان.

١١ - (وإن اللَّه إذا أحب عبدًا حببه، وإذا أبغض عبدًا بغَّضه).

بل ربط أمير المؤمنين ﷺ هذه المحبة بصدق حب اللَّه للعبد.

١٢ - (فاعتبر منزلتك عند اللَّه تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في أمرك).

إنها معانٍ خالدة في تربية النفوس وتزكيتها، يريدها الخليفة عمر ﷺ لقائده.

فالنتيجة أن الجيش إذا كان يقاد من قائد بغيض، فإنه سوف ينقضُّ على قائده في أية لحظة. إذًا فلا بد من الحب المتبادل والتفاني بين القائد وجنده، وقد ينجح القائد الدكتاتور في معركة، لكنه في الحقيقة خاسر بالتأكيد لأنه خسر قلوب جيشه، وفن القيادة هذا هو الذي رسم ملامحه رسول اللَّه ﷺ بقوله: « **خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلُّون عليكم، وتصلُّون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم** »[(١)].

وفرق كبير ودقيق بين حب الناس الذي يكون غاية فيتحول الأمر إلى الشرك في الرياء والذي يكبّ المرء في النار، وبين الحب الذي يضعه اللَّه في قلوب عباده للربانيين من خلقه الذين يتصل قلبهم باللَّه فينشئ اللَّه حبهم؛ لأن اللَّه إذا أحب عبدًا حببه إلى أهل السماء والأرض.

جيل الخلافة الراشدة:

نحن إذن أمام جيل جديد منتقًى ومنتخب من كل قبائل العرب صاحب طاقات فكرية أو حربية.

نعم لقد كان القائد من أعلى مراتب الصحابة على الإطلاق، لكن الذين يخوضون الحرب ويكتوون بنارها هم هؤلاء الجنود.

---

(١) أخرجه مسلم، ح (٦٥، ١٨٥٥).

وهذه نماذج منهم:

(... ثم سرحه فيمن اجتمع إليه بالمدينة من نفير المسلمين.

فخرج سعد بن أبي وقاص قاصدًا العراق في أربعة آلاف، ثلاثة ممن قدم عليه من اليمن والسراة، وعلى أهل السروات حميضة بن النعمان بن حميضة البارقي، وهم بارق وألمع وغامد وسائر إخوتهم في سبعمائة من أهل السراة، وأهل اليمن ألفان وثلاثمائة منهم النخع بن عمرو، وجميعهم يومئذ أربعة آلاف مقاتلتهم وذراريهم ونساؤهم، وأتاهم عمر في عسكرهم، فأرادهم جميعًا على العراق فأبوا إلا الشام، وأبى إلا العراق، فسمح نصفهم فأمضاهم نحو العراق، وأمضى النصف الآخر نحو الشام) [١].

لقد أقبلت كتائب الإيمان من اليمن والتي كانت قبل سنة تخوض حربًا هائلة ضد المسلمين. وانتهت الردة، وأعلن الزعماء توبتهم من كان منهم على قيد الحياة، وآن الأوان لنزال أعداء اللَّه في الأرض، وأقدم الخليفة ﷺ عليهم، وخاطب جمهرتهم من النخع قائلًا: (إن الشرف فيكم يا معشر النخع لَمُتَرَبِّع) [٢].

وهناك تفصيل أدق للقيادات والقبائل اليمنية التي جاءت من أقصى الجنوب إلى أقصى الغرب في المدينة، وكانت الحماسة للشام طاغية، لكن الجبهة العراقية الآن تتعرض لخطر عظيم، وهي التي أمدت جبهة الشام حين كان الخطر يتهددها، ومضى خالد ﷺ من العراق إلى الشام وتم الفتح على يديه، وإذا كان أمير المؤمنين ﷺ أغرى قبيلة بجيلة بربع الخمس زيادة على استحقاقاتهم حتى قبلوا المسير إلى العراق، فقد تنازل ﷺ مع كتائب اليمن بأن يمضي نصفها للشام ونصفها للعراق.

وشيء رائع حقًّا أن يحفظ لنا التاريخ تفصيلات لأعداد الأبطال المشاركين من كل قبيلة فاليمن قارة، وكيف تم توزيع هذه الآلاف الثلاثة والمئات الثلاث عليها؟

يقول ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمستنير وحنش قالوا:

وكان فيهم من حضرموت والصَّدِف [٣] ستمائة عليهم شَدَّاد بن ضمعج، وكان فيهم ألف وثلاثمائة من مَذْحِج **على ثلاثة رؤساء:**

(١، ٢) تاريخ الطبري (٣٨٣/٢).

(٣) الصَّدِف بالفتح ثم الكسر وآخره فاء مخلاف باليمن منسوب إلى القبيلة، والنسبة إليهم صَدِفيٌّ بالتحريك.

- عمرو بن معد يكرب على بني منبه.

- وأبو سبرة بن ذؤيب على جُعفي ومن في حلف جُعفي من إخوة جَزء وزبيد وأنس اللَّه.

- ويزيد بن الحارث الصُّدائي على صُداء [١] وجَنْب [٢] ومسلِيَة [٣] في ثلاثمائة.

هؤلاء شهدوا من مَذْحِج فيمن خرج من المدينة مخرج سعد منها.

وخرج معه من قيس عيلان ألف عليهم بشر بن عبد اللَّه الهلالي.

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن عبيدة عن إبراهيم قال:

خرج أهل القادسية من المدينة وكانوا أربعة آلاف؛ ثلاثة آلاف منهم من أهل اليمن، وألف من سائر الناس) [٤].

وللربط بين الروايات نستطيع توزيع الأبطال المشاركين في القادسية والذين خرجوا مع سعد من المدينة على الوجه التالي:

٧٠٠ من أهل السروات (بَارِق وأَلمع وغَامِد وسائر إخوتهم، ولا شك أن زهران منهم) وهم العرب المقيمون بين الطائف واليمن.

٦٠٠ من حضرموت والصَّدِف وهم من اليمن الجنوبي.

١٣٠٠ من مذحج (بني منبه وجُعْفِي وحلفائهم وصُدَاء وجَنب).

١٠٠٠ من قيس عيلان وغيرهم.

٤٠٠ من النخع بن عمرو.

ويمكن القول أن قرابة نصفهم من عدنان وهم السروات وقيس بن عيلان.

ونصفهم الآخر من قحطان عامة، ومن اليمن خاصة، وهم ألفان وثلاثمائة.

ولا ننسى أنّ نِصف النخع قد مضوا إلى الجبهة الشامية.

إنه جيش جديد علينا كل الجدة.

---

(١) صُدَاء: مخلاف باليمن بينه وبين صنعاء اثنان وأربعون فرسخًا، سمي بالقبيلة.

(٢) مخلاف باليمن ينسب إلى القبيلة.

(٣) مُسْلِيَة: قبيلة من مذحج ومحلة لهم بالكوفة بضم أوله وسكون ثانيه وكسر اللام.

(٤) تاريخ الطبري (٢/٣٨٣).

فماذا نعرف عن قياداته التي ذكرت في ثنايا العرض؟

١ - شداد بن ضمعج: لم نجد له ذكرًا في كتب التراجم.

٢ - عمرو بن معديكرب: وهو شخصية من أشهر الشخصيات في الجاهلية، ويكاد يكون شخصية شعبية أسطورية من كثرة ما روي عن شجاعته وبطولته، وقد مر معنا حديثه المطول في ردة اليمن **ونأخذ نبذة مختصرة عنه:**

(عمرو بن معديكرب بن عبد اللَّه... بن سيد العشيرة الزبيدي الشاعر الفارس المشهور يُكْنَى أبا ثور...

ذكر بن سعد عن الواقدي بسنده قال: قال عمرو بن معديكرب لقيس بن مكشح حين انتهى إليهم أمر النبي ﷺ: قد ذُكِر لنا أن رجلًا من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول إنه نبي، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبيًّا فلن يخفى علينا، فأبى قيس، وركب عمرو إلى المدينة فنزل على سعد بن عبادة فأكرمه، وراح به إلى النبي ﷺ، فأسلم، وأجازه النبي ﷺ، فرجع إلى قومه، فأقام فيهم مسلمًا مطيعًا، وكان عليهم فروة بن مسيك.

فلما مات النبي ﷺ ارتد عمرو، وذكر سيف في كتاب الردة، أن المهاجر ابن أبي أمية، أسَرَ عمرو بن معديكرب، فأرسله إلى أبي بكر، فعاود الإسلام.

وروينا في مناقب الشافعي قال: وجَّه رسول اللَّه ﷺعليًا وخالد بن سعيد إلى اليمن، فبلغ عمرو بن معديكرب ما قيل في جماعة من قومه، فقال: دعوني آت هؤلاء القوم فإني لم أُسَمَّ لأحد قط إلا هابني، فما دنا منهما قال: أنا عمرو بن معديكرب، أنا أبو ثور، فابتدراه [(١)] كل منهما يقول: خلني وإياه، فقال عمرو: العرب تفزع بي، وأراني لهؤلاء جزرًا [(٢)].

... وشهد عمرو فتوح الشام وفتوح العراق... فعن مالك بن عبد اللَّه الخثعمي:

ما رأيت أشرف من رجل برز له يوم اليرموك علج فقتله، ثم انهزموا فتبعهم، ثم انصرف إلى خباء عظيم، ودعا بالجفان، ودعا من حوله، فقلت من هذا؟ فقالوا: عمرو بن معديكرب) [(٣)].

---

(١) فابتدراه: تسابقا إلى مبارزته. (٢) لهؤلاء القوم جزرًا: مقتولًا بين يديهم.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، مجلد واحد، ت (٦٨٦٩).

وسنشهد بلاءه في القادسية بالتفصيل، ونحن نعرض لها.

لقد كان من الممكن أن يقتل عمرو مرتدًا منذ أسره المهاجر بن أبي أمية بلا عقد ولا عهد، لكن المهاجر يعلم معادن الرجال، وأبطال الأبطال، فحرص على أن يرسله إلى الصِّدِّيق ليحكم فيه، ولم يقم الصِّدِّيق بقتله، بل استتابه، وهيأ له المجال ليكون سيفًا في سبيل اللَّه، بعد أن كان سيفًا في سبيل الشيطان.

٣ - أبو سبرة بن ذؤيب، لم نجد ذكرًا له في كتب التراجم إلا ما ذكره ابن حجر بقوله:

(أبو سبرة الجعفي واسمه يزيد بن مالك. لكن والد أبو سبرة هذا مالك ووالد أبي سبرة القائد هو ذؤيب).

٤ - بشر بن عبد اللَّه الهلالي، قال عنه ابن حجر في الإصابة: ذكره سيف في الفتوح، وأن عمر بن الخطاب وجّهه مع سعد إلى العراق سنة أربع عشرة، فأمَّرَهُ سعدُ على ألف من قيس، وذكر الطبري ذلك، وقد ذكر ابن أبي شيبة بإسناده أنهم كانوا لا يؤمِّرون إلا الصحابة [1].

وصية الخليفة إلى جيشه:

فها هو الجيش الإسلامي تتحرك بواكيره من المدينة؛ أربعة آلاف بطل من أبطال العرب، فلا بد أن يفقهوا مهمتهم، ويتلقوا من الخليفة تعليماته، ولم يكتف ﷺ بالموعظة من المدينة بل شيعهم من صرار إلى الأعوص، وقام فيهم خطيبًا فقال:

- (إن اللَّه تعالى إنما ضرب لكم الأمثال، وصرّف لكم القول لِيُحْيِيَ به القلوب، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها اللَّه، مَن عَلِمَ شيئًا فلْينتفعْ به.

- إن للعدل أمارات وتباشير، فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهَيْن واللين، وأما التباشير فالرحمة.

- وقد جعل اللَّه لكل أمر بابًا، ويسر لكل باب مفتاحًا، فباب العدل الاعتبار، ومفتاحه الزهد.

- والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات والاستعداد له بتقديم الأعمال.

---

(١) الإصابة، ت (٧١٩).

- والزهد أخذ الحق مِن كُلِّ أحدٍ قِبَلَهُ حقٌّ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق، ولا تصانع في ذلك أحدًا.

- واكتف بما يكفيك من الكفاف، فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء.

- إني بينكم وبين اللّه، وليس بيني وبينه أحد.

- وإن اللّه قد ألزمني دفع الدعاء عنه، فأنهوا شكاتكم إلينا، فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها نأخذْ له الحق غير متعتع.

وأمر سعدًا بالسير وقال: إذا انتهيت إلى زرود [١] فانزل بها، وتفرقوا فيما حولها واندب من حولك منهم، وانتخب أهل النجدة والرأي والقوة والعدة) [٢].

* * *

لو بحثنا في كل خطب الحرب في الجاهلية منذ ألف عام ونيف لن نجد مثل هذه الخطبة، ولرأينا الحديث كله عن الحمية حمية الجاهلية، والدعوة إلى الثبات لتحقيق النصر، فما لنا نجد خطبة أمير المؤمنين ﷺ خالية من كل هذه المعاني؟

السبب في ذلك هو أن هذا الجيش ليس بحاجة إلى معاني الشجاعة والثبات، فهذه كامنة فيهم وقد اختيروا من أهل النجدة وأهل الرأي، لكن حاجتهم في الحقيقة إلى معاني الإيمان التي تستجيش ما في القلوب لتكون الحمية والقتال خالصًا للّه سبحانه، ولم يتلق هذا الجيش المتعدد العناصر إلا القليل منها، **وكانت هذه المعاني:**

١ - الحياة الحقيقية، ليست الأكل والشرب والمتاع، إن الحياة الحقيقية هي حياة القلوب (فالقلوب ميتة في صدورها حتى يحييها اللّه): ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وحياة هذه القلوب ليست بالعلم، إنما بالعمل بما تعلم (من علم شيئًا فلينتفع به).

٢ - وقد انتهت دولة الطواغيت التي تطيع قادة القبائل في كل شيء، ولا نسب للرجل إلا بقبيلته. وقامت أمة جديدة ودولة جديدة بالعدل والإيمان، وهذه الدولة لها معالم تنتهي إليها (فإن للعدل أمارات وتباشير) لم تعد تعتمد على الدكتاتورية والإرهاب والخوف، إنما تقوم على العدل، وأمارات العدل الحياء والهين واللين.

---

(١) زرود: موقع بطريق الحاج إلى الكوفة.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٨٥).

دخلت معانٍ جديدة في عالم العرب اليوم:

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

« **خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتُصَلّون عليهم ويُصَلّون عليكم** » (١).

« **اللهم من وَلِيَ من أمر أمتي شيئًا فشَقَّ عليهم فاشقُقْ عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به** » (٢).

ولم يكن للحياء وزن كما كان له وزن في الإسلام، فقد جعله اللّٰه تعالى خُلقه الأول « **لكل دين خلقٌ، وخلق الإسلام الحياء** » (٣)، « **والحياء كله خير** » (٤).

إنه عالم جديد تقوم عليه الأمة جعلها كلها معالم وأمارات للعدل، فلقد أصبح الهدف لدولة اللّٰه في الأرض إقامة العدل بين الخلق، وليس السيطرة بالقوة عليها، وما أحوج حزب اللّٰه إلى أن يفقه هذه المعاني وهو ينطلق ليواجه أكبر قوة عاتية في الأرض.

(وأما التباشير فالرحمة).

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وعلى المؤمنين في الأرض أن يحققوا هذه الرحمة للخلق. وهذه المعاني هي مما تلقاها الفاروق أمين اللّٰه على هذه الأمة. ففي الحديث عن سلمان الفارسي قال: « **إن اللّٰه إذا أراد بعبد هلاكًا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتًا ممقتًا، فإذا كان مقيتًا ممقتًا نزع منه الأمانة، فلم تلقه إلا خائنًا مخونًا، فإذا كان خائنًا مخونًا نزع منه الرحمة فلم تلقه إلا فظًّا غليظًّا، فإن كان فظًّا غليظًا نزع ربق الإيمان من عنقه، فإذا نزع ربق الإيمان من عنقه لم تلقه إلا شيطانًا مريدًا لعينًا ملعنًا** » (٥).

وتعود التربية من جديد لكل فرد من أفراد هذا الجيش، فبعد الحديث عن الأمارات والتباشير يأتي الحديث عن الباب والمفتاح.

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل (١٨٢٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد، باب الحياء (٤١٨١).

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب شعب الإيمان (٣٧).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/٢٠٤) بإسناد ضعيف.

فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد.

والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات، والاستعداد له بتقديم الأعمال).

فلن يُدخل إلى العدل حقيقة إلا من باب الإيمان بالله وباليوم الآخر والاستعداد للقاء الله ﷻ بتقديم الأعمال الصالحة، لكن مفتاح هذا الباب هو الزهد، فبالزهد يفتح باب العدل وما هو الزهد؟

يأتي الجواب: (أخذ الحق من كل أحد قِبَلُهُ حق، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق).

هذا هو مفتاح باب العدل، فلا بد من قلب خائف وجِلٍ من الله، مُتذكرٍ لعظمته في كل خطوة وكل نأمة.

ولن يصبح القلب بهذه الصيغة إلا بسلوك عملي، أخذ الحق لصاحبه، وتأدية الحق لصاحبه فهذه هي التي تصوغ القلب الخالص لله ﷻ.

وما بقي من العدل لم يتحقق بعد تأدية الحقوق لكل ذي حق، وأخذ الحق ممن عليه الحق (لا تصانع في ذلك أحدًا).

والشق الثاني من الزهد وهو سلوك عملي قلبي في وقت واحد، هو:

(واكتف بما يكفيك من الكفاف فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء).

إنه درس ينغرس في كل نفس تسمع هذا الكلام من أمير المؤمنين كما تغرس البذرة الطيبة، فتنبت نبتة طيبة في كل قلب، أصلُها ثابت وفرعُها في السماء: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].إنه ﷺ يريد نفوسًا تتحرك لتحقيق رسالة، لا نفوسًا تتحرك لنهم غنيمة أو سلطة. وعلى رأس هذا الجيش أحد ربانيِّي هذه الأمة، ورفيق درب الفاروق، وثالث من أسلم في هذا الوجود.

المرحلة الأولى: التجمع في زرُود:

ومن هذا البناء النفسي إلى الأوامر العسكرية لقائد الجيش:

(وأمر سعدًا بالسير وقال: إذا انتهيت إلى زَرُود فانزل بها، وتفرقوا فيما حولها واندب من حولك منهم، وانتخب أهل النجدة والرأي والقوة والعدة).

التحاق الكتائب بالطليعة:

يقول ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة عن ماهان وزياد قالوا:

وأمد عمر سعدًا بألفي يماني وألفي نجدي مؤدٍّ من غطفان وقيس، فقَدِم سعد زرود في أول الشتاء، فنزلها وتفرقت الجنود فيما حولها من أمواه بني تميم وأسد، وانتظر اجتماع الناس.

- وانتخب من بني تميم والرباب أربعة آلاف؛ ثلاثة آلاف تميمي وألف رِبِّيّ، وانتخب من بني أسد ثلاثة آلاف وأمرهم أن ينزلوا على حد أرضهم بين الحزن والبسيطة، فأقاموا هنالك بين سعد بن أبي وقاص وبين المثنى بن حارثة.

- وكان المثنى في ثمانية آلاف من ربيعة - بستة آلاف من بكر بن وائل، وألفان من سائر ربيعة - وأربعة آلاف ممن كان انتخب بعد فصول خالد، وأربعة آلاف كانوا معه ممن بقي يوم الجسر.

- وكان معه من أهل اليمن ألفان من بجيلة، وألفان من قضاعة وطيِّئ ممن انتخبوا إلى ما كان قبل ذلك، على طيئ عدي بن حاتم، وعلى قضاعة عمرو بن وبرة وعلى بجيلة جرير بن عبد اللّٰه.

- فبينا الناس على ذلك - سعد يرجو أن يقدم عليه المثنى، والمثنى يرجو أن يقدم عليه سعد - مات المثنى من جراحته التي كان جرحها يوم الجسر، انتقضت به، فاستخلف المثنى على الناس بشير ابن الخصاصية، وسعد يومئذ بزرود، ومع بشير يومئذ وجوه أهل العراق، ومع سعد وفود أهل العراق الذين كانوا قدموا على عمر منهم فرات بن حيان العجلي، وعتيبة بن النهاس، فردهم مع سعد)[1].

ونستطيع بعد هذا التجوال أن نوضح:

أعداد الجيش الذي واجه الإمبراطورية الفارسية:

٤٠٠٠ خرجوا مع سعد من المدينة.

٤٠٠٠ التحقوا بالجيش الإسلامي من اليمن ونجد.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٨٤/٢).

• ١٠٠٠ من قيس انضموا للجيش.

• ٣٠٠٠ من بني أسد من فروع الحزن انضموا للجيش.

• ٤٠٠٠ من بني تميم وأسد.

أما عدد الذين كانوا مع المثنى رحمه الله فهم:

• ٤٠٠٠ أصل جيشه الذي بقي معه حين تحرك خالد بقواته مددًا لأهل الشام.

• ٤٠٠٠ ممن بقي من الجيش الذي خاض معركة الجسر.

• ٢٠٠٠ من بجيلة وعليهم جرير بن عبد اللَّه.

• ٢٠٠٠ من قضاعة وطيِّئ وعليهم عمرو بن وبرة وعدي بن حاتم.

• ١٧٠٠ حين تحرك الجيش من زرود إلى شَرَاف، قدم على سعد الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن.

فجميع من شهد القادسية بضعة وثلاثون ألفًا، وجميع من قسم عليه فيء القادسية نحوٌ من ثلاثين ألفًا.

أما أهم الشخصيات القيادية فهم:

١ - **سعد بن أبي وقاص:** سبق أن تحدثنا عنه (ص ١٦١).

٢ - **المثنى بن حارثة:** سبق أن تحدثنا عنه (ص ١٤٩ وما بعدها)، وتوفي متأثرًا بجراحه قبل القادسية.

٣ - **جرير بن عبد اللَّه البجلي:** سبق أن تحدثنا عنه (ص ١١١).

٤ - **عرفجة بن هرثمة:** والذي كان على رأس الأزد وتحدثنا عنه (ص ١١٢ وما بعدها).

٥ - **المُعنى بن حارثة:** أخو المثنى وهو الذي ولاه على قيادة الجيش عند وفاته.

٦ - **عمرو بن معديكرب:** وسبق أن تحدثنا بالتفصيل عنه (ص ١٦٨، ١٦٩).

٧ - **شداد بن ضمعج:** لم نجد له ذكرًا في التراجم.

٨ - **أبو سبرة بن أبي ذؤيب:** لم نجد له ذكرًا في التراجم.

٩ - **أبو سبرة الجعفي:** ويشتبه بذكره دون تفصيل في الإصابة.

١٠ - **بشر بن عبد اللَّه الهلالي:** ذكره ابن حجر بالإصابة نقلًا عن الطبري واعتبره صحابيًّا لإمرته.

١١ – عدي بن حاتم الطائي: سبق وتحدثنا عنه (مجلد أبي بكر ص ٢٥٨، ٢٥٩).

١٢ – عمرو بن وبرة: أمير قضاعة، وقال عنه ابن حجر: كان رأسًا على قضاعة في أول سنة أربع عشرة ذكر ذلك سيف والطبري.

١٣ – بشير ابن الخصاصية: كان اسمه في الجاهلية زحمًا فقال له رسول اللَّه ﷺ: « **أنت بشير** » [١]... روى عن رسول اللَّه ﷺ أحاديث صالحة، روى عنه بشير ابن نهيك قال قتادة: هاجر من بكر بن وائل أربعة رجال: رجلان من بني سدوس؛ أسود بن عبد اللَّه من أهل اليمامة، وبشير ابن الخصاصية، وعمرو بن تغلب من النمر ابن قاسط، وفرات بن حيان من بني عجل) [٢] وهو الذي استخلفه المثنى على المسلمين عند وفاته.

١٤ – فرات بن حيان: لقد كان أشهر أدلاء العرب في الطريق، واختارته قريش ليمخر لها طريقًا في الصحراء عن طريق العراق بحيث لا تمر على المدينة، ولم ينس حسان بن ثابت أن يذكره في شعره يوم تخلف أبو سفيان عن موعد بدر في العام الثاني بعد أحد:

دعوا فَلَجَاتِ الشامِ قد حَالَ دونَها   جلادٌ كأفْواه الـمَخَاضِ الأوارك

بأيدي رِجال هاجَروا نَحْوَ رَبِّهِم   وأنصَارِهِ حَقًّا وأيدي الملائِكِ

فإن نَلْقَ في تَطْوافِنَا والتِماسِنا   فُرَاتَ بنَ حيانٍ يكنْ رَهْنَ هالِكِ) [٣]

(وروى سفيان الثوري عن أبي إسحاق... أن رسول اللَّه ﷺ أمر بقتله، وكان عينًا لأبي سفيان، فمر بحليف له من الأنصار، فقال: إني مسلم، فقال الأنصاري: يا رسول اللَّه إنه يقول: إني مسلم، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **إن فيكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان** » [٤].

وبعث رسول اللَّه فرات بن حيان العجلي إلى ثُمامة بن أثال في قتل مسيلمة وقتاله) [٥].

(وذكره ابن سعد في طبقة أهل الخندق... وقال المرزباني: كان ممن هجا

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز، باب المشي في الحذاء بين القبور (٣٢٣٠).

(٢) الاستيعاب في أسماء الأصحاب، ت (١٨٩).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٦٠)، مجلد واحد.

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٢٦٥٢) وصححه الشيخ الألباني.

(٥) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر، ت (٢٠٧٧)، مجلد واحد.

رسول الله ﷺ ثم مدحه، فقبل مدحه، وقال ابن حبان: وكان من أهدى الناس بالطريق... وعن عَديٍّ بن حاتم أن فرات بن حيان أسلم وفقه في دين الله، وأقطعه النبي ﷺ أرضًا باليمامة تَغلّ أربعة آلاف ومائتين) [١].

١٥ - عتيبة بن النهاس: (كان من كبار العجليين له إدراك ومشاهد في خلافة أبي بكر. قال ابن ماكولا: كان شريفًا، وكان مع خالد بن الوليد باليمامة، واستعمله على اللهازم حين سار إلى فاطمة، وكذا ذكره سيف في الفتوح وقال: من الكماة الشجعان) [٢].

١٦ - المغيرة بن شعبة الثقفي: (... أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها وبيعة الرضوان وله فيها ذكر... قال ابن سعد: كان يقال له: مغيرة الرأي، وشهد اليمامة وفتوح الشام والعراق، قال الشعبي: كان من دهاة العرب، وكذا ذكره الزهري، وقال قبيصة بن جابر: صحبت المغيرة، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالمكر لخرج المغيرة من أبوابها كلها، ولّاه عمر البصرة ففتح همدان وبيسان وعدة بلاد، إلى أن عزله لما شهد عليه أبو بكرة ومن معه) [٣].

وندع بقية القيادات إلى موقعها في المعركة.

المرحلة الثانية: التجمع في شِراف:

لقد كانت زَرْوَد منتصف الطريق تقريبًا بين المدينة والعراق، أما شِراف فكانت على حدود العراق، حيث تم وصول القوات جميعًا إليها، حتى القوة البسيطة التي مضت إلى حدود العراق الجنوبي عند البصرة، خوفًا من هجوم مفاجئ من تلك الجهة، عادت وانضمت إلى الجيش الإسلامي فقد (كان عمر قد كتب إلى سعد مُرتَحَلَهُ من زَرْوَدَ أن ابعث إلى فرج الهند رجلًا ترضاه يكون بحياله، ويكون ردءًا لك من شيء إذا أتاك من تلك التخوم. فبعث المغيرة بن شعبة في خمسمائة فكان بحيال الأبلة من أرض العرب، فأتى غُضَيًّا، ونزل على جرير وهو فيما هنالك يومئذ، فلما نزل سعد بشِراف كتب إلى عمر بمنزله، وبمنازل الناس فيما بين غُضَيٍّ إلى الجبانة فكتب إليه عمر:

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (٧١٩١).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (ص ٦٠٤٢).

(٣) المصدر نفسه، ت (٨٧٣٧).

إذا جاءك كتابي هذا فعَشِّرِ الناس، وعرِّف عليهم، وأمِّر على أجنادهم، وعبِّهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا، وقدِّرهم وهم شهود، ثم وجِّهْهُم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية، وضمَّ إليك المغيرة بن شعبة في خيله، واكتب إلي بالذي يستقر أمرهم).

ونلاحظ أن عمر ﷺ يتابع خطوات الجيش خطوة خطوة، بل يرسم الخطة كاملة بالاتفاق مع الخبراء العسكريين.

التعبئة العامة:

(فبعث سعد إلى المغيرة، فانضم إليه وإلى رؤساء القبائل، فأتوه:

- فقدَّرَ عَددَ الناس وعبأهم بشِراف.
- وأمّرَ أمراءَ الأجنادِ.
- وعرَّف العرفاء، فعرَّف على كل عشرة رجلًا كما كانت العرافات أزمان النبي ﷺ وكذلك كانت إلى أن فرض العطاء.
- وأمَّرَ على الرايات رجالًا من أهل السابقة، وعشّرَ الناس.
- وأمَّرَ على الأعشار رجالًا من الناس لهم وسائل في الإسلام.
- وولى الحروب رجالًا؛ فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورَجلِها وركبانها، فلم يفصل إلا تعبئة.
- ولم يفصل منها إلا بكتاب عمر وإذنه.

فأما أمراء التعبئة:

- فاستعمل **زهرة بن عبد الله** بن الحُوية – وكان ملك هجر قد سوده في الجاهلية، ووفده على النبي ﷺ – فقدّمه، ففصل بالمقدمات بعد الإذن من شراف حتى انتهى إلى العُذَيب.
- واستعمل على الميمنة **عبد الله بن المعتم**: وكان من أصحاب النبي ﷺ، وكان أحد التسعة الذين قدموا على النبي ﷺ، فتممهم طلحة بن عبيد الله.
- واستعمل على الميسرة **شُرحبيل بن السمط بن شرحبيل** الكندي، وكان غلامًا شابًّا، وكان قاتل أهل الردة ووفّى الله، فعُرف ذلك له، وكان قد غلب الأشعث على الشرف فيما بين المدينة إلى أن اختطت الكوفة، وكان أبوه ممن تقدم إلى الشام مع أبي عبيدة.
- وجعل خليفته **خالد بن عرفطة**.

- وجعل **عاصم بن عمرو التميمي** ثم العمري على الساقة.
- **وسواد بن مالك** على الطلائع.
- **وسلمان بن ربيعة** الباهلي على المجردة.
- وعلى الرَّجْل **حمَّالُ بن مالك** الأسدي.
- وعلى الركبان **عبد اللَّه بن ذي السهمين الخثعمي**.

فكان أمراء التعبية يلون الأمير، والذين يلون أمراء التعبية أمراء الأعشار، والذين يلون أمراء الأعشار أصحاب الرايات والقواد رؤوس القبائل، وقالوا جميعًا: لا يستعين أبو بكر في الردة ولا على الأعاجم بمرتد، واستنفرهم عمر ولم يُوَلِّ منهم أحدًا) (١).

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن... قالوا:

- (بعث عمر الأطبة.
- وجعل على قضاء الناس **عبد الرحمن بن ربيعة** الباهلي ذا النور، وجعل إليه الأقباض وقسمة الفيء.
- وجعل داعيتهم ورائدهم **سلمان الفارسي**...
- والترجمان **هلال الهجري**.
- والكاتب **زياد بن أبي سفيان**) (٢).

انضمام جيش المثنى إلى الجيش الإسلامي:

(فلما فرغ سعد من تعبيته، وعَدّ لكل شيء من أمره جماعًا ورأسًا، كتب بذلك إلى عمر، وكان من أمر سعد فيما بين كتابه إلى عمر بالذي جمع عليه الناس وبين رجوع جوابه ورحله من شِراف إلى القادسية قدوم المعنَّى بن حارثة، وسلمى بنت خصفة التميمية - تيم اللات - إلى سعد بوصية المثنى، وكان قد أوصى بها، وأمرهم أن يعجلوها على سعد بزرود، فلم يفرغوا لذلك، وشغلهم عنه قابوس بن قابوس ابن المنذر، وذلك أن الآزاذمرد بن الآزاذبه، بعثه إلى القادسية، وقال له: ادع العرب، فأنت على من أجابك، وكن كما كان آباؤك، فنزل القادسية وكاتب بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان يكاتبهم به، مقاربة ووعيدًا، فلما انتهى إلى المعنى خبره، أسرى المعنى من ذي قار حتى بيته، فأنامه

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٨٥).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٨٦).

ومن معه [١]، ثم رجع إلى ذي قار، وخرج منها إلى سعد بوصية المثنى بن حارثة ورأيه، فقدموا عليه وهو بشِراف يذكر فيها أن رأيه لسعد ألا يقاتل عدوه وعدوهم - يعني المسلمين - من أهل فارس إذا استجمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم؛ على أدنى حجر من أرض العرب، وأدنى مدرة من أرض العجم، فإن يظهر اللَّه المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وإن تكن الأخرى فاؤوا إلى فئة، ثم يكونوا أعلم بسبيلهم، وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد اللَّه الكرة عليهم.

فلما انتهى إلى سعد رأي المثنى، ووصيته ترحم عليه، وأمَّر المعَنَّى على عمله، وأوصى بأهل بيته خيرًا، وخطب سلمى فتزوجها وبنى بها.

وكان في الأعشار كلها بضعة وسبعون بدريًّا، وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة ممن شهد الفتح، وسبعمائة من أبناء الصحابة في جميع أحياء العرب. وقدم على سعد وهو بشِراف كتاب عمر بمثل رأي المثنى، وقد كتب (عمر ﷺ) إلى أبي عبيدة مع كتاب سعد ففصل كتاباهما إليهما، فأمر أبو عبيدة في كتابه بصرف أهل العراق وهم ستة آلاف، ومن اشتهى أن يلحق بهم، وكان كتابه إلى سعد: أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على اللَّه واستعن به على أمرك كله) [٢].

* * *

برز بين يدينا الآن المغيرة بن شعبة داهية العرب الأول، وذلك ضمن الخطة الكبرى التي حرص عليها الخليفة ﷺ وهي حشد كل الطاقات العربية لمواجهة أعظم إمبراطورية في الأرض.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن عمرو عن الشعبي قال: قال عمر:

واللَّه لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيسًا، ولا ذا رأي، ولا ذا شرف، ولا ذا سطة، ولا خطيبًا، ولا شاعرًا إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغُرَرِهم.

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن عمرو عن الشعبي قال: كان عمر قد

---

(١) أنامه ومن معه: قتله ومن معه.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٨٥، ٣٨٦).

كتب إلى سعد مرتحله من زرُود أن ابعث إلى فرج الهند رجلًا ترضاه يكون بحياله ويكون ردءا لك من شيء إن أتاك من تلك التخوم، فبعث المغيرة بن شعبة في خمسمائة، فكان بحيال الأبلة من أرض العرب، فأتى غضيا ونزل على جرير وهو فيما هنالك يومئذ) (١).

وغير خطة الصديق ﷺ التي كانت تقوم على منع الذين ارتدوا من دخول الجيش الإسلامي، وذلك لطبيعة الظروف الجديدة التي تحتاج إلى طاقات الأمة كلها بلا استثناء، فكان أن سمح لمن ارتد ثم أسلم بعد ذلك أن ينضم إلى الجيش الإسلامي، بكفاءته وطاقاته لكن دون أن يُوكَلَ إليهم من أمر القيادة شيء.

(وقالوا جميعًا: لا يستعين أبو بكر في الردة ولا على الأعاجم بمرتد، واستنفرهم عمر ولم يوَلِّ منهم أحدًا) (٢).

(... وبعث عمر الأطِبَّة...) (٣).

فقد بعث الاختصاصيين والخبراء في كل المجالات (... فجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، وجعل إليه الأقباض وقسمة الفيء.

- وجعل داعيتهم ورائدهم: سلمان الفارسي.
- والترجمان: هلال الهجري.
- والكاتب: زياد بن أبي سفيان).

وحدثت أحداث مهمة خلال هذه الفترة القصيرة.

أولها: كانت بتوجيه أمير المؤمنين، ببعث فصيل لجنوب العراق حتى لا يؤتى المسلمون من هذه الثغرة، وكان المغيرة بن شعبة هو الذي اختاره سعد لقيادة هذا الفصيل، وعندما تحرك سعد من زرود إلى شراف طلب منه الانضمام إليه.

وثانيها: هو محاولة فتنة داخلية بتوجيه مباشر من القيادة الفارسية، وهي تأليب قابوس بن قابوس بن المنذر ليقود حربًا ضد المسلمين، وحركت فيه شهيّة الملك بأن يعيد ملك المناذرة من جديد، وبلغت أخباره للمُعَنَّى بن حارثة أخي المثنى، فلم يمهله

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٣٨٥).

(٣) الأطِبَّة: جمع طبيب، وهو الذي يعالج الجسم والنفس كما أنه الحاذق الماهر بعمله.

حتى انقض عليه وقتله ومن معه بعد أن راح يتصل بالعرب من بني بكر بن وائل وغيرهم ليهيج الفتنة من جديد.

وثالثها: هو بعث جند العراق إلى العراق، لينضموا للجيش الإسلامي هناك، وقد تحدثنا عن هذا الأمر من قبل، حيث لم يؤمر خالد ﷺ أن يكون على رأسهم كما كان من قبل حين جاء مددًا للجبهة الشامية، وذلك لحرص أبي عبيدة ﷺ أن يكون خالد بجانبه، وكان عددهم ستة آلاف، لكنهم وصلوا على الغالب أثناء المعركة، وارتفع عدد الجيش الإسلامي إلى بضعة وثلاثين ألفًا، بعد أن كان قرابة الثلاثين ألفًا.

قيادات جديدة:

ونتابع عرض هذه القيادات بعد الستة عشر السابقين:

١٧ - زهرة بن عبد اللَّه بن قتادة بن الحوية: وكما ذكر الطبري: كان ملك هجر قد سوَّده في الجاهلية، وبعثه على رأس وفد إلى النبي ﷺ، وهو من بني تميم فرع بني سعد، وظهرت بطولته في القادسية، وعلى يده قتل أكبر قواد الفرس؛ الجالينوس.

١٨ - عبد اللَّه بن المعتم العبسي: قال الطبري عنه: كان من أصحاب النبي ﷺ وهو أحد التسعة الذين قدموا على رسول اللَّه ﷺ في وفد عبس، فتممهم رسول اللَّه طلحة بن عبيد اللَّه عشرة، وهو الذي فتح الموصل وشارك في فتح تكريت.

١٩ - شرحبيل بن السمط الكندي: قال البخاري: له صحبة... وقال ابن سعد: جاهلي إسلامي، وفد على النبي ﷺ، وأسلم، وشهد القادسية وافتتح حمص... وذكر له سيف بسنده أن سعد بن أبي وقاص استعمل شرحبيل بن السمط الكندي، وكان شابًّا، وكان قاتل في الردة، وغلب الأشعث على الشرف، وكان أبوه قدم الشام مع أبي عبيدة وشهد اليرموك، وكان من فرسان القادسية... وذكر خليفة أنه كان عاملًا على حمص نحوًا من عشرين سنة وقال أبو عمر: شهد صفين مع معاوية [١].

٢٠ - خالد بن عرفطة: العُذَرِيّ، قال عمر بن شبة في أخبار مكة: هو خالد ابن عُرْفُطَة... بن كاهل بن عبد بن عذرة، وقدم صغيرًا مكة، فحالف بني زهرة، فهو

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (٤٠٣٤).

حليف بني زهرة... وكان خالد مع سعد بن أبي وقاص في فتوح العراق، وكتب إليه عمر يأمره أن يؤمره، واستخلفه سعد على الكوفة... وعاش خالد إلى سنة ستين وقيل مات سنة واحد وستين [١].

٢١ – **عاصم بن عمرو التميمي:** أحد الشعراء الفرسان أخو القعقاع بن عمرو.

وقال سيف في الفتوح: وبعث عمر ألوية مع من ولي مع سهيل بن عدي، فدفع لواء سجستان إلى عاصم بن عمرو التميمي، وكان عاصم من الصحابة، وأنشد له أشعارًا كثيرة في فتوح العراق [٢].

٢٢ – **سواد بن مالك التميمي:** ذكره سيف في الفتوح، وأن سعد بن أبي وقاص أمَّرَه على أول سرية خرجت له، وأمَّرَه مرة أخرى على الطلائع، ثم ذكر أنه أغار لما حاصروا القادسية، فغنم ثلاثمائة دابة فأوقرها سمكًا، وأتى بها فقسمت بين المسلمين [٣].

٢٣ – **سلمان بن ربيعة الباهلي:** (مختلف في صحبته، قال أبو حاتم: له صحبة يُكْنَى أبا عبد اللَّه، وقال أبو عمر: ذكره العقيلي في الصحابة... ويقال: إنه أول من فرق بين العِتاق والهجين، فقيل له: سلمان الخيل... وقال الآجري: روى عن النبي ﷺ، وما أقل ما روي، وعن أبي وائل: اختلفت إلى سلمان بن ربيعة أربعين صباحًا فلم أجد عنده فيها خصمًا... وحديثه في صحيح مسلم من روايته عن عمر...) [٤].

٢٤ – **عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي:** وهو أخو سلمان وهو قاضي المسلمين، فهو أعلاهم كعبًا.

٢٥ – **حمال بن مالك الأسدي:** ذكر سيف في الفتوح أن سعد بن أبي وقاص أمَّرَه على الرَّجْل [٥] حين توجه إلى العراق [٦].

٢٦ – **عبد اللَّه بن ذي السهمين الخثعمي:** ذكر سيف في الفتوح أنه أمره على الركبان.

٢٧ – **سلمان الفارسي:** ويكاد يكون أعظم قادة الأمة بعد سعد بن أبي وقاص.

هذا وستَبرز قيادات جديدة تفرزها المعركة الفاصلة مع العدو.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ، ت (٢٢٦٩).

(٢) المصدر نفسه، ت (٤٥٣٣).

(٣) المصدر نفسه، ت (٣٨٨٠).

(٤) المصدر نفسه، ت (٣٥٨٥).

(٥) الرجل: الجنود المشاة.

(٦) تاريخ الطبري (٢/٣٨٥).

ونعود لتَذَكُّرِ كامل القيادات التي مرت بنا:

١ - ٢٧ قائدًا كانوا أمراء الأجناد وقادة المقدمات والمجنبات والساقة والمجردات والطلائع والرِّجْل والرُّكْبان، وقادة القبائل.

٢ - وكان في الأعشار كلها بضعة وسبعون بدريًّا.

٣ - وثلاثمائة وبضعة عشر مِمَّن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك.

٤ - وثلاثمائة ممن شهد الفتح.

٥ - وسبعمائة من أبناء الصحابة في جميع أحياء العرب.

لقد غدا كل صحابي قائدًا لأمة في ذاته، وكان هؤلاء الألف والخمسمائة مسؤولين عن قيادة وتربية جيل الخلافة الراشدة البالغ بضعة وثلاثين ألفًا.

المرحلة الثالثة: من شِراف إلى القادسية:

(... وكان كتابه إلى سعد:

١ - أما بعد، فسر من شِراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على اللَّه، واستعن به على أمرك كله.

٢ - واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير، وعدتهم فاضلة، وبأسهم شديد وعلى بلد منيع - وإن كان سهلًا - كؤود لبحوره وفيوضه ودآدئه، إلا أن توافقوا غيضًا من فيض.

٣ - وإذا لقيتم القوم أو أحدًا منهم، فابدأوهم الشد والضرب، وإياكم والمناظرة لجموعهم، ولا يخدعنّكم، فإنهم خَدَعَةٌ مَكَرة، أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم.

٤ - وإذا انتهيت إلى القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم، ولما يريدونه من تلك الآصل، وهو منزل رغيب خصيب حصين، دونه قناطر، وأنهار ممتنعة - فتكون مسالحك على أنقابها.

٥ - ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر، وحافات المدر، والجراع بينهما.

٦ - ثم الزم مكانك فلا تبرحه؛ فإنهم إذا أحسوك أنغصتهم، ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورَجِلِهم، وحدِّهم وجدهم.

٧ - فإن أنتم صبرتم لعدوكم، واحتسبتم لقتاله، ونويتم الأمانة، رجوتُ أن تُنصَروا عليهم، ثم لا يجتمع لكم مثلُهم أبدًا.

٨ - إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم.

٩ - وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل.

١٠ - حتى يأتي اللَّه بالفتح عليهم، ويرد لكم الكرة) (١).

هذه الرسالة ذات المبادئ العشرة التي حددت مكان المعركة وطبيعته، ومكامن القوة والضعف عند العدو، ومكامن القوة والضعف عند المسلمين، بعيدة عن التهويش والتهويل - وبعيدة عن الإحباط والتخذيل، وواضعة مراحل المعركة والاحتمالات المتعددة للنتائج من نصر أو هزيمة، كانت فعلًا دستورًا لقيادات المسلمين في هذه الحرب، واستطاعت هذه القيادات أن تنقل هذه الروح إلى صفوف أفراد الجيش الإسلامي قبل الالتحام مع العدو، وأثناءه وبعده، إنه جيل الصفوة الذي قاده صحابة رسول اللَّه، وكان عبء تربيته وإعداده وتفعيل طاقاته وتعبئته للمواجهة على عاتقهم. وسنرى ترجمة فقرات الرسالة على ضوء الواقع العملي.

لقد كانت هذه التعبئة الجديدة التي لم يعبئ العرب مثلها قط إلا في حرب اليرموك ضد الروم، بحيث لا يمكن أن يبقى فرد واحد كمًّا مهملًا في الجيش.

فكانت القيادات - من أدنى مستوًى إلى أعلى مستوًى - تتابع الحركة الدؤوبة لكل جندي في المعركة، وكانت هذه القيادات حسب التسلسل التنظيمي من الأعلى للأدنى:

١ - الأمير: (وهو سعد بن أبي وقاص).

٢ - نائب الأمير: (وهو خالد بن عرفطة).

٣ - أمراء التعبئة: (وهم قيادات المقدمات والمجنبات والساقة والمجردة والطلائع والرجل والركبان).

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٨٦).

٤ - أمراء الأعشار: (حيث يعتبر أمير كل عشرة عريفًا، وأمراء هؤلاء العرفاء).

٥ - أصحاب الرايات: (حيث يمثلون قبائلهم، وهم القادة الفعليون للمعركة).

٦ - رؤوساء القبائل: (وعليهم يقع عبء النصر أو الهزيمة، ولكل قبيلة رايتها).

٧ - الجنود: (الموزعون على العرفاء بحيث يكون لكل عشرة عرِّيفٌ مسؤوْلٌ عنهم، وهؤلاء هم وقود المعركة).

أمير المؤمنين يقود المعركة:

والجميع ينتهون إلى خليفة رسول الله ﷺ في المدينة الذي كان يقود الجيش ويضع الخطط وهو في المدينة.

وبعد أن حدد في الرسالة التفصيلية السابقة ذات المبادئ العشرة، عاد فاستدرك في رسالة صغيرة زمان المعركة كذلك.

(وكتب إليه باليوم الذي يرتحل فيه من شراف، فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعُذَيب القوادِس [١]، وشرِّق بالناس وغرِّب بهم) [٢].

وبعث له برسالة ثالثة والتي ركزت على أهداف المعركة، وقيم الإسلام التي ينطلق منها الجيش كله، والتربية التي يطلب من القيادات أن تربِّي الجنود عليها.

(أما بعد، فتعاهد قلبك، وحادث جنودك بالموعظة والنية والحسبة، ومن غفل فليحدثهما...).

فلا يزال القوم حديثي عهد بجاهلية، ولم تتم لهم التربية والتأهيل الكافي لخوض أعنف معركة من معارك التاريخ البشري، فلا بد من التذكير والموعظة بتصحيح النية لتكون خالصة لله، ولا بد من التذكير بالاحتساب وأنه « **من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** » [٣].

---

(١) العذيب: تصغير عذب وهو الماء الطيب، وهو ماء بين القادسية والمغيثة، بينه وبين القادسية أربعة أميال، وإلى المغيثة اثنان وثلاثون ميلًا... وكتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى سعد بن أبي وقاص: إذا كان يوم كذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوادس. وشرق بالناس وغرب بهم، وهذا دليل على أن هناك عذيبين.

(٢) معجم البلدان (٢/٩٢).

(٣) صحيح البخاري (١٢٣).

إن ما ينطلق عليه اليوم - التوجيه المعنوي - في الجيوش الحديثة، يجب أن يكون ملازمًا للتدريب العسكري، ومن أجل ذلك لم يمر الفاروق على هذين الموضوعين مرورًا عابرًا، إنما عاد فربط بين النتائج والمقدمات، فعندما تصحح النية، وتصدق الحسبة، يتم الصبر، ويقع الأجر.

(... والصبرَ الصبر، فإن المعونةَ من اللّه تأتي على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة) ثم عاد ليحذره عواقب إغفال هذا الجانب قائلًا:

(... والحذر الحذر على ما أنت عليه، وما أنت بسبيله، واسألوا اللّه العافية وأكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا باللّه...) [١].

هذا هو التوجيه المعنوي، أما الأوامر العسكرية، والحديث عن إستراتيجية الحرب فتأتي بالجزء الثاني من الرسالة:

(...

- واكتب إليَّ أين بلغ جمعهم؟
- ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم؟
- فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به قلة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم.
- وصف لنا منازل المسلمين.
- والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفه كأني أنظر إليها.
- واجعلني من أمركم على الجلية).

ثم عاد بعدها للختام بالتوجيه المعنوي، خاصة للقائد وأقرانه.

- (وخف اللّه وارجه.
- ولا تُدِلَّ بشيء.
- واعلم أن اللّه قد وعدكم.
- وتوكَّلَ لهذا الأمر بما لا خُلْفَ له.
- فاحذر أن تصرفه عنك.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٨٧).

- ويستبدل بكم غيركم) [١].

فوعد النصر من اللَّه تعالى لجنده قائم لا خلف فيه، والعبد هو الذي يصرف هذا النصر عنه بالتغيير إلى الأسوأ حتى يصل لمرحلة الاستبدال.

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١].

جواب سعد إلى أميره:

(فكتب إليه سعد بصفة البلدان:

إن القادسية بين الخندق والعتيق، وإن ما على يسار القادسية بحر أخضر في جوفٍ لاحٍ إلى الحيرة بين طريقين:

أما أحدهما فعلى الظهر.

وأما الآخر فعلى شاطئ نهر يدعى الحضوض، ويطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة.

- وما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيوض مياههم).

هذا هو الوصف الجغرافي، أما الوصف البيولوجي:

- وإن جميع مَنْ صالح المسلمين من أهل السواد قبلي ألب [٢] لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا.

- وإن الذين أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم.

- فهم يحاولون إنغاضنا [٣] وإقحامنا، ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم.

- وأمر اللَّه بعد ماضٍ، وقضاؤه مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا.

- فنسأل اللَّه خير القضاء وخير القدر في عافية) [٤].

والرسالة إجابة على كل تساؤلات أمير المؤمنين عن الزمان والمكان والناس وقيادات العدو.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٨٧/٢).

(٢) ألب القوم عليه: أتوه من كل جانب.

(٣) إنغاضنا: بث الفوضى والاضطراب في صفوفنا.

(٤) تاريخ الطبري (٣٨٧/٢).

(... فكتب إليه عمر:

قد جاءني كتابك وفهمته، فأقم مكانك حتى ينغض اللّٰه لك عدوك، واعلم أن لها ما بعدها.

- فإن منحك اللّٰه أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن.

- فإنه خرابها إن شاء اللّٰه) [١].

لقد كانت ثقة عمر ﷺ بالنصر عالية، بعد أن عرف الساحة كلها كأنه يراها من خلال رسائل سعد ﷺ وإجاباته، وقدَّر طبيعة المعركة، وأن لها ما بعدها، فهي مثل اليرموك حيث قال خالد عنها ﷺ:

(... فإن هذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها) [٢].

وكما رأينا تقويم أمير المؤمنين للمعركة: (... واعلم أن لها ما بعدها، فإن منحك اللّٰه أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء اللّٰه...).

وينتقل عمر ﷺ من ترجيح النصر إلى تأكيده.

(وكتب عمر إلى سعد:

إني قد أُلْقِي في رُوعي أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم، فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه...).

ثم يظهر من حرص عمر الفاروق ﷺ على المبادئ ما يفوق الوصف.

(... فإن لاعب أحد منكم أحدًا من العجم بأمان أو قرفه [٣] بإشارة أو بلسان فكان لا يدري الأعجمي ما كلمه به، وكان عندهم ذلك أمانًا، فأجروا ذلك له مجرى الأمان...) [٤].

فالميزان ليس قناعة المسلم، إنما قناعة الأعجمي، ولو كان فهمه خطأ، فيؤخذ بفهمه، ويُعطى الأمان الذي فهمه من الحركة أو الإشارة أو اللسان فيجري مجرى الأمان، وكما يقول عليه الصلاة والسلام: « **ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم،**

---

(١) تاريخ الطبري (٣٨٧/٢).

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٣٦).

(٣) قرفه: داناه وخالطه بإشارة أو لسان.

(٤) تاريخ الطبري (٣٨٧/٢).

فإن كان له مخرج فخلوا سبيله؛ فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة » [١].

(... والوفاءَ الوفاءَ فإن الخطأ بالوفاء بقية، وإن الخطأ بالغدر الهلكة) [٢].

والغدر عاقبته الهزيمة وانتزاع النصر من المسلمين.

(... وفيها وهنكم، وقوة عدوكم، وذهاب ريحكم، وإقبال ريحهم) [٣].

(واعلموا أني أحذركم من أن تكونوا شينًا على المسلمين، وسببًا لتوهينهم) [٤].

إلى عذيب الهجانات:

قال ابن جرير: (وكتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف، عن عبد اللّه بن مسلم العُكلي، والمقدام بن أبي المقدام عن أبيه، عن كَرِب بن أبي كَرِب العكلي - وكان في المقدمات أيام القادسية - قال:

قَدَّمَنا سعد من شِراف، فنزلنا بعُذيب الهجانات، ثم ارتحل، فلما نزل علينا بعُذيب الهجانات ذلك في وجه الصبح، خرج زهرة بن الحوية في المقدمات، فلما رُفِع لنا العذيب - وكان من مسالحهم - استبنا على بروجه ناسًا، فما نشاء أن نرى على برج من بروجه رجلًا أو بين شرفتين إلا رأيناه، وكنا في سرعان الخيل، فأمسكنا [٥] حتى تلاحق بنا كثف [٦] ونحن نرى أن فيها خيلًا، فثم أقدمنا على العذيب، فلما دنونا منه خرج رجل يركض نحو القادسية فانتهينا إليه فدخلناه فإذا ليس فيه أحد، وإذا ذلك الرجل هو الذي يتراءى لنا على البروج وهو بين الشُرَف مكيدة، ثم انطلق بخبرنا، فطلبناه فأعجزنا، وسمع بذلك زهرة فاتبعنا فلحق بنا وخلّفه واتبعه وقال: إن أفلت [٧] الربيء أتاهم الخبر، فلحقه بالخندق، فطعنه فجدله [٨] فيه.

وكان أهل القادسية يتعجبون من شجاعة ذلك الرجل، وعلمه بالحرب، لم يُرَ عين [٩] قوم قط أثبت ولا أربط جأشًا من ذلك الفارسي، لولا بعد غايته [١٠] لم يلحق

---

(١) أخرجه مسلم في الحدود باب درء الحدود (١٤٢٤).

(٢ - ٤) تاريخ الطبري (٣٨٧/٢).

(٥) أمْسَكْنا: توقفنا.

(٦) كَثْفُ: جماعة.

(٧) أفلت: نجا.

(٨) جدله: قتله.

(٩) العين: الجاسوس.

(١٠) بعد غايته: طول المسافة بينه وبين جيشه.

به ولم يصبه زهرة، ووجد المسلمون في العذيب رماحًا ونشابًا وأسفاطًا من جلود وغيرها انتفع بها المسلمون) [١].

إنه نموذج من النماذج التي ستواجه المسلمين فهم كما وصفهم عمر ﷺ (ولا يخدعنكم، فإنهم خدعة مكرة، أمرهم غير أمركم).

وهذا جاسوس بهذه الشجاعة واليقظة والجرأة، استوقف المسلمين وحال بينهم وبين دخول عذيب الهجانات، وانتظروا مددًا حتى يدخلوه إذ أوهمهم أن العذيب مليء بالمقاتلة، وليس يوجد في قصوره وشرفاته أحد إلا هو، وفر منهم فلم يتمكنوا من اللحاق به لولا ذلك القائد الفذ زهرة الذي لحق به حتى قتله، وأدرك زهرة ﷺ أن هذا الجاسوس إن لم يدرَك فقد تهلك هذه الطلائع الإسلامية كلها، لقد كان في المسلمين أندادٌ له، فالمسلمون إذن ليسوا أمام قوم غمر لا علم لهم بالحرب إنما هم تجاه جيش كسب خبرات الحروب مع الروم والمسلمين، والخبرات التي توارثها كابرًا عن كابر من تقاليد الحرب العريقة عند الفرس، ومن أجل هذا عبأ عمر ﷺ كل الطاقات العربية والإسلامية.

فما هي مهمة هذا الجاسوس الرهيب؟

ثم بث الغارات:

(ثم بث الغارات، وسرَّحهم في جوف الليل، وأمرهم بالغارة على الحيرة، وأمَّرَ عليهم بكير بن عبد اللّٰه الليثي، وكان فيها الشماخ الشاعر القيسي في ثلاثين معروفين بالنجدة والبأس فسروا حتى جازوا السيْلَحين [٢]، وقطعوا جسرها يريدون الحيرة، فسمعوا جلبة وأزفلة [٣] فأحجموا عن الإقدام، وأقاموا كمينًا حتى يتبينوا، فما زالوا كذلك حتى جازوا بهم، فإذا خيول تقدم تلك الغوغاء، فتركوها فنفذت الطريق إلى الصِّنَّين [٤] وإذا هم لم يشعروا بهم، وإنما ينتظرون ذلك العين لا يريدونهم، ولا يأبهون لهم، إنما همتهم الصِّنَّيْن، وإذا أخت (آزاذمرْد) ابن (أزاذبه) مرزبان الحيرة تزف إلى صاحب صنين - وكان من أشراف العجم - فسار معها من يبلغها مخافة ما هو دون

---

(١) تاريخ الطبري (٣٨٨/٢).

(٢) السيلحين: قرب الحيرة ضاربة في البر قرب القادسية.

(٣) أزفلة: جماعة.

(٤) الصنَّيْن: بلد كان بظاهر الكوفة وبه نهر مزارع.

الذي لقوا، فلما انقطعت الخيل عن الزواف [١] - والمسلمون كمين في النخل - وجازت بهم الأثقال، حمل بكير على شيرازاذ بن آزاذبه وهو بينها وبين الخيل، فقصم صلبه، وطارت الخيل على وجوهها، وأخذوا الأثقال وابنة آزاذبه في ثلاثين امرأة من الدهاقين ومائة من التوابع ومعهم ما لا يدرى قيمته، ثم عاج [٢] واستاق ذلك...) [٣].

أول صدام مع الفرس:

وكان أول اصطدام غير مباشر مع الفرس بعد التعبئة، وقد قُلبت كفة الميزان كلها، فبعد أن كان ذلك الجاسوس قد نفذ خطته كاملة، وكاد أن ينجح بها ويمضي لموكب بنت آزاذبة بحيث تنجو من أي اعتداء، كان لسرعة الحركة في الجيش الإسلامي دورها الذي قلب الموازين فقد قتل العين، وبُثَّتِ الغارات، ونجح الكمين نجاحًا كاملًا في مهمته، حتى غدا الموكب كله تحت السيطرة، وكان قائد الركب هو أخو آزاد شيرزاذ، وأمير الفصيل الإسلامي بكير بن عبد اللَّه الليثي هو الذي تكفل بقتل قائد الركب الفارسي، واستاقوا ابنة آزاذبه في ثلاثين امرأة من الدهاقين ومائة من التوابع، ومعهم ما لا يدرى قيمته، ثم عاج واستاق ذلك.

(... فصبح سعدًا بعذيب الهجانات بما أفاء اللَّه على المسلمين، فكبروا تكبيرة شديدة فقال سعد:

لقد كبرتم تكبيرة قوم عرفت فيهم العز.

فقسم ذلك سعد على المسلمين، فالخمس نفله، وأعطى المجاهدين بقيته، فوقع منهم موقعًا، ووضع سعد بالعذيب خيلًا تحوط الحريم، وانضم إليها حاطة كل حريم، وأمَّر عليهم غالب بن عبد اللَّه الليثي، ونزل سعد القادسية فنزل بقديس، ونزل زهرة بحيال قنطرة العتيق في موضع القادسية اليوم. وبعث بخبر سرية بكير، وبنزوله قديسًا. فأقام بها شهرًا ثم كتب إلى عمر: لم يوجه القوم إلينا أحدًا، ولم يسندوا حربًا إلى أحد علمناه، ومتى ما يبلغنا ذلك نكتب به، واستنصر اللَّه، فإنا بمنحاة دنيا عريضة؛ دونها بأس شديد، قد تقدم إلينا في الدعاء إليهم، فقال:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] [٤].

---

(١) الزواف: الصهيل والحركة.

(٢) عاج: عاد راجعًا.

(٣) تاريخ الطبري (٣٨٨/٢).

(٤) تاريخ الطبري (٣٨٨/٢).

لقد كان سعد ﷺ أحد أعمدة هذا الدين، وقد عاش وقائع الإسلام كلها، ورأى تفسير آية الفتح في هذا اللقاء القادم والزحوف الهائلة، والمسلمون مدعوون إلى ملاقاة قوم أولي بأس شديد، وليس في الساحة أولو بأس شديد أشد وأنكى وأقوى من هؤلاء حيث نستعيد كلمة خالد ﷺ:

(فعن الشعبي قال: لما فتح خالد الحيرة صلى صلاة الفتح ثماني ركعات لا يسلم فيهن، ثم انصرف وقال: لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع في يدي تسعة أسياف، وما لقيت قومًا كقوم لقيتهم من أهل فارس وما لقيت من أهل فارس قومًا كأهل أُلَّيس)[١].

* * *
* *
*

(١) تاريخ الطبري (٣١٨/٢).



الفصل الثامن

الدعوة إلى الله قبل القادسية

جند الله:

(وبعث سعد في مقامه ذلك إلى أسفل الفرات عاصم بن عمرو، فسار حتى أتى ميسان فطلب غنمًا أو بقرًا، فلم يقدر عليها، وتحصن منه مَن في الأفدان [١]، ووغلوا [٢] في الآجام، ووغل حتى أصاب رجلًا على طفِّ أجمة، فسأله واستدله على البقر والغنم، فحلف له وقال: لا أعلم؛ وإذا هو راعي ما في تلك الأجمة، فصاح منها ثور: كذب والله وها نحن هؤلاء؛ فدخل فاستاق الثيران، وأتى بها العسكر، فقسم ذلك سعد على الناس، فأخصبوا أيامًا.

وبلغ ذلك الحَجَّاج في زمانه، فأرسل إلى نفرٍ ممن شهدها؛ أحدهم نذير بن عمرو، والوليد بن عبد شمس، وزاهر، فسألهم فقالوا: نعم نحن سمعنا ذلك، ورأيناه واستقناها، فقال: كذبتم: فقالوا: كذلك إن كنت شهدتها وغِبْنا عنها، فقال: صدقتم، فما كان الناس يقولون في ذلك؟ قالوا: آية تبشير يستدل بها على رضا الله، وفتح عدونا؛ فقال: والله ما يكون هذا إلا والجمع أبرار أتقياء.

قالوا: والله ما ندري ما أجنت قلوبهم [٣]، فأما ما رأينا؛ فإنا لم نر قط أزهد في دنيا منهم، ولا أشد لها بغضًا، ما اعتُدّ على رجل منهم في ذلك اليوم بواحدة من ثلاث؛ لا بجبن ولا بغدر ولا بغُلول) [٤].

وكان هذا اليوم يوم الأباقر [٥]، وبث الغارات بين كسكر والأنبار، فحووا من الأطعمة ما كانوا يستكفون به زمانًا.

وبعث سعد عيونًا إلى أهل الحيرة، وأهل صلوبا، ليعلموا له خبر أهل فارس،

---

(١) مَن في الأفدان: الفلاحون العاملون في الأراضي.

(٢) وغلوا في الآجام: دخلوا في أعماق المزارع.

(٣) أجنت قلوبهم: أخفت قلوبهم.

(٤) الطبري (٣٨٩/٢).

(٥) يوم الأباقر: نسبة إلى البقر الذي استاقوه وأكلوه.

فرجعوا إليه بالخبر؛ بأن الملك قد ولى رستم بن الفرخزاذ الأرمني حربه، وأمره بالعسكرة فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر:

لا يكربنك ما يأتيك عنهم، ولا ما يأتونك به، واستعن بالله، وتوكل عليه، وابعث إليهم رجالًا من أهل المنظرة [١] والرأي والجلد يدعونه، فإن الله جاعلٌ دعاءهم توهينًا [٢] إليهم، وفلجًا [٣] عليهم، واكتب إليَّ في كل يوم.

ولما عسكر رستم بساباط كتبوا بذلك إلى عمر) [٤].

رأينا من قبل كيف ذلَّل الله - تعالى - بحره وبره لجنده المؤمنين، ورأينا كيف أعاد الله تعالى الإبل التي نفرت كلها إلى أصحابها بدعاء الصالحين، وعلى رأسهم قائد الجيش العلاء ابن الحضرمي ولكن الفرق بين الجيشين أن أكثرية جيش العلاء من الصحابة؛ الجيل الذي زكاه الله تعالى. بينما نجد هذا الجيش أكثريته الساحقة من جيل التابعين، ولم تتجاوز نسبة الصحابة فيه الألف مع أبنائهم الصغار، ولكنهم جند الله، وعلى رأسهم أحد الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، ومن المشهود لهم بالجنة، ومن الأفراد القلائل المجابين الدعوة، كما دعا له رسول الله ﷺ:

« **اللهم استجب لسعد إذا دعاك** » [٥].

وواحد في الأمة في فضل لا يدانيه فيه أحد؛ أن فداه رسول الله ﷺ بوالديه وقال: « **ارم سعد فداك أبي وأمي يا سعد** » كما روى علي رضي الله عنه.

عن عبد الله بن أبي شداد قال: سمعت عليًا يقول:

ما جمع رسول الله ﷺ أبويه لأحد غير سعد بن مالك، فإنه جعل يقول له يوم أحد: « **ارم فداك أبي وأمي** » [٦].

وحين أنكر الراعي أن يكون لديه شيء، وجند الله - تعالى - جاثمون لا يجدون ما يأكلونه أنطق الله - تعالى - الثور، وكذّب الراعي، واستاقوا الثيران وذبحوها،

---

(١) أهل المنظرة: من إذا نظرت إليهم أعجبوك وهبتهم. (٢) توهينًا: تضعيفًا

(٣) فلجًا عليهم: نصرًا عليهم. (٤) تاريخ الطبري (٣٨٨/٢).

(٥) أخرجه الترمذي، في المناقب، باب مناقب سعد بن أبي وقاص (٣٧٥٢) وهو صحيح.

(٦) رواه مسلم، في الفضائل، باب في فضل سعد بن أبي وقاص (٢٤١١)، والبخاري، في المغازي، باب إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا (٣٨٣٣).

وكانت مأدبة ربانية لحزب اللَّه، جعل اللَّه - تعالى - الثور المسباق للذبح يرحب بها.

كان بالإمكان أن يتم الأمر بدون كرامة ربانية لهذا الجيش، كما كان يتم كل يوم، وتُشن الغارات على العدو، ويتم الأمر بالجهد البشري، لكن هذا الجيش بحاجة إلى إشارة أو علامة من رب العزة - جل جلاله - أن ربه راضٍ عنه، وقد تجمع من أقصى الأرض ليجاهد في سبيل اللَّه، وأسلم للَّه دون معجزات، إنما دعاه الداعي فأجاب، وعشرات الألوف منهم جاءهم صحابي فخبرهم فصدقوا وآمنوا واتبعوا، وهم مقدمون على لقاء أعظم قوة في الأرض. وما ذكر عن توثيق الحجاج للخبر، واستدعاء الشهود بأسمائهم، وشهادتهم على ذلك، والرد القوي على الحجاج حين قال لهم: كذبتم، فقالوا: كذلك إن كنتَ شهدتها وغبنا عنها. فقال: صدقتم، فما كان الناس يقولون في ذلك.

وكان هذا هو تفسيرهم لهذا الأمر: آية تبشير يستدل بها على رضاء اللَّه وفتح عَدونا، وكان الحجاج فقيهًا في الحروب وفقيهًا في الرجال، ورأى أن مثل هذه الآية لا تتم إلا لجيش قد تجاوز القنطرة في إيمانه وتقواه.

فقال لهم: واللَّه ما يكون هذا إلا والجمع أبرار أتقياء.

وصدق الحجاج، ورضي اللَّه تعالى عن الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [الأنفال: ٧٥].

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ (بعد المهاجرين والأنصار) يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

ما هي مواصفات هذا الجمع بشهادة واحد منهم؟

خمس خصال أهّلتهم لأن يكونوا أهلاً لنصر اللَّه وعونه:

الخصلة الأولى: « لم نر قط أزهد في دنيا منهم ».

وهذه سمعة قد لا تتكرر في التاريخ بعد هذا الجيل. إنه قد يوجد مجموعة من الأمة.

وهي العصابة الظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتي أمر اللَّه، لكنها تبقى طائفة أو عصابة من الأمة، لكن أن يكون الجيش الذي اشتركت فيه الأمة من كل صقع ومن كل عشيرة، أن يكون جيش الأمة كله على هذا المستوى، فهذا لا نجده إلا في هذه الأجيال الثلاثة: جيل الصحابة، وجيل التابعين، وجيل تابع التابعين: « **خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم... ثم يخلف من بعدهم خلف تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته** » (١).

وفي رواية: « ... **ثم يكون من بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن** » (٢).

وهذا الجيل مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالنصر:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **يأتي على الناس زمان يغزو فئام من الناس، فيقال لهم: هل فيكم من رأى رسول اللَّه ﷺ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب رسول اللَّه ﷺ. فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب من صحب رسول اللَّه ﷺ، فيقولون: نعم، فيفتح لهم** » (٣).

فالزهد في الدنيا مستوًى لا يوجد إلا عند الربانيين في هذه الأمة.. هو السمة الأولى في هذا الجيش الإسلامي، وكم الفرق هائل والبون شاسع بين الحروب التي كان هدفها الغنيمة، والغنيمة فقط، والشهرة مع الغنيمة وكانت سمة الجيوش العربية خلال القرون البائدة، وبين جيش تربى على يد محمدٍ وأصحابه سمته الأولى هي الزهد في الدنيا.

(فإنا لم نر قط أزهد في دنيا منهم).

« **ازهد في الدنيا يحبَّك اللَّه، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس** » (٤).

وكان نُطق هذا الثور إشارة على حب اللَّه لهم.

---

(١) أخرجه مسلم، في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه مسلم، في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٢٥٣٥).

(٣) أخرجه مسلم، في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٢٥٣٥).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٩٨٢).

الخصلة الثانية: « ولا أشد لها بغضًا »:

فالزهادة في كثير من الأحيان ضبط وكبت عما يحبه الإنسان، وترويض لنهي النفس عن الهوى، ولا شك أن الزهادة مع الحب، تعني الانضباط الكامل والطاعة التامة، لكن أن يستمر هذا الضبط وهذا الضغط وهذا الترويض حتى يتحول الحب بغضًا فهذا أفق أعلى من الأفق الأول، فكانت الخصلة الثانية ثمرة التربية والمعاناة، وثمرة الجهد والمجاهدة والصبر والمصابرة أن يصل الإنسان إلى تمام الإيمان: « **لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به** »[1].

فانقلب حب الدنيا زهادة فيها، ثم بغضًا لها، وكانوا هم القمة في ذلك: « ولا أشد لها بغضًا ». ومن أين عرفوا ذلك؟ فهم لا ينقبون عن القلوب، إنما يتحرون من المظاهر التي تكشف عما في القلوب وكما قال الشهود وصدقوا: (والله ما ندري ما أجنت قلوبهم، فأما ما رأيناه فإنا لم نر قط أزهد في دنيا منهم ولا أشد لها بغضًا منهم).

الخصلة الثالثة: « وما اعتدَّ على رجل منهم في ذلك اليوم بواحدة من ثلاث: لا بجبن... ». ولا عار عند العرب في الجاهلية كعار الجبن فكيف الإسلام؟

لقد قال عمرو بن وُدٍّ الطريري بطل قريش الذي قتله علي رضي الله عنه وهو يتحدى المسلمين:

ولـقـدْ بُـحْـحْـتَ مِـنَ الـنَـدا ... ءِ بجمْعكُم هَلْ مِنْ مُبَارِزْ
ووقـفْـتُ إذْ جَـبَنَ المشـجَّـعُ ... مـوقِـفَ الـقَـرنِ المنـاجِـزْ
وكــذاكَ إنــي لــم أزلْ ... مـتـسَـرِّعًـا قـبـلَ الـهـزَاهِـزْ
إنَّ الـشـجـاعـةَ فِي الـفـتـى ... والجودَ مِنْ خيرِ الغَرَائز)[2]

ومن أكبر العار عند العرب وصف الرجل بالجبن وتعييره به، فهو عار يحمله إلى أولاده مَنْ بعده. (وألقى عكرمة بن أبي جهل رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو (بعد أن قتله علي بن أبي طالب) فقال حسان بن ثابت:

فَـرَّ وأَلْـقَـى لَـنَـا رُمْـحَـهُ ... لَـعَـلَّـكَ عِـكْـرِمَ لَمْ تَـفْـعَـلِ
وَوَلَّيْتَ تَعْدُو كَعَدْوِ الظَّلِيمِ[3] **... مَـا إنْ تَجُـورُ عَـنِ المعْـدِلِ**

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥)، صححه النووي في الأربعين وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) الروض الأنف للسهيلي (٢٧٩/٣/٢).
(٣) الظليم: ذكر النعام.

ولَمْ تَلْقَ ظَهْرَكَ مُسْتَأنِسًا كأنَّ قَفاكَ قَفا فُرْعُلِ [(١)]) [(٢)]

ولذلك عُيّر المنافقون بالجبن في القرآن كما وصفهم اللَّه تعالى: ﴿ ... فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [محمد: ٢٠].

وكان الفرار من الزحف من الكبائر التي يعاقب صاحبها بالنار: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦]. وكان إذن من صفات هذا الجيش الشجاعة، ولم يذكر موقف جبن لواحد منهم.

فما هو هذا الجيش وما هو تركيبه، وهو يقف ليواجه أقوى قوة عاتية في الأرض، دون أن يبرز موقف جبن من واحد منه؟؟

الخصلة الرابعة: « .. ولا بغدر.. »:

والوفاء صفة أصيلة عند العرب، لكن كثيرًا ما يقع الغدر منهم إن رأى أنه له مصلحة في ذلك ولا تُؤْثَرُ عنه هذه الغدرة، أما هذا الجيش فلم يؤثر عن واحد منه موقف غدر، بينما كانت سمات المنافقين الأربع منها: « ... **وإذا عاهد غدر** » [(٣)].

وعندما تبارى عامر بن الطفيل بالمآثر مع ابن عمه ومنافسه علقمة بن علاثة وذلك في الجاهلية (قال عامر: واللَّه لأنا أركب منك في الحماة، وأقتل منك للكماة، وخير منك للمولى والمولاة. فقال له علقمة: واللَّه إني لَبَرٌّ وإنك لفاجر، وإني لَوفيّ وإنك لَغادر، ففيم تفاخرني يا عامر؟) [(٤)].

الخصلة الخامسة: « ولا بغلول »:

وهذا الغلول لم يكن في الجاهلية مذمومًا كما كان في الإسلام، والغلول هو الأخذ من المغانم قبل توزيعها، أو حبس الحقوق عن الناس، والاستئثار بها. وأكد القرآن الكريم أن الغلول لا يمكن أن يكون من صفات الأنبياء: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ

---

(١) الفرعل: ولد الضبع. (٢) السيرة النبوية لابن هشام (١٢٦/٢).
(٣) أخرجه البخاري، باب علامة المنافق، كتاب الإيمان (٣٤).
(٤) الأغاني للأصفهاني (٥٣/١٥).

بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦١].

الأسباب المباشرة لاستنفار الفريقين:

١ - (وبثَّ سعد الغارات بين كسكر والأنبار، فحووا من الأطعمة ما كانوا يستكفون به زمانًا...) [1].

٢ - (... وبعث سعد عيونًا إلى أهل الحيرة وأهل صلوبا ليعلموا له خبر أهل فارس) [2].

٣ - (... وكانوا إنما يقرمون [3] إلى اللحم، فأما الحنطة والشعير والتمر والحبوب، فكانوا قد اكتسبوا منها ما اكتفوا به لو أقاموا زمانًا، فكانت السرايا إنما تسري للحوم، ويسمون أيامها بها، ومن أيام اللحم يوم الأباقر [4] ويوم الحيتان، وبُعث مالك بن ربيعة بن خالد التيمي - تيم الرباب - ثم الوائلي، ومعه المساور ابن النعمان التيمي، ثم الربيعي في سرية أخرى، فأغاروا على الفيوم [5]، فأصابوا إبلًا لبني تغلب والنمر، فشلاها [6] ومن فيها، فغدوا بها على سعد، فَنُحِرت الإبل في الناس، وأخصبوا.

وأغار على النهرين [7] عمرو بن الحارث، فوجدوا على باب ثوراء مواشي كثيرة فسلكوا أرض شيلى - وهي اليوم نهر زياد - حتى أتوا بها العسكر.

وقال عمرو: (أحد الرواة) ليس بها يومئذ إلا نهران، وكان بين قدوم خالد العراق ونزول سعد القادسية سنتان وشيء، وكان مُقام سعد بها شهرين وشيئًا حتى ظفر...

٤ - قال ابن جرير: كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وعمرو بإسنادهم، قالوا: وعج أهل السواد إلى يزدجرد بن شهريار، وأرسلوا إليه أن

(١، ٢) تاريخ الطبري (٣٨٩/٢). (٣) القرم: شدة الشهوة إلى اللحم.

(٤) الأباقر: نسبة إلى البقر، وكان اليوم الذي سبق ذكره عند نطق الثور، واستاق المسلمون الثيران جميعًا.

(٥) الفيوم: هي في موضعين أحدهما بمصر، والآخر موضع قريب من هيث في العراق، وهو المقصود هنا.

(٦) فشلاها ومن فيها: فأخذاها بمن فيها.

(٧) النهرين: أي ما بين النهرين في الأنبار كما يقول صاحب أطلس الخليفة عمر بن الخطاب (ص ٧٦): « سعد بن أبي وقاص يبعث عمرو بن الحارث الفِهري إلى جهة الأنبار، حيث استولى على مواشٍ كثيرة عاد بها إلى القادسية ».

العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه إلا الحرب، وإن فِعل العرب مذ نزلوا القادسية لا يبقى عليه شيء، وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات، وليس فيما هنالك أنيس [1] إلا الحصون، وقد ذهب الدواب وكل شيء لم تحتمله الحصون من الأطعمة ولم يبق إلا أن يستنزلونا، فإن أبطأ عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا، وكتب إليه بذلك الملوك الذين لهم الضياع بالطف، وأعانوهم عليه وهيجوه على بعثة رستم) [2].

ولاية رستم للقيادة:

لقد كان نظير رستم عند الفرس خالد بن الوليد عند العرب الذي اهتز لاسمه الخافقان من العرب والروم والعجم، ولم تكن جرأة الفرس لتزداد أو تبعث لو بقي خالد ﷺ على الجبهة العراقية. وكما تحرك عمر الفاروق ﷺ لمواجهة إمبراطورية الفرس ابتداء بشخصه ليكون على رأس الجيش - ثم نصحه أولو الرأي أن يبقى في المدينة ويبعث الجيش تلو الجيش، وأخذ برأيهم، فإن هذا الرأي كان هو رأي رستم أن لا يكون على قيادة الجيش، بل يبعث من هو أدنى منه، ويتابع إرسال الجيوش؛ لأن هزيمة رستم هي هزيمة الفرس الماحقة، فما من قائد أكفأ منه، وبذلك تبقى الجذوة مشتعلة والمعنويات عالية.

(لما بدا ليزدجرد أن يرسل رستم أرسل إليه، فدخل عليه فقال له: إني أريد أن أوجهك هذا الوجه، وإنما يعد للأمور على قدرها، وأنت رجل أهل فارس اليوم، وقد ترى ما جاء أهل فارس من أمر لم يأتهم مثله منذ ولي آل أردشير.

فأراه أنه قد قبل منه وأثنى عليه.

فقال له الملك: قد أحب أن أنظر فيما لديك لأعرف ما عندك، فصف لي العرب وفعلهم منذ نزلوا القادسية، وصف لي العجم وما يلقون منهم.

فقال رستم: صفة ذئاب، صادفت غرة من رعاء [3] فأفسدت.

فقال (يزدجرد): ليس كذلك، إني إنما سألتك رجاء أن تعرب صفتهم فأقويك لتعمل على قدر ذلك فلم تصب، فافهم عني: إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عُقاب أوفى على جبل يأوي إليه الطير بالليل، فتبيت في سفحه في أوكارها،

---

(١) أنيس: كل مأنوس به.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٩٣).

(٣) غرة من رعاء: غفلة من الذين يرعون الغنم.

فلما أصبحت تجلت الطير، فأبصرته يرقبها، فإن شذ منها شيء اختطفه، فلما أبصرته الطير لم تنهض من مخافته، وجعلت كلما شذ منها طائر اختطفه.

فلو نهضت نهضة واحدة ردَّته، وأشد شيء يكون في ذلك أن تنجو كلها إلا واحدًا، وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلا هلكت، فهذا مثلهم ومثل الأعاجم، فاعمل على قدر ذلك...) [١].

لقد لخص يزدجرد نظريته العسكرية بخوض المعركة الفاصلة ضد العرب بتعبئة كل ما لديه من طاقات، وكانت هذه النظرية معاكسة تمامًا لنظرية رستم، وكان لا بد له أن يعرض نظريته على الملك كائنة ما كانت النتائج فقال له:

(أيها الملك! دعني، فإن العرب لا تزال تهاب العجم ما لم تضرهم بي، ولعل الدولة أن تثبت بي فيكون الله قد كفى، ونكون قد أصبنا المكيدة، ورأي الحرب؛ فإن الرأي فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر.

فأبى عليه، وقال له: أي شيء بقي!

فقال رستم: إن الأناة في الحرب خير من العجلة، وللأناة اليوم موضع، وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة، وأشد على عدونا.

فلجَّ وأبى، فخرج حتى ضرب عسكره بساباط، وجعلت تختلف إلى الملك الرسل ليرى موضعًا لإعفائه وبعثة غيره، ويجتمع إليه الناس... ولما كثرت الاستغاثة على يزدجرد من أهل السواد على يد الأزاذ مرد بن الأزاذ به جشعت نفسه، واتقى الحرب برستم، وترك الرأي - وكان ضيِّقًا لجوجًا - فاستحث رستم، فأعاد عليه رستم القول، وقال:

أيها الملك لقد اضطرني تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها، ولو أجد من ذلك بدًّا لم أتكلم به، فأنشدك الله في نفسك وأهلك وملكك.

دعني أقم بعسكري، وأسرِّح الجالينوس؛ فإن تكن لنا فذلك، وإلا فأنا على رجل وأبعث غيره - حتى إذا لم نجد بدًّا ولا حيلة صبرنا لهم؛ وقد وهَّناهم وحسرناهم، ونحن جامون، فأبى إلا أن يسير) [٢].

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٢٩٣).

تعبئة رستم:

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن النضر بن السري الضبي عن ابن الرفيل عن أبيه قال: لما نزل رستم بساباط، وجمع آلة الحرب وأداتها بعث على مقدمته الجالينوس بأربعين ألفًا، وقال: ازحف زحفًا، ولا تنجذب إلا بأمري. واستعمل على ميمنته الهرمزان، وعلى ميسرته مهران بن بهرام الرازي، وعلى ساقته البيرزان. وقال رستم ليشجع الملك: إن فتح اللّٰه علينا القوم فهو وجهنا إلى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في أصلهم وبلادهم إلى أن يقبلوا المسالمة أو يرضوا بما كانوا يرضون به) [١].

فالخطة المقابلة إذن هي الهجوم الفارسي الذي لا ينتهي دون احتلال المدينة، وإنهاء الإسلام وأهله، وإخضاعهم إلى دولة فارس، وذلك مقابل الخطة الإسلامية التي تدعو سعدًا وجيشه إلى الزحف نحو المدائن عاصمة الفرس إن انتصروا في معركة القادسية.

توجيهات الخليفة:

١ - (... وبعث سعد عيونًا إلى أهل الحيرة، وإلى صلوبا، ليعلموا له خبر أهل فارس، فرجعوا إليه بالخبر، بأن الملك قد ولى رستم بن الفرخذاذ الأرمني حربه، وأمره بالعسكرة، فكتب بذلك إلى عمر. فكتب إليه عمر: لا يكربنك [٢] ما يأتيك عنهم، ولا ما يأتونك به، واستعن باللّٰه وتوكل عليه، وابعث إليه رجالًا من أهل المنظرة [٣] والرأي والجلد يدعونه، فإن اللّٰه جاعل دعاءهم توهينًا [٤] لهم وفلجًا [٥] عليهم، واكتب إليَّ في كل يوم. ولما عسكر رستم بساباط كتبوا بذلك إلى عمر).

٢ - (... لما بلغ سعدًا فصول رستم إلى ساباط، أقام في عسكره لاجتماع الناس؛ فأما إسماعيل فإنه قال: كتب إليه سعد أن رستم قد ضرب عسكره بساباط دون المدائن وزحف إلينا.

وأما أبو ضمرة فإنه قال: كتب إليه أن رستم قد عسكر بساباط، وزحف إلينا

---

(١) تاريخ الطبري (٢٩٤/٢). (٢) لا يكربنك: لا يحزننك.

(٣) أهل المنظرة: من إذا نظرت إليهم أعجبوك وهِبتَهم. (٤) توهينًا: تضعيفًا.

(٥) فلجًا عليهم: ظفرًا عليهم.

بالخيول والفيول وزهاء فارس، وليس شيء أهم إلي ولا أنا له أكثر ذكرًا مني لما أحببت أن أكون عليه، ونستعين بالله، ونتوكل عليه، وقد بعثت فلانًا وفلانًا وهو ما وصفت.

٣ - كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن عمرو والمجالد بإسنادهما، وسعيد بن المرزبان، أن سعد بن أبي وقاص حين جاءه أمر عمر فيهم، جمع نفرًا عليهم نجار [١]، ولهم آراء، ونفرًا لهم منظر، وعليهم مهابة ولهم آراء.

فأما الذين عليهم نجار ولهم آراء ولهم اجتهاد، فالنعمان بن مقرّن، وبسر ابن أبي رهم، وحملة بن جوبة الكناني، وحنظلة بن الربيع التميمي، وفرات بن حيان العجلي، وعدي بن سهيل، والمغيرة بن النباش بن حبيب.

وأما من لهم منظر لأجسامهم وعليهم مهابة ولهم آراء، فعطارد بن حاجب، والأشعث بن قيس، والحارث بن حسان، وعاصم بن عمرو، وعمرو بن معديكرب، والمغيرة بن شعبة، والمعنَّى بن حارثة فبعثهم دعاة إلى الملك).

رجالات الوفد:

هذا الوفد العظيم المنتخب من أكرم البيوتات العربية، وهم رموز للأمة العربية من كل أصقاع الجزيرة سبق أن تحدثنا عن خمسة منهم **ونتابع الحديث عن التسعة الباقين:**

٢٨ - النعمان بن مقرن المزني: وهو رئيس أعظم وفد قدم المدينة، وفد مزنية، أربعمائة رجل، جاؤوا جميعًا مسلمين، وهو القائل: « قدمنا على رسول الله ﷺ في أربعمائة من مزينة » [٢]. وهو ثامن ثمانية من إخوته، كلهم أسد وقادة يجاهدون في سبيل الله.

قال مصعب: « هاجر النعمان بن مقرن ومعه سبعة إخوة له » [٣].

وهذا الذي حدا بعبد الله بن مسعود أن يتحدث عن بيوت الإيمان، وعن بيوت النفاق يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: « إن للإيمان بيوتًا، وإن للنفاق بيوتًا، وإن بيت

---

(١) لهم نجار: لهم أصل وحسب.

(٢، ٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ت (٢٥٨٩)، مجلد واحد.

بني مَقرِّن من بيوت الإيمان » [١] وأتت مرحلة انتهت له القيادة العامة للجيش.

(... وقدم المدينة بفتح القادسية، وورد على عمر حينئذٍ اجتماع أهل أصبهان وهمذان والري، وأذربيجان، ونهاوند، فأقلقه ذلك، وشاور أصحاب النبي ﷺ فقال له علي بن أبي طالب: ابعث إلى أهل الكوفة فيسير ثلثاهم، ويبقى ثلثهم على ذراريهم، وابعث إلى أهل البصرة »، قال: فمن أستعمل عليهم، أشر علي؟

قال: أنت أفضلنا رأيًا، وأعلمنا.

قال: لأستعملن عليهم رجلًا يكون لها.

فخرج إلى المسجد، فوجد النعمان بن مقرن يصلي فيه، فسرَّحه وأمَّره، وكتب إلى أهل الكوفة بذلك) [٢].

٢٩ – بسر ابن أبي رهم: وهو أبو سبرة القرشي العامري (هاجر الهجرتين جميعًا في قول ابن إسحاق والواقدي، زوجته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، وشهد أبو سبرة بدرًا وأحدًا، وسائر المشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ، أمه برة بنت عبد المطلب، وقد اختُلِف في هجرته إلى الحبشة ولم يختلف في أنه شهد بدرًا... وقال الزبير: لا نعلم أحدًا من أهل بدر رجع إلى مكة فنزلها غير أبي سبرة، وولده ينكرون ذلك، وتوفي أبو سبرة في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه) [٣].

٣٠ – حملة ابن أبي معاوية الكناني: واسم أبي معاوية: جوبة، قال عنه ابن حجر في الإصابة: (حملة ابن أبي معاوية الكناني، أحد الخمسة الذين أنفذهم سعد ابن أبي وقاص يدعون يزدجرد إلى الإسلام. ذكره سيف) [٤].

٣١ – حنظلة بن الربيع التميمي: (يقال له حنظلة الكاتب، وهو ابن أخي أكثم ابن صيفي. روى عن النبي ﷺ، وكتب له، وأرسله إلى أهل الطائف فيما ذكر ابن إسحاق وشهد القادسية، ونزل الكوفة، وتخلَّف عن علي يوم الجمل، ونزل قرقيسياء حتى مات في خلافة معاوية، ويقال: إن الجن لما مات رثته، وفي موته تقول امرأته في أبيات:

(١، ٢) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر، ت (٢٥٨٩).

(٣) الاستيعاب في أسماء الأصحاب، ت (٢٩٦١).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٢٠٨٤).

إنَّ سَـوادَ الـعَـيْنِ أوْدَى بـهِ   حُزْنِي علَى حَنْظَلَةَ الكاتبِ) [١]

٣٢ - عدي بن سهيل.

٣٣ - المغيرة بن النباش.

٣٤ - عطارد بن حاجب التميمي: (وفد على النبي ﷺ، واستعمله على صدقات بني تميم، ثبت ذكره في الصحيح، وروى الطبراني من طريق محمد بن زياد الجمحي عن عبد الرحمن بن عمرو بن معاذ، عن عطارد بن حاجب: أنه أهدى إلى النبي ﷺ ثوب ديباج كسرى أهداه إياه كسرى فدخل أصحابه، فقالوا: نزل عليك من السماء؟! قال: « **وما تعجبون؟! لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا...** » [٢].

قال أبو عبيدة: وكان حاجب بن زرارة يقال له ذو القوس، وذلك أن رسول اللّه ﷺ لما دعا على مضر بالقحط فأقحطوا، ارتحل حاجب إلى كسرى فسأله أن يأذن له أن ينزل حول بلاده، فقال: إنكم أهل غدر، فقال: أنا ضامن، فقال: ومن لي بأن تفي؟ قال: أرهنك قوسي، فأذن لهم في دخول الريف، فلما استسقت مضر بالنبي ﷺ دعا اللّه فرفع عنهم القحط، وكان حاجب مات، فرحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه، فردها عليه، وكساه حلة... وارتد عطارد بن حاجب بعد النبي ﷺ مع من ارتد من تميم، وتبع سجاح، ثم عاد إلى الإسلام وهو الذي قال فيها:

أَضْحَتْ نَبِيَّتُنَا أُنْثَى نُطِيفُ بِهَا   وأصْبَحَت أنبياءُ الناسِ ذُكْرَانا

فلعْنَةُ اللّهِ ربِّ الناسِ كلِّهِمِ   على سجاحٍ ومَنْ بالكفرِ أغْوانا) [٣]

٣٥ - الأشعث بن قيس: هو الأشعث بن قيس بن معديكرب الكندي. قال ابن سعد: وفد على النبي ﷺ سنة عشر في سبعين راكبًا من كندة، وكان من ملوك كِندة، وهو صاحب مرباع حضرموت، قاله ابن الكلبي.

وأخرج البخاري ومسلم حديثه في الصحيح... وكان الأشعث قد ارتد فيمن ارتد من الكنديين وأُسِر، فأُحضر إلى أبي بكر، فأسلم، وزوجه أخته أم فروة في قصة طويلة... وقال الطبراني... عن قيس بن أبي حازم:

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٢١٢٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨/١٥).

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٦٢٥٧).

لما قدم بالأشعث أسيرًا على أبي بكر أطلق وثاقه، وزوَّجه أختَه، فاخترط سيفه ودخل سوق الإبل، فجعل لا يرى جملًا ولا ناقة إلا عرقبه، فصاح الناس: كفر الأشعث، فلما فرغ طرح سيفه، وقال: إني واللَّه ما كفرت، ولكن زوَّجني هذا الرجل أخته، ولو كنا في بلادنا كانت وليمة غير هذه، يا أهل المدينة كلوا ويا أصحاب الإبل تعالوا خذوا شرواها.

ثم شهد الأشعث اليرموك بالشام، والقادسية وغيرها بالعراق، وسكن الكوفة وشهد مع علي صِفين، وله معه أخبار.

قال خليفة وأبو نعيم وغير واحد: مات بعد قتل عليٍّ بأربعين ليلة، وصلى عليه الحسن بن علي. وقيل: مات سنة اثنتين وأربعين) [١].

٣٦ - الحارث بن حسان: (ويقال: ابن يزيد البكري الذهلي. روى له أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وفي بعض طرق حديثه أنه وفد على النبي ﷺ، وروى عنه أبو وائل وسماك بن حرب. وقال البغوي: كان يسكن البادية.

روى الطبراني من طريق سماك بن حرب قال: تزوج الحارث بن حسان، وكانت له صحبة، وكان الرجل إذا عرس تَخدَّر [٢] أيامًا، فقيل له في ذلك، فقال: واللَّه إن امرأة تمنعني صلاة الغداة في جمع لامرأة سوء. وفي حديث أن قدومه كان أيام بعث رسول اللَّه ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل، ووقفتُ في الفتوح أن الأحنف لما فتح خراسان بعث الحارث بن حسان إلى سرخس، فكأنه هذا) [٣].

توزيع هذا الوفد من جديد:

لقد كان التوزيع الأول كما أمر عمر رضي الله عنه:

١ - قوم عليهم نجار، ولهم آراء.

٢ - قوم لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٣١٩).

(٢) أي يمكث أياما في البيت لا يخرج منه.

(٣) المصدر نفسه، ت (١٤٣٣).

ولكن التوزيع الثاني كان على أشراف العرب في كل صقع، فقد شارك أشراف ربيعة ومضر من عدنان، وأشراف من قحطان.

أما أشراف مضر من عدنان فهم:

١ - النعمان بن مقرِّن المزني.

٢ - بسر بن أبي رهم الكناني.

٣ - حملة بن جوية الكناني.

٤ - حنظلة بن الربيع التميمي.

٥ - المغيرة بن النباش الأسدي.

٦ - المغيرة بن شعبة الثقفي.

٧ - عطارد بن حاجب التميمي.

٨ - عاصم بن عمرو التميمي.

وأشراف ربيعة من عدنان هم:

٩ - فرات بن حيان العجلي.

١٠ - عدي بن سهيل.

١١ - الحارث بن حسان الذهلي الشيباني.

١٢ - المعنَّى بن حارثة الشيباني.

ومن أشراف قحطان واليمن:

١٣ - عمرو بن معديكرب الزبيدي.

١٤ - الأشعث بن قيس الكندي.

وكان التوزيع الثالث على أصقاع الجزيرة العربية على الشكل التالي:

أ - الحجاز:

١ - بسر بن أبي رهم الكناني.

٢ - حملة بن جوية الكناني.

٣ - المغيرة بن شعبة الثقفي.

ب - نجد:

٤ - حنظلة بن ربيعة التميمي.

٥ - عطارد بن حاجب التميمي.

٦ - عاصم بن عمرو التميمي.

جـ - شمالي الجزيرة:

٧ - المغيرة بن النباش الأسدي.

٨ - النعمان بن مقرن المزني.

د - البحرين وشرقي الجزيرة:

٩ - فرات بن حيان العجلي.

١٠ - الحارث بن حسان الشيباني.

١١ - المعنَّى بن حارثة الشيباني.

هـ - اليمن وجنوب الجزيرة:

١٢ - عمرو بن معديكرب الزبيدي.

١٣ - الأشعث بن قيس الكندي.

ولْنَمْضِ الآن مع الوفد إلى يزدجرد.

الوفد عند يزدجرد:

قال ابن جرير: (وكتب إليَّ السري، عن شعيب عن سيف عن عمرو بن محمد، عن الشعبي، وطلحة بن المغيرة قالوا: فخرجوا من العسكر حتى قدموا المدائن احتجاجًا [(١)] ودعاة ليزدجرد، فَطَوَوْا رستم حتى انتهوا إلى باب يزدجرد، فوقفوا على خيول عروات، معهم جنائب [(٢)] وكلها صهال، فاستأذنوا فحبسوا، وبعث يزدجرد إلى وزرائه ووجوه أرضه يستشيرهم فيما يصنع بهم، ويقوله لهم، وسمع بهم الناس،

---

(١) احتجاجًا: لإقامة الحجة على كسرى.

(٢) جنائب: خيل يقودها الفرسان بجانبهم دون أن يركبوها.

فحضروهم ينظرون إليهم، وعليهم المقطعات والبرود، وفي أيديهم سياط دقاق [١]، وفي أرجلهم النعال فلما اجتمع رأيهم أذن لهم فأُدخلوا عليه.

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن طلحة عن بنت كيسان الضبية، عن بعض سبايا القادسية ممن حسن إسلامه،وحضر هذا اليوم الذي قدم فيه وفود العرب، قال: وثاب الناس ينظرون إليهم، فلم أر عشرة يعدلون في الهيئة بألف غيرهم وخيلهم تخبط ويوعد بعضها بعضًا، وجعل أهل فارس يسوؤهم ما يرون من حالهم وحال خيلهم، فلما دخلوا على يزدجرد أمرهم بالجلوس، وكان سيِّئ الأدب فكان أول شيء دار بينه وبينهم أن أمر الترجمان بينه وبينهم فقال: سلهم ما يسمون هذه الأردية؟ فسأل النعمان - وكان على الوفد:

ما تسمي رداءك؟ قال: البُرْد [٢] فتطير وقال: (بروجهان) وتغيرت ألوان فارس وشق ذلك عليهم، ثم قال: سلهم عن أحذيتهم، فقال: ما تسمون هذه الأحذية؛ فقال: النعال، فعاد لمثلها فقال: « ناله - ناله » في أرضنا، ثم سأله عن الذي في يده، فقال: سوط - والسوط بالفارسية الحريق - فقال: أحرقوا فارس أحرقهم الله!

وكان تطيره على أهل فارس، وكانوا يجدون من كلامه [٣]) [٤].

* * *

لقد كانت المهمة الآن هي الوصول إلى كسرى مباشرة دون وساطة، ومن أجل ذلك طووا رستم وتجاوزوه، والأصل أن لا يصلوا إلى كسرى إلا عن طريقه، ولعل رستم يحاسب على هذا فأين حرسه الذين يراقبون تحركات العدو؟

ما الذي تبدل في هذا العالم، بعد ألفي عام من تاريخ هذه الأمة، أن لا يقبلوا إلا لقاء إمبراطور الفرس لا ليحظوا منه بجائزة أو ليهديهم حلة، أو ليؤمرهم على استعباد قبيلة معادية، بل ليدعوه إلى الله والتوحيد أولًا، ثم ليطلبوا منه الجزية يؤديها لهم، أو يعلنوا الحرب عليه، كائنًا في ذلك من كان.

لقد كان يكفي كسرى الفرس فيما مضى أن يبعث رجلين جلدين قويين ليحضرا

---

(١) سياط دقاق: صغيرة غير غليظة.

(٢) البُرْد: ثوب مخطط بضم الباء.

(٣) يجدون من كلامه: يحزنون أو يغضبون.

(٤) تاريخ الطبري (٢/٣٩٠).

من شاء من رعيته حيًّا أو ميتًا دون أن يتمكن أحد من حمايته، كما هو شأن الدول القوية اليوم.

ما الذي دهى هذه الأمة حتى صارت تطلق الإنذارات، وتعلن الإسلام في إيوان كسرى؟ وما لنا نبعد، وَلْننظرْ إلى الرسالة التي جاؤوا بها من اللّٰه تعالى إلى ملك فارس، جبار الأرض آنذاك!

لقد حاول ما استطاع ابتداءً أن يصغِّر من شأن هذا الوفد، وأن يحقِّر من شأنه وأخذ يستهزئ بالبرد التي يلبسونها، والأسواط التي يحملونها، والنعال التي ينتعلونها، ولم تكن إجابة الوفد إلا الصدق المحض، لكن هذه البردَ والنعالَ والأسواطَ التي أراد كسرى أن يزدريَهم من خلالها، كانت سبب بعث الرعب في هذا الطاغوت الذي كان يشارك مع الروم في حكم الأرض، وبثّ الرعب في رجال بلاطه وحاشيته وكبار مستشاريه.

فالبُرُد تحولت لدى كسرى إلى (بردهان) وأدت إلى تغير ألوان فارس تطيرًا من هذا الاسم. والنعال تحولت لدى كسرى إلى (ناله، ناله) أي نالوا ما يريدون من أرضنا. والأسواط الدقيقة المضحكة تحولت إلى (الحرائق) التي ستنزل بفارس من هؤلاء الأعراب فقال: أحرقوا فارس أحرقهم اللّٰه.

وابتدأ يزدجرد بالتعجب الذي سقناه آنفًا، لعلنا نجد جوابًا عند هذا الوفد المختار ولا ننسى الهيبة التي نزلت في قلوب الفرس حتى قبل أن يسألوهم، حيث قال بعض من حضر اللقاء، وكان في صف فارس، وهو يسمع صهيل خيلهم:

(فلم أر عشرة قط يعدلون في الهيئة بألف غيرهم).

(... ثم قال الملك: سلهم ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا والولوغ ببلادنا؟ أمن أجل أنا أجممناكم [1] وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟!

فقال لهم النعمان بن مقرن: إن شئتم أجبت عنكم، ومن شاء آثرته، فقالوا: بل تكلم، وقالوا للملك: كلام هذا الرجل كلامنا.

---

(١) أجممناكم: أرحناكم.

فتكلم النعمان فقال:

إن اللّه رحمنا فأرسل إلينا رسولًا يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرِّفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين؛ فرقة تُقاربه، وفرقة تُباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص، فمكث في ذلك ما شاء اللّه أن يمكث، ثم أُمِرَ أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، وبدأ بهم وفعل، ودخلوا معه جميعًا على وجهين؛ مكره عليه فاغتبط، وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعًا فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسَّن الحسَن وقبَّحَ القبيحَ كلَّه. فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شرٍّ منه؛ الجزاء. وإن أبيتم فالمناجزة. فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب اللّه وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم. وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم) [١].

هذا العرض العالمي للإسلام مدعو لِفقهه كل الدعاة في الأرض، وكل العداة في الأرض، ويجب أن يدرس في أرقى الجامعات الرسمية والشعبية فهو جواب سؤال حيَّر رأس الإمبراطور، وقيادات الطبقة العليا عنده.

(ما دعاكم إلى غزونا والولوغ في بلادنا؟ أمن أجل أنا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟).

وجاء الجواب المبين من الناطق الرسمي للإسلام أمام يزدجرد أكبر طواغيت الأرض آنذاك:

١ - الإسلام هو ميزان الخير والشر في الوجود، والذي جاء من عند اللّه على لسان رسول رب العالمين يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه.

وكان هذا أكبر وصف جامع للإسلام يمكن أن يكتب في تفصيله عشرات المجلدات، وقد كتب وسيكتب، ومهمة رسول رب العالمين أن يعلمنا الخير ويأمرنا أن

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٩٠، ٣٩١).

نعمل به، ويُعْلِمنا الشرَّ وينهانا عن عمله. كلمة واحدة فقط؛ تبيان الخير والشر.

وانتهى الحديث عن الإسلام في بداية العرض.

٢ - ما هو الثمن لمن صدق واتبع؟

(ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة).

وكثيرًا ما يزِلّ الدعاة حين لا يُجَلّون هذا المعنى، فهم يتحدثون أحيانًا عن خير الآخرة فقط أوخير الدنيا فقط، فلا بد من الدمج بينهما، فإذا كان الطواغيت هم الذين يقدمون خير الدنيا فقط كما يزعمون، ومهمة الملك بناء المجد لأمته، فاتباع رسول اللّه ﷺ كفيل بإنجاز موعود اللّه في خير الدنيا، وكذلك خير الآخرة التي لايؤمن بها أبناء الدنيا، والذي جاء الإسلام مبشرًا بها « **وإنها للجنة أبدًا أو النار أبدًا** ».

ولكن في حسن العرض للإسلام، وآثار تبيينه، يحسن التركيز على المبشرات فيه.

٣ - كيف كان الموقف منه؟

ابتداءً: (فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين، فرقة تقاربه، وفرقة تباعده) وذلك لإبعاد أن يكون الطمع العربي هو الذي قاد إلى هذه الفتوحات.

(ولا يدخل في دينه إلا الخواص، فمكث في ذلك ما شاء اللّه أن يمكث).

يُحارَب من عشيرته وأهله والأبعدين من قومه وهو صابر محتسب، حتى أذن اللّه تعالى له بجهاد عدوه.

٤ - وكانت الحرب بين الفريقين:

(ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، وبدأ بهم وفعل، ودخلوا معه جميعًا على وجهين: مكره عليه فاغتبط، وطائع أتاه فازداد).

غير أن المكره استبان له فيما بعد صدقه، وغزاه في أعماقه، ورباه وهو يحاربه.

٥ - فعرفنا جميعًا فضله:

وانتهوا إلى فريق واحد، مُقِرّ بصدقه، معترف بقيادته، وجمع اللّه القلوب عليه.

(فعرفنا جميعًا فضل ما جاء به على الذين كنا فيه من العداوة والضيق).

٦ - التحرك بأمر رباني:

(ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم، فندعوهم إلى الإنصاف).

إنه حب الخير لهذه الأمم والصلاح لها، وليس الطمع فيها وبخيراتها، وكان لا بد من هذه المقدمة الوافية للرد على سؤال إمبراطور الفرس: سلهم ما جاء بهم؟

أما الشق الثاني من السؤال، فكان الجواب عليه في غاية الإيجاز، وأبلغ العبارة.

(... أمن أجل أنا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟).

٧ - ما هو هذا الدين الذي جاء به العرب ليقدموه للأمم؟

(فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسّن الحسن، وقبّح القبيح كله).

ولا داعي إلى المحاضرات والمجلدات والأسفار، وكما عرَّفه من قبل (يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرِّفنا الشرَّ وينهانا عنه) ها هو يعيده بصياغة جديدة جامعة مانعة، (حسَّن الحسَنَ، وقبَّحَ القبيح كله).

٨ - ومن رد هذا الدين ورفضه، ماذا يلقى؟

(فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شرٍّ منه؛ الجزاء) فلتكن الجزية، ويكون التعايش معها بين من رفض الدين ومن قَبِلَه.

٩ - المناجزة:

والذي يرفض الدين، ويرفض الجزية، ويصر على حرب الله ورسوله سوف نحاربه ونناجزه حتى يهلك أحد الفريقين، فمن يرفض السلم، ويصر علىالحرب، فنحن لها.

١٠ - وما هو جزاء من قبل بهذا الدين؟

(فإن أجبتم إلى ديننا خلَّفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنُكُمْ وبلادكم).

فلسنا بحاجة لثرواتكم، ولا لأراضيكم، ولم تخرجنا الفاقة لننهبكم، فإسلامكم يعني عودتنا إلى أراضينا مطمئنين إلى انضمام إخوان لنا شركاء معنا في المغرم والمغنم.

١١ - الخلاصة:

وأخيرًا فقد حدد ولخص كلامه **بثلاث عبارات:**

- (فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب اللَّه، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم.

- وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم.

- وإلا قاتلناكم).

وكانت هذه الجولة الأولى من المباحثات مع إمبراطور الفرس.

لكن استعلاء ملك فارس كان أكبر من أن يستوعب هذا القول، فمَن هؤلاء العرب، حتى يحملوا رسالة؟! وما النبوة؟! ومَنْ هؤلاء الأعراب؟! لقد كان الشيطان ينفخ في أوداجه ليتحدث من علٍ كما لو أن هذه الأمة رعاع عنده.

لقد سبقه إلى هذا الموقف جدّه حين وصلته رسالة الرسول ﷺ، فلم ير من استعلائه إلا أن يقدم العبد اسمه على السيد.

عبدي يضع اسمه قبل اسمي.

وبدون أن يتعرف على مضمون الرسالة أو يصيخ عليها، قام فمزقها، وطلب استجلاب محمدٍ محقورًا إليه حيًّا أو ميتًا.

(عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: أن عبد اللَّه بن حذافة قدم بكتاب رسول اللَّه ﷺ إلى كسرى، فلما قرأه شقه، فقال رسول اللَّه: « **مزّق اللَّه ملكه** »، حين بلغه أنه شق كتابه...

ثم كتب كسرى إلى باذان وهو على اليمن، أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به، فبعث باذان قهرمانه وهو بابويه... وبعث معه رجلًا من الفرس يقال له خُرَ خسرة... فخرجا حتى قدما على رسول اللَّه ﷺ فكلمه بابويه فقال: إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويَكُفّه عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت، فهو مهلكك ومهلك قومك، ومخرب بلادك... ثم قال لهما: « **ارجعا حتى تأتياني غدا** ».

وأتى رسولَ اللَّهِ ﷺ الخبرُ من السماء أن اللَّه قد سلط على كسرى ابنه شيرويه، فقتله في شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا من الليل، بعد ما مضى من الليل؛ سلط عليه

ابنه شيرويه فقتله. قال الواقدي: قتل شيرويه أباه كسرى ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى من سنة سبع، لِسِتّ ساعات مضت منها.

فدعاهما فأخبرهما. فقالا: هل تدري ما تقول! إنا قد نَقَمْنا عليك ما هو أيسر من هذا، أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك؟ قال: « **نعم، أخبراه ذلك عني وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخُفّ والحافر وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملّكتك على قومك من الأبناء** » ثم أعطى خُرخُسرَة مِنطَقةً [١] من ذهب وفضة، كان أهداها له بعض الملوك.

فخرجا من عنده حتى قدما على باذان، فأخبراه الخبر فقال:

والله ما هذا بكلام مِلِك، وإني لأرى الرجل نبيًّا كما يقول، ولننظرن ما قد قال، فلئن كان هذا حقًّا فما فيه كلام، إنه لنبي مرسل، وإن لم يكن، فسنرى فيه رأينا، فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه.

أما بعد، فإني قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضبًا لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم، وتجميرهم في ثغورهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قِبَلَك وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك، فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه. فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول، فأسلم وأسلمَتِ الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن... وقد قال بابويه لباذان: ما كلمت رجلًا قط أهيب عندي منه، فقال له باذان: هل معه شُرَط؛ قال: لا) [٢].

لم يكن بمقدور المسلمين في السنة السابعة للهجرة أن يواجهوا جيش الإمبراطورية الفارسية إذ كان جيش الحديبية آنذاك ألفًا وخمسمائة، فهل يستطيع أن يواجه مائة ضِعف، فهيأ الله تعالى انقلابًا عالميًّا لحماية دعوته، وقتل كسرى الابن كسرى الأب، وغيَّر أوامره بطلب رسول الله ﷺ المثول بين يديه، لقد كانت المعجزة الربانية والتقديرات الإلهية أن يحفظ رسولَه ودينه بانقلاب داخل الإمبراطورية الفارسية، أما اليوم فالجيش الإسلامي ينوف عن الأربعين ألفًا، ولن يغلب اثنا عشر ألفًا من قِلة،

---

(١) المِنطقة: ما يوضع على الخاصرة مثل الزنار ويلبس في الوسط.

(٢) تاريخ الطبري (١٣٣/٢، ١٣٤).

وها هو اليوم يعلن مواجهته المباشرة مع الإمبراطورية الفارسية بعد قرابة عشرين عامًا من ذلك التاريخ، وذلك في الإعداد والبناء وتجمع القوى.

ونعود إلى ذلك الرَّدّ التافه الذي ردّه يزدجرد على العرض الإسلامي والذي يدل على أن غطرسته واستعلاءه لم تَدَعانِه يفقه شيئًا من العرض العربي الإسلامي.

(فتكلم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددًا ولا أسوأ ذات بينٍ منكم؛ قد كنا نوكِّل بكم قرى الضواحي فيكفوناكم، لا تغزون فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عدد لحق فلا يغرنّكم منا، وإن كان الجَهْد دعاكم فرضنا لكم قوتًا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملَّكنَا عليكم مِلِكًا يرفق بكم...) [1].

وأدرك الوفد أن هذا الطاغية بحاجة إلى لغة غير هذه اللغة الراقية الدبلوماسية حتى يفهم بها، وكان الجواب الثاني:

(فأُسْكِتَ القوم، فقام المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدي فقال: أيها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشرافَ الأشرافُ، ويعظّم حقوق الأشرافِ الأشرافُ، ويفخم الأشرافَ الأشرافُ، وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك، فجاوبني لأكون أنا الذي أبلغك ويشهدون على ذلك...) [2].

ولقد كان الرد العنيف على يزدجرد بهذه المقدمة، فالملك لم يكرم رؤوس العرب ووجوههم وأشرافهم، ولو كان شريفًا لأكرمهم، وعظَّم حقوقهم، وفخّمهم. فلا بد من كلام يناسب مقامه، وعنده كلام كثير يناسب مقامه، وسيتولى هو الحديث عنه بذلك:

(... إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالمًا، فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالًا منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، فنرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فهي ظهر الأرض.

- ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم.
- ديننا أن يقتل بعضنا بعضًا، ويغير بعضنا على بعض.

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٣٩١).

- وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا.
- فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك) [(١)].

هذه هي الصفحة الأولى، ولا داعي أن يعيِّر الملك بها العرب، فحالتهم أسوأ بكثير مما وصف، **فما هي الصفحة الجديدة؟**

(فبعث اللَّه إلينا رجلًا معروفًا، نعرف نسبه، ونعرف وجِهة مولده، فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحدٌ قبلَ تربٍ كان له، وكان الخليفة من بعده، فقال وقلنا، وصدق وكذبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئًا إلا كان، فقذف اللَّه في قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول اللَّه، وما أمرنا فهو أمر اللَّه) [(٢)].

لقد استطاع المغيرة ﷺ أن يمسك بعقل كسرى وقلبه، في تغيير أسلوب المخاطبة فقط، فاعتمد الإثارة والنيل من الملك، ليبقى متوفزًا حَنِقًا غاضبًا، ويشعره بخطورة الوضع الجديد الذي يواجهه، ويمسك بتلابيب عقله ليسمع إلى ما لم يصغ إليه من قبل، حين ظن الاحترام ضعفًا، واللباقة هوانًا، وحسن التعامل خورًا، فكان ذلك الجواب الأرعن له. وجاءه بليغ البادية الأسدي الذي يقتل بكلامه قبل أن يقتل بسيفه، وبلغ به الذروة حين أفهمه أنهم الآن حزب اللَّه وأن اللَّه هو الذي يواجهه، وليس العرب الجوعى، العراة، الطامعون برزق الملك.

(... فقال لنا: إن ربكم يقول: إني أنا اللَّه وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء، وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء، وإليَّ يصير كل شيء).

وحرر كلمة التوحيد من كل غبش، ثم جاء الحديث عن الرسالة بعد الوحدانية: (وإن رحمتي أدركتكم فبعثت هذا الرجل إليكم لأدلكم على السبيل التي أنجيكم بها بعد الموت من عذابي ولأحلكم داري دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق) [(٣)].

وحرَّر الإيمان باليوم الآخر بعد تحرير الرسالة، ثم عاد ليضع بين يدي الملك خط التعامل معه ومع إمبراطوريته:

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٢/٣٩١).

(... وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم.

- ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم.

- ومن أبى فقاتلوه، فأنا الحكم بينكم، فمن قُتِلَ منكم أدخَلْته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه...) [١].

وجاء ممثل حزب اللَّه ليقرن القول بالفعل ليقول لإمبراطور الأرض:

(... فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتنجي نفسك) [٢].

ووقعت الصاعقة على الإمبراطور الأهوج فقال له:

- أتستقبلني بمثل هذا؟

المغيرة: ما استقبلت إلا من كلمني، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به.

فقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي.

وقال: ائتوني بوِقر من تراب، فقال: احملوه على أشرف هؤلاء).

وظن أنه بهذا التهديد قد أرعب القوم، وسوف يقوم بإذلالهم قبل مغادرتهم إيوانه.

(فقال: احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوِّقوه حتى يخرج من باب المدائن.

ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليكم رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية وينكّل به وبكم من بعد، ثم أُورده بلادكم، حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم سابور) [٣].

ونفذ الإذلال بزعمه:

(ثم قال: من أشرفكم؟ فسكت القوم فقال عاصم بن عمرو، وافتات ليأخذ التراب: أنا أشرفهم أنا سيد هؤلاء فحملنيه، فقال: أكذاك؟ قالوا: نعم، فحمله على عنقه، فخرج به من الإيوان والدار حتى أتى راحلته فحمله عليها، ثم انجذب في السير، فأتوا به سعدًا وسبقهم عاصم، فمر بباب قديس فطواه، فقال: بشروا الأمير بالظفر، ظفرنا إن شاء اللَّه، ثم مضى حتى جعل التراب في الحجر ثم رجع فدخل على سعد، فأخبره الخبر فقال:

(١ ، ٣) تاريخ الطبري (٣٩١/٢، ٣٩٢).

أبشروا فقد - والله - أعطانا الله أقاليد ملكهم) [١].

التراب يفجر الأرض من تحت الفرس:

لم تكن خبرة يزدجرد في الحكم كبيرة، فقد جيء به من المخبأ إلى الإيوان، وسنه في الحادية والعشرين من عمره، انتفخ بالملك، وشمخ به، وكان مكمن القوة عنده القادة الكبار المجربون، فعندما تفرد بالرأي أظهر حمقًا وسفاهة في الرأي من خلال هذا التراب الذي حمَّلَه لسيد المسلمين عاصم بن عمرو.

وشهدنا عظمة عاصم حيث ادَّعى السيادة ادعاءً ليكون هو الذي يفتدي إخوانه بحمل التراب، وما كان لهم أن يكذّبوه أمام الملك، فهو السيد عندما يكون الفداء، وعندما يكون هو كبش الكتيبة، وهو آخرهم وفي الخلف عندما تكون السيادة تكريمًا وتعظيمًا.

أما المسلمون وخاصة أشراف العرب المتمثلون بهذا الوفد أدركوا أن هذا التراب بشارة خير ورمز لانتصار المسلمين على عدوهم وحيازتهم لأرضهم ومملكتهم، ومن أجل ذلك بادر بالسرعة القصوى ليغادر أرض الفرس لتتم البشارة، وافقه سعد ﷺ، قائد الجيش ونائب رسول الله ﷺ في هذه الأرض على هذا المعنى فأطلق هذه البشارة للمسلمين بقوله: (أبشروا فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم).

ولم يكن قائد الفرس وداهيتها الكبير ليختلف عن هذا التفسير مع المسلمين.

(وراح رستم من ساباط إلى الملك يسأله عما كان من أمره وأمرهم وكيف رآهم فقال الملك: ما كنت أرى أن في العرب مثل رجال رأيتهم دخلوا عليَّ، وما أنتم بأعقل منهم ولا أحسن جوابًا منهم، وأخبره بكلام متكلمهم وقال:

لقد صدقني القوم، لقد وُعِد القوم أمرًا ليُدركنَّهُ أو ليموتُن عليه...) [٢].

لقد أعطت تهديدات المغيرة آثارها، واضطرب كيان الملك منها رغم تظاهره بالاستخفاف بها وأنه سيرسل إليهم رستم ليدفنهم حيث هم.

لكن السبيل افترق عند الحديث عن التراب، وأظهر بساطة الملك في الحكم على

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٣٩٢/٢).

المظاهر لا المخابر. (... على أني وجدت أفضلَهم أحمقَهم، لما ذكروا الجزية أعطيته ترابًا فحمله على رأسه، فخرج به ولو شاء اتقى بغيره وأنا لا أعلم.

فقال رستم: أيها الملك إنه لأعقلهم [١] وتطيَّر إلى ذلك، وأبصرها دون أصحابه) [٢].

ها هو رستم الذي امتلأ غيظًا وحنقًا من تصرف الملك يرى ما رآه سعد في أمر التراب. (وخرج رستم من عنده كئيبًا غضبان - وكان منجِّمًا كاهنًا - فبعث في أثَرِ الوفود قال لثقته: إن أدركهم الرسول تلافينا أرضنا، وإن أعجزوه سلبكم اللّٰه أرضكم وأبناءكم. فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم، فقال: ذهب القوم بأرضكم غير ذي شك. ما كان من شأن ابن الحجامة الملك، ذهب القوم بمفاتيح أرضنا. فكان ذلك مما زاد اللّٰه به فارسًا غيظًا) [٣].

هذا الأمر من جهة رافقه رؤيا أفزعت هذا القائد المنجم الكاهن:

(فلما قدمت وفود سعد على الملك، ورجعوا من عنده رأى رستم فيما يرى النائم رؤيا فكرهها وأحسَّ بالشر، وكره لها الخروج ولقاء القوم، - وكان قد رأى رستم أن ملكًا جاء حتى دخل عسكر فارس فختم السلاح - واختلف عليه رأيه واضطرب وسأل الملك أن يُمضي الجالينوس ويقيم حتى ينظر ما يصنعونَ وقال: إن غناء الجالينوس كغنائي - وإن كان اسمي أشد عليهم من اسمه، فإن ظفر فهو الذي تريد، وإن تكن الأخرى وجهت مثله، ودفعنا هؤلاء القوم إلى يومٍ ما، فإني لا أزال مرجوًّا في أهل فارس، ما لم أُهزَمْ ينشطون، ولا أزال مَهيبًا في صدور العرب، ولا يزالون يهابون الإقدام ما لم أباشرهم، فإذا باشرتهم اجترؤوا آخر دهرهم، وانكسر أهل فارس آخر دهرهم) [٤].

لكن الملك أصر على زحف رستم بالجيش، وهو يرى أنها جولة واحدة تكفي لرد المسلمين العرب إلى باديتهم. فلِمَ يبطئ الأمر؟

مما اضطر رستم أن يبعث إلى رئاسة الأركان عنده وقيادات جيش فارس بالكتاب التالي:

(لما أبى الملك إلا السير بعث رستم إلى أخيه وإلى رؤوس أهل بلادهم: من رستم إلى البندوان مرزبان الباب، وسهم أهل فارس، الذي لكل كون يكون، فيفض اللّٰه به كل

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٣/٣٩١، ٣٩٢). (٤) المصدر نفسه (٢/٣٩٤).

جند عظيم شديد، ويفتح به كل حصن حصين، ومن يليه: فرُمّوا حصونكم، وأعدوا واستعدوا، فكأنكم بالعرب قد وردوا بلادكم، وقارعوكم في أرضكم وأبنائكم، وقد كان من رأيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نُحوسًا فأبى الملك) [١].

هذا ما أبلغ به رستم القيادات الكبرى، لكن رسالته إلى أخيه أفصح له ما في نفسه فزاد في كتاب أخيه إضافة إلى ما سبق:

(فإن السمكة قد كدرت الماء، وإن النعائم قد حسنت، وحسنت الزهرة واعتدل الميزان، وذهب بهرام، ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون علينا ويستولون على ما يلينا، وإن أشد ما رأيت الملك قال: لتسيرن إليهم أو لأسيرن إليهم أنا بنفسي، فأنا سائر إليهم) [٢].

الجولة الأولى من المفاوضات رستم والعربي:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن النضر بن السري عن ابن الرفيل عن أبيه، قال: لما فصل رستم، وأمر الجالينوس بالتقدم إلى الحيرة، أمره أن يصيب له رجلًا من العرب، فخرج هو - أي الجالينوس، والآزاذمر، سرية في مائة حتى انتهيا إلى القادسية فأصابا رجلًا دون قنطرة القادسية فاختطفاه، فنفر الناس فأعجزوهم إلا ما أصاب المسلمون من أخرياتهم، فلما انتهيا إلى النجف، سرحا به إلى رستم وهو بكوثي).

لقد كان رستم بداية حريصًا على أن يصيب رجلًا من عرض القوم، جنديًّا من الجيش العربي الإسلامي في اختيار عشوائي غير منتقًى، يتعرف من خلاله على الجنود كلهم والذين يمثلون قاعدة الجيش الإسلامي، وكان له ما أراد.

إننا لا نعرف حتى هذه اللحظة اسم هذا الجندي الأعرابي المسلم، فلم يحفظ التاريخ لنا اسمه، إنما حفظ لنا مقالته التي تمثل هذا البعث الإسلامي الجديد، وهو يُسطِّرُهُ عن الجنود كلهم، عن تفكيرهم وعقلهم وعواطفهم وطموحاتهم وشجاعتهم وخط حياتهم.

(فقال له رستم: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟

قال: جئنا نطلب موعود الله.

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٣٩٤).

قال: وما موعود اللَّه؟

قال: أرضكم وأبناؤكم ودماؤكم إن أبيتم أن تسلموا.

قال رستم: فإن قُتِلتم قبل ذلك؟

قال: في موعود اللَّه أن من قُتل منا قبل ذلك أدخله اللَّه الجنة، وأنجز لمن بقي لنا ما قلت لك فنحن على يقين.

فقال رستم: قد وُضعنا إذن في أيديكم.

قال: ويحك يا رستم إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم اللَّه بها، ولا يغرنك ما ترى حولك، فإنك لست تحاول الإنس، إنما تحاول القضاء والقدر.

فاستشاط غضبًا فأمر به فضُرِبَتْ عنقه).

إنه الوعي العجيب والفقه الخالد يكون لدى كل جيش الإسلام من أدنى جندي فيه وحتى أميره وقائده.

لقد أصبح الأعرابي القابع في البادية الذي كان يحلم بأن يرى من رأى بلاد الفرس، يقول اليوم لقائد جيش الفرس وأعظم قادة الأرض: (جئنا نطلب موعودَ اللَّه، أرضَكم وديارَكم وأبناءَكم) وكوَّن الإسلام هذا الجندي بهذه الصياغة الخالدة، فهو يدرك سنن اللَّه - تعالى - في الأمم، ويدرك لِمَ جعل اللَّه هذه الأرض موعودًا للمؤمنين؟! فالذين يقودونها قد بغوا وظلموا واستأثروا؛ ولذلك كان الجواب ليس ذلك الجواب الأعمى الأصم بلا فقه ولا بصيرة بشريعة اللَّه، إنما كان الجواب لأكبر مثقفي الأرض وقادة الأرض:

(ويحك يا رستم، إن أعمالكم وَضَعتْكم فأسلَمَكم اللَّه بها).

وجُعِلَ في قلب هذا الأعرابي من الجرأة ما يخاطب به رستم.

(فإنك لست تحاول الإنس، إنما تحاول القضاء والقدر).

لقد كان القضاء والقدر في ذهن العربي قبل هذا الدين، أن يعيش ألف عام وألفي عام في رمل هذه الصحراء كما وصفه المغيرة ﷺ:

- (أما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل العقارب والجعلان والخنافس، فنرى ذلك طعامنا.

- وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض.
- ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم.
- ديننا أن يقتل بعضنا بعضًا، ويغير بعضنا على بعض.
- وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا).

أما القضاء والقدر بعد هذا الدين عند هذا العربي، هو موعود اللّه في الجنة، أو موعوده في وراثة الأرض للمتقين من المجرمين، أرضهم وديارهم ودماءهم.

وأصبح هذا العربي أستاذًا للبشرية يعلم أكبر قادتها وأكبر مثقفيها:

(ويحك يا رستم، إن أعمالكم وضعتكم فأسلَمَكُم اللّه بها).

واللّه لقد صدق العربي:

وهل حسب رستم بعد قتل هذا العربي المسلم أنه عاند القضاء والقدر وانتصر عليه، لنر كيف تحقق الصدق خلال أقل من شهر.

(وخرج رستم من كوثى حتى ينزل ببُرس، فَغَصَبَ أصحابُه الناس أموالهم، ووقعوا على النساء، وشربوا الخمور، فضج العلوج إلى رستم، وشكوا إليه ما يلقون في أموالهم وأبنائهم فقام فيهم فقال:

- يا معشر أهل فارس، **واللّه لقد صدق العربي**، واللّه ما أسلمنا إلا أعمالُنا.
- واللّه للعرب في هؤلاء وهم لنا ولهم حرب أحسن سيرة منكم.
- إن اللّه كان ينصركم على العدو، ويمكن لكم في البلاد بحسن السيرة، وكف الظلم والوفاء بالعهود والإحسان.
- فأما إذا تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال، فلا أرى اللّه إلا مغيِّرًا ما بكم.
- وما أنا بآمن أن ينزع اللّه سلطانه منكم) [١].

وبعث الرجال، فلقطوا له بعض من يُشكى، فأتى بنفر فضرب أعناقهم، ثم ركب ونادى في الناس بالرحيل...) [٢].

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٢/٣٩٥، ٣٩٦).

أهل السواد تحت وطأة العرب والفرس:

لقد غادر خالد بن الوليد ﷺ العراق، والعراق العربي بما فيه الحيرة والأنبار كلها محررة مفتوحة، والناس آمنون بأمان اللَّه ورسوله، لكن عودة الجيوش الفارسية من جديد أخافت أهل السواء فنقضوا جميعًا عهودهم، وعادوا إلى ظل الدولة الفارسية.

ترى لو بقي خالد ﷺ يتابع فتوحاته في العراق، هل يمكن أن يقع مثل هذا التراجع؟ ما أظن ذلك؛ لأن اسم خالد ﷺ أصبح يشكل رعبًا عند الفرس، كما يشكل اليوم اسم رستم عند العرب، لكن من حكمة اللَّه - تعالى - أن يتم هذا التراجع، لتشارك الأمة كلها في الفتوح من جديد، وتنضم الطاقات العربية كلها وتشارك في شرف الجهاد في سبيل اللَّه.

لقد كانت الحيرة هي العاصمة العربية، وذروة المجد العربي على أيام النعمان ابن المنذر، وقد خبا مجدها وعادت للاحتلال والتبعية الكاملة للفرس، إلى أن جاء سيف اللَّه وحررها من هذا الذل.

ثم ها نحن الآن، وهي تخضع لراية رستم، يريد رستم أن يذلهم على مساندتهم للعرب المسلمين، فكانت هذه المحاكمة لرئيس الحيرة ابن بقيلة من رستم قائد جيش الفرس.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن عمرو عن الشعبي، والمقدام الحارثي عمن ذكره قالا: دعا رستم أهل الحيرة، وسرادقُه إلى جانب الدير، فقال: يا أعداء اللَّه فرحتم بدخول العرب علينا بلادنا، وكنتم عيونًا لهم علينا، وقويتموهم بالأموال؟! فاتقوه بابن بقيلة).

وابن بقيلة ليس نكرة في الحيرة، وهو الذي حاور خالدًا ﷺ، وهو الذي حاول سُمّه، وهو الذي وقّع عقد الصلح مع خالد ﷺ، والذي لم يعجزْه خالد في الحوار لن يعجزه رستم (فاتقَوه بابن بقيلة وقالوا له: كن أنت الذي تكلمه، فتقدم وقال:

- أما قولك: إنا فرحنا بمجيئهم فماذا فعلوا؟ وبأي ذلك من أمورهم نفرح؟ إنهم ليزعمون أنا عبيد لهم، وما هم على ديننا، وإنهم ليشهدون علينا أنا من أهل النار.

- وأما قولك: إنا كنا عيونًا لهم، فما الذي يحوجهم إلى أن نكون عيونًا لهم،

وقد هرب أصحابكم منهم، وخلّوْا لهم القرى، فليس يمنعهم أحد من وجه أرادوه، إن شاؤوا أخذوا يمينًا أو شمالًا.

- وأما قولك: إنا قوّيناهم بالأموال؛ فإنا صانعناهم بالأموال عن أنفسنا، وإذ لم تمنعونا مخافة أن نُسبى أو نُحرب، وتُقتل مقاتلتنا، وقد عجز عنهم من لقيهم منكم، فكنا نحن أعجز، ولعمري لأنتم أحب إلينا منهم، وأحسن عندنا بلاء، فامنعونا مِنهم نكن لكم أعوانا، فإنما نحن بمنزلة علوج السواد، عبيد من غلب.

فقال رستم: صَدقكم الرجل) [1].

الرؤيا المرعبة:

(ولما اطمأن رستم، أمر الجالينوس أن يسير من النجف، فساروا في المقدمات، فنزل فيما بين النجف والسليحين، وارتحل رستم، فنزل النجف، وكان بين خروج رستم من المدائن وعسكرته بساباط، وزحفه منها إلى أن لقي سعدًا أربعة أشهر، لا يُقدم ويقاتل، رجاء أن يضجروا بمكانهم، وأن يجهدوا فينصرفوا، وكره قتالهم مخافة أن يلقى ما لقي من قبله، وطاولهم لولا ما جعل الملك يستعجلهم ويُنهِضه ويُقدمه، حتى أقحمه.

فلما نزل رستم النجف عادت عليه الرؤيا، فرأى ذلك المَلَك ومعه النبي ﷺ وعمر، فأخذ المَلَك سلاح أهل فارس فختمه ثم دفعه إلى النبي ﷺ، فدفعه النبي ﷺ إلى عمر، فأصبح رستم فازداد حزنًا، فلما رأى الرفيل ذلك رغب في الإسلام فكانت (أي الرؤيا) داعيته إلى الإسلام.

وعرف عمر أن القوم سيطاولونهم، فعهد إلى سعد وإلى المسلمين أن ينزلوا حدود أرضهم وأن يطاولوهم أبدًا حتى ينغصوهم، فنزلوا القادسية، وقد وطنوا أنفسهم على الصبر والمطاولة وأبى الله إلا أن يتم نوره، فأقاموا واطمأنوا، فكانوا يغيرون على السواد، فانتسفوا ما حولهم فحووه، وأعدوا للمطاولة وعلى ذلك جاؤوا، أو يفتح الله عليهم، وكان عمر يمدهم بالأسواق إلى ما يصيبون.

فلما رأى ذلك الملك ورستم، عرفوا حالهم، وبلغهم عنهم فعلهم، علم أن القوم

---

(١) تاريخ الطبري (٣٩٦/٢).

غير منتهين، وأنه إذا أقام لن يتركوه، فرأى أن يشخص رستم، ورأى رستم أن ينزل بين العتيق والنجف، ثم يطاولهم مع المنازلة، ورأى أن ذلك أمثل ما هم فاعلون، حتى يصيبوا من الإحجام حاجتهم، أو تدور لهم سعود) [١].

لقد كان كل فريق يعرف مرمى صاحبه فيخطط لتحقيق مرماه، غير أن الوضع مختلف في القيادات العليا، فما بين يزدجرد ورستم خلاف حاد في الرأي، فكسرى الفرس يزدجرد يستحث خطا رستم على المواجهة، ويدفعه دفعًا إلى الحرب، ورستم يريد أن يتربص بالمسلمين ويؤخر المواجهة على أمل ملل المسلمين، وانصرافهم دون حرب، وكانت هذه غايته من الإحجام، وذلك حين تنقص المؤونة على المسلمين، وينضب الزاد، فلا خيار لهم إلا الرحيل.

بينما كان أمير المؤمنين ﷺ، وقائده سعد يدركان هدف رستم، فوطَّنوا أنفسهم على الصبر والمطاولة، وأمير المؤمنين يمد جيشه بما يحتاجه من المؤنة والزاد، وسعد يبعث سراياه فتُغِير علىالسواد وتأخذه زادًا للمسلمين من جهة ثانية.

(وجعلت السرايا تطوف، ورستم بالنجف، والجالينوس بين النجف والسليحين (متقدم على رستم)، وذو الحاجب بين رستم وجالينوس، والهرمزان ومهران على مجنبتيه، والبيرزان على ساقته، وزاد بن بهيش صاحب فرات السرايا على الرجالة، وكان جنده مائة وعشرين ألفًا... وقد تسلسلوا وتقارنوا لتدور عليهم رحى الحرب) [٢].

من أعجب الطلائع في التاريخ:

ومن أبطال هذه الطليعة طليحة بن خويلد الأسدي وعمرو بن معديكرب الزبيدي، وحتى نتصورهما؛ فعلينا أن نتصور رستم والجالينوس فهما لم يكونا أقل عداوة للإسلام من هؤلاء، **وها هو تاريخهما:**

طليحة بن خويلد الأسدي:

١ - (ارتد طليحة في حياة رسول اللَّه ﷺ، فادعى النبوة، فوجَّه النبي ﷺ ضرار ابن الأزور إلى عماله في بني أسد على ذلك... فلما اجتمعت غطفان على المطابقة

---

(١) تاريخ الطبري (٣٩٦/٢، ٣٩٧).

(٢) المصدر نفسه (٣٩٧/٢).

لطليحة هرب ضرار... وعقد لواء لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد... فاقتتل الناس على بزاخة وقاتل عيينة مع طليحة، فقاتلوا قتالًا شديدًا، وطليحة متلفف في كسائه يتنبأ لهم، فلما اشتدت الحرب كر عيينة على طليحة وقال له: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: لا، فرجع فقاتل، ثم كرَّ على طليحة فقال له: هل جاءك جبريل؟ قال: نعم، قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: إن لك رحًى كرحاه، وحديثًا لا تنساه، فقال عيينة: قد علم الله أن سيكون حديثٌ لا تنساه، انصرفوا يا بني فزارة فإنه كذاب. فانصرفوا وانهزم الناس، وكان طليحة قد أعد فرسه وراحلته لامرأته النوار، فلما أن غَشَوه ركب فرسه، وحمل امرأته ثم نجا بها وقال: من استطاع أن يفعل بمثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل.

٢ - ثم انهزم فلحق بالشام، ثم نزل على كلب فأسلم حين بلغه أن أسدًا وغطفان قد أسلموا، ولم يزل مقيمًا في كلب حتى مات أبو بكر، وكان خرج معتمرًا في إمارة أبي بكر، ومر بجنبات المدينة، فقيل لأبي بكر: هذا طليحة، فقال: ما أصنع به؟! قد أسلم.

٣ - ثم أتى عمر فبايعه حين استُخلف، فقال له: أنت قاتل عكاشة وثابت، والله لا أحبك أبدًا، فقال: يا أمير المؤمنين ما يهمك من رجلين أكرمهما الله بيدي ولم يهنّي على يديهما، فبايعه عمر وقال له: يا خُدَع، ما بقي من كهانتك؟ فقال: نفخة أو نفختان (بالكير) [1].

ثم رجع إلى قومه فأقام عندهم حتى خرج إلى العراق).

عمرو بن معديكرب الزبيدي:

(وكان عمرو بن معديكرب الزبيدي قد فارق قومه سعد العشيرة، وانحاز إليهم (إلى المسلمين) وأسلم معهم، فلما ارتد العنسي ومعه مذحج ارتد عمرو فيمن ارتد، فلما ارتد سار إليه خالد بن سعيد بن العاص فلقيه، فضربه خالد على عاتقه، فقطع حمالة سيفه، فوقع، ووصلت الضربة إلى عاتقه، وضربه عمرو فلم يصنع شيئًا فهرب منه وأخذ خالد سيفه الصمصامة وفرسه، فلما ارتد عمرو جعله العنسي بإزاء فروة،

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢٠٩/٢).

فامتنع كل واحد منهما من البراح لمكان صاحبه، فبينا هم على ذلك قدم عكرمة ابن أبي جهل (أبينَ) من مهرة، وقدم أيضًا المهاجر ابن أبي أمية في جمع من مكة والطائف وبجيلة مع جرير من نجران، فانضم إليه فروة بن مسيك، فأقبل عمرو ابن معديكرب مستخفيًا حتى دخل على المهاجر من غير أمان فأوثقه المهاجر) [١].

هذان القائدان هما اللذان اختارهما سعد ﷺ دون الناس جميعًا، ليكونوا أول طليعة إسلامية.

(... وبعث طليحة وعَمْرًا في غير خيل كالطليعة... وقد خرج طليحة وعمرو، فأما طليحة فأمره بعسكر رستم، وأما عمرو فأمره بعسكر الجالينوس، فخرج طليحة وحده، وخرج عمرو في عدة، فبعث قيس بن هبيرة في آثارهما، فقال: إن لقيت قتالًا فأنت عليهم، وأراد إذلال طليحة لمعصيته، وأما عمرو فقد أطاعه - فخرج حتى تلقى عمرًا فسأله عن طليحة، فقال: لا علم لي به، فلما انتهيا إلى النجف من قبل الجوف، قال له قيس: ما تريد؟ قال: أريد أن أغير على أدنى عسكرهم؛ قال: في هؤلاء؟! قال: نعم، قال: لا أدعك واللَّه وذاك، أتعرِّض المسلمين لما لا يطيقون! قال: وما أنت وذاك؟ قال: أني أُمِّرت عليك، ولو لم أكن أميرًا لم أدعك واللَّه وذاك، وشهد له الأسود ابن يزيد في نفر أن سعدًا قد استعمله عليك، وعلى طليحة إذا اجتمعتم، فقال عمرو:

واللَّه يا قيس؛ إن زمانًا تكون عليَّ فيه أميرًا لزمان سوء، لأن أرجع عن دينكم هذا إلى ديني الذي كنت عليه، وأقاتل عليه حتى أموت أحب إلي من أن تتأمر عليَّ ثانية، وقال: لئن عاد صاحبك الذي بعثك لمثلها لنفارقنه، قال: ذاك إليك بعد مرتك هذه، فردَّه فرجعا إلى سعد بالخبر...) [٢].

طليحة البطل ومهمته:

(... فأخرج سعد طليحة في خمسة، وعمرو بن معديكرب في خمسة، وذلك صبيحة قدَّم رستم الجالينوس وذا الحاجب، ولا يشعرون بفصولهم من النجف [٣]، فلم يسيروا إلا فرسخًا وبعض آخر، حتى رأوا مسالحهم وسرحهم على الطفوف قد ملؤوها.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/٢٣٢).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٩٧).

(٣) فصولهم من النجف: مغادرتهم لها.

فقال بعضهم: ارجعوا إلى أميركم فإنه سرَّحكم وهو يرى أن القوم بالنجف، فأخبِروه الخبر. وقال بعضهم: ارجعوا لا ينذر بكم عدوكم.

فقال عمرو لأصحابه: صدقتم.

وقال طليحة لأصحابه: كذبتم، ما بُعِثتم لتُخبروا عن السرح [١]، وما بعثتم إلا للخُبْر [٢].

قالوا: فما تريد؟

قال: أريد أن أخاطر القوم أو أهلك.

فقالوا: أنت رجل في نفسك غَدْر، ولن تفلح بعد قتل عكاشة بن محصن، فارجع بنا. فأبى، وأتى سعد الخبر برحيلهم، فبعث قيس بن هبيرة، وأمّرَه على مائة، وعليهم إن هو لقيهم، فانتهى إليهم وقد افترقوا.

فلما رآه عمرو، قال: تجلَّدوا له، أرَوْه أنهم يريدون الغارة، فردَّهم، ووجد طليحة قد فارقهم فرجع بهم، فأتوا سعدًا فأخبروه بقرب القوم.

ومضى طليحة، وعارض المياه على الطفوف، حتى دخل عسكر رستم، وبات به يجوسه [٣] وينظر ويتوسم، فلما أدبر الليل، خرج وقد أتى أفضل من توسم في ناحية العسكر، فإذا فرس له لم ير في خيل القوم مثله، وفسطاط أبيض لم ير مثله، فانتضى سيفه، فقطع مِقْوَدَ الفرس، ثم ضمّه إلى مقود فرسه، ثم حرك فرسه، فخرج يعدو به، ونذِر به الناس [٤] والرَّجْل، فتنادوا وركبوا الصعبة والذلول، وعجل بعضهم أن يسرِّج، فخرجوا في طلبه، فأصبح وقد لحقه فارس من الجند، فلما غشيه وبَوّأ له الرمح [٥] ليطعنه، عدل طليحة فرسه، فندر [٦] الفارسي بين يديه، فكرَّ عليه طليحة فقصم ظهره بالرمح، ثم لحق به آخر، ففعل مثل ذلك، ولحق به آخر، وقد رأى مصرع صاحبيه وهما ابنا عمه، فازداد حنقًا، فلما لحق بطليحة، وبوَّأ له الرمح، عدل طليحة فرسه، فندر الفارسي أمامه، وكرَّ عليه طليحة، ودعاه إلى الإسار، فعرف الفارسي أنه قاتله فاستأسر، وأمره طليحة أن يركض بين يديه، ففعل، ولحق الناس فرأوا فارسي الجند

---

(١) السرْح: المال السائم من الغنم والإبل والمعز والبقر.
(٢) الخُبر: للتعرف على أحوال الجيش.
(٣) يجوسه: يتعرف أخباره.
(٤) نذر به الناس: علموا به.
(٥) بوّأ له الرمح: قابله به.
(٦) ندر: سقط.

قد قتلا وأسر الثالث، وقد شارف طليحة عسكرهم، فأحجموا عنه، ونكسوا، وأقبل طليحة حتى غشي العسكر وهم على تعبية، فأفزع الناس، وجوَّزوه إلى سعد، فلما انتهى إليه، قال: ويحك ما وراءك؟

قال: دخلت عساكرهم وجستها منذ الليلة، وقد أخذت أفضلهم توسمًا، وما أدري أصبت أم أخطأت، وها هو ذا فاستخبره.

فأقيم الترجمان بين سعد وبين الفارسي.

فقال له الفارسي: أتؤمني على دمي إن صدقتك؟

قال: نعم، الصدق في الحرب أحب إلينا من الكذب.

قال: أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عَمَّنْ قِبلي.

باشرت الحروب وغشيتها، وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى، ولم أر ولم أسمع بمثل هذا.

إن رجلًا قطع عسكرين لا يجترئ عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفًا، يخدمُ الرجلَ منهم الخمسةُ والعشرة إلى ما هو دون، فلم يرض أن يخرج كما دخل، حتى سلب فارس الجند وهتكَ أطناب بيته، فأنذره، فأنذرنا به، فطلبناه، فأدركه الأول وهو فارس الناس، يعدل ألف فارس فقتله، فأدركه الثاني وهو نظيره فقتله. ثم أدركته ولا أظن أني خلَّفتُ من بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين، وهما ابنا عمي، فرأيت الموت فاستأسرت، ثم أخبره عن أهل فارس بأن الجنود عشرون ومائة ألف، وأن الأتباع مثلهم خدام لهم.

وأسلم الرجل وسماه سعد مسلمًا، وعاد إلى طليحة وقال: لا واللَّه، لا تهزمون ما دمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح والمؤاساة. لا حاجة لي في صحبة فارس، فكان من أهل البلاء يومئذ) (١).

لقد أحدثت هذه الطليعة الهزة الوجدانية المطلوبة في صف الجيش الفارسي، وتناقلت أخبارها القيادات والجنود، خاصة بعد مقتل أكبر فرسان فارس، من رجل واحد خاض غمار الجيش الفارسي، ونجا بعد مقتل اثنين من أبطالهم وأسر الثالث.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٩٨، ٣٩٩).

وأراد سعد ﷺ أن يستثمر هذه الهزة الوجدانية، وقبل أن ينضب أثرها كانت الطليعة العظيمة الثانية.

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف، عن محمد بن قيس، وموسى بن طريف:

قال سعد لقيس بن هبيرة: اخرج يا عاقل، فإنه ليس وراءك من الدنيا شيء تحنو عليه حتى تأتيني بعلم القوم، فخرج وسرَّح معه عمرو بن معديكرب وطليحة معه...).

لقد كان سعد ﷺ يقوم بالامتحان الأخير لهؤلاء القادة، وإذا ضبطهم فقد ضبط الجيش كله... فهم عتاة الكفر، وقادة الجاهلية، وها هم اليوم قد انتظمهم الإسلام في جيشه، وعليهم أن يعلموا أنهم قد انتقلوا من القبيلة إلى الدولة، ومن جيش العشيرة إلى جيش الأمة العربية المسلمة، والإسلام يفسح لهم صدره بمقدار التزامهم بحدوده.

لقد هدَّد عمرو بن معديكرب بأن دينه الذي تركه أحب إليه من أن يكون قيس قائدًا عليه. وهدّد بأن العملية إن كررت فسيقوم بالثورة، والخروج على الإسلام ودولته. ومن أجل هذه الكلمة أعاد سعد إمرة قيس، وسرَّح معه عمرو وطليحة.

... وإن ما حمل سعدًا على إرسال عمرو وطليحة معه لمقالة بلغته من عمرو، وكلمة قالها لقيس بن هبيرة قبل هذه المرة) [١].

وأوصى سعد ﷺ طليعته بقوله: (... قاتلوا عدوكم يا معشر المسلمين) [٢].

(فأنشب (قيس) القتال، طاردهم ساعة، ثم إن قيسًا حمل عليهم، فكانت هزيمتهم فأصاب منهم اثني عشر رجلًا، وثلاثة أسراء، وأصاب أسلابًا، فأتوا بالغنيمة سعدًا وأخبروه الخبر فقال: هذه بشرى إن شاء اللّه؛ إذا لقيتم جمعهم الأعظم فلهم أمثالها...) [٣] وآن الأوان لوضع الأمور في نصابها، ولوضع النقاط على الحروف - كما يقال.

(ودعا عَمْرًا وطليحة فقال: كيف رأيتما قيسًا؟

فقال طليحة: رأيناه أكمانا.

وقال عمرو: الأمير أعلم بالرجال منا.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٩٩).

(٢ - ٣) تاريخ الطبري (٢/٣٩٩).

فقال سعد:

– إن اللّه تعالى أحيانا بالإسلام، وأحيا به قلوبًا كانت ميتة، وأمات به قلوبًا كانت حية، وإني أحذركما أن تؤثرا أمر الجاهلية على الإسلام، فتموت قلوبكما وأنتما حيان.

– الزما السمع والطاعة والاعتراف بالحقوق.

– فما رأى الناس كأقوام أعزهم اللّه بالإسلام) [1].

هذه هي التربية أثناء المعركة، وهذه هي تربية القيادات، نعم لقد خط أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه خطة إشراك كل القيادات العربية والزعامات العربية في المعركة ضد الفرس.

(... كان عمر قد عهد إلى سعد حين بعثه إلى فارس، ألا يمر بماء من المياه بذي قوة ونجدة ورياسة إلا أشخصه، فإن أبى انتخبه، فأمره عمر، فقدم القادسية في اثني عشر ألفًا من أهل الأيام، وأناس من الحمراء استجابوا للمسلمين فأعانوهم؛ أسلم بعضهم قبل القتال، وأسلم بعضهم غِبَّ القتال، فأشركوا في الغنيمة، وفرضت لهم فرائض أهل القادسية: ألفين ألفين، وسألوا عن أمنع قبائل العرب، فعادُّوا تميمًا) [2].

إنها دورات تربوية سريعة وسريعة جدًّا تتناسب مع اقتراب المعركة، والتربية مستمرة أثناءها والتربية العملية بين أيديهم تربية الجيل الأول من الصحابة، فهؤلاء الألف، كانوا يزورون كل مضارب العرب ومواقعهم من القتال، يُربّون بالقول، ويربون بالسلوك، ويربون بالعقوبة إذا اقتضى الأمر، والبيئة العظيمة، ومعهد خريجي القيادات، يقوم بدوره كاملًا حتى في قلب المعركة.

* * *
* *
*

(١) تاريخ الطبري (٣٩٩/٢).

(٢) المصدر نفسه (٣٩٨/٢).

الفصل التاسع

الدعوة إلى اللّه عند رستم

الجولة الثانية رستم وزهرة:

قال الطبري: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن النضر عن ابن الرفيل عن أبيه قال: لما نزل رستم على العتيق وبات به أصبح غاديًا على التصفح والحزر، فساير العتيق نحو خفان حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين، ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة، فتأمل القوم حتى أتى على شيء يشرف منه عليهم، فلما وقف على القنطرة راسل زهرة، فخرج إليه حتى واقفه، فأراد أن يصالحهم ويجعل لهم جُعلًا علىأن يرجعوا عنه وجعل يقول فيما يقول: أنتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا، فكنا نحسن جوارهم، ونكف الأذى عنهم ونوليهم المرافق الكثيرة، نحفظهم في أهل باديتهم، فنرعيهم مراعينا، ونميرهم من بلادنا، ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا، وقد كان لهم في ذلك معاش - يعرض لهم بالصلح، وإنما يخبره بصنيعهم، والصلح يريد ولا يصرح -.

فقال له زهرة: صدقت قد كان ما تذكر، وليس أمرنا أمر أولئك ولا طِلبتنا.

- إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، وإنما طِلبتنا وهِمتنا الآخرة.

- كنا كما ذكرت، يدين لكم من ورد عليكم منا، ويضرع إليكم يطلب ما في أيديكم.

- ثم بعث اللّه - تبارك وتعالى - إلينا رسولًا، فدعانا إلى ربه فأجبناه.

- فقال لنبيه ﷺ: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لمْ يدن بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرِّين به.

- وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به أحد إلا عز.

فقال له رستم: وما هو؟

قال: أما عموده الذي لا يصلح منه شيء إلا به، فشهادة أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا رسول اللّه والإقرار بما جاء من عند اللّه تعالى.

قال: ما أحسن هذا! وأي شيء أيضًا؟

قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه تعالى.

قال: حسن! وأي شيء أيضًا؟

قال: والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم.

قال: ما أحسن هذا!

ثم قال: أرأيتم لو أني رضيت بهذا الأمر، وأجبتكم إليه ومعي قومي، كيف يكون أمركم، أترجعون؟

قال: إي واللَّه، ثم لا نقرب بلادكم أبدًا إلا في تجارة أو حاجة.

قال: صدقتني واللَّه.

- أما إن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يَدَعُوا أحدًا يخرج من عمله من السفلة.

- كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم: تعدوا طورهم، وعادَوْا أشرافهم.

قال له زهرة: نحن خير الناس للناس، فلا نستطيع أن نكون كما تقولون، نطيع اللَّه في السفلة، ولا يضرنا من عصى اللَّه فينا.

فانصرف عنه، ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فحموا من ذلك، وأنفوا.

فقال: أبعدكم اللَّه وأسحقكم، أخزى اللَّه أخرعنا وأجبننا.

فلما انصرف رستم ملت إلى زهرة (القائل هو الرفيل الراوي) فكان إسلامي، وكنت له عديدًا، وفرض لي فرائض أهل القادسية) [١].

لقد كان كل فرد في الجيش الإسلامي يملك خصائص العروبة كاملة، وقيمها من الشجاعة والفصاحة والجود، لكنه لم يكن يملك إلا أتفه العقائد، عبادة الأوثان والأصنام، فلم يكن التغيير في البناء التكويني للعربي أو الوراثي - إذا صح التعبير - إنما كان التغيير في البناء الفكري الذي قاد إلى التغيير في البناء النفسي، وعقيدة الأوثان والأصنام لا تدفع العربي مهما كانت شجاعته وطموحاته أن يفكر في غزو فارس، وإنما منتهى طموح العظماء والكبار منهم هو أن ترضى عنهم فارس، ولم يكن

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٠٠، ٤٠١).

رستم وهو يحدث زهرة يتحدث عن الوقت الحاضر، أو الوقت الماضي القريب، إنما يتحدث عن تجربة القرون الطويلة؛ قرابة ألفي عام لم يحدث أن فكر العرب بغزو فارس، إنما كان منتهى طموحهم رضاء كسرى عليهم وكما وصف رستم بالضبط.

(أنتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا، فكنا نحسن جوارهم، ونكف الأذى عنهم، ونوليهم المرافق الكثيرة؛ نحفظهم في أهل باديتهم، فنرعيهم مراعينا، ونميرهم من بلادنا، ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا).

فما هو الجديد الذي جدّ فحدا بالعرب أن يتحركوا بجيش قوامه قرابة أربعين ألفًا لغزو فارس؟

الإسلام... هو الجديد.

العقيدة التي جعلت العربي موفدًا من اللَّه إلى أمم الأرض ينقل لهم رسالته كما تلقى عن الرسول الصادق ﷺ، وكما لخصها زهرة بدقة، وأوضحها إلى رستم بجلاء: (صدقت قد كان ما تذكر، وليس أمرنا أمر أولئك ولا طِلبتنا، إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة).

ونقول لإخواننا المسيحيين في العالم العربي والإسلامي، والذين يريدون أن يُسوُّوا بين الإسلام والنصرانية في هذه الأمة، أن يقفوا بتطور وتجرد أمام هذا التغيير الفكري الذي نقل الأمة من التبعية إلى قيادة العالم.

ونحن لسنا بصدد المقارنة بين الدينين من حيث المبادئ، فنحن عندنا عيسى عليه الصلاة والسلام بالضبط حلقة الوصل بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

فالمسيحية عند العرب كما وصلت لهم قد سبقت الإسلام بستمائة عام، ولم تفعل أكثر من أن تكون عقيدة في الضمير، تعيش بجوار اليهودية والوثنية، ولو استمرت ألفي عام أخرى، فهي أصلًا رسالة بني إسرائيل، مهداة إلى العرب.

أما الإسلام بالنسبة للعرب والعربي فقد غيَّر تركيبه الفكري والنفسي كله، وجعله رسولًا إلى البشرية كلها، يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب.

نحن نتحدث عن أثر الإسلام ودوره في تغيير بناء الأمة، ولا نتحدث عن عقيدة مستسرّة في القلب لا تعدو الكنيسة أو المسجد، نحن في العام الرابع عشر للهجرة، أي بعد أقل من ربع قرن، وكان العرب الضائعون في الصحراء لمدة ألفي عام يقفون على حدود الإمبراطورية الفارسية اليوم ويوجهون الإنذار لقياداتها.

ولنعد إلى هذا الانقلاب العالمي الهائل في تاريخ البشرية كلها:

(... ثم بعث اللَّه - تبارك وتعالى - إلينا رسولًا، فدعانا إلى ربه فأجبناه، فقال لنبيه ﷺ: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرِّين به، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به أحد إلا عز)، ولم يكن رستم بالأحمق أو الأهوج مثل يزدجرد بل أُوتي خلاصة عقل فارس وعصارة تجاربها فسأله عن أهم مبادئ هذا الدين، واختار زهرة رضي الله عنه ثلاثة مبادئ رآها تمثل خلاصة هذا الدين، ولم يرمهم طفرة واحدة، إنما كان يقدمها حسب ترتيب الأولويات ومطالبة رستم بها.

الأولى: (أما عموده الذي لا يصلح منه شيء إلا به، فشهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه والإقرار بما جاء من عند اللَّه تعالى).

الثانية: (إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه تعالى) بحيث يكون الدين كله للَّه لا لأحد من خلقه.

الثالثة: (الناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم)؛ فالبشرية كلها متساوية في النسب، وإخوة لأب وأم، لا فضل لأحد على أحد، إلا من خلال تمسكه بهذا الدين، فبه يتفاوتون، وليس للعرب فيهم ذرة زيادة.

وأحب رستم بذكائه وعبقريته أن يختبر مدى تَمثُّل هذا الدين في واقع هذه الأمة الجديدة فأحرجه بقوله: أرأيت لو أني رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه، ومعي قومي كيف يكون أمركم؟ أترجعون؟).

ولم ينتظر زهرة رضي الله عنه أن يشاور أميره سعدًا في الجواب، أو يبعثون بالأمر إلى عمر أمير المؤمنين لاستشارته بهذا الأمر، لقد أجاب على التو، ودونما تلعثم أو تردد.

(إي والله، ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة).

وليس أمام هذه النصاعة في الجواب، والقناعة في المواقف إلا أن يعلن:

(صدقتني والله).

تُرى لو أن رستم الذي أعجبه هذا الدين، واقتنع به، وأقنع القيادات حوله، كم كان وَفَّر على البشرية من الدماء والأرواح، وبقيت الخيرات في فارس لأهل فارس، لكن الشيطان هو الذي ينفخ في عقول الطواغيت وقلوبهم، فراح الملأ حوله يتهمونه بالخور والجبن، وقد دعاهم إلى الإيمان بهذا الدين فقال:

(أبعدكم الله وأسحقكم، أخزى الله أخرعنا وأجبننا).

إنها خطة واحدة، عند طواغيت العرب والفرس والروم، حيث الحميّة حمية الجاهلية؛ فذاك عتبة بن ربيعة الطاغوت العربي الذي رأى في الإسلام مستقبل العرب كلهم، ثم دعا قريشًا إلى خطة رشد، وهي الامتناع عن قتال المسلمين في بدر.

فجاء أبو جهل طاغوت قريش الأكبر، وقال عن عتبة: انتفخ والله سحره [1] وجبن.

فصعدت الحمية الجاهلية عند عتبة، وأراد أن يثبت أنه بطل، وقال: سيعلم مُصَفِّرُ استه [2] أينا أجبن، فكان أول المبارزين في المعركة والمحادِّين لله ورسوله، هو وأخوه شيبة، وابنه الوليد، وكانوا أول وقود النار، وفيهم نزل قول الله ﷻ: ﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۝١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢].

وذلك الطاغوت الأكبر عند الروم قيصر والذي يعرف أن محمدًا حق، ودعا قومه للإسلام وقال: أرى من الرأي ألا تقاتلوا هؤلاء القوم، وأن تصالحوهم، فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام وتأخذوا نصفًا، وتقر لكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام، ويشاركوكم في جبال الروم، فنخر أخوه، ونخر ختنه،

---

(١) أي انتفخت رئته، ويقال للجبان: انتفخ سحره أي ملأ الخوف جوفه فانتفخت رئته حتى رفعت القلب إلى الحلقوم.

(٢) قيل: هو من الصفير، والمعنى ضَرَّاط، وقيل: من الصفرة؛ لأن أبا جهل كان يدهن إليتيه بالزعفران لبرص كان به.

وتصدع عنه من كان حوله، فلما رآهم يعصونه ويردون عليه بعث أخاه وأمّر الأمراء، ووجّه إلى كل جند جندًا) [(١)].

وها هو الطاغوت الفارسي رستم، ولأنه اتُّهم بالجبن، دخل المعركة وهو يعلم أنه خاسر.

الجولة الثالثة من المفاوضات: رستم وربعي بن عامر:

إذا كان اللقاء العشوائي الأول بين رستم وأحد الجنود المسلمين يمثل الجولة الأولى، واللقاء الثاني مع زهرة بن الحوية، قائد مقدمة سعد، فهذا اللقاء الذي نعرضه الآن هو اللقاء الثالث بين رستم قائد القوات الفارسية، ومبعوث سعدٍ ربعي بن عامر ﷺ.

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد وعمرو بإسنادهم مثله قالوا: وأرسل سعد إلى المغيرة بن شعبة، وبسر بن أبي رهم، وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن، وربعي بن عامر، وقِرفة بن زاهر التيمي ثم الواثلي، ومذعور بن عدي العجلي، والمضارب بن يزيد العجلي، ومعبد بن مرة العجلي - وكان من دهاة العرب - فقال: إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم؟

قالوا جميعًا: نتبع ما تأمرنا به، وننتهي إليه، فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شيء، نظرنا أمثل ما ينبغي، وأنفعه للناس؛ فكلمناهم به.

فقال سعد: هذا فعل الحزمة، اذهبوا فتهيأوا.

فقال ربعي بن عامر: إن الأعاجم لهم آراء وآداب، ومتى نأتهم جميعًا يروا أنا قد احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل.

فمالؤوه جميعًا على ذلك.

فقال: فسرحوني. فسرَّحه...) [(٢)].

ربعي عند رستم: الصورة والعرض:

(فخرج ربعي ليدخل على رستم عسكره، فاحتبسه الذين على القنطرة، وأرسل إلى رستم لمجيئه فاستشار عظماء أهل فارس، فقال: ما ترون؟ أنباهي أم نتهاون؟ فأجمع ملؤهم على التهاون فأظهروا الزبرج، وبسطوا البسط والنمارق، ولم يتركوا شيئًا، ووضع

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٢/٣٣٩).

لرستم سرير من ذهب، وألبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب...).

لقد أرادوا أن يبهروا هذا الأعرابي ويسلبوا لُبّه بهذه المفاتن من الدنيا، على أمل أن يسقط في الامتحان، وتستهويه الإغراءات والمباذل، هكذا كان ربعي في سرة الأرض وأعظم مدنها وعروس دنياها.

فكيف كان ربعي بن عامر ومنظره الرعيب؟؟؟

وأقبل ربعي يسير على فرس له قصيرة زباء [١]، معه سيف له مشوف [٢]، وغمده لُفافةُ ثوب خَلق [٣] ورمحه معلوب [٤] بقد، معه جحفة [٥] من جلود البقر، على وجهها أديم أحمر مثل الرغيف، ومعه قوسه ونبله، فلمّا غشي الملك، وانتهى إليه وإلى أدنى البساط، قيل له: انزل فحملها على البساط، فلما استوت عليه، نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما، ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهوه، وإنما أرادوا التهاون، وعرف ما أرادوا، فأراد استحراجهم، وعليه درع له كأنها أضاة [٦]، ويلمقه [٧] عباءة بعيره، قد جابها [٨] وتدرعها، وشدها على وسطه بسلب [٩]، وقد شد رأسه بمعجرته [١٠]، وكان أكثر العرب شعرة، ومعجرته نسعة بعيره، ولرأسه أربع ضفائر قد قمن قيامًا كأنهن قرون الوعلة.

فقالوا: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت، فأخبروا رستم، فقال: ائذنوا له؛ هل هو إلا رجل واحد، فأقبل يتوكأ على رمحه، وزُجّه نصل، يقارب الخطو، ويزج النمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطًا إلا أفسده، وتركه متهتكًا مخرَّقًا، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض، وركَّزَ رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟

قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه.

---

(١) زباء: كثيرة الشعر.

(٢) سيف مشوف: سيف مطلي.

(٣) لفافة ثوب خلق: لفافة ثوب عتيق بالٍ.

(٤) معلوب بقد: مشقوق طولًا.

(٥) جحفة: ما يتترس به.

(٦) كأنها أضاة: كأنها مستنقع من الوسخ الذي بها.

(٧) يلمق: قباء (فارسي معرب).

(٨) جابها: قطعها.

(٩) بسلب: بلحاء شجر.

(١٠) معجرته: بثوبه.

فكلمه فقال: ما جاء بكم؟

قال: اللَّه ابتعثنا، واللَّه جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها من دوننا.

ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود اللَّه.

قال: وما موعود اللَّه؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا.

قال: نعم، كم أحَبُّ لكم أيومًا أو يومين؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.

وأراد مقاربته ومدافعته.

فقال: إن مِمَّا سَنَّ لنا رسول اللَّه ﷺ، وعمل عليه أئمتنا، ألا نمكن الأعداء من آذاننا ولا نؤجلهم بعد اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثًا، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل؛ اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء، فنقبل ونكف عنك وإن كنت عن نصرنا غنيًّا تركناك منه، وإن كنت محتاجًا إليه منعناك، أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا. أنا كفيل بذلك على أصحابي، وعلى جميع من ترى.

قال: أسيدهم أنت؟

قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم.

فخلص رستم برؤساء أهل فارس. فقال: ما ترون؟ هل رأيتم كلامًا قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل؟!

قالوا: معاذ اللَّه لك أن تميل إلى شيء من هذا ، وتدع دينك لهذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟! قال: ويحكم، لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الكلام والرأي

والسيرة، إن العرب تستخف باللباس والمأكل، ويصونون الأحساب، ليسوا مثلكم في اللباس، ولا يرون فيه ما ترون.

وأقبلوا إليه يتناولون سلاحه ويزهدونه فيه، فقال لهم:

هل لكم إلى أن تُروني فأريَكم؟

فأخرج سيفه من خِرقته كأنه شعلة نار.

فقال القوم: اغمده، فغمده.

ثم رمى تُرسًا، ورموا جحفته، فخُرِق تُرسهم، وسلِمت جحفته، فقال:

يا أهل فارس إنكم عظمتم الطعام واللباس والشراب، وإنا صغرناهن ثم رجع إلى أن ينظروا في الأجل [(١)].

* * *

ربعي بن عامر ﷺ تميمي، وتميم أمنع قبائل العرب، لكننا نبحث عن ربعي هذا في كتب التراجم، فلا نجد له ذكرًا فيها، لكنه خريج هذه البيئة العربية الإسلامية، وأول دخوله التاريخ من خلال هذه الحرب، وهو ليس مجرد رجل قوي البنية، بل هو من عقلاء الأمة الكبار، ويكفي أنه هو الذي استطاع أن يغير رأي القائد سعد، ورأي جميع الدهاة الكبار في أن يكون الوفد واحدًا لا أكثر، معللًا ذلك بقوله:

إن الأعاجم لهم آراء وآداب، ومتى نأتهم جميعًا يروا أنا احتفلنا بهم، فلا تزدهم على رجل، فمالؤوه جميعًا على ذلك.

وكما فعل خالد ﷺ يوم غير تركيب الجيش في اليرموك وقال: فلنتعاور الإمارة ودعوني إليكم اليوم، فلم ينازع أحدٌ خالدًا في تقديم نفسه، ولم ينازع أحدٌ ربعيًا في تقديم نفسه.

إذ قال ربعي بعد أن أخذوا برأيه: فسرِّحوني، فسرَّحوه.

والصورة التي اختارها ربعي ﷺ ليقابل بها رستم تتناسب مع المبدأ الذي طرحه: (ومتى نأتهم جميعًا يرون أنا احتفلنا بهم).

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٠١، ٤٠٢).

لقد أدرك ربعي ﷺ بعبقريته، الخط الذي اختطته فارس في مواجهة المسلمين، حيث انتهوا بعد المشورة إلى إظهار التهاون بأمر المسلمين.

(فاستشار عظماء أهل فارس فقال: ما ترون؟ أنباهي أم نتهاون؟

فأجمع ملؤهم على التهاون.

وصحت توقعات ربعي كاملة. وكما يقول المثل: إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصارًا.

فقد بلغ التهاون عند ربعي منتهاه، ويكفي أن نرى الصورة (الكاريكاتيرية) لربعي هي صورة حقيقية لا يكاد المرء يصدقها لو لم يروها الثقات عند الطبري وهي تفوق (الكاريكاتير).

١ - فرس قصيرة كثيرة الشعر.

٢ - سيف قديم مطلي.

٣ - غمده لفافة ثوب خلق.

٤ - رمح مصدع مشقوق.

٥ - جحفة من جلود البقر.

٦ - على وجهها أديم أحمر مثل الرغيف.

٧ - معه ترسه ونبله.

٨ - قباؤه الذي يلبسه عباءة بعيره.

٩ - شدها بلحى شجرة.

١٠ - شد رأسه بثوب.

١١ - لرأسه أربع ضفائر.

١٢ - كأنها قرون الوعلة.

١٣ - وكان أكثر العرب شعرة.

هذا هو المنظر الخارجي الذي جاء به ربعي إلى رستم، محتقرًا كل مظاهر البذخ والترف التي رآها في إيوان رستم والتي نستعيدها لتكتمل الصورة:

١ - أظهروا الزبرج.

٢ - بسطوا البسط والنمارق.

٣ - لم يتركوا شيئًا.

٤- ووُضع لرستم سرير الذهب.

٥ - وألبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب.

على أمل أن يبهروه بهذه المناظر، فيسيل لعابه لدنياهم، ويطلب المصالحة باسم أميره.

إننا نقف في حقيقة الأمر أمام مظاهر حضارتين، ولنشهد بعد ذلك ما وراء المظاهر. لقد فقه ما عندهم فأقدم عندما وصل إلى الإيوان **على حركتين عجيبتين:**

الأولى: أوقف فرسه القصيرة الزباء على البساط المذَهَّب.

الثانية: نزل عنها وربطها بوسادتين شقهما ثم أدخل الحبل فيهما. (فلم يستطيعوا أن ينهوه، وإنما أروه التهاون وعرف ما أرادوا). وكانت لحظة الاختبار الأول لهذا الأعرابي. فقالوا: (ضع سلاحك).

فهل اهتز له شعرة، أو دخل في قلبه ذرة من رعب، أو انهار أمام هذه المظاهر؟؟ فماذا كان جوابه؟

(إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيَكم كما أريد رجعت).

لقد اهتز عظماء فارس لهذا الجواب، وكان كوقع الصاعقة عليهم، وتداعوا للتشاور في الأمر مع رستم، وهو الرجل الوحيد الذي كان يدرك سر هذا الأعرابي - وهو حريص على أن يسمع منه. ويكتشف ما وراء هذا المنظر النشاز فقال:

(ائذنوا له، هل هو إلا رجل واحد).

وها هو بسلاحه الكامل يزدري ويحتقر هذه المظاهر الخادعة، بالتهاون نفسه الذي حرصت فارس على أن تقابل به المسلمين.

(فأقبل يتوكأ على رمحه، وزُجُّه نصل، يقارب الخطو ويزج النمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطًا إلا أفسده وتركه منهتكًا مخرقًا.

فلما دنا من رستم، تعلق به الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه بالبسط فقالوا: ما حملك على هذا.

قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم).

إنه يرى نفسه أرفع من هذه الزينة كلها، فلا يريد أن يجلس عليها.

وخشي رستم من تحديات أكثر من ربعي، أو إثارة له، تغضب أهل فارس وتستفزهم، وتطالب بقتله، فتدارك الأمر، ودخل مباشرة بالحديث والسماع لما عنده. فكلمه. فقال: ما جاء بكم؟

لقد لخص الحضارة الإسلامية والرسالة الإسلامية بثلاث جمل مضت مثلًا في التاريخ، ونتحدى كل أمم الأرض ورسالاتها أن تحمل أعظم من هذه المفاهيم.

لقد تكلم كل أعضاء الوفود بكلام بليغ، يكاد كلام واحدهم ينسي الكلام الآخر، ما بين إسهاب وإيجاز، ولم يخرج واحد منهم بكلمة عن الثوابت العليا التي جاء بها الإسلام، ولكل دبلوماسي فنّه وطريقته التي تناسب المقام الذي يتكلم به، لكن ما تكلم به ربعي تجاوز الحدود والسدود وأصبح مثلًا يحتذى؛ بما يملك من إيجاز وبلاغة وعمق يستطيع كل مسلم في الأرض أن يحفظه لكونه السهل الممتنع، ويقدمه لكل أمم العالم.

(قال: ما جاء بكم؟

قال: اللَّه ابتعثنا، واللَّه جاء بنا).

فهم رسل اللَّه إلى خلقه، ليحرروهم ويهدوهم بهداية اللَّه تعالى.

(لنخرج من شاء...).

فهذه الهداية لا تفرض على الإنسان، وهذا التحرير لا يفرض على الإنسان، لأن اللَّه تعالى لو شاء أن يفرضه لفرضه من البداية، منذ خلق الإنسان، لكن حكمة خلقه تكمن في: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

(لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه.

ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام).

فإذن هو لا يريد أن يخرج البشر من سعة الدنيا إلى ضيقها، كما ظهر في احتقاره لزينة الفُرس، لكنه يريد أن تكون هذه السعة ضمن منهج العدل الرباني الذي ليس فيه بغي ولا طغيان.

إن القضية الكبرى التي تعاني منها البشرية منذ وجودها إلى اليوم هو تحرير الإنسان من عبودية العباد إلى عبادة الله، بينما يصر الآخرون من غير المسلمين على أن القضية الكبرى التي تعاني منها البشرية منذ وجودها إلى اليوم هي حرية الإنسان.

الفرق كبير إذن بين (الحرية) و (التحرير).

فالحرية هي خروج من إسار إلى إسار ومن عبودية إلى عبودية.

والحرية لا يمكن أن تكون حرية طالما يوجد التشريع بيد الإنسان نفسه لأن من طبيعة الإنسان أن يطغى، ومن طبيعته أن يظلم، ومن طبيعته أن يتبع هواه، لكن نزع التشريع للبشر من يد الإنسان وتَلَقِّي التشريع من رب الإنسان هو الذي يضمن التحرير الحقيقي للإنسان.

نعم قد تختلف النسبة في الظلم بين جيل وجيل، وتشريع وتشريع، وحرية وحرية، لكن طالما أنها بيد الإنسان، فلا بد أن يطغى، وسلطة الشعب ليست كافية لكفه عن طغيانه، إنما سلطة التشريع الرباني هي صمام الأمان الوحيد لحفظ الإنسان من الظلم والطغيان.

فإذن كما علمنا هذا الأعرابي العظيم الذي شهدنا صورته من قبل، أن المهمة الأولى لرسل الله ولجنود الله هي: لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله.

وثمرة هذا التحرير هو الخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها، والأمة المسلمة قوَّامة على تحقيق هذا الهدف، وهذا كله من خلال الشريعة الربانية التي تخرج من يريد من جور الأديان إلى عدل الإسلام، فليس على الأرض منذ أن أكمل الله رسالته لخلقه شريعة غير هذه الشريعة تنسخ ما قبلها وتستوعب ما بعدها: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

فإذن هم قادمون لهذه المهمة، فما هو الموقف مع الناس حين يرفضونها أو يقبلونها؟

(فأرسلَنا بدينه إلى خلقه لندعوَهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا).

فالرسول قادم بمهمة من ربه، وليس آتيا ليستعمر أو يستعبد أو يستذل. (قبلنا منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا).

لقد سأله: ما جاء بكم؟ وكان هذا هو الجواب:

(ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود اللَّه). وقد اختصر هنا الخيار الثالث، حيث عاد ففصله فيما بعد، لأنه هنا يريد أن يسمع رستم المجلل بالكبرياء والتفاخر بالقوة التي بطر بها وقومُه، أن ما عند اللَّه أعظم بكثير مما عند الأكاسرة والقياصرة.

قال: وما موعود اللَّه؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢].

الثلاث مع الثلاث:

لعل رستم وحده هو الذي استوعب مقالة ربعي بن عامر بكل أبعادها، ومن أجل ذلك طلب التريث ليتشاور مع أركان مملكته قائلًا له:

(قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟

قال: نعم، كم أحَبُّ إليكم يومًا أو يومين؟

قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا).

هذا هو الجديد الذي جاء به ربعي ﷺ وهو تحديد الزمن للمواجهة، وربط ذلك بالأمر النبوي:

(إن مما سن لنا رسول اللَّه ﷺ وعمل عليه أئمتنا أن لا نمكن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثًا).

هذه هي الثلاث الأولى.

أما الثلاث الثانية فهي الخيارات التي وضعها ربعي ﷺ بين يدي رستم:

(فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.

- اختر الإسلام وندعَك وأرضك.

- أو الجزاء فنقبلَ منك ونكفَّ عنك، وإن كنت عن نصرنا غنيًّا تركناك منه، وإن كنت محتاجًا منعناك.

- أو المنابذة في اليوم الرابع.

- ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا.

- أنا كفيل لك بذلك علىأصحابي وعلى جميع من ترى).

إن هذه الخيارات الثلاث، كان خياران منهما واضحًا في العرض الأول، وهما الأول والثالث، أما الخيار الثاني فلم يذكره ربعي إلا ها هنا وقد ذكره بأسلوب مثير جدًا.

فالجزاء يعني الدخول في سِلم مع المسلمين، فلا حرب بين الطرفين ونفقه معنًى جديدًا هنا في مفهوم الجزاء لم نلقه من قبل فالدخول في سِلم مع المسلمين، لا يعني زوال سلطان الفرس أو خضوعهم لسلطان الإسلام، إنما يعني التعايش بين الفريقين.

(وإن كنت عن نصرنا غنيًا تركناك منه).

فليست الجزية هنا مقابل نصر الفرس وحمايتهم، إنما الجزية مقابل السلم والتعايش بين الفريقين، والنصرة حق لصاحب الجزية وليست واجبًا على المسلمين، قائمة على رغبة الذين يدخلون في ذمة المسلمين: (وإن كنت محتاجًا منعناك).

لكن الجمال في العرض هو هذه الثقة العظمى في النصر التي تصل إلى درجة حاجة أباطرة الفرس إلى نصر المسلمين ويكون ذلك لهم إن دفعوا الجزية.

والذي أذهل رستم أن هذا الأعرابي العجيب يتكلم باسم ثلاثين ألفًا من المسلمين، ويعلن لرستم: (أنا كفيل لك بذلك على أصحابي، وعلى جميع من ترى).

أي ثقة هائلة يتكلم بها هذا الأعرابي، أن يمضي أمره ورأيه على الجيش كله، وهو جندي عابر في الجيش، مما حدا برستم أن يسأله:

(أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم).

هذا الأمر لم يشهد له رستم مثيلًا في حياته، أن يمضي أدنى جندي في الجيش إجارته ورأيه وعقده السلام والحرب على الجيش كافة، وهذا كذلك لم تشهده أم الأرض قاطبة.

أثر الحوار في البلاط الفارسي:

لقد جمع رستم رؤساء أهل فارس، ولعله كان أعقلهم، ودعاهم إلى دراسة هذا الخطر الذي لم تشهده فارس في حياتها من قبل حتى مع إمبراطورية الروم، فلقد غزاه هذا الكلام وغير نظرته وتركيبه، حيث انتقل من التأثر بالتنجيم والنجوم إلى معاينة الأمر الواقع: (قال: ما ترون؟ هل رأيتم كلامًا أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل؟).

وكيف يدرك الذين يبطرون طيلة حياتهم أبعاد كلام هذا الأعرابي الذي يحتقرونه ويزدرون منظره وهيأته. ونخروا نخرة رجل واحد، كما نخر عظماء الروم عند هرقل نخرة رجل واحد، قائلين: (معاذ اللَّه لك أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك لهذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه) ونهش الغيظ قلب رستم لحمق من حوله وعجرفتهم قائلًا لهم: (ويحكم! لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الكلام والرأي والسيرة).

إنه يحاول أن يفتح عيونهم العمي، وآذانهم الصم، وقلوبهم الغلف ليدركوا أبعاد ما يهددهم من خطر. (إن العرب تستخف باللباس والمأكل، ويصونون الأحساب، ليسوا مثلكم في اللباس ولا يرون فيه ما ترون).

وأحب العظماء أن يثبتوا خطل رأي رستم حين راحوا يلعبون ويستخفون بسلاحه فما كان من ربعي ﷺ إلا أن قال لهم: (هل لكم إلى أن تُروني وأُريَكم).

فأخرج سيفه من خِرقه كأنه شعلة نار.

وتزلزل القوم فقالوا: اغمده.

ثم رمى تُرسًا ورموا جحفته.

فخُرِق ترسهم، وسلمت جحفته.

وكانت الكلمة الأخيرة من ربعي صاعقة على رؤوسهم، بعد أن أراهم وأروه.

(يا أهل فارس إنكم عظمتم الطعام واللباس والشراب، وإنا صغرناهن.

ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل).

ولا يزال رستم يود أن يستغل هذه الأيام الثلاثة، لعله يستطيع أن يؤثر في قناعات مجلس شوراه، فطلب من المسلمين أن يعود إليهم ربعي ثانية فجاءهم حذيفة ابن محصن الغلفاني.

الجولة الرابعة من المفاوضات: رستم وحذيفة بن محصن الغلفاني:

المسلمون يعلمون أنهم على أهبة حرب عالمية تقرر مصير العالم، ومن أجل هذا طالت المفاوضات والدعوة إلى الله بتنوع الأساليب، وتنوع الأشخاص حتى يُعذر المسلمون إلى ربهم أنهم قد بلغوا الدعوة إلى الله قبل المواجهة، وأرسل سعد ﷺ وجهًا جديدًا هو من جيران أهل فارس - بينما كان ربعي من قلب الصحراء العربية - ومن أهل عُمان في المنطقة الشرقية المجاورة لفارس.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف: فلما كان من الغد بعثوا أن ابعث إلينا ذلك الرجل، فبعث إليهم حذيفة بن محصن، فأقبل في نحو من ذلك الزي، حتى إذا كان على أدنى البساط، قيل له: انزل.

قال: ذلك لو جئتكم في حاجتي؛ فقولوا لملككم: أله الحاجة أم لي؟ فإن قال لي فقد كذب ورجعت وتركتكم، فإن قال: له. لم آتكم إلا على ما أحب.

فقال: دعوه.

فجاء حتى وقف عليه ورستم على سريره، فقال: انزل.

قال: لا أفعل.

فلما أبى سأله: ما بالك جئت ولم يجئ صاحبنا بالأمس؟

قال: إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا بالشدة والرخاء، فهذه نوبتي.

قال: ما جاء بكم؟

قال: إن الله ﷻ منَّ علينا بدينه؟ وأرانا آياته، حتى عرفناه وكنا له منكرين.

ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث، فأيها أجابوا إليها قبلناها:

- الإسلام، وننصرف عنكم.
- أو الجزاء، ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك.
- أو المنابذة.

فقال: أو الموادعة إلى يومٍ ما؟

قال: ثلاثًا من أمس.

فلما لم يجد عنده إلا ذلك، ردَّه وأقبل على أصحابه، فقال:

ويحكم! ألا ترون إلى ما أرى.

- جاءنا الأول بالأمس، فغلبنا على أرضنا، وحقَّر ما نعظم، وأقام فرسه على زِبْرِجِنا، وربطه به فهو على يمن الطائر، ذهب بأرضنا وما فيها إليهم، مع فضل عقله.

- وجاءنا هذا اليوم، فوقف علينا، فهو في يمن الطائر يقوم على أرضنا دوننا.

حتى أغضبهم وأغضبوه.

فلما كان من الغد أرسل: ابعثوا لنا رجلًا، فبعثوا إليهم المغيرة بن شعبة) [1].

الجديد في هذه الوفادة الرابعة هو أن لكل عبقري طريقته في الإثارة، فإذا كان ربعي قد رفض أن ينزع سلاحه، واستدعى ذلك اجتماعًا طارئًا للسماح له بالدخول بسلاحه، فحذيفة ﷺ رفض أن ينزل على أدنى البساط، فاستدعى هذا الأمر اجتماعًا طارئًا كذلك، حتى أذن له.

فبقي على فرسه يجوس بها البُسُطَ والزِّبرِجَ والوسائد حتى وصل إلى رستم، ورفض أن ينزل عن فرسه، ورستم جالس على سريره، وجن جنون الفرس من هذه الإهانة لكن الرسل لا تُقتَل، وأقدم رستم بمبادرته كما أقدم مِن قبل، قبل أن يستفحل الأمر، وكرر السؤال نفسه: ما جاء بكم؟

وسمع الجواب نفسه بصيغة أخرى، وحاول تمديد الهدنة فلم يفلح، ولا جديد نتحدث عنه إلا استنتاج رستم بعبقريته مغزى تصرف ربعي الوافد الثالث، ومغزى تصرف حذيفة الوافد الرابع.

فربعي ﷺ حين مشى على البساط له هدفان في وقت واحد، أن يغلبهم على أرضهم، ويحقر ما يعظمون، بينما حقق حذيفة هدفه الأبعد: (يقوم على أرضنا دوننا)، وذلك حين قام على رأس رستم ورستم جالس.

وأدى هذا الفهم إلى خلاف جديد في الرأي بين رستم ومجلس شوراه ورؤساء أركانه، ومع هذا فلا يزال هناك يوم قبل اندلاع الحرب، لعله يستطيع تأخيرها أو إقامة صلح مع العرب، فأرسل إلى المسلمين يطلب وافدًا ثالثًا، وكان ما يريد.

(فبعثو إليهم المغيرة بن شعبة).

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٠٢).

الجولة الخامسة: رستم والمغيرة:

إذا كنا مع ربعي ﷺ وهو من أفصح العرب بيانًا، فنحن الآن مع المغيرة أدهى العرب قاطبة، ولئن كانت تميم أمنع العرب فثقيف أدهى العرب، ولا بد أن يلتقي رستم مع كل النماذج العربية، ومع كل ما أخرجت عبقرية الجزيرة العربية شرقها ووسطها وغربها، وهذا المغيرة من الحجاز غرب جزيرة العرب. وإذا كان هناك ما يمكن أن نسميه حوارًا فهو مع المغيرة؛ لأنه استطاع أن يفتح النقاش مع رستم، ويبرز من خلاله عبقرية الحوار بين العرب والعجم.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن أبي عثمان النهدي قال:

لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس حبسوه واستأذنوا رستم في إجازته ولم يغيروا شيئًا من شارتهم تقوية لتهاونهم، فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم في زيهم، عليهم التيجان والثياب المنسوجة في الذهب، وبسطهم على غلوة [(١)] لا يمشي إلى صاحبهم حتى يمشي عليهم غلوة.

وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي، حتى جلس معه على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فترتروه [(٢)] وأنزلوه ومغثوه [(٣)] فقال:

كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قومًا أسفه منكم.

إنا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضًا إلا أن يكون محاربًا لصاحبه، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكنكم دعوتموني اليوم، علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون، وأن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول).

لم يكن يغيب عن ذهن المغيرة ﷺ ما نزل به حين قرر الجلوس بجوار رستم، وهذا الأمر مقصود بحد ذاته؛ إنه يريد أن يلفت نظر كل أولي الرأي وأصحاب القرار، ولن يتم هذا الاهتمام الذي يريده إلا بمثل هذا التصرف الخطير الذي يثير كل مشاعرهم

---

(١) غلوة: مقدار رمية سهم ويقدر بثلاثمائة ذراع. (٢) ترتروه: أخذوه بالقوة.

(٣) مغثوه: ضربوه ضربًا ليس بالشديد.

وكرامتهم، ويعتبرونه تحديًا لدولتهم وقيادتهم من هؤلاء الأعراب القادمين من الصحراء... داهيتنا اليوم من نوع لم نألف مثيلًا له أبدًا، فضرب الضربة القاضية التي تُوْدي، وجلس بجوار رستم، فعنفوه وضربوه، وأقاموه من جواره، وكان هذا - ظاهرًا - على حساب كرامته وشخصه، لكن المهمة التي يريد وهي استحواذ انتباه الجميع لما سيقوله قد تحققت.

وكانت كلماته بعد إنزاله عن سرير رستم - والذي لم يجرؤ عربي ولا فارسي على فعله غيره مثل الصواعق واحدة إثر إخرى، صواعق كهربائية، أشعلت النار في المشهد كله.

- كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قومًا أسفه منكم.

إنها جرأة الداهية الداعية الذي يعرف متى يقدم وكيف يحجم ومتى يحجم، والآن وقت إلهاب النار وإيقادها بعد أن أوقد المشاعر الغافية.

من هذا الذي يقول أمام رستم عن قومه: لا أرى قومًا أسفه منكم؟!

إن ما يفعله اليوم دعاة الشيوعية من الحديث عن صراع الطبقات والذي لا يتم إلا بالدم يود اليوم أن يؤججه بالفهم.

فماذا كان تعليله لسفاهة العجم؟

- إنا معشر العرب سواء، ولا يستعبد بعضنا بعضًا إلا أن يكون محاربًا لصاحبه.

ثم كانت القذيفة الثالثة:

- وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض.

وكانت القذيفة الرابعة تحمل في طياتها الاستهزاء والسخرية:

- وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه.

وكانت القذيفة الخامسة لإيقاف نار الهجوم عليه، وإشعارهم أنه رسول:

- ولم آتكم ولكنكم دعوتموني.

وكانت القذيفة السادسة لمتابعة نار الهجوم عليهم:

- اليوم علمتُ أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون.

وكانت القذيفة السابعة والأخيرة:

- وأن مُلكًا لا يقوم على هذه السيرة وعلى هذه العقول.

يمكننا القول أن الجملة الخالدة التي أطلقها ربعي ﷺ، والتي لم يفقهها إلا العلية من أصحاب رستم: - اللَّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه.

هذه الجملة قد جسدت بفيلم سينمائي أخّاذ أخرجه المغيرة بن شعبة ﷺ وأشرك حرس رستم وسدنته في تمثيله، وكان الجمهور هو كل القيادات الفارسية، وأدرك رستم أن الأمر قد هز كل من حوله بلا استثناء، وكان رستم أدرك أنه خسر الجولة الأولى مع خصمه وعند قومه.

وحاول تدارك ما فاته، فسارع للاعتذار للمغيرة بقوله: (يا عربي إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك، فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك، فالأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق).

ولكننا قبل أن نتابع مشاهد الساحة لا بد أن نتابع آثار هذا (الفيلم) الذي أخرجه المغيرة وساهم في تمثيله، فقد حقق هدفه كاملًا.

فقالت السفلة: (صدق واللَّه العربي).

وقالت الدهاقين: (واللَّه لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل اللَّه أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة).

وأخرج رستم عبقريته ليخرج فيلمًا جديدًا مع المغيرة، وعرف أنه ليس أمام رجل عادي، إنه أمام أحد عباقرة الدنيا فراح يستخف بسلاحه قائلًا: (ما هذه المغازل التي معك؟) إشارةً إلى الكنانة والسهام التي يحملها.

قال المغيرة: ما ضر الجمرة ألا تكون طويلة، (ثم راماهم) كما فعل سلفه من قبل.

قال رستم: ما بال سيفك رثًّا؟

قال: رث الكسوة حديد المضربة. ثم عاطاه سيفه (كما فعل سلفه من قبل).

الحوار بين رستم والمغيرة:

وبدا أن رستم يريد أن يستعيد هيبة الملك، وعرف أن انتصاره على المغيرة هو إعادة للروح المعنوية التي انهارت عند قياداته.

(ثم قال له رستم: تكلّم أم أتكلّم؟

فقال المغيرة: أنت الذي بعثت إلينا فتكلم.

فأقام الترجمان بينهما، وتكلم رستم، فحمد قومه وعظم أمرهم وطوَّله وقال:

لم نزل متمكنين في البلاد، ظاهرين على الأعداء، أشرافًا في الأمم، فليس لأحد من الملوك مثل عزنا وسلطاننا، نُنصَر على الناس ولا يُنصَرون علينا إلا اليوم واليومين أو الشهر أو الشهرين للذنوب، فإذا انتقم اللّه فرضي رد إلينا عزنا، وجَمَعْنا لعدونا شرَّ يوم هو آت عليهم.

ثم إنه لم يكن في الناس أمة أصغر عندنا أمرًا منكم، كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة، لا نراكم شيئًا ولا نعدكم، وكنتم إذا قحطت أرضكم وأصابتكم السنة استعنتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ثم نردكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وبثوبين، وتنصرفون عنا، فإني لن أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم) [١].

لا شك أن رستم يخفي الحقيقة في نفسه، ولم يطاوعه قومه في الهدنة ولا المصالحة، وإلا سيخسر شرفه ورياسته فيهم، وهو يدرك تمامًا أن وضع العرب اليوم غيرهم في الأمس، وما سمعه في الجولات الأربع كافٍ لأن يقنعه بأن الأمة قد تغيرت برسولها الجديد، ورأى من احتقار الدبلوماسيين الإسلاميين لكل ثرائهم وترفهم، ما يؤكد أنهم ليسوا طالبي مال، ولا طالبي شرف، لكنه وكما فعل هرقل يعيد الدور نفسه، ويكذب على نفسه، ويتحدث عن أمجاده وبطولاته، ولم ينس أبدًا تلك الرؤيا الكريهة المدمرة التي رآها، وعرف أنه إنما يحارب القدر، ويحارب اللّه ورسوله. وكما روى مجاهد عن الشعبي قال: (كان رستم منجمًا فكان يبكي مما يرى، ويقدم عليه، فلما كان بظهر الكوفة، رأى أن عمر دخل عسكر فارس، ومعه ملك، فختم على سلاحهم، ثم حزمه ودفعه إلى عمر) [٢].

والرؤيا الكريهة الثانية كما روى سعيد بن المرزبان. قال: (فلما أصبحوا من ليلتهم

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٠٣).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٠٠).

بشاطئ العتيق، غدا منجم رستم برؤيا أُرِيها من الليل، قال: رأيت الدلو في السماء، دلوًا أفرغ ماؤه، ورأيت السمكة سمكة في ضحضاح من الماء تضطرب، ورأيت النعائم والزهرة تزدهر، قال: ويحك هل حدثت بها أحدًا. قال: لا. قال: فاكتمها)[1].

لم يعد على المسلمين بأس ولا حرج، فقد بلغوا الدعوة إلى اللّه إلى أهل فارس، إمبراطورهم وقائد جيشهم مرة تلو مرة حتى تجاوزت المرات الست، وبقي الكلام كله منصبًّا على الرسول والرسالة، والوحدانية واليوم الآخر، لكننا نرى في هذا الحديث على هذا المستوى وبهذا التحليل والمنطقية والمناقشة، ما يمكن أن ننتزعه من هنا لنضعه في مصاف حوار الحضارات اليوم، وهي جلسة يعرض فيها أعاظم العرب والعجم ما عندهم، وبعد عرض رستم لوجهة نظره كاملة، مع كل محاولات الاستثارة والاستفزاز كرد على استفزاز المغيرة السابق، لكنه بقي عرضًا حضاريًّا متكاملًا، واستعراضًا منطقيًّا شاملًا، فماذا في جعبة المغيرة؟ خاصة أنه ربط نصر فارس على الأمم بقدر اللّه النافذ، وإرادة اللّه الغالبة بتتويج فارس على قيادة الأمم.

(فتكلم المغيرة بن شعبة، فحمِد اللّه وأثنى عليه وقال:

إن اللّه خالق كل شيء ورازقه، فمن صنع شيئًا فإنما هو الذي يصنعه هو له.

– وأما الذي ذكرت به نفسك، وأهل بلادك من الظهور على الأعداء، والتمكن في البلاد وعظم السلطان في الدنيا، فنحن نعرفه، ولسنا ننكره، فاللّه صنعه بكم، ووضعه فيكم وهو له دونكم).

إن من فن الحوار أن تحدد نقاط اللقاء مع خصمك، ونقاط الخلاف، حتى لا يضيع الوقت عبثًا في الحديث عن نقاط اللقاء والوقت هنا من ذهب، فبينه وبين الحرب يوم واحد.

فقد أكد المغيرة ابتداءً أن اللّه – تعالى – هو الذي صنع بهم ما صنع، وهي نقطة ارتكاز مهمة، يريدالمغيرة أن يبني عليها كل نظريته.

وتابع المغيرة عرضه الأخّاذ: (وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال، وضيق المعيشة، واختلاف القلوب، فنحن نعرفه ولسنا ننكره، واللّه ابتلانا بذلك، وصيَّرنا إليه، والدنيا دول).

---

(١) تاريخ الطبري (٣٩٩/٢).

فها هو المغيرة ينقض نظرية رستم بعد اعترافه بواقع العرب المتخلف ذلك بمبدأ أساسي، وثابت من ثوابت الحياة ألا وهو أن: الدنيا دول.

ويستدل على هذه النظرية وأبعادها قال: (والدنيا دول ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم، ويصيروا إليها).

وبدأ يضرب الأمثلة على صحة نظريته من الواقع كذلك، ويفند دعاوى اختيار اللَّه لفارس من بين الأمم، وينقض النظرية الكسروية الإلهية التي قام عليها دين فارس:

(ولو كنتم فيما آتاكم اللَّه ذوي شكر كان شكركم يقصر عما أوتيتم، وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال.

ولو كنا فيما ابتلينا فيه أهل كفر، كان عظيم ما تتابع علينا مستجلبًا من اللَّه رحمة يرفِّهُ به عنا، ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه، أو كنتم تعرفوننا به).

وبعد أن أبرز نظريته كاملة، عاد فتحدث عن الانقلاب الكوني الجديد بالرسالة النبوية الخالدة، وأنهم بحاجة إلى أن يصيخوا إلى هذا الدين الجديد المنزل من عند اللَّه.

وطوى التاريخ النص الكامل الذي عرضه المغيرة ﷺ، مكتفيًا بأنه عرض سابقيه من الخيارات الثلاثة. لكنه نقل لنا نهاية الحديث الذي وصل فيه الحديث إلى ذروته، والتحدي إلى قمته، فالحرب قائمة.

وإذا كان ما عند رستم هو التعامي عن دين اللَّه وتجاهله، واستعمل لغته الاستعمارية والاستخفاف بهم متجاهلًا رسالة اللَّه إلى خلقه عارضًا هذا العرض المزري: (... فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكل رجل منكم بِوِقر تمر وثوبين وتنصرفون عنا، فإني لست أشتهي أن أقتلكم وآسركم). كان الجواب الذي يمثل أعلى مستوًى من التحدي والازدراء يتناسب مع هذا العرض: (... ثم ذكر مثل الكلام الأول، حتى انتهى إلى قوله: وإن احتجت إلينا أن نمنعك فكن لنا عبدًا تؤدي الجزية عن يد وأنت صاغر وإلا فالسيف إن أبيت!! فنخر نخرة، واستشاط غضبًا، ثم حلف بالشمس لا يرتفع لكم الصبح غدًا حتى أقتلكم أجمعين) [1].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٠٢، ٤٠٣).

لا شك أنها أعظم كلمة تحدٍّ سمعها قائد الفرس في تاريخه، وتاريخ العرب والفرس على الإطلاق (فكن لنا عبدًا تؤدي الجزية عن يد وأنت صاغر).

وفي رواية أخرى بالسند نفسه: (... إلى إحدى ثلاث خلال، إلى الإسلام ولكم فيه ما لنا وعليكم فيه ما علينا، ليس فيه تفاضل بيننا، أو الجزية عن يد وأنتم صاغرون.

قال: ما صاغرون؟

قال: أن يقوم الرجل منكم على رأس أحدنا بالجزية يحمده أن يقبلها منه - إلى آخر الحديث - والإسلام أحب إلينا منهما) (١).

وفي رواية ثالثة بالسند نفسه (السري عن شعيب عن سيف)، لقطة تتناسب مع عروض رستم (فقال المغيرة مجيبًا له: فذكر النبي ﷺ وقال: فكان مما رزقنا الله على يديه حبة تنبت في أرضكم هذه، فلما أذقناها عيالنا، قالوا: لا صبر لنا عنها، فجئنا لنطعمهم أو نموت، فقال رستم: إذن تموتون أو تقتلون، فقال المغيرة: إذن يدخل من قتل منا الجنة، ويدخل من قتلنا منكم النار، ويظفر من بقي منا بمن بقي منكم فنحن نخيرك بين ثلاث خلال... إلى آخر الحديث.

فقال رستم: لا صلح بيننا وبينكم) (٢).

ترى هل هذا هو الموقف النهائي لرستم؟

لقد كان موقفه نسخة عن موقف هرقل قبله تكرر مرتين:

المرة الأول: عندما قدم عليه كتاب رسول الله ﷺ (فأمر هرقل ببطارقة الروم، فجمعوا له في دسكرة، وأمر بها فأشرجت أبوابها عليهم، ثم اطلع عليهم من علية له، وخافهم على نفسه، وقال: يا معشر الروم، إني قد جمعتكم لخبر، إنه أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه، وإنه والله لَلنّبي الذي كنا ننتظره ونجده في كتبنا، فهلموا فلنتبعه ونصدقه، وتسلم لنا دنيانا وآخرتنا.

قال: فنخروا نخرة رجل واحد، ثم ابتدروا أبواب الدسكرة ليخرجوا منها فوجدوها قد أغلقت، فقال: كروهم علي، وخافهم على نفسه، فقال:

يا معشر الروم إني قد قلت لكم المقالة التي قلت لأنظر كيف صلابتكم في دينكم لهذا الأمر الذي حدث، وقد رأيت منكم الذي أُسَرُّ به، فوقعوا له سُجدًا، وأمر بأبواب

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٠٣).

(٢) المصدر نفسه (٢/٤٠٤).

الدسكرة ففتحت لهم فانطلقوا) [١].

المرة الثانية: وهو موقف هرقل الذي كان قبيل اليرموك، فجسده موقف رستم قبل القادسية.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف - قالوا:

وقد كان هرقل حج قبل مهزم خالد بن سعيد، فحج بيت المقدس، فبينا هو مقيم به أتاه الخبر بقرب الجنود منه، فجمع الروم وقال:

أرى من الرأي ألا تقاتلوا هؤلاء القوم، وأن تصالحوهم، فواللّه لأن تعطوهم نصف ما أخرجت الشأم، وتأخذوا نصفًا، وتقر لكم جبال الروم، خير لكم من أن يبلغوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم.

فنخر أخوه، ونخر ختنه، وتصدع عنه من كان حوله.

فلما رآهم يعصونه، ويردون عليه، بعث أخاه، وأمر الأمراء، ووجَّه إلى كل جند جندًا فلما اجتمع المسلمون أمرهم بمنزل واحد واسع جامع حصين، فنزلوا بالواقوصة، وخرج فنزل حمص فلما بلغه أن خالدًا قد طلع على سوى، وانتسف أهله وأموالهم، وعمد إلى بصرى وافتتحها، وأباح عذراء، قال لجلسائه: ألم أقل لكم لا تقاتلوهم؟ فإنهم لا قوام لكم مع هؤلاء القوم، إن دينهم دين جديد يجدد لهم ثبارهم، فلا يقوم لهم أحد حتى يبلى. فقالوا: قاتل عن دينك ولا تجبن الناس، واقض الذي عليك. قال: وأي شيء أطلب إلا توفير دينكم) [٢].

ولنعد بعدها إلى موقف رستم:

(فانصرف المغيرة وخلص رستم تألفًا بأهل فارس، وقال: أين هؤلاء منكم؟ ما بعد هذا؟ ألم يأتكم الأولان فحسراكم واستحرجاكم، ثم جاءكم هذا، فلم يختلفوا، وسلكوا طريقًا واحدًا، ولزموا أمرًا واحدًا، هؤلاء واللّه هم الرجال، صادقين كانوا أم كاذبين، واللّه لئن كان بلغ من إربهم وصونهم لسرهم ألا يختلفوا. فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم، لئن كانوا صادقين ما يقوم لهؤلاء شيء، فلجوا وتجلدوا وقال: واللّه إني لأعلم أنكم تصغون إلى ما أقول لكم، وإن هذا منكم رئاء.فازدادوا لجاجة) [٣].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/١٣٠).

(٢) المصدر نفسه (٢/٣٣٩).

(٣) المصدر نفسه (٢/٤٠٣).

ونودع المغيرة ﷺ في رواية أخيرة، نتابع فيها مستوى الحوار بين الرجلين.

(فأرسل مع المغيرة رجلًا وقال له:

إذا قطع القنطرة ووصل إلى صاحبه فناد:

إن الملك كان منجمًا قد حسب لك ونظر في أمرك، فقال:

إنك غدًا تفقأ عينك.

ففعل الرسول.

فقال المغيرة: بشرتين بخير وأجر، ولولا أن أجاهد اليوم أشباهكم من المشركين لتمنيت أن الأخرى ذهبت أيضًا.

فرآهم يضحكون من مقالته، ويتعجبون من بصيرته، فرجع إلى الملك بذلك).

وكانت المحاولة الأخيرة من رستم يتفادى بها فناء قومه، وهو يراه رأي العين.

(فقال: أطيعوني يا أهل فارس. وإني لأرى للّه فيكم نقمة لا تستطيعون ردها عن أنفسكم) [(١)].

ولكن لا حياة لمن تنادي.

(وكانت خيولهم تلتقي على القنطرة لا تلتقي إلا عليها، فلا يزالون يبدؤون المسلمين والمسلمون كافُّون عنهم الثلاثة الأيام، لا يبدؤونهم، فإذا كان ذلك منهم صدوهم وردعوهم).

الجولة السادسة والأخيرة: رستم والوفد:

لقد كان المسلمون أصحاب رسالة، ولم يكونوا أصحاب نزوة طارئة، أو طمع قابع في نفوسهم، أو شهوة طاغية، ومن أجل ذلك قام القائد الرباني سعد ﷺ في محاولته الأخيرة، وفي اليوم الأخير من الأيام الثلاثة، بكل الوسائل الدبلوماسية الممكنة لتجنب هذه الحرب العالمية، ولأول مرة يلتقي رستم مع الوفد الإسلامي العربي الذي يعود ليطرح أمامه العروض الأخيرة بأسلوب بعيد عن التحدي والإثارة واستعمال أسلوب الرغبة الجادة في السلم والإشفاق على مصير الأمة، وهلاك الحرب والنسل بين الفريقين، وبعث وجوهًا جديدة يلتقيها رستم لأول مرة.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٠٤/٢).

قال ابن جرير (كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد قالوا:

أرسل إليهم سعد بقية ذوي الرأي جميعًا، وحبس الثلاثة، فخرجوا حتى أتوه ليعظموا عليه استقباحًا [1]. فقالوا له:

إن أميرنا يقول لك:

إن الجوار يحفظ الولاة، وإني أدعوك إلى ما هو خير لنا ولك.

العافية أن تقبل ما دعاك اللَّه إليه، ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك، وبعضنا من بعض.

إلا أن داركم لكم، وأمركم فيكم، وما أصبتم مما وراءكم كان لكم زيادة من دوننا، وكنا لكم عونًا على أحد إن أرادكم أو قوي عليكم.

واتق اللَّه يا رستم، ولا يكونن هلاك قومك على يديك، فإنه ليس بينك وبين أن تغبط به إلا أن تدخل فيه، وتطرد الشيطان عنك...).

العجيب في تجبر رستم أنهم يعرضون عليه رسالة اللَّه تعالى، ويعلمون أنه يفقه معنى الرسالة **ويعرضون عليه مقابل ذلك الامتيازات التالية:**

١ - نرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك.

٢ - بعضنا من بعض.

٣ - داركم لكم وأمركم فيكم.

٤ - وما أصبتم مما وراءكم كان لكم زيادة من دوننا.

٥ - وكنا عونًا لكم على أحد إن أرادكم وقوي عليكم.

ولا ينسون تحذيره من العواقب، حين يرفض مثل هذا الإيمان، بأسلوب يحمل الغيرة والشفقة والنصيحة والحب.

٦ - واتق اللَّه يا رستم لا يكونن هلاك قومك على يديك.

وما بين الهلاك وإنهاء الحرب والحرص على الامتيازات المذكورة، إلا طرد الشيطان

---

(١) ليعظموا عليه استقباحًا: ليعظموا عليه قبيح الحرب والمواجهة.

الذي ينفخ فيه، على أن لا يكون حرصه على الزعامة فوق حرصه على الحق.

٧ - فإنه ليس بينك وبين أن تغبط به إلا أن تدخل فيه، وتطرد الشيطان عنك.

وهم لا يتكلمون من فراغ، والجولات السابقة أكدت لهم أنه قد فقه هذا الدين، وأُعجب به، وهم يضربون على وتر حساس عنده، وهو منجم انتهى إليه علم الكهانة في قومه، والحديث عن النبوة والأنبياء ليس غريبًا على حس هؤلاء، وقد كان عرضه السابق مع المغيرة بن شعبة منطلقًا كله من الإيمان بالله، فهم إذن يبذلون قصارى جهدهم لإنقاذ الفرس وإنقاذ رستم قبل الساعة الأخيرة، وإنقاذ العالم كله من ويلات الحروب وعقابيلها.

إنه السلم والإسلام الذي يحرر البشرية ويعتقها من عبودية العباد إلى عبودية الله - لكن الجانب الآخر الذي يحسب رستم حسابه أن القواد حوله سوف يعصونه، وأن يزدجرد سوف يعزله وأنه ستنتهي حياته وأمجاده كلها، فهو بين خيارين: خيار بقاء المجد والزعامة والإصرار على الحرب رغم يقينه الداخلي أنه خاسر، وليخسر في المعركة أحق عنده من خسارة مجده وزعامته، وبين الإسلام وتحمل تبعاته كلها. فآثر دنياه على آخرته.

(فقال: إني قد كلمت منكم نفرًا، ولو أنهم فهموا عني رجوت أن تكونوا قد فهمتم، وإن الأمثال أوضح من كثيرٍ من الكلام، وسأضرب لكم مثلًا تبصروا.

إنكم كنتم أهل جَهد في المعيشة، وقشف في الهيئة، لا تمتنعون ولا تنتصفون، فلم نسئ جواركم، ولم ندع مواساتكم، تُقحمون المرة بعد المرة، فنميركم ثم نردكم، وتأتونا أجراء وتجارًا فنحسن إليكم، فلما تطاعمتم بطعامنا، وشربتم شرابنا، وأظلكم ظلنا، وصفتم لقومكم، فدعوتموهم ثم أتيتمونا بهم، وإنما مثلكم في ذلك ومثلنا كمثل رجل له كرم، فرأى فيه ثعلبًا، فقال: وما ثعلب فانطلق الثعلب، فدعا الثعالب إلى ذلك الكرم، فلما اجتمعن عليه سد عليهن صاحب الكرم الجحر الذي كُنّ يدخلنَ منه، فقتلهن، وقد علمت أن الذي حملكم على هذا، الحرص والطمع والجهد، فارجعوا عنا عامكم هذا وامتاروا حاجتكم، ولكم العود كلما احتجتم، فإني لا أشتهي أن أقتلكم)[1].

وهموا بالجواب، لكنه استرسل بالاستعلاء والاستكبار. وهو معذور من جهة ثانية

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٠٥).

فتجربة ألفي عام من العرب ليس من السهولة بمكان أن تتغير النظرة فيها بين يوم وليلة، وراح يضرب الأمثال من الجرذان بعد الثعالب.

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن القعقاع الضبي عن رجل من يربوع شهدها، قال: وقد أصاب أناس كثير منكم ما أرادوا من أرضنا، ثم كان مصيرهم القتل والهرب... ومن أمثالكم فيما تصنعون مثل جرذان ألفت جرة فيها حب وفي الجرة ثقب، فدخل الأول فأقام فيها، وجعل الأُخَرُ ينقلن منها ويرجعن، ويكلمنه في الرجوع، فأبى، فانتهى سمن الذي في الجرة فاشتاق إلى أهله ليريهم حسن حاله، فضاق عليه الجُحر، ولم يطق الخروج فشكا القلق إلى أصحابه وسألهم المخرج، فقلن له: ما أنت بخارج منها حتى تعود كما كنت من قبل أن تدخل، فكفّ وجوَّع نفسه، وبقي في الخوف، حتى إذا عاد كما كان قبل أن يدخلها أتى عليه صاحب الجرة فقتله، فاخرجوا ولا يكونن هذا لكم مثلًا)[1].

وتفتقت عبقريته في ازدراء أشرف الخلق وجيل النبوة ليصفهم بمقام الثعالب ثم الجرذان ثم الذباب، وانتفش ريشه كما انتفش ريش عتبة بن ربيعة في بدر حتى لا يقال عنه أنه جبان، وهو الذي كان ينصح قومه بالكف عن الحرب.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن النضر عن ابن الرفيل عن أبيه قال: وقال: لم يخلق اللّه خلقًا أولع من ذباب ولا أضرّ، ما خلاكم يا معشر العرب، ترون الهلاك ويُدلّيكم فيه الطمع، وسأضرب لكم مثلكم.

إن الذباب إذا رأى العسل طار، وقال: من يوصلني له وله درهمان؟ حتى يدخله، لا ينهنهه أحد إلا عصاه، فإذا دخله غرق ونشب وقال: من يخرجني وله أربعة دراهم.

وقال أيضًا: إنما مثلكم مثل ثعلب دخل جحرًا وهو مهزول ضعيف إلى كرم، فكان فيه يأكل ما شاء اللّه، فرآه صاحب الكرم ورأى ما به فرحمه، فلما طال مكثه في الكرم وسمن وصلحت حاله، وذهب ماكان به من الهزال أشِرَ، فجعل يعبث في الكرم، ويفسد أكثر مما يأكل، فاشتد على صاحب الكرم، فقال: لا أصبر على هذا من أمر هذا، فأخذ له خشبة، واستعان عليه غلمانه، فطلبوه وجعل يراوغهم في الكرم،

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٠٥).

فلما رأى أنهم غير مقلعين عنه، ذهب ليخرج من الجُحر الذي دخل منه فنشب؛ اتسع عليه وهو مهزول، وضاق عليه وهو سمين، فجاءه وهو على تلك الحال صاحب الكرم فلم يزل يضربه حتى قتله.

وقد جئتم وأنتم مهازيل، وقد سمنتم شيئًا من سمن، فانظروا كيف تخرجون.

وقال أيضًا: إن رجلًا وضع سلًا، وجعل طعامه فيه، فأتى الجرذان، فخرقوا سله، فدخلوا فيه فأرادوا سده، فقيل له: لا تفعل إذن يخرقنه، ولكن انقب بحياله، ثم اجعل فيها قصبة مجوفة، فإذا جاءت الجرذان دخلن من القصبة وخرجن منها، فكلما طلع عليكم جرذ قتلتموه وقد سدت عليكم، فإياكم أن تقتحموا القصبة، فلا يخرج منها أحد إلا قُتل. وما دعاكم إلى ما صنعتم، ولا أرى عَددًا ولا عدة؟!) [١].

إن رستم حين رفض الإسلام، ورفض الجزية، أثبت انحطاط مستواه الحضاري إلى الدْرك الأسفل، ويعيد لنا سيرة أبي جهل فرعون الأمة الذي قال لرسول الله ﷺ: وتنازعنا نحن وبنو عبد مناف الرئاسة؛ أطعموا فأطعمنا، وسقَوا فسقينا، فلما تحاذينا على الركب، قالوا: منا نبي، لا والله لا يكون هذا أبدًا.

وكما يروي المغيرة بن شعبة عنه: (إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: « **يا أبا الحكم ابن هشام هَلُمَّ إلى الله ﷻ وإلى رسوله** »، أدعوك إلى الله، قال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا، هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت،؟! فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أعلم أن ما تقول حقًّا ما اتبعتك. فانصرف رسول الله ﷺ.

وأقبل عليَّ فقال: فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قصي، قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم. ثم قالوا فينا الندوة، فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم. ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي؟!! والله لا أفعل) [٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٤٠٥/٢).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٢٠٧/٢)، والبداية والنهاية لابن كثير (٦٤/٣).

لقد انتهى أبو جهل جثة منتنة ملقًى في بئر من آبار بدر، وانتهى المغيرة بن شعبة صحابيًّا يهدد رستم أكبر قادة الأكاسرة ويخيره بين إحدى ثلاث خصال:

- إلى الإسلام ولكم فيه ما لنا وعليكم فيه ما علينا، ليس فيه تفاضل بيننا.
- أو الجزية عن يد وأنتم صاغرون.

قال: ما صاغرون؟ قال: أن يقوم الرجل منكم على رأس أحدنا بالجزية يحمده أن يقبلها منه.

- وإلا فالسيف إن أبيت.

والإسلام أحب إلينا منهما.

الطاغوت العربي أبو جهل، يعرف أن محمدًا حق، والطاغوت الروماني هرقل يعرف أن محمدًا حق، والطاغوت الفارسي رستم يعرف أن محمدًا حق، ولكنهم اختاروا الرئاسة والزعامة على الهداية.

الجواب النهائي لرستم من الوفد الإسلامي:

(فقالوا: أما ما ذكرتم من سوء حالنا فيما مضى وانتشار أمرنا، فلمّا تبلغ كنهه؛ يموت الميت منا إلى النار ويبقى الباقي منا في بؤس،..).

وهذا هو الذي ينبي عليه رستم كل أمثاله، وما وجه من إهانات لهذا الوفد، لكنه يتعامى عن الانقلاب الجديد الذي حل في هذه الأمة.

(... فبينا نحن في أسوأ ذلك، بعث اللّه فينا رسولًا من أنفسنا إلى الإنس والجن، رحمة رحم بها مَنْ أراد رحمته، ونقمة ينتقم بها ممن ردّ كرامته).

إنها الهداية العالمية للبشرية كلها لمن قبل كرامته، وهذا هو المستوى الحضاري والأفق العالي الذي ينطلق منه المسلمون ليكونوا فعلًا أساتذة البشرية كلها بعد أن كانوا يعيشون على فتاتها.

(... فبدأ بنا قبيلة قبيلة، فلم يكن أحد أشد عليه، ولا أشد إنكارًا لما جاء به، ولا أجهد على قتله وردّ الذي جاء به من قومه).

فلم يتقبل العرب هذا الدين بهذه البساطة، وقبل عامين فقط كانت الجزيرة العربية تستعر نارًا وشركًا جاهدة على إطفاء نور اللّه.

(... حتى طابقناه على ذلك كلنا، ونصبنا له جميعًا، وهو وحده فرد، ليس معه إلا الله تعالى، فأعطي الظفر علينا، فدخل بعضنا طوعًا، وبعضنا كرهًا، ثم عرفنا جميعًا الحق والصدق لما أتانا به من الآيات المعجزة، وكان مما أتانا به من عند ربنا جهاد الأدنى فالأدنى...).

وحتى لا يحسب رستم أن الأمر أمر طمع عربي قومي، ليفقهوا أن الأمر أمر رب العالمين ورسول رب العالمين، وليست سيطرة شعب على شعب أو قومية على قومية، إنما هو دين رب العالمين لخلقه، ولو كان الأمر سيطرة العرب والرغبة في التفوق القومي، لتواطأ العرب جميعًا معه، ولم يحاربوه.

(... فسرنا بذلك فيما بيننا، نرى أن الذي قال لنا ووعدنا لا يخرم عنه ولا ينقض حتى اجتمعت العرب على هذا، وكانوا من اختلاف الرأي فيما لا يطيق الخلائق تأليفهم، ثم أتيناكم بأمر ربنا، نجاهد في سبيله، ونَنْفُذ لأمره، ونتنجز موعوده، وندعوكم إلى الإسلام وحكمه، فإن أجبتمونا تركناكم ورجعنا وخلَّفنا فيكم كتاب الله...).

إن هذا المعنى من أعمق المعاني التي لم يدركها بعد أبناء جيلنا، وبقية الأمم.

هذا المعنى هو وحدة العرب بهذا الدين، وكل الأحزاب القومية المعاصرة منذ بداية القرن الماضي إلى اليوم تنادي بوحدة العرب، أمة عربية واحدة، لكن عبثًا يفعلون فيودون الوحدة بإلغاء هذا الدين، وليست الوحدة بهذا الدين، وكانت مائة عام من التجارب المريرة كفيلة بعودة الوعي لهذه الأمة بأنها لن تتوحد إلا بهذا الدين، وقد شهد نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن هذا الوعي، فأصبح التيار العربي الإسلامي هو التيار الأضخم لمفكري هذه الأمة.

ونعود إلى التحليل العظيم لهذا الوفد حول الوحدة بين العرب حين يقول:

(حتى اجتمعت العرب على هذا، وكانوا من اختلاف الرأي فيما لا يطيق الخلائق تأليفهم وهو ترجمة للآية القرآنية الخالدة: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٠٦).

إن تجربة القرن العشرين تقليد لتجربة عشرين قرنًا من الزمان في محاولة الوفاق والوحدة على غير الإسلام، ولعل تجربة خمسة عشر قرنًا منذ الرسالة إلى اليوم كفيلة أن تقنع دعاة الوحدة العربية أن الأمة لا تجتمع على غير الإسلام، ومن خلال الإسلام كنا في بداية القرن الماضي أحد الدول الكبرى في الأرض، التي تتحكم في مصير العالم.

وإيراد هذا المعنى على مسامع رستم كفيل أن يجعله يعيد النظر في عروضه السخيفة التافهة التي عرضها، وأن يفتح عينيه على الواقع الجديد لهذه الأمة، فهم اليوم بعد وحدتهم ينطلقون من عند ربهم، لا من عند أنفسهم ولا شهواتهم ولا ذواتهم، وهم حملة رسالة الهداية إلى الإنسانية، وحين تتقبل الأمم رسالة ربها تنتهي مهمتهم ويعودون إلى أرضهم وبلدهم.

ومع هذا فإذا كان من الصعوبة بمكان تغيير الأديان بهذه السهولة، فلا أقل من أن تفتح الطواغيت السدود التي تَحُول بين الخلق وربهم كما قال الوفد: (فإن أبيتم لم يحلَّ لنا إلا أن نعاطيكم القتال، أو تفتدوا بالجِزَى).

والجزية في المفهوم الإسلامي مبلغ رمزي زهيد، والجانب المعنوي فيه أهم بكثير من الجانب المادي، دينار على كل حالم، يُعفَى منه الشيخ والطفل والعاجز.

وآن الأوان للرد على سفاهة رستم وسخافته، وهو يعتد بغطرسته وكبريائه.

وينفخ الشيطان فيه روحه العُجب وراح يدعوهم إلى العودة ويشبههم بالجرذان والذباب والثعالب قالوا: (فإن فعلتم وإلا فإن اللَّه قد أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكم.

فاقبلوا نصيحتنا، فواللَّه لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم، ولقتالكم بعدُ أحب من صلحكم)[1].

لقد ترفَّعوا عن سفاهته، وإن كلموه بالأسلوب القوي الذي اتبعه.

(وأما ما ضربتم لنا من الأمثال فإنكم ضربتم للرجال والأمور الجسام وللجد الهزل، ولكننا سنضرب مثلكم.

إنما مثلكم مثل رجل غرس أرضًا، واختار لها الشجر والحب، وأجرى إليها الأنهار،

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٠٦).

وزينها بالقصور، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ويقومون على جنباتها، فخلا الفلاحون في القصور على ما لا يحب، وفي الجنان بمثل ذلك، فأطال نظرتهم [(١)]، فلما لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم، استعتبهم فكابروه، فدعا إليهم غيرهم، وأخرجهم منها، فإن ذهبوا عنها تخطفهم الناس، وإن أقاموا فيها صاروا خولًا لهؤلاء يملكونهم، ولا يُملّكون عليهم فيسومونهم الخسف أبدًا.

ووالله لو لم يكن ما نقول لك حقًّا، ولم يكن إلا الدنيا لما كان لنا عما خُبِّرنا به من لذيذ عيشكم ورأينا من زبرجكم من صبر، ولقارعناكم حتى نغلبكم عليه) [(٢)].

نهاية الحوار الدبلوماسي: الحرب:

فقال رستم: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟

فقالوا: بل اعبروا إلينا.

فخرجوا من عنده عشيًّا، وأرسل سعد إلى الناس أن يقفوا مواقفهم، وأرسل إليهم: شأنكم والعبور.

فأرادوا القنطرة، فأرسل إليهم:

لا ولا كرامة، أما شيء قد غلبناكم عليه فلن نرده عليكم، تكلفوا معبرًا غير القناطر فباتوا يسكرون العتيق حتى الصباح بأمتعتهم) [(٣)].

وأسدل الستار على المفاوضات، وعلى الدعوة إلى الله، وبدأت الحرب.

* * *
* *
*

---

(١) نظرتهم أي انتظارهم.

(٢) تاريخ الطبري (٤٠٦/٢).

(٣) المصدر نفسه (٤٠٦/٢).



معركة القادسية العظيمة



الفصل العاشر

يوم أرماث

رستم ظاهرًا وباطنًا:

أ - في الباطن:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم قالوا: ورأى رستم من الليل أن ملكًا نزل من السماء، فأخذ قِسِيِّ أصحابه، فختم عليها، ثم صعد بها إلى السماء، فاستيقظ مهمومًا محزونًا، فدعا خاصته فقصها عليهم وقال: إن اللَّه ليعظنا لو أن فارس تركوني أتعظ! أما ترون النصر قد رفع عنا، وترون الريح مع عدونا، وأنا لا نقوم لهم في فعلٍ ولا منطق، ثم هم يريدون مغالبة بالجبرية.

فعبروا بأثقالهم حتى نزلوا على ضفة العتيق) [١].

ب - في الظاهر:

(كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن الأعمش: لما كان يوم السكر، لبس رستم درعين، ومغفرًا وأخذ سلاحه، وأمر بفرسه فأسرج فأُتي به فوثب - أي رستم - فإذا هو عليه لم يمسه، ولم يضع رجله في الركاب ثم قال: غدًا ندقهم دقًّا، فقال له رجل: إن شاء اللَّه، قال: وإن لم يشأ) [٢].

(كتب إليَّ السري بن يحيى، عن شعيب عن سيف، عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم قالوا: قال رستم: إنما ضغا الثعلب حين مات الأسد - يذكرهم موت كسرى - ثم قال لأصحابه: قد خشيت أن تكون هذه سنة القرود.

ولما عبر أهل فارس أخذوا مصافهم، وجلس رستم على سريره، وضرب عليه طيارة).

---

(١) تاريخ الطبري (٤٠٦/٢، ٤٠٧).

(٢) المصدر نفسه (٤٠٧/٢).

السلاح الفاتك: الفيلة:

(... وعبَّى في القلب ثمانية عشر فيلًا عليها الصناديق والرجال، وفي المجنبتين ثمانية وسبعة عليها الصناديق والرجال.

وأقام الجالينوس بينه وبين ميمنته، والبيرزان بينه وبين ميسرته، وبقيت القنطرة بين خيلين من خيول المسلمين وخيول المشركين...) [١].

البريد بين رستم ويزدجرد:

(... وكان يزدجرد وضع رجلًا على باب إيوانه، إذ سرَّح رستم، وأمره بلزومه وإخباره وآخر حيث يسمعه من الدار، وآخر خارج الدار، وكذلك على كل دعوة رجلًا، فكلما نزل رستم قال الذي بساباط، قد نزل فقال الآخر... حتى قاله الذي على باب الإيوان، فنظم ما بين العتيق إلى المدائن رجالًا وترك البُرُد، وكان ذلك هو الشأن) [٢].

التعبئة الإسلامية

وأخذ المسلمون مصافهم، وجُعِل زُهرَة وعاصم بين عبد اللَّه وشرحبيل، ووكل صاحب الطلائع بالطراد، وخلط بين الناس في القلب والمجنبات، ونادى مناديه: ألا إن الحسد لا يحل إلا على الجهاد في أمر اللَّه، يا أيها الناس فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد.

وكان سعد يومئذ لا يستطيع أن يركب ولا يجلس، به حُبون [٣]، فإنما هو على وجهه في صدره وسادة، هو مكب عليها، مشرف على الناس من القصر، يرمي بالرقاع فيها أمره ونهيه إلى خالد بن عرفطة، وهو أسفل منه، وكان الصف إلى جنب القصر، وكان خالد كالخليفة لسعد لو لم يكن سعد شاهدًا مشرفًا.

(عن أبي نمران قال: لما عبر رستم تحول زُهرة والجالينوس، فجعل سعد زُهرة مكان ابن السمط، وجعل رستم الجالينوس مكان الهرمزان، وكان بسعد عرق النسا ودماميل، وكان إنما هو مكبٌّ، واستخلف خالد بن عرفطة على الناس، فاختلف عليه

---

(١) تاريخ الطبري (٤٠٦/٢). (٢) المصدر نفسه (٤٠٧/٢).

(٣) الحبون: خراج كالدُمَّل، وما يعتري في الجسد فيقيح ويرم، أو الدمامل نفسها.

الناس فقال: احملوني وأشرفوا بي على الناس، فارتقوا به، فأكب مطلعًا عليهم - والصف في أصل حائط قديس - يأمر خالدًا فيأمر خالد الناس.

وكان ممن شغب عليه وجوه من وجوه الناس، فهم بهم سعد وشتمهم وقال:

لولا أن عدوًّا بحضرتكم لجعلتكم نكالًا لغيركم! فحبسهم - ومنهم أبو محجن الثقفي - وقيدهم في القصر.

وقال جرير: أما إني بايعت رسول الله ﷺ على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر وإن كان عبدًا حبشيًّا.

وقال سعد: والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سننت به سنة يؤخَذُ بها مِنْ بعدي) [1].

سعد يخطب في الناس:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزيادٍ بإسنادهم قالوا: إن سعدًا خطب في من يليه يومئذ، وذلك يوم الإثنين في المحرم سنة أربع عشرة بعدما تحدَّث على الذين اعترضوا على خالد بن عرفطة، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

إن الله هو الحق لا شريك له في الملك، وليس لقوله خلف، قال الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

إن هذا ميراثكم وموعود ربكم، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج، فأنتم تطعمون منها، وتأكلون منها وتقتلون أهلها وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيام منكم، وقد جاءكم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم، وخيار كل قبيلة، وعِزٌّ من وراءكم، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة، ولا يقرب ذلك أحدًا إلى أجله، وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفُوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٠٧).

عذر سعد وولاية ابن عرفطة:

وقام عاصم بن عمرو في المجردة [1] فقال:

إن هذه بلاد قد أحل اللَّه لكم أهلها، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين ما لا ينالون منكم، وأنتم الأعلون واللَّه معكم إن صبرتم وصدقتموهم الضرب والطعن، فلكم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم وبلادهم، وإن خُرتم وفشلتم - فاللَّه لكم من ذلكم جار وحافظ - لم يُبق هذا الجمع منكم باقية مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك، اللَّه اللَّه، اذكروا الأيام وما منحكم اللَّه فيها أو لا ترون أن الأرض وراءكم بسابس قفارا، ليس فيها خَمَرٌ ولا وَزَرَ يُعقل إليه ولا يمتنع به، اجعلوا همكم الآخرة.

وكتب سعد إلى الرايات:

إني قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني وما بي من الحبون، فإني مكب على وجهي وشخصي لكم باد، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه إنما يأمركم بأمري ويعمل برأيي.

فقرئ على الناس، فزادهم خيرًا، وانتهوا إلى رأيه، وقبلوا منه وتحاثُّوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذر سعدٍ والرضا بما صنع.

جاسوس رستم:

قال ابن جرير: كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف، عن النضر عن ابن الرفيل قال:

لما نزل رستم النجف بعث منها عينًا إلى معسكر المسلمين، فانغمس فيهم بالقادسية كبعض من ندَّ منهم، فرآهم يستاكون عند كل صلاة ثم يصلون فيفترقون إلى مواقفهم، فرجع إليه فأخبره بخبرهم وسيرتهم حتى سأله ما طعامهم؟ قال: مكثت فيهم ليلة، لا واللَّه ما رأيت أحدًا منهم يأكل شيئًا، إلا أنهم يمصون عيدانًا لهم حين يمسون، وحين ينامون، وقبل أن يصبحوا، فلما سار فنزل بين الحصن والعتيق وافقهم وقد أذن مؤذن سعد للغداة، فرآهم يتحشحشون [2]، فنادى في أهل فارس أن يركبوا، فقيل له: ولم؟ قال: أما ترون إلى عدوكم قد نودي لهم فتحشحشوا لكم! قال عينه: ذلك إنما تحشحشهم هذا للصلاة، فقال بالفارسية ما ترجمته بالعربية: أتاني صوت

---

(١) المجردة: سلاح الفرسان.

(٢) يتحشحشون: يتحركون ويستعدون.

عند الغداة، وإنما هو عمر الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل، فلما عبروا توافقوا، وأذن مؤذن سعد للصلاة، فصلى سعد، وقال رستم: أكل عمر كبدي) [١].

* * *

لا بد من الوقوف مليًا عند هذه التعبئة لبروز أحداث مهمة. كان يمكن أن توقع الفتنة والاضطراب في الجيش، لو لم يكن الجيش قد نال حظّهُ من التربية من جيل النبوة.

الحدث الأول: غياب القائد العام:

وهو مرض سعد ﷺ، والجيش في ساعات النزال والحرب بقائده الذي يراه أمامه فيذود عنه ويموت دونه، وفقدان القائد في اللحظات الدقيقة، قد يقود إلى دمار الجيش كله، وقد غير سعد خليفته في بداية المعركة، حيث نقل زُهرة بن الحوية إلى قلب الجيش، وأقام مكانه خالد بن عرفطة؛ وشتان بين سمعة سعد وسمعة خالد.

فسعد من قريش خمس الإسلام، أول من أراق دمًا في سبيل اللّٰه، رمى يوم أحد بألف سهم للذود عن رسول اللّٰه ﷺ، وعرفت له العرب ذلك، خال رسول اللّٰه ﷺ، فوراءه تاريخ نضالٍ عريق، ونسب سامٍ شريف، صحب رسول اللّٰه ﷺ في كل غزواته، وحضر المشاهد كلها، وتم اختياره لقيادة جيش الإسلام بمشاورات على أعلى المستويات في الدولة، وبعثه أمير المؤمنين ﷺ لهذه المعركة الشرسة الحاسمة قائدًا لقوات الجبهة الشرقية كلها.

أما خالد بن عرفطة ﷺ فهو نكرة لا يعرف أحد عنه شيئًا، وهو حليف لقريش وليس من صميمها. وحتى نحن بعد خمسة عشر قرنًا نبحث عن تاريخ ابن عرفطة ﷺ، ولا نكاد نعرف أكثر من اسمه، وفي الجيش مئات الزعماء والقادة الحافل تاريخهم النضالي بالجاهلية والإسلام، ولقد أشبهت هذه الولاية، تولية أسامة ابن زيد ﷺ، وتولية أبيه زيد ﷺ من رسول اللّٰه ﷺ.

(فغضب رسول اللّٰه ﷺ غضبًا شديدًا، فخرج وقد عصب رأسه عصابة وعليه قطيفة، ثم صعد المنبر فحمد اللّٰه وأثنى عليه ثم قال: « **أما بعد يا أيها الناس فما مقالة**

---

(١) تاريخ الطبري (٤٠٨/٢).

بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة بن زيد؟ والله لئن طعنتم في إمارتي أسامة، لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وايم الله إن كان بالإمارة لخليقًا، وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإن هذا (أي أسامة) لمن أحب الناس إلي، وإنهما لمخيلان لكل خير، فاستوصوا به خيرًا فإنه من خياركم » (١).

فلا غرو إذن أن تشغب بعض قيادات القبائل على اختيار خالد بن عرفطة، نائبًا للقائد العام، وهو مجهول تاريخًا، ومجهول نسبًا، ونحن اليوم نبحث عن تاريخ خالد ﷺ، فلا نرى إلا النزر اليسير من تاريخه كما أورده لنا ابن حجر في كتابه العظيم الإصابة.

خالد بن عرفطة:

وقال عمر بن شبة في أخبار مكة: هو خالد بن عرفطة بن صعير بن... بن عذرة، وقدم صغيرًا مكة، فحالف بني زهرة، فهو حليف بني زهرة، ويقال: إنه ابن أخي ثعلبة ابن صعير العذري... أخرج حديثه الترمذي بإسناد صحيح، روى عنه أبو عثمان النهدي، وعبد الله بن يسار ومسلم مولاه، وأبو إسحاق السبيعي...

وكان خالد مع سعد بن أبي وقاص في فتوح العراق وكتب إليه عمر يأمره أن يؤمره، واستخلفه سعد على الكوفة، ولما بايع الناس لمعاوية ودخل الكوفة، خرج عليه عبد الله بن أبي الحوساء، فوجَّه إليه خالد بن عرفطة هذا فحاربه حتى قتله. وعاش خالد حتى سنة ستين أو واحد وستين...

وعند أحمد من رواية أبي إسحاق: مات رجل صالح، فتلقانا خالد بن عرفطة، وسليمان بن صرد، وكلاهما كانت له صحبة) (٢).

وقبيلة عذرة اشتهرت بالتاريخ العربي بالحب حتى نسب إليها (الحب العذري) لكنها لم تشتهر بالحرب وأدى هذا إلى:

الحدث الخطير الثاني: اعتراض بعض القيادات:

(وكان ممن شغب عليه وجوه من وجوه الناس). واعترضوا على خلافة خالد لسعد، (فهمَّ بهم سعد وشتمهم وقال:

---

(١) المغازي للواقدي، مقتطفات (ص ١١١٧ - ١١٢٥).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (٢٢٦٩).

(أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالًا لغيركم).

ولا بد من الحسم في الأمر، وإلا لتفلت القوم، وعادت ثارات الجاهلية من جديد.

لقد أدرك سعد ﷺ أن تنفيذ العقوبة في الرافضين، قد تبعث فتنًا أكبر منها فاكتفى بحبسهم وقال مقالته الآنفة الذكر فحبسهم، ومنهم أبو محجن الثقفي، وقيدهم في القصر.

الحدث الثالث: جرير ﷺ يطفئ الفتنة:

وتتجلى هنا عظمة التربية النبوية للجيل الرائد، لجرير ﷺ سيد بجيلة، والذي سماه عمر ﷺ (يوسف هذه الأمة) وهو ملك عربي عريق له سيادته في الجاهلية وفي الإسلام، والذي وقى جيش الإسلام من فتنة عصبية قد تدمر الجيش كله.

فمن هو جرير بن عبد الله البجلي ﷺ؟

يحدثنا عن نفسه ﷺ بقوله كما رواه الإمام أحمد والطبراني برجال ثقات عنه قال: (لما دنوت من مدينة الرسول ﷺ أنخت راحلتي، وحللت عيبتي، ولبست حلتي ودخلت المسجد، والنبي ﷺ يخطب، فسلمت على رسول الله ﷺ فرماني الناس بالحدق، فقلت لجليسي: يا عبد الله؛ هل ذكر رسول الله ﷺ من أمري شيئًا؟ قال: نعم، ذكرك بأحسن الذكر، فبينا هو يخطب إذ عرض لك فقال:

« **إنه سيدخل عليكم من هذا الباب** - أو قال: **من هذا الفج** - **من خير ذي يمن، وإن على وجهه لمسحة ملك** »، فحمدت الله على ما أبلاني) [(١)].

أما البراء بن عازب ﷺ، فينقل لنا الحدث بـ (كاميرا أخرى) ويقول:

بينا أنا عند رسول الله ﷺ في جماعة من أصحابه أكثرهم من اليمن إذ قال:

« **سيطلع عليكم من هذه الثنية** - وفي لفظ: **من هذا الفج** - **خير ذي يمن على وجهه مسحة ملك** » والفرق كبير بين الروايتين (من خير ذي يمن) و (خير ذي يمن).

« ... **على وجهه مسحة ملك** »، فما من القوم أحد إلا تمنى أن يكون من أهل بيته، إذ طلع عليه راكب فانتهى إلى رسول الله ﷺ، فأخذ بيده وبايعه، وقال: « **من أنت؟** » قال: أنا جرير بن عبد الله البجلي.

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٤٧٥/٦).

فأجلسه إلى جنبه، ومسح يده على رأسه وصدره ووجهه وبطنه، حتى انحنى جرير حياء أن يدخل يده تحت إزاره، وهو يدعو له بالبركة ولذريته، ثم مسح رأسه وظهره وهو يدعو له، ثم بسط له عرض ردائه وقال له: « **على هذا يا جرير فاقعد** »، فقعد معهم مليًّا ثم قام فانصرف) [١].

ونأخذ اللقطة الأخيرة من جرير ﷺ فيما رواه الطبراني والبيهقي وابن سعد عن جرير ﷺ. قال: بعث إليَّ رسول اللَّه ﷺ فأتيته، فقال: ما جاء بك؟ قلت: جئت لأسلم. فألقى إليَّ كساءه وقال: « **إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه** »، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **أدعوك إلى شهادة ألَّا إله إلا اللَّه، وأني رسول اللَّه، وأن تؤمن باللَه واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وتصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم شهر رمضان، وتنصح لكل مسلم، وتطيع الوالي وإن كان عبدًا حبشيًّا** » [٢].

ومضى جرير بعدها مجاهدًا مع رسول اللَّه ﷺ وصحبه من بعده، ومعه هذا الخزان من التربية، ويعنينا مما ذكره في اللقطة الأخيرة أنه بايع رسول اللَّه ﷺ على أن يسمع ويطيع للوالي ولو كان عبدًا حبشيًا.

وبقيت هذه الوصية من خزائن قلبه الكبرى لتنتقل من التربية النظرية إلى التربية العملية: فها هو الوالي الجديد خالد بن عرفطة، وقد يكون رأي جرير مثل ما رآه أصحابه من أشراف الناس في القدح في كفاءته وولايته، فتبرز هنا وتتجلى عظمة التربية، حيث آن الأوان لتنفيذها عمليًا، فأعلن موقفه قائلًا: (أما إني بايعت رسول اللَّه ﷺ على أن أسمع وأطيع لمن ولاه اللَّه الأمر وإن كان عبدًا حبشيًّا).

وبذلك قطع دابر الفتنة وأطفأ نارها، حيث كان قوامًا على البشرية بهذا الدين الذي حمله، وهذه التربية التي تلقاها.

الحدث الرابع: يريدها سعد سنة من بعده، لمن يشغب على أميره وهو يواجه العدو:

وأعلن عن سبب الحبس للناس قائلًا: واللَّه لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦/٤٧٥). وقد رواه البزار والطبراني.

(٢) المصدر نفسه (٦/٤٧٦).

عدوهم، ويشاغلهم بإزائهم إلا سننت به سنةٌ يُؤخَذ بها مِنْ بعدي.

وهو ﷺ كذلك يطبق العهد النبوي الذي عهده له رسول اللَّه ﷺ، بأنه سيكون قدوة للأمة، ومتى كان ذلك.

يحدثنا سعد ﷺ عن ذلك فيقول:

عادني رسول اللَّه ﷺ في حجة الوداع من وجع أشفيت فيه على الموت، فقلت: « يا رسول اللَّه بي ما ترى من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة فأتصدق بثلثي مالي: قال: « **لا** »، قلت: الشطر، قال: « **لا، الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس، إنك لا تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللَّه إلا أُجرت بها حتى ما تجعله في فِّي امرأتك** ».

فقلت: يا رسول اللَّه، أُخلَّف بعد أصحابي؟

فقال: « **إنك لن تخلَّف حتى ينتفع بك أقوام، ويضر بك آخرون، اللَّهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردَّهم على أعقابهم** » [(١)].

وها هو سعد الآن، وقد كان يرى الموت في عينيه في حجة الوداع، ها هو يقود الأمة المسلمة الوارثة للبشرية، وينتزع قيادتها من طواغيت الفرس، وها هو ينفع اللَّه به أقوامًا ويُضَرّ به آخرون، ويسن للأمة سنة حسم الفتنة في اللحظة المناسبة، حيث الحمية حمية الجاهلية تود أن تكون بديلًا عن السكينة الإيمانية.

كتاب سعد إلى الرايات، والتلاحم مع القيادة:

(وكتب سعد إلى الرايات: إني قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعني أن أكون مكانه، إلا وجعي الذي يعودني وما بي من الحبون، فإني مكبٌّ على وجهي، وشخصي لكم بادٍ، فاسمعوا له وأطيعوا فإنه إنما يأمركم بأمري.

فقرئ على الناس فزادهم خيرًا، وانتهوا إلى رأيه، وقبلوا منه، وتحاثُّوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذر سعد والرضا بما صنع.

* * *

---

(١) البخاري، ح (١٢٩٥)، ومسلم، ح (١٦٢٨).

التعبئة المعنوية:

لا نزال في شهر محرم، وفي بداية السنة الرابعة عشرة، ولا تزال الأحداث التي ذكرت في المائة صفحة في هذا الشهر المبارك.

كلمة القائد العام:

إنه المنشور الرسمي الذي يلقيه سعد، ويوزع على قيادات الجيش كافة، ومن ثم على جنوده، وعلى شكل أوامر للتنفيذ:

١ - حمد اللَّه وأثنى عليه وقال: إن اللَّه هو الحق، لا شريك له في الملك وليس لقوله خلف.

٢ - قال اللَّه ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. إن هذا ميراثكم وموعود ربكم.

٣ - وقد أباحها لكم منذ ثلاثة أعوام فأنتم تطعمون منها، وتأكلون منها، وتقتلون أهلها وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم.

٤ - بما نال منهم أصحاب الأيام منكم.

٥ - وقد جاءكم منهم هذا الجمع.

٦ - وأنتم وجوه العرب وأعيانهم، وخيار كل قبيلة، وعز من وراءكم.

٧ - فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا بالآخرة جمع اللَّه لكم الدنيا والآخرة.

٨ - ولا يُقرِّبُ ذلك أحدًا إلى أجله.

٩ - وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا.

١٠ - تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم.

سمِّها إن شئت خطبة وطنية مهمة أو خطبة قومية جامعة أو خطبة إسلامية خالصة. فهي تحمل هذه الصفات، ومما يجعل التحام القومية بالإسلام بالوطنية هو من السهولة بمكان في عملية البناء الأولى، هو أن العناصر العظمى في الجيش هي قبائل عربية عريقة في عروبتها، اعتنقت الإسلام وتحركت تحت رايته.

فهي خطبة إسلامية تنطلق من التوحيد الخالص، ومن كتاب اللَّه - تعالى - الذي وعد المؤمنين المستضعفين في الأرض، أن يورثهم الأرض ليقوموا بصلاحها من الفساد المبين فيها: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ - ١٠٧].

فالمخاطب هنا أمة الرسالة، أمة العقيدة، أمة الإسلام التي نالت هذا الشرف بإسلامها وقرآنها ورسولها، ولم تنله بقوميتها وعروبتها وجاهليتها.

ولقد شهدنا كيف كانت هذه الأمة بلا إسلام من خلال كل المفاوضات التي جرت مع رستم، وكانوا يؤكدون على أنهم كانوا شرًّا مما وصف رستم، يأكلون الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، دينهم أن يقتل بعضهم بعضًا.

ومن أهم مقومات النجاح الجهاد في سبيل اللَّه لإعلاء كلمة اللَّه وابتغاء مرضاته (فإن تزهدوا في الدنيا...).

أي لا يكن همكم المغانم والمكاسب ومطامع الدنيا، بل تكون صغيرة في أعينكم عندها تستحقون وراثتها. (فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع اللَّه لكم الدنيا والآخرة).

فهي أمة تؤمن باللَّه واليوم الآخر، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بما أعد اللَّه للمؤمنين من جنات عرضها السموات والأرض، وبما أعد اللَّه للمجرمين من جهنم خالدين فيها وبئس المصير. والهدف هو مرضاة اللَّه ونشر دينه، وعندئذ تتحقق ثمرتان في آن واحد: الدنيا والآخرة؛ نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ:

- هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

- خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وهي خطبة قومية مهمة: تخاطب الجيل النبوي والصحابي، الذي يمثل عصارة وخلاصة الأمة العربية، فعز العرب هو عز الإسلام، والعكس كذلك، إذا ذل العرب ذل الإسلام، وليس الذين يحملون راية التحرير هنا هم بنو شيبان فقط كما كان في

ذي قار، وليست غزوة من ملوك اليمن أو التبابعة لبلاد فارس، وليست توحد المناذرة والغساسنة لاسترداد الأرض السليبة، إنها حركة الأمة العربية كلها.

(وأنتم وجوه العرب، وأعيانهم، وخيار كل قبيلة، وعز مَنْ وراءكم)، فشعراء العرب كلهم هنا، وملوك العرب كلهم هنا، وبلغاء العرب وحكماؤهم كلهم هنا - خيار كل قبيلة.

وهذه الأمة العربية المسلمة اليوم، تواجه الأمة الفارسية الرافضة لشرع اللَّه والتي مثَّلها رستم حين قال: (غدًا ندقهم دقًّا، فقال له رجل: إن شاء اللَّه، فقال: وإن لم يشأ). فواقِعُ الأمر حرب بين أمة العرب وأمة الفرس، ولكن ليست حربًا جنسية قومية، بل حرب بين الإسلام والكفر في الهدف، والعرب والفرس في الواقع.

وهي خطبة وطنية مهمة في تحديد مفهوم الوطن لهذه الأمة العربية المسلمة المجاهدة، فقد أصبحت هذه الأرض التي حررها الإسلام وطنهم الجديد.

(إن هذا ميراثكم وموعود ربكم، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج، فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها، وتقتلون أهلها (الذين يحاربونكم) وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيام منكم).

فالجهاد قد شرعت أبوابه منذ ثلاث سنين، ومنذ أن تحرك خالد نحو العراق بل نحو العرب أولًا لتحرير وطن العرب، ثم العراق العربي المحتل الذي احتله طواغيت فارس، هزموا مع خالد والمثنى، وعادوا ثانية فاستردوا السواد العراقي كله، ونقطة الانطلاق اليوم والحرب من آخر حدود العرب القادسية، كما هي تعليمات أمير المؤمنين.

(وإذا انتهيت إلى القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الآصل).

ومعنى الهزيمة اندحار العرب عن وطنهم الذي حرروه، ثم كفر أهل السواد، وانضموا إلى رستم خوفًا منه.

(فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة، جمع اللَّه لكم الدنيا والآخرة، ولا يُقَرِّب ذلك أحدًا إلى أجله.

وإن تفشلوا [١] وتهنوا وتضعفوا تذهبْ ريحكم وتوبقوا آخرتكم [٢]).

ولعل هذا المعنى أبرز في كلمة القائد العام الثانية وفي البلاغ العسكري الثاني الذي قرأه عاصم بن عمرو التميمي على سلاح المشاة كاملًا، تأكيدًا لما في البيان السابق فقال: (وإن خِرتم [٣] وفشلتم - فاللّٰه من ذلك جار وحافظ - لم يُبقِ هذا الجمعُ منكم باقية مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك).

فالوطن والعرض والأرض كله سيستباح، وتتم عملية الاستئصال الكبرى لهذا الجيش حتى لا يعودوا لمثلها، فلا بد من الذود عن الأرض المحررة.

(اللّٰه، اللّٰه، اذكروا الأيام وما منحكم اللّٰه فيها.

أفلا ترون أن الأرض وراءكم بسابس [٤] وقفار، ليس فيها خَمَرٌ [٥] ولا وَزَر [٦] يعقل إليه ولا يمتنع به).

لكن حذار أن تفسدوا النية، وأن يكون همكم وهدفكم هو تحرير الأرض فقط، وأن يكون هدفكم تحرير السواد الذي يحمل خيرات الأرض وكنوزها، انتبهوا إلى النية، انتبهوا إلى الهدف، (اجعلوا همكم الآخرة).

وكانت هذه آخر كلمة في البلاغ العسكري الثاني الذي يجب أن يصل إلى كل فرد في الجيش. فنحن شعب مؤمن باللّٰه الواحد، مؤمنون بموعود اللّٰه في الآخرة. مؤمنون بالإسلام جملة وتفصيلًا كما جاء من عند اللّٰه.

إن الفصام بين الوطنية والقومية والإسلام في القرن الماضي، حمَّل الأمة من النكبات والخسائر والهزائم ما يفتت الأكباد، وإن التيار العربي الإسلامي اليوم هو الكفيل بإعادة العزة والكرامة للأمة، فالأمة العربية حين تتبنى الإسلام عقيدة وشريعة تكون قد وضعت أقدامها على الطريق الصحيح، ولا يضير الأمة أن يوجد فيها أهل الكتاب من جهة، فقد قامت أمتنا في أول انطلاقتها وأهل الكتاب - اليهود - جزء أساسي من تركيبها، وجمعت المواطنة لسكان المدينة بينهم في مواجهة قريش العدو المحارب لهذه الأمة آنذاك.

---

(١) الفشل: الضعف والجبن والتراخي.

(٢) توبقوا آخرتكم: تخسروها.

(٣) خِرتم: من الخوَر وهو الضعف.

(٤) بسابس: البر المقفر الواسع.

(٥) الخَمَرَ: كل ما سترك من بناء أو شجر أو غيره.

(٦) لا وَزَرَ: لا واقي ولا عاصم.

ولا يضير الأمة أن يوجد فيها أقليات عرقية كبرت أم صغرت، فإنما العربية اللسان وليست الجنس والنسب، فمن تكلم العربية فهو عربي، ومن حقّه أن يحافظ على عرقه ضمن إطار المواطنة، وهو ابن الأمة الأعرق إذ يدين بالإسلام، وتاريخ الإسلام هو تاريخه.

اجتماع المجلس القومي الإسلامي:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم: قالوا:

(وأرسل سعد الذين انتهى إليهم رأي الناس، والذين انتهت إليهم نجدتهم وأصناف الفضل منهم إلى الناس، فكان منهم من ذوي الرأي النفر الذين أتوا رستم؛ المغيرة، وعاصم، وأصحابهم، ومن أهل النجدة طليحة وقيس الأسدي، وغالب، وعمرو بن معديكرب وأمثالهم. ومن الشعراء الشماخ والحطيئة وأوس بن مغراء وعبدة ابن الطيب، ومن سائر الأصناف أمثالهم. وقال قبل أن يرسلهم: انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس، فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم، فسيروا في الناس فذكِّروهم وحرِّضوهم على القتال).

لقد كانت مهمة المجلس القومي هو الانطلاق إلى الجيش من كل ضباطه الكبار لتحقيق التعبئة المعنوية المطلوبة، وتهيئتهم إلى المواجهة المباشرة.

ومضى الضباط الكبار إلى جنودهم يحثونهم على الجهاد في سبيل اللّه، **ووصلنا من هذه الخطب:**

- **الخطبة الأولى: قيس بن هبيرة الأسدي:**
- أيها الناس، احمدوا اللّه على ما هداكم له وأبلاكم يزدكم.
- واذكروا آلاء اللّه، وارغبوا إليه في عاداته.
- فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم.
- وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء، والأرض القفر، والظُّراب [1] الخشن والفلوات التي لا تقطعها الأدلة).

---

(١) الظِّراب: ما نتأ من الحجارة وحد طرفه.

- **الخطبة الثانية: غالب بن عبد اللَّه الكناني الليثي:**

أيها الناس، احمدوا اللَّه على ما أبلاكم، وسلوه يزدْكم، وادعوه يجبْكم.

يا معاشر معد، ما علتكم اليوم وأنتم في حصونكم - يعني الخيل - ومعكم من لا يعصيكم - يعني السيوف - اذكروا حديث الناس في غد، فإنه بكم غدًا يُبدأ عنده.

- **الخطبة الثالثة: ابن الهذيل الأسدي:**

يا معاشر معد، اجعلوا حصونكم السيوف، وكونوا عليهم كالأسود الأجم وتربدوا لهم تربد النمور، وادرعوا العجاج [(١)]، وثقوا باللَّه، وغضوا الأبصار، فإذا كلت السيوف فإنها مأمورة، فأرسلوا عليهم الجنادل [(٢)]، فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه.

- **الخطبة الرابعة: بسر بن أبي رهم الجهني:**

احمدوا اللَّه، وصدقوا قولكم بفعل، فقد حمدتم اللَّه على ما هداكم له ووحدتموه ولا إله غيره وكبرتموه وآمنتم برسله، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، ولا يكونن شيء أهون عليكم من الدنيا، فإنها تأتي من تهاون بها، ولا تميلوا إليها فتهرب منكم لتميل بكم. انصروا اللَّه ينصركم.

- **الخطبة الخامسة: عاصم بن عمرو التميمي:**

يا معاشر العرب، إنكم أعيان العرب، وقد صمدتم الأعيان من العجم، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا، فلا يكونن في دنياهم أحوط منكم على آخرتكم، لاتحدثوا اليوم أمرًا تكونون به شينًا على العرب غدًا.

- **الخطبة السادسة: ربيع بن البلاد السعدي:**

يا معاشر العرب، قاتلوا للدين والدنيا ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وإن عظَّم الشيطان عليكم الأمر، فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم ما دام للأخبار أهل.

- **الخطبة السابعة: ربعي بن عامر:**

إن اللَّه هداكم للإسلام، وجمعكم به، وأراكم الزيادة، وفي الصبر الراحة، فعوِّدوا أنفسكم الصبر تعتادوه، ولا تعودوها الجزع تعتادوه.

---

(١) ادرعوا العجاج: لتكن دروعكم غبار الحرب.

(٢) الجنادل: ما يقلّه الرجل من الحجارة.

خطب أخرى متناثرة:

(وقام كلهم بنحوٍ من هذا الكلام، وتواثق الناس، وتعاهدوا، واهتاجوا لكل ما كان لا ينبغي لهم.

وفعل أهل فارس بينهم مثل ذلك وتعاهدوا وتواصوا، واقترنوا بالسلاسل وكان المقترنون ثلاثين ألفًا).

نظرة أخيرة إلى الجيشين:

فالكل معبؤون، أما العرب المسلمون.

فبالشوق إلى الجنة، والشوق إلى الشهادة.

والحرص على الغنيمة والنصر.

والخوف من عار الهزيمة.

والخوف أن يحملوا الذل إلى قومهم.

وأما الفرس فمعبؤون:

بالاستخفاف بالعرب.

والحرص على سحقهم حتى لا يعودوا لمثلها.

والاعتزاز بالجنس الفارسي.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن مجالد عن الشعبي:

إن أهل فارس كانوا عشرين ومائة ألف معهم ثلاثون فيلًا مع كل فيل أربعة آلاف.

(... عن حلام بن مسعود بن خراش: كان صف المشركين على شفير العتيق، وكان صف المسلمين مع حائط قديس، الخندق من ورائهم، فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق، ومعهم ثلاثون ألف مسلسل، وثلاثون فيلًا تقاتل، وفيلة عليها الملوك وقوف لا تقاتل.

التعبئة الأخيرة للمسلمين: قراءة سورة الأنفال:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم قالوا: لما صلى سعد الظهر أمر الغلام الذي كان عمر ألزمه إياه - وكان من القراء - أن يقرأ سورة الجهاد - سورة الأنفال -. وكان المسلمون يتعلمونها كلهم، فقرأ على الكتيبة الذين يلونه سورة الجهاد، فقرئت في كل كتيبة، فهشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها) (١).

هذه السنة العظيمة لهذه الأمة العظيمة بقراءة هذه السورة العظيمة بملاقاة كل عدد تعيد إلى المسلمين حرارة ودفء ذلك اللقاء الخالد الذي كان فرقانًا بين الحق والباطل، وكيف انتصرت فيه القلة المؤمنة على الكثرة الكاثرة الكافرة، في كل آية منها عبرةٌ، وفي كل آيةٍ آيةٌ على حماية اللّه لجنده وجيشه المؤمن: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وها هم اليوم مستضعفون بالنصر عدوهم ثلاثة أمثالهم إن لم يكن أربعة أمثالهم كما كان العدو في بدر كذلك.

وهي تبرّئ النفوس من حولها وقوتها، وتربط هذه النفوس باللّه الواحد الأحد الذي يملك النصر ويهبه لمن يشاء من عباده، وينزل ملائكته وجنده في السماء لنصر جنده في الأرض: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ١٢، ١٣].

واللّه حي باقٍ يسمع ويرى وينصر من يشاء من عباده.

وبهذه السورة يعرفون أن حب الدنيا والتنازع فيها يغضب اللّه ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ

---

(١) تاريخ الطبري (٤٠٩/٢ - ٤١١).

وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١ - ٤].

وفي هذه السورة يعرفون ما هي مواصفات النصر التي إذا تحققت في جيش انتصر:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً

- فَٱثْبُتُوا۟
- وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝
- وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
- وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
- وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝
- وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ... ﴾ [الأنفال: ٤٥ - ٤٧].

فلا بد من أن يعيد كل جندي حسابه على ضوء هذه الشروط ليستحق النصر، ولا يؤتى المسلمون من قِبَله، وإذا كان في الجيش مائة من أهل بدر، فهذا يعني أن النماذج الحية التي تنزلت عليهم السورة لا يزالون بينهم، وليسوا ضربًا من الخيال.

* * *

كيف يتم إعلان بدء الحرب؟

قال الطبري: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم قالوا:

قال سعد: الزموا مواقفكم، ولا تحركوا شيئًا حتى تصلُّوا الظهر، فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد من قبلكم، واعلموا أنما أعطيتموه تأييدًا لكم.

ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا ولتستتم عدتكم، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ولْيُنشِطْ فرسانُكم الناس ليبرزوا ويطاردوا.

فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوكم وقولوا: لا حول ولا قوة إلا باللَّه) (١).

إنه التكبير الذي أعطاه اللَّه لهذه الأمة، ولم يعط لأمة قبلها، وهو الذي يشكل صياغة جديدة لهذه الأمة، فبعد أن كانت الحمية حمية الجاهلية أبدلها اللَّه - تعالى - بالسكينة والطمأنينة التي تنبثق من أن اللَّه أكبر من كل شيء، ومن كل عدو، ومن كل طاغية، ومن كل أنانية، ومن كل أثرة، ومن كل غنيمة، ومن كل قبيلة، ومن كل وطن، فاللَّه أكبر من كل شيء: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

هذه التكبيرات الأربع، وتحديد حركة الجيش كله على إيقاع واحد بعد كل تكبيرة، يوضح تكوين هذه الأمة التي غدت على قلب رجل واحد في الانضباط والطاعة للَّه ولرسوله وللأمير الذي يقود الأمة، وهذا ما لم تعرفه العرب منذ عشرين قرنًا وندَّ عن هذا الإيقاع موقف واحد، حسب نفسه أنه لا يزال في أمر الجاهلية.

(وبينا الناس ينتظرون التكبيرة الرابعة إذ قام صاحب رجالة بني نهد، قيس ابن حذيم فقال: يا بني نهد انهدوا. إنما سميتم نهدًا لتفعلوا: فبعث إليه خالد ابن عرفطة:

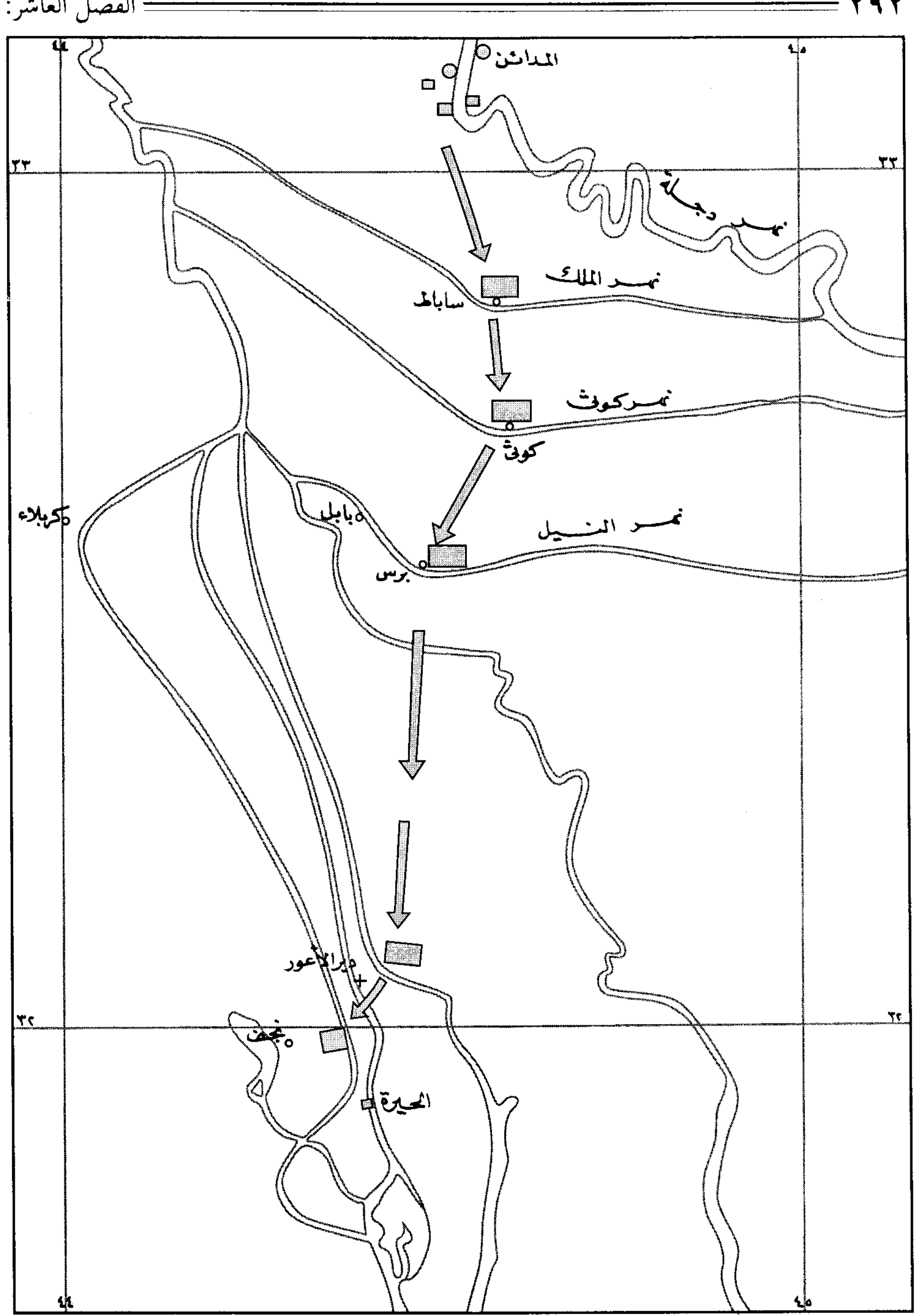
واللَّه لَتكُفّنّ، أو لأولين عملك غيرك، فكف) (٢).

وكان دخول الحرب مرتبطًا مع التكبيرة الثالثة، لكنه ليس الزحف العام، إنما دخول الأبطال، وأصحاب النجدات (ثم إذا كبرت الثالثة، فكبروا ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا ويطاردوا) إنما الزحف العام هو مع التكبيرة الرابعة.

---

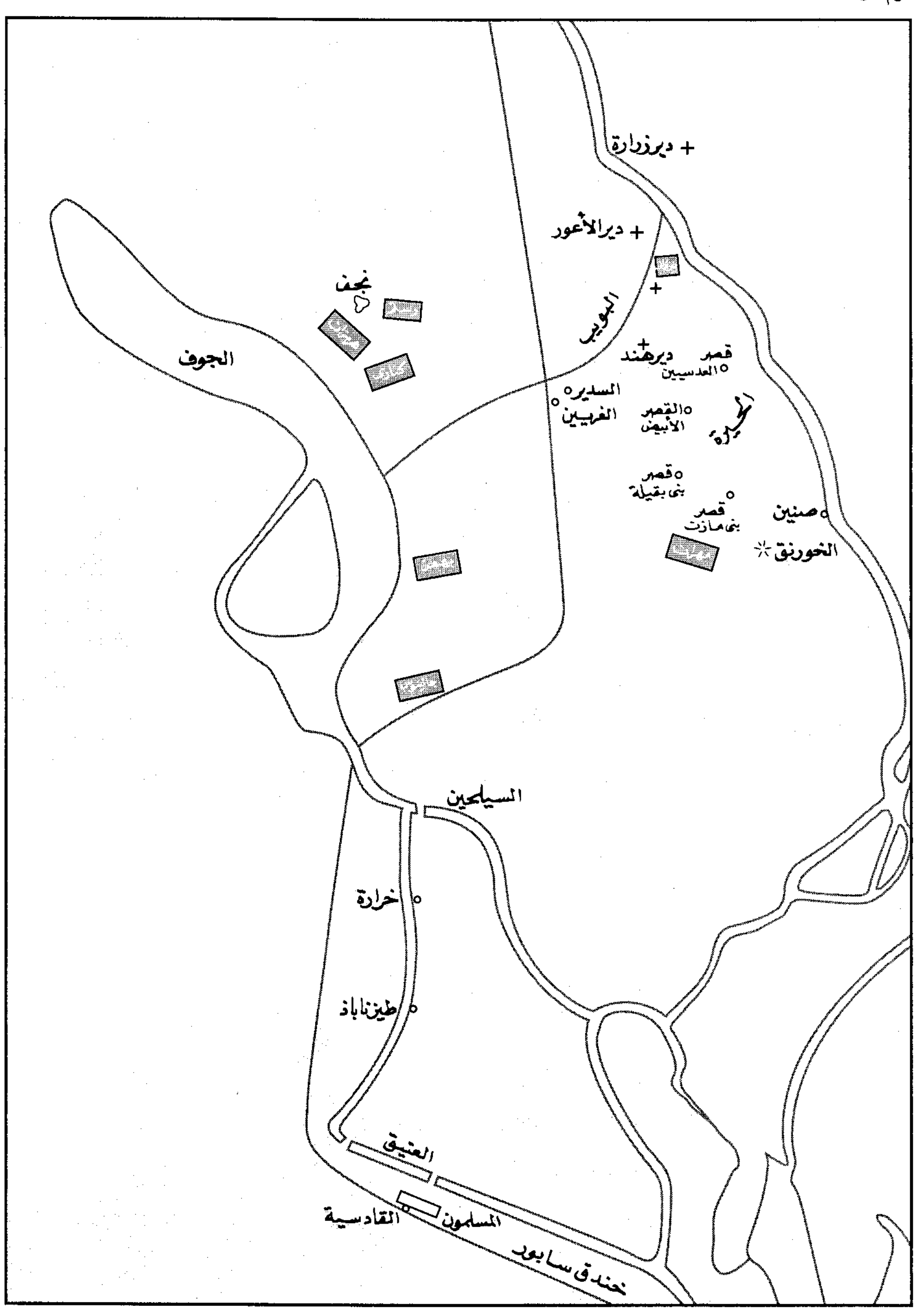
(١) تاريخ الطبري (٢/٤١٠).

(٢) المصدر نفسه (٢/٤١١).



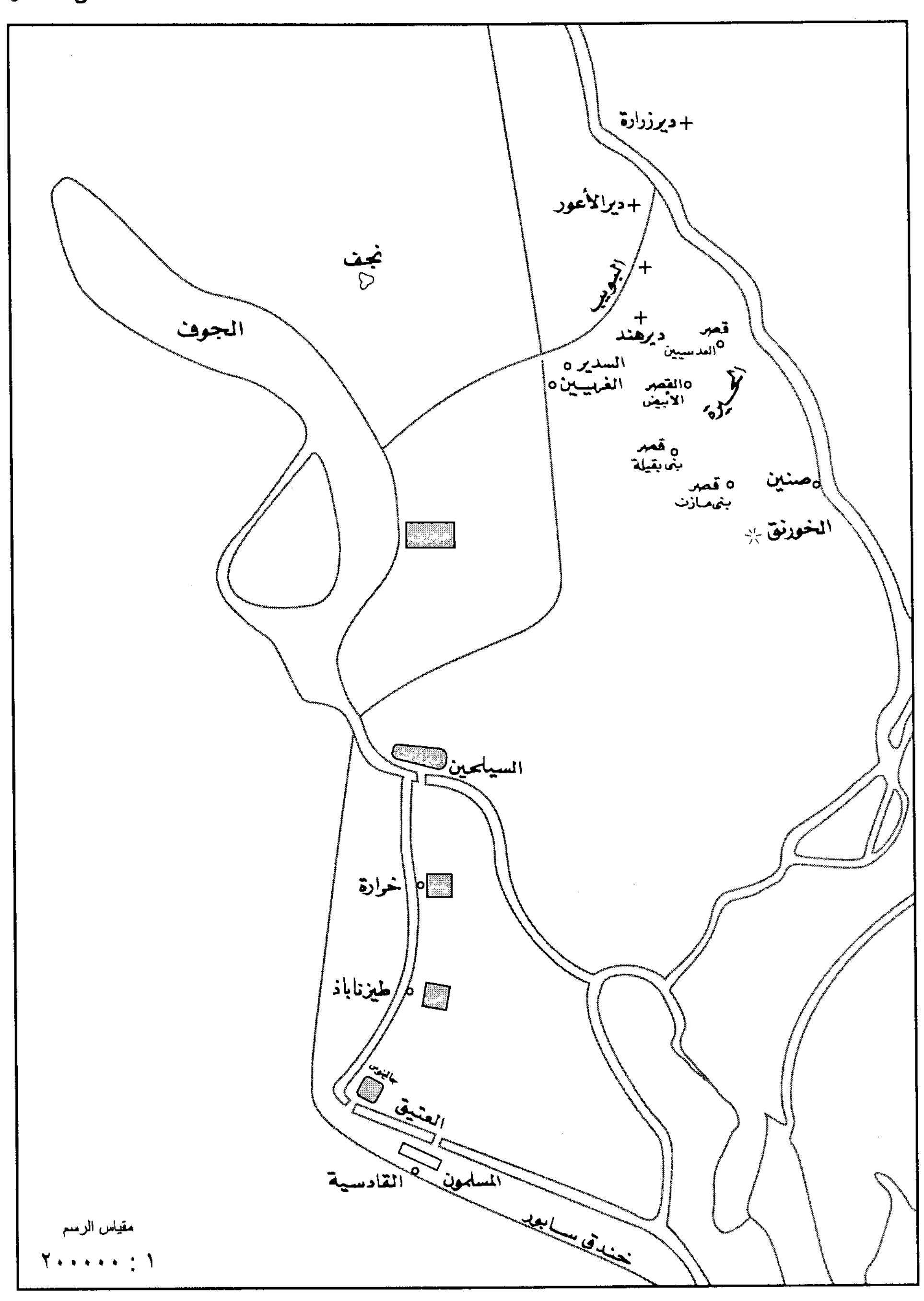
تحرك رستم نحو القادسية

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٥٦) خريطة (٣١))



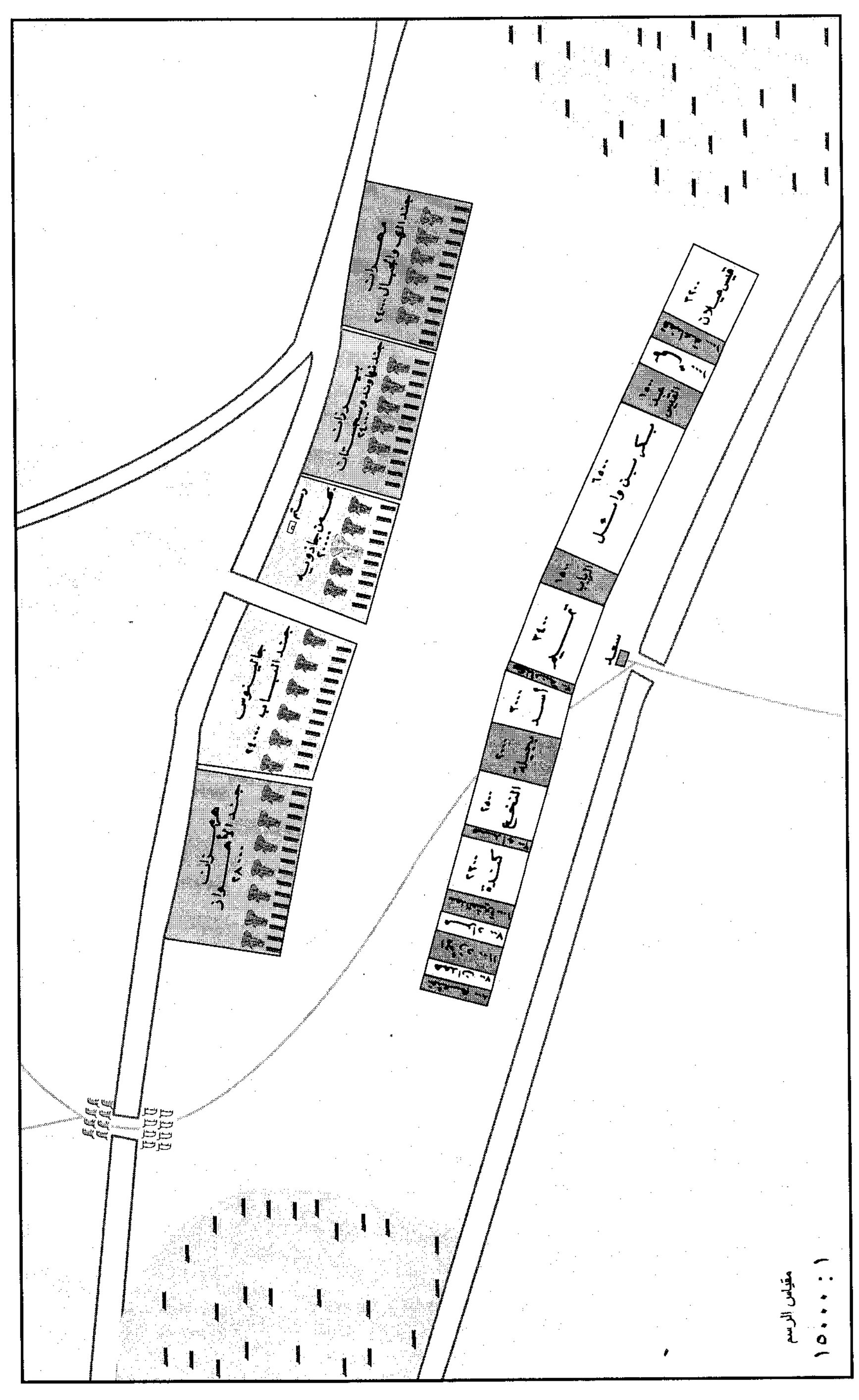
جيش سعد وجيش رستم قبل المواجهة

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٥٧) خريطة (٣٢))



اقتراب جيش رستم

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٥٨) خريطة (٣٣))



المسلمون والفرس في القادسية

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٥٨) خريطة (٣٤))

وابتدأت الحرب..

ولما فرغ القراء كبَّر سعد، فكبر الذين يلونه تكبيرة، وكبَّر بعض الناس بتكبير بعض فتحشحش الناس [١]، ثم ثنَّى، فاستتم الناس، ثم ثلث فبرز أهل النجدات، فأنشبوا القتال، وخرج من أهل فارس أمثالهم، فاعتوروا الطعن والضرب، وخرج غالب ابن عبد اللَّه الأسدي وهو يقول:

قد علمَتْ واردةُ المسائِح [٢] ... ذاتُ اللبانِ والبنانِ الواضحِ
أنِّي سمَام [٣] البطلَ المشايح ... وفارجُ الأمرِ المهمِّ الفادحِ

فخرج إليه هرمز - وكان من ملوك الباب، وكان متوجًا - فأسره غالب أسرًا، فجاء سعدًا فأدخل، وانصرف غالب إلى المطاردة.

وخرج عاصم بن عمرو وهو يقول:

قد علمتْ بيضَاء صَفْراءُ اللببِ [٤] ... مثلُ اللُّجَيْنِ إذ تغشاه الذهبُ
أني امرؤٌ لا من تعيبه السُّبب [٥] ... مِثْلي على مثلك يغريهِ العتبُ [٦]

فطارد رجلًا من أهل فارس، فهرب منه، واتبعه، حتى إذا خالط صفهم التقى بفارس معه بغله، فترك الفارس البغل، واعتصم بأصحابه فحموه، واستاق عاصم البغل والرَّحْل، حتى أفضى به إلى الصف، فإذا هو خباز الملك، وإذا الذي كان معه لطَف الملك الأخبصة والعسل المعقود، فأتى به سعدًا، ورجع إلى موقفه، فلما نظر فيه سعد، قال: انطلقوا به إلى أهل موقفه، وقال: إن الأمير قد نفلكم هذا فكلوه، فنفلهم إياه.

ولما تطاردت الخيل والفرسان خرج رجل من القوم ينادي: مرد ومرد، فانتدب له عمرو بن معديكرب وهو بحياله، فبارزه، فاعتنقه، ثم جلد به الأرض فذبحه، ثم التفت إلى الناس فقال: إن الفارسي إذا فقد قوسه، فإنما هو تيس.

ثم تكتَّبت الكتائب من هؤلاء وهؤلاء. كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف... قال: مر بنا عمرو بن معديكرب وهو يحضض الناس بين الصفين، وهو يقول:

---

(١) تحشحش الناس: تفرقوا وتحركوا.
(٢) واردة المسائح: الفتاة التي أرخت ذوائبها.
(٣) سمام: الخفيف السريع اللطيف في كل شيء.
(٤) صفراء اللبب: صفراء المنحر أي الصدر.
(٥) السُّبب: الحياة.
(٦) تاريخ الطبري (٢/ ٤١٠).

إن الرجل من الأعاجم، إذا ألقى مزراقه فإنما هو تيس، فبينما هو كذلك يحرضنا إذ خرج إليه رجل من الأعاجم، فوقف بين الصفين فرمى بنُشابة فما أخطأت سية قوسه وهو متنكبها، فالتفت إليه، فاعتنقه، ثم أخذ بمنطقته، فاحتمله فوضعه بين يديه، فجاء به حتى إذا دنا منه كسر عنقه، ثم وضع سيفه على حلقه فذبحه ثم ألقاه، ثم قال: هكذا فاصنعوا بهم.

فقلنا: يا أبا ثور من يستطيع أن يصنع كما تصنع.

وقال بعضهم غير إسماعيل: وأخذ سواريه ومنطقته، ويلمق ديباج عليه.

ابتدأت الجولة الأولى من الحرب بعد التكبيرة الثالثة، وكانت جولة عالية الأداء عظيمة النتائج، وبداية ترفع معنويات المسلمين، وتحطم معنويات المشركين.

وبرز الأبطال الثلاثة على الساحة، أبطال أسد وتميم وزبيد حيث يتنافس الكماة الأبطال في ساحة الوغى، وعيون الجيشين ترمقهم تنظر عمّن ينكشف الغبار.

وكانت جولة غالب ﷺ الذي افتتح المعركة يطلب البراز من أبطال فارس، والعجيب أن سرعة بناء الأمة العقدي، والصياغة الإيمانية لم يرافقه بهذه السرعة البناء اللغوي، فلا تزال أشعار أبطال المسلمين ماضية في الصيغة الجاهلية، يخبر فيها محبوبته عن بطولته، كما مثلها عنترة من قبل:

هلَّا سألت الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ ... إن كنت جاهلةً بما لمْ تَعْلَمي

ينبئكِ مَنْ شَهِدَ الوقيعَةَ أنني ... أغْشَى الوَغَى وأعَفُّ عِنْدَ المغْنَمِ

إلى آخر معلقته المشهورة، حيث تتحدث ربات الحجال في خِدْرِهن عن بطولة الرجال العظام في مقارعة عدوهن.

وهذا غالب ﷺ أحد أبطال أسد خرج يتحدى معلنًا أن ذات الذوائب السود قد سمعت عن بطولته، صاحبة البنان الجميل واللبان الآسر أنه دواءُ كُلِّ بطل متحدٍّ له، وأنها مع قومها تعرف أنه إذا وقع الكرب وادلَهَمَّ الخطب من ينادون، فهو فارج الأمر المهم الفادح.

وأثبت في كفاءة نادرة قدرته الحربية حيث تمكن من أخذ متحديه ومبارزه أسيرًا، وقلما كانت تحدث مثل هذه النتائج في تاريخ المبارزة، فالخصمان العنيدان كل واحد

منهما حريص على قتل صاحبه، وأي انشغال بغير هذا الهدف سيكون هو الضحية.

وكانت هذه الثمرة العظيمة اليانعة أول خطوات الحرب، وتقدم غالب من قائده سعد فسلَّم الأسير ومضى لمطاردة الفرسان ومتابعة مهمته.

وإلى البطل الثاني عاصم بن عمرو التميمي: البطل الفذ من تميم، الذي تابع على طريقة سلفه بإخبار فتاته الناصعة البياض في نحرها، حيث اختلط الذهب في الفضة بجمالها الآسر؛ أنه امرؤ لا تعييه الحيل، أو تعييه الحياة لأنه يفري عدوه وعلى مثله يعتب حين لا ينهي خصمه، لكن خصمه فر منه فلحقه حتى اختلط في صف العدو، فلم يجد إلا بغله يسوقه بما فيه، وكانت جولة عاصم غريبة في نتائجها كذلك، فالخصمان العنيدان يكونان من الأسود الأشاوس في قومهما، وهما خلاصة البطولة فيهما، ولم يعهد في تاريخ المبارزة كذلك أن يفر الخصم من خصمه.

وجاء دور عمرو بن معديكرب: (فقد أخرج الطبراني عن محمد بن سلام الجمحي، قال: كتب عمر إلى سعد: إني أمددتك بألفي رجل، عمرو بن معديكرب، وطليحة بن خويلد الأسدي وهو فحل في الشجاعة والشعر.

قال عمرو بن العلاء: لا يفضل عليه فارس في العرب) [(١)].

وسبق أن تحدثنا عن الطليعة العجيبة التي شارك فيها مع طليحة وقيس، فماذا يفعل اليوم بابتداء جولة الحرب مع الفرس.

يجيبنا ابن حجر رحمه الله فيما يرويه:

(وأخرج أبو بكر ابن أبي شيبة، وابن عائذ وابن السكن وسيف بن عُمر والطبراني وغيرهم بسند صحيح عن قيس بن حازم قال: شهدت القادسية فكان سعد على الناس فجعل عمرو بن معديكرب يمر على الصفوف ويقول: يا معشر المهاجرين، كونوا أسودًا أشداء، فإن الفارسي إذا ألقى رمحه يئِس (تيس) فرماه أسوار [(٢)] من الأساورة بنشاب فأصاب سية قوسه، فحمل عليه عمرو فطعنه فدق صلبه، ونزل إليه فأخذ سَلبه.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (٦٨٦٩).

(٢) أسوار: والجمع أساورة وهو قائد الفرس.

وأخرجها ابن عساكر من وجه آخر أطول من هذا وفي آخرها. إذ جاءته نشابة فأصابت قربوس سرجه، فحمل على صاحبها، فأخذه كما تؤخذ الجارية، فوضعه بين الصفين، ثم احتز رأسه، وقال: اصنعوا هكذا.

وروى الواقدي من طريق عيسى الخياط قال: حمل عمرو بن معديكرب يوم القادسية وحده، فضرب فيهم، ثم لحقه المسلمون وقد أحاطوا به وهو يضرب فيهم بسيفه فنحوهم عنه.

ورأيت في ديوانه رواية أبي عمرو الشيباني، من نسخة فيها خط أبي الفتح بن جني قصيدة يقول فيها:

والقادسية حين زاحم رستم — كنا الكماة نهز كالأشطان [1]

ومضى ربيع بالجنود مشوقًا — ينوي الجهاد وطاعة الرحمن) [2]

فلقد كان عمرو البطل الأول في القادسية بلا منازع.

التكبيرة الرابعة:

فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوكم وقولوا: لا حول ولا قوة إلا باللَّه.

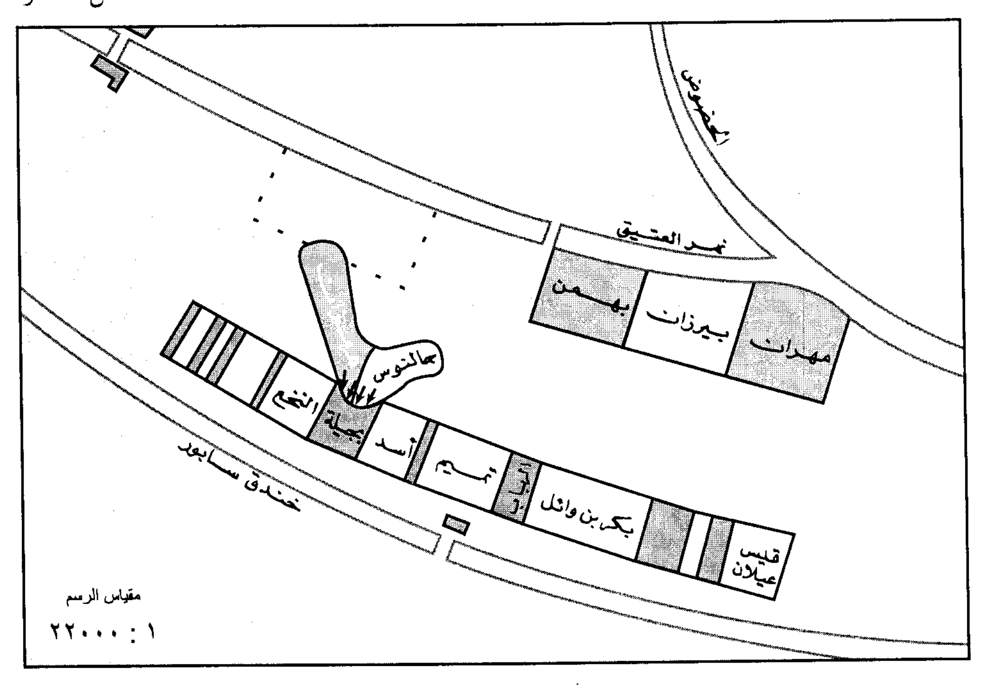
والظاهر أن الفرس، وقد رأوا قادتهم يُجندَلُون صرْعَى، قاموا بالهجوم المباشر وقبل تكبيرة سعد الرابعة فـ (لما تكتبت الكتائب بعد الطراد حمل أصحاب الفيلة عليهم ففرقت بين الكتائب، فانذعرت الخيل، فكادت بجيلة أن تؤكل، فرَّت عنها خيلها نِفارًا وعمن كان معهم من مواقفهم، وبقيت الرجالة من أهل المواقف).

(فأرسل سعد إلى بني أسد: ذببوا عن بجيلة ومن لافها من الناس، فخرج طليحة ابن خويلد، وحمال بن مالك، وغالب بن عبد اللَّه، والربيل بن عمرو في كتائبهم، فباشروا الفيلة حتى عدلها ركبانها، وإن على كل فيل عشرين رجلًا).

---

(١) كالأشطان: كالمتمردين العتاة.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (٦٨٦٩).



هجوم الفرس على بجيلة القادسية (٢)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٦٩) خريطة (٣٥))

لقد كانت هي السلاح الثقيل الذي يفتقده المسلمون، وخطورة هذا السلاح أنه يقضي على سلاح الفرسان كاملًا، فالخيل لا تصمد له، وتفر منه، فليست الخطورة إذن في هذا السلاح أنه يرمي المسلمين فيفتك بهم، إنما يقضي على أعظم سلاح يمتلكه المسلمون على الإطلاق، وهو سلاح الخيل الذي يجول به المسلم ويصول، ويناور ويهاجم وينسحب، وقد قرر قائد الفرس أن يوجه إلى ميمنة المسلمين من بجيلة ستة عشر فيلًا. يمكن أن يربح المعركة من جولتها الأولى بأقل الخسائر للعدو، وأعظم الخسائر للمسلمين.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن إسماعيل بن أبي خالد قال: كانت - يعني وقعة القادسية - في المحرم سنة أربع عشرة في أوله، وكان قد خرج من الناس إليهم، فقال له أهل فارس: أجِلنا، فأحالهم على بجيلة، فصرفوا إليهم ستة عشر فيلًا.

وكان القائد العام سعد منبطحًا على بطنه، ويشهد ساحة المعركة من عليته، فرأى هجوم الأعاجم على بجيلة، وشهد فرار الخيل من الفيلة، فأرسل سعد إلى بني أسد:

(ذببوا عن بجيلة ومن لافها من الناس).

فماذا كان أثر هذا النداء؟

لقد شهدنا طليحة في نبوءته الكاذبة، وشهدناه يوم اشتدت الحرب، أخذ امرأته النُّوار، وركب فرسه ولاذ بالفرار، ترى هل يعيد الكرة اليوم بقومه بني أسد حين يرى تحطم بجيلة أمام هذا السلاح الكاسح الفاتك من الفيلة؟

إنه اليوم جندي في جيش الله ﷻ، وبطل يشار إليه بالبنان على رأس قومه، وهو ثاني أبطال القادسية، كما كان ثاني أفراد الطليعة العجيبة، وشهدنا بطولته الخارقة فيها، كما وصفها الفارسي:

(أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قبلي:

باشرت الحروب وغشيتها، وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما بلغت ولم أر ولم أسمع بمثل هذا؛ أن رجلًا قطع عسكرين لا يجترئ عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفًا.. فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند، وهتك أطناب بيته فأنذره، فأنذرنا به، فطلبه الأول وهو فارس الناس يعدل ألف فارس فقتله، فأدركه الثاني وهو نظيره فقتله، ثم أدركته، ولا أظن أني خلفت بعدي من يعدلني، وأنا الثائر بالقتيلين، وهما ابنا عمي، فرأيت الموت فاستُأسِرت...).

ولقد سمع سعد ببطولة طليحة من هذا الفارسي، فعرف أنه لن يغير مصير المعركة إلا طليحة وهو على رأس بني أسد، فأصدر أوامره إليه أن يواجه الموقف.

فماذا فعل طليحة؟

قال ابن جرير: (كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن محمد بن قيس عن موسى بن طريق، أن طليحة قام في قومه حين استصرخهم سعد فقال:

يا عشيرتاه، إنَّ المنوّهَ باسمه الموثُوقُ به، وإن هذا لو علم أن أحدًا أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم.

ابتدئوهم بالشدة، وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحرِبَة، فإنما سميتم أسدًا لتفعلوا فعله، شدوا ولا تصدوا، وكروا ولا تفروا.

للَّه در ربيعة؛ أي فَرْيٍ يَفْرُون، وأي قرنٍ يغنون، هل يُوصَل إلى مواقفهم؟ فأغنوا عن مواقفكم أعانكم اللَّه. شدوا عليهم باسم اللَّه).

وبدأ هجوم الأسود (فقال المعرور بن سويد وشقيق: فشدوا واللَّه عليهم، فما زالوا يطاعنونهم، ويضربونهم، حتى حبسنا الفيلة عنهم وأَخرَّت، وخرج إلى طليحة عظيم منهم فبارزه، فما لبث طليحة أن قتله).

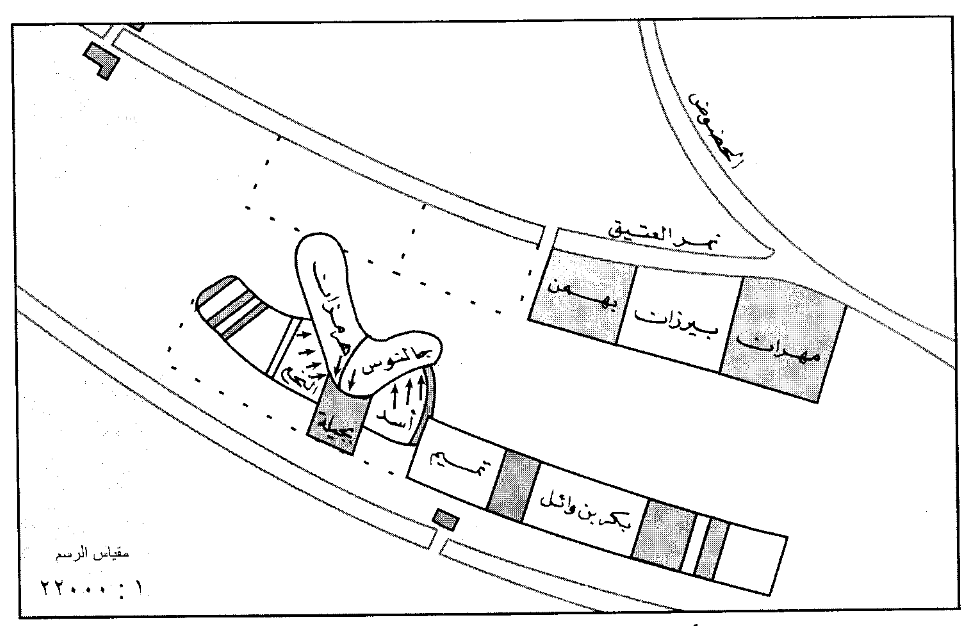
الأشعث بن قيس يعبئ كِندة:

وقام الأشعث بن قيس فقال:

يا معشر كِندة؛ للَّه در بني أسد، أي فَرْيٍ يفرون، وأي هدٍّ يهدُّون عن موقفهم منذ اليوم، أغنى كل قوم ما يليهم، وأنتم تنتظرون من يكفيكم البأس.

أشهد ما أحسنتم أسوة قومكم العرب اليوم، إنهم ليقتلون ويقاتلون، وأنتم جثاة على الركب تنظرون).

ومنذ زمن ليس بالبعيد، وأثناء حروب الردة كان الأشعث بن قيس يستصرخ كِندة ويحثهم في كندة في اليمن على الثبات والموت في وجه المسلمين.



أسد تدافع عن بجيلة القادسية (٣)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٦٩) خريطة (٣٦))

(وبلغ كندة وهم في الحصار ما لقي سائر قومهم، فقالوا:

الموت خير مما أنتم فيه، جزوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم للَّه أنفسكم، فأنعم اللَّه عليكم فبؤتم بنعمه، لعله أن ينصركم على هؤلاء الظلمة (أي المسلمين).

فجزوا نواصيهم، وتعاقدوا، وتواثقوا ألَّا يفر بعضهم عن بعض، وجعل راجزهم يرتجز:

صباح سوء لبني قتيرة ... وللأمير من بني المغيرة

وجعل راجز المسلمين زياد بن دينار يرد عليهم:

لا توعدونا واصبروا حصيرة ... نحو خيول ولد المغيرة

وفي الصباح تظفر العشيرة

فقد كان المهاجر بن عبد اللَّه بن المغيرة وعكرمة بن أبي جهل هما اثنان من قيادات جيش المسلمين، فلما أصبحوا خرجوا على الناس فاقتتلوا بأفنية النجير، حتى كثرت القتلى بحيال كل طريق من الطرق الثلاثة، وخرج عكرمة يرتجز يومئذ ويقول:

أطعنهم وأنا على أوفازِ ... طعنًا أبوء به على مَجازِ

ويقول:

أُنفِذُ قولي وله نفاذ ... وكل من جاوزني معاذ

فهزمت كندة وأكثر فيها القتل.

... فعجل الأشعث، فخرج إلى عكرمة بأمان، ونفر معه تسعة على أن يؤمنهم وأهليهم، وأن يفتحوا لهم الباب فأجابه إلى ذلك وقال: انطلق فاستوثق لنفسك ثم هلم كتابك أختمه)[1].

وها هو الأشعث اليوم والدائرة تكون على المسلمين، هل يسرع إلى الجالينوس، فيطلب منه كتاب أمان له ولقومه؟

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٠٣).

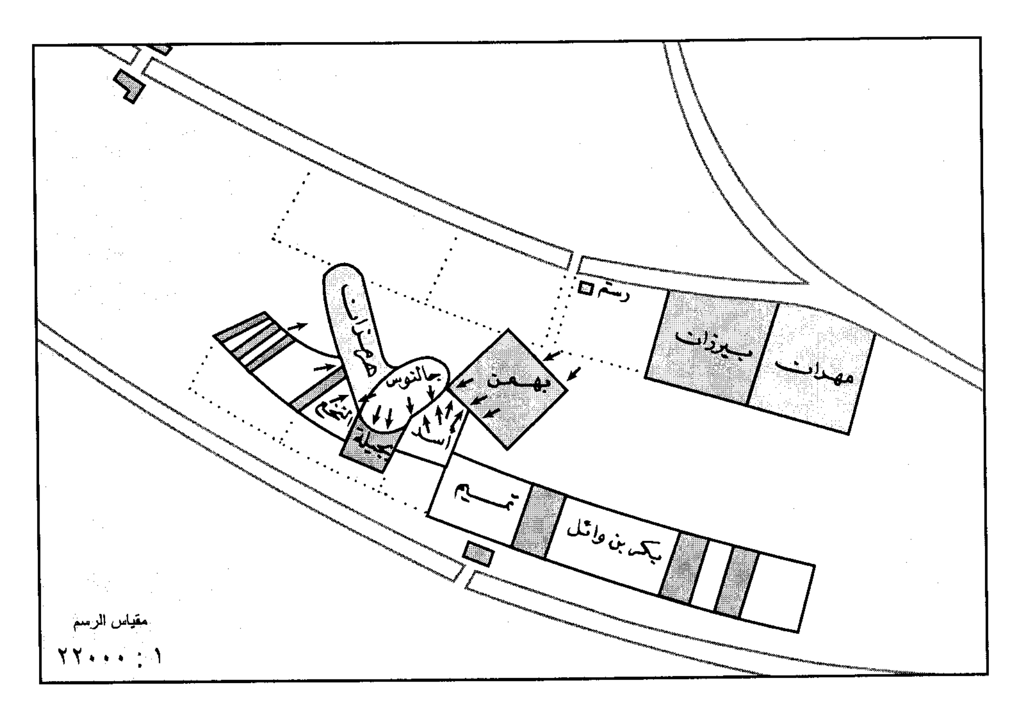
إن أشعث اليوم غير أشعث الأمس، أشعث اليوم يطلب الشهادة والموت في سبيل اللَّه مع قومه، ولنعد إليه وهو يعبِّئهم للمعركة.

(فوثب إليه عدد منهم عشرة فقالوا: (مثل العشرة أولئك).

عثَّر اللَّه جدك، إنك لتؤيسنا جاهدًا، ونحن أحسن الناس موقفًا، فمن أين خذلنا قومنا العرب وأسأنا أسوتهم! فها نحن معك.

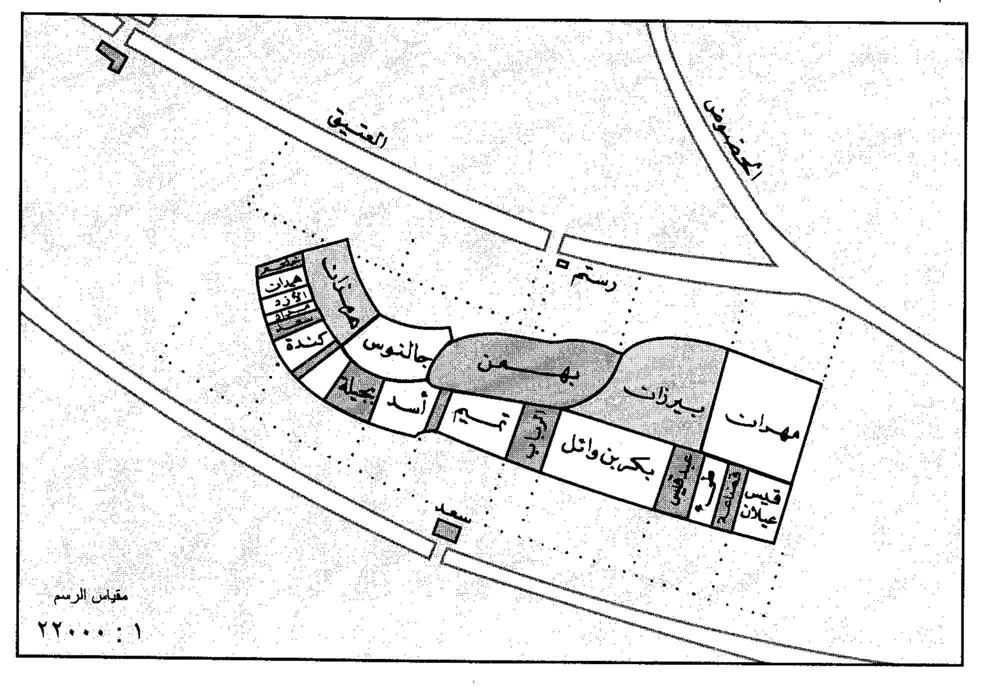
نهد ونهدوا، وأزالوا الذين بإزائهم، فلما رأى أهل فارس ما تلقى الفيلة من كتيبة أسد رموهم بحدهم.

وبدَرَ المسلمين الشدة عليهم ذو الحاجب والجالينوس، والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد، فاجتمعت حَلْبة فارس على أسد ومعهم تلك الفيلة وقد ثبتوا لهم.



بهمن جاذويه يدخل معركة القادسية (٤)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٧٠) خريطة (٣٨))



يوم أرماث القادسية (٥)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٧٠) خريطة (٣٨))

وقد كبَّر سعد التكبيرة الرابعة:

فزحف إليهم المسلمون ورحى الحرب تدور على أسد، وحملت الفيول على الميمنة والميسرة على الخيول، فكانت الخيول تحجم عنها وتحيد، وتُلحُّ فرسانهم على الرَّجل يشمسون [١] بالخيل).

تعطيل سلاح الفيلة، السلاح الصاعق:

سعد ﷺ يدير المعركة، ويشهد رحى الحرب، ويرى أن الخطة الدفاعية السابقة أقصى ما يمكن أن تصل إليه هو إيقاف زحف الفيلة، لكن هذا الإيقاف قد ينتهي في كل لحظة، وتوقف عندما التحم العجم بالعرب، وقامت المطاعنة والمجالدة والمضاربة، ثم استطاع سلاح الفيلة ثانيًا أن يسيطر على الموقف، ويعطل سلاح الفرسان الأول عند المسلمين.

---

(١) شمس الفرس يشمس: أي شرد وجمح، والمعنى أي يجبرونها على الصمود وعدم الفرار.

وهنا تكمن قيادة وعبقرية سعد، فلابد من خطة لإنهاء الزحف الفيلي على المسلمين، فإن كانت بجيلة وأسد وكندة في الساحة فأين بنو تميم، وأين خبرتهم في حرب الأعداء.

سعد يوجه عاصم وعاصم يصعق الفيلة:

(فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو فقال: يا معشر بني تميم: ألستم أصحاب الإبل والخيل؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟!

قالوا: بلى واللَّه.

ثم نادى في قومه رماةُ آخرين لهم ثقافة [١]، فقال لهم: يا معشر الرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل.

وقال: يا معشر أهل الثقافة، استدبروا الفيلة فَقَطِّعوا وضنها [٢].

وخرج يحميهم والرحى تدور على أسد).

فالخطة إذن من ثلاث شعب:

الشعبة الأولى: مسؤولية الرماة في ضرب قادة الفيلة والقضاء عليهم.

الشعبة الثانية: أن يقوم رجال الثقافة بقطع أوضان الفيلة.

الشعبة الثالثة: أن يقوم فريق الفدائيين بحماية رجال الثقافة حتى يتموا مهمتهم.وترك سعد ﷺ الخطة وتنفيذها للقائد الميداني عاصم بن عمرو ﷺ.

(... وخرج يحميهم والرحى تدور على أسد، وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد، وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة، فأخذوا بأذنابها، وذباذب توابيتها، فقطعوا وضنها، وارتفع عواؤهم، فما بقي لهم فيل إلا أعري، وقُتل أصحابها، وتقابل الناس، ونُفِّس عن أسد، وردوا فارس عنهم إلى مواقفهم، فاقتتلوا حتى غربت الشمس، ثم حتى ذهب هدأة من الليل، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء...).

---

(١) رماة لهم ثقافة: لهم خبرة في صناعة السهام.

(٢) وضن الفيلة: بطان عريض منسوج من سيور أو شعر أو لا يكون إلا من جلد.

بنو أسد مقر المذبح:

(وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة، وكانوا ردءًا للناس، وكان عاصم عادية الناس وحاميتهم، وهذا هو يومها الأول وهو يوم أرماث.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف... عن رجل من بني كنانة قال:

جالت المجنبات ودارت على أسد يوم أرماث فقتل تلك العشية منهم خمسمائة رجل، فقال عمرو بن شأس الأسدي:

جلبْنا الخيلَ من أكنافِ نيقٍ ... إلى كسرى فوافَقَها رعَالا
تَركْنَ لَهُم على الأقسام شجوًا ... وبالحقويْنِ أيامًا طِوالا
وداعية بفارسٍ قد تركْنَا ... تبكِي كلَّمَا رأتْ الهِلالا
قتلْنا رسْتُمًا وبنيهِ قَسْرًا ... تثيرُ الخيلَ فوقَهم الهيالا
تركْنَا منهمْ حيثَ التقينا ... فئامًا ما يريدونَ ارتحالا
وفرّ البيرزانَ ولم يحامي ... وكانَ على كتيبتهِ وَبَالا
ونجى الهرمزانُ حِذارَ نفسٍ ... وركض الخيل موصلة عجَالا) [1]

لم يستطع الشعر أبدًا أن يرتفع إلى مستوى هول المعركة العالمية، أو الحرب العالمية الثانية فتلك المعارك التي كانت بين مئات من العرب، كان تصويرها أعلى بكثير من تصوير هذه المعركة الهائلة، وفيها من الأحداث ما يغير وجه التاريخ.

قتل رستم ومن معه حتى أنهم يدفنون بغبار المعركة، وهذه أضخم صورة فنية وردت في هذه الأبيات، وفيها فرار القادة الكبار البيرزان والهرمزان، حتى أن المرء لا يجد فرقًا بين الحديث العادي والشعر النثري، والإعلان عن الأرباح والخسائر.

وذاك وصف مقتطع من أيام الجاهلية لانتصارٍ على فصيلٍ من جيش المنذر بن ماء السماء لشريح بن الحارث اليربوعي:

(وكنتُ إذا ما بابُ ملكٍ قرعتُه ... قرعتُ بآباءِ أولي شرفٍ ضخم
بأبناءِ يربوع وكان أبوهمْ ... إلى الشرفِ الأعْلى بآبائِه ينمي

(١) تاريخ الطبري (٤١٢/٢).

هـمُ مَـلَـكُـوا أمـوالَ آلِ ممـزّقِ ... وزادوا أبا قابوسَ رَغْمًا عَلى رَغْمِ
وقادوا بكرهِ من شهاب وحاجبِ ... رؤوس مـعـد بـالأزقّـة والخطـم
علا جدُّهم جدَّ الملوكِ فأطلَقُوا ... بطخفةَ أبناءَ الملوكِ على الحكْمِ
وكنا إذا قومًا رَمَيْنَا صَفاتَهُمْ [1] ... تَرَكْنَا صُدُوعًا بالصَّفَاةِ التي نَرْمِي
ونَرْعَى حِمَى الأقوامِ غَيْر محرمِ ... علينا ولا تَرْعَى حِمَانا الذي نَحْمِي) [2]

بينما هنا فقد حضر المعركة كبار شعراء العربية: الشماخ والحطيئة وأوس بن مغراء وعبدة ابن الطيب، ولم نجد لهم فيها شعرًا ذا بال. تُرى، هل طغت روح القرآن على القوم فغاب الشعر من حياتهم؟؟ لا ندري! قد يكون.

* * *

---

(١) الصفاة: الصخر القاسي الصلد.

(٢) أيام العرب في الجاهلية لمحمد أحمد جاد المولى وإخوانه (ص ٩٦).

الفصل الحادي عشر

يوم أغواث

أزمة في الجيش:

لقد كان اليوم الأول (يوم أرماث) يوم الأهوال، وقتل خمسمائة من أسد فقط غير بقية الشهداء، واستطاع المسلمون أن يواجهوا سلاح الفيلة بقطع وضنها فما بقي لهم فيل يومئذ إلا عُري وقتل أصحابها.

(وكان سعد قد تزوج سلمى بنت خصفة امرأة المثنى بن حارثة قبله بشِراف، فنزل بها القادسية، فلما كان يوم أرماث، وجال الناس، وكان لا يطيق جلسة إلا مستوفزًا أو على بطنه، جعل سعد يتململ ويجول جزعًا فوق القصر، فلما رأت ما يصنع أهل فارس قالت: وامثنياه ولا مثنى للخيل اليوم - وهي عند رجل قد أضجره ما يرى من أصحابه وفي نفسه - فلطم وجهها وقال: أين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى - يعني أسدًا وعاصمًا وخيله - فقالت: أغيرة وجبنًا؟

قال: واللَّه لا يعذرني اليوم أحد إذا أنت لم تعذريني، وأنت ترين ما بي، والناس أحق ألا يعذروني.

فتعلقها الناس، فلما ظهر الناس لم يبق شاعر إلا اعتد بها عليه، وكان غير جبان ولا ملوم) [١].

كان من الممكن أن نمر على هذه الصفحة دون ذكرٍ لها، ولكننا ننشد الأمانة في عرض صورة هذا المجتمع الجديد الذي انتقل نقلة هائلة من القبيلة إلى الدولة، ولكن هذا الانتقال لم يكن سهلًا ليس فيه كبوات أو عقبات أو نتوءات، وهذه صورة من صور هذا الواقع بما فيه، ولسنا مع ملائكة بلا مشاعر. والحادثة بسيطة بحد ذاتها، غير أن أبعادها ليست بسيطة.

فهذه سلمى بنت خصفة رضي الله عنها ترى المعركة تدور رحاها، وترى أهوالها، وتذكر

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤١٢، ٤١٣).

البطل المثنى وهو في قلب المعركة يصول ويجول، بينما ترى زوجها سعدًا بجوارها، فندَّت منها تلك الصيحة: وا مثنياه ولا مثنى للخيل اليوم.

وسعد يجول كالأسد الهصور السجين بدمامله وقيحه وباسوره، فانفجر غاضبًا ولطمها على ما تقول، قائلًا: أين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى.

هذه هي النفس البشرية على فطرتها ساعة الغضب والألم، فزاد غضبها ونسيت أن سعدًا زوجها وقالت: أغيرة وجبنًا؟

وعاد سعد الذي قال لأمه ذات يوم وهو في عنفوان شبابه حين أقسمت ألا تذوق الطعام والشراب حتى يكفر بمحمد فقال لها: يا أماه والله لو كان لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت دين محمد، فكلي أو لا تأكلي.

وبمقدار ما أعجبنا ثباته على دينه بمقدار ما كان التوجيه القرآني يدفعه أن لا يطيع أمه لكن بمقدار ما طالبه أن لا يكون قاسيًا على أمه: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ [لقمان: ١٥]. هذا في الثناء.

﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥]. وهذا في العتاب.

وسعد اليوم الذي دلف إلى الأربعين لم يطع شيطانه في ازدياد غضبه، فيقوم مطلِّقًا لها، أو يقوم بضربها الضرب المبرِّح الذي يكسر العظم ليشتفي من هذا الاتهام والتحدي عاد إليه رشده: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. فعاد ليخاطب امرأته التي تجاوزت الحد غضبًا وخللًا في القول، مراعيًا ضعفها قائلًا لها: والله لا يعذرني أحد إذا لم تعذريني وأنت ترين ما بي، والناس أحق ألا يعذروني).

أما كيف انتشر هذا الحوار، وانتشرت هذه الحادثة، فلا ندري. وغيَّر الجو الذي ساده الفداء والتضحية والإيثار إلى جو نفخ الشيطان فيه ليعيدها جذعة من جديد. ويأخذ الشعراء هذه الحادثة، فلا ألذ من نقد القائد، وإثارة الفتنة، وكما قال النص: « فلما ظهر الناس لم يبق شاعر إلا اعتد بها عليه ».

وهذا نموذج من سعار هذه الفتنة:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن عبد الملك بن عمير، عن قبيصة بن جابر قال:

قال رجل منا يوم القادسية مع الفتح:

نقاتل حتى أنزل اللَّه نصره وسعد بباب القادسية معصم
فأُبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعدٍ ليس فيهن أَيِّمُ

فبعث بها في الناس، فبلغت سعدًا، فقال: اللهم إن كان كاذبًا، أو قال: الذي قاله رياءً وسمعة وكذبًا، فاقطع عني لسانه ويده.

وقال قبيصة: فواللَّه إني لواقف بين الصفين يومئذ، إذ أقبلت نشابة لدعوة سعد فيبس شقه، فما تكلم بكلمة حتى لحق باللَّه) [١].

وأين دور النساء في الحرب؟

(ولما أصبح القوم من الغد، أصبحوا على تعبية، وقد وكَّل سعد رجالًا بنقل الشهداء إلى العُذَيب ونقل الرثيث [٢]، فأما الرثيث فأُسلم إلى النساء يقمن عليه إلى قضاء اللَّه ﷻ عليهم، وأما الشهداء فدفنوهم هناك على مشرِّق - وهو واد بين العُذَيْب وبين عين الشمس - في عدوتيه جميعًا؛ الدنيا منهما إلى العذيب، والقصوى منهما من العذيب، والناس ينتظرون بالقتال حمل الرثيث والأموات، فلما استقلت بهم الإبل، وتوجهت بهم نحو العذيب طلعت نواصي الخيل من الشام - وكان فتح دمشق قبل القادسية بشهر...) [٣].

أسدل الظلام ستاره، وهدأت الحرب، فلا بد من التعامل مع الواقع، هناك جثث الشهداء في قلب المعركة، وفي ساحتها، فلا بد من نقل هذه الجثث، ولهول الموت، تُرك نقل جثث الشهداء للرجال، أما الذي ارتثوا بين القتلى وفيهم بقية من حياة، فقد أوكل أمرهم إلى النساء يداوين جراحاتهم، ويؤاسين همومهم، وما أحوج الجريح إلى نظرة حانية، أو كلمة تكون بلسمًا لجرحه، فالإنسان في هذا الدين هو الأصل، ونجد اليوم في الحروب الحديثة المشافي المتنقلة وآلاف المختصين من الأطباء والصيادلة والممرضات، وكان هذا الأمر كله في الإسلام مهمة المرأة المسلمة، تعيش هموم إخوانها المجاهدين؛ تسقي العطاش وتداوي الجرحى، وقد يربو الشهداء والمرتثون على

---

(١) تاريخ الطبري (٤٣٣/٢).
(٢) الرثيث: الجريح الذي لا يزال حيًا بين القتلى.
(٣) تاريخ الطبري (٤١٣/٢).

الألف والألفين، فليست مهمة سهلة، ولكنها متعة الجهاد في سبيل اللَّه، وبدت طلائع اليوم الثاني بـ:

الجولة الاولى: طلائع فجر النصر، القعقاع بن عمرو:

(... فلما قدم على أبي عبيدة (ابن الجراح) كتاب عمر بصرف أهل العراق أصحاب خالد، ولم يذكر خالدًا. ضن بخالد فحبسه، وسرَّح الجيش، وهم ستة آلاف، خمسة آلاف من ربيعة ومضر، وألف من أفناء اليوم من أهل الحجاز، وأمَّر عليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، فجعله أمامه، وجعل على إحدى مجنبتيه قيس بن هبيرة بن عبد يغوث المرادي - ولم يكن شهد الأيام، أتاهم وهم باليرموك حين صرف أهل العراق، وصُرِف معهم - وعلى المجنبة الأخرى الهزهاز بن عمرو العِجلي، وعلى الساقة أنس بن عباس فانجذب القعقاع وطوى وتعجل، فقدم على الناس صبيحة يوم أغواث. وقد عهد إلى أصحابه أن ينقطعوا أعشارًا، وهم ألف - فكلما بلغ عشرة مدى البصر سرحوا في آثارهم عشرة، فقدَّم القعقاع أصحابه في عشرة، فأتى الناس فسلَّم عليهم وبشرهم بالجنود فقال: يا أيها الناس إني قد جئتكم في قوم، واللَّه أن لو كانوا بمكانكم ثم أحسوكم حسدوكم حَظوتَها، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم، فاصنعوا كما أصنع، فتقدم ثم نادى: من يبارز؟

فقالوا فيه بقول أبي بكر: لا يهزم جيش فيه مثل هذا، وسكنوا إليه.

فخرج إليه ذو الحاجب. فقال له القعقاع: من أنت؟

قال: أنا بهمن جاذويه.

فنادى: يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر.

فاجتلدا، فقتله القعقاع.

وجعلت خيله تَرِدُ قطعا، وما زالت تَرِدُ إلى الليل، وتُنَشِّطُ الناس؛ وكأن لم يكن في الأمس مصيبة، وكأنما استقبلوا قتالهم بقتل الحاجِبيّ، وبلحاق القطع، وانكسرت الأعاجم لذلك، ونادى القعقاع أيضًا: من يبارز؟

فخرج إليه رجلان: أحدهما البيرزان، والآخر البندوان، فانضم إلى القعقاع

الحارث بن ظبيان بن الحارث أخو بني تيم اللات.

فبارز القعقاع البيرزان، فضربه فأذرى برأسه. وبارز ابن ظبيان البِندوان، فضربه فأذرى برأسه.

وتورّدهم فرسان المسلمين، وجعل القعقاع يقول: يا معاشر المسلمين، باشروهم بالسيوف، فإنما يُحصد الناس بها فتواصى الناس وتشايعوا إليهم، فاجتلدوا بها حتى المساء.

فلم ير أهل فارس في ذلك اليوم شيئًا مما يعجبهم، وأكثر المسلمون فيهم القتل ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل، كانت توابيتها تكسرت بالأمس، فاستأنفوا علاجها حين أصبحوا فلم ترتفع حتى كان الغد) [1].

خالد بن الوليد:

لقد قاد معارك الجبهة العراقية، وظفر فيها جميعًا، وحرّر العراق العربي كله، وأصبح اسمه يشكل رعبًا عند قيادات فارس، ولو كان من سياسة الصديق ﷺ أن يفتح الجبهة الفارسية، ويهاجم عاصمتهم، لتحرك سيف اللّه واختصر الكثير من التضحيات التي تمت فيما بعد، خاصة بعد فتحه للحيرة والأنبار، وانتظار الأوامر من الخليفة ﷺ حتى أنه أسمى العام الذي لم يقد فيه جيشه إلى فتوح جديدة، (سنة نساء). كما أن من الممكن بعد أن انتهى حصار عياض بن غنم ﷺ في الجزيرة، أن يتحرك نحو فارس بعد تلك الانتصارات الفائقة هناك. ويقتحم أرض فارس، غير أن تصاعد الخطر الكبير على جبهة الروم في الشمال، واستعداد هرقل لفتح معركة عالمية ضد المسلمين بقوات تتجاوز المائتي ألف، وتوزع هذه القوات إلى جيشين ضخمين يهددان الجبهة الإسلامية في الشام، كان له أكبر الأثر في توجيه خالد إلى الشام وهو يعرف مَن خالد - قائلًا: « لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ».

كما أنسى الفرس وساوس الشيطان به، وظهر لنا أثره العظيم في الانتصار العالمي الذي تم في اليرموك، والذي تُوِّج بفتح دمشق، صرة حاضرة الرومان في الشام، والذي رأى هرقل من خلاله أن الشام انتهت من السلطة الرومانية، قائلًا: سلام عليك يا سورية، سلامًا لا لقاء بعده.

---

(١) تاريخ الطبري (٤١٣/٢).

وكان القائد العام أبو عبيدة، يعتبر وجود خالدٍ ﷺ بجواره أعظم كسب له فهو معه وهو مستشاره الأول، ويده الكبرى التي يبطش بها. (فلما قدم على أبي عبيدة كتاب عمر بصرف أهل العراق أصحاب خالد، ولم يذكر خالدًا، ضنَّ بخالد فحبسه وسيَّر الجيش).

وسواء أكان هذا هدف عمر أمير المؤمنين ﷺ أو جاء عفوًا منه، فقد تصرف القائد العام بتنفيذ أوامر أمير المؤمنين ببعث جيش خالد للعراق دون خالد فلا غنى له عنه، وهو بحاجة ماسة إليه، ولا تزال سورية كلها، موطن التحرك الجديد بعد فتح دمشق، ووجود سعد ﷺ على قيادة جبهة فارس، لا يجعل خالدًا الشخص الأول هناك.

هاشم بن عتبة:

هذه القيادة الفتية التي برزت من جديد، هي الأنسب لتكون على قيادة جيش خالد من خالد نفسه ﷺ، فمن هاشم بن عتبة؟ إنه ابن أخي سعد ﷺ، فهو هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص، وسعد هو ابن أبي وقاص ولكن شتان شتان بين الأخوين.

عتبة بن أبي وقاص:

لقد رمى سعد ﷺ بألف سهم ذودًا عن رسول اللّه ﷺ يفديه بروحه حتى كان وحده في اللحظات العصيبة، وذلك بعد سقوط طلحة مثخنًا بجراحاته.

ورمى عتبة بن أبي وقاص رسول اللّه ﷺ بحجر هشم وجهه وجرح شفته وكسر رباعيته، وكان أحد الأربعة الذين تعاهدوا وتواثقوا على قتل رسول اللّه ﷺ.

ولنعرض هاتين الصفحتين للأخوين في أحد؛ صفحة سعد وصفحة عتبة:

(... وجعل رسول اللّه ﷺ يومئذ يذمر الناس ويحضهم على القتال، وكان رجال من المشركين قد أذلقوا [١] المسلمين بالرمي، منهم حِبّان بن العرقة، وأبو أسامة الجشمي، فجعل النبي ﷺ يقول لسعد: « **ارم سعد، فِداك أبي وأمي يا سعد** ».

ورمى حِبَّان بن العرقة بسهم فأصاب ذيل أم أيمن – وجاءت يومئذ تسقي الجرحى – فَعَقَلَهَا [٢] عنها، فاستغرب في الضحك، فشق ذلك على رسول اللّه ﷺ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهمًا لا نَصْلَ له، فقال: ارْمِ. فوقع السهم في ثُغْرَةِ نَحْرِ حِبَّان،

---

(١) أذلقوا المسلمين: أضعفوهم.

(٢) فعقلها: صرعها.

فوقع مستلقيًا وبدت عورته، قال سعد: فرأيت رسول اللَّه ﷺ ضحك يومئذ حتى بدت نواجذه. ثم قال: « **استقاد** [١] **لها سعد. أجاب اللَّه دعوتك، وسدَّد رميتك** ».

ورمى يومئذ مالك بن زهير الجشمي - وكان هو وحِبَّان بن العرقة قد أسرعا في أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وأكثرا فيهم القتل بالنبل - يتستران بالصخر، ويرميان المسلمين، فبينا هم على ذلك أبصر سعدٌ مالكَ بن زهير وراء صخرة، قد رمى وأطلع رأسه، فرماه سعد، فأصاب السهم عينه حتى خرج من قفاه، فَنَزَا [٢] في السَّماءِ قَامَةً، ثم رجع فسقط، فقتله اللَّه ﷻ...) [٣].

(وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا وتعاقدوا على قتل رسول اللَّه ﷺ، وعرفهم المشركون بذلك؛ عبد اللَّه بن شهاب، وعتبة بن أبي وقاص، وابن قمئة، وأبَيّ ابن خلف. ورمى عتبة يومئذ رسول اللَّه ﷺ بأربعة أحجار، وكسر رباعيته السفلى، أشظى باطنها السفلى، وشُجَّ في وجنتيه - حتى غاب حلق المغفر في وجنته، وأصيبت ركبتاه فجحشتا [٤]... وأقبل ابن قمئة... فعلاه بالسيف، ورماه عتبة بن أبي وقاص مع تجليل [٥] السيف فوقع رسول اللَّه ﷺ في الحفرة التي أمامه، وجحشت ركبتاه، ولم يصنع سيف ابن قمئة شيئًا إلا وهن الضربة بثقل السيف، وانتهض رسول اللَّه ﷺ وطلحة يحمله من ورائه، وعلي آخذ بيديه حتى استوى قائمًا...) [٦].

وقال سعد بن أبي وقاص: سمعته يقول: « **اشتد غضب اللَّه على قوم أدْمَوْا فا رسول اللَّه** »، فقد شفاني من عتبة أخي دعاءُ رسول اللَّه ﷺ، ولقد حرصت على قتله حرصًا ما حرصته على شيء قط، وإن كان ما علمتُه لعاقًّا بالوالد سيئ الخلق، ولقد تخرقت صفوف المشركين مرتين أطلب أخي لأقتله، ولكن راغ مني روغان الثعلب، فلما كان الثالثة قال لي رسول اللَّه ﷺ: « **يا عبد اللَّه، ما تريد؟ تريد أن تقتل نفسك؟** » فكففت، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **اللهم لا يحولن الحول على أحد منهم** ». قال: واللَّه ما حال الحول على أحدٍ منهم ممن رماه أو جرحه) [٧]. هذه

---

(١) استقاد: ثأر.
(٢) نزا في السماء: وثب.
(٣) المغازي للواقدي (١/٢٤١، ٢٤٢).
(٤) جحشتا: جرحتا.
(٥) تجليل السيف: ارتفاعه.
(٦) المغازي (١/٢٤٤).
(٧) المغازي للواقدي (١/٢٤٥).

صفحة الأخوين، فماذا عن هاشم بن عتبة؟

هو: هاشم بن عتبة بن أبي وقاص... الزهري الشجاع المشهور المعروف بالمرقال ابن أخِي سعد بن أبي وقاص، قال الدولابي: لقب بالمرقال لأنه كان يرقل في الحرب أي يسرع، من الإرقال وهو ضَربٌ من العدْو. وقال ابن الكلبي، وابن حبان: له صحبة.

وأخرج مطين والبغوي وابن السكن والطبري والسراج والحاكم من طريق بشير ابن أبي إسحاق عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة عن هاشم بن عتبة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **يظهر المسلمون على جزيرة العرب، وعلى فارس والروم، وعلى الأعور الدجال...** » وقال الخطيب: أسلم يوم الفتح، وحضر مع عمه حِرب الفرس بالقادسية وله بها آثار مذكورة، وقال الهيثم بن عدي: عقد له عمه سعد على الجيش الذي جهزه إلى قتال يزدجرد ملك الفرس، فكانت وقعة جلولاء.

وأخرج يعقوب بن شيبة عن طريق حبيب بن أبي ثابت قال: كانت راية علي يوم صفين مع هاشم بن عتبة.

وأخرج ابن السكن عن طريق الأعمش عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: شهدنا صفين مع علي، وقد وكلنا بفرسه رجلين، فإذا كان مع القوم غفلة، حمل عليهم، فلا يرجع حتى يخضب سيفه دمًا، قال: ورأيت هاشم بن عتبة وعمار بن ياسر يقول له: يا هاشم:

أعور يَبْغي أهلُه مَحَلَّا قد عالجَ الحياةَ حتى ملَّا
لا بُد أن يَفُلَّ أو يُفَلّا

قال: ثم أخذوا في وادٍ من أودية صفين، فما رجعا حتى قتلا.

وأخرج عبد الرزاق عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن هاشمًا أنشده، فذكر نحوه.

وقال المرزباني: لما جاء قتل عثمان إلى أهل الكوفة. قال هاشم لأبي موسى الأشعري: تعال يا أبا موسى نبايع لخير هذه الأمة، علي. فقال: لا تعجل، ووضع هاشم يده على الأخرى وقال: هذه لعلي وهذه لي، وقد بايعت عليًّا، وأنشد:

أبايعُ غَيْر مكترثٍ عليًّا ولا أخْشَى أميرًا أشعَرِيًّا

أبـايعـه وأعْـلَـم أن سَـأرِضـي ... بذاكَ اللَّهَ حقًّا والنبِيَّا) [(١)]

القعقاع بن عمرو التميمي:

وهو قائد مقدمة هاشم رضي الله عنه.

(وأمَّر عليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، فجعله أمامه) لقد سبق وتحدثنا عن القعقاع كثيرًا من قبل، فهو نائب القائد العام دائمًا، وهو اليد الطولى والساعد الأول لخالد في كل فتوحاته، فساحته الحقيقية هي العراق، ولا ضير أن نذكر بعض أخباره).

(كان من الشجعان الفرسان. قيل أن أبا بكر الصديق كان يقول: لَصَوتُ القعقاع في الجيش خير من ألف رجل).

- وقال سيف عن عمرو بن تمام عن أبيه عن القعقاع بن عمرو. قال، قال لي رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: « **ما أعددت للجهاد؟** » قلت: طاعة اللَّه ورسوله والخيل، قال: « **تلك الغاية** ».

وأنشد:

ولقدْ شهدْتُ البرقَ برقَ تهامةٍ ... يهـدِي المناقبَ راكبًا لغبـارِ

في جندِ سيفِ اللَّهِ سيفِ محمدٍ ... والـسـابـقـينَ لـسـنَّـةِ الأحـرارِ

- قال سيف: كتب عمر إلى سعد: أي فارس كان أفرس في القادسية، فكتب إليه: إني لم أر مثل القعقاع بن عمرو، حمل في يوم ثلاثين حملة، يقتل في كل حملة بطلًا.

- وذكر سيف عن محمد وطلحة أنه كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كان على كردوس في فتح اليرموك وهو القائل:

يدعونَ قعْقَاعًا لكلِّ كريهةٍ ... فيجيبُ قعقاع دعاءَ الهاتفِ

في أبيات.

- وقال ابن عساكر: يقال أن له صحبة. كان أحدَ فرسان العرب وشعرائهم. شهد فتح دمشق، وأكثر فتوح العراق.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ت (٩٢٠٥).

- وقال غيره: استمد خالد أبا بكر لما حاصر الحيرة فأمده بالقعقاع بن عمرو، وقال: لا يهزم جيش فيه مثله...) [(١)].

يوم أغواث: يوم كله للقعقاع:

فقد كان وصول القعقاع ﷺ ومعه عشرة من أصحابه غوثًا للمسلمين في صبيحة اليوم الثاني للحرب (فأتى الناس فسلَّم عليهم، وبشرهم بالجنود).

ثم أطلق خطبته العصماء التي كانت كغيث المطر للأرض العطشى، وهو يتحدث عن الجنود القادمين الذين يحنون إلى العراق حنين الجارية لأمها، وقد تمرسوا على حرب العراق وحرب الفرس قبل أشهر، فقال عنهم: (يا أيها الناس إني قد جئتكم في قومٍ، واللَّه أن لو كانوا بمكانكم ثم أحسوكم حسدوكم حظوتها، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم).. كلمات ملتهبة، تبعها صاعق جديد.

الصاعق الجديد:

(فاصنعوا كما أصنع، فتقدم ثم نادى من يبارز...). فقالوا فيه مثل ما قال أبو بكر: لا يهزم جيش فيه مثل هذا.

لقد ارتفعت معنويات المسلمين إلى الذروة، وهم يرون القعقاع وجند العراق قادمين، ويرون القعقاع يشارك في المعركة لحظة وصوله، ويخرج بين الصفين، ويدعو: من يبارز. ورأوا فيه صحة صدق الصديق: لن يهزم جيش فيه مثل هذا، وسكنوا إليه، إنها السكينة التي ينزلها اللَّه - تعالى - في قلوب جنْد المؤمنين. مهما كان عَدَدُ عدوهم وعُدَدِهِ: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦].

وكانت السكينة ثانية خاصة بالمؤمنين: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤].

وكانت السكينة ثالثة للمؤمنين: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (٧٣٨٧).

(فتقدم ثم نادى من يبارز؟ فخرج إليه ذو الحاجب، فقال له القعقاع: من أنت؟ قال: أنا بهمن جاذويه.

فنادى: يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر...). إنني وأنا أقرأ وأكتب هذه الجملة، يقشعر جسدي كله وتترقرق الدمعة في عيني خشوعًا، وتفاعلًا مع هذا النداء الخالد: يا لثارات أبي عبيد..

إنها المعركة الكبرى التي استشهد فيها أبو عبيد، وسليط بن قيس، والثلة العظيمة من الشهداء، وكان بهمن جاذويه هو قائد جيش الفرس، وهو الذي أنزل الهزيمة في المعركة، وها قد آن الأوان للثأر، لم يكن القعقاع في معركة الجسر، ولم يكن في العراق كله يوم كانت هذه الحرب، لكن أخبارها يتناقلها القعقاع ومقاتلو العراق بلا انقطاع، ويعيشون محنة إخوانهم، ويتحرقون للعودة للعراق للثأر، وها قد عادوا وها هو بهمن جاذويه قائد معركة الجسر، وسرى هذا النداء في الجيش سريان النار في الهشيم فقد جاء من يثأر لأبي عبيد.

أقول: قد اقشعر جسدي وترقرقت الدمعة في عيني بعد خمسة عشر قرنًا من النداء، فكيف هو شعور من سمعه للتو واللحظة، لكن الشعور الأعظم والأقوى: تُرى هل يثأر القعقاع لأبي عبيد من ذي الحاجب بهمن جاذويه؛ أم يجندل بهمن القعقاع ويلحقه بأبي عبيد؟ القلوب معلقة، والعيون جاحظة كلها ترقب ساحة المعركة. (فاجتلدا، فقتله القعقاع). وعادت القلوب للذروة فرحًا واستبشارًا بالنصر، والثأر لأبي عبيد وجيشه من المؤمنين وجاء السعد معه القعقاع. (وجعلت خيله تَرِدُ قطَعًا، وما زالت تَرِدُ إلى الليل، وتُنشّط الناس) [1].

لقد جاء السعد مع القعقاع، وجاء المحاربون الفرسان العريقون إلى ساحتهم العراق وأعدائهم الفرس، ولم يكتف القعقاع بمقتل بهمن جاذويه، إنما عاد ثانية إلى الساحة (ونادى القعقاع: من يبارز؟ فخرج إليه رجلان أحدهما البيرزان والآخر البندوان، فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث أخو بني تيم اللات، فبارز القعقاع البيرزان، فضربه فأذرى برأسه، وبارز ابن ظبيان البندوان، فضربه فأذرى برأسه). فهذا براز من نوع جديد أن يطيح برأس خصمه كله.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٩٨/٢).

هذا ولو عدنا إلى تعبئة رستم لوجدناها كما يلي:

(وعلى مقدمة رستم الجالينوس، وعلى مجنبتيه الهرمزان ومهران، وعلى مجردته ذو الحاجب، وعلى الطلائع البيرزان، وعلى الرجالة زاد بن بهيش).

لقد قتل اثنان من ستة من كبار قادة رستم هما: ذو الحاجب بهمن جاذويه قائد المجردة، والبيرزان قائد الطلائع، على يد قائد مقدمة الجيش القادم من العراق القعقاع ابن عمرو التميمي، وذلك في اليوم الثاني من الحرب، وقبل أن تزول الشمس.

(وتنشّط الناس، وكأن لم يكن بالأمس مصيبة، فإنما يحصد الناس بها، فتواصى الناس وتشايعوا إليهم، فاجتلدوا بها حتى المساء).

إنها فرصة اللقاء المباشر بين الفريقين، فقد تعطل اليوم السلاح الثقيل؛ سلاح الفيلة الذي كان يرعب خيل المسلمين فتفر منه، فأصبح الحكم هنا فقط للشجاعة من جهة، والصبر من جهة ثانية، نعم لا يزال التفوق العددي عند الفرس أضعاف جيش المسلمين، ولكن هذا الجيش المؤمن يثق بأن النصر من عند الله، وأن الفرار من الزحف من الكبائر: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

والمؤمنون كما قال الله - تعالى - عنهم: ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢].

ومن أجل ذلك فقد كان اليوم الثاني للمسلمين، إنه يوم القعقاع، (... واجتلد الناس، فلم ير أهل فارس في هذا اليوم شيئًا مما يعجبهم، وأكثَرَ المسلمون فيهم القتل، ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل، كانت توابيتها تكسرت بالأمس، فاستأنفوا علاجها حين أصبحوا فلم ترتفع حتى كان الغد).

من نماذج الفداء في يوم أغواث:

أ - المرأة العجوز تحض بنيها على الجهاد:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن مجالد عن الشعبي.

قال: كانت امرأة من النخع لها بنون أربعة شهدوا القادسية؛ فقالت لبنيها:

إنكم أسلمتم فلم تبدلوا، وهاجرتم فلم تثوبوا [١]، ولم تَنْبُ بكم البلاد، ولم تقحمكم السنة، ثم جئتم بأُمّكم عجوز كبيرة، فوضعتموها بين يدي أهل فارس، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم...) [٢].

والكلام عندما يصدر عن الأم له وقع أكبر بكثير من صدوره من غيرها، ومن أجل هذا، وعلى سِنّها المتأخرة فقد أشرق الإسلام في قلبها، والإيمان في أعماقها، فكانت ترى أن تحرك هذا الإيمان ابتداءً لينطلق منه هؤلاء البنون: (إنكم أسلمتم فلم تبدلوا).

ثم اختاروا طريق الهجرة: (وهاجرتم فلم تثوبوا).

فحافظتم على هجرتكم، والشيطان يقف أمام هذه الطرق الثلاثة: الإسلام، والهجرة، والجهاد كما يقول ﷺ: « **إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام. فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟! فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول فعصاه فهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال له: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتُقتَلُ، فَتُنْكَحُ المرأة ويُقْسَمُ المال؟ فعصاه فجاهد** ». فقال رسول اللَّه ﷺ: « **فمن فعل ذلك كان حقا على اللَّه ﷻ أن يدخله الجنة. وإن غرق كان حقًّا على اللَّه أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقًّا على اللَّه أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقًّا على اللَّه أن يدخله الجنة** » [٣].

وعودة إلى العجوز النخعية، وأولادها الأربعة، وذلك بعد أن ذكَّرتهم بإسلامهم وهجرتهم، وعادت لتؤكد على عراقة نسبهم. (... ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس، إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم).

وعادت تحثهم على الجهاد، وتعبئهم للمواجهة. (... انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره، فأقبلوا يشتدون).

---

(١) أي فلم ترجعوا.
(٢) تاريخ الطبري (٤١٢/٢).
(٣) أخرجه النسائي في الجهاد، باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد (٣١٣٤).

لكن قلبها المعلق بهم دفعها لتقول بعد غيابهم: (... فلما غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء وهي تقول: اللهم ادفع عن بنيّ.

فرجعوا إليها، وقد أحسنوا القتال، ما كُلِمَ منهم رجل كَلْمًا، قال الشعبي: فرأيتهم بعد ذلك يأخذون ألفين ألفين من العطاء، ثم يأتون أمهم، فيلقونه في حجرها، فترده عليهم، وتقسمه فيهم على ما يصلحهم ويرضيهم) [1].

ب - أبطال القعقاع الأربعة:

لقد اختار القعقاع ثلاثة أبطال من قومه، يقود الحملة أمام الناس.

(فآزر القعقاع يومئذ ثلاث نفر من بني يربوع رياحيين، وجعل القعقاع كلما طلعت قطعة كبَّر وكبَّر المسلمون، ويحمل ويحملون، واليربوعيون: نعيم بن عمرو ابن عتاب، وعتاب بن نعيم بن عتاب وعمرو بن شبيب - أحد بني زيد.

جـ - عمر أمير المؤمنين في المعركة: الأسياف والأفراس:

رضي اللّه عن أمير المؤمنين، لقد تربى على يدي رسول اللّه ﷺ، وتعلم من هديه وسمته، ففي أحد (... قال رسول اللّه ﷺ: « **من يأخذ هذا السيف بحقه؟** » فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بني ساعدة. فقال: وما حقه يا رسول اللّه؟ قال: « **أن تضرب به العدو حتى ينحني** ».

فقال: أنا آخذه يا رسول اللّه.

وكان أبو دجانة رجلًا شجاعًا يختال عند الحرب إذا كانت، وكان إذا أعلم بعصابة له حمراء فاعتصب بها، علم الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول اللّه ﷺ أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه وجعل يتبختر بين الصفين.

قال ابن إسحاق: فحدثني جعفر بن عبد اللّه بن أسلم - مولى عمر بن الخطاب - عن رجل من الأنصار من بني سلمة قال، قال رسول اللّه ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر: « **إنها لمشية يبغضها اللّه إلا في مثل هذا الموطن** ».

فاقتتل الناس حتى حميت الحرب، وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في الناس.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤١٤).

قال ابن هشام: حدثني غير واحد من أهل العلم أن الزبير بن العوام قال: وجدت في نفسي حين سألت رسول اللَّه ﷺ السيف، فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة - قلت: أنا ابن صفية عمته، ومن قريش، وقد قمت إليه فسألته إياه قبله، فأعطاه إياه وتركني، واللَّه لأنظرن ما يصنع، فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء، فعصب بها رأسه فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصب بها فخرج وهو يقول:

أنا الذي عَاهَدَنِي خَليلي ... ونحنُ بالسفح لدى النخيلِ

ألا أقومَ الدهرَ بالكيولِ [(١)] ... أضرب بسيفِ اللَّهِ والرسولِ

قال ابن إسحاق: فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحًا إلا ذفف عليه فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت اللَّه أن يجمع بينهما، فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة، فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها.

قال الزبير: فقلت: اللَّه ورسوله أعلم.

قال ابن إسحاق: وقال أبو دجانة سماك بن خرشة: رأيت إنسانًا يخمش الناس خمشًا شديدًا، فصمدْتُ له، فلما حملت عليه السيف ولول، فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول اللَّه ﷺ أن أضرب به امرأة) [(٢)].

وشهد له رسول اللَّه ﷺ أنه أخذ السيف بحقه.

(... وناولها (أي لفاطمة) علي بن أبي طالب سيفه فقال: وهذا أيضًا فاغسلي عنه دمه فواللَّه لقد صدقني اليوم، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **لئن كنت صدقت القتال، لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة** ») [(٣)].

هذا التحفيز للمعركة، نجد أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يكلف رسولًا خاصًا من المدينة

---

(١) الكيول: آخر الصفوف في الحرب.

(٢) سيرة ابن هشام، (٣/٥٠، ٥١).

(٣) المصدر نفسه (٣/٨٠).

يقطع مفاوز الصحراء. ماضيًا إلى العراق، ليصل إليها والمسلمون في قلب المعركة.

وماذا مع هذا الرسول؟ شيء عجيب حقًّا.

أربعة سيوف، وأربعة خيول.

ولا شك أن مع الرسول من يساعده حتى تصل القافلة آمنة.

هذه السيوف لأعظم الأبطال في الحرب، والخيول لأعظم الفرسان في المعركة. إنها ذات دلالات معنوية خارقة، فالخليفة يعيش مع جيشه، وقلبه يخفق بعظمة البطولات التي يبدونها. وأكبر مكافأة أمام كل أفراد الجيش على هذا الفداء وهذه التضحية. وهو عند اللَّه أعظم وآثر، وبلغ الرسول سعدًا. ومعه هدايا الأبطال والفرسان وسعد يشهد كل جزئية من جزئيات المعركة، ويعرف بلاء الأبطال، وجهاد الفرسان العظام. وكما ذكرت رواية الإصابة:

(كتب عمر إلى سعد، أي فارس كان أفرس الناس في القادسية؟

فكتب إليه: إني لم أر مثل القعقاع بن عمرو، حمل في كل يوم ثلاثين حملة، يقتل في كل حملة بطلًا).

وتوزعت الجوائز تقريبًا بين تميم وأسد.

(وقدم ذلك اليوم رسول لعمر بأربعة أسياف وأربعة أفراس يقسمها فيمن انتهى إليه البلاء إن كنت لقيت حربًا، فدعا (أي سعد) حمال بن مالك، والربيل بن عمرو الوالبين وطليحة بن خويلد الفقعسي وكلهم من بني أسد، وعاصم بن عمرو التميمي، وأعطاهم الأسياف).

ولا ننسى أن عاصم بن عمرو التميمي هو أخو القعقاع بن عمرو، وهو الذي عطَّلَ سلاح الفيلة في الأمس وساعد على نصر اليوم.

(ودعا القعقاع بن عمرو واليربوعيين (من بني تميم) فحملهم على الأفراس، فأصاب ثلاثة من بني يربوع ثلاثة أرباعها، وأصاب ثلاث من بني أسد ثلاثة أرباع السيوف، فقال في ذلك الربيل بن عمرو:

لقد علمَ الأقوامُ أني أحقُّهم ... إذا حصلوا بالمرهفات البواتِر

وما فتئتْ خَيلي عشيةَ أرمثوا ... يذودُون رهوًا عن جموعِ العشائرِ

لَدُنْ غدوةٍ حتى أتى الليل دونَهم ... وقد أفلحَتْ أخرى الليالي الغوابرِ) [١]

(وقال القعقاع بن عمرو في شأن الخيل:

لَمْ تعْرفِ الخَيْلُ العرَابُ سَواءنا ... عشيةَ أغْواثِ بجنْب القوَادس

عشيـةَ رُحنـا بـالرمَـاح كـأننـا ... على القَوْم ألوانُ الطيور الرسَارِس) [٢]

ولا ننسى أن الأخوين عاصمًا والقعقاع، كان لهما ربع الجائزة من الأفراس والأسياف، وإذا كان عاصم بن عمرو هو الذي عطَّل سلاح الفيلة في الأمس عن المشاركة في يوم أغواث، فالقعقاع بن عمرو هو الذي حوَّل الإبل إلى سلاح الفيلة، وقاد إلى النصر.

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف، عن القاسم بن سليم بن عبد الرحمن السعدي عن أبيه، قال: كان يكون أول القتال في كل أيامها المطاردة، فلما قدم القعقاع قال:

يا أيها الناس، اصنعوا كما أصنع... وحمل بنو عم القعقاع يومئذ عشرة عشرة من الرجالة، على إبل قد ألبسوها فهي مجللة مبرقعة، وأطافت بهم خيولهم تحميهم، وأمرهم أن يحملوا على خيولهم بين الصفين يتشبهون بالفيلة، ففعلوا بهم يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرماث، فجعلت تلك الإبل لا تصمد لقليل ولا كثير إلا نفرت بهم خيلهم، وركبتهم خيول المسلمين، فلما رأى ذلك الناس استنّوا بهم، فلقيت فارس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث) [٣].

إنها أمة متحركة حيوية تتعامل مع الأسباب المادية بعقلية متفتحة، ولو كانت هذه المعركة بين فارس وأي أمة أخرى، لانهزمت تلك الأمة وأبيدت، فنسبة الجيشين عددًا هو ٣٦ ألفًا: ١٨٠ ألفًا. أي الخمس إلى أربعة أخماس والسلاح المبيد الذي يملكه الفرس لا يملكه المسلمون.

لكن العقلية المبدعة التي نفخها الإسلام في روح هذه الأمة، هي التي جعلتها توقف زحف الفيلة وتعطلهم في اليوم الأول، ثم تصنع سلاحًا جديدًا في اليوم الثاني يشبه سلاح الفيلة، فعل بالفرس ما فعلته الفيلة بالمسلمين، ولم تَنْهَرِ القيادة العليا في

---

(١) تاريخ الطبري (٤١٤/٢).

(٢) الرسارس: المتحركة للنهوض.

(٣) المصدر نفسه (٤١٤/٢).

الساعة الرهيبة، فنادى سعدٌ أبطال تميم، يلح عليهم أن يعطلوا سلاح الفيلة بأي صورة واختار عاصم ﷺ خطة الدفاع العظيمة في قَطْع وَضَنِ الفيلة، وتوزع الأبطال بين حُماة لمن يقطعون وضن الفيلة، وبين القائمين على تعطيلها - فتجندل الأبطال فوقها وداستهم أقدام الفيلة، وتكسرت توابيت الفيلة حتى حِيل بينها وبين المشاركة في اليوم الثاني، ولم يكن خيار الفرار أو المصالحة أو الهدنة قائمًا على الإطلاق، إنما كان خيار المواجهة حتى آخر قطرة دم إسلامية.

إنها العبقرية العربية الإسلامية المبدعة التي تواجه الأزمات بدينامية متحركة، فتقوم بتغيير التاريخ من خلال تغيير مصير المعركة.

ودليل ذلك هو هذا البطل الذي لم يحفظ لنا التاريخ اسمه إنما حفظ فعله فقال: (وحمل رجل من بني تميم ممن كان يحمي العشيرة، يقال له سواد، وجعل يتعرض للشهادة فقتل بعد ما حمل، وأبطأت عليه الشهادة، حتى تعرَّض لرستم يريده، فأصيب دونه) صحيح أنه لم يقتل رستم، لكن الصحيح كذلك أنه حفز الكثير من الأبطال لهذه المحاولة، والتي أثمرت فيما بعد فقلبت موازين المعركة.

د - علباء بن جحش العجلي:

وإذا كانت البطولة في قيس، فأين البطولة في ربيعة؟ وهم أكفاء وعِلباء بن جحش يجيبنا على هذا السؤال.

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن الغصن عن العلاء بن زياد، والقاسم بن سليم عن أبيه قالا: خرج رجل من أهل فارس ينادي من يبارز؟ فبرز له علباء بن جحش العجلي. فنفحه عِلباء فأسحره [1]. ونفحه الآخر فأمعاه [2]، وخرّا فأما الفارسي فمات من ساعته، وأما الآخر فانتثرت أمعاؤه، فلم يستطع القيام. فعالج إدخالها، فلم يتأت له حتى مر به رجل من المسلمين، فقال: يا هذا، أعِنّي على بطني، فأدخله له، فأخذ بصفاقيه [3] ثم زحف نحو صف فارس، ما يلتفت إلى المسلمين، فأدركه الموت على رأس ثلاثين ذراعًا من مصرعه إلى صف فارس وقال:

---

(١) أسحره: أصاب رئته. (٢) أمعاه: أصاب أمعاءه.

(٣) أخذ بصفاقيه: بجلدتي بطنه أي ما بين الجلد والمصران.

أرجو بها من ربنا ثوابًا قد كنت ممن أحسن الضرابا) [١]

علباء بن جحش العجلي يبرز للفارسي الذي يتحدى، فاختلفا ضربتين، فنفحه علباء فأسحره: أي أصاب رئته، ونفح الفارسي علباء فأمعاه، أصاب أمعاءه وخرًّا معًا.

إنه يعيد لنا صورة عبيدة بن الحارث وعتبة بن ربيعة في أول لقاء بين الشرك والإسلام فاختلفا ضربتين، وقتل عتبة، ثم قتل عبيدة وقد انقطعت رجله، وهنا اختلفا ضربتين، فقُتل الفارسي فورًا، وبقي المسلم وقد شق بطنه، وخرجت أمعاؤه، فماذا يفعل غير أن ينتظر الموت، فقد أدى ما عليه، وقتل خصمه.

إنها الإرادة الجبارة التي ترفض أن تستسلم حتى للموت، فإن كان به رمق، فليؤد جهاده لآخر لحظة، ها هو يحاول إعادة أمعائه لمكانها فلم يفلح، لعله يستطيع أن يقاتل بعودة أمعائه لموقعها، (فعالج إدخالها فلم يتأتَّ له [٢]، حتى مر به رجل من المسلمين، فقال: يا هذا أعني على بطني، فأدخله له).

إنني لا أزال أذكر أكبر ألمٍ في حياتي، كان عقب حادث سيارة، فكان أدنى حركة في بطني أكاد أفقد صوابي منه، وذلك قبل التخدير، وقبل ابتداء العملية الجراحية.. ألسنا بشرًا وهم بشر؟!!

فكيف يفكر هذا الرجل العظيم أن يعيد أمعاءه، ويتابع جهاده، إنه إصرار على الجهاد والشهادة حتى آخر ذرة من حياته، إنه منظر يكاد يغيب عنه الوعي. لقد دخل عليَّ عدد من إخواني بعد العملية الجراحية، ومجرد أن رأى أحدهم الأسلاك والربط معلقة بي أغمي عليه ووقع في الأرض، وحتى تمت النقاهة أمضيت أكثر من شهرٍ والناس يعودونني في المستشفى وفي بيتي.

فمن هو هذا الرجل الذي أجرى له أخوه العملية الجراحية، ولم يقم الأطباء بخياطة صدره لساعات، ويمر عليه الممرضات والأطباء كل يوم يعالجون هذه العملية. أما صاحبنا، فلم ينتظر حتى تتم الخياطة، لقد أمسك بجلدتي بطنه بإحدى يديه، وأغلق بهما أمعاءه، ومضى يحمل سيفه في يده الأخرى ليتابع قتاله، وخر شهيدًا بعد

---

(١) تاريخ الطبري (٤١٤/٢، ٤١٥).

(٢) لم يتأت له: لم يتمكن من ذلك.

ثلاثين ذراعًا من تحركه نحو الفرس. وهل يحلم كيف يكتب الشعراء عن بطولته، وتتحدث الفتيات عن جَلَدِه واصطباره، أبدًا. إنما كان كل ما يخشاه أن يكون قد قصر تجاه ربه بالجهاد ولو للحظات قبل أن يلقى مصيره، ويلقى ربه، وعبَّر لنا عن أحلامه في هذه اللحظات، وهذه المعاناة، وهذه الأفواج والأمواج من الألم، إنه إنما يبحث عن مرضاة اللّٰه:

أرجو بها مِنْ ربِّنا ثوابا قد كُنتُ ممن أحسَنَ الضِّرابا

هذه الإرادة العربية المسلمة التي واجهت جيش فارس المدرب المجرب الذي خاض حروبًا عالمية حتى وصل إلى هذا المستوى، لكن لم يأته الدين الذي يعبئه ويعيد تخزينه من جديد.

هـ - وإن برزت بطولات ربيعة وتميم وأسد، فأين بطولات عامر؟

ها هو الأعلم بن الأعرف العقيلي، ونسبةً إلى عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن الغصن عن العلاء والقاسم عن أبيه قالا: وخرج رجل من أهل فارس فنادى: من يبارز؟ فبرز له الأعرف ابن الأعلم العقيلي فقتله، ثم برز له آخر فقتله).

وهذه بطولة نادرة أن يبارز بطلين فيجندلهما صرعى. لكننا نبحث عن الخوارق، فما هي خارقة هذا البطل العقيلي؟

(وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه، ونَدَرَ سلاحُه فأخذوه). فبطولته الكبرى أن يبارز الفوارس بعد مبارزة اثنين من أبطالهم، ولا عجب أبدًا أن يصرعوه فهو إنما ينازل كبار رجالات فارس وفرسانها العظام، وقد فقد سلاحه وانتهى، لكنما البطولة الكبرى، التي يقف فيها على القمة دون غيره هي (فغبَّر في وجوههم بالتراب حتى يرجع إلى أصحابه، وقال في ذلك:

وإن يأخذوا بَزّي [1] فإني مجرب خَروجٌ من الغماءِ محتضر النصرِ

---

(١) البز: السلاح.

وإني لحامٍ منْ وراء عشيرتي ركوب لآثار الهوى يُحفل الأمر) [١]

و - السري عن شعيب عن سيف عن الغصن عن العلاء والقاسم عن أبيه قالا: (فحمل **القعقاع** يومئذ ثلاثين حملة، كلما طلعت قطعة (من جيشه الذي جاء معه) حمل حملة وأصاب فيها فجعل يرتجز:

أزعجُهم عمدًا بها إزعَاجَا أطعَنُ طَعْنًا صَائبًا ثَجَّاجَا

أرجو بهِ مِنْ جنَّةٍ أفواجَا

ز - كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد قالوا: قَتَلَ **القعقاع** يوم أغواث ثلاثين في ثلاثين حملة، كلما حمل حملة قتل فيها، فكان آخرهم بزرجمهرا الهمذاني، وقال في ذلك القعقاع:

حبوتُه جيَّاشةً بالنفس هدَّارةً مثل شعاعِ الشمسِ

في يومِ أغواثِ قليل الفرس أنخَسَ بالقوم أشد النخسِ

حتى يفيضَ معشري ونَفْسِي) [٢]

فهو يقاتل أُمةً بكاملها حتى تفيض نفسه إلى بارئها.

ح - وبارز **الأعور بن قطبة** شهربراز سجستان، فقتل كل واحد منهما صاحبه، فقال أخوه في ذلك:

لم أر يومًا كانَ أحْلَى وأَمَرّ من يومِ أغواثِ إذَا افتر الثَّغْر

من غيرِ ضحكٍ كانَ أسوا وأبر) [٣]

والحلو قتل شهر براز والمر مقتل أخيه.

لقد كانت هذه البطولات النادرة في الجولة الأولى، جولة المبارزات والطراد، وتطارد الفرسان، وقتل الأبطال كلهم في المبارزة، لكن بعضهم قتل خصمه المسلم مع مقتله مثل الأعور بن قطبة، وعلباء بن جحش فقط.

ط - المرأة العجوز، الخنساء:

لقد افتتحنا نماذج البطولة بالمرأة العجوز النخعية، وها نحن نختم هذه النماذج

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٢/٤١٥).

بالمرأة العجوز السُّلَمية، شاعرة العرب، أخت معاوية وصخر، ونعرضها كما هي في كتب التراجم دون تعليق:

قال ابن عبد البر في الاستيعاب: (خنساء بنت عمرو بن الشريد، الشاعرة السُّلمية.. قدِمَتْ على رسول اللَّه ﷺ مع قومها من بني سليم، فأسلمت معهم، فذكروا أن رسول اللَّه ﷺ كان يستنشدها فيعجبه شعرها، فكانت تنشده وهو يقول: « **هيه يا خناس** » ويومئ بيده.

قالوا: وكانت الخنساء في أول أمرها تقول البيتين والثلاثة، حتى قُتِل أخوها لأبيها وأمها معاوية بن عمرو، قتله هاشم وزيد المريان، وصخر أخوها لأبيها، وكان أحبهما إليها لأنه كان حليمًا جوادًا محبوبًا في العشيرة، وكان غزا بني أسد فطعنه أبو ثور الأسدي، فمرض منها قريبًا من حولٍ ثم مات. فلما قتل أخواها أكثرت من قول الشعر، وأجادت. فمن قولها في صخر أخيها:

أعَيْنَيَّ جُودا ولا تَجْمُدَا ... ألا تبكِيانِ لصَخْرِ النَّدى
ألا تبكيان الجريءَ الجميلَ ... ألا تبكيانِ الفتى السَّيِّدَا
طويلُ العمادِ عظيمُ الرمادِ ... سادَ عشيرَتَهُ أمرَدَا

ومن قبلها أيضًا في صخر أخيها:

وإنَّ صَخرًا لتأتمُّ الهداةُ بهِ ... كأنه علم في رأسه نار

وأجمع أهل العلم بالشعر، أنه لم يكن امرأة قط قبلها ولا بعدها أشعر منها. وقالوا: اسم الخنساء تماضر.

- **بنو الخنساء في القادسية:**

ذكر الزبير بن بكار عن محمد بن الحسن المخزومي عن عبد الرحمن بن عبد اللَّه عن أبيه عن أبي وجزة عن أبيه قال: حضرَتِ الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال فقالت لهم من أول الليل: يا بَنيَّ إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وواللَّه الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، وما فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيّرْت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد اللَّه للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول اللَّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].
فإن أصبحتم غدًا إن شاء اللَّه سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وباللَّه على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سياقها، وجللت نارًا على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة.

فخرج بنوها قابلين لنصحها، عازمين على قولها. فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم وأنشأ أولهم يقول:

يا إخوتي إنَّ العجوزَ الناصحة ... قد نصَحتْنَا إذ دَعتْنَا البارِحَة
مقالةً ذاتَ بيانٍ واضحة ... فباكِروا الحربَ الضروسَ الكالحة
وإنما تَلْقَوْنَ عند الصائحَة ... من آلِ ساسانَ الكلابِ النابحة
قد أيقَنوا منكُمْ بوقعِ الجائحَة ... وأنتمْ بينَ حياةٍ صالحة
أو ميتةٍ تورثُ غُنمًا رابحَة

وتقدم فقاتل حتى قُتِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثم حمل الثاني وهو يقولُ:

إن العجوزَ ذاتُ حزمٍ وجلد ... والنظر الأوفق والرأي السَّدَد
قد أمرَتْنَا بالسدادِ والرشَد ... نصيحةً منها وبرًّا بالولد
فباكِروا الحربَ حماة في العدد ... إما لفوز باردٍ على الكبد
أو ميتة تورثُكم عزَّ الأبد ... في جنةِ الفردوسِ والعيشِ الرغد

فقاتل حتى استشهد رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثم حمل الثالث وهو يقول:

واللَّهِ لا نعصِي العجوزَ حَرْفا ... قد أمرَتْنا حَدَبًا وعطْفَا
نُصْحًا وبرًّا صادقًا ولُطْفَا ... فبادِروا الحربَ الضروسَ زَحْفَا
حَتَّى تلُفّوا آلَ كِسْرَى لفًّا ... أو يكشفوكُم عن حِمَاكُم كَشْفَا
إنَّا نَرَى التقصِير مِنْكُمْ ضَعْفَا ... والقَتْلَ فيكُم نجدةً وزُلْفَى

فقاتل حتى استشهد رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثم حمل الرابع وهو يقول:

لسـتُ لخنسـاءَ ولا لـلأخـرْم ولا لعَمْرِو ذي السناء الأقدمِ

إن لم أُرِد في الجيش جيش الأعْجَمِ ماضٍ على الهَوْل خضمٍ خضرمِ

إمّا لـفـوزٍ عـاجـلٍ، ومـغـنـمِ أو لوفاةٍ في السبيلِ الأكرمِ

فقاتل حتى قتل رحمة اللَّه عليه وعلى إخوته.

فبلغها الخبر فقالت: الحمد للَّه الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة، لكل واحدٍ منهم مئتي درهم حتى قبض ﷺ) (١) (٢).

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البرِّ القرطبي، ت (٣٢٩٨).

(٢) كنا نظن أن هذه المعجزات قد مضت مع أهلها، ولن تتكرر في التاريخ، لكنا نرى اليوم مأساة وبطولات إخواننا في غزة، فإذا بها قطعة حية من ذلك التاريخ العظيم بكل جوانبه ومن هذه الأوابد ما أُطلق عليه في عصرنا اليوم، خنساء فلسطين.

في انتفاضة الأقصى التي اندلعت عام (٢٠٠٠م) حين خرجت علينا أم نضال فرحات خنساء فلسطين وهي تودع ابنها القسامي المقتحم (محمد)، وترسل به لاقتحام مستوطنة (عتصمونا) في ذلك الوقت. وهي التي ودعت قبله ابنها البكر القائد القسامي (نضال) شهيدًا في عملية اغتيال جبانة استهدفته مع عدد من قادة القسام بمدينة غزة، واليوم يسطع اسمها من جديد وهي تزف ابنها الثالث (رواد) فرحات وهو في مهمة جهادية. لتسطر من خلالها اسمها أسطورة جديدة للجهاد والاستشهاد، ونموذجًا جديدًا للجود بالمال والنفس في سبيل اللَّه.

فمن هي مريم فرحات؟

مريم محمد محيسن ولدت في حي الشجاعية في غزة بتاريخ (١٩٤٩/١٢/١٤م) لأسرة بسيطة من أسر غزة، ولديها من الإخوة (١٠) ومن الأخوات (٥). وقدمت الامتحانات الثانوية وهي حامل بمولودها الأول وحصلت على (٨٠٪). أنجبت (٦) أبناء و (٤) بنات. وبطبيعة المجتمع الذي لم يكن يعرف الالتزام في تلك الفترة. كانت أم نضال مثل غيرها غير ملتزمة. إلا أن رغبة داخلية كانت تدفعها لحضور ندوة لشيخ كفيف اسمه الشيخ يعقوب. كان يلقي درسه في مسجد الإصلاح المجاور لبيتها.

اقتنعت مريم بكلام الشيخ وكانت هدايتها سريعة جدًّا، وكانت الوحيدة في عائلتها، بل في الحي كله المحجبة التي كانت تصلي وتحتشم، وجاهدت في ذلك أشد الجهاد، وعانت أكثر المعاناة؛ لأن الناس حينها كانوا لا يتقبلون فكرة الالتزام، بل وطالما نعتت بألفاظ استهزائية لما كان عليه التزامها.

تقول: حقيقة المبادئ التي زرعتها في نفوس أبنائي منذ طفولتهم هي التي مثلت التربة الخصبة لتشكيلهم على النوع الأفضل، فمنذ أن تزوجت، وأنا أحمل حب الإسلام والجهاد في سبيله في قلبي... فحرصت على زراعتها وتعميمها وجميع قيم الإسلام في نفوس أبنائي، لأنهم هم الأولى بالخير...

أعتقد أن التزامي بأحكام وتشريعات ديننا الإسلامي منذ وقت مبكر، وتطبيقها مثَّلَ أول خطوة نحو السير في =

الجولة الثانية: الالتحام:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد، وشاركهم ابن مخراق عن رجل من طيِّئ، قالوا:

وقاتلت الفرسان يوم الكتائب فيما بين أصبحوا إلى انتصاف النهار، فلما عدل النهار تزاحف الناس، فاقتتلوا صتيتًا [1] حتى انتصف الليل، فكانت ليلة أرماث تدعى الهدأة، وليلة أغواث تدعى السواد - والنصف الأول يدعى السواد - ثم لم يزل المسلمون يرون في يوم أغواث في القادسية الظفر، وقتلوا فيه عامة أعلامهم وجالت فيه خيل القلب، وثبت رَجْلُهم، فلولا أن خيلهم (أي خيل الفرس) كرَّت، أُخِذ رستم أخذًا، فلما ذهب السواد بات الناس على مثل ما بات عليه القوم ليلة أرماث،

= درب الجهاد، ومقاومة أعداء اللَّه، ومع بداية انطلاق الانتفاضة الأولى - انتفاضة الحجارة - كنت أدفع أبنائي إلى طرقات وأزقة غزة لقذف المحتل الصهيوني بالحجارة، كانت دائمًا وصيتي لهم إذا لم يقدّر لي البقاء بينهم طويلًا بأن يتخذوا الجهاد سبيلًا... وأن يسيروا في دروبه... بداية لم تكن أول تضحياتي اعتقال وسام، فمن قبل اعتقال وسام ودعت أبنائي الشهداء القادة (محمد دخان وإبراهيم عاشور ومحمد صيام وعماد عقل وعبد الرحمن حمدان)...

وتضيف أم نضال: عندما عاد إلينا عماد عقل من عملية الزيتون التي قَتَل فيها ثلاثة جنود، أصبحت أنظر إليه بدهشة وأنادي بالتكبير في أرجاء المنزل، وكنتُ في غاية الفرحة والسعادة...

أروع كلمة هي كلمة تستشعر من خلالها بأن روحك خاشعة، ودمعتك هادرة على وجنتك وتقول بيد مرفوعة (يا رب).

يا قدس أنت في عيوني، ويا حماس أنت في قلبي.

أما (نضال) الابن البكر كان مثابرًا لاكتشاف كل ما هو جديد لخدمة المقاومة والجهاد، واعتقل ثماني مرات وقد ابتكر صواريخ القسام، وأرسل الاستشهاديين، وأسس مجموعات الرباط على الثغور، واستشهد في عملية اغتيال، وهو يجهز لتركيب طائرة تم إعدادها لحمل متفجرات وإرسالها بعملية.

الشهيد (رواد) فرحات كان أصغر عناصر كتائب الشهيد القسام، والذي كان يقوم بمهام الرجال، استشهد بعملية اغتيال كانت مستهدفة لأخيه المطارد مؤمن.

(مؤمن) فرحات رجل فذ ومقدام وهو من المطلوبين للعدو الصهيوني في قطاع غزة، وتعرض للاعتقال.

وقد تم ترشيح خنساء فلسطين كعضو في المجلس التشريعي الفلسطيني، وبعد فوزها ها هي تخوض مسيرة المقاومة والسياسة لتكمل دربها ونضالها من أجل نَيل الشعب الفلسطيني لحقوقه كاملة)، منتديات بوابة واحدة (٢٠٠٧/٣/٨).

(١) الصتيت: الجماعة.

ولم يزل المسلمون ينتمون لدُن أمسوا حتى تفايؤوا، فلما أمسى سعد وسمع ذلك نام، وقال لبعض من عنده:

- إن تم الناس على الانتماء فلا توقظني، فإنهم أقوياء على عدوهم.
- وإن سكتوا ولم ينتم الآخرون فلا توقظني فإنهم على السواء.
- فإن سمعتهم ينتمون فأيقظني، فإن انتماءهم عن السوء) [1].

إنه القائد العام الذي يريد أن يأخذ خلسة من الزمن يأخذ بها قليلًا من النوم، فهو الأسد المتربص الذي يرقب الحرب من غرفة القيادة لحظة بلحظة، وعندما توقف القتال أصدر أوامره لحارسه أن يوقظه في الانتماء الثاني، لأن الانتماء أو التنافس في الأول، يعني أن سادة القبائل يتحاورون بإنجازاتهم وإنجازات قبائلهم، ولولا أنهم متفوقون على عدوهم ما وجدوا فرصة للتنافس، وعندما يقف المتنافسون عن التنافس فهذا يعني اعترافهم لبعضهم بالفضل فهم على السواء، وإن عادوا للتنافس من جديد، فإن هذا يعني أن اندلعت الحرب فأيقظني.

عمر في المدينة، وسعد في القصر، يشرفان معًا على مسيرة المعركة الفاصلة، والقعقاع ﷺ يرجع إليه الفضل في تعديل كفة الأمس، أما بعد الالتحام، فيصمت التاريخ وتصمت الأصوات ويتكلم الموت على الجميع حيث الرأس الذي يُقطَع، والساعد الذي يُبتَر، والبطن الذي يُبقَر، فلا صوت إلا صوت قعقعة السلاح، وهذه هي الحرب التي تنطق وتتغير الدنيا من خلال نُطقها لمصالح من تكون الدَّبْرَةُ، وهنا نرى المسيرة التاريخية لجيل الخلافة الراشدة، حيث لا يعبأ أحد على أحد، وكل قرين لقرينه قاتل أو مقتول، أو فال أو مفلول.

وما الحربُ إلَّا ما عِلمْتُمْ وذُقْتُمُ   وما هُوَ عَنْهَا بالحديثِ المرَجَّمِ

بطل ثقيف:

(قالوا: ولما اشتد القتال بالسواد، وكان أبو محجن (الثقفي) قد حُبِس وقُيِّد فهو في القصر، فصعد حين أمسى إلى سعد يستعفيه ويستقيله فزبره ورده، فنزل، فأتى سلمى بنت خصفة، فقال: يا سلمى يا بنت آل خصفة؛ هل لك إلى خير؟

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤١٥، ٤١٦).

قالت: وما ذاك؟

قال: تخلِّين عني وتعيرينني البلقاء، فللَّه عليَّ إن سلمني اللَّه أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي.

فقالت: وما أنا وذاك.

فرجع يرسف في قيوده ويقول:

كَفى حَزَنًا أن تطْعَنَ الخيلُ بالقَنا ... وأُتْرَكُ مَشْدُودًا عَلَيَّ وَثاقِيا

إذا قُمْتُ عَنّانِي الحدِيدُ وأُغْلِقَتْ ... مصارعَ دونِي قَدْ تُصِمُّ المنادِيا

وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ ... فقدْ تركونِي واحِدًا لا أخَا ليا

ولِلَّهِ عَهْدٌ لا أخِيسُ بعهدِه ... لئن فُرِجَتْ ألا أزورَ الحَوانِيا (١)

فقالت سلمى: إني استخرت اللَّه، ورضيت بعهدك، فأطلقته، وقالت: أما الفَرَس فلا أعيرها، ورجعت إلى بيتها.

فاقتادها فأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق، فركبها، ثم دب عليها...).

إننا أمام فصل جديد يتم نسج خيوطه داخل قصر الإمارة، دون علم القائد العام. وليست مهمة هذه المؤامرة أن تنقض على سعد بن أبي وقاص القائد العام، فتقتله، وتستلم زمام المبادرة منه ممن هم أكفأ قيادة، وأقدر على القيادة داخل ساحة القتال. خاصة وأنه جاء في وقت صراع داخل بيت الإمارة بعد الخلاف الذي وقع بين سعد وزوجته سلمى، وانتشر نبؤه في صفوف الجيش كله، وبكل تفصيلاته، والأصل أن ينجح هذا الانقلاب العسكري ويطيح بسعد بالتآمر مع زوجته الغاضبة الموتورة.

وبعد محاولة الحل التوفيقي في السماح لأبي محجن الثقفي في المشاركة في المعركة. (لكن سعد زبره وردَّه). ونحن لسنا مع بطل ثقيف فقط، بل داهية دَهْياء يشهد العرب كلهم بدهائهم ويقولون عن ثقيف: إنهم قوم مناكير حتى ليشارك سيد غطفان عيينة بن حصن في حصار الطائف لعله يفوز بجارية ثقفية تلد له غلامًا داهية.

(فلما استقل الناس نادى سعيد بن عبيد (الثقفي): ألا إن الحي مقيم، قال: يقول عيينة بن حصن: أجل واللَّه مَجَدَةً كِرامًا.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤١٦).

فقال له رجل من المسلمين: قاتلك اللَّه يا عيينة، أتمدح المشركين بالامتناع عن رسول اللَّه ﷺ، وقد جئت تنصر رسول اللَّه. فقال: إني واللَّه ما جئت أقاتل ثقيفًا، ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف، أصيب من ثقيف جارية أَتَّطِئُهَا لعلها تلد لي رجلًا، فإن ثقيفًا قوم مناكير) (١).

وحين باءت المؤامرة في الفشل عاد أبو محجن حزينًا منكسرًا، إنها ليست مؤامرة للإطاحة بسعد، بل مؤامرة للسماح لأبي محجن في قتال الفرس، لقد انتهى ذلك الجيل الذي يخطط ليُفني بعضه، بل وجاء الجيل الجديد الذي تثقَّف بثقافة الجهاد في سبيل اللَّه، حتى ولو كانت المعصية فيه قائمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. إنه جيل أُحُدٍ، فلا غرْوَ أن نجد في جيل القادسية، من يتغنى بالخمر فيسجن، ويحرم من جهاد العدو، ولو كان من أكبر الأبطال والقادة.

ولنعد بخطواتنا إلى أبي محجن، فقد ملأ الحزن قلبه، وانكسر وهو يرى المعركة في هذا الليل البهيم وهو محروم من المشاركة فيها.

لا يهدأ لها أوار، وقال هذه الأبيات الخالدة:

كَفَى حَزَنًا أن تطْعَنَ الخيلُ بالقَنا ... وأُتْرَكُ مَشْدُودًا عَلَيَّ وَثَاقِيا

إذا قُمْتُ عَنَّاني الحديدُ وأُغْلِقَتْ ... مصاريعُ مِنْ دوني تُصِمُّ المنادِيا

وقدْ كُنْتُ ذَا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ ... فقد تَرَكُونِي واحدًا لا أخَا ليا

ولِلَّهِ عَهْدٌ لا أَخِيسُ بعهدهِ ... لَئِن فُرِجَتْ ألا أزورَ الحوَانِيا

هذا هو الإنسان العربي على طبيعته، دخل في الإسلام، ولم يستطع أن يمتنع عن شرب الخمر، وخضع لشريعة اللَّه، حيث يحد مع كل شراب.

وتسللت أبيات أبي محجن إلى نفس سلمى، وهل يحرم المسلمون من بلاء أبي محجن، فأقدمت على مغامرة قد تودي بحياتها مع زوجها خال رسول اللَّه ﷺ سعد بن أبي وقاص ولكن ثقتها برجولة أبي محجن ومروءته وشرفه، جعلها تتزلزل أمام طلبه، فعادت إليه قائلة: إني استخرت اللَّه، ورضيت بعهدك.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٠٤)، مجلد واحد.

فأطلقته، وقالت: أما الفرَس فلا أعيرها، ورجعت إلى بيتها، فاقتادها فأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق فركبها، ثم دب عليها.

إن رحى الحرب تطحن المسلمين والموت الزؤام يزور الجيشين، والمسلمون ينتظرون نصر اللّه.

إن كان النهار للقعقاع، فالسواد والليل لأبي محجن:

(... حتى إذا كان بحيال الميمنة كبَّر، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين فقالوا: بسرجها، وقال سعيد والقاسم: عريًا).

ثم رجع من خلف المسلمين إلى الميسرة فكبَّر وحَمَلَ على ميمنة القوم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه، ثم رجع من خلف المسلمين إلى القلب، فندر أمام الناس، فحمل على القوم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه، وكان يقصف الناس ليلتئذٍ قصفًا منكرًا.

وتعجب الناس منه وهُم لا يعرفونه، ولم يرَوه من النهار، فقال بعضهم: أوائل أصحاب هاشم أو هاشم نفسه. وجعل سعد يقول وهو مشرف على الناس مكب من فوق القصر: واللّه لولا محبس أبي محجن لقلت: هذا أبو محجن، وهذه البلقاء. وقال بعض الناس: إن كان الخَضِرُ يشهد الحروب فنظن صاحب البلقاء الخَضِر. وقال بعضهم: لولا أن الملائكة لا تباشر القتال لقلنا: مَلَكٌ يثبتنا. ولا يذكره الناس ولا يأبهون له لأنه بات في محبسه.

فلما انتصف الليل حاجز أهل فارس، وتراجع المسلمون، وأقبل أبو محجن حتى دخل من حيث خرج، ووضع عن نفسه وعن دابته، وأعاد رجليه في القيد به...).

نحن أمام شاعر فارس بطل مغوار عبقري، ونرى شعره يتناسب مع مستوى بطولته، فقد كان بلاؤه هو الذي أوقف الحرب، وهد الفرس، وأثبت مروءته يوم عاد فوضع القيد في رجليه، إنه التزام عجيب، وانضباط أعجب أن نرى هذا الفارس العظيم وهو بهذه البطولة يرضى أن يعود بعد بلائه الحسن إلى محبسه وقيوده، ومن وهج الحرب وقصف السيوف والرماح وهول المعركة تفتقت شاعريته وعبقريته فقال:

لقدْ عَلِمَتْ ثَقِيفٌ غَيْرَ فَخرٍ ... بأنَّا نَحْنُ أكرَمُهُم سُيُوفَا

وأكثَرُهُم دُرُوعًا سابِغَاتٍ ... وأصبرُهُمْ إذا كَرِهُوا الوُقُوفَا

وأنَّـا رِفْـدُهُـم فِي كُـلِّ يَـوْمٍ ... فإنْ عَمِيوا فَسَل بِهم عَرِيفا

ولا شك أنه يشير بقوله: (أنا وفدهم في كل يوم) إلى وفادة وزير الخارجية الإسلامي المغيرة بن شعبة الذي كان اختصاصه مقابلة القادة والملوك، ثم يعود لذكر نفسه:

وليلة قادسٍ لم يشعُروا بي ... ولم أُشعِر بمَخرجيَ الزُّحُوفَا

فإنْ أُحبس فذَلِكُمُ بَلائِي ... وإنْ أُترَك أُذِيقُهُمُ الحتوفَا

حوار سلمى وأبي محجن:

(فقالت له سلمى: يا أبا محجن في أي شيء حبسك هذا الرجل؟ قال: أما واللَّه، ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني، يبعثه على شفتي أحيانًا، فيساء لذلك ثنائي؛ ولذلك حبسني، قلت:

إذا متُّ فادفنِّي إلى أصلِ كَرْمَةٍ ... تُرَوِّي عِظَامي بعدَ موتِي عُروقُها

ولا تَدْفِنَنِّي في الفلاةِ فإنِّنِي ... أخافُ إذا ما مِتّ ألَّا أذُوقُها

ويُروَى بخمْرِ الحُصِّ لحدِي فإنَّني ... أسِيرٌ لها من بعدِ ما قد أسُوقُها) [1]

أبو محجن صالح بين الزوجين سعد وسلمى:

(ولم تزل سلمى مغاضبة لسعد عشية أرماث، وليلة الهدأة، وليلة السواد، حتى إذا أصبحت أتته وصالحته وأخبرته خبرها وخبر أبي محجن. فدعا به فأطلقه وقال: اذهب فما أنا بمؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله.

قال: لا جرم واللَّه لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبدًا) [2].

أبو محجن في الإصابة:

بقي علينا أن نقول أن أبا محجن هو شاعر فارس بطل، لكن أعظم من صفاته هذه كلها أنه كان صحابيًّا، وقد أسهب ابن حجر في الإصابة في ترجمته، متنقلًا في بطون كتب الأحاديث يذكر مناقبه وواقعه، وندع ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ يقدم لنا مقتطفات عنه:

(أبو محجن الثقفي الشاعر المشهور: مختلف في اسمه فقيل: هو عمرو بن حبيب...

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٢/٤١٦).

ابن عوف بن ثقيف وقيل اسمه مالك، وقيل اسمه عبد اللَّه...) قال أبو أحمد الحاكم: له صحبة.

وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن سيرين: كان أبو محجن الثقفي لا يزال يُجلَد في الخمر، فلما أكثر عليهم سجنوه وأوثقوه، فلما كان يوم القادسية رآهم يقتتلون... فذكر القصة بنحو ما تقدم. لكن لم يذكر قول المسلمين هذا ملك، بل فيه أن سعدًا قال: لولا أني تركت أبا محجن في القيد لظننتها بعض شمائله، وقال في آخر القصة: فقال: لا أجلدك في الخمر أبدًا، فقال أبو محجن: وأنا واللَّه لا أشربها أبدًا، قد كنت آنف أن أدعها من أجل جلدكم، فلم يشربها بعد...

وقال عبد الرزاق عن ابن جريج، بلغني أن عمر بن الخطاب حدَّ أبا محجن ابن حبيب... في الخمر سبع مرات، وقيل: دخل أبو محجن على عمر، فظن أنه قد شرب، فقال: استنكهوه، فقال أبو محجن: هذا هو التجسس الذي نهيت عنه، فتركه. وذكر ابن الأعرابي عن المُفضّل الضبّي قال: قال أبو محجن في تركه شرب الخمر:

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها ... مناقبُ تُهْلِك الرجلَ الحليمَا

فَلا واللَّهِ أشربُها حَيَاتي ... ولا أشْفِي بها أبدًا سَقِيمَا

وذكر ابن الكلبي عن عوانة قال: دخل عبيد بن أبي محجن على عبد الملك ابن مروان فقال: أبوك الذي يقول:

إذا مِتُّ فادْفِنِّي إلى أصْلِ كَرْمَةً ... تُرَوِّي عِظَامِي بعدَ مَوْتِي عُرُوقُها

فذكر قصته، وأوردها ابن الأثير بلفظ: قيل إن ابنًا لأبي محجن دخل على معاوية فقال له: أبوك الذي يقول... فذكر البيت وبعده:

ولا تَدْفِنَنِّي بالفَلاةِ فإنَّني ... أخافُ إذا مَا مِتُّ ألَّا أذُوقُهَا

قال: لو شئت لقلت أحسن من هذا من شعره، قال: وما ذاك؟ قال: قوله:

لا تسْألِ الناسَ عن مالِي وكثرتِهِ ... وسائل النَّاسَ عن حَزْمي وعَنْ خُلِقْي

القَوْمُ أعْلَمُ أني مِنْ سَرَاتِهِم ... إذا تَطِيشُ يَد الرعديدَة الفَرِقِ [1]

قدْ أركبُ الهول مسْدُولًا عَسَاكره ... وأكتُمُ السر فيهِ ضَرْبَةُ العنقِ

---

(١) الفرق: الخوف.

أُعْطِي السِّنَانَ غداةَ الرَّوْعِ حصته وعامِلَ الرُّمْحِ أرويهِ منَ العَلق [١]
عفٌّ المطالبِ عمَّا لسْتُ نائلَه وإن طلَبتُ شديدُ الحقد والحنَق
قد يعسرُ المرءُ حينًا وهو ذُو كرمٍ وقد يسامُ سوامَ العاجزِ الحمِق
سيكثر المال يومًا بعد قِلَّتِهِ ويكتسِي العودُ بعد اليُبْسِ بالورقِ [٢]

قال معاوية: لئن كنا أسأنا القول لنحسنن الفعل، وأجزل صلته.

وقد عاب ابن فتحون على أبي عمر (ابن عبد البر في الاستيعاب) على ما ذكره من قصة أبي محجن أنه كان منهمكًا في الشراب، فقال: كان يكفيه ذكر حده عليه، والسكوت عنه أليق.

والأولى في أمره ما أخرجه سيف في الفتوح أن امرأة سعد سألته: فيم حبس؟ فقال: واللَّه ما حبست على حرام أكلته ولا شربته، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية فندَّ كثيرًا على لساني من وصفها، فحبسني بذلك. فأعلمَتْ بذلك سعدًا، فقال: اذهب فما أنا بمؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله.

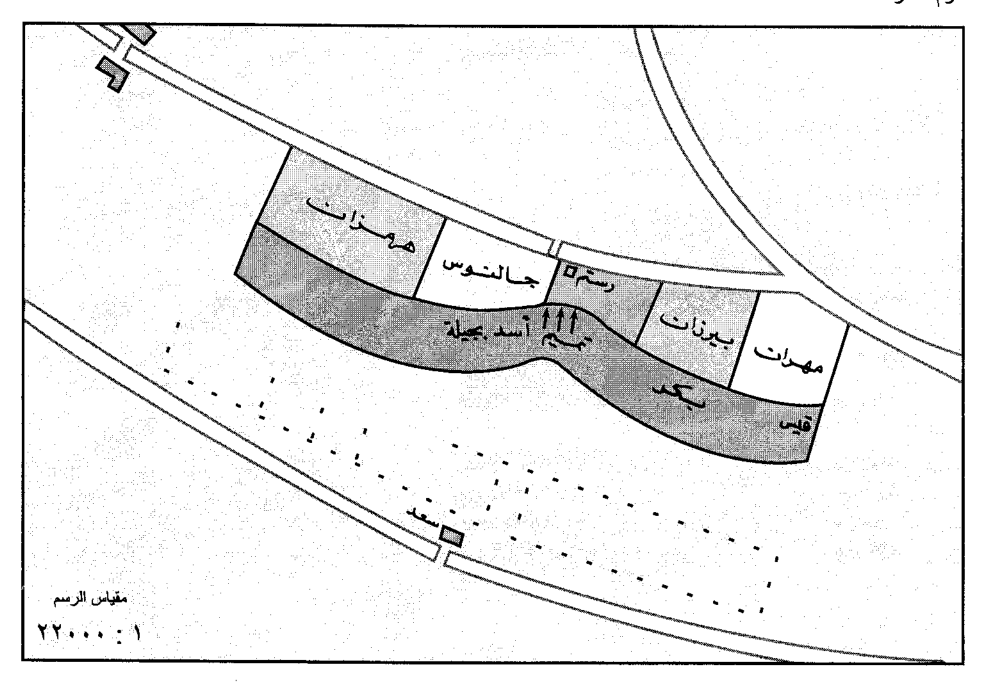
قلتُ: (أي ابن حجر العسقلاني) سيف ضعيف والروايات التي ذكرناها أقوى وأشهر)، ومع ذلك فيمكن الجمع بين الروايات أن الحبس الأخير لأبي محجن كان على تغنيه بالخمر، بينما كان الحبس من قبل على الشراب.

هذا ونشير إلى أن أبا محجن وإن كان ضعيفًا عند الخمر لإدمانه السابق عليها، وتحمله الحد على شربها إلا أن جانب القدوة منه هو بطولته، وتغييره آثار الحرب مع فارس، ليلةَ السواد، حتى ليحسبونه ملَكًا جاء من السماء لنصرتهم، أو أن الخَضِرَ عليه السلام جاء يقاتل المشركين من فارس، كما أن عبقريته وفصاحته ومروءته والتي برزت من خلال شعره الخالد. هي مجموعة قيم عن البطولة والكرم والشجاعة، وتقويم الإنسان من خلال معدنه لا من خلال ثروته، ما أحوجنا إليها في عصر تحكم فيه المادة البشرية، وتأتي العولمة لتلتهم كل ما بقي من قيم لدى الناس. إنه الصحابي الذي يخطئ، ويتحمل أثر خطيئته، ويبدع فلا ينتظر من الناس ثناء ولا مجدًا، يعمل للَّه، ويموت مجاهدًا في سبيل اللَّه.

---

(١) العلق: الدم.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (١٠٨٣٢)، (ص ١٥٤٨، ١٥٤٩)، مجلد واحد.



يوم أغواث – القادسية (٦)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٧١) خريطة (٤٠))



الفصل الثاني عشر

يوم عماس

الرثيث والنخلة التائهة:

إنه الجانب الإنساني والصوت البشري الجريح، والعواطف الحادة التي تمثل الحنين إلى الوطن، حيث لا يملك المرء إلا هذا الصوت، وهو يعاني من حشرجة الموت.

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وزياد وطلحة بإسنادهم: فأصبحوا في اليوم الثالث، وهم على مواقفهم، وأصبحت الأعاجم على مواقفهم، وأصبح ما بين الناس كالرجلة الحمراء - يعني الحرة - ميل في عرض ما بين الصفين، وقد قُتل من المسلمين ألفان من رثيث وميت، ومن المشركين عشرة آلاف من رثيث وميت، وقال سعد: من شاء غسل الشهداء، ومن شاء فليدفنهم بدمائهم، وأقبل المسلمون على قتلاهم فأحرزوهم، فجعلوهم من وراء ظهورهم، وأقبل الذين يجمعون القتلى يحملونهم إلى المقابر ويبلغون الرثيث إلى النساء، وحاجب بن زيد على الشهداء) [1].

هذه الأمة التي تدفع الثمن غاليًا من أرواحها ودمائها وتضحياتها للتمكين لهذا الدين في الأرض، ولا تبخل بجهد ولا مال ولا طاقة، وها نحن اليوم بعد خمسة عشر قرنًا من الزمان نجني آثار هذه التضحيات ونأكل ثمرة هذا الكفاح.

إن الوحدات الطبية في الجيوش اليوم، تعتبر رديفًا أساسيًّا في كل معركة، والمستشفيات الميدانية التي ترافق الوحدات المقاتلة، نشهدها على التلفاز والقنوات الفضائية، حيث تتضاعف الرواتب وتمنح المكافآت.

أما وحداتنا الطبية في جيشنا الإسلامي في القادسية، فهي خاصة بالنساء، لقد تفردت النساء بهذه المهمة، فلن يعطل مقاتل واحد من أجل مداواة جريح واحد،

---

(١) تاريخ الطبري (٤١٧/٢).

يا لها من مهمة شاقة مهولة رعيبة، الرثيث للنساء، والموتى للرجال، حتى الصبيان لهم وظيفة كذلك في هذه المعركة الخالدة.

- على الرجال القتال، والاستشهاد والدفن.
- وعلى النساء معالجة الجرحى والمرتثين من الأبطال المقاتلين.
- وعلى النساء والصبيان حفر القبور.

فالمعركة لا ترحم، وهي معركة فاصلة تغير تاريخ البشرية في أن يقودها دعاة الهدى أو دعاة الضلال، وإذا كانت حصيلة اليوم الأول من القتلى خمسمائة شهيد، فإن الحصيلة في اليوم الثاني أربعة أضعافها؛ ألفان، وهذا يستدعي استحضار قوات وحدات طبية جديدة تعادل أربعة أضعاف العاملين في المستشفيات الميدانية، ولكن لا جديد، إنما كل ما في الأمر مضاعفة المسؤوليات أربعة أضعاف ما كانت عليه، ويتلقون مكافآت هذه الجهود المضاعفة أجرًا ومثوبة من عند اللَّه، وهؤلاء جميعًا جاؤوا مرافقين للجيش مع رجالهم من كل أنحاء الجزيرة العربية.

وما هي قصة النخلة التائهة والرثيث؟

(... وحاجب بن زيد على الشهداء... فمر حاجب وبعض أهل الشهادة وولاة الشهداء في أصل نخلة بين القادسية والعذيب، وليس بينهما يومئذ نخلة غيرها، فكان الرثيث إذا حُملوا فانتُهي بهم إليها وأحدهم يعقل يسألهم أن يقفوا به تحتها يستروح إلى ظلها، ورجل من الجرحى يدعى بجيرًا، يقول وهو مستظل بظلها:

ألا يا اسلمي يا نخلةٌ بَيْنَ قادِسٍ وبين العُذَيْبِ لا يجاورُكِ النخلُ

ورجل من بني ضبة أو من بني ثور يُدْعَى غيلان يقول:

ألا يا اسلَمي يا نخلةٌ بين جرعةٍ [١] يجاوِرُك الجمان [٢] دونك الرغلُ [٣]

ورجل من بني تيم اللات يقال له: ربعي يقول:

أيا نخلةَ الجرعاءِ يا جرعَةَ العدَى سقتكِ الغَوادِي والغيوثُ الهَواطِلُ

---

(١) جرعة: رمل وحجارة.
(٢) الجمان: اسم جبل.
(٣) الرغل: نبات قصير.

وقال الأعور بن قطبة:

أيا نخلةَ الركْبَانِ لا زِلت فانضري ... ولا زال في أكنافِ جرعائكِ النخْلُ

وقال عوف بن مالك التميمي:

أيا نخلةً دون العُذيب بتلعةٍ ... سقيتِ الغوادي المدجناتِ منَ النخلِ)[1]

إنها قصة حب لهذه الصحراء التي نبتوا فيها، وإلى النخلة التي هيجت الذكرى والحنين لمضاربهم في أرضهم ونخيلهم، فراح كل واحد يتغزل بهذه النخلة اليتيمة التي تعيد أنفاس الوطن الحبيب إليهم من بين حشرجة الموتى.

إن هذا الحنين ليعيد إلى ذاكرتنا حنين ذلك البطل الأشم والشاعر العظيم عبد الرحمن الداخل الذي أقام دولة للإسلام في أرض أوربا، في إسبانيا، وقد رأى نخلة فهيجت أشجانه وراح يناجيها، ويبثها غرامه وآهاته:

تبدَّتْ لنا وسْطَ الرَّصَافةِ نخلةٌ ... تناءَت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلتُ شَبيهي في التَّغرُّبِ والنَّوى ... وطولِ التَّنائي عن بَنِيَّ وعَنْ أهْلِي

نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غَرِيْبَةٌ ... فمثلُكِ فِي الإقْصَاءِ والمنتأى مِثْلِي

وما هي إلا أيام قلائل، وجاء النصر لجيش الإسلام، وشهدوا ثمرة هذا الجهاد في خيرات السواد التي غمرتهم، وامتدت خيراته إلى أرض الإسلام كلها من مشرقها إلى مغربها بعد أن كانت نهبة بيد حفنة من أثرياء وطغاة الحرب من الفرس: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

القعقاع أبو المخططات والبطولات:

سيبقى القعقاع بن عمرو ﷺ حيًّا معنا إلى آخر معركة القادسية فهو ذروة القيادة غير المتوج، فماذا يفعل ليستقبل المسلمون يومًا جديدًا بنفسية جديدة حية متفائلة.

لقد تعلَّم من أستاذه خالد بن الوليد ﷺ كيف يحول الهزيمة المحققة إلى نصر مؤزر، وعرف خطط خالد في غزوة مؤتة يوم بعث خيلًا مهمتها أن تثير الغبار

---

(١) تاريخ الطبري (٤١٧/٢).

ولا تشارك في الحرب حتى يشعر المسلمون بالثقة والعدو بالرعب، وهو أن المدد قادم ومستمر، فطوَّر القعقاع هذه الخطة بأسلوب جديد.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد، قالوا: وبات القعقاع ليلته كلها يُسرِّب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه من الأمس، ثم قال: إذا طلعت عليكم الشمس فأقبلوا مائة مائة، كلما توارى عنكم مائة، فليُتبعها مائة، فإن جاء هاشم فذاك، وإلا جددتم للناس رجاءً وجدًّا، ففعلوا، ولا يشعر بذلك أحد وأصبح الناس على مواقفهم قد أحرزوا قتلاهم، وخلوا بينهم وبين حاجب ابن زيد. وقتلى المشركين بين الصفين قد أضيعوا، وكانوا لا يعرضون لموتاهم.

وكان مكانهم مما صنع اللّٰه للمسلمين مكيدة فتحها، ليشد بها أعضاد المسلمين، فلما ذر قرن الشمس والقعقاع يلاحظ الخيل، وطلعت نواصيها كبَّر وكبرَّ الناس، وقالوا: جاء المدد.

وقد كان عاصم بن عمرو أُمر أن يصنع مثلها، فجاؤوا من قبل خفان، فتقدم الفرسان، وتكتبت الكتائب، فاختلفوا الضرب والطعن، ومددهم متتابع، فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم...).

لقد بات الناس في الليل يتعرفون على قتلاهم ويبحثون عنهم، إذ اختلطوا في قتلى المشركين، والعدد اليوم أربعة أضعاف الأمس. هذا البطل الذي أمضى نهاره كلَّه يرمِي ويُرْمَى، وقد نزلت به جراحات من سهمٍ غائر، أو سيفٍ باترٍ، أو رمح كاسرٍ، لا يستطيع أن يأوي لحظات وينام قليلًا، فيرتاح من عناء القتال، إن هؤلاء الشهداء والرثيث هم أكرم منه محتِدًا، قد اختارهم اللّٰه - تعالى - عليه، واتخذهم شهداء، كيف ينام قبل أن يطمئن إلى أنه سلم جُثة أهله وأبناء عشيرته إلى مسؤول الشهداء حاجب بن زيد، ومن يعرفهم غيره، إنه في مقاومة جديدة، وجهد جديد، وبحث عسير، ليعرف أخاه أو عمه أو خاله أو ابنه؟ أين سرادقات العزاء التي تُقام لتعزي هؤلاء المصابين في مصابهم، وتمسح جراحاتهم المادية والمعنوية؟ وأين الخطب الطنانة الرنانة التي تتحدث عن آثار الفقيد؟ وأين الولائم الكبيرة التي تقام لإطعام المعزين؟ أين

هؤلاء جميعًا من هذا الجيش الذي تحرسه عناية اللّه - تعالى - وهو يصوغ تاريخًا جديدًا للبشرية لن ترى مثله أبدًا؟

ومع هذا، فالقعقاع القائد البطل الأشم الذي قاتل طيلة نهاره يبارز وقد حمل ثلاثين حملة قتل في كلٍّ حملة بطلًا! أليس له حق أن يأخذ خلسة ساعة يفيء فيها إلى النوم؟! وهو أحق بقول أبي تمام من المعتصم.

بَصُرْتَ بالراحَةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرهَا تُنالُ إلّا عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

فكيف ينام لحظة وهو يرى أن الجيش كله في عنقه، وهو مسؤول عن تحقيق النصر فيه ورفع معنوياته، **فأعد الخطة الكاملة ذات الفقرات التالية:**

١ - إعادة المدد الذي شارك في القتال إلى نقطة التجمع الأولى.

(وبات القعقاع ليلته كلها يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه بالأمس.

٢ - وحدد موعد التحرك والعودة لساحة المعركة، قبيل شروق الشمس، وليكن عدد كل كتيبة مائة، حتى إذا غابوا عن الأنظار تحركت المائة الثانية، وهكذا يتم التحرك. (إذا طلعت لكم الشمس فأقبلوا مائة مائة، كلما توارى عنكم مائة فليتبعها مائة أخرى).

٣ - وعلى أمل وصول قائد الجيش القادم من الشام، هاشم بن عتبة، فتتم متابعة الخطة. (فإن جاء هاشم فذاك).

٤ - إنها الحسابات الدقيقة، وحسبان عوائق التنفيذ، فهدف الخطة بعث الأمل في نفوس حزب اللّه وبث اليأس والرعب في صفوف العدو. (وإلا جددتم للناس رجاءً وجدًّا).

٥ - الحرص على السرية التامة في كل مراحل التنفيذ، فلو كشفت الخطة، لوقع الإحباط واليأس في نفوس المسلمين، فلن يحقق نجاحها إلا سريتها التامة، وبدون ذلك فستصبح مسرحية يتندر الناس منها (ففعلوا ولا يشعر بذلك أحد).

٦ - وعاد القعقاع وكأنه لم يفعل، وبقي ساهرًا يرقب لحظة التنفيذ، فهو لا ينام عن خطته، ولا يتباطأ عنها، ولا يغفل عن تنفيذها، ولو غفل لفسد الكثير من الهدف الذي يريد.

(وأصبح الناس على مواقفهم قد أحرزوا قتلاهم، وخلوا بينهم وبين حاجب ابن زيد، وقتلى المشركين بين الصفين قد أضيعوا، وكانوا لا يعرضون لأمواتهم).

٧ - اختيار المكان المناسب، والزمان المناسب للتحرك المناسب، فالمكان هو الموقع الذي قدم منه المدد الأول من جهة الشام، والزمان هو قبيل شروق الشمس، والتحرك المناسب بالترتيب الذي وضعه القعقاع. (وكان مكانهم مما صنع اللّه للمسلمين مكيدة، فتحها ليشد بها أعضاد المسلمين).

٨ - القعقاع يعلن وصول المدد، ويوجه أنظار المسلمين إليه، فهو الذي خطط، وهو الذي يعرف كيف يستغل هذا التحرك المناسب لشحذ همم الأبطال، ورفع معنويات الرجال. (فلما ذر قرن الشمس - والقعقاع يلاحظ الخيل - وطلعت نواصيها، كبَّرَ وكبَّر الناس وقالوا جاء المدد).

٩ - ولم يُطْلِع على الخطة أحدًا غير أخيه عاصم بن عمرو، لأنه كلفه أن يقوم بمهمته نفسها في جهة ثانية من الجيش، لتكون التعبئة كاملة، وحفز الهمم لدى الجميع في وقت واحد. (وقد كان عاصم بن عمرو أُمِر أن يصنع مثلها).

١٠ - وكان التحرك في صبيحة اليوم الثالث، بهذه النفسيات العالية في الجيش. إنه أمير التعبئة المعنوية في الجيش الإسلامي، وعمل عمله هذا كله، لا يبتغي جزاء أو شكورًا من أحد. فقد أخلص نفسه للّه، وظهر كأنما هو جندي عادي كان مستغرقًا في نومه، وصحا كما صحا أولئك الجنود الأبطال الذين كانوا غفاة في الليل وأنه فوجئ كما فوجئوا هم بالمدد. (فتقدم الفرسان، وتكتبت الكتائب، فاختلفوا الضرب والطعن).

١١ - ونجحت الخطة مائة بالمائة، إذ تم وصول هاشم ﵁ مع آخر مائة من جيش القعقاع وأعلموه عن خطته، ولأن القادة يعرفون كفاءاتهم وخبراتهم، حرص هاشم ﵁ على متابعة خطة القعقاع كاملة، وحرك أصحابه سبعين سبعين. (فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم، وقد طلعوا في سبعمائة، فأخبروه برأي القعقاع، وما صنع في يوميه، فعبى أصحابه سبعين سبعين).

هاشم القائد البطل المنتظر:

(... فلما جاء آخر أصحاب القعقاع خرج هاشم في سبعين معه، فيهم قيس ابن هبيرة بن عبد يغوث - ولم يكن من أهل الأيام إنما أتى من اليمن اليرموك - فانتدب مع هاشم.

فأقبل هاشم حتى إذا خالط القلب كبَّر وكبَّر المسلمون، وقد أخذوا مصافهم، وقال هاشم: أول القتال المطاردة ثم المراماة. فأخذ قوسه، فوضع سهمًا على كبدها، ثم نزع فيها، فرفعت فرسه رأسها فخلَّ أذنها، فضحك وقال: واسوأتاه من رمية رجل كل من رأى ينتظره، أين ترون سهمي كان بالغًا؟ قيل: العتيق، فنزقها، وقد نزع السهم، ثم ضربها حتى بلغت العتيق، ثم ضربها فأقبلت به تخرقهم، حتى عاد إلى موقفه...) [(١)].

فلا بد لكل قائد أن يثبت وجوده أمام الجند، ولا يكفيه لمعان اسمه وشهرته، فلا بد أن يثبت كفاءته أمام الملأ، وطالما هو صاحب النظرية؛ المطاردة ثم المراماة، فلا بد أن ينفذ ما قاله عمليًا أمام الجنود، لكن إرادة اللَّه غالبة، حيث حركت فرسه رأسها مع إطلاق السهم، فمضى السهم في أذن فرسه، ولم يتجاوزه، فاستحيا استحياء الرجال الأبطال الذين يعِدون ولا بد أن يوفوا، وسألهم: أين ترون سهمي كان بالغًا؟ قالوا: العتيق، وأعاد سهمه، ووضعه على كبد قوسه، ورمى رميته، فكانت كما بلغت أحلامهم كانت في العتيق.

هذا عن المراماةُ فماذا عن المطاردة؟

ها هو يركب فرسه ويهمزه فيمضي لا يلوي على شيء، إلى أين، إلى نحور العدو، ومضى فيهم ولم يعد يراه أحد، ثم عاد بفرسه، وليست المطاردة بالخيل فقط، فكيف بالراجل يطارد؟ إن عليه أن يجيب على السؤال، وإن عليه أن يثبت أن المطاردة تتم على كل حال، من الفارس ومن الراجل، فأجال ونزل، وترك فرسه، ثم خرج يضربهم حتى بلغ حيث قالوا، وحقَّ له أن يأخذ موقعه، ويعلم الناس أنه لا يأخذ موقعه من قرابته لسعد، فهو ابن أخيه، إنما يأخذه من بطولته الفذة.

---

(١) تاريخ الطبري (٤١٨/٢).

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن... قال: (كنا نرى أنه كان على الميمنة) [١].

لكن ماذا عن تروس المسلمين الحديدية. (وما كان عامة جنن الناس إلا البراذع [٢] - براذع الرحال - قد أعرضوا فيها الجدير، وعصَّب من لم يكن له وقاية رؤوسهم بالأنساع [٣]) أي كانت الجلود هي دروعهم ودرقهم.

مع قيس بن مكشوح رفيق هاشم:

هو أحد قادة اليمن الكبار، وقاد حربًا ضروسًا ضد المسلمين بعد أن ارتد، وكان قد أسلم وحسن إسلامه، وكان شارك في قتل الأسود العنسي.

(وكان قيس فارسًا شجاعًا وهو ابن أخت عمرو بن معديكرب، وكانا متباعدين وهو القائل لعمرو:

فلو لاقَيْتَنِي لاقَيْتَ قِرْنًا ... ووَدَّعْتَ الأحبةَ بالسَّلامِ

وكان ممن ارتد عن الإسلام باليمن، وقتل داذويْه الفارسي، وطلب فيروز ليقتله ففر منه إلى خولان) [٤].

(... وفارق عمرو بن معديكرب قيسًا، وأقبل مستجيبًا حتى دخل على المهاجر ابن أبي أمية (قائد الجيش الإسلامي) بغير أمان، فأوثقه المهاجر، وأوثق قيسًا، وكتب بحالهما إلى أبي بكر ﵁ وبعث بهما إليه... فَقُدِم بقيس وعمرو على أبي بكر فقال:

يا قيس أغدوت على عباد اللّه تقتلهم وتتخذ المشركين والمرتدين وليجة من دون المؤمنين؟ وهَمَّ بقتله لو وجد أمرًا جليًا، وانتفى قيسٌ من أن يكون قارف من أمر داذويه شيئًا، وكان ذلك عملًا عُمِل في سر لم يكن به بينة، فتجافى له عن دمه، وقال لعمرو ابن معديكرب: أما تخزى أنك كلَّ يوم مهزوم أو مأسور، لو نصرت هذا الدين

---

(١) الطبري (٢/٤١٩).

(٢) البراذع: ما يوضع على الحمار أو البغل كالسرج للفرس.

(٣) الأنساع: جمع نسع وهو سير ينسج عريضًا تشد به الرحال.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (٧٥٤٣)، مجلد واحد.

لرفعك اللَّه، ثم خلى سبيله، وردهما إلى عشائرهما وقال عمرو: لا جرم لأُقبلنّ ولا أعود) (١).

(ثم راجع الإسلام، وهاجر، وشهد الفتوح، وله في فتوح العراق آثار في القادسية، وفي فتح نهاوند وغيرها) (٢).

فها هو قيس إذن قادم ليغسل حوبته، ويطوي صفحته القاتمة السوداء ليفتح صفحة بيضاء جديدة كما فعل خاله عمرو بن معديكرب، وشريكه في حرب الإسلام وأهله، ولم يتمكن أن يشارك في فتوح الشام، بل وصل بعد اليرموك، وانضم إلى الجيش العائد للعراق تحت إمرة هاشم بن عتبة، وها هو قيس يفتتح هذه الصفحة، بهذه الخطبة العصماء.

قيس بن مكشوح خطيب في الجيش الإسلامي:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن أبي كبران الحسن ابن عقبة أن قيس بن مكشوح قال مَقْدمَه من الشام مع هاشم، وقام فيمن يليه فقال لهم:

إن اللَّه منَّ عليكم بالإسلام، وأكرمكم بمحمد ﷺ فأصبحتم بنعمته إخوانا، دعْوَتكم واحدة، وأمركم واحد، بعد إذ أنتم يعدو بعضكم على بعض عَدْوَ الأُسْد، ويختطف بعضكم بعضًا اختطاف الذئاب.

فانصروا اللَّه ينصركم، وتنجزوا من اللَّه فتح فارس، فإن إخوانكم من أهل الشام قد أنجز اللَّه لهم فتح الشام، وانتثال القصور الحمر، والحصون الحمر) (٣).

لقد انطلق قيس بن مكشوح من الأنفة العربية يوم خرج على الإسلام والمسلمين ودعا قبائل العرب لملاحقة أبناء فارس الذين أسلموا ونشروا الإسلام في ربوع اليمن.

قال عندما خرج عليهم وكتب إلى ذي الكلاع الحميري: إن الأبناء نزاع في بلادكم، ونقلاء فيكم، وإن تتركوهم لن يزالوا عليكم، وقد أرى من الرأي أن أقتل رؤوسهم، وأخرجهم من بلادنا، فتبرؤوا...

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٩٩).
(٢) المصدر نفسه (٢/٢٩٧).
(٣) المصدر نفسه (٢/٤١٩).

فتربص لهم قيس، واستعد لقتل رؤسائهم وتسيير (طرد) عامتهم) [١].

إنه هو اليوم يقف مع العرب جميعًا لمواجهة الإمبراطورية الفارسية، التي تحارب هذا الدين المنزل من عند اللَّه، والذي توحدت العرب عليه، وفرق كبير بين الموقفين:

بين الإسلام دين الخلق كافة، والذي أعلن في مبادئه: أن « **لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى** » [٢].

وحيث سبق أبناء الفرس للإسلام، وأصبحوا يتلقون أوامرهم من رسول اللَّه ﷺ فالسمع والطاعة لوالي رسول اللَّه ﷺ باذان، وأبنائه من بعده، فيروز وإخوانه.

وبين رستم ويزدجرد (اللذين قررا إبادة العرب مع دينهم الجديد).

فهو اليوم يرى العرب كلها قحطان وعدنان، يدينون بدين اللَّه ﷻ، هذه الوحدة التي لم يرها في حياته وهو الذي عجز عن تحقيقها مع خاله عمرو بن معديكرب، وأمضيا عمرهما صراعًا على النفوذ والسلطة. وهذا قيس الذي وُلِد من جديد، وانضم لجيش العرب والمسلمين بجوار خاله عمرو بن معديكرب، وهما يتلقيان عقوبة خروجهما على الإسلام، فلا يوضعان في موضع القيادة، لكن يتاح لهما شرف الجهاد في سبيل اللَّه بكل طاقاتهما العسكرية وخبرتهما الحربية.

حق له حين أذعن للَّه أن تكون هذه خطبته، وهو أخبر الناس بالواقع العربي الجاهلي الذي عاشه، حقَّ له أن يقف خطيبًا معلنًا: (يا معشر العرب إن اللَّه قد منَّ عليكم بالإسلام، وأكرمكم بمحمد ﷺ، فأصبحتم بنعمته إخوانا، دعوتكم واحدة، وأمركم واحد).

أو ليس هذا الجيش بقياداته واشتراك العرب عن بكرة أبيهم فيه دليل على عظمة هذا الدين؟ وحقَّ له أن يعرض الصفحة السوداء العفنة التي عاشها، وقد أمضى عمره كله فيها. (... بعد إذ أنتم يعدو بعضكم على بعض عَدْوَ الأُسْد، ويختطف بعضكم بعضًا اختطاف الذئاب) وحقَّ لهذا المجرب الحكيم والزعيم الفذّ، أن يقدم خبرة عمره

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٩٧).

(٢) سبق تخريجه (ص ٧٨) من هذا المجلد.

لقومه من أهل اليمن وغيرهم، أن يذكرهم بأن يكون تحركهم للَّه، وغضبتهم للَّه، ونصرهم للَّه (... فانصروا اللَّه ينصركم، وتنجّزوا من اللَّه فتح فارس) [١].

لقد مضى إلى الشام ورأى بأم عينه، كيف فتحت الشام خزائنها للمسلمين، وفتحت القصور الحمر، والحصون الحمر، أمام حزب اللَّه العربي الجديد، لقد جاء وافدًا من هناك، وناقلًا إنجاز موعود اللَّه لعبيده بالشام. (... فإن إخوانكم من أهل الشام قد أنجز اللَّه لهم فتح الشام، وانتثال القصور الحمر، والحصون الحمر).

وعمرو بن معديكرب يحول كلام قيس إلى فِعال:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن عبد اللَّه بن المغيرة العبدي عن الأسود بن قيس عن أشياخ لهم شهدوا القادسية قالوا: لما كان يوم عماس قال عمرو بن معديكرب: إني حامل على الفيل ومن حوله - لفيل بإزائهم - فلا تدعوني أكثر من جزر جزور، فإن تأخرتم عني فقدتُمْ أبا ثور، فأنَّى لكم مثل أبي ثور؟ فإن أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف، فحمل فما انثنى حتى ضرب فيهم، وستره الغبار، فقال أصحابه: ما تنتظرون، ما أنتم بخُلَقَاءَ أن تدركوه، وإن فقدتموه فقد المسلمون فارسهم.

فحملوا حملة، فأفرج المشركون عنه بعدما صرعوه وطعنوه، وإن سيفه لفي يده يضاربهم، وقد طُعن فرسه، فلما رأى أصحابَه، وانفرجَ عنه أهلُ فارس، أخذ برجل فرس رجل من أهل فارس فحركه الفارسي، فاضطرب الفرس، فالتفت الفارسي إلى عمرو فهَمّ به وأبصره المسلمون، فغشوه فنزل عنه الفارسي، وحاضر إلى أصحابه، فقال عمرو: أمكنوني من لجامه، فأمكنوه منه فركبه) [٢].

إنه عمرو بن معديكرب فارس العرب وبطلهم وشاعرهم يريد أن يقود قومه إلى الفداء. وعليه أن يعلمهم كيف تكون البطولة، فهو حامل على الفيل ومن بإزائه، وحده. فإما أن يموت وإما أن يزلزل العدو، ومضى وغطاه الغبار ولم يُعد، وهاجت هائجة الفدائيين من المسلمين أيترك فارس العرب والإسلام وحده.

(١، ٢) تاريخ الطبري (٤١٩/٢).

(وإن فقدتموه فقد المسلمون فارسهم).

إن الرجل والبطل الذي يواجه أمةً وحدَه هو أمةٌ وحده. هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعلن إسلامه في أهل مكة، ويَقدِمُ الناسُ ويسيل بهم الوادي (وثاروا إليه. فما برح يقاتلهم ويقاتلونه، حتى قامت الشمس على رؤوسهم. قال: وطَلَحَ (تعب وأعيا) فقَعَدَ. وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف باللّه لو كنا ثلاثمِائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا)[1].. ذاك عُمَر وهذا عَمْرو!!

(فأفرج المشركون عنه بعدما صرعوه وطعنوه، وإن سيفه لفي يده يضاربهم) وصدق ما عاهد اللّه عليه. (فإن أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف). ووجدوا السيف في يده، فلن يتركه وفيه رمق، وإلا فهو مذبوح. (فإن تأخرتم عني فقدْتُمْ أبا ثور، فأنى لكم مثل أبي ثور).

إنه ﷺ لا يكتفي أن يفرج عنه، وهو الفارس المغوار، وقد طُعِنَ فرسُه. فهل يبقى في الساحة دون فرس، لقد أخذ نَفَسًا للحظة واحدة حين رأى المغاوير يدفعون عنه وفي هذه اللحظة الخاطفة. لا بد أن يعود فارسًا. (فأخذ برِجل فرس رجل من أهل فارس، فحركه الفارسي، فاضطرب الفرس). من يمسك برجل الفرس؟ ليس وتدًا حديديًا غاص نصفه في الأرض، وبقي نصفه الآخر فوق الأرض، إنها يد بطل زلزلت الفرس والفارس، فما استطاع الفرس أن يفك قيده من يدي البطل، وما استطاع الفارس أن يثبت على ظهره، فاضطرب ورماه على الأرض وراح يعدو لينجو بنفسه، أما صاحبنا فصرخ: أمكنوني من لجامه، فأمكنوه منه فركبه) وعادت الغارة الإسلامية إلى مواقعها سالمة.

إبطال مفعول سلاح خطير:

إن دور الفيلة في ذلك العصر هو دور السلاح النووي اليوم، فلا يمكن استعماله إلا ويأتي بنصر لمالكه، فالخيل التي هي مدرعات ذلك العصر، يبطل مفعولها بوجود الفيلة، فهل تستسلم الحضارة الإسلامية أمام الحضارة الفارسية وتنهزم؟

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة (ص ٨١).

وكما فعل الحلفاء في القرن الماضي، وأخذوا أسرار الذرة من العلماء الأسرى الألمان، كانت عبقرية الجيل الإسلامي الأول، وعبقرية خال رسول اللَّه ﷺ في القضاء على هذا السلاح الفتاك، وهو القائد العام للمعركة.

لقد بطُل السلاح الأول الذي استعمله المسلمون في اليوم الأول من المعركة، حين قطعوا وضن الفيلة، فاليوم عَرَف الفُرس من أين أُتوا، لقد أتوا من خلفهم؛ فلذلك حشدوا أضخم الحمايات في الخلف حتى لا يصل المسلمون إلى الفيلة، وأحسوا أنهم كانوا على وَشْك أن يخسروا المعركة في اليوم الثاني حين تعطلت الفيلة عن المشاركة في المعركة، وكسرت توابيتها، وأمضوا اليوم الثاني في إصلاح ما أفسده المسلمون، لكنهم اليوم جاؤوا بتعبئة جديدة.

(وأقبلت الفيلة معها الرجالة يحمونها أن تقطع وضنها، ومع الرجالة فرسان يحمونهم إذا أرادوا كتيبة دلفوا بفيل وأتباعه لينفِّروا بهم خيلهم، فلم يكن ذلك منهم كما كان بالأمس، لأن الفيل إذا كان وحده ليس معه أحد كان أوحش، وإذا أطافوا به كان آنس، فكان القتال كذلك حتى عدل النهار، وكان يوم عماس من أوله إلى آخره شديدًا على العرب والعجم على السواء، ولا يكون بينهم نقطة إلا تعاورها الرجال بالأصوات حتى تبلغ يزدجرد، فبعث إليهم أهل النجدات ويقوون بهم، وأصبحت عنده للَّذي لقي بالأمس الأمداد على البرُد، فلولا الذي صنع اللَّه للمسلمين بالذي ألهم القعقاع في اليومين وأتاح لهم بهاشم، كسر ذلك المسلمين)[(١)].

سعد يعد لإبطال سلاح الفيلة:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد قالوا: ولما رأى سعد الفيلة تفرق بين الكتائب، وعادت لفعلها يوم أرماث، أرسل إلى أولئك المسلمة: ضخم، ومسلم، ورافع، وعشنَّق؛ وأصحابهم من الفرس الذين أسلموا، فدخلوا عليه، فسألهم عن الفيلة: هل لها مَقَاتِل، فقالوا: نعم؛ المشافر والعيون لا ينتفع بها بعدها)[(٢)].

---

(١) تاريخ الطبري (٤١٨/٢).

(٢) تاريخ الطبري (٤٢٠/٢).

إيه يا سعد يا من كنت بطل أحد، وتهيأت لتكون بطل الخندق، لكن الأمر اليوم يختلف، فقد جاء العدو بعشرة آلاف مقاتل: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

وها هو سعد يستعيد الخندق بكل جوارحه، ويذكر ما فعله قائده عليه الصلاة والسلام حين ادلهم الخَطب.

(وأما ما كان من أمر سيدنا رسول اللَّه ﷺ، فإن خزاعة عندما تهيأت قريش للخروج أتى ركبهم رسول اللَّه ﷺ في أربع ليالٍ حتى أخبروه، فندب الناس، وأخبرهم خبر عدوهم، وشاورهم في أمرهم، أيبرز من المدينة أم يكون فيها. ويحاربهم عليها وفي طرقها؟ فأشار سلمان ﵁ بالخندق وقال: يا رسول اللَّه إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا، فأعجبهم ذلك، وأحبوا الثبات في المدينة، وأمرهم رسول اللَّه ﷺ بالجد ووعدهم بالنصر إذا هم صبروا واتقوا، وأمرهم بالطاعة، ولم تكن العرب تخندق عليها)[1].

فإذا كانت الخبرة الفارسية المسلمة قد حمت المدينة، وردَّت الأعداء على أعقابهم خاسئين فلم لا تستدعى الخبرة الفارسية المسلمة اليوم لتعلم المسلمين كيف يتقون شرّ الفيلة، وينهون وجودها في الحرب؟

إنه القائد العظيم المجرب، والذي تربَّى في مدرسة النبوة، يستدعي الخبرة الفارسية المسلمة لتعطيه السلاح الفاتك بالسلاح الفاتك في كلمة واحدة. (... نعم؛ المشافر والعيون لا يُنتفع بها بعدها).

وانتهت الاستشارة، وبدأت عملية التنفيذ، فاستدعى أركانَ حربه، وقائدَ سلاح المغاوير، القعقاعَ بنَ عمرو وعاصم بن عمرو الأخوين التميميَّين، وحَمَّال والربيل الأسديَّين.

عاصم بن عمرو هو الذي نفذ الخطة السابقة في قطع وَضَنِ الفيلة، وأنهى مفعولها في اليوم الأول، وها هو القعقاع ﵁ مع البطلين الأسديَّيْن يكلفون بالمهمة. (فأرسل إلى القعقاع بن عمرو وعاصم بن عمرو:

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٤/٥١٤).

اكفياني الأبيض وكانت كلها آلفة له، وأرسل إلى حمَّال والربيل، فقال: اكفياني الفيل الأجرب، وكانت آلفة له كلها، وكان بإزائهما) [١].

أبطال جائزة عمر يبطلون مفعول الفيلة:

(فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمين لينين ودبًّا في خيل ورَجْلٍ فقالا: اكتنفوه لتخيروه، وهما مع القوم، ففعل حمَّال والربيل مثل ذلك، فلما خالطوهما اكتنفوهما، فنظر كل منهما يمنة ويسرة، وهما يريدان أن يتخبطا، فحمل القعقاع وعاصم، والفيل متشاغل بمن حوله، فوضعا رمحيهما معًا في عيني الفيل الأبيض، وقبع ونفض رأسه، فطرح سائسه، ودلى مشفره، فضربه القعقاع فرمى به، ووقع لجنبه، فقتلوا من كان عليه، وحمل حمَّال وقال للربيل: اختر إما أن تضرب المشفر وأطعن في عينه، أو تطعن في عينه وأضرب مشفره. فاختار الضرب، فحمل عليه حمال، وهو متشاغل بملاحظة من اكتنفه، لا يخاف سائسه إلا على بطانه، فانفرد به أولئك، فطعنه في عينه، فأقعى، ثم استوى، ونفحه الربيل، فأبان مشفره، وبصر به سائسه، فبقر أنفه وجبينه بفأسه) [٢].

وتأتينا الرواية الثانية عن الشعبي بسند سيف:

(قال رجلان من بني أسد، يقال لهما الربيل وحمَّال: يا معشر المسلمين، أي الموت أشد؟ قالوا: أن يشد على هذا الفيل. فَنَزَقَا فَرَسَيْهِما حتى إذا قاما على السنابك ضرباهما على الفيل الذي بإزائهما، فطعن أحدهما في عين الفيل، فوطئ الفيلُ من خلفه، وضرب الآخر مشفره، فضربه سائس الفيل ضربة شائنة بالطبرزين في وجهه فأفلت منها الربيل، وحمل القعقاع وأخوه على الفيل الذي بإزائهما ففقآ عينه، وقطعا مشفره، فبقي متلددًا بين الصفين، كلما أتى صف المسلمين وخزوه وإذا أتى صف المشركين نخسوه) [٣].

ورواية ثالثة عن الشعبي قال: (كان في الفيلة فيلان يعلمان الفيلة، فلما كان يوم القادسية حملوهما على القلب، فأمر بهما سعد القعقاع وعاصمًا التميميين، وحمّالًا والرِّبيل الأسديين، فذكر مثل الأول إلا أن فيه: وعاش بعد.

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٢/٤٢٠).

وصاح الفيلان صياح الخنزير، ثم ولَّى الأجرب الذي عُوِّرَ، فوثب في العتيق، فاتبعته الفيلة، فخرقت صف الأعاجم، فعبرت العتيق في أثره، فأتَتِ المدائن في توابيتها، وهلك من فيها) [(١)].

لقد قدَّم ضخم ومسلم ورافع وعشنق، أسرار سلاح الفيلة لقائد الجيش المسلم، فأنهوا مفعولها. وفعل هؤلاء الأربعة الآخرون ما فعله علي ﷺ بعمرو بن عبد وُدّ.

ولا نبالغ حين نقول أن هؤلاء غيروا وجه التاريخ!!!

ونعيد إلى الذاكرة أبطال الجائزة:

(وقدم ذلك اليوم رسول لعمر بأربعة أسياف وأربعة أفراس يقسمها فيمن انتهى إليه البلاء إن كنت لقيت حربًا، فدعا حمّال بن مالك والربيل بن عمرو الوالبيين، وطليحة بن خويلد الفقعسي وكلهم من بني أسد، وعاصم بن عمرو التميمي، فأعطاهم الأسياف، ودعا القعقاع بن عمرو واليربوعيين فحملهم على الأفراس، فأصاب ثلاثة من بني يربوع (التميميون) ثلاثة أرباعها، وأصاب ثلاث من بني أسد ثلاثة أرباع السيوف) [(٢)].

شبر بن علقمة، ابن مسعود آخر:

ولكل رجل من مسماه نصيب فهو في الإيمان جبل، وفي الطول بضعة أشبار.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن عبد اللّٰه بن المغيرة العبدي عن الأسود بن قيس، عن أشياخ لهم شهدوا القادسية، قالوا: لما كان يوم عِماس خرج رجل من العجم، حتى إذا كان بين الصفين، هدر وشقشق ونادى: من يبارز؟ فخرج رجل منّا يقال له شَبْر بن علقمة، وكان قصيرًا قليلًا دميمًا، فقال: يا معشر المسلمين قد أنصفكم الرجل، فلم يجبه أحد، ولم يخرج إليه أحد، فقال: أما واللّٰه لولا أن تزدروني لخرجت إليه.

فلما رأى أنه لا يُمنع أخَذ سيفه وجحفته، وتقدم.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٢٠).

(٢) المصدر نفسه (٢/٤١٤).

فلما رآه الفارسي هدر، ثم نزل إليه فاحتمله، فجلس على صدره، ثم أخذ سيفه ليذبحه ومِقوَدُ فرسه مشدود بمنطقته).

ترى هل هو مِقوَدُ الفرس أودى به أم مِقود التاريخ، التوى عنانُه؟

(فلما استل السيف حاص الفَرَسُ حيصة، فجذبه المِقود، فقلبه عنه، فأقبل عليه وهو يسحب، فافترشه، فجعل أصحابه يصيحون به، فقال: صيحوا ما بدا لكم، فواللَّه لا أفارقه حتى أقتله وأسلبه. فذبحه وسلبه.

ثم أتى به سعدًا، فقال: إذا كان حينُ الظهر فائتني. فوافاه بالسلب، فحمد اللَّه سعدٌ وأثنى عليه ثم قال: إني قد رأيت أن أنحلَه (أهَبَهُ) إياه، وكل من سلب سلبًا فهو له. فباعه باثني عشر ألفًا)[1].

ترى تتزاحم الصور من الجيل الذي يتكرر، أهو أبو قتادة، أو علي بن أبي طالب أسد اللَّه الغالب، أو عبد اللَّه بن مسعود الذي وصى رسول اللَّه ﷺ بالاقتداء به.

وتختار صورة ابن مسعود، الذي كان في طول شبر بن علقمة، والذي كان من المستضعفين في الأرض إلا أن الله أمكنه من قتل أبي جهل فرعون هذه الأمة.

روى ابن عائذ عن قتادة أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **إن لكل أمة فرعونًا، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل، قتله اللَّهُ شرَّ قِتلة، قتله ابنا عفراء، وقتلته الملائكة، وتدافه (أي أجهز عليه) ابن مسعود** »[2].

لقد كان **المثل الأعلى الأول للمسلمين**، طالوت وأصحابه، يوم هزم اللَّه - تعالى - جالوت وجنوده وهم الفئة الأكثر: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وكتبوا **ملحمة التاريخ ثانية في جيل النبوة**، وقتل معاذ ومعوذ ابنا عفراء، وعبد اللَّه

---

(١) تاريخ الطبري (٤١٩/٢).

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٧٩/٣، ٨٠).

ابن مسعود أبا جهل. ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وكان **السطر الثالث في اليرموك مع** الروم، حيث غُلِبَتِ الروم في أدنى الأرض على أيدي المسلمين، وهم من بعد غلبهم لا يَغْلِبُون.

وهذا **السطر الرابع يخطه المسلمون بدمائهم على أبواب المدائن،** يُساهم فيه ابن مسعود القادسي شبر بن علقمة، ويذبح البطلَ الذي تحدى المسلمين، وطلب المبارزة، فما برز له إلاه: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

وكان الالتحام.. برز الإسلام كله للكفر كله:

(... كان اليوم الثالث يوم عماس، ولم يكن في أيام القادسية مثله، خرج الناس منه على السواء كلهم على ما أصابه كان صابرًا، وكلما بلغ منهم المسلمون، بلغ الكافرون من المسلمين مثلَه، وكلما بلغ الكافرون من المسلمين بلغ المسلمون من الكافرين مثلَه)(١).

انتهت البطولات الفردية، وزحف الفريقان على بعض، ولكن يا للهول مائة وعشرون ألفًا من الكفار على ستة وثلاثين ألفًا من المسلمين، ولم يعد أحد من كلا الجيشين متفرجًا على بطولات الأبطال، فإما الحياة وإما الموت: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١].

ولم يكن لتعطيل سلاح الفيلة ليمر دون إعلان، كما أعلنه قائد العملية القعقاع ابن عمرو:

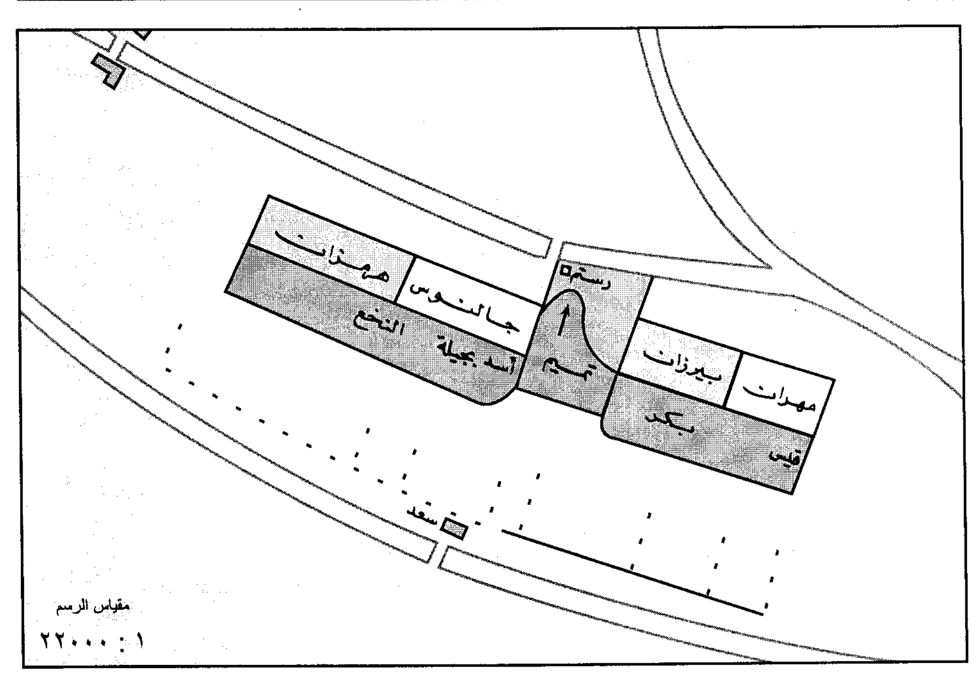
---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٢٠).

(حَضَّضَ قومِي مَضْرِجِيُّ بن يعمرُ فللَّه قَوْمِي حينَ هَزُّوا العَوَاليا
وما خامَ عَنْهَا يومَ سَارَتْ جُمُوعُنا لأَهْلِ قُدَيْسٍ يَمْنَعُونَ المواليَا
فإنْ كُنتُ قَاتَلْتُ العَدُوَّ فَلَلْتُه فإني لألْقَى في الحروبِ الدَّوَاهِيَا
فُيولًا أراها كالليوثِ مُغِيْرةً أُسَمِّل أعيانًا لَها ومآقِيا) [1]

* * *
* *
*

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٢٠).



يوم عماس – القادسية (٧)

(نقلاً عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٧١) خريطة (٤٠))

الفصل الثالث عشر

ليلة الهرير

لماذا استمرت المعركة في الليل؟

فالفريقان قد أُنهَكَا من القتال عامة النهار، وكيف استطاعوا أن يديروا الحرب طيلة الليل دون أن يتغلب فريق على آخر، هذا ما نشهده في الأسباب المباشرة لذلك.

سرية طليحة وعمرو:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف، عن عمرو بن محمد ابن قيس، عن عبد اللّه بن جيش: أن سعدًا بعث ليلة الهرير طليحة وعَمْرًا إلى مخاضة أسفل من العسكر ليقوما عليها خشية أن يأتيه القوم منها، وقال لهما:

إن وجدتما القوم قد سبقوكم إليها فانزلا بحيالهم، وإن لم تجداهم علموا بها، فأقيما حتى يأتيكما أمري - وكان عمر قد عهد إلى سعد ألا يولي رؤساء أهل الردة على مائة - فلما انتهيا إلى المخاضة فلم يريا أحدًا قال طليحة: لو خضنا فأتينا الأعاجم من خلفهم، فقال عمرو: لا، بل نعبر أسفل، فقال طليحة: إن الذي أقوله أنفع للناس، فقال عمرو: إنك تدعوني إلى ما لا أطيق، فافترقا.

فأخذ طليحة نحو العسكر من وراء العتيق وحده، وسفل عمرو بأصحابهما جميعًا، فأغاروا وثارت بهم الأعاجم، وخشي سعد منهما الذي كان، فبعث قيس ابن المكشوح في آثارهما في سبعين رجلًا، وكان من أولئك الرؤساء الذين نُهِيَ عنهم أن يوليهم المائة، وقال: إن لحقتهم فأنت عليهم، فخرج نحوهم، فلما كان عند المخاضة، وجد القوم يكردون عمرًا وأصحابه فنهنه الناس عنه، وأقبل قيس على عمرو يلومه، فتلاحيا، فقال أصحابه: إنه قد أُمِّر عليك، فسكت، فقال: يتأمر عليَّ رجل قد قاتلته في الجاهلية عُمْرَ رَجُل، فرجع إلى العسكر.

وأقبل طليحة حتى إذا كان بحيال العسكر، كبر ثلاث تكبيرات ثم ذهب، فطلبه القوم فلم يدروا أين سلك، وسفل حتى خاض، ثم أقبل إلى العسكر، فأتى سعدًا

فأخبره فاشتد ذلك على المشركين، وفرح المسلمون وما يدرون ما هو) (١).

هذان العملاقان اللذان انضما إلى الإيمان بعد الكفر، أصبحا من رجال المهمات الصعبة عند سعد ﷺ، فالأوامر مشددة من المدينة أن لا توكل لهما أي قيادة في الجيش فوق المائة، لأنهما من المرتدين. وعندهما طاقات هائلة لا يملكها غيرهما، فكان يوكل إليهما ما يوكل لفرقة كاملة من الجيش.

فقد كان سعد ﷺ يشغل باله تلك المخاضة أسفل المعسكر، ويخشى من هذه الثغرة أن يؤتى من العدو، والجيش الآن مشتبك في صراعه مع الفرس، فليأخذ فرقة من هذا الجيش لسد هذه الثغرة، وكانت الفرقة طليحة وعمرًا، وكان أمره واضحًا ومحددًا، فهما أمام خيارين:

- إن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها فانزلا بحيالهم.
- وإن لم تجداهم علموا بها، فأقيما حتى يأتيكما أمري.

ولْنَعُدْ قبل أن نتابع الحديث إلى الوراء قليلًا بضع سنوات، وحين كان سعد ﷺ جنديًا في الجيش النبوي. (روى محمد بن عمر عن عائشة ﷺ قالت: كان رسول اللَّه ﷺ يختلف إلى ثلمة في الخندق يحرسها، حتى إذا آذاه البرد جاءني فأدفأته في حضني، فإذا دَفِئ خرج إلى تلك الثلمة، ويقول: « **ما أخشى أن يؤتى الناس إلا منها** ». فبينما رسول اللَّه ﷺ في حِضني قد دفِئ وهو يقول: « **ليت رجلًا صالحًا يحرس هذه الثلمة الليلة** ». فسمع صوت السلاح، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **من هذا؟** » فقال سعد بن أبي وقاص: سعد يا رسول اللَّه، فقال: « **عليك هذه الثلمة فاحرسها** ». قالت: فنام رسول اللَّه ﷺ حتى سمعت غطيطه) (٢).

إنه تربى في مدرسة النبوة هذه، وقد رأى قائده - عليه الصلاة والسلام - لا يستطيع النوم خشية أن يأتي العدو من هذه الثغرة، فكان - عليه الصلاة والسلام - يقوم بحراستها، فإذا آذاه البرد رجع، وعندما تمنى أن يوجد من يحرس هذه الثلمة فإذا قعقعة السلاح، وسعد الجندي على أتم الجاهزية لتنفيذ الأوامر، فوجهه إلى حراسة تلك الثلمة.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٢١/٢).

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٥٢٩/٤).

وهذه المخاضة اليوم هي ثلمة كثلمة الخندق، فكيف ينام والعدو قد ينفذ منها، فاختار عمرًا وطليحة ، ليسدا هذه الثغرة ويحرساها.

لكننا أمام جنديين لم يتقنا بعد فن الجندية، فقد عاشا قادة طيلة عمرهما في الجاهلية، فلم يتوقفا عند الأمرين المحددين، واختار كلاهما أن ينصر الإسلام بالصيغة التي تناسبه، ولم يتوقفا عند المخاضة. أما طليحة، فقد اختار أن يفاجئ العدو وحده من خلف المخاضة، ويعلن الإسلام من قلب معسكر الشرك، وأما عمرو فقد اختار ملاقاة العدو من أسفل المخاضة. (وخشي سعد منهما الذي كان، فبعث قيس ابن المكشوح في آثارهما في سبعين رجلًا، وكان من أولئك الرؤساء الذين نُهِيَ عنهم أن يوليهم المائة، وقال: إن لحقتهم فأنت عليهم. فخرج نحوهم، فلمّا كان عند المخاضة، وجد القوم يكردون عمرًا وأصحابَهُ، فنهنه الناس عنه، وأقبل قيس على عمرو يلومه، فتلاحيا، فقال أصحابه: إنه قد أُمِّر عليك، فسكت وقال: يتأمر عليَّ رجل قد قاتلته في الجاهلية عمر رجل، فرجع إلى العسكر...) [١].

لقد أمضى الزعيمان عمرهما في صراع، ابتدأ مُنذُ بروزهما على مسرح القيادة. (وكان قيس فارسًا شجاعًا، وهو ابن أخت عمرو بن معديكرب، وكانا متباعدين، وكان ممن ارتد عن الإسلام باليمن، وقتل داذويه الفارسي) [٢]، فقد اختلفا حتى على الإسلام. (... وكان عمرو قد قال لقيس بن مكشوح المرادي حين انتهى إليهم أمر رسول الله ﷺ: يا قيس، إنك سيد قومك، وقد ذكر لنا أن رجلًا من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول أنه نبي، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبيًّا كما يقول فإنه لن يخفى عليك، وإذا لقيناه اتبعناه، وإن كان غير ذلك علمنا علمه. فأبى عليه وسفه رأيه، فركب عمرو بن معديكرب حتى قدم على رسول الله ﷺ، فأسلم، وصدَّقه وآمن به، فلما بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد عمرًا، وتحطم عليه، وقال: خالفني وترك رأيي...) [٣].

وانتهى الأمر بينهما إلى التهديد والوعيد بالقتل.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٢١/٢).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، ت (٧٥٤٣)، مجلد واحد.

(٣) السيرة النبوة لابن هشام (١٧٧/٤)، مجلد واحد.

(... فقال عمرو بن معديكرب:

أَمَرتُكَ يومَ ذي صنعا ء أمرًا باديًا رَشَدُه
أمرتُكَ باتقاء اللّـ ـهِ والمعروفِ تتَّعدُه
خرجَتَ من المُنى مثل الـ ـحُمَيّرِ غرَّه وِتدُه
تمنَّاني على فرَسٍ عليه جالسًا أَسَدُه
فلو لاقيتني لَلَقِيـ ـتَ ليثًا فوقَهُ لِبَدُه) [١]

وها هو الإسلام اليوم يجمع بينهما في ليلة الهرير، وكل واحد زعيم في قومه، ويرسل سعد بن أبي قواص قيسَ بن مكشوح مددًا لعمرو وطليحة، ويضعه أميرًا عليهما، فيشرق عمرو بريقه قائلًا في غيظ دفين: (يتأمر عليَّ رجل قد قاتلتُه في الجاهلية عُمْر رجل؟).

ولو كان الأمر في الجاهلية لبدأ الطعان والضرب، حتى يفني أحدهما الآخر، أما اليوم، فقد انتهت دولة القبيلة، وقامت دولة الإسلام، فلم يفعل أكثر من أن بثَّ غيظه (فرجع إلى العسكر). هؤلاء الثلاثة طليحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب وقيس بن مكشوح يحمل كل واحد منهم تاريخ الجاهلية كله، ويعرف عمر ﷺ ذلك ويقول لسعد: (أمددتك بألفي رجل عمرو بن معديكرب وطليحة بن خويلد) [٢]، وقد رأينا ما فعل عمرو، فماذا فعل طليحة؟

ويدرك سعد ﷺ أن هذين القائدين لا بد أن يتجاوزا، ولن يستطيع جنودهما أن يكونوا على مستوى مغامراتهما، فاستدرك الأمر، وأرسل عملاق الكفر الثالث والذي انضم إلى الإسلام بعد حرب ضروس معه، وهو قيس بن مكشوح. (وخشي سعد منهما الذي كان، فبعث قيس بن مكشوح في آثارهما في سبعين رجلًا، وكان من أولئك الرؤساء الذي نُهِي عنهم أن يوليهم المائة) [٣].

أما طليحة فهو الذي أعاد الروح للجيش المنهك في عتمة الليل البهيم، لقد سمع الجيش الإسلامي التكبير من قلب جيش العدو أو من خلفه، كما في الرواية الثامنة لسيف.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١٧٧/٤)، مجلد واحد.

(٢) الإصابة، ت (٦٨٦٩). (٣) تاريخ الطبري (٤٢١/٢).

(بعث سعد طليحة في حاجة فتركها، وعبر العتيق، فدار إلى عسكر القوم، حتى إذا وقف على ردم النهر كبَّر ثلاث تكبيرات، فراع أهل فارس، وتعجب المسلمون، وجددوا تعبية، وأخذوا في أمرٍ لم يكونوا عليه في الأيام الثلاثة، والمسلمون على تعبيتهم)[١]. إننا نجد هنا جواب استئناف الحرب في الليل، فلقد كان لهذه التكبيرات من جهة العدو، أثر حرَّك مشاعر الإيمان في القلوب، ورأوا أن هذا مددًا من السماء يدعوهم إلى متابعة الجهاد، ومقارعة العدو، وأنزلت هذه التكبيرات من جهة ثانية الرعب في قلوب العدو.

وأراد أبطال المسلمين أن يوقفوا الالتحام، ويتحركوا من خلال الأبطال، ومطاردة الفرسان. فـ (خرج مسعود بن مالك الأسدي، وعاصم بن عمرو التميمي وابن ذي البردين الهلالي، وابن ذي السهمين، وقيس بن هبيرة الأسدي، وأشباههم، فطاردوا القوم، وانبعثوا للقتال فإذا القومُ لَمة لا يشدون)[٢].

فقد غير رستم خطته، وقرر أن يقوم بزحفه الأخير لينهي المسلمين، فلا جدوى من المطاردة والمبارزة بين الأبطال، لقد كانت كلها تنتهي لصالح المسلمين، وتنزل الرعب في قلوب الجيش؛ فليعتمد كثرة العدد، التي هي أضعاف أضعاف جيش المسلمين، ولينْهِ المعركة بهذا الزحف.

(فإذا القوم لَـمَّةٌ لا يشدون، ولا يريدون غير الزحف، فقدموا صفًّا له أذنان، وأتبعوا آخر مثله، وآخر وآخر حتى تمت صفوفهم ثلاثة عشر صفًا في القلب والمجنبتين كذلك).

فلما أقدم عليهم فرسان العسكر راموهم فلم يعطفهم ذلك عن ركوبهم؛ ثم لحقت بالفرسان الكتائب، فأصيب ليلتئذٍ خالد بن يعمر التميمي، ثم العمري، فحمل القعقاع على ناحيته التي رمى بها مزدلفًا، فقاموا على ساق)[٣]. فقال القعقاع:

سقى اللّهُ يا خوصَاءَ قَبْرَ ابنِ يَعْمُرِ ... إذا ارتحلَ السُّفَارُ لَمْ يَتَرَحَّلِ
سَقَى اللّهُ أرضًا حَلَّهَا قبرُ خالدٍ ... ذِهَابَ غَوَادٍ مُدْجِنَاتٍ تُجَلْجِلِ
فأقْسَمْتُ لا يَنْفَكُّ سَيْفِي يَحُسُّهُم ... فَإنْ رحَلَ الأقوامُ لم أترَحَّلِ[٤]

لقد هاجت مشاعر القعقاع لمقتل خالد بن يعمر التميمي، ولا بد من الثأر له،

(١ – ٣) تاريخ الطبري (٢/٤٢١).
(٤) المصدر نفسه (٢/٤٢٢).

وسعد في قلب المعركة لم يصدر أوامره بعد بالزحف، ولم يعلن تكبيراته لبدء معركة الليل.

الزعيم الأول: القعقاع يزحف دون إذن سعد:

(فزاحفهم والناس على راياتهم بغير إذن سعد، فقال سعد: اللهم اغفر له، وانصره فقد أذنت له إذ لم يستأذني. والمسلمون على مواقفهم إلا من تَكَتَّب أو طاردهم وهم ثلاثة صفوف:

فصَفٌّ فيه الرجالة أصحاب الرماح والسيوف.

وصفٌّ فيه المرامية.

وصفٌّ فيه الخيول وهم أمام الرجالة، وكذلك الميمنة، وكذلك الميسرة.

وقال سعد: إن الأمر الذي صنع القعقاع، فإذا كبرت ثلاثًا فازحفوا، فكبر تكبيرة فتهيؤوا، ورأى الناس كلهم مثل الذي رأى والرحى تدور على القعقاع ومن معه.

القيادات تحض الجيش على المواجهة والزحف:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف... قال: وقام قيس ابن هبيرة المرادي فيمن يليه، ولم يشهد شيئًا من لياليها إلا تلك الليلة، فقال: إن عدوكم قد أبى إلا المزاحفة، والرأي رأي أميركم، وليس بأن تحمل الخيل ليس معها الرجالة، فإن القوم إذا زحفوا وطاردهم عدوهم على الخيل لا رجال معهم عقروا بهم، ولم يطيقوا أن يقدموا عليهم، فتيسروا للحملة، فتيسروا وانتظروا التكبيرة، وموافقة حمل الناس، وإن نشاب الأعاجم لتجوز صف المسلمين) [1].

وحفاظًا على القعقاع وإكرامًا له لم يتردد سعد ﷺ في النزول على رأيه، ودفع الجيش كله للمواجهة قائلًا: (إن الأمر الذي صنع القعقاع).

لكن نظام الجيش والقيادة يبقى النظام، فالتكبيرات من القائد سعد هي التي تحدد ابتداء الزحف، ولو كان القعقاع قد بدأ الالتحام مع العدو.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٢٢).

الزعيم الثاني: دريد بن كعب النخعي:

(وقال دريد بن كعب النخعي، وكان معه لواء النخع:

إن المسلمين تهيؤوا للمزاحفة، فاسبقوا المسلمين الليلة إلى اللّه والجهاد، فإنه لا يسبق الليلة أحد إلا كان ثوابه على قدر سبقه، نافسوهم في الشهادة، وطيبوا بالموت نفسًا، فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة، وإلا فالآخرة أردتم) [١].

ولعل النخع صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه، ومضوا شهداء إلى ربهم، فقد أسفرت المعركة عن سبعمائة أرملة للشهداء، فكانوا أكثر العرب إماء وثيّبًا، فسابقت النساء إلى الجيل الأول من المهاجرين وصاهر النخع المهاجرين ﷺ.

الزعيم الثالث: الأشعث بن قيس سيد كندة:

(السري عن شعيب عن سيف عن الأجلح: قال: قال الأشعث بن قيس: يا معشر العرب إنه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت منكم، ولا أسخى أنفسًا عن الدنيا، تنافسوا الأزواج والأولاد ولا تجزعوا من القتل. فإنه أماني الكرام، ومنايا الشهداء، وترجل) [٢].

الزعيم الرابع: حنظلة بن الربيع - وأمراء الأعشار:

(السري عن شعيب عن سيف عن عمرو بن محمد قال: قال حنظلة بن الربيع، وأمراء الأعشار: ترجلوا أيها الناس، وافعلوا كما نفعل، ولا تجزعوا مما لا بد منه، فالصبر أنجى من الفزع.

وفعل **طليحة وغالب وحمال وأهل النجدات** من جميع القبائل مثل ذلك) [٣].

الناس يسرعون إلى الموت أثناء التكبيرات:

(السري عن شعيب عن سيف عن عمرو والنضر بن السري: قالا: ونزل ضرار ابن الخطاب القرشي، وتتابع على التسرع إليهم الناس كلهم فيها بين تكبيرات سعد حين استبطؤوه، فلما كبر الثانية حمل عاصم بن عمرو التميمي حتى انضم إلى القعقاع.

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٢/٤٢٢).

وحملت النخع، وعصى الناس كلُّهم سعدًا، فلم ينتظر الثالثة إلا الرؤساء، فلما كبر الثالثة زحفوا فلحقوا بأصحابهم، وخالطوا القوم، فاستقبلوا الليل استقبالًا بعدما صلّوا العشاء) [١].

وسعد أسعد الناس باندفاع الناس إلى الموت والشهادة، وأسعد الناس بهذه المعصية ولا أدل على ذلك من أنه كان يغفرها لكل مترامٍ على الموت والشهادة، من قبائل المسلمين الكبار.

حَمل الناس ليلة الهرير عامة، ولم ينتظروا بالحملة سعدًا:

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن الوليد بن عبد اللّه ابن أبي طيبة عن أبيه قال: حمل الناس ليلة الهرير عامة، ولم ينتظروا بالحملة سعدًا، وكان أول من حمل القعقاع. فقال: اللهم اغفرها له وانصره، وقال: وا تميماه سائر الليلة، ثم قال:

أرى الأمر ما فيه هذا، فإن كبرت ثلاثًا فاحملوا.

- فكبر واحدة فلحقتهم أسد، فقيل: قد حملت أسد، فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم وا أسداه سائر الليلة.

- ثم قيل: حملت النخع، فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم، وا نخعاه سائر الليلة.

- ثم قيل: حملت بجيلة، فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم، وا بجبيلتاه.

- ثم حملت الكنود، فقيل: حملت كندة، فقال: وا كندتاه.

- ثم زحفت الرؤساء بمن انتظر التكبيرة.

فقامت حربهم على ساق حتى الصباح، فذلك ليلة الهرير) [٢].

إنها ليلة الجيش كله:

لقد ابتدأت الحرب منذ الصباح.

(فلما ذهبت الفيلة، وخلص المسلمون بأهل فارس، ومال الظل، تزاحف

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٢٢).

(٢) المصدر نفسه (٢/٤٢٣).

المسلمون، وحماهم فرسانهم الذين قاتلوا أول النهار، فاجتلدوا بها حتى أمسوا على حرْد، وهم في ذلك على السواء، لأن المسلمين حين فعلوا بالفيول ما فعلوا، تكتبت كتائب الإبل المجحفة، فعرقبوا فيها وكفكفوا عنها) [١].

كان هذا من أول النهار، وجاء المساء. ولم يتغير من المعركة شيء، فكل فريق يضع هدفًا عنده أن يكون هو الصابر وهو الظافر.

(لما أمسى الناس من يومهم ذلك، وطعنوا في الليل، اشتد القتال، وصبر الفريقان فخرَجا على السواء إلا الغمائم من هؤلاء وهؤلاء، فسميت ليلة الهرير، ولم يكن قتال بليل بعدها بالقادسية) [٢].

إنه قتال لا يوفر أحدًا، فإما أن يَقتل، وإما أن يُقتل، وكما وصفهم القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

لقد قامت سوق الجنة، وتتابع المؤمنون الصادقون الذين صدقوا ما بايعوا اللَّه عليه، اتصل ليلهم بنهارهم، لا يسمع صوت إلا صوت قرع السيوف بالسيوف والأسنة بالأسنة، وقائد الجيش قد انقطعت عنه الأخبار.

(فعن مصعب بن سعد قال: بعث سعد في تلك الليلة بجادًا وهو غلام إلى الصف إذ لم يجد رسولًا، فقال: انظر ما ترى من حالهم، فرجع فقال: ما رأيت أي بني؟

قال: رأيتهم يلعبون، قال: أو يجدون؟) [٣].

أليس عجيبًا أن يبقى القائد العظيم وحده في قصره، ولا يجد حوله جنديًّا يبعثه رسولًا إلا غلامًا صبيًّا، كم هذه الأمة تثق بقائدها، وكم هو من الشجاعة والجرأة، يقود الجيش بتكبيراته، ولا يجرؤ عدو أن يقتحم قصره عليه، ومن ذا الذي يقتحم عرين الأسد العادي؟ وأين المسلمون؟ غاطّون في نومهم؟! معاذ اللَّه! إنهم يقاتلون منذ صبيحة النهار حتى عتمة الليل البهيم، وكما وصفهم أحد الشهود للمعركة.

(... عن أنس بن الحليس قال: شهدت ليلة الهرير، فكان صليل الحديد فيها

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٤٢٠/٢).

(٣) تاريخ الطبري (٤٢٣/٢).

كصوت القيون ليلتهم حتى الصباح، أُفرغ عليهم الصبر إفراغًا، وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها، ورأى العرب والعجم أمرًا لم يرَوا مثله قط، وانقطعت الأصوات والأخبار عن رستم وسعد، وأقبل سعد على الدعاء، حتى إذا كان وجه الصبح، انتهى الناس، فاستدل بذلك على أنهم الأعلون وأن الغلبة لهم) [١].

أما ما هو الذي عرفه من أصواتهم بانتصارهم، فهو ما رواه الأعور بن بنان المنقري قال: أول شيء سمعه ليلتئذٍ مما يستدل به على الفتح في نصف الليل الباقي، صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول:

نَحْنُ قَتَلْنَا مَعْشَرًا وزائِدَا أربَعَةً وخَمْسَةً وواحِدَا
تَحْسَبُ فَوْقَ اللُّبْدِ الأساوِدَا حتَّى إذَا ماتُوا دَعَوْتُ جَاهِدا
اللَّهُ ربِّي واحتَرَزْتُ عَامِدًا) [٢]

ألم يقل الصديق أن صوت القعقاع في الجيش يعادل ألف سيف؟ وها هو صوته يبعث الأمل في نَفْس قائدِه حيث كاد ينقطع نَفَسُه بانقطاع أخبار جيشه.

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن عمرو عن الأعور ومحمد عن عمه، والنضر عن ابن الرفيل قالوا: اجتلدوا تلك الليلة من أولها حتى الصباح لا ينطقون، كلامُهم الهرير فسمّيَتْ ليلةَ الهرير) [٣].

كانت هذه ليلة من ليالي التاريخ الخالدة، ثبت فيها العجم كما ثبت فيها العرب، للعجم خبرتُهم وجلدهم وقوة أجسادهم.

ألم يكن سلمان ﷺ هو صاحب الخبرة العسكرية، وهو صاحب القوة الجسدية يوم الخندق؟

لقد رأينا خبرته، فماذا عن قوته؟

(وروى الطبراني بسند لا بأس به عن عمرو بن عوف المزني، أن رسول اللَّه ﷺ خط الخندق من أَجَمِ الشيخين طرف بني حارثة حتى بلغ المذاد، فقطع لكل عشرة أربعين ذراعًا، وتنافس المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي، وكان رجلًا قويًّا، فقال المهاجرون: سلمان منَّا، وقالت الأنصار: سلمان منَّا، فقال رسول اللَّه ﷺ:

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٤٢٣/٢).

« **سلمان منا أهل البيت** ».

وكان سلمان يعمل عمل عشرة رجال...) [١].

وكان العربي يعادل قوة الفارسي بشجاعته، فلم تكن الشجاعة تنقص أمة العرب، فاللَّه أعلم حيث يجعل رسالته، فليس من السهل أن تبني من الرجل الجبان شجاعًا وبطلًا، فقد كانت مؤهلات القيادة موجودة عندهم من الشجاعة والكرم والمروءة، وليس من السهل أن تجعل من لئيم كريمًا فتغير فطرته، لكن من الممكن أن تحول المؤشر والاتجاه من سبيل الشهرة إلى سبيل الآخرة، وذلك من خلال الإيمان بالدين الذي يوافق الفطرة: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

و « **كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه** » [٢].

ومن أجل ذلك عَبَّأ الإسلام العرب تعبئة جديدة، لا بتحويلهم من جبناء إلى شجعان، ولا بتحويلهم من لئام إلى كِرام، ولا بتحويلهم من كاذبين إلى صادقين، إنما بتحويل الهدف فقط، ورفع هذه الطاقة إلى أعلى درجات استيعابها.

فشجاعة العرب لم تدفعهم أن يفكروا بالمساس بدولة الأباطرة أو الأكاسرة، فلم يكن استيعاب الشجاعة آنذاك يحتمل أكثر من الخضوع لهاتين الإمبراطوريتين إنما يحمل الشجاعة على بعضهم في إفناء بعضهم: « ديننا أن يقتل بعضنا بعضًا ».

فهذا ما قاله بطل شيبان في الجاهلية، المثنى بن حارثة صاحب حربهم، وشيخهم المجرب، لرسول اللَّه ﷺ عندما طلب منهم الإجارة، لقد وصفوا شجاعتهم بقولهم:

(إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى، وأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، ونؤثر السلاح على اللقاح، والنصر من عند اللَّه يُدِيلُنا مرّةً ويُديل علينا أخرى) أما سقف هذه الشجاعة، فهي عدم إغضاب فارس أو الروم.

(فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثًا ولا نؤوي محدِثًا، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا العرب مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٤/٥١٤).   (٢) البخاري، ح (١٣٨٥).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٥٧ - ١٥٩).

وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا) [٣] وذاك عمرو بن عبد وُدّ العامري المشرك عندما خرج متحديًا يطلب المبارزة في الخندق، أنشد متحديًا:

ولـقَـدْ بَـحِـحْـتُ مِـنَ الـنِّـدَا	ءِ بِجَمْعِكُم هَلْ مِنْ مُبَارِز
وَوَقَـفْـتُ إِذْ جَـبُنَ المشَـ	ـجِّعُ مَوْقِف القِرْن المناجز
وكـذَاكَ إنِّـي لم أزَلْ	مُـتَـسَـرِّعًـا قـبـلَ الـهَـزَاهِـز
إنَّ الـشَّـجَـاعَـةَ فِي الـفَـتـى	والجودَ مِنْ خَـيْـرِ الـغَـرَائِـز)

فهي أمة تملك مقومات الحياة، لكنها لم تهتد لطريق الحياة، فجاء الإسلام لينير لها الطريق ونعود لكلمة خالد بن الوليد قاهر الفرس والروم، والذي قال: (قاتلْتُ العرب والفرس والروم، فلم أجد أشد من قتال الفرس) [١].

* * *
* *
*

---

(١) الروض الأنف للسهيلي (م ٢)، (٢/٢٧٩).

الفصل الرابع عشر

صبيحة ليلة الهرير: النصر العظيم

كان من الممكن أن تقوم هدنة بين الفريقين، فقد وصلا إلى الذروة من الإنهاك والقتل والجراح والموت، غير أن القيادة الإسلامية، التي مثلها القعقاع، والذي قال عنه الصِّديق: لن يهزم جيش فيه القعقاع، تخطط لإنهاء الحرب، واستغلال ساعة النصر.

(وأصبحوا ليلة القادسية، وهي صبيحة ليلة الهرير، وهي تسمى ليلة القادسية، من بين تلك الأيام والناس حسرى، لم يغمضوا ليلتهم كلها، فسار القعقاع في الناس فقال: إن الدبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا، فإن النصر مع الصبر، فآثروا الصبر على الجزع).

إن الخطة إذن متابعة الحرب، مع نهار اليوم الرابع؛ لأن العدو قد وصل إلى الذروة من الإنهاك: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ... ﴾ [النساء: ١٠٤]. فهذه الآية هي التي ستحسم الموقف، حيث استوى الفريقان ﴿ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ ﴾. وجاء دور الثانية التي يتفوق بها المؤمنون علىالكافرين: ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ ﴾.

وعقد اجتماع رؤساء أركان الحرب، وتم التداول والتشاور في هذا الرأي، واتفقوا على خطة القعقاع دون أن يشذ أحد. وتقتضي الخطة العودة إلى رفع المعنويات ثانية وإعلان استمرار الحرب (فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء، وصمدوا لرستم، حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح) وكان من أهم فقرات الخطة، هو مهاجمة القيادة الفارسية، ومحاولة إنهائها؛ لأن الجيش إنما يثبت بقيادته.

ولا شك أن سعدًا ﷺ قد أحيط علمًا بهذه الخطة، وأقرها كاملة.

التعبئة المعنوية الجديدة:

(ولما رأت ذلك القبائل قام فيها رجال، فقام قيس بن عبد يغوث، والأشعث بن قيس وعمرو بن معديكرب، وابن ذي السهمين الخثعمي، وابن ذي البردين الهلالي، فقالوا:

- لا يكوننَّ هؤلاء أجدَّ في أمر اللَّه منكم.
- ولا يكونن هؤلاء أجرأ على الموت منكم.
- ولا أسخى نفسًا عن الدنيا، تنافسوها.

فحملوا مما يليهم حتى خالطوا الذين بإزائهم) [١].

دور قبائل ربيعة:

(وقام في ربيعة رجال فقالوا: أنتم أعلم الناس بفارس، وأجرؤهم عليهم فيما مضى، فما يمنعكم اليوم أن تكونوا أجرأ مما كنتم بالجرأة؟).

إنهم ربيعة أبطال ذي قار، ورهط المثنى بن حارثة الشيباني، الذين تمرسوا في حرب الفرس، في الجاهلية والإسلام، وخاضوا الحرب مع خالد ﷺ ما ينوف عن العام وهم يحققون الانتصار تلو الانتصار، لم يهزموا في معركة قط، أليسوا هم الأولى والأجدر أن يكونوا كتيبة الإسلام اليوم؟

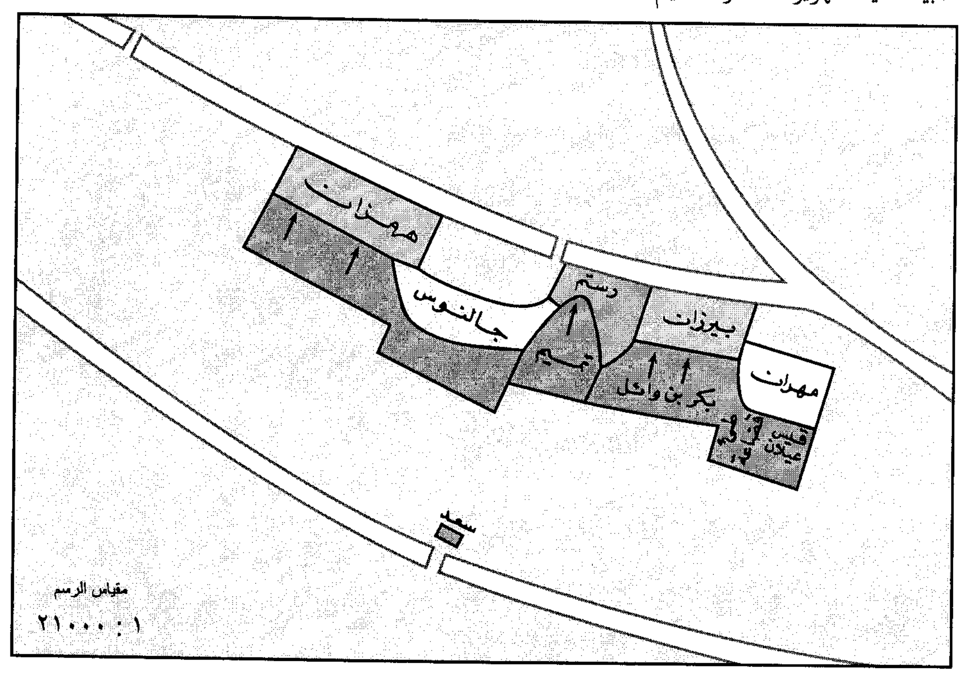
وبهذه المعاني التي جاشت في صدورهم، فمضوا يخترقون الصفوف، يؤثرون الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، هكذا كانوا في الجاهلية، فلِمَ لا يكونون كذلك وخيرًا من ذلك في الإسلام.

الحدث الأجلّ: قتل رستم طاغوت فارس:

لقد انطلق الهجوم الإسلامي قاصدًا إنهاء المعركة، والقعقاع على رأس هذا الهجوم وشاءت إرادة اللَّه أن تقصم الكفر من خلال قتل طاغوته الأكبر بعد هذا البلاء العظيم، لقد بدأ تراجع الجيش الفارسي.

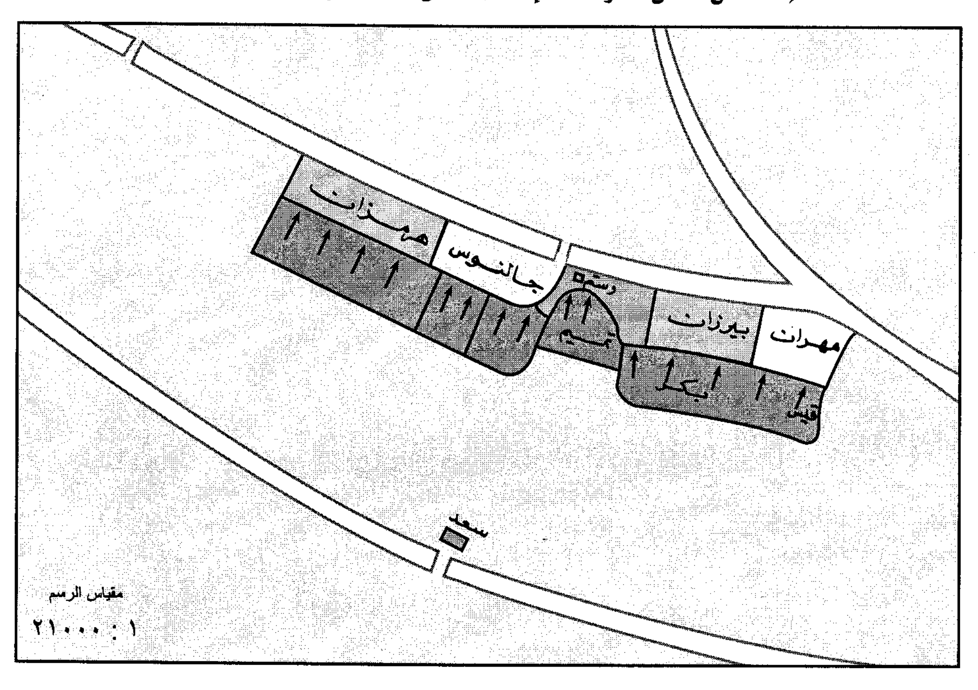
(فكان أول من زال حين قام قائم الظهيرة الهرمزان والبيرزان، فتأخرا وثبتا حيث انتهيا) [٢]. فقد تراجعت المجنبتان الميمنة والميسرة بتراجع قائديهما الهرمزان والبيرزان، ثم كانت الخطوة الهائلة أن بدأ القلب يتزعزع حيث القيادة العليا لجيش فارس. (وانفرج القلب حين قام قائم الظهيرة) [٣]. وجاء المدد من اللَّه تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا... ﴾ [الأحزاب: ٩].

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٤٢٤/٢).



يوم القادسية (٨)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٧٤) خريطة (٤١))



يوم القادسية – القادسية (٩)

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٧٤) خريطة (٤٢))

(وركد عليهم النقع [١]، وهبت ريح عاصف، فقلعت طيارة رستم عن سريره، فهوت في العتيق وهي دبور).

وكما اقتلع اللَّه خيام المشركين يوم الخندق، ها هي تقتلع قلعة رستم الذي تحصن تحتها، وتهوي في العتيق، إذ أصبح ظهره مكشوفًا وهو على سريره.

لقد أُهلكت عاد بالدبور، وهذا أوان هلاك فارس الكافرة المحاربة للَّه ولرسوله.

(وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير فعثروا به) [٢].

فلقد فرّ رستم، ترى هل نجا؟ (وقد قام رستم عنه حين طارت الريح بالطائرة إلى بغال قد قدمت عليه بمال يومئذ. فاستظل في ظل بغلٍ وحِمْلِه).

الحمد للَّه الذي رد كيدك يا رستم إلى ظل بغل بعد أن كان في سريره وتحت طيارته. لقد بلغ به الجبن أن يلجأ إلى ظل بغلٍ، وحِمْلِه، ولم لا يقاتل قتال الأبطال؟

هل هناك جنة يحلم بها، وشهادة يرنو إليها؟

أبدًا... ليس أمامه إلا سوء المصير، فلم يعد هناك من يذود عنه، ويفديه بروحه.

لقد أصبح بحماية البغل وحمله، مثل فرعون هذه الأمة أبي جهل يوم انصرف عنه الكماة والأبطال، وبقي ينتظر مصرعه حتى انتهى على يد عبد اللَّه بن مسعود، وجاء عبد اللَّه بن مسعود رستم؛ جاء هلال بن علفة ليعطيه اللَّه - تعالى - هذا المجد الأبدي.

(وضرب هلال بن علفة الحِمل الذي يختبئ رستم تحته) فلن يَدَعَ الطعام للمشركين الكفرة، ونجحت خطته في تفتيت الحمل حتى لا ينعم به رِجالات فارس. (...فقطع حباله، ووقع عليه (على رستم) أحد العِدلين، ولا يراه هلال ولا يشعر به) لكن العِدل الذي وقع عن ظهر البغل: اختار ظهر رستم. (فأزال من ظهره فَقارًا... ويضربه ضربة فنفحت مسكًا). وكان بالمسك قَتْلُه، إذ انتبه هلال إلى أن هذا المسك لا أضوع منه ولا أعطر. والتفت ليرى رستم المعطر، المتضمخ بالعطر.

---

(١) النقع: الغبار.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٢٤).

وهنا استعمل رستم بطولته، فذهب ورمى بنفسه في العتيق، وهو النهر الذي لو نجا فيه، لكان البلاء الأعظم أن يبقى حيًّا، ويقود الجيوش تلو الجيوش للمواجهة. ولكن هلال البطل العظيم، اقتحم عليه ورمى بنفسه بالنهر.

(فاقتحمه هلال عليه، فتناوله وقد عام، وهلال قائم، فأخذ برجله، ثم خرج به إلى الجدُ، فضرب جبينه بالسيف حتى قتله). وأصر البطل الإسلامي أن يعيده إلى حيث كان، إلى ظل البغال، وهو جثة هامدة منتنة. لكن له هدفًا آخر هو أن يعلن الخبر المدوِّي من سرير رستم نفسه.

قتلْتُ رستمَ وربِّ الكعبة:

(ثم جاء به ورمى به بين أرجل البغال...). وذلك ليبقى وسيلة إيضاح لمن يشكك في مقتله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس: ٩٢].

(... ثم صعد السرير، ثم نادى: قتلتُ رستم ورب الكعبة...). وأنهى هذا النداء الخالد المعركة، فقد ارتفع الإيمان والحماس في قلب المؤمنين إلى الذروة وهبط الحماس والاندفاع في قلوب المشركين إلى الحضيض، وكما تقول الرواية: (...فأطافوا به، وما يحسون السرير، ولا يرونه، وكبروا وتنادوا وانبتَّ قلب المشركين عندها وانهزموا).

وتقدم نائب القائد العام عند الفرس - الجالينوس. فحمى انسحاب الفرس وفرارهم ليكون فرارًا منظمًا.

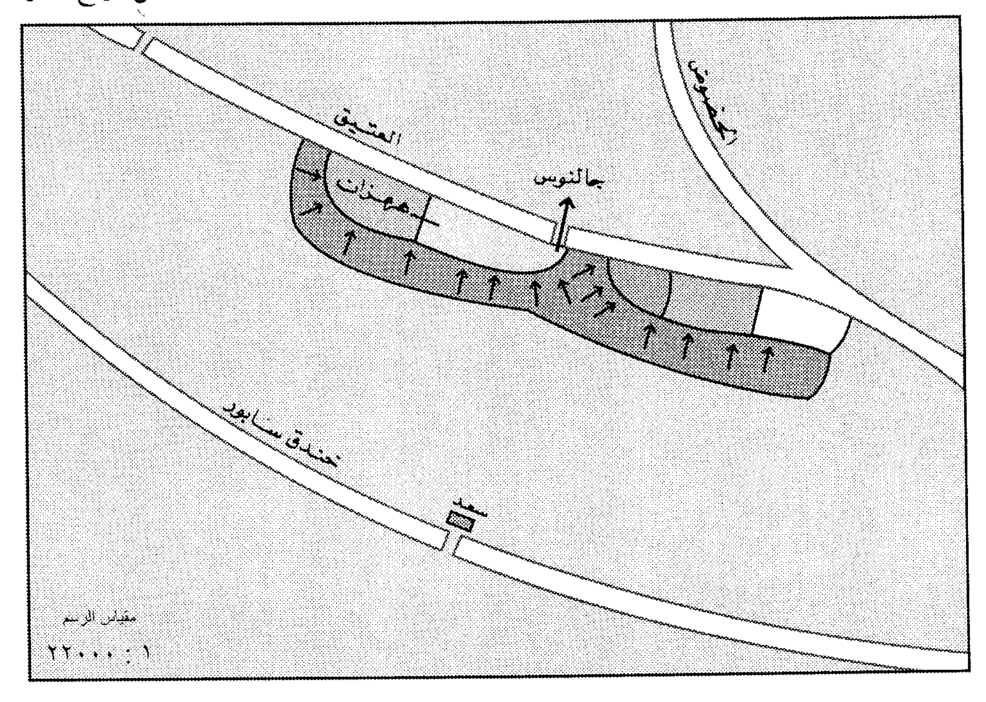
(وقام الجالينوس على الروم، ونادى أهل فارس إلى العبور، وانسفر الغبار) لكن هذا لم يحم الجيش من الموت والقتل.

(فأما المقترنون فإنهم جشعوا فتهافتوا في العتيق، فوخزهم المسلمون برماحهم فما أُفلت منهم مخبر، وهم ثلاثون ألفًا) [1].

فوخز الرماح أنهاهم عن بكرة أبيهم، وابتلعهم النهر جثثًا منتنة.

---

(١) كل ما بين الأقواس فقرة واحدة، تاريخ الطبري (٢/٤٢٤).



النهاية - القادسية (١٠)

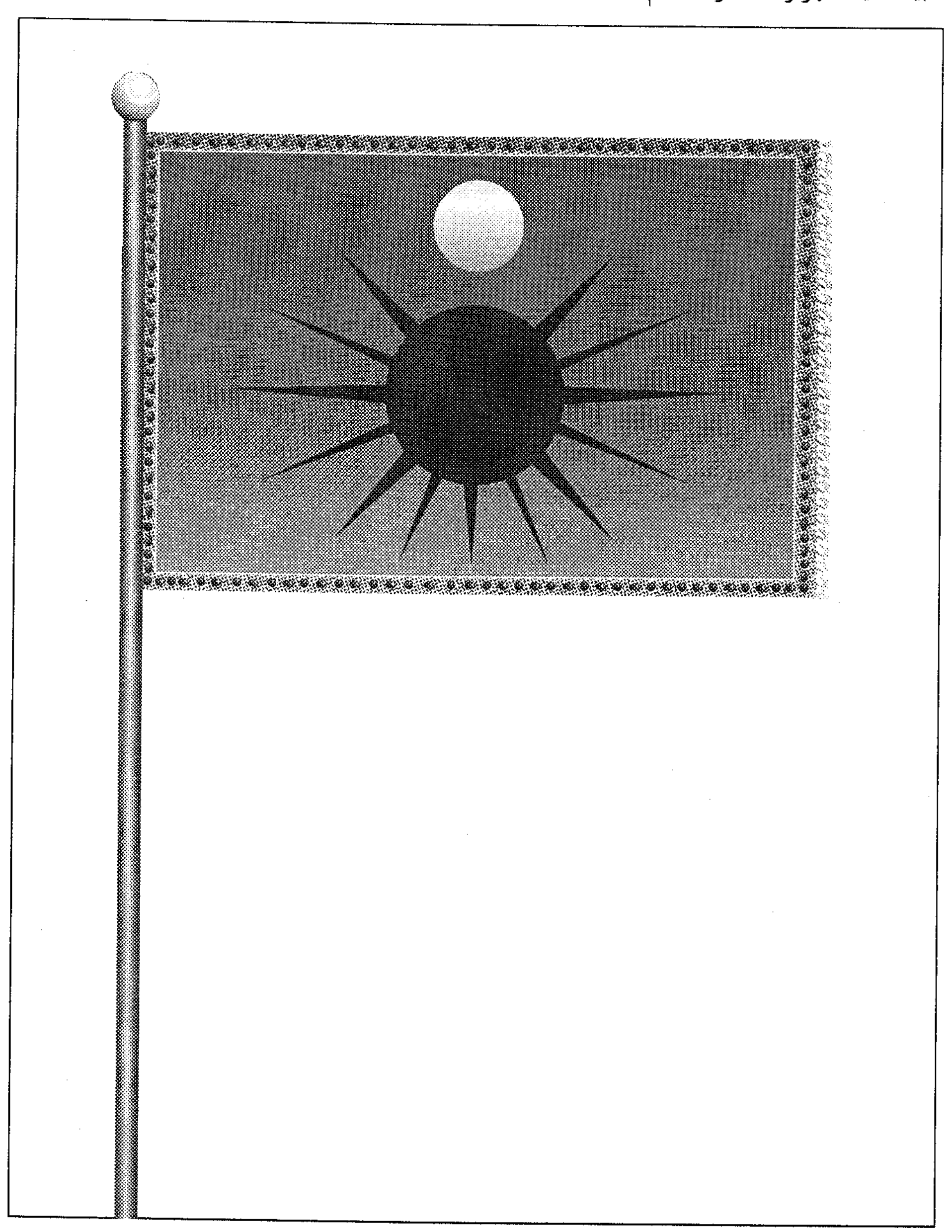
(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٧٥) خريطة (٤٣))

وأخذ راية الفرس ضرار بن الخطاب الفهري:

راية الفرس التي قتل تحتها عشرات الآلاف من أبطال فارس وصناديدهم وفرسانهم هي الآن بيد البطل الإسلامي العظيم، ضرار بن الخطاب. كانت قيمة الراية ألف ألف ومائتي ألف. (وأخذ ضرار بن الخطاب (دِرَفْش كَابْيَان) [1] فعُوِّض منها ثلاثون ألفًا، وكانت قيمتها ألف ألف ومائتي ألف). وإضافة إلى الثلاثين ألفًا من المقترنين، فقد قتل من الفرس في المعركة ليلة الهرير ويوم القادسية عشرة آلاف، سوى من قُتلوا في الأيام قبله.

---

(١) راية فارس الكبرى، العلم الملكي الساساني، علم الدولة، عرضه ثمانية أذرع وطوله اثنا عشر ذراعًا (٤ × ٦ متر تقريبًا)، ذكر البلعمي أن الفرس قد انتصروا في جميع المعارك التي رفرف عليها هذا العلم، وكانت مع بهمن جاذويه في معركة الجسر، وكانوا يضيفون إليها بعض الجواهر عقب كل انتصار، وموشاة بالذهب والفضة والجواهر واللآلئ، وكانوا يتبركون بها ويزيدون في محاسنها حتى صارت يتيمة الدهر، وكريمة العمر، وكان لها خمسة من الموابذة (كبار رجال الدين المجوسي) يحملونها أمام الجيش. وذكر الفردوسي أنه كان عليها صورة الشمس بلون بنفسجي ومن فوقها قمر مذهب، وكانت من عجائب كسرى شأن قصر المدائن، وزوجته شيرين، وفرسه الأسود شبذير، وبساطه القفط. أطلس الفتوحات الإسلامية، أحمد عادل كمال (ص ٥٤).



دِرَفْش كَابيَان

راية الفرس الكبرى

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٥٤)

وقتلى المسلمين:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف... قال: أصيب من الناس قبل ليلة الهرير ألفان وخمسمائة وقتل ليلة الهرير ويوم القادسية ستة آلاف من المسلمين، فدفنوا في الخندق حيال مشرق).

لقد قدم المسلمون ربع جيشهم شهداء في سبيل اللَّه، أما الجرحى فما أظن واحدًا في الجيش لم يكن به جراحات في كل أجزاء جسده، لقد دخلوا معمعة أمام أربعة أضعافهم من المقاتلين الأشداء، إذن نحن أمام أمة تبني تاريخها بدمائها، وتقدم أرواحها قرابين دينها، والفرس كذلك قد قدموا ثلث جيشهم دفاعًا عن كفرهم، وسلطانهم وطواغيتهم. لقد حرص المسلمون منذ البداية على أن لا تراق قطرة دم، من الفريقين، واستمرت المباحثات أربعة أيام مع يزدجرد، ومع رستم، واستماتوا في أن يتجنبوا المعركة من خلال الإسلام أو الجزية، ولكن الطواغيت على استعداد أن يضحوا بشعوبهم كاملة ليبقى لهم سلطانهم وطغيانهم.

عودة إلى البطل العظيم هلال بن علفة:

لا شك أن أضخم حدث في المعركة هو إنهاء سلاح الفيلة من جهة، ومقتل رستم من جهة ثانية، وحق لهلال أن يفوز بهذا المجد، فهو من قبيلة القعقاع من بني تميم، والقعقاع هو البطل الأول في القادسية تخطيطًا وتنفيذًا، لكن هلالًا لم يُذكَر إلا بقتل هذا الطاغوت الأكبر.

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن النضر عن رفيل عن أبيه. قال: دعاني سعد فأرسلني أنظر له في القتلى، وأُسَمّي له رؤوسهم، فأتيته فأعلمته ولم أرَ رستم في مكانه. فأرسل إلى رجل من تميم يدعى هلالًا. فقال:

ألم تُبلغني أنك قتلت رستم؟

قال: بلى.

قال: فما صنعت به؟

قال: ألقيت به تحت قوائم الأبغل.

قال: فكيف قتلته؟ فأخبره حتى قال: ضربت جبينه وأنفه.

قال: فجئنا به...) [١].

---

(١) تاريخ الطبري (٤٢٥/٢).

ومضى هذا الأعرابي يعدو حتى جاء برستم حيث رماه، لقد قَتَل رستم في سبيل اللَّه، ولم يكن يدري أن وراء هذا القتل شيء، ولم يكن يعلم أن سَلب المقتول للقاتل، ومن أجل ذلك اكتفى بقتله، ورميه بين أرجل البغال، ولم يكن هذا الأعرابي يدري أنه سيحظى بثروة تجعله من أغنياء العرب الكبار.

(... فأعطاه سَلَبَه، وكان قد تخفف حين وقع إلى الماء، فباع الذي عليه بسبعين ألفًا، وكانت قيمة قلنسوته مائة ألف لو ظفر بها.

وجاء الشهود الذين يؤكدون مقتله حين (جاء نفر من العباد حتى دخلوا على سعد فقالوا: أيها الأمير، رأينا جسد رستم على باب قصرك، وعليه رأس غيره، وكان الضرب قد شوهه فضحك) [(١)].

ونظفت ساحة المعركة:

(ولما انكشف أهل فارس فلم يبق منهم بين الخندق والعتيق أحد، وطُبِّقت القتلى ما بين قديس العتيق... فدفن الشهداء، شهداء ليلة الهرير ويوم القادسية، حول قديس ألفان وخمسمائة وراء العتيق بحيال مشرِّق، ودفن شهداء ما قبل ليلة الهرير على مشرق...).

وجاء دور الصبيان والنساء مرة ثانية:

(... وخرج صبيان العسكر في القتلى، ومعهم الأداوى يسقون من به رمق من المسلمين، ويقتلون من به رمق من المشركين، وانحدروا من العذيب مع العشاء...) [(٢)].

وهنا تبدو عظمة هذه الشريعة في تشريف الشهداء في المعركة، فلا يغسلون إنما يدفنون بدمائهم، حتى يبعثوا يوم القيامة بجراحهم؛ اللون لون دم، والريح ريح مسك، يشهد ذلك لهم بفضلهم عند ربهم، وينالون مقامهم في عليين.

ولنتصور كم يقع من الحرج ومن الضيق لو كان على الجيش، أو بالأحرى على الصبيان والنساء غسل تسعة آلاف شهيد، وإحضار الأكفان لهم كم تكلف خزينة الدولة، وكم يصرف في هذا السبيل، إنه الدين العملي الذي يكرم الشهيد فيدفن كما هو بثيابه دون غسل أو كفن، وندع في هذا المقام حديث رسول اللَّه ﷺ يلقي ظلاله

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٤٢٥).

على هذا المشهد: عن المقدام بن معديكرب قال: قال رسول الله ﷺ: « **للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار؛ الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه** » قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب) [1].

وجمعت الأسلاب:

إنه جيش الإمبراطورية الفارسية يتحطم على أبواب القادسية بعد حرب ضروس استمرت أربعة أيام فماذا تكون أسلابه، إنها أسلاب أرقى ما وصلت إليه البشرية آنذاك من بذخ وترف ورفاهية. (وجمعت الأسلاب والأموال فجمع منها شيء لم يجمع قبله مثله، ولا بعده مثله. وليس ما حواه هلال إلا نموذجًا من هذه الأسلاب، كما نرى ذلك في رواية أخرى. (وأرسل سعد إلى هلال، فدعا به فقال: أين صاحبك؟ قال: رَمَيتُ به تحت أبغل، قال: اذهب فجئ به، فذهب فجاء به، فقال: جرِّده إلا ما شئت، فأخذ سَلَبَهُ، فلم يدع منه شيئًا). تلك أمة ترث أمة، أمة تنطلق بدين الله تعمر به الأرض، مقابل أمة حكمت الأرض واستنزفت خيراتها، واستعبدت أهلها: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

إعلان كلمة التوحيد:

تقرأ الخبر فتذهل إلى أبعاده.

فعن شقيق بسند السري عن شعيب عن سيف: (قال: اقتحمنا الخندق صدر النهار، فتراجعنا، وقد أتى الصلاة، وقد أصيب المؤذن...) فعلام يتنافسون وكادوا يقتتلون؟ على أسلاب الأرض؟! أبدًا. على ذكر الله: ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦]. (وأصيب المؤذن، وتشاحَّ الناس في الأذان حتى كادوا أن يجتلدوا بالسيوف) فكل جندي يود أن يفوز بقصب السبق في رفع الأذان، وجاء

---

(١) الترمذي، ما جاء في ثواب الشهيد، ح (١٦٦٣).

الأمير ليحسم الأمر، وعلى أي أساس يُحكم لفريقٍ دون آخر، ولا حلَّ إلا الاستهام والقرعة. (فأقرع سعد بينهم فخرج سهم رجل فأذن) [١].

استثمار النصر، والحفاظ عليه وملاحقة العدو:

إنه سعد خريج المدرسة النبوية، وجامعاتها العسكرية، فقد حضر مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وكان مثال الجندي الملتزم مع قائده عليه الصلاة والسلام.

وحين نذكر غزوة أحد، ندرس أعظم معارك التاريخ التي أنزل الله – تعالى – بها اثنتين وسبعين آية، تعلن مبادئ الحرب والسلام، وأسباب النصر والهزيمة عند الأمم مع سجل حافل للمعركة بكل ما فيها من رجالٍ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ورجال أنزل الله عليهم ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ [آل عمران : ١٥٤] إلى رجالٍ يقولون: ﴿ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ ﴾ [آل عمران : ١٥٤]. رجال يقولون: ﴿ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ ﴾ [آل عمران : ١٦٨]، ورجال يقولون: ﴿ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ [آل عمران : ١٦٧]، وهي سجل حافل بكل هذه الوقائع، فهي البيان الحربي النهائي عن المعركة: ﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فهي بيان للناس كافة ولأمم الأرض يدرسون من خلالها فن القتال ومبادئ الحرب، وهدى وموعظة للمتقين خاصة الذين يهتدون بهدي هذا الدين ويتبعون ما أنزل الله.

والذي يعنينا بعد هذا العرض الموجز لمعركة أحد، فكرة استثمار النصر، والحفاظ عليه، وملاحقة العدو، **وقد برزت في المواقف العظيمة التالية:**

الموقف الأول: بعث علي في آثار القوم:

(ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال: « **اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم** » قال علي: فخرجت في آثار القوم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة) [٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٤٢٥/٢).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٧٩/٢)، مجلد واحد.

الموقف الثاني: إرسال سبعين رجلًا في آثار القوم:

(فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم؛ الزبير وأبو بكر. لما أصاب رسولَ اللَّه ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا. قال: من يذهب في إثرهم. فانتدب منهم سبعون رجلًا، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير) [١].

الموقف الثالث: غزوة حمراء الأسد:

(فلما كان من الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن رسول اللَّه ﷺ في الناس بطلب العدو، فأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس... وإنما خرج رسول اللَّه ﷺ مرهبًا للعدو، وليعلمهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم...

قال ابن إسحاق: فخرج رسول اللَّه ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فيما قال ابن هشام.

قال ابن إسحاق: فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة...

قال: وقد مر به معبد بن أبي معبد الخزاعي... ومعبد يومئذ مشرك. فقال:

يا محمد أما واللَّه لقد عز علينا ما أصابك، ولوددنا أن اللَّه عافاك فيهم، ثم خرج حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول اللَّه ﷺ وأصحابه وقالوا: أصبنا حدَّ أصحابه، وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم؟! لَنَكِرَّنّ على بقيتهم، فلَنفرغَنّ منهم.

فلما رأى أبو سفيان معبدًا، قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا، قد اجتمع عليه من كان قد تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط. قال: ويحك ما تقول؟

قال: واللَّه ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل.

---

(١) صحيح البخاري، ح (٤٠٧٧)، ومسلم، ح (٢٤١٨).

قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم.

قال: فإني أنهاك عن ذلك. قال: والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتًا من شعر. قال: وما قلت؟

قال: قلت:

كادَتْ تُهَدُّ مِنَ الأصْواتِ رَاحِلَتي ... إذ سَالتِ الأرْضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ

تَرْدِي بأُسْدٍ كِرامٍ لا تَنَابِلَةٍ ... عندَ اللقاءِ ولا مِيلٍ مَعَازيلِ [1]

فَظَلْتُ عَدْوًا أظنُّ الأرْضَ مَائلةً ... لما سمَوْا بَرئِيسٍ غير مخذول

فقلت: وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقائِكُمْ ... إذا تَغَطْمَطَت [2] البَطْحَاءُ بالجيلِ

إنِّي نَذِيرٌ لأهْلِ البَسْلِ [3] ضَاحِيةً ... لكلِّ ذِي إربةٍ [4] منهمْ ومَعْقُولِ

مِنْ جَيْشِ أحْمَدَ لا وَخَشٍ [5] تنابلةٍ ... وليس يوصفُ ما أَنْذَرْتُ بالقِيلِ

فثنَى ذلك أبا سفيان ومن معه) [6].

كان سعد جنديًّا في هذه المدرسة، وتخرج منها أحد أكبر أركان الحرب فيها، وها هو اليوم يكتب الله على يديه أعظم نصر حققه المسلمون، فلا بد من استثمار هذا النصر، وملاحقة العدو.

القعقاع وشرحبيل في آثار القوم:

(لما انكشف أهل فارس، فلم يبق منهم بين الخندق والعتيق أحد، وطبقت القتلى ما بين قديس والعتيق أمر سعد زهرة باتباعهم فنادى زهرة بالمقدمات.

وأمر القعقاع بمن سفل.

وشرحبيل بمن علا.

ولما رجع القعقاع وشرحبيل قال لهذا: اعْدُ فيما طلب هذا، وقال لهذا: اعْدُ فيما طلب هذا، فعلا هذا، وسفل هذا، حتى بلغا مقدار الخرارة [7] من القادسية).

---

(١) الميل المعازيل: الذين لا رمح لهم ولا سلاح.
(٢) تغطمطت: اهتزت.
(٣) البسل: أهل الحرم.
(٤) ذو الإربة: العاقل.
(٥) الوخش التنابلة: رذلة الناس وأخساؤهم.
(٦) السيرة النبوية لابن هشام (٨٢/٢)، مجلد واحد.
(٧) الخرارة: موقع قرب السيلحون من نواحي الكوفة له ذكر في الفتوح.

لقد غير اتجاه القائدين من العلو والسفل حتى يتأكد أن العدو فعلًا قد فر ولم يعد، ومع هذا فقد وقعت معركتان صغيرتان عقيب القادسية.

زهرة يقتل الجالينوس نائب رستم:

لقد كان زهرة ﷺ آخر ما لقيناه حين طلبه رستم للمفاوضات، آملًا بتمديد الهدنة دون الاستجابة للإسلام أو الجزية، ورفض زهرة ذلك لأن مدة الأيام الثلاثة قد انتهت، أما الجالينوس، فهو الذي رشحه رستم إلى يزدجرد ليقود المعركة مع المسلمين. ورفض يزدجرد ذلك، وكان هو قائد المقدمة، كما كان زهرة قائد مقدمة المسلمين، فكلاهما يمثلان أكبر قيادات الجيشين.

لقد انسحب الجالينوس انسحابًا منظمًا، وكان قائد حماية هذا الانسحاب، فكان في الخلف، وكان الفرس قد ردموا مكانًا في نهر العتيق، وتم انسحاب الجيش من خلاله، وعندما تم الانسحاب عادوا فبثقوا الردم، لئلَّا يستفيد منه المسلمون ويلاحقوهم من خلاله.

(وخرج زهرة بن الحوية في آثارهم، وانتهى إلى الردم وقد بثقوه ليمنعوهم به من الطلب، فقال زهرة: يا بكير تقدم، فضرب فرسه وكان يقاتل على الإناث، فقال: ثبي أطلال [1] فتجمعت وقال: وثبًا وسورة البقرة، ووثب زهرة وكان على حصان، وسائر الخيل فاقتحمته وتتابع على ذلك ثلاثمائة فارس.

ونادى زهرة حين كاعت [2] الخيل: خذوا أيها الناس على القنطرة [3]، وعارضونا، فمضى ومضى الناس) [4].

لكن المسافة مختلفة جدًّا ما بين العبور على نهر العتيق مباشرة ليكون في نحر العدو، وما بين العبور من القنطرة المقامة على النهر، وكان هذا من توفيق الله وتسديده لزهرة أن اقتحم مع ثلاثمائة فارس العتيق عند الردم، حيث عبر الجيش الفارسي، فأدرك مؤخرة الجيش، حيث كان الجالينوس هو الذي يحمي الجيش الفارسي للعبور والمضي إلى المدائن.

---

(١) أطلال: اسم فرس بكير بن عبد الله الليثي.
(٢) كاعت الخيل: كفت عن الوثب.
(٣) القنطرة: جسر صغير على النهر.
(٤) تاريخ الطبري (٢/٤٢٥).

والجالينوس هو المرشح لقيادة الجيوش الفارسية بعد رستم.

(فمضى - زهرة - ومضى الناس إلى القنطرة يتبعونه، فلحق بالقوم والجالينوس في آخرهم يحميهم، فشاوله زهرة، فاختلفا ضربتين، فقتله زهرة، وأخذ سلبه، وقتلوا ما بين الخرارة إلى السيلحين إلى النجف، وأمسوا فرجعوا وباتوا في القادسية) (١).

وتطالعنا رواية أخرى بسند سيف عن مقتل الجالينوس. (عن... سعيد بن المرزبان قال: خرج زهرة حتى أدرك الجالينوس ملكًا من ملوكهم بين الخرارة والسيلحين، عليه يارقان وقلبان وقرطان على برذون له قد خضد فحمل عليه فقتله. قال: واللّه إن زهرة لعلى فرس له، ما عِنانها إلا من حبل مضفور كالمقود، وكذلك حزامها شعر منسوج. فجاء بسلبه إلى سعد، فعرف الأسارى الذين عند سعد سَلبَهُ. فقالوا: هذا سلب الجالينوس، فقال له سعد: هل أعانك عليه أحد؟

قال: نعم. قال: من؟ قال: اللّه، فنفله سلبه (٢).

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٢٥).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٢٦). هذا ونحن مضطرون للتحقيق بين ثلاث روايات للسري عن شعيب عن سيف للتناقض القائم بينها، في من روى عنهم سيف، ولولا هذا التناقض لما وقفنا عندها. **الرواية الأولى**: رواها سيف عن سعيد بن المرزبان، وهي التي أوردناها وهي تشير إلى أن سعدًا ﷺ، هو الذي أعطى سَلَب الجالينوس لزُهرة، وهو الذي أمره بملاحقة القوم، وأنه كان موطن ثقة سعد، وكان قائد مقدمته، وهي رواية أصح من الروايتين التاليتين، لأن سعيد بن المرزبان ضعيف مدلس، لكنه صدوق وقد روى له البخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن ماجه، وجاءه الضعف بعد كبر سنه.

الرواية الثانية: رواها سيف عن عبيدة عن إبراهيم وتشير إلى أن سعدًا استكثر سلب الجالينوس، فكتب فيه إلى عمر، فكتب إليه عمر: إني قد نفلت من قتل رجلًا سَلَبَه، فدفعه إليه فباعه بسبعين ألفًا) وفي روايتها مجاهيل لا نعرفهم.

الرواية الثالثة: لسيف عن البرمكان والمجالد عن الشعبي، تشير إلى أن زهرة أخذ السلب ولم يستأذن سعدًا فقال له سعد: ألا انتظرت إذني، وتكاتبا، فكتب عمر إلى سعد: تعمد إلى مثل زهرة وقد صلى بمثل ما صلى به وقد بقي عليك من حربك ما بقي تكسر قرنه وتفسد قلبه؟! أمض له سلبه وفضله على أصحابه عند العطاء بخمسمائة. والبرمكان مجهول، ومجالد متهم بالكذب وبرفع الروايات للشعبي كما ذكر يحيى بن سعيد القطان في الجرح والتعديل للرازي (٨/٣٦٠) يقول لعبد اللّه وقد مضى يأخذ السيرة عن مجالد: إذن تكتب كذبًا كثيرًا، ولو شئت أن جعلها لي مجالد كلها عن الشعبي عن مسروق عن عبد اللّه لفعل.

هذا من حيث السند أما من حيث المتن فتتناقض مع كثير من المسلَّمات التاريخية والتشريعية الإسلامية منها:

١ - حديث رسول اللّه ﷺ: « **من قتل قتيلًا فله سَلَبُهُ** »، لا يمكن أن يغيب عن ذهن سعد، ولا يمكن أن يخالفه.

٢ - نفذ سعد حديث رسول اللّه ﷺ مع هلال بن علفة حيث أعطاه سَلَب رستم، دون طلب. =

بطلان جديدان:

لقد كان هذان البطلان أخوين، وسيكون لهما في مستقبل الأيام بطولات وقيادات تتناسب مع كفاءتهما وعبقريتهما، إنهما من باهلة.

- سلمان بن ربيعة الباهلي.
- وعبد الرحمن بن ربيعة الباهلي.

فهذا سلمان ﷺ يواجه الكتيبة كاملة: (عن سيف عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عمن شهدها قال: أبصر سلمان بن ربيعة الباهلي أناسًا من الأعاجم تحت راية لهم قد حفروا لها، وجلسوا تحتها وقالوا: لا نبرح حتى نموت، فحمل عليهم، فقتل من كان تحتها وسلبهم، وكان سلمان فارس الناس يوم القادسية، وكان أحد الذين مالوا بعد الهزيمة على من ثبت.

والآخر عبد الرحمن بن ربيعة ذو النور، ومال على آخرين قد تكتَّبوا، ونصبوا للمسلمين فطحنهم بخيله)[١].

(... فعن الشعبي رحمه الله قال: كان يقال لسلمان: أبصر بالمفاصل من الجازر بمفاصل الجزور)[٢].

الأبطال الخمسة والعشرون:

(عن سيف عن عبيدة عن إبراهيم وعامر أن أهل البلاء يوم القادسية فضلوا عند العطاء بخمسمائة خمسمائة في أعطياتهم، خمسة وعشرين رجلًا، منهم زهرة، وعصمة الضبي، والكلج، وأما أهل الأيام فإنه فرض لهم ثلاثة آلاف، فضلوا على أهل القادسية.

= ٣ - سلب رستم بعد أن تخفف من بعض لباسه يوم رمى نفسه في نهر العتيق كان سبعين ألف درهم، وسَلَبُ الجالينوس كان سبعين ألفًا، فلماذا يستكثر سَلَبُ الجالينوس ويحتاج إلى إذن عمر أمير المؤمنين، ولا يستكثر سَلَبُ رستم ولا يستأذن فيه، وكلاهما متساويان.

٤ - رواية مجالد تشير إلى أن زهرة أخذ سَلَبَ الجالينوس ولم يستأذن سعدًا، ومثل زهرة في موقعه لا يغيب عنه أن يأخذ السلب قبل أن يستشير سعدًا، وهو موضع ثقة سعد، وسعد الذي اختاره لملاحقة جالينوس فالروايتان سندًا ومتنًا لا تصحان، ونأخذ بالرواية الأولى المأمونة (... فقالوا: هذا سلب الجالينوس، فقال له سعد: هل أعانك عليه أحد؟ قال: نعم. قال: من؟ قال: اللَّه. فنفله سلبه).

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٢/٤٢٧).

وعن سيف عن عبيدة عن يزيد الضخم، قال: فقيل لعمر: لو ألحقت بهم أهل القادسية؟

قال: لم أكن لألحق بهم من لم يدركهم.

وقيل له في أهل القادسية: لو فضلت من بَعُدَتْ داره على من قاتلهم بفنائه!

قال: وكيف أفضلهم عليهم على بعد دارهم، وهم شجن العدو، وما سويت بينهم حتى استطبتهم فهلا فعل المهاجرون بالأنصار إذ قاتلوا بفنائهم مثل هذا) [1].

ليتنا نعرف أسماء هؤلاء الأبطال الخمسة والعشرين.

وفيما يلي نحاول استكناه هذه الأسماء، الذين برزوا في المعركة، علّنا نجمعهم في سجل الخلود في الدنيا، ونسأل اللّه لهم الخلود يوم القيامة:

١ - القعقاع بن عمرو التميمي.

٢ - عاصم بن عمرو التميمي.

٣ - نعيم بن عمرو بن عتاب اليربوعي التميمي.

٤ - عتاب بن نعيم بن عتاب اليربوعي.

٥ - الحارث بن عمرو بن همام اليربوعي.

٦ - عمرو بن شبيب بن زنباع اليربوعي.

٧ - طليحة بن خويلد الفقعسي الأسدي.

٨ - حمال بن مالك الأسدي.

٩ - الربيل بن عمرو بن ربيعة الأسدي.

١٠ - هاشم بن عتبة.

١١ - عمرو بن معديكرب.

١٢ - سلمان بن ربيعة الباهلي.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٢٦/٢).

١٣ - عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي.

١٤ - الأشعث بن قيس الكندي.

١٥ - جرير بن عبد اللَّه البجلي.

١٦ - هلال بن علفة قاتل رستم.

١٧ - زهرة بن الحوية قاتل الجالينوس.

١٨ - الأعرف بن الأعلم العقيلي قاتل ثلاثة من أبطال الفرس.

١٩ - عصمة الضبي.

٢٠ - أبو محجن الثقفي.

٢١ - قيس بن هبيرة الأسدي.

٢٢ - قيس بن مكشوح المرادي.

٢٣ - الكلج.

٢٤ - خالد بن عرفطة قائد المقدمة.

٢٥ - حنظلة بن الربيع كاتب رسول اللَّه ﷺ.

٢٦ - غالب بن عبد اللَّه الأسدي الذي أسر هرمز أحد ملوك الباب.

٢٧ - شرحبيل بن السمط الكندي.

٢٨ - بكر بن عبد اللَّه الليثي.

٢٩ - عطارد بن حاجب التميمي.

٣٠ - ابن الهذيل الأسدي.

٣١ - بسر بن أبي رهم الجهني.

٣٢ - ربعي بن عامر التميمي.

٣٣ - شبر بن علقمة.

٣٤ - دريد بن كعب النخعي.

٣٥ - ضرار بن الخطاب الفهري.

مقتل أكبر أبطال الفرس وفناء كتائب الموت:

من الأسماء الكبرى التي صرعت عند الفرس في هذه الحرب، رستم قائد الجيش، والجالينوس نائب قائد الجيش، والبيرزان قائد الميمنة الذي قتله القعقاع، وذو الحاجب الذي قتله القعقاع كذلك، وهرمز أحد الملوك أسره غالب بن عبد اللَّه الأسدي، وتُرْك الطبري وقتله الأشعث. لكن كتائب الموت ثبتت واستحيت من الفرار وكانوا بضعًا وثلاثين كتيبة، وعندما فرَّ عوَامُّ الناس صمَّموا على الموت دون الفرار. (فعن سيف بن المهلب ومحمد وطلحة وأصحابه، قالوا:

وثبت بعد الهزيمة بضع وثلاثون كتيبة استقتلوا، واستحيوا من الفرار، فأبادهم اللَّه فصمد لهم بضعة وثلاثون من رؤساء المسلمين، ولم يُتبعوا فالَّة القوم، فصمد سلمان ابن ربيعة لكتيبة، وعبد الرحمن بن ربيعة ذو النور لأخرى، وصمد لكل كتيبة منها رأس من رؤساء المسلمين، وكان قتال أهل هذه الكتائب من أهل فارس على وجهين، فمنهم من كذب وهرب، ومنهم ثبت حتى قُتِل، فكان ممن هرب من أمراء تلك الكتائب الهرمزان وكان بإزاء عطارد، وأهود وكان بحذاء حنظلة بن الربيع، وهو كاتب النبي ﷺ، وزاد بن بهيش وكان بإزاء عاصم بن عمرو، وقارن وكان بإزاء القعقاع. وكان ممن استقتل شهريار بن كنار وكان بإزاء سلمان، وابن الهربذ وكان بإزاء عبد الرحمن، والفرخان الأهوازي وكان بإزاء بسر بن أبي رهم الجهني وخسرو شنوم الهمداني وكان بحيال ابن الهذيل الكاهلي.

ثم إن سعدًا بعد ذلك أتبع القعقاع وشرحبيل من صوَّبَ في هزيمته، أو صعَّد عن العسكر، واتبع زهرة بن الحوية الجالينوس) [١].

هزيمة النفوس بعد الجيوش:

(فعن سيف عن عبيدة عن شقيق قال: حملنا على الأعاجم يوم القادسية حملة رجل واحد، فهزمهم اللَّه، فلقد رأيتني أشرت إلى أسوار [٢] منهم، فجاء إليَّ وعليه السلاح التام، فضربت عنقه، ثم أخذت ما كان عليه.

وعن سيف عن سعيد بن المرزبان عن رجل من بني عبس قال: أصاب أهل فارس

---

(١) تاريخ الطبري (٤٢٧/٢).

(٢) أسوار: قائد من قادة الفرس.

يومئذ بعدما انهزموا ما أصاب الناس قبلهم، قتلوا حتى كان الرجل من المسلمين ليدعو الرجل منهم، فيأتيه حتى يقوم بين يديه، فيضرب عنقه، وحتى إنه ليأخذ سلاحه فيقتله به، وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدهما بصاحبه، وكذلك في العدة) [١].

عز العرب بدون الإسلام:

فبقايا المناذرة الذين كانوا يدينون بالولاء للفرس، يحاولون أن يعيدوا التاريخ إلى الوراء وهذه محاولتهم البائسة اليائسة.

(وقد كان لكسرى مرابطة في قصر بني مقاتل عليها النعمان بن قبيصة، وهو ابن حية الطائي ابن عم قبيصة بن إياس بن حية الطائي صاحب الحيرة، فكان في منظرة له، فلما سمع بسعد بن أبي وقاص سأل عنه عبد اللّٰه بن سنان بن جرير الأسدي ثم الصيداوي، فقيل له: رجل من قريش.

فقال: أما إذا كان قرشيًّا فليس بشيء، واللّٰه لأجاهدنه القتال، إنما قريش عبيد لمن غلب واللّٰه ما يمنعون خفيرًا، ولا يخرجون من بلادهم إلا بخفير).

إنه لا يزال يرفل في عز كسرى، ولم يدر بالرسالة التي غيرت الأرض وقادت التاريخ، ولا يزال يحسب قريشًا - كما ذكر - لا باع لهم في القتال، ولا ذكر لهم بالعز الذي يرفل به حكام الحيرة في ظل كسرى، وإنما هو عبيد من عبيده، وهو يعلم ما فعل كسرى بالنعمان يوم خرج على أمره.

(فغضب حين قال ذلك عبد اللّٰه بن سنان الأسدي، فأمهله حتى إذا دخل عليه وهو نائم فوضع الرمح بين كتفيه فقتله، ثم لحق بسعد فأسلم، وقال في قتله النعمان ابن قبيصة:

لقدْ غادرَ الأقوام ليلةَ أدلجوا ... بقصرِ العباديِّ ذا الفعالِ مجدلَا

دلفتُ له تحتَ العجاجِ بطعنةٍ ... فأصبحَ منها بالنجيعِ مُرملَا

أقولُ لهُ والرمحُ في نُغضِ كتفه ... أبا عامرٍ عنكَ اليمينُ تحلَّلَا

سقيتُ بها النعمانَ كأسًا روية ... وعاطيتهُ بالرمحِ سُمًّا مثملا

تركتُ سباعَ الجوِّ يُعرِقن حوله ... وقد كانَ عنها لابنِ حيةَ مَعْزِلَا

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٢٧).

كفيتُ قريشًا إذْ تغيَّبَ جَمْعُها وهدَّمْتُ للنعمانِ عزًّا مُؤثِلَا) [(١)]

وهذا سعد الذي استصغره قبيصة:

قال الطبري: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن القاسم بن سليم بن عبد الرحمن السعدي عن عثمان بن رجاء السعدي قال: كان سعد بن مالك أجرأ الناس وأشجعهم، إنه نزل قصرًا غير حصين بين الصفين فأشرف منه على الناس، ولو أعراه الصف فواق ناقة أخذ برمته، فواللّه ما أكرَثَهُ هولُ تلك الأيام ولا أقلقه) [(٢)].

وأخيرًا النساء والصبيان بعد المعركة:

(... السري عن شعيب عن سيف عن سليمان بن بشير عن أم كثير - امرأة همام ابن الحارث النخعي قالت: شهدنا القادسية مع أزواجنا، فلما أتانا أن قد فُرِغَ من الناس شددنا علينا ثيابنا، وأخذنا الهراوي، ثم أتينا القتلى، فمن كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ومن كان من المشركين أجهزنا عليه، وتبعنا الصبيان نوليهم ذلك، ونصرفهم به) [(٣)].

* * *
* *
*

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٢٩). وهذه أول رواية أكتبها عن غير السري عن شعيب عن سيف، وهي رواية ابن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحاق، عن وهب بن كيسان عن عبد اللّه بن الزبير، وفي هذا السند ضعف في الرواية التاريخية.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٣٣).

(٣) المصدر نفسه (٢/٤٣٣).



الفصل الخامس عشر

ما بعد المعركة

أزمة عابرة:

ابتدأت تلك الأزمة العابرة قبل المعركة عند ولاية خالد بن عرفطة، والآن وقد عاد المسلمون إلى شهدائهم وجرحاهم، ينطلق صوت يوجه نقده لسعد ﷺ:

نقاتلُ حتَّى أنزلَ اللَّهُ نَصْرَهُ ... وسعدُ ببابِ القادسِيَّةِ مُعْصِمُ

فَأُبْنا وقد آمَتْ نساءٌ كثيرةٌ ... ونسوةُ سعدٍ ليسَ فيهِنَّ أَيِّـمُ

فبعث بها في الناس، فبلغت سعدًا) [١].

وسعد الموصول مع خالقه وربه، لم يصدر أمرًا باعتقاله وقطع لسانه، إنما اتجه إلى ربه. (... فقال: اللهم إن كان كاذبًا، أو قال الذي قال رياءً وسمعة وكذبًا، فاقطع عني لسانه ويده.

وقال قبيصة (راوي الحديث):

فواللَّه إني لواقف بين الصفين يومئذ، إذ أقبلت نشابة [٢] بدعوة سعد، حتى وقعت على لسانه، فيبس شِقُّه، فما تكلم بكلمة حتى لحق باللَّه) [٣].

إنه وهو يملك السلطات كلها، وفي قلب المعركة، لم يلجأ إلى هذه السلطات، فيقطع دابر الفتنة، إنما لجأ إلى ربه: « إني مظلوم فانتصر ». وكان نصر اللَّه – تعالى – على التو. ألم يدْعُ سيد الخلق ﷺ له: « **اللهم سدد رميته، وأجب دعوته** » [٤].

وإذا كانت جمجمة عند هذا الرجل الساعي في الفتنة، فهي صريحة عند سيد بجيلة الذي فقد خمسمائة من قبيلته، إنه جرير بن عبد اللَّه البجلي الذي قال كما روى السري عن شعيب عن سيف عن المقدام بن شريح الحارثي عن أبيه قال:

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٣٣).

(٢) النشاب: النبل والسهام والواحد نشابة.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٤٣٣).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٢٨).

(قال جرير يومئذ:

أنا جَريرٌ كنيتي أبو عمرٍو قد نصَرَ اللَّهُ وسعدٌ في القصرِ)

ولم يطلق سعد سهمه في الأسحار، فهو يعذر بجيلة وسيدها لما نزل بهم من بلاء. فأرسل سهمه شعرًا يعذر جريرًا، ويذكره أنّ نصر اللَّه بإخوانه المؤمنين الذين أصدر أوامره لهم أن يدفعوا عن بجيلة وينصروها:

وما أرجُو بجيلة غيرَ أنّي أؤمِّل أجرَها يوم الحسابِ
وقدِ لقيَتْ خيولُهم خَيولًا وقد وقعَ الفوارسُ في الضِّرابِ
فلولَا جمعُ قعقاعِ بنِ عمرٍو وحمَّال لَلَجُّوا في الكذابِ
هم مَنَعُوا جُمُوعَكُم بطعنٍ وضربٍ مثل تشقيقِ الإهابِ
ولولَا ذاكَ أُلفيتم رعاعًا تُشلُّ جموعُكم مثل الذبابِ)

الأزمة الكبرى تحل بالمصاهرة:

إنه مجتمع يعيش محنته، ويتجاوز أزماته بهذا الدين العظيم الذي أكرمهم اللَّه تعالى به، فالنساء حاضرات في المعركة، ورأينا الثغرة الكبرى التي سددنها، فسلاح الخدمات الطبية والتموينية كُنَّ مسؤولاتٍ عنه، وسبق أن ذكرنا قول أم كثير: (شهدنا القادسية مع سعد مع أزواجنا، فلما أتانا أن قد فُرغ من الناس، شددنا علينا ثيابنا، وأخذنا الهراوى، ثم أتينا القتلى، فمن كان من المسلمين سقيناه ورفعناه، ومن كان من المشركين أجهزنا عليه، وتبعَنا الصبيان نوليهم ذلك، ونصرفهم به) وهاتان قبيلتان (النخع وبجيلة) من أكثر الناس أبطالًا وشهداء، والأرامل يَسُدُّونَ الأفق بعد مقتل أزواجهن.

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن عطية - وهو ابن الحارث - عمن أدرك ذلك قال: لم يكن من قبائل العرب أحد أكثر امرأة يوم القادسية من بجيلة والنخع، وكان في النخع سبعمائة امرأة فارغة، وفي بجيلة ألف...) [١].

أزمة العوانس في عصرنا اليوم سمة من سمات المجتمعات العربية والإسلامية،

---

(١) تاريخ الطبري (٤٣٣/٢).

والمطلقات يقاربن المتزوجات، لقد تفكك المجتمع اليوم، وتغيرت نظرته نحو المرأة، للاعتبارات القبلية والمادية والجمالية، أما المجتمع المنفتح الذي يضع المرأة في موقعها المحترم، فلا ينقص قدرها أن تكون أرملة أو زوجة لشهيد، إنما يتنافس الرجال عليها، كما نشهد من الحادثة القادمة:

(فصاهر هؤلاء ألف من أحياء العرب، وهؤلاء سبعمائة، وكانت النخع تسمى أصهار المهاجرين وبجيلة) [(١)].

والمعنى الأعمق الذي تشير إليه الرواية هي أن انتصارات خالد بن الوليد الأولى والتي نظفت الأرض العربية من العدو، هي التي مهدت لانتقال النساء والأسر إلى عراق العرب (وإنما جرأهم على الانتقال بأثقالهم، توطئة خالد، والمثنى بعد خالد، وأبي عبيد بعد المثنى، وأهل الأيام...) [(٢)].

لكن الغزو الفارسي الأكبر، ونزول أكبر جيش للإمبراطورية على الحدود، ظهر بعده مدى القوة الفارسية التي كان يمكن - لولا لطف اللّه - أن تجتاح الساحة إلى المدينة، كما كان تخطيط رستم: (إن فتح اللّه علينا القوم فهو وجهنا إلى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في أرضهم وبلادهم إلى أن يقبلوا المسالمة أو يرضوا بما كانوا يرضون به) [(٣)].

(... فلاقوا بأسًا بعد ذلك شديدًا) [(٤)].

ثلاثة أبطال يخطبون المرأة:

قال ابن جرير (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد والمهلب وطلحة قالوا: كان بكير بن عبد اللّه الليثي، وعتبة بن فرقد السّلَمي، وسماك بن خرشة الأنصاري قدْ خطبوا امرأة يوم القادسية، وكان مع الناس نساؤهم، وكان مع النخع سبعمائة امرأة فارغة، وكانوا يسمَّون: أختان المهاجرين، حتى كان قريبًا، فتزوجهن المهاجرون قبل الفتح وبعد الفتح، حتى استوعبوهن، فصار إليهن سبعمِائة رجل من الأفناء، فلما فرغ الناس خطب هؤلاء النفر (الثلاثة) هذه المرأة، وهي أروى ابنة عامر الهلالية - هلال النخع - وكانت أختها هنيدة تحت القعقاع بن عمرو التميمي،

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٤٣٣/٢).
(٣) تاريخ الطبري (٣٩٤/٢).
(٤) تاريخ الطبري (٤٣٣/٢).

فقالت لأختها استشيري زوجك أيهم يراه لنا! ففعلت، وذلك بعد الوقعة وهم بالقادسية، فقال القعقاع: سأصفهم في الشِّعر، فانظري لأختك. وقال:

إن كنتِ حَاوَلْتِ الدرَاهِمَ فانْكِحِي ... سِماكًا أخا الأنصارِ أو ابنِ فَرْقَدِ

وإنْ كُنْتِ حَاوَلْتِ الطِّعانَ فَيَمِّمي ... بُكَيْرًا إذَا ما الخيلُ جَالَتْ عَنِ الرَّدِي

وَكَلُّهُمْ فِي ذَرْوَةِ المجدِ نازِلٌ ... فشأنُكم إنَّ البيانَ عنِ الغَدِ) [١]

وإلى الآن لم ندر أيهم اختارت، فانقطعت الرواية عند هذا الحد.

وليس هذا عجيبًا في عالم المرأة الإسلامي فهي معهودة منذ العهد النبوي. (فعن عامر بن شراحيل الشعبي أنه سأل فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس، وكانت من المهاجرات الأول، فقال: حدثيني حديثًا سمعتيه من رسول اللَّه ﷺ لا تسنديه إلى أحد غيره، فقالت: لئن شئت لأفعلن، فقال لها: أجل، حدثيني، فقالت: نَكَحتُ ابن المغيرة، وهو من خيار شباب قريش يومئذ، فأصيب في أول الجهاد مع رسول اللَّه ﷺ، فلما تأيمت خطبني عبد الرحمن بن عوف في نفرٍ من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وخطبني رسول اللَّه ﷺ على مولاه أسامة بن زيد، وكنت قد حدثت أن رسول اللَّه ﷺ قال: من أحبني فليحب أسامة، فلما كلمني رسول اللَّه ﷺ، قلت: أمري بيدك، فأنكحني من شئت...) [٢].

وفي رواية (... فأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: تلك امرأة يغشاها أصحابي، فاعتدي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك، فإذا حللت فآذنيني، قالت: فلما أحللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان، وأبا جهم خطباني، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أسامة بن زيد** » فكرهته، ثم قال: « **انكحي أسامة بن زيد** »، فنكحته، فجعل اللَّه ﷻ فيه خيرًا واغتبطت به) [٣].

القادسية: الفرقان بين الإسلام والكفر وبين العرب والفرس:

لقد كانت الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها تنتظر أخبار القادسية، ويعلم

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة (٢٩٤٢).

(٣) أخرجه مسلم في الطلاق باب المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها (١٤٨٠).

العرب جميعًا أنها الوقعة الفاصلة، فإما أن يسير رستم إلى المدينة، وإما أن يسير سعد إلى المدائن وقالوا (رواة سيف): وكانت العرب تَوَقَّعُ وقعة العرب وأهل فارس، في القادسية فيما بين العذيب إلى عَدَنِ أبين وفيما بين الأبُلة وأيلة، يعرفون ثبات ملكهم وزواله بها، وكانت في كل بلدة مُصِيخة إليها تنظر ما يكون من أمرها، حتى إن كان الرجل ليريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية...)[1].

معركة كانت مقدماتها واضحة للعيان، أنه لا خيار أمام العرب من معركة فاصلة، ولقد بلغت من أهميتها - وتناقلتها الركبان - تحرك أمير المؤمنين من المدينة ليكون على رأس الجيش الذي يواجه الفرس، فالعرب تتوقع الحرب والمعركة قبل قيامها بأشهر، وتعجب من النص الذي يتحدث عن زلزال العرب بهذه المعركة ما بين العذيب إلى عدن.

والعذيب مكان المعركة شمال الجزيرة، وعدن أبين أقصى جنوبي الجزيرة العربية الذي ينتهي بالبحر أما الحدود بين المشرق والمغرب.

فأقصى المشرق الأبُلة، وهي البصرة على الخليج العربي اليوم والذي كان يطلق عليه الخليج الفارسي، أما أقصى المغرب فهي إيلة، أو ما تسمى (إيلات) على البحر الأحمر، فكل العرب يعلمون أن المعركة القادمة هي المعركة الفاصلة، التي تقرر مصير العالم عامة والعرب والفرس خاصة كما يذكر النص بالضبط (وكانت العرب توقع وقعة العرب وأهل الفرس في القادسية فيما بين العذيب إلى عدن أبين وفيما بين الأبلة وأيلة).

ويمكن القول كذلك أن العرب اعتبروها معركة مصيرية، فعلى ضوئها يتقرر المصير العام والمصير الشخصي، فهي هَمٌّ كل فرد في الأمة العربية، ولو أن القنوات الفضائية التي تعبئ الأمة بقضيتها الأساسية المصيرية كما تفعل اليوم، لما كان الأثر أكبر مما كان العربي يحيا به آنذاك (وكانت كل بلد مصيخة إليها...) ولماذا؟ لأن المجاهدين قد خرجوا من كل بلد ومن كل صقع وشاركوا في الحرب، وليسوا أشخاصًا عاديين فقط، أو جنودًا مجهولين فقط، إنما سادة العرب وغُرَرُهم وأشرافهم وشعراؤهم وفرسانهم وأبطالهم وصناديدهم كانوا هناك في ساحة الوغى.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٣٤/٢).

الإنس والجن شاركوا في الفرحة:

وكما كانت معركة بدر حيث شارك الفرحة فيها الإنس والجن، والملائكة، فكذلك كانت القادسية.

(ولما توجه المشركون تجاه بدر كان فتيان ممن تخلف عنهم سُمَّارًا يسمرون بذي طوى في القمر حتى يذهب الليل، يتناشدون الأشعار ويتحدثون، فبينما هم كذلك ليلة إلى أن سمعوا صوتًا قريبًا منهم، ولا يرون القائل رافعًا صوته يتغنى:

أَزَارَ الحَنِيفِيُّونَ بَدْرًا مُصِيبَةً ... سَيَنْقَضُّ مِنْهَا رُكْنُ كِسْرَى وَقَيْصَرَا

أَرَنَّتْ لَهَا صُمُّ الجِبَالِ [(١)] وأَفْزَعَتْ ... قَبَائِلَ مَا بَيْنَ الوَتِيرِ [(٢)] وخَيْبَرَا

أَجَازَتْ جِبَالَ الأَخْشَبَيْنِ [(٣)] وجُرِّدَتْ ... حَرَائِرُ يَضْرِبْنَ التَّرَائِبَ [(٤)] حُسَّرا [(٥)]

أنشدنيه عبد اللَّه بن أبي عبيدة عن محمد بن عمار بن ياسر.

فاستمعوا للصوت فلا يرون أحدًا، فخرجوا في طلبه فلا يرون أحدًا، فخرجوا فزعين حتى جازوَا الحجر، فوجدوا مشيخة منهم جلة سمارًا، فأخبروهم الخبر فقالوا لهم: إن كان ما تقولون حقًّا، إن محمدًا وأصحابه يسمُّون الحنيفية، وما يعرفون اسم الحنيفية يومئذ فما بقي أحد من الفِتْيان الذين كانوا بذي طوى إلا وُعك، فما مكثوا إلا ليلتين أو ثلاثًا حتى قدم الحيسمان بن حابس الخزاعي بخبر أهل بدر ومن قُتل منهم، فهو يخبرهم عن قتل عتبة وشيبة ابنَي ربيعة وابني الحجاج، وأبي البختري وزمعة بن الأسود) [(٦)].

لقد كان هاتف الجن يتحدث عن نصر الإسلام في بدر والذي ينقض منه ركنا كسرى وقيصر.

أما قيصر فقد انهدَّ ركنه في اليرموك وفتح دمشق وقال: سلام عليك يا سوريا، سلامًا لا لقاء بعده.

وها هو ركن كسرى ينقضّ ولمّا يمضِ على وفاة رسول اللَّه ﷺ أربع سنوات. ولَسَعْدٌ رضي الله عنه أولى من المعتصم بهذه الأبيات:

---

(١) صُمُّ الجبالِ: صَخْرُ الجبال.

(٢) الوتير: موضع في ديار خزاعة.

(٣) الأخشبان: جبلا مكة أبو قبيس والأحمر.

(٤) الترائب: عظام الصدر.

(٥) حُسَّرَا: كاشفات شعورهن.

(٦) المغازي للواقدي (١/١١٩، ١٢٠).

إنَ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمٍ مَوْصُولَةٍ أَوْ ذمامٍ غَيرِ مُنْقَضِبِ
فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللَّاتِي نُصِرْت بِها وبَيْنَ أيامِ بَدْرٍ أَقْرَبُ النَّسَبِ

فماذا عن مشاركة الجن وفرحتهم بهذه المعركة.

(... فلما كانت وقعة القادسية، سارت بها الجن، فأتت بها ناسًا من الإنس، فسبقت أخبار الإنس إليهم، قالوا: فبدرت امرأة ليلًا على جبل بصنعاء لا يُدرَى من هي، وهي تقول:

حُيِّيتِ عنا عِكرمُ ابنة خالدٍ وما خيرُ زادٍ بالقليلِ المصرَّدِ [(١)]
وحيتكِ عني الشمس عند طلوعها وحياك عني كل ناجٍ مفرَّدِ
وحيتكِ عَنِّي عُصْبَةٌ نَخْعِيَّةٌ حسانُ الوجوه آمَنُوا بمحَمَّدِ
أقاموا لكِسْرَى يضربونَ جُنُودَهُ بكلِّ رقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ
إذا ثوَّبَ الدَّاعِي أناخُوا بِكَلْكَلٍ من الموتِ تسوَّد الغياطل مجرَدِ) [(٢)]

ولا عجب فالنخعيون آبوا بسبعمائة امرأة فارغة، كان لهم حضور عظيم في الحرب ونعيد للذاكرة قول خطيبهم وزعيمهم وقائدهم دريد بن كعب النخعي (وكان معه لواء النخع: إن المسلمين تهيؤوا للمزاحفة، فاسبقوا المسلمين الليلة إلى اللَّه والجهاد، فإنه لا يسبق الليلة أحد إلا كان ثوابه على قَدْرِ سبقه، نافسوهم في الشهادة وطيبوا بالموت نفسًا، فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة، وإلا فالآخرة لما أردتم) واستجابوا لنداء قائدهم العظيم وتنافسوا في الشهادة، فلم يسبقهم إلا بنو قومهم البجليون والذين كان عندهم ألف امرأة فارغة).

(وسمع أهل اليمامة مجتازًا يتغنى بهذه الأبيات:

وجدْنَا الأكثَرِينَ بني تميمٍ غداةَ الرَّوْعِ أصبرَهم رِجَالا
همو سَاروا بأرعَنَ مكفهرٍّ إلى لَجِبٍ فزرَّتُهم رعالا
بحورٌ للأكَاسِرِ مِنْ رِجَالٍ كأُسْدِ الغَابِ تَحْسَبُهُمْ جِبَالا
تركِن لَهُمْ بقادِسِ عِزَ فَخْرٍ وبالخيفين أيامًا طِوَالا

---

(١) المصرد: الخالص من كل شيء، أي: خلاصة الخبر المفيد.

(٢) تاريخ الطبري (٤٣٤/٢).

مُـقَـطَّـعَـة أكُـفُّـهُـم وسـوق بِمردى حيثُ قابَلَت الرِّجَالَا) [١]

وصدق شاعر الجن كما صدق شاعر الإنس. فشاعر الإنس التميمي القعقاع ابن عمرو، والذي تكاد تكون القادسية بصحيفته يقول:

نـحنُ قَتَلْـنَـا مَعْشرًا وزَائِـدَا أربـعـةً وخَـمْـسَـةً وواحِـدَا

نُحسبُ فوقَ اللّبدِ الأسَاودا حتى إذَا ماتُوا دَعَوْتُ جَاهِدَا

الـلّـهُ ربِّـي واحـترزتُ عَـامِـدَا

فجاء هاتف الجن لينطق باسم القعقاع مصدقًا له، وواصفًا بطولته وقومه تميم الأكثرين غداة الروع هم أصبر الرجال، وهم ساروا بجيش لجب (أرعن مكفهر) إلى جيش أكبر منهم فمزقوه قطعًا مبعثرة، فبحور الأكاسر في أعدادهم الضخمة واجهت جبالًا راسيات لا تتزعزع، وقد زرعوا في هذه الأرض أمجادًا خالدات إلى الأبد، وتركوا الأبطال بين شهداء ومقطعة أوصالهم أذرعًا وسيقانًا ورؤوسًا. وحُقَّ للمؤمنين من الجن أن يكون عندهم عرس السماء بهزيمة الكفر في الأرض على أيدي الأبطال المؤمنين. قال: وسُمِع بنحو ذلك في عامة بلاد العرب.

كتاب سعد إلى عمر ﷺ:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد والمهلب وطلحة قالوا: وكتب سعد بالفتح، وبِعدَّة من قتلوا، وبعدَّة من أصيب من المسلمين، وسمى لعمر من يعرف مع سعد بن عميلة الفزاري، وشاركهم النضر بن السري عن ابن الرفيل ابن ميسور، وكان كتابه: أما بعد فإن اللّٰه نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل وزلزال شديد، وقد لَقُوا المسلمين بعدة لم ير الراؤون مثل زُهائها، بل سَلَبَهُموه ونقله عنهم إلى المسلمين. واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ، وفلان، وفلان، وفلان، ورجال من المسلمين لا نعلمهم واللّٰه بهم عالم، كانوا يُدَوّون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل دويّ النحل، وهم آساد الناس، لا يشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تُكتبْ لهم) [٢].

فالنصر قد تم بفضل اللّٰه – سبحانه – لكنه ليس نصرًا سهلًا، فقد دفع ثمنه أغلى

---

(١) تاريخ الطبري (٤٣٤/٢).

(٢) المصدر نفسه (٤٣٤/٢، ٤٣٥).

ما يدفع في الوجود حوالي تسعة آلاف شهيد، وهو رقم لا مثيل له في تاريخ الحروب الإسلامية، إذ قد مضى ربع الجيش واستشهد ثَمَنَ هذا النصر، لقد تم النصر حسب السنن الربانية في الأمم، بعد صبر طويل وزلزال شديد، فأعاد له بذلك أجواء الخندق وصورتها: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

أما أنهم جاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم فيعبر عنه الحديث عن الأعداد الضخمة التي واجهت المسلمين، فقد أوردها سعد ﷺ بقوله: (وقد لقوا المسلمين بعدة لم يَرَ الراؤون مثل زهائها).

وتعود صورة الخندق وقريظة ثانية بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

ولئن كُفِيَ المؤمنون القتال يوم الأحزاب، فلم يُكْفَوه يوم القادسية، وأمضوا نهارهم وليلهم ونهارهم الثاني متصل كلالهم بكلالِهم يقاتلون في سبيل اللَّه حتى أنزل اللَّه نصره. ولئن قُتل من المسلمين ربع الجيش تقريبًا فقد قتل من الفرس ثلث جيشهم كذلك، وعجزوا بحول اللَّه وقوته أن يحققوا النصر.

ولم يكتف المسلمون بالنصر في ساحة المعركة - كما ذكر سعد ﷺ في كتابه - (واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج). هذه الفقرة الثالثة في الكتاب والتي جعلت عمر ﷺ من المعركة رأي عين.

أما الفقرة الرابعة فقد تحدثت عن الشهداء من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين قضَوا نَحْبَهم في المعركة، وقد صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه، ثم يتابع أسماء الشهداء العظام الذين لا يعلمهم سعد، واللَّه عالم بهم.

بينما نجد الفقرة الخامسة تعيد الثناء على الجنود العظام وليس الأبطال العظام فقط. والذين يعيشون مع كتاب اللَّه، إذا جنَّ عليهم الليل عكفوا على كتاب اللَّه لهم فيه دوي كدوي النحل، فإذا أسفر النهار، وانفضّ السُّمّار، مضوا حُبًّا على متون خيلهم، يجاهدون في سبيل اللَّه كما وصفهم أعداؤهم: رهبان في الليل، فرسان في النهار. فهم آساد الناس، وهم صور متكررة مبدعة من الرعيل الأول، ولم يفضل الشهداء الذين ينتظرون إلا بفضل الشهادة.

إنه الجيل العظيم الذي استطاع أن ينشئ جيلًا جديدًا بديلًا، في امتداده الأفقي، وجيلًا شكل أساتذة الدنيا في التربية، في امتداده في الأعماق.

هذا الجيل ليس فيه من جيل مجتمع النبوة إلا ١/٣٦ من الجيش؛ فمعلمو الجيل النبوي القرآني الفريد هم: بضعة وسبعون بدريًّا، وألف من الصحابة، إذ البضعة والسبعون جزء من الألف، وألف الصحابة ليسوا على مستوًى واحدٍ من الصحبة، إنما هم في تفاوت فيها، بين مسلمة الفتح والمهاجرين والأنصار، ومن لقي رسول اللَّه ﷺ ولو لِمرَّةٍ واحدة، كان هؤلاء الألف بعون اللَّه قادرين على تربية عشرات الألوف التي وردتهم بمعاني القرآن والإيمان والإخلاص والتجرد للَّه. أما فنون الشجاعة وعبقرية الحرب، فلهم فيها أقدامٌ، عريقون في هذه الخصائص إذ اختارهم اللَّه تعالى ليكونوا حملة رسالته في الأرض: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

الخليفة العظيم يسأل عن أخبار المعركة:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن مجالد بن سعيد قال: لما أتى عمرَ بنِ الخطاب نزولُ رستم القادسية، كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح حتى انتصاف النهار، ثم يرجع إلى أهله ومنزله...) [١].

ترى هل هذه مهمة أمير المؤمنين؟

أليس عنده غلام يبعث به إلى حدود المدينة، يسأل الركبان القادمين عن المعركة، أوليست الأمة كلها رعيته، فيكلف واحدًا من هذه الرعية أو عشرة أو مائة، يتعقبون أخبار المعركة، ويسألون الركبان القادمين عنها. وهل يليق بأمير المؤمنين أن يُشغل بهذا الأمر الذي يقوم به أدنى غلام عنده؟ ثم ينشغل بالأمور العظام في تسيير أمور الدولة.

أسئلة مثيرة ومحيرة وعجيبة، لا جواب لها في سجل أمير المؤمنين.

فعمر بن الخطاب ﷺ، لم يمض إلى هذا البلاء من الانتظار تحت الشمس المحرقة لا دقائق فحسب، بل ساعات، حتى يقوم قائم الظهيرة، لم يفعل هذا بصفته أمير المؤمنين، إنما فعل ذلك بصفته أصغر جندي في الدولة، وأقل غلام في الأمة يتحرق إلى أخبار المعركة، فلا يملك نفسه من تكرار هذه المهمة يوميًّا، ويرى حرقة رأسه من

---

(١) تاريخ الطبري (٤٣٥/٢).

الخارج بشمس الصحراء الحارقة، يخفف من حرقة رأسه من الداخل في انتظار أخبار جيش المسلمين في العراق، فهو جيش لم يُعبَّأْ مثلُه قط، ما بقي فارس ولا شاعر ولا سيد من سادات العرب إلا شارك فيه.

ونجحت أخيرًا هذه المحاولات:

(... فلما لقي البشير سأله من أين؟ فأخبره.

قال: يا عبد اللَّه حدثني.

قال: هزم اللَّه العدو.

وعمر يخُبُّ معه ويستخبره، والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه...).

فالبشير قلبه يتحرق للوصول إلى المدينة لإيصال أخبار المعركة العظيمة إلى أمير المؤمنين، فما بال هذا الرجل « الحِشري » يلح عليه ويسأله عن أخبار القادسية، فأجابه بحيث لا يتأخر عن مهمته، فأمير المؤمنين ينتظر في قصره على أحر من الجمر، ولا يريد لهذا العبد أن يأخذ من وقته لحظة واحدة، ما باله لقد أجابه أن اللَّه هزم العدو، فماذا يريد بعد ذلك، لم يبق إلا أن يترك ناقته لكثير الغلبة هذا، وينزل إلى الأرض ويجلس بين يديه، ويريه خطاب أمير المؤمنين، فهل يتخلى عن رسالته لهذا المسلم الذي يتدخل فيما لا يعنيه، ولكن الرجل يتجاوز آداب الذوق، هل هو عميل يريد أن يوصل الأخبار إلى العدو، فلن يتمكن من هذا، فالرسول أنضج وأوعى من ذلك، فها هو يسرع مسير ناقته، وهو يعلم أن أمير المؤمنين بانتظاره، لكن هذا الرجل مريب إنه يمشي بسرعة الناقة، ويتابع أسئلته حتى لجَّ منه ومن تدخلاته.

(... حتى دخل المدينة، فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة أمير المؤمنين، فقال: هلا أخبرتني - رحمك اللَّه - أنك أمير المؤمنين؟ وجعل عمر يقول: لا عليك يا أخي...) [1].

وعظمة الحادثة تلجم اللسان عن أي تعليق، وتلجم القلم عن سطر أي كلمة.

فهي أكبر من عالم الدنيا هذه، هي تربية النبوة العظيمة الخالدة التي لا يُقَدَّمُ عليها إلا مثلُ رسولِ اللَّه ﷺ ومثلُ الصِّدّيق.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٣٥/٢).

خطبة أمير المؤمنين:

ولما أتى عمرَ الفتح قام في الناس فقرأ عليهم الفتح، وقال:

- إني حريص على أن لا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا إلى بعض، فإذا عجز ذلك عنا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف.
- ولوددت أنكم علمتم ما في نفسي مثل الذي وقع لكم.
- ولست مُعْلِمكُمْ إلا بالعمل.
- إني واللَّه ما أنا بملك فأستعبدكم، وإنما أنا عبد عُرِضَت عليه الأمانة.
- فإن أبيتها ورددتها عليكم، واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم، وتَروَوا سعدْتُ.
- وإن أنا حملتها واستتبعتكم إلى بيتي شقيت.
- ففرحت قليلًا، وحزنت طويلًا، وبقيت لا أقال ولا أرد فأستعتب) [١].

إنه ربيع البشرية كلها، حياة هذين الشيخين أبي بكر وعمر، وخلافة هذين العظيمين؛ فمهمة الحاكم أن لا يدع حاجة لشعبه إلا لَبّاها أيًّا كانت هذه الحاجة مادِيَة أو معنوية (ما اتسع بعضنا لبعض).

وعندما تعجز الدولة عن تلبية حاجات شعبها، فماذا يفعل الحاكم؟ يعِدُهم بالخُطَب والأماني الفارغة، ويدَع شعبه يئن تحت خط الفقر، أم يتحول إلى صف شعبه البائس المحروم!! سلوا حكام الأرض ماذا يفعلون؟!!

إنهم ينتهبون لذاتهم، ويحافظون على مصالحهم ومكاسبهم، ومصالح الفئة المستأثرة الغنية، حتى الذين يدَّعون الاشتراكية والشيوعية يحصلون الآلاف والملايين والمليارات والثروات المنقولة وغير المنقولة، ثم يبحون أصواتهم ويوجهون إعلامهم أنهم سواء مع شعوبهم، أما عمر ﷺ وزير رسول اللَّه ﷺ، وخليفة الصديق، فحياته واضحة في العراء، وليس لديه كلام يقوله بل لديه فعل يفعله.

(فإذا عجز ذلك عنا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف.

ولوددت أنكم علمتم ما في نفسي مثل الذي وقع لكم).

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٣٥).

(ولست مُعْلِمكُمْ إلا بالعمل).

أو ليس هذا العمل الذي وقع البارحة، وهو ينتظر قدوم البشير، ويرضى أن يركض وراءه وهو على بعيره، ويسأله بلهفة عن أخبار القادسية.

إن قمة العظمة يوم يلتقي بالبشير على مشارف المدينة، فيعلمه أنه أمير المؤمنين، ويأخذ منه البريد ويطلع عليه، فيكفيه أن يبقى في لظى الصحراء يتبع الأخبار كل يوم حتى يقوم قائم الظهيرة لكن العظمة البشرية تستحي والله أن تصل إلى مستواه، أن يرضى أن يسرع ويَخُب مع سرعة البعير وهو يسأل البشير عن الأخبار فيتلقاه الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين ويسقط في يد البشير، ويرى نفسه أصغر من نملة وقد شُقَّ على أمير المؤمنين السير. وتابع الطريق معه وهو ماش، والبشير راكب، وقد ضجر من أسئلته، فيقول وهو غارق في عظمة هذا الخليفة: (فهلا أخبرتني - رحمك الله - أنك أمير المؤمنين؟!) وجعل عمر يقول: (لا عليك يا أخي).

هذا نموذج حي من التعليم بالعمل، وكان بإمكانه أن يسخر إعلام الدولة كلها لإيضاح مناقب الخليفة الذي يعيش هموم أمته.

ترى أيهما يعلم أكثر، وهل هذا الدرس كان للبشير فقط، أم كان للأمة كلها تتناقله بين صفوفها وتتحدث عما عمل في متابعة أخبار المعركة، وتتحدث عما فعل مع البشير، وتتناقلها الركبان في الأرض فهو الأعظم في الأرض، وقد انهار كسرى وقيصر.. من هذه النماذج تكون التربية بالعمل.

ولا يكتفي ﷺ بذلك، بل يعلن للدنيا بأنه خليفة، وليس بملك والناس عبيد عنده.

(إني والله ما أنا بملك فأستعبدكم، وإنما أنا عبد).

أعظم شخص في الأرض سلطانًا يقدم نفسه لشعبه: (إنما أنا عبد)، وهذا هو المعنى الحقيقي للخلافة.

وليسمع دعاة الديمقراطية في الأرض كلها، كيف يقدم عمر نفسه للأمة، إنه عبد (وإنما أنا عبد عُرِضَت عليه الأمانة).

وقبول تحمل هذه الأمانة يعني البرنامج الذي يقدمه: إشباع كل بيت، وإرواء كل فرد، ومتابعة كل إنسان في هذه الرعية لتأمين شِبَعِهِ وريه، يكون فعلًا قد أدى الأمانة.

ولقد عبر عن هذا المعنى في مكان آخر بقوله: « لو عثرت شاة على شاطئ الفرات لخشيت أن يسألني اللّه عنها لِمَ لم أُعبِّدْ لها الطريق ».

لكنه يحس أنه يخون الأمانة، حين يضطر الناس إلى مطالبتهم بحقوقهم، إذ يتبع الناس الدولة بالمظاهرات والتهديدات، لرغيف الخبز، أو بالتغيير الدموي، والتصفية الجسدية للحاكم حتى يعطي الحق لشعبه.

إن العدل عند الحاكم إنما يقوم بأن يلبي مطالب الأمة. لكن العدل عند عمر بن الخطاب أكبر من ذلك، العدل عنده أن لا يضطر الأمة إلى تقديم مطالبها، بل عليه أن يسعى إلى كل بيت، وكل فرد، ويطمئن إلى وصول حقه له. كما عبر ﷺ عن هذا المعنى بقوله: (لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمرَّ وجهه) [١].

وندعو كل حكام الأرض وملوك الأرض، ودعاة التحرير للإنسان أن يقفوا على أبواب المدرسة العمرية، يتعلمون منها مفهوم أداء الأمانة، ومفهوم خيانتها من هاتين الجملتين البسيطتين.

(فإن أنا ردَدْتُها عليكم واتّبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم، وترووا سَعِدْت، وإن أنا حملتها واستتبعتكم إلى بيتي شقيت، ففرحت قليلًا وحزنت طويلًا، وبقيت لا أقال ولا أرد ولا أستعتب).

إنه الخوف من الحساب يوم القيامة، فمن من حكام الأرض عنده هذا الخوف؟ إنهم يخافون محاسبة شعوبهم فيسقطوا في الانتخابات القادمة.

ومع هذا فهذه خطوة صحيحة على الطريق الصحيح.

أما أسوأ هؤلاء الحكام، فهم الذين يزعمون أنهم مسلمون، ولا يخافون حساب شعوبهم لأنهم حكموهم بالقوة والقهر والسيف، ولا يخافون يوم الحساب.

أهل السواد، المواطنون الجدد:

إنهم السكان الحقيقيون، وهم أبدًا خاضعون لمن يحكمهم، فهل يبقون تحت هذا الذل، أم أن حقوق المواطنة ستعود إليهم.

(وكتب مع أبي الهياج الأسدي ربعي بن مالك:

- إن أهل السواد جَلَوا، فجاءنا من أمسَكَ بعهده، ولم يُجلِب علينا، فتممنا لهم

---

(١) الخراج لأبي يوسف (ص ٥٧).

ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم، وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن.

- فأحدث لنا، فيمن تم وفيمن جلا، وفيمن ادعى أنه استُكْرِه وحُشِرَ، فهرب ولم يقاتل، أو استسلم، فإنا في أرض رغيبة.

- والأرض خلاء من أهلها، عددنا قليل، وقد كثر أهل صلحنا.

- وإن أعمر لنا وأوهن لعدونا تألفهم.

فقام عمر في الناس فقال:

- إنه من يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظه، ولا يضر إلا نفسه.

- ومن يتبع السنة، وينتهِ إلى الشرائع، ويلزم السبيل النهج ابتغاء ما عند الله لأهل الطاعة أصاب أمره، وظفر بحظه، وذلك بأن الله ﷻ يقول: ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

- وقد ظفر أهل الأيام والقوادس بما يليهم، وجلا أهله، وأتاهم من أقام على عهدهم.

- فما رأيكم فيمن زعم أنه استُكره وحُشر؟

- وفيمن لم يدَّع ذلك، ولم يُقِم وجلا؟

- وفيمن أقام ولم يدع شيئًا؟ ولم يجلُ؟

- وفيمن استسلم؟

- على أن الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبه إلا خيرًا.

- وأن من ادَّعى فصُدِّق أو وفَّى فبمنزلتهم.

- وإن كُذِّب نُبِذَ إليهم وأعادوا صلحهم.

- وأن يجعل أمر من جلا إليهم.

- فإن شاؤوا وادعوهم وكانوا لهم ذمة.

- وإن شاؤوا تموا على منعهم من أرضهم، ولم يعطوهم إلا القتال.

- وأن يخيروا من أقام واستسلم: الجزاء أو الجلاء.

- وكذلك الفلاح)[1].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٣٥، ٤٣٦).

لقد اتخذ القرار بعد حوار طويل مع أهل الشورى، يستمع إلى آرائهم جميعًا ويتناقشون فيما يرون، ويعرض كل واحد رأيه خالف أو وافق رأي غيره. **وبعد هذا المؤتمر الاستشاري صدرت القرارات بالإجماع على ما يلي:**

١ - الذين وفوا بعهودهم ولم يمالئوا الفرس فعلى عهدهم وذمتهم، يعملون في أرضهم، وعليهم الخراج في أرضهم، والذمة في أعناقهم، ولهم بعد ذلك ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

٢ - ومن ادعى الوفاء، وصُدِّق بادعائه، فيعامل معاملة الفريق الأول.

٣ - ومن ادعى الوفاء وأثبتت الأحداث كذِب ادعائه، يدخلون في صلح جديد أو يحاربون.

٤ - والذين جلوا عن أرضهم، فيُعرض عليهم الخيار، العودة إلى أرض بعقد جديد وصلح جديد.

٥ - وإن اختاروا المواجهة ورفضوا الصلح، لم يعطوا إلا القتال.

٦ - والذي أقام واستسلم ولم يدع شيئًا يخير بين الجزاء أو الجلاء.

جواب الكتاب إلى سعد:

وكتب جواب كتاب أنس بن الحليس: (اسم الرسول الذي جاء بالكتاب).

أما بعد فإن اللّه ﷻ أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين:

- العدل في السيرة.
- والذكر.
- فأما الذكر فلا رخصة فيه في حاله، ولم يرض منه إلا الكثير.
- وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد، ولا في شدة ولا في رخاء.
- والعدل وإن رُئيَ لينًا، فهو أقوى وأطفأُ للجَوْر، وأقمعُ للباطل من الجور.
- وإن رئي شديدًا فهو أنكش للكفر.
- فمن تم على عهده من أهل السواد، ولم يعِنْ عليكم بشيء، فلهم الذمة، وعليهم الجزية.

- وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض، فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاؤوا.

- وإن لم تشاؤوا فانبذوا إليهم، وأبلغوهم مأمنهم) [١].

(وأجابهم في كتاب أبي الهياج:

- أما من أقام ولم يَجْلُ وليس لهم عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم، وكفهم عنك إجابة، وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك.

- وكل من ادعى ذلك فصُدِّق فلهم الذمة.

- وإن كُذِّبوا نبذ إليهم.

- وأما من أعان وجلى، فذلك أمر جعله اللَّه إليكم.

فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقيموا لكم في أرضهم، ولهم الذمة، وعليهم الجزية.

- وإن كرهوا ذلك، فاقسموا ما أفاء اللَّه عليكم منهم) [٢].

التنفيذ العملي لقرارات مجلس الشورى:

(فلما قدمت كتب عمر على سعد بن مالك والمسلمين عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد أن يتراجعوا، ولهم الذمة وعليهم الجزية، فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده إلا أن خراجهم أثقل.

- فأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم.

- وأنزلوا من أقام منزلة ذي العهد.

- وكذلك الفلاحون.

- ولم يُدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى.

- ولا ما كان لمن خرج معهم، ولم يجبهم إلى واحدة من اثنتين الإسلام أو الجزاء.

- فصارت فيئًا لمن أفاء اللَّه عليه.

- فهي والصوافي الأولى ملك لمن أفاء اللَّه عليه.

- وسائر السواد ذمة.

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٤٣٦/٢).

- وأخذوهم بخراج كسرى.
- وكان خراج كسرى على رؤوس الرجال على ما في أيديهم من الحصة والأموال.
- وكان مما أفاء اللَّه عليهم.
- ما كان لآل كسرى.
- ومن صوَّب معهم.
- وعيال من قاتل معهم وماله.
- وما كان لبيوت النيران والآجام.
- ومستنقع المياه.
- وما كان للسكك.
- وما كان لآل كسرى.

فلم يتأت قَسْم ذلك الفيء الذي كان لآل كسرى ومن صوَّب معهم، لأنه كان متفرقًا في كل السواد.

- فكان يليه لأهل الفيء من وثقوا به، وتراضوا عليه.
- فهو الذي يتداعاه أهل الفيء لا عُظْمُ السواد.
- وكانت الولاة عند تنازعهم فيها تهاون بقسْمِه بينهم.
- فذلك الذي شبَّه على الجهلة أمر السواد.
- ولو أن الحلماء جامعوا السفهاء الذين سألوا الولاة قسْمَهُ لقسموه بينهم، ولكن الحلماء أبوا، فتابع الولاةُ الحكماء.
- وترك قول السفهاء.
- كذلك صنع علي ﷺ.
- وكل من طُلِبَ إليه قَسْمُ ذلك فإنما تابع الحلماء، وترك قول السفهاء.
- وقالوا: لئلَّا يضرب بعضهم وجوه بعض) [1].

لقد كان الفيء إذن على المسلمين، فقط هو ما كان لآل كسرى ومن خرج معهم،

(١) تاريخ الطبري (٤٣٦/٢).

وما كان لبيوت النيران وملكته عامة ولم يتم قسْمها لصعوبة ذلك، فكان يعمل عليها بعقد مزارعة من يثق بهم أصحاب الفيء.

لقد وضَّح الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ هذا المعنى بتفصيلاته بقوله: (... السري عن شعيب عن سيف عن محمد بن قيس عن عامر الشعبي قال:

قلت له: السواد ما حاله؟

قال: أُخِذَ عنوة وكذلك كل أرض إلا الحصون، فجلا أهلها، فَدُعوا إلى الصلح والذمة فأجابوا أو تراجعوا، فصاروا ذمة وعليهم الجزاء، ولهم المنعة، وذلك هو السنة كذلك صنع رسول اللَّه ﷺ بدومة، وبقي ما كان لآل كسرى ومن خرج معهم فيئًا لمن أفاءه اللَّه عليه) [١].

وفي رواية ثانية للشعبي: (عن سيف عن عمرو بن محمد عن الشعبي قال:

قلت له: إن أناسًا يزعمون أن أهل السواد عبيد.

قال: فعلام يؤخذ الجزاء من العبيد؟ أخذ السواد عنوة، وكل أرض علمتها إلا حصنًا في جبل أو نحوه، فدعوا إلى الرجوع فرجعوا، وقبل منهم الجزاء، وصاروا ذمة، وإنما يقسم من الغنائم ما تغنم، فأما ما لم يغنم، وأجاب أهله إلى الجزاء من قبل أن يتغنم فلهم جرت السنة بذلك) [٢].

قول ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن أبي ضمرة عن عبد اللَّه ابن المستورد، عن محمد بن سيرين قال: البلدان كلها أخذت عنوة إلا حصون قليلة عاهدوا قبل أن يُنزلوا، ثم دُعوا - يعني الذين أخذوا عنوة - إلى الرجوع والجزاء، فصاروا ذمة أهل السواد، والجبل كله أمر لم يزل يصنع في أهل الفيء، وإنما عمل عمر والمسلمون في هذا الجزاء على إجراء ما عمل به رسول اللَّه ﷺ في ذلك، وكان بعث خالد بن الوليد من تبوك إلى دومة الجندل، فأخذها عنوة وأخذ ملكها أكيدر ابن عبد الملك أسيرًا فدعاه إلى الذمة والجزاء، وقد أخذت بلاده عنوة، وأخذ أسيرًا، وكذلك فعل بابني عريض فادعيا أنهما أوداؤه [٣]، فعقد لهما على الجزاء والذمة،

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٤٣٧/٢).

(٣) أوداء: جمع وديد وهو المحب.

وكذلك كان أمر يحنة بن رؤبة صاحب أيلة، وليس المعمول به من الأشياء كرواية الخاصة، من روى غير ما عمل به الأئمة العدول المسلمون، فقد كذب وطعن عليهم) [1].

موقف خطير لأمير المؤمنين: منع الزواج من الكتابيات:

(عن سيف عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن سعيد بن جبير قال: بعث عمر بن الخطاب إلى حذيفة بعدما ولاه المدائن وكثر المسلمات: إنه قد بلغني أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب فطلِّقها.

فكتب إليه: لا أفعل حتى تخبرني، أحلال أم حرام، وما أردت بذلك؟

فكتب إليه، لا، بل حلال، لكن في نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم، فقال: الآن. فطلَّقها) [2].

(... وعن جابر قال: شهدت القادسية مع سعد، فتزوجنا نساء أهل الكتاب، ونحن لا نجد كثير مسلمات، فلما قفلنا فمنا من طلَّق، ومنا من أمسك) [3].

أمير المؤمنين يصدر أمرًا لواليه بتطليق زوجته الكتابية، فيرفض الوالي علانية أمره، فنحن لسنا أمام أرقام إنما نحن أمام أمة تحاكم قادتها إلى كتاب اللَّه ورسوله. لقد علَّل رفضه صراحة بقوله: لا أفعل حتى تخبرني: أحلال أم حرام؟

وهل يملك عمر بن الخطاب أو أحد من أهل الأرض أن يحل حرامًا أو يحرم حلالًا. وحذيفة ﷺ يحرص على أن يُعَلِّمَ الأمة الفرق بين منع الأمير لحلال من خلال مصلحة عامة وبين تحريم لحلال لا يملكه بشر.

ولم يبعث أمير المؤمنين لحذيفة من اعتقله وهو يقول له بملء فيه: لا. بل أكد حقه بذلك كما سن الصديق ﷺ (أطيعوني ما أطعت اللَّه فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم). وأجابه عمر ﷺ معللًا علة المنع وطلب التطليق حتى لا تكسد النساء المسلمات أمام جمال الكتابيات، ويكون لهن السيطرة على البيت المسلم، لجمالهن الآسِر.

فقال: الآن. فطَلَّقَهَا.

الإقطاع:

(عن سيف عن عمرو بن محمد عن عامر قال: أقطع الزبير وخباب وابن مسعود

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٤٣٧/٢).

وابن ياسرٍ وابن هبار أزمان عثمان، فإن يكن عثمان أخطأ فالذين قبلوا منه الخطأ أخطأ، وهم الذين أخذنا عنهم ديننا، وأقطع عمر طلحة وجرير بن عبد اللَّه والربيل ابن عمرو، وأقطع أبا مفزِّز دار الفيل في عدد ممن أخذنا عنهم ديننا، وإنما القطائع على وجه النفل من خمس ما أفاء اللَّه، وكتب عمر إلى عثمان بن حنيف مع جرير: أما بعد فأقطع جرير بن عبد اللَّه قدْر ما يقوته لا وكس ولا شطط، فكتب عثمان إلى عمر: إن جريرًا قدم عليَّ بكتاب منك، تقطعه ما يقوته، فكرهت أن أُمضِي ذلك حتى أراجعك فيه فكتب إليه عمر: أن قد صدق جرير، فأنفِذ ذلك، وقد أحسنتَ في مؤامرتي (١). فأقطع أبا موسى وأقطع عليًا ﷺ كردوس بن هانئ الكردوسية، وأقطع سويدَ بن غفلة الجعفي، وعن سيف عن ثابت بن هريم عن سويد بن غفلة قال: استقطعت عليًا ﷺ، فقال: اكتب: هذا ما أقطع عليٌّ سويدًا أرضًا لداذويه ما بين كذا إلى كذا وما شاء اللَّه) (٢).

جوائز للمبدعين من مال الدولة:

وللإقطاع حديثه الطويل فيما بعد، وكيف استطاع الخليفة عمر ﷺ أن يقطع دابره ويحول دون تحول الدولة الإسلامية إلى دولة إقطاعية، تحكم العالم لقرون، كما هو الحال في أوربا. لكن حديثنا هنا مقصور على أصل المبدأ، الذي أقره رسول اللَّه ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، في إعطاء جوائز للمبدعين، والمبدعون هنا هم الذين أقاموا دولة الإسلام بتضحياتهم بحيث لا يحتاجون إلى أحد بعد هذا الجهاد. إنه الراتب التقاعدي الثابت الذي يكفي المجاهد حاجته كما حددها عمر ﷺ. (فأقطع جرير بن عبد اللَّه قدر ما يقوته لا وكس ولا شطط).

مع شروط هذا الإقطاع الأساسية أن لا يكون نزع ملكية من صاحب حق، لأن هذا الأمر قد أصدر أمير المؤمنين قراره فيه بعد اجتماعه مع مجلس الشورى ولُخص بما يلي: (... عن يزيد النخعي قال: أخذ السواد عنوة. فدُعوا إلى الرجوع، فمن أجاب فعليه الجزية وله الذمة، ومن أبى صار مالُه فيئًا فلا يحل بيع شيء من ذلك الفيء).

ومن الناحية العملية عادوا جميعًا إلى أراضيهم إلا ما كان مِلكًا لكسرى

---

(١) مؤامرتي: مراجعتي في الأمر.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٣٨).

ورجالاته، فقد أصبح فَيئًا للمسلمين. وكما قال الشعبي رحمه الله: (لا يحل بيع شيء من ذلك الفيء فيما بين الجبل والعذيب). فمن هذا الفيء كان الإقطاع للقيادات الكبرى في الإسلام، فيما هو ملك للدولة لا للأفراد.

تفضيل أهل البلاء:

أ - من قتل قتيلًا فله سَلَبه:

(عن سيف عن عبيد عن عصمة قال: كتب عمر إلى سعد: أنا أعلم بزهرة منك، وإن زهرة لم يكن ليغيب عن سلب سلبه شيئًا، ... وإني قد نفلت كل من قتل رجلًا سلبه، فدفعه إليه فباعه بسبعين ألفًا) [١] وكان المقتول الجالينوس نائب القائد العام للفرس.

ب - أهل البلاء:

(عن سيف عن عبيدة عن إبراهيم وعامر: أن أهل البلاء يوم القادسية فضلوا عند العطاء بخمسمائة خمسمائة في أعطياتهم؛ خمسة وعشرين رجلًا، منهم زهرة وعصمة الضبي والكلج) [٢].

جـ - أهل الأيام:

(وأما أهل الأيام فإنه فرض لهم على ثلاثة آلاف، فضلوا على أهل القادسية) [٣] وهم الضباط المتقاعدون الكبار.

د - تفاوت الرواتب:

(... قيل لعمر: لو ألحقت بهم أهل القادسية، فقال: لم أكن لألحق بهم من لم يدركهم، وقيل له في أهل القادسية: لو فضلت من بَعُدَتْ داره على من قاتلهم بِفِنَائه؟ قال: وكيف أفضلهم عليهم على بعد دارهم، وهم شجن العدو، وما سويت بينهم حتى استطبتهم، فهَلّا فعل المهاجرون والأنصار؛ إذ قاتلوا بفنائهم مثل هذا؟) [٤]

* * *
* *
*

(١ - ٤) تاريخ الطبري (٢/٤٢٦).

الفصل السادس عشر

خطوط عريضة
في المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة
« اليرموك والقادسية »

١ - خليفة جديد: خطاب العرش:

(عن الحسن البصري قال: إن أول خطبة خطبها عمر ﷺ، حمد اللَّه وأثنى عليه وقال: أما بعد فقد ابتُليتُ بكم وابتُلِيتم بي، وخُلِّفت فيكم بعد صاحبيّ (رسول اللَّه ﷺ والصديق) فما كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا، وما غاب عنا وليناه أهل القوة والأمانة، فمن أحسن جزيناه حسنًا، ومن أساء عاقبناه، ويغفر اللَّه لنا ولكم).

٢ - اليرموك:

اليرموك ليست معركة عابرة، إنما هي معركة فاصلة غيرت مجرى التاريخ في الشام ابتداءً وفي العالم انتهاءً، نعم كان لعظمة القيادة الدور الأكبر في التخطيط والتنظيم، لكن الدور الأكبر منه، هو دور القاعدة الصلبة في التنفيذ، والثبات حين البأس.

لقد شنَّ الرومان الهجوم مرتين على الجيش الإسلامي، وهزموا مواقع القيادة، وأزاحوا المسلمين عن مواقعهم، غير أن التضحيات الفدائية، والدعوة إلى الثبات، صدت هذا الهجوم مرتين، ثم أعقبته بالزحف العام على العدو.

لقد قُتل في اليرموك ثلاثة آلاف شهيد، مقابل مائة وثمانين ألفًا من العدو...

وجاء في أمهات كتب التاريخ أن جيش الإسلام في اليرموك يضم ألفًا من الصحابة خير الناس وصفوة الأمة بعد نبيهم عليه الصلاة والسلام، وكان القادة سعداء بوجودهم ضمن الجيش الإسلامي، وكيف لا يفرحون بوجودهم وهم عاصروا ورأوا وجالسوا سيد البرية محمدًا ﷺ، وتلقوا آداب الإسلام وتعاليمه، وتلقوا فنون الحرب وهم يذودون عنه وهو سيد القادة في الوجود في التخطيط والتنفيذ لمواجهة العدو؟! وزاد من عزة جيش الإسلام وارتفاع معنوياته أن فيه مائة ممن

حضروا معركة بدر الكبرى، والتي بانتصارهم فيها رسخت جذور الإسلام.

٣ - لماذا انتصر المسلمون في اليرموك:

قال المؤرخ هـ. جـ ولز في كتابه [١]:

(... والحملات العسكرية التي بدأت عند ذلك من ألمع ما خلد تاريخ العالم، فقد أصبحت بلاد العرب على الفجأة بستانًا من رجال ممتازين، ويبرز اسم خالد بينهم أزكى نجم وأسطعه في مجموعة من القواد المقتدرين الأتقياء... وكان خالد هو الذي قاد معركة اليرموك ضد جيش هرقل على ضفاف اليرموك - وهو أحد روافد الأردن... وكانت الكتائب (الرومانية) كما كان حالها على الدوام خُلوًّا من الرجال الصالحين... وكانت صفوف المسلمين مليئة بالمؤمنين الذين كان لا يسطع أمام نواظرهم إلا أمران: النصر أو الفردوس...).

وقال المستر ول ديورانت في كتابه [٢]:

(ولما أن وصل خالد وجنوده (من العراق) إلى الجيش العربي الرئيسي المعسكر على ضفاف اليرموك على بعد ستين ميلًا إلى الجنوب الشرقي من دمشق، كانت تلك المؤن التي اصطحبها عبر صحراء السماوة قد نفدت، وهناك هزم أربعون ألفًا من العرب مائتين وأربعين ألفًا من الروم في المعارك الفاصلة، التي لا حصر لها في التاريخ (٦٣٤م)، وهكذا قامر الإمبراطور هرقل ببلاد الشام في معركة واحدة، فلما خسرها أصبحت البلاد قاعدة الدولة العربية الآخذة في الاتساع... وكان العرب فرسانًا مهرة لا يضارعهم في مهارتهم خيالة الفرس والروم).

٤ - عون اللَّه للمسلمين في فحل:

(هؤلاء الثمانون ألفًا من الفرسان الذين فتح لهم عمرو بن العاص الفجوة في اليرموك ففروا واعتصموا بفِحْل، ثم مضوا إلى بيسان، ثم عادوا إلى مصارعهم في أوحال فحل، إنما يساقون بقدر اللَّه إلى أن يكونوا طعمة بين الجيش نفسه الذي واجههم في اليرموك فكان أحسن ظفر وأهنأه، فأصيب الثمانون ألفًا لم يفلت منهم إلا الشريد.

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية (٧/٧٦٤٥).

(٢) قصة الحضارة (١٢/٧٤ - ٧٦)

وكان اللَّه يصنع للمسلمين وهم كارهون، كرهوا البثوق، فكانت عونًا لهم على عدوهم).

ألا ما أروعه من تعبير: « يصنع للمسلمين وهم كارهون »، فلقد تألم المسلمون كثيرًا لما حِيْلَ بينهم وبين فتح فِحْل نتيجة هذه البثوق والأوحال، ولم يكونوا يدرون ما اللَّه صانع لهم وَمُعِدٌّ لهم، إنه عون اللَّه - تعالى - لحزبه وجنده، مثل ما صنع للمسلمين وهم كارهون في بدر: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٥، ٦].

لقد كانوا يريدون التجارة، وكرهوا لقاء العدو، ولم يكونوا يعلمون ما ادخر اللَّه لهم من أعظم نصر في تاريخهم ليكونوا خيرة أهل الأرض، وتأتي الملائكة لتقود المعركة.

وها هم الجند الذين اتبعوهم بإحسان ورضي اللَّه عنهم، يصنع اللَّه لهم وهم كارهون، هرب الثمانون ألفًا من اليرموك، ثم منعهُم المسلمون من دخول فِحْل بالبثوق التي فتحوها، وحالوا بين الفتح الأول لهم، ليعودوا ثانية إليها فيجدوا الروم قد خرجوا إلى بيسان، وهاجموا المسلمين ليقضوا عليهم في فِحْل، فكان القضاء عليهم فيها.

٥ - التمسك بالقيم وعدم أسر الملك:

وها نحن نلتقي في بداية الطريق مع أبي عبيد، الذي يجعل المبدأ والعقيدة فوق المصلحة، فيرفض قتل الأسير الذي تبين فيما بعد أنه قائد جيش العدو؛ لأن جنديًّا من المسلمين أجاره، إنهم يمضون إلى أمم الأرض، ويعلمونهم عظمة المبادئ التي يحملونها، ويربونهم عن طريق القدوة عليها:

(إني أخاف اللَّه أن أقتله، وقد أمَّنه رجل مسلم).

والمبدأ الثاني الذي يعلمه القائد المسلم لقائد جيش العدو هو أن المسلمين أمة واحدة لا طبقية فيها، لا فرق بين أمير وفقير، ولا بين قائد وجندي، فكلمة أدنى رجل في الجيش تسري على الجيش كله، وأمانٌ من أقل رتبة في الجيش يساوي أمانَ قائدِ الجيش؛ لأن المسلمين في التناصر والتواد كالجسد الواحد، وما لزم بعضَهم لزمهم كلَّهم.

والمبدأ الثالث الذي علمته هذه الأمة لأمم الأرض هو أن الغاية لا تبرر الوسيلة، فكشف الأسير أنه قائد جيش العدو لا يغير من الأمان شيئًا، بل وجد مندوحة في

التنصل من العهد الذي قطعه هذا الجندي، إذ هما اثنان قد أسراه، وعفا أحدهما ولم يعفُ الآخر، وظهر أن القائد الفارسي جابان هو الذي نقض العهد ابتداءً، واستجاب للفرس في الثورة على المسلمين، وجمع الجموع لحربهم وقتالهم، وهو أول من نقض العهد ونكث وغدر.

فلم يعط هذان المبرران لأبي عبيد ﷺ عذرًا لقتله، إنه غادر في الأصل، واللذان أسراه عفا أحدهما ولم يعف الآخر، كل هذا لم يكف ليكون مبررًا لقتله.

فقالوا له: إنه الملك.

قال:

وإن كان لا أغدر.

وقالوا: هذا الملك، وهو الذي لقينا بهذا الجمع.

فقال:

أَيُؤَمِّنُه صاحبكم وأقتله أنا؟ معاذ اللَّه من ذلك.

٦ - رفض أكل الطعام ما لم يسع الجند:

(وجاء فروخ وفرونداذ إلى أبي عبيد (قائد الجيش الإسلامي) بآنية فيها أنواع أطعمة فارس من الألوان والأخبصة وغيرها فقالوا: هذه كرامة أكرمناك بها، وقِرًى لك قال: أأكرمتم الجند وقريتموهم مثلي؟ قالوا: لم يتيسر، ونحن فاعلون.

وإنما يتربصون بهم قدوم الجالينوس وما يصنع.

فقال أبو عبيد: فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند. فرده) [(١)].

(فأتاه الأندرزغر بمثل ما جاء به فروخ وفرونداذ فقال لهم:

أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم؟ قالوا: لا. فرده وقال:

لا حاجة لنا فيه، بئس المرء أبو عبيد إن صحب قومًا من بلادهم أهراقوا دماءهم أم لم يهريقوها فاستأثر عليهم بشيء يصيبه، لا واللَّه لا يأكل مما أفاء اللَّه عليه إلا مثل ما يأكل أوساطهم) [(٢)].

نحن إذن أمام نموذج جديد على البشرية يمثل حزب اللَّه في الأرض، ولسنا أمام

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٣٦٥).

جاهلية عربية تحل مَحَلَّ جاهلية فارسية، يتخذون إلههم هواهم، نحن أمام صياغة جديدة للتاريخ البشري.

٧ - الإعجاب بالرأي وهزيمة الجسر:

(وكان بين موقعة الجسر واليرموك أربعون ليلة، وكان الذي جاء بالخبر عن اليرموك جرير بن عبد اللّه الحميري، والذي جاء بالخبر عن الجسر عَبد اللّه بن زيد الأنصاري، وليس بالذي رأى الرؤيا) فانتهى إلى عمر، وعمر على المنبر، فنادى عمر: الخبر يا عبد اللّه بن زيد؟ قال: أتاك الخبر اليقين. ثم صعد إلى المنبر فأسر ذلك إليه.

وكانت اليرموك في أيام من جمادى الآخرة، والجسر في شعبان) [1].

لقد فتحت اليرموك أبواب الإمبراطورية الرومانية أمام المسلمين، فكانت من المعارك التي غيرت اتجاه التاريخ، لكن معركة الجسر كان من الممكن أن تنتهي باحتلال المدينة، وسقوط الفتح الإسلامي.

ولكن اللّه سلَّم، إنه عليم بذات الصدور.

لقد كانت معركة بواتيه في جنوب فرنسا، والتي انتهت بهزيمة المسلمين هناك إثر مقتل قائد الجيش عبد الرحمن الغافقي هي التي أوقفت الزحف الإسلامي على أوربا، وبقيت أوربا تقود الكفر في الأرض إلى اليوم لحرب الإسلام وأهله.

لكن الجيل الذي رباه القرآن، ورباه إمام المربين محمد ﷺ، قد يصيبه القرح، ويقع به البلاء، ويقدم أرتال الشهداء، لكن هذا الجيل لا يتراجع، وله الكرة بعد الفرة، ولا ييأس ولا يستسلم للعدو، فقد رباه القرآن بقوله ﷻ: ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

لقد سقط منهم أربعة آلاف من القتلى، لكن بقي منهم ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من الصامدين الصابرين أوقفوا الغول الفارسي أن يمضي في أرض الإسلام، حتى عادت التعبئة من جديد، وفر أربعة آلاف، وبقي ثلث الجيش ممسكًا بالراية محافظًا عليها حتى بدأت الجولة الجديدة. أما سبب الهزيمة فهو الإعجاب بالرأي ومخالفة الأكفاء.

(... وبعث إليه (إلى أبي عبيد) بهمن جاذويه: إما أن تعبروا إلينا، وندعكم

---

(١) تاريخ الطبري (٣٦٧/٢).

والعبور، وإما أن تدعونا والعبور. فنهاه الناس عن العبور، ونهاه سليط، فلجَّ وترك الرأي وقال: لا يكونوا أجرأ منا على الموت...).

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد كانت شروط إمارة أبي عبيد أن يستشير قيادات المهاجرين والأنصار وعلى رأسهم سعد بن عبيد، وسليط بن قيس، وخبير الحرب الأعظم المثنى بن حارثة.

(فأمَّرَ أبا عبيد على الجيش وقال له:

اسمع من أصحاب محمد ﷺ، وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد متسرعًا حتى تتبين، ولم يمنعني أن أؤمر سليطًا إلا سرعته في الحرب، وفي التسرع إلى الحرب ضياع الأعراب، فإنه لا يصلحها إلا الرجل المكيث) [1].

لقد خالف النهج الإسلامي في الاستشارة كما علَّمه رسول اللَّه ﷺ، وخالف الأوامر الصريحة لعمر أمير المؤمنين في استشارة قيادات المهاجرين والأنصار، ووجوه الناس، وخالف رأي أولي الخبرة في حرب الفرس، وأصر على رأيه ناظرًا للأمر من زاوية واحدة:

أن لا يُرى العدو أنه: « أجرأ على الموت منا ».

٨ - فاعتزلهم إذ كرهوك:

لقد أرسى عمر رضي الله عنه مبادئ الإسلام قبل خمسة عشر قرنًا، التي جاءت الديمقراطية اليوم لتتحدث بها، حين قدَّم لنا نموذجًا من تعامله مع بجيلة، وسيدها جرير، وعرفجة رضي الله عنه وقالها رضي الله عنه خارجة عن حدود الزمان والمكان:

(لا يضرك فاعتزلهم إذ كرهوك).

لقد كان هذا التقرير منطلقًا من منطلقات الإسلام العظيم، حيث قرر على لسان رسوله صلوات اللَّه وسلامه عليه: « **خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلُّون عليهم ويُصَلُّون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم** » [2].

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢٩٧/٣، ٢٩٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم (١٨٥٥).

٩ - الغنائم، الطيبات من الرزق:

نحن هنا أمام قيمة من قيم الإسلام لا بد من تثبيتها.

فالفرس قد حووا من فنون العيش وخيرات الأرض وكنوزها بين أيديهم، وقد وعد اللَّه المؤمنين أن يكونوا وُرَّاث الحضارة البشرية، وبناة صرحها على أساس الإيمان لا الطغيان، والمؤمنون يستحقون هذا الميراث بقسطهم وعدلهم: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فنعيم الآخرة خالص للمؤمنين يوم القيامة، ونعيم الدنيا هو من حقهم على أن يقوموا بتوزيعه بالعدل والقسط بين الناس.

فذاك عمر أمير المؤمنين يحث الناس على الجهاد في سبيل اللَّه في العراق.

(واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش لعل اللَّه أن يورثكم بقسطكم من ذلك، فتعيشوا مع من عاش من الناس).

وهي نظرية البطل العظيم خالد رضي الله عنه.

(ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب [١]، وباللَّه لو لم يلزمنا الجهاد في اللَّه، والدعاء إلى اللَّه عز وجل، ولم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه) [٢].

فالمجاهد في سبيل اللَّه لا يعيبه أن يحرص على الغنيمة والظفر إن فاتته الشهادة في سبيل اللَّه، طالما أن هدفه الأعلى هو إعلاء كلمة اللَّه: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

١٠ - انضمام نصارى العرب إلى الجيش الإسلامي يقاتلون معه:

(وقدم أنس بن هلال النمري ممدًّا للمثنى في أناس من النِّمر نصارى، وجُلاب جلبوا خيلًا وهو عبد اللَّه بن كليب بن خالد، وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم: نقاتل مع قومنا) [٣] فلقد كان موقفًا يحمدون عليه، تحركوا بدافعهم القومي، والذي

---

(١) أي أن الطعام في كثرته كالترَاب.

(٢) الطبري (٢/٣١٢).

(٣) المصدر نفسه (٢/٣٧٢).

هيج هذا الدافع هو أنهم رأوا هذه الجيوش الإسلامية تنزل في أرض العجم، وتقاتل العجم، فأي معنًى لوقوفهم على الحياد والمعركة معركة حياة أو موت بين الفريقين؟! فليس القتال على سلطانهم، إنما القتال على سلطان العرب.

١١ - سياسة المثنى في الربط بين الدافعين القومي والإسلامي:

(فوقف على الرايات راية راية (المثنى) ويأمرهم بأمره، ويهزهم بأحسن ما فيهم تحضيضًا لهم، ولكلهم يقول:

إني لأرجو أن لا يؤتى العرب اليوم من قبلكم، والله لا يسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم). فيجيبونه بمثل ذلك، وأنصفهم المثنى بالقول والفعل، وخلط الناس في المكروه والمحبوب، فلم يستطع أحد أن يعيب له قولًا ولا عملًا) [١].

(فلما طال القتال واشتد، عمد المثنى إلى أنس بن هلال فقال:

يا أنس إنك امرؤ عربي وإن لم تكن على ديننا، فإذا رأيتني قد حملت على مهران، فاحمل معي. وقال لابن مردي الفهر مثل ذلك. فأجابه، فحمل المثنى على مهران، فأزاله حتى دخل في ميمنته ثم خالطوهم، واجتمع القلبان، وارتفع الغبار، والمجنبتان تقتتل لا يستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم؛ لا المشركون ولا المسلمون، وارتث مسعود يومئذ، وقواد من قواد المسلمين، وقد كان قال لهم: إن رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه، فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف، الزموا مصافكم وأغنوا غناء من يليكم.

وأوجع قلب المسلمين في قلب المشركين، وقتل غلام من التغلبيين نصراني مهران، واستوى على فرسه، فجعل المثنى سلبه لصاحب خيله) [٢].

هذه المعركة اليوم تحمل معنًى جديدًا لم يكن قائمًا من قبل، فقد قبل المثنى ﷺ انضمام عربٍ نصارى إلى جيشه، وقتالهم معه، وحين اشتد أوار المعركة، ودنا الخطر، لم يكن لدى المثنى من حرج أن يتقدم إلى القائدين النصرانيين الكبيرين ليكونا جناحيه في الهجوم المضاد الذي سيقوده. إن القضية الآن قضية طاقات، وإمكانات تواجه ذلك العدو الفارسي بطاقات عربية ولو كانت نصرانية، فالحمية العربية والوطنية والقومية مطلوبة الآن، وهي التي تفجر أعظم ما لديهم من طاقات.

(١ ، ٢) الطبري (٣٧٢/٢).

(ولما ارتث مسعود بن حارثة يومئذ، وكان صرع قبل الهزيمة (هزيمة الجسر) فتضعضع من معه فرأى ذلك وهو دنف قال:

يا معشر بكر بن وائل، لا يهولنكم مصرعي، ارفعوا راياتكم رفعكم اللَّه.

وقاتل أنس بن هلال (النصراني) حتى ارتث، ارتثه المثنى وضم مسعودًا إليه، وقاتل قرط بن جماح العبدي حتى دَقَّ دَقًّا، وقطَّع أسيافًا، وقتل شهربراز من دهاقين فارس، وصاحب مجردة مهران) [1].

وانتهت المعركة بِظَفَرٍ غسل كل جراحات معركة الجسر.

(واللَّه إن كنا لنأتي البويب، فنرى فيما بين موضع السكون وبني سليم عظامًا بيضًا تلولًا تلوح من هامهم وأوصالهم يعتبر بها.

قال: وحدثني بعض من شهدها أنهم كانوا يحزرونها مائة ألف، ومما عفي عليها حتى دفنها أدفان البيوت) [2].

١٢ - اعتذار القائد عن خطئه:

(القائد الذي ينطلق من ذاته، فسيحفظ في سجله أنه قتل في معركة واحدة مائة ألف، ولولا عبقريته في قطع الجسر على العدو، لما أمكن تحقيق هذا النصر.

أما قائدنا العظيم المثنى ﷺ، والذي ينطلق من دينه ومبادئه، يعود ليراجع نفسه، هل خرج على هذه المبادئ في أي جزئية من جزئيات حربه، وبعد هذه المراجعة رأى أن مبادئ الحرب في الإسلام لا تنطلق من القتل للقتل، إنما تنطلق من القتل لإزاحة الطواغيت من الأرض، ورأى أن حصره للعدو حتى يَقْتُل كل أفراده لا يتسق مع الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين، فمن يستطيع أن يفر من العدو ولم تدركه فلا سبيل لك عليه.

هذا هو الموقف الأول، وبإمكانه أن يستغفر اللَّه تعالى بينه وبين نفسه، ويترك بهجة النصر تملأ قلوب المؤمنين، ويترك الثقة بالقائد تتعمق أكثر فأكثر، خاصة عند المسلمين الذين ذاقوا مرارة الهزيمة في الجسر.

أما الموقف الثاني الأعظم والأعلى، والذي لا نجد له مثيلًا في تاريخ البشرية

---

(١) الطبري (٢/٣٧٣).

(٢) المصدر نفسه (٢/٣٧٣).

إلا عند المؤمنين في الأرض، هو أن يقف ويعتذر عن خطئه الذي لم يعرفه أحد، ولم يخطر على بال أحد، ولماذا؟

لأنه قائد رسالة، وممثل دين، وليس قائد طموحات وأمجاد، فقد ولَّى ذلك العهد الذي كان المثنى فيه صاحب حرب شيبان وبطلها فقط، إنه هنا يمثل الإسلام، وهو عبد اللَّه الذي يعتبر ما يقوم به سنة يقتدي الناس بها، ومن أجل هذا وقف خطيبًا في جيشه يقول: (لقد عجزت عجزة وقى اللَّه شرها، بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه، حتى أحرجتهم، فإني غير عائد فلا تعودوا، ولا تقتدوا بي أيها الناس، فإنها كانت مني زلة، لا ينبغي إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع).

١٣ - من بطولات البويب:

يقول ربعي بن عامر بن خالد:

كنت مع أبي يوم البويب - قال: وسمي البويب يوم الأعشار - أُحصي مائة رجل قتل كل رجل منهم عشرة في المعركة يومئذ، وكان عروة بن زيد الخيل من أصحاب التسعة، وغالب في بني كنانة من أصحاب التسعة، وعرفجة في الأزد من أصحاب التسعة) [١].

ونبحث عن أصحاب المائة فلا نجدهم، لقد مضوا مجهولين في التاريخ، يعرفهم رب العزة جل جلاله، لقد حفظ لنا التاريخ أسماء قادة كبار، ومع ذلك لن يبلغوا شأو أولئك المجهولين، ومن أجل ذلك أعطى المثنى هؤلاء المقاتلين العظام حقهم، فمن استشهد منهم قدَّمَهُ على أولي الأسنان والقرآن، فهذا المقام مقام جهاد ضارٍ يتمايز به الناس، ولكل مقام مقال.

١٤ - دور النساء في المعركة:

هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش، وهذا الدليل النصراني عمرو بن عبد المسيح هو الذي يشهد ببطولة النساء التي رآها قبل الرجال، فقد رأى النساء الخيل من بعيد، فتوقعن أنها خيل العدو تقصدهم، فشكلن جيشًا منهن ومن الصبيان، واستعدوا

---

(١) الطبري (٣٧٤/٢).

لمواجهة هذه الغارة، فقال عمرو: (هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش)، فلما عرفن أنها خيل المسلمين فرحن بها، وبما قدمت به من غنم ودقيق وبقر.

١٥ - حشد الطاقات العربية والإسلامية:

إنه عجيب حقًّا بعد كل الانتصارات الباهرة للمسلمين أن تتغير الساحة من جديد لصالح الفرس، وقبل أن يصل جواب أمير المؤمنين اضطر المثنى إلى الانسحاب من الحيرة، وانتقل بجيشه إلى ذي قار في قلب العراق العربي، بينما كانت الحيرة على ضفاف الفرات، وجمع قوات في الطَّفِّ في معسكر واحد وجاء كتاب أمير المؤمنين يطابق ما تصرف به المثنى ﷺ:

(... حتى جاءهم كتاب عمر: أما بعد، فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم...).

إنه مناسب أن تقوم الخطة بتجميع الجيش في مكان آمن في قلب الجزيرة العربية، وعدم المواجهة قبل التعبئة العامة لكل العرب بلا استثناء.

(... أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم، ولا تدعوا في ربيعة أحدًا ولا مضر ولا حلفائهم من أهل النجدات، ولا فارسًا إلا اجتلبتموه، فإن جاء طائعًا وإلا حشرتموه، احملوا العرب على الجد إذ جَدَّ العجم فلتلقوا جدهم بجدكم) (١).

نهدي هذا النص إلى الفريقين في الأمة: دعاة القومية، ودعاة الإسلام.

نهديه إلى دعاة القومية الذين يريدون النصر اليوم بوحدة العرب على حساب الإسلام، فلا يجوز ذكر الإسلام حتى لا تتفرق الأمة، ويريدون وحدة بلا دين ولا عقيدة. وندعوهم إلى أن يبصروا التاريخ، ويبصروا حركة الأمة وثورتها والانقلاب الذي تم فيها يوم توحدت تحت راية هذه العقيدة، ويوم حارب الصديق العرب كافة حين ارتدوا عن الإسلام، وطهَّرَ الأرض العربية من الردة وذيولها، وشهدنا الأهوال الكبرى التي لقيها العرب المسلمون في حرب العرب الوثنيين، أو المرتدين، حتى فاءت العرب كلها - وخاصة في جزيرة العرب - إلى الإسلام، وعندما أحس عمر أن الصراع

---

(١) تاريخ الطبري (٣٧٩/٢).

مع الفرس هو صراع ضد العرب أمة وعقيدة، فأعلن التعبئة العربية العامة ابتداء من فرعي عدنان الكبيرين (مضر وربيعة)، وأعلن النفير العام، والجندية الإجبارية (ولا تدعوا في ربيعة أحدًا ولا مضر ولا حلفائهم من أهل النجدات، ولا فارسًا إلا اجتلبتموه، فإن جاء طائعًا وإلا حشرتموه). وأعلن أن الحرب بين أمتين، فهي حرب عند الفرس بين العرب والعجم، وعند عمر ﷺ بين العرب المؤمنين والفرس.

فلا بد من حشد الطاقات العربية مقابل حشد كل الطاقات الفارسية.

(احملوا العرب على الجد إذا جدَّ العجم، فلتلقوا جدكم بجدهم).

ونهدي هذا النص إلى دعاة الإسلام كذلك الذين يفزعون من كلمة العرب لأنها عندهم إثارة للعصبية الجاهلية، ويُبرزون لنا مباشرة النص النبوي: « **دعوها فإنها منتنة** ».

أفلا يرى دعاة الإسلام أن هذا النص كله نص قومي، بحيث تحشد طاقات العرب كلها ضد طاقات الفرس... ولا بد أن يقابل الجد العربي بالجد الفارسي، فهل تحتمل أعصاب دعاة الإسلام هذا النداء؟

ولم يتهور الفاروق ﷺ بالاكتفاء ببضعة آلاف يجوبون الساحة تحت راية: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وتحت راية: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠].

أقول هذا وأجدني مضطرًا لأطرح الفكرة التي سادت في نفوس بعض الشباب الذين يظنون أنهم يمكنهم أن يقيموا دولة الإسلام في الأرض ببضع مئات من الشباب المنظمين، ونضع هذا النص بين أيديهم ونهديه لهم ونسألهم:

هل كان المثنى جبانًا يوم انسحب من الحيرة إلى ذي قار، وجمَّع قواته في الأرض العربية، متخليًا عن كل الانتصارات التي حققها، حيث وصل إلى تخوم المدائن وكما قال الفرس أنفسهم ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلى المدائن؟؟

وهل كان عمر بن الخطاب ﷺ جبانًا متخاذلًا حين أصدر أوامره: (أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم...).

وأعلن بعدها النفير العام قبل المواجهة العامة الشاملة؟

وهل كان منحرفًا عن منهج الإسلام حين ركز علىأمة العرب، وحشد الطاقات العربية كلها لمواجهة الفرس إذ قال:

(واللّه لأضربن ملوك العجم بملوك العرب). فلم يدع رئيسًا، ولا ذا رأي، ولا ذا شرف، ولا ذا سلطة، ولا خطيبًا، ولا شاعرًا إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغررهم؟)[1]، وهل تخلى عن المنهج الإسلامي يوم خالف الصديق، واستنفر جميع من كان ارتد ليشارك في المعركة (واستنفرهم عمر ولم يوَلِّ منهم أحدًا) حتى كان بينهم مدعي النبوة طليحة الأسدي؟

١٦ - قيم إسلامية من وصية أمير المؤمنين لسعد بن أبي وقاص:

(ولما أراد أن يسرحه دعاه فقال:

(إني قد وليتك حرب العراق، فاحفظ وصيتي...

١ - فإنك تقدم على أمر شديد كربه، لا يُخلِّص منه إلا الحق.

٢ - فعوِّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به.

٣ - واعلم أن لكل عادة عتادًا، فعتاد الخير الصبر.

٤ - فالصبر على ما أصابك أو أنابك تجتمع لك خشية اللّه.

٥ - واعلم أن خشية اللّه تجتمع في أمرين؛ في طاعته، واجتناب معصيته.

٦ - وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا، وحب الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة.

٧ - وللقلوب حقائق ينشئها اللّه تعالى إنشاءً منها السر، ومنها العلانية.

٨ - فأما العلانية فأن يكون مادحه وذامه في الحق سواء.

٩ - وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه.

١٠ - وبمحبة الناس، فلا تزهد في التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم.

١١ - وإن اللّه إذا أحب عبدًا حببه، وإذا أبغض عبدًا بغَّضه.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٨٥).

١٢ - فاعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في أمرك) [١].

هذه الخطبة لقائد الجيش، أما الجيش فله خطبة أخرى، ومعان وقيم أخرى بحاجة إلى التركيز عليها، قال ﷺ:

- إن اللَّه تعالى إنما ضرب لكم الأمثال، وصرف لكم القول ليحيي به القلوب.
- فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها اللَّه، من علم شيئًا فلينتفع به.
- إن للعدل أمارات وتباشير؛ فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهين واللين.
- وأما التباشير فالرحمة.
- وقد جعل اللَّه لكل أمر بابًا، ويسَّر لكل باب مفتاحًا.
- فباب العدل الاعتبار، ومفتاحه الزهد.
- والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات، والاستعداد له بتقديم الأعمال.
- والزهد أخذ الحق من كل أحد قِبَلَهُ حق، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق، ولا تصانع في ذلك أحدًا.
- واكتف بما يكفيك من الكفاف، فإن من لم يكفه الكفاف لم يُغْنِه شيء.
- إني بينكم وبين اللَّه، وليس بيني وبينه أحد.
- وإن اللَّه ألزمني دفع الدعاء عنه، فأنهوا شكاتكم إلينا، فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها نأخذ له الحق غير متعتع.

وأمر سعدًا بالسير، وقال: إذا انتهيت إلى زرود فانزل بها، وتفرقوا فيما حولها، واندب من حولك منهم، وانتخب أهل النجدة والرأي والقوة والعدد) [٢].

لو بحثنا في كل خطب الجاهلية في الحروب منذ ألف عام ونيف لم نجد مثل هذه الخطبة، ولرأينا الحديث كله عن الحمية حمية الجاهلية، والدعوة إلى الثبات لتحقيق النصر، فما لنا نجد خطبة أمير المؤمنين ﷺ خالية من كل هذه المعاني؟

السبب في ذلك هو أن هذا الجيش ليس بحاجة إلى معاني الشجاعة والثبات، فهذه كامنة فيهم، وقد اختيروا من أهل النجدة وأهل الرأي، لكن حاجتهم في الحقيقة

---

(١) تاريخ الطبري (٣٨٢/٢).

(٢) المصدر نفسه (٣٨٤/٢).

إلى معاني الإيمان الذي يوجه هذه الطاقات، والتي تستجيش ما في القلوب لتكون الحمية، ويكون القتال خالصًا للَّه سبحانه، ولم يتلق هذا الجيش المتعدد العناصر إلا القليل منها، ومن أجل هذا كانت هذه المعاني.

١٧ - الإسلام هو معيار الخير والشر:

ثم قال الملك (أي يزدجرد للوفد الإسلامي عنده):

سلهم ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا والولوغ في بلادنا؟ أمن أجل أنا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟!

فقال لهم (للوفد) النعمان بن مقرن: إن شئتم أجبت عنكم، ومن شاء آثرته.

فقالوا: بل تكلم. وقالوا للملك: كلام هذا الرجل كلامنا.

فتكلم النعمان فقال:

إن اللَّه رحمنا، فأرسل إلينا رسولًا يدلنا على الخير، ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين؛ فرقة تقاربه، وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص، فمكث في ذلك ما شاء اللَّه أن يمكث، ثم أُمِر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، وبدأ بهم وفعل، ودخلوا في دين اللَّه أفواجًا؛ مكره عليه فاغتبط، وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعًا فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين **حسَّن الحسن، وقبَّح القبيح** كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه: الجزاء، وإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلَّفْنا فيكم كتاب اللَّه وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم)[١].

١٨ - فضل اللَّه على الأمة الإسلامية:

(قال: فتكلم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوناكم، لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا، وإن

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٩٠، ٣٩١).

كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم، فأسكت القوم).

وهنا ينطلق لسان الحق المعترف بفضل الإسلام عليه وعلى العالمين قائلًا:

(إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما.. فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع!! كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، فنرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ويغير بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، فبعث اللَّه إلينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه،ومولده؟ فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد قبل تِرْبٍ كان له، وكان الخليفة من بعده، فقال وقلنا، وصدق وكذبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئا إلا كان، فقذف اللَّه في قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول اللَّه، وما أمرنا فهو أمر اللَّه، فقال لنا: إن ربكم يقول: إني أنا اللَّه وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء، وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء، وإلي يصير كل شيء، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي، ولأحلكم داري دار السلام. فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم، فمن قتل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه!! فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك).

١٩ - نصرت بالرعب مسيرة شهر:

(ولما بدا ليزدجرد أن يرسل رستم أرسل إليه فدخل عليه فقال له إني أريد أن أوجهك في هذا الوجه وإنما يعد للأمور على قدرها وأنت رجل أهل فارس اليوم

فقال له رستم: أيها الملك، دعني فإن العرب لا تزال تهاب العجم ما لم تضرهم

بي.. فأنشدك اللَّه في نفسك وأهلك وملكك دعني أقم بعسكري وأسرح الجالنوس فإن تكن لنا فذلك، وإلا فأنا على رجل وأبعث غيره حتى إذا لم نجد بدا ولا حيلة صبرنا لهم وقد وهناهم وحسرناهم ونحن جامون، فأبى إلا أن يسير).

إن موقف رستم هذا يؤكد ما قاله رسول اللَّه ﷺ: « **نصرت بالرعب مسيرة شهر** »[١]، فما دام جيش الإسلام يتحسس خطا نبيه ﷺ ويسير على نهجه فإن اللَّه ﷻ ناصره ومؤيده، وما وصل هؤلاء الأفذاذ إلى ما وصلوا إليه من عز وتمكين وعالمية إلا بشدة تمسكهم بتعاليم نبيهم ومرشدهم ﷺ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

(لما فصل رستم وأمر الجالنوس بالتقدم إلى الحيرة أمره أن يصيب له رجلا من العرب فخرج هو والآزاذمرد سرية في مائة حتى انتهيا إلى القادسية فأصابا رجلا دون قنطرة القادسية فاختطفاه فنفر الناس فأعجزوهم إلا ما أصاب المسلمون في أخرياتهم، فلما انتهيا إلى النجف سرحا به إلى رستم وهو بكوثى، فقال له رستم: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ قال: جئنا نطلب موعود اللَّه، قال: وما هو؟ قال: أرضكم وأبناؤكم ودماؤكم إن أبيتم أن تسلموا، قال رستم: فإن قُتلتم قبل ذلك؟ قال: في موعود اللَّه أن من قُتل منا قبل ذلك أدخله الجنة وأنجز لمن بقي منا ما قلت لك، فنحن على يقين، فقال رستم: قد وُضعنا إذا في أيديكم!! قال: ويحك يا رستم، إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم اللَّه بها فلا يغرنك ما ترى حولك، فإنك لست تحاول الإنس إنما تحاول القضاء والقدر، فاستشاط غضبا فأمر به فضربت عنقه).

أرأيتم مثل هذا اليقين؟! إن رستم قد سأله سؤالا كثيرًا ما سأله لأتراب هذا البطل لعله يظفر بإجابة غير التي تكرر سماعها منهم، أو يقع في يده رجل لم تتحدد لديه معالم القضية التي باع نفسه من أجلها.. وهنا يزداد رستم يقينا على يقين بأن ملكه زائل تحت أقدام هؤلاء الكبار.

(ولما اطمأن رستم أمر الجالنوس أن يسير من النجف، فسار في المقدمات فنزل فيما بين النجف والسيلحين، وارتحل رستم فنزل النجف، وكان بين خروج رستم من المدائن وعسكرته بساباط وزحفه منها إلى أن لقي سعدا أربعة أشهر، لا يقدم ولا يقاتل رجاء أن يضجروا بمكانهم وأن يجهدوا فينصرفوا، وكره قتالهم مخافة أن يلقى ما لقي من قبله،

---

(١) صحيح البخاري، ح (٦٨٤٥).

وطاولهم لولا ما جعل الملك يستعجله وينهضه ويقدمه حتى أقحمه، فلما نزل رستم النجف عادت عليه الرؤيا فرأى ذلك الملك ومعه النبي ﷺ وعمر فأخذ الملك سلاح أهل فارس فختمه ثم دفعه إلى النبي ﷺ فدفعه النبي ﷺ فأصبح رستم فازداد حزنا).

٢٠ - إرسال الوفد السعدي إلى رستم:

وأرسل سعد إلى المغيرة بن شعبة وبسر بن أبي رهم وعرفجة بن هرثمة وحذيفة ابن محصن وربعي بن عامر وقرفة بن زاهر التيمي ثم الواثلي ومذعور بن عدي العجلي والمضارب بن يزيد العجلي ومعبد بن مرة العجلي وكان من دهاة العرب، فقال: إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم؟ قالوا جميعا: نتبع ما تأمرنا به وننتهي إليه، فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شيء نظرنا أمثل ما ينبغي وأنفعه للناس فكلمناهم به، فقال سعد: هذا فعل الحزَمة اذهبوا فتهيؤوا، فقال ربعي بن عامر: إن الأعاجم لهم آراء وآداب ومتى نأتهم جميعا يروا أنا قد احتفلنا بهم، فلا تزدهم على رجل، فمالؤوه جميعا على ذلك، فقال فسرحوني، فسرحه.

- أولا: طليعة الوفد ربعي بن عامر:

فخرج ربعي ليدخل على رستم عسكره فاحتبسه الذين على القنطرة، وأرسل إلى رستم بمجيئه، فاستشار عظماء أهل فارس، فقال: ما ترون أنباهي أم نتهاون؟ فأجمع ملؤهم على التهاون، فأظهروا الزبرجد وبسطوا البسط والنمارق ولم يتركوا شيئا. ووضع لرستم سرير الذهب وألبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب.

وأقبل ربعي يسير على فرس له زباء قصيرة معه سيف له مشوف وغمده لفافة ثوب خلق، ورمحه معلوب بقد معه حجفة من جلود البقر على وجهها أديم أحمر مثل الرغيف. ومعه قوسه ونبله.

فلما غشي الملك وانتهى إليه وإلى أدنى البسط قيل له: انزل، فحملها على البساط، فلما استوت عليه نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهوه وإنما أروه التهاون، وعرف ما أرادوا فأراد استحراجهم، وعليه درع له كأنها أضاة ويلمقه عباءة بعيره قد جابها وتدرعها وشدها على وسطه بسلب، وقد شد رأسه بمعجرته وكان أكثر العرب شعرة ومعجرته نسعة بعيره، ولرأسه أربع ضفائر قد قمن قياما كأنهن قرون الوعلة، فقالوا: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم

فأضع سلاحي بأمركم أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت، فأخبروا رستم، فقال: ائذنوا له هل هو إلا رجل واحد؟! فأقبل يتوكأ على رمحه وزجه نصل يقارب الخطو ويزج النمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطا إلا أفسده وتركه منهتكا مخرقا، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس وجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه، فكلمه، فقال: ما جاء بكم؟ قال: اللَّه ابتعثنا واللَّه جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا إلى بلادنا وتركناه وأرضه يليها من دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود اللَّه. قال: وما موعود اللَّه؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا.

قال: نعم كم أحب إليكم؟ أيومٌ أو يومان؟

قال: لا، بل حتى نكاتب أهلَ رأينا ورؤساءَ قومنا.

وأراد مقاربته ومدافعته.

فقال: إن مما سن لنا رسول اللَّه ﷺ، وعمل عليه أئمتنا، أن لا نمكن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجلهم بعد اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثًا، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.

- اختر الإسلام وندعك وأرضك.

- أو الجزاء فنقبل، ونكف عنك، وإن كنت عن نصرنا غنيًّا تركناك منه، وإن كنت محتاجًا إليه منعناك.

- أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك في اليوم الرابع حتى تبدأنا...) [١].

لقد لخص الحضارة الإسلامية والرسالة الإسلامية بثلاث جمل مضت مثلًا في

---

(١) تاريخ الطبري (٤٠١/٢).

التاريخ، ونتحدى كل أمم الأرض ورسالاتها أن تحمل أعظم من هذه المفاهيم.

ثانيًا: أبو الدبلوماسية الإسلامية، المغيرة بن شعبة:

إن كنا مع ربعي بن عامر التميمي ﷺ من أفصح العرب بيانًا، فنحن الآن مع المغيرة أدهى العرب قاطبة.

(... وأقبل المغيرة والقوم في زيهم، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبسطهم على غلوة [١] لا يمشى إلى صاحبهم حتى يمشي عليهم غلوة.

وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس معه (مع رستم) على سريره ووسادته فوثبوا عليه فترتروه [٢]، وأنزلوه ومَغَثُوه [٣] فقال:

كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قومًا أسفه منكم، إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضًا إلا أن يكون محاربًا لصاحبه، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ودعوتموني، اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون، وأن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول) [٤].

لم يكن يغيب عن ذهن المغيرة ﷺ ما نزل به حين قرر الجلوس بجوار رستم، وهذا الأمر مقصود بحد ذاته، إنه يريد أن يلفت نظر كل أولي الأمر وأصحاب القرار، ولن يتم هذا الاهتمام الذي يريده إلا بمثل هذا التصرف الخطير الذي يثير كل مشاعرهم، وأدرك رستم أن الأمر قد هز كل من حوله بلا استثناء، وأدرك أنه خسر الجولة الأولى مع خصمه وعند قومه فقال: (يا عربي إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك، فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك، فالأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق).

لكننا قبل أن نتابع مشاهد الساحة لا بد أن نتابع آثار هذا (الفيلم) الذي أخرجه المغيرة وساهم في تمثيله، فقد حقق هدفه كاملًا.

(فقالت السفلة: صدق والله العربي.

---

(١) أي على مسافة رمية بالسهم.

(٢) أي جذبوه في شدة.

(٣) أي ضربوه ضربًا ليس بالشديد.

(٤) الطبري (٢/٤٠٠).

وقالت الدهاقين: واللّه لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل اللّه أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة).

ولنعد إلى لُبِّ الحوار:

(... وتكلم رستم، فحمد قومه وعظَّم أمرهم وطوَّله وقال:

لم نزل متمكنين في الأرض، ظاهرين على الأعداء، أشرافًا في الأمم، فليس لأحد من الملوك مثل عزنا وسلطاننا، نُنْصَرُ على الناس ولا ينتصرون علينا إلا اليوم أو اليومين أو الشهر أو الشهرين للذنوب، فإذا انتقم اللّه فرضي رَدَّ إلينا عزنا وجمعنا لعدونا شر يوم هو آت عليهم.

ثم إنه لم يكن في الناس أمة أصغر عندنا أمرًا منكم، كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة، لا نراكم شيئًا ولا نعدكم، وكنتم إذا قحطت أرضكم، وأصابتكم السنة استعنتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ثم نردكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغلٍ وألف درهم، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وثوبين وتنصرفون عنا، فإني لا أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم).

فتكلم المغيرة بن شعبة، فحمد اللّه وأثنى عليه وقال:

إن اللّه خالق كل شيء ورازقه، فمن صنع شيئًا فإنما الذي يصنعه هو له، وأما ما ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء، والتمكن في البلاد، وعظم السلطان في الدنيا، فنحن نعرفه ولسنا ننكره، فاللّه صنعه لكم ووضعه فيكم وهو له دونكم، والدنيا دول، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويصيروا إليها، ولو كنتم فيما آتاكم اللّه أهل شكر، كان شكركم ينقص عما أوتيتم، وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر، كان عظم ما تتابع علينا مستجلبًا من اللّه رحمة يرفِّه بها عنا، ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه، أو كنتم تعرفوننا به).

وبعد أن أبرز نظريته كاملة في نشوء الحضارات وقيام الأمم عاد فتحدث عن الانقلاب الكوني الجديد بالرسالة النبوية الخالدة.

قال سيف عن شيوخه: (... فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا

وكنا نحسن إليكم، ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم، ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا.

فقال له المغيرة: إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وَطَلَبُنا الآخرة، وقد بعث اللَّه إلينا رسولًا قال له:

إني سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به أحد إلا عَزَّ. فقال له رستم: فما هو؟

فقال: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، والإقرار بما جاء من عند اللَّه.

فقال: ما أحسن هذا؟! وأي شيء أيضًا؟

قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه.

قال: وحسن أيضًا، وأي شيء أيضًا؟

قال: والناس بنو آدم فهم إخوة لأب وأم.

قال: وحسن أيضًا. ثم قال رستم: أرأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟

قال: إي واللَّه، ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة.

قال: وحسن أيضًا.

ولما خرج المغيرة من عنده ذاكر رستم رؤساء قومه في الإسلام، فأنفوا ذلك وأبوا أن يدخلوا فيه، قبحهم اللَّه وأخزاهم، وقد فعل) [(١)].

ثالثًا: بقية الوفد:

في رواية سيف عن شيوخه (قالوا: أرسل إليهم سعد بقية ذوي الرأي جميعًا وحبس الثلاثة فخرجوا حتى أتوه ليعظموا عليه استقباحًا (لنتائج الحرب) فقالوا:

إن أميرنا يقول لك:

إن الجوار يحفظ الولاة، وإني أدعوك إلى ما خير لنا ولك: العافية، أن تقبل ما دعاك اللَّه إليه، ونرجع إلى أرضنا، وترجع إلى أرضك، وبعضنا من بعض، إلا أن

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٤٠).

داركم لكم، وأمركم فيكم، وما أصبتم مما وراءكم كان لكم زيادة دوننا، وكنا لكم عونًا على أحد إن أرادكم أو قوي عليكم.

واتق اللّه يا رستم، ولا يكونن هلاك قومك على يديك، فإنه ليس بينك وبين أن تغبط به إلا أن تدخل فيه، وتطرد به الشيطان عنك.

فقال: إني قد كلمت نفرًا منكم، ولو أنهم فهموا عني رجوت أن تكونوا قد فهمتم، وإن الأمثال أوضح بكثير من الكلام، وسأضرب لكم مثلًا تبصروا...).

وراح يضرب الأمثال: الثعلب وصاحب الكرم، والجرذان وصاحب الجرة، والذباب والعسل، مما يعني أنه مُصرٌّ على منهجيته وغطرسته وكبريائه بعد أن يئس من إسلام قومه، فإما المجد وإما الموت والذل.

فإن أبيتم (الإسلام) لم يحل لنا إلا أن نعاطيكم القتال أو الجزى.

وفي رواية: فإن فعلتم وإلا فإن اللّه أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكم.

فاقبلوا نصيحتنا، فواللّه لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم، ولقتالكم بعد أحب إلينا من صلحكم. فقال رستم: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟ فقالوا: بل اعبروا إلينا. فخرجوا من عنده عشيًا وأرسل سعد إلى الناس أن يقفوا مواقفهم، وأرسل إليهم: شأنكم والعبور. فأرادوا القنطرة، فأرسل إليهم: لا ولا كرامة، أما شيء قد غلبناكم عليه فلن نرده عليكم، تكلفوا معبرًا غير القنطرة).

وأسدل الستار على المفاوضات، والدعوة إلى اللّه، وبدأت الحرب.

٢١ - يوم أرماث وتحطيم سلاح الفيلة:

(فزحف إليهم المسلمون، ورحى الحرب تدور على أسد، وحملت الفيول على الميمنة والميسرة على الخيول، فكانت الخيول تحجم عنها وتحيد وتلح فرسانهم على الرجل يشمسون بالخيل [1] فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو فقال:

يا معشر بني تميم أَلَسْتُمْ أصحاب الإبل والخيل؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟

قالوا: بلى واللّه.

ثم نادى في قومه رماة آخرين لهم ثقافة فقال لهم:

---

(١) أي يجبرونها على عدم الفرار.

يا معشر الرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل، يا معشر أهل الثقافة، استدبروا الفيلة فقطعوا وضنها... وخرج يحميهم والرحى تدور على أسد، وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد، وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة، فأخذوا بأذنابها، وذباذب توابيتها، فقطعوا وضنها، وارتفع عواؤهم، فما بقي لهم فيل إلا عري، وقتل أصحابها، وتقابل الناس ونُفِّس عن أسد، وردوا فارس عنهم إلى مواقعهم، فاقتتلوا حتى غربت الشمس، ثم حتى ذهب هدأة من الليل، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء، وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة وكانوا ردءًا للناس، وكان عاصم عادية الناس وحاميتهم، وهذا هو يومها الأول وهو يوم أرماث) [١].

٢٢ - لا يهزم جيش فيه القعقاع:

وقد قدم على المسلمين من الشام مع جند العراق الذين كانوا فيها ومضوا مددًا إلى الشام بقيادة خالد بن الوليد ﷺ، وكان اليوم الثاني يوم أغواث كله للقعقاع.

(... فتقدم ثم نادى: مَنْ يبارز؟

فقالوا فيه بقول أبي بكر: لا يهزم جيش فيه مثل هذا. وسكنوا إليه.

فخرج إليه ذو الحاجب فقال: من أنت؟ قال: أنا بهمن جاذويه.

فنادى: يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر. فاجتلدا فقتله القعقاع.

وجعلت خيله (خيل القعقاع) ترد قطعًا... وكأنما استقبلوا قتالهم بقتل الحاجبي، وللحاق القطع، وانكسرت الأعاجم لذلك، ونادى القعقاع أيضًا: من يبارز؟

فخرج إليه رجلان أحدهما البيرزان، والآخر البندوان، فانضم إلى القعقاع الحارث ابن ظبيان بن الحارث، أخو بني تيم اللات، فبارز القعقاع البيرزان، فضربه فأذرى برأسه، وبارز ابن ظبيان البندوان، فضربه فأذرى برأسه.

وتورَّدهم فرسان المسلمين وجعل القعقاع يقول:

يا معاشر المسلمين، باشروهم بالسيوف، فإنما يحصدُ الناس بها، فتواصى الناس وتشايعوا إليهم، فاجتلدوا بها حتى المساء، فلم ير أهل فارس ذلك اليوم شيئًا مما يعجبهم،

---

(١) تاريخ الطبري (٤١٢/٢).

وأكثر المسلمون فيهم القتل، ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل، كانت توابيتها تكسرت بالأمس، فاستأنفوا علاجها حين أصبحوا فلم ترتفع حتى كان الغد)[1].

٢٣ - عمر أمير المؤمنين في المعركة؛ الأسياف والأفراس:

(وقدم ذلك اليوم رسول لعمر بأربعة أسياف وأربعة أفراس يقسمها فيمن انتهى إليه البلاء إن كنت لقيت حربًا.

فدعا (أي سعدًا) حمال بن مالك، والربيل بن عمرو الموالبيين، وطليحة بن خويلد الفقعسي، وكلهم من بني أسد، وعاصم بن عمرو التميمي، وأعطاهم الأسياف).

ولا ننسى أن عاصم بن عمرو هو الذي عطل سلاح الفيلة بالأمس، وساعد على نصر اليوم (ودعا القعقاع بن عمرو واليربوعيين (من بني تميم) فأصاب ثلاثة من بني تميم ثلاثة أرباعها).

وكتب عمر إلى سعد: أي فارس كان أفرس الناس في القادسية؟

فكتب إليه: إني لم أر مثل القعقاع بن عمرو، حمل في كل حملة ثلاثين حملة، يقتل في كل حملة بطلًا) وقال القعقاع بن عمرو في شأن الخيل:

لَمْ تَعْرِفِ الخيلُ العِرابُ سَواءنَا ... عَشِيَّةَ أغْوَاثٍ بِجَنْبِ القَوادِسِ

عَشية رحنا بالرماح كأننا ... على القوم ألوان الطيور الرسارس

٢٤ - يا هذا: أعني على بطني:

(خرج رجل من أهل فارس ينادي: من يبارز؟ فبرز له علباء بن جحش العجلي، فنفحه علباء فأسحره (أصاب رئته) ونفحه الآخر فأمعاه (أصاب أمعاءه) وخرَّا.

فأما الفارسي فمات من ساعته، وأما الآخر فانتثرت أمعاؤه، فلم يستطع القيام فعالج إدخالها، فلم يتأت له، حتى مرَّ به رجل من المسلمين فقال:

يا هذا أعني على بطني. فأدخله له.

فأخذ بصفاقيه (جلدتي بطنه) ثم زحف نحو صف فارس ما يلتفت إلى المسلمين، فأدركه الموت على رأس ثلاثين ذراعًا من مصرعه إلى صف فارس وقال:

---

(١) تاريخ الطبري (٤١٣/٢).

أرجُو بِهَا مِنْ رَبِّنَا ثَوابا قد كُنْتُ ممْنْ أحْسَنَ الضِّرابا)[1]

فقد كان كل ما يخشاه أن يكون قد قصَّر تجاه ربه بالجهاد ولو لحظة واحدة، وهذه المعاناة وهذه الأفواج والأمواج من الألم إنما يبحث بها عن رضا ربه ﷻ.

٢٥ - بطولة المحبوس في الخمر:

(قالوا: ولما اشتد القتال بالسواد، وكان أبو محجن الثقفي قد حُبس وقُيِّد فهو في القصر فصعد حين أمسى إلى سعد يستعفيه ويستقيله، فزبره وردَّه، فنزل، فأتى سلمى بنت خصفة فقال:

يا سلمى يا بنت آل خصفة، هل لك إلى خير؟ قالت: وما ذاك؟

قال: تخلين عني، وتعيريني البلقاء (فرس لسعد)، فللَّه عليَّ إن سلمني اللَّه أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي. فقالت: وما أنا بذاك.

فرجع يرسف في قيوده ويقول:

كفى حَزَنًا أن تُطْعَنَ الخيلُ بالقَنا وأُتْرَكُ مَشْدُودًا عَلَيَّ وَثَاقِيا

إذَا قمتُ عَنَّانِي الحديدُ وأُغْلِقَتْ مصاريعُ من دوني تُصِمُّ المناديا

وقدْ كُنْتُ ذَا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ فقدْ تركُوني واحدًا لا أخَا ليا

وللَّهِ عَهْدٌ لا أخيسُ بعهدِهِ لئِنْ فُرِجَتْ ألَّا أزورَ الحوانيا

فقالت سلمى: إني استخرت اللَّه، ورضيت بعهدك.

فأطلقته وقالت: أما الفرس فلا أعيرها. ورجعت إلى بيتها.

فاقتادها فأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق، فركبها ثم دبَّ عليها.

حتى إذا كان بحيال الميمنة كبر، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين فقالوا: بسرجها. وقال سعيد والقاسم: عريًّا.

ثم رجع من خلف المسلمين إلى الميسرة وحمل على القوم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه، ثم رجع من خلف المسلمين إلى القلب، فندر أمام الناس، فحمل على القوم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه، وكان يقصف ليلتئذ قَصْفًا منكرًا، وتعجب الناس منه وهم لا يعرفونه ولم يروه من النهار، فقال بعضهم:

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤١٤).

أوائل أصحاب هاشم أو هاشم نفسه. وجعل سعد يقول وهو مشرف على الناس، مكب من فوق القصر:

والله لولا محبسُ أبي محجن لقلت: هذا أبو محجن، وهذه البلقاء.

وقال بعض الناس: إن كان الخضر يشهد الحروب، فنظن صاحب البلقاء الخضر.

وقال بعضهم: لولا أن الملائكة لا تباشر القتال، لقلنا: مَلَكٌ يثبتنا.

ولا يذكره الناس ولا يأبهون له لأنه بات في محبسه.

فلما انتصف الليل حاجز أهل فارس، وتراجع المسلمون، وأقبل أبو محجن حتى دخل من حيث خرج، ووضع عن نفسه وعن دابته، وأعاد رجليه في قيديه).

نحن أمام شاعر فارس بطل مغوار عبقري، ونرى شعره يتناسب مع مستوى بطولته، فقد كان بلاؤه هو الذي أوقف الحرب، وهَدَّ الفرس، وأثبت مروءته يوم عاد فوضع القيد في رجليه، إنه التزام عجيب، وانضباط أعجب أن نرى هذا الفارس العظيم وهو في هذه البطولة يرضى أن يعود بعد بلائه الحسن إلى محبسه وقيوده، ومن وهج الحرب، وقصف السيوف والرماح، وهول المعركة، تفتقت شاعريته وعبقريته فقال:

لقدْ عَلمَتْ ثَقِيفٌ غَيْرَ فَخرٍ ... بأنَّا نَحْنُ أكْرَمُهُمْ سُيُوفَا

وأكثَرُهُم دُرُوعًا سَابِغَاتٍ ... وأصْبَرُهُمْ إذَا كَرِهُوا الوُقُوفَا

وأنَّا وَفْدُهُم فِي كُلِّ يَوْمِ ... فإن عميوا فسَلْ بِهم عَرِيفَا

ولا شك أن يشير « أنا وفدهم في كل يوم » إلى وفادة وزير الخارجية الإسلامي المغيرة بن شعبة، والذي كان اختصاصه مقابلة القادة والملوك، ثم يعود ليذكر نفسه:

وليلة قادسٍ لم يَشْعُروا بي ... ولم أُشعِر بمخرَجي الزحوفا

فإنْ أحبَس فذلكمُ بلائِي ... وإن أُترك أُذيقُهمُ الحتوفَا

(فقالت له سلمى: يا أبا محجن في أي شيء حبسك هذا الرجل؟ قال:

أما والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني، يبعثه على شفتي أحيانًا، فيساء لذلك ثنائي؛ ولذلك حبسني، قلت:

إذا مُتُّ فادفِنِّي إلى أصْلِ كَرمَةٍ ... تُرَوِّي عظامي بَعْدَ مَوْتِي عُروقُها

ولا تدفِنَنّي في الفلاةِ فإننِي أخافُ إذا مَا مِتُّ ألَّا أذوقُها
وتُروى بخمرِ الحصِّ لحدِي فإنني أسيرٌ إليهَا من بعد ما قد أسُوقُها

ولم تزل سلمى مغاضبة لسعد عشية أرماث، وليلة الهدأة وليلة السواد، حتى إذا أصبحت أتته وصالحته وأخبرته خبرها وخبر أبي محجن.

فدعا به فأطلقه وقال: اذهب فما أنا بمؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله. قال: لا جرم والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيحٍ أبدًا) (١).

٢٦ - عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارس العرب (يوم عماس):

(... لما كان يوم عماس قال عمرو بن معد يكرب: إني حامل على الفيل ومن حوله - لفيل بإزائهم - فلا تدعوني أكثر من جزر جزور، فإن تأخرتم عني فقدتم أبا ثور، فأنى لكم مثل أبي ثور؟! فإن أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف.

فَحَمَلَ، فما انثنى حتى ضرب فيهم، وستره الغبار، فقال أصحابه:

ما تنتظرون؟ ما أنتم بخلقاء أن تدركوه، وإن فقدتموه فقد المسلمون فارسهم فحملوا حملة، فأفرج المشركون عنه بعد ما صرعوه وطعنوه، وإن سيفه لفي يده يضاربهم وقد طُعِن فرسه، فلما رأى أصحابَه، وانفرج عنه أهل فارس، أخذ برجل فَرَس رجلٍ من أهل فارس، فحركه الفارسي، فاضطرب الفرس، فالتفت الفارسي إلى عمروٍ فهمَّ به، فأبصره المسلمون فغشوه، فنزل عنه الفارسي، وحاضر إلى أصحابه، فقال عمرو: أمكنوني من لجامه، فأمكنوه منه فركبه) (٢).

٢٧ - إبطال مفعول السلاح الخطير (الفيلة):

(ولما رأى سعد الفيلة تفرق بين الكتائب، وعادت لفعلها يوم أرماث، أرسل إلى أولئك المسلمة (من الفرس) ضخم، ومسلم، ورافع، وعشنق، وأصحابهم من الفرس الذين أسلموا فدخلوا عليه، فسألهم عن الفِيلة: هل لها مقاتل؟ فقالوا: نعم، المشافر والعيون، لا ينتفع بها بعدها. فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو وقال:

اكفياني الفيل الأبيض. وكانت كلها آلفة له.

وأرسل إلى الربيل وحمَّال وقال: اكفياني الفيل الأجرب. وكانت آلفة له كلها،

---

(١) تاريخ الطبري (٤١٦/٢).

(٢) المصدر نفسه (٤١٩/٢).

وكان بإزائهما، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمين ليّنين، ودبا في خيل ورجل فقالا: اكتنفوه لتخيروه وهما مع القوم. ففعل حمّال والربيل مثل ذلك، فلما خالطوهما اكتنفوهما، فنظر كل منهما يَمْنة ويسرة وهما يريدان أن يتخبطا، فحمل القعقاع وعاصم والفيل متشاغل بمن حوله، فوضعا رمحيهما معًا في عيني الفيل الأبيض، وقبع ونفض رأسه، فطرح سائسه، ودلى مشفره، فنفحه القعقاع فرمى به، ووقع لجنبه، فقتلوا من كان عليه، وحمل حمَّال وقال للربيل:

اختر، إما أن تضرب المشفر وأطعن في عينه، أو تطعن في عينه وأضرب مشفره. فاختار الضرب، فحمل عليه حمَّال، وهو (أي الفيل) متشاغل بمن اكتنفه لا يخاف سائسه إلا على بطانه، فانفرد به أولئك فطعنه في عينه فأقعى ثم استوى، ونفحه الربيل فأبان مشفره، وبصر به سائسه، فبقر أنفه وجبينه بفأسه.

(... وصاح الفيلان صياح الخنازير. ثم ولى الأجرب الذي عُوّر فوثب في العقيق فاتبعته الفيلة، فخرقت صف الأعاجم، فعبرت العتيق في أثره، فأتت المدائن في توابيتها، وهلك من فيها) [1].

٢٨ - الالتحام.. وبرز الإسلام كله للكفر كله:

(... كان اليوم الثالث يوم عماس، ولم يكن في أيام القادسية مثله، خرج الناس منه على السواء، كلهم على ما أصابه كان صابرًا، وكلما بلغ منهم المسلمون بلغ الكافرون من المسلمين مثله، وكلما بلغ الكافرون من المسلمين بلغ المسلمون من الكافرين مثله).

انتهت البطولات الفردية، وزحف الفريقان على بعض، ولكن يا للهول! مائة وعشرون ألفًا من الكفار على ستة وثلاثين ألفًا من المسلمين، ولم يعد أحد من كلا الجيشين متفرجًا على بطولات الأبطال، فإما الحياة وإما الموت: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٤٣]، ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

لقد غير رستم خطته، وقرر أن يقوم بزحفه الأخير لينهي المسلمين، فلا جدوى من المطاردة والمبارزة بين الأبطال، لقد كانت كلها تنتهي لصالح المسلمين.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٤٢٢).

وتنزل الرعب في قلوب الجيش، فليعتمد كثرة العدد التي هي أضعاف أضعاف جيش المسلمين، وَلْيُنْهِ المعركة بهذا الزحف.

(فإذا القوم لمة لا يشدون، ولا يريدون غير الزحف، فقدموا صفًّا له أذنان، وأتبعوا آخر مثله وآخر وآخر حتى تمت صفوفهم ثلاثة عشر صفًّا في القلب والمجنبتين كذلك، فلما أقدم عليهم فرسان العسكر راموهم، فلم يعطفهم ذلك عن ركوبهم، ثم لحقت بالفرسان الكتائب).

٢٩ - ليلة الهرير:

(حمل الناس ليلة الهرير عامة، ولم ينتظروا بالحملة سعدًا، وكان أول من حمل القعقاع فقال: اللهم اغفر له وانصره. وقال: وا تميماه سائر الليلة.

ثم قال: أرى الأمر ما فيه هذا، فإذا كبرت ثلاثًا فاحملوا.

- فكبَّر واحدة فلحقتهم أسد، فقيل: قد حملت أسد. فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم، وا أسداه سائر الليلة.

- ثم قيل: حملت النخع. فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم، وا نخعاه سائر الليلة.

- ثم قيل: حملت بجيلة. فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم، وا بجيلتاه.

- ثُمَّ حملت الكنود، فقيل: حملت كندة. فقال: وا كندتاه.

- ثم زحفت الرؤساء بمن انتظر التكبيرة.

فقامت حربهم حتى الصباح، فذلك ليلة الهرير)[1].

٣٠ - مصير البشرية يتقرر هذه الليلة:

لقد ابتدأت الحرب منذ الصباح (فلما ذهبت الفيلة، وخلص المسلمون بأهل فارس، ومال الظل، وتزاحف المسلمون، وحماهم فرسانهم الذين قاتلوا أول النهار، فاجتلدوا بها حتى أمسوا على حرد).

كان هذا من أول النهار، وجاء المساء، ولم يتغير من المعركة شيء، فكل فريق يضع هدفًا عنده أن يكون هو الصابر وهو الظافر.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٢٣).

لقد كان كل فريق في لحظاته الأخيرة يمارس لعبة عض الأصابع، وينتظر خصمه أن يعلن هزيمته.

إنما الفارق الوحيد بين الفريقين: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ... ﴾ [النساء: ١٠٤].

لقد قامت سوق الجنة، وتتابع المؤمنون الذين صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

٣١ - القائدان والنصر المبين:

أ - الأسد في عرينه:

(فعن مصعب بن سعد قال:

بعث سعد في تلك الليلة بجادًا وهو غلام إلى الصف إذ لم يجد رسولًا، فقال: انظر ما ترى من حالهم. فرجع، فقال: ما رأيت أي بني؟

قال: رأيتهم يلعبون. قال: أو يجدُّون).

أليس عجيبًا أن يبقى القائد العظيم مريضًا وحيدًا في قصره ولا يجد حوله جنديًّا يبعثه رسولًا إلا غلامًا صبيًّا؟! كم تثق هذه الأمة بقائدها حتى لا تضع حوله جنديًّا يحرسه! وكم هو من الشجاعة والجرأة! يقود الجيش بتكبيراته، ولا يجرؤ عدو أن يقتحم قصره عليه، ومن ذا الذي يقتحم عرين الأسد في براثنه؟ وأين المسلمون؟ غاطون في نومهم؟ معاذ اللَّه.

إنهم يقاتلون منذ صبيحة النهار حتى عتمة الليل البهيم، وكما وصفهم أحد الشهود للمعركة:

(... عن أنس بن الحليس قال: شهدت ليلة الهرير، فكان صليل الحديد فيها كصوت القيون، ليلتهم حتى الصباح، أُفرغ عليهم الصبر إفراغًا، وبات سعد بليلة لم يبت مثلها، ورأى العرب والعجم أمرًا لم يروا مثله قط، وانقطعت الأصوات

والأخبار عن رستم وسعد، وأقبل سعد على الدعاء، حتى إذا كان وجه الصبح انتهى الناس فاستدل بذلك علىأنهم الأعلون، وأن الغلبة لهم).

ب - قتلت رستم وربِّ الكعبة:

لقد انطلق الهجوم الإسلامي قاصدًا إنهاء المعركة، والقعقاع على رأس هذا الهجوم، وشاءت إرادة اللَّه أن تقصم الكفر من خلال قتل طاغوته الأكبر بعد هذا البلاء العظيم، لقد بدأ تراجع الجيش الفارسي (فكان أول من زال حين قام قائم الظهيرة الهرمزان والبيرزان، فتأخرا وثبتا حيث انتهيا).

فقد تراجعت المجنبتان الميمنة والميسرة بانتهاء قائديهما الهرمزان والبيرزان، ثم كانت الخطوة الهائلة أن بدأ القلب يتراجع حيث القيادة العليا لجيش فارس.

(وانفرج القلب حين قام قائم الظهيرة).

وجاء المدد من اللَّه تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا... ﴾ [الأحزاب: ٩].

(وركد عليهم النقع، وهبت ريح عاصف، فقلعت طيارة رستم عن سريره، فهوت في العقيق وهي دبور).

« **نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور** » [١].

وها هي فارس تهلك بالدبور.

وكما اقتلع اللَّه خيام المشركين يوم الخندق، ها هي تقتلع قلعة رستم الذي تحصن تحتها، إذ أصبح ظهره مكشوفًا وهو على سريره.

(وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير فعثروا به).

فلقد فر رستم، ترى هل نجا؟

(وقد قام رستم عنه حين طارت الريح بالطائرة إلى بغال قدمت عليه بمال يومئذٍ، فاستظل في ظل بغل وحمله.

وجاء هلال بن علقمة ليُعطيه اللَّه - تعالى - هذا المجد الأبدي.

(وضرب هلال بن علقمة الحمل الذي تحته رستم... فقطع حباله، ووقع عليه (على رستم) أحد العِدلين، ولا يراه هلال ولا يشعر به).

---

(١) حديث رواه البخاري (٩٨٨).

لكن العدل الذي وقع عن ظهر البغل اختار ظهر رستم.

(فأزال عن ظهره فقارًا، ويضربه ضربة فنفحت مسكًا).

وكان بالمسك مقتله، إذ انتبه هلال إلى أن هذا المسك لا أضوع منه ولا أعطر، والتفت ليرى رستم المعطر المتضمخ بالعطر.

وهنا استعمل رستم بطولته، فذهب ورمى بنفسه في العتيق، وهو النهر الذي لو نجا فيه لكان البلاء الأعظم أن يبقى حيًّا، ويقود الجيوش تلو الجيوش للمواجهة، ولكن هلال البطل العظيم اقتحم عليه ورمى بنفسه بالنهر.

(فاقتحمه هلال عليه، فتناوله وقد عام، وهلال قائم، فأخذ برجله، ثم خرج به إلى الجد فضرب جبينه بالسيف حتى قتله).

وأصر البطل الإسلامي أن يعيده إلى حيث كان، إلى ظل البغال وهو جثة هامدة منتنة، لكن له هدفًا آخر هو أن يعلن الخبر المدوي من سرير رستم نفسه:

قتلت رستم ورب الكعبة.

(ثم جاء به ورمى به بين أرجل البغال).

وذلك ليبقى وسيلة إيضاح لمن يشكك في مقتله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً... ﴾ [يونس: ٩٢].

(... ثم صعد السرير ثم نادى: قتلت رستم ورب الكعبة).

وأنهى هذا النداء الخالد المعركة، فالصوت الذي اخترق الظلام ودوَّى فيه، رفع الإيمان والحماس في قلوب المؤمنين إلى الذروة، وهبط الحماس والاندفاع لدى المشركين إلى الحضيض.

(... وانبت قلب المشركين وانهزموا وقام الجالينوس على الروم، ونادى أهل فارس إلى العبور، وانسفر الغبار...).

لكن هذا لم يحم الجيش من الموت أو القتل: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الحشر: ٢]، ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

(فأما المقترنون، فإنهم جشعوا فتهافتوا بالعتيق، فوخزهم المسلمون برماحهم، فما أفلت منهم مخبر، وهم ثلاثون ألفًا).

وإضافة إلى الثلاثين ألفًا من المقترنين، فقد قُتِل من الفرس في المعركة ليلة الهرير ويوم القادسية عشرة آلاف سوى من قتلوا في الأيام قبله، وأصيب من المسلمين قبل ليلة الهرير ويوم القادسية ألفان وخمسمائة، وقتل ليلة الهرير ويوم القادسية ستة آلاف من المسلمين.

لقد قدم المسلمون ربع جيشهم شهداء في سبيل اللّه، أما الجرحى فما أظن واحدًا في الجيش لم يكن به جراحات في كل أجزاء جسده، لقد دخلوا معركة أمام أربعة أضعافهم من المقاتلين الأشداء، إذن نحن أمام أمة تبنى تاريخها بدمائها، وتقدم أرواحها قرابين دينها، والفرس كذلك قدموا ثلث جيشهم حفاظًا على طواغيتهم وأرضهم ومجدهم، لكن العاقبة للمتقين: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

٣٢ - القادسية: الفرقان بين الإسلام والكفر، وبين العرب والفرس:

لقد كانت الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها تنتظر أخبار القادسية، ويعلم العرب جميعًا أنها الوقعة الفاصلة، فإما أن يسير رستم إلى المدينة، وإما أن يسير سعد إلى المدائن.

(وقالوا (رواة سيف):

وكانت العرب توقَّعُ وقعة العرب وأهل فارس في القادسية فيما بين العذيب إلى عدن أبين، وفيما بين الأُبلة وأيلة (من المحيط إلى الخليج) يعرفون ثبات ملكهم وزواله بها، وكانت في كل بلدة مصيخة إليها، تنظر ما يكون من أمرها، حتى إن كان الرجل ليريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية...) [١].

معركة كانت مقدماتها واضحة للعيان، أنه لا خيار أمام العرب من معركة فاصلة، ولقد بلغ من أهميتها وتناقلتها الركبان تحرك أمير المؤمنين من المدينة ليكون على رأس الجيش الذي يواجه الفرس، كما هدَّد يزدجرد إمبراطور الفرس أن يمضي بنفسه ليقود

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٣٤).

المعركة إن رفض رستم أكبر قواده ذلك، فالعرب تتوقع المعركة قبل قيامها بأشهر، وكلهم يعلمون أنها المعركة الفاصلة، فالعذيب مكان في شمال الجزيرة، وعدن أبين في أقصى الجنوب الذي ينتهي بالبحر، وأقصى المشرق الأبلة، وهي البصرة على الخليج العربي اليوم - والذي كان يطلق عليه الخليج الفارسي - بينما أقصى المغرب في أيلة - وهي إيلات - على البحر الأحمر.

ويعلم العرب والفرس أن هذه المعركة هي التي تقرر مصير العالم عامة، والعرب والفرس خاصة، ويمكن القول كذلك أن العرب اعتبروها معركة مصيرية، فعلى ضوئها يتقرر المصير العام والمصير الشخصي، فهي هَمٌّ كل فرد في الجزيرة العربية، ولو أن القنوات الفضائية التي تعبئ الأمم بقضاياها المصيرية كانت موجودة آنذاك لما كان الأمر أكبر من ذلك.

(وكانت كل بلد مصيخة إليها...) ولماذا؟ لأن المجاهدين قد خرجوا من كل بلد ومن كل صقع وشاركوا في الحرب. والقبائل العربية كلها ماثلة في هذا الجيش الضخم وليسوا أشخاصًا عاديين فقط، أو جنودًا مجهولين فقط، إنما سادة العرب وغررهم وأشرافهم وشعراؤهم وفرسانهم وأبطالهم وصناديدهم كانوا هناك في ساحة الوغى، وأذن اللّه - تعالى - للبشرية بفجر جديد، وكان النصر الساحق المؤزَّر لجند اللّه في الأرض: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

* * *
* *
*



فِهْرِسُ ٱلمجَلَّدِ ٱلثَّانِي

الفصل السادس

السنة الرابعة عشرة الطريق إلى القادسية

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل السادس عشر
خطوط عريضة في المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة « اليرموك والقادسية »



تم بحمد اللّه المجلد الأول

من سيرة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

والمجلد التالي يبدأ بـ:

سنة خمس عشرة: عام فتوح بلاد الشام



تابعوا معنا باقي مجلدات:

المسيرة الإسلامية

لجيل الخلافة الراشدة

• المجلد الأول : أبو بكر الصديق رضي الله عنه

* المجلد الثاني : عمر بن الخطاب رضي الله عنه

اليرموك والقادسية : المعركتان اللتان غيرتا وجه التاريخ

• المجلد الثالث : عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الفتوحات الإسلامية الموسعة

• المجلد الرابع : عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الانسياح الإسلامي في الأرض

• المجلد الخامس : عثمان بن عفان رضي الله عنه

• المجلد السادس : علي بن أبي طالب رضي الله عنه



المسيرة الإسلامية



جيل الخلافة الراشدة

المجلد الثالث

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

• الفتوحات الإسلامية الموسعة

تأليف
د. منير محمد الغضبان

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م

الغضبان ، منير محمد .
المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة / تأليف منير محمد الغضبان . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٤م .
مج ٢، ٣، ٤ ؛ ٢٤ سم .
المحتويات : ج ٢ عمر بن الخطاب، اليرموك والقادسية المعركتان اللتان غيرا وجه التاريخ ، ج ٣ عمر ابن الخطاب ﷺ الفتوحات الإسلامية الموسعة، ج ٤ عمر بن الخطاب ﷺ الانسياح الإسلامي في الأرض .
تدمك ٧ ٢٠٩ ٧١٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الخلفاء الراشدون . ٢ - الصحابة والتابعون .
٣ - التاريخ الإسلامي.
٤ - عمر بن الخطاب، عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي، ٥٨٤م - ٦٤٤م.
أ - العنوان . ٩٥٣,٠٢٣

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

ISBN: 978-977-717-209-7



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن سار بنهجه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد.. فهذا هو المجلد الثاني من الجزء الخاص بسيرة الخليفة الراشد الثاني الفاروق عمر من سلسلة المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة، حيث نستعرض هنا صفحات ناصعة في التاريخ الإسلامي ما بين السنة الخامسة عشرة للهجرة وحتى نهاية السنة الثامنة عشرة للهجرة، وكنا قد أفردنا مجلدًا لمعركتين من أهم المعارك في تلك الفترة وهما القادسية واليرموك حيث تناولناهما في المجلد الأول من الجزء الثاني.

وقد شهدت تلك الفترة (ما بين ١٥هـ - نهاية ١٨هـ) إنجازات يمثل كل منها إعجازًا.. فإلى جانب أنها شهدت بدايات فتح مصر، فقد استطاعت الجيوش الإسلامية بقيادة أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد رضي الله عنهما أن تفتح الأراضي السورية مدينة تلو الأخرى - حمص وبعلبك وحماة ومعرة النعمان واللاذقية وجبلة وطرطوس وبانياس وسلمية، ثم قنسرين، فمن يصدق أن دولة في عقدها الثاني تدمر جيوش الروم وتضطر هرقل إلى الرحيل صاغرًا متحسرًا عن أنطاكية إلى القسطنطينية حتى علا على شرف فالتفت إلى سورية قائلًا: « السلام عليك يا سورية، سلامًا لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبدًا إلا خائفًا.... ».

ومن ذا يصدق أن دولة في هذا العمر تواصل سيرها على حساب دولة الروم إلى معرة مصرين وسَرْمين وتيزين وقورِس وإعْزاز ومَنْبِجْ وبالس وجرجرومة وبفراس ومرعش.

شهدت تلك الفترة فتح قيسارية وتدمير أقوى قوة رومانية بحرية على ساحل البحر الأبيض المتوسط.. وفتح بيروت.. وصيدا... وعرقه.. وجبيل.. وغزة.. وبيسان.. حتى خرج الفاروق إلى إيلياء وتسلم مفاتيح بيت المقدس وسطر المسلمون وثيقة الصلح الخالدة إلى أهل إيلياء.

وعلى الجانب الآخر كأننا نبصر الجيوش الإسلامية تتحرَّك من فاتحة لسان البر في العتيق، وتتحرك لتهزم جيوش الفرس في بابل وفي بهرسير، وكأن الأرض تطوى تحت أقدام المسلمين وحتى وصلوا إلى شاطئ دجلة الغربية، فما لبثوا أن مخروا عبابه وعبروه يتحدثون كما يتحدثون على اليابسة، كأنهم الجن أو الملائكة، وقد امتطوا خيولهم وسدوا الأفق، فسقطت المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية بعد أن هرع أهل فارس إلى الهرب والنجاة تاركين أموالهم فارين راضين منْ الغنيمة بالإياب.

تقدَّم المسلمون خلفهم إلى جلولاء فحرروها.. وتحركوا حتى حرروا كامل العراق.. ثم فتحوا رامهرمز والسوس وتستر.

إنها فترة مليئة بالأحداث.. استطاع المسلمون فيها فتح المفاوز والبلدان على أنقاض دولتين هما الأقوى في العالم - الفرس والروم - فكم خسروا من أراضٍ، وكم فقدوا من جنودهم تحت وطأة رجال الجيوش الإسلامية، وكم ضاع من آمالهم في استمرار سيطرتهم على بلدان المناطق العربية... إنه جيل كامل من الرجال تربَّوا في مدرسة النبوة... صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه.. إنها العبقريات العربية التي استطاع هذا الدين أن يوظِّفها.. فتفجَّرت كل الطاقات... والآن أنسحب لأترك الساحة لعرض تلك الفترة المليئة بالإنجازات.. وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

* * *
* *
*

الفصل الأول

سنة خمس عشرة: عام فتوح بلاد الشام

وتمَّ فيها تحرير الشام كلها من الروم وذلك عقب معركتي اليرموك وفِحل التي تمَّ فيها تحرير الأردن. وتمَّ فتح دمشق بعد حصار استمر ستين يومًا. وبدأت الانطلاقة خلال هذا العام لتحرير بلاد الشام كلها، سورية ولبنان وفلسطين وباقي الأردن. ولم يكن الأمر ليتم بسهولة بعد احتلال روماني دام قرونًا لهذه البلاد.

مرج الروم: غوطة دمشق

(وفي هذه السنة كانت الوقعة بمرج الروم. وكان من ذلك أن أبا عبيدة خرج بخالد بن الوليد من فِحل إلى حمص، وانصرف بمن أضيف إليهم من اليرموك. فنزلوا جميعًا على ذي الكلاع، وقد بلغ الخبر هرقل. فبعث توذرا البطريق حتى نزل بمرج دمشق وغربها. فبدأ أبو عبيدة بمرج الروم وجمعهم هذا. وقد هجم الشتاء عليهم، والجراح فيهم فاشية.

فلما نزل على القوم بمرج الروم نازله يوم نزل عليه شنس الرومي في مثل خيل توذرا إمدادًا لتوذرا وردءًا لأهل حمص. فنزل في عسكر على حدة. فلما كان من الليل أصبحت الأرض من توذرا بلاقع [1]. وكان خالد بإزائه وأبو عبيدة بإزاء شنس، وأتى خالدًا الخبر أن توذرا قد رحل إلى دمشق، فأجمع رأيه ورأي أبي عبيدة أن يتبعه خالد، فأتبعه خالد من ليلته في جريدة. وقد بلغ يزيد بن أبي سفيان الذي فعل، فاستقبلهم فاقتتلوا، فلحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم. فقتلوا من بين أيديهم ومن خلفهم فأناموهم (قتلوهم) ولم يفلت منهم إلا الشريد.

فأصاب المسلمون ما شاؤوا من ظهر وأداة وثياب، وقسّم ذلك يزيد بن أبي سفيان على أصحابه وأصحاب خالد. ثم انصرف يزيد إلى دمشق، وانفصل خالد إلى أبي عبيدة. وقد قتل خالد توذرا.

---

(١) بلاقع أي: خاوية.

وقال خالد:

نَحنُ قَتَلْنَا تُوذَرًا وَشوذرا وَقَبلَهُ مَا قَدْ قَتَلْنَا حَيْدَرَا

نَحْنُ أزرنا الغِيضَة الأكيدرَا

وقد ناهد أبو عبيدة - بعد خروح خالد في أثر توذرا - شنسَ، فاقتتلوا بمرج الروم، فقتلهم مقتلة عظيمة، وقتل أبو عبيدة شنسَ. وامتلأ المرج من قتلاهم، فأنتنت منهم الأرض، وهرب من هرب منهم، فلم يفلتهم وركبوا أكساءهم [1] إلى حمص) [2].

لقد كان هرقل من القادة العظام في العالم، وهو الذي أحيا الإمبراطورية البيزنطية بعد أن كانت على وشك السقوط، وقد سجّل هزيمة ساحقة للفرس وهو يريد الآن بخططه نفسها أن يعيد الكرَّة ويُنهيَ الوجود العربي الإسلامي في الشام.

وها نحن نستعرض هذا الانتصار الذي بشَّر به القرآن الكريم المؤمنين.

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٦].

الروم:

(فلما رأى هرقل ما أهمَّ الروم من النهب والقتل والبلاء... استعد، واستخلف ابنًا له على القسطنطينية. وسلك غير الطريق الذي سلكه شهربراز، وسار حتى أوغل في بلاد أرمينية، وقصد الجزيرة فنزل نصيبين. فأرسل إليه كسرى جندًا وأمرهم بالمقام بالموصل، وأرسل إلى شهربراز يستحثه على القدوم عليه؛ ليتضافرا على قتال هرقل) [3].

الخطر الفارسي:

عندما اعتلى هرقل العرش كان مصير الدولة مُعلقًا في كفة الأقدار، فالخطر الفارسي كان آخذًا في ازدياد. وقد وسع الفرس رقعة مملكتهم في الشام وأرمينية، وعقدوا العزم على الوصول إلى شواطئ البحر المتوسط. وقد نجح الفرس في الاستيلاء على عدة مدن

---

(١) أكساءهم: الكسء من كل شيء: مؤخره. (٢) تاريخ الطبري (٢/٤٤٣).

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/٣٦٨، ٣٦٩).

في الشام وزحفوا إلى بيت المقدس، وحاصروها حوالي عشرين يومًا ثم دخلوها عنوة عام (٦١٤م). وجعلوها نهبًا للحرائق، وقتل الفرس عددًا كبيرًا من المسيحيين يقدره بعض المؤرخين بـ (٥٧) ألف ودمَّر الفرس كنيسة القيامة، واستولوا على الصليب الأكبر المقدس. ونقلوه إلى عاصمتهم المدائن وكان لسقوط بيت المقدس في أيدي الفرس صدمة كبيرة بين المسيحيين في الإمبراطورية البيزنطية. فهذه كانت أول مرة تقع فيها هذه المدينة المقدسة بأيدٍ غير مسيحية، والواقع أن تقدُّم الفرس لم يقتصر على البلاد الشامية بل امتد إلى آسية الصغرى، ووصل الفرس إلى كريسبوليس المواجهة للقسطنطينية. كما غزوا مصر فسقطت الإسكندرية في أيديهم سنة (٦١٩م). وترتَّب على ذلك انقطاع القمح عن القسطنطينية وازدياد سوء الأحوال الاقتصادية.

هرقل من الأبطال العظام:

أبدى هرقل شجاعة ومهارة كبيرة في مواجهة الخطر الفارسي فبدلًا من منازلة الفرس المتوغلين في أراضي الإمبراطورية البيزنطية قام بمواجهتهم في عقر دارهم في البلاد الفارسية، فقد تقدَّم في جيشه في ديسمبر عام (٦٢٢م)، ووصل أمام نينوى، وهناك خاض معركة حاسمة ضد الفرس قررت مصير الصراع بين الطرفين وقد ألحق بالجيوش الفارسية هزيمة ساحقة في هذه الموقعة وبعد ذلك عُزِل كسرى وقتل وتبعه في الحكم ابنه شيرويه الذي رأى من الأفضل أن يعقد الصلح مع هرقل. وقد تمَّ الصلح في سنة (٦٢٨م)، وبمقتضاه استردت القسطنطينية كل ما كان لها من البلاد التي كانت قد سقطت في أيدي الفرس، بما في ذلك أملاكهم في بلاد الجزيرة الفراتية والشام ومصر. وبعد رجوع هرقل إلى القسطنطينية استقبله أهلها استقبال الأبطال؛ فقد حمل له الشعب أغصان الزيتون، ورتلوا المزامير يهتفون باسمه (١).

حرب الروم والفرس عند المسلمين:

روى الطبري بسنده عن عكرمة (أن الروم وفارس اقتتلوا في أدنى الأرض وأدنى الأرض يومئذ أَذْرِعَات بها التقوا فهزمت الروم. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ وأصحابَه وهم بمكة. وكان النبي ﷺ يكره أن يظهر الأُمّيون من المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح الكفار بمكة وشمتوا، فلقُوا أصحاب النبي ﷺ فقالوا: إنكم أهل كتاب

(١) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب. وإنكم إن قاتلتمونا لَنظهَرَنَّ عليكم فأنزل اللّه: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ إلى: ﴿ وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار وقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا ولا يُقِرَّن اللّه أعينكم. فواللّه ليظهرن الروم على الفرس أخبرنا بذلك نبينا، فقام إليه أُبَي بن خلف الجُمَحِي فقال: كذبت يا أبا فصيل. فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو اللّه. فقال: أناحبك [١] عشر قلائصَ [٢] مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غَرِمتُ. وإن ظهرت فارس غرمتَ إلى ثلاثِ سنين.

ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: « **ما هكذا ذكرت، إنما البضع بين الثلاث والتسع** »، فزايده في الخطر [٣]، وماده [٤] في الأجل . فخرج أبو بكر فلقِيَ أُبيًّا، فقال: لعلك ندمت، قال: لا. تعال أزايدك في الخطر، وأمادك في الأجل، فجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين. قال: قد فعلت) [٥].

قال عطاء الخراساني:

حدثني يحيى بن يعمر أن قيصر بعث رجلًا يدعى قطمة بجيش من الروم، وبعث كسرى بهر براز فالتقيا بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إليكم. فلقيت فارس الروم فغلبتهم فارس، ففرح بذلك كفار قريش، وكرهه المسلمون، فأنزل اللّه: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ الآيات. ثم ذكر مثل حديث عكرمة وزاد: فلم يبرح شهربراز يطؤهم ويخرب مدائنهم حتى بلغ الخليج، ثم مات كسرى فبلغهم موته فانهزم شهربراز وأصحابه. وأديلت عليهم الروم عند ذلك فاتبعوهم يقتلونهم [٦].

تقييم عام لعصر هرقل:

يعتبر هرقل بحق من أعظم الأباطرة البيزنطيين.. فعلى الصعيد الحربي، استطاع استعادة كل الولايات الرومانية التي كان الفرس قد استولوا عليها. وعلى الرغم من

---

(١) أناحبك: أراهنك.

(٢) القلائص: جمع قلوص وهو من الإبل هي الشابة أو أول ما يركب من إناثها.

(٣) الخطر: السَّبَق يتراهن عليه. (٤) أمادك: أزيد في المدة.

(٥، ٦) تاريخ الطبري (٤٦٨/١).

الخسائر الجسيمة التي تكبدها أمام حروبه ضد المسلمين، فإنه استطاع بعبقريته إيقاف جيوش الفتح الإسلامي عند آسيا الصغرى، كما كسر جيوش الخلافة في حملتها لغزو قرطاجة. كما أنه أكمل عملية صبغ الدولة الرومانية بالطابع اليوناني بفرض اللغة اليونانية لغة رسمية للإمبراطورية بعد أن كانت اللغة اللاتينية هي اللغة الرسمية. وأصدرت كل المراسيم الإمبراطورية في القرن السابع وكل المذكرات الرسمية باللغة اليونانية، واختفت الألقاب اللاتينية. وحلَّت محلها الألقاب اليونانية [1].

هرقل يعيد الخطة مع المسلمين والتي انتصر بها مع الفرس:

فقد رأينا النجاح الباهر لخطته مع الفرس بحيث تركهم بإزاء القسطنطينية وانسحب بجيوشه من الخلف إلى العراق، ومن هناك مضى نحو المدائن عاصمة الفرس واحتلها.

وكانت خطته أذكى وأدهَى مما هي مع الفرس، فقد كانت حمص مركز التجمع بعد فِحل في الأردن. (وكان من ذلك أن أبا عبيدة خرج بخالد بن الوليد من فحل إلى حمص بمن أضيف إليهم من اليرموك، فنزلوا جميعًا على ذي الكلاع الحميري (قائد موقع حمص) وقد بلغ الخبر هرقل..).

فبدأ بتنفيذ خطته حيث جاء المسلمين من خلفهم إلى مرج الروم قرب دمشق (وقد بلغ الخبر هرقل فبعث توذرا البطريق حتى نزل بمرج دمشق وغربها).

واستدرك أبو عبيدة الأمر بسرعة، فمضى إلى مرج الروم لمواجهة توذرا.

(فبدأ أبو عبيدة بمرج الروم وجَمْعِهم هذا، وقد هجم الشتاء عليهم والجراح فيهم فاشية. فلما نزل على القوم بمرج الروم نازله يوم نزل عليه (شنس الرومي) في مثل خيل توذرا إمدادًا لتوذرا وردءًا لأهل حمص. فنزل في عسكر على حدة).

وبدأ هرقل بتنفيذ خطته الرهيبة العالمية، لقد كان الإيهام الأول للمسلمين أن معركتهم في حمص من أجل استردادها منهم، ثم بعث جيشه الضخم لا إلى حمص بل إلى مرج الروم قرب دمشق في محاولة لاسترداد دمشق، واحتلالها من جديد.

وكان الجيش الإسلامي على مستوى هذه الخطة الرهيبة، فسَرعان ما مضى ثقل

---

(١) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

الجيش الإسلامي نحو مرج دمشق. واجتمع قائدان من قادة الروم الكبار هناك - توذار وشنس الرومي. وبذلك يعتبر المسلمون أنهم أحبطوا الخطة. وفي الحقيقة هي جزء من الخطة، وليست الخطة كاملة، إنما الخطة كاملة هي أن يشغل المسلمون في حرب عنيفة في مرج دمشق، بينما تمضي بعض القوات وثقلها لاحتلال دمشق. وبذلك يصبح المسلمون بين فكي كماشة حين يحتل الروم دمشق. ويأتون المسلمين من خلفهم. وأمامهم شنس الرومي ويتم القضاء على الجيش الإسلامي ويستعيد دمشق غُرة الشام وعاصمتها.

لكن هرقل الإمبراطور والقائد الأعظم، لم يكن يعلم أن كتائب المسلمين وقياداتهم أذكى منه ومن مخططاته، وأن معهم سيف اللَّه الذي لم يُسَجَّل عنه أنه خسر معركة.. معهم خالد بن الوليد ﵁!!

(.. فنزل - شنس - في عسكر على حدة. فلما كان من الليل أصبحت الأرض من توذرا بلاقع وكان خالد بإزائه. وأبو عبيدة بإزاء شنس.

وأتى خالدًا الخبر أن توذرا قد رحل إلى دمشق، فأجمع رأيه ورأي أبي عبيدة أن يتبعه خالد، فأتبعه خالد من ليلته في جريدة (خيل).

وقد بلغ يزيد بن أبي سفيان الذي فعل، فاستقبلهم فاقتتلوا، فلحق بهم خالد وهم يقتتلون) [1].

لقد انقلب السحر على الساحر، وتحقق عكس أحلام هرقل؛ فبينما كان يحلم بمجد تليد كمجد الانتصار على الفرس، أصبح الجيش الرومي بين فكي كماشة.. بين يزيد ابن أبي سفيان ﵁، قائد حامية دمشق وجيشه، وبين خالد بن الوليد سيف اللَّه وجيشه.

(... فلحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم. فقُتِلوا من بين أيديهم ومن خلفهم فأناموهم (أي قتلوهم) ولم يفلت منهم إلا الشريد. فأصاب المسلمين ما شاؤوا من ظهر وأداة وثياب، وقسم ذلك يزيد بن أبي سفيان على أصحابه وأصحاب خالد، ثم انصرف يزيد إلى دمشق، وانفصل خالد إلى أبي عبيدة) وانصرف المسلمون بإفناء الجيش الرومي وقتل قائده توذرا. وتم إعلان ذلك بلسان القائد العظيم خالد بن الوليد.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٤٣/٢)

(وقال خالد:

نَحْنُ قَتَلْنَا تُوذَرا وَشُوذرا وَقَبْلَهُ مَا قَدْ قَتَلْنَا حَيْدَرا

نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا [١]

أليس هو ﷺ الذي انتزع أكيدر بن عبد الملك ملك دومة جندل، من أحضان زوجته إلى أحضان الأسر، ومضى به إلى تبوك. وعاهد رسول اللَّه ﷺ. ثم نكث عهده عنده. فانتزعه ثانيه ومن حصنه وقتله، واحتل دومة الجندل مرة ثانية، وقتل الأكيدر ملكها وصاحبها وتحرَّك أمين الأمة نحو شنس الرومي وجيشه، فأباد الجيش بمن فيه. (وقد ناهد أبو عبيدة بعد خروج خالد في إثر توذرا شنسَ، فاقتتلوا بمرج الروم، فقتلهم مقتلة عظيمة، **وقتل أبو عبيدة شنسَ**، وامتلأ المرج من قتلاهم فأنتنتْ منهم الأرض، وهرب من هرب منهم، فلم يفلتهم، وركبوا أكساءَهم إلى حمص) [٢].

ذكر فتح سورية

نعرضها دون تدخُّل كما أوردها ابن الأثير رحمه الله في كتابه: (الكامل في التاريخ) إلا في بعض العناوين الجانبية.

ذكر فتح حمص وبعلبك وغيرهما:

(فلما فرغ أبو عبيدة من دمشق سار إلى حمص، فسلك طريق بعلبك، فحاصرها، فطلب أهلها الأمان فأمّنهم وصالحهم، وسار عنهم فنزل على حمص ومعه خالد. وقيل: إنما سار المسلمون إلى حمص من مرج الروم، وقد تقدم ذكره، فلما نزلوها قاتلوا أهلها، فكانوا يغادُونهم القتال، ويراوحونهم في كل يوم بارد. ولقي المسلمون بردًا شديدًا، ولقي الروم حصارًا طويلًا، فصبر المسلمون والروم، وكان هرقل قد أرسل إلى أهل حمص يَعِدُهم المدد. وأمر أهل الجزيرة جميعها، بالتجهز إلى حمص فساروا نحو الشام ليمنعوا حمص عن المسلمين.. وكان أهلها يقولون: تمسكوا بمدينتكم فإنهم حفاة، فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم، فكانت أقدام الروم تسقط، ولا يسقط للمسلمين إصبع. فلما خرج الشتاء قام شيخ من الروم فدعاهم إلى مصالحة

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٤٤٣).

المسلمين، فلم يجيبوه، وقام آخر فلم يجيبوه، فناهدهم المسلمون فكبروا تكبيرة، فانهدم كثير من دور أهل حمص، وزلزلت حيطانهم فتصدعت. فكبروا ثانية، فأصابهم أعظم من ذلك. فخرج أهلها إليهم يطلبون الصلح، ولا يعلم المسلمون بما حدث فيهم. فأجابوهم وصالحوهم على صلح دمشق وأنزلها أبو عبيدة السمط ابن الأسود الكندي في بني معاوية، والأشعث بن ميناس في السكون [1]، والمقداد في بلى، وأنزلها غيرهم.

وبعث بالأخماس إلى عمر مع عبد اللّه بن مسعود. وكتب عمر إلى أبي عبيدة، أن أقم بمدينتك وادْعُ أهلَ القوة والجلد من عرب الشام، فإني غير تارك البعثة إليك.

فتح حماة:

ثم استخلف أبو عبيدة على حمص عُبَادَة بن الصَّامِت، وسار إلى حماة فتلقاه أهلها مُذعنين فصالحهم أبو عبيدة على الجزية لرؤوسهم والخراج على أرضهم، ومضى نحو شيزر. فخرجوا إليه يسألون الصلح على ما صالح عليه أهل حماة.

المعرة:

وسار أبو عبيدة إلى معرة حمص، وهي معرة النعمان نسبت فيما بعد إلى النعمان ابن بشير الأنصاري، فأذعنوا له بالصلح على ما صالح عليه أهل حمص.

اللاذقية:

ثم أتى اللاذقية، فقاتله أهلُها وكان لها باب عظيم يفتحه جَمْع من الناس فعسْكرَ المسلمون على بُعد منها، ثم أمر فحفر حفائر عظيمة تستر الحفرة منها الفارس راكبًا، ثم أظهروا أنهم عائدون عنها ورحلوا، فلما جَنَّهم الليل عادوا فاستتروا في تلك الحفائر، وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا عنهم. فأخرجوا سرحهم، وانتشروا بظاهر البلد، فلم يرعهم إلا والمسلمون يصيحون معهم، ودخلوا معهم المدينة، ومُلِكَت عنوة، وهرب قوم من النصارى، ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه، قلّوا أو كثروا، وتُرِكت لهم كنيستهم، وبنى المسلمون بها مسجدًا جامعًا بناه عبادة ابن الصامت ثم وُسِّع فيه بعد.

---

(١) السكون : قبيلة يمنية على رأسها الأشعث بن ميناس.

جَبلَة:

ولما فتح المسلمون اللاذقية جلا أهل جبلة من الروم عنها، فلما كان زمن معاوية بنى حصنًا خارج الحصن الرومي، وشحنه بالرجال.

أنطرسوس: (طرطوس):

وفتح المسلمون مع عبادة بن الصامت أنطرسوس، وكان حصينًا فجلا عنه أهله، فبنى معاوية مدينة أنطرسوس - ومصَّرها، وأقطع بها القطائع للمقاتلة.

بانياس:

وكذلك فعل ببانياس.

سلمية:

وفتحت سلمية أيضًا. وقيل: إنما سميت سلمية؛ لأنها كان بقربها مدينة تُدْعَى (المؤتفكة) انقلبت بأهلها ولم يسلم منهم غير مائة نفس، فبنوا لهم مائة منزل وسُمِّيَتْ سلم مائة. ثم حرَّفَ الناس وقالوا سلمية، وهذا يتمشَّى لقائله لو كان أهلها عربًا ولسانهم عربيًا. وأما إذا كان لسانهم أعجميًا، فلا يَسُوغ هذا القول. ثم إن صالح بن علي بن عبد اللَّه بن عباس اتخذها دارًا، وبنى وَلَدُه فيها فمصروها. ونزلها من نزلها من ولدِه، فهي وأرضوها لهم.

ذكر فتح قنسرين [١] ودخول هرقل القسطنطينية

قنسرين:

ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين. فلما نزل الحاضر زحف إليهم الروم وعليهم ميناس، وكان من أعظم الروم بعد هرقل، فالتقوا بالحاضر، فاقتتلوا فقُتِل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يُقتلوا مثلها. فأما الروم فماتوا على دمه فلم يبقَ منهم

---

(١) مدينة بينها وبين حلب مرحلة (مسيرة يوم) كانت عامرة آهلة، فلما غلب الروم على حلب خاف أهل قنسرين وتفرَّقوا في البلاد.

أحد. وأما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب، وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه، فقبل منهم وتركهم.

وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصَّنوا منه فقال: إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا اللَّه إليكم أو لأنزلكم إلينا. فنظروا في أمرهم ورأوا ما لقي أهل حمص؛ فصالحوهم على صلح حمص فأبى خالد إلا على إخراب المدينة فأخربها. فعند ذلك دخل هرقل القسطنطينية، وسببه أن خالدًا وعياضًا أدربا إلى هرقل من الشام، وأدرب عمر بن مالك من الكوفة، فخرج من ناحية قرقيسيا، وأدرب عبد اللَّه بن المعتم من ناحية الموصل، ثم رجعوا، فعندها دخل هرقل القسطنطينية. وكانت هذه أول مدربة [١] في الإسلام سنة خمس عشرة وقيل: ست عشرة.

فلما بلغ عمرَ صنيعُ خالد قال: أمَّر خالد نفسه، يرحم اللَّه أبا بكر، هو كان أعلمَ بالرجال مني وقد كان عزله والمثَنّى بن حارثة. وقال: إني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما.

فأما المثنى فإنه رجع عن رأيه فيه لما قام بعد أبي عبيدة. ورجع عن خالد بعد قنسرين. وأما هرقل فإنه خرج من الرها.

وكان أول من أنبح كلابها، ونفر دجاجها من المسلمين زياد بن حنظلة - وكان من الصحابة - وسار هرقل فنزل بشمشاط، ثم أدرب منها نحو القسطنطينية. فلما أراد المسير منها علا على نشز [٢]، ثم التفت إلى الشام فقال: السلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبدًا إلا خائفًا حتى يولد المولود المشؤوم - ويا ليته لا يولد - فما أحلى فعله. وأمرَّ فتنته على الروم.

ثم سار فدخل القسطنطينية. وأخذ أهل الحصون التي بين إسكندرية وطرسوس معه لئلَّا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم، وشعَّثَ الحصون وكان المسلمون لا يجدون بها أحدًا، وربما كَمِنَ عندها الروم، فأصابوا غرَّة المتخلفين. فاحتاط المسلمون لذلك.

---

(١) مدربة: أدربَ في الغزو: جاوز الدَّربَ إلى العدو، وصوَّت بالطبل، وكل مدخل إلى الروم درب.

(٢) نشز: ما ارتفع وظهر من الأرض.

ذكر فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم

فتح حلب:

لما فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار إلى حلب، فبلغه أن أهل قنسرين نقضوا وغْدروا، فوجَّه إليهم السمط الكندي، فحصرهم وفتحها وأصاب فيها بقرًا وغنمًا. فقسَّم بعضه في جيشه، وجعل بقيته في المغنم.

ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب - وهو قريب منها - فجمع أصنافًا من العرب فصالحهم أبو عبيدة على الجزية.

وأتى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهري فتحصَّن أهلها، وحصرهم المسلمون فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم وحصنهم فأعطوا ذلك. واستثني عليهم موضع المسجد. وكان الذي صالحهم عياض، فأجاز أبو عبيدة ذلك.

وقيل: صولحوا على أن يقاسموا منازلهم وكنائسهم.

وقيل: إن أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحدًا؛ لأن أهلها انتقلوا إلى أنطاكية، وراسلوا في الصلح.

فلما تم ذلك رجعوا إليها.

فتح أنطاكية:

وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية، وقد تحصَّن بها كثير من الخلق من قنسرين وغيرها. فلما فارقها لقيه جمع العدو فهزمهم فألجأهم إلى المدينة. وحاصرها من جميع نواحيها.

ثم إنهم صالحوه على الجلاء أو الجزية، فجلا بعض وأقام بعض، فأمنهم ثم نقضوا، فوجه أبو عبيدة إليهم عياض بن غنم وحبيب بن مَسْلَمَة، ففتحاها على الصلح الأول.

وكانت أنطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين فلما فتحت كتب عمر أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين واجعلهم بها مرابطة، ولا تحبس عنهم العطاء.

معرة مصرين وسرمين وتيزين:

وبلغ أبا عبيدة أن جمعًا من الروم بين معرة مصرين وحلب، فسار إليهم فلقيهم فهزمهم، وقتل عدة بطارقة وسبى وغنم.

وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب.

وجالت خيوله فبلغت بوقا [١] وفتحت قرى الجومة [٢] وسرمين [٣] ومرتحوان وتيزين، وغلبوا على جميع أرض قنسرين وأنطاكية.

ثم أتى أبو عبيدة حلب وقد التاث أهلها فلم يزل بهم حتى أذعنوا وفتحوا المدينة.

قورس:

وسار أبو عبيدة يريد قورس وعلى مقدمته عياض، فلقيه راهب من رهبانها يسأله الصلح فبعث به إلى أبي عبيدة فصالحه على صلح أنطاكية.

وبث خيله فغلب على جميع أرض قورس وكان سلمان بن ربيعة الباهلي في جيش أبي عبيدة فنزل في حصن قورس. فنسب إليه فهو يعرف بحصن سلمان.

أعزاز:

وفتح تل أعزاز.

منبج [٤]:

ثم سار أبو عبيدة إلى منبج وعلى مقدمته عياض فلحقه وقد صالح أهلها على مثل صلح أنطاكية.

دلوك ورعبان:

وسيَّر عياضًا إلى ناحية دلوك [٥] ورعبان [٦]، فصالحه أهلها على مثل منبج. واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الروم. وولَّى أبو عبيدة كل كورة فتحها عاملها.

---

(١) بوقا: قرية من قرى أنطاكية.

(٢) الجومة: من نواحي حلب.

(٣) سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب.

(٤) منبج: بلد قديم بينه وبين حلب عشرة فراسخ.

(٥) دلوك: من نواحي حلب.

(٦) رعبان: مدينة بين حلب وسميساط قرب الفرات.

بالس [1]:

وسار إلى بالس وبعث جيشًا مع حبيب بن مسلمة إلى (قاصِرين). فصالحهم أهلها على الجزية أو الجلاء، فجلا أكثرهم إلى بلد الروم وأرض الجزيرة، وقرية جسر مَنْبج. ولم يكن الجسر يومئذ، وإنما اتُّخِذَ في خلافة عثمان للصوائف. وقيل: بل كان له رسم قديم. واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية إلى الفرات.

جُرجومة:

عُاد أبو عبيدة إلى فلسطين وكان بجبل اللكام مدينةٌ يقال لها جُرْجُومة، وأهلها يقال لهم الجراجمة. فسار حبيب بن مسلمة إليها من أنطاكية فافتتحها صلحًا على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين.

بغْراس [2]:

وفيها سَيَّرَ أبو عبيدة بن الجراح جيشًا مع ميسرة بن مسروق العبسي فسلكوا دربَ بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم. وهو أول من سلك ذلك الدرب. فلقي جمعًا من الروم معهم عرب من غسَّان وتَنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل، فأوقع بهم. وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم لحق به مالك الأشتر النخعي مددًا من قِبَلِ أبي عبيدة وهو بأنطاكية فسلموا وعادوا.

مَرْعَش [3]:

وسيَّر جيشًا مع خالد بن الوليد ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وأخربها، وسيَّر جيشًا آخر مع حبيب بن مسلمة إلى حصن « الحدث ». وإنما سمي الحدث لأن المسلمين أصيبوا بها فقيل: درب الحدث. وكان بنو أمية يسمونه درب السلامة لهذا المعنى) [4].

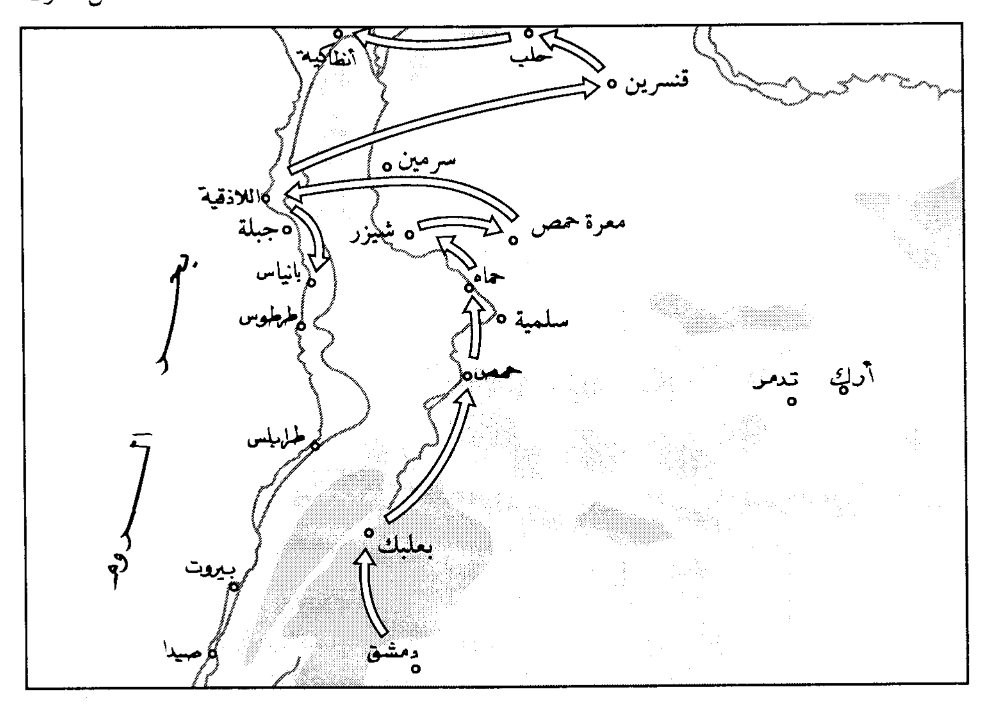
---

(١) بالس: بلدة بين حلب والرقة.

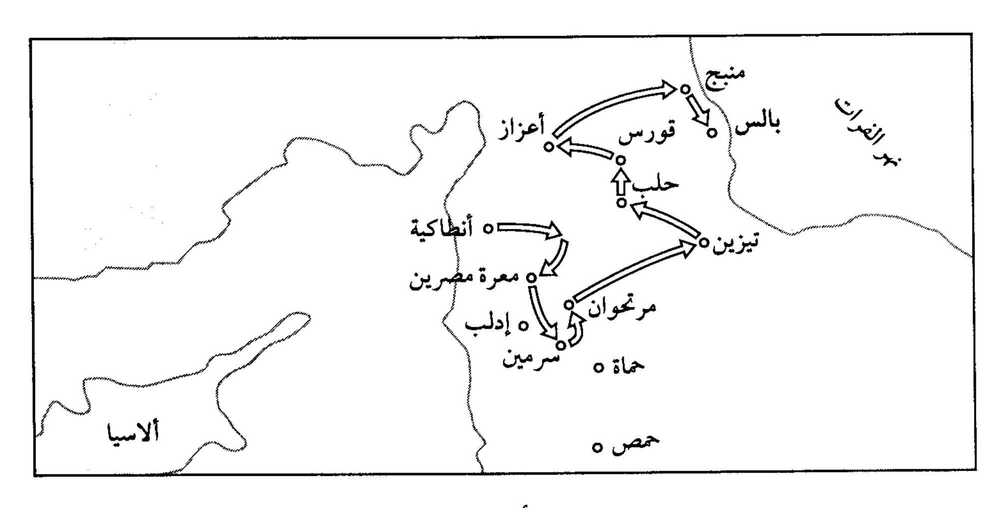
(٢) بغراس: مدينة بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ.

(٣) مرعش: مدينة بالثغور بين الشام وبلاد الروم.

(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣٤٤/٢).



الفتوحات من دمشق حتى أنطاكية



الفتوحات من أنطاكية حتى بالس

ونعرض بسرعة بإيجاز الشخصيات القيادية التي برزت في الشام:

١ - حبيب بن مسلمة الفهري:

(نزل الشام، له صحبة. وقال مصعب الزبيري: كان يقال له حبيب الروم لكثرة جهاده فيهم... قال ابن حبيب: وهو الذي فتح أرمينية... وقال سعيد بن عبد العزيز: كان مستجاب الدعوة. وذكره حسان في قصيدته التي رثى فيها عثمان يقول...

إلَّا تُنِيبُوا لِأَمرِ اللَّهِ تعترفوا كَتائِبًا عُصَبًا مِن خَلْفِهَا عُصَبُ

فِيهِم حَبِيبٌ شِهابُ الحَرْبِ يَقدُمُهُم مَستَلِئِمًا قَد بَدا فِي وَجهِهِ الغَضَبُ) [1]

٢ - ميسرة بن مسروق العبسي:

(أحد الوفد الذين مضت أسماؤهم في ترجمة الربيع بن زياد [2]. وشهد ميسرة حجة الوداع، وقال للنبي ﷺ: « الحمد للّه الذي استنقذني بك من النار... » وقال ابن الأعرابي عن الواقدي أن ميسرة بن مسروق أول من أطلع درب الروم من المسلمين) [3].

٣ - مالك بن الحارث المعروف بالأشتر النخعي:

(له إدراك، وكان رئيس قومه، وذكر البخاري أنه حضر خطبة عمر بالجابية. وذكر ابن حبان في ثقات التابعين أنه شهد اليرموك فذهبت عينه قال: وكان رئيس قومه: وقد روى عن عمر وخالد بن الوليد وأبي ذرّ وعلي وصَحِبَهُ وشهِد معه الجمل... وكان للأشتر مواقف في فتوح الشام مذكورة ذكرها سيف بن عمرو وأبو حذيفة وغيرهما في مصنفاتهم) [4].

٤ - عِياض بن غَنْم:

(.. هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة في رواية ابن إسحاق وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد مات بالمدينة سنة عشرين. وليس له عقب... قال ابن سعد: وذكره

---

(١) الإصابة للعسقلاني ت (١٧٣٥).

(٢) هكذا جاء في الإصابة، والصواب: في ترجمة بشر بن الحارث والمقصود هنا الوفد التسعة الذين قدموا على رسول اللّه ﷺ من عبس، فدعا لهم بخير، وقال: « **ابغوا لي لكم عاشرا أعقد لكم** » فأدخلوا طلحة ابن عبيد اللّه فعقد لهم وجعل شعارهم: عشرة، فهو إلى اليوم كذلك، وهم: بشر بن الحارث، والحارث ابن الربيع ابن زياد، وسباع بن زيد، وعبد اللّه بن مالك، وقره بن حصن، وقنان بن دارم، وميسرة بن مسروق، وهرم ابن مسعدة، وأبو الحصين بن لقيم. الإصابة، طبعة دار الجيل، بيروت (١/٢٩٥).

(٣) المصدر نفسه ت (٨٨٩٩). (٤) المصدر نفسه ت (٧٨٤٤).

فيمن نزل الشام من الصحابة، وزاد: إنه كان صالحًا سمحًا، وكان مع ابن عمته أبي عبيدة فاستخلفه على حمص لما مات... قال الزبير: وهو الذي فتح بلاد الجزيرة وصالحه أهلها، وهو أول من أجاز الدرب) (١).

٥ - عمر بن مالك بن عتبة... بن زهرة بن كلاب الزهري:

(ابن عم والد سعد بن أبي وقاص. وكان من مسلمة الفتح، ذكره سيف والطبري في الفتوح، وأنه كان مع سعد فأرسله عمر بن الخطاب لمحاصرة هيت وغيرها، وأوفده عمر مددًا لأبي عبيدة سنة خمس عشرة. وقال ابن عساكر: شهد فتح دمشق والجزيرة) (٢).

٦ - عبد اللّه بن الـمُعْتَمّ العبسي:

(بضم الميم وسكون المهملة وفتح المثناة، وتشديد الميم قال أبو عمر: له صحبة. وهو ممن تخلَّف عن علي يوم الجمل. وقال أبو أحمد العسكري: عبد اللّه بن المعتم له صحبة. وقال أبو زكريا الموصلي في تاريخ الموصل: هو الذي فتح الموصل وذكر ذلك سيف بن عمر في الردة: وكان عبد اللّه على مقدمة سعد بن أبي وقاص من القادسية إلى المدائن، وسيَّره سعد بن أبي وقاص إلى تكريت ومعه عرفجة ابن هرثمة وربعي ابن الأفكل ففتح تكريت) (٣).

٧ - السمط بن الأسود الكندي:

(والد شرحبيل: ذكر سيف في الفتوح أنه شهد اليرموك. وذكر في الردة أنه ثبت هو وولده شرحبيل على الإسلام لما ارتدت كندة... وأورد البيهقي في السنن بسندٍ له إلى الشعبي أن عمر استعمل شرحبيل بن السمط على المدائن وأبوه بالشام. فكتب إلى عمر: إنك تأمر ألا تفرق السبايا، وقد فرقت بيني وبين ابني، فكتب إليه فألحقه بابنه) (٤).

٨ - أشعث بن ميناس السكوني:

(له إدراك، ذكر سيف في الفتوح والطبري أن أبا عبيدة بن الجراح أنزله هو ومن انضوى إليه من قومه حمص سنة خمس عشرة) (٥).

* * *

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ت (٧١٠٧).
(٢) المصدر نفسه ت (٦٥٣٦).
(٣) المصدر نفسه ت (٥٦٧٥).
(٤) المصدر نفسه ت (٣٧٤٥).
(٥) المصدر نفسه ت (٣٢٠).

الفصل الثاني

الدروب... ووداع قيصر... وقيادة خالد

هذه القضايا الثلاث لا بد من الوقوف عندها مليًّا؛ لأنها مراحل انتقال التاريخ لكتائب الإيمان في الأرض، من أيدي طغاته وجلّاديه.

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

إنها مراحل الاستلام والتسليم بين ممثلي الأُمتين، الإمبراطورية البيزنطية ودولة الإسلام في الأرض. ورموز الطرفين:

- خالد بن الوليد ﷺ سيف اللّٰه.
- وهرقل إمبراطور الروم.

والدروب التي تمَّ من خلالها الاستلام والتسليم.

ولعلنا نحضر هذا المهرجان العالمي ونشهد وقائعه.

المحاولات اليائسة لإرجاع التاريخ إلى الخلف وإعادة عقارب الساعة إلى الوراء:

المحاولة الأولى:

لقد شهدنا بالتفصيل الكامل تلك المحاولات خلال الفصل الماضي حين خطط قيصر لاستعادة دمشق من خلال خديعته العالمية في إيهام المسلمين أن المعركة في مرج دمشق بينما انسحب قائده بقواته ليحتل دمشق. لكن التاريخ شهد نجاح الخطة مع كسرى، وفشلها مع جند اللّٰه وسيف اللّٰه؛ فهو الذي تحرك ذلك التحرك الخاطف، وغيَّر مجرى التاريخ؛ حيث حصر توذرا بينه وبين يزيد بن أبي سفيان وأنهى حركة التاريخ إلى الخلف، وأبيد الجيش الروماني. وأنشد خالد ﷺ:

نَحْنُ قَتَلْنَا توذرًا وشوذرَا … وَقَبله مَا قَدْ قَتَلْنَا حَيدَرا

نَحْنُ أَزَرْنَا الغَيضَة الأكَيدَرَا

المحاولة الثانية:

لم ييأس قيصر. واعتبر المحافظة على حمص لإعادة الكرة ثانية لاحتلال دمشق يمكن أن تنجح، واعتمد على طول مدة الحصار والبرد القارس الذي سيهلك المسلمين فيتراجعون (حكى الطبري عن سيف في كتابه عن أبي عثمان قال:

ولما بلغ هرقل الخبر بمقتل أهل المرج، أمر أمير حمص بالسير والمضي إلى حمص وقال: إنه بلغني أن طعامهم لحوم الإبل، وشرابهم ألبانها. وهذا الشتاء فلا تقاتلوهم إلا في كل يوم بارد فإنه لا يبقى إلى الصيف منهم أحد، هذا جُلّ طعامه وشرابه. وارتحل من عسكره ذلك فأتى الرها، وأخذ عامله بحمص. وأقبل أبو عبيدة حتى نزل على حمص. وأقبل خالد بعدها حتى ينزل عليها.

فكانوا يغادون المسلمين ويراوحونهم في كل يوم بارد. ولقي المسلمون بها بردًا شديدًا، والرومُ حصارًا طويلًا: فأمَّا المسلمون فصبروا ورابطوا، وأفرغ اللَّه عليهم الصبر، وأعقبهم النصر، حتى اضطرب الشتاء. وإنما تمسك القوم بالمدينة رجاء أن يهلكهم الشتاء)[1].

قيصر ينتظر، وصَبرَ المسلمون وتجلَّدوا، وما العجب في ذلك، ومدرسة سيف اللَّه خالد بن الوليد تقول: واللَّهِ ما ليلةٌ يُهْدَى إليَّ فيها عروس، أو أبشَّرُ فيها بغلام، أحبّ إليَّ من ليلة باردة شديدة البرد مع سرية من المهاجرين أقاتل في سبيل اللَّه.

هذه المدرسة الربانية المتصلة باللَّه رب العالمين، والمتصلة بروح الخندق، يوم كان خالد بن الوليد يحاصر المسلمين. لا تزال روحها عبقة بالمعجزات الإلهية للنبي ﷺ، يوم رأى صدقهم، فجاءتهم البشارة أن قصور بصرى الشام قد سقطت. وأن الشام ستكون لهم. وها هي حصون حمص لا تزال ثابتةً. كما كانت قصور خيبر ثابتة. وجاء دور المكافأة الربانية. فالحبل موصول من الخندق وخيبر إلى حمص، وهذا الجيل نفسه، والجيل الذي نشأ في أكنافهم وتربيتهم؛ لنرى الكرامة الربانية ماذا تفعل مع جند اللَّه؟!

(وعن أشياخٍ من غسان وبلقين قالوا: أثاب اللَّه المسلمين على صبرهم أيام حمص أن زلزل بأهل حمص. وذلك أن المسلمين ناهدوهم فكبروا تكبيرة زلزلت معها الروم في المدينة، وتصدعت الحيطان، ففزعوا إلى رؤسائهم وإلى ذوي رأيهم - ممكن كان

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٤٤).

يدعوهم إلى المسالمة - فلم يجيبوهم وأذلوهم بذلك. ثم كبروا الثانية، فتهافتت منها دور كثيرة وحيطان، وفزعوا إلى رؤسائهم وذوي رأيهم، فقالوا: ألا ترون إلى عذاب اللَّه؟ فأجابوهم: لا يطلب الصلح غيركم. فأشرفوا فنادوا: الصلحَ الصلحَ، ولا يشعر المسلمون بما حدث فيهم، فأجابوهم، وقبلوا منهم على أنصاف دورهم. وعلى أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم، لا ينزلونه عليهم، فتركوه لهم. فصالح بعضهم على صلح دمشق؛ على دينار وطعام، على كل جريب أبدًا أيسروا أو أعسروا. وصالح بعضهم على قدر طاقته، إن زاد مالهُ زيد عليه وإن نَقَص نُقص. وكذلك كان صلح دمشق والأردن. بعضهم على شيء إن أعسروا وإن أيسروا. وبعضهم على قدر طاقته. وولوا معاملة ما جلا ملوكهم عنه) [١].

- ولنرَ الزلزلة في خيبر:

(روى البيهقي عن محمد بن عمر رَحِمَهُ اللَّهُ عن شيوخه قالوا:

(... وأحجم اليهود عن البراز. فكبَّر المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه يقدمهم أبو دجانة. فوجدوا فيه أثاثًا ومتاعًا وغنمًا وطعامًا. وهرب من كان فيه من المقاتلة. وتقحموا الجدر كأنهم الظباء حتى صاروا إلى حصن النزال بالشق.

وجعل يأتي من بقي من فَلِّ النَّطَاةِ إلى حصن النزال فغلّقوه، وامتنعوا فيه أشد الامتناع. وزحف رسول اللَّه ﷺ إليهم في أصحابه، فقاتلهم، فكانوا أشد أهل الشق رميًا للمسلمين بالنّبل والحجارة ورسول اللَّه ﷺ معهم حتى أصابت النّبِل ثياب رسول اللَّه ﷺ وعلقت به. فأخذ رسول اللَّه ﷺ النبل فجمعها. ثم أخذ لهم كفًّا من حصى، فحصب به حصنهم. فرجف الحصن بهم، ثم ساخ في الأرض حتى جاء المسلمون فأخذوا أهله أخذًا) [٢].

لقد قاتل المسلمون أشد قتالٍ في حياتهم في غزوة خيبر، وقدَّموا الكثير من الشهداء، ولم يفتحوا كل حصن إلا بدمائهم وسيوفهم، وشاءت إرادة اللَّه - تعالى - أن يزلزل بهم هذا الحصن المنيع، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٤٤/٢).

(٢) سبل الهدى والرشاد (١٩٢/٥، ١٩٣).

وزلزلة الخندق ضمن هذا الخط؛ فقد قال جبريل لرسول الله ﷺ: إني ماضٍ إلى بني قريظة لأزلزل بهم حصونهم. ولخّص القرآن الكريم غزوة الأحزاب بآية واحدة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

كما قال في الآية الثانية:

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

فهذا شأن الله تعالى مع المؤمنين حين يبذلون ما يملكون من طاقة وجهد.

المحاولة الثالثة:

وذلك حين بعث أعظم قوّاده ميناس. لإيقاف التقدم الإسلامي، والقضاء على الوجود الإسلامي في الشام.

وعن أبي عثمان وجارية قالا: وبعث أبو عبيدة بعد فتح حمص إلى قنسرين خالد ابن الوليد. فلما نزل بالحاضر زحف إليهم الروم وعليهم ميناس، وهو رأس الروم وأعظمهم فيهم بعد هرقل. فالتقوا بالحاضر. فاقتتلوا فقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها. فأما الروم فماتوا على دمه [١] فلم يبق منهم أحد، وأما أهل الحاضر [٢] فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب، وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه، فقبل منهم وتركهم.

وسار خالد حتى نزل قنسرين فتحصنوا منه: فقال: إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أولأنزلكم إلينا، فنظروا في أمرهم، وذكروا ما لقي أهل حمص. فصالحوهم على صلح حمص. فأبى إلا على إخراب المدينة، فأخربها، واتّطأت حمص وقنسرين فعند ذلك:

(١) ماتوا على دمه، قتلوا على ما قتل عليه.

(٢) الحاضر: حاضر حلب يجمع أصنافًا من العرب من تنوخ وغيره وهو بقرب حلب.

خنس هرقل:

وإنما كان سبب خنوسه:

- أن خالدًا حين قتل ميناس ومات الروم على دمه.
- وعقد لأهل الحاضر، وترك قنسرين.
- طلع من قبل الكوفة عمر بن مالك من قبل قرقيسيا.
- وعبد اللَّه بن المعتم من قِبَلِ الموصل.
- والوليد بن عقبة من بلاد بني تغلب، وعرب الجزيرة.
- وطووا مدائن الجزيرة من نحو هرقل.
- وأهل الجزيرة في حران والرقة ونصيبين وذواتها لم يغرضوا غرضهم حتى يرجعوا إليهم، إلا أنهم خلفوا في الجزيرة الوليد لئلّا يؤتَوا من خلفهم.
- فأدرب [١] خالد وعياض مما يلي الشام.
- وأدرب عمر بن مالك وعبد اللَّه بن المعتمر مما يلي الجزيرة. ولم يكونوا أدربوا قبله، ثم رجعوا، فهي أول مدربة كانت في الإسلام سنة ست عشرة.

ذكر خبر ارتحال هرقل إلى القسطنطينية:

ذكر سيف عن أبي الزهراء القشيري عن رجل من بني قشير قالوا:

ولما خرج هرقل من الرهاء [٢] واستتبع أهلها قالوا: نحن ها هنا خير منا معك، وأبوا أن يتبعوه وتفرقوا عنه وعن المسلمين. وكان أول من أنبح كلابها، وأنفر دجاجها زياد بن حنظلة وكان من الصحابة. وكان مع عمر بن مالك مسانده. وكان حليفًا لبني عبد بن قصي. وقبل ذلك ما قد خرج هرقل حتى شمشاط [٣]. فلما نزل القوم الرهاء أدرب فنفد نحو القسطنطينية، ولحقه رجل من الروم كان أسيرًا في يد المسلمين فأفلت) [٤].

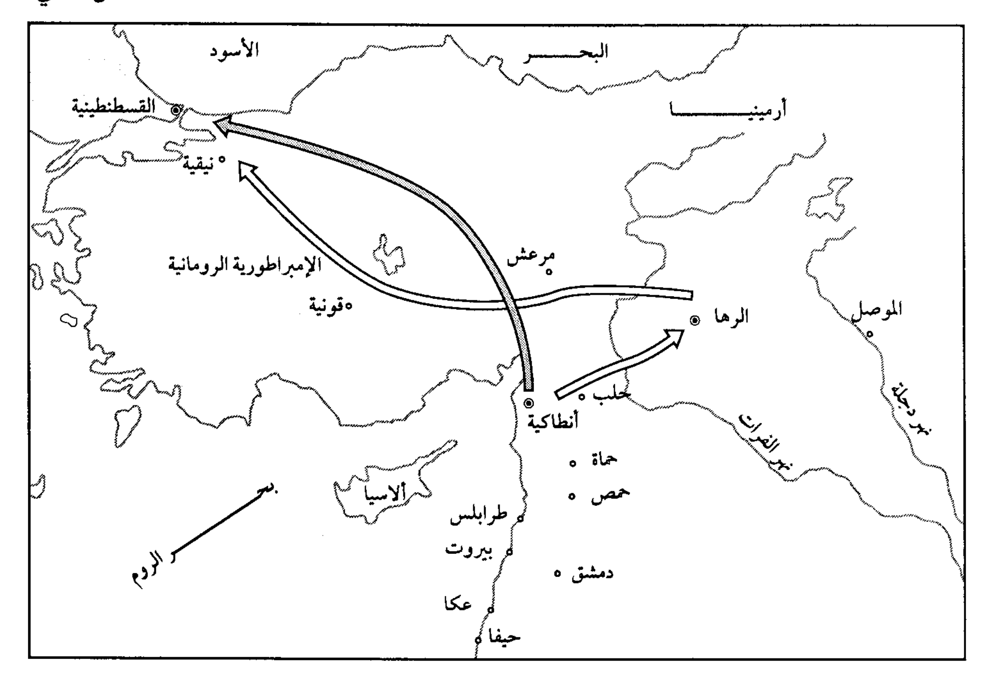
---

(١) الدروب: هي الطرق في الجبال وراء الشام والتي تقود نحو القسطنطينية، وتوغل في أرض تركية، وأدرب: أي سار بجيشه نحوها. وهي التي هزت هرقل وأفزعته.

(٢) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، وهي التي تسمى الجزيرة اليوم.

(٣) شمشاط: مدينة بالروم على شاطئ الفرات.

(٤) تاريخ الطبري (٢/٤٤٥).



الروايتان في طريق عودة هرقل من أنطاكية إلى القسطنطينية

الأولى: أنطاكية – الرها – القسطنطينية.

الثانية: أنطاكية – القسطنطينية.

جيش القيم والمبادئ:

فأفلت. فقال له: أخبرني عن هؤلاء القوم.

فقال: أحدثك كأنك تنظر إليهم:

- فرسان بالنهار.
- ورهبان بالليل.
- ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن.
- ولا يدخلون إلا بسلام.
- يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه.

فقال:

لئن كنت صدقتني ليرثن ما تحت قدمي هاتين) [١].

تسليم الوداع الأخير:

وعن عبادة وخالد أن هرقل كلما حج بيت المقدس، فخلَّف سورية وظعن في أرض الروم التفت فقال: عليك السلام يا سورية تسليم مودع لم يقضِ منك وطره، وهو عائد.

فلما توجَّه المسلمون نحو حمص عبر الماء، فنزل الرهاء، فلم يزل حتى طلع أهل الكوفة، وفتحت قنسرين، وقتل ميناس، فخنس عند ذلك إلى شمشاط، حتى إذا فصل منها نحو الروم، علا على شرف فالتفت ونظر نحو سورية وقال: عليك السلام يا سورية، سلامًا لا اجتماع بعده. ولا يعود إليك رومي أبدًا إلا خائفًا، حتى يولد المولود المشؤوم، ويا ليته لا يولد. ما أحلى فعله، وأمَر عاقبته على الروم.

وعن أبي الزهراء وعمرو بن ميمون قال: لما فصل هرقل من شمشاط داخلًا الروم التفت إلى سورية فقال:

قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر، فأما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارِق. ولا يعود إليك رومي إلا خائفًا، حتى يولد المولود المشؤوم، وليته لم يولد [٢].

لقد انتهى عهد من التاريخ، وولد عهد جديد.

عهد إمبراطورية الروم في قيادة البشرية ليكون المسلمون والعرب هم الأمة الوارثة. وفارق إمبراطور الروم سورية فراق البائس اليائس.

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وأتى عهد الرحمة للعالمين.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٤٥).

(٢) المصدر نفسه (٢/٤٤٦).

خالد بن الوليد ﷺ

القائد العالمي هرقل الذي أعلن سقوطه بلسانه وودَّع سورية وداع مفارق.. إنما كان خالد بن الوليد هو القائد الأكبر الذي هزمه منذ اليرموك حتى قنسرين. وهو الذي حقَّق إنهاء الإمبراطورية الرومانية مع نخبة من القياديين العظام في التاريخ. وكما قال الشاعر العظيم حافظ إبراهيم:

سَل قَاهِرَ الفُرس وَالرُّومَانِ هَل شَفَعَت لَهُ الفُتُوحُ وَهَل أَغْنَى تَوالِيهَا

وَلَم يَجُزْ بَلْدَةً إِلَّا سَمِعتَ بها اللَّهُ أَكْبَرُ تدوي فِي نَواحيها

لقد كان خالد ﷺ هو القائد الأول في فتح دمشق، وصاحب الخطة التي أسقطته. وكان خالد هو الذي حطَّم المحاولة الأولى لاستعادة دمشق حين أنهى توذرا وجيشه الذي راح لاحتلال دمشق من جديد.

وكان خالد هو الذي حطَّم المحاولة الثانية حين صبر مع جند المسلمين على الحصار والبرد القارس الذي توقّع قيصر أن يُفْنِي المسلمين الذين لم يتعودوا على مثل هذا البرد. وزلزل اللَّه بأهل حمص فاضطروا للاستسلام والصلح.

وكان خالد هو الذي حطَّم المحاولة الثالثة حيث أنهى ميناس - الرجل الثاني بعد قيصر - وجيشه وأبادهم عن بكرة أبيهم.

وكان خالد هو الذي حطَّم المحاولة الرابعة، وفتح قنسرين التي كانت أكبر مواقع الروم في الشام.

وكان خالد هو الذي حطَّم المحاولة الخامسة، وقاد غزو الدروب نحو الروم من جهته وكان هو وعياض بن غنم أول من أدرب نحو الروم. وأفقد هرقل صوابه، حتى مضى إلى القسطنطينية. وقال كلمته التاريخية:

عليك السلام يا سورية سلامًا لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبدًا إلا خائفًا حتى يولد المولود المشؤوم، وليته لا يولد، ما أحلى فعله وأَمرَّ عاقبته على الروم.

* * *
* *
*

الفصل الثالث

فتح فلسطين

انتهى فتح شمال سورية. وها نحن نعود إلى الجنوب، إلى فتح فلسطين.

فتح قيسارية

(ذكر سيف عن أبي عثمان وأبي حارثة عن خالد وعبادة قالا: لما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص من فِحل. نزل عمرو وشرحبيل على بيسان فافتتحاها وصالحته الأردن. واجتمع عسكر الروم بأجنادين وبيسان وغزة. وكتبوا إلى عمر بتفرقهم..) (١).

عمر ﷺ يولِّي معاوية فتح قيسارية:

(.. فكتب إلى يزيد بأن يدفئ ظهورهم بالرجال وأن يسرح معاوية إلى قيسارية وكتب إلى عمرو يأمره بصدم الأرطبون وإلى علقمة بصدم الفيقار.

وكان كتاب عمر إلى معاوية: أما بعد فإني قد وليتك قيسارية. فسر إليها. واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا، نعم المولى ونعم النصير) (٢).

لقد كان معاوية ﷺ في عنفوان شبابه. وكان في ظلِّ أخيه يزيد. ولئن كان عمر ﷺ هو الذي اختار يزيدًا أحد القواد الأربعة المتجهين إلى الشام، لم يكن لينسى ذلك الشاب الذي سار معه إلى الشام، فاختصه بهذه المسؤولية.

لقد كانت الرسالة ضرورية وبهذه الصورة لشاب كمعاوية، كان لا بد منها لكسر غرور الشباب الذي يمكن أن يتحرَّك من جَرَّاء إمرة جديدة. ثم إذا تحقَّق النصر فلن يطال هذا الغرور.

كان البناء النفسي الذي يقوم به أمير المؤمنين ضرورة لازمة، لا بد للقائد من أن يعتمد على الله، ولو فقد القائد المسلم هذه المعاني لكان أحد شيئين:

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٤٤٦).

إما غرور بالنصر، وهذا يقود إلى الكِبر.

وإما انهيار بالهزيمة، وتحطم للأعصاب في أول معركة يقودها، خاصة وهو يواجه عدوًّا شرسًا لا قبل له به في مقياس العدد والعدة، وهذا يعني انحساره وانتهاءه لأن يكون امرءًا ذا شأن في التاريخ.

إنه الإسلام العظيم الذي ربط نفوس الشباب باللَّه في كل خطوة، وقيد أنفاس المقاتلين برجاء اللَّه في كل لحظة.

وبذلك يتضح المفهوم الإسلامي المنبثق من العقيدة: أن النصر من عند اللَّه.

استنصِر اللَّه عليهم وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم، اللَّه ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا، فنعم المولى ونعم النصير [١].

إنها لُبُّ الرسالة وهدف الرسالة، بل الرسالة نفسها.

مع معاوية إلى قيسارية:

(فانتهى الرجلان إلى ما أمر به، وسار معاوية في جنده حتى نزل على أهل قيسارية وعليهم أبنى [٢]، فهزمه وحصره في قيسارية، ثم إنهم جعلوا يزاحفونه، وجعلوا لا يزاحفونه من مرة إلا هزمهم وردهم إلى حصنهم.

ثم زاحفوه آخر ذلك، وخرجوا من صياصيهم، فاقتتلوا في حفيظة واستماتة فبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفًا، وكملها في هزيمتهم مائة ألف. وبعث بالفتح مع رجلين من بني الضبيب، ثم خاف منهما الضعف، فبعث عبد اللَّه بن علقمة الفراسي وزهير بن الحلاب الخثعمي، وأمرهما أن يتبعاهما ويسبقاهما، فلحقاهما، فطوياهما وهما نائمان. وابن علقمة يتمثل وهي هجيراه:

أَرَّقَ عَـيْنِي أَخُـو جُـذَام ... كَـيْـفَ أَنَـامُ وَهُـمَـا أَمَـامِـي

إِذْ يَرْحَـلَانِ وَالْـهَـجِـير طَامِـي ... أَخُـو حـشِـيـم وَأَخُـو حـرَامِ

(وجرى الاشتباك بالسيوف، والسنان. وكان اللقاء الأخير الذي ارتجت به الأرض وتساقط الفرسان، وكادت الهزيمة أن تنال من المسلمين، لولا ثبات معاوية وصبره

---

(١) معاوية بن أبي سفيان: صحابي كبير وملك مجاهد للمؤلف (٦٩).

(٢) أبنى: قائد جيش الروم هناك.

وتصميمه على النصر، ومقارعته الأبطال. وإذن اللّه تعالى بشمس جديدة تشرق في هذه الأرض.

بدأ المشركون يتزعزعون، ويتراجعون، ثم وَلَّوا الأدبار، وسيوف المسلمين تقع عليهم من كل صوب، وإذ بالآلاف من القتلى تهوي، فيشتد الهول على المشركين، وترتفع نبضات الإيمان في قلوب المؤمنين، فما ترى في المشركين إلا فارًّا يبغي النجاة، أو قتيلًا ذاق كأس المنية، وكثر عدد القتلى كثرة عظيمة، حتى لقد انجلت المعركة عن ثمانين ألف قتيل من المشركين وكمل إلى المائة ألف من الذين انهزموا في المعركة، وبعث بالفتح والأخماس إلى أمير المؤمنين ﷺ) [1].

(وكان هذا الفتح العظيم على يدي معاوية ﷺ وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، وذلك في السنة الخامسة عشرة للهجرة) [2].

(وهكذا نجح معاوية بن أبي سفيان في تدمير أقوى قوة رومانية بحرية تتمركز على ساحل البحر الأبيض المتوسط في المحور الأوسط من الساحل.

وبعد سقوط قيسارية أخذت مدن الساحل الأخرى في المحور الأوسط تتساقط تحت أقدام معاوية. ومنها: **بيروت، وصيدا، وصور، وعرقة، وجبيل.**

ويظهر أن هذه الموانئ لم يلاقِ الأمير معاوية مقاومة تذكر عندما قام بفتحها، فلم نر أحدًا من المورخين ذكر أن معارك تذكر دارت بين المسلمين والروم عندما احتل معاوية بيروت وعرقة وجبيل وصور وصيدا. ويظهر أن سقوط قيسارية في يد معاوية أعطى حاميات هذه الثغور درسًا فهموا منه أنهم لم يكونوا بأقوى من أكثر من مائة ألف من خيرة الجند الروماني كانت تدافع عن قيسارية. فسحق معاوية مقاومتها ودمَّرها، واحتل قيسارية عنوة وهي أعظم وأهم ميناء يعتمد عليه الروم بعد ميناء طرابلس الذي استعصى فتحه على المسلمين حتى قام معاوية بفتحه (بعد عناء شديد) في عهد الخليفة عثمان في العام الرابع والعشرين للهجرة) [3].

ولقد سَعُد أمير المؤمنين بنصر قيسارية أيما سعادة، وصدقت نبوءته بمعاوية، والذي رشحه لهذه المعركة؛ فكان عند حسن ظنه.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٥٤/٧). (٢) معاوية: للمؤلف (٧٠).

(٣) حروب الإسلام في الشام لمحمد أحمد باشميل (٤٧٤).

وبرزت معالم شخصية معاوية ﷺ، الحَذِرِ الشديدِ الحذر، الصابر الشديد الصبر الذي يحسن دراسة الساحة من كل جوانبها، ويحسب لكل حالة حسابها. فلم يكتفِ برسولين يبعثهما بالفتح لأمير المؤمنين، إنما بعث في إثرهما رسولين آخرين، ووجههما أن يتبعاهما ويسبقاهما. فوصل الرسولان الأخيران إلى أمير المؤمنين في المدينة.

وانتهى بريد معاوية إلى عمر بالخبر، فجمع الناس وأباتهم على الفرح ليلًا، فحمد اللَّه وأثنى عليه وقال: لتحمدوا اللَّه على فتح قيسارية..) [١].

لم ينتظر أمير المؤمنين للصباح؛ حيث الفرحة قد غمرته بالنصر، ونقل فرحته للمسلمين ليلًا، وطلب منهم أن يحمدوا اللَّه على فتح قيسارية؛ لأنه أدرى المسلمين بخطورتها وأهميتها.

وإذا برزت معالم شخصية الأمير الشاب في بعث رسل في الفتح والأخماس، فقد برزت كذلك شخصيته في موقفه من الأسرى:

(وجعل معاوية قبل الفتح وبعده يحبس الأسرى عنده. ويقول:

ما صنع ميخائيل بأسرانا، صنعنا بأسراهم مثله؛ ففطمه عن العبث بأسرى المسلمين حتى افتتحها).

حصار غزة [٢]

(كانت غزة في الشام من أهم الموانئ البحرية التي يعتمد عليها الرومان لجلب التعزيزات من جنود ومؤن وذخائر إلى المنطقة الجنوبية فلسطين والأردن. وكانت بها حامية قوية جدًّا يقودها محارب روماني قوي شديد الشكيمة اسمه الفيقار. وكانت بالقرب منها في الشمال الشرقي على وجه التحديد يقع موقع أجنادين الذي يسيطر عليه الرومان، ويتولّى قيادته داهية الروم الأكبر (الأرطبون). وكانت غزة وأجنادين تساند الواحدة الأخرى؛ لقرب بعضهما من بعض، ولأن بها أقوى قوة بقيت للروم في فلسطين.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٤٦، ٤٤٧).

(٢) غزة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل في غربيها، وهي من أعمال فلسطين. فيها مات هاشم (جد النبي ﷺ) وبها ولد الإمام الشافعي.

كان عمرو بن العاص يقود جيشًا غنيًا بالرجال والقادة الأكْفَاء المجربين الأبطال، فنظروا وهو يرسم مخطط تطهير المحور الجنوبي من بقايا الجيوش الرومانية أن أهم ما يبدأ به لإنهاء الوجود الروماني هناك، ويجعل وحدات الإسلام سلسلة مترابطة جيشًا واحدًا يسيطر على ساحل البحر المتوسط من الإسكندرية شمالًا حتى العريش جنوبًا، الموقعان الهامان (غزة وأجنادين) إذ بسقوطهما في أيدي المسلمين ينتهي كل شيء، وتتم السيطرة لجيش التوحيد على جميع شواطئ البحر المتوسط الواقعة في إقليم الشام كله) [١].

(وانطلق علقمة بن مجزز [٢] فحصر الفيقار بغزة، وجعل يراسله، فلم يشفه مما يريد أحد فأتاه كأنه رسول علقمة، فأمر الفيقار رجلًا أن يقعد له بالطريق. فإذا مرَّ قتله، ففطن علقمة، فقال: إن معي نفرًا شركائي في الرأي، فأنطلق فآتيك بهم، فبعث إلى ذلك الرجل: لا تعرض له. فخرج من عنده ولم يعد) [٣].

(وهكذا نجحت حيلة علقمة الألمعي، فنجا من الاغتيال الذي كان مدبرًا له، وبعد أن وصل علقمة مقر قيادته (وكان قد عرف مواطن الضعف في التحصينات الرومانية بالمدينة) أمر بالحال بهجوم حاسم مباغت على غزة، مستفيدًا من معلوماته الخاصة.

فهجمت قوات الإسلام على غزة في ضراوة وتنظيم، هجمة رجل واحد في الحال، فبهت القائد الفيقار، واستيقن أنه لم يكن مخطئًا أول الأمر حينما اعتقد أن الذي كان يفاوضه في مجلسه داخل المدينة، وعدل عن اغتياله هو القائد العام لقوات الإسلام التي تتولَّى محاصرة غزة.

وأمام الهجوم الصاعق المفاجئ المنظم على غزة عن طريق مواقع الضعف في التحصينات، ارتبكت القوات الرومانية المدافعة عن المدينة، وتخاذلت ثم انهارت مقاومتها، فاقتحم المسلمون المدينة. وما هي إلا لحظات حتى أصبحوا وسط المدينة،

---

(١) حروب الإسلام في الشام في عهود الراشدين (٤٧٧).

(٢) علقمة بن مجزز: هو علقمة بن مجزز الكناني المدلجي. كان من السابقين في الإسلام، وقد ولاه النبي ﷺ قيادة إحدى السرايا في عهده. وفي أسد الغابة: وبعث عمر بن الخطاب علقمة هذا في جيش إلى الحبشة فاستشهدوا جميعًا. فرثاهم حواس العدوى فقال:

إِنَّ السَّلامَ وحسن كُلِّ تحيةٍ ... تَغْدُو عَلَى ابْنِ مجزّز وَتَرُوح

(٣) تاريخ الطبري (٢/٤٤٦).

يشددون قبضتهم عليها ويتمركزون في معاقلها، ويضعون السيف في المحاربين الروم المكلفين بالدفاع عنها حتى تمت لهم السيطرة الكاملة عليها.

وهكذا وبعد حصار طويل ومُصَاوَلات ومجاولات حربية وسياسية نجح البطل علقمة بن مجزز في فتح تلك المدينة الاستراتيجية المهمة (غزة). وأصبح بعد فتحها الطريقُ مفتوحًا للمسلمين إلى مصر برًّا وبحرًا، حيث كانت مدينة غزة، تمثل خط الدفاع الأول عن الإقليم الغربي من أقاليم الإمبراطورية الرومانية وهي مصر) [1].

ذكر فتح بَيْسَان ووقعة أَجْنَادِين

ولما توجه علقمة إلى غزة، وتوجه معاوية إلى قيسارية صمد عمرو بن العاص إلى الأرطبون...).

كان ذلك تخطيط القائد الأعلى للقوات المسلحة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

لقد كان عمر رضي الله عنه يرى أن الأرطبون هو أخطر قائد روماني في الساحة العربية فهو ليس مجرد قائد حربي فحسب بل هو داهية من دُهَاة الأرض؛ فكان كما وصفه المؤرخون (أدهى الروم وأبعدها غورًا، وأنكاها فعلًا).

وكان من براعة تخطيطه أن وضع:

- في الرملة جندًا عظيمًا.
- وبإيلاء جندًا عظيمًا.

فقد وزع قواته لتكون مددًا له ويطوق أي جيش إسلامي يفكر بمواجهته ويطبق عليه. إضافة إلى القوات التي كانت في قيسارية. وعندما فقد الساحل جاء جميع الفالة والمنهزمة إلى هذه القواعد العظمى الثلاثة: (أجنادين - إيلياء أو القدس - الرملة).

وكانت الخطة المكافئة التي وضعها الفاروق رضي الله عنه، هي:

- توجيه القوة الكبرى لأجنادين لمواجهة الأرطبون.
- اختيار أكفأ القواد عنده لمواجهة أكفأ قادة الروم.
- إشغال القوات الرومانية الأخرى بقوات إسلامية رادعة.

---

(١) حروب الإسلام في الشام لباشميل (ص ٤٨٤).

ورأى الفاروق ﷺ أن أكفأ القادة عنده هو عمرو بن العاص داهية العرب ليقابل داهية الروم الأربطون. فأطلق على عمرو اسم أرطبون العرب وقال: (قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج).

وكان ﷺ - عند عمر - هو الأمير الذي لا ينازع في إمرته، فقد خلق لذلك، وقال عنه (ما ينبغي لأبي عبد الله (عمرو) أن يمشي على الأرض إلا أميرًا).

أما القادة الآخرون فكانوا:

- واستخلف على عمل الأردن أبا الأعور (السلمي).
- وكتب إلى يزيد أن يبعث معاوية في خيله إلى قيسارية.
- وكتب إلى معاوية بإمرته على قتال أهل قيسارية، وليشغلهم عن عمرو.
- وكان عمرو قد استعمل علقمة بن حكيم الفراسي [١]، ومسروق بن فلان العكي [٢] على قتال أهل إيلياء فصاروا بإزاء أهل إيلياء. فشغلوهم عن عمرو.
- وبعث أبا أيوب المالكي إلى الرملة وعليها التُّذَارق [٣] وكان بإزائهما.
- ولما تتابعت الأمداد على عمرو، بعث محمد بن عمرو مددًا لعلقمة ومسروق.
- وبعث عمارة بن عمرو بن أمية الضمري مددًا لأبي أيوب.
- وأقام عمرو على أجنادين، لا يقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل)

ها نحن نلقى الجيل الجديد يحمل راية الجهاد، وهم الذين أنجبهم الآباء الكبار، فهذان ولدا عمرو بن العاص ﷺ محمد وعبد الله ينزلان لساحة الجهاد. وإن كان عبد الله قد سبق أخاه محمدًا لذلك. إذ كان على كردوس من كراديس [٤] اليرموك

---

(١) علقمة بن حكيم الفراسي: أدرك النبيَّ ﷺ، وشهد اليرموك وجهزه أبو عبيدة من مرج الصُّفَّر مسلحة بين دمشق وفلسطين. ذكر ذلك سيف بسنده. وذكر أيضًا أن عمر استعمله على الرملة، وأن عمرو بن العاص أقره على قتال إيلياء. الإصابة، ت (٦٤٠٤)

(٢) مسروق العكي: ذكره ابن عساكر وقال: أدرك النبي ﷺ ولا أعلم له رواية، ثم ذكر أنه شهد اليرموك على بعض الكراديس. وقال سيف في الفتوح: وبعث أبو عبيدة مسروقًا العكي وعلقمة بن حكيم فكانا بين دمشق وفلسطين. وذكر أيضًا أنه تم مع الطاهر ابن أبي هالة لقتال المرتدين في اليمن. وشهد فتح العراق. الإصابة ت (٨٣٧٢) وانظر: تاريخ دمشق (٥٧/ ٤٤٠).

(٣) تُذارِق: شقيق القيصر هرقل وقائد عسكري حارب الفرس.

(٤) الكردوس: الجماعة من الناس، والطائفة من الخيل.

وهو الأكبر سنًّا منه. وهذا ولد عمرو بن أمية الضمري عمارة يمضي مددًا لأبي أيوب المالكي في الرملة. وبذلك قلب خطة الأرطبون رأسًا على عقب. ونحن لا ننسى صبر هذه الأمة المؤمنة. وكان عمرو ﷺ رائدًا من رواد هذه المدرسة العسكرية التي تعتمد على المراوغة لنفد صبر العدو. وعلى المخادعة لإيقاعه في الشرَك. ويحرص على دم كل جندي مسلم فلا يغامر في معركة إذا كان في الإمكان تجنبها.

وهذه صورة من هذه الصور التاريخية الخالدة:

(وأقام عمرو على أجنادين، لا يقدر من الأرطبون على سقطة، ولا تشفيه الرسل فَوَلِيه بنفسه، فدخل عليه كأنه رسول، فأبلغه ما يريد، وسمع كلامه وتأمَّل حصونه حتى عرف ما أراد، وقال أرطبون في نفسه: واللَّه هذا لعمرو، أو إنه للذي يأخذ عمرو برأيه. وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله. ثم دعا حرسيًّا فسارَّه بقتله. فقال: اخرج فقم مكان كذا وكذا. فإذا مَرَّ بك فاقتله.

وفطن له عمرو فقال: قد سمعت مني وسمعت منك. فأما ما قلته فقد وقع مني موقعًا. وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب لنكون مع هذا الوالي لنكانفه (١) ويشهدنا أموره. فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى، فقد رآه أهل العسكر والأمير. وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم، وكنت على رأس أمرك.

فقال: نعم ودعا رجلًا فساره. وقال: اذهب إلى فلان فردَّه إليَّ. فرجع إليه الرجل وقال لعمرو: انطلق فجئ بأصحابك، فخرج عمرو ورأى ألا يعود لمثلها.

وعلم الرومي بأنه قد خدعه، فقال: خدعني الرجل؛ هذا أدهى الخلق..) وصدق الأرطبون، فقد كاد عمرو بن العاص أن يكون أدهى الخلق (فبلغت عمر فقال: غلبه عمرو، لِلَّه عمرو) (٢). وهذه الأولى. فقد غلب بها أرطبون العرب أرطبون الروم.

(وناهده عمرو، وقد عرف مأخذه وعاقبته، والتقوا ولم يجد من ذلك بدًا. فالتقوا بأجنادين، فاقتتلوا قتالًا شديدًا كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم) (٣).

لجوء الأرطبون إلى إيلياء:

فقد خسر الموقع الأول في أجنادين، فتراجع إلى الموقع الاحتياطي الأول.. إلى

---

(١) أي لنعاونه.

(٢، ٣) تاريخ الطبري (٢/٤٤٧).

إيلياء (ثم إن أرطبون انهزم في الناس فأوى إلى إيلياء، ونزل عمرو أجنادين) ولم يكن من السهل على أرطبون الوصول إلى إيلياء. فالقوات الإسلامية محاصرة لها من الخارج. لكن عمرًا كما فعل في اليرموك حيث أفسحوا للخيل الهروب خارج الساحة. فقد صدرت أوامر عمرو بأن يفسحوا المجال للأرطبون لدخول إيلياء. فلو أوقف المسلمون الطريق على الأرطبون لاستبسل الأرطبون ومن معه، كما استبسل الروم في إيلياء. ووقعت معركة يكون حصادها عشرات الألوف، ولا تضمن نتائجها. والمسلمون قد نهكوا من حرب أجنادين، فكانت أوامر عمرو بإفساح الطريق للأرطبون بدخول إيلياء.

(ولما أتى أرطبون إيلياء أفرج له المسلمون حتى دخلها، ثم أزالهم إلى أجنادين فانضم علقمة ومسروق، ومحمد بن عمرو وأبو أيوب إلى عمرو بأجنادين) [١].

لقد تحطمت خطة الأرطبون بعد خسارة موقع أجنادين والتحمت القوات الإسلامية مع بعضها، إلا ما كان من الموقع الاحتياطي الثاني - الرملة - وأدرك الأرطبون أنه أمام قائد من أعظم قادة العالم فكتب له: (وكتب أرطبون إلى عمرو بأنك صديقي ونظيري. أنت في قومك مثلي في قومي والله لا تفتتح من فلسطين شيئًا بعد أجنادين، فارجع ولا تغتر. فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة) [٢].

ولم يكن لعمرو أن يرمي كلام الأرطبون أرضًا ولا يلقي له بالًا، فالكلمة ذات مغزًى.. فكيف يدرك مغزاها وهي أنه لا يفتح من فلسطين شيئًا بعد الآن.. ترى هل هي خديعة؟ ووضع عمرو رضي الله عنه خطة جديدة لمعرفة أبعاد كلمة الأرطبون.

(فدعا عمرو رجلًا يتكلّم بالرومية، فأرسله إلى أرطبون، وأمره أن يغرب ويتنكر وقال: استمع ما يقول حتى تخبرني به إذا رجعت إن شاء الله.

وكتب إليه: جاءني كتابك وأنت نظيري ومثلي في قومك، لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتي، وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد. وأستعدي عليك فلانًا وفلانًا وفلانًا - لوزرائه - فاقرئهم كتابي. ولينظروا فيما بيني وبينك).

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٤٤٧).

فعمرو ﷺ قد بنى كتابه كله على معرفة رسوله بالرومية، ويريد أن يتباحث الأرطبون مع وزرائه حول كتابه لعمرو.

(فخرج الرسول على ما أمره به حتى أتى أرطبون، فدفع إليه الكتاب بمشهد من النفر، فاقترأه، فضحكوا، وتعجبوا، وأقبلوا على أرطبون، فقالوا: من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟

قال: صاحبها رجل اسمه (عمر) ثلاثة أحرف.

فرجع الرسول إلى عمرو، فعرف أنه عمر) (١).

عمرو يدعو أمير المؤمنين لفتح إيلياء:

(وكتب إلى عُمَرَ يستمده ويقول: إني أعالج حربًا كؤودًا صدومًا، وبلادًا ادخرت لك، فرأيك. ولما كتب عمرو إلى عمر بذلك عرف أن عمرًا لم يقل إلا بعلم. فنادى بالناس، ثم خرج فيهم حتى نزل بالجابية) (٢).

عُمَر يتجه إلى الشام:

(وجميع ما خرج عمر إلى الشام أربع مرات فأما الأولى فعلى فرس، وأما الثانية فعلى بعير، وأما الثالثة فقصر عنها أن الطاعون مستعر، وأما الرابعة فدخلها على حمار) (٣).

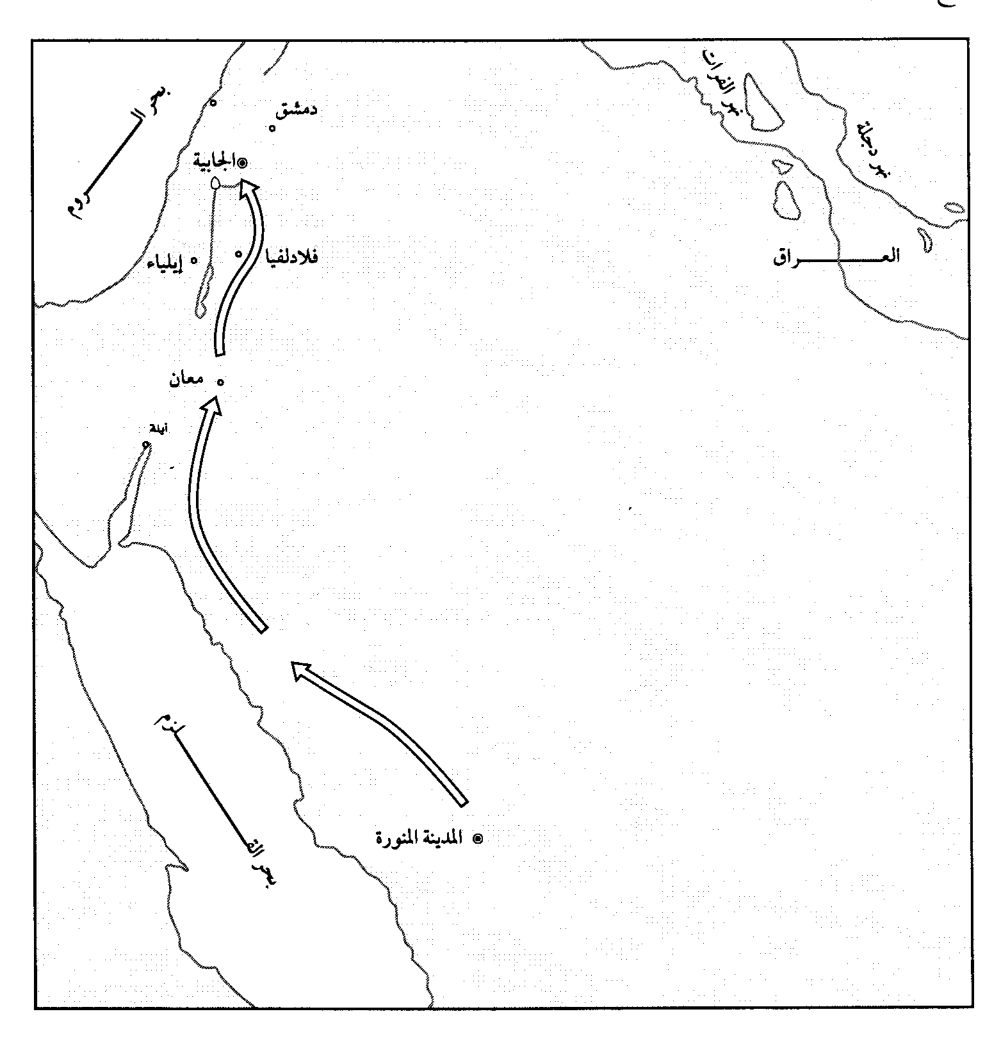
وعن عدي بن سهل قال: لما استمد أهل الشام عُمَرَ على أهل فلسطين. استخلف عليًّا وخرج ممدًّا لهم.

فقال علي: أين تخرج بنفسك؟ إنك تريد عدوًّا كَلِبًا.

فقال: إني أبادر بجهاد العدو موتَ العباس. إنكم لو قد فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض أول الحبل) (٤).

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٤٤٨).

(٤) المصدر نفسه (٤٤٩).



طريق أمير المؤمنين عمر من المدينة إلى الجابية

عمر يتسلم مفاتيح القدس

(وخرج وقد كتب مخرجَه أول مرة إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية - ليوم سمَّاه لهم في المجردة - وأن يستخلفوا على أعمالهم. فلقوه حيث رفعت لهم الجابية. فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول، عليهم الديباج والحرير. فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها. وقال:

سَرْع ما لُفِتُّم عن رأيكم، إياي تستقبلون بهذا الزّيّ؟ وإنما شبعتم منذ سنتين، سرع ما نَدَّتْ بكم البطنة. وتاللَّه لو قد فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم. فقالوا: يا أمير المؤمنين إنها يَلامِقة [(١)]، وإن علينا السلاح.

قال: فنعم إذن.

وركب حتى دخل الجابية. وعمرو وشرحبيل بأجنادين لم يتحركا من مكانهما) [(٢)].

لقد كان علي رضي الله عنه هو موطن ثقة الفاروق. وقلما غادر المدينة إلا استخلف عليها علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وعلي هو الذي يحرص على أمير المؤمنين أن يغادر المدينة حفاظًا على الإسلام أن تنكسر شوكته فيقول له: (أين تخرج بنفسك؟ إنك تريد عدوًّا كَلِبًا).

وكان العباس رضي الله عنه موطن ثقة الفاروق رضي الله عنه. وهو لا يخاف مغادرة المدينة طالما أن العباس حي، فبه يدفع اللَّه الشر عن الأمة وكما قال: إني أبادر بجهاد العدو موت العباس. إنكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض أول الحبل.

وكانت قياداته محل ثقة. لكنه فوجئ بلبسهم الحرير، فرماهم بالحجارة، واعتبرهم قد غرتهم الدنيا، وأخلدوا إلى الراحة. ولبسوا أحسن الثياب. ورأى أن هذا الأمر يقبل بعد المائتين لا بعد السنتين. ومع ذلك، فليس أمامهم ولو بعد مائتي عام إلا عزلهم ولن يرضاهم ولاة له. ولكن عندما أكدوا له أنها مظاهر وتحتها السلاح في أي لحظة تكون الجاهزية فاطمأن إلى أن ولاته لا زالوا على العهد، ولا زالوا حملة راية الجهاد في الأرض، ولم يخلدوا أو يثاقلوا إليها.

وقد حضر القادة الثلاثة يزيد وأبو عبيدة وخالد، بينما بقي عمرو وشرحبيل وبقية

---

(١) اليلمق: القباء المحشو.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٤٨).

القادة المسؤولون عن الشام في أجنادين خوفًا من أن ينتقض العدو بالأرض. ومع ذلك فأمر عمر القائدَيْن المرابطين أن يستخلفا ويقدما إليه ففعلا.

لماذا استسلمت القدس؟

(... غير أن الحصار لم يدم طويلًا رغم كثافة القوة التي تدافع عن القدس. فقد حدث خلاف بين حاكم القدس المدني (صفرونيوس) وبين قائد حامياتها العسكرية الأرطبون، كان صفرونيوس يميل إلى مصالحة المسلمين، وتجنب سفك الدماء وتسليمهم المدينة المقدسة، والأرطبون مُصِرًّا على المقاومة. وأخيرًا مالت الأغلبية من أهل القدس إلى رأي حاكمها. فعرضوا الصلح على القائد عمرو. ولكنهم اشترطوا أن يتولَّى عقدَ الصلح واستلامَ المدينة الخليفةُ عمرُ بن الخطاب نفسُه. فأجابهم عمرو إلى طلبهم، ووعدهم بأنه سيخبر الخليفة. أما الأرطبون، فلما كان غير راضٍ عن الصلح، وتسليم القدس على أساسه من المسلمين، انسحب من فلسطين، ولجأ إلى مصر. وكان محاربًا عنيدًا محترفًا.

وقد قُتِل الأرطبون (فيما بعد لجوئه إلى مصر) قتله رجل من قبائل قيس. وذلك عندما تعرض الأرطبون لسرية من المسلمين كانت تقوم بالغزو في بعض الصوائف. فقال القيسي بعد أن قتل الأرطبون وقطعت ذراعه (أي ذراع المسلم) [1]:

فَإِنْ يَكُنْ أَرْطَبونُ الرُّوم أَفْسَدَها ... فَإِنَّ فيهَا بِحَمْدِ اللَّهِ مُنْتَفَعًا

وَإِنْ يَكُنْ أَرْطَبُونُ الرُّوم قَطَّعَها ... فَقَدْ تَرَكْتُ بَهِا أَوْصَالَهُ قِطَعًا) [2]

ذكر فتح بيت المقدس

عن سالم بن عبد اللَّه قال: لما دخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق فقال: السلام عليك يا فاروق، أنت صاحب إيلياء، لا واللَّه لا ترجع حتى يفتح اللَّه إيلياء. وكانوا قد أشجَوْا عَمرًا وأشجاهم ولم يقدر عليها ولا على الرملة، فبينما عمر معسكرًا في الجابية. فزع الناس إلى السلاح. فقال: ما شأنكم؛ قالوا ألا ترى الخيل والسيوف؟ فنظر فإذا كردوس يلمعون بالسيوف. قال: مستأمنة، ولا تراعوا وأمنوهم،

---

(١) حروب الإسلام في الشام لباشميل (٤٩٥).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٥١).

فأمنوهم، وإذا هم أهل إيلياء، فأعطوه، واكتتبوا منه على إيلياء وحيزها، والرملة وحيزها. فصارت فلسطين نصفين؛ نصف مع أهل إيلياء، ونصف مع أهل الرملة، وهم عشر كور وفلسطين تعدل الشام كله. وشهد ذلك اليهودي الصلح، فسأله عُمر عن الدجال، فقال: هو من بني بنيامين، وأنتم واللَّه يا معشر العرب تقتلونه على بضع عشرة ذراعًا من باب لُد) [1].

وعن خالد وعبادة قالا: كان الذي صالح فلسطين العوَام من أهل إيلياء والرملة. وذلك أن الأرطبون والتذارق لحقا بمصر مقدم عمر الجابية، وأصيبا في بعض الصوائف).

وثيقة الصلح الخالدة:

(وعن خالد وعبادة قالا: صالح أهل إيلياء بالجابية، وكتب لهم فيها الصلح لكل كورة كتابًا واحدًا ما خلا أهل إيلياء:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم.

هذا ما أعطى عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان.

– أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها.

– أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها.

– ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم.

– ولا يُكرَهون على دينهم.

– ولا يضار أحد منهم.

– ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

– وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن.

– وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت [2].

– فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؟

– ومن أقام منهم فهو آمن.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٤٨).

(٢) أي: اللصوص.

- وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.

- ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم.

- ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان.

- فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.

- ومن شاء سار مع الروم.

- ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

- وعلى ما في هذا الكتاب عهد اللَّه وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين

- إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

- شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية ابن أبي سفيان.

- وكُتِبَ وحُضِرَ سنة خمسَ عشرةَ) [1].

هذا ما خطه أساتذة البشرية في تاريخ القدس، الذي لم تشهد القدس مثله لا قبله ولا بعده، ويأتي أمير المؤمنين من المدينة إكرامًا لهذه المدينة المقدسة، ليكون هو المشرف على وثيقة الصلح وتوقيعه بحيث لا سلطة فوقه تستطيع أن تنقض هذه الوثيقة، والتي نصت على المبادئ العليا في تاريخ البشرية الطويل:

١ - **حرية المعتقد:** ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم.

٢ - **حرية العبادة:** أعطاهم أمانًا أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حَيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم. ولِصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها.

٣ - **الأمان على النفوس:** أعطاهم أمانًا لأنفسهم.

٤ - **الأمان على المال:** أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم.

٥ - **عدم الإيذاء للمواطنين:** ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٤٩/٢).

٦ – **إخراج المحتلين والعابثين بالأمن:** وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت.

٧ – **حفظ حقوق الخارجين من الوطن باختيارهم: (حرية المواطنة):** من أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بِيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم.

ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

٨ – **الاشتراك في الحقوق والواجبات:** وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن (دينار على كل حالم).

٩ – **أمان من اللّٰه ورسوله:** وعلى ما في هذا الكتاب عهد اللّٰه، وذمة رسوله.

١٠ – **وأمان من قيادات المسلمين في الأرض:** وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا ما عليهم من الجزية.

لقد كان هذا الكتاب بناء على الرغبة والاختيار من أهل إيلياء ولم تُرَقْ قطرة دم واحدة في فتحها وسنشهد كيف كان دخول أمير المؤمنين والمسلمين إلى إيلياء.

دخول المسلمين إلى إيلياء:

وعن رجاء بن حيوة عمن شهد قال: لما شخص عمر من الجابية [1] إلى إيلياء. فدنا من باب المسجد قال: ارقبوا لي كعبًا. فلما انفرق به الباب قال: لبيك اللّٰهم لبيك بما هو أحب إليك ثم قصد المحراب، محراب داود ﷺ، وذلك ليلًا، فصلَّى فيه. ولم يلبث أن طلع الفجر، فأمر المؤذن بالإقامة. فتقدم، فصلَّى بالناس، وقرأ بهم ﴿ صٓ ﴾ وسجد فيها. ثم قام في الثانية، فقرأ صدر (بني إسرائيل). ثم ركع ثم انصرف. فقال: عَلَيَّ بكعب فأتي به. فقال: أين ترى أن نجعل المصلَّى؟ فقال: إلى الصخرة. فقال: ضاهيت واللّٰه اليهودية يا كعب. وقد رأيتك وخلعك نعليك. فقال: أحببت أن أباشره بقدمي. فقال: قد رأيتك. بل نجعل قبلته صدره. كما جعل رسول اللّٰه قبلة مساجدنا صدروها، اذهب إليك، فإنا لم نؤمر بالصخرة، ولكنا أمرنا بالكعبة.

---

(١) الجابية: من أعمال دمشق من ناحية الجولان، قرب مرج الصُفَّر من ناحية حوران. إذا وقف الإنسان في الصنمين واستقبل الشمال ظهرت له. وتظهر من نوى أيضًا. وبالقرب منها تل يسمى تل الجابية.

بيت المقدس:

ثم قام من مُصلَّاه إلى كناسة كانت الروم قد دفنت بها بيت المقدس في زمان بني إسرائيل، فلما صار إليهم أبرزوا بعضها، وتركوا سائرها. وقال: يا أيها الناس، اصنعوا كما أصنع، وجثا في أصلها، وجثا في فرج من فروج قبائه [١] وسمع التكبير من خلفه. وكان يكره سوء الرعة [٢] في كل شيء. فقال: ما هذا؟

قالوا: كبر كعب، وكبَّر الناس بتكبيره. فقال: عَلَيَّ به، فأُتي به فقال: يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبي منذ خمسمائة سنة.

فقال: وكيف؟

فقال: إن الروم أغاروا على بني إسرائيل فأديلوا عليهم، فدفنوه، ثم أديلوا فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس، فبغوا على بني إسرائيل، ثم أديلت الروم عليهم إلى أن وليت، فبعث اللّه نبيًّا على الكناسة فقال: أبشري أُورِي شَلَم عليك الفاروق ينقيك مما فيك.

وبعث إلى القسطنطينية نبي، فقام على تلها، فقال: يا قسطنطينية، ما فعل أهلك ببيتي أخربوه وشبهوك كعرشي. وتأولو علي. فقد قضيت عليك أن أجعلك جلحاء يومًا ما، لا يأوي إليك أحد، ولا يستظل فيك على أيدي بني القاذر سبأ وودان فما أمسَوا حتى ما بقي منه شيء.

وعن ربيعة الشامي بمثله وزاد: أتاك الفاروق في جندي المطيع، ويدركون لأهلك بثأرك في الروم، وقال في القسطنطينية:

أدعك جلحاء بارزة للشمس، لا يأوي إليك أحد ولا تُظِلِّينه) [٣].

وها نحن نجد صورة للتاريخ القديم للقدس قبل الإسلام:

(يمتد تاريخ القدس القديم إلى أكثر من ٤٠٠٠ سنة. ولقد غزاها البابليون عام (٥٨٦ أو ٥٨٧ ق.م) وسيطروا عليها إلى أن سقطت مملكتهم على أيدي الفرس وفي عام (٦٣ ق.م) سقطت المدينة في أيدي الرومان. قوبل الرومان بثورات عديدة كان من أهمها الثورة التي اندلعت عام (٦٦م). إذ تمكن اليهود من السيطرة على القدس حتى

---

(١) قبائه: القباء: ثوب يُلبس فوق الثياب أو قميص، ويتمنطق عليه.

(٢) الرعة: الأدب، حسن الهيئة.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٤٥٠).

عام (٧٠م). بعد ذلك عاد الرومان، وأحرقوا معبد اليهود في المدينة. واستمر الصراع على المدينة حتى أصبحت جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية عام (٣٩٥م).

خلال القرن السابع الميلادي تبادلت السيطرة على القدس ثلاث قوًى مختلفة هي: الفرس، والبيزنطيون، والمسلمون.

حين فتح المسلمون القدس سنة (١٥هـ/٦٣٦م) اشترط سكانها أن يكون تسليم المدينة للخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فجاءها عمر وتسلم مفاتيحها من صفرونيوس بطريك القدس. وشهد على العهد الذي أبرمه معهم من كبار الصحابة مثل خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ. ولقد شيد المسلمون قبة الصخرة عام (٧٢هـ/٦٩١م) فوق المكان الذي عرج منه بالرسول ﷺ بصحبة جبريل في ليلة الإسراء والمعراج.

شهدت المدينة صراعات متعددة بين جيوش إسلامية منافسة استمرت على فترات متقطعة خلال القرن العاشر والقرن الحادي عشر الميلاديين. وفي عام (٤٩٣هـ/١٠٩٩م) غزاها الصليبيون وسيطروا عليها، واستعاد المسلمون القدس عام (٥٨٣هـ/١١٨٧م) بعد هزيمة الصليبيين على يد القائد صلاح الدين الأيوبي.

أصبحت القدس تحت حكم الأتراك عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م). وكان معظم سكانها عندئذ من المسلمين. بينما القدس الغربية يسكنها بشكل عام السكان اليهود. وهي أحدث قسم في المدينة..) [1].

أكثر ما يهمنا هو النص الذي أورده الطبري عن المعبد اليهودي أو ما يسمونه الهيكل.

فهو يؤكد أن موقع الهيكل لا علاقة له بالمسجد الأقصى كما يدعي اليهود اليوم. إنما هو في مكان آخر ويسمى بيت المقدس.

(ثم قام من مُصَلَّاه إلى كناسة كانت الروم قد دفنت بها بيت المقدس في زمان بني إسرائيل فلما صار إليهم أبرزوا بعضها، وتركوا سائرها...

وقال كعب: يا أمير المؤمنين إنه تنبأ على ما صنعت اليوم نبي منذ خمسمائة سنة) إنها الأمة الراشدة الوارثة للبشرية. وهي التي تنقذ الدين - اليهودي والنصراني مما علق به من درن، وهي الحفيظة على أديان البشرية ومعابدها.

---

(١) الموسوعة العربية العالمية (ج ١٨ /٨٨، ٨٩) ط. الثانية.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

(فقال: وكيف؟

قال: إن الروم أغارت على بني إسرائيل فأديلوا عليهم، فدفنوه، ثم أديلوا فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس، فبغوا على بني إسرائيل. ثم أديلت الروم عليهم إلى أن وَلِيَتْ.

فبعث اللَّه نبيًّا على الكناسة فقال:

أبشري أورِي شَلَم عليك الفاروق ينقيك مما فيك).

فأوري شَلَم والنصارى واليهود ومعابدهم لم تنقَّ من الأوساخ والقاذورات إلا عندما جاء الفاروق عمر ﷺ وأنقذهم من ظلم الرومان والفرس.

وليس الفاروق وحده، إنما الأمة كلها التي تَرَبَّتْ على يد رسول اللَّه ﷺ (وعن ربيعة الشامي بمثله وزاد: أتاك الفاروق **في جندي المطيع**، ويدركون لأهلك بثأرك من الروم).

هذه هي رسالة هذه الأمة. أن تكون قوامة على البشرية تحفظ لها حريتها. وأديانها وعقائدها، وتزيل البغي والظلم عنها، وتحارب الطواغيت الذين يحرصون على ذبح البشرية، وفرض مبادئهم على الأمم كلها.

وندع التعليق على هذا الموقف إلى غوستاف لوبون الذي لم يَرَ فاتحًا في التاريخ أرحم من المسلمين وهو النصراني العريق في نصرانيته:

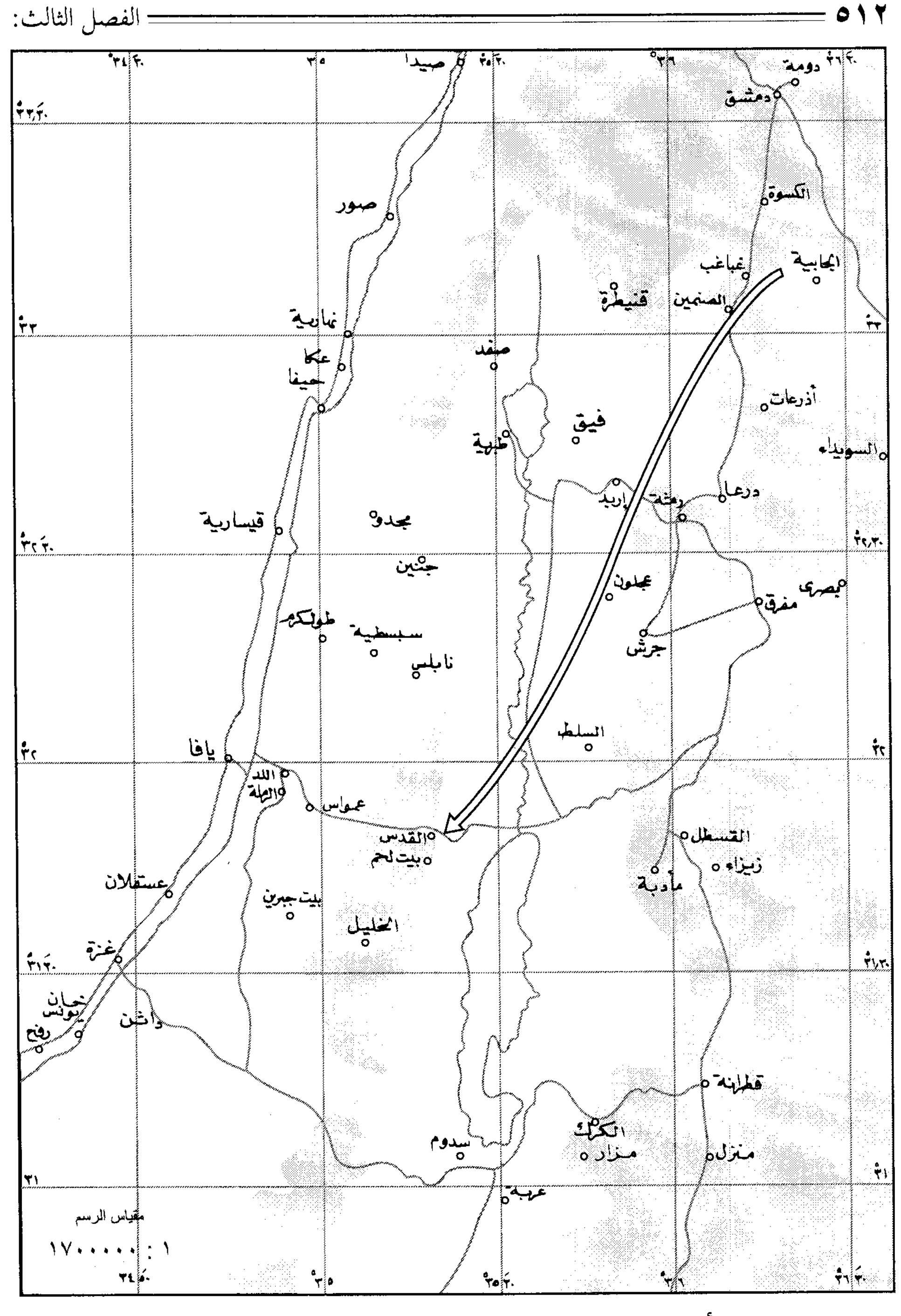
(ويثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العربُ الفاتحون الأمم المغلوبة. والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة.

فلم يرد عمر أن يدخل مدينة القدس من غير عدد قليل من أصحابه. وطلب من البطرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة.

وأعطى الأهلين الأمان. وقطع لهم عهدًا باحترام كنائسهم وأموالهم. وبتحريم العبادة على المسلمين في بِيَعِهِمْ) [١].

---

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون (ص ١٣٥).



أمير المؤمنين عمر من الجابية إلى القدس (إيلياء)

وحتى تتجلّى الصورة أكثر، ننظر ما فعل الصليبيون في القدس عند احتلالها، وما فعل صلاح الدين ﷺ عند استردادها:

(وكان سلوك الصليبيّين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون. قال كاهن مدينة لوبري ريموند داجيل:

« حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها؛ فقد قُطِعَتْ رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم، وبُقِرَتْ بطون بعضهم، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار، فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يُرَى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا... » وروى ذلك الكاهن الحليم، خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر. فعرض الوصف اللطيف الآتي:

« لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان. وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها. وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة ».

ولم يكتفِ الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك، فعقدوا مؤتمرًا أَجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس. من المسلمين واليهود وخوارج النصارى، الذين كان عددهم نحو ستين ألفًا فأفنوهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيام. ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدًا ولا شيخًا، وأراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبيح أهل القدس قاطبة. فانهمكوا في كل ما يستقذره الإنسان من ضروب السكر والعربدة. واغتاظ مؤرخو النصارى أنفسهم من سلوك حماة النصرانية مع اتصاف هؤلاء المؤرخين بروح الإغضاء والتساهل فنعتهم برنارد الخازن بالمجانين، وشبههم بودان الذي كان رئيس أساقفة دول بالفُروس التي تتمرَّغ في الأقذار) [1].

وماذا فعل المسلمون حين استردوا القدس؟

ندع الجواب للوبون نفسه. قال: (لقد خسر النصارى مليون رجل. وخرب بعض

---

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون (ص ٣٢٧).

أوربة في سبيل فتح القدس. وكان النصارى يرجون أن يحتفظوا بثمرة هذا الفتح العزيز، غير أن أملهم خاب فلم يلبث المسلمون أن استردوا القدس. وعادت القدس إلى حظيرة المسلمين إلى الأبد (١).

(وتمَّ طرد الصليبيين من القدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي الشهير. وذلك أن صلاح الدين دخل سورية بعد أن أصبحت مصر وجزيرة العرب والعراق في قبضته. وأنه غلب ملك القدس (دولوزينيان) وأَسَرَهُ، واسترد القدس في سنة (١١٨٧م) ولم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش، فيبيد النصارى عن بَكرة أبيهم فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعًا سلبَ شيء منهم.

قُضي على مملكة القدس اللاتينية بعد أن عاشت (٨٨ سنة)، ومرت سبعة قرون على تلك الحوادث من غير أن تخرج المدينة المقدسة من أيدي أتباع محمد على الرغم من جميع الجهود التي قام بها العالم النصراني منذ ذلك الحين (٢) ولا نرى فائدة كبيرة في تاريخ الجهود غير المجدية التي قامت بها أوربة لاسترداد القدس، أي في تاريخ الحملات الصليبية الست الأخيرة) (٣).

القدس اليوم

هذا هو أسوأ عصور المسلمين على الإطلاق. وذلك بعد أن زالت الخلافة الإسلامية. وأصبح أتاتورك ممثل الإسلام. إذ أمكن أن تحتل القدس ابتداءً من الإنكليز. بعد أن فشل الإنكليز في الحملة الصليبية الثالثة من اقتحامهما.

(.. ولذا ظلت القيادة العليا في يد قلب الأسد ريكاردس ملك إنكلترا الذي اقترف جرائم وحشية كالتي اقترفها رجال الحملة الصليبية الأولى.

وكان أول ما بدأ به ريكاردس هو قَتْلُهُ أمام معسكر المسلمين ثلاثةَ آلاف أسير مسلم سلَّموا أنفسهم إليه بعدما قطع لهم عهدًا بحقن دمائهم. وأطلق لنفسه العنان في اقتراف أعمال القتل والسلب. وليس من الصعب أن يتمثَّل المرء درجة تأثير تلك

---

(١) كان هذا قبل حرب اليهود والمسلمين عام (١٩٦٧م). حيث احتل اليهود القدس وقال دايان: هذه بخيبر.

(٢) لكن هذا تم عندما دخل الجنرال اللّنبي القدس عام (١٩١٧) وقال: الآن انتهت الحروب الصليبية.

(٣) حضارة العرب لغوستاف لوبون (ص ٣٢٩).

الكبائر في صلاح الدين النبيل الذي رحم نصارى القدس ولم يمسَّهم بأذًى. والذي أمد فيليب أوغست وقلب الأسد ريكاردس بالأزواد والمرطِّبات في أثناء مرضهما. فقد أبصر الهوة العميقة بين تفكير الرجل المتدين وعواطفه. وتفكير الرجل المتوحش ونزواته. وأدرك أنه لا يجوز أن يعامل أولئك الحمقى بغير ما تُعَامَل به الوحوش الضارية)[1].

(كان عدد النصارى يفوق عدد اليهود في المدينة. لكن في ديسمبر (١٩١٧م) وصلت الجيوش البريطانية المدينة وسيطرت عليها تمامًا بعد طرد الأتراك منها. وبعد شهر واحد فقط من دخول البريطانيين القدس قامت الحكومة البريطانية بإصدار وعد بلفور الذي تعهدت فيه بإقامة وطن لليهود في فلسطين. ثم وضعت القدس وسائر أرجاء فلسطين تحت الوصاية عام (١٩٢٠م)، ووافقت عصبة الأمم على تلك الوصاية عام (١٩٢٢م)... وفي نهاية عام (١٩٤٧م) اتخذت الأمم المتحدة قرارًا تم بموجبه إنهاء الوصية البريطانية على فلسطين. كما تمَّ أيضًا اتخاذ قرار بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود على أن تبقى مدينة القدس تحت سيطرة الأمم المتحدة.

رفضت الدول العربية قرار التقسيم... ودخلت جيوشها في حرب طاحنة ضد اليهود وتمكنت القوات اليهودية من السيطرة على الأجزاء الغربية من فلسطين بما فيها الجزء الغربي من مدينة القدس. أما الجزء الشرقي من المدينة فبقي تحت سيطرة الأردن...

نشبت حروب أخرى بين العرب واليهود كان أهمها حرب عام (١٩٦٧م) ثم حرب (١٩٧٣م) وانتهت تلك الحروب بفقد الجزء الشرقي من القدس.. وفي الثمانينيّات من القرن العشرين قامت إسرائيل بضم مدينة القدس رسميًّا إلى فلسطين المحتلة... ولا يزال الصراع مستمرًّا من أجل إعادة القدس والأرض العربية لأهلها الأصليين)[2].

المستوطنات:

احتلت إسرائيل القدس الشرقية عام (١٩٦٧م). وأعلنتها عاصمة لها عام (١٩٨٠م) بقرار من الكنيست الإسرائيلي رغم عدم الاعتراف الدولي بهذا الإجراء.

وقد أجرت إسرائيل منذ احتلالها للمدينة المقدسة، تغييرات كثيرة في طبيعة المدينة

---

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون (ص ٣٣٠).

(٢) الموسوعة العربية العالمية، ط٢، (١٨/٨٩، ٩٠).

وتركيبتها السكانية. فصادرت أكثر من ١٨ ألف دونم. وأقامت تسع عشرة مستوطنة تزيد مساحتها عن ١٣ ألف دونم تضم حوالي ٥٧ ألف وحدة سكنية ويقيم بها أكثر من ١٥٢ ألف مستوطن) [١].

المستوطنات تتضخم منذ مؤتمر أنابوليس [٢]:

(كشفت حركة « السلام الآن » الإسرائيلية المناهِضة للاستيطان، عن تضخم الأنشطة الاستيطانية بالضفة الغربية المحتلة وذلك منذ مؤتمر أنابوليس للسلام الذي عقد في نوفمبر الماضي، حيث يجري العمل في نحو ٥٠٠ مبنى سكني في ١٠١ مستوطنة بالضفة.

وقالت « السلام الآن » في تقرير لها نشرته اليوم الإثنين: « إن بناء المستوطنات منذ مؤتمر أنابوليس في تزايد ملحوظ »، مشيرة إلى أن عمليات البناء جارية فيما لا يقل عن ٥٠٠ مبنى في ١٠١ مستوطنة ».

وأشارت الحركة إلى أن إسرائيل لم تُوقِف البناء في مشروع واحد على الرغم من ما تلزمها به خريطة الطريق التى ترعاها واشنطن لإقرار السلام بوقف كل الأنشطة الاستيطانية في الضفة الغربية المحتلة.

وكان أنابوليس يهدف إلى التوصل إلى اتفاقية سلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين وإحياء خريطة الطريق، والاتفاق على إقامة دولة فلسطينية قبل نهاية فترة ولاية الرئيس الأمريكي جورج بوش.

وأوضح التقرير أن « البناء بدأ في ٢٧٥ مبنى، بينما هناك ٢٢٠ مبنى آخر كانت حصلت على ترخيص قبل عدة سنوات باتت جاهزة تقريبًا للسكن، كما نجح المستوطنون في الأشهر الأخيرة في إقامة ما لا يقل عن ١٨٤ مسكنًا متحركًا دون إذن رسمي وصارت تلك المساكن جاهزة للسكن ».

وعلى مدار الشهرين الماضيين، أعطى وزير الدفاع الإسرائيلي إيهود باراك الضوء الأخضر لبناء ما لا يقل عن ألف و ٧٥٠ وحدة سكنية في مستوطنات الضفة، من بينها فقط ٧٥٠ في أحياء يهودية بالقدس الشرقية التي احتلتها إسرائيل وضمتها عام (١٩٦٧م) بحسب التقرير.

---

(١) المعرفة. موقع الجزيرة نت (٢٠٠٦/٧/٤).

(٢) نقلًا عن موقع إسلام أون لاين نت (٢٠٠٨/٣/٣١م).

كما يجري حاليًا بناء ٥٨ مستوطنة عشوائية غير قانونية بدَأها المستوطنون على الرغم من أن الحكومة رفضت الموافقة في مناطق متفرقة بالضفة.

- مستوطنات دينية:

وفي السياق ذاته، نقلت وكالة الأنباء الإماراتية (وام) عن مصادر إسرائيلية تأكيداتها أن رئيس الوزراء إيهود أولمرت قد صادق على بناء ٤٨ وحدة سكنية في مستوطنة « أريل » جنوب نابلس لمستوطنين تمَّ إجلاؤهم من مستوطنات غزة.

كما قرر حزب « التوراة » الديني المتطرف بالتعاون مع « مجلس المستوطنات » العمل على توسيع المستوطنات الدينية في « بيتار إيليت » قرب بيت لحم.

وانتقد عضو الكنيست عن الحزب الديني إبراهام رافيتس تعهدات أولمرت لوزيرة الخارجية الأمريكية كوندليزا رايس بتجميد الاستيطان، قائلًا: « أولمرت يستطيع أن يقول لحاخامه كوندليزا: لا أستطيع أن أجمد الاستيطان ».

ودعا رافيتس حزب « شاس » الديني إلى الانسحاب من الحكومة بعد تجميد مشروع بناء ٨٠٠ وحدة استيطانية للمتدينين في مستوطنة « بيتار إيليت » التي يسكنها حاليًا ٣١ ألف مستوطن يهودي.

وفي الأسبوع الماضي، أكد أولمرت أن عمليات بناء الوحدات السكنية في المجمعات الاستيطانية الكبيرة في الضفة والقدس الشرقية لن تتوقف.

ويشكل استمرار النشاط الاستيطاني حجر عثرة رئيسي في المفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين التي استؤنفت نهاية نوفمبر خلال مؤتمر أنابوليس الدولي في الولايات المتحدة.

وتعتبر إسرائيل القدس الشرقية جزءًا لا يتجزأ منها، في حين يرفض المجتمع الدولي الإقرار بالمستوطنات، ويعتبر كافة مستوطنات الضفة غير قانونية سواء حصلت على موافقة حكومية أو لا، بحسب وكالة الأنباء الفرنسية.

ويعيش نحو نصف مليون يهودي في الضفة الغربية المحتلة إلى جانب نحو ٢,٥ مليون فلسطيني).

* * *

ونستجدي الشعراء استجداء ليحضروا حفلة التسليم للتاريخ والاستلام حيث قام زياد بن حنظلة كاتب رسول اللَّه ﷺ بوصف هذه الملحمة وهذه المرحلة:

وقال زياد بن حنظلة ﷺ:

تَذَكَّرْتُ حَرْبَ الرُّوم لما تَطَاولَتْ ... وَإِذْ نَحْنُ فِي عَامٍ كثير نَزَائله

وَإِذْ نَحْنُ فِي أَرْضِ الحِجَازِ وبيننا ... مسيرة شهر بينهنّ بَلَابِله

وَإِذْ أَرطبُونُ الرُّومِ يَحْمِي بِلَادَهُ ... يحاوله قِرم هُنَاك يُسَاجِلُه

فَلمَّا رَأى الفَارُوق أزمان فتحها ... سَمَا بِجُنُودِ اللَّهِ كَيْمَا يُصَاوِلُه

فلمَّا أَحَسّوه وَخَافُوا صواله ... أتوه وقالوا: أنت ممن نُوَاصلُه

وَأَلقَتْ إِلَيْه الشَّام أَفْلَاذ بطنها ... وَعَيْشًا خَصِيبًا مَا تُعَدّ مَآكِله

أباح لنا ما بين شَرْق وَمَغْرب ... مواريث أعقاب بنتها قرامله

وَكَمْ مُثْقِلٍ لَم يَضْطلعْ باحتماله ... تحمّل عبئًا حين شالت شوائله

وفي حفلة ثانية ألقى المقطع التالي:

سَمَا عُمَر لما أَتَتْه رَسَائل ... كأصيد يحمي صرمة الحي أَغْيَدَا

وقد عضلت بالشأم أرض بأهلها ... تريد من الأقوام من كان أَنْجَدَا

فَلَمَّا أتاه ما أَتَاه أَجَابَهُم ... بجيش تَرَى مِنْه الشَّبَائك سُجَّدا

وأقبلت الشَّام العريضة بالذي ... أَرَادَ أبو حفص وأَزْكَى وَأَزْيَدَا

فقسَّط فيما بينهم كُلّ جزية ... وكل رفاد كان أهنَى وأحمدا

لقد استسلمت الشام لأمير المؤمنين ﷺ بعد أن جاء مددًا لِعَمْرٍو وهو يساجل ذلك القرم العنيد. لكن القرم استسلم خوفًا من صولة الأسد. ورجا وِصالَه بعد جو الحرب والضرب. وصارت القدس وعمر صنوان عن عدالة جند اللَّه في الأرض.

* * *
* *
*

الفصل الرابع

أولويات عمر.. وسياسته المالية

(قال محمد بن سعد، قال أبو عبد اللّه الواقدي: حدثني محمد بن عبد اللّه عن عمِّه الزهري وغيره قالوا: كان عمر أول من دُعِي أمير المؤمنين...) [(١)].

قال أبو جعفر: (أول من دعي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. ثم جرتْ بذلك السُّنة واستعمله الخلفاء إلى اليوم.

قال أحمد بن عبد الصمد الأنصاري: حدثتني أم عمرو بنت حسان الكوفية عن أبيها قال: لما ولي عمر. قيل: يا خليفة خليفة رسول اللّه. فقال عمر: هذا أمر يطول، كلما جاء خليفة قالوا: يا خليفة خليفة خليفة رسول اللّه، بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم فسمي أمير المؤمنين.

قال أحمد بن عبد الصمد: سألتها: كم أتى عليك من السنين؟ قالت: مِائة وثلاث وثلاثون سنة) [(٢)].

قال أبو جعفر: (حدثنا ابن حميد قال: حدثنا يحيى بن واضح وقال: حدثنا: أبو حمزة عن جابر. قال: قال رجل لعمر: يا خليفة اللّه. قال: خالف اللّه بك. فقال: جعلني اللّه فداءك.

قال: إذن يُهينَكَ اللّه) [(٣)].

وقال ابن حبان: (كان - المغيرة بن شعبة - أول من سلم عليه بالإمرة. ثم ولاه عمر الكوفة) [(٤)].

وقال البلاذري: (حدثني عباس بن هشام عن أبيه عن جدِّه عن أبي صالح عن ابن عباس قال: لما توفِّي رسول اللّه ﷺ واستُخلِفَ أبو بكر كان يقال له: خليفة رسول اللّه، فلما توفِّي أبو بكر واستخلف عمر قيل لعمر: خليفة خليفة رسول اللّه،

---

(١) كتاب جمل من أنساب الأشراف للبلاذري (٣٢٢/١٠).

(٢، ٣) تاريخ الطبري (٥٦٩/٢).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ت (٨٧٣٧).

فقال المسلمون: فمن جاء بعد عمر، ما يقال له؟ أيقال خليفة خليفة خليفة رسول اللَّه، هذا يطول. ولكن أجمعوا على اسم تدعون به الخليفة، ويُدعَى به مَن بعده مِن الخلفاء.

فقال بعضهم: نحن المؤمنون وعمر أميرنا. فدُعي أمير المؤمنين. فهو أول من سُمِّي بذلك وهو أول من كتب التاريخ.

قال الكلبي: وقد حُدِّثت أن عمر قال: أنتم المؤمنون وأنا أميركم.

وقال الكلبي: بلغني أن الرجل المغيرة بن شعبة هو الذي قال ذلك) [١].

وعلى اختلاف الروايات أن صاحب الاقتراح بإمارة المؤمنين هو عمر ﷺ نفسه - وهو الأرجح - أو المغيرة بن شعبة، أو أحد المسلمين. فالنتيجة واحدة هي إطلاق هذا اللفظ الجديد، لأول مرة. بينما كان في عهد الصدّيق: خليفة رسول اللَّه، وذلك في التخاطب. أما لقب الخليفة فقد بقي قائمًا في الأمة.

أولًا: حارس العقيدة:

لكن أجمل ما في الأمر هو العدول إلى « أمير المؤمنين » بدل العدول إلى « خليفة اللَّه » والتي طرحت كما طرحت الإمارة، وتريح من التسلسل - خليفة خليفة.. - غير أن الفاروق ﷺ كان يقظًا لهذا القنبلة الموقوتة التي يمكن أن تُفَجِّر العقيدة الإسلامية، فعندها يصبح الخليفة ممثلًا للَّه في الأرض، ويتحوَّل الـحُكام آلهة والطواغيتُ أربابًا من دون اللَّه.

إن ثغرة واحدة في عهد نوح ﷺ، حين صوَّروا تماثيل الصالحين في عهودهم مَرّ الزمن وتحوَّل الصالحون آلهة تعبد من دون اللَّه. فمن الذي يقف أمام طغيان الطواغيت في الأرض إذا أخذوا لقب خلفاء اللَّه، واللَّه هو الذي يختارهم.

لقد كانت الخطوة الجبارة بعد خطوة الصديق هي التي أوقفت انهيار التوحيد في الأمة بعد الخطوة الجبارة للصديق: (من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حي لا يموت).

وهذه الخطوة من جهة أخرى هي التي تجعل الحاكم أو الأمير يأخذ شرعيته من المؤمنين أنفسهم، والمؤمنون هم الذين يختارون أميرهم. بينما رَفْض (خليفة اللَّه)

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٣٢١).

يعني رفض حلول الروح الإلهية في الحاكم الذي يصبح حكمه هو حكم اللَّه ولا يمكن أن يوقفه أحد، لقد وقعت النصرانية في هذين **المغطسين** معًا.

– **المغطس الأول**: الذي حال الصديق دونه، أن محمدًا لا يُعبَد، وأن محمدًا يموت وهو بشر، بينما تحول التوحيد إلى الشرك عند النصارى وكفروا حين قالوا: إن اللَّه هو المسيح ابن مريم. وكفروا حين قالوا: إن اللَّه ثالث ثلاثة.

– **والمغطس الثاني**: الذي ينقل الألوهية إلى إنسان مهما كان اسمه، والذي جعل البابا خليفة اللَّه في أرضه، وأنقذ الفاروق الأمة من هذا المغطس حين رفض خليفة اللَّه وتبنى أمير المؤمنين. فلا خلافة للَّه تعالى في الأرض إلا لكتابه وسنةِ رسوله.

« تَركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلُّوا، كتابَ اللَّه وسنتي ولن يتفرقا حتى يَرِدا على الحوض » [١].

وقال عمر للذي ناداه: خليفة اللَّه. زاجرًا له: خالَفَ اللَّهُ بك.

فقال له: جعلني اللَّه فداءك.

فقال له: إذن يُهينَك اللَّه.

فالفداء والجهاد في سبيل اللَّه. وكم يكون الهوان للإنسان الذي يُجعَلُ فِدًى للإنسان مثله. وكانت هذه القضية من بواكير أولوياته ﷺ.

ثانيًا: (وهو أول من أرّخ الكتب) [٢]:

أرَّخها في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة من الهجرة) [٣].

وقال أبو جعفر: (وكان أول من وضع التاريخ وكتبه فيما حدثني الحارث قال: حدثنا ابن سعد عن محمد بن عمر في سنة ست عشرة في شهر ربيع الأول منها) [٤].

(وحدثني ابن أبي سبرة عن عثمان بن عبيد اللَّه بن أبي رافع عن ابن المسيب قال: أول من كتب التاريخ عمر لسنتين ونصف من خلافته، فكتب لست عشرة من الهجرة بمشورة علي بن أبي طالب) [٥].

---

(١) صحيح الجامع الصغير ح (٢٩٣٧).

(٢ ، ٣) أنساب الأشراف للبلاذري (٣٢٢/١٠).

(٤) تاريخ الطبري (٥٦٩/٢).   (٥) المصدر نفسه (٤٧٦/٢).

(حدثني عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم قال: حدثنا نعيم بن حماد قال: حدثنا الدارَوَرْدي عن عثمان بن عبيد اللّه بن أبي رافع قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: جمع عمر بن الخطاب الناس، فسألهم: من أي يوم نكتب فقال علي: من يوم هاجر رسول اللّه ﷺ، وترك أرض الشرك ففعله عمر) [١].

(.. وعن ابن عباس قال: كان التأريخ في السنة التي قَدِمَ فيها رسول اللّه ﷺ المدينة وفيها ولد عبد اللّه بن الزبير) [٢].

(والمتحصل من مجموع الآثار أن الذي أشار بالمحرم عمر وعثمان وعلي. وذكر السهيلي أن الصحابة أخذوا التأريخ بالهجرة من قوله: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ [التوبة: ١٠٨] لأن من المعلوم أن ليس أول الأيام مطلقًا، فتعين أنه أضيف إلى شيء مضمر. وهو أول الزمن الذي عزَّ فيه الإسلام، وعبد النبي ﷺ ربه آمنًا، وابتدأ في بناء المسجد، فوافق رأي الصحابة ابتداء التاريخ من ذلك اليوم. وفهمنا من فعلهم أن قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ أنه أول التاريخ الإسلامي. قال في الفتح: كذا قال: والمتبادر أن معنى قوله: ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ أي دخل النبي ﷺ وأصحابه المدينة) [٣].

(يقول السهيلي: فإن كان أصحاب رسول اللّه ﷺ أخذوا هذا من الآية فهو الظن بأفهامهم، فهُم أعلم الناس بكتاب اللّه وتأويله، وأفهمهم بما في القرآن من إشارات وإفصاح. وإن كان ذلك منهم عن رأي واجتهاد، فقد عُلِمَ ذلك منهم قبل أن يكونوا وأشار إلى صحته قبل أن يُفْعل، إذ لا يعقل قول القائل: فعلته أول يوم إلا بإضافة إلى عامٍ أو شهر معلوم أو تاريخ معلوم. وليس هاهنا إضافةٍ في المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظٍ أو قرينة حال فتدبره. ففيه معتبر لمن اذَّكر، وعِلْمٌ لمن رأى بعين فؤاده واستبصر والحمد للّه) [٤].

قال البلاذري: (حدثنا عبد اللّه بن محمد أبو بكر ابن أبي شيبة قال: حدثنا محمد بن عبد اللّه الأسدي، ثنا حسان عن مجالد عن الشعبي قال:

كتب أبو موسى إلى عمر: إنه يأتينا منك كتب لا نعرف عهدها وتاريخها فأرِّخْ. فاستشار عمر أصحاب رسول اللّه ﷺ.

(١، ٢) تاريخ الطبري (٤٧٦/٢).

(٣) شرح المواهب للزرقاني (٤٠٨/١).

(٤) الروض الأنف للسهيلي (١٢٤/٢/١).

فقال بعضهم: أرِّخ لمبعث رسول اللَّه ﷺ. وقال بعضهم: أَرِّخ لموته. فقال عمر: أؤرخ لمهاجَرِ رسول اللَّه ﷺ، فإنه فَرّقَ بين الحق والباطل مُهاجَرُه فأرِّخ به) [١].

وهكذا ارتباط البشرية بميلاد المسيح - عليه الصلاة والسلام - حتى اليوم، وكانت الأمة الرائدة بالهجرة التي أعز فيها الدين، وفرق بين الحق والباطل. أو ليس الفاروق أولى بذلك؟ وهو الذي كانت هجرته فتحًا وإسلامه نصرًا وخلافته رحمة.

وهو الذي سماه رسول اللَّه ﷺ (الفاروق) الذي فرق اللَّه به بين الحق والباطل.

ثالثًا: وأول من جمع القرآن في الصحف وأول من سنَّ قيام شهر رمضان. وجمع الناس على ذلك وكتب به إلى البلدان. وذلك في شهر رمضان سنة أربعَ عشرةَ، فلما تُوُفِّي قال علي بن أبي طالب: نوَّر اللَّه لعمر، كما نوَّر مساجدنا. وجعل عمر بالمدينة قارئَين؛ قارئًا للرجال، وقارئًا للنساء...) [٢].

السياسة المالية: ذكر فرض العطاء وعمل الديوان

(وفي هذه السنة فرض عمر للمسلمين الفروض، ودوَّن الدواوين، وأعطى العطايا على السابقة، وأعطى صفوان بن أمية والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو في أهل الفتح أقل ما أخذ مَن قَبْلهم. فامتنعوا عن أخذه وقالوا: لا نعترف أن يكون أحد أكرم منا.

فقال: إنما أعطيتكم على السابقة في الإسلام لا على الأحساب.

قالوا: فنعم إذن.

وأخذوا، وخرج الحارث وسهيل بأهليهما نحو الشام. فلم يزالا مجاهدَين حتى أصيبا في بعض تلك الدروب. وقيل: ماتا في طاعون عمواس) [٣].

فقد تغيرت الدنيا بأهلها. لقد كان العطاء للمؤلفة قلوبهم، ولم يكن العطاء على السابقة. والمؤلفة قلوبهم هم أشراف الناس وقادة القبائل. فعندما أخذ سهيل والحارث وصفوان أقل من غيرهم رفضوا ذلك أن يُفَضَّل عليهم أحد في النسب والشرف، ورفضوا أن يأخذوا هذا العطاء.

لكن عندما قال لهم: إنما أعطيتكم على السابقة في الإسلام لا على الأحساب.

---

(١) أنساب الأشراف البلاذري (٣٢١/١٠). (٢) تاريخ البلدان البلاذري (٣٢٢/١٠).

(٣) تاريخ الطبري (٤٥٢/٢).

قالوا: فنعم إذن. وأخذوا. لقد تغيرت أمة وقام مقامها أمة جديدة.

أما الأمة السابقة فقد كانت تقوم على الأحساب والأنساب. فقال رسول اللَّه ﷺ في خطبة الوداع « **إن اللَّه ﷻ أذهبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء. مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب..** »[(١)].

وجاء التطبيق العملي الآن؛ فهؤلاء سادة مكة وغررها يرفضون العطاء على الأحساب ويقبلونه على الإسلام. وينفذونه عمليًا بالالتحاق بالثغور الإسلامية. فلا يعود أحد منهم إلى مكة.

وضع الديوان:

وهذا التطبيق العملي الثاني الذي يقوم على القرابة من رسول اللَّه ﷺ بعيدًا عن حمية الجاهلية. (ولما أراد عمر وضع الديوان قال له علي وعبد الرحمن بن عوف: ابدأ بنفسك.

قال: لا. بل أبدأ بعم رسول اللَّه ﷺ. ثم الأقرب فالأقرب.

- ففرض للعباس وبدأ به.
- ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة الآف.
- ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف.
- ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف، سواء في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر، ومن ولي الأيام قبل القادسية، كل أولئك ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف.
- ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين.
- وفرض لأهل البلاء البارع منهم ألفين وخمسائة ألفين وخمسمائة.

فقيل له: لو ألحقت أهل القادسية بأهل الأيام، فقال: لم أكن لألحقهم بدرجة من لم يدركوا.

وقيل له: قد سويت من بعدت داره بمن قربت داره وقاتلهم عن فنائه.

---

(١) أبو داود ح (٥١١٨)، والترمذي ح (٣٩٥٦) بمعناه.

قال: من قربت داره أحق بالزيادة لأنهم كانوا ردءًا للحوق وشجًى للعدو. فهلَّا قال المهاجرون مثل قولكم حين سوينا بين السابقين منهم والأنصار، فقدكانت نصرة الأنصار بِفنَائهم وهاجر إليهم المهاجرون من بُعْد.

- وفَرض لمن بَعْد القادسية واليرموك ألفًا ألفًا.

- ثم فرض للروادف:

المثنى: خمسمائة خمسمائة.

ثم للروادف الثليث بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة، سوى كل طبقة في العطاء، قويّهم وضعيفهم، وعربهم وعجمهم.

- وفرض للروادف الربيع على مائتين وخمسين.

- وفرض لمن بعدهم وهم أهل هَجَر والعِباد على مائتين.

- وألحق بأهل بدر أربعة من غير أهلها، الحسن والحسين، وأبا ذر، وسلمان..)[1].

إنه خليفة المسلمين وأميرهم، ولا عجب أن يبتدئ الديوان به، وقد أشار عليه بذلك اثنان من القيادات العليا للمسلمين - علي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف. والأمير في الإسلام طاعته مباشرة بعد طاعة اللَّه ورسوله. فلا عجب أن يكون هو محور الأمة، والأمة كلها تحت إمرته.

لكن منطق الفاروق رضي الله عنه يختلف عن منطق رعيته وقياداته.

قالوا له: ابدأ بنفسك.

قال: لا بل أبدا بعمِّ رسول اللَّه ﷺ ثم الأقرب فالأقرب.

إن قرابة رسول اللَّه ﷺ أحب إلى عمر من قرابته؛ ومن أجل هذا بدأ بسيد بني هاشم رهطِ رسول اللَّه ﷺ، ثم زوجات الحبيب المصطفى صلوات اللَّه عليه.

ولنستعد هذه الذكرى:

يوم كان العباس بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب يتسابقان للوصول إلى رسول اللَّه ﷺ؛ العباس يريد إجارة أبي سفيان من الموت، وعمر يريد قتل أبي سفيان قبل أن يجيره العباس.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٥٢/٢).

ونجح العباس بخطته، وأجار أبا سفيان وفشل عمر في مهمته.

في قلب هذا السياق جرى الحوار الآتي:

(فدخل عمر على رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول اللَّه هذا أبو سفيان عدو اللَّه قد أمكن اللَّه منه بغير عهد ولا عقد. فدعني أضرب عنقه فقلت (العباس): يا رسول اللَّه إني قد أجرته.

ثم جلست إلى رسول اللَّه ﷺ فأخذت برأسه. فقلت: واللَّه لا يناجيه اليوم أحد دوني. فلما أكثر فيه عمر، قلت: مهلًا يا عمر، فواللَّه ما تصنع هذا إلا لأنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا.

فقال: مهلًا يا عباس. فواللَّه لإسلامك يوم أسلمتَ كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ وذلك لأني أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول اللَّه ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **اذهب فقد أمّنّاه حتى تغدو عليّ به الغداة** » [1]. فتقديم قرابة رسول اللَّه ﷺ على كل الأحساب والأنساب هي خُلق ودين عند عمر رضي الله عنه وهو جندي مسلم. وليس أميرًا للمؤمنين في الأرض.

وحسب قواعد العطاء التي وضعها عمر رضي الله عنه بالنسبة لأهل السابقة، فالعباس أسلم قبيل فتح مكة، وهو آخر المهاجرين هجرة. والأصل أن يكون عطاؤه ثلاثة آلاف (ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن عهد الردة ثلاثة آلاف).

لكن نسب رسول اللَّه ﷺ هو وحده الذي تبقّى من بين أنساب الأرض جميعًا وهو الوحيد الذي عُومِل معاملة خاصة في العطاء؛ لأنه عم رسول اللَّه ﷺ. ونسبُ رسول اللَّه ﷺ لا ينقطع.

(وكان فرض للعباس خمسة وعشرين ألفًا..) ثم أقرب النسب إلى رسول اللَّه ﷺ زوجاته (وأعطى نساء النبي ﷺ عشرة آلاف عشرة آلاف إلا من جرى عليها الملك..) وقام الضرائر يطالبن ضرائرهن.

(فقالت نسوة رسول اللَّه ﷺ: ما كان رسول اللَّه ﷺ يفضلنا عليهن بالقسمة، فسوِّ بيننا ففعل، وفضل عائشة بألفين لمحبة رسول اللَّه ﷺ لها فلم تأخذ) [2].

---

(١) تاريخ الطبري (١٥٩/٢).

(٢) المصدر نفسه (٤٥٢/٢).

وبعد قرابة رسول الله ﷺ صار التوزيع على السابقة والفضل فأهل بدر وهم خيرة الأمة بعد نبيها ﷺ وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: « **لعل الله اطّلع على أهل بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** » (١) ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف، وأهل بيعة الرضوان خيرة هذه الأمة بعد أهل بدر. وقد قال الله تعالى فيهم ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٦] وقال فيهم رسول الله ﷺ: « **لا يدخل النار - إن شاء الله - أحد ممن بايع تحت الشجرة** » (٢).

وأهل الفتح ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد: ١٠]. (ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف، سواء في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولي الأيام قبل القادسية. كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف).

لقد اعتبر رضي الله عنه كل من قاتل مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر كلًّا واحدًا ملحقًا بالجيل الأول، ثلاثة الآف لكل فرد.

بينما جاء الجيل الثاني ورغم ضراوة القتال في القادسية وأمثالها في الشام ألفين ألفين وهذا الجيل الثاني جعله على **سويتين:**

السوية الأولى: من قاتل في القادسية واليرموك.

السوية الثانية: من قاتل بعد القادسية واليرموك وفرض لهم ألفًا ألفًا وخص في السوية الأولى أهل البلاء البارع بخمسمائة زيادة عن إخوانهم.

(وفرض لأهل البلاء البارع منهم ألفين وخمسمائة، ألفين وخمسمائة، وفرض للروادف (٣). وهم سرايا الخدمات الذين يقومون على خدمة المجاهدين وقسمهم رضي الله عنه إلى ثلاث مراتب: ثلاثمائة ثلاثمائة، ومائتان وخمسون مئتان خمسون، ومئتان مئتان، وسوى بين النساء والصبيان على مائة مائة.

الأربعة الملحقون بالبدريين:

واختار رضي الله عنه أربعة ألحقهم بالبدريين على خمسة آلاف خمسة آلاف، وهما رجلان

---

(١) البخاري ح (٣٩٨٣). (٢) مختصر مسلم ح (١٤٤٠).
(٣) الروادف: الأتباع.

وولدان؛ أما الرجلان فهما أبو ذر وسلمان، وأما الولدان فهما الحسن والحسين رضوان اللَّه عليهم.

أبو ذر، أمضى حياته في دعوة قومه، حيث مضى بدر وأحد والخندق، وجاء بقومه بني غفار مسلمين إلى المدينة. وهو أول من جهر بالإسلام في مكة.

وسلمان قد جاب الأرض يبحث عن هذه الرسالة وهذا الرسول، وفي بدر كان لا يزال رقيقًا عند رجل يهودي.. فبلاؤهما يفوق بلاء أهل بدر، لو كانا يملكان إمكانيات المشاركة.

وجعل محبة رسول اللَّه ﷺ هي الميزان. فكان أحب النساء إليه عائشة رضي الله عنها. فخصَّها عمر رضي الله عنه بالفين زيادة عن صويحباتها لكنها رفضت ذلك.

والحسن والحسين أحب الخلق إلى رسول اللَّه ﷺ؛ فهما ريحانتاه في الوجود. فجعل عطاءهما كعطاء البدريين.

ونساء المجاهدين:

كما قسم العطاء رضي الله عنه للنساء على مستوى فرض البلاء.

جعل نساء أهل بدر في خمسمائة خمسمائة.

ونساء من بعدهم إلى الحديبية على أربعمائة أربعمائة.

ونساء من بعد ذلك إلى الأيام ثلاثمائة ثلاثمائة.

ونساء أهل القادسية مائتين مائتين.

ثم سوى بين النساء بعد ذلك.

لم ينس الخليفة الراشد في سلم التقاعد والرواتب أحدًا حتى النساء المتقاعدات اللاتي أعطين حسب تسلسل رواتب أزواجهن.

﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦]

والأمة كلها..

أما عامة الأمة، فلا بد أن ينالهم العطاء كذلك.

﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾

(ثم جمع ستين مسكينًا، وأطعمهم الخبز فأحصوا ما أكلوه. فوجدوه يخرج من جريبتين، ففرض لكل إنسان منهم وعياله جريبتين في الشهر).

وهذا هو الغذاء الرئيسي والقوت الأساسي للأمة، وقد تكفَّلت الدولة به، ولكل مولود في الإسلام مائة مائة. (وجعل الصبيان سواءً على مائة مائة).

- وحدثت طُرفة من أجل الصبيان:

(.. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قَدِمَتْ رُفْقة من التجار، فنزلوا المصلى فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: هل لك أن تحرسهم الليلة من السرق؟ فباتا يحرسانهم ويصليان. فسمع عمر بكاء صبي فتوجَّه نحوه فقال لأمه: اتقي اللَّه وأحسني إلى صَبيِّك. ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك. فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فقال لأمه: ويحك إني أراك أم سوء. أرى ابنك لا يقر منذ الليلة.

قالت: يا عبد اللَّه قد أبرمتني منذ الليلة. إني أريغه [1] على الفطام غيابًا.

قال: ولِمَ؟

قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم.

قال: وكم له؟

قالت: كذا وكذا.

فقال: ويحك لا تعجليه.

فصلَّى الفجر وما يستبين الناس قراءته من البكاء.

فلما سلم قال: يا بؤس عمر كم قتل من أولاد المسلمين.

ثم أمر مُناديًا فنادى لا تعجلوا صبيانكم عن الرضاع بالفطام. فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق) [2].

---

(١) أريغه: أراوغه وأحاوله.

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٤٤٣٥).

عزيمة:

وثبت عن أمير المؤمنين ﷺ قوله فيما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: (سمعت عمر ابن الخطاب يقول: واللَّه لئن بقيت إلى قابل لألحقن آخر الناس بأولهم ولأجعلنهم شيئًا واحدًا) [١] وروي عن قوله:

(لئن عشت حتى يكثر المال لأجعلن عطاء الرجل المسلم ثلاثة آلاف؛ ألفًا لكراعه وسلاحه، وألفًا نفقة له، وألفًا نفقة لأهله) [٢].

وحين نذكر الأولويات يظهر أنه ﷺ خط خطًّا جديدًا في الأمة لم يسبق له، دعت إليه عمليات التطور الحضاري، وتغير الظروف المادية.

فأربع سنوات فقط، تغيرت معالم البشرية فيها، وانتقلت قيادتها إلى الأمة الراشدة. ولو أن الوارث كان غير هذه الأمة التي تربت على يد رسول اللَّه ﷺ لابتُلِعَتْ هذه الثروات من هذه القيادات، وتكررت نسخ الطغيان من أمة إلى أمة. لقد كان ﷺ يدرك تمامًا مسؤولية الرسالة التاريخية الملقاة على عاتقه وعاتق الأمة التي يقودها. ويعلم أن نقطة الانحراف التي تبدو صغيرة جدًّا في البداية سرعان ما تنفرج فيما بعد حتى تجعل خط الانحراف يهوي بالأمة إلى الحضيض. فاستئثار السلطان هو الأصل في حكم الطاغوت. وإيثار حكم اللَّه ورسوله هو الأصل في حكم القوم العابدين.

(فعن جبير بن الحويرث بن نُقيد أن عمر بن الخطاب ﷺ استشار المسلمين في تدوين الدواوين. فقال له علي بن أبي طالب ﷺ:

تقسم كلَّ سنة ما اجتمع إليك من مال، فلا تمسك منه شيئًا.

وقال عثمان بن عفان ﷺ: أرى مالًا كثيرًا يسع الناس، وإن لم يُحْصَوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر.

فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام، فرأيت ملوكها قد دوَّنوا ديوانًا، وجنَّدوا جندًا، فدوِّن ديوانًا وجنِّد جندًا.

فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (٤٤٣٦/١٠).

(٢) المصدر نفسه (٤٤٣٦/١٠).

من نُسّاب قريش فقال: اكتبوا الناس على منازلهم. فكتبوا فبدؤوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه على الخلافة. فلما نظر فيه عمر قال: لَوَدِدْتُ واللَّه أنه هكذا. ولكن ابدؤوا بقرابة رسول اللَّه ﷺ الأقرب فالأقرب. حتى تضعوا عمر حيث وضعه اللَّه) [١].

(وعن أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين عرض عليه الكتاب، وبنو تيم على أثر بني هاشم وبنو عدي على أثر بني تيم. أسمعه يقول: ضعوا عمر موضعه وابدأوا بالأقرب فالأقرب من رسول اللَّه ﷺ..) [٢].

بنو عدي تحتج: (.. فجاءت بنو عدي إلى عمر فقالوا: أنت خليفة رسول اللَّه، قال: أو خليفة أبي بكر. وأبو بكر خليفة رسول اللَّه.

قالوا: وذاك، فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم.

قال: بخ خ بني عدي، أردتم الأكل على ظهري. وأن أذهب حسناتي لكم؟!! لا واللَّه، حتى تأتيكم الدعوة. وإن أُطبِق عليكم الدفتر. ولو أن تُكتَبوا في آخر الناس) [٣].

الصراط المستقيم: (إن لي صاحبين سَلَكَا طريقًا، فإن خالفتهما خولف بي، واللَّهِ ما أدركنا الفضل في الدنيا، ولا نرجو ما نرجو من الآخرة من ثواب اللَّه على ما عملنا إلا بمحمد ﷺ، فهو شرفنا وقومه أشرف العرب، ثم الأقرب فالأقرب إن العرب شرفت بمحمد ﷺ. ولعل بعضها يلقاه إلى آباء كثيرة، وما بيننا وبين أن نلقاه إلى نسبه ثم لا نفارقه إلى آدم إلا آباءٌ يسيرة..) [٤].

ويبقى الفضل للتقوى: (.. مع ذلك واللَّهِ لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة. فلا ينظر رجل إلى قرابة. وليعمل لما عند اللَّه، فإن من قصَّر به عمله لم يسرع به نسبه) [٥].

الإشراف المباشر على التنفيذ:

قال ابن جرير: (.. حدثني حزام بن هشام الكلبي عن أبيه قال: رأيت عمر ابن الخطاب - رضي اللَّه تعالى عنه - يحمل ديوان خزاعة، حتى ينزل قديدًا فنأتيه

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٧٠).
(٢ - ٤) المصدر نفسه (٢/٥٧٠).
(٥) المصدر نفسه (٢/٥٧٠).

بقُديد فلا يغيب عنه امرأة بِكر ولا ثيب، فيعطيهن في أيديهن. ثم يروح فينزل عسفان، فيفعل مثل ذلك أيضًا حتى توفي) [١].

ما من أحد إلا وله في هذا المال حق:

(.. عن السائب بن يزيد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: واللَّهِ الذي لا إله إلا هو - ثلاثًا - ما من أحد إلا له في هذا المال حق أَعطِيَه أو مُنِعَه. وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك، وما أنا فيه إلا كأحدهم.

ولكنا على منازلنا من كتاب اللَّه، وقسمنا من رسول اللَّه ﷺ.

- والرجل وبلاؤه في الإسلام.
- والرجل وقِدمه في الإسلام.
- والرجل وغَناؤه في الإسلام.
- والرجل وحاجته.

والدولة مسؤولة عن إيصال الحقوق لأصحابها:

(.. واللَّه لئن بقيت إلى قابل ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظّه من هذا المال وهو مكانه...) [٢].

راتب الخليفة رئيس الدولة:

لقد فُرِضَ للعباس عم رسول اللَّه ﷺ خمسة وعشرين ألف درهم. أليس من الطبيعي أن يكون راتب الخليفة معادلًا لأعلى رواتب رعيته؟؟ ويكون الأمر على هذا القياس؟

لقد قام عمر رضي الله عنه بتحديد سلم الرواتب لكل العاملين في الدولة، والرواتب التقاعدية لكل أبناء الأمة. أما بالنسبة له فلم يفعل ذلك، وترك الأمر لمجلس شوراه يتخذ القرار المناسب.

قال ابن جرير: (السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد قالوا: لما فتح اللَّه على المسلمين وقُتل رستم، وقدمت على عمر الفتوح من

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٧٠، ٥٧١).

(٢) المصدر نفسه (٢/٥٧١).

الشام جمع المسلمين فقال: ما يحل للوالي من هذا المال. فقالوا جميعًا: أما لخاصته فقوته وقوت عياله لا وَكْسَ ولا شَطَطَ [١]، وكسوتهم وكسوته للشتاء والصيف.

- ودابتان إلى جهاده وحوائجه وحملانه إلى حجه وعمرته.
- والقسم بالسوية.
- أن يعطي أهل البلاء على قدر بلائهم.
- ويَرُمّ أمور الناس بعد.
- ويتعاهدهم عند الشدائد والنوازل حتى تكشف.
- ويبدأ بأهل الفيء) [٢].

لقد تحول السؤال من تحديد الحقوق إلى طرح الحقوق والواجبات على الخليفة وخلاصة راتبه.

- فقوته وقوت عياله لا وَكْس ولا شطط.
- وكسوتهم وكسوته للشتاء والصيف.
- ودابتان إلى جهاده وحوائجه، وحملانه إلى حجّه وعُمْرته .

فراتبه راتب الوسط من رعيته؛ لا زيادة ولا نقصان، ما يكفيه، قوته وقوت عياله. وفي عصرنا هذا يقال عن مثل هذا الراتب على حد الفقر. لقد كانت حياته أفضل من هذا قبل أن يكون أميرًا، وعندما كان تاجرًا.

إنها الأمة القوامة بالحق التي تحدد مستوى معيشة أميرها، وتحدد واجباته كاملًا. ولا تراعيه في شيء ولو مقدار درهم.

ووردت روايات أخرى تتطابق مع هذه الرواية. برأي أمير المؤمنين عمر وبرأي مستشاره علي، قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد عن عبيد اللَّه عن نافع عن أسلم قال: قام رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: ما يحل لك من هذا المال؟ فقال: ما أصلحني وأصلح عيالي بالمعروف، وحلة الشتاء، وحلة الصيف. وراحلة عمر للحج والعمرة، ودابة في حوائجه وجهاده) [٣].

---

(١) لا وكس ولا شطط: لانقصان ولا زيادة.

(٢، ٣) تاريخ الطبري (٢/٤٥٣).

(عن عبد اللَّه بن عمر قال: جمع الناس عمر بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسية ودمشق فقال: إني كنت امرءًا تاجرًا، يغني اللَّه عيالي بتجارتي، وقد شغلتموني بأمركم، فما ترون أنه يحل لي من هذا المال؟. فأكثر القوم وعلي ﷺ ساكت. فقال: ما تقول يا علي؟ قال: ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف. ليس لك من هذا المال غيره. فقال القوم: القول قول ابن أبي طالب [1].

- مجلس الشورى يبحث زيادة الراتب وعمر يرفض:

قال أبو جعفر:

(لما ولي عُمر قعد على رزق أبي بكر الذي كانوا فرضوا له. فكان بذلك، فاشتدت حاجته، فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلي وطلحة والزبير.

فقال الزبير: لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه.

فقال علي: وددنا أنه قَبِل ذلك. فانطلِقُوا بنا.

فقال عثمان: إنه عمر! فهلموا فلنستبرئ ما عنده من وراء؛ نأتي حفصة فنسألها ونستكتمها فدخلوا عليها وأمروها أن تخبر بالخبر عن نفر، ولا تسمي له أحدًا إلا أن يقبل، وخرجوا من عندها.

فلقيتْ عمر في ذلك، فعرفت الغضب في وجهه، وقال: من هؤلاء.

قالت: لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك.

فقال: لو علمت من هم لسؤت وجوههم أنت بيني وبينهم. أنشدك اللَّه ما أفضل ما اقتنى رسول اللَّه ﷺ في بيتك من الملبس؟

قالت: ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد - ويخطب فيهما للجُمَع.

قال: فأي الطعام ناله عندك أرفع؟

قالت: خبزنا خبزة شعير، فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكة لنا، فجعلناها هشة دسمة فأكل منها، وتطعم منها استطابة لها.

قال: فأي مُبسَط كان يبسطه عندك أوطأ؟

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٥٣).

قالت: كساءٌ لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا. فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه.

قال: يا حفصة فأبلغيهم عني أن رسول اللَّه ﷺ قدَّر فوضع الفضول [١] مواضعها وتبلغ بالتزجية [٢]. وإني قدرتُ فوالله لأضعن الفضول مواضعها، ولأتبلغن بالتزجية. وإنما مَثَلي ومَثَل صاحبَيّ كثلاثة سلكوا طريقًا؛ فمضى الأول وقد تزود زادًا فبلغ، ثم أتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه، ثم أتبعه الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما [٣]، [٤].

ابن أمير المؤمنين يحتج على عطائه:

قال القاسم بن سلام: (حدثنا عبد اللَّه بن صالح عن الليث بن سعد عن محمد ابن عجلان أن عمر فضَّل أسامة بن زيد على عبد اللَّه بن عمر فلم يزل الناس بعبد اللَّه بن عمر حتى كلَّم أباه فقال:

أتفضل عليَّ من ليس بأفضل مني؛ فرضت له في ألفين، وفرضت لي في ألف وخمسمائة ولم يسبقني إلى شيء؟

فقال عمر: فعلت ذلك لأن زيد بن حارثة كان أحبَّ إلى رسول اللَّه ﷺ من عمر، وأن أسامة كان أحبَّ إلى رسول اللَّه ﷺ من عبد اللَّه بن عمر.

وحدثني يحيى بن سعيد عن خارجة بن مصعب بن عبد اللَّه بن عمر عن نافع أو غيره - هكذا قال يحيى - عن ابن عمر: أنه لما كلَّم أباه في ذلك قال له: إن زيدًا كان أحب إلى رسول اللَّه ﷺ من أبيك، وإن أسامة كان أحب إليه منك) [٥].

الفيء للأمة كلها:

قال الطبري: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن عطية عن أصحابه. والضحاك عن ابن عباس، قال: لما افتتحت القادسية، وصالح من صالح من أهل السواد، وافتتحت دمشق، وصالح أهل دمشق قال عمر للناس: اجتمعوا فأحضروني

---

(١) الفضول: زيادة الأموال.
(٢) التزجية: الكفاف.
(٣) لم يجامعهما: لم يجتمع معهما.
(٤) تاريخ الطبري (٢/٤٥٣، ٤٥٤).
(٥) الأموال للقاسم بن سلام أبي عبيد، (ص ٢٨٩، ٢٩٠)، (ط٢)، (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام؟ فاجتمع رأي عمر وعلي على أن يأخذوا من قِبل القرآن. فقالوا:

- ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ [الحشر: ٧] يعني: من الخمس - ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ أي إلى الله وإلى الرسول. من الله الأمر، وعلى رسول الله القَسم ﴿ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

- ثم فسَّروا ذلك بالآية التي تليها ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾.

- فأخذوا الأربعة أخماس على ما قسَّم عليه الخمس، فيمن بدئ به وثني وثلث. وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم.

- ثم استشهدوا على ذلك أيضًا: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ [الأنفال: ٤١] فقسم الأخماس على ذلك.

- واجتمع على ذلك رأي عمر وعلي، وعمل به المسلمون بعده.

- فبدأ بالمهاجرين، ثم بالأنصار، ثم التابعين الذين شهدوا معهم وأعانوهم. ثم فوَّض الأعطيةَ من الجزاء على من صالح أو دعي إلى الصلح من جزائه مردود عليهم بالمعروف. وليس في الجزاء أخماس، إنما الجزاء لمن منع الذمة، ووفى لهم ممن وَلي ذلك منهم ولمن لحق بهم فأعانهم. إلّا أن يؤاسوا بفضلة من طيب أنفسٍ منهم من لم ينل مثل الذي نالوا) [١].

والأرض لسكانها الأصليين وعليهم الخراج. والخراج لجميع المسلمين:

قال أبو عبيد: (... كل بلاد أخذت عُنْوة فرأى الإمام ردها إلى أهلها، وإقرارها في أيديهم على ذمتهم ودينهم كفعل عمر بأهْل السواد، وإنما أخذ عنوة على يدي سعد، وكذلك بلاد الشام كلها عنوة ما خلا مدنها، على يدي يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة، وأبي عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد. وكذلك الجبل أخذ عنوة في وقعة جلولاء ونهاوند على يدي سعد بن أبي وقاص، والنعمان بن مُقَرِّن وكذلك الأهواز أو أكثرها. كذلك فارس على يدي أبي موسى الأشعري، وعثمان بن أبي العاص وعتبة بن غزوان، وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ. وكذلك المغرب على يدي عبد الله بن سعد بن أبي سرح) [٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٥٤).

(٢) الأموال لأبي عبيد (١٣٢، ١٣٣).

أرض العراق:

وندع الحديث عنها لأستاذنا الحبيب الأديب علي الطنطاوي رحمه الله [١] في كتابه: أخبار عمر: (وأما المشكلة الرابعة فقد تجلَّت لعمر لما فتح سواد العراق، ورأى أن مثل هذا الفتح لا يكون كل يوم، وأنها إذا قسمت هذه الأراضي بين المقاتلين لم يبقَ شيء لمن بعدهم ولم يبقَ لبيت المال مورد ثابت. ولم يكن معه نص من كتاب ولا سنة ليعتمد عليه، ولم يكن يستبد برأيه فعمد إلى المشورة، فدعا كبار الصحابة فاستشارهم. فرأى عامتهم أن يقسمه، وكان بلال بن رباح من أشدهم في ذلك. وكان رأي عمر أن يتركه ولا يقسمه) فقال: اللَّهم اكفني بلالًا وأصحابه. ومكثوا يبحثون في يومين أو ثلاثة ثم قال عمر: إني قد وجدت حجة: قال اللَّه تعالى في كتابه:

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحشر: ٦] حتى فرغ من شأن بني النضير. فهذه عامة في القرى كلها. ثم قال: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧] ثم قال: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨]. ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] فهذا فيما بلغنا واللَّه أعلم للأنصار خاصة. ثم لم يرضَ حتى خلط بهم غيرهم فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠]. فكانت هذه عامة للمقاتلين وغيرهم. فكيف أقسمها بينهم، فيأتي من بعدهم فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت، وورثت عن الآباء وحيزت؟ ما هذا برأي.

---

(١) أخبار عمر للطنطاوي (٩٤).

فقال له عبد الرحمن بن عوف: فما الرأي؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء اللَّه عليهم.؟!

فقال عمر: ما هو إلا كما تقول، ولست أرى ذلك. واللَّه لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل. بل عسى أن يكون كلًّا على المسلمين. فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها، وأرض الشام بعلوجها، فما يسد به الثغور؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق.

فأكثرو على عمر وقالوا: أتقف ما أفاء اللَّه علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا؟ فكان عمر لا يزيد على أن يقول: هذا رأي. قالوا: فاستشر. قال: فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا.

أما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تُقسَّم لهم حقوقُهم. ورأى عثمان وعلي وطلحة وابن عمر رأيَ عمر..) [1].

(وكان هؤلاء المستشارون بمثابة المجالس النيابية في هذه الأيام، وكان عمر بمثابة رئيس الدولة الذي يملك حل المجلس ودعوة غيره، فصرفهم) [2].

(وأرسل إلى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس، وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم) (فلما اجتمعوا ألقى عليهم كلمةً قرَّر فيها الأسلوب المثالي في الحكم، وعرض فيها حجته، وترك لهم الحرية في الموافقة أو المخالفة).

(فحمد اللَّه وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حُمِّلت من أموركم. فإني واحد كأحدكم. وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني. ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي. معكم من اللَّه كتاب ينطق بالحق، فواللَّه لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق.

قالوا: قُل نسمعْ يا أمير المؤمنين.

قال: قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم، وإني أعوذ باللَّه أن أركب ظلمًا. لئن كنت ظلمتهم شيئًا هو لهم، وأعطيتهم غيره لقد شقيت، ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى، وقد غنمنا اللَّه أموالهم وأرضهم

---

(١) الخراج لأبي يوسف (٢٩، ٣٠).

(٢) أخبار عمر للطنطاوي (٩٦).

وعلوجهم. فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه، وأنا في توجيهه. وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها، وأضع عليهم فيها الخراج. وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئًا للمسلمين: المقاتلة والذرية، ولمن يأتي من بعدهم. أرأيتم هذه الثغور؟ لا بد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر. لا بد من شحنها بالجند، وإدرار العطاء عليهم فمن أين يُعطَى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج؟

فقالوا جميعًا: الرأي رأيك. فنِعْمَ ما قلت وما رأيت. إن لم تشحن هذه الثغور، وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به، رجع أهل الكفر إلى مدنهم.

مساحة أرض السواد:

فقال: قد بانَ لي الأمر. فمَن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها، ويضع على العلوج ما يحتملون؟

فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا: تبعثه إلى أهم من ذلك، فإن له بصرًا وعقلًا وتجربة.

فأسرع إليه عمر، فولَّاه مساحة أرض السواد.

فأدت جباية سواد الكوفة، قبل أن يموت بعام مائة ألف ألف درهم.

والدرهم يومئذ درهم ودانقان ونصف. وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال) (١).

(ويقال إن حدّ السواد الذي وقعت عليه المساحة من لدن تخوم الموصل مادًّا مع الماء إلى ساحل البحر، ببلاد عبادان من شرقي دجلة. هذا طوله. أما عرضه فحده منقطع الجبل من أرض حلوان إلى منتهى طرف القادسية المتصل بالعذيب من أرض العرب، فهذه حدود السواد، وعليه وقع الخراج.

وكان أبو حنيفة يقول: هي كلُّ أرضٍ بلغها ماءُ الخراجِ) (٢).

* * *
* *
*

---

(١) الخراج لأبي يوسف (٢٩ - ٣١).

(٢) الأموال لابن زنجويه (١/٢٤٥).



الفصل الخامس

من فتوح سنة ست عشرة

لسان البر في العتيق:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد والمهلب وعمرو وسعيد قالوا:

عهِد عمر إلى سعد حين أمره بالسير إلى المدائن أن يُخَلِّف النساء والعيال بالعتيق، ويجعل معهم كثفًا من الجند، ففعل. وعهد إليه أن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلُفُون المسلمين في عِيَالَاتِهم. قالوا: وكان مقام سعد بالقادسية بعد الفتح شهرين في مكاتبة عمر في العمل بما ينبغي. فقدّم زهرة نحو اللسان - واللسان لسان البر الذي أدلعه في الريف. وعليه الكوفة اليوم، والحيرة قبل اليوم - والنَّخِيرْجَان مُعَسْكِرٌ به. فارفضَّ ولم يثبت حين سمع بمسيرهم إليه، فلحق بأصحابه. قالوا: فكان مما يلعب به الصبيان في العسكر، وتلقيه النساء عليهم وهم على شاطئ العتيق أمر كان النساء يلعبن به في زَرُود وذي قار، وتلك الأَمْوَاهُ حين أمروا بالسير في جُمادى إلى القادسية. وكان كلامًا أبدن فيه كالأوابد من الشعر؛ لأنه ليس بين جمادى ورجب شيء:

العَجَبُ كُلُّ العَجَبْ ... بَيْنَ جُمَادَى وَرَجَبْ

أَمْرٌ قَضَاهُ قَدْ وَجَبْ ... يُخْبِرُهُ مَنْ قَدْ شَجَبْ

تَحْتَ غُبَارٍ وَلَجَبْ) [١].

* * *

لقد كانت الحيرة رمز عز العرب في الجاهلية، وهي عاصمة المناذرة. ولقد سقطت الحيرة أكثر من مرة بيد الجيوش الإسلامية، ثم عاد الفرس فسيطروا عليها، وقد انسحب المسلمون منها طواعية حين حدد عمر ﷺ الحرب على الحدود العربية الفارسية. وكانت القادسية هي المحور التاريخي الفاصل بين عهدين؛ عهد الإمبراطورية الفارسية، ويعيش العرب في عزِّها في الحيرة. وعهد تحرك الإسلام لفتح فارس بعد القادسية.

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٥٤).

والمداولات والمكاتبات التي كانت بين سعد وعمر تشبه تمامًا المكاتبات والمداولات التي كانت بين أبي بكر ﷺ وخالد بن الوليد يوم فتح الحيرة. ولم تصدر أوامر الصديق بمجاوزه الحيرة. ولم يرد أن يفتح جبهة فارس، وجبهة الشام مشتعلة. بينما اتخذ أمير المؤمنين عمر ﷺ قراره النهائي بالتوجه إلى المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية. **وكانت على أربع مراحل:**

١ – **المرحلة الأولى:** فتح لسان البر والذي كانت الحيرة مركز التجمع فيه. وكان النَّخِيْرجَان قائد الفرس فيها.

٢ – **المرحلة الثانية:** فتح بُرْس حيث كان بُصبُهرى قائد الفرس فيها.

٣ – **المرحلة الثالثة:** فتح بابل.

٤ – **المرحلة الرابعة:** فتح بَهُرَسِير على رواية سيف.

المرحلة الأولى

فتح لسان البر

(والذي كانت الحيرة مركز التجمُّع فيه)

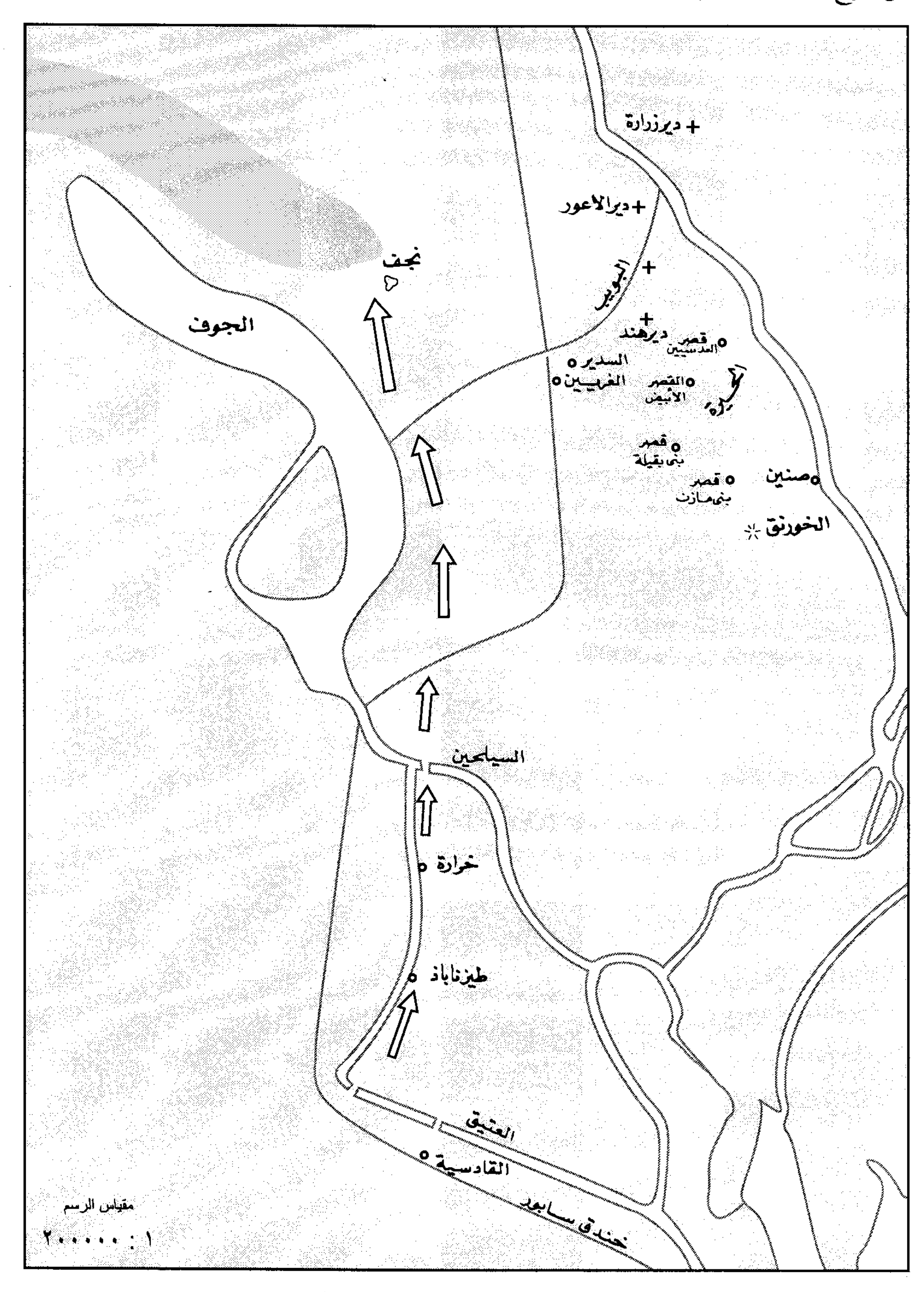
وفي حديثنا عن فتح الحيرة من جديد. لا نلقي النَّخِيرْجَان مستعدًّا للمواجهة. وفرَّ بجيشه قبل وصول الجيش الإسلامي إليه. وكانت تعليمات أمير المؤمنين بأن لا تخلى الأرض من القواعد الإسلامية، فلا بد أن يبقى في القادسية قوة قادرة على حمايتها. وحماية العيالات من النساء والأطفال المقيمة فيها. وحتى لا يحس المجاهدون المقيمون على حماية الثغور والأطفال والنساء بالغبن عاملهم أمير المؤمنين ﷺ تمامًا كمعاملة الفاتحين للثغور الجديدة. (وعهد إليه أن يشركهم في كل مغنم).

أما العيالات والصبيان، فهم ينشدون أناشيد النصر وأهازيج الفرح. وذلك حين غادرهم آباؤهم إلى الحيرة ولسان البر كله. يرون به النصر بين جمادى ورجب:

الـعَـجَـبُ كُلُّ الـعَـجَـبْ ... بَـيْـنَ جُـمَـادَى وَرَجَـبْ

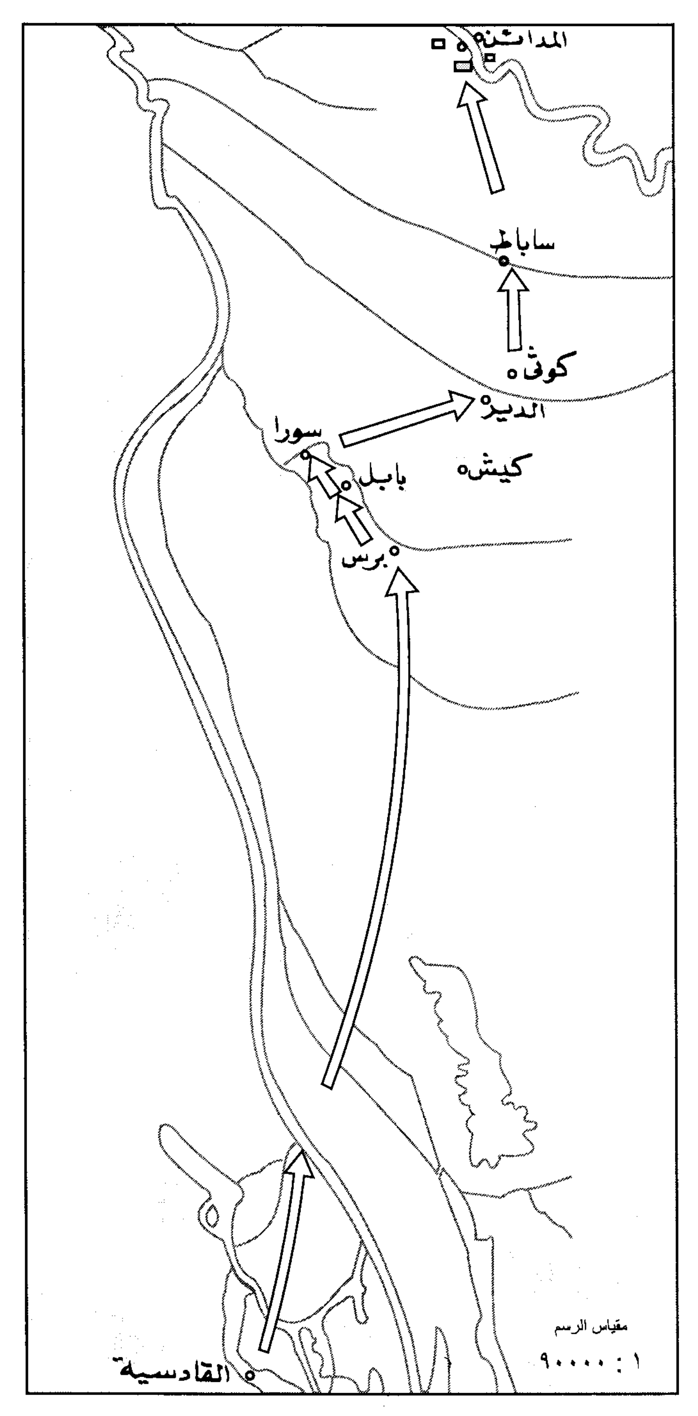
أَمْـرٌ قَـضَـاهُ قَـدْ وَجَـبْ ... يُـخْـبِـرُهُ مَـنْ قَـدْ شَـجَـبْ

تَـحْـتَ غُـبَـارٍ وَلَـجَـبْ



المطاردة بعد القادسية

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٧٦) خريطة (٤٤))



المسير إلى المدائن

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٧٧) خريطة (٤٥))

المرحلة الثانية

يوم بُرْس

قال ابن جرير: (ثم إن سعدًا ارتحل بعد الفراغ من أمر القادسية كله. وبعد تقديم زُهرة بن الحَوِيَّة في المقدمات إلى اللسان.

ثم أتبعه عبد اللَّه بن المعتم.

ثم أتبع عبد اللَّه شرحبيل بن السِّمْط.

ثم أتبعهم هاشم بن عتبة. وقد ولاه خلافته - عمل خالد بن عُرْفُطَة - وجعل خالدًا على الساقة ثم أتبعهم وكل المسلمين فارس مؤدٍّ قد نقل اللَّه إليهم ما كان في عسكر فارس من سلاح وكراع ومال لِأيام بقين من شوال. فسار زهرة حتى ينزل الكوفة - وهي موطن الحيرة. والكوفة كل حصباء حمراء وسهلة حمراء مختلطتين - ثم نزل عليه عبد اللَّه وشرحبيل وارتحل زهرة حين نزلا عليه نحو المدائن. فلما انتهى إلى بُرْس لقيه بها بُصبُهرى في جمع فناوشوه فهزمهم فهرب بُصْبُهْرى ومن معه إلى بابل. وبها فالة القادسية وبقايا رؤسائهم النَّخِيرجَان، ومِهْران الرازي، والهُرمُزان، وأشباههم. فأقاموا واستعملوا عليهم الفَيْرُزان) [(١)].

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن النضر عن السري عن ابن الرفيل عن أبيه قال: طعن زهرة بُصْبُهْرَىٰ في يوم بُرْس. فوقع في النهر، فمات من طعنته بعدما لحق بابل، ولما هزم بصبهرى أقبل بسطام دهقان بُرس، فاعتقد من زهرة، وعقد له الجسور، وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل) [(٢)].

كان القائد الجديد الذي تولَّى عبء مواجهة المسلمين في بُرس هو بُصْبُهرى. ويظهر أنه معتد بنفسه، ولم يتعظ بالهزائم التي مُنِيَ بها الفرس في أعظم قياداتهم. بل حسب أنه يرجع عقارب الساعة إلى الوراء. فلم تحتمل المناوشة معه إلا فترة وجيزة. وقرر أن يتعرض لقائد المسلمين زهرة ﷺ. والذي لم يتحرك إلا بعد أن ترك مكانه للقائدين اللذين التحقا به؛ عبد اللَّه بن المعتم، وشرحبيل بن السِّمط.

فزهرة ﷺ مطمئن إلى ظهره. فلاحق بصبهرى وطعنه حين لاذ بالفرار. وكانت

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٥٥).

(٢) المصدر نفسه (٤٥٥).

الطعنة قاتلة أَوْدَتْ به بعد وصوله إلى بابل، حيث تجمعت القوات الفارسية كلها هناك في محاولة لإيقاف الزحف الإسلامي القادم.

والتقى هناك في بابل أمهر القادة: النَّخِيرجان ومِهران الرازي والهرمزان، وبُصبُهرى.

فقد كانت هذه الأسماء تلمع في سماء فارس، وتبث الخوف والحذر في الصف الإسلامي. أما الآن فقد أصبحت أسماء فارغة لا تعني شيئًا عند المسلمين.

ورأى دهقان بُرس هروب بُصبهرى والجيش معه من برس. (فاعتقد من زهرة وعقد له الجسور).

تعاقد معه بصفته الحاكم الجديد لبُرس. وأقام الجسور المقطعة المخربة. وصار عينًا للمسلمين على فارس، ينقل لهم أنباء تجمعهم الجديد في بابل.

المرحلة الثالثة

يوم بابل

(قالوا: ولما أتى بسطام زهرة بالخبر عن الذين اجتمعوا ببابل من فُلَّال القادسية. أقام وكتب إلى سعد بالخبر.

ولما نزل سعد على من بالكوفة مع هاشم بن عتبة، وأتاه الخبر عن زهرة باجتماع الفرس ببابل على الفَيرزان، قدَّم عبد اللّه، وأتبعه شرحبيل وهاشمًا. ثم ارتحل بالناس، فلما نزل عليهم بُرس قدم زهرة فأتبعه عبد اللّه وشرحبيل وهاشمًا. واتبعهمُ فنزلوا على الفيرزان ببابل، وقد قالوا: نقاتلهم دستًا [١] قبل أن نفترق. فاقتتلوا ببابل فهزموهم بأسرع من لفت الرداء. فانطلقوا على وجوههم، ولم يكن لهم همة إلا الافتراق.

- فخرج الهرمزان متوجهًا نحو الأهواز فأخذها فأكلها ومِهْرِجَان قَذَقْ [٢].

- وخرج الفيرزان معه حتى طلع على نهاوند، وبها كنوز كسرى فأخذها وأكل الماهَيْنِ [٣].

---

(١) دستًا: جمعًا.

(٢) مهرجان قذق: كورة واسعة ذات مدن وقرى قرب الصَّيمرة من نواحي الجبال عن يمين القاصدين حُلوان العراق إلى همذان في تلك الجبال. معجم البلدان (٥/٢٣٣).

(٣) الماهان: الدينور ونهاوند، إحداهما ماه البصرة والأخرى ماه الكوفة.

- وصمد النخيرجان ومهران الرازي للمدائن حتى عبرا بهرسير إلى جانب دجلة الآخر، ثم قطعا الجسر وأقام سعد ببابل أيامًا، وبلغه أن النَّخِيرجان قد خلّف شهريار دهقانًا من دهاقين الباب بكوثى [١] في جمع. فقدَّم زهرة ثم أتبعه الجنود. فخرج زهرة حتى ينزل على شهريار بكوثى بعد قتل فُيُومَان والفَرُّخَان فيما بين سُورَا والدير..) [٢].

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف، عن النضر بن السري عن ابن الرفيل عن أبيه قال: كان سعد قدَّم زهرة من القادسية فمضى متشعبًا في حربه وجنده. ثم لم يلقَ جمعًا فهزمهم إلا قُدّم، فأتبعهم لا يمرون بأحد إلا قتلوه ممن لحقوا به منهم أو أقام لهم. حتى إذا قَدِمهُ من بابل قدم زهرةَ بُكيرُ بن عبد اللَّه الليثي، وكثيرُ ابن شهاب السعدي أخا الغلاق حين عبر الصَّراة. فيلحقون بأخريات القوم وفيهم فُيُومَان والفَرُّخَان؛ هذا مِيسَانِيٌّ وهذا أهوازيٌّ.

فقتل بُكير الفرخانَ.

وقتل كثيرٌ فيومانَ بسورا. ثم مضى زهرة حتى جاوز سورا. ثم نزل، فأقبل هاشم حتى نزل عليه. وجاء سعد حتى ينزل عليهم. ثم قدَّم زهرة فسار تلقاء القوم، وقد أقاموا له ما بين الدير وكُوثَى، وقد استخلف النَّخِيرجان ومِهْران على جنودهما شهريار دهقان الباب، ومضيا إلى المدائن، وأقام شهريار هنالك، فلما التقوا بأكناف كوثى جيش شهريار وأوائل الخيل، خرج فنادى: ألا رجل، ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إليَّ حتى أُنكِّل به.

فقال زهرة: لقد أردت أن أبارزك، فأما إذا سمعت قولك، فإني لا أُخرج إليك إلا عبدًا فإن أقمت له قتلك إن شاء اللَّه بِبَغْيك. وإن فررت منه فإنما فررت من عبد. وكايده.

ثم أمر أبا نباتة - نائل بن جعشم الأعرجي - وكان من شجعان بني تميم، فخرج إليه. ومع كل واحد منهما الرمح، وكلاهما وثيق الخلق، إلا أن الشهريار مثل الجمل. فلما رأى نائلًا ألقى الرمح ليعتنقه، وألقى نائل رمحه ليعتنقه.

وانتضيا سيفيهما فاجتلدا ثم اعتنقا، فخرَّا عن دابتيهما، فوقع على نائل كأنه بيت فضغطه بفخذه، وأخذ الخنجر وأراد حل أزرار درعه، فوقعت إبهامه في فم نائل فحطم

---

(١) كوثى: مدينة بسواد العراق في أرض بابل. معجم البلدان (٤/٤٨٧).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٥٥).

عظمها، ورأى منه فتورًا، فثاوره فجلد به الأرض، ثم قعد على صدره، وأخذ بخنجره فكشف درعه عن بطنه، فطعنه في بطنه وجنبه حتى مات، فأخذ فرسه وسواريه وسلبه وانكشف أصحابه، فذهبوا في البلاد.

وأقام زهرة بكوثى حتى قدم عليه سعد، فأتى به سعدًا. فقال سعد: عزمت عليك يا نائل بن جعشم لما لبست سواريه وقباءه ودرعه، ولتركبن برذونه. وغَنَّمه ذلك كله. فانطلق فتدرع بسلبه، ثم أتاه في سلاحه على دابته. فقال: اخلع سواريك إلا أن ترى حربًا فتلبسهما. فكان أول رجل من المسلمين سُوِّر بالعراق.

كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف.. قالوا: فأقام سعد بكوثى أيامًا. وأتى المكان الذي جلس فيه إبراهيم ﷺ بكوثى. فنزل جانب القوم الذين كانوا يبشرون إبراهيم، وأتى البيت الذي كان فيه إبراهيم محبوسًا. فنظر إليه، وصلَّى على رسول اللَّه وعلى إبراهيم وعلى أنبياء اللَّه صلوات اللَّه عليهم، وقرأ ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾)[1].

كبار قادة الفرس، وكبار قادة العرب المسلمين يلتقون في بابل عاصمة الجنوب العراقي ومركز أكبر دول التاريخ، وأميرها حمورابي.

وحيث إن الزمن قد دارت دورته؛ فلا نجد حربًا ضروسًا، مع كل هذه القيادات.. النَّخِيرَجان، ومِهْران الرازي، والهُرمزان، وأشباههم. وكذا زُهرة بن الحوية، وعبد اللَّه ابن المعتم، وشرحبيل بن السِّمط، وهاشم بن عتبة. وكان هؤلاء وهؤلاء أَبطال القادسية.

وشهدنا أهوال القادسية. أما هنا فماذا نشهد؟ (فاقتتلوا ببابل؛ فهزموهم في أسرع من لفت الرداء. فانطلقوا على وجوههم).

سبحان اللَّه. لقد أصبحت الريح مع المسلمين.

أما قادة الفرس فانطلقوا ينهبون خيرات فارس، بعيدًا عن مواجهة المسلمين حتى النَّخِيرَجان ومِهْران الرازي اللذين قصدا المدائن عاصمة الإمبراطورية تركوا قائدين من الدرجة الثانية لمواجهة المسلمين هما الفَرُّخَان، وفُيُومان؛ ولذلك اختار القادة المسلمون لمواجهتهم قادة من الدرجة الثانية:

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٥٦).

بكير بن عبد اللَّه الليثي، وكثير بن شهاب السعدي.

وماذا عن نتيجة المعركة بين القادة الأربعة؟

(فقتل بكيرٌ الفرخان، وقتل كثيرٌ فيومان.

وجاء دهقان الباب شهريار يتحدَّى المسلمين، وهَمَّ قائد المسلمين زهرة أن يخرج له، لكنه أراد أن يذل الدهقان قبل قتله لما وجد فيه من غطرسة واستعلاء وتحدٍّ. فقال له: لقد أردت أن أبارزك، فأما إذ سمعت قولك فإني لا أُخرج إليك إلا عبدًا. فإن أقمت له قتلك إن شاء اللَّه ببغيك، وإن فررت منه فإنما فررت من عبد.

ويقتل العبد القائد الفارسي، ويأخذ سلاحه ودرعه وفرسه، وكان أول من سُوِّر بالعراق.

ثم يستمر الزمن ونمضي في عمقه للوصول إلى فجر البشرية المؤمن الذي اتصل فيه الفجران معًا، من لدن إبراهيم إلى محمد عليهما الصلاة والسلام.

هذه حركة إبراهيم عليه السلام، مع جنده، مع وزرائه، مع أعدائه، مع محبسه، مع نصر اللَّه له... وقرأ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

المرحلة الرابعة

حديث بَهُرَسِير في ذي الحجة سنة خمس عشرة

قال أبو جعفر: (وكتب إلي السري عن شعيب عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد والنضر عن ابن الرفيل قالوا: إن سعدًا قدّم زهرة إلى بهرسير. فمضى زهرة من كوثى في المقدمات حتى ينزل بهرسير وقد تلقاه (شيرزاذ) بساباط بالصلح وتأدية الجزاء. فأمضاه إلى سعد. فأقبل معه وتبعته المجنبات.

وخرج هاشم، وخرج سعد في إثره، وقد فلّ زهرة كتيبة كسرى بوران حول (المظلم) وانتهى هاشم إلى مظلَّم ساباط. ووقف لسعد حتى لحق به. فوافق ذلك رجوع (المقرط) أسد لكسرى قد ألفه وتخيره من بين أسود المظلم. وكانت به كتائب كسرى التي تدعى بوزران. وكانوا يحلفون باللَّه كل يوم: لا يزول ملك فارس ما عشنا.

فبادر المقرِّط الناس حين انتهى إليهم سعد، فنزل إليه هاشم فقتله، وسمي سيفه المتن.

فقبّل سعد رأس هاشم، وقبل هاشم قدم سعد.

فقدَّمه سعد إلى بَهُرَسِير. فنزل إلى المظلم وقرأ: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فلما ذهب من الليل هدأة ارتحل. فنزل على الناس ببهرسير، وجعل المسلمون كلما قدمت خيل على بهرسير وقفوا ثم كبروا. فكذلك حتى نجز آخر من مع سعد. فكان مقامه بالناس على بهرسير شهرين، وعبروا في الثالث) [١].

لقد تتام الجيش الإسلامي في بهرسير بإمرة القائد العام سعد بن أبي وقاص، وهزمت الكتائب الضخمة التي كانت تحول دونه، والتي كانت تعلن: لا يزول ملك فارس ما عشنا وها هم قد أبيدوا، فأصبح ملك فارس على حافَّة الخطر.

وأنهى هاشم بن عتبة ﷺ ابن أخي سعد، أخطر ما واجهه المسلمون الأسد، المقرط - أسد كسرى المدرَّب - حيث قتله. فلم يتمالك عمه سعد إلّا أن يقبل رأس ابن أخيه على هذه البطولة، ولم يتمالك الأسد الهصور هاشم إلا أن يكبَّ على قدم عمه سعد فيقبلها. وكان التجمع الذي تمَّ في ذي الحجة. لنشهد الحصار والفتح لبهرسير في السنة التالية، السنة السادسة عشرة (وحجَّ بالناس في هذه السنة عمر ابن الخطاب. وكان عامله فيها على مكة عتاب بن أسيد (في العشرينيات) وعلى الطائف يعلى ابن أمية. وعلى اليمامة والبحرين عثمان بن أبي العاص (في العشرينيات) وعلى عمان حذيفة بن محصن، وعلى كور الشام أبو عبيدة بن الجراح. وعلى الكوفة وأرضها سعد ابن أبي وقاص (في الأربعينيات)، وعلى البصرة وأرضها المغيرة بن شعبة) [٢].

فتح بَهُرَسِير

في السنة السادسة عشرة

حصار مدينة بهرسير:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب قالوا:

لما نزل سعد على بَهُرَسِير، بثَّ الخيول، فأغارت على ما بين دجلة إلى من له عهد من أهل الفرات. فأصاب مائة ألف فلاح، فحسبوا. فأصاب كل منهم فلاحًا. وذلك أنهم كلهم فارس ببهرسير، فخندق لهم. فقال له (شيرزاذ) دهقان ساباط:

(١، ٢) تاريخ الطبري (٤٥٧/٢).

إنك لا تصنع بهؤلاء شيئًا، إنما هم علوج لأهل فارس لم يجروا إليك. فدعهم إليَّ حتى يفرق لكم الرأي، فكتب عليه بأسمائهم، ودفعهم إليه، فقال شيرزاذ: انصرفوا إلى قراكم.

وكتب سعد إلى عمر: إنا وردنا بَهُرَسِير بعد الذي لقينا فيما بين القادسية وبهرسير فلم يأتنا أحد لقتال. فبثت الخيول، فجَمعْتُ الفلاحين من القرى والآجام، فرِ رأيك؟

فأجابه: إن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو أمانهم، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به.

فلما جاء الكتاب خلَّى عنهم، وراسله الدهاقين. فدعاهم إلى الإسلام والرجوع، أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة. فتراجعوا على الجزاء والمنعة - ولم يدخل في ذلك ما كان لآل كسرى - ومن دخل معهم. فلم يبقَ في غربي دجلة إلى أرض العرب سواديٌّ إلا أمِن واغتبط بملك الإسلام واستقبلوا الخراج)[1].

نرفع هذا الأمر هدية إلى دعاة حقوق الإنسان في الأرض، وإلى الذين يتحدثون عن محاربة الإرهاب والعنف. والعنف في لغتهم ترويع الآمنين، وتعريض أرواح المدنيين للخطر من الأطفال والنساء والرجال.. ونرفعها إلى دعاة المجتمع المدني في الأرض؛ ليعرفوا أن تاريخ الإنسان قد ابتدأ في الأرض منذ أن استلم الإسلام مِقْوَد التاريخ للبشرية.

إنهم مائة ألف. يمكن أن يكونوا عبيدًا. ويعملون لأسيادهم الفاتحين أجراء؛ هم وزوجاتهم وأولادهم، وتبقى ملكية الأرض للإقطاعيين. وهذا ما وقع في تاريخ البشرية النَّكد، حيث لم يكن مقود التاريخ بيد المسلمين. نشأ عهد الإقطاع ومآسيه التي سادت البشرية قرونًا طوالًا.

إنه الإسلام الذي تعامل معهم أحرارًا آدميين يعملون بأرضهم لهم ولأولادهم من بعدهم ويؤدون الخراج عن الأرض، والجزية عن النفس، ويضمن الإسلام لهم الحماية، وأن يموت المسلمون دونهم أن يمسُّوا بسوء.

إنها بلاد ما بين النهرين، جنة اللَّه في أرضه، سواد العراق، يتحرَّر كله من العبودية (فلم يبقَ في غربي دجلة إلى أرض العرب سواديٌّ إلا أمِنَ واغتبط بملك الإسلام)

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٥٨).

الحصار:

(.. نزل سعد على بهرسير. وعليها خنادقها وحرسها، وعدة الحرب. فرموهم بالمجانيق والعرَّادات [١] فاستصنع سعد شيرزاذ المجانيق، فنصب على أهلها ببهرسير عشرين منجنيقًا فشغلوهم بها... فلما نزل سعد على بهرسير كانت العرب مُطِيفَة بها، والعجم مُتحصِّنة فيها، وربما خرج الأعاجم يمشون على المسنِيَّات المشرفة على دجلة في جماعتهم وعدتهم لقتال المسلمين. فلا يقومون لهم. فكان آخر ما خرجوا في رجَّالة وناشبة، وتجردوا للحرب، وتبايعوا على الصبر فقاتلهم المسلمون. فلم يثبتوا لهم. فكذبوا وتولوا.

وكانت على زهرةَ ابنِ الحوية درعٌ مفصومة. فقيل له: لو أمَرتَ بهذا الفَصْمِ فسُرِدَ؟!

فقال: ولِمَ؟ قالوا: نخاف عليك منه.

قال: إني لكريم على اللَّه أن ترك سهم فارس الجند كلهم ثم أتاني من هذا الفصم حتى ثَبتَ فِيَّ.

فكان أول رجل أصيب من المسلمين يومئذ بنُشَّابة. فثبت فيه من ذلك الفصم. فقال بعضهم: انزعوها منه.

فقال: دعوني فإن نفسي معي ما دامت فيَّ. لعلي أن أصيب منهم بطعنة أو ضربة أو خطوة فمضى نحو العدو. فضرب بسيفه (شهربراز) من أهل إصطخر. فقتله، وأحيط به فقتل وانكشفوا.

وعن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد عن عائشة أم المؤمنين قالت: لما فتح اللَّه ﷻ وقُتِل رستم وأصحابه، وفُضَّت جموعهم، اتبعهم المسلمون حتى نزلوا المدائن وقد ارفضَّتْ [٢] جموع فارس، ولحقوا بجبالهم، وتفرقت جماعتهم وفرسانهم. إلا أن الملك مقيم في مدينتهم، معه من بقي من أهل فارس على أمره) [٣].

لقد كانت بهرسير العاصمة الاحتياطية الأخيرة قبل المدائن عاصمة الإمبراطورية

---

(١) العرّادة: آلة من آلات الحرب القديمة وهي منجنيق صغير.

(٢) ارفضت: تفرَّقت.

(٣) تاريخ الطبري (٤٥٨/٢، ٤٥٩).

الفارسية. وكانت هي درعها الواقي. ومن أجل ذلك ما أن نزل المسلمون بهرسير حتى ظهر لهم القصر الأبيض.

وكما استفاد رسول اللَّه ﷺ من عبقرية سلمان ﷺ في التخطيط والتنفيذ لحفر الخندق، وأسقط هجوم العدو، وكما استفاد سعد نفسه ﷺ من عبقرية الفرس المسلمين في القضاء على سلاح الفيلة الفاتك وإبطال مفعوله، ها هو خال رسول اللَّه ﷺ يستفيد من عبقرية شيرازاذ (دهقان ساباط) الذي انضم إلى معسكر المسلمين، استفاد من عبقريته في صنع المجانيق التي استعملت في ضرب حصون بهرسير.

فبهرسير إذن هي المدائن الصغرى، ولقد اضطروا أن يخرجوا أكثر من مرة من حصونهم لقتال المسلمين، وما من مرة إلا يجدونهم يقظين، حذرين جاهزين للمواجهة، ويضطرون للانسحاب بعد فترة وجيزة، ثم كانت المحاولة الأخيرة التي تبايعوا فيها على الموت، وتعاقدوا على الصبر والثبات، وخرجوا من حصونهم يقاتلون المسلمين بأشد ما يكون نكاية وقتالًا. ولكن ذلك كله لم يجدهم نفعًا (فقاتلهم المسلمون: فلم يثبتوا لهم وكذبوا وتولوا).

ومما ساعد في انهيار المعنويات لدى جيشهم مقتل قائدهم شهربراز الإصطخري. ومن أعجب ما رويَ أن قاتله زهرة بن الحوية. هذا وليس عجيبًا أن يقتل زهرةُ شهربراز لو خرجا في مبارزة متكافئة، إنما العجيب أن يقتل زهرة شهربراز، والسهم في كبد زهرة لم ينزعه منه حرصًا على الشهادة من جهة، وحرصًا على قتل ملكهم من جهة أخرى. قَاتَلَهُ وهو مثخن بالجراح حتى قتله ثم أحيط به فقتل. وانكشف العدو.

لقد طارت أفئدة الفرس من هذه البطولات، وقد يئسوا من تحقيق نصر يستعيدون به ما تحطَّم لهم من أمجاد. لكن بقوا يأملون حتى اللحظة الأخيرة أن يوقفوا زحف المسلمين نحو المدائن ومن أجل ذلك صبروا وصابروا ورابطوا، ولا جدوى.

﴿ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٦٠]

إنه الجيل السعيد الذي يعيش مع اللَّه. والذي يحلم بالشهادة مثل حلمه بالنصر أو أكثر.. فماذا خبأ لهم اللَّه؟؟؟

الكرامة الإلهية في فتح بهرسير:

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن سماك بن فلان الهجيمي عن أبيه. ومحمد بن عبد اللَّه عن أنس بن الحليس قال:

بينما نحن محاصرو بَهُرَسِير بعد زحفهم وهزيمتهم، أشرف علينا رسول فقال: إن الملك يقول لكم: هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يَلينا من دجلة وجبلنا. ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟

أما شبعتم لا أشبع اللَّه بطونكم؟!

فقال لهم أبو مُفَزِّر الأسود بن قطبة، وقد أنطقه اللَّه بما لا يدري هو ولا نحن فرجع الرجل، ورأيناهم يقطعون إلى المدائن.

فقلنا: يا أبا مُفَزِّر ماذا قلت له؟

فقال: لا والذي بعث محمدًا بالحق ما أدري ما هو؟

إلا أن عليَّ سكينة. وأرجو أن أكون قد أُنطِقْتُ بالذي هو خير.

وانتاب الناس يسألونه حتى سمع بذلك سعد.

فجاءنا فقال: يا أبا مُفَزِّر ما قلت؟ فواللَّه إنهم لهراب.

فحدَّثه بمثل حديثه إيانا. فنادى في الناس، ثم نهد بهم؛ وإن مجانيقنا لتخطر عليهم، فما ظهر على المدينة أحد.

وخرج إلينا رجل نادى بالأمان فأمناه. فقال: إن بقي في المدينة أحد فما يمنعكم.

فتسورها الرجال، واقتتحناها فما وجدنا فيها شيئًا ولا أحدًا، إلا أسارى أسرناهم خارجًا منها.

فسألناهم وذلك الرجل: لأي شيء هربوا؟

فقالوا: بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح، فأجبتموه بأنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدًا حتى نأكل عسل أفزندين بأترج كوثى.

فقال الملك: وا ويله! إن الملائكة لتتكلم على ألسنتهم، ترد علينا وتجيبنا عن

العرب، واللَّه لئن لم يكن كذلك، ما هذا إلا شيء ألقي عليَّ في هذا الرجل لننتهي، فأرزوا إلى المدينة القصوى) [(١)].

إنها المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة، كل فرد فيه قديس عابد للَّه يضع اللَّه الكرامة على لسانه ويديه. فلم يكن جواب الصلح على لسان سعد خال رسول اللَّه ﷺ ورابع من أسلم، وأحد العشرة المبشرين. إنما ظهرت الكرامة على يد رجل لم نعرف عن تاريخه كله إلا هذه الحادثة. وهو لا يدري مقامه عند اللَّه، ولا عند المسلمين، فليس من صلاحياته أصلًا أن يجيب على لسان قائد الجيش سعد أو هاشم ﷺ إنما هو أمر القيادة، وكان من الممكن أن يعاقب الجندي الذي تنطع للإجابة وليس ذلك من حقه، أن يرفض صلحًا أو يقبله. بل حتى ليس من صلاحيات سعد ﷺ نفسه، إنه صلاحيات أمير المؤمنين. ولكن كيف يفكر سعد ﷺ بعقوبته. وهو يرى القوم هُرّاب بعد جوابه وكلمته.

وهو الذي بثَّ الذعر في قلب ملك الفرس وقال:

« وا ويله! ألا إن الملائكة تتكلَّمُ على ألسنتهم ».

وصدق حدسه فعبقرية أبي مُفَزِّر كان يناسبها حتى أن يكذب ويدعي بأنه أفحمهم بالجواب. لكن أبا مُفَزِّر لا يدري ما قال ولا ما تكلم. وهو لا يدري مقامه عند ربه ﷻ. إنما كل ما استأنس به أنه ليس رجلًا عجولًا. إنما هو حليم ممن تغشاه السكينة أن يكون اللَّه تعالى قد ألقى على لسانه قول الحق الذي زلزل الباطل ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٩].

ولنشهد ترجمة الأسود بن قطبة أبو مُفزِّر:

والأسود بن قطبة أبو مُفَزِّر بفتح الفاء وتشديد الزاي المكسورة بعدها راء. قال الدارقطني في المؤتلف: شهد القادسية.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٥٩/٢) وسر ذعر الملك هو أن أبا مفزر تكلم بسرٍّ من أسرار الأسرة المالكة بفارس، واسم طعام خاص بهم وحدهم لا يعلمه من عامة الفرس أحدٌ، فضلًا عن أحد من العرب - أترج كوثى - وهو نوع فاخر من التمر - وعسل أفرندين - وهو عسل نحل مخصوص يجهز للأكاسرة وحدهم. فكيف علم أبو مفزر بهذا النوع من الأترج وهذا النوع من العسل في حين لا يعلم عنهما أحد من الفرس شيئًا، وهذا هنا هو سر ذعر الفرس وظنهم بإعانة الملائكة للمسلمين، وأنها تحارب معهم.

وله فيها أشعار كثيرة. وهو رسول سعد بن أبي وقاص بسبي جلولاء إلى عمر، وهو شاعر المسلمين في تلك الأيام.

ذكره سيف في الفتوح. وقال أيضًا: وكان مع خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر ومن شعره:

أَقَمْنَا عَلَى اليَرْمُوكِ حَتَّى تَجَمَّعَتْ جَلَائب رُومٍ فِي كتائبها العضل

وقال المرزباني في معجمه: شهد فتوح العراق وهو القائل:

أَلَا أَبْلِغَا عَنِّي العُرَيبَ رِسَالة فَقَدْ قُسِّمَتْ فِينَا فُيُوء الأَعَاجِمِ

وَدَرَّتْ عَلَينَا جِزْيَةَ القَومِ بِالَّذِي فَكَكْنَا بِهِ عنهم وُلَاة المَعَاصِمِ

والأَسْوَد هو الذي قال لرسول كسرى لما قال لهم: أما شبعتم؟

لا نصالحكم حتى نأكل عسل أفرندين بأترج كوثى. وذكر أن ذلك جرى على لسانه ولم يقصده، وما كان يفهم معناه) [1].

لقد شهدنا أضعف الجند سلوكًا أبا محجن الثقفي الذي حُبِسَ لتغنيه بالخمر. وكان أعظمهم شكيمة حتى ليحسبه المسلمون أن ملكًا نزل من السماء يقاتل معهم.

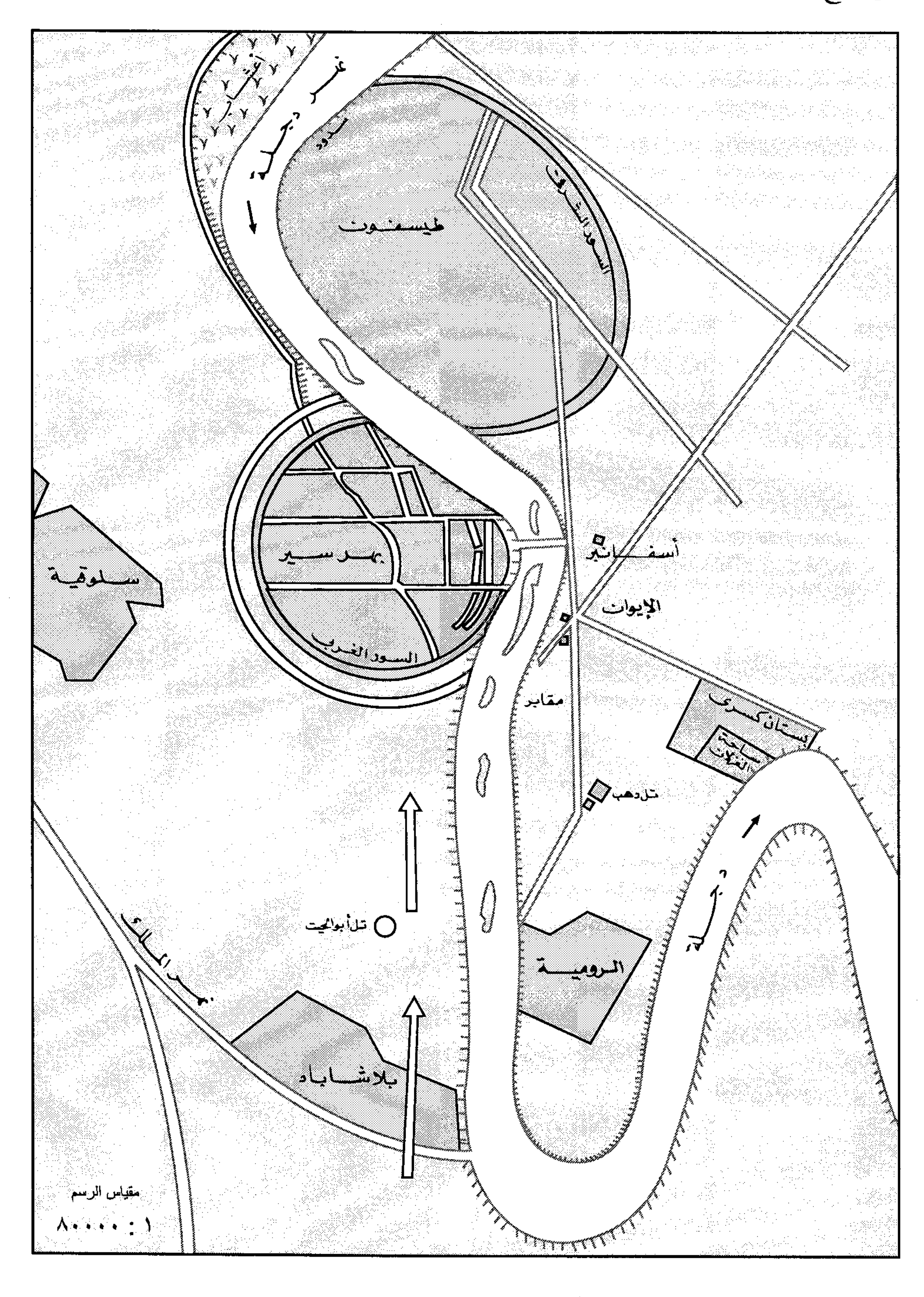
وها نحن نشهد ذلك الصحابي العظيم لا يدري أن اللّه اختاره ليجعل الكرامة على يديه. فيذعر القوم من جوابه ويمضون فُرَّارًا بعد صبرهم واصطبارهم. قال: ثم لم يدخلوا حتى ناداهم منادٍ: « واللّه ما فيها أحد. فدخلوها وما فيها أحد » وها هو ضرار ابن الخطاب ﵁ الذي أمضى عمره في حرب رسول اللّه ﷺ. وكان شعره من أشد ما هُجِي به المسلمون. وقتل عشرة من المسلمين في أحد. ها هو الآن أول من يشهد القصر الأبيض في المدائن فيصرخ:

(اللّه أكبر، أبيض كسرى. هذا ما وعد اللّه ورسوله، وتابعوا التكبير حتى أصبحوا. فقال محمد وطلحة: وذلك ليلة نزلوا على بَهُرَسير) [2].

---

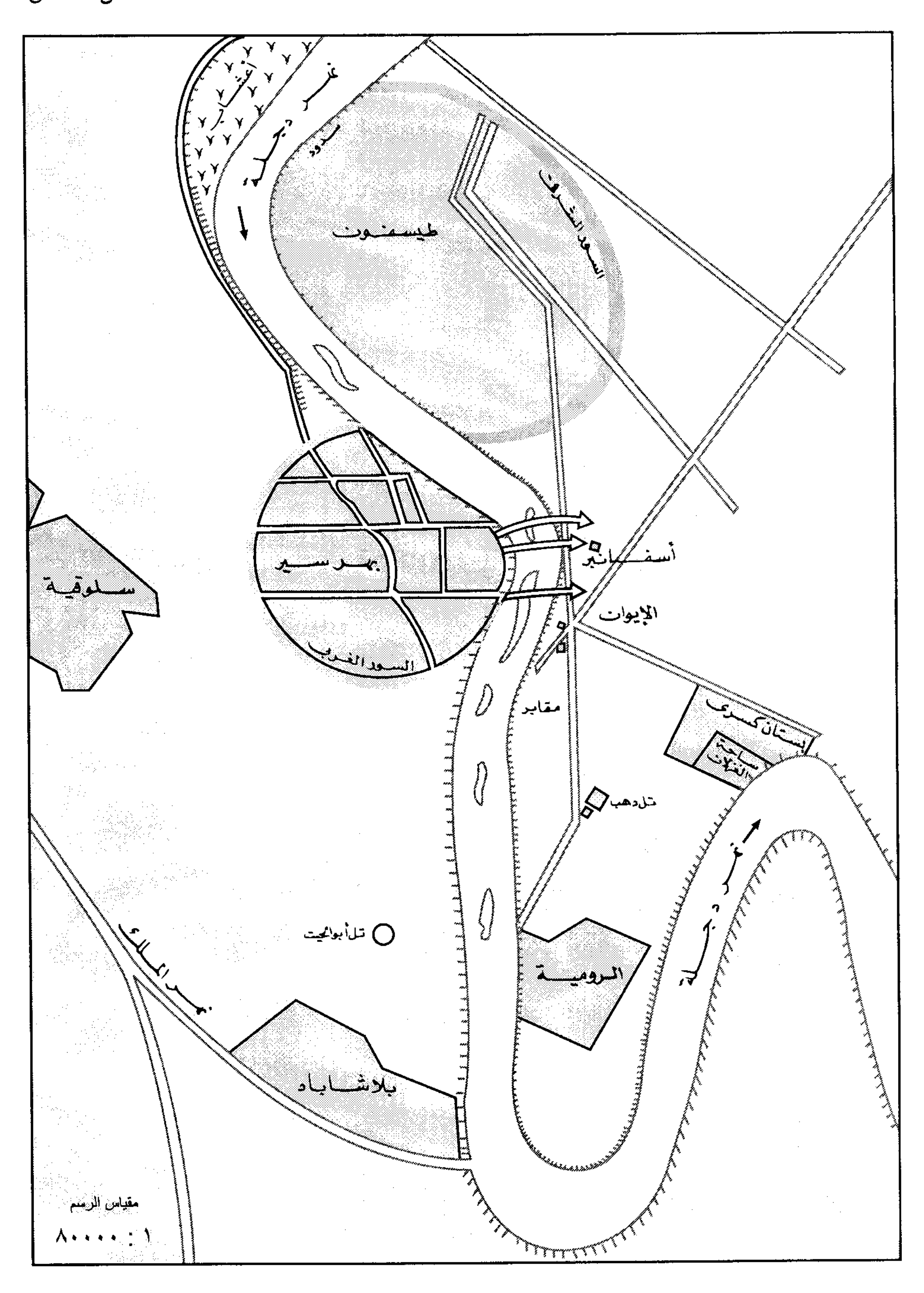
(١) الإصابة في تمييز الصحابة ت (٢٥٨).

(٢) تاريخ الطبري (٤٥٩/٢).



المسلمون يفتحون بهرسير

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٨١) خريطة (٤٦))



عبور نهر دجلة إلى أسفانبر وطيسفون

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٨٤) خريطة (٤٧))

ولنا وقفة مع ضرار بن الخطاب الفهري ﷺ الذي كان أعدى العدو للإسلام وأهله فلم يحضر موعود رسول الله ﷺ بفتح القصر الأبيض. إنما حضر ليدمر الإسلام والمسلمين.

(... قال ﷺ: « **صدقتم، ضَربْتُ ضربتي الأولى، فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها.**

ثم ضَربْتُ ضربتي الثانية، فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها.

ثم ضَربْتُ ضربتي الثالثة، فبرق منها الذي رأيتم، أضاء لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها... » [1].

(... وقال المنافقون: ألا تعجبون! يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل، يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم. وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا..) [2].

وفي رواية (لا يأمن أحدكم أن يخرج إلى حاجته)

فأين كان ضرارٌ آنذاك؟ **لنأخذ ثلاث لقطات منه:**

اللقطة الأولى: وهو الفارس الذي كان يعد بألفين يقتحم الخندق مع أربعة من أصحابه (فعبر عكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله، وعمرو بن عبد ود، وضرار ابن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب) فقتل علي ﷺ عمرو بن عبد ود وقتل الزبير نوفلًا، وهرب عكرمة وهبيرة.

اللقطة الثانية: وحمل ضرار بن الخطاب الفهري على عمر بن الخطاب بالرمح، حتى إذا وجد عمر مَسَّ الرمح رفعه عنه وقال: هذه نعمة مشكورة. فاحفظها يا ابن الخطاب. إني قد حلفت لا تمكنني يداي من رجل من قريش أبدًا..) [3].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٩٢).　　(٢) المصدر نفسه (٢/٩٢).

(٣) المغازي النبوية للواقدي (٢/٤٧١).

اللقطة الثالثة: حارب الإسلام بشعره في هذه المعركة. فكان مما قاله في المسلمين

(فَأَحْجَرْنَاهُمْ شَهْرًا كَرِيتًا   وَكُنَّا فَوْقَهُمْ كَالْقَاهِرِينَا
نُراوحهم وَنَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ   عَلَيْهِمْ فِي السِّلَاحِ مُدَجَّجِينَا
بِأَيْدِينَا صَوَارِمُ مُرْهَفَاتٌ   نَقُدُّ بِهَا المفَارِقَ وَالشُّئونَا
فَلَولَا خَنْدَقٌ كَانُوا لَدَيْهِ   لَدَمَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَا) [1]

وها هو ضرار ﷺ بقدر اللَّه على أبواب المدائن جندي في جيش أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب الذي مَنّ عليه بحياته في الخندق فلم يقتله.

وضرار نفسه هو الذي حاصر قصور الحيرة مع خالد بن الوليد ﷺ. وهذا هو على أبواب المدائن يستعد مع المسلمين لفتحها كما رآها رسول اللَّه ﷺ قبل عشر سنين.

* * *
* *
*

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣٥٣/٣) وأحجرناهم.: حصرناهم وشهرًا كريتًا: تامًّا كاملًا. والشئون: مجامع العظام في أعلي الرؤوس.

الفصل السادس

سقوط المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية

القرار الخطير:

قال أبو جعفر: (قال سيف: وذلك في صفر سنة ست عشرة قالوا: ولما نزل سعد بَهُرَسِير - وهي المدينة الدنيا - طلب السفن ليعبر بالناس إلى المدينة القصوى فلم يقدر على شيء. ووجدهم قد ضموا السفن. فأقاموا ببهرسير أيامًا من صفر، يريدونه على العبور فيمنعه الإبقاء على المسلمين، حتى أتاه أعلاج فدلُّوه على مخاضة تخاض إلى صلب الوادي. فأبى وتردد في ذلك. وفجأهم المد. فرأى رؤيا أن خيول المسلمين اقتحمتها فعبرت. وقد أقبلت من المد بأمر عظيم. فعزم لتأويل رؤياه على العبور وفي سنة جَوْدٍ صيفها متتابع، فجمع سعد الناس، فحمد اللّٰه وأثنى عليه وقال:

إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليه معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا، فَيُنَاوِشُونَكُم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه. فقد كفاكموهم أهل الأيام، وعطلوا ثغورهم، وأفنوا ذادَتَهُم وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا. ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعًا: عزم اللّٰه لنا ولك على الرشد فافعل) [١].

لقد عرض على سعد ﷺ المخاضة إلى صلب الوادي فرفضها خوفًا على المسلمين ثم جاء الأعلاج فذكروه ﷺ أن الزمن ليس لصالحه. وانتظار أيام يعني أن ثروات الدنيا سوف تمضي مع الفرس.

وزاد الأمر تعقيدًا فيضان دجلة الذي قد يصل إلى مكان نزول المسلمين.

أوليست صورة بدر جاءت من جديد. وأن استثمار النصر هو النصر الحقيقي فقد لجأ رسول اللّٰه ﷺ إلى الدعاء حتى سقط الرداء عن كتفيه وهو يستغيث ربه ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩]. وقد خفق

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٦٠).

رسول اللَّه ﷺ خفقةً وهو في العريش. ثم انتبه فقال: « **أبشر يا أبا بكر أتاك نصر اللَّه. هذا جبريل آخذ بزمام فرسه يقوده على ثناياه النقع** » (١).

الطريق مسدود، لا سفن، وبحر دجلة هائج يقذف الزبد، والعدو يحمل متاع الدنيا معه ليحرم منه المسلمون.

لقد وقعت المعجزة للنبي. فَلِمَ لا تقع الكرامة للولي.

لقد أنزل اللَّه نصره على رسول اللَّه ﷺ. أفلا ينزل اللَّه نصره على خال رسول اللَّه ﷺ؟؟

(ورأى رؤيا أن خيول المسلمين اقتحمتها فعبرت، وقد أقبلت من المد بأمر عظيم) وعاد إنسانًا آخر برأي آخر بعد هذه الرؤيا. ألم يقل رسول اللَّه ﷺ له: « **اللَّهم سدد رميته، وأجب دعوته** ».

فهو السفير اليوم بين رب العالمين، وبين جنده المؤمنين. (... قد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا. ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم..).

ألم يقل سعد بن معاذ لرسول اللَّه ﷺ: « واللَّه يا رسول اللَّه لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف مِنَّا رجل واحد؟؟ ».

وها هو سعد بن أبي وقاص يريد أن يخوض بهم هذا البحر، فلم يتخلَّف منهم رجل واحد. إنه الجيش نفسه غائبًا عنه رسول اللَّه ﷺ.. لكن خال رسول اللَّه يقوده، وصدقوا فقالوا جميعًا: عزم اللَّه لنا ولك على الرشد، فافعل، فندب سعد الناس إلى العبور.

كتيبة الأهوال:

(... ويقول: من يبدأ أو يحمي لنا الفراض (٢) حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج؟

فانتدب له عاصم بن عمرو ذو البأس وانتدب بعده ستمائة من أهل النجدات. فاستعمل عليهم عاصمًا. فسار فيهم حتى وقف على شاطئ دجلة وقال:

من ينتدب معي لنمنع الفراض من عدوكم ولنحميَكم حتى تعبروا؟

فانتدب له ستون منهم أصم بني ولَّاد، وشرحبيل، وجَحْل العجلي، ومالك ابن كعب الهمداني، وغلام من بني الحارث بن كعب.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢٠٤/١).

(٢) الفراض: فوهة النهر.

فلما رآهم الأعاجم وما صنعوا، أعدوا للخيل التي تقدمت سعدًا مثلها. فاقتحموا عليهم دجلة فأعاموها إليهم. فلقوا عاصمًا في السَّرعان، وقد دنا من الفراض، فقال عاصم: الرماحَ الرماحَ! أشرعوها وتوخّوا العيون.

فالتقَوا، فاطّعنوا، وتوخَّى المسلمون عيونهم، فولوا نحو الجُد [١]. والمسلمون يشمصون [٢] بهم خيلهم، ما يملك رجالها منعَ ذلك منهم شيئًا. فلحقوا بهم في الجُدِّ. فقتلوا عامتهم. ونجا من نجا منهم عُورانًا [٣]. وتزلزلت بهم خيولهم حتى انتقضت عن الفراض، وتلاحق الستمائة بأوائلهم الستين غيرَ مُتَعْتَعِينَ. ولما رأى سعد عاصمًا على الفراض قد منعها أذن للناس في الاقتحام وقال: قولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه. حسبنا الله ونعم الوكيل. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) [٤].

لقد كان الجيش الإسلامي يحمل كل مستويات المجتمع الإسلامي ففيه الحد الأدنى الذي حضر رغبة في الأجر ورغبة في الغنيمة. والنادر جدًّا أن يكون حادَ به الرغبة في الغنيمة فقط.. وكان فيه المستوى العادي من البطولات.. وفيه من لا يملك إلا المشاركة العامة في القتال.. وفيه المستويات العليا والمستويات الأعلى التي لا يوجد لها نظير في الأمم الأخرى.

ويكفي أن نأخذ هذا التسلسل من الأعلى للأدنى.. ستون ثم ستمائة، ثم ستون ألفًا.

فالستون الأوائل هم قمة البشرية في الفداء والتضحية. ومع ذلك ففيهم بضعة أسماء بعضهم يعرف باسمه كاملًا.، وبعضهم يعرف بنسبه.

(فانتدب له ستون. منهم:

- أصمُّ بني ولَّاد.
- وشرحبيل.

في أمثالهم فجعلهم نصفين على خيول إناث وذكوره. ليكون أساسًا لعوم الخيل ثم اقتحموا دجلة، واقتحم بقية الستمائة على أثرهم. فكان أول من فصل من الستين:

- أصم التيم.

---

(١) الجد: شاطئ النهر.
(٢) يشمصون: يسوقونها سوقًا عنيفًا حتى أعيت.
(٣) أي صاغرين أذلاء.
(٤) تاريخ الطبري (٢/٤٦٠).

- والكلَج.
- وأبو مفزّر.
- وشرحبيل.
- وجَحْل العجلي.
- ومالك بن كعب الهمداني.
- وغلام من بني الحارث بن كعب).

هؤلاء السبعة الذين ذكروا أنهم أول من فصل ليس فيهم من يعرف باسمه كاملًا إلا مالك بن كعب الهمداني، والبقية أسماء غيَّرت الدنيا ولم تُعرف أسماؤها. فهو الجيل الذي استوى أدناه وأعلاه. وقد تعرَّضوا لمقاومة فارسية رهيبة.

إنهاء المقاومة الفارسية:

(فلما رآهم الأعاجم وما صنعوا أعدوا للخيل التي تقدَّمت سعدًا مثلها، فاقتحموا عليهم دجلة فأعاموها عليهم. فلقوا عاصمًا في السَّرعان، وقد دنا من الفراض. فقال عاصم: الرماحَ الرماحَ! أشرعوها وتوخَّوا العيون. فالتقَوا فاطَّعنوا، وتوخَّى المسلمون عيونهم، فولوا نحو الجُدّ، والمسلمون يشمصون بهم خيلهم، ما يملك رجالها منعَ ذلك منها شيئًا. فلحقوا بهم في الجُدّ. فقتلوا عامتهم ونجا مَن نجا منهم عُورانًا. وتزلزلت بهم خيولهم حتى انتقضت عن الفراض. وتلاحق الستمائة بأوائلهم الستين غير مُتَعْتَعِينَ).

هؤلاء الستون لنفرض جدلًا أن المقاومة الفارسية أنهت هؤلاء الستين. فليس بعيدًا أن يعود المد الفارسي للهجوم، وأن يستجمع فلوله للسيطرة على الشاطئ الآخر من دجلة، وإبعاد المسلمين عن اقتحام المدائن.

إننا نحن اليوم نتحدث عن تحوُّل التاريخ، فألفا عام لم تجعل العرب يجرؤون على تجاوز دجلة. وخلال ستة أعوام. ها هم المسلمون بِطلائعهم الفدائية على أبواب فارس. وكما قال المثنى لرسول الله ﷺ:

(وإنما نزلنا بين صريين أحدهما اليمامة، والآخر السماوة، فقال له رسول الله ﷺ: « **وما هذان الصريان؟** ».

فقال: أنهار كسرى ومياه العرب. فأما ما كان من أنهار كسرى، فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، وأما ما كان مما يلي من مياه العرب، فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول وإنه إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نُحْدِث حدثًا، ولا نؤوي محدثًا. وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا العرب مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: « **ما أسأتم في الرّدّ حِينَ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله ﷻ لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه. أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلًا أن يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم: أتسبحون الله تعالى وتقدسونه؟** ».

فقال النعمان: اللّهم فلك ذلك) [١].

إنه لأول مرة في التاريخ يتجه العرب هذا الاتجاه في اقتحام أنهار كسرى. وتقع المعركة على شاطئ النهر، ويرتد الفرس عُورًا وهاربين أو قتلى مُجندَلين.

وكان الستمائة على العهد. فمضوا حتى وصلوا فوهة النهر. وصاروا حماة العبور. واطمأن القائد العظيم إلى سلامة جنده على الشاطئ الآخر. (ولما رأى سعد عاصمًا على الفراض قد منعها أَذِنَ للناس بالاقتحام).

لكن هذا الإذن كان مرتبطًا بنداء الأمة المؤمنة الماضية إلى ريادة التاريخ.

قولوا: نستعين بالله.

- ونتوكل عليه.
- حسبنا الله ونعم الوكيل.
- لا حول ولا قوة إلا بالله .

إن هذا النشيد هو البوارج الحربية الحديثة التي تحمل الجيوشَ والمعدات، والخيول والأسلحة، لفتح الأرض بالإيمان. وليست لاحتلال الأرض كما يفعَل اليوم في عصرنا من جيوش الظلم والاستبداد.

الجيش الإسلامي يمخر عباب دجلة:

(.. وتلاحق عُظْم الجند، فركبوا اللجة، وإن دجلة لترمي بالزَّبد. وإنها لمسْوَدَّة [٢]

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٥٧ - ١٥٩). (٢) مسودة: لونها أسود من الفيضان.

وإن الناس ليتحدثون في عومهم وقد اقتربوا ما يكترثون كما يتحدثون في مسيرهم على الأرض، ففجأوا أهل فارس بأمر لم يكن في حسابهم، فأجهضوهم، وأعجلوهم عن جمهور أموالهم، ودخلها المسلمون في صفر سنة ست عشرة. واستولوا على ذلك كله مما بقي في بيوت كسرى من الثلاثة آلاف ألف ألف. ومما جمع شيري ومن بعده.

وفي ذلك يقول أبو بُجَيْد، نافع بن الأسود:

وَأَسَلنا عَلَى المدائِنَ خَيْلًا بحرها مثل برِّهِنَّ أريضًا [(١)]

فَانْتَثَلْنَا خَزَائن المرء كِسْرَى يوم ولَّوا وَحَاصَ مِنَّا جَرِيضا) [(٢)]

ألم يكن من الممكن لو كان غير هذا الجيش، وغير هذا الجيل أن يرفض الأوامر، ويرفض اقتحام النهر؛ لأنه يرى في ذلك هلاكه؟؟ أليست تجربة بني إسرائيل الرائدة - قصة آل طالوت - تحمل هذا المعنى.

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ... ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

إذن قد تخلَّف قسم كبير من جيشه دون أن يتجاوزوا النهر. يؤكد رسول اللَّه ﷺ ذلك « **وما جازه معه إلا مؤمن** ».

لقد استحق هذا الجيل وراثة الأرض بعد هذا الإيمان الخالص للّه، واستحق النجاة من الغرق بعد هذا التوكل الخالص عليه سبحانه.. إنه جيل يعيش مع اللَّه.

ولم يجوزوا النهر بهلع، لقد جازوه وهم يتحدثون كما كانوا يتحدثون على اليابسة، لم يهتزوا لمنظر النهر وهو يقذف الزبد، وقد صار أسود من الفيضان ومما يحمل ﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ ﴾ [الرعد: ١٧] وحين رأى أهل فارس هؤلاء الجن أو الملائكة يقطعون النهر بخيولهم ويسدون الأفق راموا النجاة وتركوا أموالهم فارين راضين من الغنيمة بالإياب، لقد تمكَّن كسرى أن يحوز نصف ثروة الأرض، وتخلَّى عن نصفها، لقد كان المبلغ ثلاث مليارات دينار، حاز نصفه كسرى وبقي نصفه الآخر للمسلمين. ولو تخاذل المسلمون وتلكؤوا ولم ينتهزوا الفرصة لفاتهم ثروة الأرض كلها. كما روى السري (عن... الوليد بن عبد اللَّه ابن أبي طيبة قال: لما أقام سعد على دجلة

---

(١) الأريض: المعجب للعين.

(٢) جريض: ما فات المسلمين منها مع كسرى.

أتاه عِلْجٌ، فقال: ما يقيمك! لا يأتي عليك ثالثة حتى يذهب يَزْدَجِرْد بكل شيء في المدائن. فذلك مما هيَّجه على القيام بالدعاء إلى العبور).

وكان يمكن أن يسجل التاريخ لو كانت عقارب الساعة تمضي إلى الوراء. أي لو لم تكن الوراثة للصالحين قدرًا من اللَّه، أن الجيش غرق كله في دجلة. وكانت نهاية المد الإسلامي نحو فارس.

وكان من الممكن أن يقف التاريخ، وهو لا يقف، لأن وعد اللَّه حق.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

كان يمكن أن تكون بَهُرَسِير هي الموقعة التاريخية الخالدة والتي أوقفت زحف المسلمين في بلاد العجم لو استجاب المسلمون للنداء الأخير من يَزْدَجِرْد - كما كانت بواتيه هي التي أوقفت الزحف نحو باريس.

« إن الملك يقول لكم هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلنا. ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع اللَّه بطونكم ».

فأجاب رب العزة ﷻ عنهم على لسان عبده الصالح أبي مُفَزِّرٍ (لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدًا حتى نأكل عسل إفريذين بأترج كوثى..)

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١] ولقد صنع اللَّه تعالى لهذا الجيش المؤمن أكثر بكثير مما صنع الجيش لنفسه.﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

عدسة المصورين تدخل المدائن مع الجيش الإسلامي..

وكان لنا أن نحصل على هذه اللقطات النادرة، وثائق بين أيدينا منذ ذلك الفتح المبين.

اللقطة الأولى:

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن رجل عن أبي عثمان النهدي في قيام سعد في الناس في دعائهم إلى العبور بمثله وقال:

طبّقنا دجلة خيلًا ورَجلًا ودوابّ حتى ما يرى الماءَ من الشاطئ أحدٌ. فخرجت بنا

خيلنا إليهم تنفض أعرافها، لها صهيل. فلما رأى القوم ذلك انطلقوا لا يَلْوُون على شيء، فانتهينا إلى القصر الأبيض، وفيه قوم قد تحصنوا، فأشرف بعضهم فكلمنا. فَدَعَوْناهم وعرضنا عليهم فقلنا: ثلاثًا تختارون منهن أيتهن شئتم. قالوا: ما هن؟ قلنا:

- الإسلام، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا.
- وإن أبيتم فالجزية.
- وإن أبيتم فمناجزتكم حتى يحكم اللَّه بيننا وبينكم.

فأجابنا مجيبهم: لا حاجة لنا في الأولى ولا في الآخرة. ولكن الوسطى).

اللقطة الثانية: ثروة الإمبراطورية:

(لما هزموهم في الماء، وأخرجوهم إلى الفراض، ثم كشفوهم عن الفراض أَجْلَوْهُمْ عن الأموال إلا ما كانوا تقدموا فيه. وكان في بيوت أموال كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف فبعثوا مع رستم بنصف ذلك، وأقروا نصفه في بيوت الأموال).

اللقطة الثالثة: سعد وسلمان يتسامران في لُجَّةِ دجلة:

(قال سعد يومئذ وهو واقف قَبل أن يُقحِم الجمهور، وهو ينظر إلى حُماة الناس وهم يقاتلون على الفراض: واللَّه أن لو كانت الخرساء - يعني الكتيبة التي كان فيها القعقاع بن عمرو، وحَمَّال بن مالك، والرُّبيل بن عمرو - فقاتلوا قتال هؤلاء القوم هذه الخيل، لكانت قد أجزأتْ وأغنَتْ.

وكتيبة عاصم هي كتيبة الأهوال، فشبَّه كتيبة الأهوال - لما رأى منهم في الماء والفِراض - بكتيبة الخرساء. قال:

ثم إنهم تنادَوا بعد هنات قد اعتوروها عليهم ولهم، فخرجوا حتى لحقوا بهم. فلما استووا على الفراض هم وجميع كتيبة الأهوال بأسرهم أقحم سعد الناس.

وكان الذي يساير سعدًا في الماء سلمان الفارسي، فعامت بهم الخيل وسعد يقول: حسبنا اللَّه ونعم الوكيل! واللَّه لَينصرنّ اللَّه وليه، ولَيُظهِرنّ اللَّه دينه، وليَهزمَنّ اللَّه عدوه إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات.

فقال له سلمان: الإسلام جديد ذُلِّلَت لهم واللَّه البحور كما ذُلِّلَ لهم البَرّ، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجُنّ منه أفواجًا كما دخلوه أفواجًا. فطبقوا الماء حتى

ما يُرى الماء من الشاطئ، ولَهُمْ فيه أكثرُ حديثًا منهم في البر لو كانوا فيه. فخرجوا منه - كما قال سلمان - لم يفقدوا شيئًا، ولم يغرق منهم أحد.

اللقطة الرابعة: لم يغرق منهم أحد:

(إنهم سلموا من عند آخرهم إلا رجلًا من بارق يُدعى غَرْقَدَة، زال عن ظهر فرسٍ له شقراء كأني أنظر إليها تنفض أعرافها عُرْيًا، والغريق طافٍ. فثنى القعقاع بن عمرو فرسه إليه فأخذ بيده فجرَّه حتى عبر. فقال البارقي - وكان من أشد الناس: أُعْجِزَ الأخواتُ أن يلدنَ مثلك يا قعقاع! وكان للقعقاع فيهم خُؤولة).

اللقطة الخامسة: ولم يفتقدوا إلا قدحًا وجدوه بعد ذلك:

(فما ذهب لهم في الماء يومئذ إلا قدح، كانت عِلاقته رثّة فانقطعتْ. فذهب به الماء فقال الرجل الذي كان يعاوم صاحب القدح معيرًا له: أصابه القدر فطاح.

فقال: والله إني لعلَى جَدِيلة ما كان الله ليسلبني قدحي من بين أهل العسكر. فلما عبروا، إذا رجل ممن كان يحمي الفراض قد سفل حتى طلع عليه أوائل الناس، وقد ضربته الرياح والأمواج حتى وقع إلى الشاطئ، فتناوله برمحه فجاء به إلى العسكر، فعرَّفه فأخذه صاحبه، وقال للذي كان يعاومه: ألم أقل لك؟!

وصاحبه حليف لقريش من عَنْز يُدعى مالك بن عامر. والذي قال: طاح، يُدعى عامر بن مالك.

اللقطة السادسة: يوم الجراثيم:

قال ابن جرير: (لما أقحم سعدُ الناسَ في دجلة اقترنوا، فكان سلمان قرين سعد إلى جانبه يسايره في الماء. وقال سعد: ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾. والماء يطمو بهم. وما يزال فرس يستوي قائمًا إذا أعيا يُنْشَزُ له تَلْعَة فيستريح عليها، كأنه على الأرض. فلم يكن في المدائن أمر أعجب من ذلك، وذلك يوم الماء، وكان يدعى يوم الجراثيم.

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس ابن أبي حازم قال: خضنا دجلة وهي تطفح، فلما كنا في أكثرها ماءً لم يزل فارس واقف ما يبلغ الماء حزامه.

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو

وسعيد قالوا: كان يوم ركوب دجلة يُدعى يوم الجراثيم لا يعيا أحد إلا أُنْشِزَتْ له جرثومة يُرِيح عليها).

اللقطة السابعة: تركوا (الفرس) ما لا يُدرَى قيمته:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد قالوا: لما رأى المشركون المسلمين وما يَهُمُّونَ به، بعثوا من يمنعهم من العبور، وتحملوا فخرجوا هُرَّابًا، وقد أخرج يَزْدَجِرْد - قبل ذلك وبعدما فتحت بَهُرَسِير - عياله إلى حُلوان. فخرج يزدجرد بعدُ حتى ينزل حلوان، فلحق بعياله. وخلّف مهران الرازي والنَّخِيرَجان - وكان على بيت المال - بالنهروان. وخرجوا معهم بما قدروا عليه من حُرِّ متاعهم وخفيفه، وما قدروا عليه من بيت المال. وبالنساء والذراري وتركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والأدهان ما لا يُدرَى قيمتُه، وخلّفوا ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم والأطعمة والأشربة.

اللقطة الثامنة: كتائب تتبعها كتائب:

(فكان أول من دخل المدائن كتيبة الأهوال، ثم الخَرْسَاء. فأخذوا في سِكَكِها لا يلقون فيها أحدًا ولا يُحِسُّونه إلا من كان في القصر الأبيض، فأحاطوا بهم ودَعَوْهُم فاستجابوا لسعد على الجزاء والذمة. وتراجع إليهم أهل المدائن على مثل عهدهم. وليس في ذلك ما كان لآل كسرى ومن خرج معهم. ونزل سعد القصر الأبيض. وسرح زهرة في المقدمات في آثار القوم إلى النَّهروان. فخرج حتى انتهى إلى النهروان. وسرّح مقدار ذلك في طلبهم من كل ناحية) [١].

اللقطة التاسعة: ودخل سعد الإيوان:

(وكان رائد المسلمين سلمان الفارسي. وكان المسلمون قد جعلوه داعية أهل فارس. قال عطية: وقد كانوا أمروه بدعاء أهل بهرسير، وأمَّروه يوم القصر الأبيض، فدعاهم ثلاثًا. فقال عطية وعطاء: وكان دعاؤه إياهم أن يقول: إني منكم في الأصل، وأنا أرِقُّ لكم. ولكم فيَّ ثلاث أدعوكم إليها ما يصلحكم؛ أن تسلموا

---

(١) تاريخ الطبري (٤٦٢/٢).

فإخواننا لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإلا فالجزية، وإلا نابذناكم على سواء، إن اللَّه لا يحب الخائنين.

قال عطية: فلما كان اليوم الثالث في بهرسير أبوا أن يجيبوا إلى شيء فقاتلهم المسلمون حين أبوا، ولما كان اليوم الثالث في المدائن قَبِلَ أهل القصر الأبيض وخرجوا.

ونزل سعد القصر الأبيض، واتخذ الإيوان مصلًّى. وإن فيه لتماثيل جص فما حركها) [١] (وقالوا جميعًا: ولما دخل سعد المدائن فرأى خلوتها، وانتهى إلى أيوان كسرى أقبل يقرأ:

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٧]. وصلَّى فيه صلاة الفتح - ولا تُصلَّى جماعة - فصلَّى ثماني ركعات لا يفصل بينهن، واتخذه مسجدًا. وفيه تماثيل الجص، رجال وخيل. ولم يمتنع ولا المسلمون لذلك، وتركوها على حالها. قالوا: وأتم سعد الصلاة يوم دخلها، وذلك أنه أراد المقام فيها. وكانت أول جمعة بالعراق جُمعت جماعةٌ بالمدائن في صفر سنة ست عشرة) [٢].

اللقطة العاشرة: ما في المدائن أحد:

قال ابن جرير (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف.. قالوا: وقد كان الملك سرّب عياله حين أخذت بهرسير، إلى حلوان. فلما ركب المسلمون الماء خرجوا هرابًا، وخيلهم على الشاطئ يمنعون المسلمين وخيلهم عن العبور. فاقتتلوا هم والمسلمون قتالًا شديدًا حتى ناداهم مُنادٍ: عَلامَ تقتلون أنفسكم؟ فواللَّهِ ما في المدائن أحد. فانهزموا واقتحمتها الخيول عليهم) [٣].

اللقطة الحادية عشرة: فضرب عنقه وسلبه:

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب قالوا:

أدرك أوائل المسلمين أخريات أهل فارس، فأدرك رجل من المسلمين يدعي ثقيفًا.. رجلًا من أهل فارس معترضًا على طريق من طرقها يحمي أدبار أصحابه، فضرب

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٤٦٣/٢).

فرسه على الإقدام عليه. فأحجم ولم يُقْدِمْ، ثم ضربه للهرب فتقاعس حتى لحقه المسلم فضرب عنقه وسلبه) [(١)].

اللقطة الثانية عشرة: خذها وأنا ابن المخارق:

قال ابن جرير: (كتب إليَّ السَّرِّي عن شعيب عن سيف... كان فارس من فرسان العجم في المدائن يومئذ مما يلي جازر، فقيل له: قد دخلَتِ العرب، وهرب أهل فارس، فلم يلتفت إلى قولهم. وكان واثقًا بنفسه. ومضى حتى دخل بيت أعلاج له وهم ينقلون ثيابًا قال: ما لكم؟ قالوا: أخرجتنا الزنابير، وغلبتنا على بيوتنا. فدعا بجُلاهق [(٢)] وبطين فجعل يرميهن حتى ألزقهن بالحيطان، فأفناهن. وانتهى إليه الفزَع. فقام وأمر عِلْجًا فأسرج له. فانقطع حزامه. فشده على عَجَل وركب، ثم خرج فوقف، ومر به رجل فطعنه وهو يقول: خذها وأنا ابن المخارق! فقتله ثم مضى ما يلتفت إليه) [(٣)].

اللقطة الثالثة عشرة: أنا ابن مُشرِّط الحجارة:

(... السَّرِّي عن شعيب عن سيف... قالوا، وأدرك رجل من المسلمين رجلًا منهم معه عصابة يتلاومون. ويقولون: من أي شيء فررنا! ثم قال قائل منهم لرجلٍ منهم: ارفْع لي كُرَةً. فرماها لا يخطئ، فلما رأى ذلك عاج وعاجوا معه وهو أمامهم. فانتهى إلى ذلك الرجل، فرماه من أقرب مما كان يرمي منه الكرة ما يصيبه. حتى وقف عليه الرجل (المسلم) ففلق هامته وقال له: أنا ابن مُشرِّط الحجارة) [(٤)].

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

لقد فرّ أهل بهرسير مع جواب كتاب أبي المفزّر. وكتب في قلوبهم الرعب. وهاموا في وجوههم.

وفرّ أهل المدائن مع رؤية المسلمين يقتحمون النهر. وفتح اللَّه تعالى لجنده وحزبه. وكفى المؤمنين القتال. وكان اللَّه قويًّا عزيزًا. إنها أحزاب ثانية أعطاها اللَّه لحزبه على ما صدقوا وصبروا.

* * *

---

(١) الطبري (٢/٤٦٣).

(٢) الجلاهق: الطين المدور الأملس.

(٣، ٤) الطبري (٢/٤٦٣).

الفصل السابع

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾

الأموال:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد والمهلب وعقبة وعمرو وأبي عمرو وسعيد قالوا: نزل سعد إيوان كسرى، وقَدَّمَ زُهْرَةَ. وأمره أن يبلغ النهروان. فبعث في كل وجه مقدار ذلك لنفي المشركين وجمع الفيوء. ثم تحوَّل إلى القصر بعد ثالثة. ووكل بالأقباض [1] عمرو بن عمرو بن مقرن. وأمره بجمع ما في القصر والإيوان والدور. وإحصاء ما يأتيه به الطلب. وقد كان أهل المدائن تناهبوا عند الهزيمة غارة. ثم طاروا في كل وجه فما أفلت أحد منهم بشيء لم يكن في عسكر مِهران بالنهروان ولا بخيط. وألح عليهم الطلب فتنقَّذُوا ما في أيديهم. ورجعوا بما أصابوا من الأقباض. فضمُّوه إلى ما قد جُمع. وكان أول شيء جُمِع يومئذ ما في القصر الأبيض ومنازل كسرى وسائر دور المدائن.

سلال الذهب والفضة:

(... السري عن شعيب عن سيف... عن الأعمش عن حبيب بن صُهبان قال:

دخلنا المدائن فأتينا على قباب تركية مملوءة سلالًا مختمة بالرصاص فما حسبناها إلا طعامًا، فإذا هي آنية الذهب والفضة، فقسِّمت بعدُ بين الناس، وقال حبيب: وقد رأيت الرجل يطوف ويقول: مَنْ معه بيضاء بصفراء. وأتينا على كافور كثير فما حسبناه إلّا ملحًا. فجعلنا نعجن به حتى وجدنا مرارته بالخبز).

حلية كسرى ووشاحه ودرعه:

(.. السري عن شعيب عن سيف.. عن الرُّفَيل بن ميسور قال:

خرج زهرة في المقدمة يتبعهم حتى انتهى إلى جسر النهروان، وهم عليه فازدحموا، فوقع بغل في الماء، فعجلوا وكلبوا عليه. فقال زهرة: إني أقسم بالله إن لهذا البغل

---

(١) جمع قَبْض وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن يقسم.

لشأنًا. ما كلِب القوم عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك إلا لشيء بعدما أرادوا تركه. وإذا الذي عليه حلية كسرى؛ ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التي كان فيها الجوهرة. وكان يجلس فيها للمباهاة. وترجَّل زهرة يومئذ حتى إذا أزاحهم أمر أصحابه بالبغل فاحتملوه. فأخرجوه فجاؤوا بما عليه، حتى رده إلى الأقباض ما يدرون ما عليه، وارتجز يومئذ زهرة:

فَدًى لِقَومِي اليوم أَخْوَالِي وَأَعْمَامِي ... هُم كرهوا بالنَّهْرِ خُذْلَاني وإِسْلَامِي [1]

هُمْ فَلَجُوا بِالبَغْل في الخصام ... بِكُلِّ قَطَّاعٍ شُؤونَ الهَامِ

وَصرعُوا الفُرْس عَلَى الآكامِ ... كَأَنَّهُمْ نَعَمٌ مِن الأَنْعَامِ)

تاج كسرى وثيابه:

(... السري عن شعيب عن سيف.. عن جده الكَلَج قال: كنت فيمن خرج في الطلب. فإذا أنا ببغَّالين، وقد ردا الخيل عنهما بالنشاب. فما بقي معهما غير نشابتين. فألظظت بهما فاجتمعا. فقال أحدهما لصاحبه: ارمِه وأحميك أو أرميه وتحميني. فحمى كل منهما صاحبه حتى رميا بها. ثم إني حملت عليهما فقتلتهما وجئت بالبغلين ما أدري ما عليهما، حتى أبلغتهما صاحب الأقباض. وإذا هو يكتب ما يأتيه به الرجال، وما كان في الخزائن والدور. فقال: على رسلك حتى ننظر ما معك. فحططت عنهما، فإذا سَفَطان على أحد البغلين فيهما تاج كسرى مفسّخًا. وكان لا يحمله إلا أسطوانتان - وفيهما الجوهر. وإذا على الآخر سَفَطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب، المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجًا منظومًا) [2].

أدراع كسرى وسيوفه:

(وخرج القعقاع بن عمرو يومئذ في الطلب، فلحق بفارسي يحمي الناس. فاقتتلا فقتله. وإذا مع المقتول جَنيبة عليها عيبتان [3] وغلافان في أحدهما خمسة أسياف

---

(١) الوزن الشعري بالبيت به خلل ولم نجد البيت عند غير الطبري.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٦٥).

(٣) جَنيبة: الدابة تُقادُ. العَيْبَة: وعاء من جلد ونحوه يكون فيه المتاع.

وفي الآخر ستة أسياف، وإذا في العيبتين أدراع، فإذا في الأدراع، درع كسرى ومِغفره وساقاه وساعداه [١] ودرع هرقل ودرع خاقان، ودرع داهر، ودرع بهرام شوبين، ودرع سياوَخش، ودرع النعمان. وكانوا استلبوا ما لم يرثوا، استلبوها أيام غزاتهم خاقان وهرقلَ وداهرَ. وأما النعمان وبَهرام، فحين هربا وخالفا كسرى. وأما أحد الغلافين، ففيه سيف كسرى وهرمز وقُباذ وفَيروز وإذا السيوف الأخر سيف هرقل وخاقان وداهر وبَهرام وسياوَخش والنعمان. فجاء به إلى سعد. فقال: اختر أحد هذه الأسياف. فاختار سيف هرقل. وأعطاه دِرْعَ بهرام. وأما سائرها فنفَّلها في الخرساء إلا سيف كسرى والنعمان ليبعثوا بهما إلى عمر لتسمع بذلك العرب لمعرفتهم بهما، وحبسوهما في الأخماس، وحُلِيَّ كسرى وتاجه وثيابه، ثم بعثوا بذلك إلى عمر ليراه المسلمون، ولتسمع بذلك العرب. وعلى هذا الوجه سلب خالد بن سعيد عمرو ابنَ معديكرب سيفَه الصَّمصامة في الردة، والقوم يستحيون من ذلك) [٢].

فرس من ذهب وفارس من فضة وناقة من فضة:

(... السري عن شعيب عن سيف.. عن عصمة بن الحارث الضبي قال: خرجت فيمن خرج يطلب، فأخذت طريقًا مسلوكًا وإذا عليه حَمّار. فلما رآني حَثّه فلحق بآخر قُدّامه فمالا وحثّا حماريهما، فانتهيا إلى جدول قد كُسر جسره. فثبتا حتى أتيتهما ثم تفرقا. ورماني أحدهما فألظظت به [٣] فقتلته وأفلت الآخر. ورجعت إلى الحمارين. فأتيت بهما صاحب الأقباض فنظر فيما على أحدهما. فإذا سَفَطان في أحدهما فرس من ذهب مسرَّج بسرج من فضة على ثَغْرِه ولبَبِهِ الياقوت والزمرد منظوم على الفضة. ولجام كذلك. وفارس من فضة مكلل بالجوهر، وإذا في الآخر ناقة من فضة عليه شَلِيلٌ [٤] من ذهب، وبِطان من ذهب ولها شِنَاق [٥] أو زمام من ذهب، وكل ذلك منظوم بالياقوت، وإذا عليها رجل من ذهب مكلل بالجوهر. كان كسرى يضعهما إلى أسطوانتي التاج) [٦].

---

(١) ساقاه: ما يلبسه عليهما وكذلك ساعداه.

(٢) الطبري (٢/٤٦٥).

(٣) أي تبعته.

(٤) مسح من صوف أو شعر يجعل على عجز البعير.

(٥) حبل يجذب به رأس البعير.

(٦) الطبري (٢/٤٦٥).

أما واللَّه لولا اللَّه ما أتيتكم به:

(... السري عن شعيب عن سيف عن هبيرة بن الأشعث عن أبي عبيدة العنبري قال: لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض أقبل رجل بِحُقٍّ معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال والذين معه: ما أرينا مثلَ هذا قط. ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه.

فقالوا: هل أخذتَ منه شيئًا؟.

فقال: أما واللَّه لولا اللَّه ما أتيتُكم به. فعرفوا أن للرجل شأنًا. فقالوا: من أنت؟ فقال: لا واللَّه لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرّظوني. ولكني أحمد اللَّه وأرضى بثوابه.

فأتبعوه رجلًا حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس) [١].

وايم اللَّه على فضل أهل بدر:

(.. السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد قالوا: (قال سعد: واللَّه إن الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت: وايم اللَّه - على فضل أهل بدر - لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنات فيما أحرزوا، ما أحسبها ولا أسمعها إلا من هؤلاء القوم) [٢].

لقد أتممنا ثلاثة نفر:

(.. السري عن شعيب عن سيف عن مبشر بن الفُضَيْل عن جابر بن عبد اللَّه قال:

واللَّه الذي لا إله إلا هو: ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة. ولقد اتهمنا ثلاثة نفر، فما رأينا كالذي هجمنا عليهم من أمانتهم وزهدهم. طُلَيْحة بن خويلد، وعمرو بن معديكرب، وقيس بن المكشوح) [٣].

ولو رتعْتَ لرتعوا:

(.. السري عن شعيب عن سيف عن مخلد بن قيس العجلي عن أبيه قال: (لما قُدِم بسيف كسرى على عمر ومِنطقته وزِبْرِجِه. قال: إن أقوامًا أدَّوْا هذا لذوُو أمانة. فقال علي: إنك عففت فعفَّت الرعية) [٤].

(١، ٢) تاريخ الطبري (٤٦٥/٢). (٣، ٤) المصدر نفسه (٤٦٦).

أصاب الفارس اثنا عشر ألفًا:

(.. السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وعمرو وسعيد والمهلب قالوا: ولما بعث سعد بعد نزوله المدائن في طلب الأعاجم، بلغ الطلب النَّهروان، ثم تراجعوا. ومضى المشركون نحو حُلوان. فقسَّم سعد الفيء بين الناس بعدما خمَّسه. فأصاب الفارسَ اثنا عشر ألفًا. وكلهم كان فارسًا ليس فيهم راجل. وكانت الجنائب في المدائن كثيرة) [1].

قسم سعد دور المدائن بين الناس:

(.. السري عن شعيب عن سيف عن مجالد عن الشعبي بمثله وقالوا جميعًا: ونفل من الأخماس ولم يَجْهَدْهَا في أهل البلاء. وقالوا جميعًا: قسَّم سعد دور المدائن بين الناس وأوطنوها. والذي ولي القبض عمرو بن عمْرو المزني، والذي وَلِيَ القسم سلمان ابن ربيعة الباهلي.. ولما دخل سعد المدائن أتم الصلاة وصام وأمر الناس بإيوان كسرى فجعل مسجدًا للأعياد. ونصب فيه منبرًا. فكان يصلي فيه - وفيه التماثيل - ويُجَمِّع فيه. فلما كان الفطر قيل: ابرزوا، فإن السنة في العيدين البَراز. فقال سعد: صلوا فيه، قال: فصُلِّي فيه. وقال: سواءٌ في عقر القرية أو بطنها) [2].

وعن الشعبي: لما نزل سعد المدائن، وقسم المنازل، بعث إلى العيالات، فأنزلهم الدُّور وفيها المرافق. فأقاموا بالمدائن حتى فرغوا من جلولاء وتكريت والموصل، ثم تحوَّلوا إلى الكوفة).

بساط كسرى:

(.. السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد والمهلب، وشاركهم عمرو وسعيد: وجَمَعَ سعد الخُمس، وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عُمر من ثياب كسرى وحُليه وسيفه ونحو ذلك. وما كان يُعْجِبُ العربَ أن يقع إليهم. ونفّل من الأخماس. وفضل بعد القَسم بين الناس وإخراج الخمس القِطْف، فلم تعتدل قسمته. فقال للمسلمين: هل لكم في أن تطيب أنفسُنَا عن أربعة أخماسه فنبعثَ به إلى عمر فيضعه حيث يرى. فإنا لا نراه يتفق قسمته. وهو بيننا قليل، وهو يقع من

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٦٦).

(٢) المصدر نفسه (٤٦٦).

أهل المدينة موقعًا. فقالوا: نعم ها اللّه إذًا. فبعث به على ذلك الوجه. وكان القِطْفُ ستين ذراعًا في ستين ذراعًا بساطًا واحدًا مقدار جريب. فيه طُرُقٌ كالصور وفصوصٌ كالأنهار، وخلال ذلك كالدّير، وفي حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقِلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب، ونوّاره بالذهب والفضة وأشباه ذلك. فلمّا قدم على عمر نفَّل من الخمس أناسًا وقال: إن الأخماس ينفل منها مَنْ شهد ومن غاب من أهل البلاء فيما بين الخُمسَين. ولا أرى القوم جهدوا الخُمس بالنفل. ثم قسَّم الخمس في مواضعه...)[١].

(.. السري عن شعيب عن سيف عن عبد الملك بن عمير قال: أصاب المسلمون يوم المدائن بَهار كسرى، ثقُل عليهم أن يذهبوا به. وكانوا يُعِدّونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين. فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه، فكأنهم في رياض.

بساط ستين في ستين، أرضه بذهب، ووشيه بفصوص، وثمره بجوهر، وورقه بحرير وماء الذهب، وكانت العرب تسمِّيه القِطف. فلما قسَّم سعد فيئهم فضل عنهم، ولم يتفق قسمته، فجمع سعدُ المسلمين. فقال: إن اللّه قد ملأ أيديكم. وقد عَسُرَ قَسمُ هذا البساط، ولا يقوى على شرائه أحد، فأرى أن تطيبوا به نفسًا لأمير المؤمنين يضعه حيث يشاء ففعلوا. فلما قدم على عمر المدينة رأى رؤيا فجمع الناس. فحمد اللّه وأثنى عليه واستشارهم في البساط، وأخبرهم خبره، فمن بين مشير بقبضه، وآخر مفوِّض إليه، وآخر مرقِّق، فقام علي حين رأى عمر يأبى حتى انتهى إليه، فقال: لم تجعل علمك جهلًا ويقينك شكًّا؟ إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت.

قال: صَدَقْتِنَي. فقطَّعَهُ فقسَّمه بين الناس. فأصاب عليًّا قطعة منه فباعها بعشرين ألفًا. وما هي بأجود تلك القطع)[٢].

أولئك أعيان العرب وغررها:

(.. السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد قالوا:

وكان الذي ذهب بالأخماس، أخماس المدائن، بشير بن الخَصاصية. والذي ذهب بالفتح خنيس بن فلان الأسدي، والذي ولي القبض عمرو، والقَسم سلمان. قالوا:

---

(١) تاريخ الطبري (٤٦٦/٢، ٤٦٧).

(٢) المصدر نفسه (٤٦٧).

ولما قُسِم البساط بين الناس أكثر الناس في فضل أهل القادسية. فقال عمر: أولئك أعيان العرب وغررها، اجتمع لهم مع الأخطار الدين، هم أهل الأيام وأهل القوادس. قالوا: ولما أُتِيَ بحلي كسرى وزيه في المباهاة، وزيه في غير ذلك - وكانت له عدة أزياء لكل حالة زي - قال: عليَّ بمحَلِّم. وكان أجْسَمَ عَربيٍّ يومئذ بأرض المدينة. فألبس تاج كسرى على عمودين من خشب وصب عليه أوشحته وقلائده وثيابه، وأجلس للناس. فنظر إليه عمر، ونظر إليه الناس فرأوا أمرًا عظيمًا من أمر الدنيا وفتنتها. ثم قام عن ذلك فألبس زيه الذي يليه. فنظروا إلى مثل ذلك في غير نوع، حتى أتى عليها كلها، ثم ألبسه سلاحه وقلده سيفه. فنظروا إليه في ذلك. ثم وضعه ثم قال: والله إن أقوامًا أدوا هذا لذوو أمانة.

ونفل سيف كسرى محلَّمًا وقال:

أَحْمِق بامرئ من المسلمين غرته الدنيا! هل يبلغن مغرور منها إلا دون هذا أو مثلَه! وما خيرُ امرئٍ مسلم سبقه كسرى فيما يضره ولا ينفعه. إن كسرى لم يزد على أن تشاغل بما أوتي عن آخرته فجمع لزوج امرأته، أو لزوج ابنته، أو امرأة ابنه، ولم يقدم لنفسه، فقدَّم امرؤ نفسه، ووضع الفضول [١] مواضعها تحصُلُ له، وإلا حَصَلتْ للثلاثة بعده، وأحْمِقْ بمن جمع لهم لعدوٍّ جارفٍ) [٢].

سيف النعمان بن المنذر:

(.. السري عن شعيب عن سيف عن محمد بن كريب عن نافع بن جبير قال:

قال عمر مَقْدَم الأخماس عليه حين نظر إلى سلاح كسرى وثيابه وحليه، مع ذلك سيف النعمان بن المنذر. فقال لجبير: إن أقوامًا أدَّوا هذا لذوو أمانة! إلى مَن كنتم تنسبون النعمان؟ فقال جبير: كانت العرب تنسبه إلى الأشلاء؛ أشلاء قَنَص [٣]).

وكان أحد بني عجم بن قَنَص، قال: خذ سيفه. فنفله إياه.

فجهل الناس (عجم) وقالوا (لخم).

وقالوا جميعًا: وولَّى عمرُ سعدَ بن مالك صلاةَ ما غلب عليه وحَرْبه، فولي ذلك.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٦٧/٢). (٢) ما يفضل بعد القسمة.

(٣) أي من بقايا أولاد قنَص بن مَعَدّ.

وولى الخراجَ النعمانَ وسويدًا ابني عمرو بن مقرّن؛ سويدًا على ما سَقى الفرات، والنعمان على ما سقت دجلة، وعقدوا الجسور، ثم ولّى عملهما واستعفيا حذيفة بن أسيد وجابر ابن عمرو المزني، ثم ولَّى عملهما بعدُ حذيفة بن اليمان وعثمان بن حُنَيف) [١].

* * *

١ - إنه جيل الخلافة الراشدة يقوده جيل النبوة.. « **سلمان مِنّا أهل البيت** » [٢]، « **اللّهم سدِّد رميته وأجب دعوته** » [٣] « **هذا خالي فليرني امرؤ خاله** » [٤]، لا يُهزم جيش فيهم مثل هذا - القعقاع بن عمرو.. » [٥].

وسعد ﷺ في لجة دجلة على فرسه ينظر الناس إليه ويرون كرامته بأعينهم (والماء يطمو بهم، وما يزال فرس يستوي قائمًا. إذا أعيا ينشز له تلعة يستريح عليها كأنه على الأرض وهو يقول: ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾.

٢ - ولأن الأمر ليس أمر قائد، إنما هو أمر أمة، وأمر جيش بأكمله، فقد انسحبت الكرامة على الجيل كله بلا استثناء (خضنا دجلة وهي تطفح، فلما كنّا في أكثرها ماءً لم يزل فارس واقف ما يبلغ الماء حزامه) ولهذا تحدَّث سعد وسلمان ﷺ عن الجيش المؤمن، لا عن بطولة خارقة لسعد أو سلمان (واللّه لينصرن اللّه وَلِيّه ولَيُظهرن اللّه دينه وليهزمن اللّه عدوه، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات) قال سلمان: الإسلام جديد ذللت واللّه لهم البحور كما ذلل لهم البر.

٣ - لم يغرق أحد؟ قد يكون هناك عشرة، فيغرق منهم واحد أو اثنان. أما أن يمخر عباب هذا النهر ستون ألفًا لا يغرق منهم أحد. وحتى الذي كاد أن يغرق استنقذه القعقاع بن عمرو وقد حفظ اللّه - تعالى - الإنسان والأشياء التي تمسهم. فافتُقد قدحٌ راح في غمار دجلة ثم حفظه اللّه على الشاطئ وأعاده إلى صاحبه.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٦٩/٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٠٤٠) والحاكم في المستدرك (٦٥٤١).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦١٢٢).

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب سعد بن أبي وقاص (٣٧٥٢).

(٥) قالها أبو بكر الصديق ﷺ لما أمد خالد بن الوليد بالقعقاع في فتوح العراق عام (١٢ هـ). انظر تاريخ الطبري (٣٠٩/٢).

ألم تكن نجاة موسى عليه الصلاة والسلام في إلقائه في البحر ﴿... فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧] وكانت نجاة الجيش الإسلامي في إلقاء نفسه في يمٍّ دجلة. ليصنع على عين اللَّه، ويُسخِّر اللَّه - تعالى - ملائكته لهم بحيث لا يُفقَد إنسان ولا متاع.

٤ - ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

وسقط بنو إسرائيل في الامتحان.

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤].

لم يقولوا لسعد: لن نعبر دِجلة إنا ها هُنا قاعدون.

بل قالوا: عزم اللَّه لنا ولك على الرشد فافعل. وكانوا وراءه لم يتخلَّف منهم رجل واحد. ونجحوا في الامتحان. ولكن هذا لا يعني أن المهمة انتهت فالطريق طويل.. إنما هي محطة على الطريق، لقد قالها جيل النبوة على لسان سعد بن معاذ: واللَّه لو خُضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلَّف رجل واحد.

ونفذها جيل الخلافة الراشدة. ومضوا مع سعد بن أبي وقاص في لُجَّة بحر دجلة ما تخلَّف منهم رجل واحد.

٥ - ودخل سعد الإيوان يتلو قول اللَّه ﷻ: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨].

ها هو سعد ﷺ في التربية على الجوع والعطش مع الجيل الأول بين قائدهم عليه الصلاة والسلام، كما يصف ذلك عتبة بن غزوان ﷺ: (واللَّه لقد كنت سابع سابعة مع رسول اللَّه ﷺ. وما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى تقرَّحتْ أشداقنا. والتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتَّزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها الآخر).

هذا هو سعد في طعامه وكسائه في الفجر الأول من هذه الدعوة. وها هو في منتصف الطريق في حجَّة الوداع يشرف على الموت ويرى أن حياته قد انتهت في مكة كما يحدثنا ﷺ عن نفسه فيقول: (عادني رسول اللَّه ﷺ في حجة الوداع من وجع أشفيت فيه على الموت..).

وفي رواية أخرى: (أن النبي ﷺ دخل على سعد يعوده في مكة فبكى. فقال: « **ما يبكيك؟** » فقال: خشيت أن أموت في مكة بالأرض التي هاجرت منها كما مات سعد بن خولة. فقال النبي ﷺ: « **اللَّهم اشف سعدًا، اللَّهم اشف سعدًا** ». ثلاث مرار).

(... قال قلت: يا رسول اللَّه أُخَلَّفُ بعد أصحابي؟ قال: « **إنك لن تُخَلَّف فتعمل عملًا تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجةً ورفعةً ولعلك تُخلَّف حتى يَنْتَفِعَ بك أقوام ويُضَرَّ بِكَ آخرون. اللَّهم أمضِ لأصحابي هجرتهم ولا تردَّهم على أعقابهم...** » [1].

وها هو سعد ﷺ يدخل الإيوان، وينفع اللَّه به أقوامًا ويضر به آخرين، ويحقق موعود اللَّه في الأرض. ويكون ممثل المسلمين في استلام مفتاح الإمبراطورية الفارسية من كسرى. ويكون قائد ركب الإيمان إلى تُخُوم فارس.

٦ - أما سلمان ﷺ فهو الذي مثل رحلة الإيمان من فارس وعودته إليها.. لقد هرب وهو ابن صاحب النار في فارس مخلفًا وراءه عزه ومجده، وانضم إلى ركب الإيمان جنديًّا مع بقايا المؤمنين في الأرض ينتقل إلى تركيا والشام والعراق، ويعلمه صاحبه بأمر رسول اللَّه ﷺ قائلًا له: (ما أعلم على ظهر الأرض أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه. ولكن قد أظلَّ زمان نبي وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حَرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى. يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل).

(ثم مرّ بي نفر من كلب تجار فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه وغنيماتي هذه؟ قالوا: نعم. فأعطيتهموها وحملوني معهم حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي عبدًا. فكنت عنده، ورأيت النخل. فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي. ولم يَحُقْ في نفسي. فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة. فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة. فواللَّه ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها. وبُعِثَ رسول اللَّه ﷺ، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق. ثم هاجر إلى المدينة،

---
(١) البخاري، ح (٣٧٢١).

فوالله إني لفي رأس عَذْق لسيدي أعمل فيه بعض العمل وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال: يا فلان قاتل الله بني قَيْلَة (١)، والله إنهم لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة يزعمون أنه نبي. فلما سمعتها أخذتني العرواء (٢) حتى ظننت أني سأسقط على سيدي. فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة ثم قال: ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك. قال: قلت: لا شيء. إنما أردت أن استثبته عما قال.

وقد كان عندي شيء جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء قد كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم .قال: فقربته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: كلوا. وأمسك يده فلم يأكل. فقلتُ في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفْتُ عنه فجمعت شيئًا، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة ثم جئته به. فقلت له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، قال: فأكل رسول الله ﷺ وأمر أصحابه فأكلوا معه. فقلت في نفسي: هاتان اثنتان. ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليَّ شملتان لي. وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي. فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني استثبت في شيء وُصِفَ لي. فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي. فقال لي: تحوَّل، فتحوَّلت فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس. فأَعْجَبَ رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

ثم شغل سلمانَ الرقُّ حتى فاته مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة.... وعتق سلمان. شهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حُرًّا، ثم لم يفتني معه مشهد) (٣).

أما أين سلمان اليوم، فهو بجوار سعد كالملوك على الأسرة. وهو رسول المسلمين إلى فارس يدعوهم إلى الإسلام. (كان رائد المسلمين سلمان الفارسي. وكان

---

(١) قيلة بنت كاهل بن عُذرة.. أم الأوس والخزرج.

(٢) العرواء: برد الحُمى أول مسِّها.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٨٠).

المسلمون قد جعلوه داعية أهل فارس. قال عطية: وقد كانوا أمروه بدعاء أهل بَهُرَسِير. وأمَّروه يوم القصر الأبيض. فدعاهم ثلاثًا.

قال عطية وعطاء، وكان دعاؤه إياهم أن يقول: إني منكم في الأصل، وأنا أرق لكم، ولكم فيَّ ثلاث أدعوكم إليها ما يصلحكم.

- أن تسلموا فإخواننا لكم ما لنا وعليكم ما علينا.
- وإلا فالجزية.
- وإلا نابذناكم على سواء. إن اللَّه لا يحب الخائنين.

قال عطية: فلما كان اليوم الثالث من بَهُرَسِير أبَوْا أن يجيبوا إلى شيء، فقاتلهم المسلمون حين أبَوْا، ولمّا كان اليوم الثالث في المدائن قبل أهل القصر الأبيض وخرجوا، ونزل سعد القصر واتخذ الإيوان مصلًّى).

٧ - وباءت كل محاولات المواجهات الفردية والجماعية من الفرس بالفشل. أمام عِظَم تضحيات جنود الإسلام؛ ابن المخرِّق وابن مشرِّط الحجارة، وغيرهما. لقد ذلل اللَّه - تعالى - الأرض والبحر والناس والحيوان لدعاة النور في الوجود.

٨ - لا بد لنا من الوقوف مَليًّا عند هذا الجيل الذي تمت تربيته على يد سيد البشرية ﷺ وصاغته يد النبوة. ثم الجيل الذي تمت تربيته على يد هؤلاء الربانيين والحواريين، لنجد عجبًا فيه فهو جيل فريد في تاريخ البشرية، ونحن نتساءل: ماذا لو كان إيوان كسرى قد تم افتتاحه من جيل الجاهلية قبل الإسلام؟ كيف يتصرف مع مليارات الدراهم وسلال الذهب والفضة ومقتنيات كسرى كاملة؟ كيف يتم توزيعه؟ كيف يتم جلبه؟ ولنقف قليلًا عند هذا الجيل في عرض بعض نماذج من تربيته على التفريق بين المال العام والمال الخاص.

أ - سعد رضي الله عنه يحدثنا عن ذلك:

(لما كان يوم بدر قتل أخي عمير، وقتلْتُ سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يُسَمَّى ذا الكنيفة. فأتيت رسول اللَّه ﷺ به فقلت: يا رسول اللَّه قد شفاني اللَّه تعالى اليوم من المشركين فَنَفِّلني هذا السيف. فأنا من قد علمتَ. قال: « **إن هذا السيف لا لك ولا لي. ضعْه** ».

فوضعته. ثم رجعت فقلت: عسى أن يُعطَى هذا السيفُ اليوم من لا يبلي بلائي، فرجعت به. فقال: « **اذهب فاطرحه في القبض** ».

فرجعت وبي ما لا يعلمه إلّا اللّه تعالى من قتل أخي وأخذ سلبي. حتى إذا أردت أن أُلقِيَه، لامتني نفسي، فرجعت إليه، فقلتُ: أعطنيه.

فشدَّني صوته، فما جاوزت إلا يسيرًا حتى نزلت سورة الأنفال. فقال لي رسول اللّه ﷺ: « **اذهب فخذ سيفك** » [١].

ب - عن أبي هريرة ﷺ قال:

انصرفنا مع رسول اللّه ﷺ عن خيبر إلى وادي القرى، نزلنا بها أصيلًا مع مغرب الشمس، ومع رسول اللّه ﷺ غلام له أهداه له رفاعة بن زيد الجذامي، فواللّه إنه ليضع رحل رسول اللّه ﷺ إذ أتاه سهم غرب. فأصابه فقتله، فقلنا: هنيئًا له الجنة. فقال رسول اللّه ﷺ: « **لا والذي نفسي بيده إن شملته الآن لتحترق عليه في النار. كان غلَّها من فيء المسلمين في خيبر** ».

فسمعها رجل من أصحاب رسول اللّه ﷺ فأتاه فقال: يا رسول اللّه أصبت شراكين لِنَعْلَين. قال: « **يُعَدُّ لك مثلُهما في النار** » [٢].

لقد آمن هذا الجيل الذي يضحي بحياته ليدخل الجنة أن الغلول الذي هو أَخْذُ شيءٍ من الغنائم قبل توزيعها على أصحابها يقود إلى النار مهما كان ضئيلًا، ولو شراكين لنعلين، وشملة من الغنائم لا توضع فيها، يحتفظ المسلم بها لنفسه، إنما يحتفظ بالنار له جزاءً في جهنم. ونزل فيهم قول اللّه ﷻ: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ** ﴾ [آل عمران: ١٦١].

جـ - لقد كانت بدر التربية الأولى لخيرة أهل الأرض من أهل بدر. وكانت خيبر التربية الثانية لجيل الفتح، الذي شارك أهل بدر في التبشير بالجنة.

« **لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة** » [٣].

« **أنتم خير أهل الأرض** » [٤].

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٥٩/٤) رواه عن أحمد وابن أبي شيبة وغيرهما.

(٢) أخرجه ابن حبان، ح (٤٨٥٢).

(٣) أخرجه أبو داود، ح (٤٦٥٣).

(٤) أخرجه البخاري، ح (٣٩٢٣).

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ [الفتح: ٢٠] وكانت التربية في حنين لجيل الفتح.

(قال ابن اسحاق: ولّما فرغ رسول اللّه ﷺ من ردِّ سبايا حنين إلى أهلها ركب واتبعه الناس يقولون: يا رسول اللّه أقسم علينا فيئًا من الإبل والغنم حتى ألجؤوه إلى شجرة فاختطفت عنه رداءه. فقال: « **أدوا إليّ ردائي أيها الناس فو اللّه أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذابًا** ».

ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها ثم قال: « **أيها الناس واللّه ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم فأدوا الخياط والمخيط؛ فإن الغلول يكون على أهله عارًا ونارًا وشنارًا يوم القيامة** » فجاء رجُل من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال: يا رسول اللّه أخذتُ هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لي دَبِرٍ.

فقال: « **أما نصيبي منها فهو لك** ».

قال: أما إذ بَلَغَتْ هذا فلا حاجة لي بها. ثم طرحَها من يده).

إنها تربية للأمة كلها. فقد علم القائد الأعظم ﷺ جُنده أن كبة الشعر هذه قبل التوزيع هي حق لاثني عشر ألف مقاتل. إنه درس على الهواء مباشرة، لم يقل له ذلك رسول اللّه ﷺ. وإنما قال له: « **أما حقي منها فهو لك** ». فهل يستطيع هذا الجندي أن يأخذ توقيع وموافقة اثني عشر ألف مجاهد بالتنازل عن حقِّهم منها؟؟ وفَقِهَ الصحابي الدرس مباشرة، فقام وألقاها في الغنائم وقال: (أما إذ بَلَغَتْ هذا فلا حاجة لي بها).

ثم كانت التربية الثانية.. أن هؤلاء الجنود سيكونون خصومَه يوم القيامة يطالبونه بحقوقهم. قال ابن هشام: وذكر زيد بن أسلم عن أبيه أن عقيل بن أبي طالب دخل يوم حنين على امرأته فاطمة بنت شيبة بن ربيعة، وسيفه متلطِّخ دمًا. فقالت: إني قد عرفت أنك قد قاتلتَ. فماذا أصبت من غنائم المشركين؟

قال: دونك هذه الإبرة تُخِيطين بها ثيابك. فدفعها إليها.

فسمع منادي رسول اللّه ﷺ يقول: مَن أخذ شيئًا فليردَّه، حتى الـخِياط والـمُخْيَط.

فرجع عقيل فقال: ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت، فأخذها فألقاها في الغنائم)[1].

وأصبحت الأجيال الثلاثة فيما بعد جيل بدر والحديبية والفتح. هي القاعدة الصلبة لهذا الدين وهي التي قامت بتربية الجيل الجديد؛ جيل الخلافة الراشدة على هذه المفاهيم، ونجحت أيما نجاح بذلك. كما برز من الشهادة التي نالوها من معهد التربية العليا بتوقيع سعد ﷺ، وذلك بعد أن خاضوا الامتحانات العسيرة التي بلغت ذروتها في المدائن. إذ وضعوا أمام ثروة الإمبراطورية كلها، وأمام ثروة كسرى كاملة، فكانت الشهادة العليا لهم هي:

(عن جابر بن عبد اللَّه قال: واللَّه الذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة. ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم؛ طليحة بن خويلد، وعمرو بن معديكرب، وقيس بن مكشوح).

وليس العجب أن يتهم هؤلاء الثلاثة واثنان منهما ادعيا النبوة وثالثهم أمضى عمره في حرب المسلمين، إنما العجيب أن يرتفع هؤلاء الثلاثة وأمثالهم في الجيش الإسلامي إلى هذا الأفق الوضيء، من التجرد والأمانة.

أما الشجاعة فهي غريزة أساسية عند العربي في الجاهلية والإسلام وكذلك الجود فهو غريزة أساسية عنده كذلك. كما قال عمرو بن وُدّ العامري:

إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الفَتَى وَالجُودَ مِن خَيْرِ الغَرَائِز

لكن الجود العربي كان مرتبطًا بالأَثَرة والاستئثار والظلم، فيستحوذ القائد على الثروات كلها، ثم يبدأ بتوزيعها لتتحدث الشعراء بجوده وكرمه وشجاعته.

ولو كانت القادسية في الجاهلية. لشهدنا كسرى وأمثالهم يعيدون الطاغوت العربي. ولشهدنا أكبر الأثرياء هم قادة الجيوش. ولشهدنا المذابح بينهم على الغنائم.

لقد كان في جيش المدائن ألفٌ من أصحاب رسول اللَّه ﷺ؛ بمعدل واحد إلى ستين، معلمًا ومربيًا وقائدًا. أنجزوا هذا الإنجاز الضخم الذي نعود إلى نيل الشهادات العليا فيه من معهد التربية النبوية. بل هناك أعلى شهادة بتوقيع سعد وتوثيقه ﷺ كما ذكر الناطق الرسمي: (.. السَّري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٥٧).

والمهلب وعمرو وسعيد قالوا: قال سعد: واللَّه إن الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق لِأهل بدر لقلت: وايم اللَّه - على فضل أهل بدر - لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنات فيما أحرزوا ما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم). وبعث بهذه الشهادة العليا ليتم توقيعها من أمير المؤمنين عمر ﷺ، فمهرها بتوقيعه..

(.. السري عن شعيب عن سيف عن مخلد بن قيس العجلي عن أبيه قال: لما قدم بسيف كسرى على عمر ﷺ ومنطقته وزِبْرِجِه قال:

إن قومًا أدَّوْا هذا لذوو أمانة.

وعن الشعبي: إن أقوامًا أدَّوْا هذا لذوو أمانة).

وقام رئيس مجلس الشورى علي بن أبي طالب ورئيس هيئة المحاسبة للحكام بتقديم شهادته العظيمة لأمير المؤمنين، وقدم شهادة مجلس الشورى لأمير المؤمنين: (إنك عفَفْتَ، فعفَّتْ الرعية).

٨ - ثم قدم عمر ﷺ كلمة ضافية ألقاها على الأمة. ووصلت إلينا بعد خمسة عشرَ قرنًا كأنما ألقيت اليوم. ما أحوجنا أن نحفرها في القلوب والعقول قبل السطور:

(قالوا: ولما قسم البساط بين الناس أكثر الناس في فضل أهل القادسية فقال عمر: أولئك أعيان العرب وغُرَرُها، اجتمع لهم مع الأخطار الدين، هم أهل الأيام وأهل القوادس).

كما أقدم أمير المؤمنين ﷺ بعرض مسرحية ضافية مَثَّلَتْ أمام المسلمين في المدينة عظمة الانتصار الإسلامي على الفرس المجوس عبدة النار. وهذا عرض كامل للمسرحية:

(قالوا: ولما أتي بحلي كسرى وزيه في المباهاة وزيه في غير ذلك - وكانت له عدة أزياء، لكل حالة زيّ - قال: علَيَّ بمحَلِّم - وكان أجسم عربي يومئذ بأرض المدينة.

- فأُلبس تاج كسرى على عمودين من خشب.
- وصَبَّ عليه أوشِحَته وقلائده وثيابه.
- وأُجلس للناس.
- فنظر إليه عمر، ونظر إليه الناس.
- فرأوا أمرًا عظيمًا من أمر الدنيا وفتنتها.

- ثم قام عن ذلك فألبسه زيه الذي يليه.
- فنظروا إلى مثل ذلك في غير نوع.
- حتى أتى عليها كلها.
- ثم ألبسه سلاحه، وقلده سيفه.
- فنظروا إليه في ذلك. ثم وضعه ثم قال:
- إن قومًا أدوا هذا لذوو أمانة.
- ونفل سيف كسرى محلِّمًا) [(١)].

وكانت الكلمة الختامية لأمير المؤمنين تعليقًا على هذه المسرحية. (وقال: أَحمِقْ بامرئ من المسلمين غرته الدنيا، هل يبلغن مغرور منها إلا دون هذا أو مثله، وما خيرُ امرئ مسلم سبقه كسرى فيما يضره ولا ينفعه. إن كسرى لم يزد على أن تشاغل بما أوتي عن آخرته. فجمع لزوج امرأته أو زوج ابنته أو امرأة ابنه ولم يقدم لنفسه. فقدَّمَ امرؤ لنفسه ووضَعَ الفضول مواضعها. تحصُلُ له. وإلا حصلت للثلاثة من بعده. وأَحمِقْ بمن جمع لهم أو لعدو جارف) [(٢)].

وهذا ما جمعه كسرى لهذا العدو الجارف - المسلمين - الذين كانوا هم الوارثين.

٩ - ولا بد من العودة بنا إلى عمر وهو جندي في الجيش الإسلامي، وتلميذ متفوق في مدرسة النبوة وذلك يوم حدثنا عن المحنة العاصفة التي حلت ببيت النبوة حين أشيع أن رسول اللَّه ﷺ طلق نساءه. ورآه الأنصاري أعظم من غزو الروم للمسلمين.

(.. فدخلت فسلَّمت على رسول اللَّه ﷺ. فإذ هو متكئ على رملِ حصيرٍ قد أثر في جنبه. فقلت: أطلَّقت يا رسول اللَّه نساءك؟ فرفع رأسه إليَّ وقال: « **لا** ». فقلتُ: اللَّه أكبر... قلت: أستأنس يا رسول اللَّه؟ قال: « **نعم** ». فجلستُ فرفعتُ رأسي في البيت، فواللَّه ما رأيت فيه شيئًا يَرُدُّ البصر إلا أُهُبًا ثلاثة. فقلتُ: ادعُ اللَّه يا رسول اللَّه أن يوسِّع على أمتك، فقد وسَّع على فارس والروم وهم لا يعبدون اللَّه. فاستوى جالسًا ثم قال: « **أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئكَ قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا** ». فقلت: استغفر لي يا رسول اللَّه..) [(٣)].

(١، ٢) تاريخ الطبري (٤٦٧/٢).

(٣) صحيح مسلم ح (١٤٧٩).

وها هي اليوم ثروة الإمبراطورية توضع بين يدي أمير المؤمنين في المدينة وملك كسرى ما عدا كسرى عنده. ومن أجل هذا وجدها فرصة سانحة ليصغر هذه الدنيا التي تُلقَى بين يديهم كاملة ويذكرهم بالآخرة وما أعد اللَّه للمؤمنين.

١٠ - كان ذلك في الوقت الذي توضع سلال الذهب والفضة دون أن تُمس في الغنائم وتوضع الحيوانات من الذهب والفضة في الغنائم، ويوضع تاج كسرى وثيابه كلها في الغنائم، وبساط كسرى الذي قُطِّع ووزِّع على المسلمين في المدينة، فأصابت قطعة منه رئيس مجلس الشورى عليًا ﷺ فباعها بعشرين ألف درهم، وكان نصيب كل فارس اثني عشر ألفًا، وقسمت الدور في المدائن بين المجاهدين، وراحت الكتائب تلاحق العدو بيقظة واعية دون أن يعطلها البطر بالنصر عن ذلك.

* * *

* *

*

الفصل الثامن

وقعة جَلُوْلَاء

وبدأ الفصل الجديد من الصراع:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال: لما أقمنا بالمدائن حين هبطناها واقتسمنا ما فيها. وبعثنا إلى عمر بالأخماس، وأوطنَّاها أتانا الخبر بأن مِهران قد عسكر بجَلُولاء، وخندق عليه. وأن أهل الموصل قد عسكروا بتكريت... فكتب سعد بذلك إلى عمر، فكتب إلى سعد:

أن سَرِّحْ هاشم بن عتبة إلى جلولاء في اثني عشر ألفًا، واجعل على مقدمته القعقاع ابن عمرو، وعلى ميمنته سعد بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة، واجعل على ساقته عمرو بن مرة الجهني.

كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وزياد قالوا: وكتب عمر إلى سعد: إن هزم اللّه الجندين - جند مهران وجند الأنطاق - فقدِّم القعقاع حتى يكون بين السواد وبين الجبل على حدِّ سوادكم، وشاركهم عمرو وسعيد قالوا: وكان من حديث أهل جلولاء أن الأعاجم لما انتهوا بعد الهرب من المدائن إلى جلولاء، وافترقت الطرق بأهل أذْرَبيجان والباب وبأهل الجبال وفارس، تذامروا وقالوا: إن افترقتم لن تجتمعوا أبدًا، وهذا مكان يفرق بيننا، فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم، فإن كانت لنا فهو الذي نريد، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا، وأبلينا عذرًا. فاحتفروا الخندق، واجتمعوا فيه على مِهران الرازي. ونفذ يزدجرد إلى حلوان فنزل بها، ورماهم بالرجال، وخلف فيهم الأموال، فأقاموا في خندقهم وقد أحاطوا به الحَسَكَ من الخشب إلا طرقهم...

ففصل هاشم بن عتبة بالناس من المدائن في صفر سنة ستَ عشرةَ في اثنَي عشرَ ألفًا منهم وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممن ارتد وممن لم يرتد. فسار من المدائن إلى جلولاء أربعًا حتى قدم عليهم وأحاط بهم فحاصرهم...) [1].

---

(١) تاريخ الطبري (٤٦٨/٢).

لقد سقطت المدائن ولم يسقط يزدجرد. وبقي يقود المعارك خمسة عشر عامًا بعدها حتى قُتل عام واحد وثلاثين للهجرة، لم تنقطع الحرب فيها بين المسلمين والفرس. وما من قطر يسقط من أقطار الإمبراطورية الفارسية. إلا ويدفع الفرس الثمن غاليًا دونه، وكذلك يدفعه المسلمون. لكنه فتح في الأرض يصلها بمنبع النور في الوجود. هذا وبين جلولاء وبين المدائن حوالي مائة كيلو متر، بينما أقام يزدجرد في حلوان التي تبعد عن جلولاء قرب هذه المسافة. ولم يكن اختيار جلولاء عبثًا، إنما كان مفترق رعايا الإمبراطورية هناك كما تذكر الرواية. (وكان من حديث أهل جلولاء أن الأعاجم لما انتهوا بعد الهرب من المدائن إلى جلولاء وافترقت الطرق **بأهل أذربيجان والباب، وبأهل الجبال، وبفارس** تذامروا [1] وقالوا: إن افترقتم لم تجتمعوا أبدًا. وهذا مكان يفرق بيننا).

فنحن أمام أربع جنسيات هنا تابعة للدولة الفارسية: أذربيجان، والباب، وأهل الجبال، وفارس. وإذا تجاوزوا جلولاء، فسيمضي كل فريق إلى أهله. فحتى الآن لا يزال الجيش الفارسي بكل جنسياته وعلى تعبئته. وبإمكانه أن يُحقِّق نصرًا ذا بال، يغير المسار كله، ولا يزال الإمبراطور يزدجرد بجوارهم في حلوان، وهو رمز الإمبراطورية. ويمكن جمع شمل الإمبراطورية من خلاله.

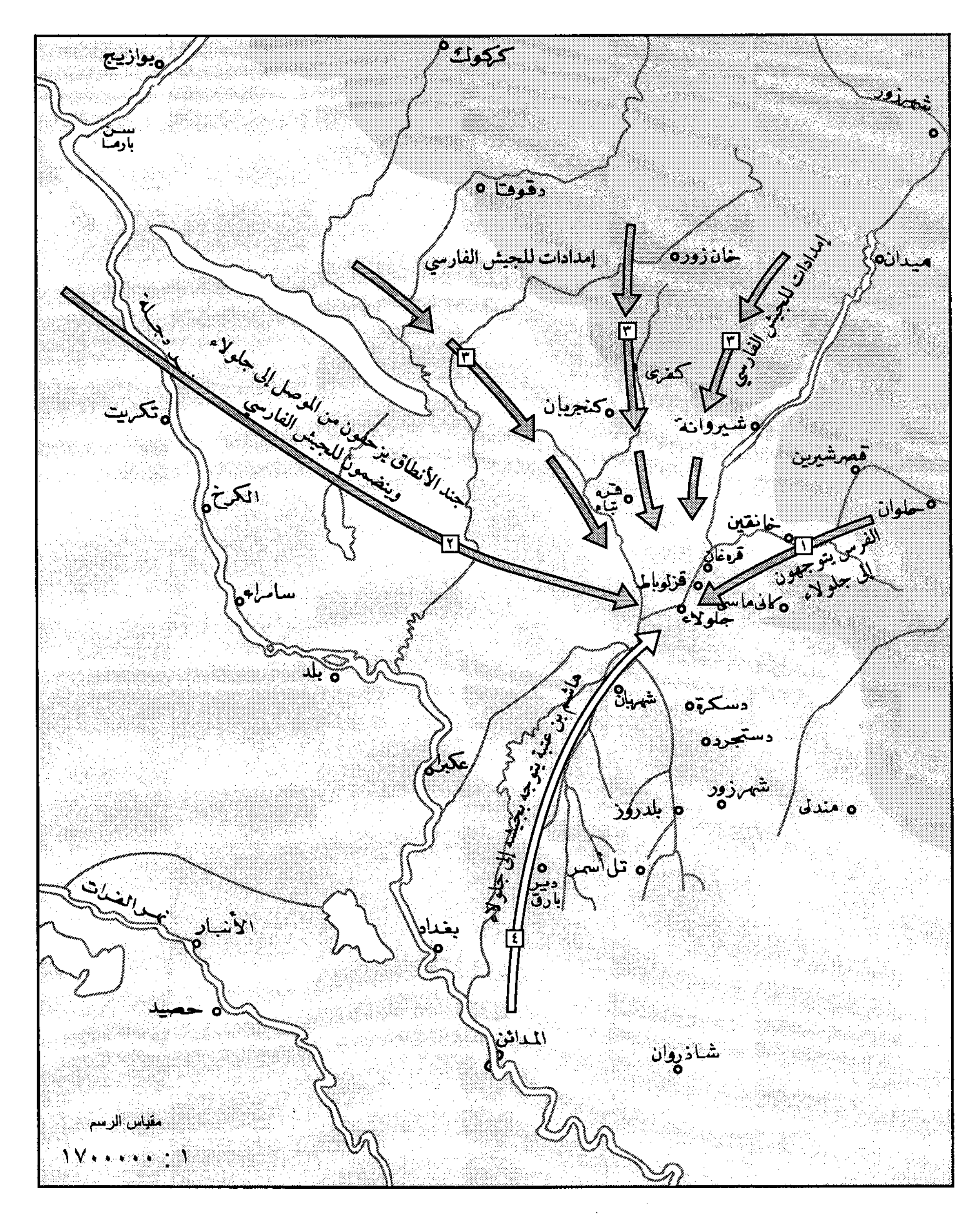
- فهلموا فلنجتمع للعرب ولنقاتلهم.
- فإن كانت لنا فهو الذي نريد.
- وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا وأبلينا عذرًا.
- فاحتفروا الخندق.
- واجتمعوا فيه على مِهران الرازي...) [2].

حيث أخذ شرعيته من تولية يزدجرد له، واختيار المقاتلين له، وبرز نشاطهم في احتفار الخندق بينهم وبين المسلمين.

---

(١) تذامروا: حضَّ بعضهم بعضا على القتال.

(٢) تاريخ الطبري (٤٦٨/٢).



مراحل تحرك جيوش الفرس وجند الأنطاق والجيش الإسلامي إلى جلولاء

فكيف كان موقف المسلمين؟

الأمة الحية التي لا تنام، والقائد الحي العظيم الذي لا ينام، والخليفة العظيم الذي لا ينام ولا يُنيم وكأنه جندي في ساحة المعركة، وكأنما نحن في عصر الهواتف،

بحيث يكون الخبر عند أمير المؤمنين مباشرة. وكما تتم الاجتماعات في الغرف المغلقة اليوم من أنحاء العالم، نشهد أمير المؤمنين ﷺ يجتمع مع قائده سعد وجنده، يقدم سعد ﷺ تقريره الكامل عن الساحة العسكرية، والخرائط المصورة لمكان تجمُّع العدو، وصورًا عن المعلومات المتوفرة عن تحركات العدو وقيادته. ويتم تدارس الموقف، ويتم اتخاذ القرار المناسب بتكوين جيش جديد يحدد عدده حسب الحاجة المطروحة. وتسمى قياداته، ويحدد موعد تحركه نحو العدو.

هذه الصورة التي نراها في حروب اليوم. واستقدام التقنيات الحديثة الكاملة فيها، نجدها في هذا العرض الوجيز من سعد، وفي هذا القرار المتكامل من أمير المؤمنين بحيث لا يحتاج سعد ﷺ إلى أي سؤال أو استفسار بعد ظهور وإعلان القرار. والأعجب في هذه الأمور تعيين رئاسة الأركان، وكل قادة المواقع في الجيش من أمهر الضباط وأكفئهم، ومشاركة خير المقاتلين المجاهدين من وجوه المهاجرين والأنصار. ولا نبالغ إذا قلنا إنهم خلاصة جيش سعد جندًا وقادة.

(فكتب بذلك سعد إلى عمر، فكتب إليه عمر:

- سرِّح هاشم بن عتبة إلى جلولاء.
- في اثني عشر ألفًا.
- واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو.
- وعلى ميمنته سعد بن مالك.
- وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة.
- واجعل على ساقته عمرو بن مرة الجهني).

متى تكونت هذه المعلومات عند أمير المؤمنين عن هذه القيادات؟ ولا شك أنه يختارها من مجموعة كبيرة عنده. ترى هل حضر القادسية والمدائن؟! نعم يمكن القول أنه حضرها كاملة؛ فالأخبار تصل إليه عن كل حركة وسكنة في الجيش. أوَ لم يبعث الأفراس والسيوف لإعطائها لأبطال الجهاد؟!

ونحن لا نكاد نعرف إلا الأسماء المشهورة جدًّا، هاشم والقعقاع وأمثالهما، ونبحث في بطون الكتب والتراجم عن هذه القيادات فلا نعرف شيئًا عنهم.

ونجدنا ماضين مع الجيش إلى جلولاء.

المعركة

قال ابن جرير: (ثم اشترك عمرو ومحمد والمهلب وطلحة وسعيد. فقالوا:

ففصل هاشم بن عتبة بالناس من المدائن في صفر سنة ست عشرة، منهم وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممن ارتد ومَنْ لم يرتد. فسار من المدائن إلى جلولاء أربعًا حتى قدم عليهم وأحاط بهم وحاصرهم.

وطاولهم أهل فارس، وجعلوا لا يخرجون عليهم إلا إذا أرادوا؛ وزاحفهم المسلمون بجلولاء ثمانين زحفًا. كل ذلك يعطي اللّه المسلمين عليهم الظفر. وغلبوا المشركين على حَسَك الخشب فاتخذوا حَسَك الحديد).

(.. السري عن شعيب عن سيف عن عقبة بن مكرم عن بطان بن بشر قال:

لما نزل هاشم على مِهران بجَلُولاء حصرهم في خندقهم. فكانوا يزاحفون المسلمين في زهاء وأهاويل [١]، وجعل هاشم يقوم في الناس ويقول: إن هذا المنزل منزل له ما بعده.

وجعل سعد يمدّه بالفرسان. حتى إذا كان أخيرًا احتفلوا [٢] للمسلمين. فخرجوا عليهم. فقام هاشم في الناس فقال: أبلوا اللّه بلاء حسنًا، يَتِمَّ لكم الأجر والمغنم واعملوا للّه.

والتقوا فاقتتلوا.

وبعث اللّه عليهم ريحًا أظلمت عليهم البلاد فلم يستطيعوا إلا المحاجزة [٣]. فتهافت فرسانهم في الخندق. فلم يجدوا بُدًّا من أن يجعلوا فُرَضًا [٤] مما يليهم تصعد منه خيلهم فافسدوا حصنهم، وبلغ ذلك المسلمين، فنظروا إليه فقالوا:

أننهض إليهم ثانية فندخله عليهم أو نموت دونه؟ فلما نَهَدَ المسلمون الثانية خرج القوم. فرمُوا حول الخندق مما يلي المسلمين بحَسَك الحديد لكيلا يقدم عليهم الخيل. وتركوا للمجال وجهًا، فخرجوا على المسلمين منه. فاقتتلوا قتالًا شديدًا لم يقتتلوا مثله إلا ليلة الهرير، إلا أنه كان أكمش وأعجل.

---

(١) في زهاء وأهاويل: في استخفاف وإرعاب للمسلمين.

(٢) احتفلوا للمسلمين: اجتمعوا لهم.

(٣) المحاجزة: إيقاف الحرب.

(٤) الفُرَض: جمع فُرضَة وهي الثلمة من النهر.

وانتهى القعقاع بن عمرو في الوجه الذي زاحف فيه إلى باب خندقهم، وأخذ به، وأمر مناديًا فنادى: يا معشر المسلمين، هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به. فأقبِلوا إليه ولا يمنعكم مَنْ بينكم وبينه من دخوله. وإنما أمر بذلك ليقوِّي المسلمين به. فحمل المسلمون ولا يشكون أن هاشمًا فيه، فلم يَقُمْ لحملتهم شيء حتى انتهوا إلى باب الخندق. فإذا هم بالقعقاع بن عمرو وقد أخذ به. وأخذ المشركون في هزيمة يمنة ويسرة عن المجال الذي بحيال خندقهم. فهلكوا فيما أعدوا للمسلمين. فَعُقِرتْ دوابُّهم، وعادوا رَجَّالة. واتبعهم المسلمون. فلم يفلت منهم إلا مَن لا يُعدّ. وقتل اللَّه منهم يومئذ مِائة ألف، فجلّلتِ القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه، فَسُمِّيَت جلولاء بما جَلَّلَها من قتلاهم فهي جلولاء الوقيعة) [١].

وتلك صورة من داخل المعركة يصفها أحد المشاركين فيها:

(... السري عن شعيب عن سيف عن عبيد اللَّه بن محفز عن أبيه قال:

إني لفي أوائل الجمهور مدخلهم ساباط ومظلمها. وإني لفي أوائل الجمهور حين عبروا دجلة، ودخلوا المدائن. ولقد أصبت تمثالًا لو قسم في بكر بن وائل لسد منهم مسدًّا، عليه جوهر، فأديته.

فما لبثنا بالمدائن إلا قليلًا حتى بلغَنا أن الأعاجم جمعت لنا بجلولاء جمعًا عظيمًا، وقدموا عيالاتهم إلى الجبال، وحبسوا الأموال. فبعث إليهم سعدُ عمرو بن مالك ابن عتبة [٢] بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة. وكان جند جلولاء اثني عشر ألفًا من المسلمين على مقدمتهم القعقاع بن عمرو... ثم مضى حتى قدم جلولاء فوجدهم قد خندقوا وتحصنوا في خندقهم، ومعهم بيت مالهم، وتواثقوا وتعاهدوا بالنيران ألَّا يفروا. ونزل المسلمون قريبًا منهم، وجعلت الأمداد تقدم على المشركين كل يوم من حلوان وجعل يمدهم بكل من أمده من أهل الجبال. واستمد المسلمون سعدًا فأمدهم بمائتي فارس ثم مائتين ثم مائتين. ولما رأى أهل فارس أمداد المسلمين بادروا

---

(١) تاريخ الطبري (٤٦٨/٢، ٤٦٩).

(٢) الصحيح أن هشام بن عتبة بن مالك بن أهيب هو على رأس الجيش وهو ابن أخي سعد ﷺ . أما عمرو ابن مالك بن عتبة بن أهيب فهو قائد الميسرة.

بقتال المسلمين، وعلى خيل المسلمين يومئذ طليحة بن فلان أحد بني عبد الدار، وعلى خيل الأعاجم خرّزاد بن خرّ هرمز.

فاقتتلوا قتالًا شديدًا، لم يقاتلوا المسلمين مثله في موطن من المواطن، حتى أنفدوا النبل وحتى أنفدوا النشاب، وقصفوا الرماح حتى صاروا إلى السيوف والطبرزينات [١]. فكانوا بذلك صدر نهارهم إلى الظهر. ولما حضرت الصلاة صلَّى الناس إيماءً، حتى إذا كان بين الصلاتين خَنَسَت [٢] كتيبة وجاءت أخرى فوقفت مكانها. فأقبل القعقاع ابن عمرو على الناس. فقال: أهالتكم هذه؟ قالوا: نعم نحن مُكِلّون وهم مريحون، والكالُّ يخاف العَجْز إلا أن يُعْقِب. فقال: إنا حاملون عليهم ومُجادّوهم وغير كافّين ولا مقلعين حتى يحكم اللّه بيننا وبينهم. فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ولا يكذبن أحد منكم.

فحمل فانفرجوا. فما نُهنه أحد عن باب الخندق. وألبسهم الليل رواقه. فأخذوا يمنة ويسرة، وجاء في الأمداد طليحة بن خويلد، وقيس بن مكشوح وعمرو بن معديكرب وحُجْرُ بن عَدي فوافقوهم قد تحاجزوا في الليل. ونادى منادي القعقاع بن عمرو: أين تحاجزون وأميركم في الخندق؟ فتفارَّ المشركون، وحمل المسلمون فأَدخُل الخندق، فآتي فسطاطًا فيه مرافق وثياب، وإذا فرشٌ على إنسان فأنبشُه. فإذا امرأة كالغزال في حسن الشمس. فأخذتها وثيابها، فأديت الثياب. وطلبت في الجارية حتى صارت إليَّ فاتخذتُها أم ولد) [٣].

* * *

١ - إنها يرموك جديدة وياقوصة جديدة. والقوم مقاتلون عنيفون. فما ذكر عن شدة القتال وهَولِه يبرز هذا الجانب حيث فَنِيَتِ النَّبل، وتقصَّفَتِ الرماح وكسرت السيوف وتصارعوا بالطبرزينات وكانت البداية لصالح العدو. حيث خندق حوله وتحصن، وعنده الزاد والمال، لا يتم القتال إلا حيث يريد. والمسلمون في أعدادهم الضئيلة. لم يبخلوا على المعركة بشيء؛ من مال أو جهد أو سلاح حتى أصابهم الإعياء.

---

(١) الطبرزينات: جمع طبرزينة: وهي نصل حديد مركب في قائم من الخشب كالفأس بحيث يكون النصل مدببًا من ناحية ومن الناحية الأخرى رقيقًا مشحوذًا كالسكين.

(٢) أي تأخرت ليحل غيرها مكانها.

(٣) تاريخ الطبري (٤٦٩/٢، ٤٧٠).

٢ - وإن كان سبق هذه المواجهة ثمانون زحفًا، كان العدو هو الذي يحدد فيها زمان ومكان المعركة، ومع هذا فما هزم جيش الإسلام في زحف من هذه الزحوف. إنه جيل حي يملك مقومات الحياة كلها، ويواجه خبرات قرون عند الإمبراطورية الفارسية.

٣ - والقائد في النهاية هو قائد الساعات الأخيرة الذي يقلب الكفة كاملة ويحقق النصر المؤزر.. ففي المنظور القريب لا أمل في الفتح أمام شراسة العدو، بل سيطرت على المسلمين روح الوهن (فقال: أهالتكم هذه؟ قالوا: نعم. نحن مُكلون وهم مريحون، والكالُّ يخاف العجز إلا أن يعقب). في هذه اللحظات تبدو عظمة القيادة التي تنفخ روح الحياة والأمل والثقة في الجيش. فهو لن يتراجع ولن يهادن (إنا حاملون عليهم ومُجادّوهم وغير كافين ولا مقلعين حتى يحكم اللّه بيننا وبينهم). إنها المدرسة التي أخذ القعقاع فيها الدورات الحربية العليا في مدرسة خالد ﷺ حيث قال لأهل قنسرين:

(لو كنتم في السحاب لحملَنا اللّه إليكم أو لأنزلكم إلينا).

والجديد في الساحة وصول الرجال العظام الأربعة عمرو بن معديكرب وطلحة بن خويلد، وقيس بن مكشوح وحُجر بن عدي الذين يبعثون الأمل الجديد في الجيش المقاتل المنهك.

٤ - والقائد العظيم هو نهَّاز الفرص بحيث يعرف كل كبيرة وصغيرة عند عدوه، فظاهر الأمر أن العدو أقوى مما كان عليه وأبدل حَسَكَ الخشبِ بحسَكِ الحديدِ. والأمداد تصل إليه بكثافة من يزدجرد من حلوان. لكن الريح التي هبت لا بد أن تؤثر على خطة الجيش وتغير من تكتيكه. وهذا ما تم فعلًا فقد وقعت المحاجزة بعدها وتهافت فرسانهم في الخندق. وحتى يسووا هذا الأمر، كان لابد أن يفتحوا ثغرات في النهر تصعد منها خيلهم.

٥ - وهنا تحرك ليستفيد من هذه الثغرات التي فتحت لتكون ممرًّا لخيل المشركين. وانقض في اللحظة المناسبة فكان على باب الخندق.

وهنا استعرت الحرب على أشد ما تكون فلا بد أن يقوم المشركون بإزاحة القعقاع عن هذا الموقع الذي أحرزه. غير أن القعقاع يود أن يسجل تقدمًا أعظم؛ فبعث مناديه يقول:

(يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق وأخذ به فأقبلوا إليه). وفي الرواية الثانية (أين تحاجزون وأميركم في الخندق؟) وحمل المسلمون ودخلوا الخندق، وصار زمام المبادرة بيدهم. فلم يكن لدى العدو غير هزيمة.

٦ - وحين تقع الهزيمة الكيفية لفريق، تصبح الظروف كلها معاكسة له.

(وأخذ المشركون في هزيمة يمنة ويسرة عن المجال الذي بحيال خندقهم، فهلكوا فيما أعدّوا للمسلمين فعُقِرَتْ دوابهم. وعادوا رَجّالةً، وأتبعهم المسلمون. فلم يفلت منهم إلا من لا يعدّ وقَتَل اللّه منهم يومئذ مِائة ألف. فجلّلت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه فسميت جلولاء وبما جللها من قتلاهم، فهي جلولاء الوقيعة).

الغنائم

قال أبو جعفر: (.. كتب إلى السري عن شعيب عن عمرو عن الشعبي قال:

١ - سلمان الخيل:

أفاء اللّه على المسلمين ما كان في عسكرهم بجلولاء، وما كان عليهم. وكل دابة كانت معهم إلا اليسير، لم يفلتوا إلا بشيء من الأموال. ووَلِيَ قَسْمَ ذلك بين المسلمين سلمان بن ربيعة فكانت إليه يومئذ الأقباض والأقسام، وكانت العرب تسميه لذلك سلمان الخيل. وذلك أنه كان يقسم لها ويقصر بما دونها. وكانت العِتاق عنده ثلاث طبقات. وبلغ سهم الفارس بجلولاء مثل سهمه بالمدائن) [١].

٢ - ثلاثون ألف ألف:

ونفل سعد من أخماس جلولاء مَنْ أعظم البلاء ممن شهدها، ومَنْ أعظم البلاء ممن كان نائيًا بالمدائن. وبعث بالأخماس مع قضاعيّ بن عمرو الدؤلي من الأذهاب والأوراق والآنية والثياب، وبعث بالسبي مع أبي مفزّر الأسدي، فمضيا.

اقتسم الناس فيءَ جلولاء على ثلاثين ألف ألف، وكان الخمس ستة آلاف ألف.

.. واقتسم في جلولاء على كل فارس تسعة آلاف تسعةً آلاف، وتسعة من الدوابّ. ورجع هاشم بالأخماس إلى سعد) [٢].

(١، ٢) تاريخ الطبري (٤٧٠/٢).

٣ - كل شيء للأقباض:

(.. فآتي فسطاطًا فيه مرافق وثياب. وإذا فَرشٌ على إنسان، فأنبشه فإذا امرأة كالغزال في حسن الشمس، فأخذتها وثيابها، فأدَّيت الثياب، وطَلبْتُ في الجارية حتى صارت إليَّ فاتخذتها أمَّ ولد).

(عن حماد بن فلان البرجمي عن أبيه أن خارجة بن الصلت أصاب يومئذ ناقة من ذهب أو فضة موشحة بالدر والياقوت، مثل الجفرة إذا وُضِعت على الأرض، وإذا عليها رجل من ذهب موشح كذلك. فجاء بها وبه حتى أداهما) [(١)].

٤ - إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا:

(بعث بالأخماس مع قضاعي وأبي مُفَزِّر والحساب مع زياد بن أبي سفيان - وكان الذي يكتب للناس ويدونهم - فلما قدموا على عمر، كلم زياد عمر فيما جاء له ووصف له. فقال له عمر: هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به؟

فقال: واللَّه ما على الأرض شخص أهْيَبَ في صدري منك. فكيف لا أقوى على هذا من غيرك؟! فقام في الناس بما أصابوا وما صنعوا. وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد. فقال عمر: هذا الخطيب المِصْقَع. إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) [(٢)].

٥ - واللَّه لا يُجِنُّه [(٣)] سقف بيت حتى أقسمه:

(لما قُدِمَ على عُمَر بالأخماس من جلولاء، قال عمر: واللَّهِ لا يُجنّه سقفُ بيت حتى أقسمه. فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد اللَّه بن أرقم يحرسانه في صحن المسجد. فلما أصبح جاء في الناس فكشف عنه جلابيبه - وهي الأنطاع - فلما نظر إلى ياقوته وزِبَرْجَدِهِ وجَوْهَرِه بكى. فقال له عبد الرحمن: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فواللَّه إن هذا لموطن شكر.

فقال عمر: واللَّه ما ذلك يبكيني. وتاللَّه ما أعطى اللَّه هذا قومًا إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا أُلْقِيَ بأسُهم بينهم.

وأشكل على عمر في أخماس القادسية حتى خطر عليه ما أفاء اللَّه - يعني من

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٧٠). (٢) المصدر نفسه (٤٧١).

(٣) لا يُجِنُّ الغنائمَ سقفٌ: أي لا تدخل بيتا فتكون تحت سقفه.

الخمس - فوضع ذلك في أهله. فأجرى خُمس جلولاء مجرى خُمس القادسية عن مَلَإٍ وتَشَاوُرٍ وأجماعٍ من المسلمين. ونقل ذلك بعض أهل المدينة.

٦ - الفلاحون واحدة وثانية وثالثة:

قال أبو جعفر: (وجمع سعد من وراء المدائن، وأمر بالإحصاء فوجدهم بضعة وثلاثين ومائة ألف. ووجدهم بضعة وثلاثين ألف أهل البيت. ووجد قسمتهم ثلاثة لكل رجل منهم بأهلهم. فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر:

- أن أقر الفلاحين على حالهم - إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدركته، وأجْرِ لهم ما أجريت للفلاحين قبلهم.

- وإذا كتبتُ إليك في قوم فأجْرُوا أمثالهم مُجراهم.

فكتب إليه سعد فيمن لم يكن فلاحًا فأجابه:

- أما من سوى الفلاحين فذاك إليكم ما لم تغنموه - يعني تقتسموه.

- ومن ترك أرضه من أهل الحرب فخلَّاها فهي لكم.

- فإن دعوتموهم وقبلتم منهم الجِزاء ورددتموهم قبل قسمتها فذمة.

- وإن لم تدعوهم ففيء لكم لمن أفاء اللَّه ذلك عليه.

وكان أحظى بفيء الأرض أهل جَلولاء؛ استأثروا بفيء ما وراء النهروان، وشاركوا الناس فيما كان قبل ذلك.

فأقروا الفلاحين، ودعوا من لج، ووضعوا الخراج على الفلاحين، وعلى من رجع وقَبِلَ الذمة، واستصفَوا ما كان لآل كسرى، ومن لج معهم فيئًا لمن أفاء اللَّه عليه، لا يجاز بيع شيء من ذلك فيما بين الجبل إلى الجبل من أرض العرب إلا من أهله الذين أفاء اللَّه عليهم، ولم يجيزوا بيع ذلك فيما بين الناس - يعني فيمن لم يفئه اللَّه تعالى عليه ممن يعاملهم ممن لم يفئه اللَّه ﷻ عليه - فأقره المسلمون لم يقتسموه؛ لأن قسمته لم تتأت لهم. فمن ذلك الآجام ومغيض المياه، وما كان لِبُيُوت النار، ولسكك البُرُد. وما كان لكسرى ومن جامعه، وما كان لمن قُتل، فكان بعض من يُرِقّ يسأل الولاة قسم ذلك، فيمنعهم من ذلك الجمهور، أبوا ذلك. فانتهوا إلى رأيهم ولم يجيبوا) [1].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٧١، ٤٧٢).

الصوافي:

(لم يثبت من أهل السواد على العهد فيما بينهم وبين أهل الأيام إلا أهل قريات أخذوها عنوة، كلهم نكث، ما خلا أولئك القريات، فلما دُعوا إلى الرجوع صاروا ذمة، وعليهم الجِزاء. ولهم المَنَعَة إلا ما كان لآل كسرى ومن معهم، فإنه صافية فيما بين حُلوان والعراق، وكان عمر قد رضي بالسواد من الريف) (١).

(.. وكتبوا إلى عمر في الصوافي فكتب إليهم: أن اعمَدوا إلى الصوافي التي أصفاكموها اللَّه، فوزِّعوها على من أفاءها اللَّه عليه، أربعة أخماس للجند، وخمس في مواضعه إليَّ، وإن أحبوا أن ينزلوها فهو الذي لهم. فلما جُعِلَ ذلك إليهم، رأَوْا ألَّا يفترقوا في بلاد العجم، وأقروها حبيسًا لهم، يولونها مَن تراضوا عليه ثم يقتسمونها في كل عام. ولا يولونها إلا من أجمعوا عليه بالرضا، وكانوا لا يجمعون إلا على الأمراء، كانوا بذلك في المدائن، وفي الكوفة حين تحولوا إلى الكوفة) (٢).

(فكان الفلاحون للطرق والجسور والأسواق والحرث والدلالة مع الجِزاء عن أيديهم على قدر طاقتهم، وكانت الدهاقين للجزية عن أيديهم والعمارة، وعلى كلهم الإرشاد وضيافة ابن السبيل من المهاجرين، وكانت الضيافة لمن أفاءها اللَّه خاصة ميراثًا) (٣).

- والصوافي لا تُباع:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن المستنير بن يزيد وحكم بن عمير عن إبراهيم بن يزيد قال: لا يحل اشتراء أرض فيما بين حلوان والقادسية، والقادسية من الصوافي؛ لأنه لمن أفاءه اللَّه عليه).

(وعن محمد بن قيس عن المغيرة بن شبل قال: اشترى جرير من أرض السواد صافية على شاطئ الفرات، فأتى عمر فأخبره، فردّ ذلك الشراء وكرهه، ونهى عن شراء شيء لم يقتسمه أهله) (٤).

(١، ٢) تاريخ الطبري (٤٧٢/٢).

(٣) المصدر نفسه (٤٧١/٢، ٤٧٢).

(٤) المصدر نفسه (٤٧٣/٢).

متابعة تحرير العراق

نحن الآن في قلب العراق، وطالما يزدجرد على قيد الحياة، فعمليات المواجهة قائمة. وحسب الخطة الحربية الإسلامية؛ فمتابعة العدو وملاحقته بعد الهزيمة جزء أساسي من المعركة. وقد فهم المسلمون ذلك من المدرسة النبوية، وتربوا عليه، فقد كانت ملاحقة العدو في أُحُدٍ مرتين؛ مرةً من خلال سرية ومرة من خلال الجيش الإسلامي في حمراء الأسد، وكذلك في الخندق حيث بعث رسول اللَّه ﷺ حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه في أصعب الظروف وأعقدها فقط ليشهد انسحاب العدو. دون أن يُحدث فيه حدثًا.

* * *
* *
*



الفصل التاسع

تحرير كامل العراق

والعجيب أن نأتي أوامر الملاحقة والمطاردة من أمير المؤمنين من المدينة.

من جلولاء إلى حُلْوَان:

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد قالوا: وقد كان عمر ﷺ كتب إلى سعد: إن فتح اللَّه عليكم جلولاء، فسرِّح القعقاع بن عمرو في آثار القوم حتى ينزل الحلوان، فيكون ردءًا للمسلمين، ويحرز اللَّه لكم سوادكم) فسواد العراق عربي كله. وقد احتله الفرس وسيطروا عليه. وليست خطة أمير المؤمنين اليوم أن يسيح في الأرض ويقارع فارس على أرضها.

(.. فلما هزم اللَّه ﷻ أهل جلولاء أقام هاشم بن عتبة بجلولاء، وخرج القعقاع ابن عمرو في آثار القوم إلى خانِقين في جند من أفناء الناس ومن الحمراء، فأدرك سبيًا من سبيهم، وقتل مقاتلة مَنْ أدرك، وقُتِل مهران، وأفلت الفيرزان) [١].

أبدًا يبقى الهدف قتل القائد، فمهران هو قائد جيش المواجهة في جلولاء، وسرعة الحركة لسرية غير تحرك الجيش كله، وكانت حركة القعقاع الجريئة، وتحركه بأفناء الناس تتيح له الانقضاض على القائد وقتله. وهنا بدأ يزدجرد بالتراجع إلى الموقف الاحتياطي الثاني حيث دخل أعماق أرض فارس في الرّيّ وهي طهران اليوم. وراح يبعث الأمداد لقائد جديد هو خُسْرَوْ شَنُوم. (.. فلما بلغ يزدجرد هزيمة أهل جلولاء، ومصاب مهران. خرج من حلوان سائرًا نحو الري وخلَّف بحلوان خيلًا عليها خُسْرَوْ شَنُوم. وأقبل القعقاع حتى إذا كان بقصر شيرين على رأس فرسخ من حلوان خرج إليه خُسْرَوْ شَنُوم.

وقدَّم الزينبي دِهقان حلوان فلقيه القعقاع فاقتتلوا. فَقُتِلَ الزينبي.

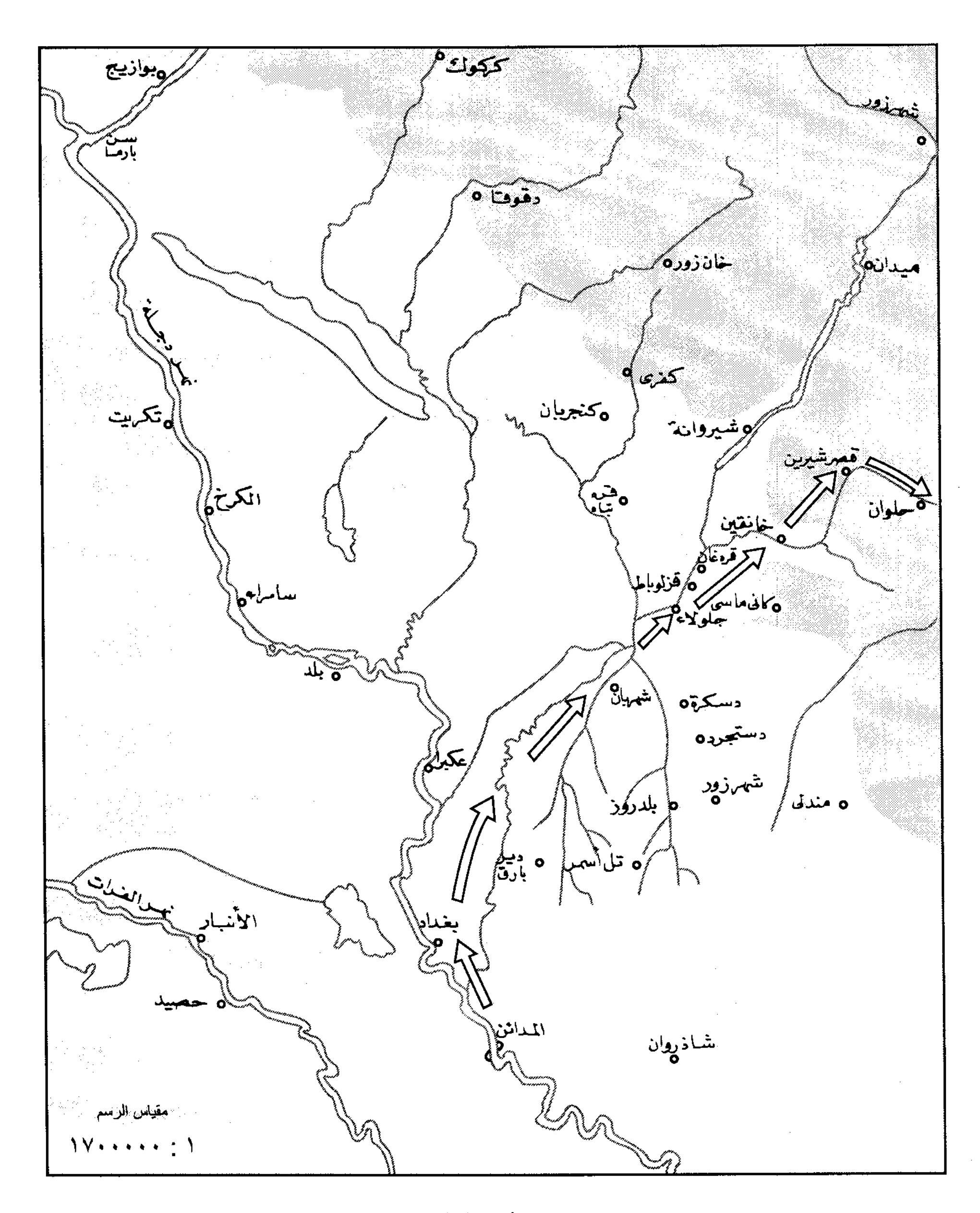
واحتُق [٢] فيه عميرة بن طارق وعبد اللَّه، فجعله وسلبه بينهما. فعَدَّ عميرة ذلك حُقرة. وهرب خُسرو شَنوم. واستولى المسلمون على حُلوان، وأنزلها القعقاعُ الحمراءَ، وولّى عليهم قُباذ ولم يزل القعقاع هناك على الثغر والجِزاء بعدما دعاهم، فتراجعوا

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٧٢).

(٢) احتُق: اختلفوا فيمن هو القاتل الحق لمهران.

وأقروا بالجِزاء إلى أن تحول سعد من المدائن إلى الكوفة فلحق به، واستخلف قُباذ على الثغر وكان أصله خراسانيًا) [(١)].



سقوط حلوان

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٧٢).

فتح تكريت:

وكان في هذه السنة - أعني سنة ستَّ عشرةَ في رواية سيف - فتح تكريت وذلك في جمادى منها.

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وسعيد وشاركهم الوليد بن عبد اللَّه بن أبي طَيْبَة قالوا... وكتب - أي أمير المؤمنين - في تكريت واجتماع أهل الموصل إلى الأنطاق بها:

أن سرِّح عبد اللَّه بن المعتم، واستعمِل:

- على مقدمته ربعيَّ بن الأفكل العنزي.
- وعلى ميمنته الحارث بن حسان الذهلي.
- وعلى ميسرته فرات بن حيان العِجلي.
- وعلى ساقته هانئ بن قيس.
- وعلى الخيل عرفجة بن هَرْثمة.

ففصل عبد اللَّه بن المعتم في خمسة آلاف من المدائن. فسار إلى تكريت أربعًا حتى نزل على الأنطاق ومعه الروم وإياد وتغلب والنمر ومعه الشهارجة، وقد خندقوا بها. فحصرهم أربعين يومًا، فتزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفًا، وكانوا أهون شوكة، وأسرع أمرًا من أهل جلولاء، ووكَّل عبد اللَّه بن المعتم بالعرب ليدعوهم إليه وإلى نصرته على الروم. فهم لا يُخفون عليه شيئًا.

ولما رأت الروم أنهم لا يخرجون خَرجة إلا كانت عليهم، ويُهزَمون في كل ما زاحفوهم؛ تركوا أمراءهم، ونقلوا متاعهم إلى السفن.

وأقبلت العيون من تغلب وإياد والنَّمِر إلى عبد اللَّه بن المعتم بالخبر.

وسألوه للعرب السلم، وأخبروه أنهم قد استجابوا له.

فأرسل إليهم: إن كنتم صادقين بذلك فاشهدوا أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، وأقروا بما جاء من عند اللَّه، ثم أعلمونا رأيكم.

فرجعوا إليهم (أي الرسل) بذلك، فردوهم إليه بالإسلام.

فردهم إليهم وقال: إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا قد نَهَدنا إلى الأبواب التي تلينا لندخل عليهم منها، فخذوا بالأبواب التي تلي دجلة، وكبروا واقتلوا من قدرتم عليه. فانطلِقوا حتى تواطؤوهم على ذلك.

ونَهَدَ عبد اللّه والمسلمون لما يليهم وكبروا.

وكبَّرت تغلب وإياد والنمر وقد أخذوا بالأبواب فحسبوا أن المسلمين قد أتوهم من خلفهم.

فدخلوا عليهم مما يلي دجلة. فبادروا الأبواب التي عليها المسلمون. فأخذتهم السيوف، سيوف المسلمين مستقبلتَهم - وسيوف الرَّبْعِيِّينَ [1] الذين أسلموا ليلتئذ من خلفهم، فلم يفلت من أهل الخندق إلا من أسلم من تغلب وإياد والنمر.

فتح الحصنين:

وقد كان عمر عَهِدَ إلى سعد؛ إن هم هُزموا أن يأمر عبد اللّه بن المعتم بتسريح ابن الأفكل العنزي إلى الحصنين، فأخذ بالطريق، وقال: اسبق الخبر، وسِرْ ما دون القَيل، وأَحْيِ الليل، وسرّحَ معه إيادَ وتغلبَ والنَّمِرَ. فقدمهم وعليهم عتبة بن الوعْل، أحد بني جشم بن سعد، وذو القُرْط، وأبو وداعة ابن أبي كرب وابن ذي السُّنَيْنَة قتيل الكُلاب وابن الحجير الإيادي وبِشْر بن أبي حَوْط متساندين، فسبقوا الخبر إلى الحصنين.

ولما كانوا منها قريبًا قدّموا عتبة بن الوعل فادعى بالظفر والنفل والقَفْل [2]، ثم ذو القرط، ثم ابن ذي السُّنينة، ثم ابن الحجير، ثم بشر، ووقفوا بالأبواب، وقد أخذوا بها.

وأقبلت سَرعَان الخيل مع رِبعي بن الأفكل، حتى اقتحمت عليهم الحصنين، فكانت إياها) [3].

فنادوا بالإجابة إلى الصلح.

---

(١) الرَّبعيين: هم قبائل ربيعة.

(٢) تاريخ الطبري (٤٧٤/٢).

(٣) المصدر نفسه (٤٧٥/٢).

فأقام من استجاب، وهرب مَنْ لم يستجب إلى أن أتاهم عبد اللَّه بن المعتم.

فلمّا نزل عليهم عبد اللَّه دعا من لجَّ وذهب، ووفَّى لمن أقام. فتراجع الهرَّاب واغتبط المقيم، وصارت لهم جميعًا الذمة والمنعة، واقتسموا في تكريت على كل سهم ألف درهم، للفارس ثلاثة آلاف، وللراجل ألف، وبعثوا بالأخماس مع فرات بن حَيّان، وبالفتح مع الحارث بن حسان، وولي حرب الموصل رِبعي بن الأفكل، والخراج عَرْفجة ابن هَرْثَمة) [١].

فتح مَاسَبَذَان:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن طلحة ومحمد والمهلب وعمرو وسعيد قالوا:

ولما رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن بلغ سعدًا أن آذين بن الهرمزان قد جمع جمعًا فخرج بهم إلى السهل فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: ابعث إليهم ضرار بن الخطاب في جند، واجعل على مقدمته ابن الهذيل الأسدي، وعلى مجنبتيه عبد اللَّه بن وهب الراسبي حليف بَجِيلة، والمضارب بن فلان العجلي. فخرج ضرار بن الخطاب - وهو أحد بني محارب بن فهر - في الجند.

وقدَّم ابنَ الهذيل حتى انتهى إلى سهل مَاسَبَذَان، فالتقوا بمكان يدعى بَهَنْدَف، فاقتتلوا بها، فأسرع المسلمون في المشركين.

وأخذ ضرار آذين سلَمًا [٢]، فأسره، فانهزم عنه جيشه، فقدمه فضرب عنقه.

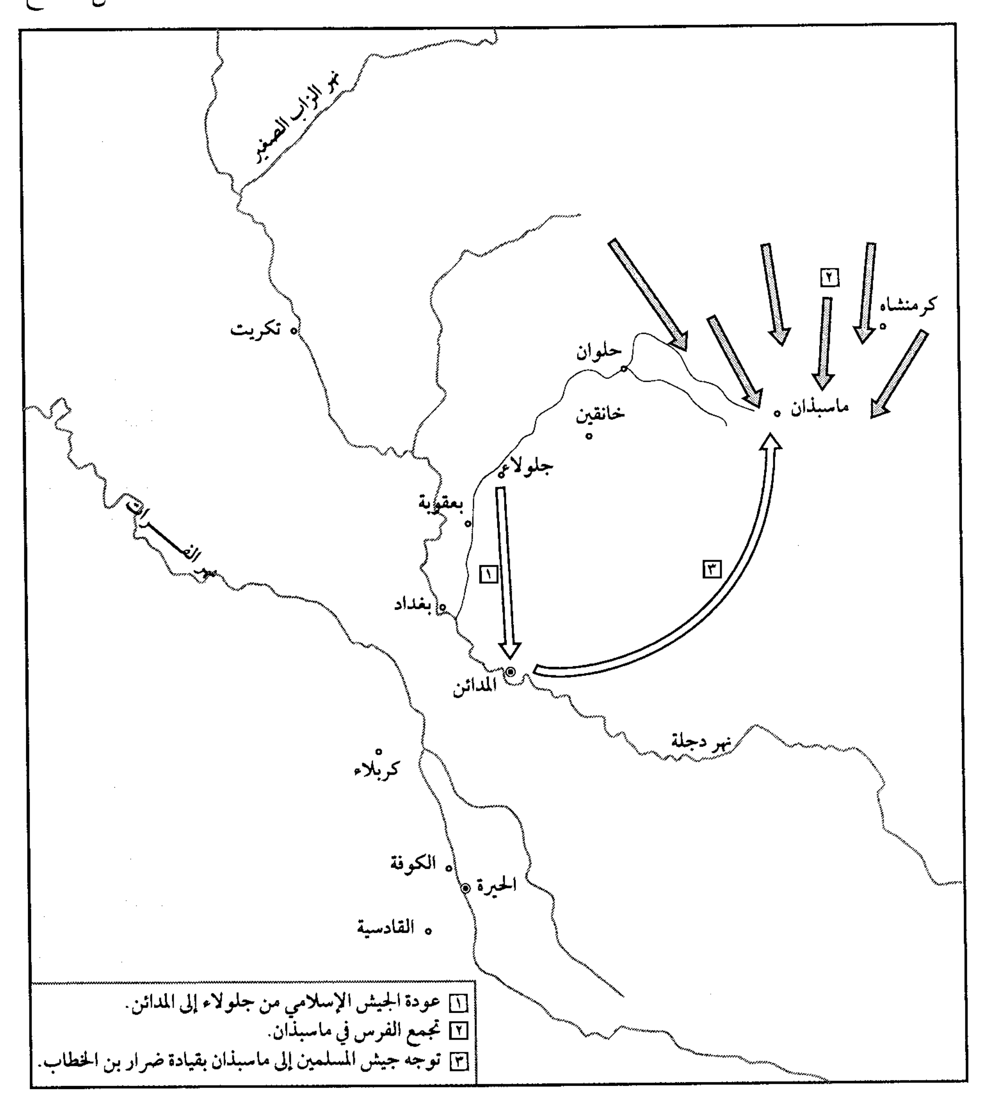
ثم خرج في الطلب حتى انتهى إلى السِّيرَوَانِ، فأخذ مَاسَبَذَان عنوة، فتطاير أهلها في الجبال، فدعاهم فاستجابوا له، وأقام بها حتى تحول سعد من المدائن فأرسل إليه. فنزل الكوفة واستخلف ابن الهذيل على مَاسَبَذَان، فكانت إحدى فروج الكوفة) [٣].

---

(١) تاريخ الطبري (٤٧٤/٢).

(٢) سَلَمًا: أسرًا بغير حرب.

(٣) المصدر نفسه (٤٧٥/٢).



التحركات قبل فتح مَاسَبَذَان

وقعة قَرْقيسياء في رجب وفتح هيت:

قال الطبري: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن طلحة ومحمد والمهلب وعمرو وسعيد قالوا:

ولما رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن، وقد اجتمعت جموع أهل الجزيرة فأمدوا هرقل على أهل حمص، وبعثوا جندًا إلى أهل هِيت.

وكتب بذلك سعد إلى عمر.

فكتب إليه عمر: أن ابعث إليهم عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف في جند.

وابعث على مقدمته الحارث بن يزيد العامري.

وعلى مجنبتيه ربعي بن عامر، ومالك بن حبيب.

فخرج عمر بن مالك في جنده سائرًا نحو هِيت.

وقدم الحارث بن يزيد حتى نزل على من بهيت وقد خندقوا عليهم.

فلما رأى عمر بن مالك امتناع القوم بخندقهم واعتصامهم به، استطال ذلك.

فترك الأخبية على حالها.

وخلَّف الحارث بن يزيد محاصرَهم.

وخرج في نصف الناس يعارض الطريق حتى يجيء قرقيسياء في غِرَّة. فأخذها عنوة، فأجابوا إلى الجِزاء.

وكتب إلى الحارث بن يزيد:

إن هم استجابوا فَخَلِّ عنهم فليخرجوا.

وإلا فخندِق على خندقهم خندقًا أبوابه مما يليك حتى أرى من رأيي.

فسمحوا بالاستجابة، وانضم الجند إلى عمر والأعاجم إلى أهل بلادهم)[1].

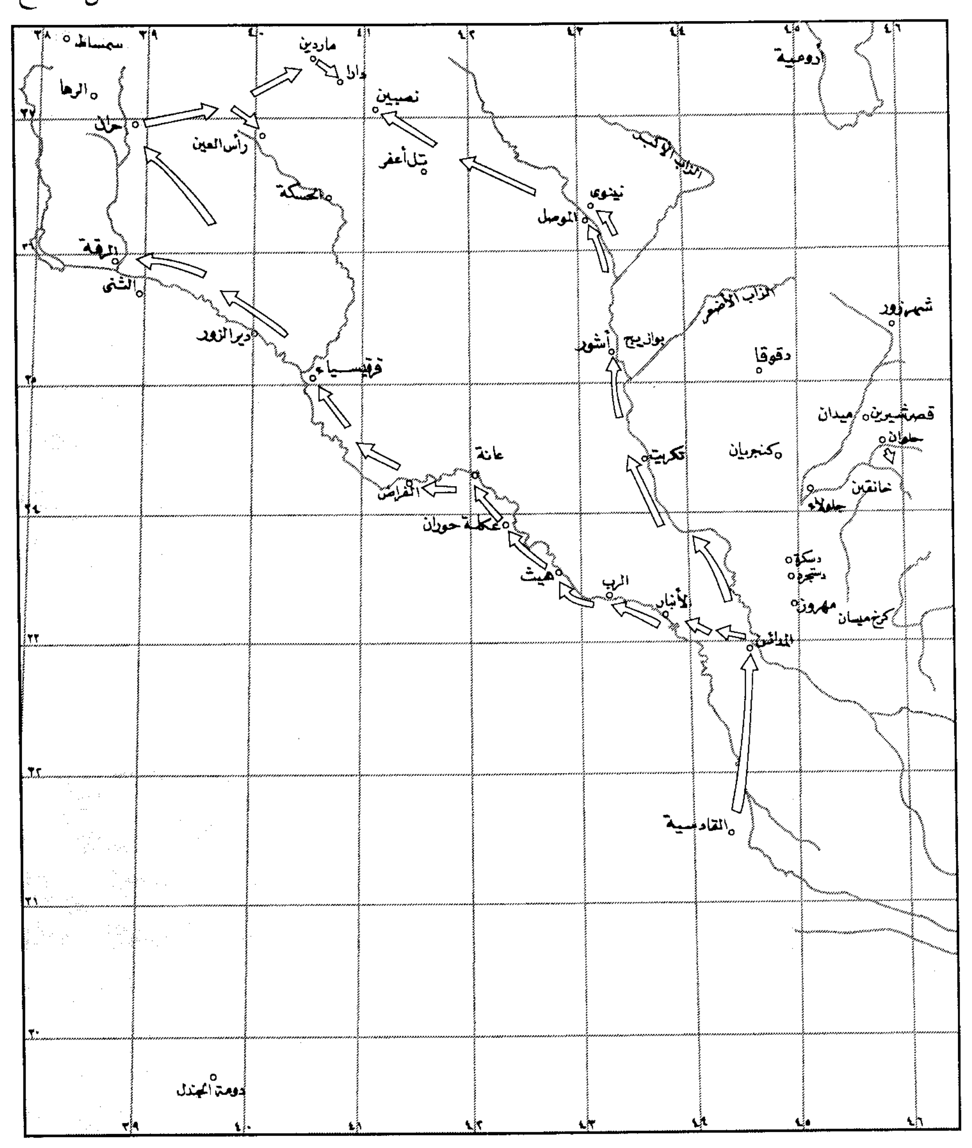
---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٧٥). وقرقيسياء بالفتح ثم السكون، وقاف أخرى، وياء ساكنة، وسين مكسورة، وياء أخرى، وألف ممدودة، ويقال بياء واحدة، قال شاعر:

لعن سخطه من خالقي أو لشقوة   تبدلت قرقيسياء من دارة الردم

قال حمزة الأصبهاني: قرقيسيا معرب كركيسيا وهو مأخوذ من كركيس، وهو اسم لأرسال الخيل المسمى بالعربية الحلبة، وكثيرًا ما يجيء في الشعر مقصورًا .

وهي بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ، وعندها مصب الخابور في الفرات، فهي في مثلث بين الخابور والفرات، قيل: سميت بقرقيسيا بن طهمورث الملك . معجم البلدان (٤ / ٢٨).



فتح هيت وقرقيسياء وعدد من المدن في العراق

١ - لا يزال النشاط العسكري كله في العراق العربي وفي قلبه. فالمدائن قريبة من بغداد وهي عاصمة العراق العربي فيما بعد وقريبة من الكوفة، وهي معقل قادة العرب الذين فتحوا المدائن والقادسية ولا عجب أن يكون الاتجاه إلى حلوان، وهي التي كانت معقل يزدجرد. وهو يغذي مهران بالجند والسلاح وتكاد تكون المسافة بين جلولاء وحلوان قريبة إلى المسافة بين المدائن وجلولاء. لكنه تَقَدُّم في العمق، وهو

ضمن الحدود التي رسمها أمير المؤمنين للمواجهة مع فارس.

وإذا كان الصديق اكتفى بالحيرة من ضفة دجلة الشرقية. لكن عمر ﷺ سمح بالاقتحام للمدائن وجلولاء في الضفة الغربية الشمالية. أما الضفة الجنوبية فقد أوكل فتحها إلى عتبة بن غزوان ﷺ لمنع قدوم الأمداد من هذه الجهة.

٢ - والملاحظ في القيادة العسكرية لأمير المؤمنين عمر ﷺ هو الترفيع التدريجي للقيادات؛ فالقعقاع حتى حرب المدائن والقادسية هو قائد خاص ضمن رئاسة الأركان الإسلامية، وقد تم ترفيعه لقائد للمقدمة ضمن صلاحيات القائد العام هاشم بن عتبة الذي تكلف بجبهة جلولاء. غير أن البطولة العظيمة له في اقتحام الخندق على العدو، وإنزال الخسارة العظمى فيه والتي بلغت مائة ألف قتيل، أهَّلته ورفعته ليكون قائدًا عامًّا للجبهة الجديدة في حلوان (إن فتح اللَّه عليكم جلولاء فسرِّح القعقاع بن عمرو في آثار القوم حتى ينزل بحلوان، فيكون ردءًا للمسلمين، ويحرز اللَّه لكم سوادكم).

وتم تنفيذ أمر أمير المؤمنين، فبقي هاشم في جلولاء وهو نائب القائد العام، وتحرك الجيش الجديد بقيادة القعقاع بن عمرو إلى حلوان.

(وخرج القعقاع في آثار القوم إلى خانِقين في جند من أفناء الناس.. فأدرك سبيًا من سبيهم وقتل مقاتلة مَنْ أدرك).

وخريج المدرسة الخالدية الذي يحسم المعركة دائمًا بقتل قائدها حتى أصبحَ أمير هذه المدرسة ﷺ ها هو يقتل مهران، ثم قتل الزينبي دِهقان حلوان، ففرّ قائد الخيالة خُسْرو شَنوم وسقطت حلوان بيد المسلمين.

٣ - إن ترفيع القادة العسكريين في عصرنا مرهون بالزمن. فكلما أمضى زمنًا في رتبة، ترفع أعلى. فنجد قائد الجيش، ولم يخض معركة واحدة في حياته. أو خاض معركة ومُنِيَ بالهزيمة فيُرفع على إثر هزيمته. أما الترفيع في الجيش الإسلامي فلا يكاد يرتفع إلى الرتبة الأعلى إلا من خلال معركة حربية متوجة بالنصر مُكلَّلة بالفوز.

٤ - وما قلناه عن القعقاع ﷺ يصح عن جميع القيادات. فهذا عبد اللَّه بن المعتم كان قائدًا للمقدمة من القادسية إلى المدائن كما ذكر ابن حجر (وذكر ذلك سيف ابن عمر في الردة. وكان عبد اللَّه بن المعتم على مقدمة سعد بن أبي وقاص من القادسية إلى المدائن، وسيره سعد من العراق إلى تكريت ومعه عَرْفَجَة بن هَرْثَمة

وربعي بن الأفكل ففتح تكريت) [١].

وكما أصبح القعقاع قائدًا عامًّا وكلف بفتح حلوان. غدا عبد اللَّه بن المعتم قائدًا عامًّا مكلفًا بفتح تكريت، ولا بد أن يحدث إبداعًا أو خطة حربية عالية حتى يتم ترفيعه للقيادة العامة.

ونجح نجاحًا فائقًا في ذلك؛ إذ قاد خطة تمزيق الصف المحارب إلى عرب وفُرس. وبقيت المفاوضات السرية بين القيادات العربية في جيش الأنطاق في ردّ وجذب، ولم يعرض عليهم - وهو المفاوض الذكي العنيد - أقل من الإسلام. وقبلوا بعد مفاوضات مضنية ذلك. ونجحت الخطة في تطويق الجيش الفارسي وإبادته. حين سمعوا التكبير من خلفهم فهرعوا إلى الأمام وهم يحسبون أن المسلمين صاروا خلفهم. ولم يعلموا أن جيشهم قد مُزِّق، وأن التكبير هو من إياد وتغلب والنَّمِر الذين أسلموا. وحصروا جيش العدو بين فكي كماشة .

٥ - ثم تم ترفيع ابن الأفكل العنزي، بعد أن كان قائد مقدمة عبد اللَّه بن المعتم الذي تحرك لفتح تكريت. فها هو يأخذ رتبة القائد العام ويُكلَّف بفتح الحصنين. والظاهر أن الترفيع للقيادة العامة يكاد يكون بأمر أمير المؤمنين حصرًا، وبترشيح من قائد المسلمين في المشرق سعد بن أبي وقاص، وكان جنوده جميعًا من ربيعة وهو من ربيعة، معهم الذين أسلموا حديثًا من إياد والنمر وتغلب أثناء حصار تكريت.. وأوكل ابن الأفكل لقيادة المقدمة التي انضمت حديثًا أن تقوم بتذليل الجو للجيش الغازي - وكانت قيادة جماعية من **ستة أبطال:**

١ - عتبة بن الوغْل.

٢ - ذو القُرْط.

٣ - أبو وداعة بن أبي كرب.

٤ - ابن ذي السُّنَيْنَة.

٥ - ابن الحجير الإيادي.

٦ - بشر بن أبي حَوْط.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني ت (٥٦٧٥).

ونجحت هذه المقدمة الفدائية في الأخذ بأبواب المدينة. وتمكن القائد العام ابن الأفكل العنزي بالسرعة الخاطفة من اقتحام المدينة (وأقبلت سَرعَان الخيل مع رِبعي بن الأفكل حتى اقتحمت عليهم الحصنين، فكانت إياها وكانت الضربة الصاعقة هي التي أنهت العدو ففر مَنْ فرَّ وصالح من صالح).

٦ - وحين نتحدث عن فتح مَاسَبَذَان نجد عمر ﷺ قد اختار لفتحها القائد القرشي الشاعر ضرار بن الخطاب الفهري، وما مثل ضرار نكرةٌ عندَ أحدٍ. فهو الذي مَنَّ على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالحياة، عندما أحجم عن قتله لأنه قرشي في غزوة الخندق. فقد تجاوز ضرار في خبراته خبرات جميع من معه إلا سعد بن أبي وقاص ﷺ.

٧ - ولكن عبقرية أمير المؤمنين كانت خارقة في الاختيار، فكل من اختارهم ما عدا القائد العام من القبائل نفسها التي تقاتل مع الفرس.

١ - ابن الهذيل الأسدي.

٢ - عبد اللَّه بن وهب الراسبي.

٣ - المضارب بن فلان العِجلي.

٤ - الحارث بن حسان الذهلي البكري.

٥ - فرات بن حيان العِجلي.

٦ - هانئ بن قيس.

٧ - عَرْفَجَة بن هَرْثَمة.

٨ - رِبعي بن الأفكل العنزي.

ففي فتح هيت حيث كانت إياد وتغلب والنمر تقاتل مع فارس، كان قادة الجيش من ربيعة؛ وهم الحارث بن حسان البكري وفرات بن حيان العجلي وهانئ بن قيس وربعي بن الأفكل العنزي. أما عرفجة بن هرثمة فكان قحطانيًّا من الجنوب من بارِق، وكان سيد بني بجيلة قبل سيادة جرير.

٨ - ونشهد أخيرًا ترقية عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف الذي كان قائد الميسرة في حرب جلولاء؛ ليكون قائدًا عامًّا في فتح قَرقيسيا. واستطاع تحقيق نصر مؤزَّر في خطة ابتدعها لم تكن عند مَنْ قَبله، وهو قسمة الجيش نصفين؛ حيث

قاد النصف الآخر، تاركًا النصف الأول ليواجه حصار القوم. (وخرج في نصف الناس يعارض الطرق حتى يجيء قرقيسياء في غرة، فأخذها عنوة فأجابوا إلى الجزاء).

٩ - وحيث كانت الجيوش الإسلامية تقتحم الشرق والشمال، كانت الجيوش الأخرى تقتحم الشمال الذي وصل إلى الموصل وهيت بعد تكريت.

ولم يمض العام السادسَ عشرَ للهجرة إلا وكان العراق العربي كله بيد المسلمين. ومضى يزدجرد إلى الري ليفتتح حربًا جديدة في أرض فارس بعد هذا العام. وكان أمير المؤمنين يعلن موقفه قائلًا حين يُسْتَأْذَنُ بغزو فارس والانسياح فيها بقوله:

(لوددت أن بين السواد وبين الجبل سدًّا، لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد، إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال) [١].

أين الشعر في الحرب؟

لقد قتل في بدر سبعون من المشركين، واستشهد من المسلمين في أُحُدٍ سبعون. وفي الخندق استشهد بضعة عشر. فكتبت عشرات القصائد أو ما ينوف عن مائة قصيدة من المسلمين والمشركين. وهنا يسقط مائة ألف من العدو. وتستعر المعركة ما ينوف عن الشهر، يَتِمُّ خلاله ثمانون زحفًا. ومع هذا كله. فلا نجد إلا هذه الأبيات اليتيمات للقائد العظيم هاشم بن عتبة وأبيات أخرى لأبي بجيد:

(... قال هاشم بن عتبة في يوم جلولاء

يومُ جلولاء ويومُ رُسْتَمْ ... ويومُ زحفِ الكوفةِ المقدَّمْ

ويوم عَرْضِ النهر المحرَّم ... مِنْ بين أيَّامٍ خَلَوْن صُرَّمْ

شيَّبْنَ أصْداغي فَهُنَّ هُرَّم ... مثلُ ثَغامٍ [٢] البَلَدِ المحرَّمْ)

وقال أبو بجيد في ذلك:

(ويومَ جلولاء الوقيعةِ أصبحَتْ ... كَتائبُنا تردِّي بأُسْدٍ عَوَابِسِ

ففضَّت جُمُوعَ الفُرْس ثم أَمْتُهُم [٣] ... فتبًّا لأجسَادِ المجُوسِ النجَائِس

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٧٠).

(٢) ثغام: نبات أبيض.

(٣) أمتهم: قتلتهم.

وأفلتهُنَّ الفيرزانُ بجَرْعة ومِهْرَانَ أَرْدَتْ يوم حَزِّ القَوَانس [١]
أقامُوا بدارٍ للمنيَّة مؤعِدٍ وللتُرْبِ تَحْثوها خَجُوجُ [٢] الرَّوامِسِ)

أما أبيات هاشم فأقرب ما يكن إلى الهزج أثناء المعركة، فقد صار رأسه أشيب مثل نبات الحرم الأبيض. وأبيات أبي بجيد تختصر المعركة في هذه الأبيات.

فكتائب الإيمان تردي الأسد العوابس من الأعداء صرعى بين الأرجل. وجموع الفرس لم ينتهوا إلا قتلى بعد الهزيمة التي حلَّت بهم. وإذا كان الفيرزان قد أفلت من هذه الكتائب لكنها أردت مهران ذبيحًا يوم حز الرؤوس. وكأنما كانت هذه الجموع الهائلة من الفرس الأنجاس على موعد مع منيتها، وموعد مع الدفن تحت الأرض حيث تبتلعهم القبور أو الطيور.

وبين المقاتلين عمرو بن معديكرب الفارس الشاعر الذي ملأ دنيا الجاهلية بفخره وشعره، وأمثالُه من كبار الشعراء.. فلقد أصبح الشعر على الهامش، وأصبح النشيد الإسلامي للجيش كله « سورة الجهاد » أو « سورة الأنفال ». فإن كانت البقرة وآل عمران شغلت شاعر العرب لبيدًا عن شعره. فلا غرو أن يصبح القرآن هو سلاح الحرب الفعال الأول. خاصة وأن الفُرْس ليس لديهم من الشعر ما يَدفعُ العربَ للرد عليه.

وما قيل عن أبيات جلولاء يقال عن أبيات قرقيسياء. فهذا قائد الجيش الإسلامي يتحدث عن نصر قرقيسياء كما تحدث هاشم بن عتبة عن فتح جلولاء (قال عمر ابن مالك يصف فتح هيت وقرقيسياء:

(ونحن جَمعْنا جَمْعهم في حَفيرهم بهيت ولم نحفلْ لأهْلِ الحفائرِ
وسرنا على عمدٍ نُريد مدينةً بقرقيسيا سيْرَ الكُماة المساعِرِ
فجئناهم في دَارهم بغتةً ضُحَى فطاروا وخلَّوا أهل تِلْكَ المحاجر
فنادوا إلينا مِن بَعِيدٍ بأننا نَدِين بدينِ الجزْيةِ المتواتر
قبِلنا ولم نَرْدُد عليهم جِزاءَهم وحُطَناهم بعْد الجزا بالبَوَاتر).

وأروع ما في الأبيات هو عزة النصر وهرب العدو من بواترنا ورماحنا. ولكنهم عندما قبلوا الجِزاء حميناهم وحطناهم بالبواتر التي كنا نذبحهم بها.

---

(١) القوانس: أعلى الرؤوس.
(٢) خجوج: رياح الفناء.

كما قال ضرار بن الخطاب ﷺ قائد الجيش الإسلامي الذي فتح ماسَبَذَان:

ولما لقِينا في بَهَنْدَفَ جَمْعَهُم أناخُوا قَالوا اصبروا آل فارسِ
فقْلنا جميعًا نحنُ أصبرُ مِنكمُ وأكرمُ في يوم الوَغَى بالتمَارُسِ
ضربناهُمُ بالبِيض حتى إذَا انثنتْ أقمنا لها مثلًا بضْربِ القوانسِ
فما فَتِئَتْ خَيْلي تَقصّ طرِيقَهم وتَقْتُلُهم بعد اشتباك الحنادِسِ
فعادوا لنادينا ودانوا بعهْدِنا وعُدنا علَيهم بالنُّهَى في المجالس

يكفي أن نذكر أن ضرارًا ﷺ قال في غزوة أحد فقط خمس قصائد طوالًا في هجاء المسلمين والفخر بالنصر عليهم. وقال قصيدتين أو ثلاثًا في معركة الخندق التي لم يجاوز القتلى فيها اثني عشر رجلًا. وها هو يكتفي بالنصر العظيم الذي تحقق في ماسَبَذَان (حتى تطاير أهلها في الجبال). لكنه هنا أحرص ما يكون على تثبيت قيم الإسلام الخالدة.

(فدعاهم فاستجابوا له).

وبدلًا من أن يقتل عشرات الألوف، دعاهم فاستجابوا إلى الذمة والجزية، وعاشوا آمنين مطمئنين في ظلِّ دولة الإسلام.

* * *

بداية التأريخ الإسلامي

ومن أهم معالم العام السادس عشر للهجرة هو الإعلان العالمي لدولة الإسلام. وليس لميلاد رسول الإسلام، إنما لميلاد دولته. وغلب رأي رئيس مجلس الشورى علي ابن أبي طالب ﷺ في هذا المجال.

قال ابن جرير: (وفيها كتب التأريخ في شهر ربيع الأول. قال: وحدثني ابن أبي سبرة عن عثمان بن عبيد اللّه بن أبي رافع عن ابن المسيب قال: أول من كتب التأريخ عمر لسنتين ونصف من خلافته، فكتب لست عشرة من الهجرة بمشورة علي بن أبي طالب.

وحدثني عبد الرحمن بن عبد اللّه بن الحكم قال: حدثنا نُعيم بن حماد قال:

حدثنا الدراوردي عن عثمان بن عبيد اللّه بن أبي رافع قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: جمع عمر بن الخطاب الناس فسألهم: من أي يوم نكتب؟

فقال علي: من يوم هاجر رسول اللّه ﷺ، وترك أرض الشرك، ففعل عمر.

وحدثني عبد الرحمن، قال: حدثني يعقوب بن إسحاق بن أبي عباد قال: حدثنا محمد بن مسلم الطائفي عن عمرو بن دينار عن ابن عباس: كان التأريخ في السنة التي قَدِم فيها رسول اللّه ﷺ. وفيها ولد عبد اللّه بن الزبير) هذا هو تاريخ الدولة المسلمة . فما هي جغرافيا الدولة المسلمة؟

وهذه هي خارطة دولة الإسلام في الأرض

في السنة السادسة عشرة للهجرة

وبعد سقوط المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية

(وحج بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب. واستخلف على المدينة - فيما زعم الواقدي - زيد بن ثابت.

١ - وكان عامل عمر في هذه السنة على مكة عتاب بن أسِيد.

٢ - وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص.

٣ - وعلى اليمن يعْلَي بن أمية.

٤ - وعلى اليمامة والبحرين العلاء بن الحضرمي.

٥ - وعلى عُمان حذيفة بن محصن.

٦ - وعلى الشام كلها أبو عبيدة بن الجراح.

٧ - وعلى الكوفة سعد بن أبي وقاص، وعلى قضائها أبو قُرَّة.

٨ - وعلى البصرة وأرضها المغيرة بن شعبة.

٩ - وعلى حرب الموصل رِبعي بن أفكل، وعلى الخراج بها عَرْفَجَة بن هَرْثَمة في قول بعضهم، وفي قول آخرين عتبة بن فَرقد على الحرب والخراج، وقيل: ذلك كله كان إلى عبد اللّه بن المعتم.

١٠ - وعلى الجزيرة عياض بن عمرو الأشعري)[١].

وحين نوزع هذه الأقطار على دول اليوم نجدها تضم: دول الخليج (٦) وبلاد الشام (٤) واليمن والعراق. أي كان عمر ﷺ أميرًا للمؤمنين وخليفة للمسلمين بعد ثلاث سنوات من خلافته على نصف الدول العربية اليوم.

* * *
* *
*

(١) تاريخ الطبري (٤٧٦/٢).

الفصل العاشر

نصارى تَغْلب

الكوفة: المدينة الجديدة وقاعدة الإسلام:

قال الطبري: (.. السري عن شعيب عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد، قالوا: لما جاء فتح جَلُولَاء وحُلوان، ونزول القعقاع بن عمرو بحلوان فيمن معه، وجاء فتح تكريت والحِصنين ونزول عبد اللّه بن المعتم وابن الأفكل الحِصنين فيمن معه، وقدمت الوفود بذلك على عمر، فلما رآهم عمر قال: واللّه ما هيئتكم بالهيئة التي أبدأتم بها... فما غيركم؟

قالوا: وُخومة البلاد.

فنظر في حوائجهم وعجل سَراحهم) [1].

وفد نصارى تغلب:

(وكان في وفود عبد اللّه بن المعتم؛ عتبة بن الوغل، وذو القُرْط وابن ذي السُّنَينة وابن الحجير وبشر، فعاقدوا عمر على بني تغلب، فعقد لهم على أنَّ من أسلم منهم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومن أبى فعليه الجزاء، وإنما الإجبار من العرب على مَنْ كان في جزيرة العرب. فقالوا: إذن يهربون وينقطعون فيصيرون عجمًا. فأمرٌ أجمَلُ الصدقة.

فقال: ليس إلا الجِزاء.

فقالوا: تجعل جزيتهم مثل صدقة المسلم، فهو مجهودهم.

ففعل، على أن لا ينصِّروا وليدًا ممن أسلم آباؤهم.

فقالوا: لك ذلك.

فهاجر هؤلاء التغلبيون ومن أطاعهم من النَّمِريين والإياديين إلى سعد بالمدائن، وخطُّوا معه الكوفة، وأقام من أقام في بلاده على ما أخذوا لهم على عمر مسلمُهم وذميُّهم) [2].

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٢/٤٧٧).

لا بد أن نشير إلى أن هذه القيادات التغلبية التي جاءت إلى المدينة والتقت مع أمير المؤمنين إنما هي قيادات مسلمة (عتبة بن الوعْل، وذو القُرْط، وابن ذي السُّنَيْنَة، وابن الحجير، وبشر) وقد مرت معنا قصة إسلامهم في فتح تكريت. نعيدها للذكرى (وأقبلت العيون من تغلب وإياد والنمر إلى عبد اللّه بن المعتم بالخبر، وسألوه للعرب السلم، وأخبروه أنهم قد استجابوا له. فأرسل إليهم: إن كنتم صادقين بذلك فاشهدوا أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا رسول اللّه، وأقروا بما جاء من عند اللّه، ثم أعلمونا رأيكم، فرجعوا إليهم بذلك، فردوهم إليه بالإسلام...) [1].

لا إكراه في الدين:

وقصة تغلب قصة طويلة ومثيرة. ابتدأت منذ جاء وفدهم إلى المدينة، وأعلنوا إسلامهم بين يدي رسول اللّه ﷺ.

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف، عن عطية عن أبي سيف التغلبي قال: كان رسول اللّه ﷺ قد عاهد وفدَهم على أن لا ينصِّروا وليدًا. فكان ذلك الشرط على الوفد وعلى من وفَّدهم، ولم يكن على غيرهم، فلما كان زمان عمر قال مسلموهم:

لا تنفِّروهم بالخراج فيذهبوا. ولكن أضعِفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جِزاء. فإنهم يغضبون من ذكر الجِزاء على أن لا ينصِّروا مولودًا إذا أسلم آباؤهم فخرج وفدُهم في ذلك إلى عمر.

فلما بعث الوليد (ابن عقبة) إليه برؤوس النصارى وبديَّانيهم. قال لهم عمر: أدوا الجزية، فقالوا لعمر: أبلغنا مأمننا، واللّه لئن وضعت علينا الجِزاء لندخلن أرض الروم، واللّه لتفضحنا من بين العرب.

فقال لهم: أنتم فضحتم أنفسكم، وخالفتم أمَّتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية. واللّه لتؤدنَّه وأنتم صَغَرَةٌ قَمَأَةٌ [2]، ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ثم لأسبينكُمْ.

فقالوا: فخذ ما شئت ولا تسمِّه جِزاءً.

فقال: أما نحن فنسميه جِزاءً وسمُّوه أنتم ما شئتم.

فقال له علي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين ألم يُضْعِفْ عليهم سعدُ بن مالك الصدقة.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٧٤).

(٢) جمع قميء وهو الحقير.

قال: بلى.

وأصغى إليه. فرضي به منهم جِزاءً فرجعوا على ذلك. وكان في بني تغلب عزة وامتناع. ولا يزالون ينازعون الوليد. فهَمّ بهم الوليد.

وقال في ذلك:

إذا مَا عَصَبْتُ الرأسَ منِّي بِمِشْوَذٍ [١] فغَيّك منِّي تَغْلِب ابنةَ وائلِ

وبلغت عنه عمر، فخاف أن يحرجوه، وأن يضعف صبره فيسطو عليهم. فعزله وأمّر عليهم فرات بن حيان وهند بن عمرو الجملي. وخرج الوليد....

وكان فتح الجزيرة في سنة سبع عشرة في ذي الحجة) [٢].

هذه أمتنا بين الإسلام والجاهلية:

وبنو تغلب هم النموذج. **وندع النصوص تنطق دون تعليق:**

عمرو بن كلثوم ومعلقته:

هو عمرو بن كلثوم بن مالك... بن تغلب بن وائل. أمه ليلى بنت مهلهل أخي كليب، ساد قومه وهو ابن خمسة عشر عامًا. ومات وله مائة وخمسون سنة.

ذات يوم قال عمرو بن هند الملك لندمائه:

هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟

قالوا: نعم أم عمرو بن كلثوم.

قال: ولم؟

قالوا: لأن أباها مهلهل بن ربيعة، وعمَّها كليب وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب وابنها عمرو وهو سيد قومه.

فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويسأله أن يزير أمه أمه، فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة بني تغلب. وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات. وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب. فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو

---

(١) المشوذ: العمامة.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٨٥).

ابن هند في رواقه، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق.

- وكانت هند عمة امرئ القيس بن حجر الشاعر، وكانت أم ليلى بنت خال امرئ القيس وقد كان عمرو بن هند أَمَرَ أمه أن تنحِّي الخدم إذا دعا بالطرف وتستخدم ليلى فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بالطرف.

فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطبق (١).

فقالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها وألحت.

فصاحت ليلى: واذُلَّاه! يا لتغلب!

فسمعها عمرو بن كلثوم. فثار الدم في وجهه، ونظر إليه عمرو بن هند. فعرف الشر في وجهه. فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند. ونادى في بني تغلب، فانتهبوا ما في الرواق، وساقوا نجائبه، وساروا نحو الجزيرة. ففي ذلك يقول عمرو بن كلثوم معلقته:

ألا هُبِّي بِصَحنِكِ فَاصْبَحِينا ... ولا تُبقي خُمُورَ الأندرينا

- مختارات من معلقته:

أبا هندٍ فلا تعجلْ علينا ... وأنظرنا نُخبِّرْك اليقينا

بأنَّا نُوردُ الرايات بيضًا ... ونُصْدِرُهن حُمْرًا قد رُوِينا

متى نَنقُلْ إلى قومٍ رَحَانا ... يكونوا في اللقاء لنا طَحِينا

ورِثْنَا المجدَ قد علمت مَعَدٌّ ... نُطَاعِنُ دونَه حتى يَبِينَا

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ عَلَينا ... فنجهلَ فوق جهْلِ الجاهلينا

بأيِّ مشيئةٍ عمرَو بنَ هندٍ ... تُطيعُ بنا الوُشَاةَ وتَزْدَرينَا

ملأنا البرَّ حتى ضاق عنَّا ... وظهر البَحْرِ نملؤه سَفِينا

إذا بَلَغَ الفِطامَ لنا صبيٌّ ... تَخِرُّ له الجبابرُ ساجدينا (٢)

---

(١) مختصر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني لـ: الخوري يوسف عون. وتصحيح الحواشي لعبد الله العلايلي (٢/٨٥٧، ٨٥٨).

(٢) مختصر الأغاني (٢/٨٦١، ٨٦٢).

(وكان قام بها خطيبًا بسوق عكاظ، وقام بها في موسم مكة، وبنو تغلب تعظمها جدًّا، ويرويها صغارهم وكبارهم) [(١)].

بل عظمتها العرب وعلقتها في الكعبة. وما من قصيدة تمثل عزة الجاهلية كما تمثلها هذه القصيدة لكن على من؟ على بني قومهم. فأعظم أشعار العرب وأمجادها بقتل بعضهم بعضًا وسبي بعضهم بعضًا.

حرب البسوس:

وما لنا نبعد وليلى بنت المهلهل بين أيدينا، المهلهل الذي قاد حربًا أربعين سنة ثأرًا لأخيه كليب. والذي قام بقتله جساس؛ لأنه قتل ناقة خالته. وتعانى القوم، ونشأت أجيال على الحقد بين ولدي ربيعة؛ بكر وتغلب (كان كليب بن ربيعة (التغلبي) عَزَّ وساد وبغى. فما كان على الأرض بكري ولا تغلبي أجار رجلًا ولا بعيرًا إلا بإذنه. فبلغ من عزته وبغيه أن اتخذ جرو كلب. فكان إذا نزل منزلًا به كلأ قذف ذلك الجرو فيه فيعوي. فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه، فضرب به المثل: أعز من كليب وائل. وكان لمرة بن ذهل البكري عشرة بنين، جساس أصغرهم، وكانت أختهم جليلة زوجة كليب، وخالة جساس البسوس وهي التي يقال لها « أشأم من البسوس » جاءت فنزلت على ابن أختها جساس، فكانت جارة لبني مرة، ومعها ابن عمٍّ لها ولهم ناقة ومعها فصيل ورأى كليب الناقة فأنكرها فقال: ما هذه الناقة؟

قالوا: لخالة جساس.

قال: أو قد بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير عليَّ بغير إذني؟ ارمِ ضرعها يا غلام.

فأخذ القوس فرمى ضرع الناقة فاختلط دمها بلبنها وراحت الرعاة على جساس فأخبروه بالخبر. فمرَّ جساس ومعه ابن عم له على كليب وهو على غدير الذنائب، فعطف عليه فرسه، فطعنه برمح فأنفذ حضنيه، وعطف عليه ابن عمه فاحتز رأسه وعاد جساس إلى أهله فرأته أخته فقال لأبيها:

إن ذا لجساس أتى خارجًا ركبتاه.

فقال: واللّه ما خرجتْ ركبتاه إلا لأمر عظيم، فلما جاء قال له: ما وراءك يا بُنَيّ.

---

(١) مختصر الأغاني (٨٥٩/٢).

قال: ورائي أني طعنت طعنة لتشغلن بها شيوخ وائل زمنًا.

قال: أقتلت كليبًا؟

قال: نعم.

قال: وددت أنك وأخوتك كنتم مِتُّم قبل هذا. واجتمع نساء الحي للمأتم، فقلن لأخت كليب: رحلي جليلة عن مأتمك، فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب.

فقالت لها: اخرجي عن مأتمنا فأنت أخت واترنا، وشقيقة قاتلنا. فخرجت وهي تجر أعطافها. ولما رحلت قالت أخت كليب: رحلة المعتدي وفراق الشامت فبلغ قولها جليلة.

وقالت: وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها. أسعد اللّه جد أختي. أفلا قالت: نفرة الحياء وخوف الاعتداء. ثم أنشأت تقول:

يَا ابْنَةَ الأَقْوَامِ إِنْ شِئْتِ فَلَا تَعْجَلِي بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلِي
فَإِذَا أَنْتِ تَبَيَّنْتِ الَّذِي يُوجِبُ اللَّوْمَ فَلُومِي واعْذُلِي
إِنْ تَكُنْ أُخْتُ امْرِئٍ لِيمَتْ عَلَى شَفَقٍ مِنْهَا عَلَيْهِ فَافْعَلِي
فِعْلُ جَسَّاسٍ عَلَى وَجْدِي بِهِ قَاطِعٌ ظَهْرِي وَمُدنٍ أَجَلِي
يَا قَتِيلًا قَوَّضَ الدَّهْرُ بِهِ سَقْفَ بَيْتَيَّ جَمِيعًا مِنْ عَلِ
هَدَمَ البَيْتَ الَّذِي اسْتَحْدَثْتُهُ وَانْثَنَى فِي هَدْمِ بَيْتِي الأَوَّلِ
يَشْتَفِي المُدْرِكُ بِالثَّأْرِ وَفِي دَرْكِ ثَأْرِي ثُكْلُ المُثْكِلِ
إِنَّنِي قَاتِلَةٌ مَقْتُولَةٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْتَاحَ لِي

ورجعت جليلة إلى أهلها وهي حامل. فلقيها أبوها مرة فقال لها:

ما وراءك يا جليلة؟

فقالت: ثكل العدد وحزن الأبد، وفقد حليل وقتل أخ عن قليل، وبين ذين غرس الأحقاد وتفتت الأكباد.

فقال لها: أو يكُفُّ ذلك كرم الصفح. وإعلاء الديات؟

فقالت: أمنية مخدوع وربِّ الكعبة. أبالبدن تَدَع لك تغلب دم ربها؟؟

وقعت الحرب بين الفريقين، وكانت حربهم أربعين سنة، فيهن خمس وقعات

مزاحفات وهي يوم عنيزة، ويوم واردات، ويوم الحنو، ويوم القصيبات، ويوم التحالق.. ثم صاروا إلى الموادعة. فولدت جليلة (زوجة كليب) غلامًا سمته الهجرس، ورباه جساس فكان لا يعرف أبًا غيره، وزوجه ابنته. فوقع بين الهجرس ورجل من بني بكر كلام فقال له البكري: ما أنت بمنته حتى نلحقك بأبيك. فأمسك عنه ودخل إلى أمه كئيبًا. فسألته عما به فأخبرها الخبر، فلما أوى إلى فراشه ونام إلى جنب امرأته وضع أنفه بين ثدييها. فتنفس تنفسة تنفط ما بين ثدييها من حرارتها. فقامت فزعة حتى دخلت على أبيها، فقصت عليه قصة الهجرس فقال جساس: ثائر ورب الكعبة [1].

وبات جساس على مثل الرضف (الحجارة المحماة) حتى أصبح. فأرسل إلى الهجرس، فأتاه فقال له: إنما أنت ولدي ومني بالمكان الذي علمت، وقد زوجتك ابنتي معي، وقد كانت الحرب في أبيك زمانًا طويلًا حتى كدنا نتفانى، وقد اصطلحنا وتحاجزنا، وقد رأيت أن تدخل فيما دخل فيه الناس من الصلح، وأن تنطق حتى نأخذ عليك مثلَ ما أخذنا علينا وعلى قومنا.

فقال الهجرس: أنا فاعل، ولكن مثلي لا يأتي قومه إلا بلأمته وقوسه، فحمله جساس على فرسه وأعطاه لأمة ودرعًا. فخرجا حتى أتيا جماعة من قومهما. فقص عليهم جساس ما كانوا فيه من البلاء وصاروا فيه من العافية، ثم قال: وهذا الفتى ابن أختي قد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه، ويعقد ما عقدتم. فلما قربوا الدم (ذبحوا) وقاموا إلى العقد أخذه الهجرس بوسط رمحه ثم قال:

وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليه، وسيفي وغراريه، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه، ثم طعن جساسًا فقتله، ثم لحق بقومه. فكان آخر قتيل في بكر بن وائل) [2].

فهذه هي تغلب في الجاهلية تقوم حرب بين القبيلتين الأخوين بكر بن وائل، وتغلب ابن وائل أربعين عامًا كادت تفني القبيلتين.

ويصف مهلهل بن ربيعة حالهم بقوله:

(.. قد أتت على حربكم أربعون سنة، فلو مرت هذه السنون في رفاهية عيش لكانت تمل من طولها وكيف وقد فنى الحيان، وثكلت الأمهات، ويتم الأولاد،

---

(١) ثائر: سيأخذ بثأر أبيه.

(٢) مختصر أغاني الأصفهاني (١/٣٩٠ - ٣٩٥).

وناحبة لا تزال تصرخ بالنواحي، ودموع لا ترقى، وأجساد لا تدفن، وسيوف مشهورة، ورماح مشرعة) [(١)].

وهو نفسه الذي رفض الصلح وسافر إلى اليمن لأنه لم يشنف بثأره.

وهذه تغلب في الإسلام:

وقد ساروا تحت إمرة (الأنطاق) الرومي لحرب المسلمين ومواجهتهم.

وكانت عبقرية الفاروق أن أمر سعدًا ﷺ بإرسال عبد الله بن المعتم في خمسة آلاف إليها. لكن القيادات كلها من ربيعة رِبعي بن الأفكل العنزي، والحارث حسان ابن الهُذَلي، وفرات بن حيان العجلي وهانئ بن قيس. ومع الأنطاق الروم وإياد وتغلب والنمر، ومعه الشهارجة، فحصرهم أربعين يومًا، فتزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفًا وأراد ابن المعتم ﷺ أن يحرك النوازع العربية القومية ضد الروم:

(ووكل عبد الله بن المعتم بالعرب ليدعوهم إليه وإلى النصرة على الروم، فهم لا يخفون عليه شيئًا، ولما رأت الروم أنهم لا يخرجون خرجة إلا كانت عليهم. ويهزمون في كل ما زاحفوهم. تركوا أمراءهم ومضوا، ونقلوا متاعهم إلى السفن. وأقبلت العيون من **تغلب** وإياد والنمر إلى عبد الله بن المعتم بالخبر وسألوه للعرب السلم. وأخبروه أنهم قد استجابوا له، فأرسل إليهم: إن كنتم صادقين بذلك فاشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وأقروا بما جاء به من عند الله، ثم أعلمونا رأيكم. فرجعوا إليهم بذلك، فردوهم إليه بالإسلام) فقد رفض عبد الله بن المعتم نصرهم دون إسلامهم فأسلموا، وكانت الخطة بعد ذلك.

(فردهم إليهم - أي الرسل. وقال: إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا قد نهدنا إلى الأبواب التي تلينا لندخل عليهم منها، فخذوا بالأبواب التي تلي دجلة، وكبروا واقتلوا من قدرتم عليه، فانطلقوا حتى تواطئوهم على ذلك.

ونهد عبد الله والمسلمون لما يليهم، وكبَّروا، وكبرت تغلب وإياد والنمر، وقد أخذوا بالأبواب فحسبوا أن المسلمين أتوهم من خلفهم، فدخلوا عليهم مما يلي دجلة. فبادروا الأبواب التي عليها المسلمون، فأخذتهم السيوف؛ سيوف المسلمين

---

(١) سبائك الذهب في قبائل العرب (١٠٨).

مستقبلتهم، وسيوف الربعيين الذين أسلموا ليلتئذ من خلفهم، فلم يفلت من أهل الخندق إلا من أسلم من تَغلب وإياد والنمر).

لقد خاضوا أول حرب في سبيل اللّه، وكانت قياداتهم التي خاضت حرب (الحصنين) وفتحتها قد وفدت كلها إلى المدينة (وكان في وفود عبد اللّه بن المعتم عتبة بن الوعل، وذو القرط، وابن ذي السُّنَيْنَة، وابن الحجير، وبشر، فعاقدوا عمر على تغلب، فعقد لهم على أن من أسلم منهم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومن أبى فعليه الجِزاء..).

التغلبيون النصارى:

وهم الذين كادت حمية الجاهلية أن تحيلهم إلى أعداء محاربين للإسلام أربعين عامًا مثل حرب البسوس تحت راية الروم أو راية الفرس. وأدرك القادة المسلمون المذكورون. أن الجزاء لن يقبله النصارى.

فقالوا لأمير المؤمنين: إذن يهربون وينقطعون فيصيرون عجمًا. فأمر أجمل، الصدقة.

فقال: ليس إلا الجِزاء.

فقالوا: تجعل جزيتهم مثل صدقة المسلم، فهو مجهودهم. ففعل.

لقد رضي الفاروق ﷺ بأخذ ضعف الجِزاء، وما يعدل الصدقة للمسلم. حتى لا تقودهم حمية الجاهلية إلى الانضمام للروم أو العجم. ورضوا بالجِزاء مضاعفًا بما يعادل زكاة المسلم. حفاظًا على كبريائهم أن تجرح بالذل والصغار بالجزية.

وامتصَّ الإسلام هذه الحمية، وحولها طاقات عظيمة خالدة لحماية الإسلام والتعامل معه، انصهروا بعدُ في المجتمع الإسلامي بإرادتهم واختيارهم دون إكراه.

لقد كان الإسلام حريصًا على أن لا يقع التصادم بين نوازع الإنسان الفطرية، حبه لقبيلته وحبه لوطنه، وحبه لدينه. وأن يمضي بها كلها صعدًا نحو الجهاد في سبيل اللّه. فهؤلاء التغلبيون الذين استجابوا لحبهم لقومهم. وضع هذا الحب ذلولًا لهذا الدين. وشاركوا منذ لحظة إسلامهم في الحرب ضد الروم. ثم كلفت قياداتهم بفتح (الحصنين) ففتحوها مباشرة بعد إسلامهم. وساروا بقومهم الذين أسلموا ليكونوا وقود المعركة. وهم الذين حمَوا إخوانهم النصارى بمراعاة مشاعرهم بحيث لا تتصادم

مع الإسلام من خلال الجزية. حيث قبلوا مضاعفتها لمساواتهم مع المسلمين. دون أن يكرهوا في دخول الإسلام.

لقد كان هذا المسار هو الذي تربَّى عليه هؤلاء القادة العظام - سعد وأمير المؤمنين - بين يدي رسول اللَّه ﷺ، والذي برز في شخص عيينة بن حصن، العدو اللدود الذي أسلم في أخريات العهد النبوي قبيل فتح مكة. وعندما اعتدى بنو العنبر من تميم على رسول رسول اللَّه ﷺ إليهم، أراد رسول اللَّه ﷺ أن يرد عدوان المعتدين. فسارع عيينة ابن حصن بين يدي المصطفى، وأعلن استعداده لجهاده. فجعله رسول اللَّه ﷺ أميرًا على سرية، ليس في السرية واحد من المهاجرين والأنصار. وكانوا كلهم من الأعراب. وعدد السرية خمسون، فبعث عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر إلى بني العنبر من تميم، فأغار عليهم، فأصاب منهم أناسًا وسبى منهم أناسًا، ثم ركب وفدهم إلى رسول اللَّه ﷺ في أسراهم، فأعتق بعضًا وفدى بعضًا [(١)].

امراؤهم منهم:

ومن هذ المعين الثّرّ كان موقف عمر ﷺ في الأمير على تغلب.

(وكان في بني تغلب عزّ ومنعة. ولا يزالون ينازعون الوليد. فهَمَّ بهم الوليد وقال في ذلك:

إِذَا مَا عَصَبْتُ الرَّأْسَ مِنّي بِمِشْوَذٍ ... فَغَيَّك مِنّي تَغْلِب ابْنَةَ وَائِلِ

وبلغت عنه عمر...).

إذن فالأمر على شفا حفرة من الحرب. ولا بد أن يقمع الوليد الاضطرابات من بني تغلب بعنف، والقوم غير راضين عن أميرهم. والأمير نفد صبره من مخالفاتهم وتحدياتهم، فهو بيده السلطة. وإن اللَّه ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. فلا بد من قمعهم بعنف دون رحمة. ولا بد من كسر كبريائهم وتحديهم.

فهل لها من تلافٍ ونذر الحرب على الأبواب؟؟؟

ونعود ثانية إلى جيل النبوة.. إلى المدرسة التي تخرَّج منها عمر وسعد، وهم تلاميذ آنذاك، واليوم لا سلطة فوقهم إلا سلطان اللَّه.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير مجلدان (١/٧٩٤).

اليوم نعود إلى فتح مكة. حيث كانت القلوب تغلي كالمراجل حقدًا على قريش. وآن أوان فتح مكة. وهذا سعد بن عبادة ﷺ قائد الأنصار وحامل لوائهم، وقد دقت ساعة الحسم لإنهاء كبر عدو في وجه الدعوة وهي قريش. ورأى سعد بن عبادة أبا سفيان بن حرب فقال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل اللَّه قريشًا فقال رسول اللَّه ﷺ: « **اليوم يوم المرحمة، اليوم تعظم الحرمة، اليوم أعز اللَّه قريشًا** ».

(وذكر الحافظ ابن عساكر... عن جابر بن عبد اللَّه قال: دفع رسول اللَّه ﷺ الراية يوم فتح مكة إلى سعد بن عبادة. فجعل يهزها ويقول: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، قال: فشقَّ ذلك على قريش وكبر في نفوسهم. فعارضت امرأة رسول اللَّه ﷺ في مسيره وأنشأت تقول:

يَا نَبِيَّ الهُدَى إِلَيْكَ لَجَا حَـ ... ـيّ قُـرَيـشٍ وَلاتَ حـينَ لَجَاء

حِينَ ضَاقَتْ عَلَيهِمْ سِعَةُ الأَرْ ... ضِ وَعَـادَاهُـمْ إِلَـهُ الـسَّـمَـاءِ

وَالتَقَتْ حَلقَتا البِطَانِ عَلَى القَو ... مِ وَنُودُوا بِالصَّيلَمِ الصَّلْعَاءِ

إِنَّ سَعْدًا يُرِيدُ قَاصِمَةَ الظَّهْـ ... ـرِ بِأَهْلِ الحُجُونِ وَالبَطْحَاءِ

خَزْرَجِيٌّ لَـو يَسْتَطِيعُ مِنَ الغَيْـ ... ـظِ رَمَـانَـا بِـالـنَّـسرِ وَالـعَـوَّاءِ

فَـانـهـينه فَـإِنـه أَسَـدُ الأُسْـ ... ـدِ لَدى الغَابِ وَالِغٌ فِـي الدِّمَاءِ

فَـلَئِـن أَقْـحَـمَ الـلِّـواءَ وَنَـادَى ... يَا حُـمَاةَ اللواء، أَهْلَ اللِّوَاءِ

لِتَـكُـونَـنَّ بِـالـبِـطَـاحِ قُـرَيْـشٌ ... فَقعَةَ القَاعِ فِـي أَكُفِّ الإِمَاءِ

إِنَّـه مُـصْـلَـتٌ يُـرِيـدُ لَـنَـا الـرأْ ... ي صَـمـوت كـالحية الـصماء

قال: فلما سمع رسول اللَّه ﷺ هذا الشعر دخله رحمة لهم ورأفة بهم. وأمر بالراية فأخذت من سعد بن عبادة إلى ابنه قيس بن سعد.

فيروى أن رسول اللَّه ﷺ أحب أن لا يخيبها إذ رغبت إليه، واستغاثت به، وأحب أن لا يُغْضِب سعدًا، فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه) [(١)].

من هذا الهدي، ومن معين هذه التربية تفتق ذهن عمر ﷺ في تغيير والي الكوفة الوليد بن عقبة. ونزع فتيل الانفجار بين التغلبيين وبين الوليد.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير مجلدان (١/٦٥٤).

(وبلغت عنه عمر، فخاف أن يحرجوه فيضعف صبره، فيسطو عليهم، فعزله وأمَّر عليهم **فرات بن حيان العجلي** وهند بن عمر الجملي) [(١)] وكلاهما من تغلب.

ونقل أخيرًا في هذا المجال رواية البلاذري **حول بني تغلب والجزية عليهم**:

(حدثنا شيبان بن فروخ قال: حدثنا أبو عوانة عن المغيرة عن السفاح الشيباني أن عمر ﷺ أراد أن يأخذ الجزية من نصارى بني تغلب. فانطلقوا هاربين ولحقت طائفة منهم ببعد من الأرض. فقال النعمان بن زرعة أو زرعة بن النعمان: أنشدك اللّٰه في بني تغلب فإنهم قوم من العرب يأنفون من الجزية. وهم قوم شديدة نكايتهم. فلا تعن عدوك عليك بهم فأرسل عمر في طلبهم فردهم وأضعف عليهم الصدقة) وفي رواية أنهم قالوا: (أما إذ لم تكن جزية كجزية الأعلاج فإنا نرضى ونحفظ ديننا) [(٢)].

* * *
* *
*

---

(١) تاريخ الطبري (٤٨٥/٢).

(٢) فتوح البلدان للبلاذري (٢١٦/١).

الفصل الحادي عشر

عودة إلى الكوفة

نقلة حضارية:

لقد كان بناء مدينة الكوفة نقلة حضارية في الانتقال من عالم البداوة والقبلية إلى عالم المدينة والعاصمة والدولة. وسنحاول إبراز هذه الأبعاد من خلال وضع عناوين جانبية لحيثيات التأسيس والتخطيط للمدينة، والتنفيذ للمخططات كاملة، ونترك النصوص تحدث دون تدخّل إلا عند الضرورة لإيضاح ما يصعب فهمه.

وخومة المدائن عاصمة الفرس:

قال الطبري: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأصحابهما. قالوا:

كتب عمر إلى سعد: أنبئني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم؟

فكتب إليه: إن العرب خدَّدهم (١) وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة.

فكتب إليه (أي عمر): إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان) (٢).

أمير المؤمنين يحدد مواصفات المدينة:

(فابعث سلمان رائدًا وحذيفة.. وكانا رائدي الجيش - فليرتادا

- منزلًا بريًّا بحريًّا.

- ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر.

ولم يكن بقي من أمر الجيش شيء إلا وقد أسنده إلى رجل) (٣).

المهندسان المختصان يحددان الموقع:

(فبعث سعد حذيفة وسلمان، فخرج سلمان حتى يأتي الأنبار، فسار في غربي الفرات لا يرضى شيئًا حتى أتى الكوفة. وخرج حذيفة في شرق الفرات لا يرضى

---

(١) أي أهزلهم.

(٢، ٣) تاريخ الطبري (٢/ ٤٧٨، ٤٧٩).

شيئًا حتى أتى الكوفة، والكوفة على حصباء - كل رملة حمراء يقال لها: سهلة، وكل حصباء ورمل هكذا مختلطين فهو كوفة - فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاثة: دير حُرقة، ودير أم عمرو، ودير سِلسلة، وخِصاص [١] خلال ذلك فأعجبتهما البقعة، فنزلا فصليا، وقال كل واحد منهما:

اللَّهم رب السماء وما أظلّت، ورب الأرض وما أقلّتْ، والريح وما ذَرتْ، والبحار وما جرت، والشياطين وما أضلت، والخصاص وما أجنَّت. بارك لنا في هذه الكوفة، واجعله منزل ثبات. وكتب إلى سعد بالخبر) [٢].

دعوة رئاسة الأركان للقاء:

(ولما قَدِمَ سلمان وحذيفة على سعد، وأخبروه عن الكوفة. وقدم كتاب عمر بالذي ذكرا له، كتب سعد إلى القعقاع بن عمرو أن خلِّف على الناس بجلولاء قُباذ فيمن تبعكم إلى من كان معه من الحمراء. ففعل وجاء حتى قدم على سعد في جنده.

وكتب سعد إلى عبد اللَّه بن المعتم أن خلِّف على الموصل مسلم بن عبد اللَّه الذي كان أسر أيام القادسية فيمن استجاب لكم من الأساورة ومن كان معكم منهم. ففعل وجاء حتى قدم على سعد في جنده. فارتحل سعد من المدائن بالناس حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة سبعَ عشرةَ.

وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران. وكان بين قيام عُمَرَ [٣] واختطاط الكوفة ثلاث سنين وثمانية أشهر؛ اخْتُطَّت سنة أربع من إمارة عمر في المحرم سنة سبع عشرة من التأريخ، وأعطوا العطايا في المدائن في المحرم من هذه السنة قبل أن يرتحلوا. وفي بَهُرَسِير في المحرم سنة ست عشرة. واستقرَّ بأهل البصرة منزلهم اليوم بعد ثلاث نزلات قبلها. وارتحلوا عنها في المحرم سنة سبع عشرة. واستقر باقي قرارهما اليوم في شهر واحد) [٤].

ولنا عودة إلى البصرة بعد الكوفة.

---

(١) خصاص: جمع خص وهي البيوت الصغيرة المبنية من الطين.

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٤٧٨).

(٣) قيام عمر: تولي عمر الخلافة.

(٤) تاريخ الطبري (٤٧٨/٢).

مُخطَّط الكوفة يصل من أمير المؤمنين بالمدينة:

(لما أجمعوا على أن يضعوا بنيان الكوفة أرسل سعد إلى أبي الهيَّاج. فأخبره بكتاب عمر في الطرُق أنه أمر بالمناهج [1] أربعين ذراعًا، وما يليها ثلاثين ذراعًا، وما بين ذلك عشرين، وبالأزقة سبع أذرع، ليس دون ذلك شيء. وفي القطائع ستين ذراعًا إلا الذي لبني ضبة).

تنفيذ المخطط الأميري كاملاً في بناء الكوفة:

(فاجتمع أهل الرأي للتقدير، حتى إذا أقاموا على شيء قسم أبو الهيَّاج عليه).

المسجد مركز المدينة:

(فأول شيء خُطَّ بالكوفة وبُني حين عزموا على البناء: المسجد، فوضع في موضع أصحاب الصابون والتمَّارين [2] من السوق، فاختطوه، ثم قام رجل في وسطه، رامٍ شديد النزع فرمى عن يمينه فأمر من شاء أن يبني وراء موقع ذلك السهم، ورمى من بين يديه وخلفه، وأمر من شاء أن يبني وراء موقع السهمين).

- مواصفات المسجد:

(فترك المسجد في مربعة غلوة [3] من كل جوانبه، وبني ظُلة في مقدمه، ليست لها مجنبات ولامواخير، والمربعة لاجتماع الناس لئلَّا يزدحموا، وكذلك كانت المساجد ما خلا المسجد الحرام، فكانوا لا يشبهون به المساجد تعظيمًا لحرمته، وكانت ظلته مائتي ذراع على أساطين رخام كانت للأكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية. وأعلموا على الصحن بخندق لئلَّا يقتحمه أحد ببنيان..) [4].

إنه المسجد كأنه أمامنا، فموقعه في مربعة غلوة من كل جوانبه بحيث يبدو بناءً متميزًا يمثل هوية هذه الأمة. فيراه الغادي والرائح من أم الأرض أنه أعظم المقدسات. وفي وسط البلدة إذ يتوافد الناس إليه من كل الجهات. وحتى لا يزحم المسجد بالبناء فقد بني حوله خندق يعرف من خلاله حدود المسجد وبني ظلة في مقدمته.

---

(١) المناهج: الشوارع الواسعة.

(٢) التمارين: الذين يبيعون التمر.

(٣) الغلوة: المكان المرتفع.

(٤) تاريخ الطبري (٤٧٩/٢).

فالمسجد قسمان؛ قسم مسقوف، وهو المسجد الرئيسي. وقسم مكشوف ويُسمَّى الصحن.

وسقف هذه الظلة بهذا الاتساع لا يمكن أن يكون بلا أعمدة؛ لأنه يمتد مائتى ذراع. وكانت الأعمدة رخامية كانت للأكاسرة، ورأس كل عمود مثل أعمدة الكنائس الرومية، وليس لهذه الظلة جدران جانبية، فهي مكشوفة من كل جانب، ولم يجد المسلمون حرجًا بالنسبة لأساطين المسجد أن تكون في سطحها الأخير على شكل كَنَسِيّ؛ لأنه أقوى وأثبت، ولا يحمل شعارًا صليبيًّا أو وثنيًّا، فالمسلمون من الوعي واليقظة بحيث يأخذون من الحضارة البشرية كل شيء لا يتعارض مع دينهم، وإن اضطروا فريثما يقيمون الصورة الإسلامية الصحيحة. فقد كانوا يعتمدون على النقود الرومية والتي عليها صورة هرقل مائة عام تقريبًا إلى أن ظهر أول دينار إسلامي في عهد عبد الملك بن مروان في نهاية القرن الأول للهجرة، وكان المسجد من السعة بحيث يستوعب المسلمين جميعًا في صلاة الجمعة والجماعة. وهذا البناء المتميز يعطي من جهة ثانية جمالًا للمدينة الجديدة التي جعلت المسجد في حضنها، وله المقام الأول.

المقام الثاني: قصر الإمارة وبيت المال:

(وبنوا لسعد دارًا بحياله بينهما طريق منقَبُ مائتي ذراع. وجعل فيها بيوت الأموال. وهي قصر الكوفة اليوم بنى له ذلك روزبة من آجر بنيان الأكاسرة بالحيرة). فحاجات الناس كلهم من القضاء وبيت المال والاستشارة، والتجمع للحرب من هذا القصر فكان مواجهًا للمسجد وبينهما طريق منقب طوله مائتي ذراع. ولعل ذلك في جهة القبلة منه.

هذه الأمة الوارثة من رحمة اللَّه بها أن كان على رأسها وزير رسول اللَّه ﷺ وهي تفتح الأرض، فيراقب بوعي ويقظة وحذر كل نأمة [1] أو سلوك أو موقف يصدر عنها. فإن أي نقطة انحراف في البداية قد لا يؤبه لها تتحوَّل فيما بعد إلى خط انحراف كامل فيما بعد، وهذا باب القصر نموذج على ذلك..

- وكانت المفاجأة الصاعقة:

(... فلَّما بني ادَّعى الناس عليه ما لم يقل، وقالوا: قال سعد: سكِّن عني

---

(١) نأمة: الصوت الضعيف الخفي أيًّا كان.

الصويت. وبلغ عمر ذلك. فدعا محمد بن مسلمة. فسرحه إلى الكوفة وقال: اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه، ثم عودك إلى بدئك، فخرج حتى قدم الكوفة فاشترى حطبًا، ثم أتى به القصر، فأحرق الباب وأتى سعدٌ فأُخبِرَ الخبر، فقال: هذا رسول أُرسل بهذا الشأن وبعث رسولًا لينظر من هو؟ فإذا هو محمد بن مسلمة.

فأرسل إليه رسولًا بأن ادخل فأبى، فخرج إليه سعد، فأراده على الدخول والنزول، وعرض عليه نفقة، فلم يأخذ ودفع كتاب عمر إلى سعد:

بلغني أنك بنيت قصرًا اتخذته حصنًا، ويسمَّى قصر سعد. وجعلت بينك وبين الناس بابًا، فليس بقصرك، ولكنه قصر الخبال. انزل منه منزلًا مما يلي بيوت الأموال وأغلقه، ولا تجعل على القصر بابًا تمنع الناس من دخولهم وتنفيهم من حقوقهم، ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت.

فحلف له سعد ما قال الذي قالوا. ورجع محمد بن مسلمة من فوره حتى إذا دنا من المدينة. فني زاده. فتبلغ بلحاء من لحاء الشجر فقدم على عمر. وقد سَنِقَ فأخبره خبره كله. فقال: فهلا قبلت من سعد.

فقالو: لو أردت ذلك كتبت لي به، أو أذنت لي فيه.

فقال عمر: إن أكمل الرجال رأيًا من إذا لم يكن له عهد من صاحبه، عمل بالحزم، أو قال به ولم ينكل.

فأخبره بيمين سعد وقوله. فصدَّقَ سعدًا وقال: هو أصدق ممن روى عليه ومن أبلغني) (١).

وصلت عيون الخليفة المنبثة في الكوفة أن الأمير يحتجب عن الأمة، وأن باب القصر يغلق دونها بعث مدير مخابراته وقائد شرطته محمد بن مسلمة بمهمة سرية خاصة لإحراق القصر. إذ لا يجوز للحاكم أن يحتجب عن حاجات شعبه. ويميز في الدخول عليه بين الشريف والسوقة، فاللَّه تعالى يأمر بالعدل.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾ [النساء: ٥٨] فهو أساس الملك، وبه قامت السموات والأرض.

إنه لم يجر تحقيقًا قبل إصدار الأمر، فبمجرد القول وتناقله، أصدر أمره بإحراق

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٨٠).

باب القصر والتحقيق يأتي فيما بعد. ووصل محمد بن مسلمة ﷺ الكوفة. واشترى حطبًا، ونفذ أمر الخليفة بدقة كاملة. وبعث معه رسالة للأمير خال رسول اللَّه ﷺ يقول فيها: (بلغني أنك بنيت قصرًا اتخذته حصنًا، ويسمَّى قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس بابًا فليس بقصرك، ولكنه قصر الخبال. أنزل منه منزلًا مما يلي بيوت الأموال، وأغلقه ولا تجعل على القصر بابًا إذا خرجت تمنع الناس من دخوله، وتنفيهم به عن حقوقهم، ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك).

لقد بلغ سعد ﷺ خبر إحراق باب القصر، فأدرك بثاقب نظره أن الأمر أبعد من أن يكون جريمة مبيتة، إنما الأمر مهمة خاصة من أمير المؤمنين، وقبل أن يصدر أمره باعتقال من تحوم حوله الشبهة، تأكد بعد التحريات صدق ظنه في أن المهمة على رأسها محمد بن مسلمة وهو صاحب الشرطة، فلا يجهله أحد، فأرسل إليه رسله يدعونه للدخول على الأمير فأبى وعرض عليه النفقة فرفضها، وسمع من سعد حجته. (وحلف له ما قال الذي قالوا).

لكن قائد الشرطة الإسلامية لم يغير شيئًا من موقفه، ورفض حتى النفقة على الطريق من أمير الكوفة سعد بن أبي وقاص، وعاد وقد نفذ المهمة كاملة، لكنه كاد يهلك على الطريق فقد فني زاده واضطر أن يتبلغ بلحاء الشجر.

إنها شدة مقصودة؛ فالمهم أولًا أن لا يحجب بين الأمة وأميرها، الذي حُدِّدَتْ مهمته بقضاء حوائج الناس والعدل بينهم. ثم كان الحوار الآتي بين عمر أمير المؤمنين. وبين قائد شرطته:

(أمير المؤمنين: فهلا قبلت من سعد؟

ابن مسلمة: لو أردت ذلك كتبت لي به، أو أذنت لي فيه).

إنها دولة تقوم على تعانق الدين والدنيا؛ فالمسجد هو رمز الدولة، وهو أول بناء أقامه المسلمون في الأرض عندما قامت دولتهم ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وقصر الإمارة لشؤون الدنيا، وتنفيذ شريعة اللَّه في الأرض.

قال عمر: (إن أكمل الرجال رأيًا من إذا لم يكن له عهد من صاحبه، عمل بالحزم، أو قال به، ولم ينكُل) وكان هذا درسًا عظيمًا لمحمد بن مسلمة ﷺ. أن

يتصرف بالحكمة المناسبة باللحظة المناسبة فيرفع الظلم عن الأمير كما يرفعه عن الشعب. فقد أخبر محمد بن مسلمة ﷺ أمير المؤمنين بيمين سعد وقوله، فقال عمر ﷺ: هو أصدق ممن روى عليه ومن أبلغني.

وما هي الرواية المكذوبة على سعد؟

(وغلَّق باب القصر، وكانت الأسواق تكون في موضعه بين يديه، فكانت غوغاؤهم تمنع سعدًا الحديث.

وقالوا: قال سعد: سكِّن عني الصويت).

وبلغ عمر ذلك. أي، بلغه أن سعدًا أغلق باب القصر حتى لا يزعجه أصوات غوغاء الناس ولم يستقبل الناس لقضاء حوائجهم حتى لا يزعجه أصوات الغوغاء.

وهذا الذي أقسم عليه سعد ولم يقُله، ولم يفعله.

وهذا ما عتب به أمير المؤمنين على قائد شرطته في تجاهله يمين سعد ومقالته.

وقد وضع أمير المؤمنين الحل العملي للمشكلة. (انزل منه منزلًا مما يلي بيوت الأموال، وأغلقه. ولا تجعل على القصر بابًا تمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم).

- الاستفادة من الطاقات والخبرات:

فالذي قام ببناء قصر سعد وبيوت الأموال في مبنًى مستقل واحد هو روزبة ومعه فريق عمراني جيد يسمون: الأكرياء.. فمن هو روزبة؟

قال أبو جعفر: (.. السري عن شعيب عن سيف عن عمر بن عياش أخي أبي بكر ابن عياش عن أبي كثير: أن روزبة بن بزرجُمِهْر بن ساسان كان همذانيًا. وكان على فرج من فروج الروم فأدخل عليهم سلاحًا، فأخافه الأكاسرة، فلحق بالروم. فلم يأمن حتى قدم سعد بن مالك فبنَى له القصر والمسجد، ثم كتب معه إلى عمر وأخبره بحاله فأسلم وفَرض له عُمر وأعطاه وصرفه إلى سعد مع أكريائه - والأكرياء يومئذ هم العباد - حتى إذا كان بالمكان الذي يقال له قبر العِبادِي [1] مات فحفروا له، ثم

---

(١) منزل في طريق مكة من القادسية إلى العُذَيْب ثم المغيثة ثم القرعاء ثم واقصة ثم العقبة.. زبالة.. شُقُوق ثم قبر العِبادِي، وهي ثلث المسافة.

انتظروا به من يمرُّ بهم ممن يشهدونه موته. فمرَّ قوم من الأعراب، وقد حفروا له على الطريق. فأرَوهموه ليبرؤوا من دمه، وأشهدوهم ذلك. فقالوا: قبر العِبادي - وقيل قبر العِبادي لمكان الأكرياء.

قال أبو كثير: فهو والله أبي. قال: فقلت: ألا تخبر الناس بحاله ! قال: لا) [١].

توزيع قبائل العرب:

(قالوا: ورجح الأعشار [٢] بعضهم بعضًا رَجَحَانًا كبيرًا. فكتب سعد إلى عمر في تعديلهم. فكتب إليه أن عَدّلهم، فأرسل إلى قوم من نساب العرب وذوي رأيهم وعقلائهم منهم سعيد بن نِمْران، ومشعلة بن نعيم فعدَّلوهم عن الأسباع، فجعلوهم أسباعًا.

- فصارت كنانة وحلفاؤها من الأحابيش وغيرهم، وجديلة، وهم بنو عمرو بن قيس عيلان - سُبعًا.

- وصارت قضاعة - ومنهم يومئذ غسان بن شبام، وبجيلة وخُثْعم وكِندة وحضرموت والأزد سبُعًا.

- وصارت مذحِج وحمير وهمدان وحلفاؤهم سُبعًا.

- وصارت تميم وسائر الرباب وهوازن سُبعًا.

- وصارت أسد وغطفان ومحارب والنَّمِر وضُبيعة وتغلب سُبعًا.

- وصارت إياد وعك وعبد القيس وأهل هَجَر والحمراء سُبعًا.

فلم يزالوا كذلك زمان عمر وعثمان وعلي وعامة إمارة معاوية حتى ربّعهم زياد) [٣].

وكان التوزيع من أجل العطاء:

(وعرَّفوهم على مائة ألف درهم).

فكانت كل عِرافة من القادسية خاصة؛ ثلاثة وأربعين رجلًا، وثلاثًا وأربعين امرأة وخمسين من العيال لهم مائة ألف درهم.

وكل عِرافة من أهل الأيام عشرين رجلًا على ثلاثة الآف، وعشرين امرأة، وكل عيّل على مائة على مائة ألف درهم.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٨١/٢).

(٢) تقسيم القبائل إلى عشرة أقسام.

(٣) تاريخ الطبري (٤٨١/٢).

وكل عِرافة من الرادفة الأولى ستين رجلًا وستين امرأة وأربعين من العيال ممن كان رجالهم ألحقوا على ألف وخمسمائة على مائة ألف درهم. ثم على هذا من الحساب.

وقال عطية بن الحارث: قد أدركتُ مائةَ عريف. وعلى مثل ذلك كان أهل البصرة. كان العطاء يُدفع إلى أمراء الأسباع وأصحاب الرايات. والرايات على أيادي العرب. فيدفعونه إلى العرفاء والنقباء والأمناء فيدفعونه إلى أهله في دورهم) [١].

لا بد من حفظ حق كل مواطن في الدولة. وتعلموا هذا من رسول اللَّه ﷺ مدرسة التربية الأولى في الأرض (عن.. المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول اللَّه ﷺ حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم. فقام لهم رسول اللَّه ﷺ في المسلمين وأثنى على اللَّه بما هو أهله ثم قال: « **أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤونا تائبين. وإني رأيت أن أرد إليهم سبيهم. فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل. ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال يفيء اللَّه علينا فليفعل** ». فقال الناس، قد طبنا بذلك يا رسول اللَّه. فقال لهم: « **إنا لا ندري من أذن ممن لم يأذن. فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم** ».

فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول اللَّه ﷺ فأخبروه بأنهم قد طيبوا وأذنوا) [٢].

وكانت هذه السنة النبوية بأن لا يؤخذ من مسلم مالًا أو سبيًا أو غير ذلك إلا بإذن وطيب نفس. ورفض رسول اللَّه ﷺ سيطرة الأكثرية. فلا بد قبلها أن يتأكَّد من كل فرد بعينه وشخصه أنه قد تنازل.

وهذا الفرق بين النبوة والزعامة، والفرق بين مدرستي الرحمن والإنسان.

وكانت مهمة العرفاء الإحصاء الكامل لمن يقول نعم، ومن يقول لا.

فن الاستفتاء:

من هذه المدرسة تعلم المسلمون أن يكون العطاء واصلًا لكل فرد. ومع اتساع العدد للجيش الإسلامي الذي غدا في عشرات الألوف، لاحظنا ابتداءً توزيع مجموعات المائة ألف حسب قدم المواطن وجهاده. دون أن يُسْتَثْنى أحد من هذا

---

(١) تاريخ الطبري (٤٨١/٢).

(٢) البخاري ح (٤٢١٨).

العطاء لقد كان تسلسل القيادات من الأعلى إلى الأدنى.

١ - أمراء الأسباع.

٢ - أصحاب الرايات.

٣ - العرفاء.

٤ - النقباء.

٥ - الأمناء.

بحيث يتم من خلال هذا التدرج وصول الحق إلى كل فرد في الأمة.

لقد غدت الكوفة والبصرة حاضرتي الدنيا، وعاصمتي الأرض. ومنهما تنطلق الفتوحات في الأرض، فكان لا بد لهذا الجيل أن يكون في راحة نفسية كاملة. وعليه أن يحمل راية الإسلام إلى الوجود. فكل فرد له وزنه وله رأيه وله حقه، وليس هناك أرقام يتكلم باسمها. بل كل فرد قدوة في سلوكه، وقائد في موقعه. وكان التوزيع والتنويع في العطاء مرتبطًا بالمبادئ الثلاثة الخالدة التي وصفها عمر ﷺ:

الرجل وبلاؤه في الإسلام ... والرجل وقدمه في الإسلام .. والرجل وحاجته.

وَصْفٌ حيٌّ للكوفة:

(ونهج في الودعة من الصحن خمسة مناهج، وفي قِبلته أربعة مناهج، وفي شرقيه ثلاثة مناهج وفي غربيه ثلاثة مناهج.

- فأنزل في ودعة الصحن (الشمال): سليمًا وثقيفًا مما يلي الصحن على طريقين، وهمدان على طريق، وبجيلة على طريق آخر، وتيم اللات على آخرهم وتغِلب.

- وأنزل في قبلة الصحن بني أسد على طريق، وبين بني أسد والنَّخَع طريق، وبين النخع وكندة، طريق، وبين كندة والأزد طريق.

- وأنزل في شرقي الصحن: الأنصار ومزينة على طريق، وتميمًا ومحاربًا على طريق، وأسدًا وعامرًا على طريق.

- وأنزل في غربي الصحن: بجالة وبجلة على طريق، وجَديلة وأخلاطًا على طريق، وجُهينة وأخلاطًا على طريق.

فكان هؤلاء يلون الصحن وسائر الناس بين ذلك وما وراء ذلك.

واقتُسِمَتْ على السُّهمان:

فهذه مناهجها العظمى.

- وبنَوا مناهجها دونها تحاذي هذه ثم تلاقيها، وأخر تُتبعها، وهي دونها في الذَّرع (أصغر منها).

- والمحالّ من ورائها - وفيما بينها، وجعل هذه الطرقات من وراء الصحن.

- ونزل فيها الأعشار من أهل الأيام والقوادس.

- وحمى لأهل الثغور والموصل أماكن حتى يوافوا إليها.

- فلما ردفتهم الروادف (كثر القادمون من الخارج) البدء والثناء وكثروا عليهم، ضيق الناس المحالّ، فمن كانت رادِفَتُهُ كثيرة شخص إليهم، وترك محلته. ومن كانت رادفته قليلة أنزلوهم منازل مَنْ شخص إلى رادفته لقلّته إذا كانوا جيرانهم **وإلا وسعوا على روادفهم وضيقوا على أنفسهم**، فكان الصحن على حاله زمانَ عمر كلَّه، لا تطمع فيه القبائل، ليس فيه إلا المسجد والقصر) [١].

والأسواق في غير بنيان ولا أعلام:

(وقال عمر: الأسواق على سُنَّة المساجد من سبق إلى مقعد فهو له، حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه. **وقد كانوا أعدُّوا مُناخًا لكل رادف.** فكان كل مَنْ يجيء سواءً فيه.. حتى يأتوا بالهيَّاج (رئيس البلدية) فيقوم في أمرهم حتى يقطع لهم حيث أحبوا) [٢].

قصة القصر وبيت المال:

(وقد بنى سعد في الذين خطُّوا للقصر قصرًا بحيال محراب مسجد الكوفة اليوم فشيده، وجعل فيه بيت المال وسكن ناحيته. ثم إن بيت المال نُقب عليه نقبًا (أي حفر تحته لسرقته) وأُخِذ من المال، وكتب سعد بذلك إلى عمر. ووصف له موضع الدار وبيوت المال من الصحن مما يلي وَدَعَةَ الدار.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٠).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٨٠).

فكتب إليه عمر: أن انقل المسجد حتى تضعه إلى جَنْبِ الدار، واجعل الدار قبلته، فإن للمسجد أهلًا بالنهار وبالليل، وفيهم حصن لمالهم، فنقل المسجد وأراغ بنيانه.

فقال له دِهقان من أهل همذان يقال له روزبة بن بُزرجُمِهْر:

أنا أبنيه إليك، وأبني لك قصرًا فأصِلُهما، ويكون بنيانًا واحدًا، فخط قصر الكوفة على ما خط عليه، ثم أنشأه من نقض [1] آجر قصر كان للأكاسرة في ضواحي الحيرة على مساحته اليوم.. ووضع المسجد بحيال بيوت الأموال منه إلى منتهى القصر، يَـمْنَةً على القبلة، ثم مد به عن يمين ذلك إلى منقطع رحبة علي بن أبي طالب، والرحبة قبلته، ثم مد به فكانت قبلة المسجد إلى الرحبة وميمنة القصر) [2].

يأخذون من الحضارة المادية بقدرها:

فقد استفادوا من الخبرات الأجنبية المسلمة في عمليات البناء الجديد التي لم يكونوا يألفونها، واكتفوا ابتداءً بالبنيان العام من القصب، وَسَطٌ بين اللَّبِنِ والشَّعر (.. السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة... ولما نزل أهل الكوفةِ الكوفةَ، واستقرت بأهل البصرة الدار. عرف القوم أنفسهم، وثاب إليهم ما كانوا فقدوا. ثم إن أهل الكوفة استأذنوا في بنيان القصب، واستأذن فيه أهل البصرة.

فقال عمر: العسكر أجدُّ لحربكم، وأذكى لكم، وما أحب أن أخالفكم. وما القصب؟

قالوا: العكرش [3] إذا رَوِيَ قَصَّبَ فصار قصبًا.

قال: فشأنكم. فابتنى أهل المصرين بالقصب، ثم إن الحريق وقع بالكوفة وبالبصرة. وكان أشدهما حريقًا الكوفة، فاحترق ثمانون عريشًا، ولم يبق فيها قصبة في شوال، فما زال الناس يذكرون ذلك. فبعث سعد منهم نفرًا إلى عمر يستأذنون في البناء باللبِن. فقدموا عليه بالخبر عن الحريق وما بلغ منهم، وكانوا لا يدَعُون شيئًا ولا يأتونه إلا وآمروه [4] فيه. فقال: افعلوا.

---

(١) النقض: اسم البناء المنقوض إذا هدم.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٨٠).

(٣) نبات شبه الثيل، أشد خشونة منه.

(٤) آمروه: شاوروه.

ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تَلْزَمْكم الدولة [١].

فرجع القوم إلى الكوفة بذلك. وكتب عمر إلى عتبة وأهل البصرة بمثل ذلك وعلى تنزيل أهل الكوفة أبو الهيَّاج بن مالك، وعلى تنزيل أهل البصرة عاصم ابن الدّلَف أبو الجرباء.

قال: وعهد عمر إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنيانًا فوق القدر. قالوا: وما القدر. قال: ما لا يقرِّبكم من السَّرَف، ولا يخرجكم من القصد) [٢] إنه مجتمع يبنى محسوبًا فيه كل شيء.

وهو مجتمع مجاهد. ثقيل إذا اثّاقل إلى الأرض، وأخلد إلى الدنيا. وهو على أبواب فارس التي سقطت عاصمتها التي كانت تحكم الدنيا، على يد هذه الأمة الفتية، وكانا مبدآن أساسيان رسمت فيهما سياسة هذا المجتمع:

- الزموا السنة تَلزمْكم الدولة.
- وما القدر؟ .. ما لا يقربكم من السرف، ولا يخرجكم من القصد.

ويعجب المرء إلى عظمة التزام هذه الأمة بخليفتها. فما من خطوة ولا مشروع ولا عمل إلا ويستشار فيه أمير المؤمنين.

لقد كان له من الصلاحيات في مراقبة خطوات الأمة، أن تزل بها القدم، أو تنزلق بها المسيرة ما لا يُتصوَّر وجوده عند أي حاكم.

ثغور الكوفة:

(.. السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة و.... قالوا: فتوح المدائن: السواد وحُلوان وماسَبَذَان وقَرْقِيسياء. فكانت الثغور ثغور الكوفة أربعة:

- حُلوان عليها القعقاع بن عمرو.
- وماسَبَذَان عليها ضِرار بن الخطاب الفهري.
- وقَرقيسياء عليها عمر بن مالك، أو عمرو بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف.

---

(١) الدولة: الغلبة على العدو.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٨٢).

- والموصل عليها عبد اللّه بن المعتم.

فكانوا بذلك والناس مقيمون بالمدائن. بعدما تحول سعد إلى تمصير الكوفة. وانضمام هؤلاء النفر إلى الكوفة واستخلافهم على الثغور مَنْ يمسك بها ويقوم عليها.

- فكان خليفة القعقاع على حُلوان، قُباذ بن عبد اللّه.
- وخليفة عبد اللّه على الموصل مسلم بن عبد اللّه.
- وخليفة ضرار بن الخطاب رافع بن عبد اللّه.
- وخليفة عمر، عشنَّق بن عبد اللّه.

وكتب إليهم عمر أن يستعينوا بمن احتاجوا إليه من الأساورة. ويرفعوا عنهم الجِزاء، ففعلوا، فلما اختطت الكوفة، وأُذِن للناس في البناء، نقل الناس أبوابَهم من المدائن إلى الكوفة، فعلّقوها على ما بنوا وأوطنوا الكوفة..) [١].

لقد صار مركز القيادة العليا في الكوفة، رئيس الأركان فيه سعدٌ. وأعضاء القيادة العليا قادة الثغور، وأوكل إلى أبناء العبادلة الأربعة أن يكونوا ولاة هذه الثغور الحربية والمدنية والاستفادة من قيادات الفرس العليا وخبراتهم، حيث تسقط عنهم الجزية مقابل هذه الخدمات.

* * *
* *
*

(١) تاريخ الطبري (٤٨٢/٢). وأوطنوا الكوفة: اتخذوها وطنًا.

الفصل الثاني عشر

ماذا عن البصرة؟

بناء البصرة:

قال أبو جعفر: (وفي سنة أربعة عشرة أمر عمر بن الخطاب ﵁ - فيما زعم الواقدي - الناس بالقيام في المساجد في شهر رمضان بالمدينة. وكتب إلى الأمصار يأمر المسلمين بذلك.

وفي هذه السَّنَة - أعني: سنَةَ أربعَ عشرةَ - وجَّهَ عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى البصرة وأمره بنزولها بمن معه. وقطع مادة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها منهم في قول المدائني وروايته.

وزعم سيف أن البصرة مُصِّرَتْ في ربيع سنة عشرة. وأن عتبة بن غزوان إنما خرج إلى البصرة من المدائن بعد فراغ سعد من جلولاء وتكريت والحِصْنَيْنِ. وجهه إليها سعد بأمر عمر) [١].

عُتْبَة أمير للبصرة:

(بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان فقال له:

انطلق أنت ومن معك، حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب، وأدنى أرض العجم، فأقيموا. فأقبلوا حتى إذا كانوا بالمِرْبَدِ. وجدوا هذا الكذان [٢]. قالوا: ما هذه البصرة؟ فساروا حتى بلغوا حيال الجسر الصغير، فإذا فيه حَلْفاء وقصب نابتة. فقالوا: ها هنا أمرتم. فنزلوا دون صاحب الفرات. فأتوه، فقالوا: إن ها هنا قومًا معهم راية، وهم يريدونك فأقبل في أربعة آلاف أسوار. فقال: ما هم إلا ما أرى. اجعلوا في أعناقهم الحبال وائتوني بهم. فجعل عتبة يزْجَل [٣] وقال: إني شهدت الحرب مع النبي ﷺ

---

(١) صحيح تاريخ الطبري (٣/١٩٩)، والحصنان: هما الموصل ونينوى، والكامل (٢/٣٦٨).

(٢) الكذان: حجارة رخوة كالمدر.

(٣) يزجل: يرفع صوته.

حتى إذا زالت الشمس قال: احملوا فحملوا عليهم، فقتلوهم أجمعين. فلم يبقَ منهم إلا صاحب الفرات. أخذوه أسيرًا. فقال عتبة بن غزوان: ابغوا لنا منزلًا هو أنزه من هذا - وكان يوم عكاك ووَمَد [1]. فرفعوا له منبرًا فقام يخطب فقال:

إن الدنيا قد تصرمت وولَّتْ حذاءَ [2]، ولم يبقَ منها إلا صُبابة [3] كصُبابة الإناء، ألا وإنكم منتقلون منها إلى دار القرار. فانتقلوا منها بخير ما بحضرتكم. وقد ذكر لي لو أن صخرة أُلْقِيَتْ من شفير جهنم هوت سبعين خريفًا ولَتُمْلَأَنَّه. أو عجبتم؟ ولقد ذكر لي أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عامًا. وليأتين عليه يوم وهو كظيظ [4] من الزحام.

ولقد رأيتني وأنا سابع سبعة مع النبي ﷺ ما لنا طعام إلا ورق السَّمُر حتى تقرَّحت أشداقنا. والتقطت بردةً فشققتُها بيني وبين سعد. فما منا من أولئك السبعة من أحد إلا وهو أمير مِصْرٍ من الأمصار، وسيجرِّبون الناس بعدنا [5].

بداية الصدام مع الفرس من جهة البصرة:

(.. عن قطبة بن قتادة السدوسي - كان يغير بناحية الـخُريبة من البصرة كما كان المثنى بن حارثة الشيباني يغير بناحية الحيرة. فكتب إلى عمر يعلمه مكانه، وأنه لو كان معه عدد يسير ظفر بمن قَبلَه من العجم. فنفاهم من بلادهم. وكانت الأعاجم بتلك الناحية قد هابوه بعد وقعة خالد بنهر المرأة، فكتب إليه عمر: إنه أتاني كتابك أنك تغير على من قبلك من الأعاجم. وقد أصبت ووُفِّقْتَ. أقِمْ مكانك واحذر على من معك من أصحابك حتى يأتيك أمري. فوجَّه عمر شريح بن عامر أحد بني سعد بن بكر إلى البصرة. فقال له: كن ردءًا للمسلمين بهذه الجيزة. فأقبلَ إلى البصرة فتركَ بها قطبة ومضى إلى الأهواز حتى انتهى إلى دارس وفيها مسلحة للأعاجم، فقتلوه. وبعث عمر عتبة بن غزوان) [6].

---

(١) يوم عكاك وومد: شديد الحر مع سكون الريح. (٢) حذاء: مسرعة.

(٣) الصبابة: البقية. (٤) الكظيظ: الممتلئ.

(٥) صحيح تاريخ الطبري (٣/٢٠٢) وقال فيه المحقق: هذا إسناد لا بأس به وقد رواه الترمذي في الشمائل ح (٣٥٧).

(٦) صحيح تاريخ الطبري (٣/٢٠٢، ٢٠٣)، وقال المحقق فيه: في إسناده النضر بن إسحاق السلمي لم يوثقه غير ابن حبان.

وصية أمير المؤمنين لعتبة بن غزوان:

(عن عبد الملك بن عمير قال: إن عمر قال لعتبة بن غزوان إذ وجهه إلى البصرة: يا عتبة إني استعملتك على أرض الهند، وهي حومة من حومة العدو. وأرجو أن يكفيك اللَّه ما حولها، وأن يعينك عليها. وقد كتبت إلى العلاء بن الحضرمي أن يمدك بعَرْفَجَة ابن هَرْثَمة، وهو ذو مجاهدة العدو ومكايدته. فإذا قدم فاستشره وقربه.

وادعُ إلى اللَّه فمن أجابك فاقبل منه، ومن أبى فالجزية عن صَغار وذلة، وإلا فالسيف في غير هوادة. واتقِ اللَّه فيما وُلِّيت. وإياك أن تنازعك نفسك إلى كِبْرٍ يفسد عليك إخوتك، وقد صحبت رسول اللَّه ﷺ فعززتَ به بعد الذلة، وقوِيتَ به بعد الضعف، حتى صرت أميرًا مسلَّطًا وملِكًا مطاعًا، تقول فيسمع منك، وتأمر فيطاع أمرك، فيا لها نعمة إن لم ترفعْك فوق قدرك، وتُبطرك على مَنْ دونك. احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية. ولهي أخوفُهما عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم. أعيذك باللَّه ونفسي من ذلك، إن الناس أسرعوا إلى اللَّه حين رفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأرد اللَّه، ولا ترد الدنيا، واتق مصارع الظالمين) [1].

المعركة الحاسمة:

(عن.. مجالد بن سعيد عن الشعبي قال: قدم عتبة بن غزوان البصرة في ثلاثمائة، فلما رأى منبت القصب، وسمع نقيق الضفادع قال: إن أمير المؤمنين أمرني أن أنزل أقصى البَرِّ من أرض العرب، وأدنى أرض الريف من أرض العجم فهذا حيث واجب علينا فيه طاعة إمامِنا. فنزل الخُرَيبة. وبالأبلة خمسمائة من الأساورة يحمونها، وكانت مرفأ السفن من الصين وما دونها. فسار عتبة فنزل دون الإجَّانة، فأقام نحوًا من شهر ثم خرج إليه أهل الأبلة، فناهضهم عتبة، وجعل قطبة بن قتادة السدوسي وقسامة ابن زهير المازني في عشرة فوارس وقال لهما: كونا في ظهرنا فترُدَّا المنهزم، وتمنعا مَنْ أرادنا مِن ورائنا، ثم التقوا فما اقتتلوا مقدار جَزْرِ جَزُورٍ وقَسْمِها، حتى منحهم اللَّه أكتافهم، وولوا منهزمين حتى دخلوا المدينة. ورجع عتبةُ إلى عسكره، فأقاموا أيامًا. وألقى اللَّه في قلوبهم الرعب. فخرجوا عن المدينة وحملوا ما خفَّ لهم، وعبروا إلى

---

(١) صحيح تاريخ الطبري (٣/ ٢٠١) وقال المحقق فيه: إسناده ضعيف ولبعضه ما يشهد له.

الفرات، وخَلّوا المدينة [١]. فدخلها المسلمون فأصابوا سلاحًا ومتاعًا وسبيًا وعينًا فاقتسموا العين، فأصاب كلُّ واحد منهم درهمان، وولَّى عتبةُ نافعَ بن الحارث أقباض الأبلة، فأخرج خُمسه. ثم قسَّم الباقي بين مَنْ أفاءه اللَّه عليه. وكتب بذلك مع نافع ابن الحارث) [٢].

من الأبلة إلى دَسْتِمَيْسَان:

(وعن الشعبي قال: شهد فتح الأبلة مائتان وسبعون فيهم أبو بكرة، ونافع ابن الحارث وشبل بن معبد، والمغيرة بن شعبة، ومجاشع بن مسعود، وأبو مريم البلوي، وربيعة بن كَلدة بن أبي الصلت الثقفي والحجاج .

وعن عباية بن عبد عمرو. قال: شهدت فتح الأبلة مع عتبة. فبعث نافعَ بن الحارث إلى عمر ﷺ بالفتح، وجمع لنا أهل دَسْتِمَيْسَان. فقال عتبة: أرى أن نسير إليهم. فسرنا فلقينا مرزبان دَسْتِمَيْسَان فقاتلناه، فانهزم أصحابه وأخذ أسيرًا، فأخذ قباؤه ومنطقته. فبعث به عتبة مع أنس بن حُجَيَّة اليشكري .

وعن أبي المليح الهذلي قال: بعث عتبة أنس بن حجية إلى عمر بمنطقة مرزبان دَسْتِمَيْسَان فقال له: كيف المسلمون؟ قال: انثالت عليهم الدنيا. فهم يهيلون الذهب والفضة، فرغب الناس في البصرة فأتوها) [٣].

وعن علي بن زيد قال:

لما فرغ عتبة من الأبلة جمع له مرزبان دَسْتِمَيْسَان. فسار له عتبة من الأبلة فقتله ثم سرح مجاشع بن مسعود إلى الفرات وبها مدينة. ووفد عتبة إلى عمر، وأمر المغيرة أن يُصلِّي بالناس حتى يقدمَ مجاشعُ من الفرات، فإذا قدم فهو الأمير. فظفر مجاشع بأهل الفرات، ورجع إلى البصرة.

وجمع (الفيلكان) عظيم من عظماء (أَبَزْقُبَاذ) للمسلمين. فخرج إليه المغيرة ابن شعبة. فلقيه بالمرغاب، فظفر به. فكتب إلى عمر بالفتح.

---

(١) أي تركوها.

(٢) صحيح تاريخ الطبري (٣/٢٠٢) وقال فيه المحقق هذه رواية بإسنادين، أحدهما من طريق أبي مخنف وهو تالف، والثاني من طريق أبي إسماعيل الهمذاني. فإن كان هو الذي ذكره الحافظ المزي. فالإسناد حسن واللَّه أعلم.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٤٤١).

فقال عمر لعتبة: من استعملت على البصرة؟ قال: مجاشع بن مسعود.

قال تستعمل رجلًا من أهل الوبَرِ على أهل المدر؟ تدري ما حدث؟ قال: لا.

فأخبره بما كان من أمر المغيرة، وأمره أن يرجع إلى عمله، فمات عتبة في الطريق. واستعمل عمر المغيرة بن شعبة) [١].

النساء في المعركة:

ذكر الطبري بإسناده عن قتادة قال: (جمع أهل مَيْسَان للمسلمين، فسار إليهم المغيرة، وخلَّف المغيرة الأثقال، فلقي العدو دون دجلة. فقالت أَزْدة بنت الحارث ابن كلدة: لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم. فاعتقدت [٢] لواءً من خمارهم واتخذ النساء من خُمُرهنَّ رايات، وخرجْنَ يردْنَ المسلمين، فانتهين إليهم، والمشركون يقاتلونهم فلما رأى المشركون الرايات مقبلة، ظنوا أن مددًا من المسلمين فانكشفوا. وأتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدة) [٣].

(قال الطبري: وكان ممن سُبِي من ميسان: يسار أبو الحسن البصري. وأرطبان جد عبد اللّه بن عون بن أرطبان).

قِدْرٌ من ذهب:

(وعن المثنى بن موسى بن سلمة بن المحبَّق عن أبيه عن جده قال: شهدت فَتْحَ الأبلة. فوقع لي في سهمي قِدْرُ نحاس. فلما نظرت إذا هي ذهب فيها ثمانون ألف مثقال فكُتِبَ في ذلك إلى عمر. فكتب أن يُصبَر [٤] يمين سلمة باللّه لقد أخذها وهي عنده نحاس، فإن حلف سُلِّمَتْ إليه، وإلا قسمت بين المسلمين. قال: فحلفتُ فسلمت لي.

قال المثنى: فأصول أموالنا اليوم منها) [٥].

ننظر إلى رؤوس تندر:

(وعن عمرة ابنة قيس قالت: لما خرج الناس لقتال أهل الأبلة..) قالوا للعدو:

---

(١) الطبري (٤٤١/٢).

(٢) (اعتقدت) عقدت لواءً من خمارها.

(٣) تاريخ الطبري (٤٤١/٢).

(٤) في اللسان: ومن هذا يمين إصبر: وهو أن يحبسه السلطان على اليمين حتى يحلف بها.

(٥) تاريخ الطبري (٤٤١/٢)

تعبرون إلينا أو نعبر إليكم. قال: بل اعبروا إلينا. فأخذوا خشب العُشر [١] فأوثقوه، وعبروا إليهم فقال المشركون: لا تأخذوا أولهم حتى يعبر آخرهم. فلما صاروا على الأرض كبروا تكبيرة، ثم كبروا الثانية، فقامت دوابهم على أرجلها. ثم كبروا الثالثة، فجعلت الدابة تضرب بصاحبها الأرض وجعلنا ننظر إلى رؤوس تُنْدَرُ ما نرى مَنْ يضربها وفتح اللّه على أيديهم) [٢].

كان زياد قاسمهم وهو ابن أربع عشرة سنة:

(المدائني قال: كانت صفية بنت الحارث بن كلدة عند عتبة. وكانت أختها أردة بنت الحارث عند شبل بن معبد البَجَلي. فلما ولي عتبة البصرة انحدر معه أصهاره. أبو بكرة وشبل بن معبد، وانحدر معهم زياد، فلما فتحوا الأبلة لم يجدوا قاسمًا يقسم بينهم. فكان زياد قاسمهم وهو ابن أربع عشرة سنة له ذؤابة، فأجرَوا عليه كل يوم درهمين، وقيل: إن إمارة عتبة البصرة كانت سنة خمس عشرة، وقيل: ست عشرة. والأول أصح، فكانت إمارته عليها ستة أشهر، واستعمل عمر على البصرة المغيرة ابن شعبة، فبقي سنتين، ثم رُمي بما رمي، واستعمل أبا موسى، وقيل: استعمل بعد عتبة أبا موسى وبعده المغيرة) [٣].

(وأخرج الدينوري في الأخبار الطوال، أن عتبة بن غزوان ﷺ كتب إلى عمر ابن الخطاب ﷺ: أما بعد، فإن اللّه، وله الحمد فتح علينا الأبلة وهي مَرْقَى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين، وأغنمنا ذهبهم وفضتهم وذراريهم، وأنا كاتب إليك ببيان ذلك إن شاء اللّه) [٤].

بشارة رسول اللّه ﷺ بالبصرة:

عن مسلم بن أبي بكرة قال: سمعت أبي يقول أن رسول اللّه ﷺ قال:

(ينزل ناس من أمتي بغائط يسمُّونه البصرة عند نهر - يقال له: دجلة - يكون عليه جسر يكثر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين) [٥].

---

(١) شجر فيه حراق لم يقتدح الناس في أجود منه.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٤١).

(٣) تاريخ الطبري (٢/٤٤٢).

(٤) صحيح تاريخ الطبري (٣/٢٠٣).

(٥) المصدر نفسه (٣/٢٠٥)، وأخرجه أبو داود في سننه (كتاب الملاحم، باب في ذكر البصرة، ح ٤٣٠٦)، وحسنه الألباني.

والذي يهمنا من الروايات السابقة جميعًا هو ظهور مدنية البصرة بصفتها ثغرًا مهمًّا من أكبر ثغور المسلمين. وكان بروزها متساوقًا مع بروز الكوفة. والقيادات فيها من الصحابة الكبار ومن الرواد الأوائل والسابقين الأولين. ويكفينا تسمية رسول اللَّه ﷺ لها (**وتكون من أمصار المهاجرين**).

فعتبة بن غزوان والمغيرة بن شعبة من أهل بيعة الرضوان، وأبو بكرة أسلم في حصار الطائف، ومجاشع بن مسعود السلمي أسلم قبل فتح مكة؛ لأنه (أتى النبي ﷺ بابن أخ له ليبايعه على الهجرة، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **لا، بل تابع على الإسلام، فإنه لا هجرة بعد الفتح، ويكون من التابعين بإحسان** » [١]. ونافع بن الحارث أخو أبي بكرة وأسلم معه وأخوهم لأمهم شبل بن معبد الذي أسلم معهم. وقد عمرت البصرة بالصحابة أكثر يومَ تولَّاها أبو موسى الأشعري الذي اشترط لقبول ولايتها أن يرافقه عدد من كبار الصحابة وفقهائهم. والذي نتناول الحديث عنه فيما بعد.

كما أشارت الروايات إلى أنباء انفتاح الدنيا على المسلمين فيها؛ فسارع الكثير للإقامة فيها (.. فقال له: كيف المسلمون؟ قال: انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة، فرغب الناس في البصرة فأتوها)

حتى إن العديد ممن حضر القادسية، وأقام بالكوفة انتقل فيما بعد إلى البصرة. وصارت العاصمتان تتباريان بفتح الأرض بالإسلام.

عدم الإذن بالانسياح:

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن مجالد عن عامر قال:

كانت الكوفة وسوادها والفروج؛ حُلوان والموصل وماسَبَذَان وقَرْقِيسياء (ثم وافقهم في الحديث عمرو بن الريان عن موسى بن عيسى الهمداني بمثل حديثهم) ونهاهم عما وراء ذلك. ولم يأذن لهم في الانسياح وقالوا جميعًا: وليَ سعد بن مالك على الكوفة بعدما اختُطَّتْ ثلاث سنين ونصفًا سوى ما كان بالمدائن قبلها وعمالته ما بين الكوفة وحلوان وماسَبَذَان وقَرْقيسياء إلى البصرة. ومات عتبة بن غزوان وهو على البصرة فظع بعمله [٢]، وسعد على الكوفة. فولَّى عمر أبا سبرة مكان عتبة بن غزوان، ثم عَزَل

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير (٤/٤٥)، وأخرجه الثلاثة.

(٢) فظع بعمله: استعظمه.

أبا سبرة عن البصرة، واستعمل المغيرة، ثم عزل المغيرة، وولى أبا موسى الأشعري) [١].

فإذن لم يكن عمر ﷺ موافقًا على الانطلاق في حرب فارس، لما يعلم من الثمن الغالي الذي سيدفعه المسلمون مقابل هذا الانطلاق، واكتفى بالمحافظة على الكوفة وثغورها الأربعة؟ حلوان والموصل وماسَبَذَان وقرقيسياء. وعتبة بن غزوان على البصرة، وقد اكتفى المسلمون فيها بفتح البصرة ودستميسان.

لكن الهجوم الروماني زلزل الوجود الإسلامي في الشام والعراق. وانفتحت الجبهة الفارسية والجبهة الرومية في وقت واحد على المسلمين. وتعبأت الثغور بالمقاتلة وكانت بداية لمرحلة جديدة. فرضت سياسة جديدة في التعامل مع العدو.

ولنا من فقه عمر ﷺ ما يرجح الرأي الآخر في أن السلم هو أساس العلاقات الدولية بين المسلمين وبين أعدائهم، وليس الحرب. وأنه يمكن إذًا التعايش بين المسلمين وأعدائهم في معاهدات عدم اعتداء. ويمثل هذا الرأي بصورة أوضح مقالة عمر ﷺ بعد فتح الأهواز.

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد والمهلب وعمرو قالوا:

كان المسلمون بالبصرة وأرضِها - وأرضُها يومئذ سوادها. والأهواز على ما هم عليه إلى ذلك اليوم، ما غلبوا عليه منها ففي أيديهم، وما صولحوا عليه منها ففي أيدي أهله، يؤدون الخراج ولا يدخل عليهم، ولهم الذمة والمنعة - وعميد الصلح الهرمزان. وقد قال عمر:

حسبنا لأهل البصرة سوادهم والأهواز، وددت أن بيننا وبين فارس جبلًا من نار لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم.

كما قال لأهل الكوفة: وددت أن بينهم وبين الجبل جبلًا من نار لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم) [٢] لكن الهرمزان هو الذي قاد المقاومة الفارسية، وهرقل هو الذي قاد المقاومة الرومية. وكلاهما كانا ينتهزان الفرص لاستعادة ما سلبهم المسلمون. ولو أن الأمر انتهى إلى معاهدات كف اعتداء ورضا كل فريق بما وصل إليه لما تأخر المسلمون عن ذلك. ولكنه قدر اللَّه الغالب في أن يشرق نور الإسلام في الأرض كلها ولو كره الكافرون.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٨٢).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٩٨).

الفصل الثالث عشر

الهرمزان يقود مقاومة فارس

الجولة الأولى: تحرير بقية الأرض العربية

الهرمزان قائد المقاومة:

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري يذكر أن شعيبًا حدثه عن سيف بن عمرو، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو. قالوا:

كان الهرمزان [1] أحد البيوتات السبعة في أهل فارس. وكانت أمته (مِهْرَجان قَذَق وكوَر الأهواز). فهؤلاء بيوتات دون سائر أهل فارس. فلما انهزم يوم القادسية، كان وجهه إلى أمته، فمَلكهم وقاتل بهم من أرادهم. فكان الهرمزان يغير على مَيْسان ودَسْتِميسَان من وجهين؛ من مَنَاذر ونهرتيرَي. فاستمد عُتبة بن غزوان سعدًا فأمده سعد بنعيم بن مُقرِّن، ونعيم بن مسعود الغطفاني، حتى يكونا بينهم وبين نهر تيري.

ووجه عتبة بن غزوان سُلْمى بن القين، وحَرْملة بن مُرَيطة - وكانا من المهاجرين مع رسول اللّه ﷺ وهُمَا من بني العدوية من بني حنظلة (من تميم) فنزلا على حدود أرض ميسان ودستميسان بينهم وبين مناذر. ودعَوا بني العم فخرج إليهم غالب الوائلي وكليب بن وائل الكليبي. فتركا نُعَيمًا ونُعَيمًا - ابن مقرن وابن مسعود - ونكبا عنهما وأتيا سُلمى وحَرْملة وقالا: أنتما من العشيرة، وليس لكما مَتْرَك، فإذا كان يوم كذا وكذا فانهدا للهرمزان، فإن أحدنا يثور بمناذر والآخر بنهر تيري، فنقتل المقاتلة، ثم يكون وجهنا إليكم فليس دون الهرمزان شيء إن شاء اللّه. ورجعا وقد استجابا واستجاب قومهما بنو العم بن مالك).

(... فلما كانت تلك الليلة ليلة الموعد من سُلمى وحرملة وغالب وكُليب. والهرمزان يومئذ بين نهر تيرَى وبين دُلُث. وخرج سُلمى وحرملة صبيحتَهما في تعبئة، وأنهضا نعيمًا ونعيمًا، فالتقوا هم والهرمزان بين دُلث ونهر تيرَى، وسُلمى بن القين على

---

(١) قائد ميمنة رستم.

أهل البصرة، ونُعيم ابن مُقَرّن على أهل الكوفة فاقتتلوا. فبينا هم على ذلك أقبل المدد من قِبَلِ غالب وكُليب. وأتى الهرمزانَ الخبرُ بأن مَنَاذر ونهر تيرَى قد أخذتا، فكسر اللَّه في ذرعه وذَرْع جنده وهزمه وإياهم فقتلوا منهم ما شاؤوا، وأصابوا منهم ما شاؤوا، وأتبعوهم حتى وقفوا على شاطئ دُجَيْل. وأخذوا ما دونه. وعسكروا بحيال سوق الأهواز، وقد عبر الهرمزان جسر سوق الأهواز. وأقام بها، وصار دُجَيْل بين الهرمزان وحرملة وسُلمى ونُعيم ونُعيم وغالب وكليب).

(قالوا: ولما دهم القوم الهرمزان - ونزلوا بحياله من الأهواز - رأى ما لا طاقة له به فطلب الصلح، فكتبوا إلى عتبة بذلك يستأمرونه فيه، وكاتبه الهرمزان، فأجاب عتبة إلى ذلك على الأهواز كلها ومِهْرَجَان قَذَق ما خلا نهر تيرى ومناذر، وما غلبوا عليه من سوق الأهواز، فإنه لا يرد عليهم ما تَنَقَّذْنَا. وجعل سُلمى بن القين على مناذر مسلحةً وأمْرَها إلى غالب، وحرملة على نهر تيرى وأمرَها إلى كليب. فكانا على مسالح البصرة.

وقد هاجرت طوائف بني العَمِ فنزلوا منازلهم من البصرة، وجعلوا يتتابعون على ذلك. وقد كتب بذلك عُتبة إلى عمر، ووفَّد وفدًا منهم سُلمى، وأمَرَهُ أن يستخلف على عمله - وحرملةُ وكانا من الصحابة، وغالب وكليب).

* * *

لا يزال الموقف الرسمي من أمير المؤمنين عمر ﷺ مَنْعُ الانسياح في أرض فارس والوقوف عند الحدود الطبيعية بين العرب والفرس غير أن الهرمزان لا يزال يعيش أمجاده القديمة، ويحسب أنها الحرب مع بدو الصحراء، حرب كرٍّ وفرٍّ، ويستعمل العرب من بني العمِ وقودًا لهذه الحرب وهم مقيمون في مناذر ونهر تيرى. ولماذا سمُّوا ببني العَمِ؟

يجيبنا على هذا التساؤل ما رواه الطبري (... فهذا البيت سمي العم، فقيل بنو العم، عمّوه عن الصواب بنصره أهل فارس كقول اللَّه تبارك وتعالى ﴿ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ﴾ [المائدة: ٧١]).

وها هم الآن في اللحظات الأخيرة يؤوبون إلى رشدهم ويضعون إمكانياتهم بين القيادات الإسلامية للقضاء على الهرمزان. خاصة القيادات التي تمتّ إليهم بصلة القرابة حيث تجاوزا نعيمًا ونعيمًا الغطفاني والمازني، ومَضَيَا إلى سُلمى بن القين وحرملة بن مريطة التميميَّين المهاجرَين صاحِبَيْ رسول اللَّه ﷺ، ولعله لم يكن عبثًا

أن يختار عتبة ﷺ هذين القائدين من بني تميم، وهو يدرك وجود بني العمِ في مناذر ونهر تيرى.

وكانت خطة في غاية الدقة والحكمة..

فالهرمزان بين نهر تيرى ودُلُث، وغالب وكليب قادة بني العم خلفه في مناذر ونهر تيرى، وتواعدا مع سلمى وحرملة التحركَ في لحظة واحدة قائلَين لهما: « أنتما من العشيرة، وليس لكما مَتْرَك، فإذا كان يوم كذا فانهد للهرمزان، فإن أحدنا يثور بمناذر والآخر بنهر تيرى) ونعيم بن مُقَرِّن، ونعيم بن مسعود في أعلى ميسان ودَسْتميسان بينهم وبين نهر تيرى وسلمى بن القين وحرمة بن مريطة على حدود ميسان بينهم وبين مناذر. لقد حُصِرَ الهرمزان وأُحيط إحاطة السوار بالمعصم، وهو مطئمن إلى أن ظهره محمي من بني العَمِ الذين ربطوا مصيرهم بمصير فارس، ويحسب أن عدوه هو من يواجهه فقط من ميسان ودستميسان.

وهذا عهده بالساحة، فقد كان يغير على ميسان ودستميسان من وجهين؛ من مناذر ونهر تيرى.

وكانت ساعة الحسم..

(فلما كانت تلك الليلة - ليلة الموعد من سُلمى وحرملة وغالب وكليب - والهرمزان يومئذ بين نهر تيري وبين دلث. خرج سلمى وحرملة صبيحتها في تعبية. وأنهضا نعيمًا ونعيمًا فالتقوا هم والهرمزان بين دُلُث ونهر تيرَى. وسلمى بن القين على أهل البصرة، ونعيم بن مقرن على أهل الكوفة، فاقتتلوا. فبينا هم على ذلك أقبل المدد من قِبَلِ غالب وكليب وأتى الهرمزانَ الخبرُ بأن مناذر ونهر تيرَى قد أخذتا، فكسر اللّٰه في ذرعه وذَرْع جنده وهزمه وإياهم، فقتلوا منهم ما شاؤوا، وأصابوا منهم ما شاءوا، وأتبعوهم حتى وقفوا على شاطئ دجيل وأخذوا ما دونه، وعسكروا بحيال سوق الأهواز. وقد عبر الهرمزان جسر سوق الأهواز، وأقام بها، وصار دُجَيْل بين الهرمزان (وبين) حرملة وسُلْمى ونُعيم ونعيم وغالب، وكليب).

لقد تمَّ تحرير كامل الأرض العربية، وانضم بنو العمِ التميميون إلى الخلافة الإسلامية. وأصبح نهر دُجَيْل فاصلًا طبيعيًّا بين العرب المسلمين وبين الفرس، ويعلم المسلمون أن التوجيهات مشددة إليهم بعدم تجاوز هذه الحواجز إلى أرض فارس.

ومن أجل هذا عندما اشتدت الوطأة على الهرمزان (ورأى ما لا طاقة له به من مواجهة المسلمين طلب الصلح. فكتبوا إلى عتبة بذلك يستأمرونه فيه. وكاتبه الهرمزان، فأجاب عتبة إلى ذلك على الأهواز كلها ومِهْرَجَان قَذَق، ما خلا نهر تيرى ومناذر، وما غلبوا عليه من سوق الأهواز، فإنه لا يرد عليهم ما تَنَقَّذْنَا).

وكانت الخطوة الثانية والمتوافقة مع المنطق الإسلامي؛ أن تبقى مناذر ونهر تيرى بأيدي قياداتها الذين صدقوا العهد، وأنهَوْا الهرمزان، وهما غالب وكليب. ومع أن سُلمى وحرملة تميميان وهما مهاجران من صحابة رسول الله ﷺ، وغالب وكليب لم يدخلا الإسلام بعد. فهم السكان الأصليون والمواطنون المقيمون في هذه الأرض، فمن حقهم أن يبقى حكمهم بيدهم.

(وجعل سُلمى بن القين على مناذر مسلحة، وأمرَها إلى غالب. وحرملة على نهر تيرى (مسلحة) وأمرَها إلى كليب. فكانا على مسالح البصرة).

وسرعان ما اندمج بنو العمِ التميميون والذين صاروا « بني الرشد » مع أهلهم في البصرة (وقد هاجرت طوائف بني العم فنزلوا منازلهم في البصرة).

القيادات عند أمير المؤمنين في المدينة:

(وقد كتب بذلك عتبة إلى عمر، ووفَّد وفدًا منهم سُلمى وأمره أن يستخلف على عمله، وحَرْمَلة - وكانا من الصحابة - وغالب وكليب ووفد وفود من أهل البصرة يومئذ فأمرهم أن يرفعوا حوائجهم. فكلهم قال: أما العامة فأنت صاحبها، ولم يبق إلا خواص أنفسنا...).

هذا الغلام سيد أهل البصرة:

(... إلا ما كان من الأحنف بن قيس فإنه قال: يا أمير المؤمنين. إنك لَكَما ذكروا. ولقد يعزب عنك ما يحق علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة. وإنما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخبر، ويسمع بآذانهم.

- وإنا لم نزل ننزل منزلًا بعد منزل حتى أَرَزْنا إلى البر.

- وإن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حَدَقةِ البعير الغاسقة، من العيون العِذاب والجِنان الخِصاب، فتأتيهم ثمارهم ولم تُخْضَدْ.

- وإنا معشر أهل البصرة نزلنا سَبَخَةً هَشَّاشَةً، زَعِقَةً نَشَّاشَةً [١]. طرف لها في الفلاة، وطَرَف لها في البحر الأُجاج، يجري إليها ما جرى في مثل مرِّيء النعامة. دارنا فعمة، ووظيفتنا ضيقة، وعددنا كثير، أشرافُنا قليل، وأهل البلاء فينا كثير. ودرهمنا كبير وقفيزنا صغير. وقد وسع اللَّه علينا، وزادنا في أرضنا.

- فوسِّع علينا يا أمير المؤمنين، وزدنا وظيفة توظَّفُ علينا، ونعيش بها.

فنظر إلى منازلهم التي كانوا بها إلى أن صاروا إلى الحَجَر، فنفَّلهموه وأقطعهموه.

وكان مما كان لآل كسرى، فصار فيئًا فيما بين دجلة والحَجَر، فاقتسموه.

وكان سائر ما كان لآل كسرى في أرض البصرة، على حال ما كان في أرض الكوفة يُنْزِلونه مَنْ أحَبُّوا - ويقتسمونه بينهم - لا يستأثرون به على بدء ولا ثِنًى بعدما يرفعون خمسه إلى الوالي.

فكانت قطائع أهل البصرة نصفين: نصفها مقسوم، ونصفها متروك للعسكر والاجتماع. وكان أصحاب الألفين ممن شهد القادسية، ثم أتى البصرة مع عُتبة خمسة آلاف، وكانوا بالكوفة ثلاثين ألفًا، فألحق عمر أعدادهم من أهل البصرة من أهل البلاء في الألفين حتى ساواهم بهم، وألحق جميع مَنْ شهد الأهواز.

ثم قال: هذا الغلام سيد أهل البصرة، وكتب إلى عتبة فيه بأن يسمع منه، ويشرب برأيه.

ورد سُلمى وحَرْمَلة وغالبًا وكليبًا إلى مناذر ونهر تِيرَى، فكانوا عُدة فيه لكون إن كان، وليميِّزوا خراجها) [٢].

هذا النجم الذي بدأ يتألَّق، وتتفجَّر مواهبه. قُدِّرَ له أن تظهر مواهبُه هذه بين يدي أمير المؤمنين. وكان واحدًا من وفد كبير لا يملك أن يزاحمهم؛ فكلهم قادة كبار في قومهم. وفيهم كما رأينا سُلمى وحرملة وغالب وكليب. وكان يمكن أن يعود الوفد، ولا يلقي له أحد بالًا. ولم يكن ذا جمال بارع يلفت الأنظار. لكنه شدَّ الأنظار حين تكلم، وأخذ بلبِّ أمير المؤمنين. وعمر ﷺ يبحث بحثًا عن الطاقات والمواهب ليوظفها في موقعها المناسب، راميًا بالعمر وراء ظهره.

---

(١) أرض سبخة أي ذات ملح. وهشَّاشة أي لينة. وزعِقَةٌ أي ماؤها مُرٌّ. ونشَّاشَةٌ أي لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٩٥، ٤٩٦).

وقد برز ذلك في نموذجين من العباقرة قبل الأحنف:

النموذج الأول: عبد الله بن عباس:

والذي أدخله في مجلس الشورى حتى أنكر ذلك كبار الصحابة، واغتاظوا لدخوله بينهم ولهم أولاد مثله.

(عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه [١]. فقال:

لِمَ تدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟

فقال عمر: إنه من حيث علمتم.

فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيتُ أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم.

قال: ما تقولون في قول اللّه تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ [النصر: ١].

فقال بعضهم: أمرنا نحمد اللّه ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا.

فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟

فقلت: لا. قال: فما تقول؟

قلت: هو أجل رسول اللّه ﷺ أعلمه له، فقال: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ [النصر: ٣]

فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول) [٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دعاني عمر مع الأكابر، ويقول لا تتكلمْ حتى يتكلَّموا. ثم يسألني، ثم يقبل عليهم فيقول: ما منعكم أن تأتوني بمثل ما يأتيني به هذا الغلام الذي لم تَشْتَوِ شؤون [٣] رأسه؟ [٤].

---

(١) وجد في نفسه: عتب وغضب.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ح (٧٩٤).

(٣) شؤون الرأس: عظامه والشعب التي تجمع بين قبائل الرأس، وهي أربعة شؤون.

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/٣٤٥).

والنموذج الثاني: زياد بن أبيه:

والذي وصفه الذهبي بقوله: (وكان من نبلاء الرجال رأيًا، وعقلًا، وحزمًا، ودهاءً وفطنة، كان يضرب به المثل في النبل والسؤدد)[(١)].

وقد اكتشف عمر ﷺ مواهبه منذ أن رآه يتكلَّم بين يديه. (.. بعث سعد الأخماس مع قضاعي.. وبعث بالسبي مع أبي مُفَزِّر. والحساب مع زياد بن أبي سفيان، وكان الذي يكتب للناس ويدونهم، فلما قدموا على عمر كلَّم زيادٌ عمر فيما جاء له، ووصف له.

فقال عمر: هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلَّمتني به؟

فقال: واللَّه ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك؟ فقام في الناس بما أصابوا وما صنعوا، وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد.

فقال عمر: هذا الخطيب المِصْقَع.

فقال: إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا)[(٢)].

وكان جواب زياد على ثناء أمير المؤمنين مذهلًا. فلم يأخذه الغرور، ولم تنتفخ أوداجه وهو يرى خليفة المسلمين يثني عليه هذا الثناء، بل دلَّ على عبقرية فذة في فهم هذه البيئة العظيمة التي أنبتت هذه المواهب، وصقلت هذه العبقرية. فهو أبعد غورًا بكثير من أن يكون مجرد خطيب مصقع، فهو عبقري مخبأ في ثيابه. (إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا).

وهذا ما يحدونا للقول أن العبقريات والطاقات والإبداع تحتاج إلى بيئة تنبت فيها. وغذاء تتغذى منه، ولا تنمو في الفراغ.

ولهذا نجد كثيرًا من شبابنا العباقرة، قد يكونون في أوطانهم كمًّا مهملًا، أو مرمِيِّين في غياهب السجون، بينما لو كانوا في بلاد الغرب التي ترعى المواهب، وتبحث عنها من كل أنحاء الأرض لكان مخترعًا أو عالمًا من كبار علماء الأرض.

وهذا الذي يدفعنا كذلك للحديث عن الخط الذي نسير به في عرض هذه الأمة. فليس الأمر مجرد مجموعة من القادة، خارقة للعادة، والناس أرقام في جيوشهم!

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٤٩٥).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٤٧١).

بل نحن أمام جيل قيادي كامل، لكل فرد مهمته ومسؤوليته. ولئن برز زياد فيما بعد على مستوى الأمة كلها، فيجب أن لا ننسى أين تربَّى وأين نبت؟!

فلو كان في بيئته السابقة، لكان عبدًا عند الحارث بن كلدة يرعى الغنم ولا يدري به أحد؛ لأن أمه أَمَةٌ عند الحارث.

ولزياد خصيصة أخرى هي أنه كان وضيع النسب فلم يشرف بنسبه، بل كان يُسمَّى زياد ابن أبيه. وعندما بلغ ذروة المجد جاء معاوية خليفة المسلمين فاستلحقه بأبي سفيان. وكما قال ابن حزم: (لقد امتنع زياد وهو فِقَعَة القاع [١] لا نسب له ولا سابقة. فما أطاقه معاوية إلا بالمداراة، ثم استرضاه وولاه) [٢]. وهو الذي زكاه عمر ثانية عندما قدم مع الشهود الثلاثة في قصة المغيرة، فنظر به عمر ﷺ وقال:

(إني لأرى غلامًا لَسِنًا، لا يقول إلا حقًّا، ولم يكن ليكتمني) [٣].

ونعيد إلى الذاكرة قول عمر ﷺ في ابن عباس: (عن معمر عن الزهري قال المهاجرون لعمر:

ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟

قال: ذاكم فتى الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول) [٤].

ومضى عبد اللّٰه بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن. ومضى زياد بن أبيه أكبر دهاة العرب فيما بعد. (روى مجالد عن الشعبي قال: دهاة العرب أربعة: معاوية ابن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد.. فأما معاوية فللأناة والحلم، وأما عمرو فللمعضِلات، وأما المغيرة فللمبادهة، وأما زياد فللصغير والكبير) [٥].

(وحكى الرياشي عن الأصمعي قال: كان معاوية يقول: أنا للأناة، وعمرو للبديهة، وزياد للصغير والكبير، والمغيرة للأمر العظيم) [٦].

النموذج الثالث: الأحنف بن قيس:

وهو الذي بين أيدينا. فقد كاد الوفد يمضي بلا طائل لولا جرأة الأحنف بين يدي

---

(١) الفِقَعَة: جمع فَقْع: ضرب من الكمأة أبيض يظهر على وجه الأرض فيوطأ، والكمأة السوداء تستر في الأرض، ويقال للذي لا أصل له: فقع، والقاع: الأرض الواسعة السهلة.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٩٦/٣).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٧/٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣٤٥/٣).

(٥،٦) الاستيعاب في أسماء الأصحاب ت (٢٣٤٣).

أمير المؤمنين. **فها هو يضع قواعد التعامل السياسي بين الراعي والرعية:**

(يا أمير المؤمنين، إنك لَكَمَا ذكروا.

١ - ولقد يعزب [١] عنك ما يحق علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة.

٢ - وإنما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخبر، ويسمع بآذانهم) وعاد لتطبيق هاتين القاعدتين مباشرة بلا استئذان. حيث قدم له بأبلغ عبارة وأفصح مقالة وصفًا كاملًا للمصرين الكوفة والبصرة:

٣ - (وإنا لم نزل ننزل منزلًا بعد منزل حتى أرَزنا إلى البر.

٤ - وإن أخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العِذَاب، والجِنان الخِصاب، فتأتيهم ثمارهم ولم تُخْضَد.

٥ - وإنا معشر أهل البصرة نزلنا سَبَخَةً هَشَّاشَةً، زَعِقَةً نَشَّاشَةً، طرف لها في الفلاة، وطرف لها في البحر الأجاج، يجري إليها ما جرى في مثل مَرِّيء النعامة...).

وكم البون كبير بين المصرَين، مصر يعيش بين الصحراء والبحر، وأرض سبخة مملوءة بالماء الأجاج، لا تنبت كلًا، ولا تصلح لزرع، ومصر كما شبّهها مثل حدقة العين الغاسقة، محاطة بالجنان، متزينة بالرياض، خصبة (نقية تنبت الكلأ والعشب الكثير) كما في الحديث النبوي الشريف. هذه الأرض. فماذا عن الإنسان.

٦ - (دارنا فَعْمَةٌ [٢]، ووظيفتنا ضيقة، وعددنا كثير، وأشرافنا قليل، وأهل البلاء فينا كثير، ودرهمنا كبير، وقفيزنا صغير.

٧ - وقد وسَّع اللّه علينا، وزادنا في أرضنا.

٨ - فوسِّع علينا يا أمير المؤمنين، وزدنا وظيفة توظِّف علينا ونعيش بها).

لقد شَدَهَ الحاضرين ببلاغته، ولفت نظر أميرالمؤمنين بفصاحته، ولم يتردد أمير المؤمنين رضي الله عنه لحظة في الاستجابة مباشرة لطلباته.

فنظر إلى زيادة أرض البصرة ومساحتها فزاد إليها ما كان لآل كسرى.

(فنظر إلى منازلهم التي كانوا بها إلى أن صاروا إلى الحَجَر فنفَّلهموه، وأقطعهموه.

---

(١) يعزب: يغيب.

(٢) فعمة: ممتلئة.

وكان مما كان لآل كسرى، فصار فيئًا ما بين دجلة والحَجَر فاقتسموه، وكان سائر ما كان لآل كسرى في أرض البصرة، على حال ما كان في أرض الكوفة ينزلونه من أحبوا، ويقتسمونه بينهم لا يستأثرون به على بدء ولا ثِنًى بعدما يرفعون خمسه إلى الوالي. فكانت قطائع أهل البصرة نصفين؛ نصفها مقسوم، ونصفها متروك للعسكر والاجتماع...).

لقد استطاع هذا الغلام بذكائه وعبقريته أن يزيد مساحة البصرة لتكون ما بين الحَجَرِ إلى دجلة.

من جهة ثانية أن يزيد العطاء لأهل البلاء في البصرة الذين خاضوا حروبًا ضد الفرس مثل أهل القادسية، والشرف آنذاك في العطاء، فالعطاء على قدر البلاء والإنتاج والجهد. فكيف تصرف أمير المؤمنين لزيادة أشراف أهل البصرة؟ أعطاهم رتبًا جديدة ورواتب تتناسب مع هذه الرتب. إنه الترفيع العسكري بناءً على جهادهم العدوَّ فقد قدَّم خمسة آلاف من الكوفة بأعلى الرتب في الجيش وأعلى المرتبات؛ لأنهم خاضوا معركة القادسية.

(وكان أصحاب الألفين ممن شهد القادسية، ثم أتى البصرة مع عتبة خمسة آلاف، وكانوا بالكوفة ثلاثين ألفًا، فألحق عمر أعدادهم من أهل البصرة من أهل البلاء في الألفين حتى ساواهم بهم، فألحق جميع مَنْ شهد الأهواز بهم).

وتنبأ عمر ﷺ لهذا الغلام العبقري بقوله عنه: (هذا الغلام سيد أهل البصرة. وكتب إلى عتبة بأن يسمع منه ويشرب برأيه...).

فأدخله في مجلس الشورى في البصرة كما أدخل ابن عباس في مجلس الشورى في المدينة ولم يمر الزمن طويلًا، حتى صار الأحنف الزعيم الشعبي الأول في البصرة بلا منازع. وقالوا عنه: إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب).

وأصبح مثلًا يحتذى في التاريخ بعقله وحكمته وحلمه. وأصبح واحدًا من الأركان الأربعة في أمة الإسلام في الأرض ممن يضرب به المثل: الشجاعة والكرم والحلم والذكاء. وخلده الشاعر بقوله:

إقدَامُ عمرٍو في سَمَاحةِ حَاتِمِ ... في حِلْمِ أَحْنَفَ في ذَكَاءِ إياسِ

ولا يعني هذا أن حلمه وعقله يُعفيه من خوض غمرات الموت، أو يُعفيه من الجهاد في سبيل اللَّه.. أبدًا! فقد خاض الأهوال والغمرات حتى انجلَيْنَ وكان هو بطل فتح خراسان أعظم كور فارس فيما بعد. وبقي السيد العظيم حتى توفِّي ﷺ. وكان بجوار علي ﷺ في صفين ثم أصبح زعيم المعارضة الأول طيلة خلافة معاوية. والذي كان يجله ويحسب لرأيه ألف حساب.

الجولة الثانية: الأَهْوَاز

لقد كان المسلمون يمضون خطوة فخطوة يحرصون على السلم ما أمكنهم ذلك. وانتهى الأمر بالهرمزان بعد خسارته لمناذر ونهر تيرى أن أقام بالأهواز معاهدًا، يعيش الفريقان في أمن وسلام بهذا العهد، يؤدي لهم الجزية، ولا يمسّونه بسوء.

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو قالوا: بينا الناس من أهل البصرة وذمتهم على ذلك، وَقَعَ بين الهُرمزان وبين غالب وكُليب في حدود الأرضين اختلافٌ وادعاءٌ، وحضر سُلمَى وحَرملة لينظرا فيما بينهم، فوجدا غالبًا وكليبًا محقَّين، والهرمزان مبطلًا. فحالا بينه وبينهما، فكفر الهرمزان أيضًا ومنع ما قبله، واستعان بالأكراد، فكَثُف جنده، وكتب سلمى وحرملة وغالب وكليب ببغي الهرمزان وظُلمه وكفره إلى عُتبة بن غَزوان، فكتب بذلك إلى عمر.

فكتب إليه عمر يأمره بأمره، وأمدّهم عمر بحُرقوص بن زهير السعدي. وكانت له صحبة من رسول اللَّه ﷺ. وأَمَّره على القتال وعلى ما غلب عليه. فنهد الهرمزان بمن معه، وسلمى وحرملة وغالب وكليب، حتى إذا انتهوا إلى جسر سوق الأهواز أرسلوا إلى الهرمزان: إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم، فقال: اعبروا إلينا.

فعبروا من فوق الجسر، فاقتتلوا فوق الجسر مما يلي سوق الأهواز، حتى هُزِمَ الهرمزان ووجه نحو رَامَهُرْمُز. فأخذ على قنطرة (أَرْبُك) بقرية الشَّغَر حتى حل برامهرمز. وافتتح حرقوص بن زهير سوق الأهواز، فأقام بها، ونزل الجبل، واتسقت له بلاد سوق الأهواز إلى تُسْتَر، ووضع الجزية. وكتب بالفتح والأخماس إلى عمر، ووفَّد وفدًا بذلك. فحمد اللَّه، ودعا له بالثبات والزيادة.

وقال الأسود بن سريع في ذلك:

لعَمْرُك ما أضَاع بَنو أبِينا ... ولكنْ حَافظوا فِيمَن يُطِيعُ
أَطاعوا ربَّهم وعصَاهُ قَوْمٌ ... أضَاعوا أمْرَه فيمَنَ يُضِيع
مجوسٌ لا يُنَهْنِهُهَا [١] كِتابٌ ... فلاقَوْا كَبّةً فِيها قُبُوعُ [٢]
وولّى الهُرمُزَان علَى جَوَادٍ ... سَرِيعِ الشَّدِّ يثْفِنُهُ [٣] الجميعُ
وخَلّى سُرَّةَ الأهوازِ كَرْهًا ... غَدَاةَ الجِسرِ إذ نَجَمَ الرَّبيعُ

وقال حرقوص:

غَلبْنَا الهرُمزانَ علَى بلادٍ ... لَها في كُلِّ نَاحيةٍ ذَخَائرْ
سَواءٌ بَرّهُمْ والبَحْرُ فِيها ... إذا صَارتْ نواجِبُهَا بَواكِرْ [٤]
لَها بَحْرٌ يَعِجُّ بجَانِبَيْه ... جَعِافرُ [٥] لَا يَزالُ لَهَا زَوَاخرْ

الهرمزان يرجو الصلح ثانية:

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف، عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو قالوا: لما انهزم الهرمزان يوم سوق الأهواز، وافتتح حَرقوص بن زهير سوق الأهواز، أقام بها، وبعث جَزْء بن معاوية في أثَره بأمر عمر إلى سُرَّق، وقد كان عهد إليه فيه: إن فتح اللّه عليهم أن يتبعه جَزْءًا. ويكون وجهه إلى سُرَّق. فخرج جَزء في أثر الهرمزان، والهرمزان متجه إلى رامَهُرْمُز هاربًا. فما زال جزء يقتلهم حتى انتهى إلى قرية الشغر. وأعجزه بها الهرمزان.

فمال جَزء إلى دورق من قرية الشغر. وهى شاغرة برجلها - ودَوْرَق مدينة سُرَّق فيها قوم لا يطيقون منعها، فأخذها صافية. وكتب إلى عمر بذلك وإلى عتبة، وبدعائه من هرب إلى الجِزاء والمنَعَة، وإجابتهم إلى ذلك.

واستأذن جزء في عمران بلاده (عمر)، فأذن له، فشق الأنهار، وعمَّر الموات. ولما نزل الهرمزان رامهرمز وضاقت عليه الأهواز، والمسلمون حُلّالٌ بها فيما بين يديه.

---

(١) لا ينهنهها: لا يمنعها.
(٢) كبة فيها قبوع: هزيمة انكفؤوا على أنفسهم فيها.
(٣) يثفنه: يتبعه الجميع.
(٤) صارت نواجبها بواكر: صارت نوقها السريعة كأنها صغيرة الأسنان لا تقدر على المشي.
(٥) الجعافر: الأنهار الصغيرة.

طلب الصلح، وراسل حُرقوصًا وجَزءًا في ذلك. فكتب فيه حُرقوص إلى عمر فكتب إليه عمر وإلى عتبة يأمره أن يقبل منه على ما لم يفتحوا منها؛ على رامهرمز وتُسْتَر والسوس وجُنْدَيْ سَابور والبُنيان ومِهْرَجَان قَذَق. فأجابهم إلى ذلك. فأقام أمراء الأهواز على ما أسند إليهم، وأقام الهرمزان على صلحه - يجبَى إليهم، ويمنعونه، وإن غاوره أكراد فارس أعانوه وذبوا عنه) [1].

هذا التعامل مع الواقع، والذي ندعو كل المتحمسين للجهاد في الأرض الإسلامية أن يعوه، هو الذي حقق هذا النصر الخالد بعون اللّه تعالى.

إن التعامل مع نص قرآني أو نبوي وإهمال نصوص أخرى، لا يعني من الناحية العملية لا النظرية إلا قول اللّه تعالى: ﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣].

فأمير المؤمنين ﷺ يدرك أنه يحارب أمة عظيمة عريقة خبيرة بفنون الحرب والقتال، ولا بد أن يعد لهذه المواجهة عهدها ولا يكفيه إعمال هذه النصوص فقط:

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ ﴾ [الحج: ٣٨].

لقد فتحت بعض القوى الإسلامية الحرب ضد قوًى عظمى، ثم ضد العالم بإمكانات متواضعة لا تصلح لحرب محلية في بقعة نائية. وقدموا من الضحايا والمجازر من الآمنين أكثر بكثير مما قدموا من الأعداء. وكان الأولى بهم أن يفقهوا هذه السنن الإلهية في النصر والهزيمة، ويعملوا النصوص الأخرى التي أعملها شيخي هذه الأمة أبو بكر وعمر ﭭ :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٩٦ ، ٤٩٧).

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

وها نحن نرى عبقرية التخطيط وعظمة الإيمان تتجلَّى في الخط الإسلامي للفتح.

الإعداد الكامل:

فلإنقاذ جيش إسلامي قامت قيادته بمغامرة غير محسوبة، كلفت القيادة الإسلامية إرسال اثني عشر ألف مقاتل واثني عشر قائدًا لفكِّ الحصار عن المحاصرين.

فقه الواقع:

فالهرمزان قائد المقاومة الفارسية يتم التعامل معه من خلال واقع قوته على الأرض، لا من خلال مشاعر الحقد والكراهية عليه.

تجنب المواجهة والحرب الشاملة، والحرص على السلم أكثر من الحرب:

فكم تمنَّى أمير المؤمنين أن كان بينه وبين الفرس جبلًا من نار لا يصلون إلى المسلمين، ولا يصل المسلمون إليهم.

التعامل مع العدو دون قواعد وقرارات مسبقة:

وحين نضع هذه المبادئ نفقه عظمة سياسة الفتح الإسلامي.

- لقد اكتفى المسلمون ابتداءً بمناذر ونهر تيرى، وعاهدوا الهرمزان على الذمة، والوفاء له بما وعدوه. وهي التي تمكنوا من الظفر بها من خلال الحرب.

- وعندما كفر الهرمزان ثانية ونقض العهد، واجه المسلمون الوضع الجديد. وخاضوا المعركة المطلوبة، وحرروا الأهواز كلها. وعملوا بما تقتضيه الحرب الدفاعية بملاحقة الهرمزان ما أمكنهم ذلك، حتى استقر في رامهرمز.

- غيَّروا خطة الملاحقة والمواجهة بالانقضاض على دورق مدنية سرَّق واستولوا عليها مما اضطر الهرمزان أن يطلب الصلح ثانية.

- لم تأخذهم الحمية الجاهلية ويفكروا في التوغل في بلاد فارس، ورفض الصلح مع الذي نقض العهد، وهو الهرمزان. إنما عادوا واستشاروا أمير المؤمنين، فوافق على الصلح بشروط جديدة؛ أن تكون الأهواز التي حرَّروها بيدهم. وتتم المصالحة على ما تحت يده؛ للمسلمين الجزية، وللمعاهدين المنعة، حتى إنهم كانوا يحمون الهرمزان من غارات الأكراد عليه.

- ولم يعرف تاريخ البشرية وفاءً بالعهود وشرفًا في التعامل كما شهده من المسلمين. كما لم يشهد معاقبة للغدر، وحربًا على الغادرين كما شهده تاريخ المسلمين. ففي الحرب:

﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣].

﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

فللحرب قواعدها وللسلم قواعده، وكلها مبادئ ربانية وضعها اللَّه تعالى لجنده في الأرض فينطلقون منها، لا من أهوائهم وعقولهم ومشاعرهم.

هل الظلم هو سبب نقض العهود؟

لقد كان هذا السؤال هو الشغل الشاغل لأمير المؤمنين ﵁. فإذا كان العدل والتسامح والبر هو الذي يسود تعامل المسلمين مع خصومهم. ولن يجدوا أعدل من نظام الإسلام، فلِمَ يثورون إذن؟ ولم يكتف بالإجابة عليه من أمير المسلمين في البصرة عتبة بن غزوان ﵁ بل استدعى مجلس شورى البصرة كله للحضور عنده في المدينة ليبحث هذا الأمر.

(وأقام أمراء الأهواز على ما أسند إليهم. وأقام الهرمزان على صلحه، يجبى إليهم ويمنعونه. وإن غاوره أكراد فارس أعانوه وذبُّوا عنه. وكتب عمر إلى عتبة أن أوفد عليَّ وفدًا من صلحاء جند البصرة عشرة. فوفَّد إلى عمر عشرة، فيهم الأحنف..).

الأحنف يأخذ موقعه في مجلس الشورى:

(فلما قدم على عمر قال: إنك عندي مصدَّق، وقد رأيتك رجلًا.

فأخبرني أأن ظُلِمت الذمة، ألمظلمة نفروا أم لغير ذلك؟

فقال: لا بل لغير مظلمة، والناس على ما تحب.

قال: فنعم إذن).

لقد عادلت شهادته شهادة العشرة من أهل الشورى. واكتفى بجوابه لينهي كل مخاوفه. قال: فنعم إذن.

امتحان عسير للأحنف:

(فانصرف الوفد إلى رحالهم، فنظر في ثيابهم، فوجد ثوبًا قد خرج طرفه من عيبةٍ فشمَّه. ثم قال: لمن هذا الثوب منكم؟

قال الأحنف: لي.

قال: فبِكم أخذته؟

فذكر ثمنًا يسيرًا؛ ثمانية أو نحوها. ونقَّص مما كان أخذه به. وكان قد أخذه باثني عشر.

قال: فهلا بدون هذا، ووضعْتَ فَضْلَتَهُ موضعًا تغني به مسلمًا..).

وبدأت تربية المبدع العظيم:

فلا بُد من الوعي واليقظة التامة من أن ينفخ الشيطان الغرور فيه ويشمخ بأنفه. ولا بد من الجمع بين الجانبين؛ تشجيع المواهب، ومعالجة الخلل الذي قد ينتج عن ذلك. وكان أول ما وجه عمر رضي الله عنه الأحنف إليه. هو أنه للأمة وليس لنفسه. لم يعد مجرد فرد يعيش لذاته، بل هو رجل الأمة وعضو مجلس شوراها إن لم يكن رئيس المجلس نفسه. وعندما يشتري الثوب الجديدَ الفارِهَ، لا بد له من حساب.. مسلم بائس يشتري له بفضلته كساء أو يطعمه غذاء.

أولًا: فهلا بدون هذا، ووضعت فَضْلَتَهُ موضعًا تغني به مسلمًا.

ثانيًا: حُصُّوا وضعوا الفضول مواضعها تريحوا أنفسكم وأموالكم.

ثالثًا: ولا تسرفوا فتخسروا أنفسكم وأموالكم.

رابعًا: إن نظر امرؤ لنفسه وقدَّمَ لها يُخْلَفْ له.

الظلم ظلمات في الدنيا والآخرة:

ومِنَ الأحنف إلى الأمير عتبة. إذ كتب له في رسالته:

(.. أعزِبِ الناس عن الظلم، واتقوا واحذروا أن يدالَ عليكم لغدرٍ يكون منكم أو بغي.

- فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه.
- وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم.
- فأوفوا بعهد الله، وقوموا على أمره.
- يكن لكم عونًا وناصرًا) [١].

ولا نصر لجند الله إن ظلموا وقد يُدالُ عليهم إذا ظهر منهم الغدر والبغي.

* * *

* *

*

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٩٧).



الفصل الرابع عشر

العظماء الثلاثة وغلطة الشاطر

العظيم الأول: العلاء بن الحضرمي:

بين العلاء بن الحضرمي وسعد بن أبي وقاص:

(وكان العلاء بن الحضرمي على البحرين أزمان أبي بكر، فعزله عمر، وجعل قدامةَ بن مظعون مكانه، ثم عزل قدامة وردَّ العلاء، وكان العلاء يباري سعدًا لصدع صدعه الفضاء بينهما. فطار العلاء على سعد في الردة بالفضل، فلما ظفر سعد بالقادسية، وأزاح الأكاسرة عن الدار، وأخذ حدود ما يلي السواد، واستعلَى وجاء بأعظم مما كان العلاء جاء به، سَرَّ العلاء أن يصنع شيئًا في الأعاجم، فرجا أن يدال كما كان قد أديل. ولم يُقدِّرِ العلاءُ وينظرْ فيما بين فضل الطاعة والمعصية بجد. وكان أبو بكر قد استعمله، وأذن له في قتال أهل الردة، واستعمله عمر، ونهاه عن البحر، فلم يقدِّرْ في الطاعة والمعصية وعواقبهما، فندب أهل البحرين إلى فارس، فتسرعوا في ذلك..) [1].

وليس العلاء نكرة بين القادة. إنه من الرعيل الأول من المهاجرين، وهو الذي ذلَّلَ اللَّه بحره وبرَّه في الردَّة بكرامات واضحات، وذلك حين كان ماضيًا بأمر الخليفة الصديق ﷺ. ونجدنا مساقين إلى عرض سريع لتلك الكرامات. ولنر أنّنا أمة جديدة متميزة تختلف بكل مقاييسها عن أمم الأرض.. أمة تلقت قِيَمَها وموازينها وعقائدها من السماء، ولم تنبت أبدًا من الأرض.

(وأمر الناس بالنزول، فنفرت الإبل في جوف الليل، فما بقى عندنا بعبر ولا زاد ولا مزاد ولا بناء إلا ذهب عليها في عرض الرمل، وذلك حين نزل الناس، وقبل أن يحطُّوا، فما علمت جمعًا هجم عليهم من الغم ما هجم علينا، وأوصى بعضنا إلى بعض.

ونادى منادي العلاء: اجتمعوا، فاجتمعنا إليه. فقال: ما هذا الذي ظهر فيكم وغلب عليكم.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٩٨/٢).

فقال الناس: وكيف نلام ونحن إن بلغنا غدًا لم تحمَ شمسُه حتى نصير حديثًا!

فقال: أيها الناس، لا تراعوا. ألستم مسلمين؟ ألستم في سبيل اللَّه؟ ألستم أنصار اللَّه؟ قالوا: بلى.

قال: فأبشروا فواللَّه لا يخذلُ اللَّه من كان في مثل حالكم.

ونادى المنادي بصلاة الصبح حين طلع الفجر، فصلى بنا، ومنا المتيمم، ومنا من لم يزل على طَهوره. فلما قضى صلاته جثا لركبتيه وجثا الناس، فنَصِبَ في الدعاء [١]، ونصبوا معه، فلمع لهم سراب الشمس. فالتفت إلى الصفِّ فقال: رائد ينظر ما هذا؟

ففعل ثم رجع، فقال: سراب، فأقبل على الدعاء، ثم لمع لهم آخر فكذلك، ثم لمع لهم آخر. فقال: ماء. فقام وقام الناس - فمشينا إليه حتى نزلنا عليه، فشربنا واغتسلنا. فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تُكْرَد [٢] من كل وجه، فأناخت إلينا. فقام كل رجل إلى ظهره فأخذه، فما فقدنا سِلْكًا [٣]، فأرويناها وأسقيناها العلل بعد النَّهَل) [٤].

هذه الكرامة ساقها اللَّه تعالى لجنده في الصحراء، وعلى رأسهم قائدهم العظيم العلاء بن الحضرمي وكانت الكرامة الثانية التي ساقها اللَّه تعالى لجنده، في الماء.

(.. فارتحل وارتحلوا حتى إذا أتى ساحل البحر اقتحموا على الصاهل [٥] والجامل [٦] والشاحج [٧] والناهق والراكب والراجل، ودعا فدعوا. وكان دعاؤه ودعاؤهم: يا أرحم الراحمين، يا كريم، يا حليم، يا أحد، يا صمد، يا حي، يا محيي الموتى، يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت يا ربنا.

فأجازوا ذلك الخليج بإذن اللَّه جميعًا يمشون على مثل رملة مَيْثَاء، فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل. وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر في بعض الحالات. فالتقوا بها واقتتلوا قتالًا شديدًا. فما تركوا بها مُخْبِرًا [٨].. وسبوا الذراري، واستاقوا الأموال. فبلغ نَفَل الفارس ستة آلاف، والراجل ألفين. قطعوا ليلهم، وساروا يومهم. فلما فرغوا رجعوا عَوْدَهم على بَدْئِهم حتى عبروا. وفي ذلك يقول عفيف بن المنذر:

---

(١) أي اجتهد فيه وتعب.
(٢) أي تُساق وتُدْفع.
(٣) السلك جمع سلكة، وهو الخيط الذي يخاط به الثوب.
(٤) تاريخ الطبري (٢٨٨/٢).
(٥) أي الفرس.
(٦) أي القطيع من الإبل.
(٧) أي البغل.
(٨) أي لم يتركوا بها أحدًا يخبر بما كان، والمراد: استأصلوهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ ذَلَّلَ بَحْرَهُ ... وَأَنْزَلَ بِالكُفَّارِ إِحْدَى الجَلَائِل
دَعَوْنَا الَّذِي شَقَّ البِحَارَ فَجَاءَنَا ... بِأَعْجَبَ مِنْ فَلْقِ البِحَارِ الأَوَائِلِ (١)

فاللَّه الذي ذلَّل الصحراء بالماء، وذَّلل البحار بالمسير في الهواء، قادرٌ - جَلّ شأنه - على عون العلاء فوق كل أرض وتحت كل سماء.

فماذا جرى بالعلاء في حربه الجديدة دون إذن أمير المؤمنين؟

العلاء يخوض حربه مع فارس:

(فندب أهل البحرين إلى فارس فتسرعوا إلى ذلك، وفرَّقهم أجنادًا.

- على أحدهما الجارود بن المعلَّى.
- وعلى الآخر السوَّار بن همَّام.
- وعلى الآخر خُلَيد بن المنذر من ساوى.

فحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر، وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوبه غازيًا، يكره التغرير بجنده استنانًا بالنبي ﷺ وبأبي بكر. لم يغز فيه النبي ﷺ ولا أبو بكر.

فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا في إصطخر، وبإزائهم أهلُ فارس وعلى أهل فارس الهِرْبذ. اجتمعوا عليه، فحالوا بين المسلمين وبين سُفنهم، فقام خُليد في الناس فقال:

أما بعد، فإن اللَّه إذا قضى أمرًا جرت به المقادير حتى تصيبه، وإن هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم إلى حربهم. وإنما جئتم لمحاربتهم، والسفنُ والأرض لمن غَلَب، فاستعينوا بالصبر والصلاة، وإنها لكبيرة إلّا على الخاشعين، فأجابوه إلى ذلك، فصلوا الظهر، ثم ناهدوهم فاقتتلوا قتالًا شديدًا في موقع من الأرض يدعى طاوس. وجعل السَّوار يرتجز ويقول:

يا آلَ عَبْدِ القَيسِ للقِراعِ ... قد حَفَلَ الأَمَدادُ بالجِراعِ (٢)
وكلّهُمْ في سَنَنِ المِصَاعِ (٣) ... يُحسِنُ ضرْبَ القوْمِ بالقَطّاعِ

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٨٩ - ٢٩٠).
(٢) أي اجتمعوا بالجراع، جمع جرعة وهي الرملة طيبة المنبت التي لا وعوثة فيها.
(٣) المصاع أي المجالدة والمضاربة.

حتى قُتِلَ. وجعل الجارود يرتجز وهو يقول:

لو كَان شيئًا أَمَمًا أَكَلْتُهْ أوْ كَان ماءً سَادِمًا جَهَرْتُهْ [١]

لكنّ بحرًا جاءَنَا أنكرْته

حتى قتل. ويومئذ وليَ عبد اللّه بن السوار، والمنذر بن الجارود حياتهما إلى أن ماتا. وجعل خليد يومئذ يرتجز ويقول:

يالَ تميم أجمِعُوا النُزولْ وكَاد جيْشُ عُمَرٍ يزول

وكُلّكم يعْلَم ما أقولْ

انزلوا. فنزلوا. فاقتتل القوم. فقُتِلَ أهل فارس مقتلة لم يُقْتَلُوا مثلها قبلها. ثم خرجوا يريدون البصرة، وقد غرقت سفنهم. ثم لم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلًا، ثم وجدوا شَهْرَك قد أخذ على المسلمين بالطرق. فعسكروا وامتنعوا في نُشُوبهم.

ولما بلغ عمرَ الذي صنع العلاء من بعثه ذلك الجيش في البحر أُلقِيَ في روعه نحوٌ من الذي كان، فاشتد غضبه على العلاء. وكتب إليه يعزله، وتوعَّده، وأمره بأثقل الأشياء عليه، وأبغض الوجوه إليه، بتأمير سعد عليه، وقال: الحق بسعد بن أبي وقاص فيمن قِبَلَكَ فخرج بمن معه نحو سعد.

وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان: إن العلاء بن الحضرمي حمل جندًا من المسلمين فأقطعهم أهل فارس، وعصاني، وأظنه لم يرد اللّه بذلك، فخشيت عليهم أن لا ينصروا؛ وأن يُغلَبوا ويُنشَبوا، فاندب إليهم الناس...) [٢].

بنو عبد القيس خير أهل المشرق كما أخبر رسول اللّه ﷺ عندما جاءه وفدهم والقيادات التي كانت على الجيش من خيرة صحابة رسول اللّه ﷺ.

- **خليد بن المنذر بن ساوى:** (ذكر الطبري أن العلاء بن الحضرمي أمّره على جماعة ووجهه في البحر إلى فارس سنة سبع عشرة، وكان أبوه قد مات إثر النبي ﷺ.

قلت: (قد تقدم أنهم كانوا لا يؤمّرون إلا الصحابة، فدل على أن لخليد وفادة واللّه أعلم) [٣].

- **السوار بن همام:** (من بني مرة بن همام، ذكر الرشاطي عن المدائني أنه وفد

---

(١) الماء السادم: المتغير، وجهرته أي كشفته وعرفته. (٢) تاريخ الطبري (٤٩٨/٢).

(٣) الإصابة في تاريخ الصحابة ت (٢٤٢٣).

على النبي ﷺ، ثم حضر الفتوح في العراق، وله فيها ذكر، وولده عبد اللَّه استعمله معاوية على بعض الهند فاستشهد هناك) [١].

- **الجارود بن معلى العبدي:** (قال ابن إسحاق: قدم الجارود.. - وكان نصرانيًا - على النبي ﷺ ... فذكر قصة. ولُقِّب الجارود لأنه غزا بكر بن وائل فاستأصلهم. قال الشاعر:

فدُسْنَاهم بالخَيْل مِنْ كلِّ جَانب كما جَرَّد الجارودُ بَكْرَ بنَ وَائل

وكان سيد عبد القيس.

... وقدم الجارود سنة عشر في وفد عبد القيس الأخير وسُرَّ النبي ﷺ بإسلامه. وروى الطبراني.. قال: لما قَدِم الجارود وافدًا على رسول اللَّه ﷺ فرح به وقربه وأدناه. وقال ابن اسحاق في المغازي: كان حسن الإسلام، صليبًا في دينه..) [٢].

والظاهر من النص أن العلاء لم يخرج معهم. ففوجئوا وهم في قلب فارس. وكانت المفاجأة الأولى المذهلة أن سيطر العدو على سفنهم. ولم يكن أمامهم خيار إلا الموت. وبرز القادة يعبؤون جندهم ويدعونهم إلى الثبات والشهادة. وكانت الجولة بحمد اللَّه لهم حيث كان قائد الفرس الهربز. وكانت خطبة خليد رضي الله عنه. من الخطب الخوالد في تاريخ الحروب:

(أما بعد - فإن اللَّه إذا قضى أمرًا جرت به المقادير حتى تصيبه. وإن هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم إلى حربهم. وإنما جئتم لمحاربتهم، والسفن والأرض لمن غلب فاستعينوا بالصبر والصلاة، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين.

فأجابوه إلى ذلك وصلوا الظهر، ثم ناهدوهم فاقتتلوا قتالًا شديدًا في موضع من الأرض يدعى طاوس..).

لقد كان الثمن غاليًا جدًّا مقابل هذه المعركة هو استشهاد القائدين العظيمين الجارود بن معلى العبدي والسوار بن همام. وبقي خليد في الساحة وحده. (وجعل خليد يومئذ يرتجز ويقول:

يالَ تميم أجمِعُوا النزولْ وكاد جيشُ عمَرٍ يزولْ

وكلكم يعلم ما أقول

---

(١) المصدر نفسه ت (٣٨٩١).

(٢) الإصابة في تاريخ الصحابة ت (١٠٧٧).

لقد هيج في نفوسهم أعظم ما عندهم من طاقة. وكأننا أمام مؤتة جديدة يستشهد فيها القادة الثلاثة، لكن بقاء خليد ﷺ هو الذي غير مصير المعركة، كما كان أخذ خالد الراية هو الذي غير مصير المعركة.

(انزلوا. فنزلوا. فاقتتل القوم فقُتِلَ أهلُ فارس مقتلة لم يُقْتَلُوا قبلها مثلها).

لكن ما تجدي هذه المقتلة العظيمة من الفرس، والمسلمون في بحر فارس محاطون بالأعداء من كل جانب (ثم خرجوا يريدون البصرة، وقد غرقت سفنهم، ثم لم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلًا).

لقد جاء قائد جديد هو شَهْرَك، وكان من أعنف وأبطش قادة فارس (ثم وجدوا شَهْرَك قد أخذ على المسلمين بالطرق).

وكان هَمُّ القائد العظيم أن يحافظ على القوة الإسلامية من الإبادة (فعسكروا وامتنعوا في نُشُوبهم).

إنها قوة محاصرة في قلب فارس، لا يجرؤ الفرس على الهجوم عليها؛ لأنهم يعلمون أنه سيقتل أضعافهم قبل إبادتها. ولا تريد هذه القوة أن تفتح حربًا جديدة تعطي العدو الفرصة للاستقتال والقضاء عليها.

لقد كان غضب أمير المؤمنين شديدًا من **ناحيتين:**

الناحية الأولى: التغرير بهذه القوة وركوبها البحر رغم نهي أمير المؤمنين عمر عن ذلك.

الناحية الثانية: وهي الأخطر فتح جبهة جديدة مع فارس، والمغامرة فيها في قلب العدو، وعمر ﷺ لا يفتح جبهة أو معركة إلا بدراسة مستأنية عميقة. ويحاول ما استطاع أن يوقف هذه الحرب، ويكتفي بالهدنة مع الفرس، ويود أن يكون بينه وبين الفرس جبلٌ من نار لا يغزوهم المسلمون ولا يغزون المسلمين. فكانت هذه المغامرة العسكرية غير المدروسة تهييجًا لفارس كلها أن تفكر بالقضاء على المسلمين ولهذا استطاعت القيادة الفارسية أن تهيج فارس كلها لمحاولة إبادة القوة المحاصرة.

وعبَّر أمير المؤمنين عن غضبه على قائده بوضوح وصراحة حيث (كتب إليه يعزله، وتوعَّده، وأمره بأثقل الأشياء عليه، وأبغض الوجوه إليه، بتأمير سعد عليه، وقال: الحق بسعد بن أبي وقاص فيمن قِبَلك).

وعضَّ العلاء بن الحضرمي ﷺ أصابعه ندمًا على هذه المخالفة، وكان أمله بهذه القوة التي بعثها أن تعيد فتح قادسية جديدة، وتعيد فتح المدائن عاصمة الفرس. فتنسي الناس سعدا وفتوحاته. وإذا بها قوة محاصرة معرضة للاستئصال في أرض فارس. وقد قتل أكفأ القادة فيها. ومنهم سيد عبد القيس.

واغتمَّ غمًّا شديدًا تمنَّى لو أنه مات أو استشهد قبل هذه المغامرة. لكن ما يفعل فقد وقع قدر اللَّه، وعليه أن يتحمَّل مسؤولية المغامرة كاملة. وكانت هذه المسؤولية من أصعب الأمور عليه: فَقْده منصبه، وإرساله جنديًّا تحت إمرة أكبر منافِس له. ولم يكن أمامه خيار إلا أن يتحمَّل مسؤولية عمله.

لقد عبر أمير المؤمنين عمَّا في نفسه من غضب لأميره عتبة بن غزوان أمير البصرة.

(وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان: إن العلاء بن الحضرمي حمل جندًا من المسلمين، فأقطعهم أهل فارس، وعصاني، وأظنه لم يرد اللَّه بذلك، فخشيت عليهم أن لا ينصروا، وأن يُغْلَبوا وينشَبوا..).

إن عمر ﷺ لم يتعامل مع النيات، إنما تعامل ابتداء مع الواقع في معصية ظاهرة لقائد عظيم عنده. وأودى بالقوة الإسلامية المعتصمة بأرض فارس على وشك الإبادة.

لكن الأمر الأعظم من ذلك - وهو صاحب الدروس العظمى في التربية - هو أن النصر قد لا يكون حليف المسلمين لاحتمال أن هذا العمل من المغامرة لم يُبتغَ به وجهُ اللَّه.

ندعو كتبة تاريخ الإسلام أن يعيدوا ترتيب عقولهم حين يقدموا على كتابة هذا التاريخ؛ لأن الذين يصنعون التاريخ الآن هم جند اللَّه. وللَّه تعالى ميزان لا يخيس مع جنده.

فإن أعدوا وصدقوا اللَّه ما عاهدوه، وابتغوا وجه اللَّه؛ فنصْرُ اللَّه معهم، ومَعِيَّته معهم، وإن قام خلل في النفوس؛ فإبطاء النصر قائم، والعقوبة جاهزة.

ففي أحد لاختلاف النيات ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] حيل بين المسلمين وبين النصر ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وعمر ﷺ في موازين التربية.. ظنّ، وخشي.

ظنَّ أن القائد لم يرد اللَّه بذلك. (**وخشيت** عليهم أن لا يُنْصَروا، وأن يُغْلَبوا ويَنْشَبوا).

ولا بد من إنقاذ الموقف، وإنقاذ القوة المحاصرة، التي تزداد عليها التجمعات الفارسية للقضاء عليها.

(وقد كان أهل إصطخر حيث أخذوا على المسلمين بالطرق، وأنشبوهم استصرخوا عليهم أهل فارس كلهم، فضربوا إليهم من كل وجه وكورة).

عمر ﷺ يبعث القوة المكافئة ويفك الحصار:

(فاندب الناس إليهم، واضممهم إليك من قبل أن يجتاحوا) فالوقت لا يحتمل إرسال قوة من المدينة. وأهل البلاد في البصرة الذين فتحت لهم كنوز الأرض هم المكلفون بذلك. والقائد العظيم عتبة بن غزوان أمير البصرة هو المكلف بفك الحصار.

(فندب عتبة الناس، وأخبرهم بكتاب عمر فانتدب:

١ - عاصم بن عمرو.

٢ - وعَرْفَجَة بن هَرْثمة.

٣ - وحذيفة بن محصن.

٤ - ومجزأة بن ثور.

٥ - ونهار بن الحارث.

٦ - والترجمان بن فلان.

٧ - والحصين بن أبي الحر.

٨ - والأحنف بن قيس.

٩ - وسعد بن أبي العرجاء.

١٠ - وعبد الرحمن بن سهل.

١١ - وصعصعة بن معاوية.

فخرجوا في اثني عشر ألفًا على البغال يجنِبون الخيل وعليهم:

١٢ - أبو سَبْرة بن أبي رُهم، أحد بني مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي).

لقد اقتضى تحرير القوة الإسلامية من براثن الفرس جراء مغامرة غير محسوبة، اقتضى تجنيد اثني عشر ألف مقاتل، واثني عشر قائدًا من كبار القادة المسلمين، وعلى رأسهم كبير القادة، والقائد العام أبو سبرة بن أبي رُهم القرشي العامري الذي نشهد تاريخه العظيم الناصع (أحد السابقين إلى الإسلام، وهاجر إلى الحبشة في الثانية ومعه أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، شهد بدرًا في قول جميعهم، وأمه برة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وهو أخو أبي سلمة بن عبد الأسد لأمه. وذكر الزبير ابن بكار أنه أقام بمكة بعد وفاة رسول الله ﷺ إلى أن مات في خلافة عثمان) [1].

(فخرجوا في اثني عشر ألفًا على البغال يجنبون الخيل. وعليهم أبو سبرة ابن أبي رهم أحد بني مالك بن حسل بن عامر بن لؤي. والمسالح على حالها بالأهواز والذمة، وهم ردء للغازي والمقيم، فسار أبو سَبرة بالناس، وسَاحَل لا يلقاه أحد، ولا يعرض له حتى التقى أبو سبرة وخُليد بحيث أخذ عليهم بالطرق غب وقعة القوم بطاوس. وإنما كان وليَ قتالهم أهل إصطخر وحدهم، والشُّذَّاذ من غيرهم. وقد كان أهل إصطخر حيث أخذوا على المسلمين بالطرق، وأنشَبوهم، استصرخوا عليهم أهل فارس كلهم فضربوا إليهم من كل وجه وكورة، فالتقوا هم وأبو سبرة بعد طاوس، وقد توافت إلى المسلمين أمدادهم وإلى المشركين أمدادهم، وعلى المشركين شَهَرْك. فاقتتلوا، ففتح الله على المسلمين، وقَتَل المشركين، وأصاب المسلمون منهم ما شاؤوا، وهي الغزاة التي شرفت فيها نابتة البصرة [2]، فكانوا أفضل نوابت الأمصار. فكانوا أفضل المصرَين نابتة، ثم انكفؤوا بما أصابوا، وقد عهد إليهم عتبة وكتب إليهم بالحث وقلة العُرجة [3]، فانضموا إلى البصرة، فخرج أهلها إلى منازلهم منها، وتفرَّق الذين تُنُقِّذُوا من

---

(١) تاريخ الطبري (٤٩٩/٢).

(٢) أيْ نشؤها وصغارها.

(٣) العرجة: المقام.

أهل هجر إلى قبائلهم، والذين تُنُقِّذُوا من بني عبد القيس في موضع سوق البَحْرَيْن).

ولما أحرز عتبة الأهواز وأوطأ فارس [(١)] استأذن عمر في الحجِّ فأذن له، فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يعفيه. وعزم عليه ليرجعن إلى عمله. فدعا اللَّه ثم انصرف، فمات في بطن نخلة، ودفن، وبلغ عمر، فمر به زائرًا لقبره، وقال: أنا قتلتك [(٢)] لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم. وأثنى عليه بفضله. ولم يختط [(٣)] فيمن اختط من المهاجرين. وإنما ورث ولدُهُ منزلهم من فاختة بنت غزوان، وكانت تحت عثمان ابن عفان ﷺ. وكان خباب مولاه قد لزم سمته فلم يختط. ومات عتبة بن غزوان على رأس ثلاث سنين ونصف من مفارقة سعد المدائن، وقد استخلف على الناس أبا سبرة ابن أبي رهم، وعماله على حالهم) [(٤)].

العظيم الثاني: عكرمة بن أبي جهل:

(وكان عكرمة شديد العداوة لرسول اللَّه ﷺ في الجاهلية هو وأبوه، وكان فارسًا مشهورًا، هرب حين الفتح فلحق باليمن، ولحقت به امرأته أم حكيم بنت الحارث ابن هشام، فأتت به النبي ﷺ وذلك سنة ثمان بعد الفتح، فلما رآه قال: مرحبًا بالراكب المهاجر فأسلم) [(٥)].

(... وعن أبي إسحاق السبيعي قال: لما أسلم عكرمة بن أبي جهل أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه واللَّه لا أترك مقامًا قمته لأصد به عن سبيل اللَّه إلا قمت مثله في سبيل اللَّه تعالى، ولا أترك نفقة أنفقتها لأصد عن سبيل اللَّه إلا أنفقت مثلها في سبيل اللَّه ﷻ. فلما كان يوم اليرموك نزل فترجَّل فقاتل قتالًا شديدًا فقتل رحمه الله. فوجد به بضع وسبعون من بين طعنة وضربة ورمية) [(٦)].

(وقد أخرج قصة مجيئه (ليسلم) موصولة الدارقطني والحاكم وابن مردويه..

---

(١) أي غلبها على أمرها.

(٢) أنا قتلتك: أجبره على العودة إلى الولاية وإمرة سعد بن أبي وقاص له.

(٣) لم يختط: لم يأخذ أرضًا في البصرة أو الكوفة ويبني بها الدور له. وكذلك فعل مولاه خباب.

(٤) تاريخ الطبري (٢ /٤٩٩).

(٥) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر ت (١٩٩١) وقال المحقق فيه: الصواب أنه عن أبي إسحاق مرسلًا.

(٦) المصدر نفسه، وقال المحقق فيه: هو في مصنف ابن أبي شيبة (٣٣٨٣٩) ورجاله ثقات إلا أنه مرسل.

عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول اللّه ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين.. فذكر الحديث.. وفيه:

وأمّا عكرمة فركب البحر فأصابهم عاصف. فقال أصحاب السفينة: أخلصوا، فإن آلهتكم لا تُغني عنكم ها هنا شيئًا. فقال عكرمة:

واللّه لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص، لا ينجيني في البر غيره. اللّهم إن لك عليَّ عهدًا إن عافيتني مما أنا فيه، أن آتي محمدًا فأضع يدي في يديه. فلا أجدنه إلا عفوًّا كريمًا. قال: فجاء فأسلم) [١].

عكرمة عند الصِّدّيق لأضخم المهمات:

قال أبو جعفر: (حدثنا السري عن شعيب عن سيف عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد قال:

لما أراح أسامة وجنده ظهرهم وجموا. وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم. قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية. فعقد أحد عشر لواءً:

- عقد لخالد بن الوليد، وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح.
- ولعكرمة بن أبي جهل، وأمره بمسيلمة.
- ولخالد بن سعيد بن العاص، وبعثه إلى الحمقتين من مشارف الشام.
- وبعث شرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة بن أبي جهل. وقال: إذا فرغ من اليمامة فالحق بقضاعة...) [٢].

فعكرمة إذن أُعِد لأضخم المهمات، لإنهاء (ردّة مسيلمة الكذاب الحنفي الذي رآه رسول اللّه ﷺ في نومه مع الأسود العنسي في اليمن. كما في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

كان رسول اللّه ﷺ قد ضرب بعث أسامة، فلم يستتب لوجع رسول اللّه ﷺ ولخلع مسيلمة والأسود. وقد أكثر المنافقون في تأمير أسامة، حتى بلغه. فخرج

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ت (٦٣٦٠).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٢٥٧).

النبي ﷺ على الناس عاصبًا رأسه من الصداع لذلك الشأن وانتشاره لرؤيا رآها في بيت عائشة. فقال: إني رأيت البارحة - فيما يرى النائم أن في عضدي سوارين من ذهب، فكرهتهما فنفختهما فطارا، فأولتهما هذين الكذابَين - صاحب اليمامة وصاحب اليمن...) [1] فمسيلمة إذن أخطر المتنبئين والخارجين. واستشهد من المسلمين في اليمامة ما يفوق ما استشهد منهم خلال حياة النبي ﷺ وحتى اليمامة.

ومن أجل ذلك رأى الصديق ﷺ أن عكرمة على عبقريته وعظمته لا يمكن له وحده أن ينهي أمر مسيلمة. وأمره أن لا يقوم بهجومه حتى يصل إليه مدد شرحبيل ابن حسنة.

غلطة الشاطر:

(كان أبو بكر حين بعث عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة وأتبعه شرحبيل. عجل عكرمة فبادر شرحبيل (قبل وصوله) ليذهب بصوتها، فواقعهم، فنكبوه. وأقام شرحبيل بالطريق حيث أدركه الخبر. وكتب عكرمة إلى أبي بكر بالذي كان من أمره. فكتب إليه أبو بكر: يا ابن أم عكرمة - لا أرينك - ولا تراني على حالها. لا ترجع فتوهِّن الناس. امضِ على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عمان ومهرة، وإن شغلا فامضِ أنت. ثم تسير وتُسيِّر جندك تستبرئون من مررتم به، حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت) [2].

لقد أراد أن يفوز بقصب السبق، ويكون له شرف القضاء على مسيلمة. فبادر بجيشه الحرب قبل وصول المدد فهُزم هزيمة نكراء. وقدر اللّٰه تعالى له النجاة. وكان غضب الصديق شديدًا عليه، فعزله عن القيادة، وبعثه مددًا للمسلمين في عمان ومهرة واليمن وحضرموت، وكانت رحلة شاقة، تحدثنا عنها تفصيلًا في المجلد الخاص بالخليفة الأول أبي بكر الصديق ﷺ.

وفي الرواية الثانية برواة أخر مع القاسم بن محمد قالوا:

(.. وكتب إلى عكرمة يعنفه لتسرّعه ويقول: لا أرينَّك ولا أسمعن بك إلا بعد بلاء، والْحَقْ بعمان حتى تقاتل أهل عمان، وتعين حذيفة وعرفجة، وكل واحد منكم على خيله، وحذيفة ما دمتم في عمله على الناس، فإذا فرغتم فامضِ إلى مهرة، ثم

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٨٦/٣).

(٢) تاريخ الطبري (٢٧٥/٢).

ليكن وجهك منها إلى اليمن حتى تلاقى المهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت، وأوطئ من بين عمان واليمن ممن ارتد وليَبْلُغْنِي بلاؤك) (١).

ولم يعد عكرمة ﷺ إلى القيادة العليا، ووفد على أبي بكر ﷺ بعد بلائه العظيم في عمان ومهرة واليمن وحضرموت، وأوفده الصديق مع جند اليمن ليكون مددًا لأهل الشام، وكان في معركة اليرموك على كردوس أو فرقة من الجيش تبلغ ألف مقاتل: (... وعكرمة على كردوس).

ولكن كل هذا لم يثنه عن عزمه العظيم بالجهاد والبلاء في سبيل اللَّه، فهو إنما يقاتل للَّه لا لعمر. وها نحن نشهد استشهاده ﷺ ووداعه للدنيا.

استشهاد عكرمة: من يبايعني على الموت:

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن أبي عثمان الغساني عن أبيه. قال: قال عكرمة بن أبي جهل يومئذ: قاتلت رسول اللَّه ﷺ في كل موطن، وأفر منكم اليوم. ثم نادى: من يبايع على الموت؟

فبايعه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعًا جراحًا. وقتلوا إلا من برأ، ومنهم ضرار بن الأزور.

قال: وأُتيَ خالد بعدما أصبحوا بعكرمة جريحًا، فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو ابن عكرمة. فوضع رأسه على ساقه. وجعل يمسح على وجوههما، ويقطر في حلوقهما الماء ويقول:

زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد) (٢).

نريد أن نقول للأمة كلها، أن أصحاب رسول اللَّه ﷺ بَشَر، وقد يزل أحدهم وهو يتنافس على الموت والجهاد في سبيل اللَّه، لكن القيادة العليا لا تحاسب على النوايا إنما تحاسب على التنفيذ، وتحاسب على المخالفة، وتحاسب على التفريط في دم المسلم.. فلا كبير فوق المحاسبة، وتحرص على إبقاء الروح المعنوية للجيش عالية. فلا تسمح لجيش منهزم أن يدخل المدينة، ولْيَمضِ إلى الجبهات الأخرى يتابع الجهاد.

---

(١) تاريخ الطبري (٢٩١/٢).

(٢) تاريخ الطبري (٣٣٨/٢).

وها هو عكرمة يعود، ولواء الظفر معقود بيديه، ويمضي بمن معه مددًا للعظيم الثالث الذي سنتحدث عنه. والذي نزل به ما نزل بعكرمة وأشد.

العظيم الثالث: خالد بن سعيد:

وهو من الرعيل الأول من المهاجرين، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة ثم هاجر إلى المدينة، ثم شهدد المشاهد كلها مع رسول اللّه ﷺ، وكان واليًا لرسول اللّه عندما توفّي ﷺ. وكان الصِّدِّيق ؓ أوَّل من ولَّاه حرب الشام، وحدَّد له مكان ولايته وهي تيماء.

(أمر أبو بكر خالدًا بأن ينزل تيماء. ففصل ردءًا حتى ينزل تيماء، وقد أمره أبو بكر أن لا يبرحها، وأن يدعو من حوله للانضمام إليه، وألا يقبل إلا ممن لم يرتد، ولا يقاتل إلا من قاتله، حتى يأتيه أمره. فأقام فاجتمع إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر، فضربوا على العرب الضاحية البعوث بالشام إليهم. فكتب خالد ابن سعيد إلى أبي بكر بذلك وبنزول من استنفرت الروم ونفر إليهم من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان من دون زيزاء بثلاث. فكتب إليه أبو بكر: أن أقدم ولا تتحجم، واستنصر اللّه.

فسار إليهم خالد، فلما دنا منهم تفرقوا، وأعروا منزلهم فنزله، ودخل عامة من كان تجمع له في الإسلام، وكتب خالد إلى أبي بكر بذلك، فكتب إليه أبو بكر: أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتَى من خلفك.

فسار فيمن خرج معه من تيماء، وفيمن لحق به من طرف الرمل. حتى نزلوا فيما بين آبل وزيزاء والقسطل. فسار (إليه بطريق من بطارقة الروم يُدْعَى باهان، فهزمه وقتل جنده، وكتب بذلك إلى أبي بكر واستمده. وقد قدم على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن، ومَن بين مكة واليمن. وفيهم ذو الكلاع. وقدم عليه عكرمة قافلًا وغازيًا فيمن كان معه من تِهامة وعمان والبحرين والسرو. فكتب لهم أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل، فكلهم استبدل، فسُمِّي ذلك الجيش جيش البُدال..) [١].

---

(١) تاريخ الطبري (٣٣٣/٢).

الغلطة القاتلة: غلطة الشاطر:

إنها غلطة واحدة للعظماء الثلاثة: مغامرة جريئة من دون إذن الخليفة، أدت إلى نكبة وكارثة. فماذا عند خالد رضي الله عنه؟

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن... قالوا: ولما قدم الوليد (بن عقبة) على خالد بن سعيد فسانده. وقدمت جيوش المسلمين الذين كان أبو بكر أمده بهم وسُمّوا جيش البُدال، وبلغه عن الأمراء وتوجههم إليه، اقتحم [١] على الروم وطلب الحظوة [٢]، وأعرى ظهره، وبادر الأمراء بقتال الروم، واستطرد له باهان، فأرز هو ومن معه إلى دمشق، واقتحم خالد في الجيش، ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد، حتى ينزل مرج الصفَّر من بين الواقوصة ودمشق، فانطوت مسالح باهان عليه، وأخذوا عليه الطرق وهو لا يشعر. وزحف له باهان، فوجد ابنه سعيد ابن خالد يستمطر في الناس فقتلوهم. وأتى الخبر خالدًا، فخرج هاربًا في جريدة. فأفلت من أُفلت من أصحابه على ظهور الخيل والإبل، وقد أجهضوا عن عسكرهم، ولم تنته بخالد بن سعيد الهزيمة عن ذي المروة، وأقام عكرمة في الناس ردءًا لهم، فردّ عنهم باهان وجنوده أن يطلبوه وأقام من الشام على قريب...) [٣].

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن عمرو عن الشعبي قال: لما قدم خالد ابن سعيد ذا المروة. وأتى أبا بكر الخبر، كتب إلى خالد:

أقم مكانك. فلعمري إنك مِقدام مِحجام، نجاءٌ من الغمرات، لا تخوضها إلا إلى حق ولا تصبر عليه.

ولما كان بعد، وأذن له في دخوله المدينة، قال خالد: اعذرني.

قال: أخطل [٤]. أنت امرؤ جبن لدى الحرب.

فلما خرج من عنده قال: كان عمر وعلي أعلم بخالد. ولو أطعتهما فيه اختشيته واتَّقَيْتُه) [٥].

---

(١) اقتحم على الروم: هاجمهم.

(٢) طلب الحظوة: طلب التفرد بالمجد.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٣٣٣).

(٤) الأخطل هو الأحمق.

(٥) المصدر نفسه (٢/٣٣٣).

لقد غرَّر باهان بخالد بن سعيد، وتظاهر أمامه بالهزيمة حتى وصل به إلى دمشق، ومن دمشق إلى مرج الصُّفَّر. وهنا قام باهان بالالتفاف السريع، وسد طرق المدينة والإمداد. وقام بالهجوم الصاعق على الجيش الإسلامي، وقتل كل من وجده في طريقه، وكان ممن قتل سعيدٌ ولَدُ خالدٍ هو ومن معه.

غير أن خالدًا عاد ففر هو ومن معه، وراح باهان يلاحقه، فخرج القائد العظيم عكرمة - صاحب الغلطة الأولى - وأوقف هجوم باهان في تخوم الشام، بينما وصلت طلائع المنهزمين إلى ذي المروة [1].

لقد طمع خالد بن سعيد ﷺ أن يفتح الشام قبل وصول الأمراء. وها هو موغل فيها وباهان هارب منهزم أمامه. ولكن تقديره لم يصب، وتحول الفتح إلى كارثة إننا أمام نفس بشرية. وهذا الرعيل الأول، وهؤلاء العظماء الثلاثة، لم يغب حب الجهاد في سبيل اللَّه عن نفسهم لحظة واحدة. وحلمُهم إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة. وقد يكون خالط حب الشهرة نفوسهم، ليسموا على أقرانهم بهذا الجهاد، لكن اللَّه تعالى لا يتقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه. وقد لَخَّصَ أمير المؤمنين عمر ﷺ القضية بقوله كما سبق وذكرنا:

وظننت أنه لم يرد اللَّه بذلك.

وخشيت عليهم أن لا ينصروا، وأن يُغلبوا وينشَبوا.

خالد بن سعيد يطلب الشهادة:

ولم يكتفِ خالد بعد عزله عن القيادة أن يعتزل في بيته وينتظر أجله، فحب الجهاد يجري في كل ذرة من دمه. وكما عزل عكرمة عن القيادة العليا. وصار قائدًا على ألف في كردوس من كراديس اليرموك. كذلك عزل خالد بن سعيد عن القيادة العليا، وصار قائدًا على ألف في كردوس من كراديس اليرموك.

إنه بمفهومنا المعاصر، تكسير للرُّتَب؛ من الفريق إلى الرائد أو النقيب. ولكن هذا كله لا يضيره ولا يمنعه أن يتابع جهاده في سبيل اللَّه، ويتحمل مسؤولية خطئه.

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد عن أبي عثمان عن أبي سعيد قال: لما قام عمر ﷺ رضي عن خالد بن سعيد والوليد بن عقبة؛ فأذن لهما

(١) ذي المروة: شمالي المدينة قرابة ٣٠٠ كم منها.

بدخول المدينة، وكان أبو بكر قد منعهما لفرَّتهما التي فرّاها، وردَّهُما إلى الشام وقال:
ليَبْلُغني عنكما غناء أبلكما بلاءً، فانضما إلى أي أمرائنا أحببتما. فلحقا بالناس فأبليا وأغنيا) [١].

يستشهد في مكان هزيمته بعد سنتين:

(.. بل نجح في حشدهم في مكان يقال له مرج الصُّفَّر وهو كما قال ياقوت (٣٦٧/٥) المرج أو السهل الذي يقع جنوبي نهر الأعور على بعد خمسة وعشرين كيلو مترًا غربي دمشق.

وهو المكان الذي نكب فيه أول قائد إسلامي وهزم فيه جيشه وهو خالد بن سعيد ابن العاص الأموي الذي كان أول قائد يقتحم بجيش الإسلام الشام قبل القادة الأربعة..) [٢].

وفي معركة مرج الصُّفَّر هذه استشهد القائد الكبير خالد بن سعيد الذي كان أول غازٍ في سبيل اللَّه اقتحم الشام بجيشه.

(وكان قد أعرس في الليلة التي كانت الواقعة في صبيحتها بأم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومي امرأة عكرمة بن أبي جهل (الذي استشهد في اليرموك). فلما بلغها مصابه انتزعت عمود الفسطاط فقاتلت به فيقال: إنها قتلت يومئذ سبعة نفر وإن بها لَرَدْعُ الخلوق) [٣]، [٤].

وفي رواية أخرى:

(.. قال أبو عمر: ثم خَرَجَتْ معه (عكرمة) إلى غزوة الروم فاستشهد. فتزوجها خالد بن سعيد بن العاص. فلما كانت وقعة مرج الصفَّر، أراد خالد أن يدخل بها، فقالت: لو تأخرت حتى يهزم اللَّه هذه الجموع.

فقال: إن نفسي تحدثني أني أقتل.

---

(١) تاريخ الطبري (٣٥٦/٢).

(٢) حروب الإسلام في الشام لمحمد أحمد باشميل (٢٨٣).

(٣) الخلوق: طيب العرس، وردعَه بالطيب: لطخهُ به.

(٤) فتوح البلدان للبلاذري (١٢٥).

فقالت: دونك.

فأعرس بها عند القنطرة، فَعُرِفَتْ بها بعد ذلك، فقيل لها قنطرة أم حكيم، ثم أصبح فأولم عليها، فما فرغوا من الطعام حتى وافتهم الروم ووقع القتال فاستشهد خالد.

وشدت أم حكيم عليها ثيابها وتبدت، وإن عليها أثر الخلوق، فاقتتلوا على النهر، فقاتلت أم حكيم يومئذ، فقتلت بعمود الفسطاط الذي أعرس بها خالد بن سعيد فيه سبعة من الروم)[١].

* * *
* *
*

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ت (١٢٦٣٥).

الفصل الخامس عشر

محاولة رومية لاجتياح أرض الإسلام

حمص الهدف الأول:

قال ابن جرير: (وفي هذه السنة قصدت الروم أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من جند المسلمين لحربهم، فكان من أمرهم وأمر المسلمين ما ذكر أبو عبيدة وهو فيما كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وعمرو وسعيد. قالوا:

أول ما أذن عمر للجند بالانسياح أن الروم خرجوا، وقد تكاتبوا هم وأهل الجزيرة يريدون أبا عبيدة والمسلمين بحمص. فضَمَّ أبو عبيدة إليه مسالحه، وعسكروا بفناء مدينة حمص، وأقبل خالد من قنسرين حتى انضم إليهم فيمن انضم من أمراء المسالح. فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصن إلى مجيء الغياث. فكان خالد يأمره أن يناجزهم، وكان سائرهم يأمرونه بأن يتحصَّن ويكتب إلى عمر، فأطاعهم وعصى خالدًا، وكتب إلى عمر يخبره بخروجهم عليه، وشَغْلِهِمْ أجنادَ أهل الشام عنه..) [١].

الخليفة العظيم يعد للنوازل عدتها:

(.. وقد كان عمر اتخذ في كل مصر على قدره خيولًا من فضول أموال المسلمين عُدة لكونٍ إذا كان. فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس. فلما وقع الخبر لعمر كتب إلى سعد بن مالك:

أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو، وسرِّحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص، فإن أبا عبيدة قد أحيط به، وتقدَّمْ إليهم في الجدِّ والحثّ..) [٢].

ويعد الأبطال للنوازل كذلك:

(وكتب أيضًا إليه أن سرِّح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند، وليأت الرَّقة، فإن أهل الجزيرة هم الذين استشاروا الروم على أهل حمص، وإن أهل قَرقيسياء لهم سَلَف.

(١ ، ٢) تاريخ الطبري (٤٨٢/٢).

وسرَّح عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عِتبان إلى نَصِيبين، فإن أهل قَرْقِيسياء لهم سلَف. ثم لينفضا حران والرُّهاء.

وسرَّح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتَنُوخ.

وسرَّح عياضًا، فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعًا إلى عياض بن غَنْم.

وكان عياض من أهل العراق الذين خرجوا مع خالد بن الوليد ممدين لأهل الشام، وممن انصرف أيام انصراف أهل العراق ممدين لأهل القادسية، وكان يرافد [1] أبا عبيدة..).

التنفيذ على التوّ:

- فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حمص.

- ومضى عياض بن غَنْم وأمراء الجزيرة، فأخذوا طريق الجزيرة على الفِراض وغير الفِراض [2].

- وتوجَّه كل أمير إلى الكورة التي أُمِّر عليها، فأتى الرقة.

- وخرج عمر بن الخطاب من المدينة مغيثًا لأبي عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية..) [3].

أهل الجزيرة يهربون ويتم النصر:

(.. ولما بلغ أهل الجزيرة - الذين أعانوا الروم على أهل حمص، واستثاروهم وهم معهم مقيمون عن حديث مَن بالجزيرة منهم - بأن الجنود قد ضربت من الكوفة، ولم يدروا أالجزيرة يريدون أم حمص، فتفرقوا إلى بلدانهم وإخوانهم، وخلَّوا الروم.

ورأى أبو عبيدة أمرًا لما انفضوا غير الأول فاستشار خالدًا في الخروج، فأمره بالخروج، ففتح اللَّه عليهم.

وقدم القعقاع بن عمرو في أهل الكوفة في ثلاث من يوم الوقعة، وقدم عمر فنزل الجابية، فكتبوا إلى عمر بالفتح، وبقدوم المدد عليهم في ثلاث، وبالحكم في ذلك.

---

(١) يرافد: يعاون.

(٢) الفراض: فوهة النهر أي على النهر وغير النهر.

(٣) تاريخ الطبري (٤٨٣/٢).

فكتب إليهم أن أشركوهم. وقال: جزى اللَّه أهل الكوفة خيرًا! يكفون حوزتهم، ويمدون أهل الأمصار) [١].

فتح الجزيرة:

قال أبو جعفر: (.. السري عن شعيب عن سيف عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد قالوا:

(خرج عياض بن غَنْم في أثر القَعقاع، وخرج القواد - يعني حين كتب عمر إلى سعد - فسلكوا طريق الجزيرة على الفِراض وغيرها.

فسلك سُهيل بن عدي وجنده طريق الفراض حتى انتهى إلى الرقة وقد ارْفَضّ أهل الجزيرة عن حمص إلى كُوَرهم، حين سمعوا بِمُقْبَل أهل الكوفة. فنزل عليهم فأقام محاصرَهم حتى صالحوه، وذلك أنهم قالوا فيما بينهم: أنتم بين أهل العراق وأهل الشام؛ فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء؟ فبعثوا في ذلك إلى عياض وهو في منزل واسط من الجزيرة، فرأى أن يقبل منهم، فبايعوه وقبل منهم، وكان الذي عقد لهم سهيل بن عدي عن أمر عياض؛ لأنه أمير القتال. وأجروْا ما أخذوا عَنْوة، ثم أجابوا مُجْرى أهل الذمة.

وخرج عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عِتبان، فسلك على دجلة حتى انتهى لى الموصل، فعبر إلى بَلَد حتى أتى نَصِيبين، فلقوه بالصلح، وصنعوا كما صنع أهل الرَّقة، وخافوا مثل الذي خافوا، فكتبوا إلى عياض، فرأى أن يقبَل منهم، فعقد لهم عبد اللَّه ابن عبد اللَّه، وأجرَوا ما أخذوا عنوة، ثم أجابوا مُجرَى أهل الذمة.

وخرج الوليد بن عقبة حتى قدم على بني تغلِب وعرب الجزيرة، فنهض معه مسلمهم وكافرهم إلا إياد بن نزار فإنهم ارتحلوا بِقِلِّيَّتِهِم [٢] فاقتحموا أرض الروم. فكتب بذلك الوليد إلى عمر بن الخطاب.

ولما أعطى أهل الرَّقة ونَصِيبين الطاعة ضم عياضٌ سهيلًا وعبد اللَّه. فسار بالناس إلى حَرّان فأخذ ما دونها. فلما انتهى إليهم اتقوه بالإجابة إلى الجزية فقبل منهم، وأجرى مَنْ أجاب بعد غلبه مُجْرى أهل الذمة فقبل منهم.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٨٣/٢).

(٢) يريد بعددهم القليل.

ثم إن عياضًا سرَّح سهيلًا وعبد اللّه إلى الرُّهاء، فاتقوهما بالإجابة إلى الجزية، وأجرى مَنْ دونهم مجراهم، فكانت الجزيرة أسهلَ البلدان أمرًا، وأيسره فَتْحًا. فكانت تلك السهولة مَهْجَنَةً عليهم [١]، وعلى من أقام فيهم من المسلمين، وقال عياض ابن غَنْم:

مَنْ مُبلغُ الأقْوام أنّ جُموعَنا ... حَوَتِ الجزيرةَ يومَ ذَاتِ زِحامِ

جَمعُوا الجزيرَة والغِياثَ فنفَّسوا ... عمَّن بحِمْصَ غَيابَةَ القُدَّامِ

إنَّ الأعِزّةَ والأكَارِم معْشَرٌ ... فَضُّوا الجزِيرَةَ عَنْ فِرَاخ الهَام

غَلَبُوا الملُوكَ عَلَى الجزيرَةِ فانتهَوْا ... عنْ غَزْوِ مَنْ يأوِي بلَادَ الشَّامِ

عياض يعود إلى أبي عبيدة:

(ولما نزل عمر الجابية، وفرغ أهل حمص أمدَّ عياضَ بن غَنم بحبيب بن مسلمة. فقدم على عياض مددًا. وكتب أبو عبيدة إلى عمر بعد انصرافه من الجابية يسأله أن يضم إليه عياض بن غَنم إذ ضم خالدًا إلى المدينة، فصرفه إليه، وصرف سُهيل بن عدي وعبد اللّه بن عبد اللّه إلى الكوفة ليصرفهما إلى المشرق، واستعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها، والوليد بن عقبة على عرب الجزيرة فأقاما بالجزيرة على أعمالهما.

إياد تعود إلى حظيرة الإسلام:

(قالوا: ولما قدم الكتاب من الوليد على عمر كتب عمر إلى ملك الروم:

إنه بلغني أن حيًا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك. فواللّه لتُخرجنَّه أو لَنَنْبِذَنَّ إلى النصارى ثم لنخرجنهم إليك، فأخرجهم ملك الروم، فخرجوا، فتمَّ منهم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عدي بن زياد، وخَنَس بقيتهم. فتفرقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم. فكُلّ إياديّ في أرض العرب من أولئك الأربعةِ الآلاف. وأبَى الوليد بن عقبة أن يقبل من بني تغلب إلا الإسلام. فقالوا له: أمّا من نُقِّب على قومه في صلح سعد، ومن كان قبله فأنتم وذاك. وأمَّا من لم ينقُب عليه أحد، ولم يُجِر ذلك لمن نقب فما سبيلك عليه! فكتب فيهم إلى عمر، فأجابه عمر: إنما ذلك لجزيرة العرب، لا يقبل منهم فيها إلا الإسلام. فدعهم على أن لا يُنَصِّرُوا وليدًا. واقبل منهم إذا أسلموا، فقبلَ منهم على أن لا يُنَصِّرُوا وليدًا. ولا يمنعوا أحدًا منهم من

---

(١) مهجنة عليهم: عيبًا وعارًا عليهم.

الإسلام. فأعطَى بعضهم ذلك فأخذوا به، وأبى بعضهم إلا الجِزاء، فرضيَ منهم بما رضيَ من العباد وتَنُوخ)[١].

(وكان فتح الجزيرة في سنة سبع عشرة في ذي الحجة)[٢].

الجيوش الاحتياطية عدة الإسلام:

(.. السري عن شعيب عن سيف عن طلحة وعن ماهان قال:

(كان لعمر أربعة آلاف فرس عُدَّةً لكوْنٍ إن كان يُشَتِّيهَا في قبلة قصر الكوفة وميسرته. ومن أجل ذلك يسمَّى ذلك المكان الآري إلى اليوم، ويربِّعُهَا فيما بين الفرات والأبيات من الكوفة مما يلي العاقول، فسمته الأعاجم (آخِرُ الشاهجان)، يعنون معلَفَ الأمراء. وكان قَيِّمُهُ عليها سلمان بن ربيعة الباهلي في نفرٍ من أهل الكوفة، يُصَنِّعُ سَوَابقَها، ويُجريها في كل عام. وبالبصرة نحو منها، وقَيِّمُهُ عليها جَزْء ابن معاوية، وفي كل مصر من الأمصار الثمانية على قدرها، فإن نابتهم نائبة ركب قوم وتقدموا إلى أن يستعد الناس)[٣].

هذا هو حال المرابطة الإسلامية، وهذه هي النفوس التي تربت في مدرسة النبوة لتنبض عزة وهمة وتضحية وفداءًا وذكاءًا، فإذا ما أدرنا أعيننا إلى حالنا اليوم، فإن **لنا مائة عام ونحن نعلن أهدافنا عن الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج. وأننا أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة.** ففي عام ١٩١٦م أعلن الشريف حسين الوحدة العربية، والثورة ضد الأتراك. وها قد مرت عشرات السنين. فماذا كان من هذه الوحدة؟ ولنا ميثاق الدفاع العربي المشترك الذي ينص على أن أي اعتداء على أي دولة من الدول الموقعة للميثاق هو اعتداء عليها جميعًا وأننا لن نفرط بشبر واحد من أرضنا العربية.

فماذا كانت محصلة القرن العشرين في المشروع العربي؟؟!

١ - صرنا ثلاثًا وعشرين دولة عربية.

٢ - قامت دولة إسرائيل وسط الوطن العربي.

٣ - نحاول اليوم استرضاءها بأن تترك لنا الضفة الغربية. لنعلن اعترافنا بها.

(١، ٢) تاريخ الطبري (٤٨٥/٢) أما ابن إسحاق فإنه ذكر أنها افتتحت في سنة تسع عشرة من الهجرة.

(٣) تاريخ الطبري (٤٨٣/٢).

٤ - نطلب السماح للمهجَّرين واللاجئين والنازحين بالعودة إلى وطنهم من عالم المخيمات الذي يعيشون فيه، وإسرائيل ترفض عودتهم.

٥ - نُصِرّ على القدس أن تكون عاصمة فلسطين (الضفة الغربية) إن أعطونا إياها. وهم يستبِقون الزمن ويُهَوِّدون القدس لتصبح الأكثرية فيها يهودية.

٦ - المسجد الأقصى تشتعل الحفريات تحته، وهو على وَشْك السقوط.

٧ - الجولان العربي السوري محتل من اليهود منذ أربعين عامًا. ونُصِرّ على إعطائه لنا بالمفاوضات.

بينما إذا نظرنا خلال سبعة أعوام من عمر هذه الأمة - بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى - فإننا نرى أنه:

١ - تمت الوحدة العربية على أساس الإسلام.

٢ - صار للمسلمين خليفة واحد؛ الصديق ثم الفاروق.

٣ - حاول العدو احتلال حمص والعودة لغزو دولة الخلافة.

٤ - كان الفاروق ﷺ قد شكل قوات احتياطية في كل ولاية.

٥ - تحركت القوات الإسلامية من الكوفة نحو الجزيرة حيث تجمع العدو، ونحو حمص بجوار أبي عبيدة ﷺ.

٦ - تحرك الخليفة من المدينة بجيش إسلامي ونزل الجابية.

٧ - أُسقط في يد العدو، فهرب أهل الجزيرة، وانهزم الروم لائذين بالفرار.

٨ - تم فتح الجزيرة كلها، حيث اختاروا الجزية على الحرب، وانتهى العدوان بالنصر المؤزر للمسلمين.

إنها أمة حية تتحرك من خلال الخليفة الإسلامي والأمراء الذين يحكمون الأمصار، والأمة المسلمة التي هي وقود المعارك، وعلى أُهْبة الاستعداد للمواجهة في أي لحظة.

ولنا مرور سريع على القادة الكبار الذين يقودون الأمة، وكلهم من الصحابة:

١ - سهيل بن عدي الخزرجي الأنصاري:

وهو على الغالب من غلمان الصحابة. فلم يرد له ذكر في التراجم.

٢ - عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبان:

وقد ذكره ابن الأثير بقوله: (وقد ذكر أبو جعفر الطبري أن سعد بن أبي وقاص سير عبد اللَّه بن عتبان من العراق إلى الجزيرة فسار على الموصل إلى نصيبين. فصالحه أهلها، فلا أدري هو هذا أم غيره؟) (١).

وذكره قبل صفحتين بقوله: (عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبان: روى الحافظ أبو موسى بإسناده عن أبي الشيخ الحافظ قال: قال أهل التاريخ: عبد اللَّه بن عتبان كان من أصحاب النبي ﷺ. وهو الذي كتب الصلح بين المسلمين وبين أهلي جيّ (٢).

٣ - حبيب بن مسلمة الفهري:

(.. ويقال له: حبيب الدروب، وحبيب الروم لكثرة دخوله إليهم ونيله منهم. قال الزبير بن بكار: كان شريفًا وكان قد سمع من النبي ﷺ.. وَلّاه عمر بن الخطاب أعمال الجزيرة إذ عزل عنها عياض بن غَنم، ثم ضم إليه أرمينية وأذربيجان ثم عزله..) (٣).

٤ - الوليد بن عقبة:

(... ابن أبي معيط.. أسلم يوم الفتح - فتح مكة - هو وأخوه خالد بن عقبة، يُكنى الوليد أبا وهب. قال أبو عمر: أظنه لما أسلم كان قد ناهز الاحتلام.

وقال ابن ماكولا: رأى الوليد رسول اللَّه ﷺ وهو طفل صغير. أخبرنا أبو أحمد ابن علي بإسناده عن أبي داود السجستاني.. عن الوليد قال:

لما افتتح رسول اللَّه ﷺ مكة، جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم فيمسح على رؤوسهم، ويدعو لهم بالبركة. فأتي بي إليه وأنا مُخَلَّق، فلم يمسني من أجل الخلوق) (٤).

وهكذا نرى جيلًا جديدًا قياديًّا من فتيان الصحابة وغلمانهم، أصبح الآن على مستوى المسؤولية. والذين ذكرناهم من هذا النموذج. ويدلنا الكلام من جهة ثانية على حرص الإسلام على تنمية الإبداع وتفجير الطاقات لدى شباب الإسلام ليأخذ مكانه في عملية البناء للأمة.

أما عياض بن غنم فهو من الجيل الأول:

ومن أجل ذلك كان مكانه بجوار القادة العظام من الصحابة أمثال خالد وأبي عبيدة والقعقاع. وهذه ترجمة عياض رضي الله عنه:

(١، ٢) أسد الغابة لابن الأثير (ج ٣، ت ٣٠٥٩). (٣) المصدر نفسه (ج ٣، ت ١٠٦٨).
(٤) المصدر نفسه (ج ٤، ت ٥٤٧٦) والمخلق: الذي عليه أثر الخلوق وهو الطيب.

(عياض بن غنم بن زهير بن... بن الحارث بن فهر القرشي، أبو سعد وقيل: أبو سعيد. له صُحبة. أسلم قبل الحديبية، وشهدها، وكان بالشام مع ابن عمه أبي عبيدة ابن الجراح... ولما تُوفي أبو عبيدة استخلفه بالشام فأقره عمر وقال: ما أنا بمبدل أميرًا أمَّره أبو عبيدة.

وهو الذي فتح بلاد الجزيرة، وصالحه أهلها، وهو أول من أجاز الدروب في قول الزبير، ولما مات استخلف عمر على الشام سعيد بن عامر بن جذيم. وكان موت عياض سنة عشرين، وكان صالحًا فاضلًا سمحًا، وكان يُسمَّى زاد الركب، يطعم الناس زاده، فإذا نفد نَحَرَ لهم جمله... وعن جبير بن نفير قال:

جلد عياض بن غنم صاحب دار حين فتحت، فأغلظ له هشام بن حكيم القول حتى غضب عياض. ثم مكث ليالي. فأتاه هشام فاعتذر إليه، ثم قال هشام لعياض: ألم تسمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إن من أشد الناس عذابًا أشدهم للناس عذابًا في الدنيا** »؟ [1].

فقال عياض: قد سمعنا ما سمعتَ، ورأينا ما رأيت، أو لم تسمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « **من أراد أن ينصح لذي سلطان عامة، فلا يبد له علانية، ولكن ليَخْلُ به، فإن قبل منه فذاك. وإلا كان قد أدَّى الذي عليه؟** ».

إنك يا هشام لأنت الجريء إذ تجترئ على سلطان اللَّه. فهلا خشيتَ أن يقتلك السلطان، فتكون قتيل سلطان اللَّه؟؟) [2].

ولا ننسى أن عياض بن غنم رضي الله عنه هو مرشح الصديق للقيادة قبل أن يكون مرشح الفاروق (فعن سياه وسفيان عن ماهان قالوا: كان أبو بكر قد عهد إلى خالد أن يأتي العراق من أسفل منها، وإلى عياض أن يأتيها من فوقها، وأيكما سبق إلى الحيرة، فهو أمير على الحيرة. فإذا اجتمعتما بالحيرة إن شاء اللَّه، وقد فضضتما مسالح ما بين العرب وفارس، وأمنتم أن يؤتَى المسلمون من خلفهم، فليقم بالحيرة أحدكما، وليقتحم الآخر على القوم، وجالدوهم عما في أيديهم، واستعينوا باللَّه واتقوه، وآثروا أمر الآخرة على الدنيا) [3].

ذكر طاعون عمواس:

(واختلف في خبر طاعون عمواس وفي أي سنة كان، فقال ابن إسحاق ما حدثنا

---

(١) أخرجه الأمام أحمد في مسنده (٤٠٣/٣).

(٢) أسد الغابة لابن الأثير (ج ٣، ت ٤١٦٢) ومسند الشاميين برقم (٩٧٧).

(٣) تاريخ الطبري (٣٢٢/٢).

ابن حميد قال حدثنا سلمة عنه قال ثم دخلت سنة ثماني عشرة ففيها كان طاعون عمواس فتفانى فيها الناس فتوفي أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ومعاذ بن جبل ويزيد ابن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة بن سهيل وأشراف الناس.

وأما سيف فإنه زعم أن طاعون عمواس كان في سنة سبع عشرة.

وفاة أبي عبيدة بالطاعون:

حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق عن أبان بن صالح عن شهر بن حوشب الأشعري عن رابة رجل من قومه وكان قد خلف على أمه بعد أبيه كان شهد طاعون عمواس قال لما اشتعل الوجع قام أبو عبيدة في الناس خطيبا فقال أيها الناس إن هذا الوجع رحمة بكم ودعوة نبيكم محمد ﷺ وموت الصالحين قبلكم وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظه فطعن فمات.

ومعاذ بن جبل وابنه عبد الرحمن:

(واستخلف أبو عبيدة على الناس معاذ بن جبل، فقام معاذ خطيبا فقال: أيها الناس إن هذا الوجع رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإن معاذًا يسأل الله أن يقسم لآل معاذ منه حظَّهم. فطُعن ابنه عبد الرحمن بن معاذ فمات، ثم قام فدعا به لنفسه فطُعن في راحته، فكان ينظر إليها ثم يقبِّل ظهر كفه ثم يقول: ما أُحب أن لي بما فيك شيئًا من الدنيا، فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص) [1].

وأبو مالك الأشعري:

(قدم مع أصحاب السفينتين أيام خيبر، ونزل الشام.

اسمه كعب بن عاصم، وقيل: عمرو، وقيل: عامر بن الحارث.

روى عنه عبد الرحمن بن غنم، وأم الدرداء، وربيعة الجرشي، وأبو سلام الأسود وأرسل عنه عطاء بن يسار، وشهر بن حوشب.

وقال شهر بن حوشب عن ابن غنم: طعن معاذ وأبو عبيدة وأبو مالك في يوم واحد..) [2].

---

(١) تاريخ الطبري (٤٨٩/٢).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي: الخلفاء الراشدون (١٨٥). وقد روى له مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

(وتوفي في طاعون عمواس من المسلمين بالشام خمسة وعشرون ألفًا وقيل: ثلاثون ألفًا.. منهم الحارث بن هشام، وشرحبيل بن حسنة، وعامر بن عبد الله بن الجراح، والفضل بن عباس بن عبد المطلب، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو جندل بن سهيل) [1].

ومع ذلك، فلم يغير عمر منهجه:

فخسارة ثلاثين ألفًا في طاعون عمواس من جيشه أي ما يقارب نصفه أو يعادل ثلثه. لم يجعله يتراجع في خطه الإستراتيجي العالمي في الانطلاق في الأرض في العام نفسه.

(قالوا: أذن عمر في الانسياح سنة سبعَ عشرةَ في بلاد فارس. وانتهى في ذلك إلى رأي الأحنف بن قيس. وعرف فضله وصدقه، وفرّق الأمراء والجنود. وأمّر على أهل البصرة أمراء؟ وأمّر على أهل الكوفة أمراء، وأمّر هؤلاء وهؤلاء بأمره، وأذن لهم في الانسياح سنة سبع عشرة، فساحوا في سنة ثماني عشرة.

- وأمَر أبا موسى أن يسير من البصرة إلى منقطع ذمة البصرة، فيكون هناك حتى يحدث إليه.
- وبعث بألوية من ولّى مع سهيل بن عدي حليف بني عبد الأشهل، فقدم سهيل بالألوية.
- ودفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس.
- ولواء أرد شير خُرَّة وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي.
- ولواء إصطخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي.
- ولواء فسا ودرابجرد إلى سارية بن زنيم الكناني.
- ولواء كرمان مع سهيل بن عدي.
- ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو وكان عاصم من الصحابة.
- ولواء مكران إلى الحكم بن عمير التغلبي، فخرجوا في سنة ثماني عشرةَ) [2].

* * *
* *
*

---

(١) تاريخ الطبري (٥٠٥/٢).
(٢) البدية والنهاية (٩٣/٧ - ٩٦).

الفصل السادس عشر

عزل خالد بن الوليد

لا بد من الإشارة إلى ما ذكرناه ابتداءً أن العزل الأول عن قيادة الجيوش الإسلامية واختيار أبي عبيدة بن الجراح أمين الأمة مكانه، لم يكن في حقيقته عزلًا. إنما كان تعيينًا لقائد جديد.

فحين استلم خالد ﷺ قيادة الجيوش الإسلامية إنما كان استلامًا طارئًا مؤقتًا. كما قال خالد ﷺ للقيادات قبيل غزوة اليرموك: (فهلموا فلنتعاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم ودعوني إليكم اليوم).

ووصية الصديق لعمر ﷺ:

(وإن فتح اللَّه على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق، فإنهم أهله وولاة أمره وحده، وأهل الضراوة منهم والجراءة عليهم).

فيمكن القول إذن أن عمر ﷺ عينَّ قائدًا دائمًا لجيوش المسلمين في الشام، إذ لم يكن هناك إلا قيادة مؤقتة لخالد ﷺ.

بنو المغيرة يتفانَوْن في الطَّعْن والطاعون:

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن مجالد عن الشعبي:

وخرج الحارث بن هشام في سبعين من أهل بيته، فلم يرجع منهم إلا أربعة، فقال المهاجر بن خالد بن الوليد:

مَن يسكُن الشامَ يُعَرِّس بهِ — والشَّامُ إن لمْ يُفْنِنَا كَارِبُ
أفنَى بَنِي رِيْطَةَ فرسَانُهُمْ — عشرونَ لمْ يُقصَصْ لهُمْ شَارِبُ
ومِنْ بَنِي أعمَامِهِم مِثلَهُم — لِمثلِ هذَا أُعْجِبَ العَاجِبُ
طعنًا وطاعونًا منايَاهم — ذلك ما خَط لنَا الكَاتب

لقد كان بنو المغيرة هم قادة الكفر وحرب الإسلام خلال عشرين عامًا، ثم جاء الفتح، وحرصوا على أن يغسلوا هذا الماضي الكريه بأن يكونوا جنودًا ذادة عن هذا الدين، وقادة كرامًا في صفحة الفتح الإسلامي.

وابتدأ هذا الخط خالد بن الوليد ﷺ، وحصل خلال أشهر في الإسلام على لقب سيف اللَّه. وتابع عكرمة ﷺ - ابن أبي جهل - هذا الخط، حتى سقط هو وابنه عمرو شهيدين في اليرموك بعد أن خاض أهوال الفتوحات في أقصى الشرق والجنوب في جزيرة العرب. وهذا الحارث بن هشام - أخو أبي جهل - أخذ عشيرته كلها سبعين من أهل بيته مهاجرًا معهم في سبيل اللَّه إلى أرض الجهاد، فلم يعد منهم إلا أربعة، والباقون قضَوا نحبهم طعنًا في المعارك، وطاعونًا في المرض.

ذلك ما خطّ لنا الكاتب طعنًا وطاعونًا منايـاهم

وها هو خالد يقود المسلمين من ظفر إلى ظفر، ومن نصر إلى نصر، وأصبح في قلوب المسلمين وقلوب أعدائهم خارقة معجزة من الخوارق.

وعمر ﷺ يرقب هذه الظاهرة، ويرقب افتتان الناس فيه.

خالد نائب القائد العام:

وقد أقرَّ هذا الوضع عمر ﷺ حين أجرى التعيينات الأخيرة للقيادات: وأمّر أبا عبيدة وخالد تحته.

وتوزعت سورية في مدنها الكبرى بين يزيد على دمشق، وأبي عبيدة على حمص، وخالد على قنسرين التي كانت حاضرة الشمال، وثغر المواجهة من الروم، وهي بمثابة حلب اليوم، فكانت بلدًا صغيرًا أمام قنسرين.

قال أبو جعفر: (فما زال خالد على قنسرين حتى غزا غزوته التي أصاب فيها، وقسم فيها ما أصاب لنفسه) [١]. ولا ننسى أنه هو وأبو عبيدة قد صدًّا هجوم الروم العنيف، وأخرجوا الروم من الجزيرة.

المخابرات تنقل للخليفة تدلك خالد بالخمر:

(وبلغ عمرَ أن خالدًا دخل الحمام فتدلك بعد النورة بثخين عُصفر معجون بخمر. فكتب إليه: بلغني أنك تدلكت بخمر. وإن اللَّه قد حرَّم ظاهر الخمر وباطنه، كما حرَّم ظاهر الإثم وباطنه، وقد حرَّم مس الخمر إلا أن تغسل كما حرّم شربها؛ فلا تمسوها أجسادكم فإنها نجس، وإن فعلتم فلا تعودوا.

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٩٠).

فكتب إليه خالد: إنا قتلناها فعادت غَسُولًا غير خمر.

فكتب إليه عمر: إني أظن آل المغيرة قد ابتُلوا بالجفاء، فلا أماتكم اللَّه عليه. فانتهى إليه ذلك وفي هذه السنة - أعني سنة سبعَ عشرةَ - أدرب خالد بن الوليد وعياض ابن غنم في رواية سيف عن شيوخه) (١).

عزل خالد بن الوليد:

قال أبو جعفر: (وأدْرَبَ (٢) سنة سبعَ عشرةَ خالد بن الوليد وعياض فسارا، فأصابا أموالًا عظيمة، وكانا توجها من الجابية مرجع عمر إلى المدينة، وعلى حمص أبو عبيدة، وخالد تحت يديه على قِنَّسْرِين، وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان، وعلى الأردن معاوية، وعلى فلسطين علقمة بن مجزّر...).

(ولما قفل خالد، وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة انتجعه (٣) رجال، فانْتجع خالدًا رجالٌ من أهل الآفاق؛ فكان الأشعث بن قيس ممن انتجع خالدًا بقنسرين، فأجازه بعشرة الآف، وكان عمر لا يَخْفَى عليه شيء من عمله؛ كتب إليه من العراق بخروج مَنْ خرج ومن الشام بجائزة من أُجِيز فيها، فدعا البريد، وكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالدًا، ويعقِله بعمامته، وينزع عن قلنسوته حتى يعلمهم من أين إجازة الأشعث، أمن ماله؟ أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة. وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف، واعزله على كل حال، واضمم إليك عمله، فكتب أبو عبيدة إلى خالد، فقدم عليه، ثم جمع الناس، وجلس لهم على المنبر.

فقام البريد فقال: يا خالد أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه. وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئًا. فقام بلال إليه فقال: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا.

ثم تناول قلنسوته، فعقله بعمامته وقال: ما تقول؟ أمن مالك أم من إصابة ؟

قال: لا، بل من مالي.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٩١).

(٢) الدرب في الأصل: هو المضيق في الجبل، وأطلق على كل من دخل بلاد الروم.

(٣) انتجع: ذهب لطلب الجائزة.

فأطلقه، وأعاد قلنسوته، ثم عمَّمه بيده.

ثم قال: نسمع ونطيع لولاتنا، ونفخم ونخدم موالينا.

وأقام خالد متحيرًا لا يدري أمعزول أم غير معزول؟ وجعل أبو عبيدة لا يخبره. حتى إذا طال على عمر أن يقدم ظن الذي كان. فكتب إليه بالإقبال.

فأتى خالدٌ أبا عبيدة، فقال: رحمك اللّه، ما أردت إلى ما صنعت؟ كتمتني أمرًا كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم!

فقال أبو عبيدة: إني واللّه ما كنت لأروِّعك ما وجدت لذلك بُدًّا، وقد علمت أن ذلك يروِّعك...) [١].

لماذا عزل خالد بن الوليد ؟

وهكذا حاسب خالد بن الوليد - قائد جبهة الشام - على تصرفاته في المال العام.

(إني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد. إني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين، فأعطاه ذا البأس، وذا الشرف، وذا اللسان، فنزعته وأثبت أبا عبيدة..) [٢].

فعمر رضي الله عنه لا يقر هذه السياسة المالية، بحيث توهب الأموال من ولاته لأصحاب الشرف والجاه، وهو السبب الذي أعلنه صراحة كما رأينا في النص السابق. ولكنه يقر أن يعطي المال لذوي الحاجات، وضعفة المهاجرين، لا أن يعطي للأشعث بن قيس، وهو قائد سابق، وهو سيد كندة، وليس صاحب حاجة، أو فقر مدقع!

والمشكلة الأخطر هي حسبان أمير المؤمنين أن هذا العطاء هو من مال المسلمين، وأمير المؤمنين لا يقرها إن كانت من ماله أو من مال المسلمين. وأصدر عمر رضي الله عنه أوامره الصارمة بِعَزل خالد ومحاسبته.

(فدعا البريد، وكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالدًا ويعقله بعمامته، وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث، أمِنْ ماله؟ أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقرَّ بخيانة.

---

(١) تاريخ الطبرى (٢/ ٤٩١).

(٢) مسند أحمد (٣/ ٤٧٦)، والتاريخ الكبير (٨/ ٥٤)، والتاريخ الصغير للبخاري (١/ ٨٢) والمعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٢٩٨، ٢٩٩)، والأثر صحيح.

- وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف.

- واعزله على كل حال..).

وبما أن العطاء علنيًا، فلا بد أن تكون المحاكمة علنية، ورافق هذه المحاكمة نزع عمامته من رأسه وعقله بها، ونزع قلنسوته. حتى يشعر المسلمون أن خالدًا مهما علت مرتبته هو جندي من جنود اللّه، يحاسَبُ على كل تصرف مهما حقق من انتصارات. وقد رأى عمر ﷺ هذا الأمر مدخلًا إلى عزله. وهو يهم بعزله حتى لا يفتتن به الناس، لكنه لا يجد المناسبة السانحة.

(حدثنا هدبة بن خالد عن أخيه أمية بن خالد عن المبارك بن فضالة عن الحسن قال:

خطب عمر حين استخلف فقال: واللّه لأعزلنَّ خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة ليعلما أن اللّه هو الناصر لدينه وليس إياهما، فعزلهما) [1].

وقد تمَّ العزل الأول عن القيادة العليا، كما رأينا مع المثنى وخالد ﵄، وكان سبب ذلك هو نفسية القائدين العظيمين أن يصيبهما الغرور بأن النصر لا يتحقق إلا على يديهما.

لكنه وجد أن الأمر لم يتغير بالنسبة لخالد؛ فالناس مفتتنون به، وها هو يدرب ويوغل في أرض الروم، ويصيب أموالًا عظيمة من العدو، ويقصده أشراف العرب لنيل جائزتهم وعلى رأسهم الأشعث بن قيس سيد كندة، والذي جاء من العراق إلى الشام رغبة في نواله.

لا بد أن يحطم هذه الهالة التي في نفوس الناس حول خالد، واتكأ على عطاء خالد للأشعث وهو المدان في الحالتين سواء كان من ماله أو من مال المسلمين. فكان هذا الإخراج العجيب في عزله، ولو تمَّ العزل فقط، لبقيت الهالة كما هي تتضخم في أعين الناس. أما حين يرون هذه الأسطورة، وقد حُلت عمامته، واعتقل بها، ونزعت قلنسوته، يعلمون أنهم مع بشر عادي وليس معجزة خارقة.

وكيف ينفذ أبو عبيدة العظيم أمين هذه الأمة هذه المهمة مع أخيه في الملمات، ونائبه في الغمرات، ورجله في الأزمات. إن هذا أثقل من الجبل عليه!

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/ ٤٤١٢).

(فكتب أبو عبيدة إلى خالد، فقدم عليه، ثم جمع الناس، وجلس لهم على المنبر. فقام البريد فقال: يا خالد أمن مالك أجزت بعشرة الآف أم من إصابة ؟

فلم يجبه حتى أكثر عليه.

- وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئًا).

فالقائد العام هو الذي يحاكم، والقائد العام ساكت. وليس صاحب البريد هو المسؤول عن المحاكمة، وتكهرب الجو، فصمْتُ أبي عبيدة ﷺ أحرج الجميع.

وأنقذ الموقف بلال بن رباح مؤذن رسول اللَّه ﷺ. فهو من هذا الجيل الرائد وهو أقدم إسلامًا من عُمَرَ وخالد، وهو الذي ثبت على الحق في وجه العاصفات.

(فقام بلال إليه فقال: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا..).

ونفَّذ إرادة أمير المؤمنين

(ثم تناول قلنسوته، فعقله بعمامته..).

وكان منظرًا مثيرًا التهبتِ المشاعر فيه. وكان يمكن أن ينتج عنه انفجارٌ جماهيري غير واعٍ، لو أعطى خالد الإشارة بذلك.

(وقال: أمِن مالك أم من إصابة؟).

وعلى خالد أن يجيب، وصمت أبي عبيدة إذْنٌ لبلال بالتصرف. ولم يكن للقائد العظيم بدّ مِن أن يجيب.

(قال: لا، بل من مالي).

وبلا قسم، وبلا تعذيب، وبلا اعتقال، وبلا إهانة ولو بكلمة واحدة.

عاد بلال، فأعاد الاعتبار للقائد العظيم في دقيقة واحدة.

(فأطلقه، وأعاد قلنسوته، ثم عمَّمه بيده). وتمَّ تنفيذ أمر أمير المؤمنين.

فبلال ﷺ المولى الحبيب الذي ما كان يجرؤ أن يرفع بصره في وجه خالد ﷺ في الجاهلية هو الذي يقدم على عقل أعظم قائد في الأمة بعمامته بعد أن سوَّى الإسلام بينهما. ومثل هذا المبدأ هذه الكلمة الخالدة:

(نسمع ونطيع لولاتنا، ونفخم ونخدم موالينا).

وأسدل الستار على هذا الحدث.

(وأقام خالد متحيرًا لا يدري أمعزول أم غير معزول. وجعل أبو عبيدة لا يخبره).

إن خالدًا من العظمة والحب والإكبار لدى أبي عبيدة ما يفوق الوصف.

(فأتى خالد أبا عبيدة فقال: رحمك اللَّه، ما أردْتَ إلى ما صنعت؟ كتمتني أمرًا كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم.

فقال أبو عبيدة: إني واللَّه ما كنت لأروِّعك ما وجدتُ لذلك بدًّا، وقد علمْتُ أن ذلك يروِّعك..) فلم ينته الأمر بالمساءلة العلنية، ولكن كان العزل بعده. وسوف ينتشر الخبر في الآفاق.

تُرى، لو وقع هذا الأمر في عصرنا الحاضر، ماذا يكون تصرف القائد المعزول ؟ ونترك الجواب...

سيف اللَّه خالد يودع الأمة:

(.. فرجع خالد إلى قنسرين، فخطب أهل عمله وودعهم وتحمَّل. ثم أقبل إلى حمص فخطبهم وودعهم).

ثم خطب الناس:

حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن أبي وائل عن عزرة بن قيس البجلي، أن عمر بن الخطاب لما عزل خالدَ بن الوليد واستعمل أبا عبيدة على الشام، قام خالد فخطب الناس، فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: إن أمير المؤمنين استعملني على الشام حتى إذا كانت سمنًا وعسلًا عزلني وآثر بها غيري.

فقام رجل من الناس من تحته فقال: اصبر أيها الأمير فإنها الفتنة.

فقال خالد: أما وابن الخطاب حيّ فلا. ولكن إذا كان الناس بذي بلي وذي بلي. وحتى يأتي الرجل الأرض يلتمس فيها ما ليس في أرضه فلا يجده).

لقد تألَّم خالد ولا شك، وفي قناعته أنه لم يفعل ما يوجب العزل، ولقد حقَّق اللَّه به انتصارات الأمة، حتى إذا أثمرت هذه الانتصارات وأينعت سيقت إلى غيره. ولكن هذا الألم لم يزعزع خالدًا ﵁ لحظة عن ثقته بأمير المؤمنين.

وعندما وقف أحد الجند، يدعوه إلى الصبر. ويؤكد له أن هذا الأمر لم يتم بدون ثأر.

وأن الفتنة قادمة لتزعزع من ظلمه.. وقف كالجبل الأشم يرفض هذه المقولة.

فلا فتنة مع أمير المؤمنين عمر، فله حق الولاء والسمع والطاعة.

(أما وابن الخطاب حي فلا).

فهو الباب الذي تُدْرَأ به الفتنة. وهو الباب الذي يحول بين الأمة وبين الفتنة. أما وهو حي، فلا فتنة ولا خروج ولا ثورة. إنما تكون الفتنة والناس يموجون في بعض بلا إمام. (ولكن إذا كان الناس بذي بلِّي وذي بلِّي) [١]. عندها تهيج الفتنة.

(حتى يأتي الرجل الأرض يلتمس فيها ما ليس في أرضه فلا يجده) [٢].

إذن حتى يأتي الرجل هاربًا من الفتنة إلى أرض معافاة منها فلا يجد تلك الأرض. لقد عمّت الفتنة الأرض كلها.

وقد كان رأي عمر ﷺ في عزل خالد مثل رأي خالد. فالرأيان متطابقان، ولن يدع أمير المؤمنين الناس يفتتنون بخالد.

(فعن وكيع قال: حدثنا مبارك عن الحسن، قال عمر لما بلغه قول خالد بن الوليد: لأنزعن خالدًا ولأنزعنَّ المثنى، حتى يعلما أن اللّه ينصر دينه، ليس إياهما) [٣].

لقاء سيف اللّه وأمير المؤمنين:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن أبي عثمان وأبي حارثة والمهلب. قالوا:

... ثم خرج نحو المدينة حتى قَدِمَ على عمر.

فشكاه وقال: لقد شكوتك إلى المسلمين، وباللّه إنك في أمري غيرُ مُجْمِلٍ يا عمر.

فقال عمر: من أين هذا الثراء ؟

قال: من الأنفال والسِّهمان، ما زاد عن الستين ألفًا فلك.

فقوَّم عمر عروضه فخرجت إليه عشرون ألفًا فأدخلها بيت المال.

---

(١) بذي بلي وذي بلي: المعنى: إذا تفرق الناس طوائف من غير إمام.

(٢) المصنف لابن أبي شيبة: (١٨/ ٣١٨) ورجال ثقات.

(٣) تاريخ الطبري (١٨/ ٣١٩).

ثم قال: يا خالد، واللَّه إنك عليَّ لكريم، وإنك إليَّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء) [١].

(كتب عمر إلى الأمصار:

أني لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة. ولكن الناس فُتنوا به، فخفتُ أن يوكلوا إليه ويبتَلوا به، فأحببت أن يعلموا أن اللَّه هو الصانع، وألا يكونوا بعرَض فتنة) [٢].

(لما قدم خالد على عمر قال عمر متمثلًا:

صنعْتَ فلم يَصْنَعْ كصُنْعِكَ صَانِعٌ وما يصْنَعُ الأقوامُ فاللَّهُ يَصْنَعُ

فأغرمه شيئًا، ثم عوضه. وكتب فيه إلى الناس بهذا الكتاب؛ ليعذره عندهم وليبصرهم) [٣].

فهو لن يدع الظنون تنهش قلبه، ولن يدع هذه المظلمة تنزل به، ولن يدع وسيطًا بينه وبين أمير المؤمنين، فلا حاجة للوساطة في ذلك، مضى مباشرة إلىالمدينة. فسرَّ الخليفة سرورًا عظيمًا بقدومه. ولينقل له كل ما في نفسه من عتب.

فلما قدم خالد على عمر. قال عمر متمثلًا:

صنعْتَ فلم يَصْنَعْ كصُنْعِكَ صَانِعٌ وما يصْنَعُ الأقوامُ فاللَّهُ يَصْنَعُ

ولن تجد في قاموس الثناء والاعتراف بعظمة خالد وبطولاته وفتوحاته أعظم من هذا الثناء يقدمه الخليفة لخالد في افتتاح اللقاء. ولن يحوج خالدًا إلى كلمة واحدة عن معاركه وفتوحاته التي ابتدأت بمؤتة وتُوِّجت بلقب سيف اللَّه. والتي امتدت إلى لحظة اللقاء حيث عاد خالد ﷺ من فتوحه بأرض الروم مع أخيه عياض بن غنم، وجاءا بالغنائم الكبرى، وبثَّا الرعب في قلوب الروم. هذا الرعب الذي عبَّر عنه الصديق.

لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد..

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع..

خلاصة حياة حافلة بالجهاد والفتوح والحرب، فلم يبلغ شأوه أحد.

لكن الشطر الثاني من البيت هو الذي يهم عمر ﷺ بعد الشطر الأول.

إنه توفيق اللَّه تعالى بهذا الصنيع الذي أراده اللَّه تعالى على يدي خالد بن الوليد.

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٢/ ٤٩٢).

وطرح خالد بعد هذا اللقاء كل ما في نفسه، وبثَّه بين يدي أمير المؤمنين.

وقال: (لقد شكوتك إلى المسلمين، وباللَّه إنك في أمري غير مجمِل يا عمر).

هذا قمة ما عند خالد من العتب والمرارة والألم بعد العزل وبعد المساءلة أمام الجيش كله، واعتقاله بعمامته ونزع قلنسوته.

لقد كان موقف عمر أشد من هذا بكثير وهو جندي عند أبي بكر الصديق ورئيسًا لوزرائه، وطالب بعزل خالد قائلًا له: إن في سيفه لرهقًا، ورفض الصديق موقف الفاروق قائلًا له: (**ما كنت لأشيم سيفًا سلَّه اللَّه على المشركين**).

وها هو الآن يعزل عن القيادة نهائيًّا، ويحال على التقاعد كما يُحَال كبار القادة لكن وسط اضطراب في الأمة عن سبب العزل. وقد تمت المحاكمة على الملإ. وعن إجازة الأشعث بعشرة الآف، فلا بد من معالجة هذا الاضطراب، وكان اللقاء العاصف الموضوعي الخالد.

عمر: من أين هذا الثراء ؟

خالد: من الأنفال والسهمان، وما زاد عن الستين ألفًا فلك).

إذن لا داعي لمقاسمة مال خالد ﷺ. حيث تنازل عن ثروته التي تزيد عن الستين ألفا عن طيب خاطر.

(فقوَّم عمرُ عروضه فخرجَتْ إليه عشرون ألفًا. فأدخلها بيت المال.

وعبَّر أمير المؤمنين عن سعادته، وعن ما يُكِنُّه من تقدير وحب لخالد الذي لم يصنع أحد صنيعه في بناء هذه الأمة، وفتح أراضي الكفار لهذا الدين. (يا خالد، واللَّه إنك عليَّ لكريم، وإنك إليَّ لحبيب، ولن تعاتِبَني بعد اليوم على شيء). إذن أمير المؤمنين يعتذر لقائده خالد ﷺ بعد بعث رسالة الحب والتقدير إليه.

ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحد، فلا بد من إعلام الأمة كلها بآثار هذا اللقاء. والأمة على أحر من الجمر، تريد أن تعرف الحقيقة، وتعرف أسباب العزل الذي سرى في الأمة كالنار في الهشيم. لقد بعث أمير المؤمنين هذه الرسالة إلى الآفاق، معلنًا أن قائده أكبر من العجز وأكبر من الخيانة، بل الأمر كله أمر عقيدة هذه الأمة، والمؤتمن عليها خليفة المسلمين وسيف اللَّه العظيم سواء بسواء.

(قال: وكتب عمر إلى الأمصار: إني لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة، **ولكن الناس فتنوا به**

- فخفت أن يوكلوا إليه ويُبْتَلوْا به
- فأحببت أن يعلموا أن اللَّه هو الصانع
- وأن لا يكونوا بعرَض فتنة).

ثلاث جمل لو وزنت بماء الذهب لكان الماء أقل بكثير من أن يحتوي عظمتها.

وحاول الشعر العربي أن يتملَّى هذه العظمة على لسان حافظ إبراهيم. فقال يصف هذا الحدث:

سَل قَاهِرَ الفُرسِ وَالرُّومَانِ هَل شَفَعَتْ ... لَهُ الفُتُوحُ وَهَلْ أَغْنَى تَوالِيهَا
غَزَى فَأَبْلَى وَخَيلُ اللَّهِ قَدْ عُقِدَتْ ... بِاليُمْنِ والنصر والبُشْرَى نواصيها
يَرْمِي الأَعَادِي بِآرَاءِ مُسَدَّدَةٍ ... وَبِالفَوَارِسِ قَدْ سَالَت مَذاكِيها
مَا وَاقَعَ الرُّومَ إِلَّا فَرَّ قَارِحُهَا ... وَلَا رَمَى الْفرسَ إِلَّا طَاشَ رَامِيهَا
وَلَمْ يَجُز بَلدَةً إِلَّا سَمِعْتَ بِهَا ... اللَّهُ أَكْبَرُ تَدوي فِي نَوَاحِيهَا
عِشْرُونَ مَوْقِعَةً مَرَّتْ مُحَجَّلَةً ... مِن بَعْدِ عَشرٍ بَنَانُ الفتْحِ تُحصِيهَا
وَخَالِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ موقِدُها ... وَخَالِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَالِيهَا

* * *

أَتَاهُ أَمْرُ أَبِي حَفْصٍ فَقَبَّلَهُ ... كَمَا يُقَبِّلُ آي اللَّهِ تَالِيهَا
وَاسْتَقْبَلَ العَزْلَ فِي إِبَّانِ سَطْوَتِهِ ... وَمَجْدِهِ مُسْتَرِيحَ النَّفْسِ هَادِيهَا
فَاعجَبْ لِسَيْدِ مَخْزُومٍ وَفَارِسِهَا ... يَومَ النِّزَالِ إِذَا نَادَى مُنَادِيهَا
يَقُودُهُ حَبَشِيٌّ فِي عِمَامَتِهِ ... وَلَا تُحَرِّكُ مَخْزُومٌ عَوَالِيهَا
أَلْقَى القِيادَ إِلَى الجَرَّاحِ مُمتَثِلًا ... وَعِزَّةُ النَّفْسِ لَمْ تُجْرَحْ حَوَاشِيهَا
وَانضَمَّ لِلجُنْدِ يَمْشِي تَحتَ رَايَتِهِ ... وَبِالْحَيَاةِ إِذَا مَالَتْ يُفَدِّيهَا
وَمَا عَرَتْهُ شُكُوكٌ فِي خَلِيْفَتِهِ ... وَلَا ارْتَضَى إِمرَةَ الجَرَّاحِ تَموِيهَا
فَخَالِدٌ كَانَ يَدْرِي أَنَّ صَاحِبَهُ ... قَد وَجَّهَ النَّفْسَ نَحْوَ اللَّهِ تَوْجِيهَا
فَمَا يُعَالِجُ مِنْ قَولٍ وَلَا عَمَلٍ ... إِلَّا أَرَادَ بِهِ لِلنَّاسِ تَرْفِيهَا

لِذَاكَ أَوْصَى بِأَوْلَادِ لَهُ عُمَرًا لما دَعَاهُ إِلَى الفِرْدَوسِ دَاعِيهَا
وَمَا نَهَى عُمَرٌ فِي يَومِ مَصْرَعِهِ نِسَاءَ مَخْزُومِ أَنْ تَبْكِي بَوَاكِيهَا

* * *

وَقِيلَ خَالفْتَ يَا فَارُوقُ صَاحِبَنَا فِيهِ وَقَدْ كَانَ أَعْطَى القَوسَ بَارِيهَا
فَقَالَ خِفْتُ افْتِتَانَ المسْلِمِينَ بِهِ وَفِتْنَةُ النَّفْسِ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا
هَبوهُ أَخْطَأَ فِي تَأْوِيل مَقْصِدِهِ وَأَنَّهَا سَقْطَةٌ فِي عَيْنِ نَاعِيهَا
فَلَنْ تَعِيبَ حَصِيفَ الرَّأْيِ زَلَّتُهُ حَتَّى يَعِيبَ سُيُوفَ الهِنْدِ نَابِيهَا
تَاللَّهِ لَم يتبعْ فِي ابن الوَلِيد هَوًى ولا شَفَى غُلَّةً فِي الصَّدْرِ يطْوِيها
لَكِنَّه قَدْ رَأَى رَأْيًا فَأَتْبَعَهُ عَزِيمَة مِنْه لَم تُثْلَم مَوَاضِيهَا
لَم يَرْعَ فِي طَاعَة المَوْلَى خُؤولَتَهُ وَلَا رَعَى غَيْرَها فِيمَا يُنَافِيهَا
وَمَا أَصَابَ ابْنَهُ وَالسَّوطُ يَأْخُذُهْ لَدَيهِ مِن رَأْفَةٍ في الحَدِّ يُبْدِيهَا
إِنَّ الَّذِي بَرَأَ الفَارُوقَ نَزَّهَهُ عَنِ النَّقَائِصِ وَالأَغْرَاضِ تَنْزِيهَا
فَذَاك خَلْقٌ مِنَ الفِرْدَوس طِينَتُهُ اللَّهُ أَوْدَعَ فِيهَا مَا يُنَقِّيهَا
لَا الكِبْرُ يَسْكُنُهَا لَا الظُّلْمُ يَصْحَبُهَا لَا الحِقْدُ يَعْرِفُهَا لَا الحِرْصُ يُغْوِيهَا

* * *

وَرَاع صاحبَ كِسْرى أنْ رأى عُمَرًا بَيْنَ الرَّعيةِ عُطْلًا وهو راعِيها
وعَهْدُه بملوكِ الفُرسِ أنّ لها سُورًا مِن الجُنْدِ والأحرَاس يَحميها
رآه مُستَغْرِقًا في نَوْمِه فَرأى فيه الجَلالَة في أَسْمَى معَانِيها
فوقَ الثَّرى تحتَ ظِلِّ الدَّوْحِ مُشْتِمِلًا بِبُرْدَةٍ كادَ طُولُ العَهْدِ يبليها
فَهَانَ في عَيْنِهِ مَا كَانَ يُكْبِرُهُ مِنَ الأَكَاسِر وَالدُّنْيَا بِأَيْدِيهَا
وَقَالَ قَوْلَةَ حَقٍّ أَصْبَحَتْ مَثَلًا وَأَصْبَحَ الجِيلُ بَعْدَ الجِيلِ يَرْوِيهَا
أَمِنْتَ لَمَّا أَقَمْتَ العَدلَ بَيْنَهُمُ فَنِمتَ نَوْمَ قَرِيرِ العَينِ هَانِيهَا

* * *

الفصل السابع عشر

من القمة إلى القاع، ثلمة في الجدار

المغيرة بن شعبة:

المجرم الفاتك قبل الإسلام. وممن سبقت لهم الحسنى إن شاء اللَّه؛ فهو ممن بايع تحت الشجرة. وكما قال عليه الصلاة والسلام: « **لن يلج النارَ أحد شهد بدرًا، أو بيعة الرضوان** »[١].

ولقد رأيناه سياف رسول اللَّه ﷺ في الحديبية.

(وجعل - عروة بن مسعود - يُكلِّم النبي ﷺ. فكلما كلَّمه أخذ بلحيته، والمغيرة ابن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ، معه السيف، وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخِّر يدك عن لحيته. فرفع عروة رأسه. فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة.

قال: أي غُدَر، ألستُ أَسْعَى في غَدْرَتِك ؟

وكان المغيرة بن شعبة صَحِبَ قومًا في الجاهلية، فقتلهم، وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: « **أما الإسلام فقد قبلنا، وأما المال، فإنه مال غدر لا حاجة لنا فيه** »[٢].

ويمرُّ به الزمن سريعًا خلال هذه السنوات الأربع، ويصبح من خاصَّة النَّبِيّ ﷺ يَعبّ منه العلم والفقه، ويشاركه في غزواته. ويكون له شرف هدم أعظم أوثان العرب والتي يسمونها الرَّبَّة. وهي اللات التي يحلف العرب بها تقديسًا لها، ثم نراه بعدها يوم وفاة النبي ﷺ حين يدخل مع عمر عليه (فجاء عمر والمغيرة بن شعبة فاستأذنا فأذِنْتُ لهما (عائشة القائلة) وجذبت إليَّ الحجاب فنظر عمر إليه فقال: واغشياه، ما أشد غشي رسول اللَّه ﷺ، ثم قاما. فلما دنوا من الباب، قال المغيرة: يا عمر، مات رسول اللَّه ﷺ.

---

(١) الجامع الصغير وزيادته ح (٥٢٢٧).

(٢) تاريخ الطبرى (٢/ ١١٩)، وصحيح السيرة النبوية (٣٠٦).

قال: كذبت، بل أنت رجل تحوسك فتنة. إن رسول اللَّه ﷺ لا يموت حتى يفني اللَّه ﷻ المنافقين.

ثم جاء أبو بكر فرفعت الحجاب. فنظر إليه وقال: إنا للَّه وإنا إليه راجعون. مات رسول اللَّه) [١].

وهو يزعم أنه آخر الناس عهدًا برسول اللَّه ﷺ، حيث استعمل دهاءه لذلك قال ابن إسحاق: (وكان المغيرة بن شعبة يدّعي أنه أحدث الناس عهدًا برسول اللَّه ﷺ ويقول: أخذت خاتمي فألقيته في القبر. وقلت: إن خاتمي قد سقط. وإنما طرحته عمدًا لأمس رسول اللَّه ﷺ، فأكون آخر الناس به عهدًا) [٢]. لكن عليًا ﷺ يؤكد أن قثم ابن العباس هو آخر الناس عهدًا برسول اللَّه ﷺ.

فمن حديث عبد اللَّه بن الحارث قال: (اعتمرتُ مع علي بن أبي طالب رضوان اللَّه عليه في زمان عمر أو زمان عثمان. فنزل على أخته أم هانئ بنت أبي طالب. فلما فرغ من عمرته رجع فسكب له غسل، فاغتسل. فلما فرغ من غُسله، دخل عليه نفر من أهل العراق فقالوا: يا أبا حسن جئناك نسألك عن أمر نحب أن تخبرنا عنه ؟

قال: أظن أن المغيرة بن شعبة يحدثكم أنه كان أحدث الناس عهدًا برسول اللَّه ﷺ.

قالوا: أجل، عن ذلك جئنا نسألك.

قال: أحدث الناس عهدًا برسول اللَّه ﷺ قثم بن العباس).

المغيرة مجاهد في سبيل اللَّه:

يصف خطواته في الطريق بعد رسول اللَّه ﷺ بقوله: (فلما توفِّي رسول اللَّه ﷺ بعثني أبو بكر إلى أهل النُّجّير [٣]، ثم شهدت اليمامة، ثم شهدت فتوح الشام مع المسلمين، ثم شهدت اليرموك، وأصيبت عيني يوم اليرموك ثم شهدت القادسية، وكنت رسول سعد إلى رستم. ووليت لعمر بن الخطاب البصرة) [٤].

ونتساءل: متى قدم المغيرة من الشام إلى العراق. فنجد الجواب عند ابن كثير رحمه الله.

---

(١) صحيح السيرة النبوية (٥٧٣).
(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٢٣٩).
(٣) النجير: حصن منيع باليمن.
(٤) تاريخ ابن عساكر (١٧).

(وكان قيس (بن مكشوح) والمغيرة بن شعبة قد قدما على سعد مددًا من عند أبي عبيدة من الشام بعدما شهدا وقعة اليرموك) [١].

ونجد عند الطبري إضافة جديدة:

(فلما سمع سعد بذلك وقف وكتب إلى عمر يستمده، فبعث إليه المغيرة بن شعبة الثقفي في أربعمائة رجل من المدينة، وأمده بقيس بن مكشوح المرادي في سبعمائة، فقدموا عليه من اليرموك) [٢].

المغيرة القائد:

انطلق المغيرة بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ جنديًّا مجاهدًا في سبيل اللَّه، ولم يبرز اسمه قائدًا إلا بتوجيه عمر ﷺ له من الشام إلى العراق.

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن عمرو عن الشعبي:

كان عمر قد كتب إلى سعد مرتحله من زَرُود: أن ابعث إلى فرج الهند رجلًا ترضاه يكون بحياله. ويكون ردءًا لك من شيء إن أتاك من تلك التخوم. فبعث **المغيرة ابن شعبة** في خمسمائة، فكان بحيال الأُبُلَّةِ من أرض العرب (ميناء البصرة). فأتى غُضَيًّا، ونزل على جرير، وهو فيما هنالك يومئذ. فلما نزل سعد بشَرَاف، كتب إلى عمر بمنزله ومنازل الناس فيما بين غضي إلى الجَبَّانَة. فكتب إليه عمر: إذا جاءك كتابي هذا فعشِّر الناس، وعرِّف عليهم، وأمِّر على أجنادهم، وعبِّهم ومُر رؤساء المسلمين فليشهدوا، وقدرهم وهم شهود، ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية، واضمم إليك المغيرة بن شعبة في خيله، واكتب إليَّ بالذي يستقر عليه أمرهم.

فبعث سعْدٌ إلى المغيرة، فانضم إليه وإلى رؤساء القبائل فأتوه. فقدر الناس وعباهم بشراف) [٣].

المغيرة أحد السبعة العظام أصحاب الرأي:

وكان المغيرة أحد الثلاثمائة الذين حضروا بيعة الرضوان وما فوق، وكان أحد الأشراف الأربعة عشر.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٤٨).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٥٧٢).

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٣٨٥).

وكان أحد السبعة العظام.

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن عمر والمجالد بإسنادهما، وسعيد ابن المرزبان أن سعد بن أبي وقاص حين جاء أمر عمر فيهم، جمع نفرًا عليهم نجار [١] ولهم آراء.

– ونفرًا لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء.

– فأما الذين عليهم نجار ولهم آراء ولهم اجتهاد: فالنعمان بن مقرن وبسر بن أبي رهم، وحملة بن جوية الكناني، وحنظلة بن الربيع التميمي، وفرات بن حيان العجلي، وعدي بن سهيل، والمغيرة بن النباش بن حبيب.

وأما من لهم منظر لأجسامهم، وعليهم مهابة ولهم آراء، فعطارد بن حاجب التميمي، والأشعث بن قيس الكندي، والحارث بن حسان القيسي، وعاصم بن عمرو التميمي، وعمرو بن معديكرب الزبيدي، والمغيرة بن شعبة الثقفي، والمعنى بن حارثة الشيباني. فبعثهم دعاة إلى الملك) [٢].

المغيرة قائد فريق المفاوضات مع رستم ويزدجرد:

لقد شارك في المفاوضات مع رستم يزدجرد. غير أن الشخص الذي برزت مواهبه وبَزَّ كل أقرانه كان هو المغيرة بن شعبة، وأصبح مسؤول المفاوضات فيما بعد مع كل عدو. فكان الدبلوماسي الأول في الإسلام، ووزير الخارجية بحق للدولة الإسلامية، وسبق وتحدثنا عنه بالتفصيل فيما سبق.

المغيرة من الكوفة إلى البصرة:

(لما توجَّه عتبة بن غزوان المازني من بني مازن بن منصور من المدائن إلى فرج الهند، نزل على الشاطئ بحيال جزيرة العرب، فأقام قليلًا ثم أرَزَ، ثم شكوا ذلك إلى عمر حتى أمره عمر بأن ينزل الحجر بعد ثلاثة أوطان إذا اجتووا الطين، فنزلوا في الرابعة البصرة.

– والبصرة كل أرض حجارتها جص – وأمر لهم بنهر يجرى من دجلة، فساقوا

---

(١) لهم نجار: لهم أصول.

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣٨٩).

إليها نهرًا للشَّفة. وكان إيطان أهل البصرة البصرة اليوم، وإيطان أهل الكوفة الكوفة اليوم في شهر واحد) (١). وقدم المغيرة ﷺ من الكوفة إلي البصرة جنديًا عاديًّا تحت إمرة عتبة بن غزوان.

وكما قال الشعبي: (شهد فتح الأبلة مائتان وسبعون، فيهم أبو بكرة، ونافع ابن الحارث وشبل بن معبد، **والمغيرة بن شعبة**، ومجاشع بن مسعود، وأبو مريم البلَوي، وربيعة بن كَلدة بن أبي الصلت الثقفي، والحجاج) (٢).

عودة إلى القيادة:

(عن على بن زيد قال:

لما فرغ عتبة من الأبلَّة جمع له مرزبان دَسْتمَيْسَان. فسار إليه عتبة من الأبلة، فقتله ثم سرَّح مجاشع بن مسعود إلى الفرات وبها مدينة. ووفَّد عتبة إلى عمر، وأمر المغيرة أن يصلِّي بالناس حتى يقدم مجاشع بن مسعود من الفرات، فإذا قدم فهو الأمير. فظفر مجاشع بأهل الفرات، ورجع إلى البصرة.

وجمع (الفيلكان) عظيمٌ من عظماء (أَبزْقُبَاذ) للمسلمين فخرج إليه المغيرة ابن شعبة فلقية بالمرغاب، فظفر به، وكتب إلى عمر بالفتح...) (٣).

(... فقال عمر لعتبة: من استعملت على البصرة؟

قال: مجاشع بن مسعود.

قال: تستعمل رجلًا من أهل الوَبَر على أهل المدر؟ تدرى ما حدث!

قال: لا.

فأخبره بما كان من أمر المغيرة. وأمَرَه أن يرجع إلى عمله. فمات عتبة على الطريق واستعمل عمر المغيرة بن شعبة) (٤).

الطبري بإسناده عن قتادة قال:

(جمع أهل مَيْسَان للمسلمين، فسار إليهم المغيرة، وخلَّف المغيرة الأثقال، فلقي العدوَّ دون دجلة، فقالت أردة بنت الحارث بن كَلَدة: لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٣٩).

(٢ -٤) المصدر نفسه (٢/٤٤١).

فاعتقدت لواءً من خمارها، واتخذ النساء من خُمُرهن رايات، وخرجن يردن المسلمين فانتهين إليهم، والمشركون يقاتلونهم، فلما رأى المشركون الرايات مقبلة، ظنوا أن مددًا أتى المسلمين فانكشفوا. وأتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدة) [(١)].

أصهار عتبة بن غزوان ﷺ:

(المدائني قال: كان عند عتبة صفية بنت الحارث بن كَلَدة. وكانت أختها أردة بنت الحارث عند شِبل بن معبد البَجَلي. فلما ولي عتبة البصرة انحدر معه أصهاره **أبو بكرة، وشبل بن معبد**، وانحدر معهم **زياد.** فلما فتحوا الأبلة لم يجدوا قاسمًا يقسم بينهم، فكان زياد قاسِمَهم وهو ابن أربعَ عشرةَ سنة له ذؤابة، فأجروا عليه كل يوم درهمين) [(٢)].

إمارة عتبة والمغيرة:

(وقيل إن إمارة عتبة البصرة كانت سنة خمسَ عشرةَ، وقيل ستَّ عشرةَ والأول أصح، فكانت إمارته عليها ستة أشهر.

واستعمل عمر على البصرة المغيرة بن شعبة، فبقي سنتين. ثم رُمي بما رُمي، واستعمل أبا موسى) [(٣)].

ثلمة الجدار

إذن نحن أمام وضع متوتر، فأصهار عتبة ﷺ كانوا في الموقع الأول والحظوة عند أمير البصرة. ولم يكن هذا الموقع قائمًا في إمارة المغيرة. فهم - كما يقول المصطلح الحديث - يمثلون الحرس القديم الذي فقد الصدارة في المجتمع.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فالفارق كبير بين عتبة والمغيرة. إذ إن عتبة من الرعيل الأول من المهاجرين، حضر المشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ، وتربَّى في مدرسة الصبر الأولى ومن تلامذة دار الأرقم، وهاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة، وذاق مرارة الفقر والجوع والشظف مع رسول اللَّه ﷺ. وكما وصف نفسه، فقال: كنت سابع سبعة مع رسول اللَّه ﷺ ليس لنا طعام إلا ورق الشجر حتى تقرَّحت أشداقنا. والتقطت بردة فاتزرت بنصفها، واتزر سعد بن مالك بنصفها الآخر.

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٤٤١ - ٤٤٢).

بينما جاء المغيرة ﷺ في آخر المطاف، ورزقه الله تعالى أن يشهد بيعة الرضوان فهؤلاء الأصهار إذن حين يقارنون بين الأميرين يجدون البون شاسعًا بينهما. ومن جهة ثالثة فسياسة المغيرة سياسة مفتوحة. وعنده شيء من التساهل في قضية المرأة؛ فهو أكثر الصحابة زواجًا وطلاقًا.

في هذه الظروف العامة التي يصفها الطبري رحمه الله ابتدأت معالم الأزمة.

قال أبو جعفر: (وكان سبب ما كان بين أبي بكرة والشهادة عليه، فيما كتب إليَّ السري عن شيب عن سيف عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو بإسنادهم، قالوا: كان الذي حدث بين أبي بكرة والمغيرة بن شعبة أن المغيرة كان يناغيه [١]. وكان أبو بكرة ينافره عند كل ما يكون منه. وكانا بالبصرة، وكانا متجاورين بينهما طريق. وكانا في مَشْرَبَتَيْنِ متقابلتين لهما في داريهما، في كل واحدة منهما كوة مقابلة الأخرى، فاجتمع إلى أبي بكرة نفر يتحدثون في مشربته، فهبت ريح ففتحت باب الكوة. فقام أبو بكرة ليَصْفِقَهُ، فبصُر بالمغيرة وقد فتحت الريح باب كوة مشربته، وهو بين رِجْلَي امرأة فقال للنفر: قوموا فانظروا، فقاموا فنظروا. ثم قال: اشهدوا. قالوا: من هذه؟ قال: أم جميل ابنة الأفقم [٢]).

(وكانت أم جميل إحدى نساء بني عامر بن صعصعة ويقال: من نساء بني هلال، وكان زوجها من ثقيف قد توفي عنها، وكانت تغشى نساء الأمراء والأشراف، وكانت تدخل على بيت المغيرة بن شُعبة وهو أمير البصرة) [٣].

فقالوا: إنما رأينا أعجازًا، ولا ندري ما الوجه.

ثم إنهم صمموا حين قامت. فلما خرج المغيرة للصلاة حال أبو بكرة بينه وبين الصلاة وقال: لا تُصَلِّ بنا.

فكتبوا إلى عمر بذلك، وتكاتبوا، فبعث عمر إلى أبي موسى فقال: يا أبا موسى إني مستعملك، إني أبعثك إلى أرض قد باض بها الشيطان وفرَّخ فالزم ما تعرف. ولا تستبدلْ فيستبدل الله بك. فقال: يا أمير المؤمنين، أعنِّي بعدة من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار، فإني وجدتهم في هذه الأمة وهذه الأعمال

---

(١) يناغيه: ينافسه ويباريه.

(٢) تاريخ الطبري (٤٨٣/٢).

(٣) البداية والنهاية (٨١/٧).

كالملح لا يصلح الطعام إلا به. قال: فاستعن بمن أحببت، فاستعان بتسعة وعشرين رجلًا، منهم: أنس ابن مالك وعمران بن حصين، وهشام بن عامر، ثم خرج أبو موسى فيهم حتى أناخ بالـمِرْبَد، وبلغ المغيرة أن أبا موسى قد أناخ بالمربد. فقال: واللَّه ما جاء أبو موسى زائرًا ولا تاجرًا، ولكنه جاء أميرًا.

فإنهم لفي ذلك إذ جاء أبو موسى حتى دخل عليهم، فدفع إليه أبو موسى كتابًا من عمر وإنه لأوجز كتاب كتب به أحد من الناس؛ أربعَ كلِم عزل فيها، وعاتب، واستحث وأمَّر: أما بعد، فإنه بلغني نبأ عظيم، فبعثت أبا موسى أميرًا، فسلِّم إليه ما في يدك، والعجل).

وكتب إلى أهل البصرة: (أما بعد فإني قد بعثت أبا موسى أميرًا عليكم:

- ليأخذ لضعيفكم من قويِّكم،
- وليقاتل بكم عدوكم،
- وليدفع عن ذمتكم،
- وليحصي لكم فَيْأَكم،
- ثم ليقسمه بينكم،
- ولينقي لكم طرقكم).

وأهدى له المغيرة وليدة من مولدات الطائف تدعى عقيلة. وقال: إني رضيتها لك، وكانت فارهة [1].

أما أبو بكرة فهو صحابي ثابتة صحبته، أسلم يوم حصار الطائف حين أعلن رسول اللَّه ﷺ: « .. **من خرج إلينا من العبيد فهو حُرّ** ». فخرج عبيد من العبيد فأعتقهم رسول اللَّه ﷺ.

وفي رواية البخاري (وقال هشام: أنبأ معمر عن عاصم عن أبي العالية وأبي عثمان النهدي قال: سمعت سعدًا وأبا بكرة عن النبي ﷺ..

قال عاصم: قلت: لقد شهد عندك رجلان حسبك بهما. قال: أجل، أما أحدهما فأول من رمى بسهم في سبيل اللَّه، وأما الآخر فنزل إلى رسول اللَّه ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف...) [2].

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٩٢ - ٤٩٣).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٣٤٧). ورواية البخاري في صحيحه في المغازي، باب غزوة الطائف (٤٠٧٢).

ونافع بن الحارث أخو أبي بكرة وأسلم معهم، وشبل بن معبد أخوهم لأمهم الذي أسلم معهم.

فالشهود الأربعة أخوان شقيقان: أبو بكرة ونافع بن الحارث، وأخوان لأم وهما شبل ابن معبد وزياد بن أبيه، وقد احتل أبو بكرة مركزًا عاليًا بين المسلمين. وكوَّن هؤلاء الأربعة مركز قوة بصفتهم أصهار عتبة ﷺ.

ومثل هذه الأجواء تكون مركز بث لإشاعات تقلق الدولة أحيانًا بتتبع كل شاردة وواردة للنيل منها. وكان الذي ساعد على مثل هذه الإشاعات هو تردد أم جميل بنت الأفقم على قصر الإمارة. فكانت بعض الشخصيات النسائية القوية تفد على الأمراء كما ذكر عن ليلى الأخيلية مثلًا. والأمير يفتح بابه للأمة كلها، وكانت أم جميل بنت الأفقم تغشى نساء الأمراء والأشراف. ولكن التنافر بين أبي بكرة والمغيرة أدَّى إلى استغلال هذه الحادثة لتكون موطن تشكيك بالأمير، وانتهت إلى اتهامه بالزنا فيها. لقد كان التصرف غير متناسب مع التوجيه الإسلامي العام.

« **يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم. فإن من تتبع عورة أخيه المسلم، تتبع الله عورته. ومن تتبع اللّٰه عورته يفضحه ولو في جوف بيته** » [1].

فالمنطق الإسلامي يقتضي حين يكشف ستر بيت مسلم على جاره أن يسدل الستر ويصفق الكوة خاصة أن الرجل في بيته، وهو مع أهله. ولقد منع الإسلام الدخول إلى البيت بدون إذن، فكيف يرى الرجل المسلم أخاه في جماع مع أهله ثم يستبيح النظر بناءً على الظن أنه في زِنًا، فيتابع النظر، ويبحث عن وجه المرأة، ليؤكد أنه يزني في بيته. ومتى كان الإنسان يزني في بيته؟ وعنده أهله وأزواجه وأولاده.

لقد منع الإسلام الأولاد والإماء والعبيد من الدخول على أهليهم في عورات ثلاث؛ بعد صلاة الفجر ومن بعد صلاة العشاء وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة. إنه الورع الزائد، والشك القاتل الذي يرفضه الإسلام جملة وتفصيلًا. هذه ثلمة الجدار التي نعنيها بعد تلك المستويات السامقة التي رأينا فيها الأمة في القمة، ورأينا أهل بدر في القادسية، ورأينا أداء الأمانات في نقل ثروات الأمم، ورأينا عظمة التربية النبوية لهذا الجيل الذي استلم مِقْوَدَ

---

(١) أحمد (ح ١٩٧٧٦) وأبو داود ح (٤٤٨٠) وصححه الشيخ الألباني.

البشرية ليُخرِجها من الظلمات إلى النور. فما بال هذه الهوة تبرز في هذا الجيل؟

لقد رأينا في العهد النبوي حادثة الإفك التي كانت من أقسى الدروس في هذا المجتمع لتتربى الأمة من خلالها. وتُرك الناس يتحدثون قبل نزول الآيات، ليأخذ الدرس كل أبعاده، وتنتهي هذه الظاهرة من الأمة في النَّيل من أشرف امرأة عربية على الإطلاق؛ عائشة أمِّ المؤمنين. وأسماه حديث الإفك ويكفينا أن نتملى الآيات التي تنزلت بهذا الموضوع لتصوغ الأمة بهذا الهدي بعد أن تحاسب وتعاتب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... ﴾ [النور: ١١ - ١٧].

وأنزل اللَّه الحكم فيمن يخوض بأعراض الناس بأن هذا لن يمر بدون محاسبته ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٤، ٥] ولم يرضَ الإسلام بالشهادة العابرة بل لابد في الشهادة من رؤية عملية الزنا كاملة؛ ومن دخول القضيب في الفرج كدخول الميل في المكحلة. فمن المستحيل أن تثبت عملية الزنا إلا من خلال الاعتراف المباشر. ولم يعهد في التاريخ الإسلامي إقامة حد الزنا من خلال الرؤية، خاصة أن عدم الرؤية الكاملة لأربعة شهود لن تمرَّ بدون عقاب. بل هناك إقامة الحد على المفتري.

ولم يَتَصرَّف أبو بكرة بحكمة، فقام وأعلن هذا الأمر في المسجد على ملإٍ من الناس، ومنع المغيرة من الصلاة، واعتبر الأمر مسلَّمًا لا موطنًا للاختلاف والظن. وانتشر الخبر كالهشيم، وأصبح حديثَ الناس في كلِّ مكان.

وسياسة عمر رضي الله عنه تقوم على مبدأ عزل الولاة، طالما صار الناس يتحدَّثون بأعراضهم فهو يقصم الفتنة أولًا ثم يقوم بالتحقيق بعد ذلك. ولابد من سلامة سمعة الوالي عند

رعيته. لقد تأثر أمير المؤمنين للخبر تأثرًا عظيمًا. وكتب إلى أبي موسى الأشعري: (إني أبعثك إلى أرض قد باض فيها الشيطان وفرّخ).

ويدل هذا التعبير على مدى غضب أمير المؤمنين. واعتبار الأمر افتراءً وتهييجًا من الشيطان. لقد اعتبرها ثلمة في الجدار كما اعتبرناها، واعتبار مجرد انتشار الحديث هبوطًا في مستوى مجتمع البصرة الإسلامي، وبادرة فتنة كبيرة (باض الشيطان فيها وفرّخ).

ومن أجل هذا كان الدواء الناجع لمعالجة هذه الفتنة في مجتمع جديد هو بعث المربين من المدينة من جيل الصحابة من الرعيل الأول.

(فقال: يا أمير المؤمنين أعِنِّي بعُدَّةٍ من أصحاب رسول اللّه من المهاجرين والأنصار؛ فإني وجدتهم في هذه الأمة وهذه الأعمال كالملح لا يصلح الطعام إلا به

قال: فاستعن بمن أحببت، فاستعان بتسعة وعشرين رجلًا منهم أنس بن مالك وعمران بن حصين وهشام بن عامر).

هذا المجتمع الذي باض الشيطان فيه وفرّخ، عندما يأتي إليه تسعة وعشرون صحابيًّا من الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار، يعنى أن هؤلاء هم المسؤلون عن تربية هذا الجيل الذي يغلِب فيه الأعراب. والصحابة الذين كانوا فيه هم الآن **فريقان:**

الفريق الأول: وعلى رأسه المغيرة بن شعبة، وهو الآن متهم بالزنا من الفريق الثاني.

الفريق الثاني: ويمثله الإخوان الأربعة من جيل ما بعد الفتح. وهم الذين يحملون راية الصراع ضد المغيرة.

وأصبح هذان الفريقان عاجزين عن عملية التربية بعد ما جرى بينهما من اتهام وقذف. ونحن هنا مع داهية العرب ودبلوماسي العرب ووزير خارجية العرب والإسلام، ووالي البصرة، وهو يتعرض لهذه المعضلة، فقد بلغه وصول أبي موسى ونزله في المربد. (وبلغ المغيرة أن أبا موسي أناخ في المربد فقال: واللّه ما جاء أبو موسى زائرًا ولا تاجرًا، ولكنه جاء أميرًا). ويدرك المغيرة المخططات كلها التى انطلق فيها أبو بكرة. ويدرك أن الخبر بلغ أمير المؤمنين. فتصرف - المغيرة - بهدوء وبرود عجيبين حتى ليقدم جارية هدية للأمير الجديد، وكأن شيئًا لم يكن (وأهدى له المغيرة وليدة من

مولدات الطائف تدعى عقيلة، وقال: إني قد رضيتها لك، وكانت فارهة).

ودفع أبو موسى كتاب أمير المؤمنين إلى المغيرة:

(وإنه لأوجز كتاب كتب به أحد من الناس؛ أربع كَلِم:

- عزل فيها،
- وعاتب،
- واستحث،
- وأمر.
- « أما بعد فإنه قد بلغني نبأ عظيم:
- فبعثت أبا موسى أميرًا،
- فسلِّم له ما في يدك،
- والعجل ».

وكتب إلى أهل البصرة:

أما بعد، فإني قد بعثت أبا موسى أميرًا عليكم:

- ليأخذ لضعيفكم من قويكم،
- وليقاتل بكم عدوكم،
- وليدفع عن ذمتكم،
- وليُحْصِي لكم فيئكم،
- ثم ليقسمه عليكم،
- وليُنَقِّيَ لكم طرقكم).

إنها مهمات سِتّ: العدل وحماية المستضعفين، وجهاد العدو - وتنمية الثروة - وإثراء الأمة وإصلاح العمران.

ولم يشر عمر رضي الله عنه إلى أمر الاتهام أبدًا لا من قليل ولا من كثير. ولا يمكن الحديث عنه إلا بعد التحقيق. ولم ينَلْ من المغيرة بكلمة واحدة.

ومضَى الفريقان المدعي والمدعى عليه معًا إلى المدينة. (وارتحل المغيرة وأبو بكرة

ونافع بن كَلَدة: (أو الحارث بن كَلَدة) وزياد وشبل بن معبد البجلي حتى قدموا على عمر)، وهذه صيغة أوجز محاكمة في التاريخ.

(فجمع بينهم وبين المغيرة.

فقال المغيرة: سل هؤلاء الأعْبُدَ كيف رأوني، مستقبلَهم أو مستدبرَهُم؟

- وكيف رأَوُا المرأة أو عرفوها؟

- فإن كانوا مستقبليَّ فكيف لم أستتر؟

- وإن كانوا مستدبريَّ فبأي شيء استحلوا النظر إليَّ في منزلي على امرأتي؟

- واللَّه ما أتيت إلا امرأتي - وكانت شبهَهَا).

وأي محام أبلغ من هذا العبقري يستطيع أن يعرض قضيته ويدفع عن نفسه بأوجز وأبلغ وأعظم من هذا العرض.

لقد بُهت الجبابرة بكلامه وعرضه لدينه قبيل القادسية، حتى لأوجد اضطرابًا في صفِّ فارس فتمزَّقت كلمتهم على ضوئه.

أفيُعجزه أن يحسن الدفاع عن حقِّه وعِرضه وشرفه؟؟

أما أمير المؤمنين - وبعد أن استمع لدفاع المغيرة - فقد أفسح المجال للشهود الأربعة المدعين أن يثبتوا دعواهم. (فبدأ بأبي بكرة، فشهد عليه أنه رآه بين رجلي أم جميل وهو يدخله ويخرجه كالميل في الكحلة) ولابد أن تكون شهادته كاملة بهذه الصيغة حتى تُقْبَلَ (قال عمر: كيف رأيتهما؟

قال: مستدبرهما.

قال عمر: فكيف استثبَتَّ رأسها؟

قال: تحاملت.

ثم دعا بشبل بن معبد،

فشهد بمثل ذلك.

فقال عمر ﷺ: استدبرتهما أو استقبلتهما؟

قال: استقبلتهما).

واختلفت الشهادتان حيث ادَّعى أبو بكرة أنه مستدبرهما، لكنه تحامل، بينما كانت شهادة شبل أنه مستقبلهما، وأنه متأكد من المرأة، ولكن كيف رأى مثل الميل في المكحلة؟ هل سيقوم المغيرة بالعملية كاملة أمامه يُخْرِج ويُدْخِل، وهو يرى شبلًا أمامه؟

(وشهد نافع بمثل شهادة أبي بكرة)

وجاء دور زياد الشاب الذي قلب القضية رأسًا على عقب.

لقد كان عمر ﷺ يرجو من أعماقه أن لا يخزي اللَّه صاحب رسول اللَّه.. لكنه قاضٍ، ولا صلاحية له بما يحب أو يكره، إنما يحكم بالأدلة.

في غير رواية الطبرى: (فقال عمر حين رأى زيادًا: (إني لأرى غلامًا لسنًا لا يقول إلا حقًّا، ولم يكن ليكتمني) [١].

وفي رواية أخرى عند غير الطبري: (فزعموا أن عمر قال: إني لأرى وجه رجل لا يخزي اللَّه به رجلًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ) [٢].

(ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم، قال: رأيته جالسًا بين رجلي امرأة. فرأيت قدمين مخضوبتين تخفقان، واستين [٣] مكشوفتين. وسمعت حَفَزَانًا شديدًا.

قال: هل رأيت كالميل في المكحلة؟

قال: لا.

قال: هل تعرف المرأة؟

قال: لا، ولكني أشبِّهها.

قال: فتنحَّ.

وأمر بالثلاثة فجُلدوا الحد.

وقرأ: ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣].

فقال المغيرة: اشفني من الأعبد.

قال: اسكت أسكت اللَّه نأمتك. واللَّه لو تمت الشهادة لرجمتك بأحجارك) [٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٧).

(٢) تاريخ ابن عساكر (٣٦/٦٠).

(٣) است: دبر.

(٤) تاريخ الطبري (٢/ ٤٩٣، ٤٩٤).

لم تكن شهادة زياد مجرد حدث عابر، إنما كانت شهادة تاريخية، وحدثًا مضى في الأمة مثل حادثة الإفك. فالشهود الثلاثة؛ اثنان منهم من أصحاب رسول اللَّه ﷺ يجلدون؛ لأنه لابد من أربعة شهود.

وعدم وجود الشاهد الرابع قضى على رفاقه الثلاثة بالجلد بصفتهم قاذفين للمحصنات المؤمنات. والشهادة الرابعة لم تنف المنظر، لكنها نفت الرؤية الكاملة الواردة في النص، ونفت معرفة المرأة معرفة وثيقة.

ولم تتدخل الوسائط لحفظ كرامة الصحابة، فهي سُنة النبي ﷺ حين جُلد مسطح ابن أثاثة البدري، وحسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ، وحمنة بنت جحش صحابية من جهة وأخت زينب أم المؤمنين رضي الله عنها .

﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣] والإسلام الذي لم يتساهل بقذف المحصنات يريد طيَّ هذه القضية بعد العقوبة كما فعل بمسطح بن أثاثة رضي الله عنه وأنزل فيه ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

يقول الذهبي عن أبي بكرة: سكن البصرة، وكان من فقهاء الصحابة، ووفد على معاوية، وأمُّه سُمَيَّة فهو أخو زياد ابن أبيه لأمه...

وقصة عمر مشهورة في جلده أبا بكرة، ونافعًا، وشبل بن معبد لشهادتهم على المغيرة بالزنا ثم استتابهم، فأبى أبو بكرة أن يتوب، وتاب الآخران. فكان إذا جاءه من يشهده يقول فَسَّقوني [١].

(وذكر ابن إسحاق عن الزهري عن سعيد أن عمر جلد أبا بكرة، ونافع ابن الحارث، وشبلًا فتابا فقبل عمر شهادتهما، وأبى أبو بكرة، فلم تقبل شهادته) [٢].

ولو تواطأ شهود أربعة على مثل هذه الشهادة لانتهى المغيرة رجمًا حتى الموت ولكن اللَّه سلَّم. وتغير منهج الأمة بهذه الشهادة العظيمة في التعامل مع القذف من جديد.

---

(١) في صحيح البخاري (٥/ ١٨٧) في الشهادات باب شهادة القاذف.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٧، ٨).

ونعود إلى فكرة الإخوة الأربعة، فالثابت أن زيادًا وأبا بكرة وشبل بن معبد إخوة لأم (وقال ابن السكن: يقال له صحبة، وأمه والدة أبي بكرة وزياد) [١]. ونافع ابن الحارث يذكر عنه ابن حجر أنه أخو أبي بكرة لأمه (نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي أخو أبي بكرة لأمه. قال أبو عمر: روي عن ابن عباس أنه كان ممن نزل إلى رسول اللَّه ﷺ من الطائف، وأمه سمية مولاة الحارث) [٢]. فسمية إذن هي أم الأربعة. (وكان أبو بكرة ينكر أنه ولد الحارث ويقول: أنا أبو بكرة مولى رسول اللَّه ﷺ. فإن أبى الناس إلا ينسبونى فأنا نفيع بن مسروح) [٣].

وقد ساءت العلاقة بين الأخوين أبي بكرة وزيادٍ. فشهادة زياد هي التى حوَّلت رجم المغيرة إلى جلد أبي بكرة ورفيقيه. فقال أبو بكرة: والذي بعث محمدًا بالحق لقد رأى زيادٌ مثل الذي رأيت، ولكنه كتم الشهادة، وإن المغيرة لزانٍ. فأراد عمر أن يعيد عليه الحدّ مَرَّةً أخرى، فقال له علي: يا أمير المؤمنين إذن تكمل شهادتُه أربعةً. ويَحِلّ على صاحبك الرجم، فتركه. وكتب إلي أبي موسى أن لا تُجالسوا أبا بكرة، فإنه شيطان. فحلف أبو بكرة أن لا يكلّم زيادًا أبدًا فولي زياد البصرة بعد ذلك، فلم يكلّمه حتى مات) [٤].

وسيرة أبي بكرة سيرة طيبة، ومشهود له بالتقى والصلاح. لكن هذا الإصرار على الموقف وعدم تكذيب نفسه، ومتابعة النيل من المغيرة بن شعبة، ومقاطعته زيادًا حتى مات لا تتناسب مع الأفق العالي لصحابة رسول اللَّه ﷺ. ولولا موقف أمير المؤمنين ﷺ منه لما جرؤنا على الحديث عن خطئه. ومع هذا فهو ليس من الرعيل الأول، إنما هو من مسلمة الفتح، ويُعَدّ من آخر طبقات الصحابة.

* * *
* *
*

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ت (٣٩٧٧).
(٢) المصدر نفسه (٨٩٣١).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٦).
(٤) تاريخ ابن عساكر (٣٦/٦٠).

الفصل الثامن عشر

فتح رامَهُرْمُز والسُّوس وتُسْتَر

لقد انتهت قيادة مقاومة الفتح الإسلامي، بل محاولة استرداد ملك فارس إلى الهرمزان، وكان عنده من مقومات القيادة ما لم يصل لها أحد من أقرانه، وكلما حاول محاولة في استرداد ما فات تنتهي المحاولة بهزيمته، فينتقل إلى موقع جديد، ويستعمل سلاح الكر والفر الذي كان العرب يستعملونه قبل الإسلام، فإن وجد فرصةً اهتبلها، وحاول الوصول إلى الأرض المغتصبة - كما يتصوَّر - فهذا كله ملك فارس، وإن ضُيِّق عليه الخناق صالح واستسلم وأعطى الجزية، لكنه وجد أن الحرب المحلية لا يمكن أن تحقق نصرًا ساحقًا، ونعلم من القيادة المسلمة أن المسلمين قد وضعوا كل طاقاتهم للحفاظ على ما فتح اللَّه عليهم من الأرض، فأراد أن يفتتح معركة عالمية، ومضى يُعبِّئ كل قوات الإمبراطورية الفارسية بأمر يزدجرد للقضاء على الوجود الإسلامي في أرض فارس، ويزدجرد يعبئ قواته كلها، والمسلمون مكتفون بما تحت أيديهم نظرًا لتوجيهات القيادة العليا بعدم الانسياح في أرض فارس.

يزدجرد يصدر إنذار الخطر:

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو، قالوا: ولم يزل يَزْدَجِرْد يثير أهل فارس أسفًا على ما خرج منهم، فكتب يزدجرد إلى أهل فارس - وهو يومئذ بمرو - يذكِّرهم الأحقاد ويؤنبهم: أن قد رضيتم يا أهل فارس أن قد غلبتكم العرب على السواد وما والاه، والأهواز، ثم لم يرضوا بذلك حتى تورَّدُوكم في بلادكم وعُقْر داركم. فتحركوا وتكاتبوا - أهل فارس وأهل الأهواز - وتعاهدوا وتعاقدوا على النصرة.

وجاءت الأخبار حرقوصَ بن زهير، وجاءت جُزءًا وسُلمى وحرملة عن خبر غالب وكُلَيب، فكتب سُلمى وحرملة إلى عمر، وإلى المسلمين بالبصرة، فسبق كتاب سُلمى حرملة، فكتب عمر إلى سعد:

- أن ابعث إلى الأهواز بعثًا كثيفًا مع النعمان بن مقرّن.

- وَعَجِّلْ وابعث سُويد بن مقرن، وعبد اللّه بن ذي السهمين، وجرير بن عبد اللّه الحميري، وجرير بن عبد اللّه البجلي، فلينزلوا بإزاء الهُرمزان حتى يتبينوا أمره.

وكتب إلى أبي موسى أن ابعث إلى الأهواز جندًا كثيفًا وأمِّر عليهم سهل بن عَدِيّ - أخا سهيل بن عدي - وابعث معه البراء بن مالك وعاصم بن عمرو ومجزأة بن ثور وكعب بن ثور وعَرفجَة بن هَرْثمة وحذيفة بن مِحْصَن وعبد الرحمن بن سهل والحصين ابن معبد، وعلى أهل الكوفة وأهل البصرة جميعًا أبو سَبْرَة بن أبي رَهم، وكل من أتاه فمدد له..) [١].

* * *

الأمة تلد الأبطال والقيادات، فالذين كانوا جنودًا مغمورين قبل سنوات ها هم يخوضون أهوال الحروب، فيكتسبون خبرة وتجربة تفوق ما يكتسبه الجنود في عشرات السنين، ويتأهلون ليكونوا في موقع القيادة، فنحن أمام أسماء جديدة تبرز لأول مرة، وأسماء قديمة تمثل المدرسة الحربية القيادية العليا التي يتخرج منها هؤلاء الفتيان، فنحن أمام معهد لتخريج القيادة نظريًّا وعمليًّا.. وإدارة المدرسة الحربية القيادية العليا يشترط أن تكون من الصحابة. ولنقف أمام هذا السجل العظيم، وأمام هذه القيادات التي أنتجت وصاغت، والقيادات التي تخرجت وتدربت، والزمن لا يسمح بالتمهل، فالأمة المسلمة اليوم تريد أن تتحرك نحو العالم كله لتعيد صياغته من جديد.

١ - حرقوص بن زهير السعدي التميمي:

فحرقوص هو بطل فتح الأهواز، وأثبت كفاءة نادرة في قيادته، وعندما غدر الهرمزان بعد فتح مناذر ونهر تيرى (... أمدَّهم عمر بحرقوص بن زهير السعدي، وكانت له صحبة من رسول اللّه ﷺ وأمَّره على القتال وعلى ما غلب عليه ...) [٢].

(.. لما انهزم الهرمزان يوم سوق الأهواز، وافتتح حرقوص بن زهير سوق الأهواز أقام بها .. وبلغ عمر أن حرقوصًا نزل جبل الأهواز، والناس يختلفون إليه، والجبل كؤود يشقُّ على من رامه، فكتب إليه: بلغني أنك نزلت منزلًا كؤودًا لا تؤتى فيه إلا على مشقة فأسهل، ولا تشق على مسلم ولا معاهد، وقم في أمرك على رِجْلٍ تدرك

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٠٠). (٢) المصدر نفسه (٢/٤٩٦).

الآخرة، وتَصْفُ لك الدنيا، ولا تدركنك فترة ولا عجلةٍ فتكدر دنياك وتذهب آخرتك) [١]. فعملية البناء قائمة من المدينة إلى الأهواز.

٢ - جَزْءٌ بن معاوية:

(.. وبعث جزء بن معاوية في أثره بأمر عمر إلى سرَّق ...) [٢].

(قال أبو عمر: كان عامل عمر على الأهواز. وقيل: له صحبة. ولا يصح، قلت: وقد تقدم غير مرة أنهم كانوا لا يؤمِّرون في ذلك الزمان إلا الصحابة. وعاش جَزءٌ إلى أن ولي لزياد بعض عمله) [٣].

(فكتب عمر إلى جَزء بن معاوية وإلى حرقوص بن زهير بلزوم ما غلبا عليه، وبالمقام حتى يأتيهما أمره، وكتب إليه مع عتبة في ذلك..) [٤].

وكان جَزْء قد تفتقت مواهبه الإدارية، وسابقته الحضارية، واستأذن جَزء عمر في عمران بلاده، فأذن له، فشق الأنهار، وعمَّر الموات.

٣ - النعمان بن مقرِّن المزني:

(أخو سويد وإخوته، وللنعمان ذكر كثير في فتوح العراق.

- وهو الذي قَدِمَ بشيرًا على عمر بفتح القادسية.
- وهو الذي فتح أصبهان.
- واستشهد بنهاوند.
- وقصته في ذلك في البخاري مختصرة، وعند الإسماعيلي مطولة، وأخرجه أحمد عن طريق سالم بن أبي الجعد عن النعمان بن مقرن قال: قَدِمْنَا على رسول الله ﷺ في أربعمائة من مزينة.. ورجاله ثقات لكنه منقطع...
- روى عنه ابنه معاوية ومسلم بن الهيضم وجبير بن حية وغيرهم.
- قال ابن عبد البر: سكن البصرة ثم تحوَّل إلى الكوفة.
- وكان معه لواء مزينة يوم الفتح - فتح مكة).

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٤٩٧).
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة (ت ١٢٢٣).
(٤) تاريخ الطبري (٢/ ٤٩٧).

- وكان موته سنة إحدى وعشرين. ذكر ذلك ابن سعد) [١].

٤ - سويد بن مقرن:

(يُكَنَّى أبا عائذ، أحد الإخوة، روى حديثه مسلم وأصحاب السنن...) [٢].

(روى شعبة عن حصين عن هلال بن يساف قال: كنا نبيع البز في دار سويد ابن مقرِّن، فخرجت جارية وقالت لرجل منا كلمة، فلطمها، فغضب سويد وقال: لطمتَ وجهها، لقد رأيتنى سابع سبعة من إخواني ما لنا خادم إلا واحدة، فلطمها أحدنا، فأمرنا رسول اللَّه ﷺ فأعتقناها) [٣].

٥ - عبد اللَّه بن ذي السهمين:

لم أعثر له على ترجمةٍ.

٦ - جرير بن عبد اللَّه الحميري:

(قال ابن عساكر: له صحبة. ثم روى عن طريق سيف بن عمر في الفتوح عن محمد بن أبي عثمان قال: لما عزم خالد بن الوليد على المسير من اليمامة إلى العراق جدَّد التعبئة، وتوخَّى الصحابة، ثم توخَّى منهم الكماة فقال: على قضاعة جرير ابن عبد اللَّه الحميري أخو الأقرع بن عبد اللَّه رسول رسول اللَّه ﷺ إلى اليمن.. وذكر سيف أيضًا أن جرير بن عبد اللَّه هذا كان الرسول إلى المدينة بوقعة اليرموك. وذكره سيف في عدة أماكن ..) [٤]

٧ - جرير بن عبد اللَّه البجلي:

سبقت ترجمته أكثر من مرة، أما مدد أهل البصرة فقد ذكر فيهم هذه القيادات.

٨ - سهل بن عدي:

(ابن مالك بن حرام بن خديج بن معاوية الخزرجي، تقدم ذكره مع أخويه أنه

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (ت ٩٠٩٧).

(٢) المصدر نفسه (ت ٣٩٢٧).

(٣) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر (ت ١٠٨٣).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (ت ١٢١٢).

شهد أحدًا، وذكر الطبري أن عمر كتب إلى أبي موسى الأشعري بالبصرة أن يؤمِّر سهل ابن عدي هذا، وهو الذي فتح كرمان، وأعانه عبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان) [١].

٩ - البراء بن مالك:

وهو أخو أنس بن مالك رضي الله عنه لأمه، أبو البطولات والكرامات.

أ - (قال محمد بن سيرين عن أنس بن مالك قال: دخلت على البراء بن مالك وهو يتغنى بالشعر، فقلت له: يا أخي، تتغنَّى بالشعر وقد أبدلك اللّه ما هو خير منه: القرآن؟ قال: أتخاف عليَّ أن أموت على فراشي وقد تفردت بقتل مائة سوى من شاركت فيه، إني لأرجو أن لا يفعل اللّه ذلك بي).

ب - كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ألا تستعملوا البراء بن مالك على جيش من جيوش المسلمين، فإنه مهلكة من المهالك يَقْدَمُ بهم .

ج - روى الترمذي بسنده إلى أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: « **كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على اللّه لأبرَّه، منهم البراء بن مالك** » [٢].

د - وإن البراء لقي زحفًا من المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين، فقالوا له: يا براء! لو أقسمت على اللّه لأبرك، فأقسم على ربك قال أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم. ثم التقوا على قنطرة السوس فأوجعوا في المسلمين، فقالوا: يا براء أقسم على ربك. فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وألحقني بنبي اللّه ﷺ، فَمُنِحُوا أكتافهم وقتل البراء شهيدًا رضي الله عنه.

هـ - عن ابن إسحاق، قال: زحف المسلمون إلى المشركين في اليمامة حتى ألجؤوهم إلى الحديقة وفيها عدو اللّه مسيلمة، فقال البراء: يا معشر المسلمين ألقوني عليهم. فاحتمل حتى إذا أشرف على الجدار اقتحم فقاتلهم على الحديقة حتى فتحها على المسلمين، ودخل عليهم المسلمون، فقَتَلَ اللّهُ مسيلمة [٣].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (ت ٣٨٢٤).

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب البراء بن مالك (٣٨٥٤).

(٣) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر (ت ١٦٥).

١٠ - عاصم بن عمرو:

سبقت ترجمته من قبل.

١١ - مجزأة بن ثور السدوسي:

(قال ابن منده: ذكره البخاري في الصحابة، ولا يثبت، وروايته عن عبد الرحمن ابن أبي بكرة.

قلتُ: هذا الإطلاق غلط....

قال ابن أبي شيبة... عن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: لما نزل أبو موسى بالناس على الهرمزان ومن معه بتُستر فأقاموا سنة أو نحوها لا يخلصون إليه، قال: وكان الهرمزان قتل رجلًا من دهاقنتهم، فانطلق أخوه حتى أتى أبا موسى فدله على عورتهم، فبعث أبو موسى معه مِجزأة بن ثور فدخل من القناة التي يجري فيها النهر حتى دخل المسلمون، وفتح اللَّه عليهم. والقصة طويلة....

وتقدم في ترجمة خالد بن المعمر أنه كان رئيس بكر بن وائل معه مجزأة ابن ثور ...) (١)

١٢ - كعب بن سُور الدوسي الأزدي:

(قال ابن أبي حاتم: ولَّاه عمر قضاء البصرة بعد ابن أبي مريم. وقال البخاري: قُتِلَ يوم الجمل. وقال ابن منده: يقال إنه أدرك النبي ﷺ.. وقال أبو عمر: كان مسلمًا في عهد رسول اللَّه ﷺ ولم يره، وهو معدود من كبار التابعين، وبعثه عمر رضي الله عنه قاضيًا على البصرة لخبر عجيب مشهور جرى له معه، في امرأة شكت زوجها إلى عمر فقالت: إن زوجي يقوم الليل ويصوم النهار، وأنا أكره أن أشكوه إليك وهو يعمل بطاعة اللَّه. فكأنَّ عمر لم يفهم عنها وكعب بن سور جالس معه فأخبره أنها تشكو أنها ليس لها من زوجها نصيب، فأمره عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقضي بينهما، فقضى للمرأة بيوم من أربعة أيام أو ليلة من أربع ليال، فسأله عمر عن ذلك، فنزع بأن اللَّه تعالى أحل له أربع نسوة لا زيادة فيها، فلها ليلة من أربع ليالٍ، فأعجب ذلك عمر، فاستقضاه..).

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (ت ٨٠١٥).

١٣ - عرفجة بن هرثمة:

سبق أن ترجمنا له من قبل.

١٤ - حذيفة بن محصن:

سبق أن ترجمنا له من قبل.

١٥ - عبد الرحمن بن سهل:

(قال البخاري: له صحبة .... وقال ابن سعد: شهد أحدًا والخندق والمشاهد، وهو الذي نَهِشَ فأمر رسول الله ﷺ عمارة بن حزم فَرَقَاه ....) [١].

١٦ - الحصين بن معبد:

لم أجد له ترجمة، ولا ندري إن كان هو الحصين بن أبي الحر، فقد ذكره بن حجر بقوله: (كان من عمال خالد بن الوليد في بعض نواحي الحيرة زمن الفتوح في خلافة أبي بكر. ذكره سيف والطبري، وقال ابن سعد: كان الحصين بن أبي الحر عاملًا لعمر ابن الخطاب على ميسان وعاش إلى زمن الحجاج) [٢].

ولابد من الإشارة أن سبعة منهم سبق أن خاضوا الحرب ضد (شهرك) وهزموا المشركين وأنقذوا الجيش المحاصر، فهم قد أصبحوا أعلامًا في الأمة. وهؤلاء السبعة هم:

١ - عاصم بن عمرو. ٢ - عرفجة بن هرثمة.

٣ - حذيفة بن محصن. ٤ - مجزأة بن ثور.

٥ - الحصين بن معبد (أبو الحر). ٦ - عبد الرحمن بن سهل.

٧ - والقائد العام أبو سبرة بن أبي رهم.

(فاقتتلوا ففتح الله على المسلمين، وأصاب المسلمون منهم ما شاؤوا، وهي الغزاة التي شرفت فيها نابتة البصيرة، وكانوا أفضل نوابت الأمصار).

النعمان بن مقرن ينفذ مهمته ويهزم الهرمزان:

فقد كانت تعليمات الخليفة ﷺ للنعمان عن طريق سعد: (أن ابعث إلى الأهواز

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٤٨٧٤).

(٢) المصدر نفسه (ت ١٩٤٥).

بعثًا كثيفًا مع النعمان بن مقرّن ..). واكتفى أمير المؤمنين به، فهو يُغْني عن جميع القيادات. (وخرج النعمان بن مقرِّن في أهل الكوفة، فأخذ وسط السواد حتى قطع دجلة بحيال مَيْسَان، ثم أخذ البَرَّ إلى الأهواز على البغال يجنِبون الخيل، وانتهى إلى نهر تيرى فجازها، ثم جاز مَنَاذر، ثم جاز سوق الأهواز، وخلف حُرقوصًا وسُلمى وحرملة، ثم سار نحو الهرمزان والهرمزان يومئذ برامَهُرْمُز ..)[١].

ووصلت الأخبار إلى الهرمزان بقدوم النعمان بجيشه نحوه، وحسب أن يعيد سيرة شهرك ويبيد الجيش الإسلامي بعد أن يحصره بينه وبين الأمداد التي ستأتيه من فارس:

(ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره الشَّدَّة، ورجا أن يقتطعه، وقد طمع الهرمزان في نصر أهل فارس وقد أقبلوا نحوه، ونزلت أوائل أمدادهم بتُسْتَر، فالتقى النعمان والهرمزان بـ (أربُك) فاقتتلوا قتالًا شديدًا، ثم إن اللَّه ﷻ هزم الهرمزان للنعمان، فأخلى رامَهُرْمُز وتركها ولحق بـ (تُستَر) وسار النعمان من أربُك حتى ينزل برامَهُرْمُز، ثم صعد لإيذَج، فصالحه عليها تيرويْه، فقبل منه وتركه ورجع إلى رامهرمز فأقام بها).

لقد هُزم الهرمزان أمام النعمان، وهزمت فارس أمام المسلمين، وأخلى الهرمزان موقعه متراجعًا إلى تُستر، وهذه هي طريقته كلما هزم في معركة واقتطعت منه أرض من أرض فارس، يتراجع إلى الخلف ويتحصَّن ليقاوم الهجوم من عدوه الذي ألحق به الهزيمة.

التجمع في تُستر حيال الهرمزان:

(قالوا: ولما كتب عمر إلى سعد وأبي موسى، وسار النعمان وسهل، سبق النعمان في أهل الكوفة سهلًا وأهلَ البصرة، ونكب الهرمزان، وجاء سهل في أهل البصرة حتى نزلوا بسوق الأهواز، وهو يريدون رامهرمز، فأتتهم الوقعة وهم بسوق الأهواز، وأتاهم الخبر أن الهرمزان قد لحق بتُستر، فمالوا من سوق الأهواز نحوه، فكان وجههم منها إلى تُستَر، ومال النعمان من رامهرمز إليها، وخرج سُلمى وحَرملة وحُرقوص وجزء فنزلوا جميعًا على تُستَر، والنعمان على أهل الكوفة، وأهل البصرة متساندون، وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس وأهل الجبال والأهواز في الخنادق، وكتبوا بذلك إلى عمر، واستمد أبو سَبرة فأمدهم بأبي موسى، فسار نحوهم، وعلى أهل الكوفة

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٠٠).

النعمان، وعلى أهل البصرة أبو موسى، وعلى الفريقين جميعًا أبو سَبرة..) [1].

لقد كان القائد الأعلى من قريش أبو سبرة بن أبي رهم من عامر بن لؤي، ويكفي أنه بدري وشهد المشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ، وكان ممن هاجر إلى الحبشة كما ذكرنا من قبل، وحين استمد أبو سبرة أمير المؤمنين بعث له بعثًا على رأسهم أبو موسى الأشعري.

أبو موسى الأشعري:

(مشهور باسمه (عبد اللَّه بن قيس) وكنيته ... وكان هو سكن الرملة، وحالف سعيد بن العاص ثم أسلم وهاجر إلى الحبشة. وقيل: بل رجع إلى بلاد قومه ولم يهاجر إلى الحبشة. وهذا قول الأكثر، فإن موسى بن عقبة وابن إسحاق والواقدي لم يذكروه في مهاجرة الحبشة.

وقدم المدينة بعد فتح خيبر، صادفت سفينته سفينة جعفر بن أبي طالب، فقدموا جميعًا، واستعمله النبي ﷺ علي بعض اليمن كزبيد وعدن وأعمالهما، واستعمله عمر على البصرة بعد المغيرة، فافتتح الأهواز ثم أصبهان، ثم استعمله عثمان على الكوفة، ثم كان أحد الحكمين في صفين، ثم اعتزل الفريقين. وأخرج ابن سعد والطبري عن طريق عبد اللَّه بن بريدة أنه وصف أبا موسى فقال: كان خفيف الجسم، قصيرًا ثطًّا [2]) [3].

ويمكن القول أن التعبئة بين الفريقين من المسلمين والمشركين كانت على أوسع نطاق، فهي عند الفرس معركة الثأر من القادسية وفتح المدائن، فلم يكن الإعداد لمعركة محلية، إنما الإعداد لمعركة عالمية قد تغير خريطة العالم، فيزدجرد يجمع قوات الإمبراطورية الفارسية كلها لاستعادة أرض فارس وعاصمة الإمبراطورية، والمسلمون يجمعون قوى الإسلام كلها في الكوفة والبصرة والمدينة. ويمكن القول أن هذه التعبئة للمعركة القادمة تفوق التعبئة السابقة لمعركة القادسية.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٠).

(٢) ثطًّا: ثقيل البطن، أو قليل شعر اللحية والحاجبين.

(٣) الإصابة لابن حجر (ت ٥٥٧٢).

فتح تُستر

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف .. قالوا: .. وعلى أهل الكوفة النعمان، وعلى أهل البصرة أبو موسى، وعلى الفريقين جميعًا أبو سَبرة.

- فحاصروهم أشهرًا، وأكثروا فيهم القتل.
- وقتل البراء بن مالك فيما بين أول ذلك الحصار إلى أن فتح اللَّه على المسلمين مائة مبارز.
- سوى من قتل في غير ذلك.
- وقتل مجزأة بن ثور مثل ذلك.
- وقتل كعبُ بن سُور مثل ذلك.
- وقتل أبو تميمة مثل ذلك.
- في عدة من أهل البصرة.
- وفي الكوفيين مثل ذلك.
- منهم حبيب بن قرة.
- ورِبْعِي بن عامر.
- وعامر بن عبد الأسود - وكان من الرؤساء.
- في ذلك ما ازدادوا إلى ما كان منهم.
- وزاحفهم المشركون في أيام تُستر ثمانين زحفًا في حصارهم.
- يكون عليهم مرة ولهم أخرى.
- حتى إذا كان في آخر زحف منها واشتد القتال.
- قال المسلمون: يا براء أقسم على ربك ليهزمنَّهم لنا.
- فقال: اللهم اهزمهم لنا واستشهدني.
- قال: فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم.
- ثم اقتحموها عليهم.
- وأرَزوا إلى مدينتهم.

- وأحاطوا بها ..) [(١)].

نحن بحاجة إلى أن نقف مليًّا مع كل فقرة من فقرات هذا النص:

١ - (فحاصروهم أشهرًا وأكثروا فيهم القتل):

فلم نجد في كل ما سبق من حروب مثل هذا الامتداد في الحرب أن يمتد الحصار عدة أشهر وفي سنة كاملة.

وما الذي ثبّت هذا الجيش كل هذه المدة، ولم نسمع عن جندي واحد سجل فرارًا من الجيش؟ فهي أمة جديدة غير الأمة في الجاهلية، فلم تكن الحروب تعدو ساعات ثم تتابع بعد أيام؛ لأنها تقوم على الكرِّ والفرِّ، أما الأمة العربية التي انبثقت من القرآن صارت تعرف أن الفرار من الزحف من الكبائر، وأنه يدخل النار، كما هي تردد في بداية كل حرب نشيدها الإسلامي الخالد من سورة الأنفال، والتي تقول بعض آياتها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

إن كل فرد في هذا الجيش الإسلامي من عشرات الألوف الذين شاركوا في هذا الحصار وحضروا هذه الحرب هو واحد من بناة هذه الأمة، بل هم الأمة ذاتها التي تحركت بهذا الدين، ولم يكن الوضع أمر حصار فقط، بل كان القتال فيه كثيرًا لا ينقطع كما سنعرض فيما بعد.

٢ - (وقَتَل البراء بن مالك فيما بين أول ذلك الحصار إلى أن فتح اللَّه على المسلمين مائة مبارز).

هذا الرجل الذي وصفه رسول اللَّه ﷺ في الحديث: « **كم من أشعث أغبر، ذي طمرين، لا يؤبه له، لو أقسم على اللَّه لأبره، منهم البراء بن مالك** » [(٢)].

فهو لا يؤبه له، ولا يُهْتَمُّ به، ذو طمرين، ولكنه إذا جد الجد كان الأسد الذي لا يبارى. (عن أنس بن مالك (أخيه) قال: دخلت على البراء بن مالك وهو يتغنَّى

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٠، ٥٠١).

(٢) سنن الترمذي (٣٨٥٤).

بالشعر. فقلت له: يا أخي تتغنى بالشعر وقد أبدلك اللّٰه خيرًا منه: القرآن؟ قال: أتخاف عليَّ أن أموت على فراشي وقد انفردت بقتل مائة سوى من شاركت فيه، إني لأرجو أن لا يفعل اللّٰه ذلك بي) [١].

إنه كما وصفت ليلى الأخيلية بطلها العظيم:

ومخرقٍ عنه القميص تخالُه بين البيوتِ من الحياءِ سقيمًا

حتى إذا برز اللواءُ رأيتَه تحت اللواءِ على الخميسِ زعيمًا [٢]

٣ - (وقتل مجزأة بن ثور مثل ذلك):

فإذا كان البراء بن مالك صحابيًّا أنصاريًّا تربى على يدي الرسول ﷺ فإن مجزأة ابن ثور يشك في صحبته، ومع ذلك فهو سيد قومه بكر بن وائل.

(وتقدم في ترجمة خالد بن المعمر أنه كان رئيس بكر بن وائل معه مجزأة بن ثور، ولمجزأة بن ثور ولد يقال له: شقيق كان رئيس بكر بن وائل في خلافة عثمان) [٣].

فهو زعيم ورث الزعامة كابرًا عن كابر، واعتنق الإسلام فأصبح زعيم المسلمين جميعًا، فمن يقتل مائة مبارز يفرد له صفحة في التاريخ لا تفرد لأمثاله عدد أصابع اليد، وسنرى فيما بعد أن دعاء البراء بن مالك وإقسامه على ربه وبطولته وبطولة مجزأة بن ثور هي التي حققت النصر النهائي على الفرس المشركين.

إنه المعدن العظيم الأصيل الذي زاده الإسلام صقلًا ونفاسة حتى صار البطل التاريخي خارج الزمان والمكان.

٤ - (وقتل كعب بن سُور مثل ذلك):

لقد رأينا عظمة كعب بن سور قاضيًا على البصرة حين اختاره عمر بعد امتحان دقيق، ويكفيه في تاريخه هذا الفخر، لكن أن نراه أحد الذين يعدون على الأصابع ممن قتل مائة مبارز ثم نراه بعد في الفتنة ممن تجمع عليه الأمة ثقةً بنزاهته أن يمضي إلى المدينة للتحقيق في أهم أحداثها! (.. فلما عضتهم الحرب تداعوا إلى الصلح على أن

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (ت ١٦٥). وسبق أن عرضنا قبل ترجمته كاملة.

(٢) ليلى الأخيلية، حياتها وشعرها، لـ د. إلهام دلال.

(٣) الإصابة لابن حجر (ت ٨٠١٥).

يكتبوا بينهم كتابًا ويبعثوا رسولًا إلى أهل المدينة يسأل أهلها: إن كان طلحة والزبير أكرها على البيعة خرج عثمان بن حنيف عن البصرة وأخلاها، وإن لم يكونا أكرها على البيعة خرج طلحة والزبير عنها وأخلوها لهم. وبعثوا بذلك كعب بن سُور القاضي، فقدم المدينة يوم الجمعة ....) [1].

فقد ائتمنته الأمة كلها على أخطر أمر في حياتها، وبعثته إلى المدينة ليعرف الخبر، وكان ثقة عند الفريقين طلحة والزبير وعائشة من جهة، وعثمان بن حنيف والي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من جهة أخرى، ثم استشهد وهو يحمل المصحف.

٥ – (وقتل أبو تميمة مثل ذلك):

من أبو تميمة؟ لا ندري حتى اسمه، وهو أحد المعدودين على أصابع اليد ممن قتل مائة مبارزة، فقد ذكرت ترجمة اثنين باسم أبي تميمة أحدهما تابعي والآخر صحابي، لكن كلتا الترجمتين لم تشر إلى بلائه في حرب فارس، أو حتى مشاركته فيها، وكم في الأمة مثل أبي تميمة؟ كم من جنود مجهولين صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه وقضوا نحبهم لم يذكرهم التاريخ وهم الذين صاغوه؟!

٦ – (في عدة من أهل البصرة):

فإذا ضَنَّ علينا التاريخ باسم أبي تميمة، فإن هؤلاء العدة قد ضَنَّ علينا التاريخ بكل شيءٍ عنهم، فهم نكرات بدون أسماء ولا ألقاب ولا كُنًى، لكن اللَّه تعالى يعرفهم جميعًا، وهؤلاء الذين تبنى بهم الأمم، فهم الذين يعطون ولا يأخذون، ويضحون ولا يذكرون، ويكتفون بذكر اللَّه تعالى لهم في الملأ الأعلى.

٧ – (وفي الكوفيين مثل ذلك):

فكما كان الأوس والخزرج يتنافسون في عهد النبي ﷺ في الجهاد بين يديه كان أهل البصرة وأهل الكوفة يتنافسون في الجهاد في سبيل اللَّه والنيل من العدو.

(قال ابن إسحاق: ولما انقضى شأن الخندق وأمر بني قريظة وكان سلام ابن أبي الحقيق – وهو أبو رافع – فيمن حزَّب الأحزاب على رسول اللَّه ﷺ وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعب بن الأشرف في عداوته رسول اللَّه ﷺ وتحريضه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٢٤٣).

عليه استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ في قتل سلام ابن أبي الحقيق وهو بخيبر فأذن لهم.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري عن عبد الله ابن كعب ابن مالك قال: كان مما صنع الله به لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئًا فيه عن رسول الله ﷺ غناء إلا قالت الخزرج: والله لا يذهبون بها فضلًا علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام. قال: فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك ..).

٨ - (منهم حبيب بن قرة):

ويؤسفني أن أقول: لم أعثر له على ترجمة. فبطل يقتل مائة من الأبطال في النزال ولا نعرف عنه شيئًا! فكم من أعاظم الرجال مجهولون عندنا في الوقت الذي نجد تراجم لمشاهير كثيرين أدنى منهم من شعراء وقصصيين وحمقى مغفلين. ومع ذلك فلو لم يسجل التاريخ له إلا هذا المجد لكفاه.

٩ - (وربعي بن عامر):

وسبق أن ترجمنا له من قبل، وهو من القادة الأكْفاء في التاريخ وليس مجرد بطل جندي، فسيكون له مواقع في الفتوحات فيما بعد.

(وقال سيف في الفتوح.... قدم على أبي عبيدة كتاب عمر بأن يصرف جند العراق إلى العراق، وعليهم هاشم بن عتبة، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، وعلى مجنبتيه عمير بن مالك وربعي بن عامر... وله ذكر أيضًا في غزوة نهاوند... وولاه الأحنف لما فتح خراسان على طخارستان.... وقد تقدم غير مرة أنهم كانوا لا يؤمِّرون إلا الصحابة...) [(١)].

١٠ - (وعامر بن عبد الأسود وكان من الرؤساء):

(له إدراك، ذكر الطبري أن العلاء بن الحضرمي كتب إليه يأمره بالتمادي على جده واجتهاده في قتال أهل الردة، والفحص عن أمورهم، والتتبع لأخبارهم، ذكره ابن فتحون. قلت: ولم ينسبه فإن كان هو أخا أبي سلمة بن عبد الأسد، فهو صحابي) [(٢)].

(١، ٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (ت ٢٦٧٩).

لكن لابد أن نشير إلى أن الاسم عند الطبري هو عامر بن عبد الأسود، وليس عامر ابن عبد الأسد، والفرق بينهما كبير. وقد عرف عامرًا بأنه من الرؤساء، فلا ندري إن كانت هذه ترجمته أم لا..

١١ - (في ذلك ما ازدادوا به إلى ما كان منهم):

وهي تفسر ما ذكر من قبل: (وأكثروا فيهم القتل). فقد كان هناك أبطال آخرون ساهموا في قتال المشركين، وقتل أبطالهم، ولا شك أن القتلى من المسلمين كذلك كثير كما ذكر القرآن الكريم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ... ﴾ [التوبة: ١١١].

١٢ - (وزاحفهم المشركون في أيام تُستر ثمانين زحفًا):

فإذن نحن بحاجة إلى أن نستوعب صورة الفتح الإسلامي، فالعدو الفارسي ليس لقمة مستساغة، وكما يحاول المؤرخون أن يبرزوا أسباب الانتصارات الإسلامية هو أن إمبراطورية الروم والفرس قد شاختا، بينما الأمة العربية كانت في عنفوان شبابها. إن الأهوال التي لقيها المسلمون في حروبهم مع الفرس لا يكاد يكون لها مثيل في التاريخ، وتلك شهادة خالد بن الوليد ﷺ وهو الذي حقق أعظم الفتوحات في العراق في أقصر فترة زمنية، يقول: (قاتلتُ العرب وقاتلت الروم وقاتلت الفرس، فما لقيت أشد من قتال الفرس ... وقد كسرت في يدي في مؤتة تسعة سيوف، ولم يثبت إلا صفيحة يمانية) فالفرس الذين يصبرون أشهرًا كذلك على الحصار ولا يكتفون بالاختباء وراء حصونهم بل يخرجون ويناجزون المسلمين في ثمانين زحفًا إنما هم قوة ضخمة مكافئة أو متفوقة على القوة الإسلامية من حيث العدد والعدة، ولا تقل شجاعة وصبرًا في الحرب عن المسلمين.

١٣ - (يكون عليهم مرة ولهم أخرى):

ولم تكن نهاية تلك الزحوف نصرًا دائمًا للمسلمين، إنما كانت لهم حينًا وعليهم أخرى، لكنها لم تكن حاسمة، ولم تحقق النصر النهائي لأحد الفريقين.

عندما سأل هرقل أبا سفيان قائلًا: (فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سجال، يدال علينا وندال عليه) (١) فقال هرقل تعليقًا على ذلك: (وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالًا ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة ...) (٢).

١٤ - (حتى إذا كانوا في آخر زحف واشتد القتال):

ولعل الشعور غدا لدى الفريقين أنها الجولة الأخيرة، وكل فريق ألقى بثقله كله على أمل تحقيق النصر الأخير، واشتد القتال حتى أنهك الفريقان.

١٥ - (قال المسلمون: يا براء أقسم على ربك ليهزمنَّهم لنا):

فقد لجأ المسلمون إلى سلاح لا يملكه العدو ولا يملكه إلا المؤمنون: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ ﴾ [النساء: ١٠٤] ففي عالم الأسباب لا بد أن تكون الدولة للفرس المشركين، فهم أكثر عددًا، وأشد وأقوى عدة، لكن في عالم رب الأرباب فالصورة تختلف، واللّه تعالى يجعل العُقْبَى لجنده، وبينهم ذلك الجندي المتواضع البسيط ذو الطمرين الذي يراه فلا يأبه له، بينهم البراء بن مالك والجيش كله يعرف أن البراء بن مالك هذا هو ممن لو أقسم على اللّه لأبره، فلم لا يكون هو الشفيع بينهم وبين ربهم فيقسم على ربِّه أن ينصرهم النصر النهائي؟ فقد أشرف الطرفان على الذورة، والمدد الأخير من رب السموات والأرض من خلال هذا العبد الذي لا يؤبه له، من خلال البراء بن مالك.

١٦ - (فقال: اللهم اهزمهم لنا واستشهدني)

وفي رواية الترمذي التي ساقها ابن حجر في الإصابة: (فلما كان يوم تُستر من بلاد فارس انكشف الناس، فقال المسلمون: يا براء أقسم على ربك. فقال: أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك. فحمل، وحمل الناس معه، فَقَتَل مرزبان الزارة من عظماء الفرس، وأخذ سلبه، فانهزم الفرس وقُتِل البراء).

١٧ - (فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم):

وكانت هذه المرحلة الأولى من المعركة، فقد يئس الفرس من إمكانيات تحقيق أي

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ١٢٨).

(٢) السيرة النبوية الصحيحة لـ: إبراهيم العلي (٣٨٠).

نصر حاسم، إنما انتقل المسلمون الآن إلى متابعة الهجوم بعد تراجع الفرس.

١٨ - (ثم اقتحموا عليهم)

الآن نغزوهم ولا يغزونا.. فقد تابع المسلمون هجومهم إلى الخنادق، وأعملوا فيهم السيوف، مما اضطرهم إلى الهرب من خنادقهم التي كانوا ينطلقون منها إلى التراجع حتى دخلوا مدينتهم وأغلقوا عليهم حصونهم.

١٩ - (وأرزوا إلى مدينتهم):

فقد خسر الفرس كل المواقع المتقدمة، وخسروا الخنادق التي كانت تحول دون وصول المسلمين إليهم، ولم يعد لهم ملجأ إلا المدينة، والمدينة غدت في حكم المدينة الساقطة؛ لأن المسلمين أحاطوا بها من كل جانب.

٢٠ - (وأحاطوا بها):

لكن متى ينتهي هذا الحصار الجديد؟ وكم يصبر المسلمون بعد هذه الشهور الطوال؟ وبقي المسلمون يتساءلون: متى نصر اللّه؟ ومتى تسقط المدينة ويشعر المسلمون أن تُستر صارت بأيديهم؟ ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] وكما جاءت الريح في الخندق فاقتلعت الخيام ونزل جند اللّه فبثوا الرعب في قلوب المشركين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب: ٩].

وجاء نعيم ابن مسعود من جديد وجاء نصر اللّه:

(.. فبينا هم على ذلك وقد ضاقت بهم المدينة وطالت حربهم خرج إلى النعمان رجل فاستأمنه على أن يدله على مدخل يُؤتوْن منه، ورمى في ناحية أبي موسى بسهم فقال: قد وثقت بكم وأمنتكم واستأمنتكم على أن دللتكم على ما تأتون منه المدينة، ويكون منه فتحها، فآمنوه في نشابة، فرمى إليهم بآخر وقال: انهدوا من قِبَلِ مخرج الماء، فإنكم ستفتحونها. فاستشار في ذلك، وندب إليه، فانتدب له عامر بن عبد قيس وكعب بن سور، ومجزأة بن ثور، وحَسَكَة الحبَطي، وبشر كثير، فنهدوا لذلك المكان ليلًا، وقد ندب النعمان أصحابه حين جاءه الرجل، فانتدب له: سويد بن المثعبة، وورقاء ابن الحارث، وبشر بن ربيعة الخثعمي، ونافع بن زيد الحميري، وعبد اللّه

ابن بِشر الهلالي، فنهدوا في بشر كثير، فالتقَوا هم وأهل البصرة على ذلك المخرج، وقد انسرب سويد وعبد اللَّه بن بشر، فأتبعهم هؤلاء وهؤلاء حتى إذا اجتمعوا فيها - والناس على رِجْل من خارج - كبَّروا فيها، وكبَّر المسلمون من خارج، وفتحت الأبواب فاجتلدوا فيها، فأناموا كل مقاتل، وأرَز الهرمزان إلى القلعة ..) [1].

أن ينبعث من قلب العدو من يدل على مكمن العدو هو نصر من اللَّه تعالى كبير لا يملكه إلا الذي يملك قلوب العباد.

وتمَّ الأمر على الجبهتين: جبهة البصرة من خلال إرسال السهم، وجبهة الكوفة من خلال مقابلة النعمان. ويتم تحرك الفدائيين العظام عند مخرج الماء، وتبرز أسماء جديدة ما سمعنا بها من قبل، فالأمة تلد كل يوم عظيمًا، وتنجب كل يوم بطلًا، وإذا ذكرت الأسماء فيذكر بجوارها بشر كثير، يتسابقون إلى الموت، ويتنافسون على الخطر، لا يعرفون شيئًا اسمه المستحيل، فالإرادة العظيمة، والثقة باللَّه تعالى تدفع المتسابقين أن يتحركوا في لجج البحار، ويعاكسوا التيار، والسباق داخل الماء.

ومن حق هؤلاء الأبطال العظام علينا أن نعيد ذكرهم ثانية بأحرف من النور، فقد قدمت جبهة البصرة:

- عامر بن عبد قيس:

وهو علم كبير من أعلام هذه الأمة.

(أبو عمرو البصري التميمي العنبري، يعد من الزهاد الثمانية، ذكره أبو موسى في كتابه في الصحابة، وهو تابعي، قيل: أدرك الجاهلية. وكان أعبد أهل زمانه وأشدهم اجتهادًا، وسُعي به إلى عثمان بن عفان ﷺ أنه لا يأكل اللحم، ولا ينكح النساء، وأنه يطعن على الأئمة، ولا يشهد الجمعة، فأمره أن يسير إلى الشام، فسار فقدم على معاوية، فوافقه وعنده ثريد، فأكل معه أكلًا غريبًا، فعلم أن الرجل مكذوب عليه، فقال: يا هذا، أتدري فيم أخرجت؟ قال: لا. قال: بلغ الخليفة أنك لا تأكل اللحم، وقد رأيتك تأكل، وأنك لا ترى التزويج، ولا تشهد الجمعة. قال: أما الجمعة فإني أشهدها في مؤخر المسجد ثم أرجع في أوائل الناس، وأما اللحم فقد رأيت... وأما التزويج فقد خرجت وأنا يخطب عليَّ.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠١).

قال: فترجع إلى بلدك؟

قال: لا أرجع إلى بلد استحل أهله مني ما استحلوا.

فكان يقيم في السواحل، فكان معاوية يكثر أن يقول له: حاجتك؟

فقال يومًا: حاجتي أن ترد عليَّ حَرَّ البصرة، فإن ببلادكم لا يشتد عليَّ الصوم. وكان عامر إذا خرج إلى الجهاد وقف يتوسم الناس، فإذا رأى رفقة توافقه قال: أريد أن أصحبكم على ثلاث خلال. فإذا قالوا: ما هي؟ قال:

- أكون لكم خادمًا لا ينازعني أحد الخدمة.
- وأكون مؤذنًا.
- وأنفق عليكم بقدر طاقتي.

فإذا قالوا: نعم. صحبهم، فإذا نازعه أحد من ذلك شيئًا فارقهم، وكان ورده كل يوم ألف ركعة، ويقول لنفسه: بهذا أمرت ولهذا خلقت. ويصلي الليل أجمع.

وقيل لعامر: أتحدث نفسك بشيء في الصلاة؟ قال: نعم. أحدث نفسي بالوقوف بين يدي اللَّه ﷻ ومنصرفي من بين يديه.

وقال عامر: أحببت اللَّه حبًّا سهَّل عليَّ كل مصيبة، ورضَّاني بكل قضية، فما أبالي مع حبي إياه ما أصبحت عليه وما أمسيت.

وكان إذا رأى الناس في حوائجهم يقول: يا رب؛ غدا الغادون في حوائجهم وغدوت إليك أسألك المغفرة ...) [1] وما أجمل الجمع بين العبادة والجهاد! لكن ما أصعب النيل من العباد والصالحين! وهي ظاهرة تشي بالخطر، وقريبة من الوشي بالمغيرة بن شعبة.

- **كعب بن سُور:**

سبقت ترجمته.

- **مجزأة بن ثور:**

سبقت ترجمته.

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة (٨٨/٣) طبعة دار إحياء التراث العربي.

- **حَسَكة الحبَطي:**

وفي الإصابة: حَسَكة الحنظلي. والظن أنه هو. (قال سيف: كان من عمال خالد ابن الوليد على بعض نواحي الحيرة في خلافة أبي بكر. قلت: تقدم غير مرة أنه كانوا لا يؤمِّرون إلا الصحابة) [١].

هؤلاء الأربعة هم أبطال أهل البصرة في بشر كثير.

أما أبطال أهل الكوفة الخمسة فهم.

- **سويد بن مثعبة:**

لم أعثر له على ترجمة.

- **ورقاء بن الحارث:**

لم أعثر له على ترجمة.

- **بشر بن ربيعة الخثعمي:**

قال في الإصابة: (بشر العنزي - ويقال - الخثعمي. قال أبو حاتم: مصري له صحبة.

وقال ابن السكن: عداده في أهل الشام. وروى حديثه أحمد والبخاري في التاريخ والطبراني وغيرهم من طريق الوليد بن المغيرة المعافري عن عبد اللّه بن بشر الغنوي، ومنهم من قال: الخثعمي عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ يقول:

« **لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش** » [٢].

قال: فدعاني مسلمة بن عبد الملك، فسألني، فحدثته بهذا الحديث فغزا القسطنطينية.

قلت: القائل ذلك عبد اللّه بن بشر.

ورواه ابن السكن من هذا الوجه فقال: بشر بن ربيعة الخثعمي ..) [٣].

- **نافع بن زيد الحميري:**

(ذكره ابن شاهين في الصحابة.

وأخرج من طريق زكريا بن يحيى بن سعيد الحميري عن إياس بن عمرو الحميري

---

(١) الإصابة لابن حجر (ت ١٩١٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٨٩٥٧).

(٣) الإصابة لابن حجر (٢/ ٧٤٣).

أن نافع بن زيد الحميري قدم وافدًا على رسول اللّه ﷺ في نفر من حمير فقالوا: أتيناك لنتفقه في الدين، ونسأل عن أول هذا الأمر. قال: « **كان اللّه ليس شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماء، ثم خلق القلم فقال: اكتب ما هو كائن. ثم خلق السموات والأرض وما فيهن، واستوى على عرشه** » فيه عدة مجاهيل..) [1].

- **عبد اللّه بن بشر الهلالي:**

لم أعثر له على ترجمة.

وكذلك البشر الكثير من الكوفة والبصرة لم نعثر لهم على ترجمةٍ.

(فالتقوا هم وأهل البصرة على ذلك المخرج وقد انسرب سويد وعبد اللّه بن بشر، فأتبعهم هؤلاء وهؤلاء، حتى إذا اجتمعوا فيها - والناس على رِجْلٍ من الخارج - كبروا فيها وكبر المسلمون من الخارج).

والتكبير من الداخل يعني أن المسلمين قد فتحوا الأبواب ودخلوا المدينة.

(وفتحت الأبواب، واجتلدوا فيها، فأناموا كل مقاتل).

أي: قتلوا كل مقاتل.

الهرمزان أسيرًا ثم مسلمًا:

(وأرَزَ الهرمزان إلى القلعة، وأطاف به الذين دخلوا من مخرج الماء، فلما عاينوه وأقبلوا قِبَلَه قال لهم:

ما شئتم، قد ترون ضيقَ ما أنا فيه وأنتم، ومعي في جُعْبَتي مائة نُشّابة، وواللّه ما تصِلون إلي ما دام معي منها نُشَّابة، وما يقع لي سهم، وما خير إساري إذا أصبت منكم مائةً بين قتيل أو جريح؟

قالوا: فتريد ماذا؟

قال: أن أضع يدي في أيديكم على حُكْم عمر يصنع بي ما يشاء.

قالوا: فلك ذلك.

فرمى بقوسه، وأمكنهم من نفسه، فشدُّوه وثاقًا.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (ت ٨٩٣٣).

واقتسموا ما أفاء اللَّه عليهم، فكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف، والرجل ألفًا.

ودعا صاحب الرميَّة بها فجاء هو والرجل الذي خرج بنفسه فقالا:

من لنا بالأمان الذي طلبنا علينا وعلى مَنْ مَالَ معنا؟

قالوا: ومَنْ مال معكم؟

قالا: من أغلق بابه عليه مدخلَكم.

فأجازوا ذلك لهم، وقُتِلَ من المسلمين ليلتئذٍ أناس كثير، وممن قَتَل الهرمزان بنفسه مجزأة بن ثور والبراء بن مالك) [1].

الهرمزان بين يدي أمير المؤمنين:

(.. وأوفد أبو سبرة وفدًا فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس، وأرسل الهرمزان معهم فقدموا مع أبي موسى البصرة، ثم خرجوا نحو المدينة، حتى إذا دخلوا هيأوا الهرمزان في هيئته، فألبسوه كُسوته من الديباج الذي فيه الذهب، ووضعوا على رأسه تاجًا يُدعى (الآذين) مكللًا بالياقوت، وعليه حِليته؛ كيما يراه عمر والمسلمون في هيئته، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر في منزله فلم يجدوه، فسألوا عنه، فقيل لهم:

جلس في المسجد لوفد قدموا عليه من الكوفة.

فانطلقوا يطلبونه في المسجد، فلم يروه، فلما انصرفوا مروا بغلمان من أهل المدينة يلعبون.

فقالوا لهم: ما تلددكم [2]؟ تريدون أمير المؤمنين؟

فإنه نائم في ميمنة المسجد، متوسدٌ بُرْنُسَه - وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في بُرْنُس، فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلَوه نزع برنسه ثم توسده فنام - فانطلقوا ومعهم النظَّارة، حتى إذا رأوه جلسوا دونه وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره، والدرة في يده معلقة.

فقال الهرمزان: أين عمر؟

فقالوا: هو ذا.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠١).

(٢) ما تلددكم: ما تلفتكم يمينًا وشمالًا.

وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه.

وأصغى الهرمزان إلى الوفد.

فقال: أين حَرَسُه وحُجَّابه عنه؟

قالوا: ليس له حارس، ولا حاجب، ولا كاتب، ولا ديوان.

قال: فينبغي له أن يكون نبيًّا.

فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء.

وكثر الناس ، فاستيقظ عمر بالجَلَبَة، فاستوى جالسًا، ثم نظر إلى الهرمزان.

فقال: الهرمزان؟

قالوا: نعم.

فتأمله وتأمل ما عليه.

وقال: أعوذ باللَّه من النار، وأستعين اللَّه.

وقال: الحمد للَّه الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، يا معشر المسلمين! تمسكوا بهذا الدين، واهتدوا بهُدَى نبيكم، ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة.

فقال الوفد: هذا ملك الأهواز فكلِّمْه.

فقال: لا، حتى لا يبقى عليه من حليته شيءٌ.

فَرُمِيَ عنه بكل شيء عليه إلا شيئًا يستره، وألبسوه ثوبًا صفيقًا.

فقال عمر: هيه يا هرمزان، كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر اللَّه؟

فقال: يا عمر، إنا وإياكم في الجاهلية كان اللَّه قد خلى بيننا وبينكم، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا.

فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا.

ثم قال عمر: ما عذرك وما حجتك في انتقاضك مرةً بعد مرة؟

فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك.

قال: لا تخف ذلك.

واستسقى ماءً، فأُتي به في قَدح غليظ.

فقال: لو مت عطشًا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا.

فأتي به في إناء يرضاه، فجعلت يده ترجُف.

وقال: إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء.

فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه.

فأكفأه.

فقال عمر: أعيدوا عليه، ولا تجمعوا عليه القتل والعطش.

فقال: لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأمن به.

فقال له عمر: إني قاتلك.

قال: قد آمَنتني!

قال: كذبت.

فقال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، قد آمَنتَه.

قال: ويحك يا أنس أنا أؤمِّن قاتل مجزأة والبراء؟! واللّه لتأتين بمخرج أو لأعاقبنك!

قال: قلتَ له: لا بأس عليك حتى تخبرني. وقلتَ: لا بأس عليك حتى تشربه. وقال له من حوله مثل ذلك.

فأقبل على الهرمزان وقال:

خدعتني، واللّه لا أنخدع إلا لمسلم.

فأسلم، ففرض له على ألفين وأنزله المدينة) [١].

* * *

١ - نحن لسنا أمام لقاء رجلين أو قائدين، الرجل الأول في دولة الإسلام، والرجل الثاني في الإمبراطورية الفارسية فقط.

بل نحن أمام لقاء أمتين ورسالتين وحضارتين تمثلت بهذين الشخصين.

٢ - (وأرز الهرمزان إلى القلعة، وأطاف به الذين دخلوا من مخرج الماء، فلما عاينوه وأقبلوا قِبَلَهُ قال لهم:

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠١، ٥٠٢).

ما شئتم، قد ترون ضِيقَ ما أنا فيه وأنتم، ومعي في جُعبتي مائةُ نُشَّابة، واللَّه ما تصِلون إليَّ ما دام معي منها نُشابة، وما يقع لي سهم، وما خير إساري إذا أصبتُ منكم مائة بين قتيل أو جريح؟).

والهرمزان لم يقل ذلك إلا ليفعله، فقد قتل أعظم بطلين من أبطال المسلمين؛ مجزأة بن ثور السدوسي، والبراء بن مالك الأنصاري.

ولسنا مبالغين حين نقول هذا القول، فقد رأينا البراء بن مالك ﷺ وبلاءه حيث قتل مائة مبارز غير من شارك بقتلهم، وهو الذي أقسم على ربِّه طالبًا النصر لأمة الإسلام والشهادة، فأبرَّ اللَّه تعالى قسمه، وهزم العدو، واتخذه شهيدًا.

أما مجزأة بن ثور فهو المنقذ العملي للنصر، فقد أبلى بلاء البراء بن مالك ﷺ وقتل مائة مبارز، وهو الذي دخل مخرج الماء وعاد ليدخله ثانية مع أبطال المسلمين، ولنشهد بلاءه في ذلك في رواية أخرى هي أصح سندًا من رواية الطبري أوردها ابن أبي شيبة في مصنفه رحمه الله.

(ما ذُكِرَ في تستر: حدثنا قراد أبو نوح، حدثنا عثمان بن معاوية القرشي عن أبيه عن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: لما نزل أبو موسى بالناس على الهرمزان ومن معه بتُستر أقاموا سنة أو نحوها لا يخلصون إليه، وقد كان الهرمزان قتل رجلًا من دهاقنتهم وعظمائهم، فانطلق أخوه حتى أتى أبا موسى فقال: ما تجعل لي إن دللتك على المدخل؟

قال: سلني ما شئت.

قال: أسألك أن تحقن دمي ودماء أهل بيتي، وتخلي بيننا وبين ما في أيدينا من أموالنا ومساكننا.

قال: فذلك لك.

قال: ابغني إنسانًا سابحًا ذا عقل وَلُبٍّ يأتيك بأمرٍ بيِّنٍ.

قال: فأرسل أبو موسى إلى مَجزأة بن ثور السَّدوسي فقال له:

ابغني رجلًا من قومك سابحًا ذا عقل ولب، وليس بذاك في خَطَرِهِ [1]، فإن

---

(١) وليس بذاك في خطره: أي ليس ذا شأن عظيم في المسلمين.

أصيب كان مصابه على المسلمين يسيرًا، وإن سَلِمَ جاءنا بِثَبْتٍ، فإني لا أدري ما جاء به هذا الدهقان ولا آمن له، ولا أثق به.

فقال مجزأة: قد وجدت.

قال: من هو؟ فأْتِ به.

قال: أنا هو.

قال أبو موسى: يرحمك اللَّه، ما هذا أردت، فابغني رجلًا.

فقال مجزأة بن ثور: واللَّه لا أعمِدُ إلى عجوز من بكر بن وائل أَتَدَاينُ ابن أم مجزأة بابنها.

قال: أما إذا أبيت فَسِرْ.

فلبِس ثياب البيض، وأخذ منديلًا، وأخذ معه خنجرًا، ثم انطلق إلى الدهقان حتى سبح فأجاز إلى المدينة، فأدخله من مدخل الماء حيثُ يدخل على أهل المدينة.

قال: فأدخله في مدخل شديد يضيق به أحيانًا حتى ينبطح على بطنه، ويتسع أحيانًا فيمشي قائمًا، ويحبو في بعض ذلك، حتى دخل المدينة، وقد أمره أبو موسى أن يحفظ طريق باب المدينة، وطريق السور ومنزل الهرمزان، فانطلق به الدهقان حتى أراه طريق السور، وطريق الباب، ثم انطلق به إلى منزل الهرمزان، وقد كان أبو موسى أوصاه: أن لا تسبقني بأمر، فلما رأى الهرمزان قاعدًا وحوله دهاقنته وهو يشرب فقال للدهقان:

هذا الهرمزان؟

قال: نعم.

قال: هذا الذي لقي المسلمون منه ما لقوا، أما واللَّه لأريحنهم منه.

فقال له الدهقان: لا تفعل فإنهم يتحرزون، ويحولون بينك وبين دخول هذا المدخل. فأبى مجزأة إلا أن يمضي على رأيه على قتل العلج.

فأداره الدهقان وألاصه [1] أن يكف عن قتله فأبى.

---

(١) ألاصه: حاول معه في الكلام وراوده.

فذكر الدهقان قول أبي موسى له: اتق اللَّه أن لا تسبقني بأمر.

فقال: أليس قد أمرك صاحبك أن لا تسبقه بأمر؟

فقال: هاه، أما واللَّه لولا هذا لأريحنهم منه.

فرجع مع الدهقان إلى منزله، فأقام يومه حتى أمسى.

ثم رجع إلى أبي موسى، فندب أبو موسى معه الناس، فانتدب ثلاثمائة ونيف، فأمرهم أن يلبس الرجل ثوبين لا يزيد عليه وسيفه، ففعل القوم، قال: فقعدوا على شاطئ النهر ينتظرون مجزأة أن يأتيهم وهو عند أبي موسى ... وودعه أبو موسى فأوصاه، فقال مجزأة لأبي موسى: إني أسالك شيئًا فأعطنيه.

قال: لا تسألني شيئًا إلا أعطيتكه.

قال: فأعطني سيفك أتقلده إلى سيفي.

فدعا له بسيفه فأعطاه إياه.

فذهب إلى القوم وهم ينتظرونه حتى كان في وسط منهم فكبّر ووقع في الماء، ووقع القوم جميعًا، قال: يقول عبد الرحمن بن أبي بكرة: كأنهم البط، فسبحوا حتى جازوا، ثم انطلق بهم إلى الثقب الذي يدخل الماء منه فكبر، ثم دخل، فلما أفضى إلى المدينة فنظر لم يقم معه إلا خمسة وثلاثون أو ستة وثلاثون رجلًا، قال لأصحابه:

ألا أعود إليهم فأدخلهم.

فقال رجل من أهل الكوفة يقال له الجبان - لشجاعته:

غيرك فليقل هذا يا مجزأة، إنما عليك نفسك، فامض لما أمرت به.

فقال له: أصبت.

فمضى بطائفة منهم إلى الباب، فوضعهم عليه، ومضى بطائفة إلى السور، ومضى بمن بقي حتى صعد السور.

فانحدر عليه علج من الأساورة ومعه نيزك [1]، فطعن مجزأة فأثبته.

فقال لهم مجزأة: امضوا لأمركم، لا يشغلنكم عنه شيءٌ.

---

(١) العلج: هو الضخم من كفار الأعاجم، والأساورة: جمع إسوار وهو القائد أو الرامي، والنيزك: هو الرمح الصغير.

فألقوا عليه برذعة ليعرفوا مكانه، ومضوا، وكبر المسلمون على السور وعلى باب المدينة وفتحوا الباب، وأقبل المسلمون على عادتهم حتى دخلوا المدينة. قيل للهرمزان: هذه العرب قد دخلوا. قال: لا شك أنهم قد دحسوها [١] عليهم. قال: من أين دخلوا؟ أمن السماء؟ وتحصن في قصبة له) [٢].

* * *

لماذا استأسر الهرمزان؟

لقد صبر سنة كاملة وهو يقاوم المد الإسلامي، ومع كل المقاومة ومع كل التحصينات فقد انهارت كلها، ودخل المسلمون المدينة، وقال كلمته المشهورة آنفة الذكر:

(من أين دخلوا ؟ أمن السماء؟).

لقد أصبح مقتنعًا أن لا جدوى من المقاومة، ومن أجل ذلك اختار الأمان على أن ينزل على حكم عمر، والقائد الكبير يفضل القتل ألف مرة على أن يمضي ذليلًا صاغرًا يحكِّمُ خصمه به، والهرمزان في خبرته العظمى وموقفه العظيم يرضى هذه النهاية، وهو الرجل الثاني في الدولة الفارسية لولا يأسه النهائي من إمكانية النصر، وأمله الكبير في نبل عمر وتقديره للرجال، ولا ندري إن كان دخل قلبه من آثار الإيمان شيء، فجوابه في حديثه مع عمر ﷺ يحمل هذه المعاني حين قال:

(يا أمير المؤمنين، قد علمتم كيف كنا وكنتم إذ كنا على ضلالة جميعًا، كانت القبيلة من قبائل العرب ترى نُشابة بعض أساورتنا فيهربون إلى الأرض البعيدة، فلما هداكم اللَّه فكان معكم لم نستطع نقاتله).

وفي الرواية الثانية:

(يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية كان اللَّه قد خلَّى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا.

فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا).

---

(١) دحسوها عليهم: ملؤوها عليهم.

(٢) المصنف لابن أبي شيبة (١٨/ ٣٤٥٠٥).

إن اعترافات الهرمزان هذه هي اعترافات حضارة جاهلية تستسلم أمام حضارة الإسلام، واعتراف أمة بأن الأمة الوارثة هي أمة مهتدية بنور اللَّه منتصرة بتطبيق شرائعه.

(فلما هداكم اللَّه **فكان معكم** لم نستطع أن نقاتله).

إنها اعترافات إمام الضلالة الهرمزان أمام إمام الهدى عمر أمير المؤمنين.

الأمة الفارسية متمثلة بالهرمزان:

(ونجد كذلك هنا روايتان:

رواية ابن أبي شيبة في مصنفه - وهي أصح سندًا:

(.. فبعث بهم (أي بالأسرى) مع أنس بالهرمزان وأصحابه، فانطلقوا بهم حتى قدموا على عمر. قال: فأرسل إليه أنس:

ما ترى في هؤلاء ؟ أدخلهم عراة مكتفين أو آمرهم فيأخذون حليهم وبزتهم؟

قال: فأرسل إليه عمر: لو أدخلتهم كما تقول عراة مكتفين لم يزيدوا على أن يكونوا أعلاجًا، ولكن أدخلهم عليهم حليهم و بزَّتُهم حتى يعلم المسلمون ما أفاء اللَّه عليهم، فأمرهم فأخذوا بزتهم وحليهم حتى دخلوا على عمر) [1].

ورواية الطبري:

(فقدموا مع أبي موسى بالبصرة، ثم خرجوا نحو المدينة، حتى إذا دخلوا هيأوا الهرمزان في هيئته، فألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب، ووضعوا على رأسه تاجًا يُدعى (الآذين) مكلَّلًا بالياقوت وعليه حِليته؛ كيما يراه عمر والمسلمون في هيئته، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر في منزله فلم يجدوه).

فإذن هذا المعنى ماثل في ذهن القيادة المسلمة وفي ذهن أمير المؤمنين، أن يكون في زينته ولباسه وبهارجه كاملة؛ حتى يعلم المسلمون في الأرض إلى أين انتهى امتداد الإسلام وعزه، وأي نصر تحقق لهذه الأمة بعد صبر سنة أو نحوها، وكما ألبس عمر رضي الله عنه أحد المسلمين سواري كسرى وتاجه ولباسه، حتى تعرف الأمة ماذا فعل بها الإسلام من عز. وكما قال عمر رضي الله عنه:

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (ج ١٨)، (ح ٥٠٥، ٣٤).

(كنا أذل أمة، فأعزنا اللّٰه بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا اللّٰه!!).

فهذا الهرمزان في الجاهلية لو جاء أحد العرب يحدثهم عن عزه وجاهه وصولجانه وأنه رآه بعينه لأصبح من أكرم العرب وأحظاهم، والذي أتيح له ذلك كان يدعى جليس الملوك. وها هو الهرمزان هنا الرجل الثاني في أمة فارس يأتي بلباسه وتاجه وزينته ليراه المسلمون أسيرًا بين يديهم.

إنها نقلة واسعة كبيرة أن تحضر هذه الحضارة المادية كلها لتحتضر بين يدي حضارة الإسلام وتستأسر لهذه الأمة.

والأمة المسلمة متمثلة بعمر ﷺ:

(فسألوا عنه - أي عن أمير المؤمنين - فقيل لهم:

جلس في المسجد لوفد قدموا عليه من الكوفة، فانطلقوا يطلبونه في المسجد، فلم يروه، فلما انصرفوا مروا بغلمان من أهل المدينة يلعبون فقالوا لهم: ما تلددكم؟ [1] تريدون أمير المؤمنين؟ فإنه نائم في ميمنة المسجد، متوسدٌ برنسه. وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس، فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلَوه [2] نزع برنسه، ثم توسد فنام، فانطلقوا ومعهم النظَّارة، حتى إذا رأوه جلسوا دونه، وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره، والدِّرَّة في يده معلقة.

فقال الهرمزان: أين عمر؟

قالوا: هو ذا.

وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه، وأصغى الهرمزان إلى الوفد.

فقال: أين حرسه وحُجَّابه عنه؟

قالوا: ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان.

فقال: فينبغي أن يكون نبيًّا.

فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء).

---

(١) ما تلددكم: ما تلفتكم يمنةً ويسرة وتحيركم؟

(٢) أخلوه: تركوه خاليًا وحيدًا.

فلا يفعل هذا إلا نبيٌّ، وصدق رسول اللَّه ﷺ:

« **لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمر** »[١].

فهو إذن كما قالوا: يعمل عمل الأنبياء.

الحمد للَّه الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه:

(فاستيقظ عمر بالجلبة، فاستوى جالسًا ثم نظر إلى الهرمزان.

فقال: الهرمزان؟

قالوا: نعم.

فتأمَّله وتأمَّل ما عليه وقال: أعوذ باللَّه من النار، وأستعين اللَّه.

وقال: الحمد للَّه الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه.

يا معشر المسلمين، تمسكوا بهذا الدين، واهتدوا بهُدَى نبيكم، ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة).

فالإسلام إذن هو الذي غيَّر واقع الأمة، وها هو اليوم يغير واقع البشرية، وندع للشاعر العظيم حافظ إبراهيم ثانية تقديم هذه الحادثة، بل هذه الظاهرة:

وَراع صَاحِبَ كِسرى أن رأَى عُمَرا ... بَيْـنَ الرعِيّة عُطلًا وَهو رَاعِيها
وعهدُه بملوكِ الفُرس أنَّ لَهـم ... سَورًا من الجنْدِ والأحْرَاس يحميها
رَآه مستغرقًا في نَومِه فرأَى ... فيه الجلَالَةَ في أَسْمَى مَعَانيها
فوقَ الثرى تَحتَ ظِلِّ الدَّوْحِ مشتمِلًا ... ببردَةٍ كَاد طُول العهْدِ يُبْلِيها

الهرمزان مسلمًا:

(.. فقال الوفد: هذا ملك الأهواز فكلِّمْهُ.

قال: لا حتى لا يبقى عليه من حليته شيء.

فرمي عنه بكل شيءٍ عليه إلا شيئًا يستره، وألبسوه ثوبًا صفيقًا.

فقال عمر: هيه يا هرمزان، كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر اللَّه؟

فقال: يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية كان اللَّه قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٣٦٨٦).

إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا.

فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا.

ثم قال عمر: ما عذرك وما حجتك في انتقاضك مرة بعد مرة؟

قال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك.

قال: لا تخف ذلك.

واستسقى ماءً، فأتي به في قدح غليظ.

فقال: لو مت عطشًا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا.

فأُتي به في إناء يرضاه، فجعلت يده ترجُف.

وقال: إني أخاف أن أُقتل وأنا أشرب الماء.

فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه.

فأكفأه، فقال عمر: أعيدوا عليه، ولا تجمعوا عليه القتل والعطش.

فقال: لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأمن به.

فقال له عمر: إني قاتلك.

فقال: قد آمَنتني.

فقال: كذبت.

فقال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، قد آمنته.

قال: ويحك يا أنس، أنا أؤمِّن قاتل مجزأة والبراء، والله لتأتيني بمخرج أو لأعاقبنك.

قال: قلتَ له: لا بأس عليك حتى تخبرني. وقلتَ له: لا بأس عليك حتى تشربه.

وقال له من حوله مثل ذلك. فأقبل على الهرمزان.

وقال: خدعتني، والله لا أنخدع إلا لمسلم.

فأسلم.

ففرض له على ألفين، وأنزله المدينة) [1].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٢).

وبدأت المباحثات بين الإسلام والجاهلية، وبين العرب والفرس.

(فقال الوفد: هذا ملك الأهواز فكلمه. فقال:

لا حتى لا يبقى عليه من حليه شيء.

فرمي عنه بكل شيءٍ عليه إلا شيئًا يستره، وألبسوه ثوبًا صَفيقًا).

وهذه هي الجاهلية تطرح كل شيءٍ عليها من زينة الدنيا وزخرفها.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [يونس: ٢٤]

وها هو الهرمزان وقد أتاه أمر اللَّه وخلع كل زينة الحياة الدنيا، وأيقن أنه هالك. ولا يريد عمر رضي الله عنه أن يقتله قبل أن يسجل للتاريخ إدانته.

(فقال عمر: هيه يا هرمزان، كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر اللَّه؟).

لقد أعطاه الإسلام الفرصة مرتين ليعيش آمنًا في ظلِّ العدل الإسلامي، لكنه نكث وغدر، وخاصم وفجر، وظن أنه قادر على أن يمحو الإسلام من الوجود.

وهذه هي اعترافات جاهلية الأرض، وحضارة الفرس والكفر بعدل الإسلام بأنه هدى اللَّه الوحيد على الأرض. (يا عمر، إنا وإياكم في الجاهلية كان اللَّه قد خلى بيننا وبينكم، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا).

إنه اعتراف بأن اللَّه مع المؤمنين المهتدين في الأرض، ولن يغالب اللَّه أحد فينتصر، كما في الرواية الأخرى: (فلما هداكم اللَّه فكان معكم لم نستطع نقاتله) [(١)].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠].

إنها اللحظات الأخيرة للجاهلية التي تشرف على الموت وتحتضر، فتعترف أنها على الباطل وأن الإسلام هو الحق من عند اللَّه.

إنه لم يؤمن ولم يسلم ولم يشهد شهادة الحق، ولكنه اعترف بأن ما جاء به محمد هو من عند اللَّه.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٨/ ٣٠٤).

ولا يريد عمر ﷺ للهرمزان أن يحيا ولو للحظة لأنه قد قتل أعز رجاله عليه؛ البراء ابن مالك ومجزأة بن ثور، ويريد أن يثأر منه؛ لغدره وفجوره مع المسلمين، ولقتله أعظم قادتهم. ويؤكد هذا المعنى في الرواية الثانية:

(ما تقول يا أنس؟

قلت: يا أمير المؤمنين، تركت خلفي شوكة شديدة وعددًا كثيرًا، إن قتلتُه أيس القوم من الحياة، وكان أشد لشوكتهم، وإن استحييته طمع القوم.

فقال: يا أنس، أستحيي قاتل البراء بن مالك ومجزأة بن ثور؟).

لسنا أمام شخص عادي، بل أمام عبقري خطط لإنقاذ نفسه من الموت بالخديعة، واستطاع أن يخدع حتى أمير المؤمنين.

فقصة العطش والماء كلها كانت مصطنعة، وادعاء الخوف والارتجاف داخل في هذا الإطار. لقد حرَّك مشاعر الإسلام التي تتمثل بقول رسول اللَّه ﷺ:

« **إن اللَّه كتب الإحسان في كل شيء** » [(١)].

وتكاد تكون القصة نفسها قد وقعت أيام رسول اللَّه ﷺ يوم أسر بني قريظة.

(.. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **أحسنوا إسارهم، وقيِّلوهم، واسقوهم حتى يُبرَدوا.. لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح** ».

وكان يومًا صائفًا، فقيَّلُوهم وسقوهم) [(٢)].

(واستسقى ماءً فأتي به في قدح غليظ فقال:

لو مت عطشًا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا.

فأتي به في إناء يرضاه، فجعلت يده ترجف، فقال:

إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء.

فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه.

فأكفأه) [(٣)].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥).

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٥/ ٢٤).

(٣) أكفأه: أهراق الماء على الأرض ولم يشربه.

فقال عمر: أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه الموت والعطش.

فقال: لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأمن به.

فقال عمر: إني قاتلك.

قال: قد آمنتني.

فقال: كذبت.

فقال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، قد آمنته).

إنها جرأة مواجهة أمير المؤمنين، حيث يصدق أنس الهرمزان ضد عمر، إنها أمة حية لا تعرف فوق الحق أحدًا من الخلق. هكذا تربَّوا على يد رسول اللَّه ﷺ، وهكذا رباهم أمير المؤمنين عمر (لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها).

وغضب عمر غضبة العمرية فقال لأنس:

(ويحك يا أنس، أؤمِّنُ قاتل مجزأة والبراء؟ واللَّه لتأتين بمخرج أو لأعاقبنك العقوبة.

قال: قلتَ له: لا بأس عليك حتى تخبرني. وقلت: لا بأس عليك حتى تشربه. وقال له من حوله مثل ذلك).

أمام الناس وأمام الهرمزان الملأ من قوم عمر يقفون مع أنس، ويقفون ضد عمر، إنها الأمة الحية الشابة التي ترفض أن تنصاع لأمير المؤمنين إذا كان مبطلًا، فهي قوامة حتى على أمير المؤمنين؛ لأنها حزب اللَّه، وليست حزب عمر.

وحين رأى عمر رضي الله عنه أنه أعطاه أمانًا دون أن يشعر وشعر أنه خدعه قال: (خدعتني، واللَّه لا أنخدع إلا لمسلم. فأسلم، ففرض له على ألفين وأنزله المدينة).

هذا الذي أمضى حياته وأفنى شبابه وكهولته في حرب هذا الدين ها هو يُكَرَّمُ بهذا الدين وَيُفْرَضُ له عطاء الملوك والقادة، وينزل بجوار أمير المؤمنين.

ثغرة تزول بسند أصح:

وهناك ثغرة خفية في الرواية يمكن أن يثيرها المغرضون، هي أن الهرمزان أسلم خوفًا من الموت، ولم يسلم رغبة في هذا الدين، ولم يستفد من الأمان الذي أخذه.

وهنا نغادر الطبري ورواته الموثوقين إلى رواة أوثق منهم وأصح لا تحمل روايتهم

هذه الثغرة: (أخرج ابن أبي شيبة (١٣/ ح ١٥٦٦١) حدثنا مروان بن معاوية عن حميد عن أنس قال: حاصرنا تُستر، فنزل الهرمزان على حكم عمر، فبعث به أبو موسى معي، فلما قدمنا على عمر سكت الهرمزان ولم يتكلم، فقال له عمر: تكلَّم.

فقال: أكلام حي أم كلام ميت؟

قال: تكلَّم فلا بأس.

قال: كنا وإياكم معشر العرب ما خلَّى اللَّه بيننا وبينكم، فإنا كنا نقتلكم ونقصيكم، ولما أن كان اللَّه معكم لم يكن لنا بكم يدان.

فقال عمر: ما تقول يا أنس؟

قلت: يا أمير المؤمنين، تركت خلفي شوكة شديدة وعددًا كثيرًا، إن قتلته أيس القوم من الحياة وكان أشد لشوكتهم، وإن استحييته طمع القوم.

قال: يا أنس، أستحيي قاتل البراء بن مالك ومجزأة بن ثور؟!

فلما خشيت أن يبسط عليه قلت: ليس إلى قتله سبيل.

فقال عمر: لم؟ أعطاك؟ أصبت منه؟

قلت: ما فعلت، ولكنك قلت له: تكلم فلا بأس.

قال: لتجيئن بمن يشهد أو لأبدأن بعقوبتك.

قال: فخرجت من عنده فإذا أنا بالزبير قد حفظ ما حفظت فشهد عنده، فتركه، وأسلم الهرمزان، وفرض له. إسناده صحيح) [1].

عجزوا عن صلاة الصبح:

(وأخرج البخاري مُعلَّقًا قال: حضرت عند مناهضة حصن تُستر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبي موسى، وفتح لنا، وقال لنا أنس: ما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما عليها) [2].

---

(١) صحيح تاريخ الطبري، الخلافة الراشدة. تحقيق البرزنجي وحلاق، المجلد الثالث (٢٥٤). وهو في مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق العلامة فضيلة الشيخ محمد عوامة مجلد (١٨/ ح ٣٤٥٠٦).

(٢) الفتح (٢/ ٥٠٣).

ولقد سبق أن بينا من أوصل هذه الرواية بسند صحيح) [١].

تُستر تفتح مرتين:

(وأخرج ابن أبي شيبة (١٣ ح ١٥٦٧٤) حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة حدثنا المغيرة عن سماك بن سلمة أن المسلمين لما فتحوا تستر وضعوا بها وضائع للمسلمين، وتقدموا لقتال عدوهم، قال: فَغَدَرَ بهم دهقان تُستَر، فأحمى لهم تنورًا، ووضع عليهم لحم الخنزير والحمير أو (التنور)، قال: فمنهم من أكل فتُرك.. قال: فعُرِض على نهيب بن حارث الضبي فأبى فوضع في التنور. قال: ثم إن المسلمين رجعوا فحاصروا أهل المدينة حتى صالحوا الدهقان، فقال ابن أخ لنهيب لعمه: يا عماه، هذا قاتل نهيب. فقال: يا ابن أخي إن له ذمة.

قال سماك: بلغني أن عمر بلغه ذلك فقال: يرحمه اللّٰه وما عليه لو كان أكل.

قلنا: وإسناد البلاذري مرسل، وكذلك إسناد ابن أبي شيبة، وقد ذكرناها في قسم الصحيح؛ لأنها مراسيل متعددة المخارج، وتفيد كلتاهما أن تستر فتحت ثم غدر أهلها) [٢]. الوفاء هو السمة الأصيلة للأمة المسلمة أفرادًا وجماعات وقيادات، والغدر هو السمة الأصلية لأعداء الأمة المسلمة أفرادًا وجماعات وقيادات.

ومن أجل هذا انتقل قِيَادُ التاريخ إلى الأمة المسلمة لتقود البشرية بمنهج جديد وَدِيْنٍ رشيد.

* * *
* *
*

(١) صحيح تاريخ الطبري، الخلافة الراشدة (٣/ ٢٥٧).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٥٨).



الفصل التاسع عشر

صياغة البشرية والانسياح في الأرض

الأحنف يغير مسار التاريخ:

كان عمر أمير المؤمنين ﷺ يمثل قمة العدل في الأرض، وقال له رسول كسرى: عَدَلْتَ فأمِنت فَنِمْتَ. ومضت مثلًا في التاريخ. لكن هل كان الإسلام عمر فقط؟ وهل كان تحرِّي العدل عند ولاته مثل تحريه عنده؟ صحيح أنه لم يأته شكاة على والٍ من ولاته، وهو يتابعهم في السر والعلن، وله استخباراته الخاصة التي تتابعهم من خلال آراء الرعية فيهم. وفي آخر لقاء له مع الأحنف بن قيس الشاب العبقري اليقظ اختاره من بين الوفد جميعًا ليسأله عن هذا الأمر، ونفى أن يكون هناك ظلم يقع على أحد، لكن الأخبار التي ترد إليه عن انتقاض الشعوب على الإسلام مرة بعد مرة شكلت عنده عقدة لا تحل، فلا يمكن لمن عرف الإسلام وَحُكْمَ الإسلام أن يُفَضِّلَ غيره عليه.

فما هو جواب هذه المعضلة؟

واستغل الفرصة ثانية، فالشاب العبقري اليقظ عنده، وهو مع الوفد الذين جاؤوا بالهرمزان، فَلْيَخْلُ به ثانية، وليسأله عَلَّهُ يجد عنده جوابًا لمعضلته.

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة و .... قالوا: قال عمر للوفد: لعل المسلمين يُفْضُونَ إلى أهل الذمة بأذًى وبأمور لها ما ينتقضون بكم! فقالوا: ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة. قال: فكيف هذا؟ فلم يجد عند أحدهم شيئًا يشفيه، ويبصر به مما يقولون إلا ما كان من الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا.

وإن ملك فارس حيٌّ بين أظهرهم، وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان، فاتفقا حتى يُخْرِجَ أحدهما صاحبه، وقد رأيتُ أنا لم نأخذ شيئًا بعد شيء إلا بانبعاثهم، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا، فَلْنَسِحْ في بلادهم حتى نزيلَه عن فارس، ونخرجه من مملكته وعز أمته، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويضربون جأشًا [1]. فقال: صدقتني والله، وشرحت لي الأمر

---

(١) أي يسكنون.

عن حقِّه. ونظر في حوائجهم وسرَّحهم، وقدم الكتاب على عمر باجتماع أهل نهاوند وانتهاء أهل مِهْرجان قَذَق، وأهل كُوَر الأهواز إلى رأي الهرمزان ومشيئته، فذلك كان سبب إذن عمر لهم في الانسياح)[١].

ذكر فتح السوس

(اختلف أهل السير في أمرها، فأما المدائني فإنه فيما حدثني عنه أبو زيد قال: لما انتهى فلّ جلولاء إلى يزدجرد وهو بحُلوان دعا بخاصته والـمَوبَذ [٢] فقال: إن القوم لا يَلْقَوْنَ جَمْعًا إلَّا فَلُّوه، فما ترون؟ فقال الموبذ: نرى أن تخرج فتنزل إصطخر، فإنها بيت المملكة، وتضم إليك خزائنك، وتوجه الجنود. فأخذ برأيه وسار إلى أصبهان. دعا (سياه) فوجَّهه في ثلاثمائة، فيهم سبعون رجلًا من عظمائهم، وأمره أن ينتخب من كل بلدة يمر بها مَنْ أحب، فمضى (سِياه) وأتبعه (يزدجرد) حتى نزلوا إصطخر، وأبو موسى محاصر السوس، فوجَّه (سياه) إلى السوس، و (الهرمزان) إلى تُستر، فنزل (سياه) الكلبانية، وبلغ أهل السوس أمرُ جلولاء ونزولُ (يزدجرد) إصطخر منهزمًا، فسألوا أبا موسى الأشعري الصلح، فصالحهم وسار إلى رامَهُرْمُز، وسياه بالكلبانية، وقد عظم أمر المسلمين عنده، فلم يزل مقيمًا حتى صار أبو موسى إلى تُستر، فتحول (سياه)، فنزل بين رامهرمز وتُسْتَر حتى قدم عمار بن ياسر.

فدعا (سياه) الرؤساء الذين كانوا خرجوا معه من إصبهان فقال: قد علمتم أنا كنا نتحدث أن هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس سيغلبون على هذه المملكة، وتَرُوث دوابهم في إيوانات إصطخر ومصانع الملوك، ويشدون خيولهم بشجرها، وقد غلبوا على ما رأيتم، وليس يلقون جندًا إلا فَلُّوه، ولا ينزلون بحصن إلا فتحوه، فانظروا لأنفسكم.

قالوا: رأينا رأيك.

قال: فليكفني كل رجل منكم حَشَمَهُ والمنقطعين إليه، فإني أرى أن ندخل في دينهم.

ووجهوا (شيرويه) في عشرة من الأساورة إلى أبي موسى يأخذ شروطًا على أن يدخلوا في الإسلام.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٣).

(٢) الموبذ – أو الموبذان: فقيه الفرس وحاكم المجوس والجمع موابذة. انظر القاموس المحيط في باب الذال، فصل الواو والباء.

فقدم شيرويه على أبي موسى فقال:

إنا قَدْ رَغبنا في دينكم فَنُسْلِم على أن:

- نقاتل معكم العجم،
- ولا نقاتل معكم العرب،
- وإن قاتَلَنا أحد من العرب منعتمونا منه،
- وننزل حيث شئنا،
- ونكون فيمن شئنا منكم،
- وتُلحقونا بأشراف العطاء،
- ويعقد لنا الأمير الذي فوقك بذلك.

فقال أبو موسى: بل لكم ما لنا، وعليكم ما علينا.

قالوا: لا نرضى.

وكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب، فكتب إلى أبي موسى:

أعطهم ما سألوك.

فكتب أبو موسى لهم، فأسلموا،

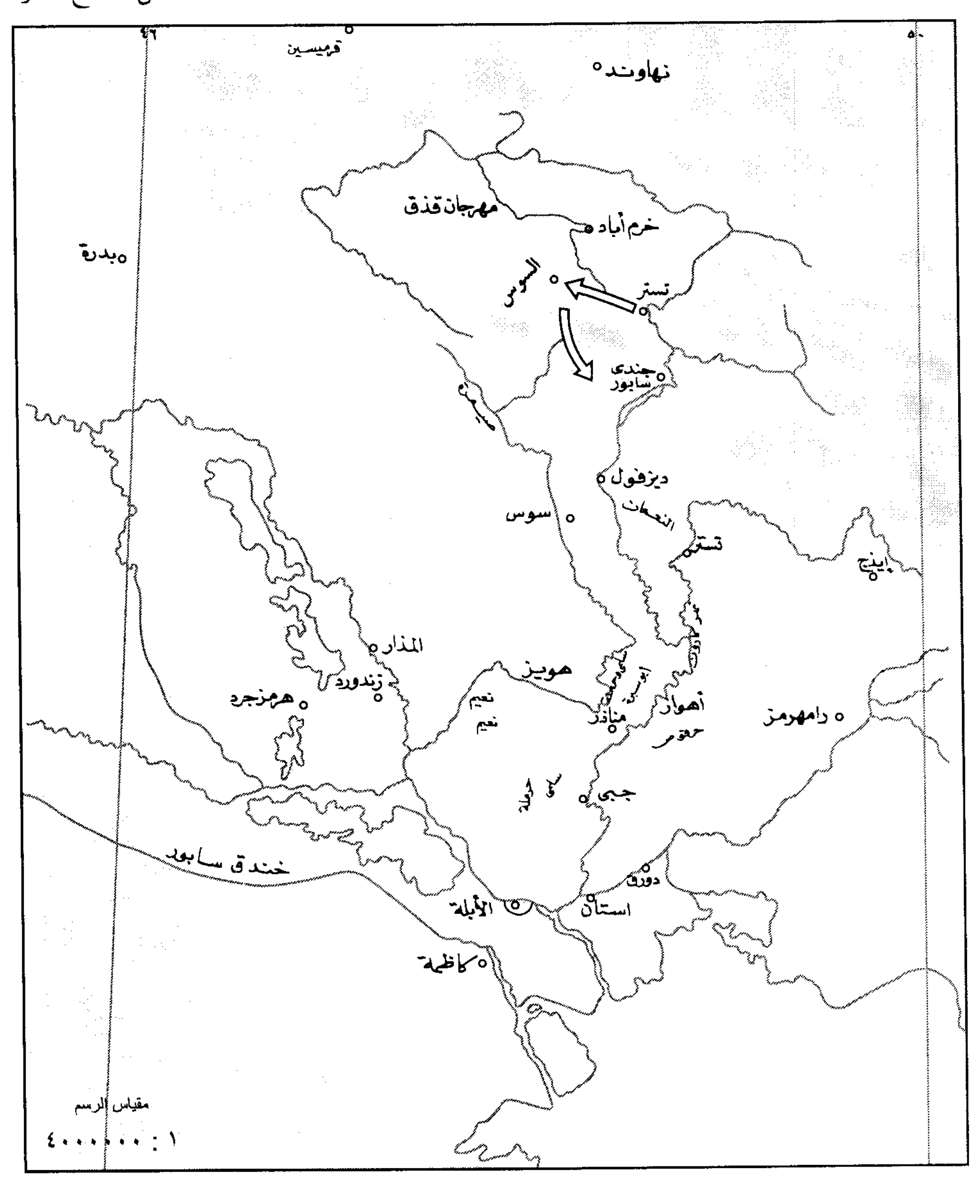
وشهدوا معه حصار تُستر، فلم يكن أبو موسى يرى منهم جِدًّا ولا نكاية، فقال لسياه: يا أعور ما أنت وأصحابك كما كنا نرى؟

قال: لسنا مثلكم في الدين، ولا بصائرنا كبصائركم، وليس لنا فيكم حُرَمٌ نحامي عنها، ولم تُلحقنا بأشراف العطاء، ولنا سلاح وكراع وأنتم حسّر.

فكتب أبو موسى إلى عمر في ذلك، فكتب إليه عمر أن ألحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء، وأكثر شيء أخذه أحد من العرب، ففرض لمائةٍ منهم في ألفين، ولستة منهم ألفين وخمسمائة؛ لسياه، وخُسْرَوْ، وشَهْرِيار، وشَهْرَوَيْه، وأفروذين، فقال الشاعر:

ولما رأَى الفَاروقُ حُسنَ بلَائهم ... وكَان بما يأْتِي منَ الأَمْر أَبصَرا

فَسنَّ لهم ألفين فَرضًا وقدْ رأى ... ثلاثَمِئين فَرْضَ عَكٍّ وحِمْيَرَا



فتح السوس وجندي سابور

قال: فحاصروا حصنًا بفارس، فانسل سياه في آخر الليل في زيِّ العجم حتى رمى بنفسه إلى جنب الحصن، ونضح ثيابه بالدم، وأصبح أهل الحصن فرأوا رجلًا في زيهم صريعًا، فظنوا أنه رجل منهم أصيبوا به، ففتحوا باب الحصن ليدخلوه، فثار وقاتلهم حتى خلوا عن باب الحصن وهربوا، ففتح الحصن وحده ..) [1]. لم يكن التطور

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٤).

الذي تمَّ داخل قيادات فارس أمرًا سهلًا أبدًا، فالهرمزان يستسلم ثم يسلم، والقيادات الكبرى التي وضع كسرى ثقته بها تنهار تحت صبر المسلمين وانتصاراتهم المعجزة. لقد خطط كسرى ثانية لإنهاء العرب المسلمين من الوجود باستنفار عظماء فارس كلهم، وخطط عمر ﷺ بعد الاستماع لرأي الأحنف إلى إنهاء كسرى كحل جذري لهذه الحروب الطاحنة.

فما الذي تحقق في هذين التخطيطين؟

(.. فوجَّه سِياه إلى السوس، والهرمزان إلى تستر) وبعد حرب ضروس استمرت قرابة سنة ونيف سقطت تُستر، وفتحت أبوابها للمسلمين، وانتهت بهزيمة الهرمزان قائد جبهتها واستئساره للمسلمين، وقبوله النزول على حكم عمر أمير المؤمنين.

فماذا عن جبهة سياه؟

إنها ظاهرة عجيبة وفريدة ونقطة تحول تاريخية كبرى أن يتجه تفكير عظماء فارس إلى الدخول في الإسلام، فقد كان اعتزاز الفرس بسيطرتهم واحتقارهم للعرب يفوق كل وصف، وكانوا يرون في أنفسهم القوة العظمى في الأرض، القوة التي لا تنهزم ولا تُغْلَب، وقد حقَّقت نصرًا ساحقًا على الروم في أدنى الأرض، وحاصرت عاصمتهم القسطنطينية.

وعندما كان قيصر على غاية من الحكمة حين تلقى كتاب رسول اللَّه ﷺ واحتفظ به ووضعه في حقٍّ من عاج كان كسرى في غاية الحمق حين مزَّق كتاب رسول اللَّه ﷺ وقال لباذان عامله في اليمن: أن ابعث إلى هذا الرجل الذي في الحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به. فكان الانتقال بعد عشر سنين من هذه الحال إلى حال أن يتدارس عظماء فارس الموقف من الإسلام نقلة هائلة بعيدة المدى في تاريخ البشرية.

(دعا سياه الرؤساء الذين كانوا خرجوا معه من أصبهان) وكانوا ثلاثمائة فيهم سبعون من عظماء أهل فارس (فقال: قد علمتم أنا كنا نتحدث أن هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس سيغلبون على هذه المملكة، وتُروِّث دوابهم في إيوانات إصطخر ومصانع الملوك، ويشدّون خيولهم بشجرها، وقد غلبوا على ما رأيتم، وليس يلقون جندًا إلا فلُّوه، ولا ينزلون بحصن إلا فتحوه، فانظروا لأنفسكم..).

من أين علم أباطرة الفرس أن العرب سيحتلون الإمبراطورية بهذه الصيغة المذكورة وهي على وشك التحقيق كاملة، وإصطخر هدفهم القادم، وقد غزاها المسلمون من جهة البصرة؟!!

لا شك أن عندهم بقايا من شبهة كتاب اندثر أو تحرف، لكن المتبقي في ذهنهم هو انتصار هذه الأمة البائسة الشقية، وإلا فلا يمكن لعقل أن يتصور مثل هذه الصورة قبل بضع سنين حينما كان أبو بكر ﷺ يراهن أُبيَّ بن خلف على نصر الروم. لقد كانوا يعيشون على هامش التاريخ، وإذا بهم اليوم يصنعون التاريخ بكتاب اللّه وسنة رسول اللّه، والنصر حليف لَهم رغم قلة عددهم وكثرة عدوهم (وليس يلقون جندًا إلا فلُّوه ..).

لقد كان هناك عاملان رئيسيان دفعهما إلى التفكير في الدخول في هذا الدين، وليس العاقل الذي لا يراجع حساباته ويهلك جنده وأمته، إنما العاقل البصير الذي يعيد النظر في فهم الواقع على ضوء الماضي؛ ليستشرف المستقبل.

- **فالعامل الأول:** هو ما ذكرته الكتب منذ مئات السنين أو آلاف السنين، أن أمة العرب هذه ستنتصر، وتُروِّث دوابها في إيوانات إصطخر، ويشدون خيولهم بشجرها.

والعامل الثاني: هو أن هذا أوان نصرها من خلال تجاربهم مع هذه الأمة. وكما قال رستم: (كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوناكم).

وما كان يظهر من نصر في تأسيس دولهم هو نصر كاذب، فأمراء هذه الدول عبيد لهم، وحين يخرج العبد لحظة على إدارة مولاه فسوف يبيده، وهذا ما ظهر مع ذروة عز العرب عند المناذرة مع النعمان الذي انتهى أسيرًا مسمومًا في بلاط كسرى.

أما الصورة الآن فتختلف، فالهرمزان البطل الأول في فارس يستأسر وينزل على حكم عمر بعد حصار عام ونيف.

(وقد غلبوا على ما رأيتم، وليس يلقون جندًا إلا فلُّوه، ولا ينزلون بحصن إلا فتحوه) فهل يُعاكَس القدر؟ وهل يُغالَبُ اللّه كما قال الهرمزان بالضبط: (إنا وإياكم في الجاهلية كان اللّه قد خلَّى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا)؟

أو كما قال: (كنا معشر العجم ما خلَّى اللّه بيننا وبينكم نقصيكم ونقتلكم، فلما كان اللّه معكم لم تك لنا بكم يدان).

وأدرك سياه أن الرأي الذي سيطرحه خطير للغاية، ولا يمكن أن يفسده إلا الأتباع والمتعصبون، وها هو يفعل كما فعل قيصر حين جمع عظماء الروم ودعاهم إلى الإسلام، فهو النبي الذي بشَّر به عيسى عليه الصلاة والسلام، وَكُتُبُهُم تطفح بذلك، لكن عظماء الفرس هنا كانوا أعقل من عظماء الروم؛ لأن عظماء الفرس قد بلوا هذه الأمة الجديدة التي انبثقت من القرآن، بينما لم يكن عظماء الروم قد ذاقوا من الهزائم ما ذاق عظماء الفرس، وعبقرية عظماء الفرس كانت بحيث ربطوا الدخول في الإسلام بعزتهم وكرامتهم، فهم حريصون على بقاء زعامتهم، وما الشروط التى وضعوها إلا للحفاظ على مواقعهم وقياداتهم وعروشهم، وهو خير لهم بكثير من معركة مستمرة لا تنتهي إلا بنصر المسلمين. لقد أدركوا أن الهدنة خير من الحرب، **وبعثوا وفدهم بهذه الشروط السبعة:**

١ - نقاتل معكم العجم: وهو دليل صدقهم في دعواهم، ولو اشترطوا غير ذلك لكانوا موضع ريبة.

٢ - ولا نقاتل معكم العرب: وهم يعلمون أن العرب اليوم أمة واحدة تحت راية الإسلام، فإذا انقسم العرب فمن المنتصر؟ ومع من يكونون؟ فهم يريدون الأمن الدائم المستقر.

٣ - وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه: لأنهم لم تعد لهم القاعدة التي يحركونها للحرب، فهم أحوج للحماية منهم للمجابهة.

٤ - وننزل حيث شئنا. فهم يعرفون النعمة التي يعيشون بها في فارس، ولا يريدون أن يخسروا شيئًا من امتيازاتهم، وهم أعلم بالأرض الخصبة الرغيدة من الصحراء القاحلة.

٥ - ونكون فيمن شئنا منكم، وهم أعلم بالأرض العربية ومن عليها، ومن يختارون لجوارهم وحلفهم.

٦ - وتلحقونا بأشراف العطاء: فهم قادة في الجاهلية، وقادة في الإسلام.

٧ - ويعلمون أن صاحب القرار الحقيقي في النهاية هو الخليفة وليس أمير الحرب

أو أمير المصر، ولا جدوى من أي عقد مع أمير يمكن للخليفة أن ينقضه في لحظة واحدة.

وعندما واجههم أبو موسى برفض الشروط واجهوه برفض المصالحة، وعندما أخبر الخليفة بشروطهم لم يعترض على أي واحد منها وقال لأبي موسى: (أن ألحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء، وأكثر شيءٍ أخذه أحد من العرب).. إننا ندعو شباب الإسلام ورجالات العرب والإسلام اليوم أن يفقهوا فن السياسة لدى أمير المؤمنين ﷺ.

فعندما كان عُمر جُنْدِيًّا تحت قيادة نبيه ﷺ لم يُطِق أي شرط في تفاوضات الحديبية، وثار على بعضها، وفقد صوابه حين سيطرت مشاعره عليه: « ألسنا على الحق؟ أليسوا على الباطل؟ ففيم نعطى الدنية في ديننا؟ » وتجرأ فكلَّم رسول اللَّه ﷺ بذلك، فقال له: « **أنا عبد اللَّه ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني** » أما الآن وكل الأمة في عنقه، وليس بين الأمة وبين اللَّه إلا هو، وهو يحرص ما استطاع على حقن أية قطرة دم، ويعلم أن هؤلاء العظماء ما لم تُضمن لهم مواقعهم ومراكزهم وامتيازاتهم فهم على استعداد أن يضحوا بكل أهل فارس ولا يستسلموا. وهذا لا يضيره في شيء، أليس في القرآن سهم (المؤلفة قلوبهم)؟ ألم يعطِ رسول اللَّه ﷺ عظماء العرب وزعماءهم من غنائم حنين وحافظ لهم على شرفهم في قبائلهم؟ فَلِمَ لا يعطون ذلك، وهذا لن يضير الإسلام في شيء. ولن يمس العقيدة بشيءٍ؟ لقد أدرك عمر ﷺ هذه الأبعاد، ولم يدرك أبو موسى ﷺ ما أدركه عمر: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٩] وها هو يفرض للهرمزان ألفين من العطاء، ويدنيه ويجعله من مستشاريه، بل بلغ به الأمر ﷺ أن حدد لكل زعيم حظه (ففرض لمائة منهم ألفين، ولستة منهم ألفًا وخمسمائة: سياه وخسرو وشهريار وشهرويه وأفروذين، وصيغ الأمر شعرًا ليبقى للأمة أبد الدهر:

ولما رأَى الفاروقُ حُسْنَ بلاَئهم	وكَان بما يأْتي من الأَمْر أَبصَرا
فَسنَّ لهُم ألفَين وقد رأَى	ثَلاثَمِئين فَرْضَ عَكٍّ وحِمْيَرَا

وعندما نفذوا شروطهم استطاع واحد منهم أن يفتح حصنًا كاملًا (فحاصروا حصنًا بفارس، فانسل سياه في آخر الليل في زي العجم حتى رمى بنفسه إلى جنب الحصن، ونضح ثيابه بالدم، وأصبح أهل الحصن فرأوا رجلًا في زيهم صريعًا، فظنوا أنه رجل منهم أصيبوا به، ففتحوا باب الحصن ليُدخلوه، فثار وقاتلهم حتى خلوا عن باب الحصن وهربوا، ففتح الحصن وحده ودخله المسلمون).

أهل تستر ينقضون العهد:

أخرج البلاذري قال: (حدثني إسحاق بن أبي إسرائيل قال: حدثنا ابن المبارك عن ابن جريج عن عطاء الخراساني قال: كفيتك أن تستر كانت صلحًا، فكفرت، فسار إليها المهاجرون، فقتلوا المقاتلة وسبوا الذراري، فلم يزالوا في أيدي سادتهم حتى كتب عمر: خلوا ما في أيديكم ..).

وأخرج ابن أبي شيبة (١٣/ ح ١٥٦٧٤): (حدثنا عفان قال: ثنا أبو عوانة قال: حدثنا المغيرة عن سماك بن سلمة أن المسلمين لما فتحوا تستر وضعوا بها وضائع المسلمين، وتقدموا لقتال عدوهم، قال: فغدر بهم دهقان تستر، فأحمى لهم تنورًا، وعرض لهم لحم الخنزير والحمير أو التنور. قال: فمنهم من أكل فَتُرِك.

قال: فعرض على نهيب بن الحارث الضبي، فأبى، فوضع في التنور.

قال: ثم إن المسلمين رجعوا فحاصروا أهل المدينة حتى صالحوا الدهقان، فقال ابن أخ لنهيب لعمه: يا عماه، هذا قاتل نهيب.

قال: يا ابن أخي إن له ذمة.

قال سماك: بلغني أن عمر بلغه ذلك فقال: يرحمه الله، وما عليه لو كان أكل.

قلنا: وإسناد البلاذري (مرسل) وكذلك إسناد ابن أبي شيبة، وقد ذكرناها في قسم الصحيح؛ لأنها مراسيل متعددة المخارج. وتفيد كلتاهما أن تستر فتحت، ثم غدر أهلها، ثم فتحت، والله أعلم) [١].

دانيال عليه السلام:

(عن أنس قال: أنهم لما فتحوا تستر قال: وجدنا رجلًا أنفه ذراع في التابوت كانوا يستظهرون أو يستمطرون به، فكتب أبو موسى إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب عمر: إن هذا نبي من الأنبياء، والنار لا تأكل الأنبياء، والأرض لا تأكل الأنبياء. فكتب أن انظر أنت ورجل من أصحابك - يعني أصحاب أبي موسى - فادفنوه في مكان لا يعلمه أحد غيركما قال: فذهبت أنا وأبو موسى فدفناه) [٢].

---

(١) في الطبعة المحققة للشيخ عوامة مجلد (١٨/ ح ٣٤٥١٩).

(٢) صحيح تاريخ الطبري (م ٣)، (ص ٢٥٨). وانظر: مصنف ابن أبي شيبة (م ١٨ح ٣٤٥١٠ و ٤٥١١). =

(وعن مطرف بن مالك أنه قال: شهدت فتح تستر مع الأشعري، فأصبنا دانيال بالسوس، قال: فكان أهل السوس إذا أسنتوا [١] أخرجوه فاستسقوا به ...).

(قال همام (أحد الرواة) فزعم فرقد السبخي قال: حدثني أبو تميمة: أن عمر كتب إلى الأشعري أن يغسلوا دانيال ﷺ بالسدر وماء الريحان، وأن يُصلَّى عليه، فإنه نبي دعا ربَّه أن لا يليه إلا المسلمون) [٢].

رواية أخرى عن فتح السوس:

(حدثنا مروان بن معاوية، عن حميد، عن حبيب أبي يحيى:

أن خالد بن يزيد - وكانت عينه أصيبت بالسوس - قال:

حاصرنا مدينتها، فلقينا جهدًا، وأمير الجيش أبو موسى، وأخذ الدهقان عهده وعهد من معه، فقال أبو موسى: اعزلهم. فجعل يعزلهم، وجعل أبو موسى يقول لأصحابه: إني لأرجو أن يخدعه اللَّه عن نفسه. فعزلهم، وبقي عدو اللَّه، فأمر به أبو موسى فنادى، وبذل له مالًا كثيرًا فأبى وضرب عنقه) [٣].

وفي رواية البلاذري بالسند نفسه:

(.. حاصرنا مدينتها وأميرنا أبو موسى، فلقينا جهدًا، ثم صالحه دهقانها على أن يفتح له المدينة ويؤمن له مائة من أهله، ففعل، وأخذ عهد أبي موسى فقال له: اعزلهم. فجعل يعزلهم وأبو موسى يقول لأصحابه: إني لأرجو أن يغلبه اللَّه على نفسه. فعزل المائة وبقي عدو اللَّه، فأمر به أبو موسى أن يُقتل فنادى: رويدك أعطيك مالًا كثيرًا. فأبى وضرب عنقه) [٤].

ورواية البلاذري توضِّح أن الدهقان صالح على الأمان لمائة من أهله، وكان أبو موسى ﷺ على أن يكون فتح المدينة لأمان أهلها كلهم، لكنه استأثر بالأمر لأهله وخاصته، وأعمى اللَّه قلبه عن نفسه، وهو الذي يوقد نار الحرب ويؤجج أوراها، ودعا أبو موسى ربَّه أن يُنْسِي الدهقان الأمان لنفسه، وتمَّ الأمر، واستجاب اللَّه تعالى دعاء

=وهذا وقد كلّف الأخوان المحققان جزاهما اللَّه خيرًا ما لا يطاق. وراحا يطبقان منهج نقد الحديث على منهج نقد التاريخ وهذا ما لم يفعله سلف الأمة الذين نقلوا لنا هذا التاريخ.

(١) أسنتوا: أصابهم القحط والجدب.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (م ١٨)، (ح ٣٤٥١٠، ٤٥١١).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (م ١٨/ ٣٠٧).

(٤) فتوح البلدان للبلاذري (٣٧٢).

الأشعري، ففتحت المدينة صلحًا، وقُتِلَ الدهقان الذي لم يأخذ لنفسه الأمان تمامًا مثل ما فعل الأشعث بن قيس ﷺ يوم سلم قلعته على الأمان لأهله وذويه، ونسي نفسه، فأُخذ أسيرًا للصديق في المدينة.

أمان آخر لأُمة مِنْ عَبْدٍ:

وكان هذا في مصالحة جندي سابور.

قال الطبري: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وأبي عمرو وأبي سفيان والمهلب قالوا: لما فرغ أبو سبرة من السوس خرج في جنده، حتى نزل على (جندَيْ سابور)، وزر بن عبد اللَّه بن كليب محاصرهم، فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال، فما زالوا مقيمين عليها حتى رُمِي إليهم بالأمان عن عسكر المسلمين، وكان فتحها وفتح نهاوند في مقدار شهرين، فلم يفجأ المسلمون إلا وأبوابها تفتح، ثم خرج السَّرْح وخرجت الأسواق وانبث أهلها، فأرسل المسلمون أن ما لكم؟

قالوا: رميتم إلينا بالأمان فقبلناه، وأقررنا لكم بالجِزاء على أن تمنعونا.

فقالوا: ما فعلنا.

فقالوا: ما كذبنا.

فسأل المسلمون فيما بينهم، فإذا عبد يدعى مُكْنِفًا كان أصله منها هو الذي كتب لهم، فقالوا: إنما هو عبد.

فقالوا: إنا لا نعرف حُرَّكم من عبدكم، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه، ولم نُبدِّل، فإن شئتم فاغدروا.

فأمسكوا عنهم، وكتبوا بذلك إلى عمر، فكتب إليهم:

إن اللَّه عظَّم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تَفُوا، ما دمتم في شكٍّ أجيزوهم، وفُوا لهم، فوفَّوا لهم، وانصرفوا عنهم) [1].

* * *

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٥).

إنها عظمة هذا الدين وعظمة هذه الأمة التي تربت على يدي رسول الله ﷺ لتكون مؤهلة لقيادة البشرية - التائهة الضالة - بنور الله وهدي رسوله.

لقد تعلَّم الصحابة قادة الجيش أن المسلمين أمة واحدة يجير عليهم أدناهم كما قال ﷺ: « **المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، يرد مُشدُّهم على مضعفهم، ومتسريهم** [١] **على قاعدهم، لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهدٍ في عهده** » [٢].

وسمعوا بقصة أم هانئ رضي الله عنها عندما أجارت بني أحمائها (فعن أم هانئ رضي الله عنها قالت: (.... فلما انصرف قلت: يا رسول الله زعم ابن أمي عَلِيٌّ أنه قاتل رجلًا قد أجرته، فلان بن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: « **قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ** ») [٣].

لكن الصورة هنا تختلف، فليست أمانًا لفرد، إنما هي أمان لأمة، والعبد الذي ألقى الأمان لم يُعلم الأمير بذلك، وهو مشبوه، فهو من أهل البلدة المحاصرة.

ومع هذا فلم يسارع الأمير في قطع رقاب الناس بناءً على هذه الخلافات الجوهرية، إنما أبقى الأمان، وبعث إلى أمير المؤمنين يستشيره، فجاء جواب عمر رضي الله عنه ليس على حادثة عابرة، إنما على مبدأ خالد أعلنه للبشرية كافة: (إن الله عظم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا، ما دمتم في شك أجيزوهم وفوا لهم).

أما الحادثة الفردية فما كانت بحاجة إلى استشارة أمير المؤمنين:

(فعن أبي فرقد قال: كنا مع أبي موسى يوم فتحنا سوق الأهواز، فسعى رجل من المشركين، وسعى رجلان من المسلمين خلفه، قال: فبينا هو يسعى ويسعيان إذ قال أحدهما له: مَتَرْس [٤]. فقام الرجل، فأخذاه فجاءا به أبا موسى، وأبو موسى يضرب أعناق الأسارى، حتى انتهى الأمر إلى الرجل، فقال أحد الرجلين (المسلمين): إن هذا قد جُعِل له الأمان.

قال أبو موسى: وكيف جعل له الأمان؟

قال: إنه كان يسعى ذاهبًا في الأرض فقلت له: مَتَرْس. فقام.

---

(١) أي الذي يخرج في السرية.

(٢) أبو داود (٢٧٥١)، وابن ماجه، وهو حديث حَسَنٌ صحيح.

(٣) صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي (٤١٤) وهو عند البخاري في الجزية والموادعة (ح ٣١٧١) باب أمان النساء.

(٤) أي لا تخف بالفارسية.

قال أبو موسى: وما مَتَرْس؟

قال: لا تخف.

قال: هذا أمان، خليا سبيله. قال: فَخَلَّيَا سبيل الرجل) [(١)].

أبو موسى الأشعرى يتعرَّض للقصاص:

(حدثنا عفان، قال:حدثنا حماد بن سلمة قال: حدثني عطاء بن السائب، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير: أن رجلًا كان ذا صوت ونكاية في العدو مع أبي موسى، فغنموا مغنمًا، فأعطاه أبو موسى نصيبه ولم يوفِّه، فأبى إلا أن يأخذه جميعًا، فضربه عشرين سوطًا، وحلقه. فجمع شعره، وذهب إلى عمر، فدخل عليه.

فقال جرير: وأنا أقرب الناس منه:

فأخرج شعره من جيبه فضرب به صدر عمر، فقال: أما والله لولاه.

فقال عمر: صدَقَ لولا النار.

فقال: ما لك؟

فقال: كنت رجلًا ذات صوت ونكاية على العدو، فغنمنا مغنمًا. وأخبره بالأمر

وقال: حلق رأسي، وجلدني عشرين سوطًا، يرى أنه لا يقتص منه!!

قال عمر: لأن يكون الناس كلهم على مثل صرامة هذا الرجل أحب إليَّ من جميع ما أفيء علينا.

قال: فكتب عمر إلى أبي موسى: سلام عليكم، أما بعد. فإن فلان بن فلان أخبرني بكذا وكذا، وإني أقسم عليك إن فعلت به ما فعلت في ملأ من الناس. لما جلست في ملأ منهم فاقتصَّ منك، وإن كنت فعلت به ما فعلت في خلاء فاقعد له في خلاء فيقتص منك.

فقال له الناس: اُعفُ عنه.

فقال: لا والله لا أدعه لأحد من الناس.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (م ١٨/ ح ٣٤٥١٥).

فلما دفع إليه الكتاب قعد للقصاص، فرفع رأسه إلى السماء وقال: قد عفوت عنه) [١].

أبو موسى الأشعري ﷺ أمير البصرة، وقائد الفتوح، ومن أكرم أصحاب رسول الله ﷺ، لم تعفه هذه المواقع كلها من إنزال القصاص به.

وإن كان المرء ليعجب من شيءٍ. فهو يعجب من ثقة هذا الجندي المسلم بهذا الدين، وثقته بأمير المؤمنين، حتى ليقطع الأرض كلها من فارس إلى المدينة ليشكو لأمير المؤمنين ما نزل به من ظلم من أميره في البصرة وقائد جيوشه في الجبهة الشرقية.

كم تكلفة الرحلة من جهدٍ ومكابدة وزاد وخوف، وقد تحتمل الرحلة شهرًا أو أقل أو أكثر، لماذا؟ ليرفع المظلمة التي وقعت عليه من نائب أمير المؤمنين. أما كان يكفيه أن يدعوَ الله على من ظلمه وانتهى الأمر؟! أبدًا إنه ماضٍ لهدفه، عازم على رشده، لن ينثني أمام هذه الأهوال كلها ليرفع المظلمة التي نزلت به، عشرون سوطًا وحلق شعر رأسه.

ونعجب ثانية لهذه الجرأة، فهو يقابل أمير المؤمنين دونما وَجَلٍ أو خوف، ويخرج شعره من تحت إبطه قرب خاصرته، ويضرب به صدر عمر ﷺ. وتبدو عظمة أمير المؤمنين حين قال كلمته الخالدة:

(لأن يكون الناس كلهم على مثل صرامة هذا الرجل أحب إليَّ من جميع ما أفيء علينا).

إنه يريد شعبًا حيًّا، وأمة يقظة، وأفرادًا رجالًا أبطالًا، يرفضون الظلم، ويطالبون رأس الدولة الأعلى بتحقيقه، ويحملونه مسؤولية هذا التحقيق. والأعظم من هذا كله أن يكون الحكم بهذا الكتاب البسيط:

(وإني أقسم عليك إن كنت فعلت به ما فعلت في ملأ من الناس لما جلست في ملأ منهم فاقتصَّ منك، وإن كنت فعلت به ما فعلت في خلاء فاقعد له في خلاء فيقتصُّ منك).

وتبدو العظمة كذلك والجرأة عند الجندي المسلم الذي يرفض كل وساطة للعفو عن الأمير، وهو مُصِرّ على عقوبته، وفي ملأ من الناس، وتبدو العظمة كذلك حين يجلس الأمير على ملأ من الناس ليقتص منه الجندي المسلم ويضربه عشرين سوطًا ويحلق شعره، وتبدو ختام العظمات عند هذا الجندي حين يجلس الأمير للقصاص،

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (م ١٨/ ح ٣٤٥١٨).

ويعلم الناس أنه لا يحول أحد دون تنفيذ أمر أمير المؤمنين، فيقول: قد عفوت عنه للَّه. إنه تسجيل لتاريخ جديد للبشرية، حيث يعاقب الحاكم الأعلى، ويقتص منه بيد الجندي العادي، لا يدري المرء من يسطر التاريخ وأي الثلاثة أعظم..

الجندي الذي قطع الفيافي والقفار ليرفع مظلمة وقعت عليه.

أم عمر أمير المؤمنين يوم يستقبل المظلوم، ويوم يثني على رجولة هذا الجندي ويؤكد أن بناء مثل هؤلاء الرجال أعظم من كل أموال الدنيا، ويطلب من قائد جيشه أن يجلس للقصاص أمام الناس أو في الخلاء ويعطيه كامل حقه.

أم أبو موسى الأشعري قائد الجيوش الإسلامية في المشرق حين يجلس أمام الناس؛ ليُحْلَق شعره، ويُضرب عشرين سوطًا كما ضرب.

هذه المبادئ العظمى هي التي بنيت بها البشرية، وأعيد صياغتها من جديد.

غَضَبُ عمر على قتل المرتد قبل استتابته:

(حدثنا ابن عيينة عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه قال: لما قدم على عمر فتح تُستر - وتستر من أرض البصرة - سألهم: هل من مغربة [١] ؟

قالوا: رجل من المسلمين لحق بالمشركين فأخذناه.

قال: ما صنعتم به؟

قالوا: قتلناه.

قال: أفلا أدخلتموه بيتًا وأغلقتم عليه بابًا وأطعمتموه كل يوم رغيفًا ثم استَتَبْتُموه ثلاثًا فإن تاب وإلا قتلتموه؟

ثم قال: اللهم لم أشهد، ولم آمر، ولم أرضَ إذ بلغني، أو حين بلغني) [٢].

* * *

الانسياح في الأرض

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة

---

(١) مغربة: شيء غريب.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٨/ ح ٣٤٥٢١).

والمهلب وعمرو قالوا: أذن عمر في الانسياح سنة سبع عشرة في بلاد فارس، وانتهى في ذلك إلى رأي الأحنف بن قيس، وعرف فضله وصدقه، وفرّق الأمراء والجنود، وأمَّرَ على أهل البصرة أمراء، وأمَّر على أهل الكوفة أمراء، وأمر هؤلاء وهؤلاء بأمره، وأذن لهم في الانسياح سنة سبع عشرة، فساحوا سنة ثمانية عشرة، وَأَمَرَ أبا موسى أن يسير من البصرة إلى منقطَع ذمة البصرة، فيكون هنالك حتى يحدث إليه، وبعث بألوية مَنْ ولَّى مع سهيل بن عدي حليف بني عبد الأشهل، فقدم سهيل بالألوية:

١ - ودفع لواء خُرَاسَان إلى الأحنف بن قيس.

٢ - ولواء أرْدَشير خُرّه وسابور إلى مجاشع بن مسعود السُّلمي.

٣ - ولواء إصطخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي.

٤ - ولواء فَسَا دار ودرابجرد إلى سارية بن زُنيم الكناني.

٥ - ولواء كَرْمَان مع سهيل بن عدي.

٦ - ولواء سِجستان إلى عاصم بن عمرو. وكان عاصم من الصحابة.

٧ - ولواء مُكران إلى الحكم بن عمير التغلبي.

فخرجوا في سنة سبع عشرة فعسكروا ليخرجوا إلى هذه الكُوَر، فلم يستتب مسيرهم حتى دخلت سنة ثمان عشرة، وأمدهم عمر بأهل الكوفة:

١ - فأمد سهيل بن عدي بعبد اللّه بن عبد اللّه بن عِتبان.

٢ - وأمد الأحنف بعلقمة بن النضر وبعبد اللّه بن أبي عَقِيل وبرِبعْي بن عامر وبابن أم غزال [1].

٣ - وأمد عاصم بن عمرو بعبد اللّه بن عمير الأشجعي.

٤ - وأمد الحكم بن عمير بشهاب بن المخارق المازني) [2].

---

(١) لا شك أن هناك نقصًا في الكلام، فلا يمكن إرسال أربعة قادة مددًا لقائد واحد وترك ثلاثة قادة بلا مدد. وتستقيم العبارة على الصيغة التالية: (وأمد الأحنف بن قيس بعلقمة بن النضر، ومجاشع بن مسعود السلمي بعبد اللّه بن أبي عقيل، وأمد عثمان بن أبي العاص بربعي بن عامر، وسارية بن زنيم الكناني بابن أم غزال). والخطأ الآخر ذكر الحوادث في سنة عشر كما في الطبري، والصحيح سنة سبع عشرة.

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٥).

لقد كان قرار الانسياح في أرض فارس قرارًا لا رجعة فيه، ولكن القرار بلا تنفيذ يبقى حبرًا على ورق، لكن أمير المؤمنين ﷺ ليس عنده قرارات للدعاية والإعلان، فقد ترجمه بسبعة جيوش رئيسية تتجه إلى جميع أصقاع فارس وسبعة جيوش احتياطية. وحدد قيادات الجيوش الأربعة عشر، وأرسل إلى كل قائد لواءً لفتح ما كُلِّفَ به.

إننا لسنا أمام سياحة ترفيهية، بل نحن أمام انسياح بغزو أرض فارس كلها بهذا الدين، وانتهى العهد الأول: (ليت بيني وبين فارس جبلًا من نار). وأصبح إمبراطور فارس الآن هو الهدف، فلن يَقَرَّ قرارٌ لأي فتح وهو على الحياة وبين القرار وبين تنفيذه أشهر قليلة، حيث اتخذ القرار في سنة سبع عشرة، وتمَّ الانسياح سنة ثمان عشرة. لقد اختار أكفأ القادة ليكونوا على رأس غزو الأرض وكسر شوكة العدو، وكانت القيادات من كل القبائل العربية مضر وربيعة والذين أمضوا عمرهم في الجهاد ونكاية العدو.

بينما كانت الأرض الإسلامية التي استقر فيها الإسلام على التوزيع التالي:

(وحجَّ بالناس في هذه السنة - أعني سنة سبع عشرة - عمر بن الخطاب ﷺ:

١ - وكان عامله على مكة عتاب بن أسيد.

٢ - وعلى اليمن يعلَى بن أمية.

٣ - وعلى اليمامة والبحرين عثمان بن أبي العاص.

٤ - وعلى عُمان حذيفة بن مِحْصن.

٥ - وعلى الشام من ذكرت أسماءهم من قبل.

٦ - وعلى الكوفة وأرضها سعد بن أبي وقاص وعلى قضائها أبو قرة.

٧ - وعلى البصرة وأرضها أبو موسى الأشعري... وعلى القضاء فيما قيل أبو مريم الحنفي.

٨ - وقد ذكرت من كان على الجزيرة والموصل قبل) [١].

* * *
* *
*

---

(١) تاريخ الطبري (٥٠٦/٢).



الفصل العشرون

عمر ينصرف إلى البناء الداخلي

لقد استقر الإسلام في بلاد العرب، ولم يأذن عمر بعد بالانسياح إلى بلاد فارس، وجماهير الأمة بحاجة إلى نشر العلم والفقه في أرجاء البلاد المفتوحة، فكان لا بد له بعد أن تمَّ نصر اللَّه في الجزيرة على الروم، وقد حضر مع جيشه إلى الجابية غوثًا لأبي عبيدة ﷺ أن يقرر العودة إلى الشام ثانية.

لقد اطمأنَّ إلى الأوضاع الاقتصادية بالنسبة للأمة بعد توزيع الثروة وعمل الديوان، ووضع قواعد الرواتب والتقاعد لكل فرد في الأمة ولكل طفل ولكل امرأة، وبقي همه الأول بعد ذلك هو تثقيف الأمة بهذا الدين، والمحافظة على عقيدتها، خاصَّةً وقد انفتحت على أعظم دولتين تحكمان العالم، ولهما ثقافتهما ودينهما وعقائدهما.

وحدث في هذا العام أمران على غاية من الخطورة:

- أزمة الطاعون التي نزلت في العالم الإسلامي.

- اتساع الثروات وبروز طبقة من الأثرياء من الولاة والقادة. كان من أثرها عزل أكبر قائد إسلامي وهو خالد بن الوليد.

لقد عالجت الحكومة الإسلامية المقيمة في العاصمة الأزمات الخارجية، وتمَّ وضع آلية لمواجهة هذه الأزمات من خلال الجيوش الاحتياطية الموجودة في كل الولايات؛ لتقوم بعدها الجيوش النظامية بالتحرك المناسب، ولولا سرعة الحركة الخاطفة التي دفعت بتحرك جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل ليصل حمص خلال ثلاثة أيام على الطريقة الخالدية عندما تحرَّك خالد من العراق إلى الشام لإغاثة المسلمين في الشام أمام الزحف الرومي لوقع المسلمون في الشام فريسة في يد الروم.

وتمت معالجة الأزمات الاقتصادية في وضع قواعد التوزيع وآلية إيصال الحقوق إلى كل مواطن في الدولة، وأنهى أزمة مستعصية لم تحل في التاريخ إلا على يديه، حيث قطع الطريق على نشوء طبقة إقطاعية مقابل طبقة الخدم والعمال الذين كانوا بمثابة العبيد، حيث رفض توزيع الأرضين على المجاهدين، ولأول مرة في التاريخ يُعطَى

الفلاحون حقهم ويصبحون المُلَّاك الحقيقيين لأرضهم، ويؤدون الخراج لخزينة الدولة كما يؤدي المسلمون زكاة أموالهم كذلك.

لكن الأزمة الثقافية هي التي يتخوف منها عمر ﷺ، وكان همه أن يزور الولايات الإسلامية ليشرف عن كثب على واقع الأمة، فأعلن عن رغبته في السفر ثانية إلى الشام، وكانت أزمة الطاعون التي حالت دون تحقيق هدفه والتي عرفت في التاريخ بـ (طاعون عمواس) وفقد المسلمون فيها أعظم قياداتهم.

طاعون عمواس

- أخرج البخاري عن ابن عباس:

أن عمر بن الخطاب ﷺ خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسَرْغ [١] لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام.

- قال ابن عباس: فقال عمر: ادعُ لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام، فاختلفوا.

فقال بعضهم: قد خرجنا لأمر ولا نرى أن ترجع عنه.

وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول اللَّه ﷺ، ولا نرى أن تُقْدِمَهم على هذا الوباء.

فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادع لي الأنصار. فدعوتهم، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم.

فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح. فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تُقْدِمهُم على هذا الوباء.

فنادى عمر في الناس: إني مُصَبِّحٌ على ظهر، فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة ابن الجراح: أفرارًا من قدر اللَّه؟؟

فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟! نعم، نفر من قدر اللَّه إلى قدر اللَّه. أرأيت إن كان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان:

(١) أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام.

إحداهما خصيبة والأخرى جدبة:

- أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر اللَّه؟

- وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر اللَّه؟

قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف - وكان مُتغيِّبًا في بعض حاجته - فقال: إن عندي في هذا علمًا.

سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه** ».

قال: فحمد اللَّه عمر ثم انصرف) [١].

- حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق عن ابن شهاب الزهري عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن عبد اللَّه بن الحارث بن نوفل، عن عبد اللَّه بن عباس:

(خرج غازيًا، وخرج معه المهاجرون والأنصار، وأوعب الناسُ معه، حتى إذا نزل بسَرْغ لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل ابن حسنة، فأخبروه أن الأرض سقيمة، فقال عمر: ادعُ لي المهاجرين الأولين ...) [٢].

وقد ذكرنا هذه الزيادة لأن تتمة الحديث: (ادعُ لي المهاجرين الأولين ...) تتفق تمامًا مع رواية البخاري السابقة، وكلتا الروايتين عن ابن عباس ﷺ، ولأن هذه الزيادة تشير إلى خروج المهاجرين والأنصار وغيرهم (وأوعب الناس معه).

المدرسة التربوية عند أبي موسى الأشعري ﷺ:

(حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن شعبة بن الحجاج عن المخارق بن عبد اللَّه البجلي، عن طارق بن شهاب البَجَلي، قال: أتينا أبا موسى وهو في داره بالكوفة لنتحدث عنده، فلما جلسنا قال: لا عليكم أن تخفُّوا، فقد أصيب في الدار إنسان بهذا السقم، ولا عليكم أن تنزَّهُوا عن هذه القرية، فتخرجوا في فسيح بلادكم ونَزِهِها حتى ينزِفَعَ هذا الوباء، سأخبركم بما يُكره مما يُتقَى، من ذلك أن يظن

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (١٠/ ١٨٩).

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٨).

مَنْ خرج أنه لو أقام مات، ويظن من أقام فأصابه ذلك لو أنه قد خرج لم يصبه، فإذا لم يظن هذا المرء المسلم فلا عليه أن يخرج وأن يتنزه عنه ..) وهذا نموذج من التربية من جيل الصحابة الأول للأمة، فأبو موسى الأشعري ﷺ يدعو زوّاره ليخففوا الزيارة ويغادروا بيته، ولا يمنعه الحياء والمجاملة من ذلك خشية أن تصيبهم عدوى هذا الطاعون من الرجل الذي أصيب في داره، وبعد أن يظهر عذره لهم لا يدعهم في عماهةٍ، بل يوجههم التوجيه المناسب: (ولا عليكم أن تنزهوا عن هذه القرية فتخرجوا في فسيح بلادكم ونزهها حتى يرتفع هذا الوباء). فهو لم يدعهم إلى الخروج عن هذه القرية التي ظهر فيها الوباء وهي الكوفة إلا حرصًا على الأخذ بالأسباب التي أمر اللّه بها، ولكنه أعطاهم درسًا عميقًا في العقيدة حيث يكون هذا التحرك، فهو يربط الأسباب بخالق الأسباب الذي بيده الحياة والموت، فيجلي لهم هذا الجانب الغامض بقوله:

أ - سأخبركم بما يُكره مما يتقى.

ب - من ذلك أن يظن أنه لو أقام مات.

ج - ويظن من أقام فأصابه ذلك لو أنه قد خرج لم يصبه.

د - فإذا لم يظن هذا المرء المسلم فلا عليه أن يخرج ويتنزه عنه.

والدليل هو محاولة استنقاذ أبي عبيدة من قبل أمير المؤمنين:

(إني كنت مع أبي عبيدة بن الجراح عام طاعون عمواس، فلما اشتعل الوجع وبلغ ذلك عمر كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه: أن سلام عليك. أما بعد، فإنه قد عَرَضَتْ لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إليَّ.

قال: فعرف أبو عبيدة أنه إنما أراد أن يستخرجه من الوباء.

قال: يغفر اللّه لأمير المؤمنين.

ثم كتب إليه: يا أمير المؤمنين إني قد عرفت حاجتك إليَّ، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي اللّه فيَّ وفيهم أمره وقضاءه، فحللني من عزمتك يا أمير المؤمنين، ودعني في جندي.

فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقال الناس:

يا أمير المؤمنين أمات أبو عبيدة؟

قال: لا وكأن قد.

قال: ثم كتب إليه:

أما بعد. فإنك أنزلت الناس أرضًا غمقة [١]، فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة. فلما أتاه كتابه دعاني وقال:

يا أبا موسى إن كتاب أمير المؤمنين قد جاءني بما ترى، فاخرج فارتد للناس منزلًا حتى أتبعك بهم ..) [٢].

فأبو موسى ﷺ إنما يأمر ضيفانه بما أمر به أمير المؤمنين عمر ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في رفعهم إلى أرض عالية.

الاختلاف في عام الطاعون:

قال ابن جرير: (واختلف في خبر طاعون عمواس وفي أي سنة كان، فقال ابن إسحاق: ما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عنه قال: ثم دخلت سنة ثماني عشرة، ففيها كان طاعون عمواس فتفانى فيها الناس، فتوفي أبو عبيدة بن الجراح - وهو أمير الناس - ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث بن هشام، وسهيل ابن عمرو، وعتبة بن سهيل، وأشراف الناس) [٣]، لكننا نجد الطبري يسوق رواية عن ابن إسحاق أن الطاعون عام سبع عشرة (وفي هذه السنة - أعني سنة سبع عشرة - خرج عمر من المدينة يريد الشام حتى بلغ سَرْغ في قول ابن إسحاق. حدثنا بذلك ابن حميد عن سلمة عنه ..) [٤]. ويمكن الجمع بين الروايتين أن ابتداء الطاعون كان عام سبعة عشر، ووفاة الأعيان الكبار عام ثمانية عشر.

عمر ﷺ يعود للشام ثانية:

(... فجمع الناس في جمادى الأولى سنة سبع عشرة، فاستشارهم في البلدان فقال: إني قد بدا لي أن أطوف على المسلمين في بلدانهم لأنظر في آثارهم، فأشيروا

---

(١) من الغمق وهو فساد الريح وخمومها.

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٧).

(٣، ٤) المصدر نفسه (٢/٤٨٥).

علي. وكعب الأحبار في القوم .. فقال كعب: بأيِّها تريد أن تبدأ يا أمير المؤمنين؟

قال: بالعراق.

قال: فلا تفعل، فإن الشر عشرة أجزاء والخير عشرة أجزاء، فجزء من الخير بالمشرق وتسعة بالمغرب، وإن جزءًا من الشر بالمغرب وتسعة بالمشرق، وبها قرن الشيطان وكل داء عضال) [(١)].

الكوفة في نظر علي وعمر ﭫ:

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن سعيد عن الأصبغ عن علي قال: قام إليه علي فقال: يا أمير المؤمنين، والله إن الكوفة للهجرة بعد الهجرة، وإنها لقبَّة الإسلام، وليأتين عليها يوم لا يبقى مؤمن إلا أتاها وحنَّ إليها، والله ليُنصرن بأهلها كما انتصر بالحجارة من قوم لوط) [(٢)]. كتب إليَّ السري عن أبي يحيى التميمي، عن أبي ماجد، قال: قال عمر: الكوفة رمح الله، وقبة الإسلام، وجمة العرب، يكفون ثغورهم، ويمدون الأمصار، فقد ضاعت مواريث أهل عمواس، فأبدأ بها) [(٣)].

أتقلب في البلاد:

(قال عمر ضاعت مواريث الناس بالشام، أبدأ بها فأقسم المواريث، وأقيم لهم ما في نفسي، ثم أرجع فأتقلب في البلاد، وأنبذ إليهم أمري.

فأتى عمر الشام أربع مرات؛ مرتين في سنة ست عشرة، ومرتين في سنة سبع عشرة، لم يدخلها في الأولى من الآخرتين) [(٤)].

الرحلة الأخيرة إلى الشام:

(لما قدم عمر بن الخطاب أيلة ومعه المهاجرون والأنصار، وخلَّف عليًّا على المدينة، وخرج معه بالصحابة وأغذوا السير، واتخذ أيلة طريقًا، حتى إذا دنا منها تنحى عن الطريق، واتبعه غلامه فنزل فبال ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فرو مقلب، وأعطى غلامه مركبه، فلما تلقاه أوائل الناس قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم - يعني نفسه - وذهبوا هم إلى أمامهم، فجازوه حتى انتهى هو إلى أيلة فنزلها، وقيل للمتلقين: قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها. فرجعوا إليه) [(٥)].

(١ - ٤) تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٧).

(٥) تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٩).

هذا أنشف للعرق:

(لما قدم عمر بن الخطاب أيلة ومعه المهاجرون والأنصار دفع قميصًا له كرابيس [١] قد انجاب [٢] مؤخره عن قَعدته من طول السير إلى الأُسقفّ. وقال: اغسل هذا وارقعه. فانطلق الأسقُفُّ بالقميص ورقعه وخاط له آخر مثله، فراح به إلى عمر فقال: ما هذا؟ قال الأسقُفُّ: أَمَّا هذا فقميصك قد غسلته ورقعته، وأما هذا فكسوة لك مني. فنظر إليه عمر ومسحه، ثم لبس قميصه، ورد عليه ذلك القميص، وقال: هذا أنشفهما للعرق).

أمارات العدل:

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن عطية وهلال عن رافع بن عمر قال: سمعت العباس بالجابية يقول لعمر: أربعٌ مَنْ عَمِلَ بهن استوجب العدل: الأمانة في المال، والتسوية في القَسم، والوفاء بالعِدَةِ، والخروج من العيوب. نظِّفْ نفسَكَ وأهلَكَ).

أهم إنجازات الزيارة:

(كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن أبي عثمان والربيع وأبي حارثة بإسنادهم قالوا: قسم عمر الأرزاق وسمى الشواتي والصوائف [٣] وسد فروج [٤] الشام ومسالحها [٥] وأخذ يدور بها، وسمى ذلك في كل كُورة، واستعمل عبد الله ابن قيس على السواحل من كل كورة، وعزل شرحبيل، واستعمل معاوية وأمّرَ أبا عبيدة وخالدًا تحته، فقال له شرحبيل:

أعن سُخطةٍ عزلتني يا أمير المؤمنين؟

قال: لا، إنك لكما أحب، ولكني أريد رجلًا أقوى من رجل.

قال: نعم، فاعذرني في الناس لا تدركني هُجْنة [٦].

---

(١) الكرابيس: جمع كرباس وهو القطن.

(٢) انجاب: انشق.

(٣) الشواتي والصوائف: الجنود المرابطون في الشتاء وفي الصيف.

(٤) الفروج: الحدود مع الأعداء.

(٥) المسالح: كل موضع مخافة يقف فيه الجند بالسلاح.

(٦) هجنة: عيب وعار.

فقام في الناس فقال:

أيها الناس إني والله ما عزلت شرحبيل عن سخطة، ولكني أردت رجلًا أقوى من رجل. وأمَّر عمرو بن عبسة على الأهراء، وسمى كل شيءٍ ثم قام في الناس بالوداع) [1].

الخطبة الجامعة:

وقفل عمر من الشام إلى المدينة في ذي الحجة، وخطب حين أراد القفول، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا إني قد ولِّيت عليكم، وقضيت الذي عليَّ في الذي ولَّاني الله من أمركم، إن شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم، وأبلغنا ما لديكم، فجنَّدنا لكم الجنود، وهيَّأنا لكم الفروج، وبوَّأناكم، ووسَّعنا عليكم ما بلغ فيئَكم، وما قاتلتم عليه من شامكم، وسمينا لكم أطماعكم، وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومغانمكم، فمن علم عِلْم شيءٍ ينبغي العمل به فبلَّغنا نعمل به إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله. وحضرت الصلاة وقال الناس: لو أمرت بلالًا فأذن. فأمره فأذن، فما بقي أحد كان أدرك رسول الله ﷺ وبلال يؤذن إلا بكى حتى بلَّ لحيته، وهو أشدهم بكاء، وبكى من لم يدركه ببكائهم..).

رغم عودته بسرعة حين وصله خبر الطاعون تم لقاؤه السريع مع القيادات في الشام، لكن القلق بقي يساوره بالنسبة لهذا الثغر، صحيح أنه رجع ولم يدخل الشام احتياطًا ابتداءً ثم تنفيذًا لحديث رسول الله ﷺ ثانية، لكن لم يَحِلَّ هذا الرجوع هذه المشكلات العضال، ولم يدفع الخطر الداهم على الثغر فيما لو وصلت الأخبار إلى الروم باستفحال الطاعون في المسلمين، وتفكيره في استغلال نقطة الضعف هذه والعودة إلى غزو الشام. ونلاحظ المعاني التالية في هذه الجولة وما قبلها:

١ - مسلمة الفتح:

نلاحظ في الشورى التي أجراها أمير المؤمنين ﷺ عند سماعه بانتشار الطاعون في الشام أنه قدَّم أولًا: المهاجرين الأولين.

ثانيًا: مهاجرة الأنصار.

ثالثًا: مهاجرة الفتح من قريش.

---

(١) تاريخ الطبرى (٢/ ٤٨٩). والأهراء: أمكنة تموين الأرزاق (المستودعات).

وإن كان لنا أن نتمثل هذه المشورة في عصرنا الحاضر فإنما هي وجود **مجلسين للشورى:**

المجلس الأول: مجلس النواب.

المجلس الثاني: مجلس الشيوخ.

وتكاد تكون هذه الظاهرة عامة في بلاد الغرب، وأول من سَنَّهَا عمر ﷺ، ومجلس الشيوخ الممثل بالملأ من قريش وأمثالهم، والذي يمثل التجربة والخبرة والعمق، حيث لم يختلف واحد منهم في الرأي عن الآخر، بينما وقع الخلاف في المجلس الأول عند المهاجرين الأولين ومهاجرة الأنصار، والغريب أن الحركات الإسلامية تكاد تكون كلها ليس فيها هذا التمييز، إنما هناك مجلس واحد هو مجلس الشورى، والأساس مختلف تمامًا بين المجلسين، فأساس المجلس الأول هو استيعاب تمثيل كافة أطياف الأمة وأبناء الوطن، وتحقيق مصالحهم دون استثناء، بينما أساس المجلس الثاني هو ضم كافة الخبرات والطاقات وأصحاب الاختصاص بعيدًا عن انتماءاتهم وبلدانهم وأممهم وعشائرهم، ويمكن تحديد صلاحيات كل مجلس بعد ذلك. ولقد وصل إلينا **انعقاد هذين المجلسين مرتين:**

المرة الأولى: عند التشاور حول توزيع الأراضي على المجاهدين أو إبقائها للفلاحين العاملين عليها، ووضع الخراج عليها.

المرة الثانية: هي في هذا الموقع في الاستشارة بعودة المسلمين أو دخولهم للشام بعد انتشار مرض الطاعون فيها.

٢ - فكرة الجولة التفقدية:

(إني قد بدا لي أن أطوف على المسلمين في بلدانهم؛ لأنظر في آثارهم، فأشيروا علي). واختلفت الآراء، فكان كعب الأحبار يرى أن لا يمضي إلى الكوفة؛ لأنها رمز الشر (وإن جزءًا من الشر بالمغرب وتسعة بالمشرق) وسنلاحظ أن كثيرًا من الإسرائيليات سوف تظهر على الساحة الإسلامية على لسان كعب، فثقافته تكاد تكون كلها من التوراة، وهو حبر كبير من أحبار اليهود، وتعمقه في اليهودية هو الذي دفعه للإسلام، غير أن كثيرًا من أخبار اليهود مختلطة بين تصورات اليهود البشرية وبين وحي اللّٰه تعالى، ومن أجل ذلك تجاوز العظيمان عُمَر وعليّ هذا الكلام، وتحدثا

عن موقع الكوفة في الإسلام (قبة الإسلام ورمح الإسلام، وجمجمة العرب يكفون ثغورهم ويمدون الأمصار)، ومن أجل ذلك كان مطمئنًا لهذا الثغر، وأخّر المسير إليه، ومضى إلى الشام (فقد ضاعت مواريث أهل عمواس فأبدأ بها).

٣ - مركب الخليفة وملبسه:

لم يكن هناك فرق كبير بين مركب الخليفة ومركب غلامه، لم يكن الموكب موكبًا عظيمًا يقطع السير وتسد الطرقات قبل وصوله بساعة، فانتقاله إلى مركب الغلام لم يكن ليغير شيئًا من واقع الأمر، فكلاهما شبيهان ببعضهما، وقد سبق غلامه على مركبه، فلم ير الناس فيه حين تلقوه أي علامة تشير إلى أنه أمير المؤمنين، ولباسه لا يشي بشيءٍ من ذلك، وقد يكون لباس الغلام خيرًا من لباسه، وقد قطعا شوطًا طويلًا من المدينة إلى أيلة، وكلاهما مجهد من السفر، مُضْنًى من التعب. وسارع الناس يسألونه: أين أمير المؤمنين؟ .

قال: أمامكم. (يعني: نفسه).

وما كان ليدور بخلد الناس أن أمير المؤمنين الذي فزعت من اسمه طغاة الأرض وجبابرتها - إمبراطور الروم، وإمبراطور الفرس - أن يكون محدثهم هو أمير المؤمنين البسيط المتواضع الزاهد، فعندما قال: أمامكم. مضى تفكيرهم مباشرة إلى أن الموكب قادم، وعليهم أن يتلقوه، فجدوا في السير ليفوزوا بقصب السبق عن غيرهم، وقصد عمر ﷺ أنه هو أمامهم. وتبقى هذه الصورة خالدة في سجل التاريخ البشري تعرف من خلال هذا اللقاء.

(ثم عاد فركب بعير غلامه، وعلى رحله فرو مقلوب، وأعطى غلامه مركبه، فلما تلقاه أوائل الناس قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم - يعني: نفسه - وذهبوا إلى أمامهم، فجازوه حتى انتهى هو إلى أيلة فنزلها، وقيل للمتلقين: قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها، فرجعوا إليه).

هذا عن مركبه، فماذا عن ملبسه؟

قميصه فيه بعض القطن، وقد انشق من مؤخره من طول السير، وقد ابتل عرقًا، فدفعه إلى الأسقُفِّ والأسقف - منصب ديني عند النصارى - فقد كان النصارى في استقباله، وأحب أن يعلمهم صغار الدنيا في عينيه، فاختار الأسقف ليهيئ له غسل القميص ورقعه.

وبهت الأسقف ماذا يفعل؟ فهل يليق بالخليفة الأعظم أن يكون هذا قميصه؟ إن رئيس أصغر قبيلة عند العرب وأصغر رئيس عند النصارى يلبس أفخم الملابس وأبهاها وأزهاها، فهو إذن أمام أمة جديدة لم يعهدها من قبل في تاريخه، ولم يكن يخطر على باله لحظة أن الذين فتحوا الأرض هذا هو لباس خليفتهم، ولا مندوحة أمامه، وعليه أن ينفذ الأمر، أن يغسل القميص نفسه ويرقعه، لكنه تصرف بذكاء كذلك حين نفذ الأمر من جهة وخاط له قميصًا جديدًا يناسب مقامه ليهديه له. وجاء إلى أمير المؤمنين قائلًا: (أما هذا فقميصك قد غسلته ورقعته، وأما هذا فكسوة لك مني). وعمر الذي يربِّي شعوب الأرض كلها يريد أن يتعلَّموا منه واقعًا لا ادعاءً بأن هذه الأمة ليس همها المغانم والثروات، إنما همها إقامة العدل في الأرض وتساوي الأمير والسوقة عندهم. وكما قال لجبلة بن الأيهم الغساني ذات يوم: (الإسلام سوى بينكما فليس تفضله إلا بالتقى والعافية). ها هو أمير المؤمنين يأخذ قميصه، ويرد القميص الجديد للأسقف معتذرًا قائلًا: (هذا أنشفهما للعَرَق).

يا منْ رأَى عُمرًا تكسُوه بردته والزيتُ أدمٌ له والكُوخ مَأْواه
يهتزُّ كِسرى على كُرسيِّه فَرقًا من بأسه وملُوكُ الرُّوم تخْشَاه

٤ - أمير المؤمنين يتعلَّم من العباس عم رسول اللَّه:

وهذا الخليفة العظيم ﷺ لم يكتفِ بأن يكون معلمًا للبشرية، بل هو مُتعلِّم كذلك، وقد نهل من معين النبوة ما نهل، وها هو ينهل الآن من معين عم محمد ﷺ.

(.. عن رافع بن عمر قال: سمعت العباس بالجابية يقول لعمر:

أربع من عمل بهن استوجب العدل:

١ - الأمانة في المال.

٢ - والتسوية في القسْم.

٣ - والوفاء بالعِدَةِ.

٤ - والخروج من العيوب؛ نظِّف نفسك وأهلك).

فالعدل ليس كلمات منمقة وشعارات فارغة، إنما هو واقع له مقدماته، وبدون هذه المقدمات لن يتحقَّق العدل في المجتمع، ولا بد أن ينبع من ذات الإنسان ابتداءً لا من غيره.

الأمانة في المال:

لا شك أن التجربة الرائدة في الأرض هي التجربة الإسلامية، والتي بدت معالمها واضحة في العهد العمري، لقد قطع الطريق على نظام الإقطاع، وأبقى الأرض لأهلها العاملين فيها، ولو لم يفعل ذلك لمضى جزءًا من النظام العالمي في ذلك الوقت، والذي ردعه وقد بقي ثلاثة أيام يفكر في قطع الطريق على نظام الإقطاع، حيث وجدها في آخر سورة الحشر: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ... ﴾ لماذا؟ ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧] وحيث لم يعد البشر مصدر التشريع فيستأثرون ويشرِّعون ما يُحقِّق كسبهم ومصالحهم، وإنما التشريع من عند اللَّه الذي حرَّم الظلم على نفسه وجعله محرمًا بين الناس « **يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا** ».

ومن أين يستقى التشريع؟

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

والتسوية في القسم:

عدل في الأخذ، وعدل في العطاء

« **وعن ماله من أين اكتسبه، وأين أنفقه** »

وهي مهمة الدولة العظمى في التسوية في القسم.

ولقد وضع عمر ﷺ المبادئ الأربعة العظمى والتي تحكم رواتب الموظفين والمتقاعدين ومعونات المحتاجين، وفتح باب الإبداع على مصراعيه، وفتح الباب أمام مشاريع التنمية واستثمار الأموال. هذه المبادئ العظمى هي:

(الرجل وقِدَمُه في الإسلام

والرجل وغناؤه في الإسلام

والرجل وبلاؤه في الإسلام

والرجل وحاجته: واللَّه لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حَظُّهُ من هذا المال وهو مكانه).

والوفاء بالعِدَةِ:

إنها الأحزاب التي تتقدَّم بمشاريع، وتفوز بالانتخابات على ضوئها، فإن نجحت فيما وعدت به من تحقيق للرفاهية والأمن في المجتمع وحقَّقت الازدهار والعدل، فإنها تكسب ثقة الناخبين، ويعطونها أصواتهم في الاقتراع، أما إذا أخفقت فيما وعدت به وأخلفت ما تعهدت به، فسوف ينصرف الناس عنها مهما قَدَّمَتْ من معاذير.

- والخروج من العيوب؛ نظّف أهلك ومالك:

وذلك أن يكون الحاكم موضع القدوة، فأي خلل في الحاكم يهدم البناء كله.

(عمر: إن قومًا أدوا هذا لأمناء.

علي: رأوك عففتَ فعفوا، ولو رتعت لرتعوا).

وكان عمر إذا أراد أن يأمر المسلمين بشيءٍ أو ينهاهم عن شيءٍ مما فيه صلاحهم، بدأ بأهله وتقدَّم إليهم بالوعظ لهم، والوعيد على خلافهم أمرَه... عن سالم قال: كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيءٍ جمع أهله فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير - يعني إلى اللحم - وأقسم باللَّه لا أجد أحدًا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة) [1].

٥ - مهمة الحاكم: الإطعام من جوع والأمن من خوف:

وإذا تناولنا فيما قبل الإطعام من جوع، والعدل وأماراته، فلا بد من تهيئة الأمن من خوف، أن لا يغزو الأعداءُ المسلمين، وأن لا تضعف الدولة، فتضيع الحدود، وينتشر الفساد. فإذن المطلوب هو الأمن الداخلي والخارجي، وقد عبَّر عن ذلك الخليفة العظيم ﷺ بقوله:

١ - ألا إني قد وُلِّيتُ عليكم، وقضيتُ الذي عليَّ في الذي ولَّاني اللَّه من أمركم إن شاء اللَّه.

٢ - قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم.

٣ - وأبلغنا ما لديكم فجنَّدنا لكم الجنود، وهيَّأنا لكم الفروج.

٤ - وبوَّأناكم ووسَّعنا عليكم ما بلغ فيئكم، وما قاتلتم عليه من شامكم.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٦٨).

٥ - وسمينا لكم أطماعكم، وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومغانمكم.

٦ - فمن علم عِلْمَ شيءٍ ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء اللَّه، ولا قوة إلا باللَّه) [١].

٦ - تغيير القيادات:

لقد أجرى عمر ﷺ تغييرًا شاملًا في القيادات، فأعفى من بلغ سن التقاعد، وأنشأ قطاعات جديدة جعل لها مسؤولين عنها:

١ - استعمل عبد اللَّه بن قيس على السواحل.

٢ - وعزل شرحبيل، واستعمل معاوية وجعله على الأردن.

٣ - وأمّر أبا عبيدة وخالد تحته.

٤ - وعلى فلسطين علقمة بن مجزز.

٥ - وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان.

٦ - وعلى الأهراء عمرو بن عبسة.

لقد فتح المجال أمام القيادات الشابة لتأخذ دورها، وأحال كبار القيادات على التقاعد، وأهم من تمَّ تغييره هو شرحبيل بن حسنة ﷺ، وهو أحد القادة الأربعة الكبار الذين اختارهم الصديق، وبقي أمير الأردن طيلة هذه الفترة، فتم اختيار معاوية ابن أبي سفيان ﷺ بديلًا عنه؛ ليكون أمير الأردن، إن عمر ﷺ لم ينس لمعاوية بطولته وأنه صاحب الفتح العظيم في قيسارية، ولم ينس له بلاءه في فتوح الشام، ولم يغب عن ذهنه - وهو العبقري - كفاءة معاوية العظيمة، وفاجأ الخليفة المسلمين بمعاوية ابن أبي سفيان أميرًا على دمشق وخراجها بعد أن كان اضطلع بعبء القيادة وأثبت أنه ابن بجدتها، وسيقت إليه الإمارة سوقًا حين أثبت كفاءته لها، وآن الأوان لابن أبي سفيان أن يبرز مكنون طاقته وهو على كرسي الإمارة..) [٢].

(لما وَلَّى عمرُ يزيدَ بن أبي سفيان ما ولَّاه من الشام خرج إليه معاوية فقال أبو سفيان لهند: كيف رأيت؟ صار ابنك تابعًا لابني.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٩٠).

(٢) معاوية بن أبي سفيان للمؤلف (ص ٧٤).

فقالت: إن اضطربت خيل العرب فستعلم أين يقع ابنك مما يكون فيه ابني. وكان يزيد ولد أبي سفيان من غير هند، فلما جاء البريد إلى عمر بموت يزيد ردَّ عمر البريد إلى الشام بولاية معاوية مكان أخيه يزيد.

(ثم عزى أبا سفيان في ابنه يزيد

فقال: يا أمير المؤمنين مَنْ وَلَّيْتَ مكانه؟

قال: أخاه معاويةَ.

قال: وصلت رحمًا يا أمير المؤمنين)[1].

إلا أن كل ما خشيه شرحبيل ﷺ أن يكون العزل لسببٍ يَمَسُّ شرفه العسكري أو يثلم التزامه الإسلامي، فجاء إلى الفاروق ﷺ يستفهم منه:

- أعن سخطة عزلتني يا أمير المؤمنين؟

- لا. إنك لَكمَا أحب، ولكني أريد رجلًا أقوى من رجل.

لكن من يسمع هذا الجواب؟ لا أحد يسمعه إلا هو وأمير المؤمنين، فطالب بحقِّه أمير المؤمنين قائلًا: (نعم فاعذرني أمام الناس لا تدركني هجنة. فقام أمام الناس وقال: إني والله ما عزلتُ شرحبيل عن سخطة، ولكني أردت رجلًا أقوى من رجل).

ولعل هذه الأسماء من القيادات الشابة التي لا نعرف عنها شيئًا هي معروفة في الصف الإسلامي: عبد الله بن قيس، عمرو بن عبسة؛ فالاسمان هما لصحابيين كبيرين، أولهما أبو موسى الأشعري، وثانيهما عمرو بن عبسة رابع من أسلم، وهو سُلَمِي، لكن ليس واحدٌ منهما هو ذلك الصحابي أو التابعي.

(فقامت مسالح الشام ومصر والعراق على ذلك إلى اليوم لم تجز أمة إلى أخرى عملها بعد إلا أن يقتحموا عليهم بعد كفرٍ منهم، فيقدموا مسالحهم بعد ذلك، فاعتدل ذلك سنة سبع عشرة) وإن بناء أسسه الفاروق يستمر حتى زمن الطبري رحمه الله كم هو بناءٌ عظيم وتخطيط دقيق!

٧ - نسمة من رسول الله ﷺ:

وهذا بلال بن رباح ﷺ الذي اختفى صوته بعد وفاة رسول الله ﷺ فرح به

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٨/ ١١٨).

المسلمون وهو قادم مع أمير المؤمنين عمر من المدينة، فارتج المعسكر يطالب أن يسمع أذان بلال الذي افتقده سبع سنوات (وحضرت الصلاة وقال الناس: لو أمرتَ بلالًا فأذن، فأمره فأذن، فما بقي أحد كان أدرك رسول اللَّه ﷺ وبلال يؤذن إلا بكى حتى بلَّ لحيته وعمر أشدهم بكاءً، وبكى من لم يدركه ببكائهم ولذكره ﷺ.. هل انبعثت الحياة من جديد وعاد رسول اللَّه ﷺ إلى ظهراني المسلمين بصوت بلال النديِّ الشجيِّ؟

لا. ولكنه شوق الحبيب إلى الحبيب.

* * *
* *
*

الفصل الحادي والعشرون

عمرو بن العاص فاتح مصر

وآلت قيادة الجيش إلى عمرو بن العاص بعد وفاة معاذ بن جبل رضي الله عنه وكانت الزيارة الرابعة والأخيرة لأمير المؤمنين إلى الشام بعد طاعون عمواس وبعد عام الرمادة ليتفقد أوضاع الجيش الإسلامى والأمة المسلمة، وقد فقد الجيش الإسلامي جيلًا كاملًا منه كما ذكرنا، فلم يبق إلا خمسة آلاف من خمسة وثلاثين ألفًا، وذكرنا آنفًا تلك الزيارة، وتمَّ فيها لقاء عمرو رضي الله عنه مع أمير المؤمنين، وعرض على أمير المؤمنين فتح مصر.

مصر والإسلام:

قال ابن عبد الحكم: (حدثنا هشام بن إسحاق وغيره قال: لما كانت سنة ست من مهاجرة رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ورجع رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم من الحديبية بعث إلى الملوك.

حدثنا أسد بن موسى ... عن ابن شهاب قال: حدثني عبد الرحمن ابن عبد القارئ أن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قام ذات يوم على المنبر فحمد اللَّه وأثنى عليه وتشهَّد ثم قال:

« **أما بعد فإني أريد أن أبعث بعضكم إلى ملوك العجم، فلا تختلفوا علي كما اختلفت بنو إسرائيل على عيسى بن مريم .. فبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وشجاع بن وهب السدي إلى كسرى، وبعث دحية بن خليفة إلى قيصر، وبعث عمرو بن العاص إلى ابني الجلندي أميري عمان. ثم ذكر الحديث** ».

ثم رجع إلى حديث هشام بن إسحاق وغيره قال:

فمضى حاطب بكتاب رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فلما انتهى إلى الإسكندرية وجد المقوقس في مجلس مشرف على البحر، فركب البحر، فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم بين أصبعيه، فلما رآه أمر بالكتاب فقبض، وأمر به فأوصل إليه، فلما قرأ الكتاب قال: ما منعه إن كان نبيًّا أن يدعو عليَّ فيسلط عليَّ. فقال له حاطب: ما منع عيسى ابن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يُفعل به ويُفعل؟! فوجم ساعة ثم استعادها فأعادها عليه حاطب، فسكت. فقال له حاطب: إنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى فانتقم اللَّه به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك، وإن

لك دينًا لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافي اللَّه به فقد ما سواه، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به. ثم قرأ الكتاب فإذا فيه: « بسم اللَّه الرحمن الرحيم. من محمد رسول اللَّه إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك اللَّه أجرك مرتين: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] » فلما قرأه أخذه فجعله في حق في عاج وختم عليه ثم دعا كاتبًا يكتب بالعربية فكتب: لمحمد ابن عبد اللَّه من المقوقس عظيم القبط: سلام، أما بعد؛ فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج من الشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام) [1].

وقال: (وحدثنا عبد اللَّه بن سعيد المذحجي عن ربيعة بن عثمان عن أبان ابن صالح قال: أرسل المقوقس إلى حاطب ليلة، وليس عنده أحد إلا ترجمان له، فقال: ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها؟ فإني أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك؟ قال: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك. قال: إلام يدعو محمد؟ قال: إلى أن تعبد اللَّه ولا تشرك به شيئًا وتخلع ما سواه، ويأمر بالصلاة. قال: فكم تصلون؟ قال: خمس صلوات في اليوم والليلة وصيام شهر رمضان، وحج البيت، والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة والدم. قال: مَنْ أتباعه؟ قال: الفتيان من قومه وغيرهم. قال: فهل يقاتل قومه؟ قال: نعم. قال: صِفْه لي. قال: فوصفته بصفة من صفاته لم آت عليها، قال: قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها! في عينيه حمرة قلَّما تفارقه، وبين كتفيه خاتم النبوة، ويركب الحمار، ويلبس الشملة، ويجتزئ بالتمرات والكِسَر، لا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم. قلت: هذه صفته. قال: قد كنت أعلم أن نبيًّا قد بقي، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج في العرب

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص ٢٦ - ٤٥).

في أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعني في اتباعه، ولا أحب أن يُعلَم بمحاورتي إياك، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما ها هنا، وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفًا، فارجع إلى صاحبك) [١].

مصر والنصرانية:

(المذهب اليعقوبي: وهو مذهب الكنيسة المصرية والذي اعتنقه أغلب المسيحيين المصريين، وكان ينادي بأن الطبيعتين الإلهية والبشرية في السيد المسيح امتزجتا، فكان فيه طبيعة واحدة، وعليه فلم يعد إنسانًا كاملًا، فكان عند التجسد ذا طبيعتين، وأما بعده فصار ذا طبيعة واحدة... المذهب الملكاني: نسبة إلى الملك أو الإمبراطور، وهو مذهب الكنيسة في الدولة الرومانية، ومذهب حزب الملك والبلاط، وكان أتباعه من أصل إغريقي أو أوربي، ويقول هذا المذهب: إن الابن (وهو السيد المسيح) مولود من الأب قبل الدهور، غير مخلوق، وهو جوهره ونوره، واتحد الابن بالإنسان المأخوذ من مريم فصار واحدًا هو المسيح) [٢].

مصر والفرس:

(هددت الدولة الفارسية حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ونجحت بالفعل في التوغُّل إلى داخل الإمبراطورية ذاتها فاستولت على سورية وفلسطين ثم مصر عام (٦١٦م) وقد أباح كسرى فارس لبطريرك الأقباط أن يبقى في الإسكندرية حتى موته، وألا ينازعه منازع في رئاسة الدين، ثم خلفه البطريق (بنيامين) في سهولة ويسر؛ فقضى أول سني ولايته مستظلًّا بحكم الفرس هادئة مطمئنة إذا قيست بسائر مدة ولايته الطويلة المليئة بالأحداث الجسام، غير أن الاحتلال الفارسي لمصر لم يدم أكثر من عشرة أعوام تمكَّن بعدها هرقل من إعادة هذه الولايات جميعها إلى حظيرة الإمبراطورية من جديد، وعاود الإمبراطور هرقل جهوده في التفاهم مع الأقباط المصريين على عقيدة دينية واحدة أساسها إدخال فكرة جديدة هي بدعة الإرادة الواحدة، ولكن الأقباط المصريين لم يكونوا مستعدين للتفاهم على الإطلاق، فعين الإمبراطور هرقل أسقف الإسكندرية الملكاني (قيرس) ليكون حاكمًا لمصر أيضًا،

(١) فتوح مصر لابن الحكم (ص ٤٦، ٤٧).

(٢) عمرو بن العاص بين يدي التاريخ لعبد الخالق سيد أبو رابية (ص ٩٦، ٩٧).

وكان قيرس هذا (المعروف باسم المقوقس) يوصف بالقسوة والكراهية المطلقة لأصحاب الطبيعة الواحدة، وقد منحه الإمبراطور سلطة مطلقة لتحقيق سياسته في مصر، فانطلق في حملة من الاضطهاد العنيف على المصريين الأقباط بما زادهم كراهيةً ونفورًا من الحكم الروماني) (١).

عمرو بن العاص ومصر:

ونعيد إلى الذاكرة القصة التي ساقها لنا ابن عبد الحكم عن الصلة الوشيجة بين عمرو ومصر منذ أيام شبابه الأولى بسنده حيث يقول:

(وكان عمرو قد دخل مصر في الجاهلية، وعَمَرَ طرقها، ورأى كثرة ما فيها، وكان سبب دخول عمرو إياها - كما حدثنا يحيى بن خالد العدوي عن ابن لهيعة ويحيى بن أيوب عن خالد بن يزيد - أنه بلغه أن عمرًا قدم إلى بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش، فإذا هم بشمَّاس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس، فخرج في بعض جبالها يسيح، وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه، وكانت رعية الإبل نوبًا بينهم، فبينما عمرو يرعى إبله إذ مرَّ به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر، فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى رُوي، ونام الشماس مكانه، وكانت إلى جنب الشماس حيث نام حفرة خرجت منها حية عظيمة، فبصر بها عمرو، فنزع لها بسهم فقتلها، فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد نجَّاه اللَّه منها، فقال لعمرو: ما هذه؟! فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها، فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه، وقال: قد أحياني اللَّه بك مرتين مرة من شدة العطش، ومرة من هذه الحية، فما أقدمك هذه البلاد؟ قال: جئت مع أصحاب لي نطلب الفضل في تجارتنا. فقال له الشماس: وكم تراك ترجو أن تصيب في تجارتك؟ قال: رجائي أن أصيب ما أشتري به بعيرًا، فإني لا أملك إلا بعيرين، فأملي أن أصيب بعيرًا آخر فتكون ثلاثة أبعرة. فقال له الشماس: أرأيت دية أحدكم بينكم كم هي؟ قال: مائة من الإبل.

قال له الشماس: لسنا أصحاب إبل، إنما نحن أصحاب دنانير. قال: يكون ألف

---

(١) عمرو بن العاص بين يدي التاريخ لعبد الخالق سيد أبو رابية (ص ١٢٢، ١٢٣).

دينار. فقال له الشماس: إني رجل غريب في هذه البلاد، وإنما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس وأسيح في هذه الجبال شهرًا، جعلت ذلك نذرًا على نفسي وقد قضيت ذلك، وأنا أريد الرجوع إلى بلادي، فهل لك أن تتبعني إلى بلادي ولك عهد اللَّه وميثاقه أن أعطيك ديتين؛ لأن اللَّه أحياني بك مرتين؟ فقال له عمرو: أين بلادك؟ قال: مصر، في مدينة يقال لها: الإسكندرية. فقال عمرو: لا أعرفها، ولم أدخلها قط. فقال له الشماس: لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها. قال له عمرو: وتفي لي بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق؟ فقال له الشماس: نعم لك اللَّه علي بالعهد والميثاق أن أفي لك، وأن أردك إلى أصحابك.

فقال عمرو: وكم يكون مكثي في ذلك؟ قال: شهرًا؛ تنطلق معي ذاهبًا عشرًا، وتقيم عندنا عشرًا وترجع في عشر، ولك عليَّ أن أحفظك ذاهبًا وأن أبعث معك من يحفظك راجعًا. فقال له عمرو: أنظرني حتى أشاور أصحابي في ذلك. فانطلق عمرو إلى أصحابه، فأخبرهم بما عاهده عليه الشماس، وقال لهم: تقيموا عليَّ حتى أرجع إليكم، ولكم عليَّ العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبني رجلٌ منكم آنس به. فقالوا: نعم. وبعثوا معه رجلًا منهم، فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهى إلى الإسكندرية، فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه وقال: ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال.

ونظر إلى الإسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال فازداد عجبًا، ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيدًا فيها عظيمًا يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم أكرة من ذهب مُكلَّلة يترامى بها ملوكهم، وهم يتلقونها بأكمامهم، وفيما اختبروا من تلك الأكرة على ما وضعها من مضى منهم أنها من وقعت الأكرة في كُمِّه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم. فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله، وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه، وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالأكرة، وهم يتلقونها بأكمامهم، فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوي حتى وقعت في كم عمرو، فعجبوا من ذلك وقالوا: ما كذبتنا هذه الأكرة قط إلا هذه المرة، أترى هذا الأعرابي يملكنا؟! هذا ما لا يكون أبدًا.

وإن ذلك الشماس مشى في أهل الإسكندرية، وأعلمهم أن عَمْرًا أحياه مرتين، وأنه

قد ضمن له ألفي دينار، وسألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم، ففعلوها ودفعوها إلى عمرو، فانطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماس دليلًا ورسولًا، وزودهما وأكرمهما حتى رجع صاحبه إلى أصحابهما، فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها، ورأى منها ما علم به أنها أفضل البلاد وأكثرها مالًا، فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفًا. قال عمرو: فكان أول مال اعتقدته وتأثلته) [1].

أقصى ما كان يدور بخلد عمرو من أمجاد يوم زار مصر مع الشماس هو أن يزورها ثانية ويستمتع بجمالها، وأن يتمكَّن من مقابلة ملكها لعله يفوز ببعض الهدايا منه، ومن ثم يشمخ على أقرانه بهذا المجد، ولم يكن يدور بخلده أنه سيكون صانع التاريخ الإسلامي العظيم في مصر. أما الآن، وقد أنجز فتح فلسطين ودخلت الشام كلها في حوزة الإسلام، وأصبح أحد بناة التاريخ الإسلامي العظام، غدًا يحس بالمسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقه في فتح مصر، وحده دون غيره بعد أن خبرها وخبر كنوزها وأموالها وجيرانها كما خبر خطرها؛ فقد فرّ خصمه الأرطبون إلى مصر، وما لم تفتح مصر فستبقى الشام كلها في خطر؛ لأن البحر سوف يحمل لجنوده المؤن والأسلحة والأمداد من القسطنطينية لاستعادة أرض الشام - درة الإمبراطورية البيزنطية - لكنه يعلم كذلك أن مثل هذا الأمر ليس قرارًا شخصيًّا يتخذه بمقدار ما هو قرار الخليفة عمر ﷺ، فلذلك كان همه الأول أن يفضي بهذا الهم وهذا السر العظيم لعمر ابن الخطاب - الأرأف برعيته من الأم بولدها - الذي يعلم أنه لن يدفع بالمسلمين إلى مغامرة مجهولة عنده، وأدرك أنه إذا نجح بإقناع أمير المؤمنين بذلك فستلقي مصر قيادها إليه ويصبح جناحا الإسلام في أمن وسلام كاملين.

الانطلاقة إلى مصر:

وبسندٍ رجاله ثقات يحدثنا الإمام ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر عن هذا القرار الذي نفذ للتَّوِّ بعد اتخاذه:

حدثنا عثمان بن صالح، حدثنا ابن لهيعة، عن عبيد اللَّه بن أبي جعفر وعياش ابن عباس وغيرهما يزيد بعضهم على بعض قال:

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ٥٣ - ٥٥) وتأثل المال: اكتسبه وجمعه.

« لما قدم عمر بن الخطاب الجابية [١] قام إليه عمرو فَخَلَا به وقال: يا أمير المؤمنين إيذن لي أن أسير إلى مصر. وحرَّضه عليها وقال: إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم، وهي أكثر الأرض أموالًا، وأعجزها عن القتال والحرب. فتخَّوف عمر ابن الخطاب على المسلمين وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر ابن الخطاب ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن لذلك عمر، فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك، ويقال: ثلاثة آلاف وخمسمائة. فقال له عمر: سر وأنا مستخيرٌ اللَّهَ في مسيرك، وسيأتيك كتابي سريعًا - إن شاء اللَّه - فإن أدركك كتابي وأنا آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامضِ لوجهك واستعن باللَّه واستنصره.

فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمر اللَّه فكأنه تخوَّف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو بن العاص يأمره أن ينصرف بمن معه من المسلمين، فأدرك الكتاب عمرًا وهو برفح فتخوَّف عمرو ابن العاص يأمره إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار - كما هو - حتى نزل في قرية فيما بين رفح والعريش [٢] فسأل عنها فقيل: إنها من أرض مصر. فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين، فقال عمرو لمن معه: ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟ قالوا: بلى. قال: فإن أمير المؤمنين عهد إلي وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا على بركة اللَّه » [٣].

ويقال: بل كان عمرو بفلسطين فتقدم بأصحابه إلى مصر بغير إذن، فكتب فيه إلى

---

(١) قدم عمر بن الخطاب الجابية أربع مرات: الأولى: قبيل فتح بيت المقدس، والثانية: بعد فتح بيت المقدس، والثالثة: في أيام طاعون عمواس، ولكنه عاد أدراجه إلى المدينة لانتشار الوباء في المنطقة، والرابعة: بعد الطاعون سنة ثماني عشرة الهجرية، ومعنى هذا أن عمرو بن العاص كان في أرض الشام حتى نهاية سنة ثماني عشرة الهجرية، ويبدو أن عمرو بن العاص سار إلى مصر سنة تسع عشرة، ولكنه فتحها سنة عشرين الهجرية، وبذلك يمكن التوفيق بين ما جاء في تلك المصادر المعتمدة عن تاريخ فتح مصر مع استبعاد ما جاء في تلك المصادر قبل سنة تسع عشرة؛ لأن ذلك يناقض ما جاء في أحداث التاريخ. انظر شيت خطاب في كتاب سفراء النبي (ص ٤١٢).

(٢) العريش: من أراضي مصر، ورفح آخر مواني فلسطين، ومنها يدخل الراكب إلى مصر.

(٣) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٧٥ - ٧٧).

عمر، فكتب إليه عمر وهو دون العريش، فحبس الكتاب فلم يقرأه حتى بلغ العريش، فقرأه فإذا فيه: من عمر بن الخطاب إلى العاص بن العاص. أما بعد؛ فإنك سرت إلى مصر ومن معك وبها جموع الروم، وإنما معك نفر يسير، فلعمري لو كانوا ثكل أمك ما سرت بهم، فإن لم تكن بلغت مصر فارجع. فقال عمرو: الحمد للّه أية أرض هذه؟ فقالوا: مصر. فتقدَّم.

كما حدثنا كذلك عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب.. يقال: بل كان عمرو في جنده على قيسارية مع من كان بها من أجناد المسلمين، وعمر بن الخطاب إذ ذاك بالجابية، فكتب سرًّا فاستأذن إلى مصر، وأمر بأصحابه فتنحوا كالقوم الذين يريدون أن يتنحوا من منزل إلى منزل قريب، ثم سار بهم ليلًا، فلما فقده أمراء الأجناد استنكروا الذي فعل، ورأوا أن قد غرر، فرفعوا ذلك إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر: إلى العاص بن العاص أما بعد؛ فإنك قد غررت بمن معك، فإن أدركك كتابي ولم تدخل مصر فارجع، وإن أدركك وقد دخلت مصر فامض واعلم أني ممدك.

فيما حدثنا عبد الملك بن مسلمة ويحيى بن خالد عن الليث بن سعد قال: ويقال: إن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص بعدما فتح الشام أن اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر، فمن خفّ معك فسر به. وبعث مع شريك بن عبدة، فندبهم عمرو فأسرعوا إلى الخروج مع عمرو، ثم إن عثمان بن عفان دخل على عمر بن الخطاب، فقال عمر: كتبت إلى عمرو بن العاص يسير إلى مصر من الشام. فقال عثمان: يا أمير المؤمنين إن عمرًا لمجرؤ وفيه إقدام وحب للإمارة، فأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة، فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا. فندم عمر ابن الخطاب على كتابه إلى عمرو إشفاقًا مما قال عثمان، فكتب إليه: إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك، وإن كنت دخلت فامضِ لوجهك) [1].

يقول الأستاذ عبد الخالق أبو رابية:

(ولو أقدم عمرو بن العاص على ذلك الفتح من تلقاء نفسه كما يروي المؤرخ البلاذري: (وإن عَمْرًا حاصر قيسارية، ثم استخلف عليها ابنه، ومضى إلى مصر من تلقاء نفسه، فغضب عمر لذلك وكتب إليه يعنفه ويأمره بالرجوع إلى موضعه إن وافاه

---

(١) تبقى الرواية الأولى هي المعتمدة، بينما سيقت الروايات الأخرى برواية التضعيف.

كتابه دون مصر، فورد إليه وهو بالعريش) [١] أو ما يذكر المؤرخ الكندي: « إن أمير المؤمنين عمر كره الإقدام على من في مصر من جموع الروم، وجعل عمرو يهون أمرها وقد أمر أصحابه أن يتسللوا بالليل ثم اتبعهم ». أجل، لو أقدم على ذلك لوجد عند خليفة المسلمين عصًا غليظة تحسن تأديبه وترده إلى الطاعة والجماعة، كما لم يرد في أي مصدر آخر من مصادر التاريخ الإسلامي عبارة أو إشارة إلى غضب أمير المؤمنين على قائده عمرو من أجل عصيان أو خروج على المألوف صدر عنه، كما لم يسبق لأحد من أمراء الأجناد على عهد عمر من افتأت عليه برأيه حتى نصدق ما نسب إلى عمرو من المروق والعصيان، وسنرى من سياق حديثنا عن سيرة عمرو ابن العاص كيف أنه ما كان يبت في أمر ذي شأن إلا بإذن من خليفته كما حدث قبل زحفه إلى الإسكندرية، ثم في غزوه لإفريقية [٢].

بينما يعلق أستاذنا شيت خطاب على ذلك بقوله:

« وليس من المعقول ولا من المنطق في شيء أن يمضي عمرو لفتح مصر من تلقاء نفسه بدون استشارة عمر بن الخطاب وأخذ موافقته على هذا الفتح، ولا أن يقدم عمرو على المغامرة بفتح مصر خلافًا لرغبة عمر بن الخطاب وموافقته الكاملة الصريحة، وعمر يكتب إليه مُوبِّخًا مُعنِّفًا، وعمر بن الخطاب أقوى وأصلب من أن يفسح المجال لعامل من عماله أن يخالف رغباته ويتحدَّى أوامره ويخرج على طاعته، فلا بد أن عمرو بن العاص أقنع عمر بن الخطاب على فتح مصر، فكانت موافقة عمر ابن الخطاب على فتح مصر موافقة صريحة لا لبس فيها ولا غموض » [٣].

لكن تبقى القضية ذات الإشكال في تاريخ فتح مصر هي قضية مشاركة عمرو ﷺ في حل أزمة الطعام للمسلمين عام الرمادة (وبالجملة فينبغي أن يكون فتحها قبل عام الرمادة؛ لأن عمرو بن العاص حمل الطعام في بحر القلزم من مصر إلى المدينة في عام الرمادة الذي كان سنة ثماني عشرة الهجرة أو سنة سبع عشرة؛ أي أن الفتح كان سنة ست عشرة) [٤] ولكن الأمر لا يستقيم، حيث تذكر المصادر وجود عمرو في الشام حتى عام ثماني عشرة عند قدوم أمير المؤمنين الجابية.

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢١٤).

(٢) عمرو بن العاص بين يدي التاريخ (ص ١٢٦).

(٣) سفراء النبي ﷺ لشيت خطاب.

(٤) الولاة والقضاة للكندي. كتاب ولاة مصر (ص ٧).

الفتوحات الأولى في مصر:

فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو بن العاص إلى مصر توجَّه إلى الفسطاط فكان يجهز على عمرو الجيوش، وكان على القصر [١] رجل من الروم يقال له: الأعيرج واليًا عليه، وكان تحت يدي المقوقس، وأقبل عمرو حتى إذا كان بجبل الحلال نفرت معه راشدة [٢] وقبائل من لخم، فتوجَّه عمرو حتى إذا كان في **العريش** أدركه النحر فضحى عمرو عن أصحابه يومئذ بكبش، فتقدم عمرو بن العاص فكان أول موضع قوتل فيه **الفرما**، قاتلته الروم قتالًا شديدًا نحوًا من شهر، ثم فتح اللَّه على يديه، ثم توجه عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى نزل **القواصر**، ثم تقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى أتى **بلبيس**، فقاتلوه بها نحوًا من شهر حتى فتح اللَّه عليه، ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى **أم دنين** فقاتلوا من بها قتالًا شديدًا وأبطأ عليه الفتح، فكتب إلى عمر يستمده، فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف فقاتلهم [٣].

وفي حديث ابن وهب عن عبد الرحمن بن شريح عن شراحيل بن يزيد قال: فجاء رجل إلى عمرو بن العاص فقال: اندب معي خيلًا حتى آتيهم من ورائهم عند القتال. فأخرج معه خمسمائة فارس، فساروا من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بني وائل قبل الصبح، وكانت الروم قد خندقوا خندقًا وجعلوا له أبوابًا وبثوا في أفنيتها حسك الحديد، فالتقى القوم حين صبحوا، وخرج اللخمي بمن معه من ورائهم فانهزموا حتى دخلوا الحصن.

وفي رواية غير ابن وهب: وبعث خمسمائة عليهم خارجة بن حذافة، فلما كان في وجه الصبح نهض القوم فصلُّوا الصبح ثم ركبوا خيلهم، وغدا عمرو بن العاص على القتال فقاتلهم من وجههم وحملت الخيل التي كان وجَّه من ورائهم واقتحمت عليهم فانهزموا.

لقد تحرَّك عمرو ﷺ ليفتح أمة كاملة بأربعة آلاف مقاتل، وهو تحرُّك الخبير الحذر

---

(١) يعني قصر الشمع الذي بمصر القديمة، في موضع الفسطاط، بدأ الفرس بناءه بعد أن اشتد ملكها وقويت على الروم وتملكت الشام ومصر، وجعلوا في هذا القصر هيكلًا لبيت النار، ولم يتموا بناءه، وأتمه الروم بعد أن ظهروا على الفرس، وجعلوه حصنًا مانعًا، ويعرف هذا القصر ببابليون.

(٢) راشدة وقبائل من لخم: هي قبائل عربية انضمت إلى جيش عمرو ﷺ.

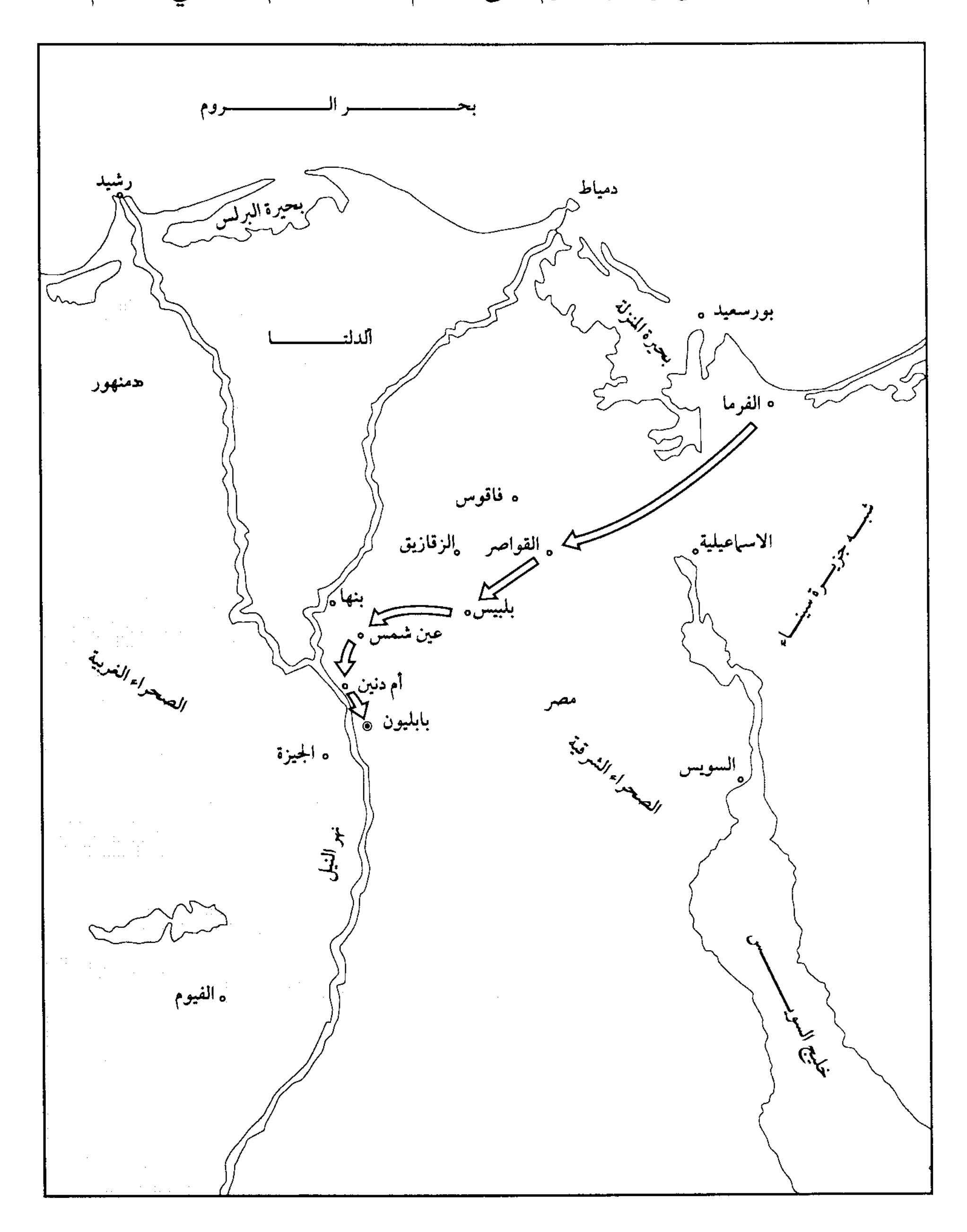
(٣) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم، مقتطفات (ص ٥٨، ٥٩).

المجرِّب، واستطاع أن يمضي من شمال مصر إلى وسطها، ويخوض معارك عنيفة بآلافه الأربعة، وفي الفرما بقي يقاتل العدو شهرًا كاملًا حتى فتحها اللَّه عليه، وفي بلبيس يلقى المقاومة نفسها، فيصمد نحوًا من شهر ثم يفتحها اللَّه عليه، ولكن المعركة الأعنف والأصعب كانت أم دنين، حيث لم يكفه شهر من الحصار للعدو، وأرسل يطلب المدد من أمير المؤمنين، لكن يتابع بعقليته الجبارة الحرب، فالصدام المباشر بغير خطط وتكتيك مناسبين لا يمكن أن يُنْهِيَهَا، وقد وردت روايات عديدة عن كيفية انتصاره في أم دنين يتحدَّث عنها أبو رابية بقوله:

ثم سار عمرو بن العاص جنوبًا بمدينة هليوبولس سائرًا على جانب الصحراء حتى وصل إلى قرية تندونياس - كما سمَّاها الأسقف النقيوسي، وقد سمَّاها العرب بعد ذلك (أم دنين) وكانت إلى الشمال من حصن بابليون ثم سُمِّيت المقس فيما بعد، وموضعها الآن حديقة الأزباكية في قلب القاهرة؛ وهنا فقط تنبه الروم إلى خطر الحرب عليهم بعد أن كانوا يظنون أن الأمر لا يعدو أن يكون غارة من غارات البدو، وما كان الروم ليرضوا أن تقع تلك القرية في يد العرب، وهي موقع حصين يجاوره مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة، وفي ذلك ما فيه من القيمة في الحرب، وكانت أم دنين مسلحة قوية، وإلى الجنوب يوجد جيش الروم الأكبر في حصن بابليون الذي كان في استطاعته أن يقاوم العرب في أي وقت يشاء ثم يعود إلى حصنه آمنًا وراء أسواره الضخمة.

وكان قائد الروم واسمه (تيودور) رجلًا نكولًا عاجزًا عن الحرب؛ لذلك مضت عدة أسابيع نشب فيها قتال خفيف بين الفريقين لم يؤذ الروم أذًى كثيرًا، ولكنه أجهد العرب بمن كان يُقتل منهم حتى صاروا في قلة لا تستطيع إتمام فتح مصر. وقد أيد المؤرخون العرب ذلك؛ فيقول المقريزي: « إنه كان قتال شديد عند أم دنين، وإن الفتح أبطأ على المسلمين ». ويقول أبو المحاسن: « كان قتال شديد ولم يدر الناس لمن تكون الغلبة ». أما ابن عبد الحكم فيقول: « وكانت في أم دنين مسلحة قوية ». وقوتل عمرو قتالًا شديدًا وأبطأ عليه الفتح، فكتب إلى أمير المؤمنين يستمده ثم ضاعف جنوده على أم دنين حتى فتح اللَّه عليه. فلما رأى عمرو بن العاص ﷺ حرج موقفه في حصاره لأم دنين لكثرة من قُتل من جنوده أيام الحصار بعث إلى الخليفة عمر يطلب منه المدد، ويستحثه على إرساله على جناح السرعة، ولكن المدد أبطأ عنه، وكان كل يوم من أيام إبطائه غُنمًا لأعداء العرب حتى أصبحت كفَّتا الحرب مترددتين، وخيل إلى الناس أن

النصر في إحداهما، لا يدري أحد أيتهما ترجح، ولم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى اقتحم المسلمون الحصن وغلبوا الروم على أمرهم؛ فسقطت أم دنين في أيديهم [١].



طريق عمرو بن العاص ﷺ من الفرما إلى بابليون

(١) عمرو بن العاص بين يدي التاريخ لعبد الخالق أبو رابية (ص ١٣٨، ١٣٩).

فتح الإسكندرية:

كان عمرو يتعجل السير إلى الإسكندرية قبل أن يعود فيضان النيل ويغرق الأرض وقد بقي على موسمه أشهر قليلة، فسار شمالًا حيث سيطر على نقيوس، وسار حتى سلطيس، واستولى على كريون وتراجع الروم إلى الإسكندرية وعمرو في أعقابهم.

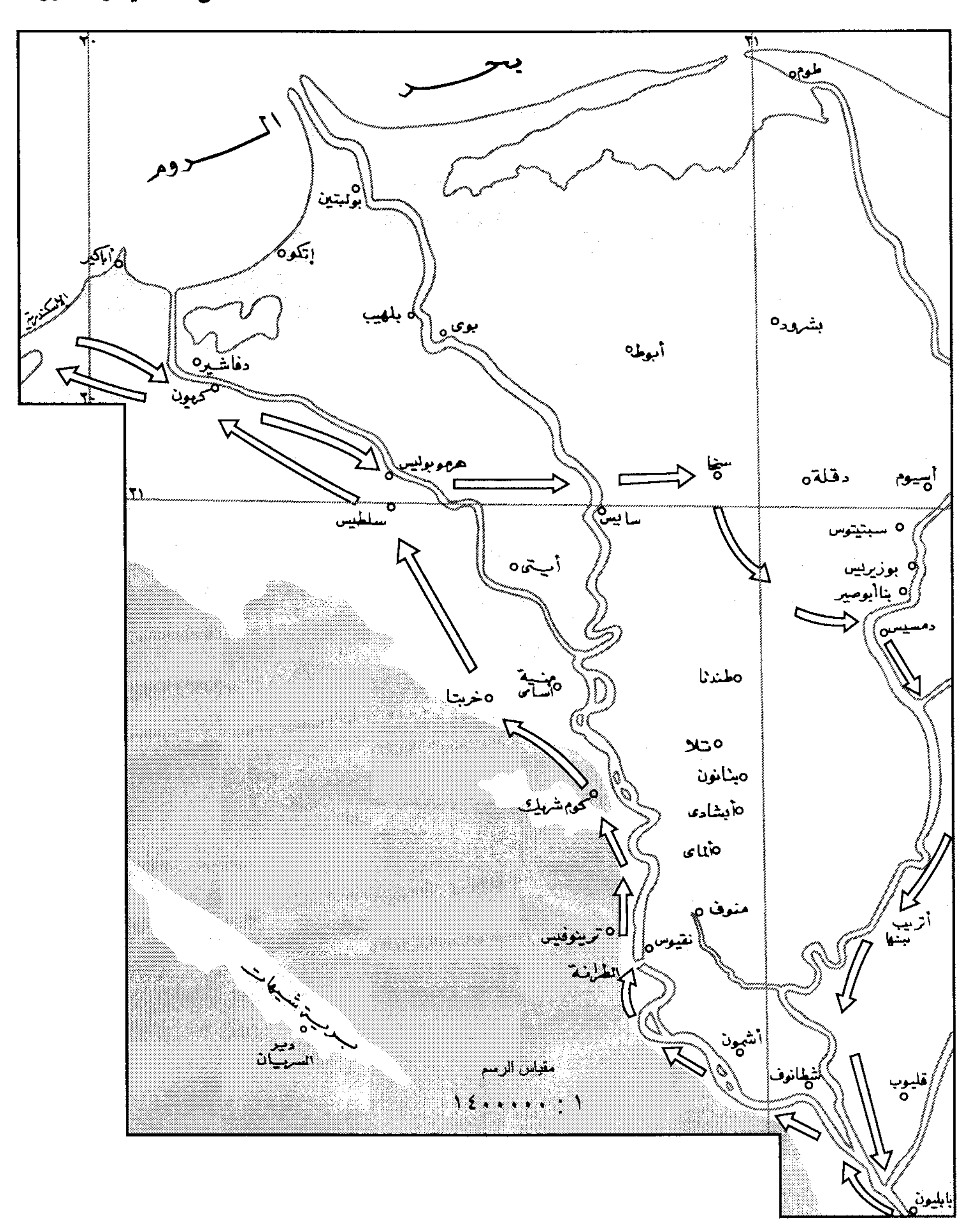
يقول الأستاذ أحمد عادل كمال: وبادر عمرو بمهاجمة أسوار « الإسكندرية » فردته مجانيقها، فوقف على مسافة يقطع سيطرتها عن سائر مصر ويستولي على ما خارجها، وبعد أن وقف أكثر أبقى حامية أمام « الإسكندرية » وسار بحملة إلى « كريون » ثم « دمنهور » ثم شرقًا؛ فعبر النيل إلى الدلتا وبلغ « سَخَا » ولكنه لم يفتحها، لحصانة أسوارها، ثم سار جنوبًا إلى « طوخ » ثم إلى « دمسيس » على الجانب الشرقي لفرع « دمياط » ولم يفتحها، ولكنه غنم غنائم كبيرة، ويذكر حنا النقيوسي أنه بلغ « دمياط »، في غزاته هذه ثم عاد إلى « حصن بابليون » بعد جولة استغرقت اثني عشر شهرًا منذ موقعة « عين شمس » وهنا نحسب أن عمرًا قام بفتح إقليم الفيوم.

وبينما هو في « بابليون » جاءه المقوقس يعرض عليه الصلح على أساس الجلاء عن « الإسكندرية » في أحد عشر شهرًا وعلى أداء الجزية دينارين على الرجال غير الصبيان والمسنين وبلغت (١٢,٠٠٠,٠٠٠) اثنى عشر مليون دينار بما يعني استحقاقها عن (٦) مليون نسمة، وعلى الأمان لأهل مصر على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم وبرهم وبحرهم.. إلخ، وتم توقيع الصلح في (٢٨ ذو القعدة ٢٠هـ = ٨ نوفمبر ٦٤١م) على ما حققه بتلر.

ولم يعلن المقوقس هذا الصلح لقومه حتى فوجئوا في (ذي القعدة ٢١هـ = أكتوبر ٦٤٢م) بتحرك المسلمين لدخول « الإسكندرية » وأقنعهم المقوقس بعدم جدوى استمرار الحرب وأنه خير للإنسان أن يشترى دينه ودمه وماله وأمنه بدينارين فقط في العام، ولا شيء على النساء والشيوخ والصبيان ومن لا يصلح للقتال [1].

---

(١) أطلس الفتوحات الإسلامية لأحمد عادل كمال (ص ١٥٢ - ١٥٣).



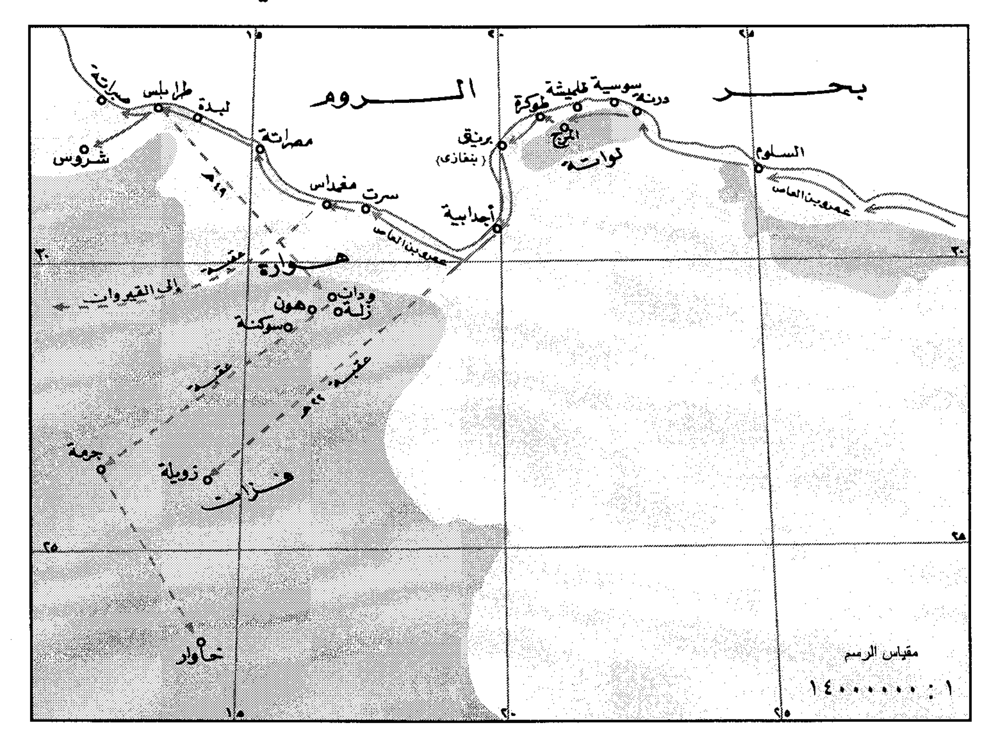
إلى الإسكندرية

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٦٥) خريطة (٩٩))

فتح طرابلس:

في شهر (شوال ٢١ = هـ سبتمبر ٦٤٢م) فتحت مدينة « الإسكندرية » وكانت « برقة » تابعة لها في العهد البيزنطي، فسار إليها عمرو بن العاص في (١٩ شعبان ٢٣هـ = ٨ يونية ٦٤٤م) وكان اسمها « أنطابلس » ومعناها بالرومية المدن الخمس وهي: « طوشير » (طوكرة)، و « سيرين » (قرنة)، و « برنيق » (بنغازي)، و « أبولونيا » (سوسة)، و « بارش » (المرج). وقبل أن يصل إلى « طرابلس » أرسل عمرو من « برقة » عقبة بن نافع ففتح « زويلة » وهي مدينة بمنطقة « فزان ».

واستولى عمرو على « سرت » ثم « لبدة » ثم « طرابلس » سنة (٢٣هـ = ٦٤٤م) ومنها بعث الزبير بن العوام فاقتحم « صبراتة » وتبعه عمرو، ثم فتحوا « شروس » مدينة جبل نفوسة، وبعث بسر بن أرطأة إلى « ودان » ففتحها سنة (٢٣هـ = ٦٤٤م) ورجع عمرو بناء على أوامر الخليفة عمر بن الخطاب، وخلف عقبة في « برقة » [1].



فتوح برقة والمغرب

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٦٨) خريطة (١٠٢)

---

(١) أطلس الفتوحات الإسلامية لأحمد عادل كمال (ص ١٦٩).



الفصل الثاني والعشرون

عام الرمادة

(حدثني محمد بن سعد، حدثني محمد بن عمر الواقدي، حدثني حرام بن هشام عن أبيه: لما صدر الناس عن الحج سنة ثماني عشرة أصاب الناس جهد شديد، وأجدبت البلاد، وهلكت الماشية، وجاع الناس وهلكوا، حتى كانوا يَسِفُّون الرمّة ويحفرون أنفاق اليرابيع والجرذان فيخرجون ما فيها.

وعن الواقدي بسنده عن شيوخه: سُمِّي ذلك العام عام الرمادة؛ لأن الأرض كلها صارت سوداء فشبهت بالرماد، وكان ذلك تسعة أشهر) (١).

أولًا: إعلان النفير العام في كل ولايات الخلافة:

في مصر:

(حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد اللَّه بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص عام الرمادة:

من عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاص. سلام عليك. أما بعد.. أفتراني هالكًا ومَنْ قِبَلِي، وتعيش أنت وَمَن قِبَلك؟؟ فيا غوثاه يا غوثاه ».

فكتب إليه عمرو بن العاص:

سلام عليك، فإني أحمد اللَّه إليك الذي لا إله إلا هو. أما بعد.. فقد أتاك الغوث، فلأبعثن إليك بعيرًا أولها عندك، وآخرها عندي إن شاء اللَّه).

ثانيًا: توزيع ثروات الدولة على المحتاجين في قلب البادية:

(فلما قدم أول الطعام كلَّم عمر الزبير بن العوام فقال: تعترض العير فتميلها إلى أهل البادية. فأبى الزبير واعتل، وأقبل رجل من أصحاب النبي ﷺ، فقال عمر رضي اللَّه تعالى عنه: لكن هذا لا يأبى.

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/ ٤٤٦٦).

فكلَّمه عمر ففعل، فقال له عمر:

- انظر ما لقيت من الطعام فمل به إلى أهل البادية.
- واجعل الظروف لحفًا يلبسونها.
- وانحر الإبل لهم يأكلون لحومها.
- ويحتملون من وَدَكِها.
- ولا تنتظر أن تقول ننتظر بها الحيا.
- حتى يأتي أمر اللَّه بالفرج) [١].

وقال الواقدي في أسانيده:

(كتب عمر ﷺ إلى عمرو بن العاص أن يحمل الطعام في البر والبحر) على الإبل وفي السفن، ففعل، فبعث عمر من عدل بالأبل من أفواه الشام يمينًا وشمالًا، فنحرت الجزر، وأطعم الدقيق، وكسا العباد، وبعث إلى الجار فحمل ما بعث به عمرو إلى تهامة فأطعمه الناس).

ثالثًا: وللشام والعراق مسؤوليتهما في حل الأزمة:

(وقال الواقدي: قال حرام بن هشام: قال أبي:

رأيت رسل عمر فيما بين مكة والمدينة يطعمون الطعام الذي ورد الجار من قبل عمرو، قال: وبعث يزيد بن أبي سفيان أو معاوية من الشام بطعام، فبعث عمر من تلقاه من أفواه الشام، فصنع به كما صنع بما بعث به عمرو من الإبل، وبعث إلى سعد، فبعث بالطعام من العراق ..

وقال الواقدي: بعث عمرو بعشرين سفينة تحمل الدقيق والودك، وبعث في البر بألف بعير تحمل الدقيق، وبعث إليه معاوية بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق، وثلاثة آلاف عباءة، وبعث عمرو بخمسة آلاف كساء، وبعث سعد بألفي بعير عليها دقيق) [٢].

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/ ٤٤٦٦).

(٢) المصدر السابق (١٠/ ٤٤٦٧).

رابعًا: إطعام البادية مقدم على إطعام المدينة:

فأهل المدينة وما جاورها يمكن أن يأتوا فيأخذوا حصتهم من الطعام، ولذلك (بعث مناديًا: من أحب أن يحضر طعامنا فيأكل فليفعل، ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله فليأت فيأخذه) [١].

(حدثني محمد بن سعد عن الواقدي، حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما كان عام الرمادة تحلبت العرب من كل ناحية، فقدموا المدينة، وكان عمر قد أمر رجالًا أن يقوموا عليهم، ويقسموا أطعمتهم وإدامهم بينهم، منهم ابن أخت النمر، والمسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن عبد القارئ، وعبد اللّه بن عتبة ابن مسعود، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر فأخبروه بكل ما كانوا فيه. وكان كل رجل منهم على ناحية من المدينة، وكانت الأعراب حلولًا فيما بين رأس البنية إلى بني حارثة إلى بني عبد الأشهل إلى البقيع إلى بني قريظة، ومنهم طائفة بناحية بني سلمة، فسمعت عمر ليلة يقول وقد تعشى الناس: أحصوا من تعشَّى عندنا. فأحصوهم من القابلة. فوجدوهم سبعة آلاف رجل، وأحصوا العيالات الذين لا يأتون العشاء والصبيان فوجدوهم أربعين ألفًا، ثم مكثنا ليالي فزاد الناس فأحصوهم فوجدوا من تعشى عند عمر عشرة آلاف، ووجد الآخرون خمسين ألفًا، فما برحوا حتى أرسل اللّه السماء، فلما أمطرت رأيت عمر وقد وكل بهؤلاء النفر من في نواحيهم يخرجونهم إلى البادية، ويعطونهم قوة وحملانًا إلى باديتهم، ولقد رأيت عمر يخرجهم بنفسه. قال أسلم: وكان الموت وقع فيهم فأظنه مات ثلثاهم وبقي الثلث، وكانت قدور عمر يقوم إليها العمال في السَّحَر، فيعملون الكركوز حتى يصبحوا، ثم يطعمون المرضى منهم ويعملون العصائد، وكان عمر يأمر بالزيت فيصير في القدور الكبار على النار حتى يذهب حره ثم يثرد الخبز، ويؤتدم بذلك الزيت. كانت العرب تحم من ذلك الزيت، وما أكل عمر في بيت أحد من ولده ونسائه ذواقًا زمان عام الرمادة، وما كان يأكل إلا مع الناس حتى أحيا الناس أول ما أحيوا) [٢].

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٤٦٧).

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/ ٣٩٦ - ٣٩٧).

خامسًا: حكومة إدارة الأزمات. رئيس الدولة يباشر التنفيذ بنفسه:

(محمد عن الواقدي ... عن رجل من بني نصر قال: لما كان عام الرمادة قدم عليَّ من قومي مائة أهل بيت فنزلوا بالجبَّانة، وكان عمر يطعم من جاءه من الناس، ومن لم يأتِ أرسل إليه بالدقيق والتمر والأدم في منزله، فكان يرسل إلى قومي ما يصلهم شهرًا شهرًا، وكان يتعهَّد مرضاهم، ويقيم أكفان من مات منهم، ولقد رأيت الموت وقع فيهم حين أكلوا الثفل [١] فكان عمر يأتي بنفسه فيصلِّي عليهم، فلما أحيوا قال: اخرجوا من القرية إلى ما كنتم اعتدتم من البرية. فجعل عمر يحمل الضعيف منهم حتى لحقوا ببلادهم) [٢].

(حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن أسامة بن زيد عن نافع مولى آل الزبير قال: سمعت أبا هريرة يقول: يرحم اللَّه ابن حنتمة (يقصد عمر)، لقد رأيته عام الرمادة وقد حمل على ظهره جرابين وفي يده عكة زيت، وإنه ليعتقب هو وأسلم، فلما رآني قال: من أين يا أبا هريرة؟ قلت: قريبًا. فقال: كن معنا. فحملنا ذلك حتى انتهينا إلى صرم نحو عشرين بيتًا من محارب، فقال عمر: ما أقدمكم؟ قالوا: الجهد. فأخرجوا لنا جلد ميتة مشويًّا كانوا يأكلون منه، ورمة عظام مسحوقة كانوا يستفونها، فرأيت عمر طرح رداءه، ثم ائتزر، فما زال يطبخ لهم ويطعمهم حتى شبعوا، ثم أرسل أسلم إلى المدينة فجاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة، ثم كساهم، وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع اللَّه ذلك) [٣].

سادسًا: شد الأحزمة على البطون:

أما عمر ﷺ فقد كانت حياته كلها خشونة طعامًا وملبسًا، لكنه عاش محنة الرمادة بأعصابه. (حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد اللَّه بن يزيد عن عياض بن خليفة قال: رأيت عمر ﷺ عام الرمادة وهو أسود اللون، وعهدته قبل ذلك أبيض، فقلت: لم اسودَّ؟ فقيل: إنه كان يأكل السمن واللبن، فلما أمحل الناس حرَّمهما حتى يحيوا، فأكل الزيت وغيّر لونه وجاع فأكثر) [٤].

---

(١) الثفل: الحبُّ، وأكل الثفل أشد ما يكون من شظف العيش.

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (٣٩٧/١٠). (٣) المصدر نفسه (٣٩٣/١٠).

(٤) المصدر نفسه (١٠/ ٣٩٤).

(حدثنا عمرو الناقد ثنا يزيد بن هارون عن محمد بن مطرف عن زيد بن أسلم عن أبيه: أصاب الناس عام سنة، فغلا السمن، فكان عمر يأكله، فلما قل قال: لا آكله حتى يأكله الناس. فكان يأكل الزيت، فقال: يا أسلم اكسر عنا حرَّه بالنار. فكنت أطبخه له، فيأكله، فيقرقر عنه بطنه. فقال: تقرقر؟ لا واللَّه لا تأكله - أي السمن - حتى يأكله الناس) [١].

(محمد عن الواقدي عن عبد اللَّه بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: كان عمر يصوم الدهر، فكان في زمان الرمادة إذا أمسى أُتي بخبز قد ثرد بالزيت، إلى أن نحروا يومًا من الأيام جزورًا، فلما طعمها الناس وغرفوا له طيبها فأتي به، فإذا فدر [٢] من سنام وكبد فقال: بخ بخ بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها، ارفع هذه، وهات لنا غير هذا الطعام. قال: فأتي بخبز وزيت، فجعل يكسر بيده، ويثرد ذلك الخبز، ثم قال:

ويحك يا يرفأ، احمل هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت ذكرهم له بثمغ [٣] فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام أحسبهم مقفرين، فضعها بين أيديهم) [٤].

(وروى الواقدي عن ابن عمر قال: أحدث عمر في زمان الرمادة أمرًا ما كان يفعله من قبل، كان يصلي بالناس العشاء، ثم يدخل إلى بيته فلا زال يصلي إلى آخر الليل ثم يخرج فيأتي الأنقاب [٥] فيطوف عليها، وإني لأسمعه ليله في السَّحَرِ وهو يقول: اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي وفي ولايتي) [٦].

(حدثنا سليمان بن داود الزهراني، ثنا حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد عن محمد بن يحيى بن حبان قال: أتي عمر عام الرمادة بخبز مفتوت بسمن، فدعا رجلًا بدويًّا فأكل معه، فجعل البدوي يتتبَّع الودك [٧] في جانب القصعة، فقال له عمر: كأنك مقفر من الودك؟ فقال: أجل، ما أكلت سمنًا ولا زيتًا ولا رأيت أكلًا له منذ كذا وكذا قبل اليوم. فحلف عمر ألا يذوق لحمًا ولا سمنًا حتى يحيا الناس) [٨].

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٣٩٢).
(٢) فدر: قطع.
(٣) ثمغ: موضع خيبر.
(٤) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/ ٣٨٤).
(٥) أنقاب المدينة: الطرق المؤدية إليها.
(٦) المصدر السابق.
(٧) الودك: الدسم والشحم.
(٨) أنساب الأشراف (١٠/ ٣٨٤).

وماذا عن الولاة الآخرين؟ فهو لا يستطيع أن يجبرهم على الزهد، ولكن يستطيع أن يخفف من غلواء ترفهم، وقد ذكر البلاذري رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الحادثة في حديثه عن عام الرمادة.

(المدائني عن علي بن حماد وسحيم بن حفص وغيرهما قالوا:

قال أبو المختار يزيد بن قيس بن الصعق كلمة رفع فيها على عمال الأهواز وغيرهم إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهي:

أبلغْ أمِيرَ المؤمنين رسَالةً ... فأنتَ أمينُ اللَّه في النهْي والأَمر

وأنتَ أمين اللَّه فِينا ومَنْ يكُنْ ... أمينًا لربِّ العرش يسْلَم له صدْرِي

فلا تدَعَنّ أهْلَ الرسَاتِيق والقُرى ... يَسِيغُون مَالَ اللَّه في الأدم الوفر

فأرسِل إلَى الحجّاج فاعرف حِسَابه ... وأرسِل إلَى جزء وأرْسِل إلَى بِشر

ولا تنْسَين النَّافِعَين كليهما ... ولا ابنَ غلّابٍ من سُراة بَنِي نصر

ومَا عَاصِمٌ منها بصُفر عِيَابه [(١)] ... وذاك الذي في السُّوق مَوْلَى بَنِي بدر

وأرسلْ إلى النُّعمان فاعْرِفْ حِسَابه ... وصِهْرِ بني غَزْوان إنِّي لَذُو خُبْرِ

وشبلًا فسَلْه المالَ وابنَ محرِّش ... فقدْ كَانَ فِي أهْل الرسَاتِيق ذَا ذِكرِ

فَقاسِمْهم نَفْسي فَداؤك إنَّهم ... سَيرْضَوْن إن قَاسَمْتَهم مِنك بالشّطر

ولا تدعُونِي للشهَادةِ إننِي ... أغيبُ ولكنِّي أَرى عجَبَ الدَّهر

نؤُوب إذَا آبوا ونغزُو إذَا غَزَوا ... فأنَّى لهُم وفْرٌ ولسْنَا ذَوِي وَفْرِ

فقاسَمَ عمر هؤلاء القوم، فأخذ شطر أموالهم حتى أخذ نعلًا وترك نعلًا، وكان فيهم أبو بكرة فقال له: إني لم ألِ لك شيئًا. فقال:

أخوك على بيت المال وعشور الأبلة، فهو يعطيك المال تتجر فيه. فأخذ منه عشرة آلاف. ويقال: قاسَمَهُ فأخذ شطر ماله.

قال: والحجاج الذي ذكره: الحجاج بن عتيك الثقفي، وكان على الفرات، وجزء ابن معاوية عم الأحنف وكان على سُرَّق [(٢)]، وبشر بن المحتفز وكان على جندي

---

(١) العِيَاب: جمع عَيْبَة، وهي الوعاء يكون من أدم للمتاع.

(٢) من كوَر الأهواز.

سابور. والنافعان: نفيع أبو بكرة، ونافع بن الحارث بن كَلَدة أخوه، وابن غلاب: خالد ابن الحارث من بني دُهمان بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، وكان على بيت المال بأصبهان، وعاصم بن قيس بن الصلت، كان على مناذر، والذي في السوق سمرة بن جندب، كان على سوق الأهواز، والنعمان بن عدي بن نضلة - ويقال: نضيلة - كان على كور دجلة، وصهر بني غزوان مجاشع بن مسعود السُّلمي كانت عنده ابنة عتبة بن غزوان، وكان على صدقات البصرة، وشبل بن معبد البَجلي ثم الأحمسي كان على قبض المغانم، وابن محرِّش أبو مريم الحنفي كان على رامَهُرْمُز، وكان جزء على الفرات) [١].

سابعًا: الخطة الاحتياطية:

وقد أعلن عنها عمر ﷺ ووجه بها إنذارًا إلى الأمة، وأخرج ابن شبة في كتاب أخبار المدينة المنورة (٦/ ٢/ ٣٠٥) (عن عبد اللَّه بن عمر: أن عمر ﷺ قام عام الرمادة، وكانت سنة شديدة، فقال بعدما أجهد في إمداد العرب بالإبل بالقمح والزيت من الأرياف كلها، بلحت [٢] الأرياف مما جهدها. فقام عمر ﷺ فقال: اللهم اجعل رزقهم في رؤوس المطر آية. فاستجاب اللَّه له وللمسلمين فأغاث عباده ..).

أما الخطة فهي:

(.. الحمد للَّه، فواللَّه لو لم يفرجها اللَّه ما تركت أهل بيت من المسلمين لهم سعة إلا أدخلت عليهم أعدادهم من الفقراء، فلم يكن اثنان ليهلكا من الطعام على ما يقيم واحدًا. وقال الشيخ الدويش في الحاشية: رواه البخاري في الأدب المفرد، وإسناده صحيح) [٣].

فهي المعالجة الجذرية، فلا يمكن أن يموت قوم من الفقر ويحيا آخرون، وكل ذي سعة من المسلمين يمكن أن يستضيف فقيرًا، وكما يقول عليه الصلاة والسلام:

« **طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة** » [٤].

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) بلحت: أجهدت ولم تنبت شيئًا.

(٣) صحيح تاريخ الطبري للبرزنجي وحلاق (٣/ ٢٦٠).

(٤) رواه مسلم (٢٠٥٩).

ثامنًا: تأخير جمع الزكاة عام الرمادة:

(حدثني محمد بن سعد، حدثنا الواقدي، حدثنا خالد بن إلياس عن يحيى ابن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب رضي اللَّه تعالى عنه أخَّر الصدقة عام الرمادة، فلم يبعث السعاة، فلما كان قابل ورفع اللَّه ذلك الجدب أمرهم أن يخرجوا فأخذوا عقالين، فأمرهم أن يقسموا عقالًا، ويقدموا عليه بعقال؛ أي صدقة سنة.

حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن سفيان بن عيينة عن أبي نجيح عن كردم أن عمر بعث مصدقًا عام الرمادة فقال: أعط من أبقت له السنة غنمًا وراعيًا، ولا تعط من أبقت له غنمين وراعيين) [1].

تاسعًا: إيقاف حد السرقة:

(وقد رأينا عمر ﷺ يوقف إقامة حد السرقة في عام المجاعة؛ لأن الحدود تُدْرَأ بالشبهات، ووجود المجاعة مظنة شبهة عامة أن الناس في هذه الحالة لا يسرقون إلا من حاجة، فكان هذا كافيًا ألا يقام الحد حتى تنكشف الغمة عن الناس، والعقوبة ليست هي العامل الأكبر في معالجة الجريمة في نظر الإسلام، بل الوقاية منها بمنع أسبابها هو العامل الأكبر، فالوقاية دائمًا خير من العلاج) [2].

(ومن المفترض أن يتم تحديد الحد الأدنى من الأجور بما يكفل للعامل كفايته في حدها الأدنى، ويستأنس لذلك بحديث عبد الرحمن بن حاطب عن غلمان أبيه الذين سرقوا ناقةً لرجل من مزينة فانتحروها واعترفوا بها، فأمر عمر بن الخطاب بقطع أيديهم، ثم تراجع عن ذلك وقال: لولا أظن أنكم تجيعونهم حتى إن أحدهم أتى ما حرم اللَّه ﷻ لقطعت أيديهم، ولكن واللَّه لئن تركتهم لأغرمنك فيهم غرامة توجعك [3] ...) [4].

عاشرًا: رسالة رسول اللَّه ﷺ إليه:

قال أبو جعفر: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن مبشر بن الفضيل

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/ ٤٠٣).

(٢) الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، الميثاق الإسلامي (ص ٤٩، ٥٠).

(٣) سنن البيهقي الكبرى، كتاب السرقة: ما جاء في تضعيف الغرامة ح رقم (١٧٠٦٤).

(٤) الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين. الميثاق الإسلامي (ص ٤٧).

عن جبير بن صخر عن عاصم بن عمر بن الخطاب قال:

قحط الناس زمان عمر عامًا، فهزل المال، فقال أهل بيت من مزينة من أهل البادية لصاحبهم: قد بلغنا، فاذبح لنا شاة. قال: ليس فيهن شيءٌ. فلم يزالوا به حتى ذبح لهم شاة، فسلخ عن عظم أحمر، فنادى: يا محمداه. فأُرِيَ فيما يرى النائم أن رسول اللَّه ﷺ أتاه فقال:

أبشر بالحيا، ائت عمر فأقرئه مني السلام وقل له: إن عهدي بك وأنت وَفِيُّ العهد، شديد العقد فالكَيْسَ الكَيْسَ يا عمر. فجاء حتى أتى باب عمر فقال لغلامه: استأذن لرسول رسول اللَّه ﷺ. فأتى عمر فأخبره ففزع وقال: رأيتَ به مسًّا؟ قال: لا. قال: فأدخله، فدخل فأخبره الخبر، فخرج فنادى في الناس وصعد المنبر، قال: أنشدكم بالذي هداكم للإسلام هل رأيتم مني شيئًا تكرهونه؟ قالوا: اللهم لا. قالوا: ولم ذاك؟ فأخبرهم ففطنوا ولم يفطن، فقالوا: إنما استبطأك في الاستسقاء فاستسقِ بنا ..) (١).

حادي عشر: انتهاء الأزمة بالاستسقاء:

(حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن نافع بن ثابت عن أبي الأسود سليمان ابن يسار قال: خطب عمر الناس في زمن الرمادة فقال: أيها الناس اتقوا اللَّه في أنفسكم، وفيما غاب عن الناس من أمركم، فقد ابتليت بكم وابتليتم بي، فما أدري السخطة عليَّ دونكم، أم عليكم دوني، أم عليَّ وعليكم، فهلموا فلندع اللَّه أن يرحمنا ويصلح قلوبنا ويرفع عنا المَحْلَ. فرئي عمر يومئذ رافعًا يديه يدعو، ودعا الناس، وبكى وبكوا مليًّا ثم نزل) (٢).

البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إن كنا نتوسَّل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسَّل إليك بعمِّ نبينا فاسقنا. قال: فيسقون).

وكذلك نسب الحافظ في الفتح (٢/ ٥٧٧) إلى الزبير بن بكار في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع ذلك، فأخرج - أى الزبير - بإسناد له أن العباس لما استسقى به عمر قال: اللهم إنه لا ينزل بلاء إلا بذنب، ولم

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٩).

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/ ٤٠٢).

يكشف إلا بتوبة، وقد توجَّه القوم بي إليك بمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث.

فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس) [1].

وأخرج عمر العرب من المدينة وقال: الحقوا بلادكم.

* * *

والمؤرخون على أن طاعون عمواس في نهاية السنة السابعة عشرة وبداية الثامنة عشرة وكذلك عام الرمادة في العام نفسه، ولصعوبة الجمع بين آراء المؤرخين فعمرو بن العاص حضر طاعون عمواس بالشام وصعد بالمسلمين الجبال، وكان الأمير بعد معاذ بن جبل، وعمرو ابن العاص فتح مصر عام ثماني عشرة والتي امتد فتحها للسنة الحادية والعشرين، وهذا أقرب جمع يمكن التوفيق فيه بين الروايات، والتي تشير إلى أن عَمرًا ﷺ أمد عُمر بآلاف العير وعشرات السفن إلى الحجاز، فلا يمكن أن يتم ذلك إلا وقد فتح عمرو مصر. ويشير المؤرخون إلى حدث اعتبره أبو عبيدة ﷺ فاتحة البلاء وهو ثابت في الروايات الصحيحة.

القادة العظام يشربون الخمر، الثلمة الثانية

لقد حمل العام الثامن عشر في حقيقة الأمر أربع أزمات متلاحقة في الوقت الذي قرر فيه أمير المؤمنين الانسياح في الأرض وبعث الألوية لفتحها قطرًا قطرًا:

الأزمة الأولى: خلل في جو القيادات العليا.

الأزمة الثانية: طاعون عمواس.

الأزمة الثالثة: وفاة الكثير من قيادات الجيل الأول.

الأزمة الرابعة: عام الرمادة.

وكان لأزمة واحدة من هذه الأزمات أن تطيح بالدولة وتزلزل أركانها، وقد شهدنا كيف تمت معالجة الأزمتين الضخمتين: طاعون عمواس، وعام الرمادة. وسنتحدث عن معالجة الأزمتين الاثنتين.

القادة العظام يشربون الخمر، **فمن هم هؤلاء القادة؟**

---

(١) صحيح تاريخ الطبري، هامش (٣/ ٢٦٠).

أولاً: قدامة بن مظعون:

القائد الأول: قدامة بن مظعون. وهو من الرعيل الأول وممن شهد بدرًا، وشهد المشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ (كان أحد السابقين الأولين، هاجر الهجرتين وشهد بدرًا ..)

(قال البخاري: حدثنا أبو اليمان أنبانا شعيب عن الزهري أخبرني عبد اللَّه بن عامر ابن ربيعة - وكان من أكبر بني عدي، وكان أبوه شهد بدرًا مع النبي ﷺ - أن عمر استعمل قدامة بن مظعون على البحرين، وكان شهد بدرًا، وهو خال عبد اللَّه بن عمر وحفصة) [1]. كذا اختصره البخاري لكنه موقوف.

وقد أخرجه عبد الرزاق بطوله قال: أنبأنا معمر عن ابن شهاب، أخبرني عبد اللَّه ابن عامر بن ربيعة أن عمر استعمل قدامة بن مظعون على البحرين - وهو خال حفصة وعبد اللَّه ابني عمر - فقدم الجارود سيد عبد القيس على عمر من البحرين، فقال: يا أمير المؤمنين:

إن قدامة شرب فسكر، وإني رأيت حدًّا من حدود اللَّه حقًّا عليَّ أن أرفعه إليك.

قال: من يشهد معك؟ قال: أبو هريرة.

فدعا أبا هريرة فقال: بم تشهد؟

فقال: لم أره شرب، ولكني رأيته سكران يقيء.

فقال: لقد تنطعت في الشهادة.

ثم كتب إلى قدامة أن يقدم عليه من البحرين، فقدم.

فقال الجارود: أقم على هذا كتاب اللَّه.

فقال عمر: أخصم أنت أم شهيد؟

قال: بل شهيد.

قال: قد أديت شهادتك.

قال: فصمت الجارود ثم غدا على عمر فقال: أقم على هذا حد اللَّه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٠).

فقال عمر: ما أراك إلا خصمًا، وما شهد معك إلا رجل واحد.

فقال الجارود: أنشدك الله. فقال عمر: لتمسكن لسانك أو لأسوؤنك.

فقال: يا عمر، ما ذلك بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر وتسوؤني.

فقال أبو هريرة: يا أمير المؤمنين إن كنت تشك في شهادتنا فأرسل إلى ابنة الوليد فاسألها وهي امرأة قدامة. فأرسل عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها.

فأقامت الشهادة على زوجها.

فقال عمر لقدامة: إني حادك. فقال: لو شربتُ كما تقول ما كان لكم أن تحدوني.

فقال عمر: لم؟

قال قدامة: قال الله ﷻ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ [المائدة: ٩٣].

فقال عمر: أخطأت التأويل، أنت إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله.

ثم أقبل عمر على الناس فقال: ما ترون في جلد قدامة؟

فقالوا: لا نرى أن تجلده ما دام مريضًا.

فسكت على ذلك أيامًا.

ثم أصبح وقد عزم على جلده، فقال: ما ترون في جلد قدامة؟

فقالوا: لا نرى أن تجلده ما دام وجعًا.

فقال عمر: لأن يَلْقَى اللهَ تحت السياط أحب إليّ من أن ألقاه وهو في عنقي، ائتوني بسوط تام. فأمر به فجلد.

فغاضب عمر قدامة وهجره، فحج عمر وحج قدامة وهو مغاضب له، فلما قفلا من حجهما ونزل عمر بالسقيا نام، فلما استيقظ من نومه قال: عجلوا بقدامة، فوالله لقد أتاني آت في نومي فقال لي: سالم قدامة فإنه أخوك. عجلوا عليّ به. فلما أتوه أبى أن يأتي. فأمر به عمر أن يجروه إليه، فكلمه واستغفر له.

وقال عبد الرزاق أيضًا عن ابن جريج عن أيوب: لم يحد أحد من أهل بدر في الخمر إلا قدامة بن مظعون - يعني بعد النبي ﷺ.

يقال: إن قدامة مات سنة ست وثلاثين في خلافة علي وهو ابن ثمان وستين سنة) [(١)].

* * *

١ - العجيب أن الأخوين قدامة وعثمان ابني مظعون كانا على طرفي نقيض رغم سلكهما مع الرعيل الأول: عثمان كان أحد الثلاثة الذين فكروا بقيام الليل وصوم النهار وهجر النساء، ورفض لهم رسول اللَّه ﷺ هذا التبتل وقال:

« **ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوَّج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني** » [(٢)]. وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال: رد النبي ﷺ على عثمان ابن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا [(٣)].

(.. وعن عبد الرحمن بن سليط قال:

كان عثمان بن مظعون أحد من حرَّم الخمر في الجاهلية وقال:

لا أشرب شرابًا يذهب عقلي، ويضحك مني من هو أدنى مني، ويحملني على أن أنكحَ كريمتي. فلما حُرِّمت الخمر أتى وهو بالعوالي فقيل له: يا عثمان قد حُرمت الخمر. فقال: تبًّا لها فقد كان بصري فيها ثاقبًا ..) [(٤)].

فعثمان يحرم الخمر على نفسه في الجاهلية ولا يشربها في الإسلام قبل التحريم، وقدامة يشربها بعد التحريم وهو أمير على البحرين، وبعد سنين من وفاة رسول اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه، وهما أخوان شقيقان، ولهما قدم سابقة في الإسلام.

٢ - وقد يقف الشاب المسلم اليوم ويمط شفتيه ويرى نفسه أنه أكبر من هذا الصحابي الذي لم يضبط نفسه عن شرب الخمر حتى ليراه الناس، ولا يضع في حسابه فضل هذا الصحابي عليه الذي خاض الأهوال والحروب وأفنى حياته في الجهاد في سبيل اللَّه حتى هيأ له دولة الإسلام والبيئة الإسلامية التي لا تعرف الخمرة، وهذا الشاب قد يكون لم يشم ريحها ولم يرها، أما ذلك الصحابي فقد نشأ في الجاهلية ومع الخمر وتربَّى عليها وأصبحت جزءًا من حياته تجري في دمه وعروقه، فهو

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (ت ٧٣٣٤) مجلد واحد.

(٢) أخرجه البخاري (ح ٤٧٧٦)

(٣) أخرجه البخاري (ح ٥٠٧٣) ومسلم (ح ١٤٠٢).

(٤) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر (ت ١٨٧٩).

يصبر على الموت ولا يصبر على فراقها، وقد كان من المدمنين عليها، فكم يعاني وهو يصبر يومًا وشهرًا وعامًا وعقدًا على فراقها، ولكنه في لحظةٍ من اللحظات تفتك به وتدفعه إلى شربها، ويعلم أنه سيهان ويحقَّر ويجلد من أجل هذا الشراب.

وهذا وضع صاحبنا البطل العظيم قدامة بن مظعون وهو القدوة العظمى في الأمة، فهو نائب أمير المؤمنين وهو المسؤول عن تنفيذ الحدود وإقامة شرع الله في الأرض.

٣ - ونداء آخر إلى الشباب كذلك ألا يغرهم تدينهم وأعمالهم الصالحة في البيئة الصالحة والتي غدا الإسلام فيها مجرد حماس وكلام وخطب ليس فيه موقف مواجهة واحدة أو مغالبة واحدة ضد عدو شرسٍ محارب، وإذا رأى بعض زملائه وموجهيه يزل زلة أو يقع في خطيئة فيا غيرة الدين، ويمضي لسانه يفري الحق والباطل بحقِّه، ويفتري الكذب وغيره في النيل منه، وينادي بخلعه وفصله وطرده، ويبرر انحرافه وابتعاده وهروبه من العمل الإسلامي؛ لأنه قد افتقد القدوة، ولأن الكبار سقطوا وقد سقطت الدعوة معهم.

وهذه دعوة للأمة كلها كي تشهد عظمة التصرف أمام هذا الحدث المهم في تاريخ الأمة.

٤ - فعمر ﷺ هو القوام على الأمة، ورسوله حاكم البحرين هو الذي وقع في هذه الجريمة، وأصاب هذا الحد، وهذه فاجعة كبرى ورزية عظمى في الأمة. ومن؟ قدامة بن مظعون البدري، المهاجر، صاحب المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، والأصعب من هذا كله هو قريب عمر الملاصق، فأخته صفية زوجة أمير المؤمنين وأم ولديه حفصة وعبد الله بن عمر وحفصة أم المؤمنين في الأرض، فهو خالها.

٥ - ومن الذي رآه يسكر؟ سيد المشرق الجارود بن معلى العبدي، والذي به تم إسلام بني عبد القيس كلهم، وهم الذين سمَّاهم رسول الله ﷺ: خير أهل المشرق.

فمن هو الجارود؟

(قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: قدم الجارود العبدي على رسول الله ﷺ ومعه سلمة بن عياض الأسدي وكان حليفًا له في الجاهلية، وذلك أن الجارود قال لسلمة ابن عياض الأسدي: إن خارجًا خرج بتهامة يزعم أنه نبي، فهل لك أن نخرج إليه؟ فإن رأينا خيرًا دخلنا فيه، فإنه إن كان نبيًّا فللسابق إليه فضله، وأنا أرجو أن يكون

النبي الذي بشَّر به عيسى ابن مريم. وكان الجارود نصرانيًا قد قرأ الكتب) [١].

وعند ابن إسحاق عمن لا يُتَّهم عن الحسن أن الجارود لما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه، ورغبه فيه، فقال:

يا محمد إني كنت على دين، وإني تارك ديني لدينك، أفتضمن لي ديني؟

فقال له رسول الله ﷺ: نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه. فأسلم وأسلم أصحابه ....

وكان حسن الإسلام صليبًا على دينه حتى مات، وقد أدرك الردة فثبت على إيمانه. ولما رجع من قومه من كان أسلم منهم إلى دينه الأول مع الغرور بن المنذر بن النعمان ابن المنذر قام الجارود فشهد شهادة الحق، ودعا إلى الإسلام وقال: أيها الناس إني أشهد ألَّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأكفر من لم يشهد.

وقال الجارود:

شهدتُ بأنّ الله حقٌّ وسامحَتْ ... بناتُ فؤادي بالشهَادة والنهْض
فأبلغْ رسولَ الله عنِّي رسالة ... بأنِّي حَنيفٌ حيثُ كُنت من الأرْض
وأنتَ أمِينُ اللهِ في كُلِّ خَلقه ... علَى الوحي من بيْن القضيضَة والقض
فإن لمْ تكنْ دَارِي بيثربَ فِيكم ... فإنِّي لكم عنْد الإقَامة والخفْض
أصالحُ من صالحْتَ من ذِي عداوة ... وأُبغض منْ يُمسي علَى بُغضِكم بغضي
وأُدنِي الذي والَيْتَه وأحبُّه ... وإن كَان في فِيه العلَاقِمُ منْ بغض
أذبُّ بسيْفِي عنكُمْ وأحبُّكم ... إذا مَا عدوكم في الرِّفَاق وفِي النقض
وأجْعل نفْسي دُون كلِّ مُلمَّة ... لكم جُنةً من دُونِ عِرضكُم عِرْضي [٢]

فنحن إذن مع سيد من سادات العرب وزعمائهم.

وماذا سيفعل الجارود وهو سيد من سادات العرب في المشرق وصهره أبو هريرة ﷺ السيد الثاني من سادات دوس قد شهد آثار المنظر الكريه؟ شهد قدامة وهو يقيء الخمر.

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦/ ٤٦٥).

(٢) سبل الهدى والرشاد (٦/ ٤٦٨).

فماذا يفعلان؟

٦ - إن علاقتهما على المستوى الأعلى من الجودة مع أمير البحرين وأمير المؤمنين، فهل يغضيان عن هذا الأمر ويقولان: ما علاقتنا نحن؟ وقدامة هو المسؤول عن الحدود وتطبيقها في البحرين. فلن يتعرضا له بشيءٍ، ولن يُعَرِّضَا علاقتهما الممتازة مع الإمارة لأي مس؟ إذن أين النصيحة؟

« **لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم** »[1].

ولن يعفيا من المسؤولية إذا سكتا عن هذا المنكر.

٧ - إذن لا بد من النصيحة..

حسنًا فليختارا جلسة خاصة معه، أو يدعوانه إلى زيارة خاصة، وبعد التكريم والترحيب اللازم يعرضان الأمر بأعلى مستوًى من الاحترام والتهذيب، ويذكرانه باللَّه ﷻ ألا يعود، ورغم أنه سيغضب لنفسه قليلًا ولكن المودة والاحترام تمتصان هذا الغضب ولن يؤثر على مستوى العلاقة بينهما وبين القصر.

ولا خيار بأنه لا أقل من ذلك.

٨ - لكن: أليس هناك ثورة وغضب لمحارم اللَّه أن تنتهك؟

أين هذه الثورة وهذا الغضب للَّه ولرسوله؟

فليفكرا بوسيلةٍ ثالثة أشد إيلامًا تخفف عنهما الحد الأدنى من المسؤولية، لعل مقاطعة القصر الأميري والأمير تحقق الضجة المطلوبة، ثم يعلمان بعدها الأمير بالسبب، والناس يعرفون كم يخسر الأمير بانقطاع أبي هريرة وصهره الجارود عن القصر، لكنها تنقل الحديث إلى العامة حيث يتهامس الناس عن سبب الانقطاع، ويبدأ اللغو واللغط، فإما يكاشفان الأمة بالسبب، وإما يخترع الناس أسبابًا من عندهم. ووقفا بعدها على الموقف الصحيح.

فهناك سلطة أعلى من قدامة هي سلطة أمير المؤمنين، وهو يحمل مسؤولية الخلق كافة ومسؤولية إقامة العدل ومسؤولية معالجة الأزمة، فليرحلا إلى يثرب.

---

(١) حديث رواه مسلم (٥٥).

٨ - مضى السيدان إلى المدينة وسلما على أمير المؤمنين، ونقلا له الخبر الصاعق، ووثيقة نص المحادثة تُغْنِي عن أي تعليق.

الجارود: يا أمير المؤمنين، إن قدامة شرب فسكر، وإني رأيت حدًّا من حدود اللَّه حقًّا علي أن أرفعه إليك.

أمير المؤمنين: من يشهد معك؟

الجارود: أبو هريرة.

فدعا أبا هريرة فقال: بم تشهد؟

أبو هريرة: لم أره يشرب، ولكني رأيته سكران يقيء.

فقال: لقد تنطعت في الشهادة.

ثم كتب إلى قدامة أن يقدم عليه من البحرين فقدم ..).

مع أن أمير المؤمنين عمر ﷺ لَمَّحَ إلى أن أبا هريرة سيد دوس قد تنطع في الشهادة، وهذا يعني أنه قد يطعن فيها، لكن لا بد من استدعاء أمير البحرين للتحقيق وهو من أعز الناس، فهو ختنه وخال أولاده، إنه ذو قرابة قريبة ورحم ماسة، لكن الأمر جلل، والمحنة كبيرة أن يتحدث الناس ولو كذبًا عن سكر أحد ولاته وابن عمه.

وماذا يريد سيد بني عبد القيس الجارود أكثر من ذلك؟ إن مجرد الاستدعاء للتحقيق انتصار عظيم للعدالة، وانتصار عظيم لشرعة اللَّه.

فليحملا أدراجهما عائدين إلى البحرين، فقد وصل قدامة، ولكن ألا ينتظران؟ فقد يُدعيَان إلى الشهادة مرة ثانية.

وانتظر الزعيمان بعد وصول الأمير يومًا ويومين، فلم يدعيا إلى الشهادة، ولم يُقَم الحد، ألم ينته دورك وتنته مسؤوليتك يا جارود؟

٩ - توتر بين الجارود وأمير المؤمنين:

أن يتحرَّك سيدان عظيمان من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب لإبلاغ سكر الأمير إلى أمير المؤمنين ظاهرة تبرز المدى العظيم الذي بلغ له وعي هذه الأمة، وأن الدنيا تغيرت، فلم يعد الأمير كما قال الشاعر الجاهلي:

أنـــت الـمـمـلـك فـيـهـم ... وهـم الـعـبـيـد إلى الـقـيـامـة

بل أصبح تحت الحراسة والمراقبة، ليست حراسة شخصه لحمايته من الأذى وليموتوا دونه، هذا جانب قائم وطيب فـ « **من أطاع الأمير فقد أطاعني** »[١] بل حراسة سلوكه ومراقبة أعماله، هل هي على نهج اللّٰه أم لا؟

إنها صورة قريبة من صورة تحرك أبي بكرة وإخوانه لإدانة الأمير المغيرة، وانتهت بجلد الثلاثة - لعدم توفر الشهادة الرابعة - حد القذف.

ترى هل تكرر الصورة الآن؟ ولن يرضيا أن تذهب معاناتهما هذا السفر الشاق الكبير، ولعله لم يقوما به منذ أسلما على يدي رسول اللّٰه ﷺ.

إنهما الآن كمن يسافر من الدمام إلى جدة، من البحر إلى البحر، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، والمصاريف التي أنفقت! والأموال التي أهدرت! والمبيت على الطريق قرابة شهر ليقولا لأمير المؤمنين: إن قدامة قد سكر. ثم انتهى الأمر؟!

وكان التوتر التالي بين الزعيمين والخليفة حين قاما بزيارة لأمير المؤمنين ووجدا قدامة عنده، فيتحدى الجارود كل الأعراف والبروتوكولات:

(فقال الجارود: أقم على هذا كتاب اللّٰه.

فقال عمر: أخصم أنت أم شهيد؟ قد أديت شهادتك.

فصمت الجارود ثم غدا على عمر فقال: أقم على هذا حدَّ اللّٰه.

فقال عمر: ما أراك إلا خصمًا وما شهد معك إلا رجل واحد.

الجارود: أنشدك اللّٰه.

أمير المؤمنين: لتمسكن لسانك أو لأسوؤنك ..).

هنا تلغى الأمم أو تحيا الأمم. ومن هنا تبدأ زاوية الانفراج. إنها في البداية حادة وصغيرة. ولكن يفترق السلطان والقرآن.

لتمسكن لسانك أو لأسوؤنك

فإما أن يمسك لسانه ويستمرئ الحاكم الانحراف.

وإما أن لا يمسك لسانه وتتنزل به العقوبة والسجن، ويصبح عبرة لغيره، أما

---

(١) حديث رواه ابن حبان (٤٥٥٦).

الجارود ﷺ فليس خصمًا لقدامة، وليس شاهدًا في محكمة، ولكنه شاهد أمة ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة: ٨] ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

(الجارود: يا عمر، ما ذلك بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر وتسوؤني).

وتأزَّم الخلاف وتدخَّل الغضب، وأبو هريرة أدرى الناس بعمر وبما قال اللَّه – تعالى – ورسوله عن عمر، وهو أشد الناس حمية للَّه ولرسوله، فليس غضبًا لابن عمه، ولكنه الحرص على التثبت من الخبر، فأطفأ مرجل الفتنة الذي يبدأ يغلي بقوله: (يا أمير المؤمنين إن كنت تشك في شهادتنا فأرسل إلى ابنة الوليد فاسألها. وانطفأ مرجل الغضب ومرجل الفتنة، وكأنما وجد أمير المؤمنين سبيله، لكن ما هذه المغامرة يا أبا هريرة؟ هل يمكن أن تشهد المرأة على زوجها وتعلم أن وراء هذه الشهادة حدَّه أمام الناس، وذلةً وإهانة، وعارًا عليه وعلى أهله، وعزلًا له عن منصبه؟ فكيف إن جاء التكذيب من الزوجة؟ هل ينتهي الأمر إلا بإهانة الجارود وأبي هريرة وطردهما من مجلس أمير المؤمنين؟ وبيد بنت الوليد أن تحدد المسارين والنهايتين والمصيرين واختارت دينها على دنياها وآثرت الباقية على الفانية وأن تتحمل كل العذابات والإهانات والعار الذي سيجلل عائلتها كلها (وأقامت الشهادة على زوجها) وقضي الأمر، وأعلن عمر قراره لقدامة ختنه: إني حادك.

١٠ – أليس هناك حل وسط يستعاض عن الحد بالتعزير، وإن كان لابد من الحد فليكن في السر ويلفلف الأمر ولا تقع الفضيحة والرجل من أهل بدر، وأهل بدر مغفور لهم « **اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** » [١] لكن الأمر تطور تطورًا آخر أخطر:

فقال عمر: إني حادك.

قدامة: لو شربت كما تقول ما كان لكم أن تحدوني.

فقال عمر: لم؟

قال قدامة: قال اللَّه ﷻ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ [المائدة: ٩٣].

---

(١) حديث رواه البخاري (٢٨٤٥).

فقال عمر: أخطأت التأويل، أنت إذا اتقيت اللَّه اجتنبت ما حرَّم اللَّه.

ولجلالة الأمر ولفداحته راح عمر يشاور الأمة: ما ترون في جلد قدامة؟

فقالوا: لا نرى أن تجلده ما دام مريضًا.

فسكت على ذلك أيامًا ثم أصبح وقد عزم على جلده فقال: ما ترون في جلد قدامة؟

فقالوا: لا نرى أن تجلده ما دام وجعًا ..).

مَرضُ قدامة، وماضيه وفضله، وقرابته ورحمه، وكونه من أهل بدر.. ألا تشفع هذه الأمور الأربعة دون جلده، وواحد منها يكفي لذلك، أو لتخفيف عقوبته، أو لجعلها في السرِّ، لكن عند غير أمير المؤمنين!!

عمر: لأنْ يَلْقَى اللَّهَ تحت السياط أحب إليَّ من أن ألقاه وهو في عنقي، ائتوني بسوط تام. فأمر به فجلد).

١١ - « **لأن يقيموا حدًّا من حدود اللَّه خير من أن يمطروا أربعين صباحًا** »[(١)].

ونفذ حد اللَّه في أعظم قيادات الأمة وأكبر شخصياتها علنًا أمام الناس، وأقرب الناس رحمًا من أمير المؤمنين، ووقع ما كان يخشى، وساءت الأحوال بين الشخصيتين. وقاطع قدامة عمر وهجره، فحجَّ عمر وحجَّ قدامة وهو مغاضب له، لكن عمر ﷺ ليس لنفسه، إنه لكل فرد في الأمة، ولئن غضب الجندي المخطئ من قائده فعلى القائد أن يقوم بإرضائه وهو المخطئ. فكلاهما قدوتان في الأمة، ولا يجوز أن تبقى القطيعة بين العظيمين مذكرة بهذا الخطأ المشين، لابد أن تمحى آثاره، ومن أجل ذلك (عجلوا عليَّ بقدامة، فواللَّه لقد أتاني آت في نومي فقال لي: سالم قدامة فإنه أخوك. عجلوا عليَّ به). وَجُرْحُ قدامة الغائر حال دون الاندفاع نحو أخيه عمر أمير المؤمنين، ورفض عمر أن يترك الأمر على ما هو عليه، وأمرهم بالإتيان به وبالعنف.

وجاء قدامة، والتقيا، وتناجيا، وتصافيا، وانتهت قصة السكرة، وجاءت الفكرة، ويقف الإنسان أخيرًا يعجب ويتساءل أيهم الأعظمُ: **الجارود بن معلى العبدى** القوام على حدود اللَّه المتجشم أطول سفر وأصعبه بدون مقابل إلا لحماية الأمة من الانحراف، وإصراره على إقامه الحد، وجرأته على أمير المؤمنين بحيث لا يدع له

---

(١) حديث رواه ابن ماجه (٢٥٣٨).

مكان مهرب رغم تهديد عمر له فما انثنى حتى تمَّ الأمر.. أم **أبو هريرة** ﷺ الذي لم يغير شهادته لصالح صهره فتتطابق الشهادتان وهما شاهدا عدل يشهد بعدالتهما القاصي والداني، فهو لم يره يسكر، إنما رآه يقيء الخمر، ثم تهدئته للتوتر بطلب شهادة زوجة قدامة، أو المغامرة بطلبها.. **أم زوجة قدامة بن مظعون** التي عرفت أنها تهدم مجدها وعزها، وتلبس العار لأهلها وعائلتها لو قالت الحق، ويمكن أن يبقى المجد والعز والجاه لها ولبنيها من بعدها لو تسترت على زوجها وكتمت الشهادة.. أم **قدامة ابن مظعون** الذي لم يكذب أحدًا، واتخذ موقفًا جريئًا قد يودي بحياته إن كان شربها وهو مستحل لها، أم صبره بين يدي أمير المؤمنين والسياط تنهال عليه وتضحيته بسمعته وسابقته بطاعة اللَّه والرسول.. أم **عمر أمير المؤمنين** وهو يستدعي أميره، ويمعن في التحقيق، ويسأل زوجة قدامة ثم يعلن الحد على وجع قدامة ومرضه، ثم لا يأنف بمصالحة من قاطعه لسبب شخصي، ويُنهي هذه القصة بجراحها ومآسيها؟

ولو أن أحد هؤلاء الخمسة لم يكن على مستوى المسؤولية لانحرف المجتمع الإسلامي أو انهار؛ ولهذا نقول دائمًا: نحن لسنا أمام عظيم يقود الأمة، إنما نحن أمام عظماء مستهم يد النبوة، وأُشْرِبُوا بروح اللَّه. إننا كما قلنا ونقول دائمًا: **إننا أمام جيل الخلافة الراشدة.**

ثانيًا: أبو جندل وصحبه وشربهم الخمر:

١ - أبو جندل بن سهيل بن عمرو.. العامري:

(أسلم بمكة، فطرحه أبوه في حديد، فلما كان يوم الحديبية جاء يرسف في الحديد إلى رسول اللَّه ﷺ، وكان أبوه سهيل قد كتب في كتاب الصلح: أن من جاءك منا ترده علينا، فخلَّاه رسول اللَّه ﷺ)[1] ومن حديث مروان بن الحكم والمسور ابن مخرمة الذي في الصحيح:

(.. فبينا هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليَّ. فقال النبي ﷺ: « **فأجزه لي** ». قال: ما أنا بمجيزه لك.

---

(١) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر، ت (٢٨٦٦).

قال: « **بلى فافعل** ». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أُردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا، ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذابًا شديدًا في اللَّه) [(١)].

وفي الطريق الآخر عند الإمام أحمد وابن إسحاق: (.. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه ثم قال: يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: « **صدقت.** » فقام إليه فأخذ بتلبيبه، وصرخ أبو جندل بأعلى صوته:

يا معاشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنونني في ديني.

قال الراوي: فزاد الناس شرًّا إلى ما بهم. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن اللَّه ﷻ جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، وإنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا فأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عليه عهدًا، وإنا لن نغدر بهم** ») [(٢)].

(ثم إنه أفلت بعد ذلك (أبو جندل) فلحق بأبي بصير الثقفي، وكان معه في سبعين رجلًا من المسلمين يقطعون على من مرَّ بهم من عير قريش وتجارهم، فكتبوا (أي: قريش) فيهم إلى رسول اللَّه ﷺ أن يضمهم إليه فضمهم إليه) [(٣)].

وقال أبو جندل وهو مع أبي بصير:

أبلغْ قُريشًا عن أبي جنْدلٍ … أنَّا بذي المروة بالسَّاحل
في معْشرٍ تخْفِق أيمانُهم … بالبِيض فِيها والقَنَا الذَّابل
يأبَوْن أن تبقَى لهُم رفقةٌ … من بعدِ إسْلَامهم الوَاصل
أو يجْعلَ اللَّه لهُم مخرجًا … والحقّ لا يُغلَبُ بالبَاطِل
فيسْلَم المرءُ بإسْلَامه … أو يُقتَلُ المرء ولَمْ يأتل [(٤)]

هذا هو القائد الأول: مؤسس أول دولة إسلامية بذي المروة بعد دولة المدينة مع أخيه أبي بصير.

(١، ٢) صحيح السيرة النبوية للعلي وزملائه (ص ٣٢٢، ٣٢٣).
(٣) خبره مخرج عند البخاري (٢٧٣٤) في خبر الحديبية الطويل، ورواه أحمد في مسنده (١٨٩١٠).
(٤) الاستيعاب لابن عبد البر (ت ٢٨٦٦).

٢ – ضرار بن الأزور:

(.. يكنى أبا الأزور الأسدي، ويقال أبو بلال، والأول أكثر. كان فارسًا شجاعًا شاعرًا مطبوعًا، ولما قدم على رسول اللَّه ﷺ فأسلم قال:

تركت الخمور وضرب القدا ... ح واللهو تعللة وانتهالا

ومنهم من ينشدها:

خلَعتُ القِداح وعَزْف القِيا ... ن والخمْرَ أشْربُها والثِّمالا

وكرِّي المحبَّر [١] في غَمْرة ... وجهْدي على المشْرِكين القتالا

وقالَت جمِيلَةُ بَدَّدْتَنَا ... وطرَّحت أهلك شتى شمالا

فيا رَبِّ لا أُغبنن صَفْقتي ... فقدْ بعتُ أَهلْي ومالي بِدَالا

فقال رسول اللَّه ﷺ: « **ما غبنت صفقتك يا ضرار** ») [٢].

٣ – ضرار بن الخطاب الفهري القرشي:

كان أبوه الخطاب رئيس بني فهر في زمانه، وكان يأخذ المرباع لقومه، وكان ضرار ابن الخطاب يوم الفجار على محارب بن فهر، وكان من فرسان قريش وشجعانهم وشعرائهم المطبوعين المجوِّدين حتى قالوا: ضرار بن الخطاب فارس قريش وشاعرهم. وهو أحد الأربعة الذين وثبوا الخندق. قال الزبير بن بكار: لم يكن في قريش أشعر منه ولا من ابن الزبعرى. قال الزبير: ويقدمونه على ابن الزبعرى؛ لأنه أقل منه سقطًا وأحسن صنعة.

قال أبو عمر: كان ضرار بن الخطاب من مسلمة الفتح. ومن شعره يوم الفتح:

يا نبيَّ الهدَى إليْك لَجَا ... حي قريْشٍ وأنتَ خيْرُ لَجاء

حينَ ضاقَتْ عليهِم سَعَة الأرْ ... ض وَعاداهم إلَهُ السَّماء

والتقَتْ حلْقتا البِطان [٣] على القوْ ... مَ ونُودوا بالصيْلَم الصلْعاء [٤]

إن سعدًا يرِيدُ قاصِمة الظهـ ... ـر بأهْل الحجُون والبطْحَاء

واختلف الأوس والخزرج فيمن كان أشجع يوم أحد، فمر بهم ضرار بن الخطاب

---

(١) المحبَّر: فرس ضرار بن الأزور.

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر (ت ١٢٤٥).

(٣) البطان: حزام القتب.

(٤) الداهية المشهورة.

فقالوا: هذا شهدها. وهو عالم بها، فبعثوا إليه فتىً منهم، فسأله عن ذلك فقال: لا أدري ما أوسكم ولا خزرجكم، ولكني زوَّجت يوم أحد منكم أحد عشر رجلًا من الحور العين) [١].

* * *

٤ - أما دورهم القيادي فيما بعد فعلى يدهم سقطت أعظم أمجاد الجاهلية - الحيرة:

فقد التقى الضِّرَارَان على أبوابها وعلى يد القادة الأربعة تحقَّق موعود رسول اللَّه ﷺ (.. عهد خالد إلى أمرائه أن يبدأوا بالدعاء، فإن قبلوا قبلوا منهم، وإن أبوا أن يؤجلوهم يومًا .. فكان أول القواد أنشب القتال بعد يوم أجلَوهم فيه ضرار بن الأزور، وكان على قتال أهل القصر الأبيض، فأصبحوا وهم مشرفون، فدعاهم إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزاء أو المنابذة، فاختاروا المنابذة، وتنادوا: عليكم الخزازيف. فقال ضرار: تنحَّوا لا ينالكم الرمي حتى ننظر بالذي هتفوا به. فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر من رجال متعلقي المخالي يرمون المسلمين بالخزازيف - وهي المداحي من الخزف - فقال ضرار: ارشقوهم. فرشقوا بالنبل، فأعروا رؤوس الحيطان، ثم بثوا غارتهم فيمن يليهم وصبَّح أمير كل قوم أصحابه بمثل ذلك، فافتتحوا الدور والديرات، وأكثروا القتل، فنادى القسيسون والرهبان: يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم. فنادى أهل القصور: يا معشر العرب، قد قبلنا واحدة من ثلاث، فادعوا بنا وكفوا عنا حتى تبلغونا خالدًا.

فخرج إياس بن قبيصة وأخوه إلى ضرار بن الأزور.

وخرج عدي بن عدي وزيد بن عدي إلى ضرار بن الخطاب.

وخرج عمرو بن عبد المسيح وابن أكَّال هذا إلى ضرار بن مقرّن، وهذا إلى المثنى ابن حارثة، فأرسلوهم إلى خالد وهم على مواقفهم ....) [٢].

وفي اليرموك كان ضرار بن الأزور الشخصية الثانية أو الثالثة بعد عكرمة بن أبي جهل في كتيبة الموت (السري عن شعيب عن سيف ... قال عكرمة بن أبي جهل يومئذ: قاتلت رسول اللَّه ﷺ في كل موطن وأفر منكم اليوم؟! ثم نادى:

من يبايع على الموت؟ فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (ت ١٢٤٤).

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣١٦).

وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعًا وقتلوا إلا من برأ، ومنهم ضرار بن الأزور ..) [١].

هؤلاء الأبطال العظام الثلاثة:

- أبو جندل بن سهيل.
- ضرار بن الخطاب.
- ضرار بن الأزور.

٥ - في نفر لم نعرف أسماءهم صبروا في ساحة الموت وفي مواجهة الأمم وملاقاة الأبطال ولم يصبروا عن الخمر وقد زين لهم الشيطان شربها واجتمعوا على هذا التزيين.

وكما تقول رواية الطبري في نصِّ كتاب أبي عبيدة ﷺ إلى عمر أمير المؤمنين (السري عن شعيب عن سيف ... وكتب أبو عبيدة إلى عمر: إن نفرًا من المسلمين أصابوا الشراب منهم ضرار وأبو جندل فسألناهم فتأولوا، وقالوا: خُيِّرْنَا فاخترنا. فقال: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١] ولم يعزم علينا). أيعقل أن تلبس هذه القضية على هؤلاء الأبطال العظام وهم شعراء العربية وفرسانها وفصحاؤها؟ ولكننا نقول دائمًا ما يردده رسول الله ﷺ: « **وإذا أردت فتنة في قوم فاقبضني غير مفتون** » [٢] حتى إن أبا عبيدة ﷺ لم يبت في الأمر دون العودة إلى أمير المؤمنين، لا من أجل تفسير الآية لتجليتها عنده، ولكن خوفًا من الفتنة التي تنزل بضعاف النفس فتسري في الصف، وهؤلاء الشاربون قدوات أبطال عظام صحابة، فلجأ إليه يستشيره في كيفية معالجة الأزمة.

ولو عدنا إلى تاريخ الأمم وأديانها لرأينا نقطة الافتراق فيها وعلى رسلها وأنبيائها تبدأ من مثل هذه الأزمة، ثم تهوي بالأمة في الانحدار. وهذا نموذج من ذلك (وعند مسلم أن رسول الله ﷺ أتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهودًا فقال: « **ما تجدون في التوراة على من زنى؟** » قالوا: نسوِّد وجوههما، ونحملهما [٣]، ونخالف بين وجوههما، ويطاف بهما. قال: ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٣٨).
(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٥).
(٣) قال النووي في شرحه على مسلم: هكذا هو في أكثر النسخ (نحملهما) بالحاء واللام، وفي بعضها (نجمّلهما) بالجيم، وفي بعضها (نحممهما) بميمين، وكله متقارب، فمعنى الأول: نحملهما على الحمل، ومعنى الثاني: نجمّلهما على الجَمَل، ومعنى الثالث: نسود وجوههما بالحَمَم وهو الفحم، وهذا الثالث ضعيف لأن قبله: نسود وجوههما. شرح النووي (١١/٢٠٨).

إن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣]. قال: فجاؤوا بها فقرؤوها حتى إذا مرُّوا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد اللَّه بن سلام وهو مع رسول اللَّه ﷺ: مره فليرفع يده فرفع يده. فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول اللَّه ﷺ فَرُجِمَا.

قال عبد اللَّه بن عمر: كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه...) [١].

وقال الزهري: سمعت رجلًا من مزينة ممن يتبع العلم ويعيه، ونحن عند ابن المسيِّب، عن أبي هريرة قال: زنى رجل بامرأة فقال بعضهم لبعض: اذهبوا إلى هذا النبي فإنه بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلنا بها واحتججنا بها عند اللَّه، قلنا: فتيا نبي من أنبيائك. قال: فأتوا النبي ﷺ وهو جالس في أصحابه فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقول في رجل وامرأة – منهم – زنيا؟ فلم يكلمهم بكلمة حتى أتى بيت مِدْرَاسِهم [٢] فقام على الباب فقال: « **أنشدكم باللَّه الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟** » قالوا: يُحَمَّمُ ويُجَبَّهُ ويُجْلَد. والتجبية أن يُحْمَل الزانيان على حمار، وتقابل أقفيتهما، ويُطاف بهما. قال: وسكت شاب منهم.

فلما رآه رسول اللَّه سكت ألظَّ به [٣] رسول اللَّه ﷺ النشدة [٤] فقال: اللهم إذ نشدتنا فإننا نجد في التوراة الرجم. فقال النبي ﷺ: « **فما أول ما ارتخصتم** [٥] **أمر اللَّه** ».

فقال: زنى ذو قرابة من مَلِكٍ من ملوكنا فأخَّر عنه الرجم، ثم زنى رجل في أسرة [٦] من الناس فأراد رجمه، فحال قومه دونه وقالوا: لا يُرْجَمُ صاحبنا حتى تأتي بصاحبك فترجمه. فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم. فقال النبي ﷺ: « **فإني أحكم بما في التوراة** » فأمر بهما فرجما. قال الزهري: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ ... ﴾ [المائدة: ٤٤] فكان النبي ﷺ منهم) [٧].

فهل يبعث عمرُ أمير المؤمنين بكتاب تسوية وترضية لموقع هؤلاء القادة العظام في الإسلام؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٧) وتفسير: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ ... ﴾ [المائدة: ٤٤]، وصحيح مسلم (١٦٩٩).

(٢) أي بيتًا يدرسون فيه.

(٣) ألظ بالشيء: إذا لزمه وألح وثابر عليه.

(٤) أي السؤال والطلب.

(٥) أي: تركتم وتهاونتم وجعلتموه رخيصًا وسهلًا.

(٦) المقصود أنه ذو عشيرة وأهل بيت يتقوّى بهم.

(٧) أخرجه أبو داود في الحدود، باب في رجم اليهوديين (٤٤٥٠).

٦ - **فكتب عمر إلى أبي عبيدة:** فذلك بيننا وبينهم ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١] يعني: فانتهوا. وجمع الناس، فاجتمعوا على أن يضربوا فيها ثمانين جلدة، ويضمّنوا الفسق مَنْ تأول عليها بمثل هذا، فإن أبى قُتِل، فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن ادعهم، فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم، وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين. فبعث إليهم فسألهم على رؤوس الناس فقالوا: حرام. فجلدهم ثمانين ثمانين. وحُدَّ القوم وندموا على لجاجتهم وقال: ليَحْدُثَنَّ فيكم يا أهل الشام حادث. فحدثت الرمادة) (١).

٧ - **ولم تمر هذه العاصفة بهدوء:**

فليس سهلًا على هؤلاء العظام الأبطال الأشراف أن يمر جَلْدُهُم وإذلالهم على ملأ من الناس بسهولة، فموتهم أسهل عليهم من هذا المصير المفجع (فاستحيوا فلزموا البيوت، ووسوس أبو جندل، فكتب أبو عبيدة إلى عمر: إن أبا جندل قد وسوس، إلّا أن يأتيه الله على يديك بفرج، فاكتب إليه وذكِّرْهُ، فكتب إليه عمر، وذكَّره فكتب إليه: من عمر إلى أبي جَندل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨] فتب، وارفع رأسك، وابرز، ولا تقنطْ، فإن اللَّه ﷻ يقول: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] فلما قرأه عليه أبو عبيدة تطلّق وأسْفِرَ عنه وكتب إلى الآخرين بمثل ذلك فبرزوا، وكتب إلى الناس: عليكم أنفسكم، ومن استوجب التغيير فغيِّروا عليه، ولا تعيِّروا أحدًا فيفشوَ فيكم البلاء) (٢).

لقد كان الحسم أولًا في تطبيق حد اللَّه، ثم كانت المعالجة الثانية في الكتب الخاصة إلى الأبطال العصاة تدعوهم إلى ترك اعتزال الناس والبعد عن القنوط واليأس، وأن رحمة اللَّه تعالى قد نالتهم بهذا الحد ولم تنقص من قدرهم وقيمتهم، ثم كانت المعالجة الثالثة في الكتاب إلى جماهير الأمة بالبعد عن اللفظ بهذا الموضوع، والبعد عن النيل من هؤلاء الأبطال، واستعمال الفرية والغيبة في حقِّهم:

(ولا تعيِّروا أحدًا فيفشوَ فيكم البلاء).

٨ - وفي رواية عبد الرزاق عن ابن جريج قال:

(أخبرت أن أبا عبيدة بالشام وجد أبا جندل بن سهيل بن عمرو وضرار

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٧).　　(٢) المصدر نفسه (٢/٥٠٨).

ابن الخطاب، وأبا الأزور وهم من أصحاب النبي ﷺ قد شربوا الخمر.

فقال أبو جندل: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ ﴾ الآية [المائدة: ٩٣] فكتب أبو عبيدة إلى عمر: إن أبا جندل خصمني في هذه الآية. فكتب عمر: إن الذي زيَّن لأبي جندل الخطيئة زيَّن له الخصومة، فاحدُدْهُم. فقال أبو الأزور: أتحدُّوننا؟ قال أبو عبيدة: نعم. فقال: فدعونا نلقى العدوَّ غدًا، فإن قُتِلْنَا فذاك، وإن رجعنا إليكم فحُدُّونا. فلقي أبو جندل وضرار وأبو الأزور العدو، فاستُشهد أبو الأزور، وحُدَّ الآخران.

فقال أبو جندل: هلكت.

فكتب بذلك أبو عبيدة إلى عمر.

فكتب عمر إلى أبي جندل:

إن الذي زيَّن إليك الخطيئة حظَّر عليك التوبة.

﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ... ﴾ الآية. [غافر: ١ - ٣] [١] لقد كان الموت أهون عليهم من الحد، فأن يلقوا اللَّه شهداء تائبين أهون عليهم من أن يلقوه مذنبين بهذا الحد العظيم. وقَبِل أبو عبيدة ﷺ هذا العرض، فاستشهد أبو الأزور، وحُدَّ الصاحبان العظيمان: ضرار بن الخطاب وأبو جندل بن سهيل.

٩ - وعبَّر أبو الزهراء القشيري عن هذا المعنى، وهو واحد من هؤلاء الذين ابتلوا بهذا الذنب، وشارك معهم في هذه السكرة، وهو أحد القادة المجاهدين في سبيل اللَّه:

ألم تَر أن الدهْر يَعثُر بالفَتى ... وليسَ على صَرْف المنون بقَادِر

صبرتُ ولم أجزع وقَد مَاتَ إخوتي ... ولستُ عن الصَّهبَاء يَومًا بصَابِر

رَماها أميرُ المؤمنين بحتْفِها ... فخِلَّانها يبكُون عندَ المَعَاصِر

لقد عبَّر في هذه الأبيات الثلاثة عن مجموعة من المعاني التي تجيش في نفسه، فقد عثرت به الأيام وشرب الخمر، إذ لا يتمنى أن يكون هذا السجل الأسود في حياته، والموت أهون عليه من هذه العثرة، إنها عثرة الكريم العظيم، وهي مثل الموت قد وقعت، وليس على صرف المنون بقادر.

---

(١) المصنف لعبد الرزاق الصنعاني (١٧٠٧٨) والاستيعاب في أسماء الأصحاب (ت ٢٨٦٦).

والمعنى الثاني: أنه كان رجلًا أمام المصائب، وخاض الحروب، وصبر في ساحة الوغى، وفقد أغلى أحبته، فصبر على ذلك كله، ولم يتمكن من الصبر عن الخمر.

صَبرتُ فلم أجَزعْ وقَد ماتَ إخوَتي ... ولستُ عن الصَّهبَاء يَومًا بصَابِر

إننا لابد لنا ونحن نقف عند هذه الحادثة أن لا تغيب عنا معاني تغلغل الخمر عند الإنسان العربي في مجتمع تقوم دعائمه على ثلاث: الخمر والسيف والنساء.

فلا يمكن أن نتصوَّر عربيًّا من زعماء الجاهلية لا يملأ الخمر وجوده وكيانه إلا أفرادًا يعدون على أصابع اليد الواحدة، وثلث الشعر العربي في الخمر، فكيف إذا كان شاعرًا بطلًا مقاتلًا؟ ولا غرو أن نسمع مثل هذا القول إذن من أبي الزهراء القشيري؟ ألم نر أن الأعشى استعد لترك كل المحرمات، لكن عندما سمع أن الإسلام يحرم الخمر توقَّف عامًا عن الإسلام حتى يرتوي منها ثم يعود ليسلم؟ وكان حتفه في هذا العام.

أما المعنى الثالث فهو التطور الهائل الذي نقل الأمة من هذه الوحدة السحيقة مع الخمر إلى عملية تحريمها والنظر إليها أنها رجس من عمل الشيطان. وكيف استطاع أمير المؤمنين أن يقتل هذا الإله الخمر في عرشه؟

رمَاها أميرُ المؤمِنين بحتْفِها ... فخلَّانها يبْكُون عنَد المعَاصِر

فقد صرعها أمير المؤمنين بتطبيق حدود اللَّه فيها ولو على الأكابر من أصحاب رسول اللَّه ﷺ.

١٠ - ولابد أن نشير أخيرًا إلى أن المصيبة العظمى ليست في الألم المادي الذي يرافقها، فهذا أهون الأمور، وإن صبر ساعة في الحرب وتلقِّي طعن الرماح وضرب السيوف يعدل آلاف المرات من الألم المادي فيها. لكن المصيبة العظمى هي في الألم المعنوي الذي يرافقها، فلا تتم العقوبة في السر، إنما تتم على ملأ عظيم من المؤمنين.

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢].

وحتى نعرف أثر هذا الأمر تطالعنا الحادثة التالية:

قال البلاذري: (حدثنا عفان بن مسلم والعباس بن الوليد قالا: حدثنا يزيد بن زريع، ثنا عبد الرحمن ابن إسحاق، حدثني الزهري عن سالم عن أبيه قال: خرجت وأخي عبد الرحمن غازيين إلى مصر، فشرب أخي وأبو سروعة شرابًا، فأُتِي بهما عمرو ابن العاص، فَجُلِدَ أخي في الدار، فأرسل إليه عمر أن اجمع يديه إلى عنقه، وجُب

عليه مدرعة، واحمله إليَّ على قتب، فلما قدم على عمر جلده علانية على رؤوس الناس، وحلق رأسه، وحبسه في السجن ستة أشهر [١].

فلا غرو أن نجد أولئك الأبطال يصبرون على الموت ويخافون الحد الذي ينال من كرامتهم وهيبتهم وسمعتهم، وهو الذي جعلهم يعرضون على أبي عبيدة ﷺ:

(فدعونا نلقى العدو غدًا، فإن قُتِلنا فذاك، وإن رجعنا إليكم فحُدُّونا. فلقي أبو جندل وضرار وأبو الأزور العدو، فاستشهد أبو الأزور، وحُدَّ الآخران).

الأزمة الأخيرة: وفاة الأكابر من أصحاب رسول اللَّه

جيل جديد يحمل الراية:

لقد كان جيش المسلمين في الشام والذي خاض معركة اليرموك ستة وثلاثين ألفًا، وعلى أكبر الروايات عددًا كان أربعين ألفًا فيهم ألف من الصحابة ومائة من أهل بدر، وجاء طاعون عمواس فحصد الجيل حصدًا.

(وقال الواقدي: وفيها كان طاعون عمواس، فمات فيه خمسة وعشرون ألفًا. قلت: هذا الطاعون منسوب إلى بلدة صغيرة يقال لها عمواس، وهي بين القدس والرملة؛ لأنها كان أول ما نجم الداء بها، ثم انتشر في الشام فنسب إليها. فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

قال الواقدي: تُوفِّي في عام طاعون عمواس من المسلمين بالشام خمسة وعشرون ألفًا. وقال غيره: ثلاثون ألفًا).

صحيح أنهم ليسوا قيادات في موقع المسؤولية، وإن كان فيهم عدد كبير من القادة، غير أنهم من الجيل القيادي القدوة الذي تربَّى على يدي رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، فكل واحد منهم يعدل أمة، ومن السهولة بمكان أن تحصل على الجنود، فما كانت أزمةٌ في التاريخ الإسلامي ذات مرة أزمةَ وجود الجنود الفدائيين، إنما كانت الأزمة دائمًا أزمة قيادات، ولا أبالغ إذا قلت أننا فقدنا ثلاثين ألف قائد تحقق بهم موعود اللَّه في الأرض. إن الجيل الجديد قد نشأ في صفوف هذا الجيل، ولكن المستوى الفائق في مستوى التربية لدى الجيل الأول لا يبلغه الجيل الثاني بكل بساطة، ومع هذا فمصنع القيادات جاهز لا يتوقف لحظة واحدة عن الإنتاج.

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٣٨٠ - ٣٨١).

العشرة الكبار:

(وهذا ذكر طائفة من أعيانهم ﷺ):

إذا افترضنا أن في الجيش الإسلامي في الشام أربعة قادة برتبة فريق فقد خسر المسلمون منهم ثلاثة، فقادة فتح الشام أربعة:

١ - أبو عبيدة بن الجراح.

٢ - عمرو بن العاص.

٣ - يزيد بن أبي سفيان.

٤ - شرحبيل بن حسنة.

ففي عام ثمانية عشر وفي طاعون عمواس تُوفيِّ ثلاثة قادة من هؤلاء الأربعة، ولم يسلم منهم غير عمرو بن العاص.

١ - أبو عبيدة عامر بن عبد اللَّه بن الجراح الفهري القرشي:

(أمين هذه الأمة، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الخمسة الذين أسلموا في يوم واحد .. ولما هاجروا آخى رسول اللَّه ﷺ بينه وبين سعد بن معاذ .. وقد شهد بدرًا وما بعدها وقال رسول اللَّه ﷺ: « **إن لكل أمة أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح** ». ثبت ذلك في الصحيحين، وثبت في الصحيحين أيضًا أن الصديق قال يوم السقيفة: وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوه - يعني: عمر ابن الخطاب وأبا عبيدة - وبعثه الصديق أميرًا على ربع الجيش إلى الشام، ثم لما انتدب خالدًا من العراق كان أميرًا على أبي عبيدة وغيره لعلمه بالحروب، فلما انتهت الخلافة إلى عمر عزل خالدًا، وولَّى أبا عبيدة، وأمره أن يستشير خالدًا، فجمع للأمة بين أمانة أبي عبيدة وشجاعة خالد. قال ابن عساكر: وهو أول من سُمِّي أمير الأمراء بالشام. قالوا: وكان أبو عبيدة طوالًا نحيفًا أجنى [١]، معروق الوجه [٢]، خفيف اللحية، أهتم [٣]؛ وذلك لأنه لما انتزع الحلقتين من وجنتي رسول اللَّه ﷺ يوم أحد خاف أن يؤلم رسول اللَّه ﷺ فتحامل على ثنيتيه فسقطتا، فما رؤي أحسن هتمًا منه) [٤].

---

(١) أجنى: فيه ميلان في الظهر.

(٢) معروق الوجه: قليل اللحم.

(٣) أهتم: سقط مقدم أسنانه.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧/ ٩٦).

٢ - يزيد بن أبي سفيان:

(.. بن حرب بن أمية ... القرشي الأموي أخو معاوية، وكان يزيد أكبر وأفضل، وكان يقال له: يزيد الخير، أسلم عام الفتح، وحضر حنينًا، وأعطاه رسول اللَّه ﷺ مائة من الإبل وأربعين أوقية، واستعمله الصديق على ربع الجيش إلى الشام، وهو أول أمير وصل إليها. ومشى الصديق في ركابه يوصيه، وبعث معه أبا عبيدة وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة، فهؤلاء أمراء الأرباع، ولما افتتحوا دمشق دخل هو من باب الجابية الصغير عنوة كخالد في دخوله من الباب الشرقي عنوة، وكان الصديق قد وعده بإمرتها، فوليها عن أمر عمر، وأنفذ له ما وعده الصديق، وكان أول من وليها من المسلمين. المشهور أنه مات في طاعون عمواس كما تقدم ... ولما مات كان قد استخلف أخاه معاوية على دمشق، فأمضى عمر بن الخطاب له ذلك ﷺ، وليس له في الكتب شيء، وقد روى عنه أبو عبد اللَّه الأشعري أن رسول اللَّه ﷺ قال:

« مثل الذي يُصلِّي ولا يتم ركوعه ولا سجوده مثل الجائع الذي لا يأكل إلا التمرة والتمرتين لا يغنيان عنه شيئًا » [١].

٣ - شرحبيل ابن حسنة:

(وهي أمه (حسنة) على ما جزم به غير واحد .. وكان شرحبيل ممن سيره أبو بكر في فتوح الشام) [٢].

(قال أبو عمر: كان شرحبيل بن حسنة من مهاجرة الحبشة معدودًا في وجوه قريش، وكان أميرًا على ربع من أرباع الشام لعمر بن الخطاب ﷺ، تُوفِّي في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة وهو ابن سبع وستين سنة) [٣].

(أحد أمراء الأرباع، وهو أمير فلسطين، وهو شرحبيل بن عبد اللَّه بن المطاع الكندي حليف بني زهرة، وحسنة أمه، نسب إليها وغلب عليه ذلك، أسلم قديمًا وهاجر إلى الحبشة وجهَّزه الصديق إلى الشام، فكان أميرًا على ربع الجيش، وكذلك في الدولة العمرية، وطُعِنَ هو وأبو عبيدة وأبو مالك الأشعري في يومٍ واحد سنة ثماني

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧/ ٩٧، ٩٨)، والحديث رواه الطبراني رقم (٣٨٤٠).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (ت ٤٠٣٤).

(٣) الاستيعاب في أسماء الأصحاب (ت ١١٥٣).

عشرة، له حديثان، روى ابن ماجه أحدهما في الوضوء وغيره) [١].

هؤلاء الثلاثة هم قادة فتوح الشام وأمراء الشام في الوقت نفسه. وكان رابعهم هو نائب القائد العام في الشام.

٤ - معاذ بن جبل:

(.. لما اشتغل الوجع قام أبو عبيدة في الناس خطيبًا فقال:

يا أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة بكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين من قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل اللَّه أن يقسم له منه حظَّه فطُعِنَ فمات.

واستُخْلِفَ على الناس معاذ بن جبل. قال: فقام خطيبًا وقال:

أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين من قبلكم، وإن معاذًا يسأل اللَّه أن يقسم لآل معاذ منه حظهم، فطُعِنَ ابنه عبد الرحمن ابن معاذ، فمات، ثم قام فدعا به لنفسه، فطُعِنَ في راحته، فلقد رأيته ينظر إليها، ثم يقبِّل ظهر كفِّه، ثم يقول:

ما أحب أن لي بما فيك شيئًا من الدنيا. فلما مات استُخْلِفَ على الناس عمرو ابن العاص، فقام خطيبًا في الناس فقال:

يا أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار، فتجبَّلوا منه في الجبال. فقال أبو وائلة الهذلي:

كذبت، واللَّه لقد صحبتُ رسول اللَّه ﷺ وأنت شر من حماري هذا.

قال: واللَّه ما أرد عليك ما تقول، وايم اللَّه لا نقيم عليه. ثم خرج وخرج الناس فتفرَّقوا، ورفعه اللَّه عنهم.

قال: فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأي عمرو بن العاص، فواللَّه ما كرهه) [٢]
فقد كان موقف حكومة الأزمات مرتبطًا بقرارين مصيريين:

الأول: منع الناس من دخول مناطق الوباء أو الخروج منها فيما يسمى اليوم بالحجر

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧/ ٩٥).

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٨).

الصحي، وهو الذي دعا عمر ﷺ أن يرجع بالمسلمين إلى المدينة ولا يدخلوا الشام؛ استجابة لقناعته.

(قال: أيها الناس إني راجع فارجعوا.

فقال له أبو عبيدة بن الجراح: أفرارًا من قدر اللَّه؟

قال: نعم فرارًا من قدر اللَّه إلى قدر اللَّه، أرأيت لو أن رجلًا هبط واديًا له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس يرعى مَنْ رعى الجدبة بقدر اللَّه، ويرعى مَنْ رعى الخصبة بقدر اللَّه؟

ثم قال: لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة.

فبينا الناس على ذلك إذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفًا عن الناس لم يشهدهم بالأمس فقال: ما شأن الناس؟ فأُخبِر الخبر، فقال: عندي من هذا علم. فقال عمر: فأنت عندنا الأمين المصدق، فماذا عندك؟ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

« **إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فرارًا منه ولا يخرجنكم إلا ذلك** ». فقال عمر: فللَّه الحمد، انصرفوا أيها الناس. فانصرف بهم » [١].

الثاني: إجازة قرار الأمير عمرو بن العاص بصعود الناس إلى الجبال (فبلغ عمر ابن الخطاب من رأي عمرو بن العاص، فواللَّه ما كرهه).

ونعود إلى نائب القائد العام معاذ بن جبل، فمن هو معاذ؟ (.. ابن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن المدني، صحابي جليل كبير القدر. قال الواقدي: كان طوالًا حسن الشعر والثغر، براق الثنايا، لم يولد له. وقال غيره: بل ولد له ولد وهو عبد الرحمن، شهد معه اليرموك. وقد شهد معاذ العقبة. ولما هاجر الناس آخى رسول للَّه ﷺ بينه وبين ابن مسعود. وحكى الواقدي الإجماع على ذلك .. وشهد بدرًا وما بعدها، وكان أحد الأربعة من الخزرج الذين جمعوا القرآن في حياة النبي ﷺ وهم أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد عم أنس بن مالك، وصح في الحديث عن معاذ أن رسول اللَّه ﷺ قال له:

(**يا معاذ واللَّه إني لأحبك، فلا تدعن أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعنِّي على**

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٦).

ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » [١].

وعن أنس مرفوعًا: « **وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل** » [٢].

وقد بعثه رسول اللَّه ﷺ إلى اليمن وقال له:

« **بم تحكم؟** » فقال: بكتاب اللَّه ... الحديث. وكذلك أقره الصديق على ذلك يُعلِّم الناس الخير باليمن، ثم هاجر إلى الشام فكان بها حتى مات بعدما استخلفه أبو عبيدة حين طعن، ثم طعن بعده في هذه السنة.

(وقد قال عمر بن الخطاب: إن معاذًا يبعث أمام العلماء برتوة) [٣]، ورواه محمد ابن كعب مرسلًا.

وقال ابن مسعود: كنا نشبهه بإبراهيم الخليل. وقال ابن مسعود:

إن معاذًا كان قانتًا للَّه حنيفًا ولم يك من المشركين. وكانت وفاته شرقي غور بيسان سنة ثمان عشرة ..) [٤].

الزعيمان العظيمان: الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو:

٥ - الحارث بن هشام:

(ابن المغيرة .. القرشي المخزومي .. شهد بدرًا كافرًا مع أخيه شقيقه أبي جهل، وفرَّ حينئذٍ وقُتِل أخوه، وعُيِّر الحارث بن هشام لفراره، فمما قيل فيه قول حسان بن ثابت:

إن كُنْتِ كَاذبةً بما حدثْتني ... فنجوْتِ منْجَى الحارِث بنِ هِشَام
تركَ الأحِبة أن يُقَاتِل دونَهم ... ونَجا بـرأسِ طـمْـرةٍ ولجام

فاعتذر الحارث بن هشام من فراره يومئذ بما زعم الأصمعي أنه لم يسمع بأحسن من اعتذاره ذلك من فراره، وهو قوله:

اللَّهُ يعلَم ما تركتُ قتَالَهم ... حتَّى رموا فَرسي بأشقَر مُزبد
ووجدتُ ريح الموتِ من تلقَائهم ... في مَازنٍ والخيْل لمْ تتبدَّد

---

(١) رواه أبو داود (ح ١٥٢٢)، والنسائي (ح ١٣٠٣).

(٢) رواه أحمد (٣/٢٨١)، والترمذي (ح ٣٧٩١).

(٣) رتوة: منزلة.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٧/ ٩٧).

فعلمْتُ أنّي إن أقَاتلْ واحدًا أُقتلْ ولَا يضرُر عدوِّي مشْهَد
فصدفْتُ عنهم والأحبَّةُ دونَهم طمعًا لهم بعقَابِ يوْمٍ مُفسِد

ثم غزا أُحدًا مع المشركين أيضًا، ثم أسلم يوم الفتح وحَسُنَ إسلامه، وكان من فضلاء الصحابة وخيارهم، وكان من المؤلفة قلوبهم، وممن حسن إسلامه منهم، وروينا أن أم هانئ بنت أبي طالب استأمنت له النبي ﷺ فأمَّنه يوم الفتح، وكان إذ أمَّنَتهُ أراد عليٌّ قتله، وحاول أن يغلبها عليه، فدخل النبي ﷺ منزلها ذلك الوقت فقالت:

يا رسول اللَّه، ألا ترى إلى ابن أمي يريد قتل رجل أجرتُه؟

فقال رسول اللَّه ﷺ: « **قد أجرنا من أجرت، وأمنَّا من أمَّنت؟** »

وروي أن رسول اللَّه ﷺ ذكر الحارث بن هشام وفعله في الجاهلية في قرى الضيف وإطعام الطعام فقال:

« **إن الحارث السري** [١] **وإن كان أبوه لسريًّا، ولوددت أن اللَّه هداه إلى الإسلام** »

وخرج إلى الشام في زمن عمر بن الخطاب راغبًا في الرباط والجهاد، فتبعه أهل مكة يبكون لفراقه فقال: إنها النقلة إلى اللَّه، وما كنت لأوثر عليكم أحدًا. فلم يزل بالشام مجاهدًا حتى مات في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة.

.... وفي الحارث بن هشام يقول الشاعر:

أحسبتَ أن أباك حينَ تسبني في المجْد كَان الحارِثَ بنَ هِشَام
أَولى قُريشٍ في المكَارِم كلِّها في الجاهِـليَّة كَـان والإِسْـلام

وأنشد الشاعر أبو زيد عمرو بن شبة للحارث بن هشام:

من كَان يسأل عنَّا أين منزلنا فالأقحوانة [٢] **منا منزل قَمِن** [٣]
إذ نَلبسُ العيشَ صَفوًا لا يكدِّره طعْنُ الوشَاة ولا يَنْبو بنَا الزَّمن

.. وقالت طائفة من أهل العلم بالنسب: لم يبق من ولد الحارث بن هشام إلا عبد الرحمن بن الحارث، وأخته أم حكيم بنت الحارث.

وروى ابن المبارك عن الأسود بن شيبان عن أبي نوفل بن أبي عقرب قال:

---

(١) السري: المروءة في شرف.
(٢) الأقحوانة: اسم مكان في مكة.
(٣) قمن: منزل قريب وجدير بأهله.

خرج الحارث بن هشام من مكة، فجزع أهل مكة جزعًا شديدًا، فلم يبق أحد يطعم إلا وخرج معه يشيعه، حتى إذا كان بأعلى البطحاء - أو حيث شاء اللَّه من ذلك - وقف ووقف الناس حوله يبكون، فلما رأى جزع الناس قال:

يا أيها الناس إني واللَّه ما خرجت رغبة بنفسي عن أنفسكم، ولا اختيار بلد على بلدكم، ولكن كان هذا الأمر فخرجت فيه رجال من قريش، واللَّه ما كانوا من ذوي أسنانها ولا من بيوتاتها، فأصبحنا، واللَّه لو أن جبال مكة ذهب فأنفقناها في سبيل اللَّه ما أدركنا يومًا من أيامهم، واللَّه لئن فاتونا به في الدنيا لنلتمسن أن نشاركهم به في الآخرة، فاتَّقى اللَّهَ امرؤٌ فَعَلَ. فتوجه إلى الشام، واتَّبعهُ ثقله فأصيب ..) [(١)].

٦ - سهيل بن عمرو:

(.. ابن عبد شمس .. بن عامر بن لؤي القرشي العامري، يكنى أبا يزيد، كان أحد الأشراف من قريش وساداتهم في الجاهلية، أسر يوم بدر كافرًا، وكان خطيب قريش، فقال عمر: يا رسول اللَّه، أنزع ثَنِيَّتَهُ فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا؟

فقال ﷺ: « **دَعْهُ فعسى أن يقوم مقامًا تحمده** ». وكان الذي أسره مالك ابن الدخشم، فقال في ذلك:

أَسَرْتُ سهيلًا فلا أبْتَغي أسيرًا به من جميع الأمم
وخندف تعلم أن الفتى سهيلًا فتاها إذا تُصطلم [(٢)]
ضربت بذي الشفر [(٣)] حتى انثنى وأكرهتُ سيفي على ذي العلم [(٤)]

..وكان سهيل أَعْلَمَ أي مشقوق الشفة، وهو الذي جاء في الصلح يوم الحديبية، فقال رسول اللَّه ﷺ حين رآه: « **قد سهَّل اللَّه لكم من أمركم** ». وعقد مع رسول اللَّه ﷺ الصلح يومئذ، وهو كان متولي ذلك من سائر قريش.

وهو الذي مدحه أمية بن أبي الصلت فقال:

أبا يزيد رأيتُ سيبك [(٥)] واسعًا وسجال كفك يستهل ويمطر

---

(١) الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر (ت ٤٦٦).
(٢) تُصْطلم: تُغزى وتستأصل. (٣) ذي الشفر: حد السيف.
(٤) ذي العلم: كناية عن سهيل بن عمرو الذي كان أعلم: أي مشقوق الشفة.
(٥) رأيت عطاءك.

وقال فيه ابن قيس الرقيات حين منع خزاعة من بكر بعد الحديبية وكانوا أخواله فقال:

منهم ذُو الندَى سُهيل بن عمروٍ عِصْمة الناس حِينَ جَبَّ الوفاء
حَاط أخواله خزاعة لما كثرَتهم بمكة الأحياء

وكان المقام الذي قامه في الإسلام الذي قال رسول اللَّه ﷺ لعمر: « **دعه فعسى أن يقوم مقامًا تحمده** ».

فكان مقامه في ذلك أنه لما ماج أهل مكة عند وفاة النبي ﷺ وارتد من العرب قام سهيل بن عمرو خطيبًا فقال:

واللَّه إني لأعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها إلى غروبها ....

وأتى في خطبته بمثل ما جاء به أبو بكر الصديق ؓ بالمدينة، فكان ذلك معنى قول رسول اللَّه ﷺ فيه لعمر. واللَّه أعلم.

وروى ابن المبارك قال: حدثنا جرير بن حازم، قال: سمعت الحسن يقول:

حضر الناس باب عمر بن الخطاب ؓ وفيهم سهيل بن عمرو وأبو سفيان، وأولئك الشيوخ من قريش، فخرج آذنه، فجعل يأذن لأهل بدر، لصهيب، وبلال، وأهل بدر، وكان يحبهم، وكان قد أوصى بهم، فقال أبو سفيان:

ما رأيت كاليوم قط، إنه يؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا. فقال سهيل، قال الحسن: ويا له من رجل ما كان أعقله!:

أيها القوم إني واللَّه قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضابًا فاغضبوا على أنفسكم، دُعِي القوم ودُعِيتم، فأسرعوا وأبطأتم، أما واللَّه لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتًا من بابكم هذا الذي تتنافسون فيه. ثم قال:

أيها القوم، إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون، ولا سبيل لكم واللَّه إلى ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فالزموه، عسى اللَّه ﷻ أن يرزقكم شهادة. ثم نفض ثوبه وقام ولحق بالشام.

وقال الحسن: فصدق، واللَّه لا يجعل اللَّهُ عبدًا له أسرع إليه كعبد أبطأ عنه.

وذكر الزبير عن عمِّه مصعب عن نوفل بن عمارة قال: جاء الحارث بن هشام

وسهيل بن عمرو إلى عمر بن الخطاب، فجلسا وهو بينهما، فجعل المهاجرون الأولون يأتون عمر ﷺ فيقول: هاهنا يا سهيل، هاهنا يا حارث. فينحيهما عنه، فجعل الأنصار يأتون فينحيهما عنه كذلك حتى صار آخر الناس.

فلما خرجا من عند عمر قال الحارث بن هشام لسهيل بن عمرو:

إن الرجل لا لوم عليه، ينبغي أن نرجع باللوم على أنفسنا، دُعي القوم فأسرعوا ودعينا فأبطأنا. فلمَّا قاما من عند عمر أتياه فقالا له:

يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما فعلت بنا اليوم، وعلمنا أنا أتينا من قبل أنفسنا، فهل من شيءٍ نستدرك به ما فاتنا من الفضل؟

فقال: لا أعلم إلا هذا الوجه.

وأشار لهما إلى ثغر الروم، فخرجا إلى الشام، فماتا بها.

قالوا: وكان سهيل بن عمرو بعد أن أسلم كثير الصلاة والصوم والصدقة، وخرج بجماعة أهله إلا بنته هندًا إلى الشام مجاهدًا حتى ماتوا كلهم هنالك، فلم يبقَ من ولده أحد إلا ابنته هندٌ وفاختة بنت عتبة بن سهيل، فقُدم بهما على عمر، فزوجها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وكان الحارث قد خرج مع سهيل، فلم يرجع ممن خرج معهما إلا فاختة وعبد الرحمن فقال:

زوجوا الشريد الشريدة.

ففعلوا، فنشر اللَّه منهما عددًا كثيرًا.

قال المدائني: قتل سهيل بن عمرو باليرموك. وقيل: بل مات في طاعون عمواس)[1].

٧ - ولده: أبو جندل بن سهيل:

وقد سبقت ترجمته.

٨ - ضرار بن الأزور:

وقد سبقت ترجمته كذلك.

---

(١) الاستيعاب في أسماء الأصحاب (ت ١٠٧٩).

٩ - الفضل بن عباس بن عبد المطلب:

.. القرشي الهاشمي .. غزا مع رسول اللَّه ﷺ حنينًا، وشهد معه حجَّة الوداع وشهد غسله ﷺ، وهو الذي كان يصب الماء على عليٍّ يومئذ، واختلف في وقت وفاة الفضل .. وقيل: مات الفضل في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة وكان أحسن الناس وجهًا، ولم يترك ولدًا إلا أم كلثوم، تزوجها الحسن ابن على رضي الله عنه ثم فارقها، فتزوجها أبو موسى الأشعري. روى عنه أخوه عبد اللَّه ابن عباس، وروى عنه أبو هريرة رضي الله عنه [١].

١٠ - عبد الرحمن بن معاذ:

.. ابن جبل الأنصاري ذكره أبو عمر فقال: توفي مع أبيه، وكان فاضلًا وقال ابن أبي حاتم: يقال أنه أدرك النبي ﷺ، وقال أبو حذيفة البخاري في الفتوح: شهد عبد الرحمن مع أبيه اليرموك، ومات معه في طاعون عمواس، وجاء من طرق عند أحمد وغيره عن أبي منيب وغيره أن الطاعون لما وقع بالشام خطب معاذ فقال: إنها رحمة ربكم ودعوة نبيكم وقبض الصالحين قبلكم، اللهم أدخل على آل معاذ من هذه الرحمة، ثم نزل فطُعن ابنه عبد الرحمن فدخل عليه فقال له: (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين)، فقال معاذ: (ستجدني إن شاء اللَّه من الصابرين) [٢].

* * *
* *
*

---

(١) الاستيعاب (ت ٢٠٨٣).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة (٥/٤٧).

الفصل الثالث والعشرون

فتوح الجزيرة

لقد اختلف في فتوح الجزيرة على ثلاثة أقوال:

فقد ساقه الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أحداث سنة سبع عشرة وقال: « وكان فتح الجزيرة في سنة سبع عشرة في ذي الحجة » [(١)].

وقد انفرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الرأي،

ثم ساق في أحداث سنة تسع عشرة القول الثاني فقال:

« وقال ابن إسحاق: كان فتح الجزيرة والرها وحران ورأس العين ونصيبين في سنة تسع عشرة » [(٢)].

القول الثالث: وهو رأي أكثر المؤرخين أنها كانت سنة ثماني عشرة، فقد ذكر الذهبي في تاريخه قوله:

(بقية حوادث سنة ثماني عشرة:

وفي أوائلها وَجَّهَ أبو عبيدة بن الجراح عياض بن غنم الفهري إلى الجزيرة، فوافق أبا موسى قَدِمَ من البصرة، فمضيا فافتتحا حران ونصيبين من الجزيرة عنوة. وقيل صلحًا) [(٣)].

وذكر ابن الأثير في كتابه الكامل:

(فعلى هذا القول تكون الجزيرة من فتوح أهل العراق، والأكثر على أنها من فتوح أهل الشام، فإن أبا عبيدة سيَّر عياض بن غنم إلى الجزيرة. وقيل: إن أبا عبيدة لما توفي استخلف عياضًا فورد عليه كتاب عمر بولايته حمص وقنسرين والجزيرة، فسار إلى الجزيرة سنة ثماني عشرة للنصف من شعبان في خمسة آلاف) [(٤)] والبلاذري في فتوح البلدان على هذا الرأي.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٨٥). (٢) المصدر نفسه (٢/ ٥١١).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ١٨٦) (عهد الراشدين).

(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٣٧٩).

(وقال محمد بن سعد، قال الواقدي: أثبت ما سمعنا في أمر عياض أن أبا عبيدة مات في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة، واستخلف عياضًا، فورد عليه كتاب عمر بتوليته حمص وقنسرين والجزيرة، فسار إلى الجزيرة يوم الخميس للنصف من شعبان سنة ثماني عشرة ..) (١) وابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ يأخذ بهذا الرأي في كتابه البداية والنهاية:

(قال الواقدي وغيره: وفي هذه السنة (سنة ثمان وعشرة) من ذي الحجة منها حوَّل عمر المقام ... وفيها فتحت الرقة والرها وحران على يدي عياض بن غنم) (٢).

ونرى في كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي عرضًا مُفَصَّلًا لهذا الفتح لم نجد بأسًا من عرضه عرضا لا يتناقض والمنهج الذي نسير عليه في أخذ الضعيف حين يكون له أصل قوي، ولا ينال من الصحابة.

صورة جبهة الشام في رسالة عمر لعياض:

فكان مما قال فيها:

(.. وقد رأيت وشاهدت ما فتح اللّه عَزَّ وَجَلَّ من أرض الشام في القلة والكثرة من عدوكم، وقد سمعت ما قال رسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الخندق إذ أقبل علينا فقال:

« **ليفتحن عليكم أرض كسرى وقيصر، وليغنمنكم اللّه أموالها** ». فقد رأيت ذلك يا عياض وشهدت منه ما شهدت، وقد صدق اللّه عَزَّ وَجَلَّ قول نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، وأظهركم على عدوكم، فصاروا ذمة لكم يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون، وقد هرب رئيس الكفرة هرقل صاحب الروم خائفًا وجلًا منكم، حتى صار إلى أقاصي الروم فزعًا مرعوبًا شريدًا طريدًا، وذلك بفضل اللّه ونعمته وحوله وطَوله، فإني قد كتبت إلى يزيد بن أبي سفيان أن يمدك بجند تقوى بهم إن شاء اللّه تعالى، ولا قوة إلا باللّه).

فهرقل ملك الروم قد فرَّ مرعوبًا فَزِعًا إلى القسطنطينية، ورأينا كيف حاول استعادة حمص ففشل، ورأينا أن الجزيرة كانت منطلق التآمر للحرب على الإسلام، ولا بد من إنهاء هذا الجيب في الأرض العربية مبتدئًا بالرقة ومنتهيًا بالرها.

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (١/١٧٧).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٩٥).

فتح الرِّقَّة:

(فلما ورد كتاب عمر على عياض بن غنم نادى في المسلمين وأقرأهم الكتاب، ثم ندبهم إلى المسير إلى بلاد الجزيرة، فأجابوه إلى ذلك سراعًا، قال:

فانتخب عياض خمسة آلاف رجل من عسكر يزيد بن أبي سفيان من أهل البأس والشدة على دواب فُرُه وسلاح شاك وعدة كاملة وتعبئة حسنة، ثم خرج إلى الشام يوم الخميس للنصف من شعبان، وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق العبسي، وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حذيم، وعلى ميسرته عبد اللّٰه بن سعيد السعدي، وعلى ساقته صفوان بن المعطل السلمي، وسار حتى صار إلى الرقة.

وبالرقة يومئذ جمع من الروم عظيم، فنزل عياض بن غنم قريبًا من سورها، ثم بَثَّ السرايا حولها، فغنم المسلمون غنيمة حسنة، وأشرفت الروم من حيطان الرقة، فجعلوا يرمون المسلمين بالحجارة والنشاب، فلما كان من الليل خرج عياض بن غنم في قريبٍ من ثلاثمائة فارس، حتى صار إلى باب يقال له: باب جروان، وذلك بعد ثلاث ساعات من الليل أقل أو أكثر، وإذا بجماعة من الروم على ذلك الباب وقد أوقفهم صاحب الرقة عليه وأمرهم بحفظه، قال: وقد شرب القوم شرابًا فسكروا، فلما أشرفت عليهم خيل المسلمين في جوف الليل فزعوا لذلك، ثم وثبوا إلى أسلحتهم ودوابهم، وعاجلهم المسلمون فقتلوا منهم من قتلوا، وأسروا الباقين فكتفوهم، وَأَتَوا بِهِمْ إلى عسكرهم في وقت السحر.

قال: وأصبحت الروم وقد بلغهم ذلك، فأشرفوا على أبراج المدينة، فنظروا إلى أصحابهم مأسورين، وقد قتل منهم من قتل، فجزعوا لذلك جزعًا شديدًا.

ثم أرسل بطريق الرقة إلى عياض بن غنم: إن رأيت أن تأذن لي في كلامك؟ فَأَرْسَلَ إليه عياض بن غنم: إن أَرَدْتَ كلامي فانزل إليَّ وكلمني.

قال البطريق: إني أخاف أن أُقْتَلَ قبل أن أصل إليك.

فأرسل إليه عياض: إنك آمن على نفسك حتى ترجع إلى مأمنك.

قال: فاكتب لي أمانًا يكون لي ولعشرة معي.

قال: فكتب له عياض أمانًا وبعثه منشورًا قد ختمه بخاتمه.

قال: فنزل بطريق الرقة ومعه عشرة من بطارقته عليهم الحرير والديباج، وفي أوساطهم مناطق الذهب المرصعة بالجوهر، حتى وقفوا بين يدي عياض.

قال: فرفع عياض رأسه فنظر إلى بطريق الرقة في زيه ذلك فقال له: ما اسمك؟

قال: اسمي بنطس. فقال عياض: قل ما تشاء، وسل ما بدا لك.

قال بنطس: أيها الأمير، ما اسمك؟ قال: اسمي عياض. قال: ابن من؟ قال: ابن غنم.

قال: فحرك البطريق رأسه ثم نظر إلى أصحابه وتبسم.

ثم قال: إلام تدعو؟

قال عياض: أدعو إلى قول لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، فإذا قلتم ذلك، وصمتم، وصليتم، وأديتم زكاة أموالكم، وأحللتم ما أحل اللَّه، وحرمتم ما حرَّم عليكم، فقد حُرِّمت علينا دماؤكم وأموالكم إلا بحقِّها، وحسابكم على اللَّه.

قال بنطس: فإن لم نَقُل ذلك؟

قال عياض: فإن لم تقولوا ذلك فأدُّوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وكونوا لنا ذِمَّةً، وقرُّوا في دياركم على دينكم، ونحن نذب عنكم من بغاكم من أعدائكم.

قال بنطس: فإني أقيم على ديني ولا أفارقه، وأصالحك على ما تريد.

قال: فصالحه عياض على عشرين ألف دينار عاجلة، وعلى أنه وضع على كل محتلم منهم في كل سنة أربعة دنانير، وكلما أدرك غلام منهم يُلْحَقُ بالجزية، وعليهم بعد ذلك العُشر من مواشيهم، وعليهم الضيافة للمسلمين إذا نزلوا بهم ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فلا يؤخذ منهم شيء إلا بثمنه.

قال: فرضي بنطس بطريق الرقة بما صالحه عليه وأشهد عليه المسلمين وختمه بخاتمه ودفعه إليه.

ثم قال لبنطس: أسألك عن شيء فأخبرني.

قال بنطس: وما ذلك أيها الأمير؟

فقال: رأيتك سألتني عن اسمي وأخبرتك، ثم استخبرتني عن اسم أبي فأخبرتك، فالتفتَّ إلى أصحابك وتبسمت فلماذا كان ذلك؟

قال بنطس: إن الصدق لا يعدله شيء. والكذب عندنا أقبح الأشياء، أيها الأمير، إني أنا بطريق المدينة، وابن بطارقتها، وكذلك آبائي وأجدادي ما زالوا يتوارثون بَطْرَقَة هذه المدينة في الزمن القديم، غير أن الفرس قد كانوا تغلبوا علينا وقهرونا، تولوا علينا في مدينتنا هذه، وقد كان غضب علينا هرقل ملك الروم، فأرسل إلينا القبط، فنزلوا علينا، وآذونا غاية الأذى، وقد كنا على يقين أن ملكنا يعود إلينا للذي أصبناه في كتبنا أن مدينتنا هذه لا يغلب عليها أحد، ولا يعطون لأحد الطاعة إلا لرجل عربي يقال له: غنم أو ابن غنم، فلما سألتك عن اسمك وخبرتني به ظننت أنك صاحبنا، فأشرتُ إلى أصحابي وخبرتهم بما يعلمون.

فقال له عياض: ويلك يا بنطس، وأنتم أهل كتاب وعلم، وتجدون عندكم نعت نبينا محمد صلى اللّٰه عليه وسلم وآله وصفته أفلا تتبعونه؟

قال بنطس: إي والمسيح ابن مريم، لقد بشرنا في الإنجيل باسم محمد صلى اللّٰه عليه وآله وسلم وصفته، وإنه لعربي، وإنه لخير الأنبياء، وأمته خير الأمم يوم القيامة، وهو الذي يركب الحمار، ويلبس الشملة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وما نظنه إلا من بني إسرائيل.

فقال عياض: تظنونه من بني إسرائيل وأنتم تجدونه في كتبكم عربيًّا؟

قال بنطس: إنا ظننا أنه يتكلّم العربية ولا يكون عربيًّا.

وأعلمك أيها الأمير أني دعوت قومي هؤلاء من أهل الرقة إلى دينكم فأبوا عليّ وقالوا: إن قلت هذا الكلام قتلناك؛ فلذلك خفتهم على نفسي، فهذه قصتي، وهذا حالي.

فعجب عياض بن غنم من صدق البطريق، وأقام بالرقة أيامًا ثم رحل منها.

فتح مدينة الرها من بلاد الجزيرة:

(قال: وأهل الرها قد بلغهم يومئذ خبر عياض بن غنم، وفتح الرقة، فجزعوا لذلك جزعًا شديدًا، وقد جمعوا الأطعمة والأشربة والعلوفة إلى مدينتهم وهم على خوف شديد من المسلمين، وقد هيأوا العرَّادات على أبرجة المدينة، قد جمعوا الحجارة، وعزموا على حرب المسلمين، فلم يشعروا إلا والخيل قد وافتهم بالتكبير والتهليل، فلما سمع أهل الرها ذلك أخذهم الخوف، وهم في ذلك يتجلَّدون ويتشجَّعون.

قال: وتقاربت خيل المسلمين من المدينة، وتقدمت الرايات والألوية، فجعل أهل الرهاء يقول بعضهم لبعض: القوم في عشرين ألفًا أو يزيدون، وما نظن أن لنا بهم طاقة. وأقبل عياض بن غنم والكتائب عن يمينه وعن شماله يتلو بعضهم بعضًا حتى نزل وضرب عسكره على الباب الأعظم من أبواب الرهاء، وهو الباب الذي يخرج منه إلى أرض الروم، والتحم الأمرُ بين الفريقين فاقتتلوا خمسة عشر يومًا لا يقرون ليلًا ولا نهارًا، وجعل أهل الرهاء ينظرون إلى رجال أبطال فرسان في متون الخيل، فعلموا أن لا طاقة لهم بالمسلمين، فاستغاثوا إلى بطريقهم الأكبر - واسمه ميطولس - فقالوا:

أيها البطريق، إنه لا طاقة لنا بهؤلاء العرب، فإما أن تصالحهم كما فعل أهل الرقة، وإلا سلمنا إليهم المدينة.

فلما نظر البطريق إلى الجزع والفشل أرسل إلى عياض بن غنم يسأله الصلح على أن يعطيه ما أعطاه أهل الرقة، فأجابه عياض إلى ذلك، فكتب له ولأهل المدينة كتابًا بالصلح وأشهد عليه المسلمين، ثم نادى عياض في عسكره:

ألا إن أهل الرهاء في ذمتنا وعهدنا فلا تؤذوهم ولا تدخلوا عليهم في منازلهم إلا بإذن. فكفَّ المسلمون عن محاربة أهل الرهاء، وأخذ عياض منهم ما صالحهم عليه، وأعجبته المدينة، وأقام بها أيامًا، واصطنع له ميطولس بطريق الرها طعامًا كثيرًا ثم جاء إليه فقال:

أيها الأمير، إنِّي قد فرشت الكنيسة العظمى، وقد أحببت أن تتغذى عندي أنت ومن شئت من قومك، وتكرمني بإجابتك إياي إلى طعامي حتى تري أصحابك إكرامك لي.

فقال عياض: يا ميطولس، لو فعلت هذا بأحد من أهل دينك لفعلته بك، غير أني رأيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ لما دخل بيت المقدس اصطنع له البطريق طعامًا ودعاه إليه فلم يجبه عمر إلى ذلك، وأنا أيضًا لا أحب أن أفعل ما لم يفعله عمر.

قال ميطولس: أيها الأمير، فمر أصحابك يجيبوني إلى ذلك.

قال: ماكنت بالذي آمرهم ولا أنهاهم.

فبقي البطريق واقفًا بين يدي عياض لا يدري ما يقول.

فقال له عياض: أيها البطريق، إنما أنت تفعل بنا ذلك خوفًا على أرضك،

وإنما يجب عليك أن تفعل هذا بمن يأتيك من بعدنا، فأما نحن فقد وفينا لك بالصلح، فلا تخف منا ظلمًا، ولا أن نحمِّلك ما لا تطيق.

قال: فانطلق البطريق إلى أصحابه وهو يقول: هذا أفضل رجل يكون.

المرأة النصرانية:

وإذا امرأة نصرانية قد أقبلت على عياض بن غنم مع ابن عَمٍّ لها، فاختصمت إليه في شيءٍ كان بينهما، فقضى عياض للرجل على المرأة بالحق.

ثم إنه نظر إليها وتأملها فرأى لها حسنًا وجمالًا فقال: ألك زوج؟

فقالت:لا. قال: هل لك في زوج؟

فقالت: ما أحوجني إلى ذلك إن كان الزوج على ما أريد.

قال عياض: فإن كان الزوج على ما تريدين، أتخرجين من دين النصرانية، وتدخلين في الإسلام؟

فقالت له: ما أفارق دين النصرانية أبدًا، وما على الزوج مني؟ له دينه ولي ديني. فَهَمَّ عياض أن يتزوَّجها ثم قال: أمير قوم يتزوج بكافرة! هذا ما لا يحسن. فأعرض عنها وتركها.

فجاءها رجل من أصحاب عياض فخطبها.

فقالت: أنا خطبة أميرك، وليس لي في غيره من حاجة.

قال: ثم إن هذه المرأة اصطنعت لعياض طعامًا كثيرًا وأرسلت به إليه، فقبله منها ووهب لها جارية مما صار إليه من سهمه)[1].

خاتمة العام الثامن عشر

حيث يعدد ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ إنجازات هذا العام بقوله:

(قال الواقدي وغيره:

وفي هذه السنة - في ذي الحجة منها - حوَّل عمر المقام، وكان ملصقًا بجدار الكعبة، فأخَّره إلى حيث هو الآن؛ لئلَّا يشوِّش المصلون عنده على الطائفين..

---

(١) كتاب الفتوح لابن أعتم الكوفي (١/٢٤٨ - ٢٥٣).

- وفيها استقضى عمر شريحًا على الكوفة، وكعب بن سُور على البصرة.

- وفيها حجَّ عمر بالناس.

- وفيها فتحت الرقة والرها وحران على يد عياض بن غنم [١].

- قال: وفتحت رأس عين الوردة على يدي عمر بن سعد بن أبي وقاص. وقال غيره خلاف ذلك.

- وقال شيخنا الذهبي في تاريخه: وفيها - يعني هذه السنة - افتتح أبو موسى الأشعري الرها وشمشاط عنوة.

- وفي أوائلها وجه أبو عبيدة عياض بن غنم إلى الجزيرة، فوافق أبا موسى، فافتتحا حران ونصيبين وطائفة من الجزيرة عنوة. وقيل: صلحًا [٢].

- وفيها سار عياض بن غنم إلى الموصل فافتتحها وما حولها عنوة ....) [٣]، [٤].

لقد كان العام الثامن عشر يحمل في ثناياه أعظم الخطوب والأزمات. ويحمل في ثناياه أعظم الفتوح والانتصارات. لولا القيادة التاريخية الخالدة لأمير المؤمنين عمر ﷺ. والذي لم يفز أحد من البشر بوصف (العبقري) غيره من رسول الله ﷺ. والجيل القيادي الذي معه من الصحابة العظام، والجيل الجديد من التابعين الذي تربَّى على يد هؤلاء الصحابة والذين أمكن أن يأخذ موقعه مباشرة بعد غياب معظم الجيل الرائد الأول. لكان يمكن أن تنهار الدولة، وتعود الإمبراطوريتان لتحكما العالم من جديد. ولكن عظمة هذا الجيل الرباني النبوي الفريد كانت من الحكمة والصبر واليقظة والعزم بحيث أكفأت وصدت كل عوامل الهدم والابتلاءات من الداخل والخارج. ويتم بهم تحقيق موعود اللَّه في الأرض.

* * *
* *
*

(١) وهي التي ذكرناها آنفًا على رواية ابن أعثم الكوفي.
(٢) وقد أوردها الطبري في أحداث سنة سبع عشرة.
(٣) وكذلك ذكرها الطبري في أحداث سنة سبع عشرة.
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٩٥).

فِهْرِسُ ٱلمُحتَوَيَاتِ

الفصل الثاني عشر
ماذا عن البصرة؟ ٦٤٧

الفصل الثالث عشر
الهرمزان يقود مقاومة فارس ٦٥٥

الفصل الرابع عشر
العظماء الثلاثة وغلطة الشاطر ٦٧٣

الفصل الخامس عشر
محاولة رومية لاجتياح أرض الإسلام ٦٩١

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

تم بحمد الله المجلد الثاني

من سيرة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

والمجلد التالي يبدأ بـ:

سنة خمس عشرة: السنتان التاسعة عشرة والعشرون

تابعوا معنا باقي مجلدات:

المسيرة الإسلامية

لجيل الخلافة الراشدة

- المجلّد الأوّل : أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه
- المجلّد الثّاني : عمر بن الخطّاب رضي الله عنه

اليرموك والقادسيّة : المعركتان اللّتان غيّرتا وجه التّاريخ

* المجلّد الثّالث : عمر بن الخطّاب رضي الله عنه

الفتوحات الإسلاميّة الموسّعة

- المجلّد الرّابع : عمر بن الخطّاب رضي الله عنه

الانسياح الإسلاميّ في الأرض

- المجلّد الخامس : عثمان بن عفّان رضي الله عنه
- المجلّد السّادس : عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

المسيرة الإسلامية

جيل الخلافة الراشدة

المجلد الرابع

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

- الانسياح الإسلامي في الأرض

تأليف
د. منير محمد الغضبان

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

للناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

لصاحبها

عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م

الغضبان ، منير محمد .
المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة / تأليف منير محمد الغضبان . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٤م .
مج ٤ ؛ ٢٤ سم .
المحتويات : ج ٢ عمر بن الخطاب، اليرموك والقادسية المعركتان اللتان غيرا وجه التاريخ ، ج ٣ عمر ابن الخطاب ﷺ الفتوحات الإسلامية الموسعة، ج ٤ عمر بن الخطاب ﷺ الانسياح الإسلامي في الأرض .
٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٧ ٢٠٩ ٧
١ - الخلفاء الراشدون . ٢ - الصحابة والتابعون .
٣ - التاريخ الإسلامي .
٤ - عمر بن الخطاب، عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي، ٥٨٤م - ٦٤٤م.
أ - العنوان . ٩٥٣,٠٢٣

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

ISBN: 978-977-717-209-7



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد للَّه رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، صلوات اللَّه عليه في الأولين، وصلوات اللَّه عليه في الآخرين، وصلوات اللَّه عليه في الملأ الأعلى إلى يوم الدين..

وبعد .. فهذا هو المجلد الثالث والأخير من الجزء الثاني لسلسلة المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة.. ويتناول المسيرة الخالدة في الثلث الأخير من فترة خلافة الفاروق عمر ﷺ، حيث استمرت خلافته من جمادى الآخرة عام (١٣هـ) إلى أن استشهد على يد أبي لؤلؤة المجوسي - لعنه اللَّه - في غرة محرم عام (٢٤هـ).

وقد شهدت تلك الأعوام أحداثًا عظيمة وانتصارات وفتوحات إسلامية على حساب دولتي الفرس والروم القويتين العظميين عالميًا.

وما كان لهذا الجيل أن يحقق مثل هذه الانتصارات والفتوحات إلا بتوفيق من اللَّه ثم بالأيديولوجيات والإستراتيجيات والآليات الإسلامية التي فطن إليها هذا الجيل من البارعين الذين فضَّلوا الشهادة على الحياة، فاستطاعوا فتح عواصم الفرس عملاق الشرق، والروم عملاق الشمال والغرب.

لقد استطاعت الجيوش الإسلامية في هذه الفترة استكمال فتح مصر حيث فُتح حصن بابليون، وفتحت الإسكندرية والفيوم وتوجهت الجيوش الإسلامية إلى برقة وطرابلس، وفي هذه الفترة استطاع الجيش الإسلامي (١٥ ألفًا) هزيمة جيش المجوس (١٥٠ ألفًا) في نهاوند، وبعدها فتحت أبواب فارس أمام المسلمين، ففُتحت الرى وقومس وجرجان وطبرستان وأذربيجان وأرمينية وخراسان وأرد شير خُرَّة وسابور وإصطخر وفسا ودارابجرد وكرما وسجستان ومكران.

وأترك القارئ الكريم مع إنجازات تلك الفترة، راجيًا اللَّه أن ينتفع بهذا العمل.. وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.



السنتان: التاسعة عشرة والعشرون



الفصل الأول

السنة التاسعة عشرة

(١)

الفتح الأكبر حصن بابليون:

أو باب ليون - كما أطلق العرب عليه - والذي كان الفاتحة الحقيقية لفتح مصر.

ونعود إلى رواتنا الثقات يحدثوننا عن هذا الحصار والفتح:

قال ابن عبد الحكم: حدثنا عثمان بن صالح، أخبرنا ابن لهيعة [١] عن عبيد الله ابن أبي جعفر وعياش بن عباس وغيرهما يزيد بعضهم على بعض أن عمرو بن العاص حصرهم بالقصر الذي يقال له: بابليون حينًا، وقاتلهم قتالًا شديدًا يصبِّحهم ويمسِّيهم، فلما أبطأ الفتح عليه كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه ذلك؛ فأمده عمر بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل، وكتب إليه عمر بن الخطاب، أني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف: الزبير ابن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد.. وقال آخرون: بل خارجة بن حذافة الرابع لا يعدون مسلمة. وقال عمر بن الخطاب: اعلم أن معك اثني عشر ألفًا [٢]، ولا يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة [٣].

وقال غير عثمان: فكانوا قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق أبوابًا، وجعلوا حسك الحديد موتدة بأفنية الأبواب، وكان عمرو قد قدم من الشام في عدة قليلة؛ فكان يفرق أصحابه ليري العدو أنهم أكثر مما هم، فلما انتهى إلى الخندق نادوه أن قد رأينا ما صنعت، وإنما معك من أصحابك كذا وكذا؛ فلم يخطئوا برجل واحد. فأقام عمرو على ذلك أيامًا يغدو في السحر فيصفّ أصحابه على أفواه الخندق عليهم السلاح.

---

(١) ابن لهيعة: صدوق يخطئ وباقي رجال السند ثقات.

(٢) وهذا غير الرواية التالية التي تشير إلى أن الزبير ﷺ جاء بمدد اثني عشر ألفًا، بينما يرى الواقدي أن هذا المدد تكامل فيما بعد إلى هذا الرقم.

(٣) فتوح مصر وأخبارها (ص ٦١).

فبينا هو على ذلك إذ جاءه خبر الزبير بن العوام [١]، قدم في اثني عشر ألفًا؛ فتلقاه عمرو ثم أقبلا، ثم لم يلبث الزبير أن ركب، ثم طاف بالخندق، ثم فرق الرجال حول الخندق [٢].

(ثم رجع إلى حديث عثمان عن ابن لهيعة قال: فلما قدم المدد على عمرو ابن العاص ألح على القصر ووضع عليه المنجنيق، وقال عمرو يومئذ:

يوم لهمدان ويوم للصدف

والمنجنيق في بلي تختلف

وعمرو يرقل إرقال الخرف

وكان عمرو إنما يقف تحت راية بلي.

فلما أبطأ الفتح على عمرو بن العاص، قال الزبير: إني أهب نفسي للَّه، أرجو أن يفتح اللَّه بذلك على المسلمين. فوضع سُلّمًا إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام، ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا. قال غير عثمان: فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو؛ خوفًا من أن ينكسر. قال: ثم رجع إلى الحديث عثمان وغيره.

قال: فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه، وكبّر وكبّر من معه، وأجابهم المسلمون من خارج - لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعًا فهربوا؛ فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن، فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه فحينئذ سأل عمرو بن العاص الصلح ودعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين عن كل رجل منهم، فأجابهم عمرو إلى ذلك) [٣].

المفاوضات الصعبة:

وتطالعنا رواية ثانية أقل صحة من تلك، ساقها ابن عبد الحكم، وتلقي إضاءات على المفاوضات الصعبة التي تمت بين الفريقين قبل عملية الفتح.

---

(١) يذكر أبو رابية في كتابه (ص ١٤٣) أن المدد وصل - على وجه التقريب - من منتصف جمادى الأولى (١٩هـ / ٦٤٠م) إلى نهاية جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

(٢) فتوح مصر (ص ٦١، ٦٢).

(٣) المصدر نفسه (ص ٦٣).

(حدثنا عثمان بن صالح أخبرنا خالد بن نجيح عن يحيى بن أيوب وخالد ابن حميد قالا: حدثنا خالد بن يزيد عن جماعة من التابعين بعضهم يزيد على بعض أن المسلمين لما حاصروا حصن بابليون وكان به جماعة الروم وأكابر القبط ورؤساؤهم وعليهم المقوقس؛ فقاتلوهم بها شهرًا، فلما رأى القوم الجد منهم على فتحه والحرص ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه خافوا أن يظهروا عليهم؛ فتنحَّى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلي، ودونهم جماعة يقاتلون العرب، فلحقوا بالجزيرة - موضع الصناعة اليوم - وأمروا بقطع الجسر وذلك في جري النيل؛ فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص: إنكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا عليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا؛ فابعثوا إلينا رجالًا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفًا لطلبتكم ورجالكم، فابعثوا إلينا رجالًا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء. فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس، فقال لأصحابه: أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم؟! وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين؛ فرد عليهم عمرو مع رسله أن ليس بيني وبينكم إلا ثلاث خصال: إما دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم اللَّه بيننا وهو خير الحاكمين...)[1].

هذا هو المعهود في العرب منذ عشرات القرون؛ يغزون القرى المجاورة للروم طلبًا للسلب والنهب وطمعًا في القرى والمال والغنائم، وقد أزعج المقوقس هذا الإصرار الذي لم يعهده من قبل من هذه الأمة، وجاء الجواب من صانع التاريخ العظيم عمرو بما صعق به المقوقس من جواب لم يألفه، وروح لم يعهدها حين يخيره بين هذه

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٦٥).

الثلاث، وراح المقوقس بعبقرية يتعرف من وفده على هذا الطارق الجديد لأبواب مصر، فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال لهم: (كيف رأيتموهم؟ قالوا: رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعْرَفُ رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشَّعون في صلاتهم) [١].

هذا هو الوصف الذي سمعه المقوقس، والمقوقس شخصية دينية عريقة إضافة إلى شخصيته المدنية والعسكرية، ويعرف أنه يحارب طرازًا جديدًا من البشر فاقوا أتباع الأنبياء من قبلهم، بل بشَّرت بهم كتب الأنبياء السابقة وبجيلهم المتفرد في التاريخ فقال:

(والذي يُحلَف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم) [٢].

هذه هي الحرب العظيمة التي خاضها عمرو؛ فهو يحارب بعقله قبل أن يحارب بسيفه، وإن هذه الهزيمة النفسية التي أوقعها عمرو بغريمه المقوقس أضخم من أية معركة هائلة قوامها مائة ألف سيف، وذلك حين حبس هؤلاء الرسل يومين في المعسكر الإسلامي ليشهدوا الجيل النبوي العظيم.

(فرد إليهم المقوقس رسله وقال: ابعثوا إلينا رسلًا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وإياهم إلى من عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم؛ فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت [٣] وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم [٤]، وألا يجيبهم

(١ ، ٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٦٥).

(٣) ذكر ابن عبد الحكم عن سعيد بن عفير قال: أدرك الإسلام من العرب عشرة نفر طول كل واحد منهم عشرة أشبار (٢٦٠ سم) عبادة بن الصامت أحدهم (ص ٦٦).

(٤) وصل مع المدد عدد لا بأس به من الصحابة منهم عبادة ﷺ بينما لم يكن في الجيش الأول أحد من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وعمرو هو أقدمهم، وكان إسلامه - كما تعلم - في أوائل السنة الثامنة للهجرة.

إلى شيءٍ دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث خصال؛ فإن أمير المؤمنين تقدم إلي وأمرني أن لا أقبل شيئًا سوى خصلة من هذه الثلاث خصال، وكان عبادة بن الصامت أسود، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة؛ فهابه المقوقس لسواده فقال: نحُّوا عني هذا الأسود، قدموا غيره يكلمني. فقالوا جميعًا: إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا وعلمًا، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم فينا، وإنما نرجع جميعًا إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به، وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله. قال: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم؟! قالوا: كلا إنه وإن كان أسود كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعًا وأفضلنا سابقة وعقلًا ورأيًا، وليس ينكر السواد فينا. فقال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود، كلمني برفق؛ فإني أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك علي ازددت لذلك هيبة).

وصدق الوفد؛ فليس في هؤلاء العشرة أعظم فضلًا وأسبق سابقة من عبادة ابن الصامت ﷺ، وعمرو ﷺ يوم اختار عبادة لرئاسة الوفد لم تكن القضية عنده مجرد طول هامته وعظم قامته وهيبته وسواده، وهذه مهمة - عرضًا - في بث الرعب في قلوب العدو، لكن الأصل في ذلك أنه من أعرق المسلمين عظمة وفضلًا وسيادة؛ فعبادة ﷺ قاتل عمرو بن العاص على الإسلام ثماني سنين، وعبادة كان أحد الاثني عشر الأوائل من الأنصار والذين بايعوا على الإسلام في بيعة العقبة الأولى، وعنه رويت أخبارها، وعبادة أحد النقباء الاثني عشر وهي أول حكومة إسلامية في الأرض، وهو عضو هذه الحكومة، وهو الذي ضربه اللَّه - تعالى - مثلًا للمؤمنين في الأرض يوم عز المثل في ولائه للَّه ولرسوله ولجماعة المؤمنين يوم بني قينقاع (قال محمد بن إسحاق: فحدثني أبو إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة ابن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول اللَّه ﷺ تشبث بأمرهم عبد اللَّه ابن أُبيّ وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول اللَّه ﷺ وكان أحد بني عوف بن الخزرج له من حلفهم مثل الذي لعبد اللَّه بن أُبي، فجعلهم إلى رسول اللَّه ﷺ وتبرأ إلى اللَّه ورسوله من حلفهم، وقال: يا رسول اللَّه أبرأ إلى اللَّه وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى اللَّه ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم؛ ففيه وفي عبد اللَّه بن أبي نزلت الآيات في المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ

أَوْلِيَآءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١] إلى قوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (١) [المائدة: ٥٦] وأخيرًا عبادة هو أحد الأربعة الكبار الذين بعثهم عمر أمير المؤمنين على رأس الجيش؛ فعمرو يعلم أن عبادة بن الصامت رائده وأستاذه في دين اللَّه، ولئن عاش عمرو مع رسول اللَّه ﷺ عامًا واحدًا في رفقته وصحبته؛ فقد عاش عبادة عشرة أضعاف ذلك مع رسول اللَّه ﷺ، وعظمة عمرو إذن عبقريته في اختيار هذه الكفاءة العظيمة الخالدة في مكانها المناسب، ولنستمع إلى هذا الجيل العظيم في دين اللَّه، ماذا فعل بأعداء اللَّه؟

(فتقدم إليه عبادة فقال: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سوادًا مني وأفظع منظرًا، لو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي، وأنا قد وليت وأدبر شبابي، وإني مع ذلك - بحمد اللَّه - ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني، وكذلك أصحابي؛ وذلك أنَّا رغبتنا وهمتنا الجهاد في سبيل اللَّه واتباع رضوانه، وليس غزونا عدونا ممن حارب اللَّه ورسوله لرغبة في دنيا ولا طلبًا للاستكثار منها، إلا أن اللَّه قد أحل لنا ذلك؛ جعل ما غنمنا من ذلك حلالًا، وما يبالي أحدنا أن كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهمًا؛ لأن غايتنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته لليله ونهاره وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كَفَاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة اللَّه واقتصر على هذا الذي بيده ويبلغه ما كان في الدنيا؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء؛ إنما النعيم والرخاء بالآخرة، وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا به نبينا وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه.

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟ لقد هبت منظره، وإن قوله عندي لأهْيَبُ من منظره، إن هذا وأصحابه أخرجهم اللَّه لخراب الأرض، وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها. ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال: أيها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتك وما ذكرت، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه لقتالكم من جمع الروم ما لا يُحصَى عدده، قوم

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٥٩٤).

معروفون بالنجدة والشدة، ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم؛ لضعفكم وقوتهم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرًا وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما في أيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار؛ فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قِوَام لكم به) [1].

لقد بذل المقوقس كل ما يملكه من دهاء في تدمير أعصاب المسلمين وتوهين قوتهم وتحطيم روحهم المعنوية، وإذا كان يرضيهم القليل من الدنيا؛ فلكل جندي ديناران وللأمير مائة وللخليفة ألف، فهذا يمكن أن يقنعهم ليجنبهم خطر الإبادة بعد هذه الأشهر العديدة من الحصار دون جدوى وقبل أن تأتي أمواج الروم للقضاء عليهم عن آخرهم. وكان جواب عبادة ﷺ بالمستوى العالي نفسه الذي يتناسب مع شموخ المقوقس واستعلائه في الظاهر على الأقل.

فقال عبادة بن الصامت: (يا هذا لا تغرَّنَّ نفسك وأصحابك؛ أما ما تخوفنا من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم؛ فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه. إن كان ما قلتم حقًّا، فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم، وأشد لحرصنا عليهم؛ لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، إن قُتِلْنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته، وما من شيءٍ أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لَعلَى إحدى الحسنيين؛ إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة لنا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، والله ﷻ قال لنا في كتابه: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباح مساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا همٌّ فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده. وأما قولك أننا في ضيق وشدة من معاشنا؛ فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه، فانظر الذي تريد فبينه؛ فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٦٦، ٦٧).

منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت ولا تطع نفسك في الباطل، بذلك أمرني الأمير وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول اللَّه ﷺ إلينا من قبل) [١].

وهنا تبرز عظمة عُبادة في حرصه على الظفر بالمقوقس دينًا وقلبًا قبل أن يظفر به قتيلًا أو أسيرًا؛ فأحْسَنَ تمامًا عرض وضع المقوقس وصحبه حين يدخل في دين اللَّه ثم عند الجزية ثم عاقبة الإصرار على السيف: (قال: أما إذا جئتم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل اللَّه غيره وهو دين أنبيائه ورسوله وملائكته، أمرنا اللَّه أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان أخانا في دين اللَّه؛ فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم ولم نستحلَّ أذاكم ولا التعرض لكم، فإن أبيتم إلا الجزية فأدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيءٍ نرضى به نحن وأنتم كل عام أبدًا ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيءٍ من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم إن كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم، هذا ديننا الذي ندين اللَّه تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره؛ فانظروا لأنفسكم.

فقال المقوقس: هذا ما لا يكون أبدًا، ما تريدون إلا أن تأخذونا نكون لكم عبيدًا ما كانت الدنيا. قال عبادة: هو ذلك، فاختر ما شئت. فقال له المقوقس: ألا تجيبوننا إلى خصلة غير هذه الثلاث خصال؟ فرفع عبادة يديه فقال: لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيءٍ ما لكم عندنا خصلة غيرها؛ فاختاروا لأنفسكم. فالتفت المقوقس عند ذلك إلى أصحابه فقال: قد فرغ القوم فما ترون؟ فقالوا: أَوَ يرضى أحد بهذا الذل؟! أما ما أرادوا من دخولنا في دينهم فهذا ما لا يكون أبدًا أن نترك دين المسيح ابن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفه، وأما ما أرادوا من أن يَسبُونا ويجعلونا عبيدًا؛ فالموت أيسر من ذلك، لو رضوا منا أن نُضعف لهم ما أعطيناهم مرارًا كان أهون علينا.

فقال المقوقس لعبادة: قد أبى القوم فما ترى؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم في

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ٦٧، ٦٨).

مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون. فقام عبادة وأصحابه، فقال المقوقس عند ذلك لمن حوله: أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث؛ فواللّه ما لكم بهم من طاقة، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين. فقالوا: وأي خصلة نجيبهم إليها؟ فقال: إذًا أخبركم؛ أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به، وأما قتالهم؛ فأنا أعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم، ولا بد من الثالثة. قالوا: أفنكون لهم عبيدًا أبدًا؟! قال: نعم تكونون عبيدًا مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيدًا تباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أنتم وأهلوكم وذراريكم. قالوا: الموت أهون علينا. وأمروا بقطع الجسر من الفسطاط) [١].

إن القائد عندما يهزم إنما ينهزم جيشه مهما كان قويًّا، وسنجد أن هذه الهزيمة التي ألحقها عبادة بالمقوقس لن تنتهي به فيما بعد إلا بالاستسلام.

(وأمروا بقطع الجسر من الفسطاط، وبالجزيرة وبالقصر من جمع القبط والروم جمع كثير، فألحَّ عليهم المسلمون عند ذلك بالقتال على من في القصر حتى ظفروا وأمكن اللّه منهم؛ فقُتل منهم خلق كثير، وأُسِرَ من أُسِرَ، وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة، وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه، لا يقدرون على أن ينفذوا نحو الصعيد ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى، والمقوقس يقول لأصحابه: ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم؟! ما تنتظرون؟ فواللّه لتجيبنهم إلى ما أرادوا طوعًا أو لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منه كرهًا، فأطيعوني من قبل أن تندموا. فلما رأوا منهم ما رأوا، وقال لهم المقوقس ما قال، أذعنوا) [٢].

وثيقة الصلح:

وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص: إني لم أزل حريصًا على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت إلي بها؛ فأبى ذلك عليَّ من حضرني من الروم والقبط، ولم يكن لي أن أفتئت عليهم في أموالهم وقد عرفوا نصحي لهم، وحبي صلاحهم، ورجعوا إلى قولي؛ فأعطني أمانًا أجتمع أنا في نفر من أصحابي وأنت في نفر من

(١، ٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ٧٠).

أصحابك؛ فإن استقام الأمر بيننا تم ذلك لنا جميعًا، وإن لم يتمَّ رجعنا إلى ما كنا عليه. فاستشار عمرو أصحابه في ذلك، فقالوا: لا نجيبهم إلى شيءٍ من الصلح ولا الجزية حتى يفتح اللَّه علينا وتصير الأرض كلها لنا فيئًا وغنيمة كما صار لنا القصر وما فيه. قال عمرو: قد علمتم ما عهد إلي أمير المؤمنين في عهده، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إليَّ فيها؛ أجبتهم إليها وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم. فاجتمعوا على عهد بينهم، واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران عن كل نفس؛ شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلُم منهم، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا النساء شيءٌ، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعرض لهم في شيءٍ منها. فشرط هذا كله على القبط خاصة، وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الدينارين رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة؛ فكان جميع من أُحصي يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس؛ فكان فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة) [١].

(وشرط المقوقس للروم أن تخيروا ؛ فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على ذلك لازمًا له مفترضًا عليه ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج، وعلى أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم وإلا كانوا جميعًا على ما كانوا عليه، وكتبوا به كتابًا) [٢].

هرقل يرفض الصلح:

(وكتب المقوقس إلى ملك الروم كتابًا يعلمه على وجه الأمر؛ فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول في كتابه:

إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفًا وبمصر ومن بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى، فإن

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ٧٠، ٧١). (٢) المصدر السابق (ص ٧٠ - ٧٨).

كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم علينا؛ فإن عندك من الروم بالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة. والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت، فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء، ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم؟! فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة رأس؛ فناهضهم القتال ولا يكون لك رأي غير ذلك. وكتب بمثل ذلك كتابًا إلى جماعة الروم.

فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم: واللَّه إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على قوتنا وكثرتنا، إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا؛ وذلك أنهم قومٌ الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، يقاتل الرجل منهم وهو مستقبل يتمنى أن لا يرجع إلى أهله ولا بلده ولا ولده، ويرون أن لهم أجرًا عظيمًا فيمن قتلوا منا، ويقولون إنهم إن قُتلوا دخلوا الجنة، وليس لهم رغبة في الدنيا، ونحن قوم نكره الموت، ونحب الحياة وَلَذَّتَهَا، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء؟! وكيف صبرنا معهم؟! واعلموا يا معشر الروم، واللَّه إني لا أخرج مما دخلت فيه ولا صالحت العرب عليه، وإني لأعلم أنكم سترجعون غدًا إلى رأيي وقولي وتتمنون أن لو كنتم أطعتموني؛ وذلك أني قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه، وَيْحَكم! أما يرضى أحدكم أن يكون آمنًا على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة؟!

ثم أقبل المقوقس إلى عمرو بن العاص فقال له: إن الملك قد كره ما فعلت وعجَّزني وكتب إلي وإلى جماعة الروم أن لا نرضى بمصالحتك، وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم، ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه، وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم، ولم يأت من قِبلهم نقض وأنا مُتِمٌّ لك على نفسي والقبط متمُّون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم، وأما الروم فأنا منهم بريء، وأنا أطلب منك ثلاث خصال. قال له عمرو: ما هن؟

قال: لا تنقض بالقبط وأدخلني معهم وألزمني ما لزمهم، وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه؛ فهم متمون لك على ما تحب.

وأما الثانية: إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئًا وعبيدًا فهم أهل لذلك؛ لأني نصحتهم فاستغشوني، ونظرت لهم فاتهموني.

وأما الثالثة: أطلب إليك إن أنا مت أن تأمرهم أن يدفنوني في أبي يحنس بالإسكندرية.

فأنعم له عمرو بن العاص بذلك، وأجابه إلى ما طلب على أن يضمنوا له الجسرين... ففعلوا، فخرج عمرو بن العاص بالمسلمين حين أمكنهم الخروج، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط.. أعوانًا على ما أرادوا من قتال الروم، وسمعت بذلك الروم، فاستعدت واستجاشت وقدمت عليهم مراكب كثيرة من أرض الروم، فيها جمع عظيم من الروم بالعدة والسلاح، فخرج إليهم عمرو بن العاص من الفسطاط متوجهًا إلى الإسكندرية) [1].

الفتح:

وحيث رفض قيصر نتائج المفاوضات كان لا بد من العودة إلى استئناف الحرب من جديد، وإن كان الصلح يبقى نافذًا على القبط والمقوقس، لكن عظماء الروم أصرُّوا على المواجهة.

(فخرج إليهم عمرو بن العاص من الفسطاط متوجها إلى الإسكندرية، فلم يلق منهم أحدًا حتى بلغ ترنوط، فلقي بها طائفة من الروم، فقاتلوه قتالا خفيفا فهزمهم اللَّه تعالى، ومضى عمرو بمن معه حتى لقي جمع الروم بكوم شريك فاقتتلوا به ثلاثة أيام، ثم فتح اللَّه على المسلمين وولى الروم أكتافهم..).

وما زال جيش الإسلام يجاهد لدحر الباطل ولإيصال نور الحق إلى العالمين حتى (فتح اللَّه للمسلمين وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة، وأتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية فتحصن بها الروم، وكانت عليهم حصون متينة لا ترام حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة..).

فكان أهل مصر من القبط عونا للمسلمين على المحتلين الرومان حتى أصابوهم باليأس من النصر.

(ورسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم، وكان ملك

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ٧٣).

الروم يقول: لئن ظهرت العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، وإنما كان عيد عند الروم حين غلبت العرب على الشام بالإسكندرية، فقال الملك: لئن غلبوا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها، فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه إعظاما لها، وأمر أن لا يتخلف عنه أحد من الروم، وقال: ما بقي للروم بعد الإسكندرية حرمة! فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته، وكفى الله المسلمين مؤنته)[١].

يقول محمود شيت خطاب (ولما فتح عمرو حصن بابليون، وكانت معركة فتح هذا الحصن من المعارك الإسلامية الحاسمة في التاريخ الإسلامي - فتحت مصر على مصراعيها للفاتحين المسلمين، كما فتحت معركة القادسية الحاسمة أبواب العراق، ومعركة اليرموك الحاسمة أبواب أرض الشام، ومعركة نهاوند الحاسمة (معركة فتح الفتوح) أبواب بلاد فارس للفاتحين المسلمين، وبدأ عمرو بمعارك استثمار الفوز التي تعقب - عادة - كل معركة حاسمة؛ فوجه عبد الله بن حذافة السهمي إلى (عين شمس) فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على صلح الفسطاط، كما وجه خارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم والأشمونين وإخميم والبشرودات وقرى الصعيد فصالحها أيضًا على مثل صلح الفسطاط.

كما وجه عمير بن وهب الجمحي إلى تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير؛ فصالحها على مثل صلح الفسطاط أيضًا، ووجه عقبة بن عامر الجهني - ويقال: مولاه وردان مولى عمرو - إلى سائر قرى أسفل مصر، ففعل مثل ذلك؛ وبذلك استجمع عمرو فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج)[٢].

لقد بدأت انتصارات عمرو الكبرى والحاسمة منذ وصول المدد الجديد لعمرو ﷺ الذي كان فيه العشرات من السابقين الأولين، وكان به المئات من الصحابة، وعلى رأس هؤلاء جميعًا أولئك الأربعة الأفذاذ الذين كانوا في حساب عمر ﷺ أربعة آلاف من الرجال؛ كل واحد منهم بألف.

فالمعركة الكبرى التي سبق وعرضنا لها في بابليون، ولاحظنا أن الذي أنهاها سلمًا

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ٧٣ - ٧٧) بتصرف. (٢) سفراء النبي ﷺ (ص ٤٢١، ٤٢٢).

وهَزَمَ المقوقسَ فيها في أعماقه هو عبادة بن الصامت أحد هؤلاء الأربعة، وأن الذي أنهاها حربًا واحتل حصنها هو الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين، وأحد هؤلاء الأربعة، وأن خارجة بن حذافة الذي أنهى حرب الفيوم والأشمونين وإخميم والبشرودات وقرى الصعيد هو أحد هؤلاء الأربعة، وأن الذي فتح تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير هو عمير بن وهب الجمحي أحد هؤلاء الأربعة - على اختلاف الروايات - وكان من غرر وسادة الصحابة السابقين الأولين الذين حضروا مددًا لعمرو: الزبير بن العوام، وعبد اللَّه بن عمرو، وخارجة بن حذافة، الفهري، وأبو رافع مولى رسول اللَّه ﷺ، وعبد الرحمن وربعة ابنا شرحبيل بن حسنة، ووردان مولى عمرو، وسعد بن أبي وقاص، وعبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح العامري، وشهد الفتح من الأنصار: عبادة بن الصامت، ومحمد بن مسلمة، ومسلمة ابن مخلد، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو الدرداء عويمر بن عامر.

* * *
* *
*

الفصل الثاني

السنة التاسعة عشرة
(٢)

يقول الإمام الذهبي **عن أحداث هذا العام:**

(.. وفيها كانت وقعة صهاب [١] بأرض فارس في ذي الحجة، وعلى المسلمين الحكم بن أبي العاص، فقتل شهرك مقدَّم المشركين..).

وقعة صهاب:

ونعود لنبحث في المصادر عن تفصيلات لهذه المعركة، فلم نجد ذلك إلا عند خليفة بن خياط في تاريخه، وخليفة من أوثق المصادر التاريخية.

(قال أبو الحسن: كانت الوقعة بصهاب، على المسلمين الحكم بن أبي العاص في ذي الحجة سنة تسع عشرة. قال أبو عبيدة: التقوا بصهاب عليهم هرِم بن حيان العبدي.

حدثنا غسان بن مضر عن سعيد بن يزيد عن أبي نضرة أو غيره قال:

قطع عثمان والحكم فلقوا شهرك بريسهر [٢]، فافتتحوها، فجاء برأس شهرك رجل من الحمد يقال له: جُدَيْد بن مالك أو مالك بن جديد إلى عثمان بن أبي العاص، فنزلوا توج [٣]، وابتنوا بها البناء، ثم تحولوا عنها.

عن أبي أسامة قال: حدثنا العلاء بن المنهال عن عاصم بن كليب عن أبيه قال:

حاصرنا توج وعلينا مجاشع بن مسعود ففتحناها.

وحدثني عبد اللَّه بن مغيرة عن أبيه قال: لما قتل شهرك انهزم رجل يقال له برتيان وهو عظيم من عظماء فارس، فتحصن في التوجان من كورة سنبل [٤] من رامهرمز

---

(١) صُهاب: قرية بفارس (مراصد الاطلاع).

(٢) ريسهر: قرية كبيرة من قرى أصبهان (مراصد الاطلاع).

(٣) توج: مدينة بفارس.

(٤) سنبل: كورة من أعمال خوزستان متاخمة لفارس.

واجتمعت إليه جماعة، فبعث إليه أبو موسى فحصره سنة أو نحوها، فخرج فلحق بإصطخر [١].

وحدثني الوليد بن هشام عن أبيه عن جده قال: لم يزالوا في الحصن حتى كتب لهم عمر كتابًا وأجّلهم أربعة أشهر يذهبون حيث شاؤوا فذهبوا إلى إصطخر.

وقد يرى الباحث شيئًا من التناقض في هذه الروايات **لكن إذا دققنا فيها نلاحظ ما يلي:**

١ - تمت معركة صهاب بقيادة الحكم بن أبي العاص الثقفي، واستطاع أحد الجنود المسلمين أن يقتل قائد جيش المشركين شهرك.

٢ - الحكم وعثمان ابنا أبي العاص أخوان، ولعل عثمان هو الذي ولّى أخاه القيادة وافتتحا معًا بريسهر.

٣ - أحد القادة من جيش شهرك استطاع الإفلات مع فلول المنهزمة وأقاموا في توج أو (توجان) هو برتيان، فبعث أبو موسى الأشعري ﷺ القائد العام وأمير البصرة فحصره سنة فخرج برتيان ولحق بإصطخر.

٤ - كان القائد المكلف بالحصار مجاشع بن مسعود وهو الذي أشرف على الفتح.

٥ - والذي حوّل الفتح إلى خروج برتيان آمنًا هو ما قطعه عمر ﷺ على نفسه، حيث أجّلهم أربعة أشهر يذهبون بعدها حيث شاؤوا، فخرج برتيان ومعه إلى إصطخر وتم فتح المدينة توج من مجاشع بن مسعود ﷺ.

أسر عبد اللّه بن حذافة السهمي:

(قال خليفة: وفيها أسرت الروم عبد اللّه بن حذافة السهمي..).

ولم أر تفصيلًا لهذا الأسر في كتب التاريخ.

لكن رأينا رواية حديثية في كتب التراجم تعطي أروع الإضاءات على أسر هذا القائد العظيم.

(ومن مناقب عبد اللّه بن حذافة السهمي ما أخرجه البيهقي من طريق ضرار ابن عمرو عن أبي رافع قال:

---

(١) إصطخر: بلدة بفارس. ويقال: إن كور فارس خمس، أكبرها وأصلها كورة إصطخر.

وجه عمر بن الخطاب جيشًا إلى الروم وفيهم عبد اللَّه بن حذافة السهمي فأسروه.
فقال له ملك الروم: تنصَّرْ أشركك في ملكي.

فأبى.

فأمر به فصُلب وأمر برميه بالسهام فلم يجزع فأنزل.

وأمر بقِدر فصُبَّ فيها الماء وأُغلي عليه وأمر بإلقاء أسير فيها.

فإذا عظامه تلوح.

فأمر بإلقائه إذا لم يتنصر.

فلما ذهبوا به بكى، قال: ردوه.

فقال: لم بكيت.

قال: تمنيت أن لي مائة نفس تلقى هكذا في اللَّه.

فعجب فقال: قَبِّلْ رأسي وأنا أخلي عنك.

قال: وعن جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم.

فقبَّل رأسه فخلى بينهم فقدم بهم على عمر فقام عمر فقبل رأسه) [(١)].

هذا النموذج الفذ العظيم الذي مثَّل الإسلام في الوجود لم ينشأ من فراغ؛ فعندما نعود إلى جذوره الأولى نعلم أحد هذه النبتات العظيمة التي غرسها رسول اللَّه ﷺ بيده، وكان من الرعيل الأول، والسابقين الأولين من المهاجرين الذين خاضوا كل الامتحانات ونجحوا فيها بين يدي رسول اللَّه، وكانوا هم قادة الدرب فيما بعد، وتمثل بهم الامتحان الأعظم بكل ترهيبه وترغيبه فنجحوا فيه، فمن هو عبد اللَّه بن حذافة السهمي؟

(.. أسلم قديمًا وكان من المهاجرين الأولين، هاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية مع أخيه قيس بن حذافة في قول ابن إسحاق والواقدي.. وهو أخو خنيس بن حذافة الذي كان زوج حفصة قبل النبي ﷺ. يقال: إنه شهد بدرًا ولم يذكره ابن إسحاق في البدريين.. وعن أبي سعيد الخدري قال: كان من أصحاب بدر. وكان به دعابة.

قال أبو عمر: كان عبد اللَّه بن حذافة رسول رسول اللَّه ﷺ إلى كسرى بكتاب

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٥٢٠٤).

رسول الله ﷺ، فمزق كسرى الكتاب، فقال رسول الله ﷺ: « **اللّهم مزِّق ملكه** ». وقال: « **إذا مات كسرى، فلا كسرى بعده** ». قال الواقدي: فسلط اللّه على كسرى ابنه شيرويه فقتله ليلة الثلاثاء لعشرٍ مضين من جمادى سنة سبع.

وعبد اللّه بن حذافة هذا هو القائل لرسول اللّه ﷺ حين قال: « **سلوني عما شئتم** »: من أبي؟ فقال: « **أبوك حذافة** ». فقالت له أمه:

ما سمعت بابن أعق منك، أما خشيت أن تكون أمك قارفت ما تقارف نساء الجاهلية فتفضحها على أعين الناس. فقال: واللّه لو ألحقني بعبد أسود للحقت به.

وكان في عبد اللّه بن حذافة دعابة معروفة..) [1].

لو كان أبو حذافة في عصرنا هذا لكان أحد الأبطال الكوميديين المشهورين، ولكانت هذه مجالات بطولته وعبقريته، فقد ذكر من دعابته:

(.. عن الليث بن سعد أنه حلَّ حزام راحلة رسول اللّه ﷺ في بعض أسفاره حتى كاد رسول اللّه أن يقع، قال ابن وهب: فقلت لليث: ليضحكه؟ قال: نعم...

ومن دعابة عبد اللّه بن حذافة أن رسول اللّه ﷺ أمَّرَه على سرية، فأمرهم أن يجمعوا حطبًا ويوقدوا نارًا، فلما أوقدوها أمرهم بالتقحم فيها، فأبوا، فقال لهم: ألم يأمركم رسول اللّه ﷺ بطاعتي وقال: « **من أطاع أميري فقد أطاعني؟** » فقالوا: ما آمنا باللّه واتبعنا رسوله إلا لننجو من النار. فصوَّب رسول اللّه ﷺ فعلهم، وقال: « **لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق** ». قال اللّه تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ ﴾ [النساء: ٢٩]. وهو حديث صحيح الإسناد مشهور) [2].

لكن الدعابة عند عبد اللّه بن حذافة ﷺ خُلُقٌ يوجد في بعض الأصناف البشرية لكنها لا تحول الإنسان بلا هدف إلا الدعابة.

فهذا الرجل ذو الدعابة:

١ – هاجر إلى الحبشة.

٢ – حضر غزوة بدر.

٣ – حضر المشاهد كلها مع رسول اللّه ﷺ.

(١ ، ٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ت (١٣٤٥).

٤ - كان أميرًا وقائدًا في عهد النبي ﷺ فعن سليمان بن يسار أن النبي ﷺ أمَّرَ ابن حذافة.

٥ - وكان أحد الشخصيات الستة المختارة من رسول اللَّه ﷺ لحمل رسالته لأعظم طغاة الأرض (كسرى ملك الفرس).

٦ - وعندما أسره ملك الروم صعق من عظمة هذا الرجل.

٧ - فرفض أن يتنصر ويكون شريكًا في الملك لملك الروم.

٨ - وَقَبِلَ أن يُصلب ويرمى بالسهام ولا يتراجع عن دينه من خلال التهديد والوعيد.

٩ - وأوقد على الماء المغلي الذي يفور في قدر كبير، ورمي به أحد الأسرى فإذا عظامه تلوح، كحرب نفسية عَلَّهُ يتراجع ويخور أمام منظر الحرق بالماء المغلي أو يتراجع.

١٠ - وبكى أمام هذا المنظر، وحَسِب ملك الروم أن قد نجحت تهديداته الرعيبة، فقد بكى ابن حذافة وهو يقاد إلى هذا المصرع!!

١١ - وما عرف إمبراطور الروم أنه هو الذي سيلقى مصرعه، ويبدو صغيرًا صغيرًا وتافهًا أمام جواب الإسلام العظيم المتمثل بهذا الرجل القدوة العملاق الأسد:

(بكيت لأني تمنيت أن لي مائة نفس تلقى هكذا في اللَّه).

١٢ - وسقط إمبراطور الروم في الامتحان أمام الإسلام العظيم، وعرض عليه حريته مقابل تقبيل رأسه (وهو ملك الروم!!).

١٣ - ووقف الإسلام الرمز شامخًا ليقبل الرأس مقابل إطلاق أسارى جميع المسلمين.

١٤ - وأطلق الإسلام الرمز أسارى المسلمين جميعًا، وقادهم معه مقابل تقبيل رأس الطاغية.

١٥ - ولم يكن بد لأمير المؤمنين عمر ﷺ وقد رأى أسرى المسلمين بين يديه إلا أن يقوم ويقبل رأس الإسلام الرمز عبد اللَّه بن حذافة السهمي.

١٦ - وجعل دينًا في عنق كل مسلم في الأرض، حتى أنا وأنت - أيها القارئ -

وجميع المسلمين في الأرض إلى قيام الساعة أن يُقَبِّلُوا رأس عبد اللَّه بن حذافة مقابل إطلاق أسارى المسلمين، ولعل اللَّه يكتب لنا يوم القيامة أن نقبل رأسه ﷺ.

(وأخرج ابن عساكر لهذه القصة شاهدًا من حديث ابن عباس موصولًا، وآخر من فوائد هشام بن عثمان من مرسل الزهري) [(١)].

وبعد أن عرفنا بالإسلام الرمز عبد اللَّه بن حذافة ﷺ فلا بد لنا من التعريف بهؤلاء القادة العظام الذين قاموا بهذه الفتوح:

١ - عثمان بن أبي العاص:

(.. ابن بشر بن عبد بن دهمان الثقفي، يكنى: أبا عبد اللَّه، استعمله رسول اللَّه ﷺ على الطائف، فلم يزل عليها حياة رسول اللَّه ﷺ وخلافة أبي بكر ﷺ وسنتين من خلافة عمر ﷺ، ثم عزله عمر ﷺ، وولاه سنة خمس عشرة على عمان والبحرين، وسار إلى عُمان، ووجّه أخاه الحكم بن أبي العاص إلى البحرين، وسار هو إلى توْج، ففتحها ومصَّرها، وقتل ملكها شهرك، وذلك سنة إحدى وعشرين.

قال زياد الأعلم: قدم علينا أبو موسى بكتاب عمر ﷺ، فقرأه علينا:

من عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين إلى عثمان بن أبي العاص، سلام عليك، أما بعد فإني قد أمددتك بعبد اللَّه بن قيس، فإذا التقيتما فعثمان الأمير، وتطاوعا.

وكان عثمان بن أبي العاص يغزو سنوات من خلافة عمر وعثمان يغزو صيفًا، فيرجع فيشتو بتوج، وعلى يديه كان فتح إصطخر الثانية سنة سبع وعشرين....

سكن عثمان بن أبي العاص البصرة، ومات في خلافة معاوية، وأولاده وعَقبهُ أشراف، روى عنه أهلها وأهل المدينة أيضًا، والحسن أروى الناس عنه.. وعثمان بن أبي العاص كان سبب إمساك ثقيف عن الردة حين ارتدت العرب؛ لأنه قال لهم حين هموا بالردة:

يا معشر ثقيف، كنتم آخر الناس إسلامًا، فلا تكونوا أول الناس ردة. وهو القائل: الناكح مغترس، فلينظر أين يضع غرسه، فإن عرق السوء لا بد أن ينزع ولو بعد حين) [(٢)].

ونعود إلى عثمان ﷺ حين أسلم:

---

(١) الإصابة لابن حجر، ت (٥٢٠٤).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ت (١٨٨٦).

(.. فلما أسلموا وكتب لهم رسول اللَّه ﷺ كتابًا أمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص وكان من أحدثهم سنًّا، وذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

وكان كما رواه الطبراني عنه برجال ثقات قال:

قدمت في وفد ثقيف حين قدموا على رسول اللَّه ﷺ، فلما حللنا بباب النبي ﷺ قالوا: من يمسك رواحلنا؟ فكل القوم أحب الدخول على رسول اللَّه ﷺ وكره التخلف عنه، وكنت أصغرهم فقلت: إن شئتم أمسكت لكم على أن عليكم عهد اللَّه لتمسكن لي إذا خرجتم. قالوا: فذلك لك. فدخلوا عليه ثم خرجوا، فقالوا: انطلق بنا. قلت: إلى أين؟ قالوا: إلى أهلك. فقلت: ضربت من أهلي حتى إذا حللت بباب رسول اللَّه ﷺ أرجع ولا أدخل عليه وقد أعطيتموني ما علمتم؟

قالوا: فاعجل فإنا قد كفيناك المسألة، لم ندع شيئًا إلا سألناه. فدخلت فقلت: يا رسول اللَّه ادع اللَّه لي أن يفقهني في الدين ويعلمني.

قال: « **ماذا قلت؟** ».

فأعدت عليه القول، فقال: « **لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أصحابك، اذهب فأنت أمير عليهم وعلى من تَقْدمُ عليه من قومك** » [1].

(وذكر في وفد ثقيف زيادة على ما ها هنا قال: وكانوا يفدون على رسول اللَّه ﷺ في كل يوم، ويُخَلفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم لأنه أصغرهم، فلما رجعوا عمد إلى رسول اللَّه ﷺ فسأله عن الدين واستقرأه القرآن حتى فقه في الدين وعلم، فأعجب ذلك رسول اللَّه ﷺ وأحبه) [2].

٢ - الحكم بن أبي العاص:

(.. يكنى أبا عثمان، وقيل: أبو عبد الملك. وهو أخو عثمان بن أبي العاص، كان أميرًا على البحرين، وذلك أن أخاه عثمان وَلَّاه عمر على عمان والبحرين، فوجه أخاه الحكم على البحرين. وقال المدائني: كانت الوقعة بصهاب على المسلمين، وأميرهم الحكم بن أبي العاص، وافتتح عثمان والحكم فتوحًا كثيرة بالعراق في سنة تسع عشرة

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٤٥٣/٦). (٢) المصدر نفسه (٤٥٤/٦).

وسنة عشرين بعد في البصريين، ومنهم من يجعل أحاديثه مرسلة، ولا يختلف في صحبة أخيه عثمان) [١].

٣ - هرم بن حيان العبدي:

(من صغار الصحابة، ذكره خليفة عن الوليد بن هشام عن أبيه عن جده قال: وجَّه عثمان بن أبي العاص هرِم بن حيان العبدي إلى قلعة بحرة - ويقال لها قلعة الشيوخ - فافتتحها عنوة، وسبى أهلها، وذلك في سنة ست وعشرين. وقال أبو عبيدة: وفي سنة ثمان عشرة حاصر هرم بن حيان أهل ريشهر... فصالح ملكها على أن خلَّى له المدينة، ومنها نزل الناس الكوفة. وقال أبو عبيدة: كان الأمير في وقعة صهاب هرم ابن حيان العبدي. وقال غيره: بل كان الأمير يومئذ الحكم بن أبي العاص) [٢].

(وَعَدَّهُ ابن أبي حاتم في الزهاد الثمانية من كبار التابعين. وقال العسكري: كان من خيار التابعين. وقال ابن سعد: ثقة له فضل. وكان على عبد قيس في الفتوح) [٣].

وبهذه التراجم الثلاثة يزول الغموض في تعدد هذه الأسماء، فالقائد الأعلى للجبهة هو عثمان بن أبي العاص، وقادة الفتوح المباشرون تحت إمرته عديدون منهم أخوه الحكم بن أبي العاص، وهرم بن حيان العبدي.

٤ - مجاشع بن مسعود:

(.. ابن ثعلبة بن وهب السلمي... روى عنه أبو عثمان النهدي قال: أتيت النبي ﷺ لأبايعه على الهجرة، فقال:

« **قد مضت الهجرة لأهلها، ولكن على الجهاد والإسلام والخير** ».

وقتل مجاشع يوم الجمل قبل الاجتماع الأكبر.

وروى عاصم بن كليب عن أبيه قال: حاصرنا توج وعلينا مجاشع بن مسعود ففتحناها) [٤].

(قال البخاري وغيره: له صحبة. وله رواية في الصحيحين...

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر، ت (٧٩). (٢) المصدر نفسه، ت (٢٦٧٧).
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٩٢٥٤).
(٤) الاستيعاب لابن عبد البر، ت (٢٥٤٨).

وقال الدولابي: إنه غزا كابل من بلاد الهند، فصالحه الإصبهذ، فدخل مجاشع بيت الأصنام فأخذ جوهرة من عين الصنم، وقال: لم آخذها إلا لتعلموا أنه لا يضر ولا ينفع...

وذكر المدائني أيضًا بسند له أن عمرو بن معد يكرب تحمَّلَ حمالة فأتى مجاشع يستعينه فيها، فقال: إن شئت أعطيتك ذلك من مالي. وإن شئت حكمتك. ثم أعطاه حكمه فمضى وهو يشكره)[١].

* * *

فتح الجزيرة في رواية ابن إسحاق:

(وفي هذه السنة افتتحت الجزيرة في رواية سيف - أعني سنة سبع عشرة - وأما ابن إسحاق فإنه ذكر أنها افتتحت في سنة تسع عشرة من الهجرة، وذكر من سبب فتحها ما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عنه أن عمر كتب إلى سعد ابن أبي وقاص:

إن اللَّه قد فتح على المسلمين الشام والعراق، فابعث من عندك جندًا إلى الجزيرة، وَأَقِرّ عليهم أحد الثلاثة: خالد بن عرفطة، أو هاشم بن عتبة، أو عياض بن غنم).

فلما انتهى إلى سعد كتاب عمر قال:

ما أخر أمير المؤمنين عياض بن غنم آخر القوم إلا لأن له فيه هوى أن أوَلِّيه، وأنا موليه. فبعثه، وبعث معه جيشًا، وبعث أبا موسى الأشعري، وابنه عمر بن سعد، وهو غلام حدث السن ليس إليه من الأمر شيء، وعثمان بن أبي العاص بن بشر الثقفي، وذلك في سنة تسع عشرة، فخرج عياض إلى الجزيرة، فنزل بجنده على الرهاء، فصالحه أهلها على الجزية، وصالحت حران حين صالحت الرها، فصالحه أهلها على الجزية، ثم بعث أبا موسى الأشعري إلى نصيبين. ووجه عمر بن سعد في خيل ردءًا للمسلمين، وسار بنفسه في بقية الناس إلى دارا، فنزل عليها حتى افتتحها، فافتتح أبو موسى نصيبين، وذلك في سنة تسع عشرة، ثم وجه عثمان بن أبي العاص إلى أرمينية الرابعة، فكان عندها شيء من قتال أصيب فيه صفوان بن المعطل السلمي

---

(١) الإصابة لابن حجر، ت (٨٠٠٥).

شهيدًا، ثم صالح أهلها عثمان على الجزية، على كل بيت دينار، ثم كان فتح قيسارية وهرب هرقل) [١].

غزو أرمينية الرابعة:

(وفيها وجَّه عمر عثمان بن أبي العاص إلى أرمينية الرابعة، فكان عندها شيء من قتال، أصيب فيه (صفوان بن المعطل) ابن رخصة السلمي الذكواني صاحب رسول الله ﷺ الذي له ذكر في حديث الإفك، وقال فيه: « **ما علمت عليه إلا خيرًا** ». وقال هو: ما كشفت كنف أنثى قط. له حديثان... وقال خليفة: مات بالجزيرة. وكان على ساقة النبي ﷺ، وكان شاعرًا. وقال ابن إسحاق: قتل في غزو أرمينية. وكان أحد الأمراء يومئذ) [٢].

ونستمع إلى غزو أرمينية مفصلًا من المؤرخ المحدث العظيم محمد أحمد باشميل إذ يقول:

فتح أرمينية:

(وبعد أن أحكم المسلمون السيطرة على الشام بتأديب عرب الجزيرة وإخضاعهم، وتمكن جيش الفاروق من قطع دابر المؤامرة الكبرى، فدمَّر جيشه بقيادة أبي عبيدة جيش الروم الغازي في منطقة الجزيرة في السنة السابعة للهجرة - فكر الخليفة في نقل عمليات الجهاد إلى مناطق أرمينية التي يقع بعضها اليوم ضمن الجمهورية التركية، وبعضها ضمن الاتحاد السوفيتي.

ومن أهداف هذا الغزو لأرمينية على ما يظهر أن تكون قوات الإسلام المسلحة منتشرة على حدود بيزنطة على شكل حزام واقٍ يحيط بأراضي الدولة البيزنطية من جميع الجهات المتاخمة للمسلمين في الشام وفي أطراف العراق، بحيث تشكل هذه القوات الإسلامية جزءًا واقيًا يمتد من بحر الخزر (بحر قزوين اليوم) شرقًا حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط غربًا، وبذلك يأمن المسلمون مفاجأة أي غزو يقوم به الرومان. بذلك قرر الخليفة أن يبعث بقواتٍ كافيةٍ لتسيطر على الأراضي (شمال العراق) حتى بحر الخزر.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٨٤/٢).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (الخلفاء الراشدون) (١٨٨/٣ - ١٩٠).

معارك أرمينية:

وحسب الخطة الموضوعة حرَّك الأمير عياض بن غنم مجموعة قتالية كبيرة بقيادة عثمان بن أبي العاص لفتح أرمينية الرابعة.

تحرك القائد عثمان من الجزيرة بقواته حتى وصل أطراف أرمينية الرابعة، وهناك على أرض تقع بين أرمينية الرابعة والجزيرة وجد قوات كثيفة للعدو، فدارت معركة عنيفة استشهد فيها كثير من أعيان الصحابة بينهم الصاحب الطاهر النقي صفوان ابن المعطل، ولكن الرومان على عادتهم لم يصبروا على طول القتال وضراوته فانهزموا، فطاردهم القائد عثمان ولم يَنْجُ منهم إلا الشريد.

ولما كان أهالي أرمينية الرابعة ليسوا من العنصر البيزنطي، وإنما هم من عنصر الخزر تقريبًا، لم يكن لديهم رغبة في القتال، فتقدم أعيانهم إلى عثمان بن أبي العاص يطلبون الصلح والدخول في ذمة المسلمين.

فرحب بهم عثمان وقَبِل منهم عرضهم وصالحهم على الجزية على أن يكونوا في ذمة المسلمين يحمونهم كما يحمون أنفسهم وأهليهم.

وبعد ذلك عاد الأمير عثمان من أرمينية الرابعة إلى الجزيرة بمعظم قواته.

وترك هناك قوة من الجيش كحامية وإدارة مدنية تتولى إدارة شؤون البلاد، وبعد ذلك تتابعت الفتوحات الإسلامية هناك حتى أصبح بحر الخزر كله بحيرة إسلامية نتيجة سيطرة المسلمين على كل البلدان المشرفة عليه من جميع الجهات) [1].

حرة ليلى:

(قال أبو جعفر: وفي هذه السنة سالت حرة ليلى نارًا فيما زعم الواقدي، فأراد عمر الخروج إليها بالرجال ثم أمرهم بالصدقة فانطفأت) [2].

والحرة: هي (لبني مرة بن عوف بن.... غطفان يطؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة. وعن بعضهم أن حرة ليلى من وراء وادي القرى من جهة المدينة فيها نخل وعيون. وقال السكري: حرة ليلى معروفة في بلاد بني كلاب) [3].

---

(١) حروب الإسلام في الشام في عهد الراشدين لمحمد أحمد باشميل (ص ٥٣٦ – ٥٣٨).

(٢) تاريخ الطبرى (٥١١/٢).

(٣) معجم البلدان لياقوت الحموي (٢٤٨/٢).

والذي يعنينا من الأمر - على فرض صحته - هو أن الحرة انطفأت بالصدقات، فإذا كان سيلانها نارًا غضبًا من اللَّه ﷻ فالصدقة هي التي « **تطفئ غضب الرب** »، فالصدقات تدفع البلاء وترفعهُ « **داووا مرضاكم بالصدقة** » [١].

حج عمر:

وحج بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

العمال على الأمصار:

وكان عماله على الأمصار وقضاته فيها الولاة والقضاة الذين كانوا عليها في سنة ثمان عشرة. وأهم القضاة الجدد الذين استقضاهم عمر رضي الله عنه في السنة الثامنة عشرة:

(.. شريح بن الحارث الكندي على الكوفة، وعلى البصرة كعب بن سور الأزدي) [٢].

* * *
* *
*

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٣٤/١) وهو حديث حسن.

(٢) تاريخ الطبري (٥١٠/٢).

الفصل الثالث

السنة العشرون

بعد فتح مصر نتابع أهم الأحداث التي تمت في هذا العام.

أولًا: الثلمة الثانية في الجدار

(... وفيها شكا أهل الكوفة سعدًا في كل شيء حتى قالوا: لا يحسن يصلي. فعزله عنها عمر ﷺ وولى عليها عبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان - وكان نائب سعد - وقيل: بل ولاها عمار بن ياسر.

أ - وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عبد الملك سمعه من جابر بن سمرة قال: شكا أهل الكوفة سعدًا إلى عمر فقالوا: إنه لا يحسن يصلي.

قال: آلأعاريب؟! واللّه ما آلو بهم عن صلاة رسول اللّه ﷺ في الظهر والعصر، أركد في الأولين وأحذف في الأخريين، فسمعت عمر يقول: كذلك الظن بك يا أبا إسحاق).

ب - (.. سمعت جابر بن سمرة يقول:

قال عمر لسعد: شكاك الناس في كل شيء حتى في الصلاة. قال:

أما أنا فأمد من الأولين وأحذف في الأخريين ولا آلو ما اقتديت به من صلاة رسول اللّه ﷺ. قال عمر: ذلك الظن بك. أو: ظني بك) [١].

جـ - (وفي صحيح مسلم أن عمر بعث من يسأل عنه أهل الكوفة فأثنوا خيرًا إلا رجلًا يقال له أبو سعدة قتادة بن أسامة قام فقال:

أما إذا أنشدتنا فإن سعدًا لا يَقْسم بالسويَّة ولا يعْدِل في القضِيَّة ولا يخْرجُ في السريَّة. فقال سعد: اللّهم إن كان عبدك هذا قام مقام رياء وسمعة، فأطل عمره، وأدم فقره، وَعَرِّضْهُ للفتن. فأصابته دعوة سعد.

---

(١) أخرجه أحمد، ح (١٥١٠).

فكان شيخًا كبيرًا يرفع حاجبيه عن عينيه ويتعرض للجواري في الطرق فيغمزهن فيقال له في ذلك، فيقول: شيخ كبير مفتون أصابته دعوة سعد) [١].

د - (... عن الشعبي أن عمرو بن معد يكرب الزبيدي وفد على عمر بن الخطاب بعد فتح القادسية، فسأله عن سعد وعن رضا الناس عنه فقال:

تركته يجمع لهم جمع الذرَّة ويشفق عليهم شفقة الأم البرة، أعرابي في نمرته [٢]، نبطي في جبايته، يقسم بالسوية، ويعدل في القضية، ويبعد بالسرية.

فقال عمر: كأنكما تقارضتما الثناء. وكان سعد كتب يثني على عمرو.

فقال عمرو: كلا يا أمير المؤمنين ولكني أثنيت بما أعلم) [٣].

هـ - (وبلغ سعد الخبر عن قباذ صاحب حُلوان فكتب إلى عمر بذلك فنزا بسعد أقوام وألبوا عليه فيما بين تراسل القوم واجتماعهم إلى نهاوند ولم يشغلهم ما دَهَمَ المسلمين من ذلك، وكان ممن نهض الجراح بن سنان الأسدي في نفر فقال عمر:

إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر، وقد استعد لكم من استعدوا، وايم اللّٰه لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم. فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للأعاجم والأعاجم في الاجتماع - وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذي يقتص آثار من شُكي زمان عمر - فقدم محمد على سعد ليطوف به في أهل الكوفة، والبعوث تضرب على أهل الأمصار إلى نهاوند، فطوَّف به على مساجد أهل الكوفة لا يتعرض للمسألة عنه في السر - وليست المسألة في السر من شأنهم إذ ذاك - وكان لا يقف على مسجد فيسألهم عن سعد إلا أن قالوا: لا نعلم إلا خيرًا، ولا نشتهي به بدلًا، ولا نقول فيه، ولا نعين عليه إلا من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه فإنهم كانوا يسكتون لا يقولون سوءًا ولا يسوغ لهم، ويتعمدون ترك الثناء حتى انتهوا إلى بني عبس.

فقال محمد: أنشد باللّٰه رجلًا يعلم حقًّا إلا قال.

قال أسامة بن قتادة: اللّٰهم إن نشدتنا فإنه لا يقسم بالسوية ولا يعدل في الرعية ولا يغزو في السرية.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٠٣/٧).

(٢) النمرة: شملة مخططة من مآزر العرب.

(٣) نسب الأشراف للبلاذري (٣٦٦/١٠).

فقال سعد: اللَّهم إن قالها كاذبًا ورئاء وسمعة فأعم بصره، وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن. فعمي، واجتمع له عشر بنات، وكان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يجسها، فإذا عثر عليه قال: دعوة سعد الرجل المبارك. ثم أقبل على الدعاء على النفر فقال:

اللَّهم إن كانوا خرجوا أشرًا وبطرًا وكذبًا فأجهد بلاءهم. فجهد بلاؤهم، فَقُطِّعَ الجراح بالسيوف يوم ثاور الحسن بن علي ليغتاله بساباط، وَشُدِخَ قبيصة بالحجارة، وقتل أربد بالوجء وبنعال السيوف.

وقال سعد: إني لأول رجل أهرق دمًا من المشركين، ولقد جمع لي رسول اللَّه ﷺ أبويه، وما جمعهما لأحد قبلي، ولقد رأيتني خمس الإسلام، وبنو أسد تزعم أني لا أحسن أن أصلي وأن الصيد يلهيني. وخرج محمد به وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر.

فقال: يا سعد كيف تصلي؟

قال: أطيل الأوليين وأحذف الأخريين. فقال: هكذا الظن بك.

ثم قال: لولا الاحتياط لكان سبيلهم بينا.

ثم قال: من خليفتك يا سعد على الكوفة؟

قال: عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبان.

فأقره واستعمله.

فكان سبب نهاوند، وبدء مشورتها وبعوثها في زمان سعد. وأما الوقعة ففي زمان عبد اللَّه) [1].

* * *

١ - لئن كانت الثلمة الأولى في الجدار في اتفاق إخوة ثلاثة على أمر رمي المغيرة رضي الله عنه بالزنى، فالمغيرة يبقى من أهل الحديبية، وقد انضم إلى الإسلام قبيل بيعة الرضوان بأيام، وكان الحسم وقطع الفتنة بتطبيق حد القذف على هؤلاء الثلاثة، ومع ذلك فقد عزل عمر رضي الله عنه المغيرة عن البصرة في محاولة لرأب الصدع في المجتمع البصري، خاصة

---

(١) تاريخ الطبري (٥٢٢/٢).

أن أحد القاذفين هو من الصحابة الكبار، ولو كان من مسلمة الفتح لكنه أخذ موقعه في علمه وفقهه.

٢ - أما هذه الثلمة الثانية في الجدار فهي تسير على الخط نفسه لكنها أوسع وأعمق، فقد نالت أعظم شخصيات الإسلام، وإن شئت فقل: الرجل الخامس في الإسلام. صحيح أنها لم تكن من الفظاعة على مستوى الرمي بالزنا، لكنها تتحدث عن حاكم ظالم مستأثر بالسلطة ولا يحسن الصلاة، وهو كما قال عن نفسه ﷺ:

أ - إني لأول رجل أهرق دمًا من المشركين.

ب - ولقد جمع رسول الله ﷺ أبويه وما جمعهما لأحد قبلي.

جـ - ولقد رأيتني خمس الإسلام.

د - وهو فاتح القادسية.

هـ - وأحد الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ.

و - وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

٣ - والخطورة في هذه الثلمة الجديدة هو اتساعها، فلم تكتفِ بشخص أو اثنين أو أربعة، إنما كانت عملية منظمة (... إلا ما كان من الجراح بن سنان وأصحابه، فإنهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءًا - ولا يسوغ لهم - ويتعمدون ترك الثناء) فهم لو تكلموا لسفهوا من أكثرية الناس، ولافتضحوا أنهم أصحاب هوى، فلاذوا بالصمت، فهم يُشعرون ابن مسلمة ﷺ أنهم غير راضين عن سعد من خلال هذا الصمت.

٤ - أما حيث توجد الأكثرية في مسجد بني عبس وبني أسد فقد أفصحوا عما يبيّتون ونالوا من سعد ﷺ بصلاته أنه لا يحسن بالصلاة، وهو الذي قاد الأمة في صلاتها منذ أربعة أعوام، فهو إمامهم فيها، وهو أفقه الناس بصلاة رسول الله ﷺ، وهو الذي قاد الأمة في جهادها، فالافتراء واضح تمامًا والاتهام عكس ما يقول المسلمون في كل مكان، المسلمون الصادقون والأمة كلها: « لا نعلم إلا خيرًا، ولا نشتهي بدلًا، ولا نقول فيه، ولا نعين عليه ».

٥ - ليست المشكلة في قيام تنظيم معارض، لكن المشكلة أن يقوم هذا التنظيم على الافتراء والكذب والتشهير وتمزيق الصفوف، فكَوْنَ هذا التجرؤ على الحق، ويكون له

أعوان وأنصار، فهنا تكمن الخطورة، وكما سماهم سعد - الأعاريب - فهم مجموعة من الأعراب لم يتمكن الإسلام من قلوبهم ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٩٧] فهم في تكوينهم أميل إلى الكفر وإلى النفاق، وهم مؤهلون للبعد عن الإسلام وفهم أحكامه وفقه حدوده.

٦ - لقد تفتقت عبقريتهم فيما قبل عن أن النبوة هي طريق الزعامة عقب وفاة رسول اللَّه ﷺ، لكن هذا الأمر قد أُغلق عليهم، وحروب الردة كانت كفيلةً بإنهاء هذه الخرافة من عقولهم، وعرفوا أن لن يُصغي أحد لهذا الادعاء، فلينطلقوا إذن من النيل في عدله، وادعاء الظلم لرعيته، وهذا ما كان، فوجدوا أذنًا صاغية لهم تسمع لهم هذا النداء.

٧ - لقد أدرك عمر ﷺ أنهم مغرضون منذ تحرك أمة الفرس كلها تريد أن تزيح المسلمين وتقضي عليهم: (إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر، وقد استعد لكم من استعدوا). فهل يقوم عمر باعتقالهم وَزَجِّهم في السجون لتحرّكهم في هذه الظروف الصعبة واستغلال استعداد الفرس لغزو المسلمين كي يثيروا هذه الفتنة؟

٨ - عمر ﷺ كان يخشى كثيرًا من أن يكون ملكًا ولا يكون خليفة.

(روى الواقدي بسنده عن سلمان الفارسي أن عمر قال له:

أَمَلِكٌ أنا أم خليفة؟

فقال سلمان: إن أنت جبيت من الأرض درهمًا أو أقل، ثم وضعته في غير موضعه فأنت ملك غير خليفة. فاستعبر عمر) [١].

(وروى بسنده عن سفيان بن أبي العوجاء؛ قال عمر ﷺ:

واللَّه ما أدري أخليفة أنا أم ملك؟ فإن كنت ملكًا فهذا أمر عظيم.

فقال له قائل: إن بينهما فرقًا، إن الخليفة لا يأخذ إلا حقًّا، ولا يضعه إلا بحق، وأنت بحمد اللَّه كذلك، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا. قال: فسكت عمر) [٢].

(١، ٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٣٦٠).

وأخذ الحق ووضعه ليس مقيدًا في المال فقط، فالعدل بين الرعية حق على الخليفة (ولهذا كان من صفة عقد البيعة للإمام أن يقال فيها: « بايعناك بيعة رضا على إقامة العدل والقيام بفروض الإمامة »)[١].

٩ - ومن العدل في شريعة اللَّه أن لا تحاكم أو تحاسب على النوايا، وعمر ﷺ قد أعلن هذا المبدأ في مستهل خلافته.

(خطبنا عمر بن الخطاب رضي اللَّه تعالى عنه فقال:

إنه قد انقطع الوحي بعد رسول اللَّه ﷺ، وإنما أَعرفكم بما تُظهرون، فمن أظهر خيرًا ظننا به خيرًا، ومن أظهر شرًّا ظننا به شرًّا. فأحببنا ذلك وأبغضنا هذا... واعلموا أني لست أبعث عمالي عليكم ليضربوا أجسادكم، ولا يأخذوا أموالكم، ولكن ليعلِّموكم دينكم، فمن فعل غير ذلك فارفعوا إلي أمره، فواللَّه لأقصن منه. فقال له عمرو بن العاص: وإن كان الرجل يؤدب رعيته؟

قال: نعم إذا تَعَدَّى.

فقد رأيت رسول اللَّه ﷺ يقص من نفسه:

لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمِّروهم [٢] فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفِّروهم، ولا تنزلوهم الغياض [٣] فتضيِّعوهم)[٤].

١٠ - ومن أجل هذا كله، ورغم قناعته الداخلية بسوء نوايا هؤلاء الواشين، فقال:

(وايم اللَّه لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم).

فلا بد من التحقيق والتثبت من صحة هذا الادعاء على سعد ﷺ أمير الكوفة.

وليس أحد فوق القانون، وليس أحد فوق التحقيق، ولو كان الرجل الخامس في الإسلام.

ولو كان خال رسول اللَّه ﷺ فليس بين اللَّه تعالى وبين أحد من خلقه نسب إلا طاعته.

---

(١) الأحكام السلطانية لأبي يعلى بن الفراء (ص ٩).

(٢) التجمير: هو تأخير الغازي عن أهله أكثر من ستة أشهر.

(٣) الغياض: الشجر الملتف، وهذا يفرِّقهم ويمكن العدو منهم.

(٤) أنساب الأشراف، للبلاذري (١٠/٣٠٨).

١١ - وقام بالتحقيق رئيس استخبارات الدولة الإسلامية محمد بن مسلمة، فهو أعلى سلطة قضائية مسؤولة عن التحقيق مع شخصيات الدولة الكبرى؛ الولاة والأمراء والوزراء، وليس هناك باسم الأولويات ما يقتضي تأجيل التحقيق وما يقتضي إقامة العدل، ولو كانت المعركة على الأبواب، إننا في عالمنا المعاصر مثلًا نؤجل الانتخابات ونؤجل الحريات لظروف المعركة، معلنين الشعار: لا صوت يعلو فوق صوت المعركة. ومؤخرين حريات الشعب كلها لأننا في معركة مع اليهود، ولم نطلق رصاصة واحدة ضدها منذ ثلاثين عامًا، فلا وقت للديمقراطية ولا وقت للحرية طالما أننا في معركة مع اليهود.

أما دولة الإسلام وأما نظام الإسلام، فلا شيء يعلو فوق العدل، ولا شيء يعلو فوق حرية الشعب في اختيار ولاته، حتى لو كنا في قلب المعركة.

(فبعث عمر محمد بن مسلمة، والناس في الاستعداد للأعاجم - والأعاجم في الاجتماع - وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذي يقتص آثار من شُكِي زمان عمر).

١٢ - وعظمة التحقيق الذي لا نجده إلا في ظل دولة الإسلام وفي ظل نظام الإسلام أنه تحقيق جهري مباشر، ليس فيه شيء من السرية، ونتحدى أعظم دول العالم ديمقراطية أن يأتينا بمثل هذا الطراز من العدل، وبمثل هذا الطراز العظيم من الحرية، والاستجابة لرغبة أقلية بسيطة في المجتمع.

(فقدم محمد على سعد ليطوف به في أهل الكوفة).

إنه الأمير الأعظم وقائد الجبهة الشرقية كلها ونائب الخليفة على الكوفة التي تنطلق بعوث الجيوش منها إلى أقصى الأرض، ها هو يمضي مع رسول الخليفة ورئيس استخباراته، وما هي الضرورة ليكون سعد مع محمد بن مسلمة؟

ألا يكفي محمدًا ﷺ أن يمضي إلى مساجد الكوفة ويسأل عن سعد؟

نعم. في ظل المستوى الأعلى من العدل في الأرض لا يكفي السؤال عن الأمير دون مشاركة الأمير، فلا بد أن يكون الاستفتاء عن الأمير بحضوره، وإن كان له حجة أن يدلي بها، وإن كان هناك استفسار أن يجيب عليه.

(فقدم محمد على سعد ليطوف به في أهل الكوفة والبعوث تضرب على أهل الأمصار إلى نهاوند، فطوَّف به على مساجد الكوفة، لا يتعرض للمسألة عنه في السر، وليست المسألة في السر من شأنهم) فلا بد أن يعرف الشعب كل شيء ولا بد أن يكون الاستفتاء على أوسع نطاق؛ كل مساجد الكوفة.

١٣ - وكان لا يقف على مسجد فيسألهم عن سعد إلا قالوا: لا نعلم عليه إلا خيرًا، ولا نشتهي به بدلًا، ولا نقول فيه، ولا نعين عليه.

إذن فاز سعد بالأكثرية الساحقة من أهل الكوفة - لا بأكثرية الواحد والخمسين بالمائة - فيثنون عليه، ولا يرغبون بديلًا عنه، ولا يؤيدون واليًا غيره.

هناك مجموعة من الأقلية لم تشارك في التصويت، وقدمت الورقة بيضاء، وهؤلاء لا تحسب أوراقهم في الانتخابات.

(إلا من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه، فإنهم كانوا يسكتون لا يقولون سوءًا ولا يسوغ لهم، ويتعمدون ترك الثناء).

١٤ - أما الذين أعلنوا موقفهم رسميًا ضد سعد كانوا محصورين في حي من أحياء الكوفة الذي تقطن فيه بنو عبس، وكان الناطق باسمهم أسامة بن قتادة، فأعلنوا موقفهم ضد سعد؛ لأنه لا يقسم في السوية، ولا يعدل في الرعية، ولا يغزو في السرية.

فهم يريدون عزله، وأيد أهل هذا الحي وأهل هذا المسجد أسامة بن قتادة في موقفه (حتى انتهوا إلى بني عبس فقال محمد:

أنشد اللّٰه رجلًا يعلم حقًّا إلا قال.

قال أسامة بن قتادة:

اللّٰهم إن نشدتنا فإنه لا يقسم بالسوية، ولا يعدل بالرعية، ولا يغزو في السرية).

١٥ - ماذا يفعل سعد وهو الوالي الأعظم للكوفة، وهذا ومن معه يعلنون رأيهم ضده؟

وطالما أن الأمر لا يعدو استفتاءً على بقاء الوالي أو عزله، فلا حاجة هنا لتقديم الدليل، فهو رأي يراه صاحبه، ومن حق المواطن في دولة الإسلام حرية الرأي.

كل ما يملكه خال رسول اللّه ﷺ سعد بن أبي وقاص سلاحًا كان أعطاه إياه رسول اللّه ﷺ في غزوة أحد، هذا السلاح نوعان:

- نوع يستعمله في الحرب ضد أعداء اللّه.
- ونوع يستعمله في السلم ضد المفترين والكذابين.

هذان السلاحان هما:

- اللّهم سدد رميته.
- وأجب دعوته.

وحيث ليس في الساحة هنا عدو خارجي فلن يخرج سهمه من كنانته صوب من افترى عليه ليسقطه جريحًا أمامه، كما تفعل الحكومات الظالمة مع المعارضة؛ حيث تسكنهم القبور أو السجون إذا خرجوا عليها، وتقتل على الرأي. إنما استعمل سلاحه الفتاك الآخر.

فقال سعد: اللّهم إن كان قالها كاذبًا ورئاءً وسمعة فأعم بصره وأكثر عياله وعرِّضه لمضلات الفتن.

واستجاب اللّه تعالى دعوة العبد الصالح سعد بن أبي وقاص في هذا المرائي الكاذب فيما بعد (فعمي، واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يجسها، فإذا عُثر عليه قال: دعوة سعد الرجل المبارك).

١٦ - وانتهى الاستفتاء، وفاز سعد فيه، ومع ذلك فأمر أمير المؤمنين أن يأتي محمد بن مسلمة بسعد معه، فلا بد من إنهاء التحقيق معه من قِبَل أمير المؤمنين، وجاء سعد رضي الله عنه ورأى الوفد الذي حرك القضية ضده، وأثار الدنيا على عدله فإذا هم من بني أسد، فقال عمر رضي الله عنه لسعد:

شكاك الناس في كل شيء حتى في الصلاة.

وفي رواية: شكا أهل الكوفة سعدًا إلى عمر فقالوا: إنه لا يحسن يصلي.

قال: الأعاريب؟! واللّه ما آلو بهم عن صلاة رسول اللّه ﷺ في الظهر والعصر. أركد في الأولين وأحذف في الأخريين.

فسمعت عمر يقول: هكذا الظن بك يا أبا إسحاق).

فعمر ﷺ يدرك أن هؤلاء مفترون، خاصة بعد أن أُبلغ بنتائج التحقيق من محمد ابن مسلمة.

وعاد فاستعمل سلاحه ثانية وهو الدعاء فقال:

اللَّهم إن كانوا خرجوا أشرًا وبطرًا وكذبًا فاجهد بلاءهم.

١٧ - وثبت فيما بعد أنهم كانوا نواة فتنة ومنطلق حرب، وحيث إن النظام الإسلامي لا يحاسب على النيات فقد تركهم يعبِّرون عن رأيهم، وليس من السهل انتقال هذه الأمة من نظام القبيلة إلى نظام الدولة، ومهمة الجيل النبوي أن يربي الأمة على ذلك، فحدد عمر ﷺ منهجه بقوله:

لولا الاحتياط لكان سبيلهم بيِّنًا.

لكن حدود الحرية في الإسلام لا تبيح للحاكم أن يعتقل على ذمة التحقيق، والأمم التي تعيش في منهج الجاهلية ليس من السهل عليها أن تنتقل إلى منهج الإسلام إلا بصعوبة، فالعادات قد تأصلت فيها.

١ - انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا.

٢ - وأحيانًا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

٣ - قد يقتل رئيس القبيلة مقابل مقتل رجل عادي من القبيلة الأخرى.

٤ - ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيها مسيطر أو أمير

١٨ - فالانتقال من الدكتاتورية إلى الحرية ليس سهلًا.

فهؤلاء وجدوا أن النظام لم ينلهم بسوء، فبقوا قنابل موقوتة، أو جرحًا اندمل على فساد، فسرعان ما تفجر ذلك الجرح فيما بعد.

(فجهد بلاؤهم فقطع الجراح بالسيوف يوم ثاور الحسن بن علي ليغتاله بساباط، وشدخ في قبيصة بالحجارة.

وقتل أربد بالوجء ونعال السيوف.

١٩ - وكان من مرافعة سعد ﷺ أمام أمير المؤمنين خاصة حول أنه لا يحسن صلاته:

إني لأول رجل أهرق دمًا من المشركين.

ولقد جمع لي رسول اللَّه ﷺ أبويه وما جمعهم لأحد قبلي.

ولقد رأيتني خمس الإسلام.

وبنو أسد تزعم أني لا أحسن أن أصلي، وأن الصيد يلهيني؟!!

فمن عاش هذه الحياة مع رسول اللَّه ﷺ هل يعقل أن لا يحسن الصلاة؟

٢٠ - لكن المفاجأة الكبرى أن الأوامر لم توجه إلى سعد ليعود إلى الكوفة.

(ثم قال: مَنْ خليفتك يا سعد على الكوفة؟

قال: عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبان.

فأقره واستعمله).

وكان هذا تحقيقًا لهدف هؤلاء المتآمرين؛ أن يعزل سعد.

ما هي وجهة نظر أمير المؤمنين في هذا الإجراء؟

هو مقدم على حرب لا يعلم إلا اللَّه مداها، ويود أن يكون الوالي مَحَلَّ توافق وإجماع، فقد تُحْدِثُ هذه الأقلية فتنة أثناء الحرب، وتستغل انشغال المسلمين فيها، وقد جرى هذا اللغط، وقد يصل إلى أناس يضعونه في خير موضعه، فليحتفظ بسعد بجواره مستشارًا له، وليكن نائبه الوالي مكانه، فليس حول واليه لغط، ويحسن توجيه كل الطاقات في هذه المرحلة للمعركة، وسد الطريق على اللغو واللغط، وإقبال الجميع على مواجهة العدو.

وهذا ما أعلنه - رضوان اللَّه عليه - عن سعد حين وضعه أحد المرشحين الستة للخلافة، وأوصى بالاستعانة لو لم تَؤُلْ الخلافة إليه.

إنه تصرف سياسي بحت، وليس تصرفًا قضائيًا أو أمنيًا.

(وقال عمر في وصيته:

إن أصابت الإمرة سعدًا فذاك، وإلا فليستعن به الذي يلي الأمر فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة)[1].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٣٣٥٥).

ورغم أن عمر ﷺ يدرك استغلال النفر الذين أثاروا الفتنة ضد سعد - فهو ضرر واضح - لكن لغط الناس في الفتنة وتفرق القلوب أثناء الحرب هو ضرر أكثر، فاختار أخف الضررين، وهذا هو فقه العبادة والإدارة والسياسة لابن الخطاب.

ثانيًا: أهم الأحداث التي تمت في هذا العام

١ - (وفي هذه السنة غزا أرض الروم أبو بحرية عبد اللَّه بن قيس العبدي وهو أول من دخلها فيما قيل فسلم وغنم. وقيل: أول من دخلها فيما قيل ميسرة بن مسروق العبسي).

وكما قال رسول اللَّه ﷺ بعد الخندق:

« **الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم** » [١].

وكانت تلك بداية عهد ومرحلة جديدة، فكذلك كان غزو أبي بحرية بداية مرحلة جديدة، فبعد أن حاول الروم استعادة حمص واستعادة أرض الشام في غزو واسع انتقلت الصورة الآن إلى أن يقوم المسلمون بغزو الروم.

٢ - (وقال الواقدي: وفيها عزل قدامة بن مظعون عن البحرين، وحدَّه في شرب الخمر، وفيها استعمل عمر أبا هريرة الدوسي ﷺ [٢] على البحرين واليمامة.

ومع هذا لم يسلم أبو هريرة من الحساب الذي قرَّر على أثره رفض أي ولاية فيما بعد.

(... فعن ابن سيرين عن أبي هريرة قال:

استعملني عمر بن الخطاب - رضي اللَّه تعالى عنه - على البحرين، فاجتمع إليَّ اثنا عشرًا ألفًا فلما قدمت عليه قال:

يا عدو اللَّه وعدو المسلمين - أو قال: وعدو كتابه - سرقت مال اللَّه؟

قلت: لست بعدوٍّ للَّه ولا للمسلمين - أو قال: ولا لكتابه - ولكني عدو من عاداهما، ولكن خيل تناتجت وسهام اجتمعت.

قال: فأخذ مني اثني عشر ألفًا.

---

(١) صحيح البخاري، ح (٣٨٨٤).

(٢) تاريخ الطبري (٥١٦/٢).

فلما صليتُ الغداة قلت: اللَّهم اغفر لعمر) [١].

(المدائني عن ابن جعدبة عن الزهري قال:

لما قدم أبو هريرة من البحرين قال له عمر:

من أين لك عشرة آلاف درهم؟

فقال: سهام اجتمعت، وخيل تناتجت، وعطاء تلاحق. فضربه ضربات، ثم قاسمه ماله، فأخذ خمسة آلاف وترك له خمسة آلاف.

(قال: وكان يأخذ منهم ويعطيهم أفضل من ذلك، حتى إذا كان بعد قال:

ألا تعمل يا أبا هريرة؟

قلت: لا.

قال: قد عمل من هو خير منك، يوسف عليه السلام. قال: اجعلني على خزائن الأرض).

قلت: يوسف نبي وابن نبي، وأنا أبو هريرة ابن أميمة، وأخاف منكم ثلاثًا، واثنين.

قال: فهلا قلت خمسًا؟

قلت: أخشى أن تضربوا ظهري، وتشتموا عرضي، وتأخذوا مالي، وأكره أن أقول بغير حلم، وأحكم بغير علم) [٢].

٣ - وفيها تزوج عمر فاطمة بنت الوليد أم عبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

٤ - وفيها توفي بلال بن رباح ﷺ، ودفن في مقبرة دمشق.

٥ - وفيها قسم عمر خيبر بين المسلمين، وأجلى اليهود منها، وبعث أبا حبيبة إلى فدك فأقام لهم نصفًا.. فأعطاهم ومضى إلى وادي القرى فقسمها.

٦ - وفيها أجلى يهود نجران إلى الكوفة فيما زعم الواقدي...

٧ - وفيها بعث عمر ﷺ علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة في البحر؛ وذلك أن الحبشة كانت تطرفت - فيما ذكر - طرفًا من أطراف الإسلام، فأصيبوا، فجعل عمر على نفسه ألا يحمل في البحر أحدًا أبدًا.

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (٢٦٨/١٠).

(٢) تاريخ الطبري (٥١٦/٢).

٨ - وحج في هذه السنة عمر ﷺ.

٩ - وكانت عماله في هذه السنة على الأمصار عماله عليها في السنة التي قبلها إلا من ذكرت أنه عزله، واستبدل به غيره. وكذلك القضاة الذين كانوا في السنة التي قبلها.

١٠ - وفيها مات أسيد بن حضير في شعبان...) [١].

- ونقف عند جلاء اليهود عن الحجاز ونجران كما نقف عند الوفيات:

جلاء اليهود:

لقد بقي اليهود في حرز وأمان المسلمين، حتى نكثوا عهدهم وغدروا بالمسلمين، فأجلاهم عمر ﷺ خارج جزيرة العرب.

وحدثني محمد بن يحيى بن سهل بن أبي حثمة عن أبيه قال:

أقبل مظهر بن رافع الحارثي بأعلاج من الشام يعملون له بأرضه وهم عشرة فأقبل حتى نزل بهم خيبر، فأقام بها ثلاثة أيام، فيدخل بهم رجل من اليهود فقال:

أنتم نصارى ونحن يهود، هؤلاء قوم عرب قد قهرونا بالسيف.

وأنتم عشرة رجال، أقبل رجل واحد منهم يسوقكم من أرض الخمر والخير إلى أرض الجهد والبؤس، وتكونون في رقٍّ شديد، فإذا خرجتم من قريتنا فاقتلوه.

قالوا: ليس معنا سلاح.

فدسوا إليهم سكينين أو ثلاثة.

قال: فخرجوا فلما كان بثبار قال لأحدهم، وكان الذي تخدمه منهم: ناولني كذا وكذا. فأقبلوا إليه جميعًا قد شهروا سكاكينهم، فخرج مظهِّر يعدو إلى سيفه وكان في قراب راحلته، فلما انتهى إلى القراب لم يفتحه حتى بعجوا بطنه، ثم انصرفوا سراعًا حتى قدموا خيبر على اليهود فآووهم وزودوهم وأعطوهم قوة.

فلحقوا بالشام وجاء عُمرَ الخبرُ بمقتل مظهِّر بن رافع وما صنعت يهود، فقام عمر خطيبًا في الناس فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال:

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥١٦).

أيها الناس، إن اليهود فعلوا بعبد اللَّه ما فعلوا، وفعلوا بمظهر بن رافع مع عدوتهم على عبد اللَّه بن سهل في عهد رسول اللَّه ﷺ، لا أشك أنهم أصحابه، ليس لنا عدو هناك غيرهم، فمن كان له بها مال فليخرج، فأنا خارج فقاسمٌ ما كان بها من الأموال وحادٌّ حدودها، ومؤرف [1] أرفها، ومجلي اليهود عنها، فإن رسول اللَّه ﷺ قال لهم: « **أقركم ما أقركم اللَّه** » [2].

وقد أذن اللَّه في جلائهم إلا أن يأتي رجل منهم بعهد أو بينة من النبي ﷺ أنه أقرَّه فأقره.

فقام طلحة بن عبيد اللَّه فقال:

قد واللَّه أصبت يا أمير المؤمنين ووفقت، إن رسول اللَّه ﷺ قال: « **أقركم ما أقركم اللَّه** ».

وقد فعلوا ما فعلوا بعبد اللَّه بن سهل في زمن النبي ﷺ، وما حرَّضوا على مظهِّرِ ابن رافع حتى قتله أعبده، وما فعلوا بعبد اللَّه بن عمر، فهم أهل تهمتنا وظِنتنا.

فقال عمر: من معك على مثل رأيك؟

قال: المهاجرون جميعًا والأنصار.

فَسُرَّ بذلك عمر.

حدثني معمر عن الزهري عن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبة قال:

بلغ عمر ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال في مرضه الذي توفي فيه: « **لا يجتمع بجزيرة العرب دينان** » [3].

ففحص عن ذلك عمر بن الخطاب حتى وجد عليه الثبت من لا يُتَّهم، فأرسل إلى يهود الحجاز فقال:

من كان منكم عنده عهدٌ من النبي ﷺ فإني مقره، ومن لم يكن منكم عنده عهدٌ من النبي ﷺ فإني مُجْلِيه، فإن اللَّه ﷻ قد أذن في جلائهم. فأجلى عمر يهود الحجاز) [4].

---

(١) مؤرف أرفها: محدد حدودها ومعالمها. وأرف: جمع أرفة.

(٢) صحيح البخاري، ح (٢٢١٣).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة، ح (٣٢٩٩٢).

(٤) كتاب المغازي للواقدي (٢/٧١٦، ٧١٧).

جلاء نصارى ويهود نجران [١]:

١ - وهذا هو نص ما صالح عليه رسول اللَّه ﷺ أهل نجران:

(... بسم اللَّه الرحمن الرحيم. هذا ما كتب النبي رسول اللَّه محمد لنجران إذ كان له عليهم حكمه:

أ - في كل ثمرة، وصفراء، وبيضاء، وسوداء ورقيق فأفضل عليهم وترك ذلك.

ب - ألفي حلة حلل الأواقي؛ في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، كل حلة أوقية.

جـ - وما زادت حلل الخراج أو نقصت عن الأواقي فبالحساب.

د - وما قضوا من درع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم بالحساب.

هـ - وعلى نجران مثواة رسلي [٢] شهرًا فدونه، ولا يحبس رسلي فوق شهر.

و - وعليهم عارية ثلاثين درعًا، وثلاثين فرسًا، وثلاثين بعيرًا، إذا كان كيد باليمن ذو مغدرة (أي إذا كان بغدر منهم).

ز - وما هلك مما أعاروا رسلي من خيل أو ركاب فهو ضمن [٣] حتى يردوه إليهم.

ح - ولنجران وحاشيتها جوار اللَّه، وذمة محمد النبي رسول اللَّه على أنفسهم، وملتهم وأرضهم وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وغيرهم، وبعثهم، وأمثلتهم [٤]، لا يغير ما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم وأمثلتهم.

ط - لا يفتن أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا واقه [٥] من وقاهيته على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.

ي - وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية.

ك - ولا يحشرون، ولا يعشرون.

---

(١) في الحديث الصحيح: « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » رواه البخاري برقم (٢٩٩٧)، والآخر: « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » رواه مسلم برقم (١٧٦٧)، والثالث: « أخرجوا اليهود من الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب » رواه الدارمي برقم (٢٤٩٨).

(٢) مثواة رسلي: استقبالهم وضيافتهم.

(٣) ضمن: مضمون لهم بدلًا عنه.

(٤) أمثلتهم: ملوكهم وهذه خاصة بلغة أهل اليمن.

(٥) واقه: قيِّم البيعة أو مسؤول الكنيسة.

ل - ولا يطأ أرضهم جيش.

م - من سأل منهم حقًّا فبينهم النصف، غير ظالمين ولا مظلومين بنجران.

ن - ومن أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة.

س - ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر.

ع - ولهم على ما في هذه الصحيفة جوار اللَّه، وذمة محمد النبي أبدًا حتى يأتي أمر اللَّه.

ف - ما نصحوا وأصلحوا فيما بينهم.

ص - غير مكلفين شيئًا بظلم.

شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف من بني نصر، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة، وكتب.

وقال يحيى بن آدم: وقد رأيت كتابًا في أيدي النجرانيين كانت نسخته شبيهة بهذه النسخة وفي أسفله وكتب علي بن أبي طالب، ولا أدري ما أقول فيه).

وبقوا على هذه الذمة حتى أكلوا الربا وأكثروا فيه، وفي أحد نصوص الوثيقة:

(ومن أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة).

﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ [الفتح: ١٠].

(قالوا: ولما استخلف أبو بكر الصديق ﷺ حملهم على ذلك، فكتب لهم كتابًا على نحو كتاب رسول اللَّه ﷺ.

فلما استخلف عمر بن الخطاب ﷺ أصابوا الربا، وكثر، فخافهم على الإسلام فأجلاهم وكتب لهم:

« أما بعد، فمن وقعوا به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث الأرض، وما اعتملوا من شيء فهو لهم مكان أرضهم باليمن ». فتفرقوا فنزل بعضهم الشام ونزل بعضهم النجرانية بناحية الكوفة، وبهم سُمِّيت، ودخل يهود نجران مع النصارى في الصلح، وكانوا كالأتباع لهم.

فلما استخلف عثمان بن عفان كتب إلى الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهو عامله على الكوفة:

« أما بعد، فإن (العاقب) و (الأسقف) وسراة نجران أتوني بكتاب رسول اللَّه ﷺ، وأروني شرط عمر، وقد سألت عثمان بن حنيف عن ذلك فأنبأني أنه كان بحث عن أمرهم فوجده ضارًّا بالدهاقين لردعهم عن أرضهم، وإني قد وضعت عنهم من جزيتهم مائتي حلة لوجه اللَّه، وعقبى لهم من أرضهم، وإني أوصيك بهم، فإنهم قوم لهم ذمة...).

٣ - (وحدثني... عن إسماعيل بن حكيم عن عمر بن عبد العزيز أن رسول اللَّه ﷺ قال في مرضه: « **لا يبقين دينان في أرض العرب** ». فلما استُخلِف رضي الله عنه أجلى أهل نجران إلى النجرانية، واشترى عقاراتهم وأموالهم.

٤ - (وحدثني الحسين بن الأسود قال: حدثني وكيع بن الجراح، قال: حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد قال:

كان أهل نجران قد بلغوا أربعين ألفًا فتحاسدوا بينهم، فأتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقالوا: أَجْلِنَا. وكان عمر قد خافهم على المسلمين فاغتنمها فأجلاهم، فندموا بعد ذلك وأتوه فقالوا: أقلنا. فأبى ذلك، فلما قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتوه فقالوا: ننشدك خطك بيمينك وشفاعتك لنا عند نبيك إلا أقلتنا.

فقال: إن عمر كان رشيد الأمر، وأنا أكره خلافه)[1].

فلقد تم الإخراج ليهود الحجاز ولأهل نجران بنكث لهم لما عاهدوا عليه، وكان هذا النكث مناسبة لتطبيق حديث رسول اللَّه ﷺ في إخراجهم.

ثالثًا: الوفيات: توديع الكبار:

وهؤلاء ماتوا أو سقطوا شهداء وهم من الجيل القيادي الأول الرائد، سبقهم العشرة الكبار في العام الفائت والذين توفوا بطاعون عمواس أو استشهدوا في المعارك أو ماتوا على فراشهم، وندع للإمام الذهبي رحمه الله أن يعرضهم لنا:

١ - بلال بن رباح الحبشي:

(مولى أبي بكر الصديق، وأمه حمامة، كان من السابقين الأولين الذين عُذِّبوا في اللَّه، شهد بدرًا، وكان مؤذن النبي ﷺ....

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٧٦ - ٧٨).

قال ابن مسعود في حديث المعذبين في اللّٰه:

أول من أظهر إسلامه سبعة؛ رسول اللّٰه ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول اللّٰه ﷺ فمنعه اللّٰه بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه اللّٰه بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا واتاهم على ما أرادوا إلا بلال فإنه هانت عليه نفسه في اللّٰه، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد.

وقال هشام بن عروة عن أبيه قال: مَرَّ وَرَقَةُ بن نوفل ببلال وهو يعذب على الإسلام يلصق ظهره برمضاء البطحاء، وهو يقول أحد أحد. فقال ورقة: أحد أحد يا بلال، صبرًا، والذي نفسي بيده لو قتلتموه لأتخذنه حنانًا...

وقال غيره: فلما رأى أبو بكر بلالًا يعذبه قومه، اشتراه منهم بسبع أواقٍ وأعتقه.

وعن أبي أمامة وأنس يرفعانه قال: « بلال سابق الحبشة ».

وقال أبو حيان التيمي، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّٰه ﷺ لبلال: « **حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت خشفة نعليك اليوم في الجنة** ».

قال: ما تطهرت إلا صليت ما كتب لي [1].

ويروى عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « **نعم المرء بلال، سيد المؤذنين يوم القيامة** » [2].

وقال عروة: أمر رسول اللّٰه ﷺ بلالًا عام الفتح فأذن فوق الكعبة.

وقال علي بن زيد وغيره عن سعيد بن المسيب:

إن أبا بكر لما قعد على المنبر يوم الجمعة قال له بلال: أعتقتني للّٰه أو لنفسك؟ قال: للّٰه. قال: فأذن لي حتى أغزو في سبيل اللّٰه. فأذن له، فذهب إلى الشام فمات هناك.

وقال زيد بن أسلم عن أبيه قال: قدمنا الشام مع عمر، فأذن بلال، فذكر الناس النبي ﷺ، فلم أر باكيًا أكثر من يومئذ.

---

(١) صحيح مسلم، ح (٢٤٥٨).

(٢) المعجم الكبير للطبراني، ح (٥١١٩).

وروى سليمان بن بلال بن أبي الدرداء عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال:

لما دخل عمر الشام سأل بلال عمر أن يقره بالشام ففعل.

قال: وأخي أبو رويحة الذي آخى النبي ﷺ بينه وبيني.

قال: نعم. فنزلا داريا في خولان.

فأقبل هو وأخوه إلى قوم من خولان فقالا:

إنا قد أتيناكم خاطبين، وقد كنا كافرين فهدانا اللَّه، وكنا مملوكين فأعتقنا اللَّه، وفقيرين فأغنانا اللَّه، فإن تزوجونا فالحمد للَّه، وإن تردونا فلا حول ولا قوة إلا باللَّه.

فزوجوهما.

ثم رأى النبي ﷺ يقول له (في الرؤيا):

ما هذه الجفوة؟ أما آن لك أن تزورني؟

فانتبه، فركب راحلته وأتى المدينة؟ فَذُكِر أنه أذن فيها، فارتجت المدينة؟ فما رئي يومٌ أكثر باكيًا بالمدينة من ذلك اليوم.

وقال ابن المنكدر عن جابر: كان عمر يقول: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا. يعني بلالًا.

وقال إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال: بلغ بلالًا أن ناسًا يفضلونه على أبي بكر.

فقال: كيف وإنما أنا حسنة من حسناته.

وقال مكحول: حدثني من رأى بلالًا رجلًا آدم شديد الأدمة، نحيفًا، طوالًا، أجنى [١] له شعر كثير، خفيف العارضين به شمط [٢] كثير.

قال يحيى بن بكير: توفي بلال بدمشق في الطاعون سنة ثماني عشرة.

وقال محمد بن إبراهيم التيمي، وابن إسحاق، وأبو عمرو الضرير، وجماعة:

---

(١) أجنى. وأجنأ من الجنأ وهو ميل في الظهر.

(٢) الشمط: بياض في الرأس يخالط سواده.

توفي سنة عشرين بدمشق.

وقال الواقدي: دفن بباب الصغير وله بضع وستون سنة) [١].

٢ - **أسيد بن الحضير:**

(ابن سماك الأوسي الأشهلي، الأنصاري، أبو يحيى. وقيل: أبو عتيك. وغير ذلك.

- أحد النقباء ليلة العقبة، وكان أبوه رئيس الأوس يوم بعاث، فقتل يومئذ، وذلك قبل الهجرة بست سنين، وكان يدعى حضير الكتائب.

- وكان أسيد بعد أبيه شريفًا في قومه وفي الإسلام، يعد من عقلائهم وذوي رأيهم.

- قال ابن سعد: آخى النبي ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة، ولم يشهد بدرًا.

- روى عن النبي ﷺ عدة أحاديث، وروى عنه كعب بن مالك، وعائشة وأنس وعبد الرحمن بن أبي ليلى.

- وذكر الواقدي أنه قدم الجابية مع عمر، وأنه جعله على ربع الأنصار.

- وذكر الواقدي وغيره: أنه أسلم على يد مصعب بن عمير هو وسعد بن معاذ في يوم.

- وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: « **نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل أسيد بن حضير** » [٢] وذكر جماعة. أخرجه الترمذي بإسناد صحيح.

- وورد أنه كان من أحسن الناس صوتًا بالقرآن.

- وروى ابن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله عن أبيه عن عائشة قالت: ثلاثة من الأنصار من بني عبد الأَشهَل لم يكن أحد يعتد عليهم فضلًا بعد رسول الله ﷺ: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر.

- وقال يحيى بن بكير: إنه مات سنة عشرين، وحمله عمر بين عمودي السرير حتى وضعه بالبقيع ثم صلى عليه. وكذا ورخ موته الواقدي وأبو عبيد وجماعة) [٣].

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، الخلفاء الراشدون (٢/٢٠١ - ٢٠٨).

(٢) سنن الترمذي، ح (٣٧٩٥).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي، الخلفاء الراشدون (٢/٢٠٦ - ٢٠٨).

٣ - أبو الهيثم بن التيهان:

- (البلوي حليف بني عبد الأشهل، وكان أحد نقباء الأنصار.
- شهد بدرًا والمشاهد كلها، وكان من خيار الصحابة.
- وهو الذي أضاف النبي ﷺ في الحديث المشهور [١].
- واسمه مالك بن التيهان.. البلوي القضاعي حليف بني عبد الأشهل.

وقيل: هو أنصاري من أنفسهم.

- شهد العقبتين [٢].
- وقيل: بل توفي سنة إحدى وعشرين. وأخطأ من قال: قتل بصفين مع علي. بل ذاك أخوه عبيد.
- والتيْهان: بالتخفيف. كذا يقوله أهل الحجاز وشدده ابن الكلبي) [٣].

لا بد لنا أن نشير أن بوفاة أبي الهيثم بن التيهان رحمه الله يكون النقباء الاثنا عشر قد مضوا شهداء أو متوفين، ما عدا عبادة بن الصامت رضي الله عنه الذي عاش حتى عام أربعة وثلاثين، وتوفي في الشام، ورأينا عظمة جهاده في فتح مصر.

فقادة الأنصار إذن ونقباؤهم جميعًا قد وفوا بما عاهدوا اللّه تعالى عليه، وكانوا لرسول اللّه ﷺ كما كان الحواريون لعيسى ابن مريم، نصروا رسول اللّه ﷺ. استشهد بين يديه ستة منهم وهم:

---

(١) هو في صحيح مسلم... عن أبي هريرة قال: خرج رسول اللّه ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، قال: « **ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟** » قالا: الجوع يا رسول اللّه. فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلًا. فقال لها رسول اللّه ﷺ: « **أين فلان؟** » قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء؛ إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول اللّه ﷺ وصاحبيه،ثم قال: الحمد للّه، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني. قال: فانطلق فجاءهم بعذقٍ فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول اللّه ﷺ: « **إياك والحلوب** ». فذبح لهم فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول اللّه ﷺ لأبي بكر وعمر: « **والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة. أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم** ». مسلم (٢٠٣٨).

(٢) وهما: بيعة العقبة الأولى، وكان عدد الصحابة فيها اثنى عشر رجلًا وهي الصغرى، وبيعة العقبة الثانية وهي الكبرى وكان عدد الصحابة فيها ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي، الخلفاء الراشدون (٢/٢٢١، ٢٢٢).

١ - سعد بن خيثمة، وقد استشهد في بدر.

٢ - سعد بن الربيع، وقد استشهد في أحد.

٣ - عبد اللَّه بن عمرو بن حرام، وقد استشهد في أحد.

٤ - رافع بن مالك بن العجلان، وقد استشهد في أحد.

٥ - المنذر بن عمرو، وقد استشهد في بئر معونة.

٦ - عبد اللَّه بن رواحة، وقد استشهد في مؤتة.

وتوفي اثنان بين يديه.

٧ - البراء بن معرور، وقد توفي في صفر قبل قدوم رسول اللَّه ﷺ المدينة بشهر.

٨ - أسعد بن زرارة، وقد توفي بعد أن أقام دولة الإسلام في المدينة، والمسلمون يبنون المسجد النبوي في أرضه التي اشتراها منه رسول اللَّه ﷺ.

هؤلاء من قضى نحبه مع رسول اللَّه ﷺ وبين يديه.

أما الذين بقوا على العهد وصدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه فهم:

٩ - سعد بن عبادة ﷺ وقتل في الشام في خلافة الصديق.

١٠ - أسيد بن حضير. وهو من ذكرنا وفاته عام عشرين.

١١ - أبو الهيثم بن التيهان. وهو من ذكرنا وفاته عام عشرين.

وكلاهما - أسيد وأبو الهيثم - هم نقباء الأوس ﷺ.

١٢ - وآخرهم عبادة بن الصامت ﷺ. والذي ملأ الأرض علمًا وعملًا في الشام وفلسطين ومصر. نذكره في مكانه إن شاء اللَّه.

وهكذا نرى أن الجيل الأول من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار قد بدأ يغيب عن الساحة، ويغيب في الثرى، وصار الجيل الجديد من الشباب من الصحابة هو الذي يبرز على الساحة اليوم مع جيل التابعين.

٤ - سعيد بن عامر بن جذيم الجمحي:

من أشراف بني جمح. له صحبة ورواية.

ذكر ابن سعد أنه شهد خيبر.

وقال حسان بن عطية: بلغ عمر أن سعيد بن عامر - وكان قد استعمله على بعض الشام - يعني حمص - أصابته حاجة، فأرسل إليه ألف دينار، فقال لزوجته:

ألا نعطي هذا المال لمن يتجر لنا فيه؟

قالت: نعم. فخرج فتصدق به ... وذكر الحديث.

وروى يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن سابط قال: أرسل عمر إلى سعيد ابن عامر: إنا مستعملوك على هؤلاء تسير بهم إلى أرض العدو، فتجاهد بهم. فقال: يا عمر لا تفتني.

قال: والله لا أدعكم، جعلتموها في عنقي، ثم تخليتم عني، إنما أبعثك على قوم لست بأفضلهم.

وقال خليفة: فتحت قيسارية، وأميرها سعيد بن عامر بن جذيم، ومعاوية بن أبي سفيان، كل واحد أمير على جنده، فهزم الله المشركين، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وَوُلِّي سعيد بن عامر حمص.

وذكر ابن سعد أنه شهد خيبر، وكان سعيد من سادة الصحابة.

٥ - عياض بن غنم الفهري:

(أبو سعد، من المهاجرين الأولين، شهد بدرًا وغيرها، واستخلفه أبو عبيدة عند وفاته على الشام، وكان رجلًا صالحًا زاهدًا سمحًا جوادًا، فأقره عمر على الشام، وهو الذي فتح الجزيرة صلحًا، وعاش ستين سنة.

وأما ابن سعد فقال: شهد الحديبية وما بعدها، وكان أحد الأمراء الخمسة يوم اليرموك.

٦ - أبو سفيان بن الحارث:

(ابن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ، اسمه المغيرة، وهو الذي كان آخذًا يوم حنين بلجام بغلة النبي ﷺ، وثبت يومئذ معه، وهو أخو نوفل بن الحارث وربيعة بن الحارث.

وقال أبو إسحاق السبيعي: لما حضر أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الموت قال:

لا تبكوا عليَّ فإني لم أنتطف بخطيئة منذ أسلمت.

وقيل: إن أخاه نوفلا توفي في هذه السنة.

وكان أبو سفيان أخا النبي ﷺ من الرضاعة، أرضعتهما حليمة السعدية... وبلغنا أن الذين كانوا يشبهون رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب، والحسن بن علي، وقثم ابن العباس، وأبو سفيان بن الحارث.

وكان أبو سفيان بن الحارث من شعراء بني هاشم، أسلم يوم الفتح، وكان قد وقع منه كلام في النبي ﷺ، وإياه عنى حسان بقوله:

ألا أبلغْ أبا سُفيان عنِّي ... مغلغلةً فقد بَرِح الخفَاء

هجوْتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند اللَّه في ذاك الجزاء

ثم أسلم [1] وحسن إسلامه، وحضر فتح مكة مسلمًا، وأبلى [2] يوم حنين بلاء حسنًا، وثبت أبو سفيان مع النبي ﷺ مع من ثبت، ثم إن رسول اللَّه ﷺ أحب أبا سفيان، وشهد له بالجنة وقال: « **أرجو أن يكون خلفًا من حمزة** ».

---

(١) وقصة إسلامه كما وردت في الصحيح:

(وكان أبو سفيان بن الحارث وعبد اللَّه بن أبي أمية بن المغيرة قد لقيا رسول اللَّه ﷺ في ثنية العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فقالت:

يا رسول اللَّه ابن عمك وابن عمتك وصهرك. فقال:

« **لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال** ». فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بن الحارث ابن له فقال: واللَّه ليأذنَنَّ لي رسول اللَّه ﷺ، أو لآخذن في يد ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا أو جوعًا. فلما بلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ رق لهما فدخلا عليه. فأنشده أبو سفيان في إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه فقال:

لعمرُك إني يوم أحمِلُ رايةً ... لتغلبَ خيلُ اللاتِ خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلمَ ليلُه ... فهذا أوانُ الحق أَهدي وأهتدي

هَداني هادٍ غير نفسي ودلَّني ... إلى اللَّه مَنْ طَرَّدتُ كل مطرد

أفر سريعًا جاهدًا عن محمد ... وأُدعى وإن لم أنتسب لمحمد

هُم عصبة من لم يَقُلْ بهواهم ... وإن كان ذا رأي يلَم ويفند

صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم العلي وغيره (ص ٤٠٥).

فلما أنشد رسول اللَّه ﷺ: « ... من طردت كل مطرد » ضرب في صدره وقال: « **أنت طردتني كل مطرد** ».

(٢) وما يروى عن ثباته يوم حنين: (والتفت رسول اللَّه ﷺ يومئذ إلى أبي سفيان بن الحارث وهو مقنع بالحديد، وكان ممن صبر يومئذ وهو آخذ بثفر بغلة رسول اللَّه ﷺ قال: « **من هذا؟** » قال: ابن أمك يا رسول اللَّه. (ويقال: إنه قال: « **من أنت؟** » قال: أخوك، فداك أبي وأمي، أبو سفيان بن الحارث. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **نعم أخي، ناولني حصًى من الأرض** ». فناولته، فرمى بها في أعينهم كلهم وانهزموا). المغازي للواقدي (٣/ ٩٠٠).

قال ابن إسحاق: وقال يبكي رسول الله ﷺ:

أَرِقْتُ فباتَ ليلي لا يَزُول ... وليلُ أخِي المصيبةِ فِيه طُول
وأسعدني [١] البكاءُ وذاك فيما ... أصيبَ المسلمُون بِه قليل
فقد عَظُمت مصيبتُنا وجلَّت ... عَشِيةً قيل قد قُبِضَ الرسول
فقدْنا الوحْيَ والتنزيلَ فِينا ... يُروح به ويغْدو جبرئيل
وذَاك أحقّ ما سالت [٢] عليه ... نفوسُ الناس أو كادت تسيل
نبيٌّ كان يجلُو الشكَّ عنا ... بما يوحَى إليه ومَا يقول
ويهدينا فلا نخشَى ضَلالًا ... علينا والرسُولَ لَنا دليل
فلمْ نَر مَثلَه في الناس حيًا ... وليس لَه مِنَ الموتى عديل
أفاطمُ إن جزعْتِ فذَاك عذرٌ ... وإن لم تجزَعِي فَهو السبيل
فعُوذي بالعزاء فإن فيه ... ثَواب اللَّه والفضْل الجزيل
وقُولي في أبيك ولا تَمَلِّي ... وهلْ يجْزي بفعْل أَبيك قيل
فقبْرُ أبِيك سيِّدُ كل قَبْر ... وفِيه سيِّدُ النَّاس اَلرسول

قيل: إن أبا سفيان حج فحلق رأسه، فقطع الحلاق ثؤلولًا [٣] كان في رأسه، فمرض منه ومات بعد مقدمه من الحج، وصلى عليه عمر. توفي بعد أخيه نوفل بأربعة أشهر) [٤].

٧ - نوفل بن الحارث [٥]:

(.. ابن عبد المطلب القرشي الهاشمي.

يكنى أبا الحارث، كان أسن من إخوته، ومن سائر من أسلم من بني هاشم كلهم، كان أسن من العباس وحمزة، أُسر يوم بدر، وفداه العباس، ثم أسلم وهاجر أيام الخندق.. وشهد نوفل مع رسول الله ﷺ فتح مكة، وشهد حنينًا والطائف، وكان ممن ثبت يوم حنين مع رسول الله ﷺ، وأعان يوم حنين رسول الله ﷺ بثلاثة آلاف

---

(١) أسعدني: أعانني، من المساعدة.
(٢) سالت: جرت وخرجت.
(٣) الثؤلول: هو الخرّاج أو الدمل.
(٤) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/١١٩).
(٥) أخذت هذه الترجمة من الاستيعاب لابن عبد البر، ت (٢٥٦٥).

رمح، فقال له رسول اللَّه ﷺ: « **كأني أنظر إلى رماحك يا أبا الحارث تقصف أصلاب المشركين...** » وتوفي في المدينة في داره بها.. وصلى عليه عمر بعد أن مشى معه إلى البقيع، ووقف على قبره حتى دفن).

٨ - أنيس بن مرثد الغنوي [١]:

(ابن أبي مرثد الغنوي... صحب هو وأبوه وجده أبو مرثد رسول اللَّه ﷺ وقتل أبوه يوم الرجيع في حياة النبي ﷺ، ومات جده في خلافة أبي بكر الصديق، وهو حليف حمزة عم النبي ﷺ، وشهد أنيس مع رسول اللَّه ﷺ فتح مكة وحنينًا، وكان عين رسول اللَّه ﷺ في غزوة حنين بأوطاس... وتوفي أنيس في ربيع الأول سنة عشرين).

السيدتان العظيمتان: زينب أم المؤمنين، وصفية بنت عبد المطلب:

٩ - أم المؤمنين: زينب بنت جحش:

(.. ابن رئاب الأسدي أسد خزيمة، أم المؤمنين، أخت أبي أحمد وحمنة، وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، تزوجها رسول اللَّه ﷺ سنة ثلاث - وقيل: سنة خمس وقيل: سنة أربع وهو أصح - وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة. قال اللَّه تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. فكانت زينب تفخر على نساء النبي ﷺ وتقول:

زوجكن أهليكن وزوجني اللَّه من فوق عرشه.

وكانت ديِّنة ورعة كثيرة البر والصدقة، وكانت أول نسائه لحوقًا به، فصلى عليها عمر.

أخرج مسلم من حديث عائشة أن رسول اللَّه ﷺ قال يومًا لنسائه: « **أسرعكن لحوقًا بي أطولكن يدًا** ». فكن يتطولن أيتهن أطول يدًا، فكانت زينب أطولنا يدًا لأنها كانت تعمل وتتصدق.

قال ابن عبد البر: رُوِّينا من وجوه عن عائشة قالت:

كانت زينب بنت جحش تساميني في المنزلة عند رسول اللَّه ﷺ، وما رأيت امرأة قط خيرًا في الدين من زنيب، وأتقى للَّه، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة رضي الله عنها.

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر، ت (١٧).

لها أحاديث، روى عنها: أم حبيبة بنت أبي سفيان، وزينب بنت أبي سلمة، وابن أخيها محمد بن عبد اللّٰه بن جحش، وأرسل عنها القاسم بن محمد.

توفيت سنة عشرين، وكان عمر قد قسم لأمهات المؤمنين في السنة اثني عشر ألف درهم لكل واحدة، إلا جويرية وصفية، فقسم لهم ستة آلاف؛ لكونهما سُبِيَتا. قاله الزهري.

قال الواقدي: حدثني عمر بن عثمان الجحشي عن أبيه قال:

تزوج رسول اللّٰه ﷺ زينب بنت جحش لهلال ذي القعدة سنة خمس، وهي بنت خمس وثلاثين سنة، وكانت امرأة صالحة صوامة قوامة صنَّاعًا تتصدق بذلك كله على المساكين.

قال الواقدي: وحدثني موسى بن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه عن أمه عمرة عن عائشة قالت:

يرحم اللّٰه زينب، لقد نالت شرف الدنيا الذي لا يبلغه شرف، إن اللّٰه زوجها نبيه، ونطق به القرآن، وإن رسول اللّٰه ﷺ قال لنا ونحن حوله: « **أطولكن يدًا أسرعكن لحوقًا بي** ». فبشرها رسول اللّٰه ﷺ بسرعة لحوقها به وهي زوجته في الجنة. وقال خليفة وحده: توفيت سنة إحدى وعشرين) [1].

١٠ - صفية بنت عبد المطلب:

(عمة رسول اللّٰه ﷺ، وشقيقة حمزة، وحجل، والمقوم، وأمهم زهرية، تزوجها الحارث بن حرب بن أمية فتوفي عنها، وتزوجها العوام بن خويلد فولدت له الزبير حواري رسول اللّٰه ﷺ، والسائب، وعبد الكعبة.

ووجدت على أخيها حمزة وجدًا شديدًا وصبرت واحتسبت.

وكانت يوم الخندق في حصن حسان بن ثابت، قالت: وهو معنا في الحصن مع الذرية، فمر بالحصن يهودي، فجعل يطيف بالحصن، والمسلمون في نحور عدوهم، فذكرت الحديث وأنها نزلت وقتلت اليهودي بعمودٍ..

توفيت صفية سنة عشرين، ودفنت بالبقيع عن بضع وسبعين سنة) [2].

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، الخلفاء الراشدون (٢/٢١١ - ٢١٤).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/٢٢٠).

(وأخرج الطبراني من طريق حفص بن غياث بن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما قبض النبي ﷺ خرجت صفية تلمع بردائها وهي تقول:

قد كان بْعدَك أنباءٌ وهنبثة [(١)] لو كُنت شاهَدها لم يكْثُر الخطْب

وذكر لها ابن إسحاق من رواية إبراهيم بن سعد وغيره في السيرة أبياتًا مرثية في النبي ﷺ؛ منها:

فيا عينُ جُودِي بالدمُوعِ السوَاجِم لِفقْدِ رسول اللّه إذ حَان يومُه

وفي السيرة النبوية من رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق، حدثني الزهري و... وغيرهم عن قتل حمزة، فلقيها الزبير فقال: أي أمة إن رسول اللّه ﷺ يأمرك أن ترجعي. قالت:

ولِمَ وقد بلغني أنه مُثِّلَ بأخي، وذلك في اللّه، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأصبرن وأحتسبن إن شاء اللّه. فجاء الزبير فأخبره فقال: « **خَلِّ سبيلها** ».

فأتت إليه واستغفرت له، ثم أمر به ودفن.

ومما رثت به صفية النبي ﷺ:

إن يومًا أتـى عـليـك لـيـومِ كورت شمسه وكان مضيئا [(٢)]

والملاحظ أن نصف هؤلاء العشرة الكبار هم رهط النبي صلى اللّه عليه وسلم وآله:

١ - أبو سفيان بن الحارث: ابن عمه وأخوه من الرضاعة.

٢ - نوفل بن الحارث: ابن عمه.

٣ - أنيس بن مرثد: ابن حفيد حليف عمه حمزة.

٤ - زينب بنت جحش: زوجته رضي الله عنها وابنة عمته.

٥ - صفية بنت عبد المطلب: عمته وأم حواريه الزبير.

ويطالعنا مع هؤلاء العشرة الكبار سيد عظيم من سادات الأنصار ذكره ابن كثير في البداية والنهاية، وهو:

---

(١) الهنبثة: الاختلاط في القول.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ت (١٢٠٨٢).

١١ - عويم بن ساعدة:

(.. ابن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي، وقيل في نسبه غير ذلك.

قال ابن إسحاق: أصله من بلي، وحالف بني أمية بن زيد.

كان ممن شهد العقبة وبدرًا وأحدًا والمغازي، ومات في حياة النبي ﷺ. هكذا قال الواقدي.

وقال غيره: مات في خلافة عمر بن الخطاب.

ويؤيده أنه وقع في الصحيح من طريق الزهري.... في حديث السقيفة عن عمر رضي الله عنه: فلقينا رجلان صالحان من الأنصار.

وزاد الإسماعيلي في روايته: قال الزهري: فأخبرني عروة بن الزبير أن الرجلين اللذين أتياهما هما عويم بن ساعدة ومعن بن عدي...) [١].

وأي وفاء خالد للإسلام يعظم هذا الوفاء؟! جاءا المهاجرين وعلى رأسهم أبو بكر وعمر لِيُعْلِمَاهم اجتماع الأنصار على بيعة سعد بن عبادة، فكان خوفهما على فرقة الأمة أكبر بكثير من خوفهما على ذهاب الخلافة عن قومهما من الأنصار.

(فأما عويم فهو الذي بلغنا أنه قيل لرسول الله ﷺ: مَنِ الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ؟ ﴾ [التوبة: ١٠٨]؟

فقال: « **نعم المرء منهم عويم بن ساعدة** ».

وجاء هذا الخبر مفردًا من حديث جعفر.

وأخرج البخاري في التاريخ من طريق عاصم بن سويد قال:

سمعت الصفراء بنت عثمان بن عتبة بن عويم بن ساعدة قالت:

حدثتني جدتي قالت:

دعا عمر إلى جنازة عويم بن ساعدة، وكان النبي ﷺ آخى بينه وبين عمر، فقال عمر ما نصبت راية للنبي ﷺ إلا وتحت ظلها عويم) [٢].

(١، ٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٧٠٧٣).

الفتح الكبير بالإسكندرية:

فخرج عمرو بن العاص بالمسلمين حين أمكنهم الخروج، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط، وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق أعوانًا على ما أرادوا من قتال الروم، وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت.. قدمت عليهم مراكب كثيرة من أرض الروم فيها جمع عظيم من الروم بالعدة والسلاح، فخرج إليهم عمرو بن العاص من الفسطاط متوجهًا إلى الإسكندرية، فلم يلق منهم أحدًا حتى بلغ قرنوط، فلقي بها طائفة من الروم فقاتلوه قتالًا خفيفًا فهزمهم اللَّه، ومضى عمرو بمن معه حتى لقي جمع الروم بكوم شريك فاقتتلوا به ثلاثة أيام، ثم فتح اللَّه للمسلمين، وولى الروم أكتافهم وأرسل عمرو بن العاص شريك بن سمي في آثارهم، ثم التقوا بسلطيس فاقتتلوا بها قتالًا شديدًا ثم هزمهم اللَّه، ثم التقوا بالكربون فاقتتلوا بها بضعة عشر يومًا، وكان عبد اللَّه بن عمرو على المقدمة، وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو، ثم فتح اللَّه للمسلمين وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية، فتحصن بها الروم وكانت عليها حصون مبنية لا ترام حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة، ورسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم.

وكان ملك الروم يقول: لئن ظهرت العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، وإنما كان عيد الروم بالإسكندرية؛ حيث غلبت العرب على الشام، فقال الملك: لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها، فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه؛ إعظامًا لها وأمر ألا يتخلف عنه أحد من الروم، وقال: ما بقاء الروم بعد الإسكندرية؟ فلما فرغ من جهازه صرعه اللَّه فأماته وكفى المسلمين مؤنته، وكان موته في سنة تسع عشرة فكسر اللَّه بموته شوكة الروم، فرجع جمع كثير مما كان توجه إلى الإسكندرية واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال فقاتلوهم قتالًا شديدًا.

إلي الإسكندرية

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية من إصدرات

دار السلام للطباعة والنشر (ص ١٦٥) خريطة (٩٩))

ثم نرجع إلى حديث عثمان بن صالح [(١)] قال: حدثني خالد بن نجيح قال: أخبرني الثقة أن عمرو بن العاص قاتل الروم بالإسكندرية يومًا من الأيام قتالًا شديدًا، فلما استحر القتل بينهم بارز رجل من الروم مسلمة بن مخلد فصرعه الرومي وألقاه عن فرسه، وهوى إليه ليقتله حتى حماه رجل من أصحابه، وكان مسلمة [(٢)] لا يقاوم سبيله ولكنها مقادير، ففرحت بذلك الروم، وشق ذلك على المسلمين، وغضب عمرو ابن العاص لذلك. وكان مسلمة كثير اللحم ثقيل البدن فقال عمرو بن العاص عند ذلك: ما بال الرجل المسَتَّه [(٣)] الذي يشبه النساء يتعرض مداخل الرجال، ويتشبه بهم. فغضب من ذلك مسلمة ولم يراجعه، ثم اشتد القتال حتى اقتحموا حصن الإسكندرية فقاتلتهم العرب في الحصن، ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعًا من الحصن إلا أربعة نفر بقوا في الحصن وأغلقوا عليهم باب الحصن أحدهم عمرو بن العاص، والآخر مسلمة بن مخلد ولم نحفظ الآخرين.

مسلمة ينقذ أميره:

(.. حالوا بينهم وبين أصحابهم ولا تدري الروم من هم، فلما رأى ذلك عمرو ابن العاص وأصحابه التجؤوا إلى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه فاحترزوا به، فأمروا روميًا أن يكلمهم بالعربية فقال لهم: إنكم صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم. فامتنعوا عليهم ثم قال لهم: إن في أيدي أصحابكم منا رجالًا أسروهم ونحن نعطيكم العهود نفادي بكم أصحابنا ولا نقتلكم. فأبوا عليهم، فلما رأى ذلك الرومي منهم قال لهم: هل لكم إلى خصلة وهي نصف فيما بيننا وبينكم؟ أن تعطونا العهد ونعطيكم مثله على أن يبرز منكم رجل ومنا رجل، فإن غَلَبَ صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم، وإن غَلَبَ صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم إلى أصحابكم. فرضوا بذلك، وتعاقدوا عليه، وعمرو ومسلمة وصاحباهما في الحصن في الديماس، فتداعوا إلى البراز فبرز رجل من الروم قد وثقت الروم بنجدته وشدته وقال: يبرز رجل منكم لصاحبنا. فأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة، وقال: ما هذا؟! تخطئ

---

(١) وهو السند المقبول السابق: حدثنا عثمان بن صالح أخبرنا خالد بن نجيح عن يحيى بن أيوب وخالد ابن حميد. قال حدثنا خالد بن يزيد عن جماعة من التابعين بعضهم يزيد عن بعض وكل رواة السند صدوقون.

(٢) في إحدى الروايات السابقة أنه أحد الأربعة الذين بعثهم عمر ﷺ وَعَدَّهُ بألف رجل.

(٣) المستَّه: أي استه كبيرة.

مرتين، تشذ عن أصحابك وأنت أمير وإنما قوامهم بك، وقلوبهم معلقة نحوك ولا يدرون ما أمرك، ثم لا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل فإن قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك مكانك وأنا أكفيك إن شاء اللَّه فقال عمرو: دونك فربما فرجها اللَّه بك. فبرز مسلمة والرومي فتجاولا ساعة، ثم أعانه اللَّه عليه فقتله، فَكَبَّرَ مسلمة وأصحابه ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه، ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا ولا تدري الروم أن أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك فأسفوا على ذلك.. وأكلوا أيديهم تغيظًا على ما فاتهم، فلما خرجوا استحيى عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب فقال عمرو عند ذلك: استغفر لي ما كنت قلت لك. فاستغفر له، وقال عمرو: ما أفحشت قط إلا ثلاث مرار، مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة، وما منهن مرة إلا وقد ندمت واستحييت، وما استحييت من واحدة منهم أشد مما استحييت مما قلت لك، واللَّه إني لأرجو ألا أعود إلى الرابعة ما بقيت) [١].

ثم نرجع الحديث إلى عثمان [٢] عن ابن لهيعة [٣] عن يزيد بن أبي حبيب [٤]...

أمير المؤمنين وتأخر الفتح:

(... قال: أقام عمرو بن العاص محاصر الإسكندرية أشهرًا، فلما بلغ ذلك عمر ابن الخطاب قال: ما أبطؤوا بفتحها إلا لما أحدثوا.

قال ابن عبد الحكم: حدثنا يحيى بن خالد عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر كتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر إنكم تقاتلونهم منذ سنتين، وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن اللَّه تعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكونوا غَيَّرَهُم ما غَيَّرَ غَيْرَهُم، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم وَرَغِّبْهُم في الصبر والنية، وقدِّم أولئك الأربعة في صدور الناس، وأمر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل

---

(١) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم (ص ٦٨، ٦٩).

(٢) ثقة من الحادية عشرة.

(٣) صدوق من السابعة.

(٤) ثقة فقيه من الخامسة وكان يرسل.

واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى اللَّه ويسألوه النصر على عدوهم. فلما أتى عَمْرًا الكتاب جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر، ثم دعا أولئك النفر فَقَدَّمَهُم أمام الناس وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ثم يرغبوا إلى اللَّه ﷻ ويسألوه النصر، ففتح اللَّه عليهم.

ويقال: إن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد - كما حدثنا عثمان بن صالح عمن حدثه - وقال:

أشر عليَّ في قتال هؤلاء. فقال له مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فتعقد له على الناس فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك. قال عمرو: ومن ذلك؟ قال: عبادة بن الصامت. قال: فدعا عمرو عبادة فأتاه وهو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول فقال له عمرو: عزمت عليك إن نزلت [١] ناولني سنان رمحك. فناوله إياه، فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له، ووَلَّاه قتال الروم، فتقدم عبادة مكانه فصافَّ الروم وقاتلهم، ففتح اللَّه على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك.

حدثنا ابن عبد اللَّه بن عبد الحكم قال: لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية استلقى على ظهره ثم جلس فقال: فكرت في هذا الأمر فإذا هو لا يُصلح آخره إلا من أصلح أوله يريد الأنصار فدعا عبادة بن الصامت فعقد له ففتح اللَّه على يديه الإسكندرية في يومه ذلك.

ثم رجع إلى حديث يحيى بن أيوب عن خالد بن حميد قال: حاصروا الإسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك، وفُتحت يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة عشرين، وحدثنا عبد الملك بن مسلمة [٢] عن مالك بن أنس [٣] أن مصر فتحت سنة عشرين [٤].

أما البلاذري فيرى أن هذا الفتح قد تم سنة إحدى وعشرين:

---

(١) إن نزلت: ما نزلت. (٢) عبد الملك بن مسلمة (مجهول).

(٣) مالك بن أنس: ثقة عالم فقيه رأس المتقين وكبير المثبتين.

(٤) فتوح مصر والمغرب (ص ٨٠).

قالوا: لما فتح عمرو بن العاص مصر أقام بها ثم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره في الزحف إلى الإسكندرية، فكتب إليه يأمره بذلك، فسار إليها في سنة إحدى وعشرين واستخلف على مصر خارجة بن حذافة.. وكان ما دون الإسكندرية من الروم القبط قد تجمعوا له، وقالوا: نغزوه بالفسطاط قبل أن يبلغنا ويروم الإسكندرية، فلقيهم بالكريون فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وكان فيهم أهل سخا وبلهيت والخيس وسلطيس وغيرهم قوم رفدوهم وأعانوهم، ثم سار عمرو حتى انتهى إلى الإسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله، إلا أن القبط في ذلك يحبون الموادعة، فأرسل إليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة، فأبى عمرو ذلك، فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات بوجوههن إلى داخله، وأقام الرجال في السلاح مقبلين بوجوهم إلى المسلمين ليرهبهم بذلك، فأرسل إليه عمرو: إنا قد رأينا ما صنعت وما بالكثرة غلبنا من غلبنا، فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان، فقال المقوقس لأصحابه: قد صدق هؤلاء القوم، أخرجوا مَلِكَنَا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية، فنحن أولى بالإذعان. فأغلظوا له القول وأبوا إلا المحاربة، فقاتلهم المسلمون وحصروهم ثلاثة أشهر، ثم إن عَمْرًا فتحها بالسيف وغنم ما فيها واستبقى أهلها ولم يقتل ولم يسب وجعلهم ذمة كأهل اليونة، فكتب إلى عمر بالفتح مع معاوية بن خديج الكندي ثم السكوني وبعث إليه معه بالخمس [1].

أمير المؤمنين يتلقى خبر الفتح:

وبعث عمرو بن العاص كما حدثنا عثمان بن صالح عن ابن لهيعة معاوية بن خديج وافدًا إلى عمر بن الخطاب بشيرًا بالفتح فقال له معاوية: ألا تكتب معي؟! فقال له عمرو: وما أصنع بالكتاب؟ ألست رجلًا عربيًّا تبلغ الرسالة وما رأيت وحضرت؟ فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية فخرَّ عمر ساجدًا وقال: الحمد لله. وحدثنا عبد اللَّه بن يزيد المقرئ حدثنا موسى بن علي عن أبيه أنه سمعه يقول: سمعت معاوية بن خديج يقول: بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية فقدمت المدينة في الظهيرة فأنخت راحلتي بباب بالمسجد ثم دخلت

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٢٠، ٢٢١).

المسجد، فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب فرأتني شاحبًا عليّ ثياب السفر، فأتتني فقالت: من أنت؟ فقلت: أنا معاوية بن خديج رسول عمرو ابن العاص الأمير. فانصرفت عني، ثم أقبلت تشتد أسمع حفيف إزارها على ساقها أو ساقيها، حتى دنت مني فقالت: قم، فأجب أمير المؤمنين يدعوك. فتبعتها فلما دخلت فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى، فقال: ما عندك؟ فقلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح اللَّه الإسكندرية. فخرج معي إلى المسجد فقال للمؤذن: أذن في الناس؛ الصلاة جامعة. فاجتمع الناس ثم قال لي: قم فأخبر أصحابك. فقمت فأخبرتهم، ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ثم جلس فقال: يا جارية هل من طعام؟ فأتت بخبز وزيت، فقال: كل فأكلت على حياء. ثم قال: كل فإن المسافر يحب الطعام، فلو كنت آكلًا لأكلت معك. فأصبت على حياء، ثم قال: يا جارية، هل من تمر؟ فأتت بتمر في طبق، فقال: كل. فأكلت على حياء، ثم قال: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟ قال: قلت: أمير المؤمنين قائل [1]. قال: بئس ما قلت - أو بئس ما ظننت - لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟ [2].

هذا هو رأس الأمة الربانية الذي يعيش قلبه مع جنده والزيت أدم له وهو الذي يضع الخطط لهم من المدينة، وهذا أميره عمرو قد بدأ يدرك ﷺ أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها من الأنصار من أصحاب رسول اللَّه، ونفذ وصية أمير المؤمنين في الدعاء والتضرع والتلبية وسلم القيادة لعبادة بن الصامت، كما نعجب من هذا القائد العظيم عمرو بن العاص الذي لا يعرف اليأس سبيلًا إليه، فيبقى في الحصار تسعة أشهر دون أن يثني هذا الحصار عزيمته أو يفل همته، والصبر هذا يرافقه الجوع والعطش والحر والبرد واختلاف الأجواء وتغير البيئة، كل هذا أبقاه يواجه أعتى دول الأرض وأقواها، فهو لم يعرف لحظةً من لحظات حياته الراحةَ، فقد مضى إلى عُمان ومن عمان إلى الشام، ومن الشام إلى فلسطين والأردن، ومن فلسطين إلى مصر يجوب الجزيرة العربية شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا ماضيًا في سبيل اللَّه لتحقيق موعود اللَّه، وقد

---

(١) قائل: من القيلولة وهي النوم في النهار.

(٢) فتوح مصر والمغرب وأخبارها (ص ٨١).

شارف على الستين من عمره أو زاد عنها يريد أن يصنع فجرًا جديدًا لهذه الأمة، ويتعرض لأشد أنواع الخطر، ويحبس في أرض العدو ولا يهن ولا يضعف ولا يستكين.

ولولا هذا الصبر العظيم والشجاعة الفائقة والوعي والتخطيط للمواجهة لما أمكن أن يتغلب على هذه المصاعب جميعًا وقهر الروم وإمبراطورهم الذي مضى كمدًا وحسرة وهو الذي كان يقول: (لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها).

وسنرى فيما بعد أن الروم عادوا فاحتلوا الإسكندرية بعد أربع سنوات وأخرجهم منها عمرو بن العاص وهدم أسوارها، وأنهى الوجود الروماني منها إلى الأبد.

ندلف بعد هذا الوقوف عند الوفيات وجلاء اليهود عن الحجاز والنصارى عن نجران إلى العام الحادي والعشرين أخطر الأعوام على الإطلاق في خلافة الفاروق إلي حرب نهاوند فتح الفتوح.

* * *
* *
*

السنة الحادية والعشرون

معركة نهاوند

فتح الفتوح

الفصل الرابع

معركة نهاوند

أسباب المعركة:

(وأما سيف فإنه قال - فيما كتب إلي السري يذكر أن شعيبًا حدثه عنه وعن محمد والمهلب وطلحة وعمر وسعيد:

إن الذي هاج أمر نهاوند أن أهل البصرة لما أشجوا الهرمزان وأعجلوا أهل فارس عن مصاب جند العلاء ووطئوا أهل فارس، كاتبوا ملكهم وهو يومئذ بمرو، فحركوه، فكتب الملك إلى أهل الجبال من بين الباب والسند وخراسان وحلوان، فتحركوا وتكاتبوا، وركب بعضهم إلى بعض، فأجمعوا أن يوافوا بنهاوند، ويبرموا فيها أمورهم، فتوافوا إلى نهاوند أوائلهم) [١].

فلقد كان اجتماع قيادات؛ إذ هز أَسْرُ الهرمزان كيانهم وهو أكبر قوادهم، وأي بلد يدخلونه لا يمكن أن يخرجوا منه، ولا ندري فقد يكون قرار الخليفة ﷺ في غزو بلاد فارس قد وصلهم عن طريق عيونهم وجواسيسهم، وأن المعركة غدت معركة مصيرية، معركة وجود أو عدم، معركة حياة أو موت.

وعندما تم اللقاء شَخَّصَ يزدجرد الوضع الخطير بكل أبعاده.

(عن حمزة بن المغيرة بن شعبة عن أبي طعمة الثقفي - وكان قد أدرك ذلك - قال:

ثم إنهم قالوا:

إن محمدًا الذي جاء العرب بالدين لم يغرض غَرضنا.

ثم ملكهم أبو بكر من بعده فلم يغرض غرَض فارس إلا في غارة تعرض لهم فيها، وإلا فيما يلي بلادهم من السواد.

ثم ملك عمر من بعده، فطال ملكه وغرض حتى تناولكم، وانتقصكم السواد والأهواز وأوطأها، ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة في عقر دارهم،

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٢١).

وهو آتيكم إن لم تأتوه، فقد أخرب بيت مملكتهم، واقتحم بلاد مملكتكم، وليس بمنته حتى تُخرجوا من في بلادكم من جنوده، وتقلعوا هذين المصرين، ثم تشغلوه في بلاده وقراره...) [١].

وانتهوا بعد التشاور إلى هذا الرأي.

(وتعاهدوا وتعاقدوا وكتبوا بينهم على ذلك كتابًا وتمالؤوا عليه) [٢].

تجمع الجيوش:

ثم انتقل القرار إلى مرحلة التنفيذ العملي:

قالوا: (وكان من حديثهم أنهم نفروا لكتاب يزدجرد الملك، فتوافوا إلى نهاوند، فتوافى إليها من بين خراسان إلى حلوان، ومن بين الباب إلى حلوان، ومن سجستان إلى حلوان، فاجتمعت حلبة فارس، والفهلوج أهل الجبال من بين الباب إلى حلوان ثلاثون ألف مقاتل، ومن بين خراسان إلى حلوان ستون ألف مقاتل، ومن بين سجستان إلى فارس وحلوان ستون ألف مقاتل، واجتمعوا على الفيرزان، وإليه كانوا توافوا).

وبلغ الخبر سعدًا وقد استخلف عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبان، ولما شخص لقي عمر بالخبر مباشرة، وقد كان كتب إلى عمر بذلك وقال:

إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح قبل أن يبادروهم بالشدة، وقد كان عمر منعهم من الانسياح في الجبل.

وكتب إليه عبد اللَّه وغيره بأنه قد اجتمع منهم خمسون ومائة ألف مقاتل، فإن جاؤونا قبل أن نبادر إليهم الشَّدَّة ازدادوا جرأة وقوة، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلكم، وكان الرسول بذلك قريبَ بن ظفر العبدي.

ثم خرج بعده سعد فوافى مشورة عمر، فلما قدم الرسول بالكتاب إلى عمر فرآه فقال: ما اسمك؟

قال: قريب. قال ابن من؟ قال: ابن ظفر.

فتفاءل إلى ذلك وقال: ظفر قريب إن شاء اللَّه.

(١، ٢) تاريخ الطبري (٥٢٢/٢).

فالأنباء إذن أشد من أنباء ما قبل القادسية، فقد استجابت فارس كلها لملكها وتجمعت للمعركة الفاصلة تريد أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء، وتغير التاريخ.

ويريد يزدجرد أن يعيد هؤلاء العرب إلى صحرائهم، ولن يتمكن من ذلك إلا بجمع كل قيادات فارس وغيرها؛ لأنه يرى أنهم الهدف القادم.

انعقاد مجلس الشورى:

(ونودي في الناس: الصلاة جامعة. فاجتمع الناس، ووافاه سعد، فتفاءل إلى سعد ابن مالك، وقام على المنبر خطيبًا، فأخبر الناس الخبر، واستشارهم وقال:

هذا يوم له ما بعده من الأيام، ألا وإني هممت بأمر، وإني عارضه عليكم فاسمعوه، ثم أخبروني وأوجزوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، ولا تكثروا فتطيلوا، فتقشع بكم الأمور ويلتوي عليكم الرأي..).

لقد حدَّدَ ﷺ تعليمات الشورى بعد أن حدد سبب انعقاد المجلس وبرنامجه.

(وقام على الناس خطيبًا، فأخبر الناس الخبر..) ونبّه إلى أهمية الخبر:

١ - هذا يوم له ما بعده من الأيام.

٢ - ألا وإني هممت وإني عارضه عليكم فاسمعوه.

٣ - ثم أخبروني وأوجزوا.

٤ - ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم.

٥ - ولا تكثروا.

٦ - ولا تطيلوا فتقشع بكم الأمور، ويلتوي عليكم الرأي.

وبعد تحديد التعليمات المتبعة في الشورى، وبعد عرض الأمر بتفاصيله من خلال الرسول الذي جاء بالخبر؛ حيث عرف الناس العدو وأعداده وعدته ابتدأت المناقشة:

(.. أفمن الرأي أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلًا واسطًا بين هذين المصرين فأستنفرهم ثم أكون لهم ردءًا حتى يفتح اللَّه عليهم ويقضي ما أحب، فإن فتح اللَّه عليهم أن أضربهم عليهم في بلادهم وليتنازعوا ملكهم؟).

إنه العرض نفسه الذي عرضه قبيل القادسية، وقيادات الكتل البرلمانية هي نفسها التي كانت قبل سبع سنوات الذين توفي رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راضٍ.

(فقام عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد اللَّه، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف.... ثم قام علي بن أبي طالب...).

فاجتمع الناس ووافاه سعد..).

وهكذا نلحظ الرأي العام في المجلس ضد رأي أمير المؤمنين، ولنستمع معًا إلى رؤساء الكتل النيابية:

(فقام طلحة بن عبيد اللَّه - وكان من خطباء أصحاب رسول اللَّه ﷺ - فتشهَّد ثم قال:

١ - أما بعد يا أمير المؤمنين، فقد أحكمتك الأمور، وعجمتك البلايا، واحتنكتك التجارب، وأنت وشأنك وأنت ورأيك، لا ننبو في يديك، ولا نكل عليك، إليك هذا الأمر.

٢ - فمرنا نطع، وادعنا نجب، واحملنا نركب، ووفِّدنا نفد، وقدنا ننقد.

٣ - فإنك وليّ هذا الأمر، وقد بلوت وجربت واختبرت.

٤ - فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء اللَّه لك إلا عن خيار...) [1].

فطلحة ﷺ يرى أن خبرة عمر كافية، ومعرفته في الرجال والحروب لا يرتفع عليها رأي.

(فقد أحكمتك الأمور، وعجمتك البلايا، واحتنكتك التجارب، وأنت وشأنك، وأنت ورأيك).

وكأن طلحة ﷺ يرى أن هذا من اختصاص الخليفة، ومن صلاحيات السلطة التنفيذية:

(إليك هذا الأمر، فمرنا نطع، وادعنا نجب، واحملنا نركب، وَوَفِّدْنَا نفد، وقدنا ننقَدْ).

لكن عمر ﷺ لم يأخذ جوابًا عن سؤاله، ولم يسمع رأي المجلس في قراره، فقال:

(إن هذا يوم له ما بعده من الأيام، فتكلموا.

فقام عثمان بن عفان، فتشهَّد فقال:

١ - أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وتكتب

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٢٣، ٥٢٤).

إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين، والكوفين: الكوفة والبصرة.

٢ - فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين.

٣ - فإنك إذا سرت بمن معك ومن عندك قلَّ في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنت أعز عزًّا وأكثر.

٤ - يا أمير المؤمنين إنك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقية، ولا تمتع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز.

٥ - إن هذا يوم له ما بعده من الأيام، فاشهده برأيك وأعوانك، ولا تغب عنه. ثم جلس..)[1].

لقد جاء الرأي الثاني لقادة الكتل الذي يشجع الخليفة على الخروج بالناس، واستنفار المسلمين من كل الأقطار، ويفعل كما فعل يزدجرد حين دعا القيادات والجنود من أنحاء الإمبراطورية وتم الاتفاق على اللقاء بنهاوند.

وحجته في ذلك أن ليس في المسلمين من يقوم مقامه بمواجهة هذه الحرب العظمى مع الفرس:

(فاشهده برأيك وأعوانك، ولا تغب عنه).

رأي المعارضة:

(فعاد عمر فقال: إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا.

فقام علي بن أبي طالب فقال:

١ - أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنك إذا أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم.

٢ - وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم.

٣ - وإنك إن أشخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها.

٤ - حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٢٤).

٥ - أقرر هؤلاء في أمصارهم.

٦ - واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق.

٧ - فلتقم فرقة لهم في حرمهم وذراريهم.

٨ - ولتقم فرقة في أهل عهدهم؛ لئلا ينتقضوا عليهم.

٩ - ولتسر فرقة منهم إلى إخوانهم بالكوفة مددًا لهم.

١٠ - إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدًا قالوا:

هذا أمير العرب، وأصل العرب. فكان ذلك أشدَّ لكلبهم، وألَّبتهم على نفسك.

١١ - وأما ما ذكرت من مسير القوم، فإن اللَّه هو أكره لمسيرهم منك.

١٢ - وهو أقدر على تغيير ما يكره.

١٣ - وأما ما ذكرت من عددهم، فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة.

١٤ - ولكنا كنا نقاتل بالنصر) [١].

إنها خطبة جامعة، وبرنامج كامل، فنّد الرأي الأول، وأبرز عوراته، ثم قدم البديل المدروس الدقيق بكل تفصيلاته، ثم أعقب ذلك أخيرًا بما يحتمل أن يرد عليه من اعتراضات، فَرَدَّ على الاعتراضات جميعًا.

إنها عظمة علي ﷺ وعبقريته وحنكته، وحكمته في التجارب والحروب، فقد نال أعظم الأوسمة الحربية والعسكرية من رسول اللَّه ﷺ وهو دون الثلاثين، وهو الرائد الأول في الجهاد الإسلامي بلا منازع كما يقول: « أنا أول مَن يجثو للخصومة بين يدي الرحمن ».

وهو أول الثلاثة الذين مَثَّلُوا معركة الإيمان ضد الكفر، وبقي وحده من هؤلاء الثلاثة؛ حمزة وعبيدة وعلي.

وأتمنى واللَّه أن نتعلم فن الحوار والنقاش من علي ﷺ في تسلسل الأفكار، والرد على الآراء المخالفة، وطرح البدائل والدفاع عنها.

ومن أجل ذلك كوَّن رأيًا عامًّا في مجلس الشورى يتبنى رأيه، وتراجع الجميع إلى الأخذ بموقفه.

---

(١) تاريخ الطبري (٥٢٤/٢).

(فقام عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد اللَّه والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف في رجال من أهل الرأي من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فتكلموا كلامًا فقالوا:

لا نرى ذلك، ولكن لا يغيبن عنهم رأيك وأثرك. وقالوا:

بإزائهم وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم ومن قد فض جموعهم وقتل ملوكهم وباشر من حروبهم ما هو أعظم من هذه، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك. فائذن لهم واندب إليهم وادع لهم.

وكان الذي ينتقدُ له الرأيَ إذا عرض عليه العباس ﷺ) (١).

وعاد علي ﷺ فعرض جوانب من رأيه فصَّل فيها وقال مثنيًا على موافقة إخوانه على رأيه.

(فقام علي بن أبي طالب ﷺ فقال:

أصاب القوم يا أمير المؤمنين الرأي، وفهموا ما كتب به إليك، وإن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه لكثرة ولا قلة، هو دينه الذي أظهر، وجنده الذي أعز وأيده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعود من اللَّه، واللَّه منجز وعده، وناصر جنده..) (٢).

ثم عاد فركز على خطورة مغادرة أمير المؤمنين المدينة:

(ومكانك منهم مكان النظام من الخرز يجمعه ويمسكه، فإن انحل تفرق ما فيه وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبدًا.

والعرب اليوم وإن كانوا قليلًا فهي كثير عزيز بالإسلام) (٣).

ثم أوضح جوانب من الخطة لم تكن واضحة من قبل:

- (فأقم.
- واكتب إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم.
- ومن لم يحفل بمن هو أجمع وأجدُّ وأحدُّ من هؤلاء، فليأتهم الثلثان وليقم الثلث.

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٥٢٣/٢).

- واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم بما عندهم.

وجاء سعد ﷺ سادس الستة، والخبير الماهر بالفرس وحروبهم، فأيد الرأي بقوله:

(يا أمير المؤمنين، خَفِّض عليك فإنهم إنما جمعوا لنقمة) [١].

أمير المؤمنين يتنازل عن رأيه أمام إجماع مجلس الشورى:

وبدت مظاهر الرضا والارتياح على وجه أمير المؤمنين، وعرفوا أنه وافق على رأيهم قبل أن يتكلم والذي نال الإجماع عند التصويت الأخير.

(فَسُرَّ عمر بحسن رأيهم، وأعجبه ذلك منهم).

(فقال عمر:

- وأجل والله لئن شخصت من البلدة لتنتقضن علي الأرض من أطرافها وأكنافها.

- ولئن نظرَتْ إليّ الأعاجم لا يفارقن العرصة.

- وليمدنهم من لم يمدهم.

- وليقولن: هذا أصل العرب فإن اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب) [٢].

إن الإسلام الذي ربَّى هذا الجيل على الشورى هو الذي أنشأ أمة جديدة تنسى ذاتها أمام المبادئ والأشخاص، ولننتزع هذه الصورة من الجاهلية، ونقارن بينها وبين هذه الصورة العظيمة الوضيئة الجديدة للأمة.

وهذه الصورة المنتزعة هي صورة مالك بن عوف قائد هوازن في معركة حنين.

(فلما أجمع مالك المسير إلى رسول الله ﷺ حط مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصمة في شجار له [٣] يقاد به، فلما نزل قال: بأي وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال:

نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس ولا سهل دهِس.

ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، ويعار الشاء، وبكاء الصغير؟

قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم.

---

(١) تاريخ الطبري (٥٢٣/٢).

(٢) تاريخ الطبري (٥٢٤/٢).

(٣) شجار له: عُود الهودج. أو مركب أصغر منه مكشوف.

فقال: أين مالك؟ فقيل: هذا مالك. فدعي له فقال:

يا مالك إنك صرت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام.

ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ويعار الشاء وبكاء الصغير؟

قال: سُقْتُ مع الناس أبناءهم وأموالهم ونساءهم.

قال: ولم؟

قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم.

قال: فأنقض به ثم قال:

راعي ضأن والله، هل يرد المنهزم شيء؟! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحت في أهلك ومالك...

يا مالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى متمنَّع بلادهم وعليا قومهم، ثم الْقَ الصباة على متون الخيل، فإن كانت لك، لحق بك مَنْ وراءك، وإن كانت عليك ألفاك وقد أحرزت أهلك ومالك.

قال: والله لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر علمك.

والله لتطيعنّني يا معشر هوازن، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري. وكره أن يكون لدريد فيها ذِكْرٌ ورأي...

ثم قال مالك للناس: إذا أنتم رأيتم القوم فاكسروا بطون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد عليهم) [1].

هذه الصورة المنتزعة من الجاهلية تظهر مدى الاستبداد بالرأي للقائد، ورفضه أي رأي آخر مهما كان هذا الرأي معللًا وبينًا وناصعًا، فقد أوضح دريد خطأ خطة مالك وآثارها المدمرة ولو كانت الهزيمة، فكان جوابه:

(إنك قد كبرت وكبر علمك). بمعنى أنك قد خرفت وخرف عقلك، ولا يقبل مالك حرصًا على السيادة والسمعة لو انتصرت هوازن أن يقال:

لقد تم النصر؛ لأن مالك بن عوف أخذ برأي دريد بن الصمة، فتنقص شهرة مالك وترتفع شهرة دريد.

---

(١) تاريخ الطبري (١٦٦/٢، ١٦٧).

وعوضًا عن أن يعرض الرأي على المناقشة والحوار هدد بقتل نفسه إن قبلت هوازن بغير رأيه:

(والله لتطيعنني يا معشر هوازن، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري).

ونزل بهوازن من البلاء ما قاله دريد بالضبط، فقد راحت أموالهم غنيمة ونساؤهم سبايا للمسلمين.

ونرى هذا التطور الهائل في صياغة هذه الأمة، وأمير المؤمنين الذي تجب الطاعة له كيف عرض الرأي على الحوار، واستمع لكل الآراء فيه مدحًا أو قدحًا، ثم وصل من خلال الحوار إلى الرأي المعاكس لرأيه، وسقط رأيه، فأعلن تبني الرأي الذي أجمعت أكثرية أهل الشورى عليه، وأثنى على الرأي المعاكس.

وأمير المؤمنين ﷺ لا يرى أن هذا القبول تفضلٌ منه، بل هو واجب عليه أن يطيع أكثرية أهل الرأي.

وهو الذي صاغ النظرية الخالدة، وأعلنها على الناس قبيل القادسية من خلال فهمه للإسلام دين الشورى فقال:

(... وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم.

- فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس، وكانوا فيه تبعًا لهم.

- ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعًا لهم) (١).

وكان الأمر الذي استشارهم فيه هو الأمر نفسه الذي يستشيرهم فيه اليوم.

اضطر إليه عندما وصل الخطر ذروته، وقال بصريح العبارة:

(يا أيها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلًا، وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفتُ) (٢).

(١، ٢) تاريخ الطبري (٣٨١/٢).

بمعنى أنه استدعى للمشورة كل أولي الرأي أمامه ووراءه.

(وكان علي ﷺ خليفته على المدينة، وطلحة على مقدمته بالأعوص، فأحضرهما لذلك) [١].

اختيار القائد العام للمعركة:

ومع أن اختيار القواد والموظفين الكبار والمستشارين هو من اختصاص الخليفة لكنه مع ذلك لم يستأثر أو يستبد برأيه، وأشرك مجلس الشورى بالرأي، لعل هناك بعض الشخصيات قد نسيها أو غابت عنه؛ ففي الاستشارة السابقة قبيل القادسية كان عبد الرحمن بن عوف هو الذي رشح سعد بن أبي وقاص لذلك، ولعل عند أحد من أهل الشورى بعض الشخصيات المرشحة لذلك.

(... فأشيروا عليَّ برجل أولِّه ذلك الثغر غدًا.

قالوا: أنت أفضل رأيًا، وأحسن مقدرة.

قال: أشيروا عليَّ به، واجعلوه عراقيًا.

قالوا: يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق، وجندك قد وفدوا عليك ورأيتهم وكلمتهم.

قال: أما واللَّه لأولين لهم رجلًا ليكونن لأول الأسنة غدًا إذا لقيها.

فقيل: من يا أمير المؤمنين؟

قال: النعمان بن مقرن المزني.

فقالوا: هو لها).

التهيئة للمعركة:

(والنعمان يومئذ بالبصرة معه قواد من قواد أهل الكوفة أمدهم بهم عمر عند انتقاض الهرمزان، فافتتحوا رامهرمز وإيذج، وأعانوهم على تستر وجندي سابور والسوس، فكتب إليه عمر مع زر بن كليب، والمقترب الأسود بن ربيعة بالخبر:

وإني قد وليتك حربهم، فسر من وجهك ذلك حتى تأتي ماه، فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها، فإذا اجتمع لك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن تجمع إليه

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٨١).

من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصروا اللّٰه، وأكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا باللّٰه) [١].

لقد عُرِض اسم القائد العام على مجلس الشورى وأقروه على ذلك.

وانتهى دور السلطة التشريعية، وبدأ الآن دور السلطة التنفيذية - ورئيسها الخليفة الإسلامي العظيم - لوضع الخطط التنفيذية لتحويل القرار إلى واقع. **فكانت الخطوات المتسارعة كما يلي:**

١ - إعلام النعمان بن مقرن بأنه القائد العام للمعركة وللمشرق الإسلامي كله.

٢ - وضع أحوال الجبهة كاملًا بين يديه.

٣ - وضع تحركات العدو وتجمعاته وقواته كلها بين يديه.

٤ - تحديد المرحلة الأولى من الحرب ومكان تجمع الجيوش الإسلامية.

٥ - الاتجاه بعد تجمع القوى الإسلامية إلى العدو حيث الفيرزان قائد جيوش العدو في لحظة واحدة تحول القرار إلى تعليمات تنفيذية محددة.

وفي الوقت الذي توجه فيه الرسول إلى النعمان بن مقرن ﷺ **يُعْلِمُهُ** باختياره قائدًا للجيش، ويأمره بالتوجه إلى ماه، كان الرسول الثاني ماضيًا إلى والي الكوفة عبد اللّٰه ابن عبد اللّٰه بن عتبان، يأمره ببعث ثلثي جيش الكوفة إلى ماه.

واختار القائد لهذا الجيش، وكان حذيفة بن اليمان.

(وكتب - يعني عمر - إلى عبد اللّٰه بن عبد اللّٰه بن عتبان مع ربعي بن عامر:

أن استنفر من أهل الكوفة مع النعمان كذا وكذا، فإني قد كتبت إليه بالتوجه من الأهواز إلى ماه، فليوافوه بها، وليسر بهم إلى نهاوند، وقد أمَّرت عليهم حذيفة ابن اليمان، حتى ينتهي إلى النعمان بن مقرِّن، وقد كتبت إلى النعمان: إنْ حَدَثٌ حدث فعلى الناس حذيفة بن اليمان، فإن حدث حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن. وردَّ قريب بن ظفر ورد معه السائب بن الأقرع أمينًا، وقال: إن فتح اللّٰه عليهم فاقسم ما أفاء اللّٰه عليهم بينهم، ولا تخدعني، ولا ترفع إليَّ باطلًا، فإن نكب القوم، فلا تراني ولا أراك) [١].

---

(١) تاريخ الطبري (٥٢٤/٢).

فهذا يعني نهاية المسلمين من أكبر معركة فاصلة بعد القادسية.

إنه تحويل مِقوَد التاريخ ثانية إلى المشركين، وإنه رجوع عقارب الساعة إلى الوراء.

النفير من الكوفة إلى ماه:

(فقدما إلى الكوفة بكتاب عمر بالاستحثاث، وكان أسرع أهل الكوفة إلى ذلك الروادف؛ ليبلوا في الدين، وليدركوا حظًّا.

وخرج حذيفة بن اليمان بالناس ومعه نُعيم حتى قدموا على النعمان بالطرر، وجعلوا بمرج القلعة خيلًا عليها النسير.

وقد كتب عمر إلى سُلمى بن القين، وحرملة بن مريطة، وزر بن كليب، والمقترب الأسود بن ربيعة، وقواد فارس الذين كانوا بين فارس والأهواز:

أن اشغلوا فارس عن إخوانكم.

وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم.

وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمرِي.

وبعث مجاشع بن مسعود إلى الأهواز وقال له:

انصل منها على ماه.

فخرج حتى إذا كان بغضي شجر أمره النعمان أن يقيم مكانه.

فأقام بين غضي شجر، ومرج القلعة.

ونصل سُلمى وحرملة وزر والمقترب، فكانوا في تخوم فارس وأصبهان، فقطعوا بذلك عن أهل نهاوند أمداد فارس).

(وكان أسرع أهل الكوفة إلى ذلك الروادف؛ ليبلوا في الدين، وليدركوا حظًّا).

لقد تسلسل العطاء في الديوان أو الرواتب من خمسة آلاف إلى مائتين حسب قدم المسلم وبلائه. **وذلك على مراتب متتالية:**

المرتبة الأولى: أهل بدر على خمسة آلاف.

المرتبة الثانية: أهل الحديبية على أربعة آلاف.

المرتبة الثالثة: مسلمة الفتح حتى وفاة الصديق ثلاثة آلاف.

المرتبة الرابعة: أهل القادسية وأهل الشام ألفان.

المرتبة الخامسة: لمن بعد القادسية واليرموك ألف.

المرتبة السادسة: الروادف المثنى خمسمائة.

المرتبة السابعة: الروادف الثليث ثلاثمائة.

المرتبة الثامنة: الروادف الربيع مائتان وخمسون.

المرتبة التاسعة: نساء أهل بدر على خمسمائة.

المرتبة العاشرة: نساء من بعدهم إلى الحديبية أربعمائة.

المرتبة الحادية عشرة: نساء من بعد الحديبية إلى القادسية ثلاثمائة.

المرتبة الثانية عشرة: نساء أهل القادسية مائتان.

المرتبة الثالثة عشرة: سائر النساء على مائة وخمسين.

المرتبة الرابعة عشرة: الصبيان على مائة.

المرتبة الخامسة عشرة: لكل إنسان وعياله جريبتان في الشهر.

أما الاستثناءات التي خرجت على هذه الرواتب:

- العباس بن عبد المطلب: عم رسول الله ﷺ: خمسة وعشرون ألفًا. وقيل: اثنا عشر ألفًا.

- نساء رسول الله ﷺ: عشرة آلاف عشرة آلاف. وفضل عائشة بألفين لمحبة رسول الله ﷺ لها، ورفضت أن تأخذها.

- نساء رسول الله ﷺ ملك اليمين: أقل من ذلك. فرفض بقية النساء التمييز بينهن وقلن: ما كان رسول الله ﷺ يفضلنا عليهن في القسمة) [١].

ونلاحظ من هذا التسلسل أن الروادف الذين تتفاوت رواتبهم حسب المعارك بعد القادسية ما بين خمسمائة إلى مائتين.

فعندما جاء النفير إلى معركة تعدل القادسية أو تفوقها كانت فرصة سانحة للروادف لتحسين عطائهن، وليبلوا في الدين، وليدركوا حظًا من الدنيا).

---

(١) انظر تاريخ الطبري (٢/٤٥٢).

إنه الجيل الشاب الجديد الذي لم يتح له أن يشارك في المعارك الكبرى من قبل القادسية واليرموك.

حماية الجبهة الجنوبية:

وحيث إن الجيش الإسلامي سيمضي من (ماه) مكان التجمع إلى نهاوند في قلب فارس، وحيث إن يزدجرد قد استدعى القوات الاحتياطية كلها في مملكته، وبلغ جيش فارس مائة وخمسين ألفًا، بينما كان الجيش الإسلامي لا يتجاوز الثلاثين ألفًا، فكانت خطة أمير المؤمنين حماية مؤخرة الجيش من ناحية الأهواز؛ حتى لا يتابع منها المدد إلى فارس، وحتى لا ينقلب أهل القرى من الخلف، فيصبح المسلمون بين فكي كماشة.

كان على القيادات العربية التي تحكم الأهواز في ظل فارس ودخلت في دين اللَّه أن تقوم بحماية ظهر المسلمين من أن يؤتوا من خلفهم كما هو حال الرماة في أحد.

وكانت هذه القيادات خمسة من أبطال المسلمين هم: سُلمى بن القين، وحرملة ابن مريطة، وزر بن كليب، والمقترب الأسود بن ربيعة، والنسير، وكان النسير قائد الخيل في مرج القلعة، وكانت القيادة العليا في الحامية لمجاشع بن مسعود ﷺ، كما هي توجيهات عمر أمير المؤمنين، ومهمتهم:

(أن اشغلوا فارس عن إخوانكم، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمري).

إذن قد كان في الخلف ثلاث نقاط ارتكاز للحامية:

١ - مرج القلعة. وفيها النسير على خيل كثيف معه.

٢ - وأمام هذه النقطة مجاشع بن مسعود بين غضي شجر ومرج القلعة.

٣ - ولاة الأهواز وقادتها في الأهواز، وهم خبراء الأرض، وهم خلف مجاشع ابن مسعود ﷺ.

وكان الجيش الإسلامي تقريبًا خمس الجيش الفارسي.

استشارة الهرمزان قبل المعركة:

لقد كان الهرمزان قائد قوات العدو في فارس ثم أسر، واستسلم، ثم أسلم، فكان

من الطبيعي تمامًا أن يستفيد عمر ﷺ من أعظم خبراء العدو، والذي كان نائب كسرى وقائد الجيوش الفارسية قبل استسلامه بعد تستر.

(حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة قال: أخبرنا أبو عمران الجوني عن علقمة ابن عبد اللَّه المزني عن معقل بن يسار أن عمر بن الخطاب شاور الهرمزان في فارس وأصبهان وأذربيجان، فقال: أصبهان الرأس، وفارس وأذربيجان الجناحان، فإن قَطَعْتَ أحد الجناحين مال الرأس بالجناح الآخر، وإن قطعت الرأس وقع الجناحان. فابدأ بالرأس. وكان الرأس نهاوند من أصبهان) (١).

لا بد أن نفرق بين الإمبراطورية الإيرانية الساسانية وبين فارس؛ ففارس جزء من الإمبراطورية الإيرانية، لكن إيران تحوي فارس وأممًا أخرى، فأصبهان وأذربيجان من الإمبراطورية الإيرانية، والعرب كانوا جزءًا من الإمبراطورية الإيرانية، فالمدائن كانت عاصمة الدولة في الأرض العربية، والتجمع في نهاوند إما أن يفتح الانسياح في الأرض العربية إن كانت الدولة للفرس، أو الانسياح في إيران إن كانت الدولة للمسلمين، غير أن الإمبراطور هو من فارس والسلطة بيد فارس، ويستعين بالحكام الآخرين في إمبراطوريته.

المحادثات قبيل المعركة:

(فأرسل النعمان المغيرة بن شعبة إلى ملكهم وهو يقال له: ذو الحاجبين، فقطع إليهم نهرهم، فقيل لذي الحاجبين: إن رسول العرب ها هنا.

فشاور أصحابه فقال: ما ترون؟

أقعد له في بهجة الملك، وهيئة الملك، أو أقعد له في هيئة الحرب؟

قالوا: لا، اقعد له في بهجة الملك. فقعد على سريره، ووضع التاج على رأسه، وقعد أبناء الملوك سماطين عليهم القرطة وأساورة الذهب والديباج.

قال: فأذن للمغيرة، فأخذ بضبعيه رجلان، ومعه رمحه وسيفه، فجعل يطعن

---

(١) الحادثة رواتها جميعًا ثقات، وحرصنا على ذكر ذلك؛ لأن هناك رواية أخرى ضعيفة توحي بأن الهرمزان غَشَّ أمير المؤمنين في استشارته ونصحه أن يسير إلى أحد الجناحين للنيل من الهرمزان، والهرمزان قد حَسُنَ إسلامه، فلا داعي لمثل هذه الروايات التي تسقط أمام هذه الرواية الصحيحة.

برمحه في بسطهم يخرقها ليتطيروا، حتى قام بين يديه، قال: فجعل يكلمه، والترجمان يترجم بينهما:

إنكم معشر العرب أصابكم جوع وجهد فجئتم، فإن شئتم مِرْنَاكم [1] ورجعتم. فتكلم المغيرة بن شعبة، فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: إنا معشر العرب كنا أذلة يطؤنا الناس ولا نطؤهم، ونأكل الكلاب والجيفة، وإن اللَّه تعالى ابتعث منا نبيًّا في شرفٍ منا؛ أوسطنا حسبًا، وأصدقنا حديثًا. قال: فبعث النبي ﷺ بما بعثه به، فأخبرنا بأشياء وجدناها كما قال، وإنه وعدنا فيما وعدنا أنا سنملك ما هاهنا ونغلب عليه، وإني أرى هاهنا بزة وهيئة ما أرى مَنْ خلفي بتاركيها حتى يصيبوها.

قال: ثم قالت لي نفسي: لو جمعت جراميزك، فوثبتُ فقعدتُ مع العلج على سريره حتى يتطير.

قال: فوثبت وثبة، فإذا أنا معه على سريره، فجعلوا يطؤونني بأرجلهم، ويجرونني بأيديهم، فقلت: إنا لا نفعل هذا برسلكم، فإن كنت عجزتُ واستحمقت فلا تؤاخذوني فإن الرسل لا يُفعل بهم هذا) [2].

لقد كان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه هو السفير الأول للإسلام مع قادة الشرك جميعًا، وهو كبير المفاوضين، وهو الداعية الأول إلى اللَّه ورسوله في الإمبراطورية الفارسية منذ المدائن والقادسية واليوم قبيل نهاوند، ولأن النعمان بن مقرن رضي الله عنه قد شارك في مفاوضات القادسية ورأى عبقرية المغيرة هناك فاستدعاه مباشرة لهذه المهمة العاجلة. وهاهم الفرس والعرب يتساجلان معًا في الحرب النفسية؛ ليهزم أحد الطرفين الآخر نفسيًّا قبل أن يهزمه عسكريًّا وسياسيًّا.

ولنقف مع لقطات من هذه الحرب:

١ - فقد تشاور القوم ابتداء على الحالة التي يظهرون فيها أمامه:

هل يظهرون بثياب الحرب وأنهم يتحدونهم وغير عابئين بهم؟

أم يظهرون في ثياب الأبهة والملك أمام هذا الأعرابي، فيخطفون بصره ويسلبون عقله، ويمضي مرعوبًا خائفًا يدعو قومه للاستسلام؟

---

(١) مِرناكم: أي أعطيناكم الميرة وهي الزاد.

(٢) المصنف لابن أبي شيبة (٢٨٩/١٨، ٢٩٠) وهو تتمة الحديث الصحيح السابق.

ورجح عندهم الرأي الثاني.

(فقعد على سريره، ووضع التاج على رأسه، وقعد أبناء الملوك سماطين عليهم القرطة وأساورة الذهب والديباج).

هم لا يتعظون، ورغم كل الحروب التي خاضوها لم يتعلموا أن العرب الذين يقاتلونهم اليوم غير العرب الذين كانوا يقاتلونهم بالأمس، ويوكلون بهم قرى الضواحي، وإلا لماذا هُزموا أمامهم؟ وَلِمَ سقطت المدائن عاصمتهم؟ ولماذا خسر كسرى إيوانه وتاجه وبساطه وسواريه وصار بين يدي هؤلاء الأعراب؟

(أعرابيٌّ من بني مدلج يلبس سواري كسرى).

ولماذا هزم الهرمزان واستسلم؟! إن عقلهم لم يتمكن حتى هذه اللحظة من فهم سر هذا التغيير، وعادوا إلى غطرستهم، وكبريائهم، واعتدادهم بالأبهة والمظاهر.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: ٧٩].

٢ - وكان المنظر الذي أبهتهم وروعهم:

ها هو المغيرة يمسك به رجلان من حرس القيادة، ومعه سيفه ورمحه، وعوضًا عن أن يبهر بهذه المناظر الفاتنة راح (يطعن برمحه في بُسُطِهم يخرقها ليتطيروا، حتى قام بين يديه).

إذن بدأ المغيرة حربه النفسية مباشرة، وهدفه أن يوقع الرعب في قلوبهم ويتشاءموا من تمزيق فُرشهم الغالية الوثيرة وتخريقها، وإن هؤلاء وحوش لا يعرفون الحضارة.

المغيرة نفسه اليوم غير المغيرة من قبل؛ أليس هو الذي احترق قلبه ليلقاه المقوقس في مصر ويحظى بهدية منه، وهو الذي قتل كل رفاقه، وأخذ هداياهم له انتقامًا منهم لتصغيرهم لشأنه عند المقوقس.

المغيرة اليوم يريد أن يحطم عروش الطغاة، لا أن تتلمظ أشداقه على هدية منهم.

وفي ذهنه مخطط يريد تنفيذه في اللحظة المناسبة.

٣ - وترك المغيرة الكلام للقائد الفارسي حتى يفهم ما عنده.

إنها العروض نفسها من يزدجرد ومن رستم بما يدل على أن هذا القائد وأمثاله لم يفقهوا التاريخ.

(فجعل يكلمه والترجمان يترجم بينهما:

إنكم معشر العرب أصابكم جوع وجهد فجئتم، فإن شئتم مِرناكم ورجعتم).

فهو ينظر بازدراء واحتقار إلى هؤلاء العرب، ولا عجب، فقد أمضت القيادات العربية تتفاخر بأنها زارت كسرى في إيوانه، وزارت قيصر، وزارت النجاشي، وعندما يكون بينهم قتال فإنهم يستنجدون بالفرس أو الروم على بعضهم.

أَوَ لم يتحرك سيف بن ذي يزن من اليمن إلى الفرس، واستدعى جيشًا من المجرمين عند الفرس واحتل بهم اليمن، وأخرج الحبشة منها؟

أَوَ لم يمض امرؤ القيس إلى قيصر يستنجد به للثأر من قتلة أبيه؟

أَوَ ليس بنو لخم وبنو غسان موظفين عند الفرس والروم؟

لقد كان هذا قبل أن يأتي منقذ الدنيا الذي قلب الموازين، وغير الاهتمامات، وجعل السيادة للعقيدة والعقيدة فقط، ولم نتكلم وسيد الدبلوماسيين العرب يحمل عنا هذا الكلام:

٤ - قال ﵁ بعد أن حمد اللّٰه وأثنى عليه:

(إنا معشر العرب كنا أذلة يطؤنا الناس ولا نطؤهم، ونأكل الكلاب والجيفة).

نعم، لكن الوجود تغير، والتاريخ تغير، والعالم تغير بنور محمد ﷺ الذي أخرج هذه الأمة من الظلمات إلى النور:

(وإن اللّٰه ابتعث منا نبيًا في شرف منا، أوسطنا حسبًا، وأصدقنا حديثًا).

فهو ليس نكرة، وليس دجالًا من الدجاجلة، بل هو أشرف العرب، وأصدق العرب، فأخبرنا بأشياء وجدناها كما قال.

٥ - (وإنه وعدنا فيما وعدنا أنا سنملك ما ها هنا ونَغْلِب عليه).

فالمغيرة يصك أذن القائد الفارسي أن جيش محمد هذا منتصر، وسيأخذ أرض الفرس كلها كما وعد بذلك نبي اللّٰه الصادق المصدوق ﷺ.

فأين بقيت الحرب النفسية والإعلامية عند هذا الفارسي؟

ولم يكتف المغيرة بكاسحة الألغام هذه، إنما أتبعها بكاسحة ثانية:

(وإني أرى ها هنا بزة وهيئة، ما أرى مَنْ خلفي بتاركيها حتى يأخذها).

وبذلك أنهى جولة المفاوضات، ولم يعد يُجدي كل تحديد، والحرب هي الجواب النهائي.

٦ - لكن المفاجأة الكبرى التي التمعت في ذهنه خلال لحظات لا بد من الحسم فيها، فلا تحتمل التأجيل.

(ثم قالت لي نفسي: لو جمعت جراميزك، فوثبتُ فقعدتُ مع العلج على سريره حتى يتطير.

قال: فو ثبت وثبة، فإذا أنا معه على سريره فجعلوا يطؤونني بأرجلهم ويجرونني بأيديهم، فقلت: إنا لا نفعل هذا برسلكم، فإن كنت عجزتُ واستحمقت فلا تؤاخذوني فإن الرسل لا يفعل بهم هذا).

إن المرء ليعجب حقًّا من الخبرة العسكرية لدى عمر ﷺ وهو لم ير فارس ولم يدخلها، ويعجب من قدرته على فهم الرجال والخبرة بطاقاتهم وبعضهم لم يلتق بهم إلا لمامًا، فالكتاب هذا كله عجيبة من الأعاجيب، لكن الأعجب من هذا كله هو تحرك الأمة كلها في الأرض بكتاب من الخليفة، وكأنما الناس مذللون مثل الأرض.

١ - أن استنفر من أهل الكوفة مع النعمان كذا وكذا.

نحن لا ندري العدد هنا، لكننا نقدر أن عمر ﷺ أخذ بمشورة علي، وطلب أن يتحرك ثلثا أهل الكوفة للمسير إلى ماه.

ونقول أهل الكوفة، ولا نقول الجيش الإسلامي في الكوفة؛ فكل أهل الكوفة جيش الإسلام، مائة ألف مقاتل يتحركون إلى أي مكان في الأرض، وكل فرد من أهلها يعرف موقعه في الجيش، وقائده، ونقطة انطلاقه، وساعة تحركه، فعندما يأتي النفير العام سرعان ما ينضم إلى كتيبته، بل إلى سريته، ويأخذ موقعه في الجيش.

٢ - كيف كان وضع هذا التكليف على نفسية القائد عندما وصلته الرسالة؟

نبحث عن هذه النفسية في رواية أخرى لنتعرف على هذه النوعية، وهذا المعدن العظيم:

(وروي عن أبي وائل في سبب توجيه عمر النعمان بن مقرن إلى نهاوند ما حدثني به محمد بن عبد اللّٰه بن صفوان الثقفي قال: حدثنا أمية بن خالد، قال: حدثنا أبو عوانة عن حصين بن عبد الرحمن قال: قال أبو وائل [(١)]:

---

(١) رواة الخبر ثقات إلا أمية بن خالد: صدوق، ومحمد بن عبد اللّٰه بن صفوان مستور، وقد ذكره صاحب (صحيح الطبري) في قسم الصحيح.

كان النعمان بن مقرِّن على كسكر، فكتب إلى عمر:

مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب وإلى جنبه مومسة تلون له وتعطر، فأنشدك اللَّه لما عزلتني عن كسكر، وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين) [1].

لقد خلق النعمان ﷺ مجاهدًا بالفطرة، ويرى الانشغال بالولاية والجباية يعادل عنده النظر إلى المومسة المزينة المعطرة مِن الشاب التقي المؤمن، وهو يستحلف عمر ويناشده اللَّه أن يعزله عن الولاية، ويلحقه جنديًّا - لا قائدًا - في ثغر من ثغور المسلمين. وهذا الكتاب الذي ورد إلى أمير المؤمنين منه أعطاه أعلى شهادة عنده، فَقَلْبُ النعمان صائم عن الدنيا ولو كان الإمام العادل، وصائم عن السمعة والرياء؛ فهو يتمنى أن يُقْبَلَ مقاتلًا في ثغر من ثغور المسلمين مع أنه خاض كثيرًا من المعارك وأثبت كفاءته وحسن قيادته؛ حيث شارك قائد جبهة في رامهرمز وإيذج وتستر وجنديْ سابور.

٣ - وكان مما كتبه له أنه إن استشهد فليكن خليفته حذيفة بن اليمان، فإن استشهد فنعيم بن مقرِّن، أما نعيم فأخو النعمان، لكن حذيفة مقدم عليه، فحذيفة من أصفياء أصحاب محمد ﷺ وهو صاحب سر رسول اللَّه ﷺ ارتفع إلى ذروة أن يسأله عمر ﷺ: هل ذكرني رسول اللَّه ﷺ بين المنافقين؟

ويجيبه: لا، ولا أزكي أحدًا بعدك. أما نعيم فكما قال عبد اللَّه بن مسعود يصف بني مقرن جميعًا وهم تسعة رجال أبطال:

« إن للإيمان بيوتًا، وإن للنفاق بيوتًا، وإن بني مقرن من بيوت الإيمان ».

٤ - وحرص أمير المؤمنين على وضع الرجل المناسب في المكان المناسب نشهده بأن يرد الغنائم والأخماس بعد النصر مع قريب بن ظفر والسائب بن الأقرع؛ فخبرتهما العظيمة وأمانتهما العظيمة يحتاج المسلمون إليها في هذه الظروف.

ورُد قريب بن ظفر، ورد معه السائب بن الأقرع أمينًا.

فأن نشغِّل محاسبًا أمينًا خبيرًا في وزارة المالية أفضل بكثير من أن نضع عشرين بطلًا فارسًا في هذا الموقع.

وهو الأمر نفسه الذي رأيناه من قبل؛ فالنعمان بن مقرن خُلق محاربًا غازيًا، ولم يُخلَقْ إداريًّا واليًا.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٢٤).

حتى لنشهد النعمان نفسه في رواية ثالثة تبرز شخصيته الجهادية القيادية.

(فدخل المسجد - أي أمير المؤمنين - فإذا هو بالنعمان بن مقرِّن يصلي.

فقعد إلى جنبه، فلما قضى صلاته قال: ما أراني إلا مستعملك.

قال: أما جابيًا فلا، ولكن غازيًا.

قال: فإنك غازٍ.

فوجهه وكتب إلى أهل الكوفة أن يمدوه...) [١].

٥ - لكن صلاحيات القائد لا تتعارض مع الإشراف على قسمة الغنائم على المحاربين.

(وإن فتح اللَّه عليهم فاقسم ما أفاء اللَّه عليهم بينهم).

فهذه لا تحتمل التأخير، ولا بد للمقاتل الذي خاض الأهوال، وتعرض في الغمرات للموت أن ينال ثمرة جهده، فأربعة أقسام توزع على المجاهدين، وخُمس هو الذي يرفع إلى بيت المال.

٦ - ويحذر أمير المؤمنين عمر قائده النعمان من اثنتين، فلا يمكن أن يغفر للقائد أن يوهمه ويضعه في غير الحقيقة، لا يحق له أن يخدعه، وهذا الخداع إنما يأتي برفع الباطل وإخفاء الحق، ومن أجل هذا قال له: (لا تخدعني، ولا ترفع إليَّ باطلًا). ورفع الباطل مثلًا أن يظهر له النصر وهو قد هزم؛ فالعقوبة صارمة على ذلك، وليكن الحق أبلج.

٧ - (فإن نُكِبَ القومُ فلا تراني ولا أراك).

فعمر ﷺ يرى أن الهزيمة لو وقعت لانفرط نظام الإسلام وعقده، وأي جدوى من اللقاء بعد أن تُحتل أرض المسلمين؟ ولا شك أن هذه مبالغة؛ فسيبقى أمير المؤمنين يقود الأمة حتى يلقى وجه اللَّه، لكنه يريد أن يعلِّم النعمان خطورة الموقف.

والنعمان يعلمه إنما هو التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة (٢٨٩/١٨).

الاستفادة من خبرة وعبقرية جنرالات الحرب:

(حدثنا ابن عيينة عن عبد الملك بن عمير قال:

كتب عمر إلى النعمان بن مقرن: استشر واستعن في حربك بطليحة وعمرو ابن معد يكرب ولا تولهما من الأمر شيئًا؛ فإن كل صانع هو أعلم بصناعته) (١).

(ولما قدم أهل الكوفة على النعمان بالطزر (٢) جاءه كتاب عمر مع قريب:

إن معك حد العرب ورجالهم في الجاهلية، فأدخلهم دون من هو من دونهم في العلم والحرب واستعن بهم، واشرب برأيهم، وسل طليحة وعَمْرًا وعَمْرًا ولا تولهم شيئًا...) (٣).

(حدثنا غندر عن شعبة قال: سمعت أبا إسحاق يقول:

سمعت أبا مالك وأبا مزينة يحدثان: أن كتاب عمر أتاهم مع النعمان بن مقرِّن بنهاوند: أما بعد، فصلوا الصلاة لوقتها، وإذا لقيتم العدو فلا تفرُّوا، وإذا ظفرتم فلا تغلوا) (٤).

لقد حرص أمير المؤمنين ﷺ على أمرين في التعامل مع هؤلاء الرجال العظام؛ فمن حيث القيادة فلا مكان لهم فيها، وكما قال ﷺ في الروايتين عن كتاب عمر ﷺ:

- فلا تولهم من الأمر شيئًا.
- واجعلهم دون من هو دونهم في العلم والحرب.

فأي جندي في سلم الرتب العسكرية هو أعلى منهم.

وحرص ﷺ على الاستفادة من رأيهم وخبرتهم كما في الروايتين:

- واستعن في حربك بطليحة وعمرو بن معد يكرب.. فإن كل صانع هو أعلم بصناعته.

إن معك حد العرب ورجالهم في الجاهلية... واستعن بهم، واشرب برأيهم، وسل طليحة وعَمْرًا وعمرًا.

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة (٢٩٥/١٨) ورجال السند ثقات.

(٢) الطزر: اسم مكان، وهي مدينة في مرج القلعة بينها وبين سابلة خراسان مرحلة وعن يمينها ماسبذان.

(٣) تاريخ الطبري (٥٢٥/٢) برواية سيف.

(٤) المصنف لابن أبي شيبة (٢٩٤/١٨) ورجاله رجال الصحيح.

أما كتابه إلى الجند وإلى كل فرد في الجيش الإسلامي فكان ثلاث وصايا:

- أما بعد فصلوا الصلاة لوقتها.
- وإذا لقيتم العدو فلا تفروا.
- وإذا ظفرتم فلا تغلوا.

وعمر ﷺ يعلم أنه ينتصر بهذا الجيش وهؤلاء الجنود، فلا بد أن يربطهم بالله، ويشعرهم أنه معهم في كل خطوة قبل الحرب وفي الحرب وبعد الحرب، فما أهنأ الجيش بهذا الخليفة! وما أهنأ الخليفة بهذا الجيش!

رجال المهمات الصعبة:

(فبعث من الطزر طليحة وعَمْرًا وعَمْرًا طليعة ليأتوه بالخبر، وتقدم إليهم ألا يَغُلوا، فخرج طليحة بن خويلد (الأسدي) وعمرو بن أبي سُلمى العنزي، وعمرو ابن معد يكرب الزبيدي، فلما ساروا يومًا إلى الليل رجع عمرو بن أبي سلمى، فقالوا: ما رجعك؟

قال: كنت في أرض العجم، وقَتَلَتْ أرضٌ جاهلها، وقتل أرضًا عالِمُها.

ومضى طليحة وعمرو حتى إذا كان من آخر الليل رجع عمرو، فقالوا: ما رجعك؟

قال: سرنا يومًا وليلة، ولم نر شيئًا، وخفت أن يؤخذ علينا الطريق.

ونفذ طليحة ولم يحفل بهما، فقال الناس: ارتد الثانية.

ومضى طليحة حتى انتهى إلى نهاوند، وبين الطزر ونهاوند بضعة وعشرون فرسخًا، فعلم علم القوم، واطلع على الأخبار، ثم رجع حتى إذا انتهى إلى الجمهور كبَّر الناس، فقال: ما شأن الناس؟

فأخبروه بالذي خافوا عليه فقال:

والله لو لم يكن دين إلا العربية ما كنتُ لأُجزر العُجم الطماطم هذه العرب العاربة، فأتى النعمان فدخل عليه، فأخبروه الخبر، وأعلمه أنه ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد، فنادى النعمان عند ذلك بالرحيل، فأمرهم بالتعبئة، وبعث إلى مجاشع بن مسعود أن يسوق الناس، وسار النعمان على تعبيته، وعلى مقدمته نعيم ابن مقرِّن، وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرِّن، وعلى المجردة القعقاع

ابن عمرو وعلى الساقة مجاشع، وقد توافى إليه أمداد المدينة فيهم المغيرة وعبد اللَّه، فانتهوا إلى الإسبيذهان والقوم وقوف دون أي خرد على تعبئتهم، وأميرهم الفيرزان وعلى مجنبتيه الزردق وبهمن جاذويه الذي جعل مكان ذي الحاجب.

وقد توافى إليه بنهاوند كل من غاب عن القادسية والأيام من أهل الثغور وأمرائها وأعلام من أعلامهم ليسوا بدون من شهد الأيام والقوادس، وعلى خيولهم أنوشق، فلما رآهم النعمان كبَّر وكبَّر الناس معه، فتزلزلت الأعاجم.

فأمر النعمان وهو واقف بحط الأثقال، وبضرب الفسطاط، فضرب وهو واقف، فابتدره أشراف أهل الكوفة وأعيانهم، فسبق إليه يومئذ عدة من أشراف أهل الكوفة، تسابقوا، فبنوا له فسطاطًا سابقوا أكفاءهم فسبقوهم، وهم أربعة عشر منهم حذيفة ابن اليمان وعقبة بن عمرو والمغيرة بن شعبة وبشير بن الخصاصية وحنظلة الكاتب ابن الربيع وابن الهوثر وعامر بن مطر وجرير بن عبد اللَّه الحميري والأقرع بن عبد اللَّه الحميري. وجرير بن عبد اللَّه البجلي والأشعث بن قيس الكندي وسعيد بن قيس الهمذاني ووائل بن حُجر، فلم ير بناء فسطاط بالعراق كهؤلاء) [1].

وحيث كانت توجيهات أمير المؤمنين بالاستفادة من خبرة هؤلاء الثلاثة العظام عمرو ابن معد يكرب الزبيدي، وعمرو بن أبي سُلمى العنزي، وطليحة بن خويلد الأسدي، فليكن هؤلاء الثلاثة جيشًا يقوم بدور الاستطلاع أمام الجيش الإسلامي، ويخوض غمار أرض فارس لمعرفة أخبار العدو.

(فبعث من الطزر طليحة وعَمْرًا وعَمْرًا).

لكن البطولة تفاوتت حتى بين يدي هؤلاء الثلاثة.

(فلما ساروا يومًا إلى الليل رجع عمرو بن أبي سُلمى، فقالوا: ما رجعك؟ قال: كنت في أرض العجم، وقتلت أرض جاهلها، وقتل أرضًا عالمها.

حتى إذا كان من آخر الليل رجع عمرو، فقالوا: ما رجعك؟ قال: سرنا يومًا وليلة ولم نر شيئًا، وخفت أن يؤخذ علينا الطريق).

لقد قام الأول بالاستطلاع نهارًا وهزيعًا من الليل، فوجد أنه يمشي في أرض

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٢٥، ٥٢٦).

لا يعرف عنها شيئًا، وأن لا جدوى من الاستمرار في هذه المجاهيل، فعاد إلى الجيش قبل أن يضيع عن الطريق، ويضيع عن الجيش.

وتابع عمرو فارس زبيد الاستطلاع إلى آخر الليل، فلم يجد بشرًا ولا حشودًا ولا عدوًّا، وعاد بعد فرسخين إلى جيشه، وخاف أن يضيع عن الطريق في هذه المتاهات.

أما البطل المغوار الثالث فلم ينثن ولم يتراجع، ولن يعود إلا بخبر عن العدو أيًّا كان هذا الخبر، وتابع السير في مجاهيل الأرض وطرقها الملتوية بلا دليل ولا مرشد، لكنه ابن الصحراء، فهو يأخذ طريقه من النجم ومن الشمس: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦].

ومر عليه الليالي ذوات العدد، فلم تخر عزيمته، ولم تهن قوته، وأي معنى يتحقق وأي بطولة يؤديها إذا لم يكتشف مكان العدو.

(ونفذ طليحة ولم يحفل بهما).

حتى بدأت الريبة والشك يتسللان إلى قلوب المسلمين.

أليس طليحة هو نفسه الذي تنبأ من قبل وادعى النبوة؟

ترى هل وجدها فرصة سانحة لينضم إلى العدو ويستعيد ثأره من هزيمة المسلمين له؟ ففي عالم البشر يصعب التصديق أن طُلعة يغيب الأيام والليالي ذات العدد ولا يعود إلى قيادته وجيشه، وهذان البطلان عمرو وعمرو قد عادا حين وجدا أنهما يضربان في التيه، فبالإمكان أن يتقدم الجيش مسيرة يوم وليلة، ثم يعود الاستطلاع بعدها مرحلة ثانية.

(ومضى طليحة حتى انتهى إلى نهاوند وبين نهاوند والطزر بضعة وعشرون فرسخًا).

ونعيد إلى الذاكرة ثانية بطولة طليحة عندما تحمل المسؤولية، وقد كلف هو وعمرو ابن معد يكرب بالمهمة الاستطلاعية للعدو.

(.. فأخرج سعد طليحة في خمسة، وعمرو بن معد يكرب في خمسة.. فلم يسيروا إلا فرسخًا وبعض آخر حتى رأوا مسالحهم وسرحهم على الطفوف قد ملؤوها، فقال بعضهم: ارجعوا إلى أميركم فإنه سرَّحكم وهو يرى أن القوم بالنجف. فأخبروه الخبر، وقال بعضهم: ارجعوا لا ينذر بكم عدوكم. فقال عمرو لأصحابه: صدقتم.

وقال طليحة لأصحابه: كذبتم، ما بعثتم لتُخبروا عن السرح، وما بعثتم إلا للخُبْرِ.

قالوا: فما تريد أن تفعل؟ قال: أريد أن أخاطر القوم أو أهلك.

فقالوا: أنت رجل في نفسك غدر، ولن تفلح بعد قتل عكاشة بن محصن، فارجع بنا.

فأبى... ومضى طليحة وعارض المياه على الطفوف، حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه وينظر ويتوسم، فلما أدبر الليل خرج وقد أتى أفضل من توسم من ناحية العسكر، فإذا فرس له لم يُرَ في خيل القوم مثله، وفسطاط أبيض لم يُرَ مثله، فانتضى سيفه، وقطع مقود الفرس، ثم ضمه إلى مقود فرسه، ثم حرك فرسه، فخرج يعدو به، ونَذَر به الناس والرَّجْل، فتنادوا وركبوا الصعبة والذلول وعجل بعضهم قبل أن يسرِّج، فخرجوا في طلبه، فأصبح وقد لحقه فارس من الجند، فلما غشيه وبوأ له الرمح عدل طليحة فرسه، فندر الفارسيُّ أمامه، فكرَّ عليه طليحة فقصم ظهره بالرمح، ثم لحق به آخر، ففعل به مثل ذلك، ثم لحق به آخر وقد رأى مصرع صاحبيه - وهما ابنا عمه - فازداد حنقًا، فلما لحق بطليحة وبوأ له الرمح عدل طليحة فرسه فندر الفارسي أمامه، وكرَّ عليه طليحة ودعاه إلى الإسار، فعرف الفارسي أنه قاتله فاستأسر، وأمره طليحة أن يركض بين يديه ففعل، ولحق الناس، فرأوا فارسي الجند قد قتلا، وقد أسر الثالث، وقد شارف طليحة عسكرهم، فأحجموا عنه ونكسوا، وأقبل طليحة حتى غشي العسكر وهم على تعبية، وجوَّزوه إلى سعد (ابن أبي وقاص). فلما انتهى إليه قال: ويحك ما وراءك؟!

قال: دخلت عساكرهم فجستها منذ الليلة، وقد أخذت أفضلهم توسمًا، وما أدري أأصبت أم أخطأت؟ وها هو ذا فاستخبره.

فأقيم الترجمان بين سعد وبين الفارسي فقال له الفارسي:

أتؤمنني على دمي إن صدقتك؟

قال: نعم. الصدق في الحرب أحب إلينا من الكذب.

قال: أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قبلي.

باشرت الحروب وغَشيتُها، وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى، ولم أر ولم أسمع بمثل هذا.

إن رجلًا قطع عسكرين لا يجترئ عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفًا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلى ما هو دون، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند، وهتك أطناب بيته فأنذره، فأنذرنا به، فطلبناه، فأدركه الأول وهو فارس الناس يعدل ألف فارس فقتله، فأدركه الثاني وهو نظيره فقتله، ثم أدركته وما أظن أني خلفت بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين وهما ابنا عمي فاستأسرت.

ثم أخبره عن أهل فارس بأن الجند عشرون ومائة ألف وأن الأتباع مثلهم خُدامٌ لهم، وأسلم الرجل وسماه سعد مسلمًا وعاد إلى طليحة وقال:

لا والله لا تهزمون ما دمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح والمؤاساة، لا حاجة لي في صحبة فارس. فكان من أهل البلاء يومئذ) (١).

ونعود ثانية إلى طليحة، وقد عاد من مهمته بعد أن قطع بالذهاب والإياب خمسين فرسخًا ونيف.

(فعلم علم القوم، واطلع على الأخبار، ثم رجع حتى انتهى إلى الجمهور، وكبَّر الناس فقال: ما شأن الناس؟ فأخبروه بالذي خافوا عليه فقال:

(والله لو لم يكن دين إلا العربية ما كنت لأُجزر العُجم الطماطم هذه العرب العاربة). وفي الوقوف عند هذا القول حول الأخلاق العربية التي كانت في الجاهلية وتأصلت في الإسلام نعود إلى كلمة الفاروق ﷺ وهو يطلب من قائده النعمان أن يرعى هذه الأصالة والشجاعة والشهامة حين قال له في رسالته:

(إن معك حد العرب ورجالهم في الجاهلية).

نحن بحاجة إلى نظرية جديدة قوامها: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

فهذه الأمة بما تملك من طاقات وعبقرية وأخلاق هي الأمة المؤهلة لحمل رسالة الله تعالى إلى خلقه.

ولا بد أن نوفق بينها وبين النظرية الأخرى التي تقول أن العرب كانت أقل أمة فأعزها الله بالإسلام، فلا تعارض بين النظريتين؛ لأن النظرية الثالثة هي التي توفق بينهم حديث رسول الله ﷺ: « **الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا** » (٢).

---

(١) تاريخ الطبري (٣٩٩/٢). (٢) صحيح مسلم، ح (٢٦٣٨)

فلقد جاءت أعظم رسالة لأعظم أمة مع أعظم مربٍّ، فكانت هذه الولادة الجديدة للأمة حين آمنت بهذا الدين، وتربت على يد هذا النبي، وحملت هذا الكتاب الذي جعل اللَّه فيه ذكر هذه الأمة.

فطليحة الأسدي بطل شجاع مغوار عبقري من عباقرة الحرب في التاريخ حين نقسم تاريخه إلى قسمين:

- **طليحة الجاهلي**: مرتد متنبئ قتل خير خيالة المسلمين عكاشة بن محصن، وله حروب وثارات قبل الإسلام مع قبائل أخرى، فلو قتل في معركة بزاخة لانتهى كما انتهى الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب.

- **أما طليحة المسلم** الذي نالته رحمة اللَّه بعد فراره من المسلمين وانضم جنديًّا إلى الجيش الإسلامي، كان رجل المهمات الصعبة في أعظم المعارك ضد أكبر خبراء البشرية حربًا من الفرس، وسمعنا تلك الشهادة الخالدة من أعظم قادة الفرس عن بطولته.

(إن رجلًا قطع عسكرين لا يجترئ عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفًا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلى ما هو دون، ولم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيته.. فطلبناه فأدركه الأول وهو فارس الناس يعدل ألف فارس فقتله فأدركه الثاني وهو نظيره فقتله، ثم أدركتُه، وما أظن أني خلفت بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين، وهما ابنا عمي فاستأسرت).

فالإسلام هو المحوِّل العجيب لهذه الطاقات من الشر إلى الخير ومن الضلال إلى الهدى ومن الظلمات إلى النور. وهنا تتعانق العروبة مع الإسلام، وهنا يأتي جواب طليحة العظيم أنه لو لم يكن الإسلام قد جاء فعروبته تأبى عليه أن يخون أمته ويجعل العرب طعمة للفرس.

(واللَّه لو لم يكن دين إلا العربية ما كنت لأجزر العُجم الطماطم هذه العرب العاربة).

وحقق مهمته بنجاح فائق.

(فدخل عليه، فأخبروه الخبر، وأعلمه أن ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد).

إلى نهاوند:

وكانت التعبئة العظيمة نصف قياداتها من بني مقرِّن، فمع القائد العام النعمان ابن مقرن، وقائد الميسرة سويد بن مقرن، وقائد المقدمة نعيم بن مقرن، وشخصيات العرب العظمى تمثل النصف الثاني، فحذيفة بن اليمان ﷺ قائد الميمنة - وهو صاحب رسول الله ﷺ، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو التميمي والذي أخذ وسام الصديق: « **لا يهزم جيش فيه القعقاع** ». ومجاشع بن مسعود السلمي على الساقة.

بناة الحضارة:

الصحابة قادة الأمة، هم الذين يعلِّمون البشرية قيادة الحرب كما يعلِّمونها قيادة السلام، ويعلِّمونها عظمة الطاعة والانضباط للقائد العام ولو كان دونهم.

وها هم يعلمون الجيش الإسلامي كله عظمة الطاعة وعظمة البناء.

فأمر النعمان وهو واقف بحط الأثقال، وبضرب الفسطاط، فضرب وهو واقف فابتدره أشراف أهل الكوفة وأعيانهم، فسبق إليه يومئذ عدة من أشراف أهل الكوفة تسابقوا فبنوا له فسطاطًا سابقوا أكفاءهم فسبقوهم، **وهم أربعة عشر؛ منهم:**

١ - حذيفة بن اليمان: صاحب سر رسول الله ﷺ، ونائب القائد العام.

٢ - وعقبة بن عمرو: صحابي أنصاري، حضر العقبة، وشهد أحدًا وما بعدها.

٣ - والمغيرة بن شعبة: سياف رسول الله ﷺ، وممن بايعوا بيعة الرضوان.

٤ - وبشير بن الخصاصية: صحابي، عداده من أهل الكوفة، وهو مِنْ أسلم (القبيلة).

٥ - وحنظلة بن الربيع: كاتب رسول الله ﷺ.

٦ - وابن الهوبر.

٧ - وربعي بن عامر: صحابي؛ لأنهم لا يؤمِّرون إلا الصحابة كما قال الطبري.

٨ - وعامر بن مطر: يقال: له صحبة؛ لروايته عند الطبراني: تَسَحَّرْنَا مع النبي ﷺ.

٩ - وجرير بن عبد اللَّه الحميري: قال ابن عساكر: له صحبة. كان الرسول في اليرموك..

١٠ - والأقرع بن عبد اللَّه الحميري: بعثه رسول اللَّه ﷺ إلى ذي مران وطائفة من اليمن.

١١ - وجرير بن عبد اللَّه البجلي. قال: ما حجبني رسول اللَّه منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم.

١٢ - والأشعث بن قيس الكندي: وفد على النبي ﷺ في سبعين راكبًا.

١٣ - وسعيد بن قيس الهمداني.

١٤ - ووائل بن حجر: وفد على رسول اللَّه ﷺ واستقطعه أرضًا فأقطعه.

فلم يُر بناء فسطاط في العراق أجمل منه.

قادة الكفر:

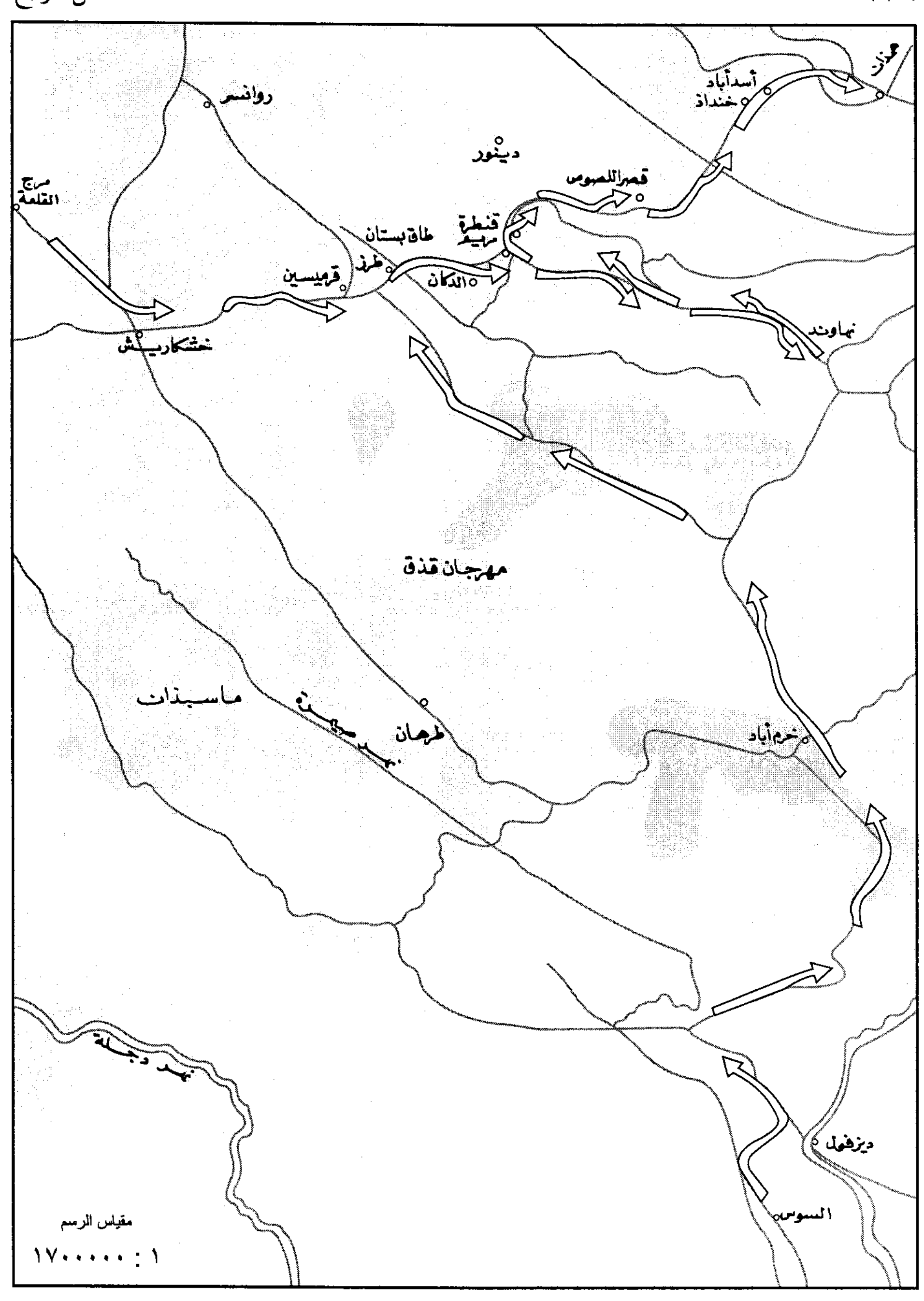
وكما جمع العرب المسلمون أعظم طاقاتهم وقياداتهم فقد جمع الفرس أعظم طاقاتهم وقياداتهم.

(والقوم وقوف دون أي خرد [١] على تعبئتهم، وأميرهم الفيرزان، وعلى مجنبتيه (الزردق) و (بهمن جاذويه) الذي جُعل مكان ذي الحاجب، وقد توافى إليهم بنهاوند كل من غاب عن القادسية والأيام من أهلِ الثغور وأمرائها، وأعلام من أعلامهم ليسوا بدون من شهد القوادس والأيام).

لقد برز الإيمان كله للشرك كله.

---

(١) خرد: أي استحياء، يعني أنهم وقفوا ظاهرين للعيان.



الزحف إلى نهاوند وهمذان

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٩٢) خريطة (٥٣))

الحرب

المرحلة الأولى: المفاجأة الكبرى:

(وأنشب النعمان بعدما حط الأثقال القتال، فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس، والحرب بينهم في ذلك سجال في سبع سنين من إمارة عمر في سنة تسع عشرة، وإنهم انجحروا في خنادقهم يوم الجمعة، وحصرهم المسلمون، فأقاموا عليهم ما شاء اللَّه، والأعاجم بالخيار لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج، فاشتد ذلك على المسلمين، وخافوا أن يطول أمرهم، وسَرَّهم أن يناجزهم عدوهم).

لقد احتملت القادسية أربعة أيام بلياليها في أعنف حرب في التاريخ، والمسلمون يتوقعون الأيام مثل أيام القادسية وتنتهي الحرب وهم متأهبون لهذه المواجهة، غير أن المفاجأة الكبرى هو انسحابهم من المعركة يوم الجمعة، وتحصنهم في حصونهم.

وأصبح قرار الحرب بيدهم لا بيد المسلمين، يخرجون عندما يشاؤون لحرب المسلمين ويتحصنون خلف خنادقهم عندما يريدون، وهذا يعني أن الحرب قد تطول شهورًا قبل أن تحسم، وكان المسلمون حريصين على إنهاء الحرب في أقصر مدة ممكنة.

(وسرهم أن يناجزهم عدوهم).

وبلغ من حرصهم كما في الرواية الأخرى عن المغيرة ﷺ أنهم هم الذين مضوا إلى المواجهة:

(فقال الملك: إن شئتم قطعنا إليكم وإن شئتم قطعتم إلينا.

فقلت (أي المغيرة بن شعبة): لا، بل نحن نقطع إليكم. قال: فقطعنا إليهم، فتسلسلوا كل خمسة، وسبعة، وستة، وعشرة حتى لا يفروا) [1].

فإذن لن يبقى النعمان تحت رحمة الفيرزان يتحكم به كما يشاء حتى يمل ويمضي إلى بلاده.

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة (٢٩٠/١٨).

المرحلة الثانية: الدعوة إلى اجتماع عاجل لرئاسة الأركان العامة:

(حتى إذا كان ذات يوم في جمعة من الجمع تجمع أهل الرأي من المسلمين، فتكلموا وقالوا: نراهم علينا بالخيار. وأتوا النعمان في ذلك فأخبروه، فوافقوه وهو يروي في الذي رووا فيه، فقال:

على رسلكم، لا تبرحوا!

وبعث إلى من بقي من أهل النجدات والرأي في الحروب، فتوافوا إليه.

فتكلم النعمان فقال:

قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق بالذي هم فيه وعليه من الخيار عليهم في الخروج، فما الرأي الذي به نحمشهُم [١] ونستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل؟

فتكلم عمرو بن ثُبي - وكان أكبر الناس يومئذ سنا - وكانوا إنما يتكلمون بالأسنان فقال:

التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم، فدعهم ولا تحرجهم، وطاولهم وقاتل من أتاك منهم.

فردوا عليه جميعًا رأيه وقالوا:

إنا على يقين من إنجاز ربنا موعده لنا.

وتكلم عمرو بن معد يكرب فقال:

ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم.

فردوا عليه جميعًا رأيه.

وقالوا: إنما تناطح بنا الجدران، والجُدران لهم أعوان علينا.

وتكلم طليحة فقال:

قد قالا، ولم يصيبا ما أرادا، وأما أنا فأرى أن تبعث خيلًا مؤدية، فيحدقوا بهم ثم يرموا لينشبوا القتال، ويحمشوهم، فإذا استحمشوا واختلطوا بهم، وأرادوا الخروج

---

(١) نحمشهم: نغضبهم ونستفزهم.

أرزوا إلينا استطرادًا، فإنا لم نستطرد لهم [١] في طول ما قاتلناهم، وإنا إذا فعلنا ذلك، ورأوا ذلك منا، طمعوا في هزيمتنا، ولم يشكوا فيها، فخرجوا فجادونا [٢] وجاددناهم حتى يقضي اللَّه فينا وفيهم ما أحب.

فأمر النعمان القعقاع بن عمرو - وكان على المجردة [٣] - ففعل، وأنشب القتال بعد احتجاز من العجم، فأنغضهم [٤]، فلما خرجوا نكص ثم نكص ثم نكص، واغتنمها الأعاجم، ففعلوا كما ظن طليحة وقالوا: هي هي. فخرجوا فلم يبق أحد إلا من يقوم لهم على الأبواب وجعلوا يركبونهم حتى أرز القعقاع إلى الناس، وانقطع القوم عن حصنهم بعض الانقطاع، والنعمان بن مقرن والمسلمون على تعبئتهم في يوم جمعة في صدر النهار، وقد عهد النعمان إلى الناس عهده، وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوهم حتى يأذن لهم، ففعلوا واستتروا بالجحف من الرمي) [٥].

القائد العظيم هو الذي يضع الخطط الاستراتيجية لتحقيق النصر، وليس القائد الذي يترك مصيره بيد عدوه، وقد طال على النعمان ﷺ الأمد، وأبطأ عليه النصر، وَتَرْكُ الأمر على ما هو عليه قتلٌ لحماس الجند، وإنهاك لهم. وبينما هو يفكر هذا التفكير ويتروى به جاءه كبار قادته، وحدثوه بهذا الأمر، وهل هناك من خطة تغير مسير المعركة؟ فسرَّه توافق التفكير بينه وبين قياداته، فدعا إلى مؤتمر عام يحضره خبراء الحرب الكبار، والقيادات العليا، ولا بد أن يكون عمرو بن معد يكرب وطليحة ابن خويلد على رأس المستشارين؛ لتنفيذ وصية أمير المؤمنين أن يستشيرهم في أمور الحرب، وكل صانع أعلم بصناعته.

وتم تبادل الآراء فلم يشفه إلا رأي طليحة الذي وضع الخطة كاملة:

١ - الهجوم على العدو من فرسان المسلمين وقائدهم القعقاع ومباغتتهم في حصونهم.

٢ - استفزازهم حتى يردوا هجوم المسلمين عنهم.

٣ - يتظاهر المسلمون بالهزيمة ويتراجعون حتى يلحق بهم العدو.

---

(١) نستطرد لهم: نَسْتَجُرُّهم.

(٢) جادونا: قاتلونا.

(٣) المجردة: الخيل.

(٤) أنغضهم: حركهم.

(٥) تاريخ الطبري (٥٢٦/٢).

٤ - وبعد استدراجهم وانفصالهم عن حصونهم تقع المواجهة الكبرى بين الفريقين.

ولم يتأخر النعمان لحظة واحدة، فأمر قائد سلاح الفرسان القعقاع بن عمرو ﷺ أن ينفذ الخطة كاملة.

(فلما خرجوا نكص ثم نكص ثم نكص، واغتنمها الأعاجم.. فخرجوا فلم يبق أحد إلا من يقوم لهم على الأبواب) [١].

لكننا نفاجأ بالتباطؤ في:

المرحلة الثالثة: فلم هذا التباطؤ؟

(.. وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراحات، وشكا بعض الناس ذلك إلى بعض، ثم قالوا للنعمان: ألا ترى إلى ما نحن فيه؟

ألا ترى إلى ما لقي الناس؟ فما تنتظر بهم؟ ائذن للناس في قتالهم.

فقال النعمان للناس: رويدًا رويدًا. قالوا ذلك مرارًا، فأجابهم بمثل ذلك مرارًا: رويدًا رويدًا.

فقال المغيرة: لو أن هذا الأمر لي لعلمت ما أصنع!

فقال: رويدًا ترى أمرك، وكنت تلي الأمر فتحسن، فلا يخذلنا الله ولا إياك، ونحن نرجو من المكث مثل الذي ترجو في الحث.

وجعل النعمان ينتظر بالقتال إكمال ساعات كانت أحب إلى رسول الله ﷺ في القتال أن يلقى بها العدو.

وذلك عند الزوال وتفيؤ الأفياء ومهب الرياح.

فلما كان قريبًا من تلك الساعة تحشحش النعمان، وسار في الناس على برذونٍ أحوى قريب من الأرض، فجعل يقف على كل راية، ويحمد الله ويثني عليه ويقول:

قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين، وما وعدكم من الظهور، وقد أنجز لكم هوادي ما وعدكم وصدوره، وإنما بقيت أعجازه وكوارعه، والله منجز وعده، وَمُتْبِعٌ آخر ذلك أوله، واذكروا ما مضى إذ كنتم أذلة، وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٢٦).

أعزة، فأنتم اليوم عباد اللَّه حقًّا وأولياؤه، وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة والذين لهم في ظفركم وعزكم، والذي عليهم في هزيمتكم وذلكم، وقد ترون من أنتم بإزائه من عدوكم وما أخطرتم وما أخطروا لكم، فأما ما أخطروا لكم فهذه الرثة وما ترون من هذا السواد، وأما ما أخطرتم لهم فدينكم وبيضتكم، ولا سواء ما أخطرتم وما أخطروا، فلا يكونن على دنياهم أحمى منكم على دينكم، واتقى اللَّه عبد صدق اللَّه وأبلى نفسه فأحسن البلاء، فإنكم بين خيرين منتظرين، من بين شهيد حي مرزوق، أو فتح قريب وظفر يسير، فكفى كل رجل ما يليه ولم يكل قِرنه إلى أخيه، فيجتمع عليه قِرنه وقِرن نفسه، وذلك من الملأمة، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه، فكل رجل منكم مسلط على ما يليه.

فإذا قضيت أمري فاستعدوا فإني مكبر ثلاثًا.

فإذا كبرت التكبيرة الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ.

وإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه، وليتأهب للنهوض.

فإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء اللَّه فاحملوا معًا.

اللَّهم أعز دينك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك، ونصر عبادك)[1].

المفروض أن يقع الاشتباك في التو، خاصة وقد هجم العدو على المسلمين، لكن لدى قيادة الجيش خيارًا آخر، وسهام العدو تقصف على المسلمين، وبدأ المسلمون يتململون، ينتظرون الإذن بالقتال، والنعمان لم يصدر أمره بعد، وصارت الجراحات فاشية، ولم يعد في قوس الصبر منزع، فما كان من المغيرة ﷺ إلا أن جاء لنقاش القائد على هذا الموقف.

(.. فعبرنا إليهم فصاففناهم، فرشقونا حتى أسرعوا فينا.

فقال المغيرة للنعمان: إنه قد أسرع في الناس، قد خرجوا، قد أسرع فيهم، فلو حملت؟

قال النعمان:

إنك لذو مناقب، وقد شهدت مع رسول اللَّه ﷺ، ولكن شهدت رسول اللَّه ﷺ، فكان

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٢٦،٥٢٧).

إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس، وتهب الرياح، وينزل النصر..) [(١)].

فابن مقرن ﷺ شهد المشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ، وشهد حرص رسول اللَّه ﷺ على أن لا يفتتح المعركة مع العدو حتى تزول الشمس، ومن أجل هذا أخر هجومه على العدو.

وقد ضج الناس وضجروا، فكان يتقبل المظاهرات بالحكمة:

(.. ثم قالوا للنعمان: ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما لقي الناس؟

فما تنتظر بهم؟

فقال لهم النعمان: رويدًا رويدًا).

لكنه لا يستطيع أن يفعل هذا مع المغيرة أحد القادة الكبار والمرشح الرابع للقيادة العامة، فأجابه النعمان ﷺ على قوله:

(لو كان هذا الأمر إليَّ لعلمت ما أصنع.

فقال: رويدًا ترى أمرك، وقد كنت تلي الأمر فتحسن، فلا يخذلنا اللَّه وإياك ونحن نرجو في المكث مثل الذي ترجو من الحث).

وبعد هذه المقدمة من الاحترام العميق لأخيه المغيرة أعلمه سبب تأخره.

(جعل النعمان ينتظر بالقتال إكمال ساعات كانت أحب إلى رسول اللَّه ﷺ في القتال أن يلقى فيها العدو، وذلك عند الزوال وتفيؤ الأفياء ومهب الرياح).

ولطيفة أخرى تضاف إلى هذا السبب عرفناها عن أبي الصلت وأبي مسافع قالا:

(.. فلما لقينا العدو قال النعمان للناس:

لا تواقعوهم - وذلك في يوم جمعة - حتى يصعد أمير المؤمنين المنبر يستنصر. ثم واقعناهم..) [(٢)].

إنه معنى مخبوء أبرزه القائد العام ﷺ، وهو أمله وثقته بدعاء أمير المؤمنين له ولجيشه بالنصر، فأي بركة تغمر هذا الجيش؟! وأي توفيق يتنزل عليهم حين يكون خيرة أهل الأرض في الأرض يدعون لهم بالنصر والتثبيت في يوم الجمعة؟!

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة (١٨/٢٩٠).
(٢) المرجع نفسه (٨/٢٩٤).

بقي لنا أن نشير إلى أن الروايات الصحيحة تؤكد أن النعمان بن مقرن ﷺ على أهل الكوفة، وأبا موسى الأشعري على أهل البصرة.

(حدثنا سهل بن يوسف عن حميد عن أنس قال:

كان النعمان بن مقرِّن على جند أهل الكوفة، وأبو موسى الأشعري على أهل البصرة، وكنت بينهما، فاتعدا أن يلتقيا عندي غدوة، فصلى أحدهما صلاة الغداة بأصحابه، ثم جاء وأنا أصلي فصلى معي)[1].

فهل يعقل أن يبقى المسلمون متفرقين في مواجهة العدو ويكون للجيش قائدان في وقت واحد؟ ويمكن القول أن هذا الأمر قبل المعركة وقبل الالتحام مع العدَو. ورواية الطبري تزيل هذا الإشكال بقوله:

(فبعث أهل المدينة فيهم عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب، وفيهم المهاجرون والأنصار.

- وكتب إلى أبي موسى الأشعري أنْ سِرْ بأهل البصرة.

- وكتب إلى حذيفة بن اليمان أن سرْ بأهل الكوفة حتى تجتمعوا جميعًا بنهاوند، وكتب: إذا التقيتم فأميركم النعمان بن مقرن المزني)[2].

وتُطالعنا رواية أكثر وضوحًا وتفصيلًا عند الطبري حول لقاء المغيرة مع الملك من جهة، وحول مدى استعدادات العدو للمواجهة نعرضها لتكتمل الصورة عن هذه الحرب العالمية الكبرى:

(فلما اجتمعوا بنهاوند أرسل بندار العلج إليهم: أن أرسلوا إلينا رجلًا نكلمه، فأرسلوا إليه المغيرة بن شعبة. قال أبي: كأني أنظر إليه رجلًا طويل الشعر أعور، فأرسلوه إليه، فلما جاء سألناه فقال:

وجدته قد استشار أصحابه فقال:

بأي شيء نأذن لهذا العربي، بشارتنا وبهجتنا وملكنا؟ أو نتقشف له فيما قبلنا حتى يزهد؟ فقالوا: لا، بأفضل ما يكون من الشارة والعدة...

فقالوا: إنما أنت كلب. فقلت: معاذ اللَّه لأنا أشرف في قومي من هذا في قومه.

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة (٦٧٢٤/٤). (٢) تاريخ الطبري (٥٢٠/٢).

فانتهروني وقالوا: اجلس. فأجلسوني، قال - وتُرجم له قوله -:

إنكم معشر العرب أبعد الناس من كل خير، وأطول الناس جوعًا، وأشقى الناس شقاء، وأقذر الناس قذرًا، وأبعده دارًا، وما منعني أن آمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم في النشاب إلا تنجسًا لجيفتكم، فإنكم أرجاس.

فإن تذهبوا نخلِّ عنكم.

وإن تأتوا نريكم مصارعكم.

قال: فحمدت اللَّه وأثنيت عليه فقلت:

واللَّه ما أخطأت من صفتنا شيئًا، ولا من نَعْتِنَا، إن كنا لأبعد الناس دارًا، وأشد الناس جوعًا، وأشقى الناس شقاء، وأبعد الناس من كل خير.

حتى بعث اللَّه ﷻ إلينا رسوله ﷺ، فوعدنا النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة، فواللَّه ما زلنا نتعرف من ربنا منذ جاءنا رسوله الفتح والنصر حتى أتيناكم.

وإنا واللَّه لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبدًا حتى نغلبكم على ما في أيديكم أو نُقتَل في أرضكم.

فقال: أما واللَّه إن الأعور قد صدقكم الذي في نفسه.

قال: فقمت وقد واللَّه أرعبت العلج جهدي.

فأرسل إلينا العلج: إما أن تعبروا إلينا بنهاوند، وإما أن نعبر إليكم.

فقال النعمان: اعبروا.

قال أبي: فلم أر واللَّه مثل ذلك اليوم، إنهم يجيؤون كأنهم جبال حديد قد تواثقوا ألا يفروا من العرب، وقد قرن بعضهم بعضًا سبعة في قران، وألقوا حسك الحديد خلفهم، وقالوا: من فر منا عقره حسك الحديد.

فقال المغيرة حين رأى كثرتهم:

لم أر كاليوم فَشَلًا، إن عدونا يتركون يتأهبون لا يعجلون، أما واللَّه لو أن الأمر لي أعجلتهم.

وكان النعمان بن مقرّن رجلًا لينًا، فقال له:

فاللَّه ﷻ يشهدك أمثالها، فلا يُحزِنك ولا يعيبك موقفك.

واللَّه ما منعني أن أناجزهم إلا شيء شهدته من رسول اللَّه ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا غزا فلا يقاتل أول النهار، لم يعجل حتى تحضر الصلاة، وتهب الأرواح ويطيب القتال، فما منعني إلا ذلك.

اللَّهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام، وذل يذل به الكفار، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة.

أمِّنوا يرحمكم اللَّه! فأمنَّا وبكينا. ثم قال:

إني هازٌّ لوائي فتيسروا للسلاح.

ثم هازٌّ الثانية، فكونوا متأهبين لقتال عدوكم.

فإذا هززت الثالثة فليحمل كل قوم على من يليهم من عدوهم على بركة اللَّه) [1].

إنهم الثلاثة العظام الربانيون الذين ربطوا الشهادة بالنصر:

وكان أولهم سعد بن معاذ في بني قريظة، ننقل صورته قبيل استشهاده بأمانة تامة.

(.. ويرمي سعدًا رجلٌ من المشركين من قريش يقال له ابن العرقة بسهم له.

فقال له: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله فقطعه، فدعا اللَّه ﷻ سعْدٌ فقال: اللَّهم لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة...

فأتاهم رسول اللَّه ﷺ، فنزلوا على حكمه، فرد الحكم إلى سعد.

قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم.

قال هشام: فأخبرني أبي عن عائشة أن سعدًا قال:

اللَّهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلى أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه.

- اللَّهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم.
- فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك.
- وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتي فيها.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٢٠، ٥٢١).

- فانفجرت من لبته [(١)]، فلم يرعهم وفي المسجد خيمة من بني غفار إلا الدمُ يسيل إليهم.

فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قِبَلِكُم؟

- فإذا سعد يغذو جرحه دمًا، فمات منها ﷺ) [(٢)].

وكان ثانيهم البراء بن مالك ﷺ نستعيد ذكراه في هذه السلسلة الذهبية.

(.. وزاحفهم المشركون في أيام تستر ثمانين زحفًا في حصارهم، يكون عليهم مرة ولهم أخرى، حتى إذا كان في آخر زحف منها واشتد القتال قال المسلمون:

يا براء، أقسم على ربك ليهزمنهم لنا. فقال:

اللَّهم اهزمهم لنا واستشهدني.

قال: فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم، ثم اقتحموا عليهم، وأرزوا إلى مدينتهم وأحاطوا بها، فبينا هم على ذلك وقد ضاقت بهم المدينة وطالت حربهم خرج إلى النعمان رجل فاستأمنه على أن يدله على مدخل يؤتون منه، فالتقوا هم وأهل البصرة فيها حتى إذا اجتمعوا فيها والناس على رجل من الخارج كبروا فيها، وكبر المسلمون من خارج، وفتحت الأبواب، فاجتلدوا فيها، فأناموا (قتلوا) كل مقاتل... واقتسموا ما أفاء اللَّه عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف والراجل ألفًا.

وقُتل من المسلمين ليلتئذ أناس كثير. وممن قَتَل الهرمزان بنفسه مجزأة بن ثور، والبراء بن مالك.

فلقد أبر اللَّه تعالى قسم البراء، واستشهد بعد تحقيق النصر، وقبل إكماله.

وثالث الربانيين هو النعمان بن مقرن الذي أشرف على جيشه العظيم ضحى الجمعة وألقى خطبته الخالدة وهو يحث جموع المؤمنين على الجهاد ولقاء العدو.

١ - (قد علمتم ما أعزكم اللَّه به من هذا الدين وما وعدكم به من الظهور، وقد أنجز لكم هوادي ما وعدكم به وصدوره، وإنما بقيت أعجازه وكوارعه، واللَّه منجز وعده، وَمُتْبِعٌ آخر ذلك أوله...).

---

(١) لبته: وهو موضع القلادة من العنق.

(٢) صحيح السيرة النبوية (ص ٢٨٤).

فهو تشخيصٌ حيٌّ لواقع المؤمنين والكافرين، وقد أخذوا المدائن عاصمة الفرس، وهم اليوم بأرض فارس، ولم يبق إلا إتمام النصر الكامل الشامل على العدو، ووعد اللَّه قائم بهذا الجيش المؤمن الذي يتم ما ابتدئ به.

٢ - ولا بد له من أن يفتح صفحة الماضي الذي فتحه قائد الفرس مع المغيرة:

(إنكم معشر العرب أبعد الناس عن كل خير، وأطول الناس جوعًا، وأشقى الناس شقاء، وأقذر الناس قذرًا، وأبعده دارًا، وما منعني من أن آمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا تنجسًا لجيفتكم، فإنكم أرجاس).

وها هو النعمان ﷺ يذكر قومه بماضيهم:

(واذكروا ما مضى من الأمر إذ كنتم أذلة...).

٣ - واليوم ما موقفكم أيها الجند من هذا الدين وهذه الأمة وهذه الانعطافة البشرية؟

(وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزة، فأنتم اليوم عباد اللَّه حقًّا وأولياؤه..).

إنه كلام يهز أعماق كل جندي في هذا الجيش العظيم، فهو فرد من هذا الجيش الذي اختاره اللَّه تعالى لتغيير البشرية، وهم الأمة المهداة لإعادة صياغة البشرية من جديد.

هذا عند اللَّه، أما ما هم عند الناس؟ إنهم طلائع ثغر الكوفة العظيم.

٤ - (وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة، والذين لهم في ظفركم وعزكم، والذي عليهم في هزيمتكم وذُلكم..).

وهذه هي طبيعة النفس البشرية التي تنطلق من الواقع الأرضي بين الناس ومن السمو السماوي عند اللَّه.

٥ - لكن من هو العدو الذي يواجهكم؟ ماذا أعددتم له؟ وماذا أعد لكم؟

إنها كلمات مختصرة خالدة تنتقل بهذا الجيش العظيم من عالم إلى عالم.

(وقد ترون من أنتم بإزائه من عدوكم، وما أخطرتم وما أخطروا لكم).

فأما ما أُعدوا للمسلمين هذا السواد العظيم من الجند مائة وخمسون ألفًا، لا تكاد

ترى لهم نهاية، وهذه الرثة من السلاح والعدة العظيمة لمواجهتكم وردكم على أعقابكم خاسرين.

لكن أنتم ماذا أعددتم لهم؟

أعددتم لهم الدفاع والذود عن دينكم وأرضكم، الدفاع عن هذا الهدى الذي أشرقت به الأرض، وهذه الأوطان التي غدت معقل الإيمان في الأرض كما قال ابن رواحة ﷺ في غزوة مؤتة:

« واللَّه ما نقاتل الناس بعَدَدٍ ولا عُدَّة، ولكن نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا اللَّه به ».

٦ - فهل يقارن هذا الفاني بالباقي؟ (ولا سواء ما أخطرتم وما أخطروا فلا يكونن على دنياهم أحمى منكم على دينكم).

هل يستويان مثلًا؟ أبدًا.

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٨، ٢٩].

٧ - وكلاهما أبناء مدرسة واحدة وجامعة عليا، أبناء مدرسة النبوة.

حيث قال ابن رواحة وهو القائد الثالث لمؤتة: فإنما هي إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

وقال ابن مقرن القائد الأول لنهاوند:

(واتقى اللَّه عبد صَدَقَ اللَّه، وأبلى فأحسن البلاء، فإنكم بين خيرين منتظرين، إحدى الحسنيين؛ من بين شهيد حي مرزوق، أو فتح قريب وظفر يسير).

٨ - ماذا يريد القائد من جيل الخلافة الراشدة الذي سيحمل مواجهة جيوش الضلالة في الوجود؟

(فكفى كل امرئٍ ما يليه، ولم يكل قرنه إلى أخيه، فيجتمع عليه قرنه وقرن نفسه، وذلك من الملأمة).

فمهمة كل جندي أن يواجه خصمه الذي يليه، ومن اللؤم أن يدع خصمه لأخيه كي يحمل قتال بطلين قرنين عنيدين.

(وقد يقاتل الكلب عن صاحبه، فكل رجل منكم مسلط على ما يليه).

فلا يكونن الكلب أشد حميةً بالمسلم من قتال البطل الذي يليه.

٩ - وها هو يعلن خطة المواجهة الشاملة.

(فإذا قضيت أمري فاستعدوا فإني مكبر ثلاثًا.

- فإذا كبرت التكبيرة الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ.

- فإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه، وليتأهب للنهوض.

- فإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء اللّه، فاحملوا معًا).

١٠ - وكان الدعاء الأخير الموصول بالسماء:

(اللّهم أعز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك، ونصر عبادك).

فهو يرجو أن يرى هذا النصر في الملأ الأعلى بعد استشهاده إذا لم يره بعينه قبل وفاته.

المرحلة الرابعة: ساحة الدماء:

وهذا عرض إعلامي شامل بالصوت والصورة لأحداث المعركة:

(فلما فرغ النعمان من التقدم إلى أهل المواقف وقضى إليهم أمره، رجع إلى موقفه، فكبر الأولى والثانية والثالثة، والناس سامعون مطيعون مستعدون للمناهضة، ينحّي بعضهم بعضًا عن سننهم، وحمل النعمان، وحمل الناس، وراية النعمان تنقض نحوهم انقضاض العُقاب، والنعمان معهم معلم ببياض القباء والقلنسوة.

فاقتتلوا بالسيوف قتالًا شديدًا لم يسمع السامعون بوقعة يومٍ قط كانت أشد قتالًا منها.

فقتلوا فيها من أهل فارس فيما بين الزوال والإعتام ما طبق أرض المعركة دمًا يزلق الناس والدواب فيه.

وأصيب فرسان من فرسان المسلمين في الزلق في الدماء، فزلق فرس النعمان في الدماء فصرعه، وأصيب النعمان حين زلق به فرسه وصرع، وتناول الراية نعيم بن مقرن قبل أن تقع، وسجى النعمان بثوب، وأتى حذيفة بالراية فدفعها إليه، وكان اللواء مع

حذيفة، فجعل حذيفة نُعيم بن مقرن مكانه، وأتى المكان الذي كان فيه النعمان فأقام اللواء. وقال له المغيرة:

اكتموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع اللّه فينا وفيهم؛ لكيلا يهن الناس.

واقتتلوا حتى إذا أظلهم الليل انكشف المشركون وذهبوا، والمسلمون ملظون بهم متلبسون، فَعمِّي عليهم قصدُهم.

فتركوه وأخذوا نحو اللِّهْب الذي كانوا نزلوا دونه باسبيذهان، فوقعوا فيه وجعلوا لا يهوي أحد منهم إلا قال: وايه خرد.

فسمي بذلك - وايه خرد - إلى اليوم، فمات فيه منهم مائة ألف أو يزيدون سوى من قتل بالمعركة منهم أعدادهم، لم يفلت منهم إلا الشريد.

ونجا الفيرزان بين الصرعى في المعركة، فهرب بنحو همدان، والثنية مشحونة من بغال وحمير موقرة عسلًا، فحبسه الدواب على أجله، فقتله على الثنية بعدما امتنع، وقال المسلمون: إن للّه جنودًا من عسل.

واستاقوا العسل وما خالطه من سائر الأحمال، فأقبل بها، وسميت الثنية ثنية العسل.

وإن الفيرزان لما غشيه القعقاع نزل فتوقل في الجبل إذ لم يجد مساغًا، وتوقل القعقاع في أثره حتى أخذه.

ومضى الفُلَّال حتى انتهوا إلى مدينة همذان، والخيل في آثارهم، فدخلوها، فنزل المسلمون عليهم وحووا ما حولها.

فلما رأى ذلك (خسرو شنوم) استأمنهم وقبل منهم على أن يضمن لهم همذان ودستبي، وألا يؤتى المسلمون منهم، فأجابوهم إلى ذلك، وآمنوهم، وأمن الناس، وأقبل كل من كان هرب.

ودخل المسلمون بعد هزيمة المشركين يوم نهاوند مدينة نهاوند، واحتووا ما فيها، وجمعوا الأسلاب والرثاث إلى صاحب الأقباض، السائب بن الأقرع..) [١].

هذه معركة صامتة عالمية لم تكن فيها القيادات متميزة على الجنود، ومعركة بهذه

---

(١) تاريخ الطبري (٥٢٧/٢، ٥٢٨).

الضخامة وهذا الأثر لا تسمع فيها عن بطولات خاصة يستشهد قائدها منذ المراحل الأولى فيها؛ فجيل الخلافة الراشدة كله يصنع النصر بتوفيق اللَّه. لم نسمع عن كَرٍّ وَفرٍّ، إنما هو اشتباك لم ينته إلا بهزيمة جيش العدو، واستمر بضع عشرة ساعة غَيَّرَ مسار التاريخ كله؛ فهي القادسية الثانية التي فتحت باب فارس على مصراعيه للفتح الإسلامي، وعز الإسلام وأهله. **وهذه بعض لقطات:**

١ - لقد تحولت ساحة المعركة إلى ساحة دماء:

ويبقى وصف (فاقتتلوا بالسيوف قتالًا شديدًا لم يسمع السامعون بوقعة يوم قط كانت أشد قتالًا منها، فقتلوا فيها من أهل فارس فيما بين الزوال والإعتام ما طبق أرض المعركة دمًا يزلق الناس والدواب فيه..).

فقد كانت المعركة تصويرًا عمليًا للتوجيهات الدقيقة المحددة من أمير المؤمنين.

(فكفى كل رجل ما يليه، ولم يكل قرنه إلى أخيه).

وهذا الذي تم تنفيذه، ولم يكل أحد قرنه إلى أخيه.

٢ - في معظم الأحيان تنتهي المعركة بانتهاء القائد، ولو سقطت الراية أثناء المعركة لنزل الوهن في القلوب، غير أن هذه الأمة تملك جيلًا قياديًّا كاملًا يعرف التصرف أثناء الأزمات:

فعندما أصيب النعمان وانزلقت به فرسه كان أخوه البطل العظيم نعيم بن مقرن بجواره وهو أحد القيادات الكبرى المرشحة بعده من أمير المؤمنين، لكن ترتيبه في الترشيح الرابع أو الخامس، وانضم قائد آخر من هؤلاء المرشحين المغيرة بن شعبة، **وتم التخطيط لتلافي الكارثة على الصيغة التالية:**

١ - نعيم بن مقرن أخذ الراية مباشرة، وحافظ عليها عالية مرتفعة مرفرفة بحيث يعلم الناس أن قائدهم العظيم لا يزال يقود المعركة.

٢ - كان على نعيم حسب أوامر الخليفة أن يسلم الراية لحذيفة بن اليمان حسب وصية وأوامر أمير المؤمنين، وحسب وصية النعمان ﵁.

٣ - كان اقتراح أكبر دهاة الأرض المغيرة بن شعبة الدبلوماسي السياسي العسكري أن يكتم أمر استشهاد النعمان؛ حتى لا يَفُتَّ النبأ في أعضاد الناس.

٤ - استدعي القائد الجديد حذيفة، واستلم الراية، ومضى بالناس يتابع قيادة المعركة، وسجي النعمان ﷺ بثوب، وعُلم مكان استشهاده.

إنها صورة مؤتة تتراءى لنا من جديد.

أمير القوم زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد اللَّه ابن رواحة.

واستشهد عبد اللَّه بن رواحة، وقبل أن تسقط الراية أخذها (ثابت بن أقرم أخو بني العجلان فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. فقالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد..) [1].

ونحن هنا نرى النعمان بن مقرن ﷺ يستشهد، فأخذها أخوه نعيمُ بن مقرن، ودفعها إلى حذيفة بن اليمان، وكتب اللَّه النصر على يديه كما كتبه على يد خالد ابن الوليد « **حتى أخذ الراية سيف من سيوف اللَّه حتى فتح اللَّه عليهم** » [2].

٥ - أما نفسية هذا الجيش المسلم..

فتصفها رواية مبارك بن فضالة عن زياد بن جبير قال: (فحمل وحمل الناس معه، فواللَّه ما علمت أن أحدًا يومئذ يريد أن يرجع إلى أهله حتى يُقتل أو يظفر) [3].

٦ - وتطالعنا رواية ابن حجر عن لقطات أخرى من المعركة بـ (كاميرا) غير تلك الكاميرا:

فتقول: (فثبتوا لنا ثم انهزموا فجعل الواحد يقع على الآخر فيقتل سبعة، وجعل الحسك الذي جعلوه خلفهم يعقرهم) [4].

٧ - وفي رواية أخرى نرى (آلة التصوير) تتابع النعمان وتلاحقه في المعركة:

(وجعل النعمان يتقدم باللواء، فلما تحقق الفتح جاءته نشابة في خاصرته فصرعته، فسجاه أخوه معقل ثوبًا وأخذ اللواء، ورجع الناس، فنزلوا وبايعوا حذيفة، فكتب بالفتح إلى عمر مع رجل من المسلمين) [5].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/١٥١). (٢) البداية والنهاية (٤/٢٨٠).

(٣ - ٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٦/٣٠٧).

٨ - وآلة تصوير أخرى عند ابن أبي شيبة في المصنف: أن الذي ساعد على هزيمة العدو هو مقتل قائد جيش العدو، وأن النعمان بن مقرن عرف بالفتح قبل استشهاده:

(ووقع ذو الحاجبين على بغلة له شهباء فانشق بطنه، ففتح اللَّه على المسلمين، فأتيت مكان النعمان وبه رمق، فأتيته بإداوة فغسلت عن وجهه فقال: من هذا؟ فقلت: معقل بن يسار. قال: ما فعل الناس؟ قلت: فتح اللَّه عليهم. قال: للَّه الحمد، اكتبوا بذلك إلى عمر. وفاضت نفسه، واجتمع الناس إلى الأشعث بن قيس، قال: فأرسلوا إلى ابن أم ولده: هل عهد إليك النعمان عهدًا أم عندك كتاب؟ قال: سفط فيه كتاب. فأخرجوه فإذا فيه:

إن قتل النعمان ففلان، وإن قتل فلان ففلان) [١].

(وعن حماد بن سلمة عن حبيب الشهيد عن محمد قال: لما حمل النعمان قال: واللَّه ما وطئنا كتفيه حتى ضرب في القوم) [٢].

وعن أبي عمران الجوني... عن معقل بن يسار:

(فأتاهم النعمان بنهاوند وبينهم وبينه نهر، فسرح المغيرة بن شعبة، فعبر إليهم النهر، وملكهم يومئذ ذو الحاجبين) [٣].

٩ - وها هي (آلة التصوير) تلاحق أحد الأبطال الكبار سماك بن عبيد العبسي:

قال أبو جعفر: (كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن أبي معبد العبسي وعروة بن الوليد، عمن حدثهم من قومهم قال:

بينما نحن محاصرو أهل نهاوند خرجوا علينا ذات يوم، فقاتلونا فلم نلبثهم أن هزمهم اللَّه، فتبع سماك بن عبيد العبسي رجلًا منهم معه ثمانية نفر على أفراس لهم فبارزهم، فلم يبرز له أحد إلا قتله حتى أتى عليهم، ثم حمل على الذي كانوا معه فأسره وأخذ سلاحه، ودعا له رجلًا اسمه عبد، فوكله به، فقال: اذهبوا بي إلى أميركم حتى أصالحه على هذه الأرض، وأؤدي إليه الجزية، وسلني أنت عن إسارك ما شئت، وقد مننت علي إذ لم تقتلني، وإنما أنا عبدك الآن، وإن أنت أدخلتني على

(١ - ٣) المصنف لابن أبي شيبة (١٨/٢٩٠، ٢٩١).

الملك فأصلحت ما بيني وبينه وجدت لي شكرًا، وكنت لي أخًا. فخلى سبيله وأمنه وقال: من أنت؟ قال:

أنا دينار. والبيت منهم يومئذ في آل قارن.. فأتى به حذيفة.

فحدثه دينار عن نجدة سماك وما قتل ونظره للمسلمين، فصالحه على الخراج، فنسبت إليه ماه، وكان يواصل سماكًا ويهدي له..) (١).

فنحن أمام بطولة عنترة العبسي التي كانت من مفاخر العرب، وتوجت بمعلقته التي خلدت بطولته وشعره، وهذا سماك من قبيلة عنترة، لكن شتان ما بين الظلمات والنور.

فعنترة يقتل أهله وبني عمه من ذبيان، ويفخر بهذه المعارك والحروب.

وسماك العبسي يقتل الفرس والمشركين، ويستحيي أحد قياداتهم الذي صالح المسلمين على الجزية؛ فالطاقات كامنة عند الأمة.. جاء الإسلام ففجر هذه الطاقات ووجهها إلى إنقاذ البشرية من الضلال.

١٠ - ونبحث عن الصفحات الطوال والمفاوضات الطويلة الصعبة التي كانت قبيل القادسية فلا نجدها قبيل نهاوند:

ومع أن المغيرة هو كبير المفاوضين في القادسية فنجده هنا المفاوض الوحيد وبصورة مختصرة في أكثر من رواية.

لكن الذي يهمنا المبادئ، فلا نجد فيما عرضه الطبري وغيره من المؤرخين مبدأ تخيير العدو بين إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال، لكننا نجد بغيتنا التي يجب أن لا تغيب أبدًا في مقدمة كل مواجهة، وقبيل كل معركة، نجد بغيتنا في رواية البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، والذي أشار إلى هذا التخيير بشكل واضح.

(أخرج البخاري عن بكر بن عبد اللّه المزني، وزياد بن جبير بن حية قالا:

... فندبنا عمر، واستعمل علينا النعمان بن مقرّن، حتى إذا كنا بأرض العدو، وخرج علينا عامل كسرى في أربعين ألفًا، فقام ترجمان فقال:

ليكلمني رجل منكم. فقال المغيرة: سلْ عما شئت.

قال: ما أنتم؟

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٢٩).

قال: نحن أناس من العرب كنا في شقاء شديد، وبلاء شديد، نمص الجلد والنوى من الجوع، ونلبس الوبر والشعر، ونعبد الشجر والحجر.

فبينا نحن كذلك إذ بعث رب السموات ورب الأرضين - تعالى ذكره وجلت عظمته - إلينا نبيًّا من أنفسنا نعرف أباه وأمه.

وأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى:

- تعبدوا اللَّه وحده.
- أو تؤدوا الجزية.

وأخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة في نعيم لم ير مثله قط، ومن بقي منا مَلَك رقابكم) [١].

١١ - من الذين اشتروا الآخرة بالدنيا:

(عن مدرك بن عوف الأحمسي قال:

بينا أنا عند عمر إذ أتاه رسول النعمان بن مقرن، فسأله عمر عن الناس، فذكروا عند عمر من أصيب يوم نهاوند، فقالوا: قتل فلان وفلان وآخرون لا نعرفهم. فقال عمر: لكن اللَّه يعرفهم. قالوا: ورجل شرى نفسه - يعنون عوف بن أبي حية أبا شبيل الأحمسي - فقال مدرك بن عوف: ذلك واللَّه خالي يا أمير المؤمنين، يزعم الناس أنه ألقى بيديه إلى التهلكة.

فقال عمر: كذَب أولئك، ولكنه من الذين اشتروا الآخرة بالدنيا. قال إسماعيل: وكان أصيب وهو صائم فاحتمل وبه رمق فأبى أن يشرب حتى مات) [٢].

المرحلة الخامسة: النصر المبين:

(فمات منهم فيه مائة ألف أو يزيدون، سوى من قتل في المعركة منهم أعدادهم لم يفلت منهم إلا الشريد، ونجا الفيرزان بين الصرعى في المعركة، فهرب نحو همذان في ذلك الشريد.

---

(١) فتح الباري شرح البخاري (٢٩٨/٦).

(٢) المصنف لابن أبي شيبة (٢٨٥/١٨).

فأتبعه نعيم بن مقرن، وقدَّم القعقاع قدامه، فأدركه حتى انتهى إلى ثنية همذان، والثنية مشحونة من بغال وحمير موقرة عسلًا، فحبسه الدواب على أجله فقتله على الثنية بعدما امتنع. وقال المسلمون: إن للّه جنودًا من عسل. واستاقوا العسل وما خالطه من سائر الأحمال، فأقبل بها. وسميت الثنية ثنية العسل.

وإن الفيرزان لما غشيه القعقاع نزل فتوقل [١] في الجبل إذ لم يجد مساغًا، وتوقل القعقاع في أثره حتى أخذه.

ومضى الفلال حتى انتهوا إلى مدينة همذان، والخيل في آثارهم، فدخلوها، فنزل المسلمون عليهم، وحووا ما حولها.

فلما رأى ذلك [خسرو شنوم] استأمنهم، وقبل منهم على أن يضمن له همذان ودستبي وألا يؤتى المسلمون منهم، فأجابوهم إلى ذلك وأمنوهم، وأمن الناس، وأقبل كل من كان هرب، ودخل المسلمون بعد هزيمة المشركين يوم نهاوند مدينة نهاوند، واحتووا ما فيها وما حولها، وجمعوا الأسلاب والرثاث إلى صاحب الأقباض السائب ابن الأقرع.

كنز كسرى:

فبينا هم كذلك على حالهم وفي عسكرهم يتوقعون ما يأتيهم من إخوانهم بهمدان أقبل (الهربذ) صاحب بيت النار على أمان فأبلغ حذيفة فقال:

أتؤمنني على أن أخبرك بما أعلم؟

قال: نعم.

قال: إن (النخيرجان) وضع عندي ذخيرة كسرى، فأنا أخرجها لك على أماني وأمان من شئت. فأعطاه ذلك.

فأخرج له ذخيرة كسرى جوهرًا كان أعده لنوائب الزمان، فنظروا في ذلك، فأجمع رأي المسلمين على رفعه إلى عمر، فجعلوه له، فأخروه فرفعوه على ما يرفع من الأخماس.

---

(١) توقَّل أي: دخل في مسيره بين الجبال.

الغنائم:

قسم حذيفة بن اليمان بين الناس غنائمهم، فكان سهم الفارس يوم نهاوند ستة آلاف، وسهم الراجل ألفين، وقد نفل حذيفة من شاء من أهل البلاء يوم نهاوند، ورفع ما بقي من الأخماس إلى السائب بن الأقرع، فقبض السائب الأخماس، فخرج بها وبذخيرة كسرى.

وأقام حذيفة بعد الكتاب بفتح نهاوند ينتظر جوابه وأمره، وكان رسوله بالفتح طريف بن سهم أخا بني ربيعة بن مالك.

استسلام همذان وما حولها:

فلما بلغ الخبر أهل الماهين بأن همذان قد أخذت، ونزلها نُعيم بن مقرن والقعقاع ابن عمرو، اقتدوا بخسر شنوم، فراسلوا حذيفة فأجابهم إلى ما طلبوا وعزموا على إتيان حذيفة...

حق الرد في الغنيمة:

وقسم حذيفة لمن خُلِّفوا بمرج القلعة، ولمن أقام بغضي شجر، ولأهل المسالح جميعًا في فيء نهاوند مثل الذي قسم لأهل المعركة؛ لأنهم كانوا ردءًا للمسلمين؛ لئلا يؤتوا من وجه من الوجوه...

أمير المؤمنين يترقب أنباء المعركة:

وتململ عمر تلك الليلة التي كان قدَّر للقائهم، وجعل يخرج ويلتمس الخبر، فبينا رجل من المسلمين قد خرج في بعض حوائجه فرجع إلى المدينة ليلًا فمر به راكب في الليلة الثالثة من يوم نهاوند يريد المدينة فقال:

يا عبد اللَّه من أين أقبلت؟ قال: من نهاوند.

قال: ما الخبر؟ قال: الخبر خير، فتح اللَّه على النعمان، واستُشهد، واقتسم المسلمون فيء نهاوند، فأصاب الفارس ستة آلاف، وطواه الراكب حتى انغمس في المدينة.

فدخل الرجل، فبات، فأصبح فتحدث بحديثه، ونمى الخبر حتى بلغ عمر وهو فيما هو فيه، فأرسل إليه، فسأله، فأخبره، فقال: صدق وصدقت هذا عثيم بريد الجن، وقد رأى بريد الإنس، فقدم عليه طريف بالفتح بعد ذلك فقال: الخبر؟ فقال: ما عندي

أكثر من الفتح. خرجت والمسلمون في الطلب وهم على رجل، وكتمه إلا ما سرَّه.

البشرى بالفتح:

ثم خرج وخرج معه أصحابه، فأمعن، فرفع له راكب. فقال: قولوا. فقال عثمان ابن عفان: السائب. فقال: السائب؟!

فلما دنا منه قال: ما وراءك؟

قال: البشرى والفتح.

قال: ما فعل النعمان؟

قال: زلق فرسه في دماء القوم، فصُرِع واستشهد.

فانطلق راجعًا والسائب يسايره.

وسأل عن عدد من قُتِل من المسلمين، فأخبره بعدد قليل، وأن النعمان أول من استشهد يوم فتح الفتوح، وكذلك كان يسميه أهل الكوفة والمسلمون، فلما دخل المسجد حطت الأحمال، فوضعت في المسجد، وأمر نفرًا من أصحابه منهم عبد الرحمن بن عوف وعبد اللّٰه بن أرقم - بالمبيت فيه، ودخل منزله.

قصة السفطين:

وأتبعه السائب بن الأقرع بذينك السفطين، وأخبره خبرهما وخبر الناس.

فقال:

يا ابن مليكة واللّٰه ما دروا هذا ولا أنت معهم، فالنجاء النجاء، عودك على بدئك حتى تأتي حذيفة فيقسمهما على من أفاءهما اللّٰه عليه، فأقبل راجعًا يقبل حتى انتهى إلى حذيفة بماه، فأقامهما فباعهما، فأصاب أربعة آلاف ألف) [(١)].

أما في رواية الطبري فتوضيح أكبر لقصة السفطين.

(قال السائب: فلما فتح اللّٰه على المسلمين نهاوند أصابوا غنائم عظامًا، فواللّٰه إني لأقسم بين الناس إذ جاءني علج من أهلها فقال: أتؤمنني على نفسي وأهلي وأهل بيتي على أن أدلك على كنوز النخير جان - وهي كنوز آل كسرى - يكون لك

---

(١) النص كله ما عدا العناوين الجانبية عند الطبري (٢/٥٢٨، ٥٢٩).

ولصاحبك لا يشركك فيها أحد؟ قال: قلت: نعم. قال: فابعث معي من أدله عليها. فبعثته معه، فأتى بسفطين عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، فلما فرغت من قسمي بين الناس احتملتهما معي، ثم قدمت على عمر بن الخطاب، فقال: ما وراءك يا سائب؟

قلت: خير يا أمير المؤمنين! فتح اللَّه عليك بأعظم الفتح. واستشهد النعمان ابن مقرن رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال عمر: إنا للَّه وإنا إليه راجعون. ثم بكى فنشج حتى إني لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كتده. قال: فلما رأيت ما لقي قلت:

واللَّه يا أمير المؤمنين، ما أصيب بعده من رجل يعرف وجهه.

فقال: المستضعفون من المسلمين، لكن اللَّه الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم، وما يصنعون بمعرفة عمر ابن أم عمر؟

ثم قام ليدخل فقلت: إن معي مالًا عظيمًا جئت به. ثم أخبرته خبر السفطين،

قال: أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما، والحق بجندك.

قال: فأدخلتهما بيت المال، وعدت سريعًا إلى الكوفة.

قال: وبات تلك الليلة التي خرجت فيها، فلما أصبح بعث في أثري رسولًا، فواللَّه ما أدركني حتى دخلت الكوفة، فأنخت بعيري، وأناخ بعيره على عرقوبي بعيري فقال: الحق بأمير المؤمنين، فقد بعثني في طلبك فلم أقدر عليك إلا الآن.

قلت: ويلك، ماذا؟ ولماذا؟

قال: لا أدري واللَّه.

قال: فركبت معه حتى قدمت عليه، فلما رآني قال: ما لي ولابن أم السائب؟ بل ما لابن أم السائب وما لي؟

قلت: وماذا يا أمير المؤمنين؟

قال: ويحك، واللَّه ما هو إلا أن نمت تلك الليلة التي خرجت فيها، فباتت ملائكة ربي تسحبني إلى تلك السفطين يشتعلان نارًا يقولون: لنكوينك بهما. فأقول: إني سأقسمهما بين المسلمين. فخذهما عنِّي لا أبا لك والحق بهما. فبعتهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم. قال: فخرجت بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة، وغشيني

التجار فابتاعهما مني عمرو بن حريث المخزومي بألفي ألف، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف، فما زال أكثر أهل الكوفة مالًا بعد) [١].

* * *

إن النص من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى شرح أي غامض فيه، ولعل العناوين الجانبية ألقت الأضواء على أهم أحداث هذا النصر، غير أن هذا لا يمنع من **تقديم بعض لقطات خاطفة أو إضاءات بومضات البرق الذي نعرفه؛ لتكتمل جوانب الحدث الضخم الذي كان معلمًا من معالم تاريخ البشرية.**

١ - في نتيجة المعركة كان عدد القتلى من المشركين ينوف عن مائة وعشرين ألفًا، ولم يفلت إلا الشريد. ويجب أن نعيد إلى الذاكرة أضخم الإمكانات البشرية التي أعدها يزدجرد.

(وكان من حديثهم أنهم نفروا لكتاب يزدجرد، فتوافى إليها من بين خراسان إلى حلوان، ومن بين الباب إلى حلوان، ومن بين سجستان إلى حلوان، فاجتمعت حلبة فارس والفهلوج أهل الجبال، من بين الباب إلى حلوان ثلاثون ألف مقاتل، ومن بين خراسان إلى حلوان ستون ألف مقاتل، ومن بين سجستان إلى فارس وحلوان ستون ألف مقاتل، واجتمعوا على الفيرزان، وإليه كانوا توافوا).

٢ - إن للّه جنودًا من عسل:

إنها انتقال هذا الإرث العظيم من كنوز الأرض المادية من يزدجرد إلى عمر، من الأمة الكافرة إلى الأمة المؤمنة، وهناك حيث انتهى قائد الجيش على يد القائد العظيم القعقاع بن عمرو ﷺ الذي يقاتل هنا جنديًا في الصف الإسلامي، بينما رأيناه في القادسية البطل الأول المجلي الذي غير مصير المعركة.

واستاقوا العسل وما خالطه من سائر الأحمال، وسميت الثنية بذلك ثنية العسل.

٣ - وانتقل كنز كسرى كله من النخيرجان وزير مالية يزدجرد والميزانية الاحتياطية له إلى عمر ﷺ، وشتان بين مالكي خزائن الأرض.

لقد سيقت الدنيا كلها سوقًا إلى المؤمنين، ورأى الجيش الإسلامي أن عمر ﷺ

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٢٠).

هو أحق من يملك هذين السفطين من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت بعد أن كان ملك كسرى.

لكن الإسلام لم يأت لنقل الدنيا من ملك إلى ملك، إنما جاء ينقلها للجيل المجاهد كله وللأمة المسلمة كلها.

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ - ١٠٧].

فهؤلاء العابدون الصالحون هم ورثة الأرض كلها.

(ويحك والله ما هو إلا أن نمت في الليلة التي خرجت فيها، فباتت ملائكة ربي تسحبني إلى تلك السفطين يشتعلان نارًا يقولون: لنكوينَّك بهما. فأقول: سأقسمهما بين المسلمين. فخذهما عني لا أبا لك والحق بهما. فبعتهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم).

وأضيف فقط إلى أعطيات المجاهدين مليونا درهم وزعت عليهم. وهذه هي الأمة التي تستحق هذه الوراثة.

٤ - وأي جيش بلغ هذا الانضباط مثل هذا الجيش؟

السائب بن الأقرع يغادر المدينة إلى الكوفة في بضعة عشر يومًا على الأقل، وما أن أناخ بعيره. ليمضي إلى بيته يلقي عصا التسيار ويأخذ قسطًا طويلًا من الراحة يلقى بهما ولده وأهله حتى يرى بعيرًا ينيخ خلف بعيره قائلًا له كلمة واحدة:

الحق بأمير المؤمنين.

لا شك أن رحلته احتملت أكثر من شهر إن لم نقل شهرين؛ فهو الذي تحرك بالأقباض والغنائم من نهاوند إلى المدينة، وأدى الأمانة، وعاد إلى الكوفة، ومع ذلك لم يطلب إجازة شهرٍ يرى فيها أهله وولده بعد غياب أشهرٍ في الحرب، وقرابة شهر لينقل البريد الإسلامي إلى العاصمة، ويحمل أضخم غنائم حملت إلى العاصمة.

(الحق بأمير المؤمنين؛ فلقد بعثني في طلبك، فلم أقدر عليك إلا الآن.

قال: قلت: ويلك! ماذا؟ ولماذا؟ قال: لا أدري والله. قال:

فركبت معه حتى قدمت عليه).

أليس هذا النموذج يستحق الوراثة؟

ولا ندري أي شيء الأعجب في هذا النموذج الفذ؟!

الأمانة التي أوكلت إليه وقادها من نهاوند إلى المدينة، ولم ترف نفسه لدرهم واحد من ثروات الأرض كلها أو لجوهرة واحدة من الزبرجد والياقوت يدسها في جيبه تغنيه إلى ولد ولده؟!

أم الانضباط الأعجب عنده ليعود قافلًا إلى المدينة دون أن يعرف سبب دعوته وقلبه يخفق.؟! هل أخطأ أو أخل في المسؤولية حتى يبعث وراءه أمير المؤمنين من يعيده مخفورًا إلى الكوفة؟

إنها فعلًا الأمة التي تستحق الخلود.

٥ - وأمير المؤمنين الذي يحمل على كتفيه الأمة كلها، لا هَمَّ له إلا نهاوند والنعمان. إنها المعركة المصيرية في التاريخ.

أورد ابن أبي شيبة بسنده قال: أبطأ على عمر خبر نهاوند وابن مقرِّن وأنه كان يستنصر، وأن الناس كانوا يرون من استنصاره أنه لم يكن له ذكر إلا نهاوند وابن مقرن، فقدم عليهم أعرابي فقال:

ما بلغكم عن نهاوند وابن مقرِّن؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: لا شيء. قال: فنميتُ إلى عمر. قال: فأرسل إليه فقال: ما ذكرك نهاوند وابن مقرن؟ فإن جئت بخبر فأخبرنا. قال:

يا أمير المؤمنين، أنا فلان بن فلان الفلاني، خرجت بأهلي ومالي مهاجرًا إلى اللَّه ورسوله حتى نزلنا موضع كذا وكذا، فلما ارتحلنا إذا رجل على جمل أحمر لم أر مثله، فقلنا: من أين أقبلت؟ قال: من العراق. قلنا: فما خبر الناس؟ قال:

التقوا فهزم اللَّه العدو، وقتل ابن مقرِّن، لا واللَّه ما أدري ما نهاوند ولا ابن مقرِّن.

قال: أتدري أي يوم من الجمعة؟

قال: لا واللَّه ما أدري.

قال: لكنني أدري، فعُدَّ منازلك.

قال: ارتحلنا يوم كذا وكذا، فنزلنا موضع كذا وكذا. فعَدَّ منازله، قال:

ذاك يوم كذا وكذا من الجمعة، ولعلك أن تكون لقيت بريدًا من برد الجن، فإن لهم بردًا.

قال: فمضى ما شاء اللَّه ثم جاء الخبر بأنهم التقوا في ذلك اليوم) [١].

إن الكون كله يعيش فرحة النصر في نهاوند، والجن يعيشون في سعادة غامرة بنصر الإسلام في الوجود، ومن أجل هذا كان رأي أمير المؤمنين أن بريد الجن هو الذي تم اللقاء معه مع هذا الأعرابي، والذي حدد الفاروق ﷺ موعد المعركة والنصر من تعداد السير.

٦ - وبمقدار ما كانت فرحة النصر عند المسلمين بمقدار ما كان الأسى والحزن لفقدان القائد العظيم النعمان بن مقرِّن.

(.. عن أبي عثمان قال: أتيت عمر بنعي النعمان بن مقرن، فوضع يده على رأسه وجعل يبكي [٢].

قال: فبايع الناس حذيفة، وعمر بالمدينة يستنصر له، ويدعو له مثل الحبلى.

قال: وكتب إلى عمر بالفتح مع رجل من المسلمين، فلما أتاه قال له:

أبشر يا أمير المؤمنين بفتح أعز اللَّه به الإسلام وأهله، وأذل به الكفر وأهله.

قال: فحمد اللَّه ﷻ، ثم قال: آلنعمان بعثك؟

قال: احتسب النعمان يا أمير المؤمنين.

فبكى عمر واسترجع..) [٣].

٧ - والمؤمنون كلهم النعمان:

(.. فما كنا نسمع إلا وقع الحديد على الحديد، حتى أصيب المسلمون بمصائب عظيمة، فلما رأوا صبرنا وَأَنَّا لا نبرح العرصة انهزموا.

(قال: احتسب النعمان يا أمير المؤمنين. فبكى وعمر واسترجع، قال: ومن ويحك؟ قال: فلان وفلان ... حتى عدَّ له ناسًا كثيرًا، ثم قال:

وآخرون يا أمير المؤمنين لا تعرفهم.

فقال عمر وهو يبكي: لا يضرهم ألَّا يعرفهم عمر، ولكن اللَّه يعرفهم) [٤].

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة (٢٨٤/١٨، ٢٨٥).

(٢ - ٤) تاريخ الطبري (٥٢١/٢).

(.. فحدثنا أبو عثمان قال: ذهبت إلى عمر بالبشارة فقال: ما فعل النعمان؟ قلت: قتل. وقال: ما فعل فلان؟ قلت: قتل قال: ما فعل فلان؟ قلت: قتل. وفي ذلك يسترجع. قلت: وآخرون لا أعلمهم.

قلت: لا تعلمهم لكن اللّٰه يعلمهم) [١].

إنه جيل جديد قاتل ببسالة منقطعة النظير، وبإخلاص منقطع النظير، لا يكاد يعرف منه إلا أفراد، وحقق نصرًا من أعظم الانتصارات في التاريخ.

٨ - وكم يكون السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار قريري العين بعد أن أقاموا عمود الإسلام، وها هم يرون الجيل الذي ربوه من كل أصقاع الجزيرة العربية يحملون الراية عنهم وهم يتلقون هذه الفتوحات العالمية الخالدة.

فهذا ابن عوف وابن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب هم الذين يقودون الأمة التي انطلقت في الأرض تتابع المسيرة، وتحقق الآمال، فيستعيدون شبابهم بهذا الشباب العظيم الذي يملأ الأرض عدلًا بهذا الدين القويم.

٩ - وليس الجيش الإسلامي فقط هو الذي خاض المعركة؛ فهناك من قطعوا إمدادات يزدجرد وكانوا ردءًا وحماية للمسلمين من أن يؤتوا من خلفهم.

(وقد كتب عمر إلى سُلمى بن القين وحرملة بن مريطة وزر بن كليب والمقترب الأسود بن ربيعة وقواد فارس الذين كانوا بين فارس والأهواز:

أن اشغلوا فارس عن إخوانكم وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمري... وبعث مجاشع بن مسعود السلمي إلى الأهواز.

وقال له: انصل منها على ماه. فخرج حتى إذا كان بغضي شجر أمره النعمان أن يقيم مكانه، فأقام بين غضي شجر ومرج القلعة، ونصل سلمى وحرملة وزر والمقترب فكانوا في تخوم أصفهان وفارس، فقطعوا بذلك عن أهل نهاوند أمداد فارس) [٢].

هؤلاء القادة ومعهم أولئك الجنود المجهولون الذين أوقفوا المدد الفارسي من أن يأتي المسلمين من خلفهم هم جزء من المعركة، وشركاء في النصر، وشركاء في المغنم.

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة (٢٩١/١٨).

(٢) تاريخ الطبري (٥٢٥/٢).

(وقسم حذيفة لمن خُلِّفوا بمرج القلعة ولمن أقام بغضي شجر ولأهل المسالح جميعًا في فيء نهاوند مثل الذي قسم لأهل المعركة؛ لأنهم كانوا ردءًا للمسلمين لئلا يؤتوا من وجه من الوجوه) [١].

١٠ - وَفَتَحَتْ نهاوند بقية الفتوح:

فسقط إقليم همذان صلحًا، وسقط كذلك أهل الماهين - ماه دينار وماه بهراذان - صلحًا كذلك.

أما الذي أدرك عظمة هذا الفتح فهو العدو اللدود أبو لؤلؤة الفارسي الذي خطط للانتقام منذ تلك المرحلة.

قال الطبري: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن عمرو بن محمد عن الشعبي قال:

لما قُدم بسبي نهاوند إلى المدينة جعل أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة لا يلقى منهم صغيرًا إلا مسح رأسه وبكى وقال:

أكل عمر كبدي، وكان نهاونديًا، فأسرته الروم أيام فارس، فأسره المسلمون بعد، فنسب إلى حيث سبي) [٢].

وارتفع جند نهاوند إلى مصاف جند القادسية.

وألحق عمر من شهد نهاوند فأبلى من الروادف بلاءً فاضلًا في ألفين ألفين ألحقهم بأهل القادسية.

(وفي هذه السنة أمر عمر جيوش العراق بطلب جيوش فارس حيث كانت، وأمر بعض من كان بالبصرة من جنود المسلمين وحولها بالسير إلى أرض فارس وكرمان وأصبهان، وبعض من كان منهم بناحية الكوفة وماهاتها إلى أصبهان وأذربيجان والري..) [٣].

* * *

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٢٨).

(٢، ٣) المصدر نفسه (٢/٥٣٠).



الفصل الخامس

آثار وقعة نهاوند

لقد هزت المعركة الكيان الفارسي كله، وكانت الطامة بالنسبة ليزدجرد؛ فَقَدْ فَقَدَ جيشه كله، ولم يبق منه إلا الشريد، وفقد كبار قادته قتلًا وأسرًا، ووقع الانهيار الذي يخشاه؛ حيث بدأت الأقاليم التابعة له تسقط واحدًا تلو الآخر بيد المسلمين.

أولًا: همذان:

(قال بعض علماء الفرس: كانت همذان أكبر مدينة بالجبال، وكانت أربعة فراسخ في مثلها، طولها من الجبل إلى قرية يقال لها (زبنواباذ) وكان صنف التجار بها وصنف الصيارف (بسنجاباذ) وكان صنف البزازين في قرية يقال لها (برشيقان).

ويقال: إن بخت نصر بعث إليها قائدًا يقال له صقلاب في خمسمائة ألف رجل، فأناخ عليها وأقام يقاتل أهلها مدة وهو لا يقدر عليها...) [(١)].

همذان هذه التي لم يستطع خمسمائة ألف رجل احتلالها إلا بإغراقها فيما بعد هي هي التي ألقت قيادها للمسلمين خوفًا ورعبًا أن ينزل بها ما نزل في نهاوند (ومضى الفُلال حتى انتهوا إلى مدينة همذان والخيل في آثارهم فدخلوها، فنزل المسلمون عليهم وحووا ما حولها.

فلما رأى ذلك (خسر شنوم) استأمنهم، وقَبِلَ منهم على أن يضمن لهم همذان ودستبي، وأن لا يؤتى المسلمون منهم، فأجابوهم إلى ذلك وأمّنوهم، وأمن الناس، وأقبل كل من كان هرب..).

إنه الأمن للبشرية، وأقبل كل من كان هرب، وأمن الناس؛ فهم يعلمون أن المسلمين لا ينكثون ولا يغدرون ولا يأثمون ولا يعتدون، وسنرى غدر ملوك همذان فيما بعد، لكنهم الآن وهم يرون قوة جند اللّه: ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي (٥/٤١٠، ٤١١) مقتطفات.

ثانيًا: ماه دينار:

ودينار هو ملك المنطقة، وعلى اختلاف روايات صلحه واستسلامه أنه غدر بملوك فارس وعاهد المسلمين، أو أن بطولة العبسي هي التي ألجأته إلى ذلك، لكن الذي يهمنا هو هذه الجماهير الحاشدة التي لا ذنب لها ولا يد لها ولا طول، إنما تُقتَل على دين ملوكها، فيأتي الإسلام إلى هذه الأمم ليعطيها حريتها، ويهدم طغاتها، ويفتح مغاليقها لدين اللَّه، فها هو نص الأمان الثاني لماه دينار:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماه دينار.

١ - أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم.

٢ - لا يُغيَّرون عن ملة.

٣ - ولا يحال بينهم وبين شرائعهم.

٤ - ولهم المنعة ما أدوا الجزية كل سنة إلى من وليهم من المسلمين.

٥ - على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته.

٦ - وما أرشدوا ابن السبيل.

٧ - وأصلحوا الطرق.

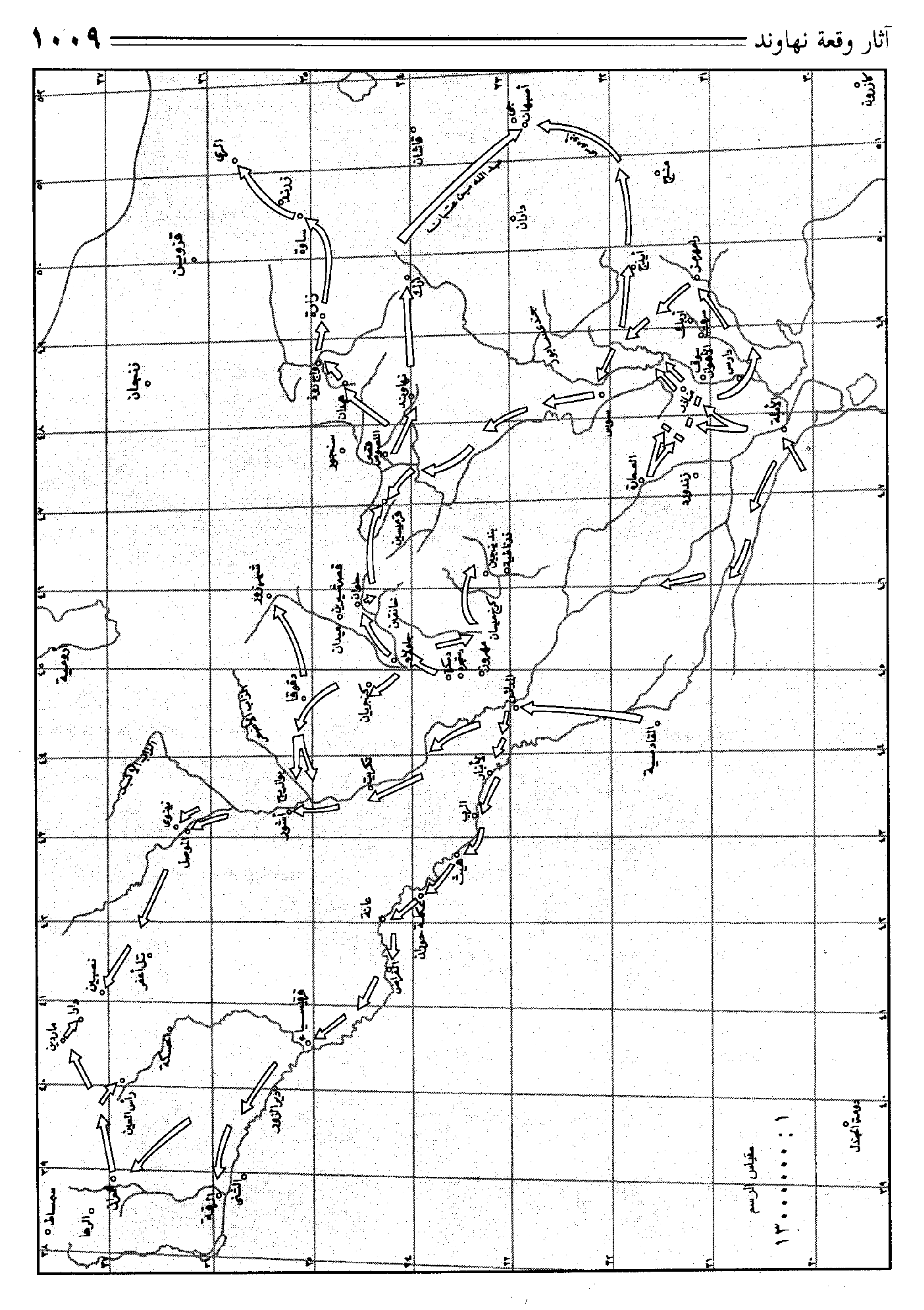
٨ - وقروا جنود المسلمين ممن مر بهم فأوى إليهم يومًا وليلة.

٩ - ونصحوا.

١٠ - فإن غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة.

وشهد القعقاع بن عمرو، ونعيم بن مقرن، وسويد بن مقرن، وكتب في المحرم.

هذه البنود العشرة هي الميثاق الدولي الذي يحتكم إليه المسلمون في تعاملهم مع الأمم، فلهم استقلالهم الذاتي، وحكومتهم المستقلة، وقوانينهم ودستورهم، يربطهم مع دولة الإسلام الصلح معها، والجزية لها، والدولة مسؤولة عن حمايتهم من أي عدو مقابل هذه الجزية والتحالف، والغش هنا هو الصلة مع العدو والتآمر معهم، وعلاقتهم مع المسلمين؛ حيث أصبحت الأقاليم متحالفة متناصحة تقوم على إرشاد السبيل، وإصلاح الطرق، والضيافة للمسلمين يومًا وليلة، وهو التعايش الدائم والمستمر بين المسلمين وغيرهم.



من القادسية إلى الري وأصبهان والجزيرة

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٩٦ - ٩٧) خريطة (٥٤))

ثالثًا: ماه بهراذان:

بسم الله الرحمن الرحيم

(هذا ما أعطى النعمان بن مقرن أهل ماه بهراذان، أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم، لا يغيرون عن ملة، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم، ولهم المنعة ما أدوا الجزية في كل سنة إلى من وليهم على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته ما أرشدوا ابن السبيل، وأصلحوا الطرق، وقروا جنود المسلمين ممن مرَّ بهم فأوى إليهم يومًا وليلة، ووفوا ونصحوا، فإن غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة.

شهد عبد اللّه بن ذي السهمين، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد اللّه. وكتب في المحرم سنة تسع عشرة.

رابعًا: أصبهان:

(منهم من يفتح الهمزة - وهم الأكثر - وكسرها آخرون، وهي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، ويسرفون في وصف عِظمها حتى يتجاوزوا حَدَّ الاقتصاد، وكانت مدينتها أولًا (جيًّا) ثم صارت اليهودية... ولم يكن يحمل لواء ملوك الفرس من آل سيسان إلا أهل أصبهان... وأصبهان صحيحة الهواء نقية الجو، خالية من جميع الهوام، لا تبلى الموتى في تربتها، ولا تتغير فيها رائحة اللحم... قال الهيثم بن عدي: لم يكن لفارس أقوى من كورتين.. أما السهلية فكسكر، وأما الجبلية فأصبهان، وكان خراج كل كورة اثني عشر ألف ألف مثقال ذهبًا، وكانت مساحة أصبهان ثمانين فرسخًا في مثلها، وهي ستة عشر رستاقًا، كل رستاق ثلاثمائة وستون قرية قديمة سوى المحدثة..) [١].

أمراء الحرب على الكوفة:

(كان بين عمل سعد بن أبي وقاص وبين عمل عمار بن ياسر أميران أحدهما عبد اللّه بن عبد اللّه بن عُتبان - وفي زمانه كانت وقعة نهاوند - وزياد بن حنظلة

---

(١) معجم البلدان، لياقوت الحموي (١/٢٠٦، ٢٠٧) مقتطفات.

حليف بني عبد بن قصي، وفي زمانه أُمر بالانسياح وعُزل عبد اللَّه بن عبد اللَّه، وبُعث في وجه آخر من الوجوه.

ووُلِّيَ زياد بن حنظلة، وكان من المهاجرين، وعمل قليلًا، وألح في الاستعفاء فأعفي، ووُلِّي عمار بن ياسر بعد زياد فكان مكانه.

وأمد أهل البصرة بعبد اللَّه بن عبد اللَّه، وأمد أهل الكوفة بأبي موسى، وجعل عمر بن سراقة مكانه... وكتب إلى أهل الكوفة:

إني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميرًا، وجعلت عبد اللَّه بن مسعود معلمًا ووزيرًا، ووليت حذيفة بن اليمان ما سَقَتْ دجلة وما وراءها، ووليت عثمان بن حنيف الفرات وما سقى) [1].

ذِكر الخبر عن أصبهان:

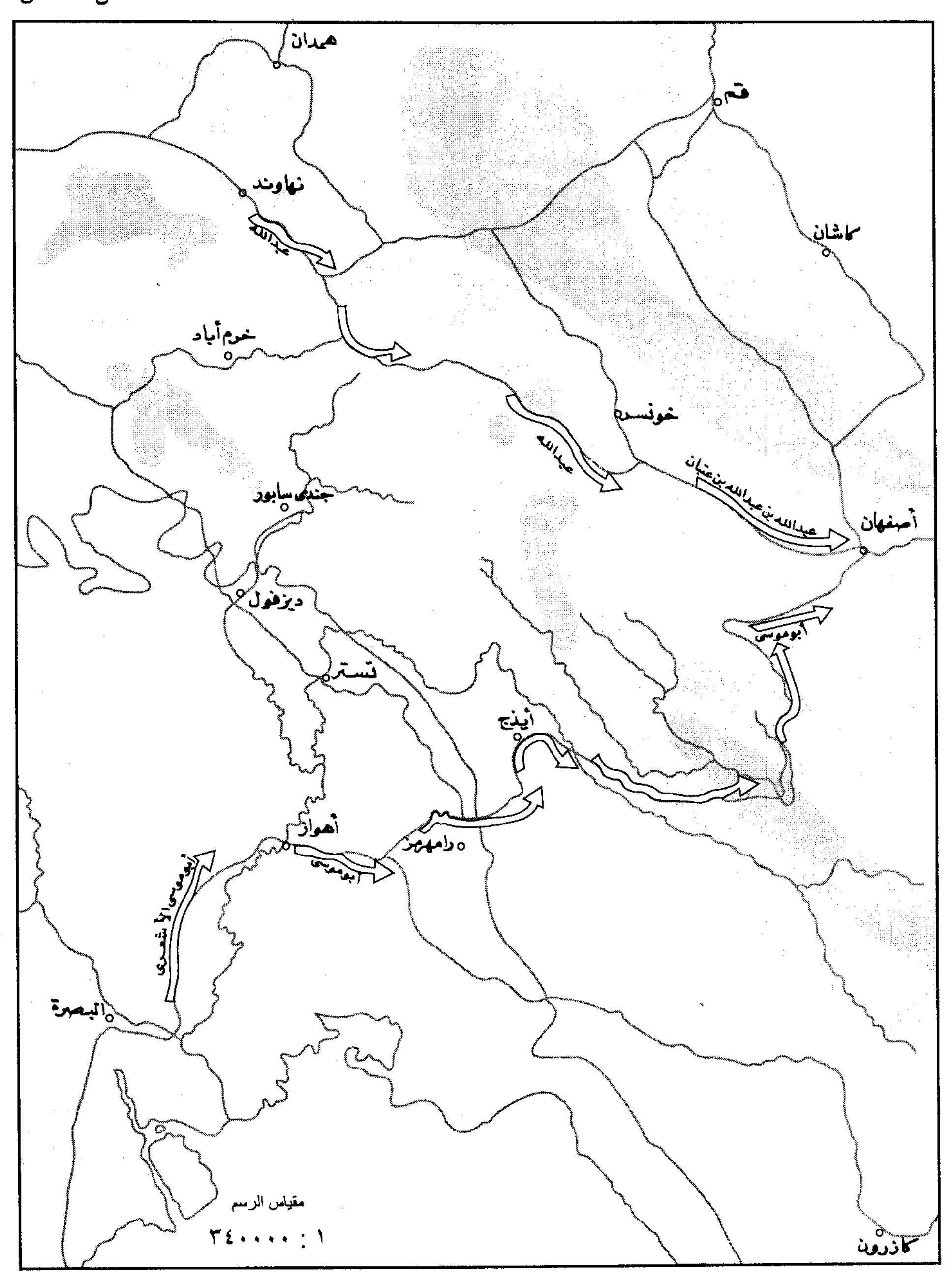
(قالوا: ولما قدم عمار إلى الكوفة أميرًا، وقدم كتاب عمر إلى عبد اللَّه أن سِرْ إلى أصبهان، وزياد على الكوفة، وعلى مقدمتك عبد اللَّه بن ورقاء الرياحي، وعلى مجنبتيك عبد اللَّه بن ورقاء الأسدي، وعصمة بن عبد اللَّه.

فسار عبد اللَّه في الناس حتى قدم على حذيفة، ورجع حذيفة إلى عمله، وخرج عبد اللَّه فيمن كان معه ومن انصرف معه من جند النعمان من نهاوند بنحو جند قد اجتمع له من أهل أصبهان عليهم (الأستندار) وكان على مقدمته (شهر برازجاذويه) شيخ كبير في جمع عظيم، فالتقى المسلمون ومقدمة المشركين برستاق من رساتيق أصبهان، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، ودعا الشيخ إلى البراز، فبرز له عبد اللَّه بن ورقاء فقتله، وانهزم أهل أصبهان، وسمى المسلمون ذلك الرستاق رستاق الشيخ، فهو اسمه إلى اليوم.

ودعا عبد اللَّه بن عبد اللَّه من يليه، فسأل الأستندار الصلح، فصالحهم، فهذا أول رستاق أخذ من أصبهان.

---

(١) تاريخ الطبري (٥٣١/٢).



فتح أصبهان

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٩٨) خريطة (٥٥))

إلى جي العاصمة:

ثم سار عبد اللّه من رستاق الشيخ نحو (جي) حتى انتهى إليها والملك بأصبهان يومئذ (الفاذوسفان) ونزل بالناس على (جي) فحاصرهم، فخرجوا إليه بعد ما شاء اللّه من زحف، فلما التقوا قال الفاسوذفان لعبد اللّه:

لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك، ولكن ابرز لي، فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتني سالمك أصحابي، وإن كان أصحابي لا يقع لهم نشابة. فبرز له عبد اللّه وقال: إما أن تحمل علي وإما أن أحمل عليك.

فقال: أحملُ عليك..

فوقف له عبد اللّه، وحمل عليه الفاذوسفان، فطعنه، فأصاب قربوس سرجه، فكسره، وقطع اللبب والحزام، وزال اللبد والسرج وعبد اللّه على الفرس، فوقع عبد اللّه قائمًا، ثم استوى على الفرس عريًا، وقال له: اثبت.

فحاجزه، وقال: ما أحب أن أقاتلك فإني قد رأيتك رجلًا كاملًا.

ولكن أرجعُ معك إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية، وأقام على ماله، وعلى أن تُجْرُوا من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون، ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه.

قال: لكم ذلك.

وقدم عليه أبو موسى الأشعري من ناحية الأهواز وقد صالح الفاذوسفان عبد اللّه، فخرج القوم من (جي) ودخلوا في الذمة إلا ثلاثين رجلًا من أهل أصبهان خالفوا قومهم، وتجمعوا فلحقوا بكرمان في حاشيتهم لجمع كان بها.

ودخل عبد اللّه وأبو موسى (جي)، و (جي) مدينة أصبهان، وكتب بذلك إلى عمر، واغتبط من أقام، وندم من شخص..) [١].

نص كتاب مصالحة أصبهان:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب من عبد اللّه للفاذوسفان وأهل أصبهان حواليها. إنكم آمنون ما أديتم الجزية.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٣١).

- وعليكم من الجزية بقدر طاقتكم في كل سنة تؤدونها إلى الذي يلي بلادكم عن كل حالم.

- ودلالة المسلم، وإصلاح طريقه، وقراه يومًا وليلة.

- وحُملان الراجل إلى مرحلة.

- لا تسلطوا على مسلم.

- وللمسلمين نصحكم وأداء ما عليكم.

- ولكم الأمان ما فعلتم.

- فإذا غيرتم شيئًا، أو غير مغيِّرٌ منكم ولم تسلموه فلا أمان لكم.

- ومن سبَّ مسلمًا بُلغ منه، فإن ضربه قتلناه.

وكتب وشهد عبد اللَّه بن قيس، وعبد اللَّه بن ورقاء، وعصمة بن عبد اللَّه.

فلما قدم الكتاب من عمر على عبد اللَّه، وأُمر فيه باللحاق بسهيل بن عدي بكرمان، خرج في جريدة خيل، واستخلف السائب، ولحق بسهيل قبل أن يصل إلى كرمان)[1].

قادة الفتوح إلى الجنة

لقد أصبح الطريق معبدًا إلى دخول فارس، وكانت نهاوند بحق فتح الفتوح، وشهد هذا العام وفاة أعظم قادة الفتح الإسلامي ورائد الأبطال والقادة والفاتحين، شهد وفاة خالد بن الوليد ﷺ، وكانت وفاته كما كان عزله حدثًا عاشته الأمة كلها، ويمكن القول كذلك أن هذه الأعوام الثلاثة؛ التاسع عشر والعشرين والحادي والعشرين شهدت رحيل الرعيل الأول من القيادات الكبرى التي غيرت مجرى تاريخ البشرية.

فقد شهدنا في السنة التاسعة عشرة وفاة أبي عبيدة بن الجراح، وشرحبيل ابن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، وغيرهم من القيادات الكبرى.

وشهدنا في السنة العشرين وفاة أسيد بن الحضير سيد الأوس وبلال بن رباح وهو أحد المبشرين بالجنة وعياض بن غنم من السابقين الأولين وقادة الفتوح، وشهدنا في

---

(١) تاريخ الطبري (٥٣٢/٢).

هذه السنة أبطال المعارك الفاصلة في التاريخ يودعون دنياهم بعد أن بنوا أمة وأقاموا دولة وغيروا مجرى التاريخ.

والمعارك الثلاث الكبرى الفاصلة في التاريخ الإسلامي هي اليرموك في الشام والقادسية في العراق ونهاوند في فارس، وقد انتهى قادة هذه المعارك في هذا العام عدا سعد بن أبي وقاص ﷺ قائد المسلمين في القادسية وعمرو بن العاص أحد قادة الفتوح في الشام وفلسطين ومصر.

وها نحن في هذا العام نودع خالد بن الوليد ﷺ قائد معركة اليرموك.

ونودع طليحة بن خويلد ﷺ، وعمرو بن معد يكرب ﷺ أعظم أبطال القادسية.

ونودع النعمان بن مقرن ﷺ قائد معركة نهاوند.

وندع للإمام الحافظ المؤرخ ابن كثير يعرض لنا أهم صفحات هؤلاء القادة العظام:

خالد بن الوليد:

(ابن المغيرة... المخزومي، سيف اللّه، أحد الشجعان المشهورين، لم يُقهَر في جاهلية ولا إسلام، وأمه عصماء بنت الحارث أخت لبابة بنت الحارث وأخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين. قال الواقدي: أسلم أول يوم من صفر سنة ثمانٍ، وشهد مؤتة، وانتهت إليه الإمارة يومئذ عن غير إمرةٍ. فقاتل يومئذ قتالًا شديدًا لم يُرَ مثله، اندقت في يده تسعة أسياف، ولم تثبت في يده إلا صفيحة يمانية، وقد قال رسول اللّه ﷺ: « **أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد اللّه بن رواحة فأصيب، ثم أخذها سيف من سيوف اللّه ففتح اللّه على يديه** ». وقد روي أن خالدًا سقطت قلنسوته يوم اليرموك وهو في الحرب، فجعل يستحث في طلبها، فعوتب في ذلك، فقال: إن فيها شَعْرًا من ناصية رسول اللّه ﷺ وإنها ما كانت معي في موقف إلا نُصرت بها...

وفي الصحيح: « **وأما خالد فإنكم تظلمون خالدًا وقد احتبس أدراعه وأعتُده في سبيل اللّه** ». وشهد الفتح وشهد حنينًا وغزا بني جذيمة أميرًا في حياته - عليه الصلاة والسلام - واختلف في شهوده خيبر، وقد دخل مكة أميرًا على طائفة من الجيش، وقتل خلقًا كثيرًا من قريش كما قدمنا ذلك مبسوطًا في موضعه، وللّه الحمد والمنة. وبعثه رسول اللّه ﷺ إلى العزى - وكانت لهوازن - فكسر قمنها أولًا ثم دعثرها وجعل يقول:

يا عز كفرانك لا سبحانك ... إني رأيت اللّه قد أهانك

ثم حرقها.

وقد استعمله الصِّدِّيق بعد رسول اللَّه ﷺ على قتال أهل الردة ومانعي الزكاة، فشفى واشتفى، ثم وجهه إلى العراق، ثم أتى الشام فكانت له من المقامات ما ذكرناها مما تقر به القلوب والعيون وتتشنف به الأسماع، ثم عزله عمر عنها، ووَلّى أبا عبيدة، وأبقاه مستشارًا في الحرب حتى مات على فراشه رضي الله عنه.

وقد روى الواقدي عن عبد الرحمن بن الزناد عن أبيه قال:

لما حضرت خالدًا الوفاة بكى ثم قال:

« لقد حضرت كذا وكذا زحفًا، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء ».

وقال أبو يعلى... عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال: قال خالد بن الوليد:

« ما ليلة يهدى إليَّ فيها عروس أو أبشَّر فيها بغلام بأحب إليَّ من ليلة باردة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبِّح بهم العدو ».

وقال حماد بن سلمة عن ثمامة عن أنس قال:

لقي خالد عدوًّا له، فولى عنه المسلمون منهزمين، وثبت هو والبراء بن مالك، وكنت بينهما واقفًا، قال: فنكس ساعة إلى الأرض ثم رفع رأسه إلى السماء ساعة. قال: وكذلك كان يفعل إذا أصابه مثل هذا. ثم قال للبراء: قم. فرَكِبا،

واختطب خالد بمن معه من المسلمين وقال:

ما هو إلا الجنة، وما إلى المدينة سبيل.

ثم حمل بهم فهزم المشركين...

وقال عبد اللَّه بن المبارك... عن أبي وائل قال:

ولما حضرت خالد بن الوليد الوفاة قال:

« لقد طلبت القتل في مظانه فلم يقدَّر لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عملي أَرْجى عندي بعد لا إله إلا اللَّه من ليلة بتها وأنا متترِّس والسماء تهلّني إلى الصبح. حتى نغير على الكفار. ثم قال:

إذا أنا متُّ فانظروا إلى سلاحي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل اللَّه ».

فلما توفي خرج عمر على جنازته فذكر قوله:

ما على آل نساء الوليد أن يسفحن على خالد من دموعهن ما لم يكن نقعًا أو لقلقة قال ابن المختار: النقع التراب على الرأس، واللقلقة: الصوت. وقد علق البخاري في صحيحه بعض هذا فقال: وقال عمر: دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة.

وقال محمد بن سعد: ثنا وكيع... عن شقيق بن سلمة قال:

لما مات خالد بن الوليد اجتمع نسوة بني المغيرة في دار خالد يبكين عليه فقيل لعمر: إنهن قد اجتمعن في دار خالد يبكين عليه. فقيل لعمر: إنهن قد اجتمعن في دار خالد يبكين عليه، وهن خلقاء أن يسمعنك بعض ما تكره، فأرسل إليهن فانههن. فقال عمر: وما عليهن أن ينزفن من دموعهن على أبي سليمان ما لم يكن نقعًا أو لقلقة.

ورواه البخاري في التاريخ من حديث الأعمش بنحوه....

وقال سيف بن عمر عن شيوخه عن سالم قال:

فأقام خالد في المدينة حتى إذا ظنّ عمر أنه قد زال ما كان يخشاه من افتتان الناس به، وقد عزم على توليته بعد أن يرجع من الحج، واشتكى خالد بعده وهو خارج من المدينة زائرًا لأمه فقال لها:

احدروني إلى مهاجري. فقدمت به المدينة ومرَّضَتْهُ، فلما ثقل وأظل قدوم عمر لقيه لاقٍ على مسيرة ثلاث صادرًا من حجه، فقال له عمر: مهيم؟ فقال: خالد ابن الوليد ثقيل لما به. فطوى عمر ثلاثًا في ليله، فأدركه حين قضى، فرق عليه واسترجع، وجلس ببابه حتى جهزه وبكته البواكي، فقيل لعمر:

ألا تسمع؟ ألا تنهاهن؟

فقال: وما على نساء قريش أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نقع ولا لقلقة. فلما خرج لجنازته رأى عمر امرأة محرقة تبكيه وتقول:

أنتَ خيرٌ من أَلفِ أَلفٍ منَ النا س إذَا ما كبت وجُوهُ الرِّجال

أَشُجَاعٌ فأنت أشجَعُ مِنْ ليث ضمر بن جَهم أبِي أشْبال
أجوادٌ فأنتَ أجْوَدُ منْ سَيْل دياسٍ يسيلُ بينْ الجبَال

فقال عمر: من هذه؟ فقيل له: أمه. فقال:

وهل قامت النساء عن مثل خالد؟

قال: فكان عمر يتمثل في طيِّه تلك الثلاث في ليله وفي قدومه:

أتبكي مَا وصلت بِه النّدَامى ولَا تبكي فَوارسَ كالجِبَال
أولئك إن بكَيْتَ أشدُّ فقدًا من الإذهاب والعكر الجلال
تمنَّى بعدهم قَومٌ مداهم فلمْ يَدنُوا لأسبَاب الكَمال

وفي رواية أن عمر قال لأم خالد:

أخالدًا أو أجره ترزئين، عزمت عليك أن لا تبيني حتى تسود يداك بالخضاب.

وهذا كله يقتضي موته بالمدينة المنورة، وإليه ذهب دحيم عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي، ولكن المشهور عن الجمهور... أنه مات بحمص سنة إحدى وعشرين.

وقد روى محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد وغيره قالوا:

قدم خالد المدينة بعدما عزله عمر، فاعتمر ثم رجع إلى الشام، فلم يزل بها حتى مات في سنة إحدى وعشرين. وروى الواقدي أن عمر رأى حُجاجًا يصلون بمسجد قباء فقال: أين نزلتم بالشام؟ قالوا: بحمص. قال: فهل من معرفة خبر؟

قالوا: نعم. مات خالد بن الوليد.

فاسترجع عمر وقال:

كان واللَّه سدادًا لنحور العدو، ميمون النقيبة. فقال له علي: لِمَ عزَلْتَه؟

قال: لبذْلِه المال لذَوِي الشَّرف واللسان....

وفي رواية أن عمر قال لعلي: ندمْتُ علَى ما كَان مِنِّي.

وقال محمد بن سعد: أخبرني عبد اللَّه بن الزبير الحميدي، ثنا سفيان بن عيينة، ثنا إسماعيل بن أبي خالد، سمعت قيس بن أبي حازم يقول:

لما مات خالد بن الوليد قال عمر ﷺ: رحم اللَّه أبا سليمان. لقد كنا نظن به أمورًا ما كانت. وقال زكريا الحريري: لما مات خالد لم يوجد إلا فرسه وغلامه وسلاحه.

... وعن أبي علي الحرنازي قال:

دخل هشام بن البختري في ناس من بني مخزوم على عمر بن الخطاب فقال له: يا هشام أنشدني شعرك في خالد. فأنشده فقال:

قصرت في الثناء على أبي سليمان رحمه الله، إنه كان ليحب أن يذل الشرك وأهله، وإن كان الشامت به لمتعرضًا لمقت اللَّه... ثم قال عمر: رحم اللَّه أبا سليمان، ما عند اللَّه خير له مما كان فيه، ولقد مات سعيدًا وعاش حميدًا، ولكن رأيت الدهر ليس بقائل) [1].

طليحة بن خويلد الأسدي:

(.. ابن نوفل.. بن أسد بن خزيمة الأسدي الفقعسي، كان ممن شهد الخندق من ناحية المشركين، ثم أسلم سنة تسع، ووفد على رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة، ثم ارتد بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ في أيام الصديق، وادعى النبوة كما تقدم، وروى ابن عساكر أنه ادعى النبوة في حياة رسول اللَّه ﷺ.... ثم قتل طليحة عكاشة. وله مع المسلمين وقائع، ثم خذله اللَّه على يدي خالد بن الوليد وتفرق جنده، وهرب حتى دخل الشام، فنزل على آل جفنة فأقام عندهم حتى مات الصديق؛ حياءً منه، ثم رجع إلى الإسلام واعتمر، ثم جاء يسلِّمُ على عمر فقال له: اغرب عني فإنك قاتل الرجلين الصالحين؛ عكاشة بن محصن، وثابت بن أقرم. فقال: يا أمير المؤمنين هما رجلان أكرمهما اللَّه على يدي ولم يهني بأيديهما. فأعجب عمر كلامه ورضي عنه، وكتب له بالوصاة إلى الأمراء أن يُشَاوَر ولا يولَّى شيئًا من الأمر، ثم عاد إلى الشام مجاهدًا، فشهد اليرموك، وبعض حروب القادسية ونهاوند الفرس. وذكره محمد بن سعد في الطبقة الرابعة من الصحابة وقال: كان يعد بألف فارس لشدته وشجاعته وصبره بالحرب.

وقال أبو نصر بن ماكولا: أسلم ثم ارتد ثم أسلم وحَسُن إسلامه، وكان يعدل بألف فارس.

وقال سيف بن عمر عن مبشر بن الفضيل عن جابر بن عبد اللَّه قال:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١١٩/٧/٤، ١٢٠).

باللَّه الذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية يريد الدنيا مع الآخرة، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كما هجمنا عليهم من أمانتهم وزهدهم؛ طليحة ابن خويلد الأسدي، وعمرو بن معديكرب، وقيس بن مكشوح. قال ابن عساكر:

ذكر أبو الحسين محمد بن أحمد بن الفراس الوراق أن طليحة استشهد بنهاوند سنة إحدى وعشرين مع النعمان بن مقرن وعمرو بن معديكرب ﷺ) [١].

عمرو بن معديكرب:

(.. ابن عبد اللَّه... بن مذحج الزبيدي المذحجي أبو ثور، أحد الفرسان المشاهير الأبطال والشجعان المذاكير، قدم على رسول اللَّه ﷺ سنة تسع - وقيل: عشر - مع وفد مراد. وقيل: في وفد زبيد قومه. وقد ارتد مع الأسود العنسي فسار إليه خالد ابن سعيد فقاتله، فضربه خالد بن سعيد بالسيف على عاتقه فهرب وقومه، واستلب خالد سيفه الصمصامة، ثم أُسر ودفع إلى أبي بكر، فأنَّبَهُ وعاتبه واستتابه فتاب وحسن إسلامه بعد ذلك، فسيره إلى الشام فشهد اليرموك، ثم أمره بالمسير إلى سعد، وكتب بالوصاة به، وأن يُشَاوَر ولا يولَّى شيئًا، فنفع اللَّه به الإسلام وأهله، وأبلى بلاء حسنًا يوم القادسية. وقيل: إنه قتل بها. وقيل: بنهاوند. وقيل: مات عطشًا في بعض القرى يقال لها روذة، فاللَّه أعلم، وذلك كله في إحدى وعشرين، فقال بعض من رثاه من قومه:

لقدْ غَادر الرُّكبَانُ يومَ تحمَّلوا ... بروذة شْخصًا لا جَبانًا ولا غمرا

فُقْل لزُبيدِ بلْ لمذحَج كُلِّها ... رُزِئْتُم أبا ثور قريع الوغى عمرا

وكان عمرو بن معد يكرب ﷺ من الشعراء المجيدين، فمن شعره:

أعاذلُ عُدَّتي بدني ورُمحي ... وكُلَّ مقلّص سَلِس القياد

أعَاذل إنما أفنَى شبابي ... إجابتي الصَّرِيخَ إلى المنادي

مع الأبطَال حتَّى سلَّ جسمي ... وأقرح عاتقي حمل النجاد

ويبْقَى بعْدَ حِلْم القْومِ حِلمي ... ويفْنى قبْلَ زَادِ القوْم زَادي

تمنَّى أن يلَاقيني قيس ... ودَدتُ وأينما مِنِّي ودادي

فمنْ ذا عاذِري منْ ذِي سفاه ... يرود بنفْسِه مِني المرادي

---

(١) البداية والنهاية (١٢٢/٧/٤).

أريدُ حيَاتَه ويُريدُ قَتلي عُذَيرك مِن خَلِيلك مِنْ مُرادي

له حديث واحد في التلبية رواه شرحبيل بن القعقاع عنه قال: كنا نقول في الجاهلية إذا لبينا:

لبيك تعظيمًا إليك عذرا هذي زبيد قد أتتك قسرًا
يعدو بها مضمرات شزرا يقطعن خبتًا وجبالًا وعرا
قد تركوا الأوثان خلوًا صفرًا

فنحن نقول الآن ولله الحمد كما علمنا رسول الله ﷺ: « **لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك** » [1].

النعمان بن مقرن المزني:

(أمير وقفة نهاوند، صحابي جليل، قدم مع قومه من مزينة في أربعمائة راكب، ثم سكن البصرة، وبعثه الفاروق أميرًا على الجنود على نهاوند ففتح الله على يديه فتحًا عظيمًا، ومكن الله في تلك البلاد، ومكنه من رقاب أولئك العباد، ومكَّن به للمسلمين هنالك إلى يوم التناد، ومنحه النصر في الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وأتاح له بعدما أراه شهادة عظيمة، وذلك غاية المراد....) [2].

أهم أحداث هذا العام

١ - وفاة واستشهاد القادة العظام.

٢ - بروز جيل الشباب الجديد من أبناء الصحابة:

(واجتمع الناس إلى الأشعث بن قيس، وفيهم ابن عمر، وابن الزبير، و....) [3].

(وفيها غزا عبد الله وعبد الرحمن ابنا عمر، وأبو سروعة، فقدموا مصر، فشرب عبد الرحمن وأبو سروعة الخمر، وكان من أمرهما ما كان) [4].

والذي كان من أمرهما أن أقيم عليهما الحد، ولو كان ابن أمير المؤمنين.

---

(١) البداية والنهاية (١٢٢/٧/٤).
(٢) المصدر نفسه (١٢٣/٧/٤).
(٣، ٤) تاريخ الطبري (٥٣٤/٢).

٣ - ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥]:

(وفيها وَلَّي عمر بن الخطاب عمار بن ياسر على الكوفة، وابن مسعود على بيت المال، وعثمان بن حنيف على مساحة الأرض، فشكا أهل الكوفة عمارًا، فاستعفى عمار عمر ابن الخطاب، فأصاب جبير بن مطعم خاليًا، فولاه الكوفة، فقال: لا تذكره لأحد..).

٤ - المغيرة الداهية:

(فبلغ المغيرة بن شعبة أن عمر خلا بجبير بن مطعم، فرجع إلى امرأته، فقال لها: اذهبي إلى امرأة جبير بن مطعم، فاعرضي عليها طعام السفر. فأتتها فعرضت عليها فاستعجمت عليها، ثم قالت: نعم، فجيئيني به.

فلما استيقن المغيرة بذلك جاء إلى عمر فقال:

بارك اللَّه لك فيمن وليت. قال: فمن وليت؟ فأخبره أنه ولى جبير بن مطعم.

فقال عمر: لا أدري ما أصنع!! وولى المغيرة بن شعبة الكوفة، فلم يزل واليًا عليها حتى مات عمر) [١].

٥ - وماذا عن الشام؟

(وحدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: كان بالشام في سنة إحدى وعشرين غزوة معاوية بن أبي سفيان، وعمير بن سعد الأنصاري على دمشق والبثنية وحوران وحمص وقنسرين والجزيرة، ومعاوية على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وإنطاكية ومعرة مصرين وقلقية، وعند ذلك صالح أبو هاشم بن عتبة ابن ربيعة على قلقية وإنطاكية ومعرة مصرين) [٢].

٦ - ولادة الزعيمين الشعبيين الداعيتين:

(وقيل: فيها ولد الحسن البصري، وعامر الشعبي) [٣].

٧ - الولاة الباقون:

(قال الواقدي: وفيها حج بالناس عمر بن الخطاب، وخلف على المدينة زيد ابن ثابت، وكان عامله على مكة والطائف واليمن واليمامة والبحرين والشام ومصر

(١ - ٣) تاريخ الطبري (٢/٥٣٤).

والبصرة من كان عليها في سنة عشرين، وأما الكوفة فإن عامله عليها عمار بن ياسر، وكان إليه الأحداث وإلى عبد اللّٰه بن مسعود بيت المال، وإلى عثمان بن حنيف الخراج، وإلى شريح فيما قيل القضاء) [١].

عمرو بن العاص فاتح ليبيا وعمرو القائد

فتح الفيوم:

حدثنا سعيد بن عفير وغيره قال: لما تم الفتح للمسلمين بعث عمرو جرائد الخيل إلى القرى التي حولها فأقامت الفيوم سنة لم يعلم المسلمون بمكانها حتى أتاهم رجل فذكرها لهم، فأرسل عمرو معه ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفي، فلما سلكوا في المجابة فلم يروا شيئًا فهموا بالانصراف.

فقالوا: لا تعجلوا، سيروا فإن كان كذب فما أقدركم على ما أردتم. فلم يسيروا إلا قليلًا حتى طلع لهم سواد الفيوم فهجموا عليها فلم يكن عندهم قتال وألقوا بأيديهم [٢].

وبعث عمرو بن العاص نافع بن عبد القيس الفهري، وكان نافع أخا العاص بن وائل لأمه، فدخلت خيولهم أرض النوبة صوائف كصوائف الروم، فلم يزل الأمر كذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر وأمر عبد اللّٰه بن سعد بن أبي سرح فصالحهم [٣].

فتح برقة:

قال: فسار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية [٤].

(وحدثني محمد عن سعد بن الواقدي عن مسلمة بن سعيد عن إسحاق بن عبد اللّٰه ابن أبي فروة قال: كان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث، فكانوا أخصب قوم بالمغرب ولم يدخلها فتنة. قال الواقدي: وكان عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص يقول: لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلًا أَسْلَمَ ولا أَعْزَلَ منها) [٥].

---

(١) تاريخ الطبري (٥٣٤/٢).
(٢) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٦٩).
(٣ ، ٤) المصدر نفسه (ص ١٧٠).
(٥) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٢٦).

(وحدثني بكر بن الهيثم قال: حدثنا عبد اللّه بن صالح عن معاوية بن صالح قال: كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب، فبلغ زويلة، وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم، قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعًا أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها إلى الفقراء، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر، ومن أهل الصلح صلحهم) (١).

فتح أطرابلس:

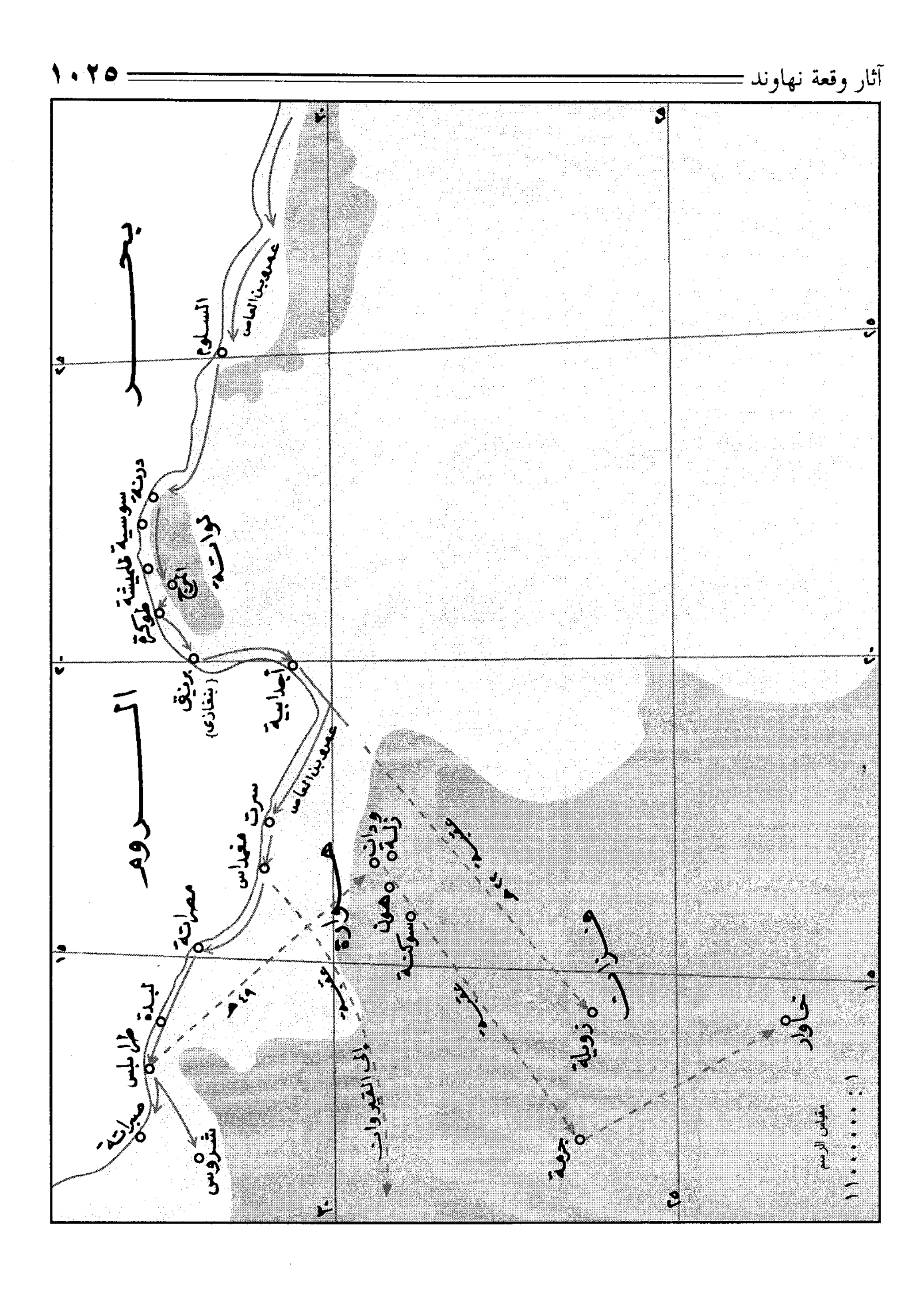
قال (٢): ثم سار عمرو بن العاص حتى نزل أطرابلس في سنة اثنتين وعشرين. حدثنا يحيى بن عبد اللّه بن بكير عن الليث بن سعد قال: غزا عمرو بن العاص أطرابلس في سنة ثلاث وعشرين، ثم رجع إلى حديث عثمان فنزل على القبة التي على الشرف من شرقها فحاصرها شهرًا لا يقدر منهم على شيء، فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم في معسكر عمرو متصيدًا في سبعة نفر فمضوا غربي المدينة حتى أمعنوا عن العسكر، ثم رجعوا فأصابهم البحر، فأخذوا على ضفة البحر، وكان البحر لاصقًا بسور المدينة، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور، وكانت سفن الروم شارعة في مرساها إلى بيوتهم، فنظر المدلجي وأصحابه فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة، ووجدوا مسلكًا إليها من الموضع الذي غاض فيه البحر، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم، وأبصر عمرو وأصحابه السلة في جوف المدينة، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم، وغنم عمرو ما كان في المدينة (٣).

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٢٦).

(٢) كل روايات ابن عبد الحكم عن سعيد بن عفير قال عنه ابن حجر: صدوق عالم بالأنساب وغيرها، قال الحاكم: يقال: إن مصر لم تخرج أجمع للعلوم منه.

(٣) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٧١).



فتوح برقة والمغرب

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٦٨) خريطة (١٠٢))

(وكان من بسبرت متحصنين، واسمها نبارة، وسبرت السوق القديم، فلما بلغهم محاصرة مدينة أطرابلس وأنه لم يصنع فيهمْ شيئًا ولا طاقة له بهم أمنوا، فلما ظفر عمرو بن العاص بمدينة أطرابلس جرد خيلًا كثيفًا من ليلته وأمرهم بسرعة السير، فصبحت خيله مدينة سبرت وقد غفلوا، وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم فدخلوها فلم ينجُ منهم أحد، واحتوى جند عمرو على ما فيها ورجعوا إلى عمرو) [١].

الاستئذان في غزو إفريقية:

(وأراد عمرو أن يوجه إلى المغرب فكتب إلى عمر بن الخطاب كما حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن أبي تميم الجيشاني: إن اللَّه قد فتح علينا أطرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها اللَّه على يديه فعل. فكتب إليه عمر: إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت) [٢].

(وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئًا فكانوا يغدرون به كثيرًا، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم، وكان خبرهم قد بلغ عمر) [٣].

(قال: ثم رجع إلى حديث عثمان بن صالح وغيره قال: فأتى عمرو بن العاص كتاب المقوقس يذكر فيه أن الروم يريدون نكث العهد ونقض ما كان بينهم وبينه، وكان عمرو قد عاهد المقوقس على أن لا يكتمه أمرًا يحدث، فانصرف عمرو راجعًا مبادرًا لما أتاه، وقد كان عمرو يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون) [٤].

الفتح الثاني للإسكندرية:

(فلما هزم اللَّه تبارك وتعالى الروم وفتح الإسكندرية، كما حدثنا عبد اللَّه بن صالح عن الليث، وهرب الروم في البر والبحر، خلف عمرو بن العاص بالإسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم).

قال: وكانت الإسكندرية كما حدثنا عبد اللَّه بن صالح عن الليث بن سعد عن يزيد ابن أبي حبيب انتقضت وجاءت الروم عليها منويل الخصي في المراكب حتى أرسوا في

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ١٧٢).
(٢) المصدر نفسه (ص ١٧٣).
(٣) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٢٧).
(٤) فتوح مصر وأخبارها (ص ٨٠).

الإسكندرية، فأجابهم من بها من الروم، ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث، وقد كان عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص وولى عبد اللَّه بن سعد، فلما نزلت الروم الإسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عَمْرًا حتى يفرغ من قتال الروم؛ فإن له معرفة بالحرب وهيبة في العدو، ففعل، وكان على الإسكندرية سورها، فحلف عمرو بن العاص لئن أظهره اللَّه عليهم ليهدمن سورها حتى تؤتى من كل مكان، فخرج إليهم عمرو في البحر والبر. قال غير الليث: وضوى إلى المقوقس من أطاعه من القبط، فأما الروم فلم يطعه منهم أحد، فقال خارجة بن حذافة لعمرو: ناهضهم قبل أن يكثر مددهم، ولا آمن أن تنقض مصر كلها. فقال له عمرو:

لا، ولكن أدعهم حتى يسيروا إليَّ؛ فإنهم يصيبون من مروا به فيخزي اللَّه بعضهم ببعض. فخرجوا من الإسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى، فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينتهبون ما مروا به، فلم يعرض لهم عمرو حتى بلغوا نقيوس فلقوهم من البر والبحر، فبدأت الروم والقبط فرموا بالنشاب في الماء رميًا شديدًا حتى أصابت النشاب فرس عمرو في لبته وهو في البر فعقر فنزل عنه عمرو، ثم خرجوا من البحر فاجتمعوا هم والذين في البر فنضحوا المسلمين بالنشاب، فاستأخر المسلمون عنهم شيئًا وحملوا على المسلمين حملة ولى منها المسلمون وانهزم شريك ابن سمي في خيله.

وكانت الروم قد جعلت صفوفًا خلف صفوف، وبرز يومئذ بِطْرِيقٌ ممن جاء من أرض الروم على فرس له عليه سلاح مُذَهَّبٌ، فبرز إليه رجل من زبيد يقال له حومل يكنى أبا مذحج، فاقتتلا طويلًا برمحين يتطاردان، ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف، وألقى حومل رمحه وأخذ سيفه، وكان يُعرف بالنجدة، وجعل عمرو يصيح أبا مذحج فيجيبه لبيك، والناس على شاطئ النيل في البر على تعبئتهم وصفوفهم، فتجاولا ساعة بالسيفين، ثم حمل عليه البطريق فاحتمله، وكان نحيفًا، ويخترط حومل خنجرًا كان في منطقته أو في ذراعه، فضرب به نحر العلج أو ترقوته فأثبته، ووقع عليه فأخذ سلبه، ثم مات حومل بعد ذلك بأيام رَحِمَهُ اللَّهُ، فرئي عمرو يحمل سريره بين عمودي نعشه حتى دفنه بالمقطم، ثم شد المسلمون عليهم فكانت هزيمتهم، فطلبهم المسلمون حتى ألحقوهم بالإسكندرية، ففتح اللَّه عليهم وقتل منويل الخصي.

وبني في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجده، وهو المسجد الذي بالإسكندرية الذي يقال له مسجد الرحمة، وإنما سمي مسجد الرحمة لرفع عمرو السيف هنالك وهدم سورها كله.

وجمع عمرو ما أصاب منهم، فجاء أهل القرى ممن لم يكن نقض فقالوا:

كنا على صلحنا وقد مر علينا هؤلاء اللصوص فأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك. فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه وأقاموا عليه البينة، وقال بعضهم لعمرو: ما حلّ لك ما صنعت بنا، كان لك أن تقاتل عنا؛ لأنا في ذمتك ولم ننقض، فأما من نقض فأبعده اللّه. فندم عمرو وقال: يا ليتني لقيتهم حين خرجوا من الإسكندرية.

وكان سبب نقض الإسكندرية هذا كما حُدِّثنا عن حيوة بن شريح عن الحسن ابن ثوبان عن هشام ابن أبي رقية أن صاحب إخنا قدم على عمرو بن العاص فقال: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصير لها. فقال عمرو وهو يشير إلى كنيسة: لو أعطيتني من الركن إلى السقف ما أخبرتك، إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم. فغضب صاحب إخنا فخرج إلى الروم فقدم بهم فهزمهم اللّه وأسر القبطي، فأتي به عمرو، فقال الناس: اقتله.

فقال: لا، انطلق فجئنا بجيش آخر.

حدثنا سعيد بن سابق قال: كان اسمه طلما. وأن عمرًا لما أتي به سوّره وتوجَهُ وكساه برنس أرجوان وقال له: إيتنا بمثل هؤلاء. فرضي بأداء الجزية، فقيل لطلما:

لو أتيت ملك الروم. فقال:

لو أتيته لقتلني. وقال: قتلت أصحابي.

* * *
* *
*

الفصل السادس

أبواب فارس تفتح أمام المسلمين

نتائج وآثار معركة نهاوند

وندع الحديث في هذا الموضوع للمؤرخ الأستاذ سامي بن عبد اللَّه المغلوث صاحب الأطالس الشهيرة للتاريخ الإسلامي إذ يقول:

١ - المجال السياسي:

بعد معركة نهاوند تغيرت خريطة العالم القديم الذي كانت تتنازعه دولتا الفرس والروم، وذلك بزوال دولة الفرس المجوسية، وسطوع نجم الدولة الإسلامية الفتية.

٢ - المجال الاستراتيجي:

أصبحت جميع بلاد فارس مفتوحة أمام المجاهدين المسلمين؛ إذ أصبح ممكنًا اتخاذ الأراضي الواقعة شرق دجلة قاعدةً لانطلاق الجيوش الإسلامية، ولا سيما بعد أن فتح المسلمون العراق والأقاليم الواقعة على شمال الخليج العربي، خصوصًا إذا عرفنا أن إقليم خوزستان (الأهواز) قد فتح بالكامل، واعتنق حاكمه الهرمزان الإسلام.

٣ - المجال العسكري:

اكتسب الجندي المسلم صلابة وقوة مكنته من انتزاع النصر في أحلك الظروف، واستمرارًا لتحقيق النصر قرر الخليفة عمر ﷺ تقسيم الجيش إلى عدة ألوية، وعيَّن على كل لواء قائدًا، وَوَجَّهَ كل لواء بقائده إلى إقليمٍ من أقاليم الدولة الفارسية على النحو التالي:

أ – الجبهة الشمالية:

وتشمل الأقاليم الواقعة غرب بحر الخزر (قزوين) حتى نهاية جبل القوقاس وأرمينية؛ حيث فتحت قزوين والديلم وإقليم أذربيجان وأرمينية والقفقاس والقوقاز وجرجان وطبرستان.

ب - الجبهة الجنوبية:

وكانت في إقليم مكران وهو أقصى البلاد الفارسية من الجنوب، وتقع سواحله على خليج عمان وجزء من الخليج العربي. انتصر المسلمون فيها انتصارًا مؤزرًا على المجوس، ودخل المسلمون على أثرها مكران.

جـ - الجبهة الوسطى والشرقية:

والتي تقسم إلى أربعة أقاليم كبرى؛ هي الإقليم الجبلي، إقليم فارس، إقليم خراسان، إقليم سجستان.

- **الإقليم الجبلي**: في غربي بلاد فارس: بعد معركة نهاوند الحاسمة سير الخليفة عمر ﷺ جيوشه إلى مدن هذا الإقليم ومن بينها أصفهان، وإعادة فتح همذان، وواج روذ بين همذان وقزوين.

- **إقليم فارس**: يقع هذا الإقليم وسط إيران؛ حيث توجهت إليه الجيوش الإسلامية على النحو التالي: إصطخر عاصمة فارس، وفسا ودارابجراد، وكرمان.

- **إقليم خراسان**: يؤلف هذا الإقليم الجزء الشرقي للدولة الفارسية، وكان الأحنف ابن قيس أبرز قادة فتح هذا الإقليم، وبعد أن أبلى بلاء طيبًا في معركة نهاوند وَلَّاه الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فتح خراسان، ففتح هراة عنوة، وسار نحو مرو، فكتب يزدجرد مستنجدًا بخاقان الترك وملك الصفد وملك الصين، وحينما دخل المسلمون مرو فرَّ يزدجرد إلى بلخ، وبعد أن فتحت بلخ فرَّ يزدجرد إلى سمرقند إلى أن قتله الفرس أنفسهم، وقضي على آخر أمل للدولة المجوسية.

- **إقليم سجستان**: يشغل هذا الإقليم أجزاء كبيرة من إيران وأفغانستان، ويطلق عليه سجستان أو سيستان) [١].

لقد أصبحت خريطة الإمبراطورية الفارسية واضحة أمامنا للعيان بعد هذا الوصف الدقيق للمؤرخ المغلوث - حفظه اللَّه - ونلحظ أن هذه الخريطة كانت أمام أمير المؤمنين كأنه هو الذي رسمها، فهو يريد أن يغزو فارس من جميع وكافة الاتجاهات بحيث تسقط كاملة، وكأن للقواد وأركان الحرب عنده سجلًا حافلًا

---

(١) أطلس الخليفة عمر بن الخطاب (ص ١٢٦) للأستاذ سامي المغلوث.

بتاريخ وحياة كلٍّ منهم، فيعرف أين يوجه وكيف يوجه وكيف يقود المعركة وهو في المدينة؛ فخراسان في أقصى الشمال الشرقي، وأردشير في الجنوب الغربي، وإصطخر في قلب بلاد فارس وعاصمة الإقليم، وسجستان شرق فارس، وكرمان ومكران في الوسط والجنوب الشرقي؛ فقد كانت خطة جريئة أن تغزو فارس من كل الجهات إضافة إلى سقوط أصبهان وهمذان ونهاوند.

وسنقف مع هذه الفتوحات خطوة خطوة ونشهد تحرك الإسلام فيها:

إعادة فتح همذان

وكان كتاب عمر إلى نُعيم بن مقرِّن:

أن سر حتى تأتي همذان، وابعث على مقدمتك سويد بن مقرِّن، وعلى مجنبتيك ربعي بن عامر ومهلهل بن زيد - هذا طائي وذاك تميمي - فخرج نُعيم بن مقرِّن في تعبئته حتى نزل ثنية العسل. وإنما سميت ثنية العسل بالعسل الذي أصابوا فيها غب وقعة نهاوند حيث اتبعوا الفالَّة (الهاربين)...

ثم انحدر نعيم من الثنية حتى نزل على مدينة همذان كلها، فلما رأى ذلك أهل المدينة سألوا الصلح على أن يجريهم ومن استجاب مجرى واحدًا، ففعل، وقبل منهم الجزاء على المنعة.

وفرَّق دستبى [1] بين نفرٍ من أهل الكوفة؛ بين عصمة بن عبد اللَّه الضبِّي ومهلهل ابن زيد الطائي وسماك بن عبيد العبسي وسماك بن مخرمة الأسدي وسماك بن خرشة الأنصاري، فكان هؤلاء أول من ولي دستبى، وقاتل الديلم...

مؤامرة كبرى جديدة ونصر مؤزر:

(فبينا نعيم في مدينة همذان في توطئتها في اثني عشر ألفًا من الجند.

- تكاتب الديلم وأهل الري وأهل أذربيجان.

- ثم خرج (موتا) في الديلم حتى ينزل بواج روذ.

---

(١) دستبى: كورة كبيرة كانت مقسومة بين الري وهمذان.

- وأقبل (الزينبي) أبو الفرُّخان في أهل الري حتى انضم إليه.

- وأقبل (إسفنديار) أخو رستم في أهل أذربيجان حتى انضم إليه.

- وتحصن أمراء مسالح (دستبي) وبعثوا إلى نُعيم بالخبر.

- فاستخلف يزيد بن قيس، وخرج إليهم في الناس حتى نزل عليهم بواج الروذ.

- فاقتتلوا بها قتالًا شديدًا، وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند، ولم تكن دونها.

- وقتل من القوم مقتلة عظيمة لا يُحصون، ولا تقصر ملحمتهم من الملاحم الكبار.

- وقد كانوا كتبوا إلى عمر باجتماعهم ففزع منها عمر، واهتم بحربها، وتوقع ما يأتيه عنهم.

- فلم يفجأه إلا البريد بالبشارة فقال: أبشير؟ قال: بل عروة. فلما ثَنَّى عليه: أبشير؟ فَطِنَ، فقال: بشير. فقال عمر: رسول نُعيم؟ قال: رسول نعيم. قال: الخبر؟

قال: البشرى بالفتح والنصر. وأخبره الخبر، فحمد اللَّه، وأمر بالكتاب فقرئ على الناس، فحمدوا اللَّه.

- ثم قدم سماك بن مخرمة، وسماك بن عبيد، وسماك بن خرشة في وفود من أهل الكوفة، فنسبهم، فانتسب له سماك وسماك وسماك، فقال:

بارك اللَّهم فيكم، اللَّهم اسمُكْ بهم الإسلام، وأيدهم بالإسلام.

- فكانت دستبي من همذان ومسالحها إلى همذان.

- حتى رجع الرسول إلى نُعيم بن مقرِّن بجواب عمر بن الخطاب:

أما بعد، فاستخلف على همذان، وأمد بكير بن عبد اللَّه بسماك بن خرشة.

- وسر حتى تقدم الري فتلقى جمعهم ثم أقم بها؛ فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد).

فأقر نُعيم يزيد بن قيس الهمذاني على همذان، وسار من واج الروذ بالناس إلى الري.

- وقال نُعيم في واج الروذ:

لما أتَاني أنَّ (موتا) ورهْطَه — بَني باسِل جَرُّوا جنُوَد الأعَاجِم

نهضْتُ إليهم بالجُنود مساميًا ... لأمنعَ منهُم ذِمّتي بالقَواصم
فجْئنا إليهم بالحِديد كأننا ... جِبالٌ تُراءى من فُروع القلاسم
فلما لقيناهم بها مستفيضَةً ... وقد جَعلُوا يسمُون فِعلَ المساهم
صدمناهم في وَاج رُوذ بجمْعِنا ... غَداةَ رميْنَاهم بإحدَى العظَائم
فما صبروا في حَومَةِ الموت ساعة ... لحد الرمَاح والسيُوفِ الصَّوارم
كأنهم عند انبِثَاث جمُوعهم ... جدَارٌ تلظَّى لَبنُه لِلهَوَادم
أصبنا بها (موتا) [1] ومنْ لَفّ جمْعُه ... وفيها نهَاب قسمه غَيْر عاتم
تبِعناهم حتَّى أووا في شِعَابهم ... نُقتِّلهم قَتْل الكِلَاب الجَواحم
كأنهم في واج روذ وجوّه ... ضَئين أصابتْها فرُوج المخَارم

- وسماك بن مخرمة هو صاحب مسجد سماك.

- وأعاد فيهم نعيم كتاب صلح همذان، وخلَّف عليهم يزيد بن قيس الهمذاني. وسار بالجنود حتى لحق بالري، وكان أول نسل الديلم من العرب. وقاولهم فيه نُعيم).

* * *

١ - إن قضية غدر العدو على الجبهة الفارسية تكاد تكون ظاهرة عامة.

فكثير من الأقاليم والقرى فتحت عدة مرات؛ حيث ينكث الحاكم حين يرى أزمة عند المسلمين، أو يأتيه أزُمُن كسرى وولاته، وهمذان نموذج من هذه النماذج، فحين وَقَّعَ (خسرو شنوم) عهده مع المسلمين وصالحهم - وذلك حين حصره القعقاع ونعيم بن مقرن لم يكن له خيار من ذلك، وما أن مضى الجيش الإسلامي حتى أعلن نكثه (وقد كان حذيفة أتبع الفالة - فالة نهاوند - نعيم بن مقرن والقعقاع بن عمرو فبلغا همذان، فصالحهم خسرو شنوم، فرجعا عنهم، ثم كفر بعد.

٢ - والسكوت على النكث دون المعالجة السريعة يفتح المجال للاقتداء به، فينكث بقية المعاهدين تباعًا. وهذه الظاهرة هي التي أقلقت عمر ﷺ وما أن بلغ الأمر أمير المؤمنين حتى وجَّه خطابه إلى نُعيم بن مقرن - وهو قائد الفتح الأول - أن سر

---

(١) موتا: قائد الديلم.

حتى تأتي همذان، وابعث على مقدمتك سويد بن مقرِن وعلى مجنبتيك ربعي ابن عامر، ومهلهل بن زيد...).

فلم يكتف أمير المؤمنين بتحديد القائد العام، إنما حدَّد كذلك قائد المقدمة وقائد الميمنة وقائد الميسرة.

ثم انحدر نعيم من الثنية حتى نزل على مدينة همذان وقد تحصنوا منهم، فحصرهم فيها).

٣ - وقد كانت خطةً حربية بارعة أن حاصر الجيش الفارسي في همذان، بينما مضى القسم الآخر من الجيش الإسلامي يفتح كل الكور التابعة لها، وهي كما ذكر علماء الفرس أكبر مدينة بالجبال.

(وأخذ ما بين ذلك وما بين جرميذان، واستولوا على بلاد همذان كلها).

وهذا هو الذي اضطر أهل المدينة للمصالحة بعد أن رأوا سقوط كل البلاد (فلما رأى ذلك أهل المدينة سألوا الصلح على أن يجريهم ومن استجاب مجرًى واحدًا، ففعل وقبل منهم الجزاء على المنعة).

إن جيش النبوة لا يمكن أن يكون هدفه الانتقام أبدًا، ومن أجل ذلك لم يكن عند قادة الجيش الإسلامي أي حرج في تعاملهم معهم تعامل المصالحين لا المحاربين؛ فالإنسان هو الهدف، والوصول إلى قلبه وعقله هو الغاية.

٤ - لكن لا يمكن أبدًا أن يلْدَغ المؤمن من جحر مرتين؛ فبعد الغدر والنكث لا بد من خطة جديدة تحول بينه وبينهم مرة ثانية، وكانت هذه الخطة العظيمة. هي توزع القيادات الإسلامية على كل أرض همذان؛ تقيم فيها، وترقب كل التحركات والمحاولات للاتصال بفارس ويزدجرد وجيوشه. وفرَّق دَستبي بين نفر من أهل الكوفة، بين عصمة بن عبد اللَّه الضبي ومهلهل بن زيد الطائي وسماك بن عبيد العبسي وسماك بن مخرمة الأسدي وسماك بن خرشة الأنصاري، فكان هؤلاء أول من ولي مسالح دَستبي وقاتل الديلم.

٥ - إن إرث الإمبراطورية الفارسية لا يمكن أن ينهار بين لحظة وأخرى، وإن خبرات القرون المتراكمة في المجالات العسكرية والسياسية لا يمكن أن تهدر بضربة

قاصمة، ومع أن نهاوند قد كانت الضربة القاصمة، لكن سرعان ما أعاد يزدجرد تجميع قواته؛ فلا تزال بلاد فارس كلها تحت سطوته، وعاد الحشد الهائل من جديد من جميع أنحاء فارس.

(فبينا نعيم في مدينة همذان في توطئتها في اثني عشر ألفًا من الجند تكاتب الديلم وأهل الري وأهل أذربيجان - وأذربيجان ممن نكث العهد كذلك -

ثم خرج موتا في الديلم حتى نزل بواج روذ.

وأقبل الزينبي أبو الفرُّخان في أهل الري حتى انضم إليه.

وأقبل إسفنديار أخو رستم في أهل أذربيجان حتى انضم إليه).

٦ - وبدت هنا حكمة الإبقاء على مسالح دستبي من القيادات الكبرى؛ حيث أمكن إيقاف الزحف نحو أرض الإسلام من خلال وجودهم فيها.

(وتحصن أمراء مسالح دستبى وبعثوا إلى نُعيم بالخبر، فاستخلف يزيد بن قيس، وخرج إليهم في الناس حتى نزل بواج الروذ).

إن ساحة هذه المعركة في قلب فارس، ومع ذلك فالصلة مباشرة بين أمير المؤمنين وقائده نُعيم، والأوامر يتلقاها تباعًا من المدينة لا عن طريق حذيفة قائد جيوش المشرق المرابطة في نهاوند.

(وقد كانوا كتبوا إلى عمر باجتماعهم، ففزع عمر منها، واهتم بحربها، وتوقع ما يأتيه عنهم.

٧ - إنها نهاوند جديدة، وإذا كان النعمان بن مُقرِّن بطل نهاوند، فهذا نُعيم ابن مقرن أخوه في مواجهة هذا الزحف الجديد، وكلاهما أخوان من أرومة واحدة، سليلا بيت الإيمان العظيم، بيت آل مقرِّن.

(واقتتلوا قتالًا شديدًا، وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند، ولم تكن دونها، وقتل من القوم مقتلة عظيمة لا يحصون ولا تقصر ملحمتهم عن الملاحم الكبار؛ ولذلك عاشها عمر ﷺ على أعصابه، فلم يُعدَّ لها الإعداد الكافي الذي كان لنهاوند، وتم الاكتفاء الذاتي بالجيش الإسلامي المرابط في نهاوند، وأعجب ما نراه في هذه المعركة العظيمة أنها لا تحمل اسمًا معينًا، وعادلت نهاوند بالثبات والصبر والنصر على العدو،

حتى لا نجد فيها اسمًا لامعًا يلفت الأنظار؛ إذ مضى القادة العظام الكبار في القادسية ونهاوند.

لقد مضى الرعيل الأول إلى ربه، وقضوا نحبهم، ووفوا بعهدهم، وبرز الجيل الجديد الثاني وهو يحمل خبرة قتال الفرس في القادسية ونهاوند، فأصبح الجيل كله جيل قيادات، وبدأت تلمع أسماء جديدة لم تكن تُذكَر من قبل، وتأخذ مكان القادة الكبار، بل يمكن القول أن الجيش تحول كله إلى كفاءات قيادية قادرة على خوض أي معركة في أي وقت مهما كان جبروت قادة الفرس الكبار.

لقد ورث نُعيم النعمان، وورث سويد نُعيمًا؛ فهو قائد المقدمة في هذه المعركة، وبرز بطلان جديدان هما:

عصمة بن عبد اللَّه الضبي، ومهلهل بن زيد الطائي، والسماكات الثلاثة: سماك ابن عبيد العبسي، وسماك بن مخرمة الأسدي، وسماك بن خرشة الأنصاري، وهم الوارثون الجدد لأبطال عبسٍ وأسد والأنصار.

حتى أن ثالثهم سماك بن خرشة هو صورة البطل العظيم أبي دجانة سماك ابن خرشة الذي كان نشيده على فم الزمن:

أنا الذي عاهدَني خَلِيلي ... ونحنُ بالسفْح لَدى النَّخيل

أن لَا أقُوم الدهر بالكيُول ... أضربُ بسيْف اللَّه والرَّسُول

وهو الذي استحق سيف رسول اللَّه ﷺ بجدارة:

أن يقاتل به العدو حتى ينحني.

وقاتل به العدو حتى انحنى.

٨ - وكما كان أمير المؤمنين يتحسس الأخبار عن نهاوند فها هو يتحسسها عن هذه المعركة، لكن المفاجأة كانت كبيرة لأمير المؤمنين؛ فقد جاءت أخبار المعركة في وقت قريب جدًّا لم يكن يتوقعه عمر ﵁.

(فلم يفجأه إلا البريد بالبشارة فقال: أبشير؟ فقال: بل عروة. فلما ثَنَّى عليه: أبشير؟ فطن فقال: بشير. فقال عمر: رسول نعيم؟ قال: رسول نعيم. قال: الخبر؟ قال: البشرى بالفتح والنصر.

إن لهفة أمير المؤمنين واضحة تمامًا في الأسئلة وطريقتها واختصارها، فكأنما هو على موعد لا يكاد يصدق نفسه.

بشير؟ رسول نُعيم؟ الخبر؟

وتكاد أنفاسه تنقطع قبل أن يسمع الخبر العظيم: (البشرى بالفتح والنصر).

ولا أدل على سعادته بهذا الفتح من إعلانه مباشرة على الملأ (فحمد اللَّه، وأمر بالكتاب فقرئ على الناس، فحمدوا اللَّه).

لقد تلقى رسول نُعيم كما تلقى رسول النعمان في نهاوند، وهو يشعر أن الطريق طويل وصعب وشائك أمام القضاء على إمبراطورية تحكم أكثر من نصف الأرض، ليحل محلها شرع اللَّه ودينه، ولكن هؤلاء الشباب لن يقف أمامهم شيءٌ؛ فهم قد أعدوا وتربوا على يد خيرة أهل الأرض.

٩ - ومن ذكاء نُعيم أن بعث السماكات الثلاثة بالغنائم والأخماس؛ ليتعرف عمر ﷺ على هذه القيادات الجديدة، ويحملها مسؤولية الفتح الواسع في الأرض (ثم قدم سماك بن مخرمة، وسماك بن عبيد، وسماك بن خرشة في وفود من أهل الكوفة بالأخماس إلى عمر، فنسبهم، فانتسب له سماك وسماك وسماك، فقال: بارك اللَّه فيكم، اللَّهم اسمك الإسلام بهم، وأيدهم بالإسلام).

إنها دعوة عظيمة كل قائد هو بحاجة لها: اللَّهم أعز الإسلام به وأعزه بالإسلام. وهل ينسى تاريخ هذه الأمة في العهد المبكر الأول كيف أعز اللَّه الإسلام بعمر ابن الخطاب أمير المؤمنين اليوم، وخليفة رسول اللَّه ﷺ في الأرض (اللَّهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك، بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام).

فأصابت دعوة رسول اللَّه ﷺ ابن الخطاب، وكما قال ابن مسعود ﷺ: ما زلنا أعزة منذ أن أسلم عمر.

كان إسلامه فتحًا، وهجرته نصرًا، وإمارته رحمة.

لكن الجانب الأهم بالدعوة هو: وأيدهم بالإسلام. فالأمة قد بنيت بالإسلام الذي حوَّل الطاقات العربية إلى مسارها الصحيح، وَفَجَّرَهَا إلى أبعد مدًى فيها، فوضعها أمام مسؤولية تغيير الأرض كلها بهذا الدين.

١٠ - ومن أجل ذلك فهي محطات استراحة بين الحرب والحرب، إنها كما يسمونها استراحة المحارب، فأحد السماكات الثلاثة رُشِّح من أمير المؤمنين ﷺ ليكون نائب القائد العام بكير بن عبد الله الليثي في جبهة أذربيجان، وَرُشِّح نعيم بن مقرن ليكون قائد الجيوش الإسلامية التي تمضي لتفتح الري:

(حتى رجع الرسول إلى نُعيم بن مقرن بجواب عمر بن الخطاب:

أما بعد.. فاستخلف على همذان، وأمد بكير بن عبد الله بسماك بن خرشة، وسر حتى تقدم الري فتلقى جمعهم، ثم أقم بها؛ فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد.

فأقرَّ نُعيم يزيد بن قيس الهمذاني على همذان، وسار من واج الروذ بالناس إلى الري).

إنها ظاهرة كذلك.. هي حرص أمير المؤمنين على أن يولي القوم رجلًا منهم ما أمكنه ذلك، وهي سُنَّة وُلاته يعرفونها منه ﷺ، فنحن الآن أمام والٍ من همذان همذاني هو يزيد بن قيس الهمذاني، وذلك حتى لا يشعر أهل همذان أنهم يحكمون من أجنبي، وبذلك يطمئن المسلمون إلى همذان بعد غدرها المتكرر، ويمضون إلى الري والري أهم موقع استراتيجي يفتحه المسلمون؛ فهي:

أوسط تلك البلاد.

وأجمعها لما تريد.

والناظر في خريطة الإمبراطورية الفارسية يرى أن الري هي عاصمتها الكبرى، وهي قلب الإمبراطورية؛ فسقوطها يفتح الطريق أمام الأقاليم الأخرى كي تسقط. وحتى هذا اليوم نرى أنها هي عاصمة إيران؛ فالري هي طهران اليوم وهي عاصمة الفرس، وأجمعها لما تريد، فكنوز فارس فيها (مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات... والري مدينة ليس بعد بغداد في المشرق أعمر منها... وللري قرًى كبار كل واحدة أكبر من مدينة..) [(١)].

١١ - وها نحن ننسم عبير الشعر وزغرودة النصر من خلال هذه الأبيات التي فاقت معظم ما قيل من شعر في أعظم الملاحم في التاريخ خلال عهد الراشدين.

---

(١) مقتطفات من معجم البلدان لياقوت الحموي (٣/١١٨).

لقد كان (موتا) هو القائد العام للجيوش التي تجمعت لحرب المسلمين مع قومه الديلم، وحين بلغ الأمر القائد العام لجيش المسلمين تحرك بهذا الجيش ليمنع ذمته بالسيوف القواصم، ولا ينسى نعيم ﷺ القائد الشاعر أن يشير إلى أن هذه الجنود من الأعاجم إنما سيقت مكرهة لهذه الحرب كما يقول:

لما أتاني أنّ (موتا) ورهْطَه — بَني باسِل جروا جنُودَ الأعاجم
نهضتُ إليهم بالجُنودِ مُسَاميًا — لأمنعَ منهُم ذمَّتي بالقَوَاصم.

فتح الري

قالوا: (وخرج نُعيم بن مُقرِّن من واج روذ في الناس - وقد أخربها - إلى دستبي ففصل منها إلى الري وقد جمعوا له.

وخرج الزينبي أبو الفرُّخان، فلقيه الزينبي بمكان يقال له « قها » مسالمًا ومخالفًا لملك الري، وقد رأى من المسلمين ما رأى مع حسد (سياوخش) وأهل بيته.

فأقبل مع نُعيم، والملك يومئذ بالري سياوخش بن مهران بن بهرام شوبين.

فاستمد أهل دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان وقال:

قد علمتم أن هؤلاء قد حلوا بالري، إنه لا مقام لكم، فاحتشدوا له.

فناهده سياوخش، فالتقوا في سفح جبل الري إلى جنب مدينتها، فاقتتلوا به، وقد كان الزينبي قال لنُعيم: إن القوم كثير وأنت في قِلة، فابعث معي خيلًا أدخُلُ بهم من مدينتهم من مدخل لا يشعرون به، وناهدهم أنت، فإنهم إذا خرجوا عليهم لم يثبتوا لك.

فبعث معه نُعيم خيلًا من الليل عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو، فأدخلهم الزينبي المدينة ولا يشعر القوم، وَبَيَّتَـهُم نُعيم بياتًا فشغلهم عن مدينتهم، فاقتتلوا وصبروا له حتى سمعوا التكبير من ورائهم، ثم إنهم انهزموا فقتلوا مقتلة عُدّوا بالقصب فيها، وأفاء اللّه على المسلمين بالري نحوًا من فيء المدائن، وصالحه الزينبي على أهل الري ومرزبه عليهم نُعيم، فلم يزل شرف الري في أهل الزينبي الأكبر ومنهم شهرام وفرخان، وسقط آل بهرام، وأخرب نُعيم مدينتهم، وهي التي يقال لها العتيقة - يعني مدينة الري - وأمر الزينبي فبنى مدينة الري الحدثى، وكتب نعيم إلى عمر بالذي فتح

اللَّه عليه مع المضارب العجلي، ووفَّدَ بالأخماس معَ عتيبة بن النهاس وأبي مفزِّر في وجوه من وجوه أهل الكوفة، وأمد بكير بن عبد اللَّه بسماك بن خرشة الأنصاري بعدما فتح الري، فسار سماك إلي أذربيجان مددًا لبكير.

وكتب نُعيم لأهل الري كتابًا:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى نُعيم بن مقرّن الزينبي بن قوله؛ أعطاه الأمان على أهل الري ومن كان معهم من غيرهم على الجزاء، طاقة كل حالم في كل سنة، وعلى أن ينصحوا ويدلوا ولا يُغلُّوا ولا يُسلوا، وعلى أن يَقْروا المسلمين يومًا وليلة، وعلى أن يفخموا المسلم، فمن سب مسلمًا أو استخف به نُهك عقوبة، ومن ضربه قتل، ومن بدَّل منهم فلم يُسلَمْ برمته فقد غيَّر جماعتكم.وكتب وشهد [١].

صلح أهل دنباوند:

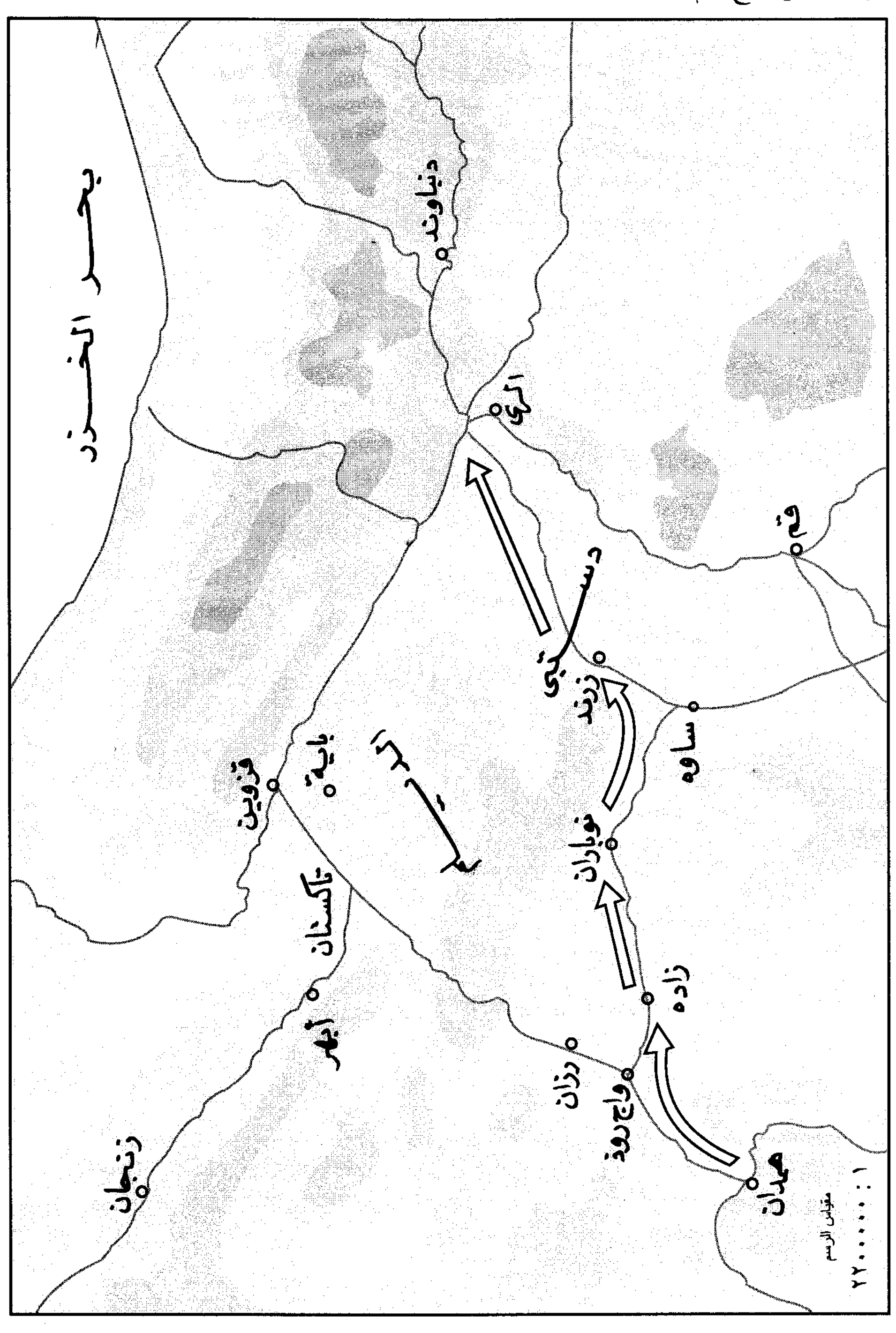
(وراسله المصمغان في الصلح على شيء يفتدي به منهم من غير أن يسأله النصر والمنعة، فقبل منه، وكتب بينه وبينه كتابًا على غير نصر ولا معونة من أحد، فجرى ذلك لهم:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من نُعيم بن مقرن لـ (مردانشاه) مصمغان دُنباوند، وأهل دُنباوند، والخوار، واللارز، والشرز، إنك آمن ومن دخل معك، على الكف؛ أن تكف أهل أرضك، وتتقي من ولي الفرج بمائتي ألف درهم وزن سبعة في كل سنة، لا يغار عليك، ولا يدخل عليك إلا بإذن ما أقمت على ذلك حتى تغيِّر، ومن غيَّر فلا عهد له ولا لمن لم يسلمه. وكتب وشهد.

---

(١) الطبري (٥٣٧/٢).



فتح الري

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٩٩) خريطة (٥٦))

فتح قومس

قالوا: ولما كتب نُعيم بفتح الري مع المضارب العجلي ووفَّد بالأخماس كتب إلى عمر:

أن قدِّم سويد بن مقرن إلى قومس، وابعث على مقدمته سماك بن مخرمة، وعلى مجنبتيه عتيبة بن النهاس، وهند بن عمرو الجملي، ففصل سويد بن مقرن في تعبئته من الري نحو قومس، فلم يقم له أحد، فأخذها سلمًا، وعسكر بها، فلما شربوا من نهرٍ لهم يقال له ملاذ فشا فيهم القصر [١]، فقال لهم سويد:

غيروا ماءكم حتى تعودوا كأهله. ففعلوا واستمرؤوه، وكاتبه الذين لجؤوا إلى طبرستان منهم والذين أخذوا المفاوز، فدعاهم إلى الصلح والجزاء وكتب لهم:

بسم الله الرحمن الرحيم

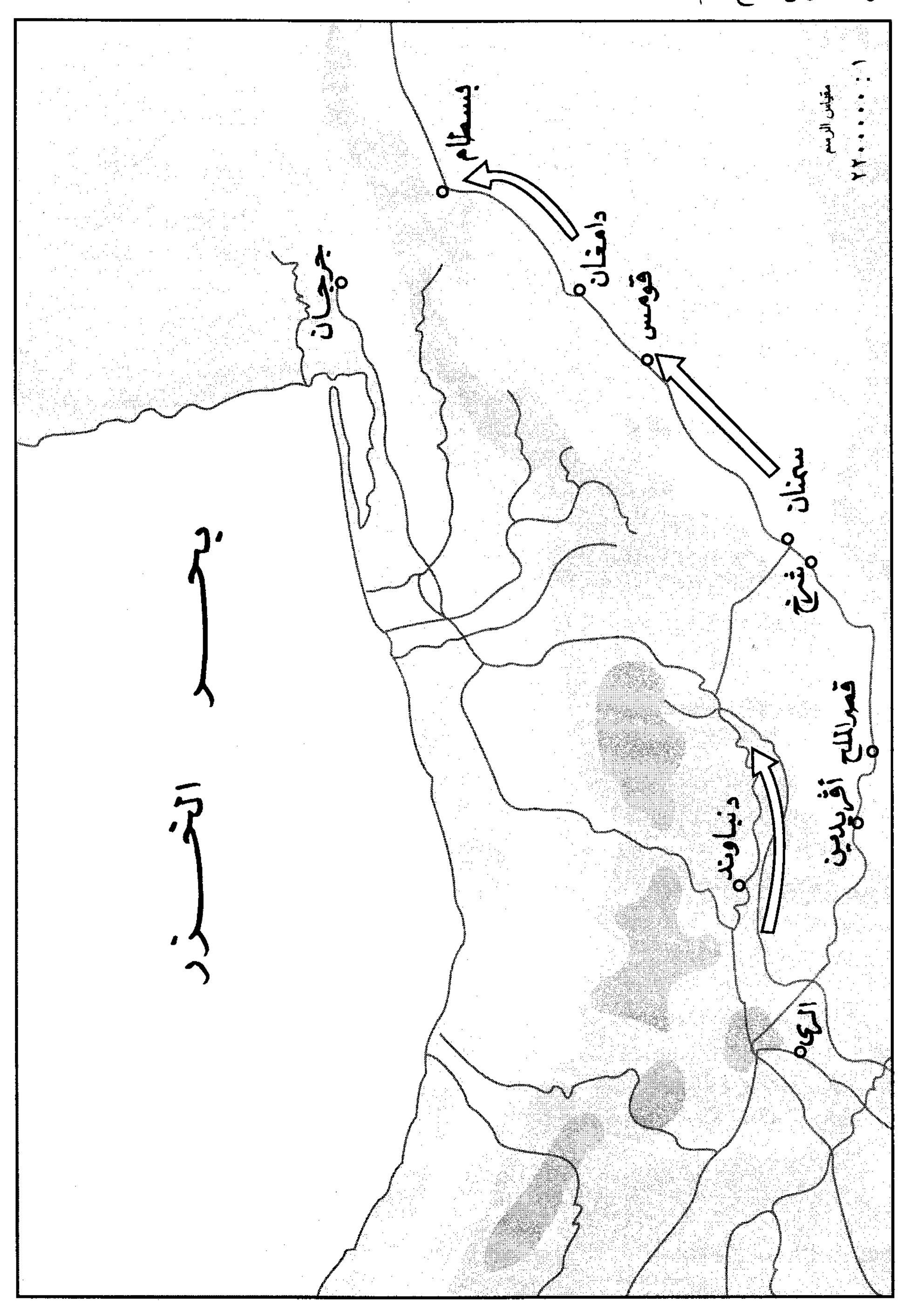
هذا ما أعطى سويد بن مقرن أهل قومس ومن حشوا من الأمان على أنفسهم ومللهم وأموالهم على أن يؤدوا الجزية عن يد، عن كل حالم بقدر طاقته، وعلى أن ينصحوا ولا يغشوا، وعلى أن يدلوا، وعليهم نُزُل من نَزَل بهم من المسلمين يومًا وليلة من أوسط طعامهم، وإن بدَّلوا واستخفوا بعهدهم فالذمة منهم بريئة. وكتب وشهد.

فتح جرجان

(قالوا: وعسكر سويد بن مقرن ببسطام، وكاتب ملك جرجان (روزبان صول) ثم سار إليها، وكاتبه روزبان صول وبادره بالصلح على أن يؤدي الجزاء ويكفيه حرب جرجان. فإن غُلب أعانه، فقبل ذلك منه، وتلقاه روزبان صول قبل دخول سويد ابن مقرِّن جرجان، فدخل معه، وعسكر بها حتى جبى إليه الخراج، وسمى فروجها، فسدَّها بترك دهِستان، فرفع الجزاء عمَّن أقام يمنعها وأخذ الخراج من سائر أهلها، وكتب بينهم وبينه كتابًا.

---

(١) القصر: داء يصيب العنق.



فتح قومس وجرجان

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ٩٩) خريطة (٥٧))

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتاب من سويد بن مقرِّن لروزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان، إن لكم الذمة، وعلينا المنعة، على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضًا من جزائه، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، ولا يغير شيء من ذلك هو إليهم ما أدوا وأرشدوا ابن السبيل ونصحوا وقَرُوا المسلمين، ولم يبد منهم سلٌّ ولا غِل، ومن أقام فيهم فله مثل ما لهم، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، وعلى أن من سبَّ مسلمًا بُلِغ جهده، ومن ضربه حلَّ دمه. شهد سواد بن قطبة، وهند بن عمرو، وسماك بن مخرمة، وعتيبة ابن النهاس، وكتب في سنة ثمانِ عشرة.

قال الطبري: وأما المدائني فإنه قال فيما حدثنا أبو زيد عنه: فتحت جرجان في زمن عثمان سنة ثلاثين.

فتح طبرستان

قالوا: وراسل الإصبهذ سويدًا في الصلح على أن يتوادعا، ويجعل له شيئًا على غير نصر ولا معونة على أحد، فقبل ذلك منه وجرى ذلك لهم، وكتب له كتابًا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتاب من سويد بن مقرن للفرخان إصبهذ خراسان على طبرستان وجيل جيلان من أهل العدو، إنك آمن بأمان اللَّه ﷻ، على أن تكُفَّ لصوتك [1] وأهل حواشي أرضك، ولا تؤوي لنا بغية، وتتقي من ولي فرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك، فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك، ولا يتطرَّق أرضك، ولا يدخل عليك إلا بإذنك، سبيلنا عليكم بالإذن آمنة، وكذلك سبيلكم، ولا تؤون إلينا بغية، ولا تسلون لنا إلى عدو، ولا تغلون، فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم. شهد سواد بن قطبة التميمي وهند بن عمرو المرادي وسماك بن مخرمة الأسدي وسماك ابن عبيد العبسي وعتيبة بن النهاس البكري. وكتب سنة ثمان عشرة) [2].

---

(١) اللصوت: جمع لصت، أي اللصوص بلغة طيئ. لسان العرب، مادة (ل ص ت).

(٢) تاريخ الطبري (٥٣٨/٢، ٥٣٩).

١ - « **نصرت بالرعب مسيرة شهر** »[1]. هكذا قال عليه الصلاة والسلام؛ فلقد كانت معركة نهاوند ومعركة واج روذ بقيادة المزنيين كفيلة بانهيار الجبهة الفارسية كلها حتى تستسلم موقعًا بعد موقع وإقليمًا بعد إقليم، وعندما نقضت همذان عهدها رأى الملوك الآخرون أن لا جدوى من المقاومة، وجربوا حظهم ثانية في توحيد كلمتهم وحشد قواتهم، فلقوا مصيرًا بائسًا وهزائم منكرة، وأصبح اسم المسلمين لظًى يشتعل في قلوبهم رعبًا وخوفًا.

٢ - لكنهم من جهة ثانية يرون عظمة نبل المسلمين حين يصالحون، بعد أن رأوا بأسهم حين يقاتلون، فلم يكن أمامهم خيار إلا المصالحة، ولو كان المسلمون عبيد مطامعهم ونزواتهم وشهواتهم لكان همهم في معاهدات الصلح أن يرغموا أنوف أعدائهم بالذل ويمرغوها في التراب والوحل، ويحولوهم إلى عبيد عندهم حتى لا يطمعوا لحظة واحدة بالثورة عليهم كما يفعل معظم الحكام بشعوبهم ويجعلون جيوشهم كلها لذبح هذه الشعوب، وقاموا ببدعة الأمن في جيوش لا تقل عن جيوش الحرب؛ ليكتموا أنفاسهم ويراقبوا تحركاتهم وسكناتهم، ويحاسبوهم حتى على لقمة عيشهم.

إننا بحاجة أن نقف كثيرًا أمام عظمة هذه الجيوش المؤمنة التي تربت على يد سيد الخلق ﷺ؛ فهم يريدون لمن يغزونهم العزة والكرامة والأمن والراحة ورغد العيش، ولن يتم لهم ذلك إلا بالإسلام، فلا أقل من أن يعطوا فرصة عرض هذا الدين عليهم، وحين يصرون على رفض هذا الدين فيطلبوا منهم فرصة التعايش معه، والسلم معه؛ ليبقى دائمًا بجوارهم إذا أرادوا أن يتعرفوا عليه.

٣ - ولا أدل على ذلك من أن المسلمين حين يخيرون بين حياة أعدائهم وموتهم فيختارون حياتهم؛ ففي فتح همذان مثلًا والذي تم بعد نكث العهد كان بإمكانهم أن يصروا على استعباد همذان واحتلالها، لكن هؤلاء الناكثين أنفسهم وقياداتهم حين طالبوا أن يعاملوا معاملة المصالحين قبل منهم المسلمون ذلك.

(فلما رأى ذلك أهل المدينة سألوا الصلح على أن يجريهم ومن استجاب من قبل مجرًى واحدًا، ففعل وقبل منهم).

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٨).

٤ – وهذا (الزينبي) قائد وحاكم الري الذي جرب الطريقين معًا؛ جرب طريق الحرب فما ناله إلا ذل ومرارة الهزيمة في (نهاوند) الثانية؛ إذ كان أحد القادة الكبار الثلاثة فيها.

(ثم خرج موتا من الديلم حتى ينزل بواج الروذ.

وأقبل الزينبي أبو الفرّخان في أهل الري حتى انضم إليه.

وأقبل إسفنديار أخو رستم في أهل أذربيجان...).

وانتهت المعركة بمقتل القائد الأعلى (موتا) وهزيمة الجيش كله، ولاذ القائدان الآخران بالفرار، وهما (الزينبي) و(إسفنديار).

٥ – فأما (الزينبي) قائد قوات (الري) فأدرك أنه أمام قوة لا تُقهَر، لكن ملك الري الذي أرسله (سياوخش) لم يَرَ ما رآه قائد جيشه فأصر على مواجهة المسلمين ومقاومتهم، أما الزينبي فلم يكتف برفض المقاومة للمسلمين، إنما وضع كل طاقاته وخبرته العسكرية تحت تصرف المسلمين، إنه يريد إنقاذ الري بلده ولا يريد مذبحة جديدة كمذبحة (نهاوند) و (واج الروذ)، ومن أجل ذلك تقدم لقيادة المسلمين يعرض عليهم الخطة الأسهل التي يمكن بها حقن دماء أهل بلده أمام تعنت وحماقة (سياوخش الملك) فقال لنُعيم:

(إن القوم كثير، وأنت في قِلة، فابعث معي خيلًا أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به...).

ووثق الرجال بالرجال، ووثق نُعيم بالزينبي و(بعث معه نعيم خيلًا من الليل عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو، فأدخلهم الزينبي المدينة).

لقد صار هؤلاء أقرب إليه من (سياوخش) ملكه، وسقطت المدينة (فاقتتلوا وصبروا له حتى سمعوا التكبير من ورائهم (الزينبي ومن معه) ثم إنهم انهزموا فقتلوا مقتلة عُدُّوا بالقصب فيها.

وكان الصلح الأعز للزينبي:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى نُعيمُ بن مقرن الزينبي بن قوله.

أعطاه:

- الأمان على أهل الري.
- ومن كان معهم من غيرهم.
- على الجزاء طاقة كل حالم في كل سنة.
- وعلى أن ينصحوا ويدلوا.
- ولا يُغلُّوا ولا يُسلُّوا.
- وعلى أن يَقْروا المسلمين يومًا وليلة.
- وعلى أن يفخموا المسلم.
- فمن سَبَّ مسلمًا أو استخف به نهك عقوبة.
- ومن ضربه قُتِل.
- ومن بدل منهم فلم يُسلَمْ برمته فقد غيَّر جماعتكم).

عشرة بنود واضحات تعطي الحرية والأمن ورغد العيش لأهل الري ومن نزل معهم ما وفوا بعهودهم، أما إذا نكثوا فلا أمان لهم، وعلامة نكثهم سب المسلم أو ضربه. وهذان البندان دليلان على التغيير، لكن يعاقب بها الفرد لا الأمة عقوبة مضاعفة، فإذا ظاهرته الأمة فانبذوا إليهم على سواء.

٦ - وليس الزينبي نكرة من النكرات، فهو قائدٌ لامعٌ من قادة فارس، ومن أجل هذا بدأ قادة الأقاليم الأخرى يقتدون به.

فهذا (المصمغان) قائد دنباوند يعرض عرضًا جديدًا، فهو لا يريد حتى سلطان المسلمين، كل الذي يريده أن يدفع مبلغًا من المال لهم، ويقوم التحالف بين نِدَّينِ لا تابع ولا متبوع، إنها صيغة جديدة من التعامل على الساحة الدولية بدون سابق، ولم يكن نُعيم بن مقرن مجرد قائد عسكري، بل هو صحابي عظيم ترعرع وعاش في مدرسة النبوة؛ فلذلك أقر هذا الاتفاق الجديد:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من نُعيم بن مقرن لمردانشاه مصمغان دنباوند وأهل دنباوند والخوار واللارز والشرز:

- إنك آمن ومن دخل معك على الكف.

- أن تكف أهل أرضك.

- وتتقي من ولي الفرج بمائتي ألف درهم وزن سبعة في كل سنة.

- لا يُغار عليك، ولا يُدخَلُ عليك إلا بإذن ما أقمت على ذلك حتى تُغيِّر.

- ومن غيَّر فلا عهد له، ولا لمن لم يسلمه).

هنا خمسة بنود لا عشرة، وهي الاستقلال الذاتي الكامل مقابل مائتي ألف دينار، ولا يدخل عليه إلا بإذن، ولا يغار عليه، مقابل السلام والتحالف الكامل بين الطرفين.

٧ - وجاء دور ثالث المزنيين سويد بن مقرن ﷺ؛ فالساحة الشمالية لفارس قد جعلها الصديق ﷺ لبني مقرن؛ حيث يتدرج أحدهم من قائد معسكر لقائد فرقة لنائب قائد الجيش لقائد الجيش؛ فالأوامر هنا أتت من المدينة من أمير المؤمنين ﷺ لفتح قومس:

(... كتب إليه عمر:

أن قدم سويد بن مقرن إلى قومس، وابعث على مقدمته سماك بن مخرمة، وعلى مجنبتيه عتيبة بن النهاس، وهند بن عمرو الجملي).

فسويد الآن قائد فتح، وليس نائب قائد فتح وقائد مقدمة كما كان في همذان.

فالقدم والبلاء والخبرة لا بد أن تأخذ هذه العوامل مكانها؛ فالأرض كلها أصبحت ساحة انطلاق أمام المسلمين، ولا بد من تجنيد الطاقات كلها لفتح هذه الساحة، وأصبح بنو مقرنٍ رمزًا للانتصارات، فهم أبطال حرب وأبطال سلام، ومن أجل ذلك (لم يقم لهم أحد فأخذها سلمًا وعسكر بها) ومع ذلك فرأوا أن يطلبوا الصلح مع المسلمين من منفاهم في طبرستان والذين هربوا في المفاوز.

فكان رمز الإسلام جاهزًا لإعادة الحياة لهذه الأمة من جديد. وجاء ثالث المزنيين سويد ﷺ ووضع بينه وبينهم وثيقة الصلح هذه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى سويد بن مقرِّن أهل قومس، ومن حشوا من الأمان على أنفسهم ومللهم وأموالهم على أن يؤدوا الجزية عن يد.

- عن كل حالم بقدر طاقته.

- وعلى أن ينصحوا ولا يغشوا.
- وعلى أن يدلوا.
- وعليهم نُزُل من نزل بهم من المسلمين يومًا وليلة من أوسط طعامهم.
- وإن بدلوا واستخفوا بعهدهم فالذمة منهم بريئة.

إنها طلبات يسيرة لا تمس كرامة ولا تحمل ظلمًا ولا تجرح شخصًا، تتعامل معهم بقدراتهم؛ فالجزية على كل حالم قدر الطاقة، والمسلمون يضمنون لهم أمنهم، ويحرسون لهم أموالهم، ويحافظون على دور عبادتهم، ويذودون عنها، ولهم حريتهم الدينية التامة.

٨ - ولأن سويدًا ﷺ يريد الأمن والسلام في كل أرض فارس فقد راسل ملك جرجان، وأجرى مفاوضات معه ليتجنب الحرب والمواجهة. ومن خلال المفاوضات والمراسلات جاؤوا بصيغة ثالثة ضمن النظام الدولي الإسلامي قريبةً من صيغة مردانشاه مصمغان دنباوند والتي وَقَّعها أخوه نعيم ﷺ.

(وبادره بالصلح على أن يؤدي الجزاء، فإن غلب أعانه، فقبل ذلك منه).

إنها صيغة عظيمة تربط الجزاء بالمنعة.

(وتلقاه رزبان صول قبل دخول سويد جرجان، ودخل معه حتى جبى إليه الخراج، وسمى فروجها، فسدها بترك دهستان، فرفع الجزاء عمن قام بمنعها، وأخذ الخراج من سائر أهلها).

وحتى يكون الأمر وثيقة دائمة - لا موقفًا عارضًا - كانت تلك الوثيقة:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من سويد بن مقرّن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان:

- إن لكم الذمة، وعلينا المنعة.
- على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم.
- ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضًا من جزائه.
- ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم.

- ولا يغير شيء من ذلك هو إليهم ما أدوا وأرشدوا السبيل ونصحوا وقَرُوا المسلمين ولم يبدُ منهم سلٌّ ولا غلٌّ.

- ومن أقام فيهم فله مثل ما لهم، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه.

- وعلى أن من سب مسلمًا بلغ جهده، ومن ضربه حلَّ دمه.

فهذه الوثيقة تكاد تكون نسخة عن الوثائق الأخرى، لكن الفقرة الوحيدة الجديدة فيها:

(ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضًا عن جزائه).

٩ - (قالوا: وراسل الإصبهبذُ سويدًا في الصلح على أن يتوادعا ويجعل له شيئًا على غير نصر ولا معونة على أحد، فقبل ذلك منه، وجرى لهم ذلك، وكتب لهم كتابًا).

لقد أصبح ملوك فارس على بينة جلية من أن هذه الأمة جديدة ليست متعطشة للدم، وليست متعطشة للسلطان والسيطرة، إنها تريد أن تحقق الأمن والسلام للأمم كلها؛ ولهذا رأينا الإصبهبذ ملك طبرستان يختار صيغة الجوار والحلف.

لا صيغة التبعية وصيغة الاستقلال، لا صيغة الدرجتين في المواطنة.

ولنستمع ثانية إلى هذه الصيغة الجديدة:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من سويد بن مقرن للفرخان إصبهبذ خراسان على طبرستان وجيل جيلان من أهل العدو.

- إنك آمن بأمان الله ﷻ على أن تكف لُصُوتَك [1] وأهل حواشي أرضك.

- ولا تؤوي لنا بغية.

- وتتقي من ولي فرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك.

- فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك، ولا يتطرق أرضك، ولا يدخل عليك إلا بإذنك.

- سبيلنا عليكم بالإذن آمنة، وكذلك سبيلكم.

---

(١) اللصوت أي: اللصوص بلغة طيئ.

- ولا تؤوون لنا بغية، ولا تسلون لنا إلى عدو، ولا تغلون.

- فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم.

لقد اقتدى سويد بأخيه نعيم في وثيقة صلح أمير دنباوند بالشروط نفسها للطرفين، والذين اختاروا الاستقلال الكامل مقابل مبلغ من المال على شرط أن لا يتحالفوا مع عدوٍّ للمسلمين.

١٠ - بقي لنا أن نشير إلى أن الطبري الإمام الفقيه الحافظ المحدث المفسر المؤرخ الذي ننقل منه هذه الوثائق والأخبار، والذي يعد شيخ المؤرخين في الإسلام وشيخ المفسرين - هو ابن طبرستان التي حدثنا عن فتحها بالسلام، ثم فتحها بالإسلام، فأجداده هم الذين رأوا عظمة هذه الأمة، وعظمة هذا الدين، وعظمة هذه المعاملة، فدخلوا في دين اللّٰه أفواجًا، واعتنقوا هذا الدين، وأصبحوا العلماء والأمراء والساسة، وأصبحت الري وطبرستان وغيرها من أعظم مراكز الإشعاع العلمي الإسلامي، وأصبحت المؤلفات كلها باللغة العربية لغة القرآن، ونستأذن هنا بعرض ومضات سريعة من علم وحياة ابن طبرستان هذه إذ يقول:

(حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثمان سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع) (١).

(ولد في آمل بطبرستان سنة أربع وعشرين ومائتين. وقال بعضهم: أول سنة خمس وعشرين ومائتين) (٢).

إذن بعد مائتي سنة صارت فارس، فارس الإسلام العظيم ودياره العامرة وجامعاته المشعة للدنيا بالعلم.

وإذا تساءلنا عن سبب ذلك؟ فهو هذه الأمة المهتدية، القوامة بالحق على البشرية، والتي أضاءت البشرية بنور النبوة. ونكتفي بهذا النص الذي يتحدث به واحد من أعلامها (الطبري كنموذج) لكل مصابيح الهدى في الأرض.

(قال عبد العزيز الطبري في شأنه: كان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه،

(١، ٢) الطبري (١/٣).

وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب، وكان عالمًا بالعبادات، جامعًا للعلوم) [١].. ولكن كان أكثر ما اشتهر به من هذه العلوم الفقه والتفسير والحديث والقراءات... (وكتاب تاريخ الرسل والملوك - أو تاريخ الأمم يعد أوفى عملٍ تاريخي بين مصنفات العرب أقامه على منهج مرسوم، وساقه في طريق استقرائي شامل) [٢].

* * *

فتح أذربيجان

(قالوا: ولما افتتح نعيم همذان ثانية وسار إلى الري من واج روذ كتب إليه عمر أن يبعث سماك بن خرشة الأنصاري ممدًّا لبكير بن عبد اللَّه بأذربيجان، وكان سماك ابن خرشة وعتبة بن فرقد من أغنياء العرب، وقدما الكوفة بالغنى، وقد كان بكير سار حين بعث إليها، حتى إذا طلع بجبال جرميذان طلع عليهم إسفنديار بن الفروخراذ مهزومًا من واج روذ، فكان أول قتال لقيه بأذربيجان، فهزم اللَّه جنده (أي إسفنديار) وأخذ بكير إسفنديار أسيرًا، فقال له إسفنديار: الصلح أحب إليك أم الحرب؟ قال: بل الصلح. قال:

فأمسكني عندك، فإن أهل أذربيجان إن لم أصالح عليهم أو أجيء لم يقيموا لك وجلوا إلى الجبال التي حولها من القبج والروم، ومن كان على التحصن تحصن إلى يوم ما. فأمسكه عنده، فأقام وهو في يده، وصارت البلاد إليه إلا ما كان من حصن، وقدم عليه سماك بن خرشة ممدًّا، وإسفنديار في إساره، وقد افتتح ما يليه، وافتتح عتبة ابن فرقد ما يليه. وقال بكير لسماك بن خرشة مقدمه عليه ومازحه: ما الذي أصنع بك وبعتبة بأغنيين؟

لئن أطعت ما في نفسي لأمضين قدمًا ولأخلفنكما، فإن شئت أقمت معي، وإن شئت أتيت عتبة، فقد أذنت لك، فإني لا أراني إلا تارككما وطالبًا وجهًا هو أكره من هذا. فاستعفى عمر، فكتب إليه بالإذن على أن يتقدم نحو الباب، وأمره أن

---

(١) الطبري (٣/١).

(٢) المصدر نفسه (٦/١).

يستخلف على عمله، فاستخلف عتبة على الذي افتتح منها، ومضى قدمًا، ودفع إسفنديار إلى عتبة، فضمه عتبة إليه، وأمَّرَ عتبة سماك بن خرشة - وليس بأبي دجانة - على عمل بكير الذي كان افتتح، وجمع عمر أذربيجان كلها لعتبة بن فرقد.

قالوا: وقد كان بهرام بن الفرخاذ أخذ بطريق عتبة بن فرقد، وأقام له في عسكره حتى قدم عليه عتبة، فاقتتلوا، فهزمه عتبة، وهرب بهرام، فلما بلغ الخبرُ بهزيمة بهرام ومهربه إسفنديار وهو في الإسار عند بكير قال: الآن تم الصلح وطفئت الحرب. فصالحه، وأجاب إلى ذلك كلهم، وعادت أذربيجان سلمًا، وكتب بذلك عتبة وبكير إلى عمر، وبعثوا بما خمسوا مما أفاء الله عليهم، ووفَّدوا الوفود بذلك، وكان بكير قد سبق عتبة بفتح ما ولي، وتم الصلح بعدما هزم عتبة بهرام، وكتب عتبة بينه وبين أهل أذربيجان كتابًا حيث جمع له عمل بكير إلى عمله:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عاملُ عمر بن الخطاب أميرِ المؤمنين أهلَ أذربيجان - سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم - الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم، ليس على صبي ولا امرأة ولا زِمِنٍ [1] ليس في يديه شيء من الدنيا، ولا متعبد مُتَخَلٍّ ليس في يديه من الدنيا شيءٌ لهم ذلك، ولمن سكن معهم، وعليهم قِرى المسلم من جنود المسلمين يومًا وليلة ودلالته، ومن حشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة، ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك، ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه. وكتب جندب، وشهد بكير بن عبد الله الليثي، وسماك بن خرشة، وكتب في سنة ثمان عشرة.

قالوا: وفيها قدم عتبة على عمر بالخبيص الذي كان أهداه له؛ وذلك أن عمر كان يأخذ عماله بموافاة الموسم في كل سنة يحجر عليهم بذلك الظلم ويحجزهم به عنه) [2].

* * *

١ - القادة الثلاثة الجدد الذين برزوا على الساحة هم بكير بن عبد الله الليثي، وقائد المدد الذي جاءه من نُعيم سماك بن خرشة الأنصاري، كما برز القائد الثالث عتبة بن فرقد

---

(١) الزمن هو: المريض الذي يطول مرضه.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٥٣٩، ٥٤٠).

السلمي، لقد كان هؤلاء الثلاثة قبل بضع سنوات جنودًا عاديين. ونعيد إلى الذاكرة كيف تقدم ثلاثتهم بعد القادسية للزواج من أروى الهلالية كما تذكر الحادثة:

قال الطبري: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد والمهلب وصلحة قالوا:

وكان بكير بن عبد اللَّه الليثي، وعتبة بن فرقد السلمي، وسماك بن خرشة الأنصاري - وليس بأبي دجانة - قد خطبوا امرأة يوم القادسية، وكان مع الناس نساؤهم، وكانت مع النخع سبعمائة امرأة فارغة، وكانوا يُسَمَّون أختان المهاجرين، حتى كان قريبًا فتزوجهن المهاجرون قبل الفتح وبعد الفتح حتى استوعبوهن، فصار إليهن سبعمائة رجل من الأفناء، فلما فرغ الناس خطب هؤلاء النفر هذه المرأة، وهي أروى بنت عامر الهلالية - هلال النخع - وكانت أختها هنيدة تحت القعقاع ابن عمرو التميمي، فقالت لأختها: استشيري زوجك أيهم يراه لنا! ففعلت. وذلك بعد الوقعة وهم بالقادسية، فقال القعقاع: سأصفهم في الشعر فانظري لأختك. وقال:

إذا كنت حاولت الدراهم فانكحي ... سماكًا أخا الأنصار أو ابن فرقد

وإن كنت حاولت الطعان فيممي ... بكيرًا إذا ما الخيل جالت عن الردي

وكلهم في ذروة المجد نازل ... فشأنكم إن البيان من الغد [(١)]

لقد كان هؤلاء ضباطًا صغارًا في الجيش الإسلامي سنة أربع عشرة، أما اليوم وبعد ثماني سنوات فهم قادة كبار من قادة الفتوح يجوبون الأرض بهذا الدين.

وقد أنصفهم القعقاع ﷺ حين قال عن ثلاثتهم:

وكلهم في ذروة المجد نازل ... فشأنكم إن البيان من الغد

فهم مؤهلون بشريف نسبهم وعظيم أمجاد قبائلهم ليصبحوا القادة الكبار في مستقبل الأيام.

٢ - وكان سماك بن خرشة وعتبة بن فرقد من أغنياء العرب، وقدما بالكوفة بالغنى.

لقد كان غنى أهل الكوفة من ثمار هذه الغزوات والفتوح، أما غنى عتبة وسماك فقد كان مجلوبًا من خارج، ولعل ثروة عتبة بن فرقد هبة من النبي ﷺ ومن ثمرة صدقته في سبيل اللَّه.

---

(١) تاريخ الطبري (٤٣٣/٢، ٤٣٤).

(قال ابن سعد: روى أبو المعافي في تاريخ الموصل من طريق هشيم عن حصين أنه شهد خيبر وقسم له منها، فكان يعطيه لبني أخواله عامًا ولبني أعمامه عامًا، وكان حصين من أقربائه، وإن عمر ولاه في الفتوح، ففتح الموصل سنة ثماني عشرة مع عياض ابن غنم) [١]، وأهداه رسول اللَّه ﷺ أعظم من الثروة، أهداه طيب الحياة كلها.

روى الطبراني عن طريق أم عاصم امرأة عتبة بن فرقد السلمي قالت:

كنا عند عتبة أربع نسوة ما منا امرأة إلا وهي تجتهد في الطيب لتكون أطيب من صاحبتها، وما يمس عتبة الطيب، إلا يمس دهنا يمسح به لحيته وهو أطيب ريحا منا، وكان إذا خرج إلى الناس قالوا: ما شممنا ريحا أطيب من ريح عتبة، فقلت له يوما: إنا لنجتهد في الطيب ولأنت أطيب منا ريحا فمما ذاك؟! فقال: أخذني الشرا [٢] على عهد رسول اللَّه ﷺ فأتيته فشكوت ذلك إليه، فأمرني أن أتجرد، فتجردت وقعدت بين يديه وألقيت ثوبي على فرجي، فنفث في يده على ظهري وبطني فعقَب بي هذا الطيب من يومئذ) [٣].

٣ - ولو عدنا إلى وصف القعقاع رضي الله عنه لهؤلاء الثلاثة الكبار حين كانوا في بداية طريق المجد لوجدنا بكيرًا رضي الله عنه أسبق الثلاثة في الفتوح والحرب، ومن أجل ذلك كان وصف القعقاع له:

وإن كنت حاولت الطعان فيممي بكيرًا إذا ما الخيل جالت عن الردي

لقد كان بكير رضي الله عنه وعتبة بن فرقد مكلفين بفتح أذربيجان من عمر أمير المؤمنين.

(وبعث عتبة بن فرقد وبكير بن عبد اللَّه وعقد لهما على أذربيجان، وفرقها بينهما وأمر أحدهما أن يأخذ إليها من حلوان إلى ميمنتها، وأمر الآخر أن يأخذ إليها من الموصل إلى ميسرتها، فتيامن هذا عن صاحبه، وتياسر هذا عن صاحبه) [٤].

لكن عمر رضي الله عنه وقد بلغه فتح الأقاليم تسقط واحدًا تلو الآخر لم ينس أذربيجان ولم يأته خبر عنها، فما أن جاءه فتح همذان ونصر اللَّه فيها لنُعيم على عدوه حتى بعث مددًا جديدًا إلى جيش المسلمين في أذربيجان (ولما افتتح نعيم همذان ثانية وسار إلى الري من واج روذ كتب إليه عمر أن يبعث سماك بن خرشة الأنصاري ممدًّا لبكير بن عبد اللَّه بأذربيجان، فأخَّر ذلك حتى افتتح الري.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (٦٠٢٨).

(٢) الشرى: خُرّاج صغار لها لذع شديد. لسان العرب، مادة (ش ر ى).

(٣) المعجم الصغير للطبراني (٩٨). (٤) تاريخ الطبري (٢/٥٣١).

وهكذا اجتمع الخُطَّاب الثلاثة لأروى بنت عامر الهلالية، اجتمعوا اليوم خُطَّابًا لأذربيجان ومسؤولين عن فتحها.

٤ - أما عتبة بن فرقد فقد فتح ما يليه من الميمنة، ومضى بكير بن عبد اللَّه يفتح أذربيجان مما يليه من الميسرة حتى وصل إلى جبال جرميذان، أما قائد أذربيجان إسفنديار أخو رستم فقد مضى ممدًّا إلى (موتا) ملك الديلم، واجتمعوا للقضاء على المسلمين هناك مع ملك الري، وكانت الهزيمة القاصمة لهم.

فعاد إسفنديار مسرعًا هاربًا من المعركة وقد بلغه هجوم المسلمين على مملكته فالتقى مع بكير بن عبد اللَّه ﷺ في قرب جرميذان.

(وقد كان بكير سار حين بُعث إليها حتى إذا طلع بجبال جرميذان طلع عليهم إسفنديار بن الفرخاذ مهزومًا من واج روذ، فكان أول قتال لقيه بأذربيجان، فاقتتلوا، فهزم اللَّه جنده (إسفنديار) وأخذ بكير إسفنديار أسيرًا).

٥ - وكان من الطبيعي أن تقطع عنق إسفنديار، وترمى بين رجليه، فقد سار من أذربيجان بجيوشه إلى واج روذ للقضاء على المسلمين، ثم ها هو يعود بعد هزيمته هناك يلعق جراحه، ويتلقى هزيمته الثانية على يد بكير بن عبد اللَّه الليثي في جرميذان.

لكن هدف جند اللَّه أكبر من الثأر وأكبر من التشفِّي، هدفهم الوصول إلى الأمم المغلوبة التي يحول الطغاة بينها وبين الإسلام، ولأن إسفنديار يعرف حقيقة هذا العدو أجرى الحوار التالي مع بكير قائد جيش المسلمين.

(فقال له إسفنديار:

- الصلح أحب إليك أم الحرب؟

- قال: بل الصلح.

- قال: فأمسكني عندك؛ فإن أهل أذربيجان إن لم أصالح عليهم أو أجيء لم يقيموا لك، وجلوا إلى الجبال التي حولها من القبج والروم، ومن كان على التحصن تحصن إلى يوم ما.

فأمسكه عنده).

فهو يعرف أن مجده كله قد يعود إليه لو بقي أسيرًا حتى يصالح عن قومه؛ فجند اللَّه الذين يحاربهم من طراز آخر ليس همهم الدم والسفك والقتل، إنما هَمُّهُم هو غزو

القلوب وتحبيبها في هذا الدين الذي جاؤوا به، وبكير ﷺ نموذج من نماذج جند النبوة، فلم تغلب عليه حميته، إنما غلب عليه دينه، ورضي بالإمساك بملك أذربيجان على أمل أن يحقق به الصلح الذي يريد، ويحقن دماء أهل أذربيجان ليكون عندهم استعداد لاعتناق الإسلام.

٦ - بين سماك وبكير وعتبة:

(فأمسكه عنده، فأقام وهو في يده، وصارت البلاد إليه إلا ما كان من حصن، وقدم عليه سماك بن خرشة ممدًّا وإسفنديار في إساره (إسار بكير).

وقد افتتح ما يليه، وافتتح عتبة بن فرقد ما يليه.

وقال بكير لسماك مقدمه عليه ومازحه:

ما الذي أصنع بك وبعتبة بأغنيين؟

لئن أطعت ما في نفسي لأمضين قدمًا ولأخلفنكما.

فإن شئت أقمت معي، وإن شئت أتيت عتبة، فقد أذنت لك.

فإني لا أراني إلا تارككما وطالبًا وجهًا هو أكره من هذا).

فبكير ﷺ لا يرى جدوى من الإقامة في السلم، خاصة وقد سقطت أذربيجان بعد الجولة الثانية من الحرب.

لقد كانت الجولة الأولى بين بكير وإسفنديار، وانتهت الجولة بأسر القائد وهزيمة الجيش.

وكانت الجولة الثانية بين عتبة وبهرام أخي إسفنديار، وانتهت بهرب القائد وهزيمة الجيش.

(قالوا: وقد كان بهرام بن الفرُّخاذ أخذ بطريق عتبة بن فرقد وأقام له في عسكره حتى قدم عليه عتبة، فاقتتلوا، فهزمه عتبة، وهرب بهرام).

٧ - الآن تم الصلح:

(فلما بلغ الخبرُ بهزيمة بهرام ومهربه (هروبه) إسفنديار وهو في الإسار عند بكير قال: الآن تم الصلح، وطفئت الحرب، فصالحه، وأجاب إلى ذلك كلهم، وعادت أذربيجان سلمًا، وكتب بذلك بكير وعتبة إلى عمر، وبعثوا بما خمَّسوا مما أفاء الله عليهم، ووفدوا الوفود بذلك، وكان بكير قد سبق عتبة بفتح ما ولي، وتم الصلح بعدما هزم عتبة بهرام).

وكان من بين ما بعث بكير ﷺ لأمير المؤمنين الاستعفاء من ولاية أذربيجان

واستعداده لفتح أكبر وأضخم وأكره، فاستجاب له أمير المؤمنين، ووجهه إلى الباب، وولى سماك بن خرشة الأنصاري مكانه على الفتوحات التي تمت من قبله، وحسم أمير المؤمنين الأمر، وجمع أذربيجان كلها لعتبة بن فرقد. لقد ترك بكير الثمرة والجناة لعتبة وبكير، ومضى إلى الباب يفتح الباب على مصراعيه إلى جند اللّٰه في إيران.

٨ - ونقف ثالثة ورابعة وخامسة وأكثر، مع وثيقة الصلح العظيمة التي تحمل العيش والأمن والهناء الرغيد للمعاهدين

حيث يدعون حماية أرضهم وأموالهم وكنائسهم ومللهم للفاتحين مقابل جزية لا تكاد تذكر من القادرين عليها، وهذا ما شهد به غوستاف لوبون في كتابه العظيم حضارة العرب إذ يقول: « ما عرف التاريخ فاتحًا أرحم من العرب ».

« إن القوة لم تكن عاملًا في انتشار القرآن فقد ترك العربُ المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلامَ واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل ».

« ولم ينتشر القرآن إذن بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول ».

« أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسرًا، فعاملوا أهل كل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في الغالب إذا ما قِيستْ بما كانوا يدفعون سابقًا في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينًا سمحًا مثل دينهم » [١].

وهذه الوثيقة صورة من صور هذا التسامح العظيم:

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

« هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم:

---

(١) مقتطفات من: حضارة العرب لغوستاف لوبون. ترجمة عادل زعيتر، المقدمة.

- الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم.
- على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم.
- ليس على صبي ولا امرأة ولا زَمِنٍ ليس في يديه شيءٌ من الدنيا.
- ولا متعبد متخلٍّ ليس في يديه من الدنيا شيءٌ.
- لهم ذلك ولمن سكن معهم.
- وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يومًا وليلة ودلالته.
- ومن حشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة.
- ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك.
- ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه.

تسع فقرات تكتب بماء الذهب وتوزع على الدنيا كلها لتتعرف هذه الدنيا على عظمة النبوة وعظمة جيل النبوة.

هذه المعاملة التي غيرت أعظم إمبراطورية في العالم والتي كانت تحكم الدنيا إلى إمبراطورية تعتنق الإسلام دينًا، وأصبح أبناء هذه الإمبراطورية حملة هذا الدين حتى شهد لهم رسول اللّه ﷺ بذلك فقال:

« **لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس – أو قال: من أبناء فارس – حتى يتناوله** » [١].

وفي رواية أخرى:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

كنا جلوسًا عند النبي ﷺ إذ نزلت عليه سورة الجمعة، فلما قرأ ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ [الجمعة: ٣] قال رجل: من هؤلاء يا رسول اللّه؟ فلم يراجعه النبي ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثًا. قال: وفينا سلمان الفارسي. قال: فوضع النبي ﷺ يده على سلمان ثم قال: « **لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء** » [٢] ولقد تم هذا في أقل من مائة عام.

---

(١) أخرجه مسلم، ح (٢٥٤٦).

(٢) البخاري، ح (٤٨٩٧)، ومسلم، ح (٢٣١ - ٥٤٦).

٩ - قصة خبيصة عتبة والتحقيقات والمحاكمات:

(عن أبي عثمان الهندي قال:

كنت مع عتبة بن فرقد حين افتتح أذربيجان، فصنع سفطين فيهما خبيص، وألبسهما الجلود واللبود، ثم بعث بهما إلى عمر مع سحيم مولاه، فلما قدم عليه قال:

ما الذي جئت به؟ أذهب أم وَرِق؟

وأمر به فكشف عنه، فذاق الخبيص فقال:

إن هذا لطيب لين.

أفكل المهاجرين أكل منه شِبَعَه؟

قال: لا، إنما هو شيء قد خصك به. فكتب إليه عمر:

أما بعد. فإنه ليس من كَدِّكَ ولا كدِّ أمك ولا كَدِّ أبيك.

لا تأكل إلا ما شبع المسلمون منه في رحالهم) [١].

فتح الباب (أرمينية)

(وفي هذه السنة كان فتح الباب في قول سيف وروايته، قال:

وقالوا - يعني الذين ذكرت أسماءهم من قبل:

رَدَّ عمر أبا موسى إلى البصرة، ورد سراقة بن عمرو - وكان يُدعَى ذا النور - إلى الباب، وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة - وكان أيضًا يدعى ذا النور - وجعل على إحدى المجنبتين حذيفة بن أسيد الغفاري، وسمى للأخرى بكير ابن عبد اللَّه الليثي، وكان بإزاء الباب قبل قدوم سراقة بن عمرو عليه، وكتب إليه أن يلحق به، وجعل على المقاسم سلمان بن ربيعة، فقدَّم سراقة عبد الرحمن بن ربيعة، وخرج في الأثر، حتى إذا خرج من أذربيجان نحو الباب قدم على بكير في أداني الباب، فاستدفَّ [٢] بكير، ودخل بلاد الباب على ما عباه عمر، وأمده بحبيب ابن مسلمة، صرفه إليه من الجزيرة، وبعث زياد بن حنظلة مكانه على الجزيرة.

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/ ٣٢٠).

(٢) استدف أي: تهيَّأ.

ولما أظل عبد الرحمن بن ربيعة على الملك بالباب - والملك بها يومئذ شهربراز - رجل من أهل فارس، وكان على ذلك الفرج، وكان أصله من أهل شهربراز الملك الذي أفسد بني إسرائيل وأعرى الشام منهم -.

فكاتبه شهربراز، واستأمنه على أن يأتيه، ففعل فأتاه فقال:

- إني بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة، لا ينسبون إلى أحساب، وليس لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء، ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول.

- وذو الحسب قريب ذو الحسب حيث كان.

- ولستُ من القبج في شيءٍ، ولا من الأرمن.

- وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي.

- فأنا الآن منكم، ويدي مع أيديكم، وصغوي [1] معكم، وبارك اللّٰه لنا ولكم.

- وجزيتنا إليكم النصر لكم، والقيام بما تحبون.

- فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم.

فقال عبد الرحمن: فوقي رجل قد أظلك، فسر إليه فجوّزه.

فسار إلى سراقة فلقيه بمثل ذلك.

فقال سراقة:

قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه، ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض. فقبل ذلك، وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين، وفيمن لم يكن عنده إلا الجزاء إلا أن يستنفروا فتوضع عنهم جزاء تلك السنة.

وكتب سراقة بن عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فأجازه وحسَّنه.

وليس في ساحة تلك الجبال نبك [2] لم يُقم الأرمن بها إلا على أوفاز، وإنما هم سكان ممن حولها ومن الطراء استأصلت الغارات نبكها من أهل القرار، وأرز أهل الجبال منهم إلى جبالهم، وجلوا عن قرار أرضهم.

---

(١) أي: ميلي معكم.

(٢) النبك: جمع نبكة وهي الأرض فيها صعود وهبوط.

فكان لا يقيم بها إلا الجنود ومن أعانهم أو تجر إليهم، واكتتبوا من سراقة بن عمرو كتابًا:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهربراز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان. أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وملتهم ألا يضاروا ولا ينتقضوا، وعلى أهل أرمينية والأبواب الطراء منهم والثناء ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة، وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحًا، على أن توضع الجزاء عمن أجاب ذلك إلا الحشر. والحشر، عوض عن جزائهم، ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنُّزُل يومًا كاملًا، فإن حشروا وضع ذلك عنهم، وإن تركوا أُخذوا به.

شهد عبد الرحمن بن ربيعة، وسلمان بن ربيعة، وبكير بن عبد اللّٰه، وكتب مرضي ابن مقرن وشهد.

ووجه سراقة بعد ذلك بكير بن عبد اللّٰه وحبيب بن مسلمة وحذيفة بن أسيد وسلمان بن ربيعة إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأرمينية، فوجّه بكيرًا إلى موقان ووجّه حبيبًا إلى تفليس، وحذيفة بن أسيد إلى من بجبال اللان، وسلمان بن ربيعة إلى الوجه الآخر.

وكتب سراقة بالفتح وبالذي وجّه فيه هؤلاء النفر إلى عمر بن الخطاب، فأتى عمر أمر لم يكن يرى أن يستتم له على ما خرج عليه في سريح بغير مؤونة، وكان فرْجًا عظيمًا به جندٌ عظيم، إنما ينتظر أهل فارس صنيعهم ثم يضعون الحرب أو يبعثونها، فلما استوسقوا واستحلوا عدل الإسلام مات سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة، وقد مضى أولئك القواد الذين بعثهم سراقة فلم يفتح أحد ما وُجّه له إلا بكير، فإنه فض موقان، ثم تراجعوا على الجزية فكتب لهم:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى بكير بن عبد اللّٰه أهل موقان من جبال القبج على أموالهم وأنفسهم وملتهم وشرائعهم على الجزاء. دينار على كل حالم أو قيمته، والنصح ودلالة المسلم ونزله يومه وليلته، فلهم الأمان ما أقروا ونصحوا، وعلينا الوفاء. واللّٰه المستعان.

فإن تركوا ذلك واستبان منهم غش فلا أمان لهم إلا أن يسلموا الغششة برمتهم، وإلا فهم متمالئون.

شهد الشماخ بن ضرار والرسارس بن جنادب وحملة بن حوية، وكتب سنة إحدى وعشرين.

غزو الترك:

(قالوا: ولما بلغ عمر موت سراقة واستخلافه عبد الرحمن بن ربيعة أقر عبد الرحمن على فرج الباب، وأمره بغزو الترك.

فخرج عبد الرحمن بالناس حتى قطع الباب، فقال له شهربراز:

ما تريد أن تصنع؟

قال: أريد بلنجر.

قال: إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب.

قال: لكنا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم.

وتالله إن معنا لأقوامًا لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الردم.

قال: وما هم؟

قال: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا بهذا الأمر بنية، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرمهم، فلا يزال هذا الأمر دائمًا لهم، ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم، وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيَّرهم. فغزا بلنجر غزاة في زمن عمر لم تئم فيها امرأة، ولم ييتم فيها صبي. وبلغ خيله في غزاتها البيضاء على رأس مائتي فرسخ من بلنجر..) [١].

قال الطبري: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن غصن بن القاسم عن رجل عن سلمان بن ربيعة قال: لما دخل عليهم عبد الرحمن بن ربيعة حال الله بين الترك والخروج عليه، وقالوا: ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت. فتحصنوا منه وهربوا، فرجع بالغنم والظفر. وذلك في إمارة عمر..) [٢].

(١، ٢) تاريخ الطبري (٢/٥٤٠، ٥٤١).

اجعل بيننا وبينهم سدًّا:

(وحدَّث عمرو بن معد يكرب عن مطر بن ثلج التميمي قال:

دخلت على عبد الرحمن بن ربيعة بالباب وشهربراز عنده، فأقبل عليه رجل عليه شحوبة حتى دخل على عبد الرحمن، فجلس إلى شهربراز، وعلى مطر قباء برود يمنية أرضه حمراء، ووشيه أسود - أو وشيه أحمر وأرضه سوداء - فتساءلا، ثم إن شهربراز قال: أيها الأمير أتدري من أين جاء هذا الرجل؟

هذا الرجل بعثته منذ سنين نحو السد لينظر ما حاله ومن دونه، وزودته مالًا عظيمًا، وكتبت له إلى من يليني، وأهديت له، وسألته أن يكتب إلى من وراءه، وزودته لكل ملك هدية، ففعل ذلك بكل ملك بينه وبينه حتى انتهى إليه، فانتهى إلى الملك الذي السد في ظهر أرضه، فكتب له إلى عامله إلى ذلك البلد، فأتاه فبعث معه بازياره ومعه عقابه، فأعطاه حريرة، قال: فتشكر لي البازيار، فلما انتهينا فإذا جبلان بينهما سد مسدود، حتى ارتفع عن الجبلين بعدما استوى بهما، وإذا دون السد خندق أشد سوادًا من الليل لبعده، فنظرت إلى ذلك كله، وتفرست فيه، ثم ذهبت لأنصرف، فقال لي البازيار: على رسلك أكافئك!

إنه لا يلي ملك بعد ملك إلا تقرب إلى اللَّه بأفضل ما عنده من الدنيا فيرمي به في هذا اللَّهب. فشرَّح بضعة لحم معه، فألقاها في ذلك الهواء، وانقضت عليه العقاب وقال: إن أدركتها قبل أن تقع فلا شيء وإن لم تدركها حتى تقع فذلك شيء فخرجت علينا العُقاب باللحم في مخالبها، وإذا فيه ياقوتة، فأعطانيها، وها هي هذه فتناولها شهربراز حمراء، فناولها عبد الرحمن، فنظر إليها، ثم ردها إلى شهربراز.

وقال شهربراز: لهذه خير من هذا البلد - يعني الباب - وايم اللَّه لأنتم أحب إليَّ ملكة من آل كسرى، ولو كنتُ في سلطانهم ثم بلغهم خبرها لانتزعوها مني، وايم اللَّه لا يقوم لكم شيءٌ ما وفيتم ووفَّى ملككم الأكبر. وأقبل عبد الرحمن على الرسول فقال: ما حال هذا الردم وما شبهه؟ فقال:

هذا الثوب الذي على هذا الرجل.

قال: فنظر إلى ثوبي، فقال مطر بن ثلج لعبد الرحمن بن ربيعة:

صدق والله الرجل، لقد نفذ ورأى. فقال: أجل، وصف صفة الحديد والصفر وقال: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ... ﴾ [الكهف: ٦٦] إلى آخر الآية.

وقال عبد الرحمن لشهربراز: كم كانت هديتك؟ قال: مائة ألف في بلادي هذه، وثلاثة آلاف ألف أو أكثر في تلك البلدان.

وزعم الواقدي أن معاوية غزا الصائفة في هذه السنة، ودخل بلاد الروم في عشرة آلاف من المسلمين.

وفيها ولد يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان.

وحج بالناس في هذه السنة عمر بن الخطاب، وكان عامله على مكة عتاب بن أسيد، وعلى اليمن يعلى بن أمية، وعلى سائر أمصار المسلمين الذين كانوا عماله في السنة التي قبلها.

* * *

١ - (الباب) أو (باب الأبواب) أو (دربند) دربند شروان. قال الإصطخري: (وأما باب الأبواب فإنها مدينة ربما أصاب ماء البحر حائطها، وفي وسطها مرسى السفن... وهي أحد الثغور الجليلة العظيمة؛ لأنها كثيرة الأعداء الذين حفوا بها من أمم شتى، وألسنة مختلفة، وعدد كثير، وإلى جنبها جبل عظيم يعرف بالذئب، يُجمع في رأسه كل عام حطب كثير ليشعلوا فيه النار إن احتاجوا إليه ينذرون أهل أذربيجان وأران وأرمينية بالعدو إن دهمهم. وقيل: إن في أعلى جبلها الممتد المتصل بباب الأبواب نيفًا وسبعين أمة، لكل أمة لغة لا يعرفها مجاورهم، وكانت الأكاسرة كثيرة الاهتمام بهذا الثغر، لا يفترون عن النظر في مصالحه لعظم خطره، وشدة خوفه، وأقيمت لهذا المكان حفظة من ناقلة البلدان وأهل الثقة عندهم لحفظه، وأطلِق لهم عمارة ما قدروا عليه بلا كلفة للسلطان، ولا مؤامرة فيه ولا مراجعة؛ حرصًا على صيانته من أصناف الترك والكفر والأعداء....

وباب الأبواب فرضة [1] لذلك البحر يجتمع إليه الخزر والسرير وشندان وخيزان وكرج ورفلان وزِر بكران وغُمِكّ - هذا من جهة شماليها - ويجتمع إليه أيضًا من جرجان وطبرستان والديلم والجبل...) [2].

---

(١) فرضة أي: ميناء.

(٢) معجم البلدان، مقتطفات (١/٣٠٣ - ٣٠٥).

هذه (الباب) أيام ياقوت الحموي. ولنستمع إلى صورة (الباب) في القرن العشرين:

حيث يصف لنا محمد ناصر العبودي هذا الثغر العظيم أثناء زيارته له:

(لا أدري كيف أصف شعوري وأنا أقبل على باب الأبواب الذي سماه أسلافنا العرب بهذا الاسم؛ لمناعته وصعوبة الدخول منه، ولم يراعوا الترجمة الحرفية له (دربند) التي معناها الحرفي: الباب المغلق، ومعناها الفقهي: الباب الذي يستحيل الدخول منه عنوة، ولكن الإسلام فتحه فتح قلوب لا فتح حروب؛ لأن فتوحات الحروب تزول بزوال الفاتحين، وأما هذا الباب الذي كان مغلقًا على غير المسلمين فإن المسلمين فتحوه، ولم يبالوا لفتحه بالألوف الذين استشهدوا منهم في سبيل إعلاء كلمة اللّٰه ورفع راية التوحيد على هذه البلاد المنيعة في جبال القفج (القفقاس). وقال الإخوة المرافقون ونحن على بلد لا تبدو كبيرة: هذه دربند.... ومن الغريب أن أسلافنا العرب قد سموا دربند باب الأبواب لما سبق، وسموها أيضًا الباب، وهم لا يعرفون في ذلك الوقت أنها، كما أنها باب الدخول إلى القبج الحصينة فإنها تعتبر أيضًا بابًا للقارة الأوربية؛ فنحن عندما دخلنا هنا كنا من الناحية الجغرافية الشكلية قد دخلنا منها إلى القارة الأوربية، وفارقنا القارة الآسيوية، وإن كنا في الجميع داخل الاتحاد السوفيتي.

توجه الموكب بعد ذلك إلى رؤية السور العظيم الذي سمي المكان من أجله بالفارسية بالباب المغلق... صعد الموكب إلى الجبل المطل على مدينة دربند على طريق لا بأس به إلى أن وقف في ميدان صخري قد حفت به أفاريز من الصخور المنقوشة.. وبدت منه مدينة دربند منتصبة كأنها الشهود على مجد زال وعزٍّ أضاعه أهله فأضاعوا أنفسهم) [١].

٢ - فنحن إذن أمام فرج وإقليم من أعظم وأمنع أقاليم إيران، والذي لا يستطيع دخوله والسيطرة عليه جيوش الإمبراطوريات والدول العظمى وسيواجه مقاومة وممانعة

---

(١) بتصرف عن كتاب بلاد الداغستان لمحمد بن ناصر العبودي الأمين العام المساعد (سابقًا) لرابطة العالم الإسلامي.

من أمم أخرى كالترك والأرمن. وهذا الثغر العظيم هو مدينة عالمية، ومن أعظم المواقع التجارية في الأرض، فيه كما ذكرنا سبعون أمة ولغة من أمم العالم.

كيف يغامر الفاروق بمثل هذا التوجه مع حرصه على كل قطرة دم لمسلم مقابل ثغور الأرض؟

٣ - (ورد سراقة بن عمرو - وكان يدعى ذا النور - إلى الباب، وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة - وكان أيضًا يدعى ذا النور - وجعل على إحدى المجنبتين حذيفة بن أسيد الغفاري، وسمى للأخرى بكير بن عبد اللّٰه الليثي - وكان بإزاء الباب قبل قدوم سراقة بن عمرو إليه قيادات جديدة احتلت أهم وأعلى المواقع لا نكاد نعرف عنها شيئًا، لكننا نعلم أنها نشأت في ظل الإسلام، وقاتلت تحت رايته.

القائد الأعلى: سراقة بن عمرو:

(لقبه: ذو النور.

قال أبو عمر: ذكروه في الصحابة ولم ينسبوه، وكان أحد الأمراء بالفتوح، وقد تقدم غير مرة أنهم كانوا لا يؤمرون إلا الصحابة.

ذكر سيف في الفتوح أن عمر رد سراقة إلى الباب وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي. قال: وسراقة هو الذي صالح سكان أرمينية ومات هناك واستخلف عبد الرحمن وأقره عمر على عمله) [١].

عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي:

(.. ذكر سيف في الفتوح عن مجالد عن الشعبي قال: لما وجَّه عمر سعدًا إلى القادسية جعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي - وكان يلقب ذا النور - وجعل إليه قسم الفيء والأقباض، ثم استعمله عمر على الباب والأبواب وقتال الترك، واستشهد بعد ذلك ببلنجر بعد مضي ثماني سنين من خلافة عثمان...

قالوا: ودفن عبد الرحمن في بلاد الترك. فهم يستسقون به إلى الآن.

قلت: وقد ذكرنا غير مرة أنهم ما كانوا يؤمِّرون في الفتوح إلا الصحابة) [٢].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٣٢٥٦).

(٢) المصدر نفسه، ت (٤٨٣٩).

حذيفة بن أسيد الغفاري (قائد الميمنة):

(.. أبو سريحة - مشهور بكنيته، شهد الحديبية، وذكر فيمن بايع تحت الشجرة، ثم نزل الكوفة، وروى أحاديث، أخرج له مسلم وأصحاب السنن) [(١)].

بكير بن عبد اللَّه الليثي:

له ذكر في الفتوح، وعقد له عمر على أذربيجان، نقلته من التاريخ المظفري).

لكن القعقاع بن عمرو ﵁ هو الذي خصَّ ذكره في الفتوحات.

وإن كنت حاولت الطعان فيممي بكيرًا إذا ما الخيل جالت عن الردي

وكلهم في ذروة المجد نازل فشأنكم إن البيان من الغد

وهو الذي كانت همته الباب بعد أذربيجان، وسعى إليها فنالها، وأوكل إليه قيادة المسيرة وهو أقرب ما يكون من الباب.

حبيب بن مسلمة:

وهو الذي بعثه أمير المؤمنين مددًا ثانيًا بعد بكير بن عبد اللَّه الليثي، وكان واليًا على الجزيرة (وأمده عمر بحبيب بن مسلمة، صرفه إليه من الجزيرة، وبعث زياد ابن حنظلة مكانه على الجزيرة) [(٢)].

أما حبيب فهو:

(حبيب بن مسلمة.... بن محارب بن فهر بن مالك القرشي الفهري، يكنى أبا عبد الرحمن، يقال له: حبيب الروم؛ لكثرة دخوله إليهم، ونيله منهم، وولاه عمر ابن الخطاب أعمال الجزيرة؛ إذ عزل عياض بن غنم، وضم إلى حبيب بن مسلمة أرمينية وأذربيجان، ثم عزله وولى عمير بن سعد.... وفي حبيب بن مسلمة يقول الشاعر:

ألا كلُّ من يُدعَى حبيبًا وإن بَدت مُروءتُه يفدِّي حبيبَ بَنِي فِهر

قال أبو عمر ﵁: كان أهل الشام يثنون على حبيب بن مسلمة أنه كان فاضلًا مجاب الدعوة...) [(٣)].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (١٨١٠). (٢) المصدر نفسه، ت (٨١٣).

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ت (٤٩٧).

لقد كان عمر ﷺ يدرك خطورة هذا الثغر، ومن أجل هذا أمد سراقة بن عمرو ﷺ ببكير بن عبد اللَّه الليثي وقوات معه من أذربيجان، وأمده بحبيب بن مسلمة من الجزيرة بالشام.

٤ - وحيث إن عبد الرحمن بن ربيعة هو قائد مقدمة سراقة، فقدمه سراقة، وخرج في الأثر، وكان أول لقاء مع العدو، وكان قائد جيش العدو الفارسي شهربراز - رجل من أهل فارس - وكان المتوقع أن تكون معركة لا تقل هولًا عن سابقاتها، القادسية ونهاوند وراج الروذ.

(وكان فوْجًا عظيمًا به جند عظيم).

وكان العرب والفرس معًا ينتظرون نتائج هذه المعركة الحاسمة؛ فعمر أمير المؤمنين ﷺ - على كل عبقريته الفذة - لم يكن يدور بخلده إلا معركة عالمية كبرى، ومن أجل هذا أمد هذه الجبهة بأكبر القادة عنده؛ حبيب بن مسلمة الفهري، وبكير بن عبد اللَّه الليثي.

(فأتى عمرَ أمر لم ير أن يستتم له على ما خرج عليه...).

والفرس كانوا بانتظار نتائج المعركة.

(إنما ينتظر أهل فارس صنيعهم، ثم يضعون الحرب أو يبعثونها).

فإن تم النصر في هذا الثغر فستعود إليهم روحهم ومعنوياتهم، وإن خسروا المعركة فستكون نهايتهم، فسيضعون الحرب إلى غير رجعة.

٥ - أما ما وقع فلم يكن بحسبان أحد، والرحمن هو الذي صنع هذا للمسلمين، ووفر عليهم أنهار الدماء وعلى العدو كذلك، وهي سابقة لم نجد لها مثيلًا في تاريخ الحروب وتاريخ المسلمين، إنه صنيع شهربراز، وهو إرادة اللَّه. (وما يصنع فاللَّه صانع).

لقد اختار قائد الفرس الحلف مع المسلمين على بني قومه بعيدًا عن الخيارات الثلاثة؛ الإسلام، أو الجزية، أو الحرب.

(فكاتبه شهربراز (لقائد المسلمين) واستأمنه على أن يأتيه، ففعل، فأتاه، فقال: (إني بإزاء عدو كَلِبٍ وأمم مختلفة ولا ينسبون إلى أحساب).

لقد خانت الحكمة والعقل يزدجرد وخانت رستم وخانت كل القادة السابقين ووافق ذلك شهربراز.

(وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء، ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول).

لقد غُزي في أعماق ذاته، وملأت هيبة قادة المسلمين قلبه، وغاب ذلك الشعور الذي كان عند القادة السابقين، أقل أمة، وأذل أمة، وأفقر أمة.

إنه يتحدث بالرصيد الشعوري الجديد حين يرى تساقط أقاليم فارس واحدًا تلو الآخر، حتى بدون مقاومة، وهو ينظر إليهم اليوم أندادًا كبارًا عظامًا ذوي أحساب عريقة وأمجاد خالدة.

(وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان).

(ولست من القبج في شيء، ولا من الأرمن، وإنكم غلبتم على بلادي وأمتي).

٦ – **وها هو يعلن الموقف العجيب المثير** ويعتبر نفسه والمسلمين على قاعدة واحدة وأرضية مشتركة ولو احتلوا أرضه.

(فأنا اليوم منكم.

ويدي مع أيديكم.

وصغوي معكم [١].

وبارك اللّٰه لنا ولكم).

فهو حلف الأشراف مع الأشراف، والأنساب العريقة مع الأنساب العريقة، لكنه يعلم أن دفع الجزية للمسلمين سوف يحرق موقفه، ويكون سبة ذل أمام قومه، وأمام يزدجرد.

ومن أجل ذلك طرح هذا المفهوم الجديد.

(وجزيتنا إليكم النصر لكم، والقيام بما تحبون.

ولا تذلونا بالجزية فتوهّنونا لعدوكم).

---

(١) صغوي إليكم: ميلي وهواي معكم.

٧ - وابن ربيعة قائد المقدمة لا يملك صلاحيات التغيير في السياسة الخارجية، إنما يملكها قائد الجيش وحده نائب أمير المؤمنين في الساحة.

(فقال عبد الرحمن: فوقي رجل قد أظلك فسر إليه).

فجوَّزه فسار إلى سراقة فلقيه بمثل ذلك.

فقال سراقة: قد قبلت ذلك منك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه، ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض. فقبل ذلك...).

وكتب سراقة بذلك إلى عمر، فأجازه وأحسنه.

وليس بعد إجازة أمير المؤمنين إجازة، فالجزية هنا مقابل الحماية فقط، فإذا دافع أهل الذمة عن أنفسهم ورضوا ابتداء مسؤوليتهم عن بلدهم والدفاع عن أرضهم فترفع الجزية، لكن ضمن إطار التحالف الكامل في التناصر بين الفريقين كما هي الحال في وثيقة المدينة.

(وأن بينهم (اليهود والمسلمون) التناصر على من دهم يثرب).

٨ - (وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين، وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفروا فتوضع عنهم جزاء تلك السنة.

واكتتبوا من سراقة بن عمرو كتابًا:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (شهربرازَ) وسكان أرمينية والأرمن من الأمان.

- أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وملتهم.

- ألا يضاروا ولا ينتقصوا.

- وعلى أهل أرمينية والأبواب الطراء منهم والثناء ومن حولهم أن ينفروا لكل غارة.

- وينفذوا (أو ينصروا) لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحًا.

- على أن توضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلى الحشر.

- والحشر عوض من جزائهم.

- ومن استغنى منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يومًا كاملًا.

- فإن حشروا وُضع ذلك عنهم، وإن تَركوا أخذوا به.

شهد بذلك عبد الرحمن بن ربيعة، وسلمان بن ربيعة، وبكير بن عبد اللَّه، وكتب مرضي بن مقرّن وشهد) [١].

(وصار سُنَّةً...).

أي أن الصلح يمكن أن يتم بالنصرة والتناصر والتحالف بديلًا عن الجزية.

(فأنا اليوم منكم ويدي إلى يدكم ... وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون، فلا تذلونا بالجزية فتوهِّنونا لعدوكم..).

ومن هذا المنطلق نستطيع اليوم أن نفهم أساس الدولة القُطْرية الحديثة القائمة على مبدأ المواطنة، بحيث يشترك أبناؤها جميعًا بالدفاع عنها لا فرق بين مسلم وغير مسلم فيها، فالجندية إجبارية على الجميع، ومن يريد أن لا يشارك في هذه الجندية (يقيم ولا ينهض) فعليه الجزاء مسلمًا كان أو غير مسلم أو مايسمَّى بالبدل النقدي، وهذه هي القضية الكبرى التي كان المسلم يختلف فيها عن غير المسلم عبر التاريخ، وحين تأخذ هذه القضية هذا التشريع أساسًا يتساوى فيها المواطنون في الحقوق والواجبات، وإذا كانت الزكاة شخصية يدفعها المسلم الغني لأخيه الفقير فلا تدخل ضمن إطار الواجبات المالية، وهو اجتهاد له وجوده ووزنه في الفقه الإسلامي، أما عندما تقوم الدولة بجمع الزكاة وتوزيعها على الفقراء من المسلمين بالنسبة المعروفة - ربع العشر - فمن حق الدولة أن تفرض ضريبة على غير المسلمين لتُرَدَّ على فقرائهم بالنسبة نفسها حتى يتم التساوي في الحقوق والواجبات، وهذا هو الذي فعله ﷺ حين أقام دولة المدينة. وقال في الحقوق والواجبات العامة:

(... وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.... وأن لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٤٠).

النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دَعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب هذا الدين... وإن اللَّه على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإن اللَّه جار لمن برَّ واتقى، ومحمد رسول اللَّه ﷺ..) [1].

إنه دستور الدولة الإسلامية الجديدة، وهو دستور دولة قُطْرية ديمقراطية تقوم على أساس إسلامي.

٩ - وبعث القائد العام كل قادته عدا عبد الرحمن بن ربيعة الى الجبال المنيعة المجاورة.

(ووجه سراقة بعد ذلك بكير بن عبد اللَّه، وحبيب بن مسلمة، وحذيفة بن أسيد، وسلمان بن ربيعة إلى تلك الجبال المحيطة بأرمينية.

فوجَّه بكيرًا إلى موقان.

ووجَّه حبيبًا إلى تفليس.

وحذيفة بن أسيد إلى من بجبال اللان.

وسلمان بن ربيعة إلى الوجه الآخر.

وكتب سراقة بالفتح وبالوجه الذي وجّه فيه هؤلاء النفر إلى عمر بن الخطاب فأتى عُمَرَ أمر لم يكن يرى أن يستتم له على ما خرج عليه في سريح بغير مؤونة ... فلما استوسقوا واستحلوا عدل الإسلام مات سراقة، واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة، وقد مضى أولئك القواد الذين بعثهم سراقة فلم يفتح أحد ما وُجه إليه إلا بكير، فإنه فض موقان).

وآثر قادة موقان الجزية على النفير والدفاع عن أنفسهم، ووجدوا هذا الأمر أسهل وأقل مشقة وكلفة من النفر.

(ثم تراجعوا إلى الجزية فكتب لهم:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى بكير بن عبد اللَّه أهل موقان من جبال القبج على أموالهم وأنفسهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١٦٧/٢ - ١٧٢).

وملتهم وشرائعهم على الجزاء؛ دينار على كل حالم أو قيمته والنصح، ودلالة المسلم، ونزله يومه وليلته، ولهم الأمان ما أقروا ونصحوا، وعلينا الوفاء. واللَّه المستعان. فإن تركوا ذلك واستبان منهم غش فلا أمان لهم إلا أن يسلموا الغششة برمتهم، وإلا فهم متمالئون.

شهد الشماخ بن ضرار، والرسارس بن جنادب، وحملَة بن جوية وكتب سنة إحدى وعشرين) [(١)].

وحيث إن الذين يشهدون دائمًا هم القادة الكبار فهذه أسماء قيادات جديدة، نسمع بها لأول مرة مع فتح ماقون، لكن القيادات السابقة التي مرت مع أنها قيادات تحمل مسؤولية الفتوح لأول مرة لكنها مرت بدورات مكثفة حتى تكون لديها خبرات إدارية وقضائية ومالية، إضافة إلى الخبرات العسكرية التي رسخت عندهم من خلال المشاركة في الفتوحات. إنها أعظم أمة أنجبها التاريخ، وحققت في عشر سنين ونيف ما عجزت الأمم الكبرى أن تحققه في مئات السنين وتتالي القرون.

١٠ - ويحسن بنا أن نشهد حدثين معًا، وفي هذه السنة تجلي لنا هذه المعاني العظيمة، وكلا الأمرين مع الزعيم الفارسي المجرب المحنك شهر براز:

أما الحدث الأول فهو الحديث عن الردم أو السد الذي بناه ذو القرنين من خلال قريتين: ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف: ٩٤، ٩٥].

شهربراز وزيارة الردم:

فلقد بعث شهر براز رجلًا لزيارة السد، وصادف وصوله تحالف شهربراز والمسلمين بقيادة عبد الرحمن بن ربيعة:

(شهر براز: أتدري أيها الأمير من أين جاء هذا الرجل؟

هذا الرجل بعثته منذ سنين نحو السد لينظر ما حاله ومن دونه، وزودته مالًا عظيمًا وكتبت له إلى من يليني، وأهديت له، وسألته أن يكتب له إلى من وراءه، وزودته لكل ملك هدية.. فانتهى إلى الملك الذي السد في ظهر أرضه، فكتب إلى عامله على ذلك البلد، فأتاه فبعث معه بازياره معه وعقابه، فأعطاه حريرة.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٤١).

قال: فتشكر لي البازيار.

وصف السد: فلما انتهينا فإذا جبلان بينهما سد مسدود حتى ارتفع على الجبلين بعدما استوى بهما، وإذا دون السد خندق أشد سوادًا من الليل؛ لبعده، فنظرت إلى ذلك كله وتفرست فيه، وذهبت لأنصرف.

المكافأة: فقال لي البازيار: على رسلك أكافئك،

إنه لا يلي ملك بعد ملك إلا تقرب إلى اللّٰه بأفضل ما عنده من الدنيا، فيرمي به في هذا اللَّهب. فشرح بضعة لحم معه فألقاها في ذلك الهواء، وانقضت عليه العقاب.

وقال: إن أدركتها قبل أن تقع فلا شيء. (أي لا يخسر أغلى ما عنده).

وإن لم تدركها حتى تقع فذلك شيء.

فخرجت علينا العقاب باللحم في مخالبها.

الياقوتة الثمينة: وإذا فيه (في اللحم) ياقوتة، فأعطانيها وها هي هذه..).

فقد حمل الرسول الياقوتة، وسلمها للملك، وأراد الملك شهر براز وهو الذي دفع مئات الألوف لهدايا الملوك، فهو أحق الناس بها، لكنه يود أن يهديها إلى حليفه العظيم.

(فتناولها شهر براز حمراء، فناولها عبد الرحمن، فنظر إليها، ثم ردها إلى شهر براز).

إن ختام القصة هو الذي يعنينا، وهو الذي يحسن الوقوف مليًّا عنده.

فعندما أعاد ابن ربيعة ﷺ الياقوتة لملك فارس شهر براز قال كلامًا صنع به تاريخ أمة أو جلَّى هذا التاريخ العظيم، فقد أبرز ابتداء نفاسة الياقوتة.

قال شهر براز:

لهذه خير من هذا البلد - يعني الباب.

ثم عاد فسجل رأيه بهذه الأمة العظيمة:

(وايم اللّٰه لأنتم أحب إليَّ ملكة من آل كسرى، ولو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرها لانتزعوها مني).

هذا ما قاله في أهله ومَلِكه.

أما ما قاله في عدوه:

(والله لا يقوم لكم شيء ما وفيتم ووفى ملككم الأكبر).

إنه يعرف غدر كسرى وجشعه وأنانية ملكه الأكبر، ولو درى بالياقوتة لأخذها غصبًا منه، وها هو يرى الياقوتة مبذلولة للوالي الإسلامي فيردها إليه معززة مكرمة، زاهدًا فيها، صغيرة في عينه، لا تعادل جناح بعوضة في عينيه، فكيف بملكه الأكبر الذي يسمع عنه ما لا تستطيع الأساطير أن تتحدث عنه؟

١١ - وعودة إلى الردم والسد مرة ثانية وغزو الترك:

(ولما بلغ عمر موت سراقة، واستخلافه عبد الرحمن بن ربيعة، أقر عبد الرحمن على فرج الباب، وأمره بغزو الترك..).

والعجيب أن كلا القائدين يطلق عليهما لقب واحد، هذا اللقب هو (ذو النور) ولم يطلق هذا اللقب من فراغ، إنما أطلق من معدن تقيٍّ زكيٍّ رأى الناس فيه الهدى والصلاح، ورأوا سيماهم في وجوههم من أثر السجود.

(فخرج عبد الرحمن بالناس حتى قطع الباب فقال له شهر براز:

ما تريد أن تصنع؟

قال: أريد بلنجر:

قال: إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب.

قال: لكنا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم..).

نعم، فرسالة هذه الأمة إلى الخلق كافة لا تكتفي عند حدود الإمبراطورية الفارسية أو الإمبراطورية الرومانية، إن حدها ما طلعت عليه الشمس وما غربت عنه الشمس.

(الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام) [١].

وإذا كان الردم أو السد يرسل إليه شهر براز رحلة سياحية من فرد يضع معه الملايين ليأتيه بأخباره، فالردم عند المسلمين هدفٌ من أهداف الفتح لا بد من الوصول إليه، لكن ضمن خطة استراتيجية لغزو العالم.

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٠١).

يقول عبد الرحمن بن ربيعة ﷺ:

(وتالله إن معنا لأقوامًا لو يأذن لنا أميرنا بالإمعان لبلغت بهم الردم).

(قال: وما هم؟)

وها هو بيت القصيد: ما هم؟

إنهم جيل مدرسة النبوة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٦].

فنحن إذن أمام حزب الله.

ماذا قال عنهم عبد الرحمن بن ربيعة وهو نبتة من هذه النبتات؟

(قال: وما هم؟،

قال: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ، ودخلوا هذا الأمر بنية، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية فازداد حياؤهم وتكرمهم، ولا يزال هذا الأمر دائمًا لهم، ولا يزال النصر معهم حتى يغيِّرهم من يغلبهم وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيَّرهم، ونحقق بهم موعود الله).

(فغزا بلنجر غزاة في زمن عمر لم تئم فيها امرأة، ولم ييتم فيها صبي، وبلغ خيله في غزاتها البيضاء على رأس مائتي فرسخ من بلنجر، ثم غزا فسلم...).

وهكذا كان عدوهم ينظر لهم « **ونصرت بالرعب مسيرة شهر** »[(١)].

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف... عن سلمان بن ربيعة قال: لما دخل عليهم عبد الرحمن بن ربيعة حال الله بين الترك والخروج عليه.

وقالوا: ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت. فتحصنوا منه وهربوا، فرجع بالغنم والظفر، وذلك في إمارة عمر)[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٥٤١).

هذا الجيل الذي خاض التربية كاملة في الحديبية، ونال شرف صحبته، ها هو اليوم يقود هذه المعارك: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩].

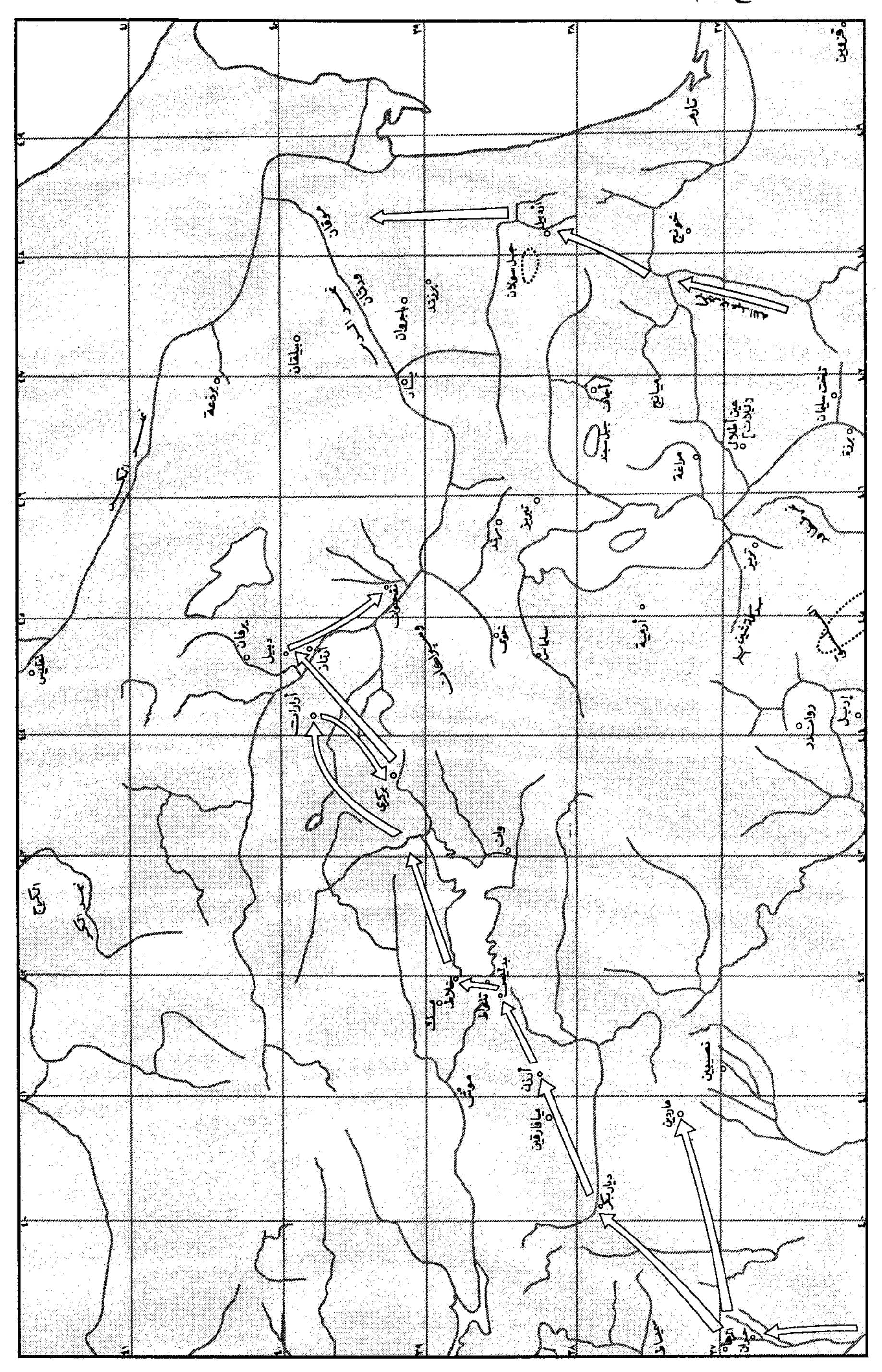
١٢ - (وزعم الواقدي أن معاوية غزا الصائفة في هذه السنة، ودخل بلاد الروم في عشرة آلاف.

إنه الجيل الثاني من الصحابة، جيل مسلمة الفتح من الشباب الذين وثق بهم أمير المؤمنين بعد وفاة الرعيل الأول أو استشهاده، فمعاوية وَرِيثُ أخيه يزيد الخير، والذي تابع رسالته، فخاض المعركة العنيفة ضد الروم، والتي سارت بها الركبان، وحطم الأسطول الرومي، وها هو الآن يغزو الصائفة، ويقتحم على الروم بلادهم في عشرة آلاف من المسلمين؛ مثل عبد الرحمن بن ربيعة الذي غزا الترك من طرفه، وحبيب ابن مسلمة الذي شارك في تحرير جبال الباب. إنهم الجيل الجديد الذي يمكن أن يسمَّى بصغار الصحابة.

أما الجيل الثالث فقد ولد هذا العام عام اثنين وعشرين للهجرة، ذكر منه يزيد ابن معاوية، وعبد الملك بن مروان، وكلاهما أصبح الرجل الأول في الدولة في النصف الثاني من القرن الأول، وتابعا رسالة الفتوح من دمشق العاصمة الثانية لدولة الإسلام، إنه جيل التابعين: « **خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم..** » [١].

* * *
* *
*

(١) رواه البخاري ح، (٢٥٠٨)، ومسلم ح، (٢٥٣٥).



فتح أرمينيا وأذربيجان

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٠٢ - ١٠٣) خريطة (٥٩))



السنة الثانية والعشرون



الفصل السابع

الأحنف - فاتح خراسان - ويزدجرد

أولًا: تعديل الفتوح بين أهل الكوفة وأهل البصرة

قال الطبري: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد.

قالوا: أقام عمار بن ياسر عاملًا على الكوفة سنة في إمارة عمر وبعض أخرى.

وكتب عمر بن سراقة وهو يومئذ على البصرة إلى عمر بن الخطاب يذكر له كثرة أهل البصرة، وعَجْزَ خراجهم عنهم، ويسأله أن يزيدهم أحد الماهين أو ماسبذان.

وبلغ ذلك أهل الكوفة فقالوا لعمار:

اكتب إلى عمر أن رامهرمز وإيذج لنا دونهم، لم يعينونا عليهما بشيء ولم يلحقوا بنا حتى افتتحناهما. فقال عمار: ما لي ولما ها هنا؟

فقال له عطارد: فعلام تدع فيئنا أيها العبد الأجدع.

فقال: لقد سَبَبْتَ أحبَّ أذني إليَّ.

ولم يكتب في ذلك، فأبغضوه.

ولما أبى أهل الكوفة إلا الخصومة فيهما لأهل البصرة شهد لهم أقوام على أبي موسى أنه قد كان آمن أهل رامهرمز وإيذج، وأن أهل الكوفة والنعمان راسلوهم وهم في أمان، فأجاز لهم عمر ذلك، وأجراها لأهل البصرة بشهادة الشهود، وادعى أهل البصرة في أصبهان قريات افتتحها أبو موسى دون جي أيام أمدَّهم بهم عمر إلى عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبان.

فقال أهل الكوفة: أتيتمونا مددًا وقد افتتحنا البلاد، فآسيناكم في المغانم، والذمة ذمتنا، والأرض أرضنا، فقال عمر: صدقوا.

ثم إن أهل الأيام وأهل القادسية من أهل البصرة أخذوا في أمر آخر حتى قالوا: فليعطونا نصيبنا مما نحن شركاؤهم فيه من سوادهم وحواشيه.

فقال لهم عمر: أترضون بماه؟

وقال لأهل الكوفة: أترضون أن نعطيهم من ذلك أحد الماهين؟

قالوا: ما رأيت أنه ينبغي فاعمل به.

فأعطاهم ماه دينار بنصيبهم لمن كان شهد الأيام والقادسية منهم إلى سواد البصرة ومهرجا نقذق، وكان ذلك لمن شهد الأيام والقادسية من أهل البصرة) [١].

فسياسة الدول، والعدالة في التوزيع، والرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وغناؤه مبادئ كبرى خطها عمر أمير المؤمنين لا بد أن تراعى في أي سياسة مالية.

ولو ترك الأمر دون أن ينظم من قبل الدولة لأشعل حربًا اقتصادية بين أهل الكوفة والبصرة قد تدخل كل بيت، كما قد تدخل فيها عوامل أخرى، وعصبيات قبلية تشعل أرض المسلمين نارًا.

لقد كان أمير المؤمنين هو الحاكم الأعلى في هذه الدعاوى، فهو الذي يرسل الولاة، وهو الذي يبعث قادة الجيوش، وهو الذي تنتهي إليه المحاكم، ومع ذلك كله فحضر وفد يمثل أهل الكوفة، ويطالب بحقوقهم، ووفد يمثل أهل البصرة ويطالب بحقوقهم، وقام بسماع الدعاوى كاملة، وقام بالإصلاح اللازم.

ودخلت هذه الإصلاحات في وثائق الدولة، وفي توزيع الأموال وجبايتها من خلال رضا هذين الثغرين اللذين يملكان مفاتيح الإمبراطورية الفارسية.

ثانيًا: الثلمة الثالثة في الجدار: عزل عمار بن ياسر ﷺ

لقد كانت الثلمة الأولى: عزل المغيرة بن شعبة نتيجة شكوى من أهل البصرة.

وكانت الثلمة الثانية: عزل سعد بن أبي وقاص نتيجة شكوى من أهل الكوفة.

وكانت الثلمة الثالثة: عزل عمار بن ياسر نتيجة شكوى من أهل الكوفة.

---

(١) تاريخ الطبري (٥٤٣/٢).

هذه الظاهرة التي أقلقت أمير المؤمنين ﷺ امتدت فيما بعد فأشعلت أرض الإسلام بالفتنة، وخاصة عند أهل الكوفة، وسنتعرض لها تفصيلًا فيما بعد، ولم يسلم أمير عندهم من نقد، ولو كان من أعظم وأفضل الصحابة، فقد شكوا سعدًا ﷺ من خلال تواطؤ على الفتنة من قوم لا يرعَوْن في اللَّه إلًّا ولا ذمة، وقد وضع عمر ﷺ أصبع الاتهام عليهم، وخاصة لتحركهم في أخطر الظروف التي تعاني منها الدولة الإسلامية، بينما شهدت أكثرية أهل الكوفة لسعد ودينه وعدله وتقواه.

وقد جرى مع عمار ﷺ ما جرى مع سعد بن أبي وقاص بالضبط:

١ - اختاره عمر أمير المؤمنين ﷺ أميرًا، واختار ابن مسعود وزيرًا (الثوري عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب قال:

قرئ علينا كتاب عمر:

أما بعد فإني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميرًا وابن مسعود معلمًا ووزيرًا، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر، فاسمعوا لهما وأطيعوا واقتدوا بهما. وقد آثرتكم بابن أم عبد على نفسي). رواه شريك فقال: آثرتكم بهما على نفسي [1].

٢ - هذه نظرة الفاروق للعظيمين عمار وابن مسعود، وقد آثر أهل الكوفة بهما على نفسه، وهما من النجباء من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، فهم صفوة الصحابة، وذلك انطلاقًا من الحديث النبوي الشريف:

(فطر بن خليفة عن كثير النواء: سمعت عبد اللَّه بن مُلَيْل، سمعت عليًّا ﷺ يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: « **لم يكن نبي قط إلا وقد أعطي سبعة رفقاء نجباء وزراء، وإني أعطيت أربعة عشر: حمزة، وأبو بكر، وعمر، وعلي، وجعفر، وحسن، وحسين، وابن مسعود، وأبو ذرٍّ، والمقداد، وحذيفة، وعمار، وبلال، وسلمان** ») [2].

فنحن إذن مع واحد من الطبقة العليا من الصحابة وصفهم رسول اللَّه ﷺ: « **رفقاء نجباء وزراء** ».

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/٤٢٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/٤١٢) وقال المحقق فيه: أخرجه أحمد (١/٨٨)، والترمذي، ح (٣٧٨٧) في المناقب وقال: حديث حسن غريب. كذا قال مع أن كثير النواء ضعيف.

٣ - ثم اختص من الأربعة عشر إلى أربعة:

(جماعة عن الثوري، عن عبد الملك بن عمير عن مولًى لربعي عن ربعي عن حذيفة مرفوعًا:

« **اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد ابن أم عبد** » [(١)].

٤ - ثم اختص من بين الأربعة إلى ثلاثة:

(وعن أنس أن النبي ﷺ قال: « **ثلاثة تشتاق لهم الحور العين، علي وعمار وسلمان** » [(٢)].

قلت: له عند الترمذي: « **إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة** » [(٣)].

رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير أبي ربيعة الإيادي (قد حسن الترمذي حديثه).

٥ - ومن الثلاثة إلى الواحد:

(العوام بن حوشب عن سلمة بن كهيل عن علقمة عن خالد بن الوليد قال: كان بيني وبين عمار كلام، فأغلظت له، فشكاني إلى رسول اللَّه ﷺ، فقال: « **من عادى عمارًا عاداه اللَّه، ومن أبغض عمارًا أبغضه اللَّه** ». فخرجت فما شيء أحب إلي من رضا عمار، فلقيته فرضي) [(٤)].

٦ - ونفارق الإمام المؤرخ الطبري هنا في الحديث عن عزل عمار ؓ وعن أسباب عزله، وذلك فيما نقله لنا عن رواته، وهي هفوة من أفضل رواته آخذين هنا ما يقول علماء الرجال عن شعيب [(٥)]، فلا نقبل روايته حين تنال أحدًا من الصحابة. وقد نالت هذه الرواية من عمار ؓ.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/٤١٤) وقال المحقق فيه: حديث حسن. وهو في المسند (٥/ ٣٨٥).

(٢) الطبري في الكبير (١/٢٠٦)، ح (٣٢٩). (٣) سنن الترمذي (٥/٦٧٧)، ح (٣٧٩٧).

(٤) أخرجه أحمد (١/٨٩) وذكره الهيثمي في المجمع (٩/٢٩٣) وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٥) شعيب بن إبراهيم الكوفي: قال الذهبي في ميزان الاعتدال: راوية كتب سيف عنه فيه جهالة. وقال ابن حجر في لسان الميزان (٣/١٤٥): ذكره ابن عدي وقال: ليس بالمعروف، وله أحاديث وأخبار، وفيه بعض النكرة، وفيها ما فيه تحامل على السلف.

وهذه هي الرواية الأولى:

(كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمر وسعيد قالوا:

أقام عمار بن ياسر عاملًا على الكوفة سنة في إمارة عمر وبعض أخرى، وكتب عمر بن سراقة وهو يومئذ على البصرة إلى عمر بن الخطاب يذكر له كثرة أهل البصرة، وعجز خراجهم عنهم، ويسأله أن يزيدهم أحد الماهين أو الماسبذان، وبلغ ذلك أهل الكوفة.

فقالوا لعمار: اكتب لنا إلى عمر أن رامهرمز وإيذج لنا دونهم لم يعينونا عليهم بشيء ولم يلحقوا بنا حتى افتتحناهما. فقال عمار: ما لي ولما ها هنا؟

فقال له عطارد: فعلام تدع فيئنا أيها العبد الأجدع؟!

فقال: لقد سَبَبْتَ أحب أذني إلي. ولم يكتب في ذلك، فأبغضوه...) [1].

هذه صورة عمار بن ياسر ﷺ في هذه الرواية، يتجرأ عليه أحد القيادات الإسلامية ويخاطبونه بالعبد الأجدع وهو أمير الكوفة من قبل أمير المؤمنين.

لا نستطيع أبدًا أن نقبل هذه الصورة لتكون صورة أهل الكوفة، فيبغضون أعظم الصحابة؛ لأنه لم يكتب لهم ما يريدون إلى أمير المؤمنين.

وحين نرفض هذه الرواية تطالعنا رواية صحيحة حديثيًا تنقض هذه الصورة:

(شعبة عن قيس سمع طارق بن شهاب يقول:

إن أهل البصرة غزوا نهاوند، فأمدهم أهل الكوفة وعليهم عمار، فظفروا، فأراد أهل البصرة أن لا يقسموا لأهل الكوفة شيئًا. فقال رجل تميمي:

أيها الأجدع، تريد أن تشاركنا في غنائمنا.

فقال عمار: خير أذني سَبَبْتَ، فإنها أصيبت مع رسول الله ﷺ.

قال: فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب عمر: إن الغنيمة لمن شهد الوقعة) [2].

---

(١) تاريخ الطبري (٥٤٣/٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤٢٢/١)، وقال المحقق فيه: إسناده صحيح وأخرجه ابن سعد وعبد الرزاق والبيهقي والبغوي.

فهذه الرواية سندها صحيح أولًا، وأن يكون التميمي هو الذي كلمه، وليس أميره ثانيًا، وتميم كلها في البصرة وليست في الكوفة ثالثًا، وجلافة البادية قد تبرز فيهم وهم الذين أنزل تعالى فيهم، قرآنًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات: ٤]. رابعًا وخامسًا: قد فعلها ذو الخويصرة التميمي في هوازن حين قال لرسول الله ﷺ: أراك لم تعدل.

فقال له ﷺ: « **ويحك من يعدل إن لم أعدل ؟** » [(١)].

مع ملاحظة أن هذا الأمر لا يمس قبيلة تميم العظيمة لجلافة أفراد فيها، وهم أبطال القادسية ونهاوند والفتوحات كلها.

٧ - إن خلافنا مع رواة الطبري هو عرضهم لشخص عمار في قفص الاتهام، وأن الأمر ليس مجرد وشاية كما هو الحال مع سعد ﵁، والمغيرة بن شعبة من قبل، إنما الأمر أمر إجماع من أهل الكوفة على بغضه، وليس مجرد أفراد مغرضين. ولنستمع إلى هذه الصورة الثانية التي تصمه بالجهالة من عمر أمير المؤمنين ومن أهل الكوفة:

أ - (ذكر السبب في ذلك:

قد تقدم ذكري بعض سبب عزله، ونذكر بقيته:

ذكر السري فيما كتب به إليَّ عن شعيب عن سيف عمن تقدم ذكري عن شيوخه قال: قالوا:

وكتب أهل الكوفة - عطارد ذلك وأناس معه إلى عمر في عمار - وقالوا:

إنه ليس بأمير، ولا يحتمل ما هو فيه. ونزا به أهل الكوفة، فكتب عمر إلى عمار أن أقبل. فخرج بوفد من أهل الكوفة، ووفّد رجالًا ممن يرى أنه معه، فكانوا أشد عليه ممن تخلف، فجزع فقيل له: يا أبا اليقظان ما هذا الجزع؟

فقال: ما أحمد نفسي عليه، وقد ابتليت به.

- وكان سعد بن مسعود الثقفي عم المختار، وجرير بن عبد الله البجلي معه، فسعيا بعمر، وأخبرا عمر بأشياء يكرهها، فعزله عمر ولم يُوَلِّه) [(٢)].

---

(١) البخاري (٦/٢٥٤٠)، ح (٦٥٣٤).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٥٤٤).

ب - (السري عن شعيب عن سيف عن زكرياء بن سياه عن هشام بن عبد الرحمن الثقفي أن سعدًا قال: واللَّه ما يدري علام استعملته؟

فقال عمر: علام استعملتك يا عمار؟

قال: على الحيرة وأرضها. فقال: قد سمعت بالحيرة تجارًا تختلف إليها. قال: وعلى أي شيء؟ قال: على بابل وأرضها. قال: قد سمعت بذكرها في القرآن.

قال: وعلى أي شيء؟ قال: على المدائن وما حولها. قال: أمدائن كسرى؟

قال: نعم. قال: وعلى أي شيء؟ قال: على مهرجا نقذق وأرضها.

قالوا: قد أخبرناك أنه لا يدري علام بعثته.

فعزله عنهم، ثم دعاه بعد ذلك فقال: أساءك حين عزلتك؟ قال: واللَّه ما فرحت به حين بعثتني، ولقد ساءني حين عزلتني. فقال:

لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكني تأولت: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥]) [١].

هل يمكن أن يُقدم أمير المؤمنين على اختيار والٍ لأعظم وأخطر ثغرٍ للمسلمين وهو وراءه ثغور فارس كلها تابعة له غير كفءٍ ولا جدير فقط لتنفيذ الآية الكريمة ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟... ﴾ [القصص: ٥].

أَوَ ليس كل طبقة المهاجرين والأنصار من الصحابة ينطبق عليها هذا المعنى؟

أَوَ لم يحدد الرايات لفتح فارس كلها وأثبت القادة المختارون كفاءتهم وحسن اختيار عمر لهم؟

جـ - بل يتابَعُ الاتهام بالنيل من عمار رضي الله عنه.

(كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن خليد بن ذفرة النمري، عن أبيه بمثله وزيادة فقال:

أو تُحمد نفسك بمعرفة من تعالجه منذ قدمت. وقال:

واللَّه يا عمار، لا ينتهي بك حدُّك حتى يلقيك في هنة، وتاللَّه لئن أدركك عمر لترِقَّن، ولئن رققت لتبتلين، فسل اللَّه الموت) [٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٤٤، ٥٤٥).

(٢) المصدر نفسه (٢/٥٤٥).

وأنَّى التفَت تلْقَى رجال بني تميم أمامك يصغِّرون من شأن عمر، بل ويهينونه ولا يرعون سلطانه، ولا يقول لهم عمر كلمة لوم، أو كلمة ثناء لعمار، وإنقاذ لعمر من مخالبهم.

د - (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد ومجالد عن الشعبي قال: قال عمر لأهل الكوفة:

أي منزِلَيكم أعجب إليكم؟ - يعني الكوفة أو المدائن - وقال:

إني لأسألكم، وإني لأعرف فضل أحدهما على الآخر في وجوهكم. فقال جرير:

أما منزلنا هذا الأدنى فإنه أدنى مَحِلَةً من السواد من البر، وأما الآخر فوعك البحر وغمّهُ وبعوضه.

فقال عمار: كذبت. فقال عمر لعمار: بل أنت أكذب منه. وقال:

ما تعرفون من أميركم عمار؟

فقال جرير: هو واللَّه غير كافٍ ولا مجزٍ ولا عالم بالسياسة) [(١)].

ترى ما الذي دفع عمارًا إلى تكذيب جرير، ولم ينل منه، ولم يمسه بسوء، ليتهمه مباشرة بالكذب، ويقوم أمير المؤمنين مباشرة باتهام عمار بالكذب وهو من هو.

هل كان عمار ﷺ سفيهًا إلى هذا الحد حتى يتهم جريرًا بالكذب وهو يصف المدائن والكوفة؟ وهل كان أمير المؤمنين ﷺ من الحمق حتى يرد على واليه عمار بأنه أكذب من جرير ثم يصدر الحكم على جهالة عمار أمام وفد الكوفة؟

هل هان عمار ﷺ إلى هذا الحد عند أمير المؤمنين يتهمه.

١ - بالكذب.

٢ - بالجهل.

٣ - بحمد نفسه على فعله كذبًا.

٤ - بالحدة التي تنتهي به إلى الخفة.

٥ - بتعرضه للابتلاء نتيجة هذه الحدة وهذه الخفة.

٦ - بأن الموت صار أولى له من الحياة (فسل اللَّه الموت).

---

(١) تاريخ الطبري (٥٤٤/٢).

٧ - وأن تقوم هذه الإهانات كلها أمام وفد الكوفة.

وهل نسي عمر ﷺ قول رسول الله ﷺ فيه: « **من عادى عمارًا عاداه الله، ومن أبغض عمارًا أبغضه الله** » [١].

ومما يؤكد أن هذه التوبيخات كلها كانت أمام وفد الكوفة هو تتمة الرواية:

(فسل الله الموت. ثم أقبل على أهل الكوفة فقال: من تريدون يا أهل الكوفة؟ فقالوا: أبا موسى. فأمَّره عليهم بعد عمار) [٢].

٨ - هذا النقد للأخبار من حيث المتن، أما نقدها من حيث السند فيكفينا موقف رجال الحديث من شعيب بأن ينال أحيانًا من الصحابة فينكرون ذلك عليه.

وهذه المرة الثانية التي نلتقي فيها مع السند الذهبي، ونرفض السند؛ لأنه نال من عظيم وسيد من سادات الصحابة.

ونتساءل بعد هذا: ما هي الحقيقة؟

ونعود إلى الحافظ الذهبي ليجيبنا على هذا السؤال:

أ - الصورة متناقضة تمامًا مع عرض رواة الطبري وأهل الكوفة عمومًا، كانوا يحبون عمارًا ويثنون عليه.

(الأعمش عن حبيب بن ثابت قال: سألهم عمر عن عمار، فأثنوا عليه وقالوا: والله ما أنت أمرته علينا، ولكن الله أَمَّرَه. فقال عمر:

اتقوا الله وقولوا كما يقال:

فوالله لأنا أمرته عليكم، فإن كان صوابًا فمن قِبَل الله، وإن كان خطأً إنه من قِبلَي) [٣].

فأهل الكوفة مفتونون بعمار كفتنة المسلمين بخالد والمثنى، وأمام إسرافهم في الثناء أراد أن ينبههم إلى البعد عن هذا الفهم والوهم: إن الله أمَّره علينا. ليضع الأمور في نصابها أنه هو الذي أمَّره، فإن أصاب فمن الله، وإن أخطأ فمن نفسه.

---

(١) رواه أحمد، ح (١٦٨٦٠)، والنسائي، ح (٨٢٦٩).

(٢) تاريخ الطبري (٥٤٥/٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤٢٣/١) ورجال الرواية رجال الصحيح.

٩ - أما موقفه من الروايات السابقة فيسوق رواية واحدة بسندها خلاصتها أن الوشاية من فرد واحد من أهل الكوفة.

(الأعمش عن إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد:

أن رجلًا من أهل الكوفة وشى بعمار إلى عمر، فقال له عمار:

إن كنت كاذبًا فأكثر اللَّه مالك وولدك، وجعلك موطأ العقبين) [(١)].

ولو أنا سمعنا هذه الدعوة اليوم لحسدنا من دُعي له فيها.

الولد والمال والجاه.

ولكنها أشد الدعوات عند عمار ﷺ بأن يُبتلى الرجل بحب الدنيا ويغرق فيها بكثرة الولد وكثرة المال وعلو الجاه.

وكما كان عزل سعدٍ لوشاية كاذبة، فكان عزل عمار لوشاية كاذبة.

١٠ - ويعود الحافظ الذهبي رحمه الله إلى تلك الروايات المشتهرة، فيلقيها جميعًا إلا روايتين عرضهما بلا سند، وبصيغة التمريض والتضعيف.

(ويقال: سعوا بعمار إلى عمر في أشياء كرهها له، فعزله ولم يؤنبه) [(٢)].

ونلاحظ أن المستوى الأدنى من التضعيف الذي يقبله أنه استمع لأكثر من واشٍ، فعزله ولم يؤنبه، وأما تأنيبه ولومه وتوبيخه فيرفضه ويعتبره ساقطًا لا وجود له.

(وقيل: إن جريرًا سأله عمر عن عمار، فقال: هو غير كافٍ ولا عالم بالسياسة) [(٣)].

وساق أخيرًا رواية عن أثر العزل في نفسية عمار رضي الله عنه وعمر متألم لما وقع:

(داود بن أبي هند، عن الشعبي، قال عمر لعمار:

أساءك عزلنا إياك؟

قال: لئن قلت ذاك لقد ساءني حين استعملتني، وساءني حين عزلتني) [(٤)].

فهو لا يرغب في الولاية ولا يريدها؛ ولذلك ساءته التولية، لكنه يستاء كذلك لسماع قول الوشاة فيه من عمر أمير المؤمنين.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/٤٢٣) وقال المحقق فيه: أخرجه ابن سعد (٣/١/١٨٣).

(٢، ٣) المصدر نفسه (١/٤٢٣).

(٤) المصدر نفسه. وقال المحقق فيه: أخرجه ابن سعد (٣/١/١٨٣).

غير أن سياسة الفاروق تقوم على عزل الولاة حتى على الوشاية كما فعل مع سعد ومع المغيرة - رضي اللَّه عنهما - من قبل؛ لأنه يريد وأد الفتنة من جذورها.

١١ - وإذا عدنا إلى رواة الطبري نرى أن عمر ﷺ في الرواية المشهورة عنه أنه يحمِّل المسؤولية لأهل الكوفة ولا يُحَمِّلها للأمير المختار.

وحين نعود إلى الرواية التي تذكر أن أمير المؤمنين أنَّب عمارًا أمام وفد الكوفة نجد التناقض في البداية مع النهاية:

(كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن خليد بن ذَفَرةَ النَّمَرِيِّ:

... فسل اللَّه الموت. ثم أقبل على أهل الكوفة فقال: من تريدون يا أهل الكوفة؟ فقالوا: أبا موسى. فأمَّرَهُ عليهم بعد عمار، فأقام عليهم سنة، فباع غلامه العلف، وسمعه الوليد بن عبد شمس يقول:

ما صحبت قومًا قط إلا آثرتهم، واللَّه ما منعني أن أكذب شهود أهل البصرة إلا صُحبتهم، ولئن صحبتُكم لأمنحنكم خيرًا.

فقال الوليد: ما ذهب بأرضنا غيرك، ولا جرم، لا تعمل علينا.

فخرج وخرج معه نفر، فقالوا: لا حاجة لنا بأبي موسى.

قال: ولم؟ قالوا: غلام له يتجر في حشرنا. فعزله عنهم، وصرفه إلى البصرة، وصرف عمر بن سراقة إلى الجزيرة، وقال لأصحاب أبي موسى الذين شخصوا في عزله من أهل الكوفة:

أقويٌّ مشدد أحب إليكم أم ضعيف مؤمن؟ فلم يجد عندهم شيئًا، فتنحى فخلا في ناحية المسجد، فنام، فأتاه المغيرة بن شعبة فكلأه حتى استيقظ.

فقال: ما فعلت يا أمير المؤمنين إلا من عظيم، فهل نابك من نائب؟

قال: وأي نائب أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير؟

وقال في ذلك ما شاء اللَّه.

واختطت الكوفة حين اختطت على مائة ألف مقاتل، وأتاه أصحابه فقالوا:

يا أمير المؤمنين ما شأنك؟

قال: شأني أهل الكوفة قد عضلوا بي.

وأعاد عليهم عمر المشورة التي استشار فيها فأجابه المغيرة فقال:

أما الضعيف المسلم فضعفه عليك وعلى المسلمين وفضله له، وأما القوي المشدد فقوته لك وللمسلمين، وشداده عليه وله. فبعثه عليهم.

ب - كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد بن عبد الله عن سعيد ابن عمرو أن عمر قال قبل أن استعمل المغيرة: ما تقولون في تولية رجل ضعيف مسلم أو رجل قوي مشدد؟ فقال المغيرة: أما الضعيف المسلم فإن إسلامه لنفسه وضعفه عليك، وأما القوي المشدد فإن شداده على نفسه وقوته للمسلمين. قال: فإنا باعثوك يا مغيرة.

فكان المغيرة عليها حتى مات عمر ﷺ وذلك نحو من سنتين وزيادة، فلما ودعه المغيرة للذهاب إلى الكوفة قال له:

يا مغيرة ليأمنك الأبرار وليخفك الفجار) [١].

ولقد أدرك عمر ﷺ لب المشكلة، وهي أن أهل الكوفة صعب قيادهم وانضباطهم أصعب، فلا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير، وهذه المشكلة هي التي كانت منطلق الفتنة فيما بعد، ومن أجل ذلك أسميناها الثغرة الثالثة في الجدار.

وإذا أردنا تفسيرًا لهذه الظاهرة فلا صعوبة في ذلك.

إن هؤلاء المائة ألف من كل قبائل العرب في اليمن والعراق والشام والجزيرة، ويمثلون القيادات الكبرى لهذه الأمة، وفي غير ظل الإسلام كان يمكن أن تستمر حروب يسقط فيها عشرات الألوف حتى ينهي الأقوى القوي، وهذا هو دَيْدنهم منذ عشرين قرنًا.

فأن ينتقلوا من مجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة أمر من أصعب الأمور على العربي الذي يقول:

ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيها مسيطر أو أمير

فتجسدت هذه الظاهرة بعد مفهوم السمع والطاعة للخليفة في الثورة على الأمير وعدم الرضا به؛ فالخليفة لا يمكن عزله، وليسوا هم المؤسسة التي تختاره وتعزله، أما الأمير فمن حقهم أن يختاروا أميرهم، ومن أجل ذلك كان هذا الهم هو الذي يثقل قلب أمير المؤمنين.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٤٥).

(شأني أهل الكوفة قد عضلوا بي... وأي نائب أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير؟).

ومن طرف آخر فلا يريد أمير المؤمنين أن يكون أمير الكوفة لعبة بين يدي مثيري الفتنة.

فأبو موسى الأشعري ﷺ الذي كان مطلبهم وموطن ثقتهم هم الذين طالبوا بعزله بعد أقل من سنة.

ومال عمر ﷺ إلى اختيار القوي المشدد، فاختار القائد المجرب والسياسي المحنك ورئيس الدبلوماسية الإسلامية بما يملك من دهاء وعبقرية ليكون أميرًا للكوفة، فبقي واليًا نحو سنتين وزيادة. وكانت وصيته الخالدة له:

(يا مغيرة، ليأمنك الأبرار، وليخفك الفجار).

وقد همَّ ﷺ أن يعيد اعتبار سعد واليًا على الكوفة ثانيةً لكن المنية عاجلته.

(ثم أراد عمر أن يبعث سعدًا على عمل المغيرة، فَقُتِلَ (أي عمر) قبل أن يبعثه، وكان من سنة عمر وسيرته أن يأخذ عماله بموافاة الحج في كل سنة للسياسة، وليحجزهم بذلك عن الرعية، وليكون لشكاة الرعية وقتًا وغاية ينهونها فيه إليه) [١].

ثالثًا: فتح خراسان ومطاردة يزدجرد

الجولة الأولى: بدء استسلام فارس:

(وفي هذه السنة غزا الأحنف بن قيس في قول بعضهم خراسان، وحارب يزدجرد، وأما في رواية سيف فإن خروج الأحنف إلى خراسان كان في سنة ثمان عشرة من الهجرة).

(اختلف أهل السير في سبب ذلك وكيف كان الأمر فيه، فأما ما ذكره سيف عن أصحابه في ذلك فإنه فيما كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو قالوا:

كان يزدجرد بن شهريار بن كسرى - وهو يومئذ ملك فارس - لما انهزم أهل جلولاء خرج يريد الري، وقد جُعِل له محمل واحد يطبق ظهر بعيره، فكان إذا سار

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٤٥).

نام فيه ولم يعرس بالقوم، فانتهوا به إلى مخاضة وهو نائم في محمله، فأنبهوه ليُعلم، ولئلا يفزع إذا خاض البعير إن هو استيقظ، فعنفهم وقال:

بئسما صنعتم، واللَّه لو تركتموني لعلمت ما مدة هذه الأمة، إني رأيت أني ومحمدًا تناجينا عند اللَّه، فقال له: أملكهم مائة سنة. فقال: زدني. فقال: عشرًا ومائة سنة. فقال: زدني. فقال: عشرين ومائة سنة. فقال: زدني. فقال: لك.. وأنبهتموني، فلو تركتموني لعلمت ما مدة هذه الأمة.

فلما انتهى إلى الري وعليها آبان جاذويه وثب (آبان) عليه فأخذه، فقال:

يا آبان جاذويه تغدر بي؟ قال:

لا، ولكنك تركت ملكك، وصار في يد غيرك، فأحببت أن أكتتب على ما كان لي من شيء، وما أردت غير ذلك. وأخذ خاتم يزدجرد، ووصل الأدُم، واكتتب الصكاك، وسجل السجلات بكل ما أعجبه، ثم ختم عليها ورد الخاتم، ثم أتى بعد سعدًا فردَّ عليه كل شيء في كتابه.

ولما صنع آبان جاذويه بيزدجرد ما صنع خرج من الري إلى أصبهان، وكره آبان جاذويه فارًّا منه ولم يأمنه، ثم عزم على كرمان، فأتاها والنار معه، فأراد أن يضعها في كرمان، ثم عزم على خراسان فأتى مرو ونزلها وقد نقل النار فبنى لها بيتًا، واتخذ بستانًا، وبنى أزجًا فرسخين من مرو إلى البستان، فكان على رأس فرسخين من مرو، واطمأن في نفسه، وأمن أن يؤتى، وكاتب من مرو من بقي من الأعاجم فيهما لم يفتتحه المسلمون فدانوا له، حتى أثار أهل فارس والهرمزان فنكثوا، وثار أهل الجبال والفيرزان ونكثوا، وصار ذلك داعية إلى عمر للمسلمين في الانسياح، فانساح أهل البصرة وأهل الكوفة حتى أثخنوا في الأرض.

فخرج الأحنف إلى خراسان، فأخذ على مهرجا نقذق، ثم خرج إلى أصبهان.

- وأهل الكوفة محاصرو جي، فدخل خراسان من الطبسين، فافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صحار بن فلان العبدي.

- ثم سار نحو مرو الشاهجان.

- وأرسل إلى نيسابور - وليس دونها قتال - مطرف بن عبد اللَّه بن الشِّخِّير.

- والحارث بن حسان إلى سرخس.

- فلما دنا الأحنف بن مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد نحو مرو الروذ حتى نزلها.

- ونزل الأحنف مرو الشاهجان [١].

- وكتب يزدجرد وهو بمرو الروذ إلى خاقان يستمده.

- وكتب إلى ملك الصُّغْدِ يستمده.

- فخرج رسولاه نحو خاقان وملك الصغد.

- وكتب إلى ملك الصين يستعينه.

- وخرج الأحنف من مرو الشاهجان، واستخلف عليها حاتم بن النعمان الباهلي بعدما لحقت به أمداد أهل الكوفة على أربعة أمراء:

علقمة بن النضر النضري، وربعي بن عامر التميمي، وعبد اللَّه بن أبي عقيل الثقفي، وابن أم غزال الهمداني.

- وخرج سائرًا نحو مرو الروذ.

- حتى إذا بلغ ذلك يزدجرد خرج إلى بلْخ.

- ونزل الأحنف مرو الروذ.

- وقدم أهل الكوفة فساروا إلى بلْخ.

- وأتبعهم الأحنف، فالتقى أهل الكوفة ويزدجرد ببلخ، فهزم اللَّه يزدجرد، وتوجه في أهل فارس إلى النهر فعبر.

- ولحق الأحنف بأهل الكوفة، وقد فتح اللَّه عليهم، فبلخ من فتوح أهل الكوفة.

- وتتابع أهل خراسان ممن شد أو تحصن على الصلح فيما بين نيسابور إلى طخارستان ممن كان في مملكة كسرى.

- وعاد الأحنف إلى مرو الروذ، فنزلها، واستخلف على طخارستان ربعي بن عامر، وهو الذي يقول فيه النجاشي - ونسبه إلى أمه، وكانت من أشراف العرب:

ألا رُبَّ من يُدعَى فتى ليسَ بالفتَى   ألا إن ربعِيّ بن كأس هُو الفتَى

---

(١) انظر خريطة الفتح حتى سجستان ومكران (ص ١١٣٤)

طَويلُ قُعودِ القوْمِ في قَعْر بيته إذا شَبِعوا من ثفل جفنَتِه سَعَى

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن عيسى بن المغيرة وعن رجل من بكر ابن وائل يدعى الوازع بن يزيد بن خليدة قال:

لما بلغ عمرَ غلبةُ الأحنف بن قيس على المروين وبلخ قال:

أما بعد، فلا تجوزن النهر، واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان، فداوموا على الذي دخلتم به خراسان يدم لكم النصر، وإياكم أن تعبروا فتفضوا) [(١)].

* * *

١ - بلاد خراسان: يقول ياقوت في معجم البلدان:

(خراسان: بلاد واسعة أولُ حدودها مما يلي العراق أزاذوار قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وليس ذلك منها، إنما هو أطراف حدودها. وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو، وهي كانت قصبتها، وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس، وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون، ومن الناس من يدخل أعمال خوارزم فيها ويعد ما وراء النهر منها، وليس الأمر كذلك، وقد فتحت أكثر هذه البلاد عنوة أو صلحًا ونذكر ما يعرف من ذلك في مواضعها...

وقد روي عن شريك بن عبد اللّه أنه قال:

« خراسان كنانة اللّه إذا غضب على قوم رماهم بهم »، وفي حديث آخر:

« ما خرجت من خراسان راية في جاهلية ولا إسلام فردت حتى تبلغ منتهاها ».

وقال ابن قتيبة: أهل خراسان أهل الدعوة وأنصار الدولة، ولم يزالوا في أكثر ملك العجم لقاحًا لا يؤدون إلى أحد إتاوة ولا خراجًا...

ثم أتى الإسلام فكانوا فيه أحسن الأمم رغبة، وأشدهم إليه مسارعة؛ منًّا من اللّه عليهم وتفضلًا لهم، فأسلموا طوعًا ودخلوا فيه سلمًا، وصالحوا عن بلادهم صلحًا، فخف خراجهم وقلت نوائبهم، ولم يجر عليهم سباء، ولم تسفك فيما بينهم دماء، وبقوا على

---

(١) أخذًا برواية سيف.

ذلك طول أيام بني أمية إلى أن أساؤوا السيرة واشتغلوا باللذات عن الواجبات، فانبعث عليهم جنود من أهل خراسان مع أبي مسلم الخراساني، ونزع من قلوبهم الرحمة وباعد عنهم الرأفة حتى أزالوا ملكهم عن آخرهم رأيًا وأحنكهم سنًّا وأطولهم باعًا.

فسلموه إلى بني العباس، وأنفذ عمر بن الخطاب الأحنف بن قيس في سنة (١٨) فدخلها وتملك مدنها، فبدأ بالطبسين ثم هراة ومرو والشاهجان ونيسابور في مدة يسيرة، وهرب منه يزدجرد بن شهريار ملك الفرس إلى خاقان ملك الترك بما وراء النهر، فقال ربعي بن عامر في ذلك:

ونحن وردْنا مِن هَراة مناهلًا ... رواءً من المروين إن كُنت جاهلا

وبلخٍ ونيسابور قد شَقِيتْ بنا ... وطوس ومرو قد أَزرْنا القَنابِلا

أنخْنا عليها كُورَةً بعدَ كورةٍ ... نفضُّهُمْ حتّى احتوَيْنا المناهلا

فلله عَيْنا منْ رأَى مثلَنا معًا ... غَداة أزرْنا الخيْل تُركًا وكابلا

فأما العلم فهم فرسانه وساداته وأعيانه، ومن أين لغيرهم مثل محمد بن إسماعيل البخاري ومثل مسلم بن الحجاج القشيري وأبي عيسى الترمذي وإسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل وأبي حامد الغزالي والجويني إمام الحرمين والحاكم أبي عبد اللّه النيسابوري وغيرهم من أهل الحديث والفقه، ومثل الأزهري والجوهري وعبد اللّه ابن المبارك - وكان يعد من أجود الزهاد والأدباء - والفارابي صاحب ديوان الأدب والهروي وعبد القاهر الجرجاني وأبي القاسم الزمخشري، هؤلاء من أهل الأدب والنظم والنثر الذي يفوت حصرهم، ويعجز البليغ عن عَدِّهم. وممن ينسب إلى خراسان عطاء الخراساني..) [(١)].

٢ - ونعود الآن إلى العجب العجاب، فلم يحدث في التاريخ أن يقرر قائدٌ فتْحَ إمبراطوريةِ خلال ثلاث سنوات، وتفتح كل أبوابها له بعد معركة فاصلة مع أهلها دون أن يعجزه قطر أو يعوقه إقليم!! فعندما قرر عمر ﵁ الانسياح في أرض فارس كان القرار على الصيغة التالية:

قال الطبري: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو قالوا:

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي (٢/٣٥٠ - ٣٥٤) مقتطفات.

أ - أذن عمر في الانسياح سنة سبع عشرة في بلاد فارس، وانتهى في ذلك إلى رأي الأحنف بن قيس، وعرف فضله وصدقه، وفرّق الأمراء والأجناد، وأمَّرَ على أهل البصرة أمراء، وأمَّرَ على الكوفة أمراء، وأمَّرَ هؤلاء وهؤلاء بأمره وأذن لهم بالانسياح سنة سبع عشرة، فساحوا سنة ثمان عشرة).

ب - لكن عام ثمانية عشر وقعت الأزمتان الداخليتان الكبيرتان عام الرمادة وطاعون عمواس حالتا دون تنفيذ مخطط الانسياح الكامل نحو فارس.

وكان ابتداء الفتح سنة تسع عشرة؛ حيث تم نصر جلولاء إضافة إلى فتح الجزيرة والرها وحران ورأس العين ونصيبين.

جـ - أما سنة عشرين فكانت للمغرب الإسلامي حيث تم الظفر بمصر والإسكندرية.

وقبل أن ينساح المسلمون في أرض واجهوا أعتى معركة وتجمع عالمي في نهاوند.

د - وظفروا بعون اللّٰه على العدو، وذلك عام واحد وعشرين، لكن هذا النصر تم من خلال قرار الانسياح.

(وقد كان كتب إلى عمر بذلك وقال:

إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح قبل أن يبادروهم الشدة...

وكتب إليه أيضًا عبد اللّٰه وغيره بأنه قد تجمع منهم خمسون ومائة ألف مقاتل، فإن جاؤونا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأةً وقوةً، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلك عليهم).

فلقد كانت عظمة التخطيط أن تكون المعركة في أرض العدو، لا في أرض المسلمين، فهي إذن صَدٌّ لهجوم المسلمين، وإيقاف لزحفهم.

هـ - وقاد انتصار نهاوند إلى فتح فارس أمام الجيش الإسلامي؛ حيث افتتحت بانتصار المسلمين على الماهين صلحًا، واستسلام همذان التي نقضت صلحها مع تجمع نهاوند، واستسلام أصبهان صلحًا كذلك.

و - وكان عام واحد وعشرين هو عام الانسياح الفعلي؛ إذ خاض المسلمون نهاوند ثانية بعد تجمع عالمي جديد لأهل الديلم ولأهل الري وأهل أذربيجان.

(وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند، ولم تكن دونها وقتل من القوم مقتلة عظيمة لا يحصون ولا تقصُر ملحمتهم عن الملاحم الكبار).

ز - فإذا هذه الأمم الثلاث تستسلم بعد الهزيمة وتفتح الري وأذربيجان والديلم ومن ورائها قومس وجرجان وطبرستان والباب. ويصبح شمال فارس أرضًا إسلامية تقريبًا، لتكتمل الحلقة بفتح خراسان.

عامان فقط؛ الحادي والعشرون والثاني والعشرون.. تنهار المقاومة الفارسية، بعد استقصاء خراسان، وفي العام الثالث والعشرين، وقبل وفاة الفاروق ﷺ؛ باستسلام أكبر إمبراطورية في العالم.

٣ - والذي دفعنا لهذا العرض هو أن خراسان كانت بداية المخطط للسيطرة الكاملة على بلاد فارس.

(وبعث بألوية من ولّى مع سهيل بن عدى حليف بني عبد الأشهل. فقدِم سهيل بالألوية ودفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس.

- ولواء أردشيرخره وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي.

- ودفع....

فنحن إذن من الآن. مع معارك الألوية، والأبطال المسؤولين عن الفتح.

٤ - لم يكن يدور في خلد الأحنف بن قيس صاحب اقتراح الانسياح لإنهاء إمبراطور فارس أن يكون هو المعني بتنفيذ هذا الاقتراح.

(كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وعمرو وسفيان عن الحسن قال عمر للوفد:

لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذًى وبأمور لها ما ينتقضون بكم؟

فقالوا: ما نعلم إلا وفاءً وحُسْنَ مَلَكَة؟

قال: فكيف هذا؟

فلم يجد عند أحد منهم شيئًا يشفيه ويبصر به مما يقولون إلا ما كان من الأحنف فقال:

يا أمير المؤمنين، أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا. وإن مَلِك فارس حَيٌّ بين أظهرهم. وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام مَلِكُهم فيهم، ولم يجتمع مَلِكان فاتفقا حتى يُخرج أحدهما صاحبه. وقد رأيت أنَّا لم نأخذ شيئًا بعد شيء إلا في انبعاثهم. وإن ملكهم هو الذي يبعثهم.

ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا. فَلْنَسِحْ في بلادهم حتى نزيله عن فارس. ونخرجه من مملكته وعز أمته، وهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويضربون جأشًا.

فقال: صدقتني واللَّه، وشرحت لي الأمر عن حقه.

ونظر في حوائجهم وسرحهم) [1].

لقد غير أمير المؤمنين سياسته كما ذكرنا بناءً على اقتراح الأحنف بن قيس حكيم الأمة وسيد أهل المشرق. ومن خلال خبرته وفقهه بالرجال رأى أن صاحب هذا الاقتراح هو الأقدر على تنفيذه، من دون أن يشير إلى الأحنف بشيء، وحيث كان ملك فارس قد اعتصم بخراسان، واستقر بهم المقام هناك، ومنها كان يُحرك جيوشه، ويتصل بقادته. ويشعل الحروب الكبرى لإنهاء الوجود الإسلامي في بلاده. وما كانت وقعة نهاوند إلا صورة من صور إشعال نار الحرب التي لا يهدأ أوارها. فكان قرار الخليفة العظيم في بعث الألوية وتسليمها للأبطال المرشحين للفتوح. وكانت أول راية هي راية فتح خراسان حين سلمها للأحنف بن قيس.

٥ - ونعود إلى يزدجر الذي غادر المدائن عاصمة ملكه بعد القادسية. ومضى فارًّا بما يستطيع حمله إلى **جلولاء**. وكان مقيمًا بحلوان عندما وقعت معركة جلولاء.

- ونفذ يزدجر إلى **حلوان** فنزل بها ورماهم بالرجال وخلّف فيهم الأموال.

المحطة الثالثة بعد محطتي جلولاء وحلوان كانت في **الري**.

(فلما انتهى إلى الري وعليها آبان جاذويه. وثب عليه فأخذه فقال: يا آبان جاذويه أتغدر بي!. قال: لا ولكنك قد تركت ملكك وصار في يد غيرك فأحببت أن أكتتب على ما كان لي من شيء، وما أردت غير ذلك..).

المحطة الرابعة: أصبهان.

(ولما صنع آبان جاذويه بيزدجرد ما صنع، خرج يزدجرد من الري إلى أصبهان وكره آبان جاذويه، فارًّا منه ولم يأمنه...).

المحطة الخامسة: كرمان.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٠٣).

(ثم عزم على كرمان..).

المحطة السادسة: خراسان.

(ثم عزم على خراسان، فأتى مرو فنزلها وقد نقل النار، فبنى لها بيتًا، واتخذ بستانًا، وبنى أزجًا فرسخين من مرو إلى البستان. فكان على فرسخين من مرو فاطمأن في نفسه، وأمن أن يؤتى).

٦ – ومن مرو بدأ تخطيطه لمحاولة استعادة ملكه (وكاتب مِن مرو مَن بقي مِن الأعاجم فيما لم يفتتحه المسلمون، فدانوا له، حتى أثار أهل فارس والهرمزان فنكثوا، وثار أهل الجبال والفيرزان فنكثوا. وصار ذلك داعية إلى إذن عمر بالانسياح. فانساح أهل البصرة، وأهل الكوفة حتى أثخنوا في الأرض).

٧ – وكان الأحنف هو الند الأكبر ليزدجرد. فإذا كان قد اعتصم بخراسان، فلن يزحزحه ويقتلعه إلا الأحنف بن قيس، وهذا ما تم! (فخرج الأحنف إلى خراسان، فأخذ على (مهرجا نقذق). ثم خرج إلى أصبهان وأهل الكوفة محاصرو (جي) [١]، فدخل خراسان من (الطبسين) [٢]، فافتتح (هراة) [٣] عنوة، واستخلف عليها صحار بن فلان العبدي، ثم سار نحو (مرو الشاهجان) وأرسل إلى (نيسابور) [٤] وليس دونها قتال مطرف بن عبد اللّٰه بن الشخير، والحارث بن حسان إلى (سرخس) [٥]. فلما دنا الأحنف من (مرو الشاهجان) خرج منها يزدجر نحو (مرج الروذ)...)

---

(١) جي: اسم مدينة تابعة لأصبهان. وتسمى الآن عند العجم شهرستان وعند المحدثين المدينة.

(٢) الطبسين: قصبة بين نيسابور وأصبهان تسمى (قهستان) والعرب تسميها باب خراسان قال المدائني: أول فتوح خراسان الطبسان وهما بابا خراسان. معجم البلدان (٤/ ٢٠).

(٣) هَراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان. قال ياقوت الحموي: لم أر بخراسان عند كوني بها في سنة (٦٠٧) مدينة أجل ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلًا منها. معجم البلدان (٥/ ٣٩٦).

(٤) نيسابور: مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة؛ معدن الفضلاء، ومنبع العلماء. معجم البلدان (٥/ ٣٣١).

(٥) سَرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة، وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق بينها وبين كل واحدة منها ست مراحل. معجم البلدان (٣/ ٢٠٨).

٨ - ولا بد من الإشارة إلى القيادات الجديدة الشابة التي برزت على الساحة:

ورأس هذه القيادات الأحنف بن قيس الذي كان في عرامة الشباب.

أ - **استخلف على هراة صحار بن فلان العبدي**: ويغلب على الظن أنه هو صحار ابن العباس العبدي. فليس في كتب التراجم بهذا الاسم غيره فإن كان هو ذلك فهو صحابي ومن وفد عبد القيس الذين وفدوا على رسول الله ﷺ. وهو من سادة وأشراف بني عبد القيس الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: « **ليأتين ركب من أهل المشرق لم يكرهوا على الإسلام قد أنضوا الركب وأفنوا الزاد بصاحبهم علامة. اللّهم اغفر لعبد القيس، أتوني لا يسألوني مالاً، هم خير أهل المشرق** ») [(١)].

ب - **مطرف بن عبد اللّه بن الشِّخِّير**: العامري الجرشي أبو عبد اللّه البصري، ولد في عهد النبي ﷺ. وقال عنه الذهبي في التجريد: تابعي كبير أدرك عهد النبي ﷺ. عده أصحاب الطبقات من الطبقة الثانية من كبار التابعين. وروى له البخاري ومسلم وأبو داود. وهو إذن من طبقة الأحنف بن قيس رضي الله عنه قائد الجيش المسلم.

جـ - **الحارث بن حسان** بن كلدة البكري.. من بني ذهل بن شيبان.. والصحيح فيه عن عاصم بن وائل عن الحارث بن حسان قال: قدمت المدينة فأتيت المسجد، فإذا النبي ﷺ على المنبر، وبلال قائم متقلد سيفًا، وإذا رايات سود. فقلت: من هذا، قالوا: هذا عمرو بن العاص قدم من غزاة... والحارث بن حسان هو الذي سأله رسول اللّه ﷺ عن حديث عاد قوم هود، وكيف هلكوا بالريح العقيم. فقال له: يا رسول اللّه: على الخبير سقطت. فذهبت مثلاً) [(٢)].

أما الأمراء الأربعة على مرو الشاهجان فهم:

د - **ابن أم غزال الهمذاني**: لم أعثر له على ترجمة.

هـ - **علقمة بن النضر النضري**: ذكر الطبري أنه كان على ربع أهل الكوفة لما أمدوا الأحنف بن قيس في القتال. واستدركه ابن فتحون. وقد تقدم أنهم كانوا لا يؤمِّرون إلا الصحابة [(٣)].

---

(١) سبل الهدي والرشاد (٥٦٢/٦).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البرّ، ت (٤٢٣).

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (٦٤١٨).

و - **عبد اللَّه بن عقيل الثقفي**: روى عن مجالد ويزيد بن سنان عن عبد اللَّه ابن أحمد بن محمد بن حنبل قال: سمعت أبي يقول: أبو عقيل الكوفي عبد اللَّه ابن عقيل الثقفي ثقة.. وعن يحيى بن معين قال..: ثقة) [١].

ز - **ربعي بن عامر التميمي**: أشهر من أن يعرّف. وقد شارك في الحروب منذ القادسية.

٩ - الصراع المباشر بين الأحنف ويزدجرد:

(فلما دنا الأحنف بن قيس من مرو الشاهجان [٢] خرج منها يزدجرد نحو مرو الروذ [٣] حتى نزلها ونزل الأحنف بن قيس مرو الشاهجان.

فمرو الشاهجان التي يقيم بها يزدجرد هي (مرو العظمى أشهر مدن خراسان، وقصبتها وبين مرو ونيسابور سبعون فرسخًا، ومنها إلى سرخس ثلاثون فرسخًا...).

ومن عبقرية الأحنف أنه وضع حامية إسلامية في سرخس وعليها الحارث بن حسان الصحابي البكري العظيم، وحامية إسلامية في نيسابور وعليها مطرف بن عبد اللَّه بن الشخير التابعي العبقري العظيم، لكي يؤمِّن ظهره ويَحُولَ دون إمداد مرو الشاهجان من هاتين المدينتين. ويتزلزل كيان المسلم وهو يرى (تصديق موعود) رسول اللَّه ﷺ هنا. بعد أن كان معرَّضًا للقتل على يد بريدة بن الحصيب الأسلمي وهو في طريق الهجرة.

فقد وعد ﷺ القاتل الأول سراقة بن عمرٍو المدلجي أن يلبس سِوارَي كسرى وهو مطارد في الصحراء من قتال العرب، وحَقَّ موعود اللَّه أيامَ عمرَ أمير المؤمنين ولبس سراقة سواري كسرى وتاجه وثوبه.

أما القاتل الثاني الذي يقول عن نفسه: لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن يرد النبي ﷺ، حملني الطمع. فركبت في سبعين من بني سهم، فلقيته. فقال: من أنت، قلتُ بريدة. فالتفت ﷺ إلى أبي بكر وقال: « **يا أبا بكر، بردَ أمرُنا وصلح** » ثم قال: « **مِمَّن أنت؟** ». قلتُ: من أسلم. قال: « **سلمنا** » ثم قال: « **من أي أسلم** » قلت: من

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٥)، ت (٥٧٦).

(٢، ٣) معجم البلدان لياقوت الحموي (٥/١١٣).

بني سهم. فقال: « **خرج سهمك يا أبا بكر** » فقال بريدة للنبي ﷺ: أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه، فأسلم بريدة ومن كان معه جميعًا.

بريدة هذا القاتل الثاني ينقله رسول اللَّه ﷺ إلى مرو (الشاهجان). (وقد رُوِيَ عن بريدة بن الحصيب أحد أصحاب النبي ﷺ أنه قال: « **يا بريدة. إنه سيكون من بعدي بعوث. فإذا بعثت فكن في بعث المشرق. ثم كن في بعث خراسان ثم كن في بعث أرض يقال لها مرو. إذا أتيتها فانزل مدينتها. فإنه بناها ذو القرنين، وصلى فيها عزير. أنهارها تجري بالبركة. على كل نقب منها ملك شاهرٌ سيفه يدفع عن أهلها السوء إلى يوم القيامة** ». فقدمها بريدة غازيًا. وأقام بها إلى أن مات. وقبره بها إلى الآن معروف عليه راية رأيتها) [1].

وها هو موعود رسول اللَّه ﷺ يتحقق، ويهرب يزدجرد من مرو الشاهجان إلى مرو الروذ، في إقامة مؤقتة. وهو يدرك أن مرو هي آخر حياته ووجوده في مملكته.

وخرج الأحنف من مرو الشاهجان واستخلف عليها حاتم بن النعمان الباهلي بعد ما لَحَقَتْ به أمدادُ أهل الكوفة على أربعة أمراء؛ علقمة بن النضر النضري، وربعي ابن عامر التميمي، وعبد اللَّه بن أبي عقيل الثقفي. وابن أم غزال الهمذاني).

إنه الأحنف يطارد يزدجرد أينما حل.

طارده إلى مرو الشاهجان فهرب إلى مرو الروذ، ثم ها هو يطارده إلى مرو الروذ.

(وخرج الأحنف سائرًا نحو مرو الروذ، حتى إذا بلغ يزدجرد خرج إلى بلخ. ونزل الأحنف مرو الروذ. وقدم أهل الكوفة فساروا إلى بلخ. وأتبعهم الأحنف فالتقى أهل الكوفة ويزدجرد ببلخ، فهَزم اللَّه يزدجرد، وتوجه في أهل فارس إلى النهر فعبر..) ولحق الأحنف بأهل الكوفة. وقد فتح اللَّه عليهم بلخ.

وبذلك يغادر يزدجرد مملكة فارس حين يعبر النهر، نهر سيحون إلى بلاد الترك وملكها خاقان.

١٠ - واستسلمت فارس إلى المسلمين:

(وتتابع أهل خراسان ممن شذَّ أو تحصن على الصلح فيما بين نيسابور إلى

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي (١١٣/٥).

طخارستان ممن كان في مملكة كسرى. وعاد الأحنف إلى مرو الروذ فنزلها واستخلف على طخارستان ربعي بن عامر.

١١ - وكتب الأحنف إلى أمير المؤمنين بفتح خراسان:

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن عيسى بن المغيرة، عن رجل من بكر بن وائل يدعى الوازع بن زيد بن خليدة قال:

لما بلغ عمر غلبة الأحنف على المروين وبلْخ قال: وهو الأحنف، وهو سيد أهل المشرق المسمَّى بغير اسمه.

وكتب عمر إلى الأحنف: أما بعد فلا تجوزنّ النهر، واقتصر على ما دونه. وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان فداوموا على الذي دخلتم به خراسان يدم لكم النصر. وإياكم أن تعبروا فتفضوا).

كلمة جامعة مانعة: فحين يتحقق في قلوبكم وسلوككم مقوّمات النصر، تفتح لكم الدنيا أبوابها وخزائنها. وإذا تراجعتم ومِلتُم إلى الدَّعَة والترف والاستئثار بهذا المتاع، فسنن اللَّه في النصر والهزيمة قائمة، والأيام دول والعاقبة للمتقين.

الجولة الثانية: استنفار ملوك الأرض ضد الأحنف:

(.. وكتب يزدجرد وهو بمرو الروذ إلى خاقان يستمده، وكتب إلى ملك الصغد يستمده، فخرج رسولاه نحو خاقان وملك الصغد. وكتب إلى ملك الصين يستعينه... ولما بلغ رسولا يزدجر خاقان وغوزك، لم يستتب لهما إنجاده حتى عبر إليهما النهر منهزمًا، وقد استتب فأنجده خاقان. والملوك ترى على نفسها إنجاد الملوك، فأقبل في الترك. وحشر أهل فرغانة والصغد، ثم خرج بهم، وخرج يزدجرد راجعًا إلى خراسان حتى عبر إلى بلْخ، وعبر معه خاقان، فأرِز أهل الكوفة إلى مرو الروذ إلى الأحنف، وخرج المشركون من بلخ حتى نزلوا على الأحنف بمرو الروذ.

- وكان الأحنف حين بلغه عبور خاقان والصغد نهر بلخ غازيًا له، خرج في عسكره ليلًا يتسمع، هل يسمع برأي ينتفع به؟!

- فمر برجلين يُنَقِّيان علفًا إما تبنًا وإما شعيرًا، وأحدهما يقول لصاحبه: لو أن الأمير أسندنا إلى هذا الجبل. فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقًا. وكان الجبل في

ظهورنا من أن نؤتي من خلفنا، وكان قتالنا من وجه واحد، رجوت أن ينصرنا اللَّه.

- فرجع واجتزأ بها، وكان في ليلة مظلمة.

- فلما أصبح جمع الناس ثم قال:

إنكم قليل، وإن عدوكم كثير، فلا يهولنكم؛ ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ارتحلوا من مكانكم هذا، فأسندوا إلى هذا الجبل، فاجعلوه في ظهوركم، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم، وقاتلوهم من وجه واحد. ففعلوا.

- وقد أعدوا ما يصلحهم، وهو في عشرة آلاف من أهل البصرة، وأهل الكوفة نحو منهم.

- وقد أقبلت الترك ومن أجلبت حتى نزلوا بهم.

- فكانوا يفادونهم ويراوحونهم. ويتنحون عنهم في الليل ما شاء اللَّه. وطلب الأحنف علم مكانهم بالليل.

- فخرج ليلة بعد ما علم علمهم طليعة لأصحابه، حتى كان قريبًا من عسكر خاقان فوقف.

- فلما كان من وجه الصبح خرج فارس من الترك بطوقه [١]، وضرب بطبله، ثم وقف في العسكر موقفًا يقفه مثله. فحمل عليه الأحنف، فاختلفا طعنتين، فطعنه الأحنف وهو يقول:

إن على كل رئيس حقا … أن يخضب الصعدة [٢] أو تندقا

إن لنا شيخًا بها ملقّى … سيف أبي حفص الذي تبقى

ثم أخذ موقف التركي، وأخذ طوقه، وخرج آخر من الترك. ففعل فعل صاحبه الأول، ثم وقف دونه، فحمل عليه الأحنف، فاختلفا طعنتين، فطعنه الأحنف، فقتله وهو يرتجز:

إن الرئيس يَرتبي ويطْلَعُ … ويمنع الخلَّاءَ إمّا أربَعُوا

ثم وقف موقف التركي الثاني. وأخذ طوقه، ثم خرج ثالث من الترك، ففعل فعل

(١) خرج بطوقه: بعدّته. الكاملة للحرب.

(٢) الصُّعدة: قناة الرمح فإما أن يخضبها في دم العدو أو تكسر في يديه، ونحن هنا سيف أمير المؤمنين به نقاتل.

الرجلين ووقف دون الثاني منهما، فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعنتين، فطعنه الأحنف، فقتله وهو يرتجز:

جريَ الشموس نَاجزًا بنَاجِز مـحـتـفِـلًا في جـرْيـه مـشَـارِز

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره. ولم يعلم بذلك أحد منهم حتى دخله واستعد.

وكان من شيمة الترك أنهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم كهؤلاء كلهم يضرب بطبله، ثم يخرجون بعد خروج الثالث، فخرجت الترك ليلتئذٍ بعد الثالث فأتوا على فرسانهم مقتَّلين، فتشاءم خاقان وتطيَّر فقال:

قد طال مقامنا، وقد أصيب هؤلاء القوم بمكان لم يصب بمثله قط. ما لنا في قتال هؤلاء القوم من خير، فانصرفوا بنا.

فكان وجوههم راجعين.

وارتفع النهار للمسلمين ولم يروا شيئًا. وأتاهم الخبر بانصراف خاقان إلى بلْخ..).

الجولة الثالثة: الهزيمة الثانية ليزدجرد:

(وقد كان يزدجرد بن شهريار بن كسرى، ترك خاقان الترك بمرو الروذ. وخرج إلى مرو الشاهجان، فتحصن منه حاتم بن النعمان، ومن معه، فحصرهم، واستخرج خزائنه من موضعها. وخاقان ببلخ مقيم له، فقال المسلمون للأحنف: ما ترى في اتباعهم؟ فقال: أقيموا بمكانكم ودعوهم.

ولما جمع يزدجرد ما كان في يديه مما وضع بمرو فأُعجِلَ عنه، وأراد أن يستقل به منها؛ إذ هو أمر عظيم من خزائن أهل فارس، وأراد اللحاق بخاقان. فقال له أهل فارس: أي شيء تريد أن تصنع؟

فقال: أريد اللحاق بخاقان، فأكون معه أو بالصين.

فقالوا له: مهلًا إن هذا رأي سوء، إنك إنما تأتي قومًا في مملكتهم، وتدع أرضك وقومك؟! ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم أوفياء وأهل دين وهم يلون بلادنا. وإن عدوًّا يلينا في بلادنا أحب إلينا مملكة من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم، ولا ندري ما وفاؤهم. فأبى عليهم وأبَوْا عليه.

فقالوا: فدع خزائننا نردها إلى بلادنا ومن يليها، ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها فأبى.

فقالوا: فإنا لا نَدَعُك. فاعتزلوا، وتركوه في حاشيته، واقتتلوا، فهزموه وأخذوا الخزائن، واستولوا عليها ونكبوه، وكتبوا إلى الأحنف بالخبر.

فاعترضهم المسلمون والمشركون بمرو يثفنونه [١]، فقاتلوه وأصابوه في أُخَر القوم وأعجلوه عن الأثقال. ومضى موائلًا حتى قطع النهر إلى فرغانة والترك، فلم يزل مقيمًا زمان عمر ﷺ كله يكاتبهم ويكاتبونه، أو من شاء اللَّه منهم...).

(وأقبل أهل فارس على الأحنف فصالحوه وعاقدوه، ودفعوا إليه تلك الخزائن والأموال وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا في زمان الأكاسرة. فكانوا كأنما هم في ملكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم. فاغتبطوا وغُبطوا، وأصاب الفارس يوم يزدجرد كَسَهْم الفارس يوم القادسية...).

الجولة الرابعة: هزيمة خاقان ويزدجرد:

(... وبلغ ذلك الأحنف، فسار من فوره ذاك في الناس إلى بلخ يريد خاقان، ويتبع حاشية يزدجرد وأهله في المسلمين والمشركين من أهل فارس وخاقان والترك ببلخ. فلما سمع بما لَقِيَ يزدجرد، وبخروج المسلمين مع الأحنف من مرو الروذ نحوه، ترك بلخ وعبر النهر، وأقبل الأحنف حتى نزل بلخ. ونزل أهل الكوفة في كورها الأربع. ثم رجع إلى مرو الروذ فنزل بها. وكتب بفتح خاقان ويزدجرد إلى عمر. وبعث إليه بالأخماس، ووفَّد إليه الوفود...).

اللقاء مع رسول يزدجرد إلى ملك الصين:

(وقالوا: ولما عبر خاقان النهر، عبرت معه حاشية آل كسرى، أو من أخذ نحو بلخ منهم مع يزدجرد لقوا رسول يزدجرد الذي كان بعث إلى ملك الصين، وأهدى إليه معه هدايا، ومعه جواب كتابه من ملك الصين. فسألوه عما وراءه فقال:

لما قدمت عليه بالكتاب والهدايا كافأنا بما ترون، وأراهم هديته، وأجاب يزدجرد، فكتب إليه بهذا الكتاب بعد ما كان قال لي:

قد عرفت أن على الملوك حقًّا إنجاد الملوك على من غلبهم، فصف لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من دياركم، فإني أراك تذكر قلة منهم، وكثرة منكم، ولا يبلغ

---

(١) يثفنونه أي: يدافعونه.

أمثال هؤلاء القليل، الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم، إلا بخير عندهم، وشر فيكم.

فقلت: سلني عما أحببت؟

فقال: أيوفون بالعهد؟

قلت: نعم.

قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم.

قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث، إما دينهم فإن أجبناهم أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة، أو المنابذة.

قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟

قلت: أطوع قوم لمرشدهم.

قال: فما يحلُّون وما يحرمون؟

فأخبرته.

قال: أيحرمون ما حُلِّل لهم، أو يحلُّون ما حُرِّم عليهم.

قلت: لا.

قال: فإن هؤلاء القوم لا يهلكون أبدًا حتى يحلُّوا حرامهم ويحرِّموا حلالهم.

ثم قال: أخبرني عن لباسهم.

فأخبرته. وعن مطاياهم، فقلت: الخيل العراب ووصفتها.

فقال: نِعْمَتِ الحصون هذه.

ووصفت له الإبل وبروكها، وانبعاثها بحملها.

فقال: هذه صفة دواب طوال الأعناق.

وكتب معه إلى يزدجرد كتابًا:

إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق عليّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وَصَفَ لي رسولك صفتَهم لو يحاولون الجبال لهدوها. ولو خُلِّي سربهم أزالوني ما داموا على ما وصف. فسالمهم وارض منهم بالمساكنة. ولا تُهِجْهُم ما لم يُهيجوك.

وأقام يزدجرد وآل كسرى بفرغانة معهم عهد من الخاقان.).

أمير المؤمنين يبارك للأمة وراثتها:

(ولما وقع الرسول بالفتح والوفد بالخبر - ومعهم الغنائم لعمر بن الخطاب من قِبَلِ الأحنف جمع الناس وخطبهم، وأمر بكتاب الفتح فقرئ عليهم فقال في خطبته.

إن اللَّه - تبارك وتعالى - ذكر رسول اللَّه ﷺ وما بعثه به من الهدى، ووعد على اتباعه من عاجل الثواب وآجله، خير الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

- فالحمد للَّه الذي أنجز وعده، ونصر جنده.

- ألا إن اللَّه قد أهلك ملك المجوسية، وفَرَّق شملهم؛ فليسوا يملكون ببلادهم شبرًا يضر بمسلم.

- ألا وإن اللَّه قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون.

- ألا وإن المصرين من مسالحها اليوم كأنتم والمصرين فيما مضى من البعد.

- وقد وغلوا في البلاد، واللَّه بالغ أمره ومنجز وعده، ومتبع آخره أوله.

- فقوموا في أمره على رِجْلٍ يوفِّ لكم بعهدكم، ويؤتكم وعده.

- ولا تبدلوا ولا تغيروا، فيستبدل اللَّه بكم غيرَكم.

- فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قِبَلِكُم.

آخر عام اثنين وعشرين

وحجَّ في الناس في هذه السنة عمر بن الخطاب. وكان عماله على الأمصار فيها، عماله الذين كانوا عليها في سنة إحدى وعشرين غير الكوفة والبصرة، فإن عامله على الكوفة وعلى الأحداث كان المغيرة بن شعبة، وعلى البصرة أبا موسى الأشعري) [1].

* * *

١ - ها هو يزدجرد يعبر النهر مغادرًا مملكته. لكنه استنجد بملوك الأرض الثلاثة

(١) هذا النص بين الأقواس وكل النصوص قبله من تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري (٥٤٦/٢ - ٥٥٠) بتصرف.

الكبار المعروفين في عهده. ملك الصُّغْد [١]، وملك الترك، وملك الصين. وهذا الأمر وهذا الدين كما قال عنه المثنَّى قبل إسلامه: إن هذا أمر تكرهه الملوك.

ويدرك خاقان الترك وملك الصغد أن الخطر زاحف إليهم إن سكتوا على انهيار أعظم إمبراطوريات الدنيا. وها هي تنهار، ويهرب يزدجرد منها عابرًا النهر إلى مملكتهم. فكان لا بد من مواجهة ملوك العالم لهذا الخطر الزاحف ومن أجل هذا (فأنجده خاقان - والملوك ترى على أنفسها إنجاد الملوك - فأقبل في الترك. وحشر أهل فرغانة والصُّغد، ثم خرج بهم). وعاد يزدجرد وهو يرى أنه قد آن الأوان - بعد أن جاءت جيوش ملوك الأرض لتنصره - لإنهاء هذا الزحف الإسلامي الذي أنهى مملكته في بضع سنين.

إن فكرة استئصال الإسلام هي فكرة قديمة حديثة؛ ففي الخندق جاء أبو سفيان بجيش قوامه عشرة آلاف لاستئصال شأفة الإسلام من المدينة.

٢ - أعد القائد العظيم للأمر عدته. ولم يتردد لحظة واحدة باتباع الخطة الحربية التي اتبعها رسول الله ﷺ في الخندق قبيل المعركة.

(.. فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وبما أجمعوا له من الأمر، ضَرَبَ الخندق على المدينة. فحدثت عن محمد بن عمر قال: كان الذي أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان. وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ، وهو يومئذ حُرّ، وقال: يا رسول الله، إنا كنا إذا حوصرنا بفارس خندقنا علينا) [٢].

والخندق هي التي نقلتنا إلى فارس حين ضرب النبي ﷺ الصخرة فأضاءت الدنيا منها.

(.. قال: « **ضربت ضربتي الأولى، فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها..** ») [٣].

والخندق بين الحرتين. وهو المكان الوحيد الذي يمكن دخول المدينة منه. فقطع الخندق عليهم الطريق وأين نجد خندقنا في مرو الروذ؛ حيث ينتقل الخندق وأجواؤه وخططه إلى مرو الروذ؟

---

(١) الصغد: تطلق على بخارى وسمرقند أي ملك هذه المنطقة.

(٢) تاريخ الطبري (٩١/٢). (٣) المصدر نفسه (٩٢/٢).

(وكان الأحنف حين بلغه عبور خاقان والصُغد نهر بلْخ غازيًا له. خرج في معسكره ليلًا يتسمع: هل يسمع برأي ينتفع به، فمر برجلين ينقيان علفًا إما تبنًا وإما شعيرًا، وأحدهما يقول لصاحبه: لو أن الأمير أسندنا إلى الجبل. فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقًا، وكان الجبل في ظهورنا من أن نؤتى من خلفنا، وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا اللّٰه).

سبحان اللّٰه. لقد سمع الاقتراح من هذين الجنديين فيكون الجبل هو الحرتين. ويكون النهر هو الخندق. ولم يتردد الأمير لحظة واحدة في تنفيذ الاقتراح.

(فرجع واجتزأ بها، وكان في ليلة مظلمة، فلما أصبح جمع الناس ثم قال: إنكم قليل، وإن عدوكم كثير، فلا يهولنكم: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ارتحلوا من مكانكم هذا، فأسندوا إلى هذا الجبل، فاجعلوه في ظهوركم واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم، وقاتلوهم من وجه واحد. ففعلوا، وقد أعدوا ما يصلحهم).

إنهم حزب اللّٰه في هذه الأرض النائية. وقد تجمع عليهم أحزاب الأرض، ومشركو الأرض وكفرة الأرض، فلن يتخلى اللّٰه عنهم، ولن يدعهم لقمة سائغة لعدوهم. ولكن لا بد من أن يختبر إيمانهم وصبرهم كما اختبر المؤمنين في الخندق، وميز المؤمنين على المنافقين الذين قالوا: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢]. وأما المؤمنون: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢، ٢٣]. بينما كان صفُّ جيش الأحنف كله بفضل اللّٰه تعالى ممن ينتظر، وما بدلوا تبديلًا.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]. وعاد يوم الأحزاب من جديد.

(فأرز أهل الكوفة إلى مرو الروذ إلى الأحنف، وخرج المشركون من بلخ حتى نزلوا على الأحنف بمرج الروذ) والمشركون هم الذين صالحوا المسلمين، فخافوا على أنفسهم وانضموا إلى الأحنف بن قيس.

إن يوم الأحزاب يعود من جديد، وليس بينهم رسول الله ﷺ. ولكن بينهم موعود الله ورسوله بنصر المؤمنين. وحُصر المؤمنون بمرو الروذ. (أقبلَتِ التّرك ومن أجْلَبَتْ حتى نزلوا بهم).

٣ - وتتكرر الصورة تمامًا. فعدد المسلمين لا يتجاوز عشرين ألفًا، عشرة آلاف من البصرة، وعشرة آلاف من الكوفة. أمام عشرات الألوف من أمم الأرض وأحزابها. وكان القتال هنا كما كان القتال في الخندق.

فعشرات الألوف هذه قد قذف الله في قلوبها الرعب. وتعلم أنها تقاتل قومًا أنهوا أعظم إمبراطوريات الأرض، فليسوا أمام عدو عادي، سرعان ما يستسلم أو يفِرّ؛ ومن أجل هذا (كانوا يفادونهم، ويراوحونهم، ويتنحون عنهم بالليل ما شاء الله).

والترك وقياداتهم يأملون أن يستسلم المحاصرون، ويحافظون على حياتهم في النهاية والزمن كفيل بذلك. وهكذا كانت الحرب في الخندق يفادونهم ويراوحونهم...

٤ - لم يحضر الأحنف غزوة الخندق، لكنه سمع عن الجهد البشري الذي بذله سيد القادة ﷺ في صد الهجوم، وفي محاولة تفريق كلمة العدو، من خلال إعطاء ثلث ثمار المدينة لغطفان وهم قرابة نصف جيش المشركين لينسحبوا من المعركة. ولا يبعد أن يكون في الجيش من حضر الخندق.

وإذا كانت القضية في الخندق كما قال ﷺ: « **إني رأيت العرب قد كالبوكم، ورموكم عن قوس واحدة** »[(١)]. فهي اليوم تجمع الشرك كله، وطغاة الأرض كلهم قد كالبوا العرب المسلمين عن قوس واحدة: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وها هو القائد العظيم يريد أن يأتسى برسوله الأعظم ﷺ.. إنه بطل الأزمات.. وهنا تكمن عظمة القيادة.

(وطلب الأحنف علم مكانهم بالليل، فخرج ليلة بعد ما علم علمهم، طليعة لأصحابه حتى كان قريبًا من عسكر خاقان فوقف..).

إنه يغامر بشخصه ليتعرف على مكان العدو دون أن يبعث أحدًا لهذه المهمة، كما

---

(١) مجمع الزوائد: (٦/١٣٢)، ج (١٠١٤١).

فعل عمرو بن العاص القائد العظيم في الإسكندرية، وكاد يهلك. وهي المهمة التي بَعَث فيها رسول اللَّه ﷺ رفيقه في الدرب والحرب، حذيفة بن اليمان (يوم الأحزاب)؛ ليتعرف على خبر العدو بالدخول في معسكره دون أن يُحدِث شيئًا فيه.

٥ - لكن أخطر ما قام به على الإطلاق أن يفتح معركة مع العدو وحده. وهذه المغامرة لو فشلت لاعتبر الأحنف من القادة الفاشلين المتسرعين. لكن نجاحه فيها رفعه إلى مصاف كبار القادة العالميين. إنها أشبه ما تكون بمغامرة خالد بن الوليد رضي الله عنه في المسير إلى الشام من العراق، في طريق لم يسلكها قبله أحد في كل الحروب العالمية التي حدثت في تلك المنطقة.

(فلما كان في وجه الصبح، خرج فارس من الترك بطوقه، وضرب بطبله، ثم وقف من العسكر موقفًا يقفه مثله، فحمل عليه الأحنف، فاختلفا طعنتين، فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز ويقول:

إن علَى كلٍّ رئيس حَقًّا أن يُخضِب الصعْدَة أو تندقَّا
إن لَنا شيخًا بهَا ملقَّى سَيف أبِي حفْصِ الذِي تبقَّى

ثم وقف موقف التركي، وأخذ طوقه. وخرج آخر من الترك، ففعل ما فعل صاحبه الأول ثم وقف دونه، فحمل عليه الأحنف؛ فاختلفا طعنتين؛ فطعنه الأحنف وهو يرتجز:

إن الرئيس يرْتَبي ويطلُع ويمنعُ الخلاء إمَّا أربعوا

ثم وقف موقف التركي الثاني وأخذ طوقه، وخرج ثالث من الترك ففعل فعل الرجلين ووقف دون الثاني منهما، فحمل عليه الأحنف، فاختلفا طعنتين؛ فطعنه الأحنف وهو يرتجز:

جري الشموس نَاجزًا بناجِز محتفِلًا في جريْه مشارز

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره، ولم يعلم بذلك أحد منهم حتى دخله واستعد...).

ألسنا أمام الفتى الهاشمي العظيم علي بن أبي طالب حين خرج فارس قريش يتحدى المسلمين:

ولقد بَحَحْتُ من النداء بجمعكم هل من مبارِزِ

ووقفت إذ جبن المشجـ ع موقف القِرْن المناجز
ولذاك إني لم أزل متسرعًا عند الهزاهز
إن الشجاعة في الفتى والجودَ من خير الغرائز

وها هو علي ﷺ يرتجز في الخندق ويقابل التحدي قائلًا:

لا تعجلن فقد أتا ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجي كل فائز
إني لأرجو أن أقيـ ـم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

وكانت الضربة النجلاء التي بقي ذكرها عند الهزاهز. فلقد قتل فارس أليل وعامر ومضى ذكرها بين الركبان. وفطمت قريش أن تحاول اجتياز الخندق مرة ثانية.

إنها خندق جديدة بكل مراحلها وأبعادها وتفاصيلها، يصنعها لنا الأحنف ابن قيس ﷺ، فارس الأمة، وحكيمها، والذي أسقط قادة الترك الثلاثة يَسْبحون بدمائهم دون أن يُعلم أحدًا بما فعل. ودخل جيشه وعبأه للمواجهة لحرب ضروس هَوجاء قادمة.

وماذا كان بعد مقتل أبطال الترك.

٦ - ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ.. ﴾ [الأحزاب: ٢٥]. (فخرجت الترك ليلتئذٍ بعد خروج الثالث، فأتوا على فرسانهم مقتلين. فتشاءم خاقان وتطير. فقال: **قد طال مقامنا**، وقد أصيب هؤلاء القوم بمكان لم يُصب بمثله قط. ما لنا في قتال هؤلاء القوم من خير، فانصرفوا بنا، فكرّوا وجوههم راجعين.).

سبحان اللّه!! هل لنا أن نسمع إلى قائد قريش أبي سفيان ماذا يقول:

(يا معشر قريش، إنكم واللّه ما أصبحتم بدار مقام؛ لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة. وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، واللّه ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء.

فارتحِلوا إني مرتحل..

وسمعت غطفان بما فعلت قريش. فانشمروا راجعين) [١]. إنها معجزة النبي

---

(١) تاريخ الطبري (٩٨/٢).

وكرامة الولي. هذه هي نتيجة الجولة الثانية من تداعي أحزاب الأرض على معسكر الإيمان.. في المدينة المنورة، وفي مرو الخاسرة.

إذا كانت هذه الخندق فأين (بنو قريظة)؟

وهاكم الجواب.

٧ - (.. وقد كان يزدجرد بن شهريار بن كسرى ترك خاقان بمرو الروذ وخرج إلى مرو الشاهجان، فتحصن منه حاتم بن النعمان ومن معه، فحصرهم واستخرج خزائنه من موضعها، وخاقان ببلخ مقيم له. فقال المسلمون للأحنف: ما ترى في إتْباعهم، فقال: أقيموا في مكانكم ودعوهم.

ولما جمع يزدجرد ما كان في يديه مما وضع بمرو، فأُعجل عنه، وأراد أن يستقل به منها، إذ هو أمر عظيم من خزائن أهل فارس، وأراد اللحاق بخاقان، فقال له أهل فارس: أي شيء تريد أن تصنع، فقال: أريد اللحاق بخاقان، فأكون معه أو بالصين. فقالوا له: مهلًا فإن هذا رأي سوء.

إنك إنما تأتي قومًا في مملكتهم وتدع أرضك وقومك؟! ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم، فإنهم أوفياء وأهل دين، وهم يلون بلادنا، وإن عدوًّا يلينا في بلادنا أحب إلينا مملكة من عدو يلينا في بلاده، ولا دين لهم ولا ندري ما وفاؤهم، فأبى عليهم وأبَوا عليه، فقالوا: فإنا لا ندعك. فاعتزلوا وتركوه في حاشيته فاقتتلوا فهزموه وأخذوا الخزائن..).

ولنستمع معًا إلى هذا النقاش بين كعب بن أسد سيد بني قريظة. وبين حُيَيّ ابن أخطب أفعى اليهود، وكبير مجرميها الذي جاء يطالب بني قريظة بنقضهم العهد مع محمد ﷺ. (فلما سمع كعب حيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حُيَي: ويحك يا كعب، افتح لي.

قال: ويحك يا حُيي! إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمدًا فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصِدقًا.

قال: ويحك افتح لي أكلمْك.

قال: ما أنا بفاعل. قال: والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتِك [1] أن آكل

---

(١) الجشيشة: هي الحبوب التى طُحِنت لتطبخ.

معك منها ففتح له. فقال: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر، وببحر طامٍ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان بسادتها وقادتها فأنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أُحُد، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه.

فقال له كعب: جئتني والله بذُلّ الدهر وبجَهامٍ [(١)] قد اهراق ماؤه فهو يَرعُد ويَبرق، ليس فيه شيء! ويحك يا حُيي! فدعني وما أنا عليه، فلم أرَ من محمد إلا صدقًا ووفاءً) [(٢)].

فهذا يزدجر يمثل دور حيي بن أخطب، ويصر على قتال المسلمين. ويدعو الفرس إلى نقض عهودها ونكثها مع الأحنف بن قيس ﷺ. وهُزِم!! ويريد أن يأخذ خزائنه خارج المملكة ليقاتل المسلمين.

لكن عقلاء الفرس وقادتهم كانوا أعقل من اليهود، وحالوا بين يزدجرد وخزائنه أن يخرجها إلى خاقان الترك أو ملك الصين، لتكون غنيمة للمسلمين بعد ذلك.

٨ - ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

وذلك حتى تكتمل لَدينا صورة الخندق وبني قريظة.

(.. فهزموه وأخذوا الخزائن، واستولوا عليها، ونكبوه، وكتبوا إلى الأحنف بالخبر فاعترضهم (أي يزدجرد وحاشيته) المسلمون والمشركون بمرو يثفنونه [(٣)]. فقاتلوه وأصابوهم في آخر القوم، وأعجلوه عن الأثقال، ومضى موائلًا حتى قطع النهر إلى فرغانة والترك. فلم يزل مقيمًا زمان عمر ﷺ يكاتبهم ويكاتبونه...

وأقبل أهل فارس على الأحنف، فصالحوه وعاقدوه، ودفعوا إليه تلك الخزائن والأموال. وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا زمن الأكاسرة...).

٩ - ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]:

ولِمَ دفع عظماء فارس إلى الأحنف بن قيس ﷺ خزائن كسرى وأمواله وهم جميعًا مجوسٌ على دين ملكهم؟؟؟

---

(١) الجَهَام: هو السحاب الذي لا ماء فيه.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١٦٧/٢).

(٣) يثفنونه: أي يدافعونه.

لأنهم رأوا ما لم يروه من ملوكهم ودهاقينهم من العدل والإحسان والبر.

(.. وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا في زمان الأكاسرة. فكانوا كأنما هم في ملكهم، إلا أن المسلمين أوفى لهم، وأعدل عليهم. فاغتبطوا وغبطوا.

أما وراثة الأموال والخزائن (وأصاب الفارس يوم يزدجرد كَسَهْمِ الفارس يوم القادسية).

ونعود إلى رسول يزدجرد إلى ملك الصين، ونبحث عن سبب عدم مسارعة ملك الصين لنجدة ملك فارس، والملوك تجد حقًّا عليها أن تنصر بعضها.

لسنا بحاجة إلى بحث وتحليل؛ فالخبر يفسّر نفسه بكل أبعاده، ويجيب على كل تساؤلاتنا.

(قالوا: ولما عبر خاقان النهر، وعبرت معه حاشية آل كسرى، أو مَن أَخَذَ منهم نحو بلخ مع يزدجرد، لقُوا رسول يزدجرد الذي بعث إلى ملك الصين. وأهدى إليه معه هدايا، ومعه جواب كتابه إلى ملك الصين. فسألوه عما وراءه فقال: لما قدمت عليه بالكتاب وبالهدايا، كافأنا بما ترون - وأراهم هديته. وأجاب يزدجرد - فكتب إليه بهذا الكتاب بعد ما كان قال لي:

- قد عرفت أن حقًّا على الملوك إنجاد الملوك على من غلبهم. فصف لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم؛ فإني أراك تذكر قلة منهم، وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذي تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم، وشرّ فيكم.

قلت: سلني عما أحببت.

قال: أيوفون بالعهد؟

قلت: نعم.

قال: وما يقولون لكم قبل أن تقاتلوهم؟

قال: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث.

- إما دينهم فإن أجبناهم أجرونا مجراهم.

- أو الجزية والمنعة.

- أو المنابذة.

قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟

قلت: أطوع قوم لمرشدهم.

قال: فما يُحِلون ويحرمون؟

فأخبرته.

فقال: أيحرمون ما حُلِّل لهم أو يحلون ما حُرِّم عليهم؟

قلت: لا.

قال: فإن هؤلاء لا يهلكون أبدًا، حتى يحلوا حرامهم، ويحرموا حلالهم.

ثم قال: أخبرني عن لباسهم.

فأخبرته.

وعن مطاياهم؟

فقلت: الخيل العِراب - ووصفتها.

فقال: نِعْمَتِ الحصون هذه.

ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها.

فقال: هذه صفة دواب طوال الأعناق.

وكتب معه إلى يزدجرد كتابًا:

إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق علي، ولكن هؤلاء القوم الذين وَصَفَ لي رسولُكَ صفتَهم، لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو خُلّي سربهم أزالوني ما داموا على ما وصف. فسالمهم وارْضَ منهم بالمساكنة، ولا تُهِجْهم ما لم يهيجوك).

لقد أدرك إمبراطور الروم حقيقة هذه الأمة الجديدة. وقال لأبي سفيان عندما لقيه في غزة حاجًّا إلى القدس:

(.. إن يكن ما تقول فيه حقًّا، فإنه نبي، وقد كنتُ أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه

منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدميه وليبلغن ملكه ما تحت قدمي).

وهو الموقف لملك الصين حين سمع صفات جند محمد ﷺ.

(.. ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم، لو يحاولون الجبال لهدوها ولو خُلّي سربهم أزالوني ما داموا على ما وصف. فسالمهم وارْضَ منهم بالمساكنة ولا تُهيجهم ما لم يهيجوك).

أما كسرى الفرس الأول فكانت العنجهية سِمَتُه. (.. فلما قرأه (أي كتابَ رسولِ اللّٰه ﷺ إليه) شقّه وقال: يكتب إلي بهذا وهو عبدي.

ثم كتب كسرى إلى باذان، وهو على اليمن. أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به..).

لكن ابنه كان أعقلَ منه، فبعث إلى باذان:

(.. أما بعد فإني قد قتلتُ كسرى، ولم أقتله إلا غضبًا لفارس، لما كان استحل من أشرافهم وتجميرهم في ثغورهم. فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة من قبلك، وانطلق إلى الرجل الذي كان كسرى قد كتب فيه، فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه).

وجاء يزدجرد بعد بوران بنت كسرى، يحمل العنجهية نفسها، والازدراء للعرب نفسه، وفشلت كل العروض الإسلامية من الدبلوماسيين الإسلاميين وعلى رأسهم المغيرة في محاولة ثنيه عن الحرب.

إما بالإسلام: (فمن تابعكم على هذا فله ما لكم، وعليه ما عليكم)، (فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب اللّٰه، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم).

أو بالجزية: (وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم).

وكم كان يزدجرد يوفر على البشرية مئات الألوف من القتلى والدماء والأشلاء واليُتْم والتأيم لو قَبِلَ بأحد هذين العرضين.

ولكنه أصر على الحرب موهمًا نفسه أن سينهي هؤلاء القادمين من الصحراء بضربة واحدة. (ولكن ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليكم رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية، وينكّل به وبكم من بعد).

وقد يكون مغرورًا وهو في أوج قوته وصولته وصولجانه. لكن بعد أن خسر ملكه، وصار لاجئًا عند خاقان لم يشف حقده، ولم يتراجع عن موقفه. وما يزال يحلم أن يعود إلى ملكه بقوة السيف، حين التجأ إلى ملوك العالم ليؤيدوه في حرب هذا الدين وحرب هذه الأمة. ودعاه ملك الصين إلى أن يرعوي، ويعود عن غَيّه. غير أن حقده كان أكبر من عقله، وبقي يحارب هذا الدين حتى لقي مصيره مذبوحًا في طاحونة في إحدى قرى الأتراك كما لقي حيي بن أخطب مصيره مذبوحًا في أسواق قريظة.

١٠ - ولا تغيروا فيستبدل اللّٰه بكم غيرَكم: لقد استحقوا هذا النصر العظيم للمواصفات الكبرى التي يحملونها، ولكن حين يتخلون عن هذه الصفات، فسيتخلى اللّٰه عنهم ويستبدل بهم غيرهم. وليس لأنهم عرب قوم محمد ﷺ.

(.. وأقام يزدجرد وآل كسرى بفرغانة، معهم عهد من خاقان.

ولما وقع الرسول بالفتح والوفد بالخبر - ومعهم الغنائم - بعمر بن الخطاب من قبل الأحنف جمع الناس وخطبهم، وأمر بكتاب الفتح فقرئ عليهم. فقال في خطبته:

أ - إن اللّٰه - تبارك وتعالى - ذكر رسوله ﷺ، وما بعثه به من الهدى، ووعد على اتباعه من عاجل الثواب وآجله خير الدنيا والآخرة فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

ب - ونحن اليوم قد أصبح الحلم حقيقة، وتحقق موعود اللّٰه كاملًا.

(فالحمد للّٰه الذي أنجز وعده، ونصر جنده، ألا إن اللّٰه قد أهلك ملك المجوسية وفرق شملهم؛ فليسوا يملكون من بلادهم شبرًا يضرّ بمسلم).

جـ - وانتقل الملك كله للأمة الربانية الوارثة.

(ألا وإن اللّٰه قد أهلك ملك المجوسية وفرق شملهم.. ألا وإن اللّٰه قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم).

د - (لينظر كيف تعملون. ألا وإن المصرين (الكوفة والبصرة) من مسالحها اليوم كأنتم والمصرين فيما مضى من البعد، وقد وغلوا في البلاد.

هـ - (واللّٰه بالغ أمره، ومنجز وعده، ومتبع آخر ذلك أوله..

و - (فقوموا في أمره على رِجل (أي بهمة واستعداد) يُوَفّ لكم بعهده ويؤتكم وعده).

ز - (ولا تبدلوا ولا تغيروا؛ فيستبدل اللّٰه بكم غيركم.

ح - فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قِبَلِكُمْ).

إنها خَطبة موجهة للأمة إلى قيام الساعة. فاللّٰه تعالى لا يحابي أحدًا من خلقه.

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣].

١١ - وتكمن أهمية الخطبة في تقرير ما انطلقت منه ابتداءً؛ حيث إن الأمة هي التي حقق اللّٰه تعالى بها موعوده، وليس شخص عمر أمير المؤمنين - على عظمة عمر أمير المؤمنين - وليس الأحنف بن قيس أو سعد بن أبي وقاص أو القعقاع بن عمرو على عظمة هؤلاء الثلاثة وغيرهم.

نعم، تختلف المستويات بين فرد وآخر. فالأحنف مثلًا ﷺ هزم وحده جيشًا كاملًا جرارًا بقتله لأعظم أبطاله، وأنهى توغل أمة في الأرض المسلمة، لكن هذا لا يعني أبدًا أن هذين الجنديين اللذين كانا ينقيان تبنًا لدابّتيهما، ووضعا خطة المواجهة للأحنف أنهما محرومان من ذلك الأجر وذلك الفضل. وصَبْرُ المؤمنين في كل حرب هو في النهاية الذي يحسم المعركة، وأمانة المؤمنين في كل معركة التي رباهم عليها الإسلام هي في النهاية التي تحسم المعركة لصالح الأمة المسلمة كلها بلا استثناء؛ ولهذا حرصت على تسمية هذا الكتاب: المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة.

لقد أدرك هذا المعنى ملك الصين فقال: ولكن هؤلاء القوم الذي وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو خُلّي سربهم أزالوني ما داموا على ما وصف.

وأدرك أن سر نجاحهم هو تمسكهم بدينهم. وأنهم سوف ينتهون عندما يتخلون عن هذا الدين. فقال: (وإن هؤلاء لا يهلكون أبدًا حتى يُحِلّوا حرامهم، ويُحرّموا حلالهم).

وأدرك أعداء اللّٰه هذا المعنى. فقال قائد مخابرات اليهود في حرب (١٩٦٧م): سوف أهزمهم بما حرَّمه محمد عليهم، بالخمر والنساء.

وهو الذي أكده الفاروق ﷺ، فليسوا هم شعبَ اللّٰه المختار، ولا هم من طينة غير

طينة الناس، إنما سر عظمتهم هو تمسكهم بهذا الدين (.. ألا وإن اللّه قد أورثكم أرضهم وديارهم لينظر كيف تعملون).

وحين تُخلُّون بالعهد وتخلون بالشرط فليس لكم من اللّه مِنْ وليٍّ ولا نصير:

(ولا تبدلوا ولا تغيروا، فيستبدل اللّه بكم غيركم).

وهذه هي نظريته الخالدة، فالهلاك والهزيمة هي من الداخل، وليست من الخارج، وليست من العدو (فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قِبَلِكُم).

* * *
* *
*



السنة الثالثة والعشرون
و (أي حلم لو كان طال)



الفصل الثامن

سقوط الإمبراطورية الفارسية

أولًا: عرض المخطط العمري

لا بد لنا أن نعود إلى المخطط العمري في إسقاط آخر قلاع ومواقع الإمبراطورية الإيرانية. ونجدنا مساقين لعرض هذا المخطط.

قال الطبري: (كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو قالوا: ... وبعث بألوية من ولَّى مع سهيل بن عدي حليف بني الأشهل. فقدم سهيل بالألوية.

١ - ودفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس.

٢ - ولواء أردشيرخُرَّة وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلميّ.

٣ - ولواء إصطخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي.

٤ - ولواء فسا ودارابجرد إلى سارية بن زنيم الكناني.

٥ - ولواء كرِّمان إلى سهيل بن عدي.

٦ - ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو، وكان عاصم من الصحابة.

٧ - ولواء مُكِرّان إلى الحكم بن عمير التغلبي...

فعسكروا ليخرجوا إلى هذه الكور فلم يستتب مسيرهم حتى دخلت سنة ثمان عشرة وأمدَّهم عمر بأهل الكوفة.

١ - فأمد سهيل بن عدي بعبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبان.

٢ - وأمد الأحنف بن قيس، بعلقمة بن النضر، وبعبد اللَّه بن أبي عقيل، وبربعي ابن عامر، وبابن أم غزال.

٣ - وأمد عاصم بن عمرو بعبد اللَّه بن عميرِ الأشجعي.

٤ - وأمد الحكم بن عمير بشهاب بن مخارق المازني)[١].

فعمر ﷺ أراد أن يشرك المصرين - الكوفة والبصرة - بهذه الفتوحات.

وإن المرء ليعجب هل يوجد قائد في التاريخ يخطط لفتح إمبراطورية كاملة. وينفذ مخططه كاملًا قبيل وفاته، وفي السنة الأخيرة من حياته.

لقد مضى فتح خراسان، وشهدنا كيف أمد عمر ﷺ الأحنف بأربعة قادة كبار وذلك لهول هذا الموقع وأهميته. وسد من بعده الأمداد أن تأتي من جهة الترك والصغد، حيث يقيم يزدجرد.

ثانيًا: فتح توج و (أرد شيرخُرَّة وسابور)

قال الطبري: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو قالوا: خرج أهل البصرة الذين وجهوا إلى فارس، أمراء على فارس، ومعهم سارية بن زُنيم ومن بعثه معهم إلى ما وراء ذلك، وأهل فارس مجتمعون بتوج، فلم يصمدوا لجمعهم بجموعهم، ولكن قصد كل أمير كورة، منهم قصد كورته وإمارته التي أمر بها، وبلغ ذلك أهل فارس، فافترقوا إلى بلدانهم، كما افترق المسلمون ليمنعوها. وكانت تلك هزيمتهم، وتَشتت أمورهم، وتَفرِيُق جموعهم، فتطيَّر المشركون من ذلك، وكأنما كانوا ينظرون إلى ما صاروا إليه.

فقصد مجاشع بن مسعود السُلمي لسابور وأردشيرخُرَّة فيمن معه من المسلمين فالتقوا بتوج وأهل فارس، فاقتتلوا ما شاء اللّه، ثم إن اللّه ﷻ، هزم أهل توج للمسلمين، وسلط عليهم المسلمين، فقتلوهم كل قِتلة. وبلغوا منهم ما شاؤوا، وغنمهم ما في معسكرهم فحووه. وهذه توَّج الآخرة. ولم يكن لها بعدها شوكة.

والأولى التي تُنقِّذ فيها جنود العلاء أيام طاووس، الوقعة التي اقتتلوا فيها.

والوقعتان الأولى والآخرة، كلتاهما متساجلتان.

ثم دعوا إلى الجزية والذمة، فراجعوا وأقروا.

وخَمَّس مجاشع الغنائم. وبعث بها، ووفَّد وفدًا، وقد كانت البُشَراء والوفود

(١) تاريخ الطبري (٥٠٥/٢، ٥٠٦).

يجازون، وتقضى لهم حوائجهم، لسُنَّةٍ جرت من رسول اللَّه ﷺ.

كتب إليَّ السري عن شعيب عن محمد بن سوقة، عن عاصم ابن كليب عن أبيه قال: خرجنا مع مجاشع بن مسعود غازين توَّج، فحاصرناهم، وقاتلناهم ما شاء اللَّه، فلما افتتحناها وحوينا نَهبها نهبًا كثيرًا، وقتلنا قتلى عظيمة، وكان عليَّ قميص قد تخرق، فأخذت إبرة وسلكًا، وجعلت أخيط قميصي بها. ثم إني نظرت إلى رجلٍ في القتلى عليه قميص، فنزعته، فأتيت به الماء، فجعلت أضربه بين حجرين حتى ذهب ما فيه فلبسته، فلما جُمِعت الرثة، قام مجاشع خطيبًا، فحمد اللَّه وأثنى عليه فقال: أيها الناس لا تَغُلّوا؛ فإن من غلَّ جاءَ بما غلَّ يوم القيامة. رُدّوا ولو المخيط. فلما سمعت بذلك نزعت القميص فألقيته في الأخماس) [١].

* * *

١ - لقد كان هذا التحرك أقرب ما يكون إلى تطهير الجيوب التي لم تزل مراكز تجمع للفرس، وهذه الجيوب تقع معظمها ضمن إطار إقليم يدعى إقليم فارس، وهو جزء من الإمبراطورية الفارسية نذكره كما يلي:

(فارس: فالذي يحيط بها مما يلي المشرق حدود كرمان، ومما يلي المغرب كور خوزستان، ومما يلي الشمال المفازة التي بين فارس وخراسان، ومن الجنوب بحرها) فهو إذن مجاور للخليج العربي الفارسي خليج البحرين، ومصدر قلق للمسلمين ما لم ينه وجوده.

(.. وأما ما بها من المدن.. والأنهار والبحيرات والكور. فإن كورها خمس.

أ - وأوسعها وأعرضها وأكثرها مُدُنًا ونواحي كورة إصطخر ومدينتها جور.

ب - وتليها في الكبر كورة دارابجرد ومدينتها دارابجرد.

جـ - وفسا هي أكبر منها وأعمر غير أن المدينة منسوبة إلى دارا الملك...

د - وتليها في الكبر كورة الرجان.

هـ - وتليها كورة سابور، وهي أصغر كور فارس ومدينتها سابور..) [٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٥١).

(٢) أطلس عمر بن الخطاب لسامي المغلوث (ص ١٥٠) نقلًا عن: صورة الأرض لابن حوقل (ص ١٣٤، ١٣٥).

والملاحظ إذن أن ثلاث حملات من الحملات الست كانت موجهة لإنهاء إقليم فارس، وهذه الحملات هي حملة أرد شيرخُرَّة وسابور، وحملة إصطخر وحملة فسا ودارابجرد. ولنعد من هذه الحملات إلى جيشنا الذي تركناه في تَوَّج.

٢ - توّج: (بفتح أوله، وتشديد ثانيه وفتحه أيضًا، وجيم... مدينة بفارس قريبة من كازرون شديدة الحر؛ لأنها في غور من الأرض ذات نخل، وبناؤها باللبن: بينها وبين شيراز اثنان وثلاثون فرسخًا، ويعمل فيها ثياب كتان ينسب إليها... وهي مدينة صغيرة واسمها كبير. وقد فتحت في أيام عمر بن الخطاب ﷺ في سنة (١٨) أو (١٩) وأمير المسلمين مجاشع بن مسعود فالتقوا أهلَ فارس، وافتتح توّج بعد حروب عنوة وأغنمهم عسكره. ثم صالحهم على الجزية، فرجعوا إلى أوطانهم وأقروا، فقال مجاشع بن مسعود في ذلك.

ونحنُ ولينَا مرَّة بعد مرَّة بتوج أبناء الملُوك الأكَابِر
لقَينا جُيوش الماهيان بسُحرة على ساعةٍ تلوي بأهِلِ الحِظائر
فمَا فتِئت خيْلي تَكُّر عليهم ويلحَقُ منها لاحِق غَير حائر

٣ - لقد فتحت توج مرتين، وكانت المرة الأولى حين غزا العلاء بن الحضرمي ﷺ أرض فارس بدون إذن أمير المؤمنين، بعد أن حقق المسلمون انتصارًا ساحقًا وتوغلوا في أرض فارس حتى وصلوا إصطخر، وانتصر المسلمون بعد ضحايا جسيمة قدموها. ثم حصروا بعد أن أغرق العدو سفنهم. وبعث أمير المؤمنين جيشًا من اثني عشر ألف مقاتل فأنقذوهم. وهذا ما قصده الطبري في قوله:

(وهذه توَّج الآخرة، ولم يعد لهم بعدها شوكة. والأولى التي تُنقذ فيها جنود العلاء أيام طاوس، الوقعة التي اقتتلوا فيها، والوقعتان الأولى والآخرة كلتاهما متساجلتان، ثم دُعُوا إلى الجزية والذمة فراجعوا وأقروا) [١].

٤ - تطالعنا روايات أخرى لم يتعرض لها الطبري ﷺ عن غزو توَّج وإنما ذكرت في مصادر أخرى وأهمها البلاذري في فتوح البلدان؛ إذ يقول:

(فتح كُور فارس وكورمان. قالوا: كان العلاء بن الحضرمي، وهو عامل عمر

(١) تاريخ الطبري (٥٥١/٢).

ابن الخطاب على البحرين، وجَّه عرفجة بن هرثمة البارقي من الأزد، ففتح جزيرة في البحر مما يلي فارس، ثم كتب عمر إلى العلاء أن يُمِدَّ به عتبة بن فرقد السلمي ففعل، ثم لما ولَّى عمرُ عثمانَ بن العاص الثقفي البحرين وعمان، فدوخهما واتسقت له طاعة أهلهما، وجه أخاه الحكم بن أبي العاص في البحر إلى فارس في جيش عظيم من عبد القيس والأزد وتميم وبني ناجية وغيرهم ففتح جزيرة أبركاوان، ثم صاروا إلى توَّج من أرض أردشيرخرَّة.. وفي رواية أبي مخنف أن عثمان بن أبي العاص نفسه قطع البحر إلى فارس، فنزل توَّج ففتحها، وبنى بها المساجد، وجعلها دارًا للمسلمين، وأسكنها عبد القيس وغيرهم. فكان يُغِير منها على أرجان، وهي متاخمة لها. ثم إنه شخص عن فارس إلى عمان والبحرين لكتاب عمر إليه في ذلك، واستخلف أخاه الحكم.

وقال غير أبي مخنف: إن الحكم فتح توج وأنزلها المسلمين من عبد القيس سنة تسع عشرة.

وقالوا: إن (شهرك) مرزبان فارس وواليها أعظَمَ ما كان من قدوم العرب فارس واشْتَدّ عليه، وبلغته نكايتُهم وبأسُهم وظهورُهم على كل من لقوه من عدوهم.

فجمع جمعًا عظيمًا وسار بنفسه حتى أتى راشهر من أرض سابور وهي بقرب توَّج فخرج إليه الحكم بن أبي العاصي، وعلى مقدمته سَوَّار بن همام العبدي، فاقتتلوا قتالًا شديدًا. وكان هناك وادٍ قد وكَّل به شهرك رجلًا في نِقابه في جَماعةٍ وأمَره أن لا يجتازه هاربٌ من أصحابه إلا قتله. فأقبل رجل من شجعان الأساورة موليًا من المعركة. فأراد الرجل قتله فقال له:

لا تقتلني إنما نقاتل قومًا منصورين اللّه معهم، ووضع حجرًا فرماه (بالسهم) ففلقه، ثم قال:

ألا ترى هذا السهم الذي فلق الحجر واللّه ما كان ليخدش بعضهم لو رُمِيَ به.

قال: لا بد من قتلك.

فبينا هو في ذلك إذ أتاه الخبر بقتل شهرك. وكان الذي قتله سَوَّار بن همَّام العبدي، حمل عليه فطعنه، فأذراه عن فرسه [1]، وضربه بسيفه حتى فاضت روحه.

---

(١) أذراه عن فرسه أي: رماه فوقه.

وحَمَل ابن لشهرك على سوَّار فقتله، وهزم اللَّه المشركين وفُتِحتْ راشهر عنوة.

وكان يومها في صعوبته وعظيم النعمة على المسلمين فيه كيوم القادسية وتوجه بالفتح إلى عمر بن الخطاب عمرو بن الأهتم التميمي فقال:

جئتُ الإمَام بإسراع لأخبِرَه ... بالحق من خَبَر العبدِيّ سوَّارِ

أخبار أروَع ميْمون نقِيبَتَه ... مستعملٌ في سَبِيل اللَّه مِغوار

وقال بعض أهل توج: إن توج مُصِّرت بعد مقتل شهرك، واللَّه أعلم..) [١].

ولا يبعد أن تكون توج فتحت مرات لقربها من المسلمين، ونكثت لسيطرة الفرس عليها. غير أن ما ذُكِرَ عند الطبري هو الوضع النهائي لتوج عاصمة أردشيرخُرَّه.

٥ - **أرد شيرخُرَّه**: (بالفتح ثم السكون وفتح الدال المهملة وكسر الشين المعجمة وياء ساكنة وراء وخاء معجمة مضمومة، وراء مفتوحة مشدودة وهاء. وهو اسم مركب معناه بهاء أرد شير. وأردشير ملك من ملوك الفرس، وهي من أجَلِّ كور فارس. ومنها مدينة شيراز وحور وخبر ومِيمَند... وغير ذلك من أعيان مدن فارس.

قال البشاري: أردشيرخره كورة قديمة رسمها نمرود بن كنعان، ثم عَمّرها بعده سيراف بن فارس. وأكثرها ممتد على البحر، شديدة الحر، كثيرة الثمار...) [٢].

٦ - **مجاشع بن مسعود السلمي**: (.. قال البخاري وغيره: له صحبة، وله رواية في الصحيحين وغيرهما. روى عنه أبو عثمان النهدي وكليب بن شهاب، وأبو سلمان الرقاشي وعبد الملك بن عمير...

وقال الدولابي: إنه غزا كابُلَ من بلاد الهند فصالحه الأصبهذ، فدخل مجاشع بيت الأصنام، فأخذ جوهرة من عين الصنم وقال: لم آخذها إلا لتعلموا أنه لا يضر ولا ينفع. قال ابن الكلبي: تزوج شميلة بنت أبي حيوة بن أُزَيهر الدوسي فقتل عنها يوم الجمل، فخلف عليها عبد اللَّه بن عباس.

وذكر المدائني: أيضًا بسند له أن عمرو بن معد يكرب تَحَمَّل حمالة، فأتى مجاشعًا يستعين فيها، فقال: إن شئت أعطيتك ذلك من مالي، وإن شئت حكمتك، ثم أعطاه

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (ص ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي (١٤٦/١).

حكمه فمضى وهو يشكره..) [(١)].

(.. وقال محمد بن حبيب إلى أمراء الآفاق أن يبعثوا إليه من كل عمل رجلًا من صالحيها فبعثوا إليه أربعة من البصرة والكوفة والشام ومصر، واتفق أن الأربعة من بني سليم؛ وهم الحجاج بن علاط. وزيد بن الأخنس، ومجاشع بن مسعود، وأبو الأعور) [(٢)].

٦ - أما صورة هذا الجيش العظيم الذي فتح هذه الأرض. والذي كان أمينًا على خزائن الأرض فاستخلفه اللَّه عليها، كما قال يوسف - عليه الصلاة والسلام - لعزيز مصر: ﴿ .. ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥].

فهو أمين عليها، وهو عليم بتوزيعها، وهذا هو ما ينقصنا اليوم.

يا شباب العالم المحمدي ينقص اليوم شباب مهتدي
فأروه نوركم ليقتدي

أي جيش في الأرض على مستوى هذا الجيش في حفاظه على ثروات الأرض وكنوزها. ونحن نعرض كيف تربى هذا الجيش، ونعرض كيف ربَّى الجيل الذي يفتح الأرض اليوم.

- أولًا: جيش النبوة:

قال ابن إسحاق: ولما فرغ رسول اللَّه ﷺ من رد سبايا حنين إلى أهلها ركب واتبعه الناس يقولون: يا رسول اللَّه اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم حتى ألجؤوه إلى شجرة، فاختُطف عنه رداؤه فقال: « **ردوا عليَّ ردائي أيها الناس، فو اللَّه لو كان لكم بعَدد شجر تهامة نَعَمًا لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذّابًا** ».

ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه، فجعلها في أصبعه ثم رفعها ثم قال: « **أيها الناس، واللَّه ما لي من فيئكم ولا هذه الوَبَرة إلا الخُمُس، والخمس مردود عليكم. فأدوا الخياط والمخيط؛ فإن الغلول يكون على أهله عارًا وشنارًا يوم القيامة** »، فجاء رجل بِكُبّةٍ من خيوط شعر. فقال: يا رسول اللَّه أخذتُ هذه الكُبةَ أعمل بها برذعة بعيرٍ لي دبر.

فقال: « **أما نصيبي منها فهو لك** »، قال: أما إذا بلّغت هذا فلا حاجة لي بها، ثم طرحها من يده) [(٣)].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (٨٠٠٥). (٢) المصدر نفسه، ت (٦٦٩٣).

(٣) السيرة النبوية (٤/١١٠)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٨٨)، وقال: رواه أحمد ورجال أحد إسناديه ثقات.

وقال ابن هشام: (ذكر زيد بن أسلم عن أبيه أن عقيل بن أبي طالب دخل يوم حنين على امرأته فاطمة بنت شيبة بن ربيعة وسيفه ملطخ دمًا فقالت: إني قد عرفت أنك قد قاتلت. فماذا أصبت من غنائم المشركين؟

قال: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها. فسمع مناديَ رسول اللَّه ﷺ يقول: من أخذ شيئًا فليردَّه حتى الخياط والمخْيَط.

فرجع عقيل فقال: ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت، فأخذها فألقاها في الغنائم) [1].

المال العام: إنها تربية جديدة لهذا الجيش الكبير أن أخذ أي شيء من الغنائم قبل توزيعها حرام، وهو الغلول، وهو عار وشنار ونار يوم القيامة.

وجاء السؤال على كُبّة خيوط الشعر. أما الجيش كله فإذا كانت بهذا الحجم الصغير جدًّا وأذن بها الإمام فهل تحل؟

وكان الجواب من العظمة ما يقتلع من قلب كل مسلم أن يفكر بأخذ شعرة من الغنائم. كان الجواب مدرسة تربوية كاملة: « **أما نصيبي منها فهو لك** ».

وعليه إذن أن يستأذن اثني عشر ألف مقاتل ليحق له أن يأخذ كبة من خيوط الشعر وإلا فهي غلول وعار وشنار يوم القيامة.

وأدرك عقيل ﷺ هذا المعنى والذي لم يمر على إسلامه شهر واحد. فقال لزوجته ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت. وعاد وألقاها في الغنائم.

لقد كان مجاشع بن مسعود جنديًّا عاديًّا في جيش النبوة. وسمع هذا النداء ورأى بعينيه هذا الحوار حول كبة الشعر. ففَطَمَ نفسه منذ ذلك الوقت عن الغلول ولو كان شعرة أو خيطًا، ولما يمر على إسلامه شهران؛ لأنه أسلم مع قومه سليم قبيل فتح مكة.

- **ثانيًا: جيش جيل الخلافة الراشدة:**

أما هو الآن فهو قائد جيش الإسلام في أقصى الأرض في أردشيرخرَّه. وقد انهالت الغنائم على المسلمين بعد المعركة حتى كانت مد النظر.

وأدرك مسؤوليته وهو القائد في تربية هذا الجيل، فوقف خطيبًا، (فحمد اللَّه وأثنى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤/١١٠، ١١١).

عليه فقال: أيها الناس لا تَغُلّوا، فإنه من غل جاء بما غل يوم القيامة ردوا ولو المخيط).

وإذا كان عقيل قد سمع مناديَ رسول اللَّه ﷺ يوم مؤتة، وعاد بالإبرة فوضعها في الغنائم، فما هي قصة صاحبنا كليب الذي قاتل وكان سيفه مخضبًا بالدم كسيف عقيل بن أبي طالب ابن عم رسول اللَّه ﷺ، الذي كان من العشرة الذين ثبتوا ابتداءً مع رسول اللَّه ﷺ مقابل جيش الكفر. نستمع إلى كليب يقول:

(خرجنا مع مجاشع بن مسعود غازين توج، وقاتلناهم ما شاء اللَّه، فلما افتتحناها وحوينا نهبها نهبًا كثيرًا وقتلنا قتلى عظيمة، وكان عَلَيَّ قميص قد تخرّق، فأخذت إبرة وسلكًا وجعلتُ أخيط قميصي بها، ثم إني نظرت إلى رجل في القتلى عليه قميص فنزعته، فأتيت به الماء، فجعلت أضربه بين حجرين حتى ذهب ما فيه فلبسته فلما جمعت الرثة قام مجاشع خطيبًا...

فلما سمعت ذلك نزعتُ القميص فألقيته في الأخماس.).

وعاد فلبس قميصه المخرق.

هذه هي الأمة المؤهلة لأن تقود العالم.

﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥].

ثالثًا: فتح إصطخر

ودفع لواء إصطخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي:

(قال: وقصد عثمان بن أبي العاص لإصطخر، فالتقى هو وأهل إصطخر بجور فاقتتلوا ما شاء اللَّه، ثم إن اللَّه ﷻ فتح لهم جور، وفتح المسلمون إصطخر، فقتلوا ما شاء اللَّه وأصابوا ما شاؤوا، وفر من فر. ثم إن عثمان دعا الناس إلى الجزاء والذمة فراسلوه وراسلهم، فأجابه الهربذ وكل من هرب أو تنحى، فتراجعوا وباحوا بالجزاء وقد كان عثمان لما هزم القوم جمع إليه ما أفاء اللَّه عليهم وخمّسه، وبعث بالخمس إلى عمر وقسم أربعة أخماس المغنم في الناس، وعفّت الناس عن النهاب. وأدوا الأمانة، واستدقوا الدنيا، فجمعهم عثمان ثم قام فيهم وقال:

إن هذا الأمر لا يزال مقبلًا، ولا يزال أهله معافين مما يكرهون ما لم يغلوا، فإذا غلَّوا رأوا ما ينكرون، ولم يسُدّ الكثير مسدّ القليل اليوم.

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف أبي سفيان عن الحسن قال:

قال عثمان بن أبي العاص يوم إصطخر: إن اللَّه إذا أراد بقوم خيرًا كفهم، ووفر أمانتهم فاحفظوها، فإن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، فإذا فقدتموها جدد لكم في كل يوم فقدان شيء من أموركم.

ثم إن شهرك خلع في آخر إمارة عمر وأول إمارة عثمان، ونشط أهل فارس ودعاهم إلى النقض، فوُجِّه إليه عثمان بن أبي العاص ثانية، وبعث معه جنود أمد بهم عليهم عبيد اللَّه بن معمر، وشبل بن معبد العجلي، فالتقوا بفارس. فقال شهرك لابنه وهو في المعركة، وبينهم وبين قرية تدعى ريشهر ثلاثة فراسخ، وكان بينهم وبين قرارهم اثنا عشر فرسخًا: يا بني أين يكون غداؤنا؟ ها هنا أو ريشهر؟ فقال:

يا أبت إن تركونا فلا يكون غداؤنا ها هنا ولا بريشهر، ولا يكوننَّ إلا في المنزل، ولكن واللَّه ما أراهم يتركوننا.

فما فرغا من كلامهما حتى أنشب المسلمون القتال، فاقتتلوا قتالًا شديدًا قتل فيه شهرك وابنه وقتل اللَّه ﷻ منهم مقتلة عظيمة، وولي قتل شهرك الحكم بن أبي العاص ابن بشر بن دهمان أخو عثمان...

وحدثني عبيد اللَّه قال: أخبرنا عبد اللَّه بن سليمان. قال: كان عثمان بن أبي العاص أُرسل إلى البحرين. فأرسل أخاه الحكم بن أبي العاص في ألفين إلى تَوَّج، وكان كسرى قد فرّ عن المدائن، ولحق بجور من فارس.

قال: فحدثني زياد مولى الحكم بن أبي العاص عن الحكم بن أبي العاص قال: قصد إليَّ شهرك - قال عبيد: وكان كسرى أرسله - قال الحكم:

فصعد إليَّ في الجنود فهبطوا من عَقَبة عليهم الحديد، فخشيت أن تغشو أبصار الناس فأمرت مناديًا، فنادى أن من عليه عمامة فليلفها على عينيه، ومن لم يكن عليه عمامة فليغمض بصره. وناديت أن حطوا عن دوابكم. فلما رأى شهرك ذلك حط أيضًا، ثم ناديت أن اركبوا، فصففنا لهم وركبوا، فجعلت الجارود العبدي على

الميمنة، وأبا صفرة على الميسرة - يعني أبا المهلب - فحملوا (المشركون) على المسلمين فهزموهم، حتى ما أسمع عليهم لهم صوتًا. فقال لي الجارود: أيها الأمير، ذهب الجند فقلت: إنك سترى أمرك فما لبثنا أن رجعت خيلهم، ليس عليها فرسانها. والمسلمون يتبعونهم يقتلونهم، فنثرت الرؤوس بين يدي، ومعي بعض ملوكهم، يقال له: المكعبِر فارق كسرى ولحق بي فأتيت برأس ضخم، فقال المكعبر: هذا رأس الإزدهاق - يعني شهرك - فحوصروا في مدينة سابور. فصالحهم - وملكهم آذربيان - فاستعان الحكم بآذربيان على قتال أهل إصطخر... وكان عثمان ابن أبي العاص لحق الحكم، وقد هزم شهرك. فكتب إلى عمر: إن بيني وبين الكوفة فرجة أخاف أن يأتيني العدو منها، وكتب صاحب الكوفة مثل ذلك، فاتفق عنده الكتابان، فبعث أبا موسى في سبعمائة، فأنزلهم البصرة) [١].

* * *

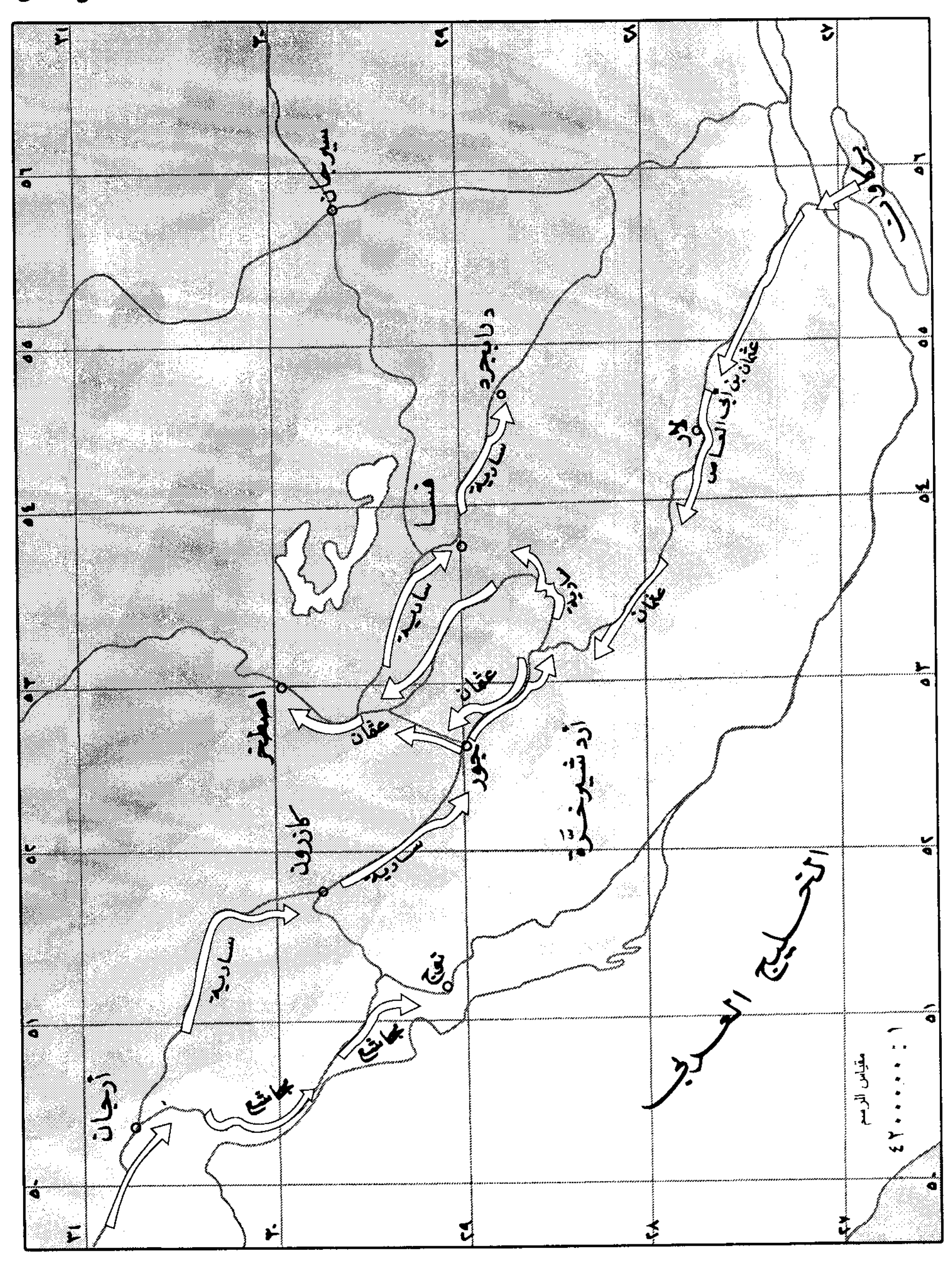
١ - إصطخر:

(جاء بدائرة المعارف الإسلامية أن مدينة إصطخر كانت أهم مدن الإقليم، بل كانت هي مدينة فارس، ومقر الزعماء الوطنيين قبل اضمحلال دولة الأشكانيين بعشرات السنين، كما يعتبر إقليم إصطخر أيضًا موطن الساسانيين. وكان ساسان جد أردشير الأول سادنًا لبيت نار الآلهة أناهيذ في إصطخر، وهو المعبد الذي يقال إن نيرانه انطفأت فجأة ليلة ولد الرسول ﷺ. واستمرت إصطخر مركزًا دينيًا بعد قيام الدولة الساسانية، وكان ملوكهم يعلقون رؤوس أعدائهم، ومن بينهم شهداء النصارى في هذه المدينة التي اعتبرت العاصمة الرسمية للدولة وإن ظلت طيسفون (المدائن) هي العاصمة الحقيقية، وذلك بسبب أن إقليم فارس البعيد كان يصعب الوصول إليه. ولا يصلح كثيرًا أن يكون مركزًا مناسبًا لدولة قوية، وقد كانت بعض نقود الساسانيين تصك في إصطخر، وظلت تصك فيها حتى عام ٧٠هـ) [٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٥٢، ٥٥٣).

(٢) أطلس عمر بن الخطاب (ص ١٥٤) بتصرف عن أحمد عادل كمال، سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية (ص ٢٦٧).



فتح أصطخر وفسا ودرابجرد

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٠٠) خريطة (٥٨))

٢ - عثمان بن أبي العاص:

سبق أن تحدثنا عنه بالتفصيل. ويكفي أن رسول اللَّه ﷺ اختاره أميرًا على قومه وهو أصغرهم سنًّا، ولنمض إلى تلك اللحظات:

(فلما أسلموا وكتب لهم كتابًا أمّرَ عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنًّا ذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن. وكان كما رواه الطبراني برجال ثقات رضي الله عنه قال: قدمت في وفد ثقيف حين قدموا على رسول اللَّه ﷺ، فلبسنا حللنا بباب النبي ﷺ قالوا: من يمسك رواحلنا، فكل القوم أحب الدخول على رسول اللَّه ﷺ، وكره التخلف عنه، وكنت أصغرَهم فقلت: إن شئتم أمسكت لكم على أن عليكم عهد اللَّه لتمسكُنَّ لي إذا خرجتم، قالوا: فذلك لك.

فدخلوا عليه ثم خرجوا، فقالوا: انطلق بنا. قلت: إلى أين، قالوا: إلى أهلك، فقلت: ضربت من أهلي حتى إذا حللت بباب رسول اللَّه ﷺ أأرجع ولا أدخل عليه، وقد أعطيتموني ما علمتم؟ قالوا: فاعجل فإنا كفيناك المسألة، لم ندع شيئًا إلا سألناه.

فدخلتُ فقلت: يا رسول اللَّه، ادع اللَّه لي أن يفقهني في الدين، ويعلمني.

قال: ماذا قلت، فأعدتُ عليه القول فقال: « **لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أصحابك. اذهب فأنت أمير عليهم وعلى من تقدم عليه من قومك** ».

وفي رواية: فدخلت على رسول اللَّه ﷺ فسألته مصحفًا فأعطانيه) [١].

(وقال عثمان بن أبي العاص كما رواه عنه أبو داود: إن رسول اللَّه ﷺ أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طاغيتهم (اللات) وقال عثمان: إنما استعملني رسول اللَّه لأني كنت قرأت سورة البقرة. فقلت: يا رسول اللَّه، إن القرآن ينفلت مني، فوضع يده على صدري وقال: « **يا شيطان اخرج من صدر عثمان** » فما نسيت شيئًا بعده أريد حفظه.

وفي صحيح مسلم، قلت: يا رسول اللَّه؛ إن الشيطان قد حال بين صلاتي وقراءتي، فقال: « **ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسستَهُ فتعوذ باللَّه منه، واتفل على يسارك ثلاثًا** ». قال: ففعلت فأذهبه اللَّه عني) [٢].

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٦/٤٥٣). (٢) المصدر نفسه (٦/٤٥٧).

٣ - وبالعودة إلى ترجمة عثمان ﷺ. يحل لنا كثيرًا من الإشكالات في عملية الفتح؛ حيث ساقها بترتيب منطقي معقول صاحب الاستيعاب ابن عبد البر.

(عثمان بن أبي العاص.. بن دهمان الثقفي. يُكْنَى: أبا عبد اللَّه. استعمله رسول اللَّه ﷺ على الطائف، فلم يزل عليها حياة رسول اللَّه ﷺ وحياة أبي بكر، وسنتين من خلافة عمر ﷺ، ثم عزله عمر وولاه سنة خمس عشرة على عمان والبحرين، وسار إلى عمان ووجه أخاه الحكم بن أبي العاص إلى البحرين، وسار هو إلى توَّج. ففتحها ومصَّرها وقتل ملكها شهرك، وذلك سنة إحدى وعشرين.

قال زياد الأعلم: قدم علينا أبو موسى بكتاب عمر ﷺ فقرأه علينا: من عبد اللَّه عمرَ أمير المؤمنين إلى عثمان بن أبي العاص. سلام عليك أما بعد فإني قد أمددتك بعبد اللَّه بن قيس، فإذا التقيتما فعثمان الأمير، وتطاوعا والسلام.

وكان عثمان بن أبي العاص يغزو سنوات في خلافة عمر وعثمان، يغزو صيفًا، ويرجع فيشتي بتوَّج. وعلى يديه كان فتح إصطخر الثانية سنة سبع وعشرين...

سكن عثمان بن أبي العاص البصرة، ومات في خلافة معاوية، وأولاده وعقبه أشراف وروَى عنه أهلُها وأهل المدينة أيضًا، والحسن أروى الناس عنه.

وعثمان بن أبي العاص كان سبب إمساك ثقيف عن الردة؛ لأنه قال لهم حين هموا بالردة: كنتم آخر الناس إسلامًا فلا تكونوا أول الناس ردة. وهو القائل: الناكح مغترس؛ فلينظر أين يضع غرسه؛ فإن عرق السوء لا بد أن ينزع ولو بعد حين) [١].

٤ - الحكم بن أبي العاص أخو عثمان:

(قال ابن سعد: يقال له صحبة، وولّاه أخو عثمان البحرين، فافتتح فتوحًا كثيرة وقال: لما كان أخوه على الطائف كتب إليه عمر: أقبل واستخلف أخاك.

وله رواية عن عمر، روى عنه معاوية بن قرة. وقدم على عمر بسبي من شهرك. فأمر عمر عثمان أن يختتنهم. وكان أبو صفرة والد المهلب حاضرًا. فقال: أنا مثلهم، فخُتن وهو شيخ، وخفضت زوجته وهي عجوز) [٢].

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ت (١٨٨٦).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٢٠٠٩).

٥ - اختلفت الروايات كثيرًا في قتل شهرك:

الرواية الأولى: أنه قتل بيد الحكم بن أبي العاص. (.. فما فرغا من كلامهما حتى أنشب المسلمون القتال، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، قُتل فيه شهرك وابنه. وقتل اللَّه - جل وعز - منهم مقتلة عظيمة. وولي قتل شهرك الحكم بن أبي العاص بن بشر بن دهمان أخو عثمان).

الرواية الثانية: رواية الحكم ﷺ بنفسه:

(فنثرت الرؤوس بين يديّ، ومعي بعض ملوكهم - يقال له المكعبر - فارق كسرى ولحق بي - فأتيت برأس ضخم، فقال المكعبر: هذا رأس الإزدهاق - يعني شهرك).

ولا شك أن شهرك كان من أشد الأمراء بأسًا ضد المسلمين، وقد كان قادرًا مع كسرى أن يعبئ أهل فارس للحرب. وكان كذلك حاقدًا فاتكًا. يسهل عليه نكث العهد ونقض الذمة. واستمر بضع سنوات يقود الجيش ضد المسلمين، منذ أن واجه أبا سبرة بن أبي رهم عام سبعة عشر. وها هو يستمر في المواجهة حتى السنة الثالثة والعشرين. فكانت نهايته إنهاء عَقَبَةٍ كَأْداءَ أمام المسلمين، وإنهاء الجيوب الفارسية التي تنبعث في كل وقت للمواجهة ولمقاومة المد الإسلامي المتعاظم.

٦ - والذي يعنينا هنا هو ربط النصر بالأمانة من قادة الجيوش الإسلامية:

فمن الغريب أن لا نرى خلال هذه الأعوام الاثني عشر معركة تُذكَرُ هُزِم فيها المسلمون إلا معركة الجسر. وما عدا ذلك فكل أهوال الحروب تنتهي بالنهاية بنصر مؤزر للمسلمين. كما لم نرَ في العهد النبوي معركة تذكر كانت المحنة فيها على أشدها غير معركة أحد؛ ليبقى الحس الإسلامي مدخلًا في حساباته أن الأيام دول، وليست بالضرورة أن تنتهي دائمًا بالنصر.

لقد أدرك عثمان ﷺ قائد الجيش الإسلامي والذي أحبه رسول اللَّه ﷺ فولاه، وانتقل من إدارة البلاد إلى قيادة الجيوش، أدرك أن سر انتصار المسلمين هو تربيتهم العليا المثلى على منهج النبوة. وأقر اللَّه عينه بهذا الجيش؛ حيث (عَفَّتِ الجندُ عن النّهاب، وأدَّوُا الأمانة، واستدقوا الدنيا (رأوها صغيرة دقيقة في أعينهم)، ولم يتمالك أن يعبر عن مشاعره ويتابع السيرة التربوية.

(ثم قام فيهم فقال: إن هذا الأمر لا يزال مقبلًا، ولا يزال أهله معافين مما يكرهون، ما لم يَغُلّوا، فإذا غلوا رأوا ما ينكرون، ولم يسد الكثير منهم مسد القليل اليوم).

ومضى الحسن البصري ﷺ حافظًا مقولة عثمان بن أبي العاص، يعظ بها الجيل الجديد المسؤول عن تربيته فقال: قال عثمان بن أبي العاص يوم إصطخر: إن اللّه إذا أراد بقوم خيرًا كفهم، ووفَّرَ أمانتهم، فاحفظوها، فإن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، فإذا فقدتموها جدد لكم في كل شيء فقدان شيء من أموركم.

وغدت هذه القضية معلمًا عظيمًا من أهم معالم التربية لجيل الخلافة الراشدة.

٧ – وتأتينا من جهة ثانية قضية الثقة بالنصر، والمحافظة على القلوب من خلال الخطة الراشدة في المواجهة من جهة ثالثة:

وحين نبحث عن الخطوات الأولى لدى الجيل الأول، جيل النبوة نلاحظ الأنموذج، ثم نلاحظ اقتفاء هذا النموذج: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الأنفال: ٤٣، ٤٤].

فالعليم بذات الصدور أرى المؤمنين الكفار قليلًا ليقضي اللّه أمرًا كان مفعولًا وتقع المواجهة.

وها هو الحكم بن أبي العاص ﷺ الفقيه في دين اللّه كأخيه عثمان يرى جيش شهرك ينحط من علٍ (فصعد إليّ في الجنود فهبطوا من عَقَبةٍ عليهم الحديد، فخشيت أن تغشو أبصار الناس) فيصدر أوامره إلى المسلمين أن يَعصِبوا أعينهم بعمائمهم أو يغمضوا أبصارهم حتى لا يروا العدو الذي يملأ الأفق بجنده، فتغشو أبصار الناس وتُغزَى قلوبهم من الخوف.

إنه القائد البصير الذي يرعى كل حركة وكل سكنة من عدوه وفي جيشه، وفي اللحظة الحاسمة يصدر أمره، ولا يضيع الهدف في التريث والتفكير عن حل الأزمة.

وهو هو نفسه الذي يثق بجيشه، والذي رأى أمانته، وعاش عفته (أي الجيش) يطمئن أنه لا بد لهذا الجيش أن يُنصَر، ولا بد لحزب اللّه أن يكون هو الغالب.

(فحملوا (أي المشركون) على المسلمين فهزموهم حتى ما أسمع لهم صوتًا. فقال لي الجارود أيها الأمير، ذهب الجند. فقلتُ: إنك سترى أمرك.

فما لبثنا أن رجعَتْ خيلهم ليس عليها فرسانها. والمسلمون يتبعونهم يقتلونهم).

ولا ينسى أن يحدثنا عن قصم ظهر كسرى - العدو الألد - بانضمام أكبر قواده - المكعبر - إلى الصف الإسلامي مفارقًا كسرى.

وهو الذي قاد البشارة الكبرى للحكم في مقتل شهرك طاغوت فارس.

(فنثرت الرؤوس بين يدي فأُتيت برأس ضخم. فقال المكعبر: هذا رأس الإزدهاق - يعني شهرك -).

كما يحدثنا عن تمزيق صف فارس بالمصالحة مع آذربيان ملك سابور. واستعان به بعد ذلك على قتال أهل إصطخر، بعد أن مزق العدو بدهائه كل ممزق.

رابعًا: فتح [فسا ودارابجرد]

ولواء [فسا و دارابجرد] إلى سارية بن زُنَيم الكناني.

قال ابن جرير: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو قالوا:

وقصد سارية بن زُنَيم فسا ودارابجرد، حتى انتهى إلى عسكرهم. فنزل عليهم وحاصرهم ما شاء اللَّه، ثم إنهم استمدوا فتجمعوا، وتجمعت إليهم أكراد فارس فدهم المسلمين أمر عظيم، وجمع كثير. فرأى عمر في تلك الليلة فيما يرى النائم معركتهم وعددهم في ساعة من النهار. فنادى من الغد: الصلاة جامعة، حتى إذا كان في الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم. وكان أُرِيَهُمْ والمسلمون بصحراء، إن أقاموا أحيط بهم، وإن أرزوا إلى جبل خَلْفَهم لم يؤتَوْا إلا من وجه واحد. ثم قام فقال:

إني رأيت هذين الجمعين - وأخبرنا بحالهما - ثم قال: يا سارية، الجبلَ الجبل. ثم أقبل عليهم وقال: إن للَّه جنودًا، ولعل بعضها أن يبلغهم، ولما كانت تلك الساعة من ذلك اليوم أجمع سارية والمسلمون على الإسناد إلى الجبل، ففعلوا، وقاتلوا القوم من وجه واحد، فهزمهم اللَّه لهم، وكتبوا بذلك إلى عمر واستيلائهم على البلد، ودعاء أهله وتسكينهم.

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن أبي عمر دثار بن أبي شعيب عن أبي عثمان وأبي عمر بن العلاء عن رجل من بني مازن قال:

كان عمر قد بعث سارية بن زنيم الدؤلي إلى فسا ودارابجرد فحاصرهم، ثم إنهم تداعوا فأصحروا له وكثروه فأتوه من كل جانب. فقال عمر وهو يخطب في يوم جمعة:

يا سارية بن زُنيم، الجبلَ، الجبلَ.

ولما كان ذلك اليوم وإلى جنب المسلمين جبل، إن لجؤوا إليه لم يؤتَوا إلا مِن وجه واحد، ثم لجؤوا إلى الجبل فقاتلوهم فهزموهم، فأصاب مغانمهم، وأصاب في المغانم سفطًا فيه جوهر، فاستوهبه المسلمين لعمر، فوهبوه له، فبعث به مع رجل بالفتح. وكان الرسل والوفد يجازون، وتُقضَى لهم حوائجهم، فقال له سارية: استَقرض ما تُبلغ به، وما تخلفه لأهلك على جائزتك، فقدم الرجل البصرة، ففعل ثم قدم على عمر، فوجده يطعم الناس، ومعه عصاه التي يزجر بها بعيره، فقصد له، فأقبل عليه بها. فقال: اجلس. فجلس حتى إذا أكل القوم انصرف عمر، وقام فأتبعه، فظن عمر أنه رجل لم يشبع، فقال حين انتهى إلى باب داره: ادخل، وقد أمر الخباز أن يذهب بالخوان إلى مطبخ المسلمين. فلما جلس في البيت أُتي بغدائه، خبز وزيت وملح جريش فوُضع وقال:

ألا تخرجين يا هذه فتأكلين؟

قالت: إني لأسمع حس رجل. فقال: أجل.

فقالت: لو أردت أن أبرز للرجال اشتريت لي غير هذه الكسوة.

فقال: أوَ ما ترضين أن يقال أم كلثوم بنت علي وامرأة عمر.

فقالت: ما أقل غناء ذلك عني.

ثم قال للرجل: ادن فكل، فلو كانت راضية لكان أطيب مما ترى.

فأكلا حتى إذا فرغ قال: رسول سارية بن زُنيم يا أمير المؤمنين.

فقال: مرحبًا وأهلًا، ثم أدناه حتى مست ركبته ركبته، ثم سأله عن المسلمين، ثم سأله عن سارية بن زُنيم فأخبره، ثم أخبره بقصة الدرج، فنظر إليه ثم صاح به، ثم قال: لا ولا كرامة حتى تقدم على ذلك الجند فتقسمه بينهم، فطرده.

فقال: يا أمير المؤمنين إني قد أنضيت إبلي، واستقرضت في جائزتي. فأعطني ما أتبلغ به.

فما زال عنه حتى أبدله بعيرًا ببعيره من إبل الصدقة. وأخذ بعيره فأدخله في إبل الصدقة، ورجع الرسول محرومًا مغضوبًا عليه حتى قدم البصرة، فنفذ لأمر عمر.

وقد كان سأله أهل المدينة عن سارية وعن الفتح، وهل سمعوا شيئًا يوم الوقعة؟ فقال: نعم سمعنا: يا سارية الجبل، وقد كدنا نهلك، فلجأنا إليه ففتح اللَّه علينا [١].

(وقال عبد اللَّه بن وهب عن يحيى بن أيوب عن ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر أن عمر وجّه جيشًا ورأس عليهم رجلًا يقال له سارية. قال: فبينا عمر يخطب، فجعل ينادي: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، ثلاثًا، ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مناديًا ينادي: يا سارية الجبل ثلاثًا فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم اللَّه. قال: فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك) [٢].

* * *

١ - [فسا ودارابجرد]:

أ - **دارابجرد:** ولاية بفارس ينسب إليها كثير من العلماء. ودارابجرد: كورة إصطخر وبها معدن الزيبق. ودارابجرد أيضًا موضع بنيسابور) [٣].

ب - **فسا:** كلمة عجمية وعندهم: بسا، بالباء.. مدينة بفارس أنزه مدينة بها فيما قيل بينها وبين شيراز أربع مراحل... قال الإصطخري: وأما كورة دارا بجرد فإن أكبر مدنها فسا. وهي مدينة مفترشة البناء، واسعة الشوارع، تقارب في الكبر شيراز وهي أصح هواءً من شيراز، وأوسع أبنية، وبناؤهم من طين، وأكثر الخشب في أبنيتهم السرو. وهي مدينة قديمة ولها حصن وخندق وربض، وأسواقها في ربضها.. وباقي مدن دارابجرد متقاربة. ومن شيراز إلى فسا سبعة وعشرون فرسخًا..) [٤].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٥٣، ٥٥٤).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (م ٤، ج ٧، ص ١٤٣)، وقال فيه: وهذا إسناد جيد حسن.

(٣) معجم البلدان لياقوت الحموي (٢/٤١٨).   (٤) المصدر نفسه (٤/٢٦١).

٢ – سارية بن زُنَيم:

قال ابن حجر: (تقدم في ترجمة أسيد بن أبي إياس بن زنيم ما يشعر بأن له صحبة.

وقال ابن عساكر: له صحبة.. وقال المرزباني: كان سارية مخضرمًا..

وقال العسكري: روَى عن النبي ﷺ ولم يلقه، وذكره ابن حبان في التابعين.

وذكر الواقدي وسيف بن عمر أنه كان خليعًا في الجاهلية، أي لِصًّا كثير الغارة، وأنه كان يسبق الفرسَ عدْوًا على رجليه. ثم أسلم وحسن إسلامه. وأمَّره عمر على جيش وسيّره إلى فارس سنة ثلاث وعشرين، فوقع في خاطر عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهو في بطن وادٍ، وقد هموا بالهزيمة، وبالقرب منهم جبل، فقال في أثناء خطبته: يا سارية، الجبل، الجبل. ورفع صوته فألقاه اللَّه في سمع سارية. فانحاز بالناس إلى الجبل، وقاتلوا العدو من جانب واحد، ففتح اللَّه عليهم...

وقال خليفة: افتتح سارية أصبهان صلحًا وعنوة فيما يقال..) [١].

٣ – وماذا نتحدث عن المعركة، والمعركة تتحدث عن نفسها. فهذا الجيل محفوظ برعاية اللَّه، وبنصر اللَّه ومعونة اللَّه.

فحينا يكون القائد العبقري الذي يخرج باحثًا عن حلٍّ لأزمة الجيش، ويأتيه الحل **بالجبل** من خلال الجنديين اللذين ينقيان التبن لدابتيهما. ويأخذ الخُطة منها.

وحين يفتقدون ذلك المخطط العبقري يأتيهم الحل من عمر ﷺ من المدينة بكرامة الأولياء، فيدلهم على الخطة دون أن يدري.

ولا ندري أي الروايتين أعجب. الرواية التي تقول إنه قال الكلمة عن بينة. وقد رفعت له ساحة المعركة كما رفعت لرسول اللَّه ﷺ يوم مؤتة. ويقول الكلمة واثقًا بجند اللَّه من الملائكة الذين هم أطوع من الريح لسليمان. وهل عمر إلا مقامه و « **لو كان بعدي نبي لكان عمر** ». فيقول: إن للَّه جنودًا، ولعل بعضهم أن يبلغهم.

والرواية الثانية: التي لا يدري عنها أنه قالها. وأنطقها اللَّه على لسانه بلسان ملك. فيقال: إنك كنت تصيح بذلك. ولعل ما يجعلنا نميل إلى صحة هذه الرواية ما قاله عنها الحافظ ابن كثير رحمه الله (وهذا إسناد جيد حسن).

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (٣١٦٩).

لكنها أصبحت متواترة في تاريخ هذه الأمة، وحفظت الأجيال كلها اسم القائد سارية لارتباطه بهذه الكرامة.

(يا سارية الجبل الجبل).

٤ - وندع حادثة الوافد على عمر ﷺ والمبشر له بالفتح ومرافقته إلى البيت وعرض سفط الجوهر، وغداء عمر في بيته، وطرد الوافد بجواهره ليوزعها على المسلمين، إلى حديث سلمة بن قيس الأشجعي والأكراد؛ حيث تبرز هناك أوضح وأجلى.

ونظن أن الرجل من بني مازن الذي رواها هنا قد سمعها والتبس عليه الأمر بين الفتحين والمعركتين كما هي في سندها هنا (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن أبي عمر دِثار بن أبي شعيب عن أبي عثمان وأبي عمرو بن العلاء عن **رجل من بني مازن**)، بينما السند في معركة أبي سلمة هو: (حدثني عبد اللّٰه بن كثير العبدي. قال: حدثنا جعفر بن عون. أخبرنا أبو جناب. قال: حدثنا أبو المحجل الرديني عن مخلد البكري وعلقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة).

ونعود لهذا السند وغيره في حينه. ولولا تكرار الحادثة لقبلنا الرواية الأولى. وجهالة رجل من بني مازن لا تمنع الحادثة من القبول، ولكنها تمنع الحديث من القبول.

خامسًا: فتح كرمان

ولواء كرمان مع سهيل بن عدي:

قال ابن جرير (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو قالوا:

وقصد سهيل بن عدي إلى كرمان، ولحقه عبد اللّٰه بن عبد اللّٰه بن عتبان، وعلى مقدمة سهيل بن عدي النسير بن عمرو العجلي، وقد حشد له أهل كرمان، واستعانوا بالقفس، فاقتتلوا في أدنى أرضهم، ففضهم اللّٰه، فأخذوا عليهم بالطريق، وقتل النسير مرزبانها، فدخل سهيل من قِبَلِ طريق القرى اليوم إلى جيرفت، وعبد اللّٰه بن عبد اللّٰه من مفازة (شير). فأصابوا ما شاؤوا من بعير أو شاء، فقوموا الإبل والغنم فتحاصُّوها بالأثمان لعِظم البخت على العراب، وكرهوا أن يزيدوا. وكتبوا إلى عمر فكتب

إليهم: إن البعير العربي إنما قُوِّم بتعيير اللحم، وذلك مثله، فإذا رأيتم أن في البخت فضلًا فزيدوا فإنما هي من قيمه.

وأما المدائني فإنه ذكر أن علي بن مجاهد أخبره عن حنبل بن أبي جريدة، وكان قاضي قهستان عن مرزبان قهستان قال: فتح كرمان عبدُ اللَّه بن بديل بن ورقاء الخزاعي في خلافة عمر بن الخطاب. ثم أتى الطبَسَين من كرمان. ثم قدم على عمر فقال: يا أمير المؤمنين، إني فتحت الطبسين فأقطعنيهما. فأراد أن يفعل، فقيل له: إنهما رستاقان عظيمان، فلم يقطعه إياهما، وهما بابا خراسان) [١].

* * *

١ - كرمان:

(.. وهي ولاية مشهورة، وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس وكران وسجستان وخراسان.... وهي بلاد كثيرة النخل والزرع والمواشي والضرع تشبَّهُ بالبصرة في كثرة التمور وجودتها وسعة الخيرات....

ومن مدنه (الإقليم) المشهورة جيرفت وموقان وخبيص وبم والسيرجان ونرماسير وبُرد سير وغير ذلك. وبها يكون التوتيا ويحمل إلى جميع أنحاء البلاد،... وقد ذكر في بعض كتب الخراج عن بعض كتاب الفرس أن الأكاسرة كانت تجبي السواد مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم سوى ثلاثين ألف ألف من الوضائع لموائد الملوك. وكانوا يجبون فارس أربعين ألف ألف. وكانوا يجبون كرمان ستين ألف ألف درهم لسعتها وهي مائة وثمانون فرسخًا في مثلها، وكانت كلها عامرة، وبلغ من عمارتها أن القناة كانت تجري من مسيرة خمس ليالٍ. وكانت ذات أشجار وعيون وقِنًى وأنهار...

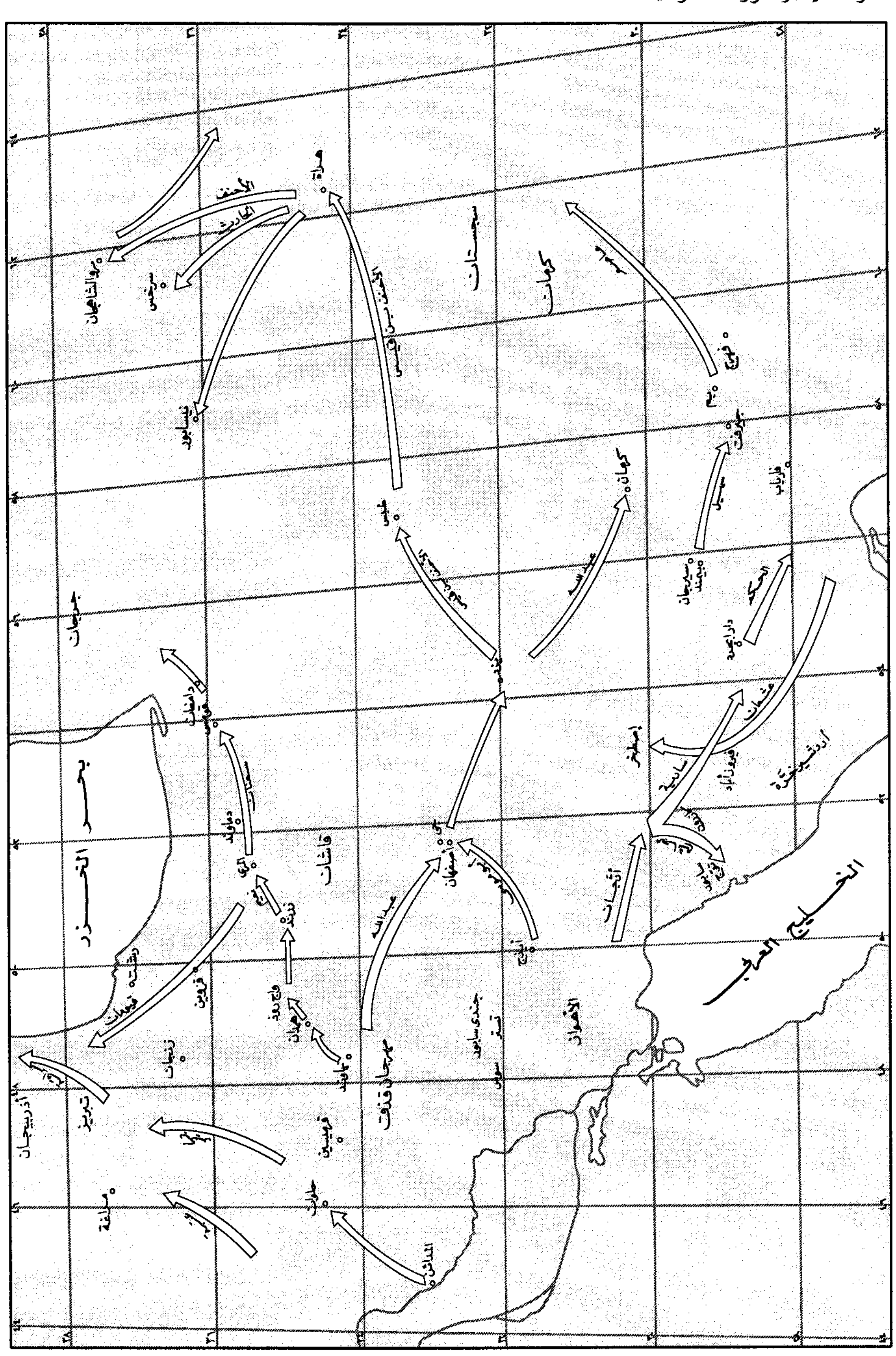
وأما فتحها فإن عمر بن الخطاب ﷺ ولَّى عثمان بن أبي العاص البحرين، فعبر البحر إلى أرض فارس ففتحها، ولقي مرزبان كرمان في جزيرة بركاوان فقتله، فوَهَي أمر أهل كرمان ونخبت قلوبهم [٢]...) [٣].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٥٤).

(٢) أي جبنت قلوبهم.

(٣) معجم البلدان لياقوت (٤/ ٤٤٥ - ٤٥٤) مقتطفات.



الفتح حتى سجستان ومكران

(نقلًا عن أطلس الفتوحات الإسلامية (ص ١٠٦ - ١٠٧) خريطة (٦٠))

٢ - سهيل بن عدي:

والمذكور عنه في التراجم وهو حليف بني عبد الأشهل أنه استشهد في اليمامة.

(سهيل بن عدي الأزدي من أزد شنوءة حليف بني عبد الأشهل. قال أبو عمر: استشهد باليمامة..) [١].

(سهيل بن عدي الأزدي من أزد شنوءة حليف بني عبد الأشهل من الأنصار، قتل يوم اليمامة شهيدًا) [٢].

أما بطل كرمان وحامل الرايات في كتب التراجم فهو سهل بن عدي الخزرجي.

(سهل بن عدي بن مالك بن حرام بن خديج بن معاوية الأوسي. تقدم ذكره مع أخويه ثابت والحارث، وأنه شهد أحدًا.

وذكر الطبري أن عمر كتب إلى أبي موسى الأشعري بالبصرة أن يؤمر سهل ابن عدي هذا، وهو الذي فتح كرمان وأعانه عبد اللّٰه بن عبد اللّٰه بن عتبان الآتي ذكره في مكانه) [٣].

وأما ما ذكر عنه وعن أخويه (ثابت بن عدي بن مالك بن حرام.... الأوسي. ذكر ابن شاهين عن محمد بن إبراهيم عن محمد بن يزيد عن رجاله أنه شهد هو وإخوته الحارث وعبد الرحمن وسهلٌ أُحُدًا، وأمهم أم عثمان بنت معاذ الخزرجية) [٤].

٣ - ولمعرفة أمير المؤمنين عمر ﷺ بإقليم كرمان وأهميته وسعته، فقد أشرك الكوفة مع البصرة لتكون قاداتها مددًا لسهل بن عدي. وكان أمير هذا المدد الصحابي العظيم عبد اللّٰه بن عبد اللّٰه بن عتبان.

(وأمدهم عمر بأهل الكوفة فأمد سهل بن عدي بعبد اللّٰه بن عبد اللّٰه بن عتبان).

(عبد اللّٰه بن عبد اللّٰه بن عتبان الأموي الأنصاري: ذكره أبو الشيخ في تاريخه. وقال أهل التاريخ: كان من أصحاب النبي ﷺ وهو الذي كتب الصلح بينهم وبين أهل جي.

وذُكر عن محمد بن عاصم بإسناده قصة إمرته وقدومه أصبهان.

قلت: وله ذكر في الردة لسيف بن عمر. قال: وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص أن سرح عبد اللّٰه بن عبد اللّٰه بن عتبان إلى أهل نصيبين.

---

(١) الإصابة، ت (٣٨٦٤).
(٢) الاستيعاب لابن عبد البر، ت (١٠٨٠).
(٣) الإصابة لابن حجر، ت (٣٨٢٤).
(٤) المصدر نفسه، ت (٩٢٧).

وكان شجاعًا بطلًا من أشراف الصحابة ووجوه الأنصار حليفًا لبني الحبلى من الأنصار، وقد استخلفه سعد لما رحل إلى عمر، فلما عزل عمر سعدًا أقر عتبة على عمله، ثم ولى عوضه زياد بن حنظلة فاستعفى، فولى عمار بن ياسر. وعقد عمر لعبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبان على أصبهان فدخلها. وعلى مقدمته عبد اللَّه بن ورقاء الرياحي. فَقَتَلَ مقدم الفُرس ثم صالحهم) [١].

٤ – وقد اشترك القائدان العظيمان الأنصاريان في فتح كرمان:

- فدخل سهيل من قِبَل طريق القرى اليوم إلى جيرفت.
- ودخل عبد اللَّه بن عبد اللَّه من مفازة شير.

فأصابوا ما شاؤوا من بعير أو شاء.

٥ – ولا ننسى الأهوال التي عاناها المسلمون:

فقد حشد أهل كرمان جيوشهم، ولم يكتفوا بذلك، بل استعانوا بأهل القفقاس أمة أخرى لحربهم. ولكن اللَّه تعالى ناصر جنده (وعلى مقدمة سهيل النسير بن عمرو العجلي، وقد حشد له أهل كرمان، واستعانوا بالقفس، فاقتتلوا في أدنى أرضهم، ففضهم اللَّه، فأخذوا عليهم الطريق وقتل النسير مرزبانها.

٦ – لكن الطبري يقدم رواية أخرى تفيد أن عبد اللَّه بن ورقاء هو الذي فتح كرمان:

(وأما المدائني، فإنه ذكر أن علي بن مجاهد أخبره عن حنبل بن أبي حريدة – وكان قاضي قهستان، عن مرزبان قهستان قال: فتح كرمان عبد اللَّه بن بديل بن ورقاء الخزاعي في خلافة عمر بن الخطاب ثم أتى الطبْسَين من كرمان، ثم قدم على عمر فقال: يا أمير المؤمنين إني افتتحت الطبْسَين فأقطعنيهما، فأراد أن يفعل، فقيل لعمر: إنهما رستاقان عظيمان، فلم يقطعه إياهما وهما بابا خراسان).

وهذه الرواية هي التي أخذ بها ياقوت الحموي في معجم البلدان، وأسماه هناك عبد اللَّه بن ورقاء الرياحي.

أما الطبسَين فهما: بلدتان يقال لكل واحد منهما الطَّبْس إحداهما طبس العُناب والأخرى طبس التمر، والعرب تسميها بابا خراسان).

---

(١) الإصابة لابن حجر، ت (٥٤٤٧).

تشير الرواية إلى أن عمر ﷺ توقف عن إقطاع الطبسين لعبد اللَّه بن ورقاء عندما علم أنهما رستاقان عظيمان.

ونرجح الرواية الأولى؛ لأن الرواية الثانية كأنما تمت في عهد عثمان ﷺ كما يقول ياقوت: والعرب تسميها باب خراسان؛ لأن العرب في أيام عثمان بن عفان ﷺ لما أرادوا فتح خراسان كانت أول فتوحهم. قال أبو الحسن علي بن محمد المدائني: أول فتوح خراسان الطبسان، وهما بابا خراسان وقد فتحهما عبد اللَّه بن بديل ابن ورقاء في أيام عثمان بن عفان سنة (٢٩) ثم دخلوا إلى خراسان. وتبقى رواية سيف مقدمة على غيرها. وبهذا التخريج يجمع بين الروايتين واللَّه أعلم بالصواب.

سادسًا: فتح سجستان

(.. ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو...).

(قالوا: وقصد عاصم بن عمرو لسجستان، ولحقه عبد اللَّه بن عمير، فاستقبلوهم فالتقوا هم وأهل سجستان في أدنى أرضهم، فهزموهم ثم اتبعوهم حتى حصروهم بزرنج. ومخروا أرض سجستان ما شاؤوا. ثم إنهم طلبوا الصلح على زرنج وما احتازوا من الأرضين فأعطوه. وكانوا قد اشترطوا في صلحهم أن فدافدها [١] حمى. فكان المسلمون إذا خرجوا تنادَوا خشية أن يصيبوا منها فيخفروا. فتم أهل سجستان على الخراج، والمسلمون على الإعطاء. فكانت سجستان أعظم من خراسان، وأبعد فروجًا. يقاتلون القُندهار والترك وأممًا كثيرة، وكانت فيما بين السند إلى نهر بلخ بحياله، فلم تزل أعظم البلدين. وأصعب الفرجين، وأكثرهما عددًا وجندًا حتى زمان معاوية) [٢].

أما عاصم بن عمرو ﷺ فليس نكرة بين القادة. وهو من أعظم أبطال القادسية وشارك في الفتوحات جميعًا وهو أخو القعقاع بن عمرو التميمي، فهو مقاتل محترف خاض غمرات الحروب جميعًا.

وأما عبد اللَّه بن عمير فهو يمثل مدد أهل الكوفة، وقال عنه ابن حجر في الإصابة:

(عبد اللَّه بن عمير الأشجعي. قال ابن أبي حاتم: روى عن النبي ﷺ. وقال

---

(١) وهي الأماكن الغليظة الصلبة.

(٢) تاريخ الطبري (٢/٥٥٤).

ابن منده: عداده في أهل المدينة. روى الطبراني عن... عبد اللَّه بن عمير الأشجعي: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **إذا خرج عليكم خارج – وأنتم مع رجل جميعًا – يريد أن يشق عصا المسلمين ويفرق جمعهم فاقتلوه** »...) [(١)].

ليس لدينا عن المعركة إلا هذان السطران (فالتقوا هم وأهل سجستان في أدنى أرضهم فهزموهم ثم أتبعوهم حتى حصروهم بزرنج ومخروا أرض سجستان ما شاؤوا، ثم إنهم طلبوا الصلح على زرنج وما احتازوا من الأرضين فأعطوه).

هذه الحرب التي تسقط إقليمًا مثل سجستان ذكر عنه ياقوت: (هي ناحية كبيرة وولاية واسعة. ذهب بعضهم إلى أن سجستان اسم للناحية واسم مدينتها زرنج وأرضها كلها رملة سبخة... بها نخيل لا يقع بها الثلج... وبسجستان نخل كثير وتمر، وفي رجالهم عِظَمُ خَلْق وجلادة. ويمشون في أسواقهم وبأيديهم سيوف مشهورة.

قال محمد بن بحر الرهني: سجستان إحدى بلدان المشرق، ولم تزل لقاحًا على الضيم، ممتنعة من الهضم، منفردة بمحاسن، متوحدة بمآثر لم تعرف لغيرها من البلدان..) [(٢)].

وإقليم أهله بهذه المواصفات. كيف يتم اجتياحه دون عناء يذكر، ودون خطر يوصف. ولا جواب على مثل هذا السؤال إلا أن الرعب قد اجتاح قلوب هذه الأمة. بل المحاولات اليائسة المستميتة في الحفاظ على وجودها، والحيلولة دون اندحارها وفتحها، ولكن قدر اللَّه غالب.. في القادسية ونهاوند وتستر وواج الروذ وما تم في هذا العام من فتوح لأكثر من نصف الإمبراطورية الفارسية هو دليل حي على ذلك. ولا شك أن شخص عمر ﷺ واسمه كان يبث الرعب في قلوب أهل فارس جميعًا.

يا من رأى عمرًا تكسوه بردته ... والزيت أدم له والكوخُ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرقًا ... من بأسه وملوك الروم تخشاه

سابعًا: فتح مكران

ولواء مكران إلى الحكم بن عمير التغلبي، وأمد الحكم بن عمير بشهاب بن مخارق المازني، وكان لواء مكران خاتمة الألوية.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (٥٥٣١).

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي (٣/١٩٠)، مقتطفات.

(قالوا: وقصد الحكم بن عمرو التغلبي لمكران حتى انتهى إليها، ولحق به شهاب ابن المخارق بن شهاب، فانضم إليه، وأمده سهيل بن عدي وعبد اللَّه بن عبد اللَّه ابن عتبان بأنفسهما. فانتهوا إلى دوين النهر. وقد انفض أهل مكران إليه حتى نزلوا على شاطئه، فعسكروا وعبر إليهم راسل ملكهم ملك السند. فازدلف به مستقبِل المسلمين، فالتقَوا بمكان من مكران من النهر على أيام، بعد ما كان قد انتهى إليه أوائلهم، وعسكروا به ليلحق أخراهم. فهزم اللَّه راسل وسَلَبَه، وأباح المسلمين عسكره، وقتلوا في المعركة مقتلة عظيمة، وأتبعوهم يقتلونهم أيامًا حتى انتهوا إلى النهر، ثم رجعوا فأقاموا بمكران. وكتب الحكم إلى عمر بالفتح، وبعث بالأخماس مع صُحار العبدي، واستأمره في الفيلة، فقدم صُحار على عمر بالخبر والمغانم فسأله عمر عن مكران - وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يجيءُ منه - فقال: يا أمير المؤمنين، سهلها جبلٌ، وماؤها وشلٌ، وثمرها دقل، وعَدُوّها بطلٌ، وخيرها قليل وشرها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع. وما وراءها شرٌّ منها.

فقال: أسجّاعُ أنت أم مخبر، قال: لا، بل مخبر. قال: لا واللَّه لا يغزوها جيش لي ما أُطعتُ.

وكتب إلى الحكم بن عمرو، وإلى سهيل أن لا يجوزنّ مكران أحد من جنودكما. واقتصرا على ما دون النهر. وأمره ببيع الفيلة بأرض الإسلام. وقسم أثمانها على من أفاءها اللَّه عليه.

وقال الحكم بن عمرو في ذلك:

لقد شبع الأرامل غير فخرِ ... بفَيْءٍ جاءهم من مُكّران
أتاهم بعد مسْغَبةٍ وجهدٍ ... وقد صفر الشِّتاء من الدخان
فإني لا يَذمُّ الجيش فعلي ... ولا سيفي يذم ولا سناني
غداة أدفَع الأوباشَ دفعًا ... إلى السند العرِيضة والمداني
ومهران لنَا فيما أردنا ... مطيعٌ غَير مسترخي العنان
فلولا ما نهى عنه أمِيري ... قطعناه إلى البُدَدِ الزواني

* * *

١ - مكران:

ووصفها من صحار العبدي مجزٍ تمامًا. لكن هناك جوانب أخرى أوردها ياقوت في معجمه.

(.. قال الإصطخري: مكران ناحية واسعة عريضة، والغالب عليها المفاوز والضرُّ والقحط، وهي ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى وهي معدن الفانيذ [١]، ومنها ينتقل إلى جميع العالم وهذه الولاية بين كرمان من غربيها وسجستان من شماليها والبحر من جنوبيها والهند في شرقيها وبها فانيذ وقصب السكر ونخيل، وعامة الفانيذ الذي يحمل إلى الآفاق منها - إلا شيء يسير - يحمل من ناحية ملكان.

٢ - الحكم بن عمرو التغلبي:

(له ذكر في الفتوح، وأنه الذي حاصر مكران، وهزم ملكها، وبعث إلى عمر بالفتح في قصة طويلة) [٢].

أما شهاب بن مخارق المازني فلم نعثر له على اسم في التراجم.

غير أن الحادثة تشير إلى بعث عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبان وسهيل بن عدي، إضافة إلى شهاب، وهذا يعني اهتمام عمر ﷺ بهذا الثغر، ولقربه من حدود الهند ساق له هذه القيادات، وكذلك العدو فقد استعان بملك السند فأمده بنفسه، وجاء ليدفع الخطر القادم فلو نجح المسلمون في فتح مكران، فهذا يعني أنهم في أرضه. إنهم يزحفون حتى أنهوا الإمبراطورية الإيرانية ليطرقوا الأبواب عليه.

٣ - وكان قدر اللَّه أن تقع المواجهة ابتداءً بين الجيش الإسلامي ومدد السند وعلى رأسه راسل ملكها، وهذه الأمة لم يصبها الخور والخوف بعد. فهذه أول معركة بينها وبين المسلمين:

ومن أجل هذا كانت معركة عنيفة وحامية، وسقط فيها قتلى كثيرة واستمرت المعركة أيامًا عدة.

(فالتقوا فاقتتلوا بمكان من النهر على أيام بعد ما كان انتهى إليه أوائلهم. وعسكروا به ليلحق أخراهم. فهزم اللَّه راسل وسلبه، وأباح المسلمين عسكره، وقتلوا

---

(١) الفانيذ هو نوع من الحلوى.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٢٠١٥).

في المعركة مقتلة عظيمة، وأتبعوهم يقتلونهم أيامًا حتى انتهوا إلى النهر).

لقد كانت عبقرية القيادة المسلمة تكمن في أنها عاجلت جيش السند بالالتحام مع مقدمته، وقبل أن يتمكن من جمع قواته. وكانت هزيمة القائد السندي وهزيمة مقدمته كفيلةً أن توقع الذعر والهلع في بقية الجيش.

٤ - وكانت خطة القيادة الإسلامية كذلك هي أن لا تسكرهم نشوة النصر:

فلم يكتفوا بهزيمة مقدمة الجيش السندي، بل لاحقوهم واتبعوهم إلى شاطئ النهر وأنهوهم حتى لا يفكروا بالتجمع الثاني والانقضاض على المسلمين.

فالمعركة هنا حاسمة للفريقين، وتحديد للمستقبل القادم، وانتهت بفضل اللَّه بالنصر المؤزر للمسلمين.

٥ - ولدور القائد البطل في هذه المعركة:

نراه يصف المعركة شعرًا حيًّا ينبض بالقوة ويتضمخ بالدم؛ إذ لا نرى من قبله مثله. فيقول الحكم ﷺ متحدثًا عن الآثار والغنائم والفيء قبل حديثه عن المواجهة.

لقد شَبِع الأرامل غير فخرٍ ... بفـيء جَاءهـم مـن مُكْـران

ولم يأت هذا الفيء والخير بسهولة ويسر إنما جاء بكفاح ودم وجهد.

أتاهـم بعـد مسْغَبةٍ وجَهْـد ... وقد صفر الشِّتاء من الدخان

فإنـي لا يَذمُّ الجيشُ فعلـي ... ولا سَيفِي يُذَمّ ولَا سِنَانـي

وكأننا معه في قلب المعركة وهو يدفع العدو ويدحره ليعود من حيث جاء إلى السند وما جاورها.

غـداة أدفَـعُ الأوَبـاش دفـعًـا ... إلى السِّند العريضةِ والمدان

ومهران الذي هو نهر السند قصدنا. جئناه مُطيعًا غير مسترخي العنان لنا لنقطعه إلى أرض السند بمفازاتها الواسعة والضيقة. لكن أوامر عمر ﷺ أن لا يجتازه.

ومـهْـران [١] لـنـا فِيمَـا أرْدنـا ... مُطيعٌ غير مستَرْخِي العَنَان

فـلولَا ما نَـهى عنـه أَمِيري ... قطعنَاهُ إلى البدد [٢] الزواني [٣]

* * *

(١) مهران: نهر بالسند.

(٢) البدد: المفازات الواسعة.

(٣) الزواني: الضيقة.

خبر بيروذ من الأهواز

(قالوا: ولما فصلت الخيول إلى الكور اجتمع ببيروذ جمع عظيم من الأكراد وغيرهم. وكان عمر قد عهد إلى أبي موسى حين سارت الجنود إلى الكور أن يسير حتى ينتهي إلى ذمة البصرة كي لا يؤتى المسلمون من خلفهم، وخشي أن يُستلحم بعض جنوده، أو ينقطع منهم طرف، أو يخلّفوا في أعقابهم، فكان الذي حذر أهل بيروذ، وقد أبطأ أبو موسى حتى تجمعوا.

فخرج أبو موسى حتى ينزل بيروذ على الجمع الذي تجمعوا بها في رمضان. فالتقوا بين نهر تيري ومناذر، وقد توافى إليها أهل النجدات من أهل فارس والأكراد ليكيدوا المسلمين، وليصيبوا منهم عَورة، ولم يشكوا في واحدة من اثنتين. فقام المهاجر ابن زياد، وقد تحنط واستقتل، فقال لأبي موسى: أقسم على كل صائم لما رجع فأفطر، فرجع أخوه فيمن رجع لإبرار القسم. وإنما أراد بذلك توجيه أخيه عنه لئلا يمنعه من الاستقتال، وتقدم فقاتل حتى قتل. ووهّنَ اللّه المشركين حتى تحصنوا في قلة وذلة، وأقبل أخوه الربيع فقال: هيئ يا والع الدنيا، واشتد جزعه عليه.

فرق أبو موسى للربيع للذي رآه دخل من مصاب أخيه، فخلَّفَهُ عليهم في جند، وخرج أبو موسى حتى بلغ أصبهان، فلقي بها جنود أهل الكوفة محاصري جي، ثم انصرف إلى البصرة [1] بعد ظفر الجنود. وقد فتح اللّه على الربيع بن زياد أهل بيروذ من نهر تيري، وأخذ ما كان معهم من السبي، فتنقى أبو موسى رجالًا منهم ممن كان لهم فداء - وقد كان الفداء أرَدَّ على المسلمين من أعيانهم، وقيمتهم فيما بينهم - ووفد الوفود والأخماس، فقام رجل من عَنَزَةَ فاستوفده، فأبى فخرج فسعى به فاستجلبه عمر، وجمع بينهما، فوجد أبا موسى أعذَر إلا في أمر خادمه، فضعّفه، فرده إلى عمله، وفجّر الآخر وتقدم عليه في أن لا يعود لمثلها.

الدعوى... والمحاكمة.. والحكم:

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب

---

(١) إذا أخذنا بهذه الرواية فهذا يعني أن الوقعة قبل سنتين أو ثلاث، وهذا يتوافق مع روايات السري التي تعيدها إلى السنة التاسعة عشرة أو العشرين.

وعمرو قالوا: لما رجع موسى من أصبهان بعد دخول الجنود الكور - وقد هزم الربيع أهل بيروذ. وجمع السبي والأموال، فغدا على ستين غلامًا من أبناء الدهاقين تنقاهم وعزلهم، وبعث بالفتح إلى عمر ووفَّد وفدًا فجاءه رجل من عنزة فقال: اكتبني في الوفد. فقال: قد كتبنا من هو أحق منك فانطلق مغاضبًا مراغمًا. وكتب أبو موسى إلى عمر:

إن رجلًا من عنَزَة يقال له ضبة بن محصن، كان من أمره.. وقص قصته.

فلما قدم الكتاب والوفد والفتح على عمر قدم العنزي فسلم عليه. فقال: من أنت، فأخبره.

فقال: لا مرحبًا ولا أهلًا.

فقال: أما المرحب فمن اللَّه، وأما الأهل فلا أهل.

فاختلف إليه ثلاثًا، يقول له هذا، ويرد عليه هذا. حتى إذا كان في اليوم الرابع دخل عليه. فقال: ماذا تنقمت على أميرك؟

قال: تنقى ستين غلامًا من أبناء الدهاقين لنفسه، وله جارية تدعى عقيلة، تُغَدى جفنة، وتُعشَّى جَفنة. وليس منا رجل يقدر على ذلك، وله قفيزان، وله خاتمان، وفوَّض إلى زياد بن أبي سفيان - وكان زياد يلي أمور البصرة - وأجاز الحطيئة بألف.

فكتب عمر كل ما قال. فبعث إلى أبي موسى، فلما قدم حجبه أيامًا ثم دعا به، ودعا ضبة بن محصن، ودفع إليه الكتاب، فقال: اقرأ ما كتبت.

فقرأ: أخذ ستين غلامًا لنفسه.

فقال أبو موسى: دللت عليهم، وكان لهم فداء ففديتهم، فأخذته فقسمته بين المسلمين.

فقال ضُبة: واللَّه ما كذب وما كذبت.

وقال: له قفيزان.

فقال أبو موسى: قفيز لأهلي أقوتهم، وقفيز للمسلمين في أيديهم يأخذون به أرزاقهم.

فقال ضبة: واللَّه ما كذب وما كذبت.

فلما ذكر عقيلة، سكت أبو موسى ولم يعتذر.

وعلم أن ضبة قد صدقه.

قال: وزياد يلي أمور الناس، ولا يعرف هذا ما يلي.

قال: وجدت له نُبلًا ورأيًا، فأسندت إليه عملي.

قال: وأجاز الحطيئة بألف.

قال: سددت فمه بمالي أن يشتمني.

فقال: قد فعلت ما فعلت.

فردَّه عمر وقال: إذا قدمت فأرسل لي زيادًا وعقيلة. ففعل فقدمت عقيلة قبل زياد. وقدم زياد فقام بالباب. فخرج عمر وزياد في الباب قائم وعليه ثياب بيض كتان. فقال له:

ما هذه الثياب؟ فأخبره، فقال: كم أثمانها؟ فأخبره بشيء يسير وصدَّقه.

فقال له: كم عطاؤك؟

قال: ألفان.

قال: ما صنعت في أول عطاء خرج لك؟

قال: اشتريت والدتي فأعتقتها، واشتريت في الثاني ربيبي عبيدًا فأعتقته.

فقال: وُفِّقتَ.

وسأله عن الفرائض والسنن والقرآن، فوجده فقيهًا، فردَّه، وأمر أمراء البصرة أن يشربوا برأيه، وحبس عقيلة بالمدينة.

وقال عمر: ألا إن ضُبة العنزي غضب على أبي موسى في الحق أن أصابه، وفارقه مراغمًا أن فاته أمر من أمور الدنيا، فصدق عليه وكذب، فأفسد كذبُه صدقه، فإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى النار.

وكان الحطيئة قد لقيه فأجازه في غزاة بيروذ، وكان أبو موسى قد ابتدأ حصارهم وغزاتهم حتى فلَّهم، ثم جازهم ووكَّل بهم الربيع، ثم رجع إليهم بعد الفتح فولي القسْم.

كتب إليَّ السري عن شعيب عن سيف عن أبي عمرو عن الحسن، عن أسيد ابن المتشمس ابن أخي الأحنف بن قيس قال: شهدت مع أبي موسى يوم أصبهان فتحَ القرى وعليها عبد اللَّه بن ورقاء الرياحي، وعبد اللَّه بن ورقاء الأسدي، ثم إن أبا موسى صرف إلى الكوفة، واستُعمل على البصرة عمر بن سراقة المخزومي، بدوي.

ثم إن أبا موسى رد على البصرة. فمات عمر وأبو موسى على صلاتها، وكان عملها مفترقًا غير مجموع. وكان عمر ربما بعث إليه فأمد به بعض الجنود فيكون مددًا لبعض الجيوش) (١).

* * *

١ - أبو موسى الأشعري:

لا بد من عرض شخصيته؛ إذ كان له دور عام مهم في هذه الأحداث.

(.. مشهور باسمه وكنيته معًا.. حالف سعيد بن العاص ثم أسلم وهاجر إلى الحبشة. وقيل: بل رجع إلى بلاد قومه، ولم يهاجر إلى الحبشة وهذا قول الأكثر.... وقدم المدينة بعد فتح خيبر، صادفت سفينته سفينة جعفر بن أبي طالب فقدموا جميعًا.

استعمله النبي ﷺ على بعض اليمن كزبيد وعدن وأعمالهما، واستعمله عمر على البصرة بعد المغيرة، فافتتح الأهواز ثم أصبهان....

قال مجاهد، عن الشعبي: كتب عمر في وصيته: لا يقرّ لي عامل أكثر من سنة، وأقرّوا الأشعري أربع سنين). وكان حسَن الصوت بالقرآن، وفي الصحيح المرفوع « **لقد أوتي مزمارًا من مزامير آل داود..** » (٢) وكان عمر إذا رآه قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى. وفي رواية: شوِّقنا إلى ربنا فيقرأ عنده. وكان أبو موسى هو الذي فقَّه أهلَ البصرة. وأقرأَهم... وأخرج البخاري عن طريق أبي التياح عن الحسن قال: ما أتاها - يعني البصرة - راكب خير لأهلها منه...) (٣).

إذن نحن مع سيد عظيم، من سادة المسلمين، من الرعيل الأول من المهاجرين. وكان رفيق رسول الله ﷺ منذ قدومه بعد خيبر حتى وفاة المصطفى ﷺ عنه. وكان الإداري اللامع والقائد المحنك، وموطن ثقة الفاروق ﷺ (ثم استعمل عمر أبا موسى على البصرة، ثم صُرِف إلى الكوفة.

ثم استعمل عمرَ بن سراقة، ثم صرف عمر بن سراقة إلى الكوفة من البصرة، وصُرِف أبو موسى إلى البصرة من الكوفة فعمل عليها ثانية).

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٥٥٦، ٥٥٧). (٢) صحيح مسلم، ح (٧٩٣).
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٥٥٧٢) مقتطفات.

٢ - وها نحن نعيد إلى الذاكرة فتح إصبهان سنة إحدى وعشرين:

(قالوا: وبعث إلى عبد اللَّه بن عبد اللَّه [١] بلواء. وأمره أن يسير إلى أصبهان. وكان شجاعًا بطلًا من أشراف الصحابة، ومن وجوه الأنصار، حليفًا لبني الحبلى من الأنصار.

وأمده بأبي موسى من البصرة، وأمّرَ عُمَرَ بن سراقة على البصرة).

إذن كما عزل عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبان من الإمارة ليكون قائد الجيش الإسلامي لفتح أصبهان، فقد عزل أبو موسى الأشعري من إمارة البصرة، ليكون قائد المدد لفتح أصبهان. (وكان من حديث عبد اللَّه بن عبد اللَّه أن عمر حين أتاه فتْحُ نهاوند بدا له أن يأذن بالانسياح فكتب إليه: أن سر من الكوفة حتى تنزل المدائن. فاندبهم ولا تنتخبهم، واكتب إليَّ بذلك. وعمر يريد توجيهه إلى أصبهان؛ فانتدب له فيمن انتدب عبد اللَّه بن ورقاء الرياحي، وعبد اللَّه بن الحارث بن ورقاء الأسدي...).

(قالوا: ولما قدم عمار إلى الكوفة أميرًا، وقدم كتاب عمر إلى عبد اللَّه: أن سِرْ إلى أصبهان - وزياد على الكوفة - وعلى مقدمتك عبد اللَّه بن ورقاء الرياحي. وعلى مجنبتيك عبد اللَّه بن ورقاء الأسدي، وعصمة بن عبد اللَّه... فسار عبد اللَّه في الناس حتى قدم على حذيفة، ورجع حذيفة على عمله، وخرج عبد اللَّه فيمن كان معه، ومن انصرف معه من جند النعمان من نهاوند، نحو جند قد اجتمع له من أهل أصبهان....

ثم سار عبد اللَّه من رستاق الشيخ نحو جي (وهي عاصمة أصبهان) حتى انتهى إلى جي، والملك بأصبهان يومئذ الفاذوسفان....

وقدم عليه أبو موسى الأشعري من ناحية الأهواز. وقد صالح الفاذوسفان عبد اللَّه. فخرج القوم من جي، ودخلوا في الذمة... وقدم كتاب عمر على عبد اللَّه: أن سر حتى تقدم على سهيل بن عدي فتجامعه على قتال من بكرمان... واستخلف على أصبهان السائب بن الأقرع..) [٢].

قال أبو جعفر: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن نفر من أصحاب الحسن منهم المبارك بن فضالة عن الحسن عن أسيد بن المتشمس ابن أخي الأحنف

---

(١) كان واليًا على الكوفة، وجاء مكانه زياد بن حنظلة.

(٢) تاريخ الطبري (٥٣٢/٢).

قال: شهدت مع أبي موسى فتح أصبهان - وإنما شهدها مددًا - فتح القرى، وعليها عبد اللّه بن ورقاء الرياحي، وعبد اللّه بن ورقاء الأسدي. ثم إن أبا موسى صرف إلى الكوفة، واستعمل على البصرة عمر بن سراقة المخزومي، بدري).

٣ - ونتابع أبا موسى خطوة خطوة ﷺ:

فقد صار واليًا على الكوفة بعد عمار بن ياسر بطلب من أهل الكوفة أنفسهم (فأقام عليهم سنة. فباع غلامُه العلف، وسمعه الوليد بن عبد شمس يقول: ما صحبت قومًا قط إلا آثرتهم، واللّه ما منعني أن أكذب شهود البصرة إلا صُحبتُهم ولئن صحبتكم لأمنحنكم خيرًا. فقال الوليد: ما ذهب بأرضنا غيرك. ولا جرم لا تعمل علينا، فخرج وخرج معه نفر، فقالوا: لا حاجة لنا بأبي موسى. قال: ولِمَ؟

قالوا: غلام له يتجر في حشرنا.

فعزله عنهم، وصرفه إلى البصرة).

٤ - وها هو ﷺ يعود ثانية أميرًا على البصرة عام اثنين وعشرين:

وحيث كانت الألوية من الكوفة عام اثنين وعشرين، والمدد لها من البصرة. فقد اختلفت الصورة عام ثلاث وعشرين. وتحركت الألوية السبعة كلها من البصرة، وكان مددها من أهل الكوفة. لكن مع هذه الألوية كان هناك أمر خاص بأبي موسى الأشعري ﷺ كما يلي: (وأمر أبا موسى أن يسير من البصرة إلى منقطع ذمة البصرة، فيكون هنالك حتى يحدث إليه).

٥ - ونصل هنا إلى حديثنا عن انقضاض الأكراد وغيرهم في بيروذ من الخلف، بعد أن اتجهت الجيوش تغزو بقية أرض فارس، وتنهي القيادة الفارسية فيها:

(قالوا: ولما فصلت الخيول إلى الكور [1] اجتمع ببيروذ جمع عظيم من الأكراد وغيرهم). والأصل أن الأرض كلها استسلمت للّه، لكن الفراغ الذي وجد في منقطع ذمة البصرة وحدودها من الخلف هو الذي شجع على الثورة.

وبيروذ (.. ناحية بين الأهواز ومدينة الطيب - ذكرها أبو عبد اللّه البشاري وقال:

---

(١) الكور: جمع كورة، وهي الأقاليم التي سبق ذكرها (توج وإصطخر، وفسا ودارابجرد، وكرمان وسجستان ومكران).

هي كبيرة بها نخل كثير حتى إنهم ليسمونها البصرة الصغرى. ويقال: إنها كانت قصبة كورة قديمًا) [١].

وكان عمر قد عهد إلى أبي موسى حين سارت الجنود إلى الكور أن يسير حتى ينتهي إلى ذمة البصرة؛ كي لا يؤتى المسلمون من خلفهم، وخشي أن يُستلحم بعض جنوده، أو ينقطع منهم طرف، أو يخلفوا في أعقابهم، فكان الذي حذَّر من اجتماع أهل بيروذ.

إنه كان يخشى الغوائل الثلاث حين يخلى وضع المسلمين من الخلف.

١ - خشي أن يُستلحم بعض جنوده، فَيفزُّوا من الخلف. وينصرفوا عن مهمتهم الأصلية.

٢ - أو أن ينقطع منهم طرف، فيوغلوا في الغزو، وتقطع الإمدادات عنهم لو حيل بين البصرة وبينهم.

٣ - أو يخلفوا في أعقابهم؛ حيث الذراري والنساء، فينقض عليهم العدو من الخلف.

ومن أجل هذا كانت هذه هي المهمة الأولى لأبي موسى ﷺ. وعندما بلغه ابتداء التجمع لم يسارع مباشرة لفضه والانقضاض عليه. (وقد أبطأ أبو موسى حتى تجمعوا).

ولم يكن تجمعًا محليًا، إنما كان تجمعًا قوميًا، اشترك فيه الفرس والأكراد في محاولة يائسة لإنزال الأذى بالمسلمين. ولم يكن عندهم شك في النصر. فجيوش المسلمين كلها موغلة ومنساحة في أرض فارس، ولم يكن مجرد ردة فعل محلية، بل كان تخطيطًا مسبقًا لتحقيق هدف واضح أن يصيبوا من المسلمين عورة، أو يوقعوهم في مكيدة.

(فخرج أبو موسى حتى ينزل بيروذ على الجمع الذي تجمعوا بها في رمضان. فالتقوا في نهر تيري ومناذر، وقد توافَى إليها أهل النجدات من أهل فارس والأكراد.

- ليكيدوا للمسلمين.
- وليصيبوا منهم عورة.
- ولم يشكوا في واحدة من اثنتين).

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي (٥٢٦/١).

٦ - المهاجر بن زياد:

ولا بد في كل معركة من بطل يُحتذَى به. وكان بطلنا هنا المهاجر بن زياد.
(فقام المهاجر بن زياد وقد تحنط واستقتل. فقال لأبي موسى:

أقسم على كل صائم إلا رجع فأفطر، فرجع أخوه الربيع فيمن رجع لإبرار القسم. وإنما أراد بذلك توجيه أخيه لئلا يمنعه من الاستقتال. وتقدم فقاتل حتى قُتل).

هذه الرموز العظمى، حفزت الجيش وعبأته، واستقتل مع المهاجر بن زياد كل الجيش جندًا وقادة (ووهَّن اللَّه المشركين حتى تحصنوا في قلة وذلة)، وانقلب السحر على الساحر.

فالهدف الذي يريده العدو هو حصر المسلمين وإنزال البلاء بهم، والفتك بذراريهم، وانتهى الأمر إلى أن يُحصَرَ العدوُّ في قلة وذلة.

٧ - ومن البطل العظيم المهاجر بن زياد إلى أخيه العظيم الأصلب والأعنف الربيع ابن زياد:

وحين نقف عند تحليل شخصيته وعرضها في كتب التراجم، نرى فيها العجب العجاب بمآثره وفضله ولم يقدم المهاجر على الإقسام على إفطار الصائمين بهذا الهدف فقط؛ أن يكونوا أقوى على حرب العدو. بل هناك هدف خاص حققه المهاجر ﷺ وهو أن يستغل غياب أخيه الربيع في الإفطار؛ حتى لا يحول بينه وبين الشهادة، والإمعان في قلب العدو.

وقبل أن نتحدث عن تَتِمّة المعركة والحال بين الأخوين - رضي اللَّه عنهما - يحسن أن نعرض الربيع بن زياد ﷺ.

(الربيع بن زياد:.. بن كعب بن الحارث الحارثي. قال أبو عمر: له صحبة ولا أعرف له رواية وقال أبو أحمد العسكري: أدرك الأيام النبوية، ولم يقدم المدينة إلا أيام عمر. وذكره البخاري وابن أبي حاتم وابن حِبَّان في التابعين. وقال ابن حِبّان: ولاه عبد اللَّه بن عامر سجستان سنة تسع وعشرين، وفُتِحَتْ على يديه.

وقال (المبرد) في (الكامل): كان عاملًا لأبي موسى على البحرين. وفد على عمر فسأله عن سنه. فقال: خمس وأربعون. وقص قِصة في آخرها أنه كتب إلى

أبي موسى أن يُقِرَّهُ على عمله. واستخلفه أبو موسى على حرب مناذر سنة تسع عشرة فافتتحها عنوة، وقُتِلَ فيها أخوه المهاجر بن زياد.

وروي عن طريق سليمان بن بريدة أن وافدًا قدم على عمر. قال: ما أقدمك؟ قال: قدمت وافدًا لقومي، فأذن للمهاجرين والأنصار والوفود، فتقدم الرجل، فقال له عمر: هيه. قال: هيه يا أمير المؤمنين. واللَّه ما وليت هذه الأمة إلا ببلية ابتليت بها، ولو أن شاة ضلت بشاطئ الفرات لسئلْتَ عنها يوم القيامة.

فانكب عمر يبكي، ثم رفع رأسه فقال: ما اسمك؟ قال: الربيع بن زياد. وله مع عمر أخبار كثيرة؛ منها أن عمر قال لأصحابه: دلوني على رجل إذا كان في القوم أميرًا، فكأنه ليس بأمير. وإذا لم يكن بأمير فكأنه أمير.

فقالوا: ما نعرفه إلا الربيع بن زياد.

قال: صدقتم.

ذكرها ابن الكلبي.

وذكر ابن حبيب أن زيادًا كتب إلى الربيع بن زياد أن أمير المؤمنين كتب إلي أن آمرك أن تُحَرِّز البيضاء والصفراء، وتقسم ما سوى ذلك، فكتب له: إني وجدت كتاب اللَّه قبل كتاب أمير المؤمنين.

وبادر فقسم الغنائم بين أهلها، وعزل الخمس، ثم دعا اللَّه أن يميته، فما جمع حتى مات) [1].

٨ - (وأقبل أخوه الربيع، فقال: هيئ يا والع الدنيا، واشتد جزعه عليه، فَرَقَّ أبو موسى للربيع للذي رآه دخل من مصاب أخيه، فخلفه عليهم في جند، وخرج أبو موسى حتى بلغ أصبهان، فلقي بها جنود أهل الكوفة محاصري جي، ثم انصرف إلى البصرة بعد ظفر الجنود. وقد فتح اللَّه على الربيع بن زياد أهل بيروذ من نهر تيري. وأخذ ما كان معهم من السبي فتنقى أبو موسى رجالًا منهم ممن كان له فداء. وقد كان الفداء أردَّ على المسلمين من أعيانهم وقيمتهم فيما بينهم، ووفد الوفود والأخماس..).

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٢٦٨٩).

لقد ترك أبو موسى ﷺ قيادة الجيش للربيع بن زياد ليثأر لدين اللَّه ولأخيه القتيل من هؤلاء الغادرين المحاصرين، وكتب اللَّه له الظفر عليهم، وأخذ ما كان معهم من سبي المسلمين، وأخذ الكثير من الجيش الكافر أسرى بعد أن أثخنهم القتال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا .. ﴾ [محمد: ٤].

* * *

المعول الرابع: ضبةُ العنزي والدعوى والمحاكمة والحكم:

كان المعول الأول: فيما افتُريَ فيه على المغيرة بن شعبة ﷺ وتم عزله.

وكان المعول الثاني: فيما افتُري فيه على سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين، وتم عزله.

وكان المعول الثالث: فيما افتُري فيه على عمار بن ياسر ﷺ، وتم عزله.

وكان هذا المعول الرابع: فيما افتُري فيه على أبي موسى الأشعري صاحب رسول اللَّه ﷺ، وكاد أن يعزل.

ونحن مضطرون إلى الوقوف مليًّا عند هذه المعاول وما أحدثت من ثغرات لنرى بعدها انهيار الجدار كله، ومقتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان ﷺ.

أ - ضبة العنزي عنده ذكاء الأعراب، وعنده طموح الرجال في أن يدخل غمار المسؤولية والحكم والقيادة. ورأى أن أول طريق المجد أن يكون عضوًا في وفد الفتوح إلى عمر ولم يُخْفِ هذا الطموح.

قال الطبري: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو قالوا: لما رجع موسى عن أصبهان بعد دخول الجند الكُور، وقد هزم الربيع أهل بيروذ وجمع السبي والأموال، فغدا على ستين غلامًا من أبناء الدهاقين، تنقَّاهم وعزلهم وبعث بالفتح إلى عمر. ووفّدَ وفدًا فجاءه رجل من عَنَزة فقال: اكتبني في الوفد.

فقال: قد كتبنا من هو أحق منك.

فانطلق مغاضبًا مراغمًا).

ولو كتبه في الوفد، وأعطاه هذا الموقع دون استحقاق لصمت ورضي عن أميره.

أما وقد حال بينه وبين موقع المقاتلين الكبار الذين أبلوا أعظم البلاء. واختير أكثرهم عطاء وبلاء، فقد مضى يتحدث في مصلحة الأمة، ويضع نفسه محاميًا عن العدل فيها. ومن حق كل جندي أن يكون كذلك؛ إذا رأى خللًا أو انحرافًا أن يعلم به أميره، فإذا كان الخلل والظلم عند الأمير فمن حقه أن يرفعه إلى الخليفة. وبيت الخليفة مفتَّح الأبواب لذلك.

ومن واجب الأمير أبي موسى ﷺ أن ينبه لمثل هذه النماذج في الصف. فكتب لعمر ﷺ: (إن رجلًا من عَنَزَة يقال له ضبة بن محصن، كان من أمره... وقصّ قصته..).

- لقاء الخليفة:

(فلما قدم الكتاب والوفد والفتح على عمر قدم العَنَزي، فأتى عمر فسلم عليه، فقال: من أنت؟ فأخبره.

فقال: لا مرحبًا ولا أهلًا.

فقال: أما المرحب فمن اللَّه، وأما الأهل فلا أهل).

والعنزي مصمم على مقابلة الخليفة، فإن فاته اليومُ الأول فلن يفوته اليوم الثاني ولا بد من المقابلة، وهو يعرف أن الخليفة قد يضطر لمشاغله أن لا يقابل كل طالب مقابلةٍ؛ فاختلف إليه ثلاثًا.

لم يخش أن تأتي المخابرات فتقتله، وترميه في أحد معتقلاتها سنواتٍ طوالًا لا يعرف بوصفه أحد.. فهو جندي في مدرسة النبوة وقوانينها وتشريعاتها.

ففي دولة من الدول الثورية الاشتراكية، تم اعتقال متظاهرين، فمكثوا في السجن خمسة عشر عامًا لم يوجه لهم سؤال، وخرجوا كما دخلوا. وهم ممثلو النقابات الشعبية.

وكان اليوم الرابع.. وتمت مقابلة الخليفة.

- الدعوى:

(حتى إذا كان في اليوم الرابع، دخل عليه.

فقال: ماذا نقمت على أميرك؟

قال:

١ - تنقى ستين غلامًا من أبناء الدهاقين لنفسه.

٢ - وله جارية تدعى عقيلة، تُغدَّى جفنة، وتُعَشَّى جفنة وليس منا رجل يقدر على ذلك.

٣ - وله قفيزان.

٤ - وله خاتمان.

٥ - وفوض إلى زياد بن أبي سفيان.

- وكان زياد يلي أمور البصرة.

٦ - وأجاز الحطيئة بألف).

وكُتِبَت الدعوى كاملة بحق أمير البصرة، من جندي هارب ناقم على أميره.

(فكتب عمر كل ما قال) وانصرف الرجل.

- استدعاء أمير البصرة:

ولم يكتف أن يبعث له، بل استدعاه ليحضر المحاكمة. وتعامل معه كما تعامل مع الجندي الهارب (فبعث إلى أبي موسى، فلما قدم حجبه أيامًا).

البصرة يوم اسْتُدعيَ أبو موسى منها كانت تحكم العالم حتى السند، ولو كان هناك نائب للخليفة لكان والي البصرة.. ومع ذلك فلم لم يبعث أمير المؤمنين الخدم والحشم والمواكب والخيل المطهَّمة لاستقباله من حدود المدينة، فهو الشخصية الإدارية الثالثة أو الثانية بعد أمير المؤمنين. ولم تفتح له قاعة الشرف لاستقبال كبار الزوار.

لقد جلس في موضع الاتهام الذي جلس فيه ضبة بن محصن، وحجب عن أمير المؤمنين كما حجب ضبة؛ فكلاهما في مجلس القضاء سواء، ولا ندري أي يوم استدعاه مع خصمه وجلسا في موقع واحد.

- وابتدأَتِ المحاكمة:

(ودعا ضبة بن محصن، ودفع إليه الكتاب، فقال: اقرأ ما كتبت.

فقرأ: أخذ ستين غلامًا لنفسه.

فقال أبو موسى: دُلِلْتُ عليهم، وكان لهم فداء ففديتهم، فأخذته فقسمته بين المسلمين.

فقال ضبة: واللّٰه ما كذب ولا كذبت.

قال: وله قفيزان.

فقال أبو موسى: قفيز لأهلي أقوتهم، وقفيز للمسلمين في أيديهم يأخذون به أرزاقهم.

فقال ضبة: واللّٰه ما كذب ولا كذبت..).

إنه لم يكذب، ولكن أخفى الحقائق بما هو أكبر من الكذب، ولن يُعفِيَه من المسؤولية أنه لم يكذب، وقد استدعى الأمير أبا موسى للمحاكمة.

وبقيت ثلاث مواد رئيسية من تقرير المدعي العام.

(فلما ذكر عقيلة سكت أبو موسى ولم يعتذر).

إن في سياسة عمر المالية محاكمة على الجارية عقيلة وهو الذي يناصف الولاة أموالهم.

لكن في مفهوم الإسلام الواسع، ليس هناك جريمة أن يكون عند أبي موسى جارية وتعيش في بحبوحة من العيش، وليس بالضرورة أن يتساوى الناس في المعيشة والثروة: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

إن ميزان الورع شيء، وميزان الحلال والحرام شيء آخر. وولاة عمر يحاسبون عنده بميزان الورع لا بميزان الحلال والحرام!!!

(فلما ذكر عقيلة سكت أبو موسى ولم يعتذر، وعلم أن ضبة قد صدقه).

وبقيت آخر مادتين في الادعاء.

(قال: وزياد يلي أمور الناس، ولا يعرف هذا ما يلي.

قال: وجدت له نبلًا ورأيًا فأسندت إليه عملي).

أما المادة الأخيرة في الادعاء:

(قال: وأجاز الحطيئة بألف.

قال: سددت فمه بمالي أن يشتمني).

لقد سقط الادعاء الكاذب الفاجر كله، لكن أمير المؤمنين استوقفه أمران هما بحاجة إلى تحقيق، وهما:

١ - انفراد زياد بالأمر.

٢ - وجاريته عقيلة.

وهذان الأمران لا يقتضيان اعتقاله على ذمة التحقيق، فهو جاهز للشخوص إلى الخليفة في أية لحظة، كما لا يستدعيان عزله عن عمله، بعد أن قدَّم دفاعه الكامل.

(فرده عمر وقال: إذا قدمت فأرسل إليَّ زيادًا وعقيلة) وزياد ليس نكرة عند عمر، فقد اختبره مرتين، في مطلع شبابه، وكان من المعجبين بفصاحته وذكائه. لكنه لا يدري مدى ولوغه في الدنيا. إن قُدرات زياد وخبراته ليست مجال شك لدى أمير المؤمنين. إنه يريد أن يختبر أمرين فيه هما أمانته ودينه. (فقدمت عقيلة قبل زياد، وقدم زياد فقام بالباب).

- زياد بين يدي أمير المؤمنين:

ومن الذي لا يرتعب حين يُستدعَى من عمر.

(فخرج عمر وزياد بالباب قائم، وعليه ثياب بيض كتان..).

وابتدأ التحقيق مع زياد.

(فقال له: ما هذه الثياب، فأخبره.

فقال: كم أثمانها.

فأخبره بشيء يسير وصدَّقه.

فقال له: كم عطاؤك؟

قال: ألفان.

قال: ما فعلت بأول عطاء خرج لك؟

قال: اشتريت والدتي فأعتقتها، واشتريت في الثاني ربيبي عبيدًا فأعتقته.

فقال: وُفِّقت.

وسأله عن الفرائض والسنن والقرآن، فوجده فقيهًا.

فردّه، وأمر أمراء البصرة أن يشربوا برأيه وحبس عقيلة بالمدينة).

إننا أمام مجتمع الكفاءات والخبرات؛ حيث ميزان الآخرة: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا لا يعرفه إلا اللَّه جل جلاله: « **التقوى ها هنا** » [١] وأشار إلى صدره ثلاثًا.

وميزان الدنيا (والرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام) فالعمل والنجاح هو ميزان التسابق والتوظيف والعمالة. لقد انتهى تميز الأحساب والأنساب « **فكلكم لآدم وآدم من تراب، وقد أذهب اللَّه عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها في الآباء...** » [٢].

فهذا زياد، أُمهُ أَمَةٌ عند صفية بنت عبيد الثقفي، وأبوه.. لا يُدرى من أبوه؟! حتى سمي بـ « زياد بن أبيه »، وانتسب لأبي سفيان بعد أن ادعاه أبو سفيان. ولم يثبت هذا الادعاء إلا زمن معاوية ﷺ، حتى ربيبه الذي رباه عبد؛ هو عبيد كما ذكر ابن حجر في الإصابة.

(زياد بن أبيه: وهو ابن سمية الذي صار يقال له: ابن أبي سفيان، ولد على فراش عبيد مولى ثقيف..). وقد مرَّ معنا من قبل كيف فرض نفسه بفصاحته ولباقته. وها هو يفرض نفسه بذكائه وخبراته وثقافته.

لقد استحوذ على اهتمام أمير المؤمنين وإعجابه **مرتين:**

الأولى: حين طلب منه أن يحدث المسلمين عن الفتوح على المنبر كما تحدث بها مع أمير المؤمنين.

الثانية: يوم سأله عن الفرائض والسنن والقرآن فوجده فقيهًا.

فلم يكتف بإقراره في موقعه عند أبي موسى ﷺ، بل أمر أمراء البصرة باستشارته في شؤون الحكم والاقتصاد.

بلغ هذه المنزلة، وبلغ عطاؤه ألفين، وهو ابن الأمة سمية، وربيب عبيد مولى ثقيف فاشتراهما وأعتقهما.

أما عقيلة فبقيت في المدينة، وبذلك سد كل الشبهات أمام افتراءات ضبة.

- **الحكم:**

وأصدر عمر الحكم وأعلنه على الأمة:

ألا إن ضبة العنزي غضب على أبي موسى في الحق أن أصابه، وفارقه مراغمًا أن فاته أمر من أمور الدنيا، فصدق عليه وكذب، فأفسد كذبه صدقه، فإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى النار.

---

(١) صحيح مسلم، ح (٢٥٦٤).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي، ح (٤٧٧٣).

ذكر خبر سلمة بن قيس الأشجعي والأكراد

قال الطبري: (حدثني عبد اللَّه بن كثير العبدي، قال: حدثنا جعفر بن عون، قال: أخبرنا أبو جناب... عن سليمان بن بريدة قال: أن أمير المؤمنين كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان أمَّرَ عليهم رجلًا من أهل العلم والفقه، فاجتمع إليه جيش، فبعث عليهم سلمة بن قيس الأشجعي فقال: سِر بسم اللَّه، قاتل في سبيل اللَّه من كفر باللَّه، فإذا التقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال:

- ادعوهم إلى الإسلام، فإن أسْلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة وليس لهم في فيء المؤمنين نصيب.

- وإن اختاروا أن يكونوا معكم فلهم مثل الذي لكم، وعليهم مثل الذي عليكم.

- فإن أبَوا فادعوهم إلى الخراج، فإن أقرُّوا في الخراج. فقاتِلوا عدوهم مِن ورائهم وفرِّغوهم لخراجهم، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم.

- فإن أبوا فقاتلوهم، فإن اللَّه ناصركم عليهم.

- فإن تحصنوا في حصن فسألوكم أن ينزلوا على حكم اللَّه وحكم رسوله، فلا تنزلوهم على حكم اللَّه ورسوله. فإنكم لا تدرون ما حكم اللَّهِ ورسولِهِ فيهم.

- وإن سألوكم أن ينزلوا على ذمة اللَّه وذمة رسوله، فلا تعطوهم ذمة اللَّه وذمة رسوله وأعطوهم ذِمة أنفسكم.

- فإن قاتلوكم فلا تَغُلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا.

قال سلمة: فسرنا حتى لقينا عدونا من المشركين، فدعوناهم إلى ما أمر به أمير المؤمنين، فأبوا أن يُسْلموا، فدعوناهم إلى الخراج فأبوا أن يقروا، فقاتلناهم فنصرنا اللَّه عليهم؛ فقتلنا المقاتلة، وسبينا الذرية، وجمعنا الرثة، فرأى سلمة بن قيس شيئًا من حلية، فقال: إن هذا لا يبلغ فيكم شيئًا؛ فتطيب أنفسكم نبعث به إلى أمير المؤمنين؛ فإن له بُردًا ومؤونة؟ قالوا: نعم. قد طابت أنفسنا. قال: فجعل تلك الحلية في سفط، ثم بعث برجل من قومه، فقال: اركب بها، فإذا أتيت البصرة، فاشتر على جوائز أمير المؤمنين راحلتين فأوقرهما زادًا لك ولغلامك، ثم سِر إلى أمير المؤمنين.

قال: ففعلت، فأتيت أمير المؤمنين، وهو يغدي الناس متكئًا على عصا كما يصنع الراعي وهو يدور على القصاع، يقول: يا يرفأ زِدْ هؤلاء خبزًا، زد هؤلاء لحمًا، زد هؤلاء مرقة، فلما دفعت إليه، قال: اجلس، فجلست في أدنى الناس، فإذا طعام فيه خشونة، طعامي الذي معي أطيب منه، فلما فرغ الناس من قصاعهم قال: يا يرفأ، ارفع قصاعك، ثم أدْبَر.

فاتبعته، فدخل دارًا، ثم دخل حجرة. فاستأذنتُ وسلمتُ، فأذن لي. فدخلت عليه، فإذا هو جالس على مِسح، متكئ على وسادتين من أُدم محشوتين ليفًا فنبذ إلي بإحداهما، فجلست عليها. وإذا بهو في صُفة فيها بيت عليه ستير. فقال:

يا أم كلثوم: غداءنا.

فأخرجت إليه خبزة بزيت في عُرْضِها ملح لم يدق. فقال:

يا أم كلثوم، ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا؟

قالت: إني أسمع عندك حِسَّ رجل.

قال: نعم ولا أراه من أهل البلد.

قال: فذلك حين عرفت أنه لم يعرفني.

قالت: لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته، وكما كسا الزبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته.

قال: أَوَ ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وامرأة أمير المؤمنين عمر؟!

قالت: إن هذا عندي لقليل الغَنَاء.

فقال: كُلْ فلو كانت راضية عنا لأطعمتنا أطيب من هذا.

قال: فأكلت قليلًا، وطعامي الذي معي أطيب منه.

وأكل فما رأيت أحدًا أحسن أكلًا منه؛ ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه.

ثم قال: اسقونا. فجاؤوا بعس من سلت.

فقال: أعط الرجل.

قال: فشربت قليلًا. سويقي الذي معي أطيب منه.

ثم أخذه فشربه حتى قرع القَدَحُ جبهته وقال: الحمد للَّه الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا.

قال: قلت: قد أكل أمير المؤمنين فشبع، وشرب فروي، حاجتي يا أمير المؤمنين؟

قال: وما حاجتك؟

قال: قلت: أنا رسول سلمة بن قيس.

قال: مرحبًا بسلمة بن قيس ورسوله.

حدثني عن المهاجرين كيف هم؟

قلت: هم يا أمير المؤمنين كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم.

قال: كيف أسعارهم؟

قلت: أرخص أسعار.

قال: كيف اللحم فيهم، فإنها شجرة العرب، ولا تصلح العرب إلا بشجرتها.

قلت: البقرة فيهم بكذا، والشاة فيهم بكذا يا أمير المؤمنين.

سرنا حتى لقينا عدونا من المشركين فدعوناهم إلى ما أمرتنا فيه من الإسلام فأبَوا، فدعوناهم إلى الخراج فأبوا، فقاتلناهم فنصرنا اللَّه عليهم، فقتلنا المقاتلة، وسبينا الذرية، وجمعنا الرثة، فرأى سلمة في الرثة حلية، فقال للناس: إن هذا لا يبلغ فيكم شيئًا، فتطيب نفسكم أن أبعث به إلى أمير المؤمنين؟ فقالوا: نعم.

فاستخرجت سفطي، فلما نظر إلى تلك الفصوص من بين أحمر وأصفر وأخضر، وثب، ثم جعل يده في خاصرته. ثم قال: لا أشبعَ اللَّهُ إذن بطن عمر.

قال: فظن النساء أني أريد أن أغتاله. فجِئنَ إلى الستر.

فقال: كف ما جئت به.

قال: يا يرفأ جأ عنقه. فوجأ عنقي وأنا أصيح.

قال: فأنا أصلح سفطي وهو يجأ عنقي.

قلت: يا أمير المؤمنين، أبْدِعَ بي فاحملني.

قال: يا يرفأ، أعطه راحلتين من الصدقة، فإذا لقيتَ أفْقَرَ منك فادفعهما إليه.

قلت: أفعل يا أمير المؤمنين.

قال: أما والله لئن تَفرَّق المسلمون في مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لَأَفْعَلَنَّ بك وبصاحبك الفاقرة.

فارتحلت حتى أتيتُ سلمة، فقلت: ما بارك الله لي فيما اختصصتني به. اقسم هذا في الناس قبل أن تصيبني وإياك فاقرة!! فقسمه فيهم، والفص يباع بخمسة دراهم وستة دراهم وهو خير من عشرين ألفًا.

وأما السري فإنه ذكر فيما كتب به إليَّ يذكر عن شعيب عن سيف عن أبي جناب عن سليمان بن بريدة قال: لقيت رسول سلمة بن قيس الأشجعي. قال:

كان عمر بن الخطاب إذا اجتمع إليه جيش من العرب... ثم ذكر نحو حديث عبد الله بن كثير عن جعفر بن عون. غير أنه قال في حديثه عن شعيب عن سيف:

وأعطُوهم ذِمَمَ أنفسكم. قال: فلقينا عدونا من الأكراد، فدعوناهم.

وقال أيضًا: وجمعنا الرثة، فوجد فيها سلمة حقتين جوهرًا، فَجُعِلَتا في سفط.

وقال أيضًا: أَوَمَا كفاكِ أن يقال: أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب امرأة عمر بن الخطاب.

قالت: إن ذلك عندي لقليل الغَناء.

وقال أيضًا: فجاؤوا بعُسٍّ من سُلْت. كلما حركوه فار فوقه مما فيه، وإذا تركوه سكن ثم قال: اشرب، فشربت قليلًا. شرابي الذي معي أطيب منه. فأخذ القدح فضرب به جبهته. ثم قال: إنك لضعيف الأكل ضعيف الشرب.

وقال أيضًا: قلت: رسول سلمة، قال: مرحبًا بسلَمَةَ وبرسوله، فكأنما خرجت من صلبه.

وقال أيضًا: ثم قال: لا أشبع الله إذن بطن عمر، قال: وظن النساء أني قد اغتلته فكشفن الستر. وقال: يا يرفأ جأ عنقه. فوجأ عنقي وأنا أصيح وقال: النجاء، وأظنك ستبطئ. أما والله الذي لا إله غيره لئن تفرق الناس إلى مشاتيهم.. وسائر الحديث نحو حديث عبد الله بن كثير.

وحدثنا الربيع بن سليمان، قال: حدثنا أسد بن موسى، قال: حدثنا شهاب بن فراس الحوشي. قال: حدثنا الحجاج بن دينار عن منصور بن المعتمر عن شقيق بن سلمة

الأسدي. قال: حدثنا الذي جرى بين عمر بن الخطاب وسلمة بن قيس. قال: ندب عمر بن الخطاب الناس إلى سلمة بن قيس الأشجعي بالحيرة. فقال: انطلقوا باسم اللَّه... ثم ذكر نحو حديث عبد اللَّه بن كثير عن جعفر.

قال أبو جعفر: وحج عمر بأزواج رسول اللَّه ﷺ في هذه السنة. وهي آخر حجة حجها بالناس. حدثني بذلك الحارث. قال: حدثنا ابن سعد عن الواقدي وفي هذه السنة كانت وفاته) [1].

* * *

إنها آخر صفحة في حياة الفاروق عمر ﷺ. وقد جاءت شاملة الإنسان والأهل والوطن والأمة، في عرض سلسٍ أخَّاذ لمن شاء أن يتعرف على هذه الخلافة الراشدة خلال عشر سنين، والذي كان حلمًا من أحلام البشرية. لم ولن يتكرر بهذا السمو، وبهذه النصاعة، وبهذا العمق، وبهذا الشمول. بحيث يأتي كل حدث رمزًا على جانب أو مرحلة أو مبدأ أو قيمة من قيم هذا الدين العظيم الذي نعمت به البشرية ذات يوم.

١ - سرعان ما يتبادر إلى الذهن أن مؤهلات القيادة هي الشخصية العبقرية القيادية التي تتقن فنون الحرب، وتعرف كيف تصاول العدو، وتحقق النصر إلى آخر ما يذكر في هذا الفن الذي غدا اليوم علمًا مستقلًّا بذاته. وأصبح اليوم هوس البشرية هو: كيف تكون قائدًا. وكتُبُ هذا النوع أكثر الكتب قراءة على الإطلاق إذ تعد بعشرات الملايين.

أما المؤهل الذي نلقاه في هذا النص، ولا يخطر على ذهن الكتاب المؤلفين يعتبره الإسلام المؤهل الأول؛ هو أن يكون (**رجلًا من أهل العلم والفقه**) بالإضافة إلى مؤهلاته الأخرى وخبراته الحربية. ونجد في مجتمعنا اليوم رتبة الفريق واللواء، والنياشين التي تملأ الصدر لأشخاص لم يحضروا حربًا واحدة، أو حضروها وجرعوا الأمة مرارة هزيمتها، وجعلوا من حقهم أن يحكموا أممهم بالحديد والنار طالما هم على قيد الحياة، وهذا المؤهل القيادي (من أهل العلم والفقه) يقابله مؤهل لأدنى جندي في الجيش الإسلامي أن يكون من أهل الإيمان.

---

(١) تاريخ الطبري (٥٥٧/٢ - ٥٥٩).

أن أمير المؤمنين كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان (أمَّرَ عليهم رجلًا من اهل العلم والفقه).

وتم استيفاء هذه الشروط في الجيش جندًا وقيادة في حديثنا هذا. (فاجتمع إليه جيش، فبعث عليهم سلمة بن قيس الأشجعي).

٢ - المبادئ العليا في الحرب:

كلمة كثيرًا ما نكررها: لا يمكن أن نتخلى عن الثوابت، أو المبادئ.

وقبل أن نقرأ هذه المبادئ في وصية عمر ﷺ لجيشه، نقرؤها في وصية رسول اللّٰه ﷺ لجيشه، للرواية نفسها.

(حدثني عبد اللّٰه بن هاشم (واللفظ له) حدثني عبد الرحمن - يعني ابن مهدي - حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سلمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول اللّٰه ﷺ إذا أمَّرَ أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللّٰه ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال:

١ - « اغزوا باسم اللّٰه في سبيل اللّٰه.

٢ - قاتلوا من كفر باللّٰه.

٣ - اغزوا ولا تغلُّوا.

٤ - ولا تغدروا.

٥ - ولا تمثِّلوا.

٦ - ولا تقتلوا وليدًا.

٧ - وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال. فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم.

٨ - ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم.

٩ - ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين.

١٠ - وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين.

١١ - فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين.

١٢ - يجرى عليهم حكم اللّٰه الذي يجري على المؤمنين.

١٣ - ولا يكون لهم في الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين.

١٤ - فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم.

١٦ - فإن هم أبوا فاستعن باللَّه وقاتلهم.

١٧ - وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة اللَّه وذمة نبيه. فلا تجعل لهم ذمة اللَّه ولا ذمة نبيه.

١٨ - ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك. فإنكم إن تخفروا ذممكم، وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة اللَّه وذمة رسوله.

١٩ - وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهم على حكم اللَّه، فلا تُنزلهم على حكم اللَّه.

٢٠ - ولكن أنزلهم على حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم اللَّه أم لا) [١].

وعن أبي موسى ﷺ قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره قال: « **بشروا ولا تُنفِّروا، ويسروا ولا تعسروا** » [٢].

هذه هي المبادئ العشرون التي حرص رسول اللَّه ﷺ على أن يتقيد بها أصحابه. **فهم:**

أولًا: باسم اللَّه يقاتلون لا باسم عصبية ولا حزب ولا دولة ولا قبيلة ولا أمة. إنهم لن ينطلقوا باسم القومية العربية لتحقيق المجد القومي، ولا حتى باسم رسول اللَّه ﷺ الذي قال عنه عفلق: (لقد كان محمد كلَّ العرب. فليكن كلُّ العرب محمدًا). وليس هو الرسول العربي الذي يحمل رسالة الأمة العربية إلى العالم في الوحدة والحرية والاشتراكية. « **ومن قتل تحت راية عمية، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة فقُتِل فَقتْلَةٌ جاهلية** » [٣].

ثانيًا: في سبيل اللَّه، لا في سبيل شيء من حطام هذه الدنيا أو عصبياتها. فعن أبي موسى ﷺ قال: سئل رسول اللَّه ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل اللَّه؟

فقال رسول اللَّه ﷺ: « **من قاتل لِتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه** » [٤].

---

(١) أخرجه مسلم، ح (٣، ١٧٣٠).
(٢) أخرجه مسلم، ح (٦، ١٧٣٢).
(٣) أخرجه مسلم، ح (٥٣، ١٨٤٨).
(٤) أخرجه مسلم، ح (١٥٠، ١٩٠٤).

ثالثًا: وتكون كلمة اللَّه هي العليا حين تسود العدالة في الأرض، وحين يحارب الظلم والطواغيت في كل مكان. فالقتال الشخصي دفاعًا عن المال والعرض والنفس، هو قتال لتكون كلمة اللَّه هي العليا. والقتال العام دفاعًا عن المستضعفين في الأرض الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا هو قتال لتكون كلمة اللَّه هي العليا. والقتال دفاعًا عن أرض الإسلام ودار الإسلام هو قتال لتكون كلمة اللَّه هي العليا وهو قتال في سبيل اللَّه.

والقتال لتحرير الأرض من الطغاة الذين يحولون دون وصول دين اللَّه إلى خلقه هو قتال لتكون كلمة اللَّه هي العليا.

والقتال حتى لا تكون فتنة عن دين اللَّه ليكون الدين كله للَّه هو قتال لتكون كلمة اللَّه هي العليا وهو في سبيل اللَّه.

رابعًا: وتبقى آداب الحرب ووسائلها المنبثة في هذه الفقرات العشرين هي المرجع الأول والأخير في هذا المجال، وحين نعود إلى وصية عمر ﷺ نجدها متطابقة مع هذه الفقرات.

ونجد في بعضها شرحًا لبعض هذه الفقرات (فإن أقروا في الخراج، فقاتلوا عدوهم من ورائهم وفرِّغوهم لخراجهم، ولا تكلِّفوهم فوق طاقتهم. فإن أبَوْا فقاتلوهم فإن اللَّه ناصركم عليهم.

خامسًا: الوصايا العشر ومن تمام الموضوع أن نعرض تمام هذه الآداب من خلال وصية الصديق ﷺ إلى قائده أسامة بن زيد:

(.. ثم قال: أيها الناس قِفوا أوصيكم بعشرٍ فاحفظوها عني:

١ - لا تخونوا.

٢ - ولا تُغلُّوا.

٣ - ولا تغدروا.

٤ - ولا تمثِّلوا.

٥ - ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة.

٦ - ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة.

٧ - ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة.

٨ - وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.

٩ - وسوف تقدمون على أقوام يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيء، فاذكروا اسم اللَّه عليها.

١٠ - وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب. فاخفقوهم بالسيف خفقًا.

اندفعوا باسم اللَّه، أفناكم اللَّه بالطعن والطاعون) (١).

٣ - بعث الحلية لأمير المؤمنين:

ونعود لسليمان بن بريدة عن أبيه، يغطي لنا أحداث الغزوة كاملة؛ إذ تم تنفيذ الأوامر والتعليمات بدقة تامة.

(قال سلمة: فسرنا حتى لقينا عدونا من المشركين، فدعوناهم إلى ما أمر به أمير المؤمنين فأبوا أن يسلموا. فدعوناهم إلى الخراج فأبوا أن يقروا، فقاتلناهم، فنصرنا اللَّه عليهم، فقتلنا المقاتلة، وسبينا الذرية، وجمعنا الرثة).

وجاء وقت توزيع الغنائم. (فرأى سلمة بن قيس شيئًا من حلية).

وهي موضحة في رواية أخرى (وجمعنا الرثة، فوجد فيها سلمة حقتين جوهرًا، فجعلتا في سفط).

وسلمة ﷺ يعرف أن الغلول عارٌ ونار وشنار على صاحبه يوم القيامة، ويرى أن توزيع هاتين الحقتين لن تغني عن الجيش شيئًا. ومن أجل ذلك استأذن الجيش في إرسالها إلى عمر ﷺ يتصرف فيها بما فيه مصلحة المسلمين، وعرض الفكرة وشرح أسبابها قائلًا:

(إن هذا لا يبلغ فيكم شيئًا، فتطيب أنفسكم أن نبعث به إلى أمير المؤمنين فإن له بُرُدًا ومؤونة).

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٤٦).

أي له ظروف تضطره أن يجيز صاحب البريد القادم عليه أو أن يجهزه. فتكون في بيت مال المسلمين من أجل ذلك.

وحيث إنها من حق الجيش؛ فلا بد من استئذان الجيش بذلك.

ونتساءل: من أين تعلم سلمة هذا الأمر، استئذان الجيش ليتنازل عن حقه في هذه الجواهر؟ ولا نبعد أن يكون حضر المشهد الأول في غنائم حنين، حينما أراد رسول الله ﷺ أن يرد إلى هوازن نساءهم بعد أن صاروا سبايا بأيدي المسلمين.

فأشجع حضرت منها بضع مئات في فتح مكة وغزوة حنين. والأصل أن يكون سلمة قد سمع الحوار بين رسول الله ﷺ وبين المسلمين من أجل ذلك. (.. فقال رسول الله ﷺ: « **أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم** »، فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا. فقال: « **أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. فإذا أنا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا. فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم** ». فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: « **ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم** ». وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله. وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله. قال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا... فقال رسول الله ﷺ: « **أما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم فله بكل إنسان ستُّ فرائضَ من أول شيء نصيبه** ». فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم » [1].

ولعله شهد وسمع قول رسول الله ﷺ يوم حنين: « **أيها الناس إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة** (وقد كان أخذ وبرة من سنام الجمل وجعلها بين أصبعيه ورفعها) **إلا الخمس، والخمس مردود عليكم. فأدُّوا الخياط والمخيط فإن الغُلول يكون على أهله عارًا ونارًا وشنارًا يوم القيامة** ». فجاءه رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال: يا رسول الله أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لي دَبْرٍ.

قال: « **أما نصيبي منها فلك** ».

فقال: إنه إذا بلغت هذه فلا حاجة لي بها، ثم طرحها من يده) [2].

---

(١) تاريخ الطبري (١٧٤/٢).

(٢) تاريخ الطبري (١٧٥/٢).

ومن شهد مرحلة التأسيس في هذه الجامعة مع رسول الله ﷺ غير من سمعها، وليس راءٍ كمن سمعا.

وسلمة ؓ قائد هذا الجيش (له صحبة، وله رواية عن النبي ﷺ.... وروى سعيد ابن منصور بإسناد صحيح أن عمر استعمله على بعض مغازي فارس..) [١].

ومن أجل هذا لم يأخذ سفطي الجوهر إلا بعد أن استأذن الجيش ليبعثه لأمير المؤمنين. فهو في الأصل من الغنائم وهي للمسلمين.

٤ - المجتمع الإسلامي:

(قال: ففعلت فأتيت أمير المؤمنين (والحديث لرسول سلمة) وهو يغدّي الناس متكئًا على عصاه كما يصنع الراعي، وهو يدور على القصاع، يقول: يا يرفأ زد هؤلاء لحمًا، زد هؤلاء خبزًا، زد هؤلاء مرقة.

فلما دفعت إليه قال: اجلس فجلست في أدنى الناس، فإذا طعام فيه خشونة، طعامي الذي معي أطيب منه، فلما فرغ الناس من قصاعهم. قال: يا يرفأ ارفع قصاعك، ثم أدبر).

إنه مجتمع يقوم فيه الخليفة بإطعام الناس بإشرافه وبيده، وهو الذي يوزع الطعام.. (زد هؤلاء لحمًا، زد هؤلاء خبزًا، زد هؤلاء مرقة).

وتكفي الصورة التليفزيونية، وهي تنقل لنا الآكلين، والمطعم والسفرة. وفي هذا غِنًى عن أي تعليق.

٥ - أمير المؤمنين، وما هو طعام أمير المؤمنين؟

حيث نتابع اللقطة التصويرية الجديدة.

أ - **البيت:** فدخل دارًا ثم دخل حجرة.

ب - **غرفة الاستقبال:** فإذا هو جالس على مسح [٢] متكئ على وسادتين من أدم [٣] محشوتين ليفًا.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ت (٣٦٢٩).

(٢) بساط مغزول من شعر الماعز.

(٣) أدم: جلد.

جـ - استقبال الضيوف:

فنبذ إليَّ بإحداهما، فجلست عليها.

د - غرف النوم:

وإذا بهو في صُفَّة فيها بيت عليه ستير.

هـ - غداء أمير المؤمنين:

يا أم كلثوم غداءنا؟

فأخرجت إليه خبزة بزيت، في عرضها ملح لم يُدَّق.

و - الجلوس إلى الضيوف:

يا أم كلثوم ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا؟

قالت: إني أسمع عندك حس رجل.

قال: نعم ولا أراه من أهل البلد.

ز - احتجاج زوجة أمير المؤمنين:

قالت: لو أردتَ أن أخرج إلى الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته. وكما كسا الزبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته.

ح - دفاع أمير المؤمنين:

أو ما يكفيك أن يقال: أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة عمر أمير المؤمنين؟

قالت: إن هذا عندي لقليل الغَناء.

ط - تجاهل طلبات الكسوة:

قال: كُلْ فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا.

ي - تأفف الجندي من طعام أمير المؤمنين:

قال: كل، فأكلت قليلًا، وطعامي الذي معي أطيب منه.

ك - أدب أمير المؤمنين في الطعام:

وأكل، فما رأيت أحدًا أحسن أكلًا منه، وما يتلبس طعامه بيده، ولا فمه.

ل – شراب أمير المؤمنين:

ثم قال: اسقونا:

فجاؤوا بِعُسّ من سلت [١].

ثم قال: اشرب، فشربتُ قليلًا، سويقي الذي معي أطيب منه.

ثم أخذه فشربه حتى قرعَ القدَحُ جبهتَه، وقال: الحمد للّٰه الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا.

فلقد حرص أمير المؤمنين على أن يشعر ضيفه أن هذا هو الطعام الذي عنده، هو نفس طعام أهل بيته؛ ولذلك دعا أم كلثوم رضي الله عنها لتشاركه في الطعام.

٦ – ولا بد من فاصل للحديث عن زوج عمر رضي الله عنها أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب:

قال المدائني: وكان قد خطب أم كلثوم ابنة أبي بكر الصديق وهي صغيرة وراسل فيها عائشة فقالت أم كلثوم: لا حاجة لي فيه. فقالت عائشة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟

قالت: نعم، إنه خشن العيش. فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فصدَّه عنها ودله على أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، ومن فاطمة بنت رسول اللّٰه ﷺ... [٢] أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ولدت قبل وفاة النبي ﷺ...

وقال ابن أبي عمر المقدسي.. عن محمد بن علي أن عمر بن الخطاب خطب إلى علي ابنته أم كلثوم، فَذَكَرَ له صِغرها، فقيل له: إنه ردَّك، فعاوده. فقال له علي: أَبعَثُ بها إليك، فإن رضيتَ فهي امرأتك.

فأرسل بها إليه، فكشف عن ساقها، فقالت: مه لولا أنك أمير المؤمنين للطمت عينيك.

وقال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده:

تزوج عمر أم كلثوم على مهرٍ أربعين ألفًا..) [٣].

(وذكر ابن سعد عن أنس بن عياض عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر ابن الخطاب خطب أم كلثوم إلى علي. فقال: إنما حبست بناتي على بني جعفر.

---

(١) بعسٍ من سلت: بقدح فيه شراب شعير.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (م٣، ج٧، ص ١٤٤).

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (١٢٩٠١).

فقال: زوجنيها، فما أحد على ظهر الأرض أرصد من كرامتها ما أرصُد.

قال: قد فعلتُ.

فجاء عمر إلى المهاجرين. فقال رفئوني، فرفؤوه.

فقالوا: ممن تزوجت؟

قال: بنت علي بن أبي طالب.

إن النبي ﷺ قال: « **كل نسب وسبب سيقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي** »[1]. وكنت قد صاهرت فأحببت هذا أيضًا.

ومن طريق عطاء الخراساني أن عمر أمهرها أربعين ألفًا. وأخرج بسند صحيح أن ابن عمر صلى على أم كلثوم وابنها زيد. فجعله مما يليه. وكبر أربعًا. وساق بسند آخر أن سعد بن العاص هو الذي صلى عليهما..

وقال الزبير: (ولدت لعمر ابنيه زيدًا ورقية. وماتت وابنها زيد في يوم واحد)[2].

٧ - وبعد أن تغيرت المحطة قليلًا نعود إلى المسلسل السابق: مسلسل رسول سلمة:

أ - الوضع العسكري للأمة:

(قال: قلت قد أكل أمير المؤمنين فشبع، وشرب فروي. حاجتي يا أمير المؤمنين.

قال: وما حاجتك؟ قلت: أنا رسول سلمة بن قيس.

قال: مرحبًا بسلمة بن قيس ورسوله - وكأنما خرجتَ من صلبه - حدثني عن المهاجرين.

(قلت: يا أمير المؤمنين على ما تحب من السلامة والظفر على عدوهم).

ب - الوضع الاقتصادي:

قال: كيف أسعارهم؟

قلت: أرخص أسعار.

قال: كيف اللحم فيهم، فإنها شجرة العرب، ولا تصلح العرب إلا بها.

---

(١) مستدرك الحاكم، ح (٤٦٨٤).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ت (١٢٩٠١).

قلت: البقرة بكذا، والشاة بكذا يا أمير المؤمنين.

٨ – هدية أمير المؤمنين:

وكان لا بد من مقدمة لهذه الهدية حتى يقبلها عمر ﷺ.

أ – فقال رسول سلمة:

(سرنا حتى لقينا عدونا من المشركين فدعوناهم إلى ما أمرتنا به من الإسلام فأبوا، فدعوناهم إلى الخراج فأبوا، فقاتلناهم فنصرَنا اللَّه عليهم، فقتلنا المقاتلة، وسبينا الذرية، وجمعنا الرثة.

فرأى سلمة في الرثة حِلية، فقال للناس: إن هذا لا يبلغ فيكم شيئًا، فتطيب أنفسكم أن أبعث به إلى أمير المؤمنين؟ فقالوا: نعم، فاستخرجت سفطي).

ب – الشاشة تكاد تحترق.

(فلما نظر إلى تلك الفصوص من بين أحمر وأصفر وأخضر وثب ثم جعل يده على خاصرته وقال: إذن لا أشبع اللَّه بطن عمر).

جـ – النساء يكشفن الستر ويخَفْنَ على عمر من الغِيلة:

(وظن النساء أني قد اغتلته، فكشفْنَ الستر.

وقال: يا يرفأ جَأْ عنقه).

د – عقوبة رسول سلمة الذي حمل سفط الجواهر لعمر:

(فوجأ عنقي وأنا أصيح، فأنا أصلح سفطي وهو يجأ عنقي، وقال: النجاء، وأظنك ستبطئ).

هـ – ترحيله من المدينة بالقوة، وطلبه الراحلة:

فقلت: يا أمير المؤمنين، أُبْدِع بي فاحملني.

قال: يا يرفأ أعطه راحلتين من إبل الصدقة، فإذا لقيت من هو أفقر إليهما منك فادفعهما إليه. قلت: أفعل يا أمير المؤمنين.

و - الإنذار الأول والأخير:

فقال: أما واللَّه لئن تفرق المسلمون في مشاتيهم قبل أن يُقسَّم هذا فيهم، لَأفعلَنَّ بك وبأميرك الفاقرة [١].

ما ندري نحن في عصر الإبل أم في عصر الطائرات، فلا بد أن يصل الرسول والجوهر قبل تفرق المسلمين، وإلّا فستنزلنّ الكارثة بالأمير سلمة وبرسوله.

فأمير المسلمين لا يرضى أن يأخذ الهدية شاكرًا ومقدرًا للجيش الإسلامي على تنازله عن حقه للأمير، ولا يرضى أن يحتفظ بالهدية في بيت مال المسلمين للنوائب وللأزمات، ولا يقبل أن يعيدها لسلمة ليتصرف فيها بحكمته.

ولا يرضى إلّا أن تصل إلى الأمير ليأخذ كلٌّ جندي حقه من هذه الجواهر، من أكبر ضابط فيه إلى أصغر جندي فيه، بلا استثناء.

٩ - وعادت الأمانة لأصحابها ومستحقيها:

(قال: فارتحلت حتى أتيت سلمة فقلتُ: ما بارك اللَّه لي فيما اختصصتني به. اقسم هذا في الناس قبل أن تصيبني وإياك فاقرة.

١٠ - اللقطة الأخيرة.. هدية أمير المؤمنين بين الجند:

وتقف آلة التصوير على سفط الجوهر هذا، وقد قامت سوق البيع والشراء في أعدل حادثة في التاريخ.

(فقسمه فيهم، والفص يباع بخمسة دراهم وستة دراهم وهو خير من عشرين ألفا).

إنه شريط فيديو كامل، وعرض أمين للأمة، والحاكم، والجند في السوق، وفي المطعم، وفي بيوت الحاكم، وعند أهله.

وحقًّا إنهم خير أمة أخرجت للناس.

* * *

---

(١) بلغ من إعجابي بهذه القصة أن أخرجتها مسرحية مُثِّلت في عرس كبير في التل بسورية، ولما أُناهِزِ العشرين من عمري (المؤلف).



الفصل التاسع

كسر الباب: ذكر الخبر عن مقتل عمر بن الخطاب

رواية الطبري عن مقتل عمر ﷺ روايةٌ مقبولة تاريخيًا حين تنفرد بين روايات أخرى أضعف منها. لكننا عندما نجد رواية واردة في صحيح البخاري، عن مقتل عمر ﷺ، نضرب صفحًا عن الروايات الأخرى إلا استئناسًا ببعض الفقرات التي لم ترد في رواية البخاري ﷺ. وها نحن الآن مع رواية البخاري.

١ - (حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة عن حصين عن عمرو ابن ميمون قال: رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بأيام في المدينة وقف على حذيفة بن اليمان، وعثمان بن حنيف قال: كيف فعلتما؟ أتخافان أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق؟

قالا: حمَّلْناها أمرًا هي له مطيقة. ما فيها كبير فضل.

قال: انظرا أن تكونا حمّلتما الأرض ما لا تطيق.

قالا: لا.

٢ - فقال عمر: لئن سلمني اللّٰه لأدعن أرامل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبدًا.

قال: فما أتت عليه رابعة حتى أصيب.

٣ - قال: إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد اللّٰه بن عباس غداة أصيب. وكان إذا مرّ بين الصفّين، قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهن خللًا، تقدم فكبر، فربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس.

فما هو إلا أن كَبَّر فسمعته يقول: قتلني - أو أكلني - الكلب، حينَ طعنه، فطار العِلْجُ بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يمينًا أو شمالًا إلا طعنه، حتى طعن ثلاثةَ عشرَ رجلًا مات منهم سبعة. فلما رأى ذلك رجلٌ من المسلمين، طرح عليه برنسًا، فلما ظن العِلج أنه مأخوذ نحر نفسه.

وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف، فقدَّمَه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي

أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون، لكنهم افتقدوا صوت عمر، وهم يقولون سبحان اللَّه، سبحان اللَّه. فصلى بهم عبد الرحمن صلاةً خفيفة.

فلما انصرفوا. قال: يا ابن عباس، انظر من قتلني.

فجال ساعة ثم جاء. فقال: غلام المغيرة. قال: الصُّنَّع. قال: نعم. قال: قاتله اللَّه لقد أمرت به معروفًا. الحمد للَّه الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام. قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تَكثُر العلوج في المدينة - وكان العباس أكثرهم رقيقًا -.

فقال: إن شئت فعلت. أي: إن شئت قتلنا. قال: كذبت [1] بعد ما تكلموا بلسانكم، وصلوا قبلتكم، وحجوا حجكم.

٤ - فاحتُمِل إلي بيته، فانطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ. فقائل يقول: لا بأس. وقائل يقول: أخاف عليه. فأُتي بنبيذ فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت. فدخلنا عليه، وجاء الناس، فجعلوا يثنون عليه.

وجاءه رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى اللَّه لك؛ من صُحبة رسول اللَّه ﷺ، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وُلِّيت فعدلْتَ ثم شهادة.

قال: وددت أن ذلك كفافٌ لا عَلَيَّ ولا لي.

فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض. قال: ردوا عليَّ الغلام، قال: يا ابن أخي، ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لربك.

٥ - يا عبد اللَّه بن عمر، انظر ما عليَّ من الدين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه.

قال: إن وفَّى له مال آل عمر، فأدِّه من أموالهم. وإلا فسَلْ في بني عدي بن كعب، فإن لم تَفِ أموالُهم. فسَلْ في قريش، ولا تعدهم إلى غيرهم، فأدِّ عني هذا المال.

٦ - انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمرُ السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني اليوم لستُ للمؤمنين أميرًا، وقل: يستأذن عمر أن يدفن مع صاحبيه. فسلم واستأذن، فوجدها قاعدة تبكي. فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه.

---

(١) كذبت: هنا بمعنى أخطأت.

فقالت: كنت أريده لنفسي ولأوثرن به اليوم على نفسي.

فلما أقبل: قيل: هذا عبد اللّٰه بن عمر قد جاء. قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك؟

قال: الذي تُحِبّ يا أمير المؤمنين، أَذِنَتْ.

قال: الحمد للّٰه. ما كان شيء أهم إلي من ذلك. فإذا أنا قضيت فاحملوني ثم سلِّمْ فقل يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنتْ لي فأدخلوني، وإن رَدّتني ردوني إلى مقابر المسلمين.

٧ - وجاءت أم المؤمنين حفصة، والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه فبكتْ واستأذن الرجال. فَولَجَتْ داخلًا لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل.

٨ - فقالوا: أوْصِ يا أمير المؤمنين، استخلف. فقال: ما أجد أحدًا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر - أو الرهط - الذين توفي رسول اللّٰه ﷺ وهو عنهم راضٍ.

فَسَمَّى عليًّا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن. وقال: يشهدكم عبد اللّٰه بن عمر، وليس له من الأمر شيء - كهيئة التعزية له - فإن أصابت الإمرة سعدًا فهو ذاك، وإلا فليستعِن به أيّكم ما أُمِّر، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة.

٩ - وقال: أُوصي الخليفة من بعدي:

- بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم.

- وأوصيه بالأنصار خيرًا الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم، أن يُقبل من محسنهم، وأن يُعفى عن مسيئهم.

- وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا، فإنهم ردء الإسلام، وغيظ العدو، وجباة المال.

- وأوصيه بالأعراب خيرًا فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، أن يؤخذ من حواشي أموالهم، ويرد على فقرائهم.

- وأوصيه بذمة اللّٰه تعالى، وذمة رسول اللّٰه ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم.

١٠ - فلما قبض خرجنا به، فانطلقنا نمشي، فسلَّم عبد اللّٰه بن عمر قال: يستأذن عمر بن الخطاب. قالت: أدخلوه. فوضع هنالك مع صاحبيه.

١١ - فلما فُرِغ من دفنه، اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم. فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي. وقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان. وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن ابن عوف.

١٢ - فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه، واللَّه عليه والإسلام، لينظرن أفضلهم في نفسه. فأسكت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلي. واللَّهَ علي لا آلو عن أفضلكم، قالا: نعم.

فأخذ بيد أحدهما فقال: لك قرابة من رسول اللَّه ﷺ، ما قد علمت. فاللَّه عليك لئن أمَّرْتك لتعدلن، ولئن أمَّرتُ عثمان لتسمعن وتُطيعن. ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك. فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان فبايعه، فبايع له علي، وولج أهل الدار فبايعوه) [1].

المقدمات

١ - نقطة التحول التاريخية:

(.. قال: حدثني شفيق، قال: سمعت حذيفة قال: كنا جلوسًا عند عمر رضي الله عنه. فقال: أيكم يحفظ قول رسول اللَّه ﷺ في الفتنة، قلت: أنا. قال: إنك لجريء.

قلت: فتنة الرجل في أهله وولده وماله وجاره، تكفرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي.

قال: ليس هذا أريد. ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر.

قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا.

قال: أيكسر الباب أم يفتح.

قال: يكسر.

قال: إذن لا يغلق أبدًا.

قلنا: أكان عمر يعلم الباب؟

---

(١) أخرجه البخاري، ح (٣٧٠٠).

قال: نعم كما أن دون الغد الليلة. إني حدثته بحديث ليس بالأغاليط.

فهِبنا أن نسأل حذيفة، فأمَرْنا مسروقًا فسأله.

فقال: الباب عمر) [١].

وفي رواية: (فسأله: فقال: عمر.

قال: قلنا: أعلِمَ عمرُ من تعني؟

قال: نعم كما أن دونَ غدٍ الليلة. وذلك أني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط) [٢].

وفي رواية مسلم (قال حذيفة: وحدثته أن بينك وبينها بابًا مغلقًا يوشك أن يُكسر.

قال عمر: أكسرًا، لا أبالك فلو أنه فُتِحَ لكان يُعَاد.

قلت: لا، بل يكسر.

وحدثته أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت، حديثًا ليس بالأغاليط..) [٣].

فإذن نحن أمام مرحلة جديدة من مرحلة التاريخ الإسلامي، والتي ابتدأت بالنبوة وانتهت بمقتل عمر ﷺ. فالمرحلة الذهبية من تاريخ البشرية هي المرحلة التي سبق وذكرناها منذ النبوة حتى استشهاد الفاروق. حيث كان عمر ﷺ هو الباب الذي يحول دون الفتن، وباستشهاده كسر الباب، وبدأت الفتن تتسلل إلى الأمة التي أخرجت للناس، إلى الأمة القوامة على البشرية. فمنذ الآن وصاعدًا سنجد ذلك المشعل الوقاد الذي يضيء للبشرية طريقها، قد تؤثر فيه الريح أحيانًا. ولكن ذلك الأمر لن يأتي فجأة، إنما يأتي بالتدرج كما فُتح سد يأجوج ومأجوج. « **ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا** » وحلَّق بإصبعيه، الإبهام والتي تليها.

فقالت زينب: فقلت: يا رسول اللَّه. أنهلك وفينا الصالحون.

قال: « **نعم، إذا كثر الخبث** » [٤].

ولعل هذه الفتن لا تنقطع أبدًا، لكن تنال من الناس على قدر دينهم. كما رأينا في الحديث الذي رواه مسلم. وهو الحديث السابق.

---

(١) أخرجه البخاري، ح (٥٢٥). (٢) أخرجه البخاري، ح (١٤٣٥).

(٣) أخرجه مسلم، ح (٢٣١، ١٤٤).

(٤) أخرجه البخاري، ح (٣٥٩٨)، ومسلم، ح (٢٨٨٠).

قال حذيفة: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلْبٍ أُشربها نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداء، وأي قلب أنكرها نُكتَ فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين..**

- **على أبيضَ مثلِ الصفا فلا تضره فتنة ما دامتِ السمواتُ والأرض.**

- **والآخر أسود مربادًا** [١] **كالكوز مجخِّيًا** [٢] **لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرِبَ من هواه...** » [٣].

ومن أجل هذا سنرى الصفحة البيضاء في مجتمع القدوة خلال الجولة الثانية من عهد الخلافة الراشدة فيه كثير من النقاط السوداء التي لا تأتلف مع المستوى الأعلى لقمة البشرية.

ومرّ المسلمون بأكبر فتنتين في هذا الجيل العظيم هما مقتل عثمان ﷺ، وحروب الجمل وصفين التي سنعيش معها في الأجزاء القادمة.

٢ - (وقال سعيد بن المسيب: إن عمر لما نفر من منى أناخ بالأبطح. ثم كوّم كومة من بطحاء واستلقى ورفع يديه إلى السماء ثم قال: اللَّهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيِّع ولا مفرِّط.

فما انسلخ ذو الحجة حتى طعن فمات) [٤].

هذه الكلمة الخالدة لأحد عباقرة التاريخ، والذي يعتبر المؤسس الأكبر للدولة الإسلامية يقول وهو في الثالثة والستين من عمره هذه المقولة: كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك.

فإذن نحن أمام جيل من الشباب قاد العالم وغيره وهو في الستينيات من عمره.

محمد ﷺ.

أبو بكر الصديق.

عمر بن الخطاب.

علي بن أبي طالب.

---

(١) أسود مربادًا: شدة البياض في سواد.

(٢) مُجخِّيًا، أي: مقلوبا منكوسًا.

(٣) أخرجه مسلم، ح (٢٣١، ١٤٤).

(٤) تاريخ دمشق (٣٩٦/٤٤).

صحيح أن الإسلام لم يحدد عمرًا للخلافة العظمى فعثمان ﷺ استشهد في الثمانينيات من عمره، لكن هذه الأمة الفتية قد بنيت بأيدي الشباب. وكان الباب مفتوحًا لتداول السلطات، ولاستلام الخلف من السلف، ولفتح الطريق أمام الأجيال الشابة لتمارس مسؤولياتها، وتحقق إبداعاتها، وتبرز مواهبها، وتفجر طاقاتها.

فالشيخان؛ شيخا المسلمين أبو بكر وعمر سادة هذه الأمة إلى يوم القيامة وساداتها في الجنة، وخير هذه الأمة بعد نبيها، كانت وفاتهما في الثالثة والستين من العمر. وعلى حساب أعمارنا على التقويم الشمسي في الستين من العمر. والفاروق ﷺ رأس السلطة التنفيذية يرى أن هذا الحد من العمر، « الستين » يبتدئ بعده التفريط والضياع. ولم تعد الطاقات كما كانت عليه من قبل.

إنها وجهة نظر ما أحوج الحركة الإسلامية الكبرى أن تصيخ إليها.

٣ - (قال أبو صالح السمان: قال كعب لعمر: أجدك في التوراة تقتل شهيدًا. قال: وأنَّى لي الشهادة وأنا بجزيرة العرب؟

وقال أسلمُ: عن عمر أنه قال: اللَّهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك [(١)].

يا لعظمة هذا الدين، ويا لعظمة هذه الرسالة؛ أن يحمل كتاب اللَّه تعالى وصف النبي الأمي الخاتم، ووصف خلفائه من بعده، ويبشر البشرية بقدومهم، ويصف الأمة الوارثة وصفًا مسهبًا، وذلك قبل ما ينوف عن عشرة قرون. فيتحقق حلم البشرية بهذه الأمة الراشدة.

وكما في الرواية الأخرى إذ يقول عمَرُ لكعبٍ ﷺ: آلله إنك لتجد عمر ابن الخطاب في التوراة؟

قال: اللَّهم لا. ولكني أجد صفتك وحليتك، وأنه قد فني أجلك) [(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري، ح (١٨٩٠).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٥٦٠). لكن الذي استوقفنا في متن الرواية هو تحديد مقتله باليوم وقول كعب: أوص فإنك ميت بعد ثلاث. فجميع الروايات تؤكد الوصف، لكن انفراد هذه الرواية بهذا التحديد جعلنا نضرب عنها. وسندها ضعيف حديثيًا، ولكنها مقبولة تاريخيًا. لكن منهجنا أن لا نأخذ بها حين تكون هناك روايات أصح منها، ومقبولة حديثيًا وتاريخيًا.

ولو بحثنا في الروايات الأخرى لوجدنا هذا الوصف وهذه الحلية في رواية عن عمرو بن العاص ﷺ.

(فقلت: هذا الذي ولينا من بعده تجدونه في كتابكم؟

قال: يعمل بعمل صاحبه اليسير ثم يموت.

قلت: ثم ماذا؟

قال: يليكم قرن الحديد فيملأ مشارق الأرض ومغاربها قسطًا وعدلًا، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم.

قلت: ثم ماذا؟

قال: يقتل؟!

قلت: يقتل؟!

قال: إي واللَّه يقتل.

قلت: عن ملإٍ أو غيلة؟

قال: بل غيلة.

فكانت أهون علي.

قلت: ثم ماذا؟

وانقطع كتاب الشيخ)[1].

وعندما أخبر كعب الأحبار أنه يجد في كتاب اللَّه التوراة أنه يموت شهيدًا، تعجب من ذلك. وقال: وأنَّى لي بالشهادة وأنا بجزيرة العرب. لكنه يعلم أن اللَّه على كل شيء قدير فراح يدعو قبيل وفاته بأيام: « **اللَّهم ارزقني شهادة في سبيلك، وموتًا في بلد رسولك** »[2] وكان هذا بعد نفيره من منى في آخر حجة حجها.

كم انتظرت البشرية طويلًا حتى جاءها عمر، قرن الحديد، الذي ملأ مشارق الأرض ومغارِبها قسطًا وعدلًا، والذي لا تأخذه في اللَّه لومة لائم!!

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٠٧/١٣ - ٥٠٩).

(٢) سبق تخريجه قريبا.

٤ - (وقال معدان بن أبي طلحة اليعمري:

خطب عمر يوم جمعة، وذكر نبي اللَّه وأبا بكر، ثم قال:

رأيت كأن ديكًا نقرني نقرة أو نقرتين، وإني لا أراه إلى حضور أجلي. وإن قومًا يأمرونني أن استخلف، وإن اللَّه لم يكن ليضَيِّع دينه ولا خلافته، فإن عجل بي أمر، فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة، الذين توفي رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راضٍ) [1].

لقد كان أكثر ما يقلقه بعد وفاته هو أمر هذه الأمة؛ ولذلك أعلن هذا الإعلان على الأمة أن الخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفي رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راضٍ، ورفض أن يوليها لشخص بعينه. وكأنه يتوقع أن الاغتيال قد ينزل به، فلا بد من أن يطمئن إلى أمر هذه الأمة بعد وفاته، فوضعها في عنق هؤلاء الستة.

الاغتيال

قال البلاذري: (حدثني محمد بن سعد [2]، حدثنا يعقوب [3] بن إبراهيم [4] بن سعد الزهري عن أبيه عن صالح بن كيسان [5] عن الزهري قال: كان عمر لا يأذن لسبي قد احتلم في دخول المدينة، حتى كتب المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يذكر غلامًا عنده صانِعًا ويستأذنه أن يدخل المدينة ويقول: إن عنده أعمالًا كثيرة فيها منافع للناس، إنه حداد نقاش نجار، فأذن له أن يرسل به وضرب عليه المغيرة مائة درهم في الشهر.

فجاء إلى عمر يشتكي شدة الخراج. قال: ما خراجك بكثير، فانصرف ساخطًا يتذمر.

فلبث عمر ليالي، ثم إن العبد مر به فدعاه فقال: ألم أُحَدَّث أنك تقول: لو أشاء لصنعت رحًى تطحن بالريح؟ فالتفت إلى عمر عابسًا وقال: لأصنعَنَّ لك رحًى يتحدث الناس بها في المشرق والمغرب.

فلما ولَّى قال عمر لأصحابه: أوعدني العبد آنفًا.

---

(١) سير أعلام النبلاء: الخلفاء الراشدون للذهبي (ص ٨٩).

(٢) محمد بن سعد: صدوق فاضل.

(٣) يعقوب بن إبراهيم. ثقة فاضل.

(٤) إبراهيم بن سعد: ثقة.

(٥) صالح بن كيسان. ثقة، ثبت، فقيه. الزهري: ثقة إمام.

ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خنجر ذي رأسين، نصابه في وسطه. فكمن في زاوية من زوايا المسجد في الغلس، فلم يزل هنالك حتى خرج عمر ﷺ يوقظ الناس لصلاة الصبح، وكان عمر يفعل ذلك. فلما دنا عمر منه، وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة فخرقت الصفاق، وهي التي قتلته، ثم أغار على أهل المسجد فطعن من يليه، حتى طعن سوى عمر أحدَ عشَر رجلًا، ثم انتحر بخنجره. فقال عمر حين أدركه النزف، وانقصف الناس عنه: قولوا لعبد الرحمن بن عوف فليصلِّ بالناس، ثم غلب عمر النزف حتى غشي عليه.

قال ابن عباس: فاحتملته في رهط حتى أدخلته، ثم صلى للناس عبد الرحمن فأنكر الناس صوت عبد الرحمن.

قال ابن عباس: فلم أزل عند عمر، ولم يزل في غشية واحدة حتى أسفر الصبح. ثم أفاق فنظر إلى وجوهنا ثم قال: أصلّى الناس؟ قلت: نعم. قال: لا إسلام لمن ترك الصلاة.

ثم دعا بِوَضوء فتوضأ ثم قال: اخرج يا عبد اللّه، فَسَلْ من قتلني.

قال: فخرجت حتى فتحت باب الدار، فإذا الناس مجتمعون جاهلون بخبر عمر. فقلت: من طعن أمير المؤمنين؟ قالوا: طعنه عدو اللّه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، ثم طعن معه رهطًا، ثم قتل نفسه.

فأخبرت عمر فقال: الحمد للّه الذي لم يجعل قاتلي يحاجُّني عند اللّه بسجدة سجدها له قط. ما كانت العرب لتقتلني.

قال سالم: فسمعت عبد اللّه بن عمر يقول: قال عمر: أرسلوا إلى الطبيب ينظر في جرحي هذا. فأرسلوا إلى طبيبٍ من العرب فسقاه نبيذًا، فشبه النبيذ بالدم حين خرج من الطعنة التي تحت السرة. قال: فدعوت طبيبًا آخر من الأنصار، فسقاه لبنًا، فخرج من الطعنة أبيض. فقال الطبيب: يا أمير المؤمنين اعهد. قال عمر: صدقني أخو بني معاوية. ولو قلت غير ذلك كذَّبتك.

قال: فبكى القوم حين سمعوا قوله. فقال: لا تبكوا علينا ألم تسمعوا قول رسول اللّه ﷺ: « **يعذب الميت ببكاء أهله عليه** ». فبلغ عائشة – رضي اللّه تعالى عنها – قوله فقالت: إنما مر رسول اللّه ﷺ على نُوَّح يبكين على هالك، فقال: « **إن**

هؤلاء يكون، وصاحبهم يعذب وكأن قد اجترم ذلك » [1].

٥ - (وكان عمر لا يأذن لسبي قد احتلم في دخول المدينة..).

فهو يخشى من اختلاطهم مع المسلمين في المدينة عاصمة الإسلام والمسلمين، وقد بدا منهم البغضاء، وما تخفي صدورهم أكبر، وهذا أبو لؤلؤة نفسه (.. كان خبيثًا إذا نظر إلى السبي الصغار مسح رؤوسهم وبكى وقال: إن العرب أكلت كبدي....

قالوا: وكان أبو لؤلؤة من سبي نهاوند) [2].

وهو يخشى ﷺ من جهة ثانية من لكنتهم الأعجمية أن تدخل وتتدسس إلى العربية الفصحى لدى المهاجرين والأنصار وأولادهم.

وهو يخشى من جهة ثالثة من عقائدهم الفاسدة أن تتسلل إلى هذه المدرسة النبوية، فتثير بعض الشبه في نفوس الناشئة.

٦ - غير أن مصلحة الأمة العامة في الاستفادة من الطاقات مهما كان صاحبها لتحقيق المنافع للناس رجحت لديه في قبول استقدام أبي لؤلؤة الفارسي الذي..

(عنده أعمال كثيرة فيها منافع للناس).

والأمة كلها في حالة تحوُّل لترث الأرض كلها. والخطوة الأولى هي الاستفادة من الصناعات عند الأمم الأخرى لتنتقل هذه المهن إلى الأمة المسلمة. أو تحول الأمم الأخرى إلى الإسلام، فهو (حداد نقاش نجار).

والبناء يحتاج إلى هذه المهن جميعًا، والأخذ بها على بصيرة ووعي لا على إعجاب وتبعية.

٧ - لكن الأهم من هذا كله، والمقدم على هذا كله، هو العدل الذي تقوم به السموات والأرض، وأبو لؤلؤة يرى أنه مظلوم من سيده المغيرة الذي فرض عليه مائة درهم في الشهر، مع أنه يجني مائة درهم في اليوم على ما يقوم به من أعمال.

(فانصرف ساخطًا يتذمر).

ولكن أمر أبي لؤلؤة أكبر من دريهمات تؤخذ منه إلى سيده. إنه أمر حقد الكفر كله

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (٤٢٢/١٠ - ٤٢٤).

(٢) المصدر نفسه (٤٢٤/١٠، ٤٢٥).

على الإيمان كله. إنه ينتقم لإمبراطورية مجوسية زالت لصالح دولة الإسلام في الأرض.

٨ - وأدرك أمير المؤمنين ﷺ الأحقاد الدفينة لدى أبي لؤلؤة من خلال حديثه معه.

(فلبث عمر ليالي، ثم إن العبد مر به فدعاه فقال له: ألم أُحَدَّث أنك تقول لو أشاء لصنعت رحًى تطحن بالريح؟

فالتفت العبد إلى عمر ساخطًا عابسًا. وكان مع عمر رهط. فقال: لأصنع لك رحًى تتحدث الناس في المشرق والمغرب بها. فلما ولى العبد أقبل عمر على الرهط الذين كانوا معه فقال لهم: أوعدني العبد آنفًا).

وهذا هو العدل الذي لم تشهد البشرية مثيلًا له في التاريخ. لقد تأكد لعمر أمير المؤمنين أن العبد توعده، وأنه يهدده شخصيًّا بالقتل.

ويؤكد هذا المعنى الرواية الثانية (فقال: يا أمير المؤمنين إن سيدي المغيرة يكلفني من الضريبة ما لا أطيق. فقال عمر: وكم كلفك، قال: أربعة دراهم في كل يوم. قال: وما تعمل، قال: الأرحية وسكت عن سائر أعماله. قال: في كَمْ تعمل الرحى؟ فأخبره. قال: وبكم تبيعها، فأخبره. فقال عمر: لقد كلفك يسيرًا، انطلِقْ فأعْطِ مولاك ما سألك. فلما ولَّى قال عمر: ألا تعمل لنا رحًى؟

قال: بل أعمل لك رحًى يتحدث بها أهل الأمصار.

ففزع عمر من كلمته، وقال لعلي، وكان معه: ما تراه أراد؟

قال: أوْعَدك يا أمير المؤمنين.

قال عمر: يكفيناه اللَّه. قد ظننت أنه يريد بكلمته غورًا [1]) [2].

وفي الرواية الثالثة:

(وقال عامر بن عبد اللَّه بن الزبير عن أبيه قال: جئت من السوق وعمر يتوكأ علي، فمر بنا أبو لؤلؤة، فنظر إلى عمر نظرة ظننت أنه لولا مكاني بطش به. فجئت بعد ذلك إلى المسجد الفجر، فإني لبين النائم واليقظان إذ سمعت عمر يقول: قتلني الكلب، فماج الناس ساعة ثم إذا قراءة عبد الرحمن بن عوف) [3].

---

(١) أي أنه يقصد بكلمته معنى بعيدا.

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٤٢٥).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (٣/٢٧٧).

فمن كان مع أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب، وعبد اللَّه بن الزبير، أجمعوا على أن العبد قد توعد أمير المؤمنين، وهو يريد أن يبطش به.

ويأتينا سؤال هنا يملأ الفم، تسأله الأجيال كلها، وتسأله البشرية كلها.

لِمَ لَمْ يُعتقلْ غلامُ المغيرة، من باب الحجز الاحتياطي، ويحقق معه، وينال عقوبته؟

والجواب: لأنه الإسلام، وعدالة الإسلام، وعظمة الإسلام التي لا تعتقل على الظنة ولو للتحقيق، ولو كان عبدًا لا نصير له في الأرض. وثلاثة من القادة الكبار شهدوا هذا الوعيد.. لكنه ظَنٌّ، والكلمة تحتمل التأويل، ولا ينقب على القلوب، فلا سلطان إلا لهذا الدين، وهو فوق سلطان الأرض: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ... ﴾ [الحجرات: ١٢]. وهكذا يُتْرَكُ العبد يمشي على الأرض، حرًّا آمنًا، لا يمسه أحدٌ بسوء ولا كلمة. طالما أن التهديد لم يكن صريحًا ليحاسب عليه.

وحتى ندرك الفرق بين التصرف المسؤول لأمير المؤمنين واثنين من نوابه، عبد اللَّه ابن الزبير وعلي، وبين التصرف الطائش الذي يستمد قوته من الأرض لا من السماء. نقارن بين هذا الموقف وموقف عُبيد اللَّه بن عمر عندما سمع شبهة حول اشتراك ملإ بقتل أبيه، وكان عمر وقاتله قد تُوُفِّيا.

(حدثني أحمد [١] بن إبراهيم الدورقي، حدثنا وَهْب [٢] بن جرير بن حازم، حدثنا جرير [٣] بن حازم قال: سمعت يعلَى [٤] بن حكيم يحدث عن نافع [٥] قال: رأى عبد الرحمن بن عوف السكين الذي قُتل به عمر فقال: رأيت هذا السكين أمس مع الهرمزان وجفينة فقلت: ما تصنعان بهذا السكين؟

فقالا: نقطع به اللحم فإنا لا نمس اللحم.

فقال له عُبيد اللَّه بن عمر: أنت رأيتهما معهما؟

قال: نعم.

فأخذ عبيد اللَّه سيفه ثم أتاهما فقتلهما.

---

(١) ثقة حافظ. (٢) ثقة.

(٣) ثقة، لكن في حديثه عن قتادة ضعف وله أوهام. (٤) ثقة.

(٥) ثقة ثبت فقيه مشهور.

فأرسل إليه عثمان: ما حملك على قتل هذين الرجلين وهما في ذمتنا.

فأخذ عبيد اللّه عثمان فصرعه حتى قام الناس فحجزوه عنه. وكان حين أرسل إليه عثمان أخذ سيفه فتقلده، فعزم عليه عبد الرحمن بن عوف أن يضعه فوضعه.

وكان ذلك حين غاب سلطان الإسلام لمدة ثلاثة أيام بعد استشهاد عمر ﷺ وقبل استلام عثمان الخلافة.

إنها أيام ثلاثة دون خليفة جرت فيها هذه السقطة الكبرى، إنها فلتة، ولو استمرت لعادت الجاهلية تطل بأنفها من جديد. وإنها لأول فتنة كانت بعد انكسار الباب، واستشهاد أمير المؤمنين، وسنرى فيما بعد كيف تمت معالجة هذه الفتنة.

لقد كان ابن أمير المؤمنين هو صاحب هذه الثارات، وباسم أبيه. ترى هل يقود انقلابًا مع إخوته، ويسيطر على المدينة، ويقضي على الخلافة. ويكون هو الخليفة من بعد أبيه. فلقد غالب عثمان ﷺ وصرعه حتى حجزه الناس عنه.

لا يزال في عمر الخلافة سبعة عشر عامًا قبل أن تتحول إلى ملك عضوض. لكنها الفتنة أخرجت خطمها وعينيها ولم يبق إلا أن تثب. وغالبتها الخلافة الراشدة سبعة عشر عامًا حتى ودعت الدنيا وهي الحلم المضيء للبشرية التي لم ولن تشهد لها مثيلًا بعد. فهي خلافة على منهاج النبوة.

٩ - المجوسية الفارسية كسرت الباب:

(فلبث ليالي ثم اشتمل على خنجر ذي رأسين نصابه في وسطه، فكمن في زاوية من زوايا المسجد في غبش السحر. فلم يزل هناك حتى خرج عمر ﷺ يوقظ الناس لصلاة الصبح، وكان عمر يفعل ذلك. فلما دنا عمر منه وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة، فخرقت الصفاق، وهي التي قتلته. ثم أغار على أهل المسجد، فطعن من يليه حتى طعن سوى عمر أحد عشر رجلًا، ثم انتحر بخنجره. فقال عمر حين أدركه النزف وانقصف الناس عنه: قولوا لعبد الرحمن بن عوف فلْيصلِّ بالناس. ثم غلب عمر النزف حتى غُشِيَ عليه. قال ابن عباس: فاحتملته في رهط حتى أدخلته، ثم صلى للناس عبد الرحمن بن عوف، فأنكر الناس صوت عبد الرحمن.

قال ابن عباس: فلم أزل عند عمر ولم يزل في غشية واحدة حتى أسفر الصبح. ثم أفاق فنظر إلى وجوهنا ثم قال: أصلى الناس؟ قلت: نعم. قال: لا إسلام لمن ترك الصلاة، ثم دعا بوضوء فتوضأ، ثم قال: اخرج يا عبد اللّٰه، فسل من قتلني. قال: فخرجت حتى فتحت باب الدار، فإذا الناس مجتمعون جاهلون بخبر عمر. فقلت: من طعن أمير المؤمنين؟ قالوا: طعنه عدو اللّٰه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، ثم طعن معه رهطًا، ثم قتل نفسه. فأخبرت عمر فقال: الحمد للّٰه الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند اللّٰه تعالى بسجدة سجدها له قط.

ما كانت العرب لتقتلني..).

أ - لا ندري إن كان التخطيط لقتل عمر ﵁ قد شارك فيه إمبراطور الفرس يزدجرد وحاول استمالة الهرمزان بصفته أحد قادة الفرس للمساعدة أو المشاركة في هذه الغضبة. كل الذي ندريه أن السكين التي تم قتل أمير المؤمنين بها. كانت بيد الهرمزان وجفينة.

والذي نرجحه أن الهرمزان قد رفض الأمر؛ لأنه قد أسلم وحسن إسلامه. والرواية التي تتحدث عن غشه لأمير المؤمنين يوم استشاره في حربه، هي رواية ضعيفة، والأصح منها أنه نصحه بقطع الرأس لا بقطع الجناحين؛ ولذلك أعلن شهادته وتوحيده عند وفاته حين قتله عبيد اللّٰه بن عمر. أما جفينة فقد صلَّب عند قتله؛ حيث كان على نصرانيته.

ولن نمضي بعيدًا ونوغل في الاتهام دون يقين. ودولة الإسلام، وأمير المؤمنين عثمان ﵁ رفض هذا الادعاء، ورفض القتل للرجلين بحجة أن السكين كانت عندهما، والادعاء العام ضده أنه قتل مسلمًا وذميًّا. ورفضت حجة هذه الشبهة لتبرير القتل.

ب - لم يكن شيء يشغل بال أمير المؤمنين مثل فوات الصلاة، ومن أجل ذلك عندما أفاق من غشيته أول ما سأل عنه: أصَلَّى الناس؟ واطمأن على الجواب أن مقتل أمير المؤمنين أو اغتياله على جسامة وضخامة هذه الجريمة، لم تؤد إلى فوات صلاة الصبح. فلا إسلام لمن ترك الصلاة. والحفاظ على صلاة الجماعة أعظم من الحفاظ على أمير المؤمنين وحياته.

وأول ما فعله عندما أفاق من غشيته هو أنه توضأ وصلى.

جـ - وكانت **القضية الثانية** التي تشغله هو معرفة القاتل، وهل تم عن ملإ من المسلمين أم بيد مسلم أم بيد ذميّ؟

وأهمية هذا الأمر عنده تكمن في المنهج نفسه؛ فإن كان القتل عن ملإ من المسلمين، فهذا يعني أنه أخل بالأمانة، وضُيِّعت الحقوق، وفُرِّط في الظلم؛ فاجتمع ملأ ما - أيُّ ملإ - على قتله.

ففي الرواية الأخرى:

(واحتمل عمر فدخل الناس عليه فقال:

يا عبد اللَّه، اخرج فنادِ في الناس: أيها الناس إن أمير المؤمنين يقول:

أعَنْ ملإٍ منكم هذا؟

فقالوا: معاذ اللَّه، ما علمنا ولا اطَّلعْنا..) [1].

د - ثم كانت **القضية الثالثة** التي تقلقه: هل قاتله مسلم أم غير مسلم. فلما اطمأن إلى أنه مجوسي، قرَّت عينه، وهدأت نفسه، وقال: الحمد للَّه الذي لم يجعل قاتلي يحاجُّني عند اللَّه بسجدة سجدها له.

إنه قرير العين أنه لا يمكن لمسلم أن يقتله.

هـ - وهذه قادَتْه إلى **القضية الرابعة** وهي مقولته: (ما كانت العرب لتقتلني).

فإذا كان المسلم لا يمكن أن يقتل عمر، فالعربي كذلك لا يمكن أن يقتله. فالمجد الذي تحقق للعرب بالإسلام وبعمر ﷺ لم تصله العرب أبدًا في تاريخها فلو اختلفوا مع عمر ﷺ في الدين، فلن يختلفوا معه في العزة القومية التي حققها لهم بإنهاء سيادة الفرس المجوس على الأرض، وبسيادة العرب المسلمين عليها.

وكان قادة العرب يخشون العجم على أمير المؤمنين (المدائني قال: كان عمر يقول: الرأي كثير، والحزم قليل، وكان عروة بن الورد العبسي من حزماء الرجال.

وأشار عيينة بن حصن على عمر أن ينحي عنه العجم وقال: إني لأخاف عليك هذه الحمراء. فلما طُعن قال: ما فعل عيينة بن حصن؟ قالوا: مات. قال: للَّه رأى بين الحاجر والرقم. ويقال إنه قال: للَّه قبر بين الحاجر والرقم، لقد ضُمِّنَ رأيًا وحزمًا) [2].

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٤١٨).

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٤٢٠).

١٠ - (قال سالم: فسمعت عبد اللَّه بن عمر يقول:

قال عمر: أرسلوا إلي الطبيب ينظر في جرحي هذا، فأرسلوا إلى طبيب من العرب فسقاه نبيذًا، فشبه النبيذ بالدم حين خرج من الطعنة التي تحت السرة. قال: فدعوت طبيبًا آخر من الأنصار، فسقاه لبنًا، فخرج من الطعنة أبيض.

فقال الطبيب: يا أمير المؤمنين، اعهد.

فقال عمر: صدقني أخو بني معاوية. ولو قلت غير ذلك كذّبتك.

قال: فبكى عليه القوم حين سمعوا قوله، فقال: لا تبكوا علينا، ألم تسمعوا قول رسول اللَّه ﷺ: « **يعذب الميت ببكاء أهله عليه** ». فبلغ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قوله، فقالت: إنما أمر رسول اللَّه ﷺ على نُوَّحٍ يَبكينَ على هالك، فقال: « **إن هؤلاء يبكون، وصاحبهم يعذب** » وكأن قد اجترم ذلك».

لقد تأكد المسلمون من أن جرح أمير المؤمنين قد وصل إلى مقتل. فحين سُقي النبيذ لم يظهر ذلك لتشابه اللونين، لكن عندما سقي اللبن، خرج اللبن من الجرح أبيض؛ فالجرح إذن قد اخترق الأمعاء.

(فلما دنا منه عمر وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة فمزقت الصفاق)[1].

وتأتي قضية أنّ البكاء على الميت يقود إلى تعذيب الميت، نفته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ويمكن أن يكون فقه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في هذا الأمر أصح من فقه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنها حضرت الحادثة كما وَعَتْها عن رسول اللَّه ﷺ.

الشورى

وبالسند الموثوق نفسه (حدثني محمد بن سعد، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الزهري عن أبيه عن صالح بن كيسان، قال: قال ابن شهاب: أخبرني سالم بن عبد اللَّه أن عبد اللَّه بن عمر قال:

---

(١) الصفاق: غشاء ما بين الجلد والأمعاء.

دخل الرهط على عمر قبل أن ينزل به، فنظر إليهم فقال: إني نظرت لكم في أمر الناس، فلم أجد عند الناس شقاقًا إلا أن يكون منكم. وإنما الأمر إلى هؤلاء الستة - وكان طلحة غائبًا في ماله بالشراة - وإنما يؤم القوم أحدكم أيها الثلاثة: عبد الرحمن، وعثمان، وعلي.

- فإن كنت على شيء من أمر الناس يا عبد الرحمن، فلا تحملنَّ ذوي قرابتك على رقاب الناس.

- وإن كنت يا عثمان على شيء من أمر الناس فلا تحملنَّ بني أبي معيط على رقاب الناس.

- وإن كنت يا علي على شيء من أمر الناس فلا تحملنَّ بني هاشم على رقاب الناس.

- ثم قال: قوموا فتشاوروا، وأمِّروا أحدكم.

قال عبد اللَّه بن عمر: فقاموا يتشاورون، فدعاني عثمان ليدخلني في الأمر، ولا واللَّه ما أحب أني كنت دخلت فيه، علمًا أن سيكون في أمرهم ما قال أبي، فوَ اللَّهِ لَقلّما رأيته يحرك شفتيه بشيء قط إلا كان حقًّا. فلما أكثر عليَّ عثمان قلت له:

ألا تعقلون؟ أتؤمرون وأمير المؤمنين حي؟

فو اللَّه لكأنما أيقظت عمر من رقدة فقال: أمهلوا فإن حدث بي حدث فلْيُصَلِّ بكم صهيبٌ ثلاث ليالٍ، ثم أجمعوا أمركم فمن تأمر على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه) [(١)].

١١ - لقد اختط أمير المؤمنين خطة جديدة، وهي طريقة ثالثة من طرائق الحكم:

- فقد توفي رسول اللَّه ﷺ ولم يستخلف من بعده.

- وتوفي أبو بكر ﵁ واستخلف عمر ﵁.

- وجاء عمر ﵁ وجعلها في عنق ستة من المسلمين، هم القيادات العليا آنذاك، وهم المشهود لهم بالجنة، وهم الذين توفي رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راضٍ. وحاول المسلمون حثه على الاستخلاف فأبَى.

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٤٢٢).

(وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال:

قال ابن عمر: يا أمير المؤمنين. ما عليك لو أجهدت نفسك ثم أمَّرتَ عليهم رجلًا؟

فقال عمر: أقعدوني.

قال عبد اللَّه: فتمنيت أن بيني وبينه عُرْض المدينة فرقًا [١] منه حين قال: أقعدوني، ثم قال: من أمرتم بأفواهكم، قلت: فلانًا. قال: إن تؤمروه فذو شيبتكم.

ثم أقبل على عبد اللَّه، فقال:

ثكلتك أمك، أرأيت الوليد ينشأ مع الوليد وليدًا وينشأ معه كهلًا، أتراه يعرف من خُلُقِه [٢]؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: فما أنا قائل للَّه إذا سألني عمَّن أمرت عليهم فقلتُ: فلانًا، وأنا أعلم منه ما أعلم؟ فلا والذي نفسي بيده لأردنّها إلى الذي دفعها إليَّ أول مرة. ولوددت أن عليها من هو خير مني لا ينقصني ذلك مما أعطاني اللَّه شيئًا) [٣].

لقد كان ابن عمر ﷺ وأعيان المسلمين معه يرون أن استخلاف رجلٍ بعده وبيعة المسلمين له هو أحسم للفتنة، وأقطع لدابر الخلاف. وهذه نظرة ذات وزن ولا شك، وهي تخدم الأمر ضمن هذه البيئة المحلية. لكن نظر عمر كان أبعد وأعمق وأخلد، فهو يريد أن يسن للأمة سنة جديدة في الشورى والحكم، وهي أن يشارك فيها أكبر قدر ممكن من الأمة، ومن أجل ذلك وقبل أن يجيب على طلب ابنه عبد اللَّه. شرح وجهة نظره بسؤال آخر..

من أمّرتم بأفواهكم؟ قلت: فلانًا.

فصاحب الأمر في اختيار الخليفة في النهاية هي الأمة. حتى أصحاب الشورى الستة يختارون المرشح الأخير. لكن هذا الترشيح لا يحوله إلى خليفة إلا بعد البيعة له من الأمة أصحاب الرأي، كما يشارك في الانتخاب، كل فرد في الأمة أو امرأة.

والملاحظ أن التركيز كان على عثمان ﷺ، فهو ذو شيبة المسلمين وهو أكبرهم سنًّا بما لا يقل عن عشرين عامًا، عن الأربعة، وعشر سنوات عن عبد الرحمن.

---

(١) فرقا: خوفًا.

(٢) مِن خُلقِه. ليتناسب المعنى مع السياق. فعمر ﷺ نشأ مع الوليد وليدًا وكهلًا، ويعرف أخلاقهم.

(٣) تاريخ دمشق (٤٣٦/٤٤).

فعثمان ﷺ استشهد في ما ينوف عن الثمانين. في الوقت الذي كان فيه علي وطلحة والزبير وسعد في الستينيات أو أقل.

وحين يتساوى المرشحون في الأفضلية، وكلهم توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فالطبيعة البشرية تعطي للأكبر سنًّا الأفضلية عليهم، وهو الذي تم انتخابه بعد ذلك ﷺ للخلافة الراشدة.

ووجهة نظر عمر – رضوان الله عليه – أنه يعرف مثلبةً ما في كل واحد منهم. فلِمَ يتحمل هو مسؤولية الاختيار؟ (وأنا أعلم منه ما أعلم، فلا والذي نفسي بيده لأردَّنّها إلى الذي دفعها إليّ أول مرة).

١٢ – ولم يكن تقدير أمير المؤمنين يختلف مع تقدير الأمة.

ففي رواية عنه أنه توقع اختيار الخليفة من ثلاثة من هؤلاء المرشحين، ووجَّه لهم نصيحة خاصة في عدم إيثار أقاربهم على الأمة (وإنما يؤم القوم أحدكم أيها الثلاثة، عبد الرحمن، وعثمان، وعلي.

– فإن كنت على شيء من أمر الناس يا عبد الرحمن فلا تحملن ذوي قرابتك على رقاب الناس.

– وإن كنت يا عثمان على شيء من أمر الناس فلا تحملن بني أبي معيط على رقاب الناس.

– وإن كنت يا علي على شيء من أمر الناس فلا تحملن بني هاشم على رقاب الناس.

وفي رواية ثانية أنه حصر الأمر في اثنين من ستة.

(ثم دعا بستة نفر علي وعثمان وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام.

فدعا عثمان أولهم فقال: يا عثمان إن عرف لك أصحابك سنك وصهرك من رسول الله ﷺ فاتق الله، ولا تحمل بني أبي معيط على رقاب الناس، ثم دعا علي ابن أبي طالب فأوصاه ثم أمر صهيبًا أن يصلي بالناس ثلاثًا) [١].

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (٤١٧/١٠).

وهي أوضح في رواية عمرو بن ميمون التي اعتبرها ابن عبد البر أصح الروايات:

(ثم قال: ادعوا لي عليًّا، وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعدًا.

فلم يُكَلِّمْ أحدًا منهم غير عثمان وعلي رضي الله عنهما فقال: يا علي لعل هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من النبي ﷺ، وصهرك وما آتاك اللَّه من الفقه والعلم، فإن وُلِّيتَ هذا الأمر، فاتق اللَّه فيه.

ثم دعا عثمان فقال: لعل هؤلاء القوم سيعرفون لك صهرك من رسول اللَّه ﷺ وسِنَّكَ وشرفك فإن وليت هذا الأمر، فاتق اللَّه ولا تَحْمِلَنَّ بني أبي معيط على رقاب الناس..) [1].

وفي رواية ثالثة كان يرى أن أقدر هؤلاء الستة على الخلافة هو علي بن أبي طالب.

ففي الرواية السابقة الموثوقة قوله: (.. فلما خرجوا من عند عمر قال: إن ولوها الأجلح سلك بهم الطريق، يعني علي بن أبي طالب. فقال ابن عمر:

فما يمنعك منه يا أمير المؤمنين؟

قال: أكره أن أحملها حيًّا وميتًا) [2].

١٣ - ولأن هَمَّ الأمة في عنقه، فقد استدعى هؤلاء الستة مرة ثانية:

وقال عمر - رضي اللَّه تعالى عنه - أوصي الخليفة من بعدي بـ:

١ - تقوى اللَّه.

٢ - والمهاجرين الأولين أن يحفظ لهم حقهم، ويعرف لهم حرمتهم.

٣ - وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا فإنهم رِدْءُ الإسلام، وغيظ العدو وجباة المال. ولا يؤخذ منهم إلا بحقوقهم أو قال: فَضْلهم عن رضا منهم.

٤ - وأوصيه بالأنصار الذين تبوّؤوا الدار والإيمان من قبلهم. وأن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم.

٥ - وأوصيه بالأعراب خيرًا فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، أن تؤخذ صدقاتهم من حواشي أموالهم، فترد على فقرائهم.

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (٤١٨/١٠، ٤١٩). (٢) المصدر نفسه (٤١٩/١٠).

٦ - وأوصيه بذمة اللّٰه وذمة رسوله، أن يوفى لهم بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من وراءهم.

إنها وصية اللّٰه تعالى إلى خلقه: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ... ﴾ [النساء: ١٣١].

وأول من تقال له هو الحاكم.

(روى خليد بن دعلج عن قتادة قال:

خرج عمر من المسجد، ومعه الجارود بن معلى العبدي. فإذا امرأة برزة على ظهر الطريق، فسلَّم عليها عمر، فردت عليه السلام فقالت:

هيهًا يا عمر!! عهدناك وأنت تسمى عميرًا في سوق عكاظ تروِّع الصبيان بعصاك.

ثم لم تذهب الأيام حتى سميت عُمر.

ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين.

فاتق اللّٰه في الرعية.

واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد. ومن خاف الموت خشي الفوت.

فقال الجارود: قد أكثرْتِ على أمير المؤمنين أيتها المرأة. فقال عمر: دعها، أما تعرفها، هذه خولة بنت حكيم زوج عبادة [١] بن الصامت التي سمع اللّٰه لها من فوق سبع سموات؛ فعمر أحق واللّٰه أن يسمع لها) [٢].

وهذه إحصاءات أهله:

١ - تزوج عمر في الجاهلية زينب بنت مظعون... بن جُمَح. فولدت له عبد اللّٰه، وعبد الرحمن الأكبر وحفصة.

٢ - وتزوج مليكة بنت جرول الخزاعي في الجاهلية. فولدت له عبيد اللّٰه بن عمر. ففارقها في الهدنة [٣]...

---

(١) يقول الحافظ ابن حجر: قال أبو عمر: هكذا في الخبر خولة بنت حكم امرأة عبادة وهو وهم. وهم في اسم أبيها وزوجها، وخليد ضعيف سيئ الحفظ: الإصابة في تمييز الصحابة، ت (١١٨٠٤).

(٢) المصدر نفسه، ت (١١٨٠٤).

(٣) تاريخ الطبري (٥٦٤/٢).

٣ - وأما محمد بن عمر فإنه قال: زيد الأصفر، وعبيد اللَّه الذي قتل يوم صفين مع معاوية. أمهما أم كلثوم بنت جرول... بن عمرو بن خزاعة.

٤ - قال علي بن محمد: تزوج قريبة بنت أبي أمية المخزومي في الجاهلية. ففارقها أيضًا في الهدنة...

٥ - وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة.. في الإسلام فولدت له فاطمة فطلقها...

٦ - وتزوج جميلة أخت عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح... فولدت له عاصمًا فطلقها.

٧ - وتزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وأمُّها فاطمة بنت رسول اللَّه ﷺ وأصدقها فيما قيل أربعين ألفًا. فولدت له زيدًا ورقية.

٨ - وتزوج لُهية امرأة من اليمن. فولدت له عبد الرحمن....

٩ - وكانت عنده فكيهة - أم ولد - فولدت له زينب قال الواقدي: هي أصغر ولد عمر.

١٠ - وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو، وكانت قبله عند عبد الرحمن بن أبي بكر: فلما مات عمر تزوجها الزبير بن العوام...) (١).

إذن نحن مع عمر ﷺ قد اجتمع عنده أربعة نسوة، وله من الولد أحد عشر ولدًا ما بين ذكر وأنثى، فهو ذو عيال وأبو عيال.

وهو سيد من سادات العرب، وخير هذه الأمة بعد نبيها والصِّدِّيق:

فلا عجب أن يقصده أبناء الأمة جميعًا، وضيافتهم عليه. فلا عجب أن نرى مثل هذا الرقم الذي يعجز أمير المؤمنين عن إيفائه، وتجتمع عشيرته للسداد عنه. خاصة وأن راتبه أقل بكثير من حاجته، رغم محاولات قيادة الأمة رفع هذا الراتب، ورفضه لذلك.

(.. قال: أخبرنا أيوب عن محمد، قال: نبئت أن رجلًا كان بينه وبين عمر قرابة، فسأله فزبره وأخرجه، وكلَّم فيه. فقيل: يا أمير المؤمنين فلان سألك فزبرته وأخرجته.

---

(١) تاريخ الطبري (٥٦٤/٢).

فقال: إنه سألني من مال اللَّه، فما معذرتي إن لقيته ملكًا خائنًا، فلولا سألني من مالي.

قال: فأرسل إليه بعشرة آلاف) [١].

وعمر ﷺ يعتبر التذكير بتقوى اللَّه واجبًا على الرعية:

(وعن الحسن رحمه الله قال: كان بين عمر بن الخطاب - رضوان اللَّه عليه - وبين رجل كلام في شيء. فقال له الرجل: اتق اللَّه يا أمير المؤمنين.

فقال له رجل من القوم: أتقول لأمير المؤمنين اتق اللَّه؟

فقال له عمر رضوان اللَّه عليه: دعه فليقلها لي. نِعْمَ ما قال.

ثم قال عمر: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم) [٢].

ثم تتابعت الوصية في الأمة كلها خيارها وأوسطها وعاديها:

- فالمهاجرون الأولون لهم حقهم وحرمتهم (أن يحفظ لهم حقهم، ويعرف لهم حرمتهم.

- والأنصار الذين تبوَّؤوا الدار والإيمان، فهم خيرة هذه الأمة بعد محمد ﷺ.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

والوصية فيهم وصية رسول اللَّه ﷺ أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم.

- وأهل الأمصار التي تشمل أهل المدر أو المدن من المسلمين كافة.

وهؤلاء هم رِدْءُ الإسلام؛ فمنهم تنطلق الجيوش، وغيظ العدو، وجباة المال فحركة الحضارة تقوم بهم.

- وهذا لا ينفي فضل الأعراب أهل البادية، فهم الردء الثاني والمدد لأهل الأمصار فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام.. (وأن تؤخذ صدقاتهم من حواشي أموالهم فترد على فقرائهم).

- والذميون في ظل دولة الإسلام تحفظ لهم حقوقهم، ولا ينساهم أمير المؤمنين رضي الله عنه. فيحدد ثلاثة حقوق رئيسة لهم..

---

(١) تاريخ الطبري (ص ٥٦٦).

(٢) مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي (ص ١٥٥).

- أن يوفى لهم بعهدهم.

- ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

- وأن يقاتل من وراءهم.

وذلك لتتم لهم الحماية في ذمة اللَّه وذمة رسوله.

فالأمة كلها شريكة في عملية البناء لا يستثنى منها أحد. والرعية كل الرعية بلا استثناء في عهد الخليفة وذمته ومسؤوليته.

١٤ - **ويحرص عمر ﷺ على عدم الاستخلاف لشخص بعينه،** فهو يريد أن يربي قيادات الأمة على أن تقوم بهذا العبء، فهو مسؤوليتها.

(حدثني محمد بن سعد، حدثنا عبد الكريم بن بكر السهمي، حدثنا حاتم ابن أبي صغيرة عن سماك أن عمر ﷺ لما احتضر قال:

إن أستخلف فسُنّةٌ.

وإن لم أستخلف فسنة.

توفي رسول اللَّه ﷺ ولم يستخلف، وتوفي أبو بكر فاستخلف.

فقال علي بن أبي طالب: عرفت واللَّه أنه لم يعدل بسنة رسول اللَّه ﷺ.

فذاك حين جعلها شورى بين علي وعثمان وطلحة وعبد الرحمن وسعد..).

لكن الجديد الذي قدَّمه للأمة هو أن أهل الشورى وأعظم قادة الأمة يقتلون إذا لم يتفقوا على خليفة. (.. وقال للأنصار: أدخلوهم بيتًا ثلاثة أيام فإن استقاموا وإلا فادخلوا عليهم فاضربوا أعناقهم).

وأعلم الأمة أنه اختار سنّة رسول اللَّه ﷺ في عدم الاستخلاف لكنه أضاف نظرية ثالثة إلى الفقه السياسي الإسلامي؛ أن القيادات المرشحة للخلافة هي المسؤولة عن اختيار واحد منها، رغم الإلحاح من أقرب المقربين إليه بالاختبار.

(حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا علي بن زيد عن أبي رافع أن عمر بن الخطاب كان مسندًا إلى ابن عباس. وكان عنده ابن عمر وسعيد بن زيد فقال: اعلموا أني لم أقل في الكلالة شيئًا، ولم أستخلف بعدي أحدًا، وأن من أدرك وفاتي من سبي العرب فهو حُرّ من مال اللَّه.

فقال سعيد بن زيد: أما أنك لو أشرت برجل من المسلمين ائتمنك الناس.

فقال عمر: قد رأيت من أصحابي حرصًا سيئًا، وإني جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راضٍ..).

والإضافة الجديدة التي قدمها لنا هذا النص ما يلي:

(لو أدركني أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به، سالم مولى أبي حذيفة وأبو عبيدة بن الجراح)[١].

١٥ - وهو الذي قعد للأكثرية في الأمة بأجلى بيان:

(ثم قال أدعوا لي صهيبًا فدعي فقال: صلّ بالناس ثلاثًا، ولْيَخْلُ هؤلاء القوم في بيت فإن أجمعوا على رجل فمن خالفهم فاضربوا رأسه...)[٢]. فقد سن ﷺ قتلهم جميعًا إن لم يتفقوا على خليفة وسن قتل المخالف عند الإجماع على خليفة.

١٦ - ولم يُتَوَفَّ ﷺ حتى حدد مجلس الشورى كاملًا:

(... قالوا: من نشاور يا أمير المؤمنين؟

قال: شاوروا المهاجرين والأنصار وسراة مَن هنا من الأجناد...)[٣].

ورفض عبد اللَّه بن عمر ﵄ الاشتراك في اختيار الخليفة ما لم تتم استشارة مجلس الشورى (.. وأرسلوا إلى عبد اللَّه بن عمر فقال: لا آتيكم إن لم تفعلوا ما أمركم به من مشاورة المهاجرين والأنصار وسراة من هنا من الأجناد..)[٤].

الديْن

١٧ - ولقد تناولت رواية البخاري الحديث عن دَيْن عمر ﷺ.

(... يا عبد اللَّه بن عمر، انظر ما علي من الدين، فحسبوه، فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه. قال: إن وفَّى له مال آل عمر فأدوه من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي ابن كعب.

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (٤٢١/١٠).

(٢) المصدر نفسه (٤١٨/١٠) وهي الرواية التي صححها ابن عبد البر ورجاله ثقات.

(٣، ٤) مجمع الزوائد للهيثمي (٧٥/٩، ٧٦) وقال فيه: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

فإن لم تَفِ أموالهم فسل في قريش ولا تعدُهم إلى غيرهم، فأدِّ عني هذا المال).

وكم هي البشرية سعيدة بهذا الإنسان الذي ائتمنته على أموالها وهو الذي ليس بينه وبين اللَّه أحد، كما يقول عن نفسه. يحيط به الدين ويجثم على قلبه. ويوصي ابنه عبد اللَّه أن يتعاون آل عمر في الوفاء، فإن عجزوا فبني عدي، فإن عجزوا فقريش.

هذا الخليفة الذي يُجْمَع له دَينُه من أقاربه الأدنين، فعشيرته الأقربين، فعشيرته الأكبر قريش، هو الذي كان يحاسب نفسه وأهل بيته وعماله على الدانق والدرهم.

وأي عجب في ذلك وهو مُعيل لأكبر عدد من النساء والولدان. وقام عبد اللَّه ابن عمر رضي الله عنهما بسداد ذلك الدين:

د - حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن الضحاك بن عثمان عن عثمان ابن عروة قال:

كان عمر قد استلف من بيت المال ثمانين ألفًا، فدعا عبد اللَّه بن عمر فقال: بع فيها أموال عمر، فإن وَفَّت، وإلا فسل بني عدي، وإلا فسل قريشًا ولا تَعْدُهم. فقال عبد الرحمن بن عوف: ألا نستقرضها من بيت المال حتى نؤديها. فقال عمر: معاذ اللَّه أن تقول أنت وأصحابك بعدي: أما نحن فتركنا نصيبنا لعمر فليزمني تبعته. ثم قال لعبد اللَّه بن عمر: اضمنها، فضمنها. قال: فلم يدفن عمر حتى أشهد بها عبد اللَّه على نفسه أهل الشورى، وعِدَّةً من الأنصار، فما مضت جمعةٌ بعد دَفنِ عمر حتى حمل ابن عمر المال إلى عثمان - رضي اللَّه تعالى عنهم - وأحضر الشهود على البراءة ودفع المال) [1].

وها هو ينفق ماله لولده.

(حدثني محمد بن سعد أنبأ أنس بن عياض عن هشام بن عروة عن أبيه عن عاصم بن عمر قال: أرسل لي عمر يرفأ فأتيته، وهو في مصلاه عند الفجر - أو قال: عند الظهر - فقال: واللَّه ما كنت أرى أن هذا المال يحل لي من قبل أن أليه إلا بحقه. وما كان قط أحرم علي منه إذ وليته. وقد أنفقت عليك من مال اللَّه شهرًا ولست بزائدك، ولكني معينك بثمن ما لي في الغابة، فاجدده وبعه، ثم ائت رجلًا من قومك من تجارهم فقم إلى جنبه فإن اشترى شيئًا فاستشركه وأنفق على أهلك) [2].

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (٤٣٦/١٠).　　(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (٣٠٩/١٠).

لقد هيأ له رأسمال ليتاجر به. وكان هذا المال ثمرة نخله بالغابة حيث باعه وقبض ثمنه، وكان منهجه في المال والحياة منهج رسول اللَّه ﷺ وصاحبه الصديق.

(حدثنا سريج بن يونس حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن مصعب بن سعد قال: قالت حفصة لأبيها: يا أمير المؤمنين قد أوسع اللَّه الرزق، وفتح عليك الأرض، وأكثر لك من الخير؛ فلو أكلتَ ألين من طعامك، ولبست ألين من لباسك فقال:

سأخاصمك إلى نفسك: أما تذكرين ما كان رسول اللَّه ﷺ يلقى من شدة العيش؟ أما تذكرين.. أما تذكرين.. فما زال يذكِّرها حتى أبكاها. ثم قال: إني قلت لك: إني واللَّه إن استطعت لأشاركنه وخليفته من بعده في عيشهما الشديد لعلي ألقى معهما عيشهما الرخي. قال: يريد مع رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر)[1].

والرواية الأخرى تؤكد أن القيادات العليا كانت وراء هذا الاقتراح.

(حدثني محمد بن سعد وروح بن عبد المؤمن... أنبأ الحسن أن عمر بن الخطاب أبى إلا شدة وحصرًا على نفسه، فجاء اللَّه بالسعة، فأتى المسلمون فدخلوا على حفصة. فقالوا لها: أبى عمر إلا شدة وحصرًا على نفسه، وقد بسط اللَّه في الرزق؛ فليبسط في هذا الفيء أو ما شاء منه، فهو في حلٍّ من جماعة المسلمين. فكأنما قاربتهم في هواهم، فلما انصرفوا من عندها دخل عليها عمر فأخبرته بخبر القوم فقال عمر رضي الله عنه:

يا حفصة بنت عمر نصحت قومك، وغششت أباك. إنما حق أهلي عليَّ في نفسي ومالي وأما في ديني وأمانتي فلا)[2].

وهو منهجه مع كبار موظفيه وولاته، وشرط الوالي أربعة:

١ - أن لا يركب برذونًا.

٢ - ولا يأكل نقيًّا.

٣ - ولا يلبس رقيقًا.

٤ - ولا يغلق بابه دون ذوي الحاجات[3].

(١، ٢) أنساب الأشراف للبلاذري (٣١٥/١٠). (٣) الخلفاء الراشدون للذهبي (٨٠/٢٨).

وها هو الأحنف بن قيس ﷺ يتحدث لنا عن راتب عمر ﷺ:

(وقال الأحنف بن قيس: سمعت عمر يقول: لا يحق لعمر من مال اللَّه إلا حلتين: حلة للشتاء، وحلة للصيف، وما حج به واعتمر، وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم، ثم أنا رجل من المسلمين) (١).

وحتى لا يتبادر إلى الذهن المصاريف المستورة في الحج والعمرة، فنستمع إلى مصاريف حجه.

(حدثني عمرو بن محمد الناقد، حدثنا ابن نمير.. عن يسار بن نمير قال: سألني عمر: كم أنفقنا في حجتنا هذه؟

قلت: خمسة عشر دينارًا) (٢).

استئذان عائشة والدفن

١٨ - وكما حرص أن يكون مع صاحبيه في الدنيا كذلك حرص على أن يكون معهما في المثوى.

(.. انطَلِقْ إلى عائشة أم المؤمنين فقُل: يقرأ عليك عمر السلام - ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فَسلَّم واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي. فقال: يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه. فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي.

فلما أقبل، قيل: هذا عبد اللَّه بن عمر قد جاء. فقال: ارفعوني. فأسند رجل إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت. قال: الحمد للَّه ما كان من شيء أهمَّ إِليَّ من ذلك المضجع، يا عبد اللَّه بن عمر، انظر إذا أنا مت فاحملني على سريري، ثم قف على الباب فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين...

فلما قُبِض خرجنا به فانطلقنا نمشي، فسلم عبد اللَّه بن عمر قال: يستأذن عمر ابن الخطاب. قالت: أدخلوه. فأُدخل فوضع هناك مع صاحبيه) (٣).

(١، ٢) الخلفاء الراشدون للذهبي (٨٠/٢٨). (٣) أنساب الأشراف للبلاذري (٤١٥/١٠).

فإذا كان أكبر همه أن يدفن مع صاحبيه، فقد كانت الأمة كلها أكبر همه؛ حيث قال قبيل وفاته بأيام: (لئن سلمني اللَّه لأدعن أرامل العراق لا يَحتَجْنَ إلى رجل بعدي أبدًا.

قال: فما أتت عليه رابعة حتى أصيب) [(١)].

عمر في قلوب المؤمنين

١٩ - وسننقل معظم هذا المقطع من مجمع الزوائد لِلهَيثمي، فهو أوفى من ذكره، وحرص على توثيق كل ما ذكره.

أ - ابن عباس:

(عن ابن عمر: قال: لما طعن أبو لؤلؤة عمر طعنه طعنتين. فظن عمر أن له ذنبًا في الناس لا يعلمه فدعا ابن عباس - وكان يحبه يدنيه ويسمع منه - فقال:

أحب أن تعلم، عن ملأ من الناس كان هذا؟

فخرج ابن عباس، فكان لا يمر بملأ من الناس إلا وهم يبكون، فرجع إلى عمر فقال: يا أمير المؤمنين ما مررت على ملأ إلا رأيتهم يبكون، كأنهم فقدوا اليوم أبكار أولادهم.

قال: من قتلني؟ فقال: أبو لؤلؤة المجوسي عبد المغيرة بن شعبة.

قال ابن عباس: فرأيت البشر في وجهه، فقال: الحمد للَّه الذي لم يبتلني أحدًا يُحاجُّني يقول: لا إله إلا اللَّه.

أما إني قد كنت نهيتكم أن تجلبوا لنا من العلوج أحدًا فعصيتموني.

ثم قال: ادعوا لي إخواني. قالوا: ومن؟ قال: عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص. فأرسَلَ إليهم ثم وَضَعَ رأسَه في حجري. فلما جاؤوا، قلت: هؤلاء قد حضروا.

قال: نعم نظرت في أمر المسلمين فوجدتكم أيها الستة رؤوس الناس وقادتهم،

---

(١) البخاري، ح (٣٧٠٠).

ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ما استقمتم يستقم أمر الناس، وإن يكن اختلاف ففيكم.

- فلما سمعته ذكر الاختلاف والشقاق، وإن يكن ظننت أنه كائن، لأنه قلما قال شيئًا إلا رأيته.

ثم نزفه الدم، فهمسوا بينهم حتى خشيت أن يبايعوا رجلًا منهم فقلت: إن أمير المؤمنين حي بعد، ولا يكون خليفتان ينظر أحدهما إلى الآخر. فقال: احملوني، فحملناه. فقال: تشاوروا ثلاثًا، ويصلي بالناس صهيب. قالوا: من نشاور يا أمير المؤمنين؟

قال: شاوروا المهاجرين والأنصار، وسراة من هنا، وأمراء الأجناد.

ثم دعا بشربة من لبن، فخرج بياض اللبن من الجرحين، فعرف أنه الموت فقال: الآن لو أن لي الدنيا كلها لافتديت بها من هول المطلع، وما ذاك والحمد للَّه أن أكون رأيت إلا خيرًا.

فقال ابن عباس:

(إن قلت فجزاك اللَّه خيرًا. أليس قد دعا لك رسول اللَّه ﷺ أن يُعِزَّ اللَّه بك الدين والمسلمين إذ يخافون بمكة. فلما أسلمت كان إسلامك عزًّا، وظهر بك الإسلام ورسول اللَّه ﷺ وأصحابه؟

- وهاجرت إلى المدينة، فكانت هجرتك فتحًا.

- ثم لم تَغِبْ عن مشهد شهده رسول اللَّه ﷺ من قتال المشركين من يوم كذا ويوم كذا؟

- ثم قبض رسول اللَّه ﷺ وهو عنك راضٍ؟

- فوازرت الخليفة بعده على منهاج رسول اللَّه ﷺ، فضربت بمن أقبل على من أدبر حتى دخل الناس في الإسلام طوعًا وكرهًا، ثم قبض الخليفة وهو عنك راضٍ؟

- ثم وليت بخير ما وُلي الناس.

أ - مصَّر اللَّه بك الأمصار.

ب - وجبى بك الأموال.

جـ - ونفى بك العدو.

د - وأدخل اللَّه بك على كل أهل بيت توسعتهم في دينهم.

هـ - وتوسعتهم في أرزاقهم.

و - ثم ختم لك بالشهادة.

فهنيئًا لك.

فقال: واللَّه إن المغرور من تغرونه. ثم قال: أتشهد لي يا عبد اللَّه عند اللَّه يوم القيامة؟

فقال: نعم.

قال: اللَّهم لك الحمد. ألصق خدي بالأرض يا عبد اللَّه بن عمر.

فوضعته من فخذي على ساقي.

فقال: ألْصق خدي بالأرض، فترك لحيته وخده حتى وقع بالأرض.

فقال: ويلك وويل أمك يا عمر إن لم يغفر اللَّه لك يا عمر، ثم قُبض رَحِمَهُ اللَّهُ.

فلما قبض أرسلوا إلى عبد اللَّه بن عمر. فقال: لا آتيكم إن لم تفعلوا به ما أمركم به من مشاورة المهاجرين والأنصار، وسراة من هنا من الأجناد.

قال الحسن: وقد ذكر له فعل عمر عند موته، وخشيته من ربه فقال: هكذا المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، والمنافق جمع إساءة وعزة.

واللَّه ما وجدت فيما مضى وفيما بقي عبدًا ازداد إساءة إلا ازداد عزة) [1].

ب - الناس وابن عباس:

(.. فقالوا: لا بأس عليك يا أمير المؤمنين. فقال: إن يكن البأس قتلي، فقد قتلت.

فجعل الناس يثنون عليه يقولون: جزاك اللَّه خيرًا يا أمير المؤمنين كنت.. وكنت.. ثم ينصرفون ويجيء قوم آخرون يثنون عليه. فقال عمر: أما واللَّهِ، عَلَى ما يقولون وَدِدْتُ أني خرجت منها كفافًا لا عليَّ ولا لي، وأن صحبة رسول اللَّه ﷺ سَلِمَت لي.

فتكلم عبد اللَّه بن عباس فقال: واللَّهِ لا تخرج منها كفافًا.

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٩/٧٥، ٧٦) وقال فيه: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

- لقد صحبت رسول الله ﷺ، فصَحِبْتَهُ خيرَ ما صحبه صاحب. كنت له.. وكنت له.. وكنت له.. حتى قبض رسول الله ﷺ وهو عنك راضٍ.

- ثم صحبت خليفة رسول الله ﷺ.

- ثم وليتها يا أمير المؤمنين أنت. فوليتها بخير ما وَلِيَها والٍ.

- كنت تفعل، وكنت تفعل.

فكان عمر يستريح إلى حديث ابن عباس. فقال عمر: يا ابن عباس كرِّر عليَّ حديثك. فكرر عليه.

فقال عمر: أما والله على ما يقولون. لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا لافتديت به اليوم من هول المطلع...) [١].

جـ - أم أيمن:

(وعن طارق بن شهاب قال: قالت أم أيمن يوم قتل عمر: اليوم وَهَى الإسلام) [٢].

د - عبد الله بن مسعود:

أتى عبدَ الله - يعني ابن مسعود - رجلان وأنا عنده فقالا: يا أبا عبد الله كيف تقرأ هذه الآية، فقرأها عليه عبد الله.

فقال الرجل: إن أبا حكيم أقرأنيها كذا وكذا.

وقرأ الآخر، فقال: من أقرأكها. فقال: عمر.

فقال عبد الله: اقرأ كما أقرأك عمر.

ثم بكى عبد الله حتى رأيت دموعه تحدر في الحصى، ثم قال: إن عمر كان حصنًا حصينًا على الإسلام، يدخل الناس فيه ولا يخرجون، وإن الحصن أصبح قد انثلم؛ فالناس يخرجون منه ولا يدخلون.

وزاد في رواية:

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٩/٧٦، ٧٧) وقال فيه: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي (٩/٧٧) وقال فيه: رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد عن أبي مريم وهو ضعيف.

- ما أظن أهل بيت من المسلمين لم يدخل عليه حزن يوم أصيب عمر إلا أهل بيت سوء.

- إن عمر كان أعلمنا بالله، وأقرأنا لكتاب الله، وأفقهنا في دين الله..

وفي رواية: وكان - يعني عمر - إذا سلك طريقًا وجدناه سهلًا، فإذا ذكر الصالحون فَحَيْهَلا بعمر. كان فضل ما بين الزيادة والنقصان.

- والله لوددت أني أخدم مثله حتى أموت) [١].

وعن عبد الله أيضًا قال:

- إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر.

- إن إسلام عمر كان نصرًا. وإن إمارته كانت فتحًا.

- وايم الله ما أعلم على وجه الأرض أحدًا إلا وَجَدَ فقد عمر حتى العضاة.

- وايم الله إني لأحسب بين عينيه مَلَكًا يسدده.

- وايم الله إني لأحسب الشيطان يَفْرَقُ منه أن يُحدث في الإسلام حدثًا فيرد عليه عمر.

- وايم الله لو أعلم كلْبًا يحب عمر لأحببته.

وفي رواية: لقد أحببت عمر حتى لقد خفت الله.

- وددت أني كنت خادمًا لعمر حتى أموت..) [٢].

هـ - علي بن أبي طالب:

المدائني عن جويرية بن أسماء عن جعفر بن محمد قال: دخل عليٌّ على عمر حين طعن وهو يبكي.

فقال: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟

قال: لا أدري أيُذهب بي إلى الجنة أم إلى النار؟

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٧٨/٩) وقال فيه: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح.

(٢) المصدر نفسه وقال فيه: رواه الطبراني من طرق وفي بعضها عاصم بن أبي النجود وهو حسن الحديث، وبقية رجالها رجال الصحيح، وبعضها منقطع الإسناد ورجالها ثقات.

فقال: أبشر بالجنة.

قال: أوَ تشهد لي يا أبا الحسن؟

قال: نعم سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **إن أبا بكر وعمر من أهل الجنة**) (١).

(حدثنا إسحاق الفروي أبو موسى وعمرو بن محمد قالا: حدثنا سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر أن عليًا دخل على عمر رضي الله عنهما وهو مسجي فقال:

ما على الأرض أحد ألقى اللَّه تعالى بصحيفته أحبّ إليّ من هذا المسجَّى بينكم) (٢).

و - عبد اللَّه بن سلام:

(حدثني محمد بن سعد، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي عن سالم المرادي، حدثنا بعض أصحابنا قال:

جاء عبد اللَّه بن سلام وقد صُلّي على عمر فقال: واللَّه لئن سبقتموني بالصلاة عليه لا تسبقوني بالثناء. فقام عند سريره، فقال:

نعم أخو الإسلام كنت يا عمر جوادًا بالحق، بخيلًا بالباطل، ترضى حين الرضا، وتغضب حين الغضب، عفيف الطَّرْف، طيب الظُّرف، لم تكن مداحًا ولا مغتابًا، ثم جلس) (٣).

ز - سعيد بن زيد:

(حدثني محمد بن سعد عن محمد بن عمر الواقدي عن عبد الملك بن زيد من ولد سعيد بن زيد عن أبيه قال:

بكى سعيد بن زيد، فقال له قائل: يا أبا الأعور ما يبكيك، فقال:

أبكي على الإسلام إن موت عمر ثَلَمَ الإسلام ثُلمةً لا تسد إلى يوم القيامة) (٤).

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٤٣٥).

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري، ورجاله ثقات رجال الصحيح (١٠/٤٤٣).

(٣) المصدر نفسه (١٠/٤٤٣).

(٤) المصدر نفسه (١٠/٤٤٥).

ح - حذيفة بن اليمان:

(حدثني عمرو الناقد، حدثنا الفضل بن دكين، حدثنا سفيان بن منصور عن ربعي ابن حراشي عن حذيفة قال: كان الإسلام في زمن عمر كالرجل المقبل لا يزداد إلا قربًا. فلما قُتل عمر كان كالرجل المدبر لا يزداد إلا بعدًا) [١].

ط - أبو طلحة:

(حدثني محمد بن سعد، حدثنا عبد اللَّه بن بكر السهمي عن حميد الطويل قال: قال أنس: لما أصيب عمر قال أبو طلحة: ما من أهل بيت من العرب حاضر ولا بادٍ إلا وقد دخل عليهم بمقتل عمر نقص) [٢].

ى - الشاب الظريف:

كما في رواية البخاري ﷺ (وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى اللَّه لك من صحبة رسول اللَّه ﷺ وقِدَمٍ في الإسلام، ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة...) [٣].

ك - حفصة بنت عمر:

(وذكر ابن سعد بإسناد صحيح عن المقدام بن معديكرب أنها - أي حفصة - قالت: يا صاحب رسول اللَّه ﷺ، يا صهر رسول اللَّه، يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: لا صبر لي على ما أسمع، أحرِّج عليك بما لي عليك من الحق أن لا تندبيني بعد مجلسِكِ هذا، فأما عيناك فلن أملكهما) [٤].

ل - أهل الأمصار:

وعند ابن سعد من طريق جويرية بن قدامة: (فدخل عليه الصحابة ثم أهل المدينة،

(١ ، ٢) أنساب الأشراف للبلاذري (١٠/٤٤٥).

(٣) البخاري، ح (٣٧٠٠) وتتمة الحديث نصيحة عمر ﷺ للشاب.. فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض. فقال ردوا عليَّ الغلام. قال: يا ابن أخي، ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك.) يقول ابن مسعود ﷺ: يرحم اللَّه عمر لم يمنعه ما كان فيه من قول الحق)، فتح الباري (٧/٤٢٦).

(٤) فتح الباري (٧/٤٢٨).

ثم أهل الشام ثم أهل العراق. فكلما دخل عليه قوم بكوا وأثنوا عليه) [١].

م - عبد الرحمن بن غنم:

حدثني محمد بن حاتم، حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي عن خلف بن خليفة سمعه يحدث عن أبيه عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال يوم مات عمر ﷺ: اليوم أصبح الإسلام مولِّيًا. ما رجل بأرض فلاة يطلبه العدو فيحذره بأشد فرارًا من الإسلام اليوم) [٢].

ن - أبو عبيدة بن الجراح:

وقال الواقدي: قال أبو عبيدة بن الجراح يومًا وهو يذكر عمر: ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس، وأني أبقى بعد عمر. فقال له قائل: ولِمَ، قال: لأنه إن وَلِيَ والٍ بعد عمر فأخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يطعه الناس بذلك ولم يحتملوه، وإن ضَعُفَ عنهم قتلوه) [٣].

س - العباس بن عبد المطلب:

(حدثنا عفان حدثنا حماد بن زيد، أخبرني أبو جهضم، حدثني عبيد اللَّه ابن عباس أن العباس قال: كان عمر لي خليلًا، فلما تُوفي لبثْتُ حولًا أدعو اللَّه أن يُرِيَنِيهِ في المنام، فرأيته على رأس الحول، يمسح العرق عن جبهته.

فقلت: يا أمير المؤمنين: ما فعل بك ربك؟

قال: هذا أوان فرغت، وإن كان عرشي ليهد لولا أن لقيتُ ربًّا رؤوفًا رحيمًا) [٤].

* * *

ما رثي به من الشعر، وصِفَتُه، وسِنُّه:

٢٠ - قالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيل في زوجها عمر:

فجمَّعني فيروز لا دَرَّ دَرُّه ... بأبيض تالٍ للكِتَاب مُنيب

رؤوفٌ على الأدنى غَلِيظٌ على العدى ... أخِي ثقةٍ في النائبات نجيب

---

(١) فتح الباري (٤٢٦/٧).

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (٤٤٣/١٠).

(٣) المصدر نفسه (٤٤٥/١٠).

(٤) المصدر نفسه (٤٤٦/١٠).

متى ما يُقل لا يُكذِّبُ القولَ فعلُه   سريعٌ إلى الخيرات غَيْر قَطُوب

وقالت أيضًا:

عَينيّ جودي بعبرة ونحيب   لا تَمَلِّي على الإمَام النجيب

فجعتْنا المنون بالفارِس المعـ   ـلَّمِ يومَ الهياجِ والتلبيب

عصمَةُ الناس والمعينُ على الدهـ   ـر وغيثُ المنتاب والمحروب

قل لأهل السَّراء والبؤس موتوا   قد سقته المنون كأس سَغُوب

وقالت امرأة من المسلمين تبكيه:

سيبكيك نساء الحي يبكين شجيات

ويخمشن وجوهًا كالدنانير نقيات

ويلبس ثياب الحزن من بعد القصبيَّات)[١]

(محمد بن سعد عن الواقدي عن أبي الزناد عن موسى بن عقبة قال:

قالت عائشة: من صاحب هذه الأبيات:

جزى اللّه خيرًا مِنْ إمام وباركت   يد اللّه في ذاك الأديم الممزق

فمن يسْعَ أو يركبْ جناحَيْ نعامةٍ   لِيدرِكَ ما قدمْتَ بالأمسِ يُسبَقِ

قضيت أمورًا ثم غادرت بعدها   بوائق في أكمامها لم تَفَتَّق

وما كنت أخشى أن تكون وفاته   بكفّ سَبَنْتَى[٢] أحمر العين مُطرق

فقالوا: لمزرد من ضرار أخي الشماخ.

قالت: فلقيت مزردًا، فحلف باللّه ما شهد هذا الموسم الذي سمعت فيه هذه الأبيات)[٣].

(وقال أبو عمر الحلجي:

ثلاثة لا ترى عَيْنٌ لهم شبهًا   تضم أعظُمهم في المسجد الحُجَرُ)[٤]

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (م ٤، ج ٧، ص ١٤٥).

(٢) السبنتى: النمر الجريء وقيل: الأسد.

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري (٤١١/١٠).

(٤) المصدر نفسه (٤٣٠/١٠).

(وعن معروف بن أبي معروف قال: لما توفي عمر سمعت صوتًا:

لِيَبْكِ على الإسلام من كان باكيًا فقد أوشكوا هلكًا وما قدم العهد

وأدبرت الدنيا وأدبر خيرها وقد ملَّها مَن كان يوقن بالوعد) (١)

٢١ - صفته:

(عن عبد اللَّه بن مسعود قال: ركب عمر بن الخطاب فرسًا، فركضه، فانكشف فخذه فرأى أهل نجران على فخذه شامة سوداء قالوا:

هذا الذي نجد في كتبنا أنه يخرجنا من أرضنا) (٢).

وعن زِرٍّ قال: كنت بالمدينة فإذا رجل آدم أعسر أيسر ضخم إذا أشرف على الناس كأنه على دابة فإذا هو عمر) (٣).

وعن عبد اللَّه بن هلال قال: رأيت عمر رجلًا ضخمًا كأنه من رجال سدوس) (٤).

وعن سعيد بن المسَيِّب قال: كان عمر أصلع شديد الصلع) (٥).

٢٢ - سنه:

(وعن يحيى بن بكير:

استُخلِف عمر في رجب سنة ثلاث عشرة، وقتل في عقب ذي الحجة سنة ثلاثٍ وعشرين. فأقام ثلاثة أيام بعد الطعنة، ومات في آخر ذي الحجة، وصلى عليه صهيب، وَوَلِيَ غسلَه ابنُه عبدُ اللَّه - وكفَّنه في خمسة أثواب ودفن مع رسول اللَّه ﷺ.. وكانت سِنُّه يوم تُوُفِي فيما سمِعتُ مالكَ بن أنس يذكر أنه بلغ سِنَّ رسول اللَّه ﷺ وهو ابن ثلاثٍ وستين.. وكانت خلافته عشرَ سنين، وأربعة أشهر وأيامًا) (٦).

* * *

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٩/ ٧٩).

(٢) المصدر نفسه (٦١/٩) وقال فيه: رواه الطبراني وإسناده حسن.

(٣) المصدر نفسه (٦١/٩) وقال فيه: رواه الطبراني وإسناده حسن.

(٤) المصدر نفسه (٦١/٩) وقال فيه: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٥) المصدر نفسه (٦١/٩) وقال فيه: رواه الطبراني، ورجاله الصحيح.

(٦) المصدر نفسه (٧٩/٩) وقال فيه: رواه الطبراني.



الفصل العاشر

في المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة

وحيث إن المنهج ماضٍ في عرض الأمة ومسيرتها، وليس في عرض القائد أو الخليفة وقد سار على هذا المنهج المؤرخون الإسلاميون الكبار. وقد أخذت صفحات هذه المسيرة من صفحاتها. لا نكتفي أن نعرض الفاروق العظيم وحده، بل لا بد من عرض رجال عظام شاركوا في هذه المسيرة.

ونحن نقدم الفصل كاملًا من تاريخ الذهبي.

١ - قتادة بن النعمان:

(قتادة بن النعمان... بن مالك بن الأوس، أبو عمر الأنصاري الظفري، أخو أبي سعيد الخدري لأمه، وقتادة الأكبر.

شهد بدرًا وأُصِيبت عينه، ووقعت على خده يوم أحد، فأتى النبي ﷺ فغمز حدقته، وردها إلى موضعها، فكانت أصح عينيه.

وكان على مقدمة عمر في مقدمه إلى الشام، وكان من الرماة المذكورين، وله أحاديث، روى عنه أخوه أبو سعيد، وابنه عمر بن قتادة، ومحمود بن لبيد وغيرهم، وعاش خمسًا وستين سنة، توفي فيها على الصحيح.. وقيل: توفي في التي قبلها)[١].

٢ - الأقرع بن حابس التميمي المجاشعي:

(أحد المؤلفة قلوبهم، وأحد الأشراف. أقطعه أبو بكر له ولعيينة بن بدر، فعطل عليهما عمر، ومحا الكتاب الذي كتب لهما أبو بكر، وكانا من كبار قومهما، وشهد الأقرع مع خالد حرب أهل العراق، وكان على المقدمة.

وقيل: إن عبد اللّه بن عامر استعمله على جيش سيره إلى خراسان، فأصيب هو والجيش بالجو زجان وذلك في خلافة عثمان.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي - عهد الخلفاء الراشدين (٢٥٢/٣، ٢٥٣).

وقال ابن دريد: اسمه فراس بن حابس بن عقال: ولقب بالأقرع لقرعٍ برأسه).

٣ - الحباب بن المنذر بن الجموح أبو عمر الأنصاري:

أحد بني سلمة بن سعد، وقيل: كنيته أبو عمر، وكان يقال له: ذو الرأي.

أشار يوم بدر على النبي ﷺ أن ينزل على آخر ماء ببدر ليبقى المشركون على غير ماء. وهو الذي قال يوم سقيفة بني ساعدة: (أنا جُذيلها المحكك، وعُذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير.) والجذل: هو عود ينصب للإبل الجَرْبَى لتحتك به. والعذق: النخلة والمرجب: أن تدعَّمَ النخلة الكريمة ببناء من حجارة أو خشب إذا خيف عليها لكثرة حِملها أن تقع، يُقال: رجبتُها فهي مُرَجَّبة. روى عنه ابن الطفيل. توفي في المدينة في خلافة عمر.

٤ - ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي:

أبو أروى، وأمه غُزَيَّةُ بنت قيس الفهرية. له صحبة وهو من مُسْلِمة الفتح، روى عنه ابنه عبد المطلب، وله أيضًا صحبة.

٥ - سودة بنت زمعة بن قيس:

أم المؤمنين القرشية العامرية، أول من تزوج بها النبي ﷺ بعد موت خديجة، وكانت قبله عند السكران بن عمرو أخي سهيل. ولما تكهلت وهبت يومها لعائشة لتكون من زوجات النبي ﷺ في الجنة.

روى عنها ابن عباس، ويحيى بن عبد اللّٰه الأنصاري. وتوفيت في آخر خلافة عمر. وقد انفردت بصحبة النبي ﷺ أربع سنين لا تشاركها فيه امرأة ولا سرية. ثم بنى بعائشة بعد ولها تسع سنين، وكانت سودة من سادات النساء.

قال هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت:

ما رأيت امرأة أحب إليّ أن أكون في مسلافها من سودة من امرأة فيها حدة. فلما كبرت جعلت يومها من رسول اللّٰه ﷺ لعائشة....

(وروى عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال قال: توفيت سودة زمن عمر) [1].

---

(١) البخاري في التاريخ (١/٤٩٠٠٥).

٦ - عتبة بن مسعود الهذلي:

أخو عبد اللَّه لأبويه، وهو جد الفقيه: عبيد اللَّه بن عبد اللَّه شيخ الزهري أسلم بمكة، وهاجر إلى الحبشة مع أخيه، وشهد أحدًا، وكان فقيهًا فاضلًا، توفي في إمرة عمر على الصحيح، ويقال: زمن معاوية.

٧ - علقمة بن علاثة بن عوف العامري الكلابي:

من المؤلفة قلوبهم أسلم على يد النبي ﷺ، وكان من أشراف قومه، وكان يكون بتهامة. وقد قدم دمشق قبل فتحها في طلب ميراث له. ووفد على عمر في خلافته. روى عنه أنس.

٨ - علقمة بن مجزز بن الأعور المدلجي:

استعمله النبي على بعضِ جيوشه، وولاه الصديق في حرب فلسطين، وحضر الجابية مع عمر، ثم سيَّره عمر في جيش إلى الحبشة في ثلاثمائة، فغرقوا كلهم. وقيل: كان ذلك أيام عثمان وأبوه مجزز هو المعروف بالقيافة.

٩ - عمرو بن عوف:

حليف بني عامر بن لؤي من مولدي مكة. سماه ابن إسحاق عمرًا، وسماه ابن إسحاق عميرًا.

شهد بدرًا وأحدًا، وروى عنه المِسور بن مخرمة حديث قدوم أبي عبيدة بمالٍ من البحرين، وصلى عليه عمر.

١٠ - عويم بن ساعدة بن عائش أبو عبد الرحمن الأنصاري:

أحد بني عمرو بن عوف بدري مشهور. وقيل: هو من بلى. له حلف في بني أمية ابن زيد، وقد شهد العقبة وله حديث في مسند أحمد من رواية شرحبيل بن سعد عنه، ولم يدركه.

وقال ابن عبد البر: توفي في حياة النبي ﷺ، وقيل: مات في خلافة عمر.

فقال وهو واقف على قبره: لا يستطيع أحد أن يقول: أنا خير من صاحب هذا القبر. ما نصبت راية لرسول اللَّه ﷺ إلا وعويم تحتها.

١١ - غيلان بن سلمة الثقفي [١]:

له صحبة ورواية. وهو الذي أسلم، وتحته عشر نسوة، وكان شاعرًا محسنًا. وفَد قبل الإسلام على كسرى، فسأله أن يبني له حصنًا في الطائف، ففعل. أسلم زمن الفتح، وروى عنه ابنه عروة، وبشر بن عاصم.

١٢ - معمر بن الحارث:

ابن معمر بن حبيب بن وهب الجمحي أخو حاطب وخطاب، وأمهم قتيلة أخت عثمان بن مظعون. أسلم معمر قبل دخول دار الأرقم، وهاجر، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين معاذ بن عفراء، وشهد بدرًا.

١٣ - ميسرة بن مسروق العبسي:

شيخ صالح، يقال له صحبة، شهد اليرموك، وروى عن أبي عبيدة وعنه (أسلم) مولى عمر. ودخل الروم أميرًا على ستة آلاف، فوغل فيها، وقتل وسبي وغنم، فجمعت له الروم، وذلك في سنة عشرين، فواقعهم، ونصره الله عليهم، وكانت وقعة عظيمة.

١٤ - الهرمزان صاحب تستر:

قد مر من شأنه في سنة عشرين. وهو من جملة الملوك الذين تحت يد يزدجرد...

١٥ - هند بنت عتبة:

ابن ربيعة بن عبد شمس العبشمية أم معاوية بن أبي سفيان. أسلمت يوم الفتح، وشهدت اليرموك. وهي القائلة للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني وولدي، فقال: « **خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف** » [٢].

وكان زوجها قبل أبي سفيان حفص بن المغيرة عم خالد بن الوليد. وكان من الجاهلية وكانت هند من أحسن نساء قريش وأعقلهن، ثم إن أبا سفيان، طلقها في

---

(١) لا ندري إن كان هو نفسه الذي يعنيه أبو تمام في قصيدته في عمورية:

ما ربع مَيَّة معمورًا يطيف بها ... غيلان أبهى ربًى من ربعها الخرِب

ولا الخدود وقد أدمين من خجل ... أشهى إلى ناظري من خدها الترب

(٢) أخرجه البخاري، ح (٥٠٤٩).

آخر الأمر فاستقرضت من عمر من بيت المال أربعة آلاف درهم، فخرجت إلى بلاد كلب، فاشترت وباعت.

وأتت ابنها معاوية وهو أمير على الشام لعمر. فقالت: أي بني، إنه عمر، وإنما يعمل لله. ولها شعر جيد.

١٦ - واقد بن عبد اللَّه:

ابن عبد مناف بن عز الحنظلي اليربوعي، حليف بني عدي من السابقين الأولين. شهد بدرًا والمشاهد كلها، وآخى رسول اللَّه ﷺ بينه وبين بشر بن البراء. وكان واقد في سَرية عبد اللَّه بن جحش إلى نخلة، فقتل واقد عمرو بن الحضرمي. فكانا أول قاتل ومقتول في الإسلام، وتُوُفي واقد في خلافة عمر.

١٧ - أبو خراش الهُذَلي الشاعر:

اسمه خويلد بن مرة من بني قرد بن عمرٍو الهذلي. وكان أبو خراش ممن يَعْدُو على قدميه فيسبق الخيل، وكان في الجاهلية من فتاك العرب.

قال ابن عبد البر: لم يبق عربي بعد حنين والطائف إلا أسلم، فمنهم من قدم ومنهم من لم يقدم، وأسلم أبو خراش وحسن إسلامه، وتوفي في زمن عمر. أتاه حُجّاج فمشى إلى الماء ليملأ لهم، فنهشته حية، فأقبل مسرعًا فأعطاهم الماء وشاةً وقِدرًا ولم يُعْلِمهم بما تم له. ثم أصبح وهو في الموت، فلم يبرحوا حتى دفنوه.

١٨ - أبو ليلى المازني:

واسمه عبد الرحمن بن كعب بن عمرو. شهد أحدًا وما بعدها وكان أحد البكائين الذين نزل فيهم: ﴿ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢].

١٩ - أبو محجن الثقفي:

في اسمه أقوال. قدم مع وفد ثقيف فأسلم ولا رواية له، وكان فارس ثقيف في زمانه إلا أنه كان يحد مِن الخمر زمانًا، حتى إن عمر نفاه إلى جزيرة، فهرب ولحق بسعد ابن أبي وقاص بالقادسية، فكتب عمر إلى سعد فحبسه. فلما كان يوم قس الناطف، والتحم القتال سأل أبو محجن من امرأة سعد أن تخلي سبيله، وعاهدها إن سلم أن

يعود إلى القيد، فحلَّته، وأعطته فرسًا، فقاتل وأبلى بلاء جميلًا، ثم عاد إلى قيده.

قال ابن جريج: بلغني أنه حُدَّ بالخمر سبعَ مرات.

وقال أيوب عن ابن سيرين قال:

كان أبو محجن لا يزال يجلد في الخمر، فلما أكثر سجنوه، فلما كان يوم القادسية رآهم فكلم أم ولد سعد، فأطلقته، وأعطته فرسًا وسلاحًا. فلا يزال يحمل على رجل فيقتله ويدق صلبه، فنظر إليه سعد، فبقي يتعجب ويقول: من الفارس؟!!

فلم يلبثوا أن هزمهم، ورجع أبو محجن، وتقيد. فجاء سعد وجعل يخبر المرأة ويقول: لقينا ولقينا، حتى بعث اللَّه رجلًا على فرس أبلق، لولا أني تركتُ أبا محجن في القيود، لظننت أنها بعض شمائله. قالت: واللَّه إنه لأبو محجن. وحكت له. فدعا به وحلَّ قيوده وقال:

لا نجلدك على خمر أبدًا. فقال: وأنا واللَّه لا أشربها أبدًا. كنت آنف أن أدعها لجلدكم، فلم يشربْها بعد...) [(١)].

٢٠ - كليب بن بكير الليثي:

(مات منهم سبعة (أي من طعنوا مع عمر) ووقفت من أسمائهم على كليب ابن بكير الليثي.. فرُوِّينا في جزء أبي الجهم بالإسناد الصحيح إلى ابن عمر أنه كان مع عمر صادرًا إلى الحج، فمر بامرأة، فدفنها كليب الليثي فشكر له ذلك عمر، وقال: أرجو أن يدخله اللَّه الجنة. قال: فطعنه أبو لؤلؤة لمَّا طُعِن عمر فمات) [(٢)].

* * *

لقد كان هؤلاء العظام شريحة من الذين توفوا في عهد عمر ﷺ دون تحديد سنة وفاتهم إلا قتادة الذي ذكر أنه توفي عام اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين. لكن هذا النسيج، يضم كل شرائح المجتمع الإسلامي وقادته.

١ - فمنهم البدريون (قتادة، ومعمر بن الحارث، والحباب بن المنذر، وعمرو ابن عوف) وهم خيرة أهل الأرض.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، عن الخلفاء الراشدين (٢٥٨/٣ - ٣٠٢).

(٢) فتح الباري (٧٨/٧).

٢ - ومنهم الرعيل الأول من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار (واقد ابن عبد اللّٰه، عويم بن ساعدة، والوليلي الماز، وعتبة بن مسعود الهذلي).

٣ - والعظيمات من النساء (سودة بنت زمعة، وهند بنت عتبة).

٤ - والأبطال العظام الذين قادوا الجيوش وغيروا وجه التاريخ (أبو محجن الثقفي، وميسرة العبسي والهرمزان).

٥ - ومنهم الشعراء الكبار (غيلان بن سلمة الثقفي، وأبو خراش الهذلي الشاعر).

٦ - ومنهم أشراف العرب وساداتهم (الأقرع بن حابس سيد بني تميم، وعلقمة ابن علاثة سيد بني عامر والذي كان يتنازع السيادة مع عامر بن الطفيل).

* * *
* *
*

خَاتِمَـة

ها نحن في نهاية مرحلة راشدة من مراحل المسيرة الإسلامية لهذا الجيل، فقد طويت صفحة ما أجملها وأنقاها وأكرمها على الله ﷻ، كانت قد أسست للدولة الإسلامية العالمية، فوضعت دعائمها، وحددت معالمها، وأرست مبادئها التي جعلتها تعلو ولا يعلى عليها.

فها نحن نرى وعد الله وقد تحقق، فملك المسلمون موضع أقدام الدولتين العظميين اللتين قهرتا كثيرًا من الأمم، واقتسمتا خيرات العالم عقودًا طويلة من الزمن، وتغلبتا كثيرًا بالظلم والطغيان والغدر وخلف الوعد وإيثارهما الدنيا على الآخرة، حتى دالت دولتهم وفُض سامرهم، واستبدل الله بهم دولة الحق والعدل والإيمان والخلق الرفيع، وشهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء، حتى أن هرقل عندما جاء إليه رجل من الروم كان أسيرا في أيدي المسلمين فأفلت فقال له: (أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أحدثك كأنك تنظر إليهم؛ فرسان بالنهار ورهبان بالليل، ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه. فقال: لئن كنت صدقتني ليرثُن ما تحت قدميَّ هاتين)[1].

فضُرب أروع الأمثلة لأفراد هذه الأمة وجماعتها؟ حاكمًا ومحكومًا، كبيرًا وصغيرًا، رجلًا وامرأة، بعد أن قامت الأمة بأسرها على أمر الله في إيصال دعوة الإسلام إلى جميع الخلق في كل الأرض على ضوء ما علموه من نبيهم ﷺ.

وباستشهاد الفاروق ﷺ على يد الملعون أبي لؤلؤة المجوسي يكون قد كسر باب الفتنة.

فعن حذيفة ﷺ قال: كنّا جلوسًا عند عمر فقال: أيّكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة كما قال؟ فقلت: أنا ، قال: فقال: إنّك لجريءٌ ، وكيف؟ قال: قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **فتنة الرّجل في أهله وماله ونفسه وجاره يكفّرها الصّيام والصّدقة والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر** ». فقال عمر: ليس هذا أريد، إنّما أريد التي تموج كموج

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٤٥).

البحر، قال: قلت: مالك ولها يا أمير المؤمنين؟ إنّ بينك وبينها بابًا مغلقًا، قال: فيُكسر الباب، أم يُفتح؟ قال: قلت: لا، بل يُكسر، قال: ذاك أحرى أن لا يغلق أبدًا.

قال: قلنا لحذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم، كما أعلم أنّ غدًا دون اللّيلة، إنّي حدّثته حديثًا ليس بالأغاليط، قال: فهبنا حذيفة أن نسأله مَنْ الباب، فقلنا لمسروقٍ: سله، فسأله، فقال: عمر » [1].

* * *
* *
*

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/٤٤٩).

المَرَاجِع

١ - الأحكام السلطانية، القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء.

٢ - أخبار عمر، علي الطنطاوي.

٣ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي.

٤ - أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد، المعروف بابن الأثير.

٥ - الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.

٦ - أطلس الخليفة عمر بن الخطاب، سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث.

٧ - أطلس الفتوحات الإسلامية، أحمد عادل كمال.

٨ - الأغاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأموي القرشي الأصفهاني.

٩ - الأموال، أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخراساني المعروف بابن زنجويه.

١٠ - الأموال، أبو عُبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي.

١١ - أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، دكتور علي محمد الصلابي.

١٢ - أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري.

١٣ - أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى وإخوانه.

١٤ - البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي.

١٥ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز الذهبي.

١٦ - تاريخ الأمم والملوك المعروف بـ « تاريخ الطبري »، محمد بن جرير الطبري.

١٧ - التاريخ الصغير، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.

١٨ - تاريخ العرب، فيليب حتي.

١٩ - تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر.

٢٠ - تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي.

٢١ - الجرح والتعديل، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي.

٢٢ - حروب الإسلام في الشام، محمد أحمد باشميل.

٢٣ - حضارة العرب، غوستاف لوبون.

٢٤ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد اللّٰه بن أحمد بن إسحاق بن موسى ابن مهران الأصبهاني.

٢٥ - الخراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري.

٢٦ - دلائل النبوة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي.

٢٧ - الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، عبد الرحمن السهيلي.

٢٨ - سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، أبو الفوز محمد أمين البغدادي الشهير بالسويدي.

٢٩ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ﷺ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي.

٣٠ - سفراء النبي ﷺ، محمود شيت خطاب.

٣١ - سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، ابن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني.

٣٢ - سنن ابن ماجه، أبو عبد اللّٰه محمد بن يزيد (ابن ماجه) القزويني.

٣٣ - سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجِسْتاني.

٣٤ - سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي.

٣٥ - سنن الدارمي، أبو محمد عبد اللّٰه بن عبد الرحمن التميمي الدارمي السمرقندي.

٣٦ - سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان بن دينار النسائي.

٣٧ - سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد اللّٰه محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي.

٣٨ - السيرة النبوية الصحيحة، الدكتور أكرم ضياء العمرى.

٣٩ - السيرة النبوية لابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري.

٤٠ - صحيح البخارى، أبو عبد اللّٰه محمد بن إسماعيل البخاري وأسماه « الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول اللّٰه وسننه وأيامه.

٤١ - صحيح الجامع الصغير وزياداته، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني.

٤٢ - صحيح السيرة النبوية، إبراهيم محمد العلي.

٤٣ - صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري.

٤٤ - صحيح وضعيف تاريخ الطبري، محمد بن طاهر البرزنجي - محمد صبحي حسن حلاق.

٤٥ - طبقات ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري.

٤٦ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العيني.

٤٧ - عمرو بن العاص بين يدي التاريخ، عبد الخالق سيد أبو رابية.

٤٨ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي.

٤٩ - الفتوح، ابن أعثم الكوفي.

٥٠ - فتوح البلدان، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري.

٥١ - فتوح مصر وأخبارها، ابن عبد الحكم.

٥٢ - الكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير.

٥٣ - بلاد الداغستان، محمد بن ناصر.

٥٤ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي.

٥٥ - مختصر الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني، الخوري يوسف عون. وتصحيح الحواشي لعبد الله العلايلي.

٥٦ - مختصر صحيح مسلم.

٥٧ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني.

٥٨ - المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان ابن خواستي العبسي.

٥٩ - معاوية بن أبي سفيان، دكتور منير الغضبان (المؤلف).

٦٠ - معجم البلدان، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي.

٦١ - المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني.

٦٢ - المغازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني الواقدي.

٦٣ - مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي.

٦٤ - الموسوعة العربية العالمية، مجموعة من العلماء والباحثين.

٦٥ - الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني.

٦٦ - موقع إسلام أون لاين نت.

٦٧ - موقع الجزيرة نت.

٦٨ - موقع الموسوعة الحرة، ويكيبيديا.

٦٩ - ولاة مصر من كتاب الولاة وكتاب القضاة، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي.

* * *
* *
*



فِهرِسُ المُحتَوَيَاتِ

* * *
* *
*

السيرة الذاتية للمؤلف

* د. منير محمد الغضبان.

* الميلاد: ولد سنة (١٩٤٢م) في التل، دمشق، سوريا.

المؤهلات العلمية:

١ - إجازة في الشريعة، جامعة دمشق (١٩٦٧م).

٢ - دبلوم عام في التربية، جامعة دمشق (١٩٦٨م).

٣ - ماجستير في اللغة العربية من معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة (١٩٧٢م).

٤ - دكتوراه في اللغة العربية من جامعة القرآن الكريم بالسودان (١٩٩٧م).

٥ - حائز على جائزة سلطان بروناي للسيرة النبوية عام (٢٠٠٠م).

من المؤهلات الوظيفية:

١ - داعية في الخارج برئاسة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية (خارج المملكة) (١٤٠٠ - ١٤٠٧هـ).

٢ - باحث تربوي بجامعة أم القرى بمركز الدراسات الإسلامية بمكة المكرمة (١٤٠٧ - ١٤٢٠هـ).

٣ - باحث ثقافي في الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١٤١٢هـ).

السجل الفكري والعلمي:

١ - مقالات متعددة في الصحف والمجلات الإسلامية.

٢ - مشاركة في تأليف الكتب المدرسية في رئاسة تعليم البنات في الرياض (أصول التدريس، محو الأمية، كتب الفقه والحديث).

٣ - تأليف الكتب الإسلامية والفكرية في المجالات التالية:

أ - السيرة النبوية.

ب - التاريخ الإسلامي.

جـ - المرأة.

د - الفكر الإسلامي والمُعادِي.

هـ - التربية الإسلامية.

المؤلفات المطبوعة:

(أ) في السيرة النبوية:

١ - المنهج الحركي للسيرة النبوية.

٢ - المنهج التربوي للسيرة النبوية (أحد عشر مجلدًا).

- التربية الجهادية (٣ مجلدات).

- التربية القيادية (٤ مجلدات).

- التربية الجماعية (٢ مجلد).

- التربية السياسية (٢ مجلد).

٣ - المنهج الإعلامي للسيرة النبوية (الشعر في عهد النبوة).

٤ - فقه السيرة النبوية (وهو مقرر مادة السيرة النبوية في جامعة أم القرى والعديد من الجامعات العربية والإسلامية).

٥ - التراتيب الإدارية في نظام الحكومة النبوية، تقريب وتهذيب.

٦ - التربية السياسية للطفل المسلم.

٧ - فقه التمكين في السيرة النبوية.

٨ - أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية.

٩ - الأخوات المؤمنات (وقد قررته الرئاسة العامة لتعليم البنات بالسعودية كتابًا مساعدًا لمدة سبع سنوات لطالبات المرحلة الثانوية).

١٠ - كتاب الأربعين في سيرة سيد المرسلين.

١١ - محمد ﷺ (بالاشتراك مع آخرين).

(ب) في التاريخ الإسلامي:

١٢ - معاوية بن أبي سفيان.

١٣ - أبو ذرٍّ الغفاري.

١٤ - المسيرة الإسلامية للتاريخ.

١٥ - عمرو بن العاص (الأمير المجاهد).

١٦ - هند بنت عتبة.

١٧ - جولات نقدية في كتاب الخلافات السياسية بين الصحابة.

(جـ) الفكر الإسلامي والمُعَادِي:

١٨ - الحركات القومية في ميزان الإسلام.

١٩ - سورية في قرن.

٢٠ - سيد قطب ضد العنف.

٢١ - إليكَ أيها الفتى المسلم.

٢٢ - إليكِ أيتها الفتاة المسلمة.

٢٣ - كشف المستور: أفكاري التي أحيا من أجلها.

٢٤ - التحالف السياسي في الإسلام.

٢٥ - نحن والغرب على ضوء السنن الربانية (العراق وأمريكا نموذجًا).

(د) في التربية الإسلامية:

٢٦ - من معين التربية الإسلامية.

٢٧ - طرق تدريس المواد الدينية (للصف الثاني بدار المعلمات) (بالاشتراك مع آخرين).

٢٨ - طرق تدريس المواد الدينية واللغة العربية (للصف الثالث بدار المعلمات) (بالاشتراك مع آخرين).

٢٩ - الحقوق المائة للمرأة المسلمة.

٣٠ - الحوار: شريعةً وواقعًا وتاريخًا.

٣١ - المغيرة بن شعبة (السياسي المجاهد).

٣٢ - شباب في العهد النبوي.

٣٣ - شباب في العهد الراشدي.

٣٤ - المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة.

وقد توفي رحمه الله في مكة المكرمة يوم الأحد (٣ من شعبان سنة ١٤٣٥هـ الموافق ٢٠١٤/٦/١م).

* * *
* *
*



تابعوا معنا باقي مجلدات:

المَسِيرَةُ الإِسْلَامِيَّةُ

جِيلُ الخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ

رقم الإيداع

١٧٢٣٢/ ٢٠١٤

الترقيم الدولي I.S.B.N

978 - 977 - 717 - 209 - 7